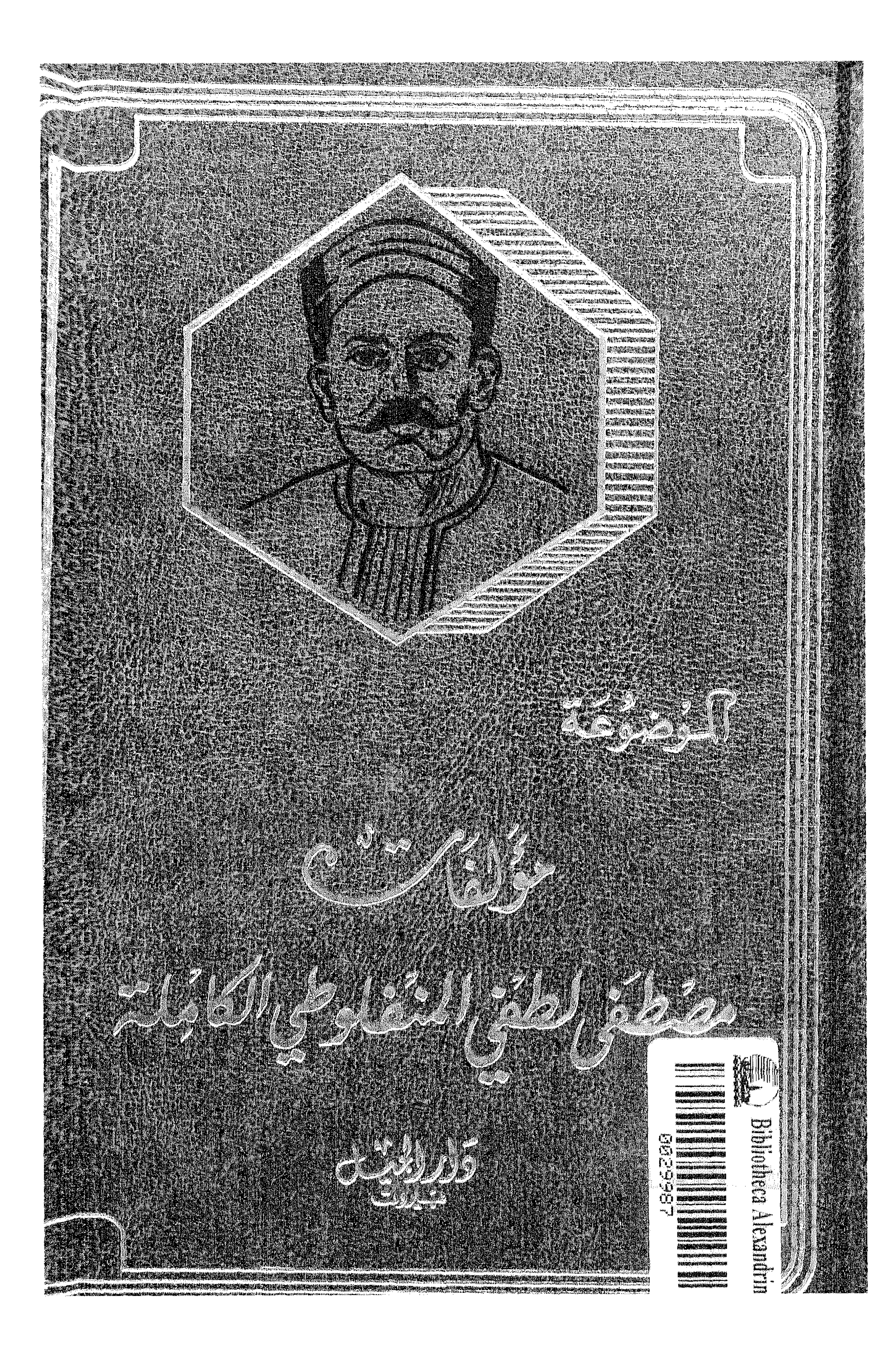

الموضوعة
مؤلفات
مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة
دار الجيل
بيروت

مؤلفات

مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة

الموضوعة

يحتوي هذا المجلد على:

النظرات

العبرات

دار الجيل

بيروت - لبنان

القسم الأول

النظرات

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

نشأته وحياتـــه

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث اهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة . ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب . وتلقى العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغـــير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشىء الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقــة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربـــه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين تتوقـــه لدى صاحب (المؤيد)، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن ، فهب يبتغي في جريـــدة (المؤيد) الوسيلة والنجح . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربيـــاً لها . ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل مـــذا

المنصب . ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ، حتى إذا قـــام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره .

أخلاقــــه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنــــه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزي ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة . كان صحيح الفهم في بطء ، سليم الفكر في جهد ، دقيق الحس في سكون ، هيوب اللسان في تحفظ ؛ وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرتــــه ووطنيته وإنسانيته .

أسلوبه وأدبــــه

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة ، لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون ؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحـــد القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره ، بديعاً انشأه الطبع القوي على غير مثال .

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر من نشأه كنشأته في جيل كجيله . وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب . وفاجأ الناس بهـــذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أمـــا

صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف الأداة وضيق الثقافة .. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها . لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبّد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار ، وبول وفرجيني (الفضيلة) لبرنار دي سان بيير ، وسيرانودبر جراك (الشاعر) لادمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى تراء الأدب العربي ثروة ، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدرة .

عن كتاب تاريخ الأدب العربي
حسن الزيات

مقدمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتّاب : كيف أكتب رسائلي ، كأنما يريدون ان يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ، فإني لا احب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب ان يكونوا مقيّدين في الكتابة بطريقتي او طريقة احد من الكتاب غيري ، وليعلموا — إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر — اني ما استطعت ان أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون انهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأني استطعت ان أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن ان تمسك الا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي ، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله ان أقرأ ، ثم لا ألبث ان أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي الا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي او أستعين

بـه عـلى تهذيب بيـاني ، او تقويم لساني ، او تـكثير مـادة علمي باللغـة والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ احب الجمال وأفتتن به كلما رأيتـه في صورة الإنسان ، او مطلـع البـدر او مغرب الشمس ، او هجعة الليـل ، او يقظة الفجر ، او قمم الجبال ، او سفوح التـلال ، او شواطىء الانهار ، او أمواج البحار ، او نغمة الغناء ، او رنة الحداء ، او مجتمع الاطيار ، او منتثر الازهار ، او رقة الحس ، او عذوبة النفس ، او بيت الشعر ، او قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مرآ ، فـإذا لاحت لي زهرة جميلة بـين أزهاره ، تتالق في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجب بهـا ، الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها او إزعاجها من مكانها ، ثم اتركها حيث هي ، وقد علقت بنفسي صورتها الى أخرى غيرها ، وهكذا حتى اخرج من ذلك الروض بنفس تطـير سروراً به ، وتسيل وجـداً عليه ، وما هو الا ان درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت ببعض ازهارها بضع وقفات ، حتى شعرت اني قد بدلت من نفسي نفساً غيرها ، وان بين جنبي حالا غريبة لا عهـد لي بمثلها من قبل ، فاصبحت أرى الاشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمـال فرأيت لبـه وجوهره ، وأرى الخـير فرأيت حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيت مدامعها ، وارى العين فرأيت السحر الكامن في

محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم ان يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد[1] الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء الى الارض هوى الكرى الى الأجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف الأوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ؛ فاحببت الأدب حباً جماً ملأ ما بين جانحتي ؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب إليّ ولا آثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وامسك على بابي ثم أسلم نفسي الى كتابي فيخيل إليّ اني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه الى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فاشهد بعيني تلك العصور الجميلة ، عصور العربية الأولى ، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها ، واعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشحوب وجوهها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ[2] وصبارة البرد[3] ، وتنقلها من صحراء الى ريف ، ومن مشتى الى مصيف ، ومن نجد الى وهد ، ومن

---

(١) التجاليد : الجسم . (٢) شدة الحر . (٣) شدة البرد .

شرف الى غور ، وانتجاعها مواقـع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام باحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير ، فاذا جـد الجـد أكلت القد [1] واشتوت الجـلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الابقـار ، واكتفت من اللبـاس بأكسية الكرابيس وأرديـة الاشعار ، وقمص الاوبار ، فـاذا أعوزها ذلك لبست الظـل ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطة ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقـد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغـد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها ، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس واعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيـادها ، ومـذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وازدحام شعرائها عـلى ابواب أمرائهـا ، وجوائز أمرائهـا في ايـدي شعرائها ، وانطـلاق ألسنتها بوصف مـا تشاء من الاعواد والـبرابط والمعـازف والمزاهر والاقداح والدنان والموائـد والصحف ، وألوان الطعام حـلوه وحامضـه ، وأصنـاف الشراب حـلاله وحرامـه ، والطيور المحلقة في الأجواء ، والسفن الذاهبة في الدأمـاء [2] ، والرياض الخضراء والغابات الشجراء ، والقصور وتماثيلهـا ، والبحـيرات واسماكهـا ، والانهـار

(١) السير يقد من جلد . (٢) الدأماء : البحر .

وشواطئها ، والازهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب في القلب ، والغناء في السمع ، والصهباء في الاعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى .

ثم لا أشاء ان أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، او أدباً غضاً ، او حباً وفياً ، او مجوناً مستظرفاً ، او حوراً مستملحاً ، الا وجدته ؛ ولا ان اسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما يحدو به الحادي في اعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذي به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به الماتح[1] الا سمعته . ولا ان اعلم ما يهجس في نفس المحب اذا اشتمل عليه ليله ، والحائر اذا ضل به سبيله ، والثاكل اذا فجعت بواحدها ، والموتور اذا حيل بينه وبين واتره ، والكريم اذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل اذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس اذا أعوزه القوت ، واليائس اذا أعوزه الموت ، والعزيز اذا ذل ، والمشرف اذا هوى ، والشريف اذا عبث بشرفه عابث ؛ والغيور اذا لمس عرضه لامس ، الا علمته ، ولا ان اعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا اثر يده السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغاني ، وتصويح الرياض ، الا عرفته ؛ فكنت اجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به

(١) الماتح : المستقي على البئر .

الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت ان الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر ، وانه لما علم انه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال او جاه اعيش في ظله ، وانعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم ، وزوّره [1] لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري . رحمة بي وإرعاء على ان اهلك ، او يهلك لي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا ازال محلقاً في هذا الجو البديع من الخيال اضحك مرة واكتئب أخرى ، وأتغنى حيناً وابكي احياناً حتى يرميني الباب ببعض الطارقين او يستعيد إليّ نفسي مستعيد .

ولم يكن حولي لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب احد ؛ لأنني كنت اعيش في مفتتح عهدي به — ولم اكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة — بين اشياخ ازهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ، ولا يتعلقون منه بما اتعلق فكانوا يرون ان التوفر عليه او الإلمام به عمل من اعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضناً بي — يزعمون — ان انفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها ! فكنت لا استطيع ان ألم بكتابي الا في الساعة التي آمن فيها على نفسي ان يلموا بامري — وقليلا ما كنت اجدها — وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون

---

(١) زوره : حسنه وقومه .

فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان شعر او كتاب أدب خيل إليهم انهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، او الزجاجة في جيب الغلام ، او العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي ؛ وهم لا يعلمون — احسن الله إليهم — انهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويد من اياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهْم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دوّنوها لهم وتركوها بين ايديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون ان يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً ، كما يعلمون ان الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم ، وان الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسةالأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به مايحاول فهمه من عبارات العلوم واساليبها ، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع اقدامه في فهم اصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع او واقفاً على منازع المجتهدين ، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بادق اغراضه واعمقها واقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلماً نافعاً ، ولو ان هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه — وهم اليوم والحمد لله قليل ، بل هم في طريق الفناء والانقراض — قد تعلقوا منه بما كان يتعلق

فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى ، فيطير بالاولى فرحاً وبالثانية جزعاً ، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ الا ما أفهم ، ولا أفهم الا ما أشعر انه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس ، فاذا هو في كبد الرمية ولبها ، فان رأيت ان المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة ، والاساليب الملتوية ، علمت ان القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به ، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها ، فهو يتوهمه توهماً ويجمجمه جمجمة ويهذي به هذياناً فلا سبيل له الى الإفصاح عنه ، وإما داهية محتال قد علم ان المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لا بد له ان ينفقه [1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوره [2] في اعينهم ، فهو يكسوه اسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى اذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم انهم قد ظفروا بمعنى غريب ، او خاطر بديع ، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء في ضحضاح [3] الماء الكدر اذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء ، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم ان ضعفاء الافهام من الناس ، وهم سواد الامة ودهماؤها ، لا يرضون عن معنى من

---

(١) ينفقه - بالتشديد - يجعله نافقاً : أي رائجاً .

(٢) زور الشيء : حسنه وزخرفه . (٣) الضحضاح : الماء القليل في قعر البئر .

المعاني ولا يستسنون [1] قيمته ولا يقيمون له وزناً الا اذا جاءهم في جلدة من الالفاظ المتكرسة المتقبضة ، وانهم اذا ورد عليهم أثمن المعاني واغلاها، واكرمها جواهراً واطيبها عناصراً في ثوب من الاساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم الى انه ما جاءهم على هذه الصورة الا لأنه ساقط مبتذل ، او سوقي مطروق فـاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلتـه وسقوط همته . ان لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة والعي ! وتملقهم بالغموض والإبهام . وإما أعجمي يظن ان اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشيء هو اشبه الاشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الاعجمية ترجمـة حرفية ، فـان نعيت عليـه غرابة اسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلـغ مـا ينضح بـه عن نفسه ان المعاني العصرية والخيالات الحديثـة لا يستطاع إلباسهـا الاكسية البدويـة ، والاردية العربية ، كأنما هو يظن ان المعـاني والخواطر خطط وأقسام ، وأنصبة وسهام ، هـذا للشرق وهـذا للغرب ، وهذا للعرب وهـذا للعجم ! أمـا الحقيقة التي لا ريب فيها فهي ان الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغـة الاعجمية الـتي يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية ، فلمـا أراد ان يفضي بها الى العرب ، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من اساليبهم عجز عن ان ينزع عنها اثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي الا ما كان

---

(١) استسنى قيمته : رآها سنية رفيعة .

من تبديل حرف بحرف او لفظ بآخر من حيث يظن انـه يهتف بشيء قام في نفسه او يفضي بخاطر من خواطر قلبه ، وإمـا شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته ان يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون ان يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة . والشح خلق اذا نزل منزله من نفس صاحبه اقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه متعصر ببلة . فيضن بعلمه كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرد [1] عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس اليه كما يجيـع كلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على العجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والاشحاء والباخلين .

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ـ سواء في ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل ـ اوصفهم لحالات نفسه او أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كانما هو يعرضه على انظارهم عرضاً ، او يضعه في أيديهم وضعاً ، فان ظننت ان القائل كاذب فيما يقول او انه يرسم صورة غـير الصورة الـتي تتلجلج في نفسه ، او انـه لغوي يفر من ضعف اسلوبـه وفساد نظمه الى أكمـة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، او ناقـل يتخـذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، او مترجم ينقل عن اللغـة الاعجمية الـتي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو

---

(١) صرد العطاء : أعطاه قليلاً قليلاً .

صاحبها ، او شعرت انه قد قدر في نفسه ، وهو يكتب كلمته ان يكون بليغاً فيها او مبدعاً ليعجب الناس منها ، وكان كل حظه عندي ان أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم ان احسن فيا يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندى غزل العاشقين ، وفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، واحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثار أخيه ، وشقاء أمرىء القيس في الطلب بثار أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على اخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة . وبكاء أبي عبادة على الاكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على بني هاشم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحتري

على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتيمي على يزيد بن مزيـد ، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاه ، وجلوسه في جنبات الحي منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا ياكل الا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب الا مع الظبـاء اذا وردت مناهلها، وراحته الى الطريق يصعد مع مصعديه، وينحدر مع منحدريه، حتى هلـك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والاحجار ، وشقاء قيس بلبناه بعد ان طلقها براً بوالده ، ونزولا على حكمه ، وذهاب الحب بـه ذلـك كل مذهب ، حتى هلـك بـين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقف جميل بن معمر بـين يـدي أبيـه ، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول : يا أبت ! هل رأيت قبلي أحداً قدر ان يدفع عن قلبه هواه او ملك ان يسلي نفسه او استطاع ان يتقي ما قضى به عليه ، والله لو قدرت انـ أمحو ذكرها من قلبي او أزيل شخصها من عيـني لفعلت ، ولكن لا سبيل الى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قـد أتيح لي ، وأنـا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ مـا أقدر عليه ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه انـه كان يئد بناته في الجاهلية ، وان واحـدة منهن ولدتها أمهـا وهو في سفر ، فدفعتها الى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها ، فلمـا عـاد وسألها عن الحمـل قالت له انها ولدت مولوداً ميتاً . ثم مضت عـلى ذلـك

سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فاعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ، ولم تكتمه شيئاً طمعاً في ان يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه فامسك عنها أياماً ، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها الى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول : يا أبت ما تريد ان تصنع بي ، وما هذا الذي تفعل ؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها ، وهي تئن وتقول : أتاركي انت يا ابت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني ؟ حتى واراها وانقطع أنينها ، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته ، ثم وقفت على قبره تودعه . وتقول : والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً ، وكان لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها ، فاصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً ، اللهم انك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتنيه وشيكا ثم أمرتني بالصبر ، ووعدتني عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فارحم اللهم غربته ، وآنس وحشته ، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات ؛ واثكل الوالدات ! ما أمض حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقل انسهن ، وأشد وحشتهن ، وابعدهن من السرور ، واقربهن من الاحزان ، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بها حتى اصبحت زوجاً لغيره

وأصبح بعدها هائماً مختبلا يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الارض ومخارمها ، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها ، وهو يظن ان زوجها لا يعلم من أمره الا انه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم انه يعرف حقيقته ، وانه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له ، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها : يا عفراء ، انت حظي من الدنيا ، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل من هذا المكان ، واني عالم أني راحل الى منيتي ، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشي وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خماراً لعفراء كانت زوّدته إياه فيفيق ، حتى بلغ حيه وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر بعض الناس فرآه مطرحاً بجانب خبائه ، فسأله عما به ، فوضع يده على صدره ، وقال :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها،فلما بلغ عفراء خبره قامت الى زوجها وقالت : لقد كان من خبر ابن عمي ما كان ، وقد مات في وبسببي ولا بد ان أندبه وأقيم مأتماً عليه ، فقال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم ان أهله قد بنوا له ديراً بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن

الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل الى الوصول اليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتاتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئاً ، فصار الى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائماً لا شان له الا ان يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله ان يبلّغ رسائله الى عيسى ، حتى رآه بعض الناس في بعض الايام ميتاً الى جانب الدير . وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ، كأنما كنت أرى ان الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين ، فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ؛ او كأنما كنت أرى ان الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والاحزان ، وان الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصوراً لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله ؛ او كأنما كنت أرى ان بين حياتي وحياة اولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلا ؛ فانست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم ، او كأنما كنت في حاجة الى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي ؛ او كأنما كنت أرى ان جمال العالم كله في الشعر وان الشعر هو تفجر من صدع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم .

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لي فيها أحسن ما مرّ لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فأكاد أشرق

بدمعي لذكراها ، ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة والنسمة والهبوة [1] ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم . واقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الاغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت الترائي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيته. ورأيت الرجل والمرأة وقد عرا [2] كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر [3] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون [4] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم ان يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها ، واضطراب الحدود

---

(١) الهبوة : الغبرة . (٢) عرا الثوب عن جسمه : ألقاه عنه .
(٣) تشطر : صار شاطراً ؛ والشاطر هو من أعيى أهله خبثاً .
(٤) الضاحي : المنكشف للشمس .

والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا ، وخرج منها ما لم يكن خارجاً ، فسمي الشح اقتصاداً ، والكرم اسرافاً ، والحلم جبناً ، والسماجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية ، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيماً من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها، وكنت أرى ان الادب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر او يحدث نفسه به او يكون عوناً لفاعليه عليه ، فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه ، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس ، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدباً ، وأقومهم خلقاً ، وأطهرهم نفساً : من لا يفي على شرط ان يعد ، ومن يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يملأ صدره موجدة وحقداً على ان يكون بساماً ضحوك السن ، ومن يسرق على ان يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية ، التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس واسفافها ، اكثر مما يرجع الى علوّها

وكالها ، فداخلني من ذلـك خطر عظيم لم استطع ان أملك نفسي معـه ، كأنما خيـل اليّ ـ لقرب عهدي بما أرى ـ انني أرى شيئاً عجيباً ، او منظراً غريباً ، او كأنما كنت احسب ان عالم الخيال الذي كنت فيـه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه ، فازعجني مـا رأيت من هـذا الاختلاف العظـيم بينهما ، فأرسلت الكلمة اثر الكلمة كما يتنفس المتنفس او يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس ، فسموا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله ، وما زلت اطمع فيهم وأرجو ان اصيب ما في نفوسهم ، حتى سموني كاتباً .

وكان لذلك الأدب الذي توليت بـه نفسي فيما مضى أثر بـاق عندي حتى اليوم فاني لا احسن ان اكتب كلمة يفضي بهـا غيري او أعـبر عن معنى لا يقوم بنفسي او ابكي على من لا يحزنني فراقه . او اندب من لا يفجعني موته او استنكر ما استحسن . او استحسن ما استنكر ، كما لا استطيـع ان أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزنا شديداً ، او طربا كثيراً ، فاملك نفسي عن محاولة الإفضاء بمـا تركه عندي من خير او شر ، وما اعلم اني كتبت كلمة في شان من الشئون الا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي . فقد كنت رجلا لا احب الكذب ، ولا آخذ نفسي به ما وجدت منـه بـداً ، فابغضت الكاذبين بغض الارض للدم . فكان من همي ان اقاتلهم على الصدق قتالا مستعراً ، حتى أصل بهم الى احدى الحسنيين: إما ان يكونوا صادقين وإما ان يعلم الناس انهم كاذبون، وكنت إنسانا بائسا لم يترك الدهر سهما من سهامه المريشة لم يرمني به ،

ولا جرعة من كاس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها ، فقد ذقت الذل أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر اعواما ،ولقيت من باساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين . ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان من همي ان أبكي كل بائس ، واندب كل منكوب ، واطلب رحمة القوي الضعيف ، والغنى للفقير ، والعزيز للذليل .

وقد قدّر لي فيما مرّ بي من ايام حياتي ان رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع اليه ان يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها ، فابى ذلك عليها وقال لها ــ وهو يحسب انه يعقل ما يقول ــ : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي . فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما باكبر من حظها منه ، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقداً قديما ، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا : أيها الناس ان الفتاة مريبة . وكان كاذبا فيما يقول ، ولكن صدقه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وافظعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأة من اولئك النساء المريبات تساله بعض المعونة على أمرها فامر بطردها ذهابا بنفسه ان تسوء سمعته بدخولها بيته ، وكان هو الذي افسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان ياكله في بيته أكلا . فكان بي منذ ذلك العهد ان انظر الى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس اليها ،

وان ألتمس لها من العذر ـ وان زلت بها قدم ـ ما لا يلتمسه لها احد ، وان انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا الى ذلك حتى يديل لها الله منه ، وكنت من شئون عيشي في حالة لا استطيع معها ان اعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا ان اختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سراً ، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت فوفى لي مدين ، ولا رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كربتي مفرج الا اذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الاخيرة منه ، ليأخذ اكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى امكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي . ومن كان يبسط اليّ يد الآمل الراجي فأكره ان أرده خائباً ، فلما عجزت عن ذلك مرة اضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل الا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه ، او يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب [1] لي وغرى بمحاداتي ومماظتي [2] ، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ، ومن اخذ نفسه بالنيل مني والغض من شاني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له ان يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له ان رأى عاتقي بين يديه فظن انه اعلى العواتق وابعدها مذهباً في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به

(١) نصب فلان لفلان : عاداه .　　(٢) المماظة : المخاصمة والمشارة .

بقياً عليه وضناً به ان يسقط سقطة لا يئل منها ، ومن كان لا يكبر شاني الا اذا اتقاني ، فاذا اضاء ما بيني وبينه كنت في عينه اصغر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر عليّ وإدباره عني ، لا يستحي ان يكرر ذلك حتى استحيي له منه . فعركت بجنبي [1] كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي ان انزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثار لنفسي ، ولكن اصبح رأيي في الناس غير رأيهم في انفسهم ، ورأى بعضهم في بعض ، وخفت ان يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين [2] امثالي مثل ما اصابني ، فكان من همي ان أدل على شرور الاشرار الكامنة في نفوسهم وان اكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقعوا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضا حمراً يركبونها الى اغراضهم ومطامعهم ،وكان منشيء في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينا ، ولا بوطنهم وطنا ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمة ، فخضعت لكثير من احكام الدهر واقضيته ، الا ان اكون ملحداً في ديني او زاريا على وطني ، فاستطعت — وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية — ان اجلس ناحية منها . وان انظر اليها من مرقب عال ، وكنت اعلم ان من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الأمر نظرة طائرة حمقاء ، فإما اخذه كله او تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ،

---

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه : احتمله . (٢) المحدود : المحروم : ويراد به سيء الحظ.

وعرفت ما يجب ان يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي ان احمل الناس من امرها على ما احمل عليه نفسي ، وان انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها ، واستهتارهم بها ، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها ، والحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى اصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه اذا حزبه الامر [1] في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه الا ان يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، او ترك ما ترك كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار واضطراب الافهام ، او القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ؛ وحتى اصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الاوربية ان تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء اكثر مما يستحي من الله ومن الناس ان يهجموا منه على ارذل الرذائل واكبر الكبائر ؛ وحتى اصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين : يفخرون بجهله ان جهلوه ، ويراؤون بعلمه ان علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي ـ خادم الخان ـ منفرداً على ما لا تقدر عليه الامة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ، قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدثها

---

(١) حزبه الامر : اشتد عليه .

بلغتها ، وهو الى ان يترضاها ويستدنيها احوج منهـا الى ان تترضاه وتزدلف اليه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا ، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا اكذب الناس عن نفسي ، ولا اكذب نفسي عنها .

وعندي ان الكاتب المسخر الذي لا شأن له الا ان يكتب ما يفضي به الناس اليه صانع غير كاتب ، ومترجم غـير قائل ، لا فرق بينـه وبـين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ : كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على ان خير ما ينتفع به الاديب من أدبـه ان يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح احلامه ، فان كان من شأنه في حياته ان يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، او وفيعة [1] تتمسح بها اعواد الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال او يؤثلون من جاه ، والتاريخ اضن من ان يحفظ بين دفتيه من مجد الادباء الا مجد اولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها ، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل انه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وانه رواغ متخلج [2] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدا ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وانه يستبكي ولا يبكي ،

(١) الوفيعة : حرقة يمسح بها القلم .   (٢) المتخلج : المضطرب في مشيته .

ويسترحم ولا يرحم ، ويحزن النفوس وهو ساكن ، ويثير الثائر وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره شر حاليه ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق الى سوق ومن حانوت الى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والاريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب اشراق المصباح في زجاجته ، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على اسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو ان أمراً من ذلك كائن لكان ابرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم ، او اعلمهم بقواعد اللغة ، او أجمعهم لمتونها ، او احفظهم لفصيح القول ورائعه ؛ أما العلم فاكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار التي نقرؤها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان ؛ وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب واكثرنا عاجز عن فهم اكثر ما كانوا يكتبون ؛ وأما المحفوظات فما نعلم أحد أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ، ولا أقل منهم إلماماً بالادب ولا أبعد عنه مكاناً ؛ وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتاخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل او قرض الشعر او القوة

القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا انفسهم به ؛ وكان الخليل بن احمد اذا سئل عن نظم الشعر قال : ياباني جيده وآبي رديئه ؛ وكان الاصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو يزيد الانصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الاعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والازهري والصاغاني وابن فارس وابن الاثير صاحب النهاية ،والجوهري والفيروزا بادي وامثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم في احدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال ابو العباس المبرد في بعض احاديثه لا احتاج الى وصف نفسي : لعلم الناس بي انه ليس احد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة الا لقيني بها وأعدني لها ، فاتا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفي عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت الى اعتذار من فلتة او التماس حاجة ، فاجعل المعنى الذي اقصده نصب عيني ، ثم لا اجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني ان عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت ان اكتب اليه رقعة أشكره فيها واعرض بعض اموري فاتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم اقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت احاول الافصاح عما في نفسي فينصرف لساني الى غيره اه . بل لو شئت لقلت انه ما افسد على المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصورته ، الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وامثالهم من حبائس اللغة وانضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون

ويدونون ، من حيث يظنون انهم ينظمون او يكتبون ، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت ان الادب العربي كان يستطيع ان يكون خيراً مما كان لو ان الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وانك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه ـ الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة ـ من يعد من حفاظ اللغة العربية .وثقاتها ، او من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي او مغمز لغوي ، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمس رحماً من اولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها ، فاذا عرض لهم غرض من الاغراض في أي شأن من شئون حياتهم وأرادوا انفسهم على الافضاء به ـ ارتج عليهم فاغلقوا او تقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين ان الاولين كاتبون ، والآخرون مصححون ، فمثلهما كمثل النساج وعامله : هذا ينسج الثوب ، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره [1] ، او كمثل الشاعر والعروضي : هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة

(١) الزئبر : ما يظهر من دروز الثوب .

الغرض وتطبيق المفصل ، والاخذ بمجامع الالباب ، امتلاك ازمة الهواء ؛ فاذا صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير او الشاعر الجليل ؛ فان زلت به يده اصيل ، او كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة او بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه او بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ، اصبح شانه شبيهاً بشان العرب الاولين ، وكان من شانهم ان يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول ابو علي الفارسي : انهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء ، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون ، وكما ان الجسم لا يغير من صورته ، ولا يبدل من سحنته ، ان تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها ، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج اصيل ، او دخول دخيل ، وقد قيل لأحد الكتاب الانكليز : نراك كثير الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحانة لا يحفل بقواعد اللغة ، فاجاب : ان سطراً واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأي ان احرم نفسي التمتع بأدبه واكراماً لسواد عيون الغراماطيق [1] الانكليزي ، ففضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها افضل من فضل اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون [2] طرقها ويستدنون نافرها ، ويجمعون شاردها ، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك

(١) الغراماطيق : النحو .   (٢) يعبدون : يذللون ويمهدون .

فيأخذها الناس عنهم من اخصر الطرق واقربها ، واشهاها الى النفس ، واعلقها بالقلب ؛ وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة او يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدواً لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل اليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسمية ؛ فكما ان الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط،ولا تتبسط اعضاؤه، ولا تنتشر القوة في اعصابه ، الا اذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه ؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه الا اذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون ان يسيطر عليه في ذلك مسيطر الا طبعه وسجيته؛واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل، فان مشى خيل اليه انه يمشي على رملة ميثاء ، وان تحرك خيل اليه ان تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول اليها . على ان الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة الا اذا نظر الى الألفاظ بالعين التي يجب ان ينظر بها اليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي ان تكون خدماً لها وخولاً،

واوعية وظروفا ، فاذا كتب تركها وشانها واغفل أمرها حتى تاتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ، فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها ؛ فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ؛ ومن لا يضطلع باساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة الى لسانه ، او غلبته العامية على أمره ؛ ومن قل محفوظه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ؛ ومن جهل قانون اللغة أغمض الاغراض وابهمها ، او شوّه الالفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فاكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية احسان المحسن منهم ان يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الاعضاء مستوى الخلق ؛ إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأنى لهم ذلك ؛ وما دخلت الفلسفة أيا كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة الا أفسدته ، وما خلط التكلف عملا من أعمال الذوق الا شوّه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه .

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر ، فرأيت ان الاحاديث ثلاثة : حديث

اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب .

فأما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة، او تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ،وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها او معجمة كلها او راوح بين الإهمال والإعجام ، فيخيل اليك وانت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعاً ، او يصفه تصفيفاً ، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الاثر في نفس السامع ، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها واجدرها ان ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وان ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين اثقالها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والاغراب ، ويسمونها تارة تخييلا وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل ، الى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة ، وآية ما بينك وبينها : انك

اذا رأيتها شعرت بانك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك . وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعاً ، وان صاحبه لا يريد منه الا ان يطرفك او يضحكك او يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظاً وقبحاً كان يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل ان يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون الى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولا لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها — وهي من سكان السماء — ان تهبط الى الارض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله ان يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شانه ، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا ان يمتدح نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا ان يمتدح ممدوحه برفعة الشان وعلو المقام .

او يقول :

ما به قتل أعاديه ولكن   يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع ،

مستعظما ان يخلفها ما عوّدها إياه من طعام وشراب ، لا يمكن ان يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق احشاءهم ، ويقطع اوصالهم، ليملأ بها بطون الوحش ؛ ولا يوجد بين الاسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره ؛ على ان المحسن لا يكون محسناً الا اذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيته ، فإما ان يقتل الناس تقتيلا ويمثل بهم ، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها ؛ فذلك شيء هوْ بالجنون اشبه منه بالإحسان .

او يقول :

لا يذوق الإغفاء الا رجاء ان يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الإنسان وعماد حياته ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فان من ابعد الاشياء عن التصور والفهم ان يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه ان يرى فيه الاحلام والرؤى ، فان فعل فعلا يدخل في باب اغراضه وامانيه ان ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتاكلين ، وهم ملء الارض وهباء الجو ، وارصاد الاعتاب ، واعقاب الابواب ، لا تفتح الاعين الا عليهم ولا تمتلىء الأنظار الا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضن بانفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به الا اذا ألقى في طريقه حبائل الاحلام ليصطاد بها .

او يقول :

لم يتخذ ولداً الا مبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الاولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاماً ، واكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفواً ، لا نبتة من نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فان كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والافعال ؛ فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربما كان أهونها واضعفها انه لا يتخذ ولداً ، وانهم يتخذون . على ان المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسألة مفروغ منها قبل ان يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ؛ فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

او يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيباً

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن ان تكون طيبة الريح ، على ان الأزهار مريحة قبل ان يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على ان أتى بخيال ضعيف مبتذل هو اشبه الاشياء بخيال العامة الذين يرون ان بعض الأزهار ما خلق الا اكراماً لبعض النبيين .

او يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي ال ساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد اراد ان يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق ما يصف الناس

وياتي في ذلك بما لم يات بـه غيره؟ ؛ فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بـين دخلهم ونفقاتهم ، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة او يوم واحد .

او يقول :

ولما ضاق بطن الارض عن ان　　يضم علاك من بعد المات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا　　عن الاكفان ثوب السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق باحد ، والجو لا يكون قبراً ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن .

واما حديث القلب فهو ذلك المنثور او المنظوم الذي تسمعه فتشعر ان صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس الى جليسه،او ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون،او سرائر القلوب ، او ليفضي اليك بغرض من اغراض نفسه ، او لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، او ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك ، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا او ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفني كما تفني الكاس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر ، فاذا الخمر قائمة بغير إناء ، او كما

تفني صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى الا صورته ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو ارقى الاحاديث الثلاثة واشرفها ، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت اساليبهم من كلمة البيان .

ولقد كان من اكبر ما اعانني على امري في كتابة تلك الكلمات اشياء اربعة انا ذاكرها ، لعل المتادب يجد في شيء منها ما ينتفع به في ادبه .

(اولها) اني ما كنت احفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، اي انني ما كدت اتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا افتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي ، بل كنت احدث الناس بقلمي كما احدثهم بلساني ، فاذا جلست الى منضدتي خيل إليّ ان بين يدي رجلاً من عامة النـاس مقبلاً عليّ بوجهه ، وأن من ألذ الاشياء وأشهاها الى نفسي ان لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به اليه ، فلا أزال اتلمس الحيلة الى ذلك ولا أزال أتاتى اليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحـاح المشفق الجد ، حتى اظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيـد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في اوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزامـاً مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقاً عليه ان يمل ويسأم ، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به .

(وثانيها) اني ما كنت أحمل نفسي على الكتـابة حملاً ، ولا أجلس

الى منضدتي مطرقاً مفكراً : ماذا اكتب اليوم ، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ؟ بـل كنت ارى فافكر فاكتب فانشر ما اكتب فارضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا اتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم .

(وثالثها) أني ما كنت اكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة ، لأني كنت أعلم ان الحقيقة المجردة عن الخيـال لا تأخذ من نفس السامع ماخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ؛ وأحسب ان السبب في ذلك ان اكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائـد والمذاهب والآراء والاخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنمـا هو اثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر . ثم لا تزال بها الايام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان ، وكما ان الحديد لا يفل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره . كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه الا الخيال ، وللخيال الأثر الاعظم في تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفـه على الصورة التي يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي فيساحة الحرب،ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة مـا عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم ان الخيال غير المرتكز عـلى الحقيقة إنمـا هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ولا تصعد الى سماء .

(ورابعها) أني كنت اكتب للنـاس لأعجبهم ، بل لانفعهم ، ولا

لاسمع منهم : انت احسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، وللناس كما قلت في بعض رسائلي ؛ خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شان لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا اجزع لسخطهم ، لأني لم اكتب لهم ، ولم اتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع ان استمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ؛ لأني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي اكتب بها ، فلا احب ان يكدرها عليّ مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا احب ان يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيع به ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم . فأصغي الى الاول لاستفيد علمه ، واعرض عن الثاني لاتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة معينة . ثم علم ان على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق اغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده وتعوي ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله،فمضى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه . وأما عامتهم ، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع احسنه ؛فأنا احمد الله في امره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله تعالى ، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى لطفي المنفلوطي

الغد

عرفت اني فكرت ليلة أمس فيما اكتب اليوم ، وعرفت اني آخذ الساعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه او يكبو[1] دون غايته؟ وهل استطيع ان اتم رسالتي هذه،او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ؟ لاني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله .

عرفت اني لبست اثوابي في الصباح ، واني لا ازال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا اعلم هل اخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل ؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثرت ذراتها ، فاصبحت كانما هي

(١) كبا : سقط على وجهه .

عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه[1] وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره ؛ لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه[2] العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره ؛ الا اذا جاءت الصخرة بالماء الزلال .

كأني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه[3] . متلفع بفضل إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالد انه يلد للموت : ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقاً في الارض ، وصعد في سلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[4] من حديد ، وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ،

---

(١) يعب عبابه : يرتفع موجه .
(٢) تسقط الخبر : أخذه شيئاً فشيئاً .
(٣) مجثم الطائر : موضع جثومه ، أي تلبده بالأرض .
(٤) الاسباب : الحبال ، وكل ما يوصل بين الشيئين .

وعرف أغوارها وأنجادها . وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرهـــا ، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة ابعاد النجوم ومسافات الاشعة. والموازين لوزن كرة الارض إجمالاً وتفصيلا . وغاص في البحار فعرف اعماقها ، وفحص تربتها وازعج سكانها ، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها ، وغلبها على لآلئها وجواهرها،ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون الخالية فرأى اصحابها وعرف كيف يعيشون واين يسكنون ، ومـاذا ياكلون ويشربون ، وتسرب من منافـــذ الحواس الظاهرة الى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبهـــا ، والمدارك ومراكزها، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحداً .

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صفحة [1] واحدة من صفحات وجهك المقنع ، او لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننـا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك .

ايها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأماني حساناً وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؛

(١) صفحة الشيء : جانبه .

أأذللتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين ؟

لا ، لا صن سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا واما نينا ، حتى لا تفجعنا في ارواحنا ونفوسنا فـإنما نحن احياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأماني وان كانت كاذبة .

وليست حياة المرء إلا امانيـا   إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

*

الكأس الاولى

كان لي صديق احبه واحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه ، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فانا اليوم ابكيه حياً اكثر مما كنت ابكيه لو كان ميتاً ، بل انا لا ابكي إلا حياتــه ، ولا اتمنى إلا مماته ، فهل سمعت باعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس !

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني ، ثم سلك سبيلا غير سبيله فانكرته وانكرني ، حتى ما امر بباله، لأن الكاس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيهــا لأنه اذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت القاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها ان يكدر على نفسه بمثل هـذه الذكرى صفاء هذا الخيال .

ثم لم أعد اعلم من امره بعدذلك شيئاً،لأن حياة المدمنين حياة متشابهة

متماثلة ، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها ؛ ذهاب الى الحانات فشراب ، فخمار [1] فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة ، لا يدري اين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن ، حتى ان بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها ، وكان أحرى ان يوقظه دورانها .

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي الا بعد ان سكنت دورته ، وهدأت حركته ، فلم اعد أراه معربداً في الحانات ، ولا مطرحاً في مدراج الطرق ، ولا معتقلا في أيدي الشرط [2] . هناك سالت عنه فقيل لي : مريض ، فلم اعجب لشيء كنت اعد له الايام والاعوام ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب .

دخلت عليه اعوده فلم اجد عنده طبيباً ولا عائداً ، لانه فقير ؛ والاطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ؛ والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير .

دخلت منزله فلم اجد المنزل ولا صاحبه ،لانى لم اجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف باجنحته في غرفه وقاعاته ،ولم أر دخان المطبخ؛ ولم اسمع ضوضاء الخدم ، ولا بكاء اطفال ؛ ولا رنين الاجراس ؛ فكانني دخلت القبر ازور الميت ، لا المنزل اعود الحي .

(١) الخمار : صداع الشراب .

(٢) الشرط : اعوان الأمير ، ومفرده « شرطي » بضم الشين وسكون الراء .

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه الا إهاب [1] لاصق بعظم ناحل ، فقلت : أيها الخيال الشاخص ببصره الى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك ان تدلني عليه ؟ فبعد لأي ما [2] حرك شفتيه وقال : هل اسمع صوت فلان ؟ قلت : نعم ، مم تشكو ؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها اضلاعه واجاب : اشكو الكاس الاولى ، قلت : أي كاس تريد ؟ قال : اريد الكاس التي اودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي ، وها أنا ذا اليوم اودعها حياتي ؛ قلت : قد كنت نصحتك ووعظتك ، وانذرتك بهذا المصير الذي صرت اليه فما اجديت عليك شيئاً ، قال : ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد اكثر مما اعلم ، ولكنني كنت شربت الكاس الاولى فخرج الامر من يدي .

كل كاس شربتها جنتها عليّ الكاس الاولى ، أما هي فلم يجنها عليّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الاصدقاء والخلطاء .

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد اليها كما يعذر في الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية ؛ فلا سلطان لها عليه الا بعد ان يتناول الكاس الاولى . فلمَ يتناولها ؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خلانه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه اليهم لذتهم التي لا تتم الا بقراع الكئوس وضوضاء الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه

(١) الإهاب : الجلد .
(٢) يقال « فعله بعد لأي » أي إبطاء ، و « ما » زائدة .

وأي ذريعة تذرعوا بها الى ذلك، لتحققت انه ابله الى النهاية من البلاهة، وضعيف الى الغاية التي ليس وراءها غاية .

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء ، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان .

قالوا : ان حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه الأدواء الا الشراب ، وقالوا : ان الشراب يزيد في رونق الجسم ، ويبعث نشاطه ، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان ، وانه يشجع الجبان ، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام ، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به .

صدقت ان في الشراب أربع مزايا : السعادة، والصحة ، والفصاحة، والإقدام ، فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر ، والمرض ، والسقوط ، والجنون .

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر ، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء . وهو يتغلغل في الأحشاء ، ومن الفصاحة الهذر والهذيان ، وهجر [1] القول وبذاءة اللسان ، ومن الإقدام العربدة التي لا تسكن الا في غرفة السجن ، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الاشياء كما هي ، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة [2] والصفع تحية ، فيضحكه من

(١) الهجر : الفحش .   (٢) الطرفة : الملحة المستحسنة .

ذلك ما يضحك الاطفال والممرورين [1] .

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه ؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات ؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً متخلجاً [2] يتسرب في المنعطفات والازقة ، ويعوذ بالواذ [3] الجدر والاسوار فراراً من نظرات الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار .

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من انهم قتلى الادمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه ان لي قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزل منزلتهم ، فلما شربت أخطأ العد ، وضاع الحساب ، وفسد التدبير ، واختلف التقدير ، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به ؛ ولولا الكاس الاولى ما هلكت ، ولا شكوت الذي شكوت ، ولولاها ما عافني الاصدقاء ، ولا زهد في الاقرباء ، فكن انت وحدك صديق السراء والضراء .

فعاهدته على ذلك ، ثم تركته في حالة :

تصم السميع وتعمى البصير ويسأل من مثلها العافية

(١) الممرور : الذي هاجت مرته ، ويطلق على الجنون . (٢) متخلجاً : متثنياً
(٣) لوذ الجبل : جانبه ، والجمع : ألواذ .

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني ، وعدت الى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك الا دمعة لا استطيع إرسالها ، وزفرة لا استطيع تصعيدها .

ذلك لان الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل ان أساله اياك ، ثم استلبنيك قبل ان استعفيه منك ، قد أراد ان يتمم قضاءه في ، وان يجرعني الكاس حتى ثمالتها ، فحرمني حتى دمعة أرسلها او زفرة اصعدها ، حتى لا اجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه ، فله الحمد راضياً وغاضباً ، وله الثناء منعماً وسالباً ، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه .

رأيتك يا بني في فراشك عليلا فجزعت . ثم خفت عليك الموت ففزعت وكانما كان يخيل اليّ ان الموت والحياة شان من شئون الناس وعمل من الاعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب

لي الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك اصب في فمك ذلك السائل الاصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من جنبيك الحياة قطعة قطعة ، حتى نظرت فإذا انت بين يدي جثة باردة لا حراك بها واذا قارورة الدواء لا تزال في يدي . فعلمت أني قد ثكلتك ! وان الامر امر القضاء ، لا امر الدواء .

سأنام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك ، واحسب ان آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شئون الحياة واطوارها ، وخطوبها واحداثها : هو الندم العظيم الذي لا ازال أكابد أله على تلك الجرع المريرة التي كنت اجرعك اياها بيدي وانت تجود بنفسك ، فيربد وجهك ، وتختلج اعضاؤك ، وتدمع عيناك ، وما لك يد فتستطيع ان تمدّها اليّ لتدفعني عنك ، ولا لسان فتستطيع ان تشكو اليّ مرارة ما تذوق .

لقد كان خيراً لي ولك يا بني ان أكل الى الله أمرك في شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي اجشمك اياها ، فلقد اصبحت اعتقد انني كنت عوناً للقضاء عليك وان كأس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده لم تكن أمر مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت احملها لك في يدي.

ما اسمج وجه الحياة من بعدك يا بني ! وما اقبح صورة هذه الكائنات في نظري ! وما اشد ظلمة البيت الذي اسكنه بعد فراقك اياه ! فلقد كنت تطلع في ارجائه شمساً مشرقة تضيء لي كل شيء فيه ، اما

اليوم فلا ترى عيني مما حولي اكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك .

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى اذا استنفدوا ماء شئونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال اكثر مما احتملوا ، لجاوا الى مضاجعهم فسكنوا اليها ، ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين : عين أبيك الثاكل المسكين ، وعين أخرى انت تعلمها .

لقد طال عليّ الليل حتى مللته ، ولكنني لا أسال الله ان ينفرج لي سواده عن بياض النهار ، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باق حتى أرى وجه النهار ، بل ليت النهار ياتي ، فقد مللت هذا الظلام .

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك ، ودفنت من قبلكما خويكما فانا في كل يوم استقبل زائراً جديداً ، واودع ضيفاً راحلا .. فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب .

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فاصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقاً مبعثرة في زوايا القبور ، ولم يبق لي منها الا دماء قليل لا احسبه باقياً على الدهر ، ولا احسب الدهر تاركه دون ان يذهب به كما ذهب باخواته من قبل .

لماذا ذهبتم يا بني بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم ان كنتم تعلمون انكم لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما اسفت خلو يدي منكم ، لأنني ما تعودت أن تمتـد عيني الى ما ليس في يدي ؛ ولو انكم بقيتم بعد ما جئتم مـا تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم ان يتزحزح لي عن طريقي التي اسير فيها ، وان يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني ، ولا يحسن اليّ ولا يسيء ولا يتقدم اليّ بخير ولا شر ، ولا يتراءى لي مبتسما ، ولا مقطباً ، ولا ضاحكاً ، ولا باكياً ، لو انه رضى مني بذلك ؛ ولكنه كان أذكى قلباً ، وانفذ بصراً ، من ان يفوته العلم بانني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يـدي ، ومـا كنت اجـد مرارة فقدانها لو لم أذق حـلاوة وجدانها ، وكان لا بد له ان يجري في سنة الشقاء الـتي اخذ عـلى نفسه ان يجريها في الناس جميعـاً ، فلمـا عجز عن ان يدخل اليّ من باب الطمع ، دخل اليّ من باب الأمل ، فهو يمنحني المنحة فاغتبط بها حقبة من الدهر ، حتى اذا علم ان بذرة الأمل الـتي غرسها قـد نمت وازدهرت وانني قـد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها ، كر عليّ فانتزعها من يدي انعم ما اكون بها ، كما تنزع الكأس الباردة من يد الظامىء الهيمان ، ليعظم وقع السهم في كبدي ، ويفدح سلب النعمة من يدي ، ولولا ذلك ما نال مني منالاً ، ولا وجد اليّ سبيلا .

يا بني ، ان قدر الله لـكم ان تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، او عـلى شاطىء غـدير من غدرانهـا ، او تحت ظـلال قصر من قصورهـا فاذكروني مثل ما اذكركم ، وقفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقف بين

يديه المصلون ومدوا اليه اكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولوا له : اللهم انك تعلم ان هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت الايام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وباسائها ما لا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به ، والحنين اليه ، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي تنعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك ، وانت أرحم بنا وبه من ان تعذبنا عذاباً كثيراً ، فإما ان تأخذنا اليه او تاتي به الينا .. لا ، بل لا تطلبوا منه الا ان ياتي بي اليكم . فإن الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى ان يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي كما كنا .

★

مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من عليـاء سمائه . أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها ، وهـذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمـان ؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه ، وهـذه النيرات حور وولدان ؟ أم فص من ماس ما يتلألأ ، وهذا الافق المحيط بك خاتم من الانوار ؟ أم مرآة صافيـة ، وهـذه الهالة الدائرة بك إطار ؛ أم عـين ثرة ثجاجة ؟ وهـذه الاشعة جداول تتدفق ؟او تنور مسجور ؛ وهذه الكواكب شرر يتألق؟!

أيها القمر المنير :

إنك أنرت الارض : وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها ، وعامرها وغامرها ؛ فهل لك ان تشرق في نفسي فتنير ظلمتها ، وتبدد ما اظلمها من سحب الهموم والاحزان ؟

أيها القمر المنير :

ان بيني وبينك شبهاً واتصالاً ؛ انت وحيد في سمائك ، وأنا وحيد

في ارضي كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ، لا يلوي على احد ولا يلوي احـد عليه ، وكلانا يبرز للآخر في ظلمـة الليـل فيسايره ويناجيه ، يراني الرائي فيحسبني سعيداً ، لأنه يغتر بابتسامة في ثغري ، وطلاقة في وجهي ، ولو كشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليـه من الهمـوم والاحزان لبكى لي بـكاء الحزين إثر الحزين ؛ ويراك الرائي فيحسبك مغتبطاً مسروراً ، لأنه يغـتر بجمال وجهك ولمعـان جبينك ، وصفاء أديمك ، ولو كشف له عن عالمك لرآه عالماً خراباً ، وكوناً يباباً ، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر ، ولا ينطق إنسان ، ولا يبغم حيوان.

أيها القمر المنير :

كان لي حبيب يملأ نفسي نوراً ، وقلبي لذة وسروراً ، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد فرق الدهر بيني وبينه، فهل لك أن تحدثني عنه ، وتكشف لي عن مكان وجوده ؟ فربما كان ينظر إليك نظري ، ويناجيك مناجاتي ، ويرجوك رجائي .

وهاندا يخيل إليّ أني أرى صورته في مرآتك ، وكاني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ، فأزداد شوقاً إليه ، وحزناً عليه .. فابق في مكانك طويلاً تطل وقفتنا ، ويدوم اجتماعنا .

أيها القمر المنير :

مالي أراك تنحدر قليلا قليلا الى مغربك كانك تريـد ان تفارقني ،

ومالي أرى نورك الساطع قـد أخذ في الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هـذا السيف المسلول الذي يلمع من جانب الافق على رأسك ؟

قف قليلا ، لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني وحيداً ، فإني لا أعرف غيرك ، ولا آنس بمخلوق سواك .

آه ، لقد طلع الفجر ، ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي، فمتى تنقضي وحشة النهار ، ويقبل إليّ أنس الظلام ! !

★

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته ، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها مـن شتى المحـاسن ومتفرقاتها في صورة البشر ، فلمـا استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فاحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب : فانشا يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيـع أن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه ، لا فرق بيني وبينه الا انه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة ، وأنـه فتش عنها فوجدها ، وفتشت عنها حتى عييت بامرها فما وجدت اليها سبيلا ٠

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائـع وجدتـه يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحـد ، فعلمت انـه سارق للدينار الثاني ، ولو وكل اليّ أمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب لصوص

الدراهم ، وأغفل لصوص الدنانير ، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنـه ٠

أنا لا أنكـر على التاجر ربحه ، ولكنني أنكر عليه أن يتناول منـه أكثر من الجزاء الذي يستحقه على مـا بذل من جهد في جلب السلعة ومـا أنفق من راحته في سبيل صونها واحرازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المـال وحرامه : أن الأول بدل الجد والعمل والثاني بدل الغش والكذب ٠

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعـدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه اياه، أما انصاف المظلوم والضرب على يد الظالم ٠ وأراحة[1] الحقوق على اهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب: فهي عنده ذيول وأذناب لا يابه[2] لهـا ، ولا يحتفل بشأنها الا اذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مـع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير مـا يعلم ، ودان البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته اليه حـكم القانون عليه ٠ كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، ومـا القانون الا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه ٠

فتشت عـن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغنى امـا شحيحاً او

(١) أراح الحق على اهله : أعاده اليهم . (٢) أبه للشيء : تفطن له واحتفل .

متلافاً ، اما الاول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل انينها وانين ولديها من الجوع ما مدّ اصبعيه الى اذنيه ثقة منه انقلبه المتحجر لا تنفذه اشعة الرحمة،ولا تمر بينطياته نسمات الإحسان، واما الثاني : فماله بين الثغرين : ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء •• فعلى يد اي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء ؟

فتشت عنها في مجالس السياسة، فرأيت ان المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط : الفاظ مترادفة معناها الكذب ، فرأيت ان الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربته ، لا فرق بينهما الا ان هذا ينقض (تعريفته) ، وذاك ينقض معاهدته ، ورأيت ان اعدى عدو للإنسان الإنسان ، وان كل امة قد اعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله ان تعده لاختها من الموت وافانين العذاب حتى اذا وقع الحتف بينهما على حد من الحدود او جدار من الجدران ، لبس الإنسان فروة السبع واتخذ له من تلك العدد الوحشية اظفاراً كاظفاره وأنياباً كانيابه ، فشحذ الاولى وكشر عن الاخرى ثم هجم على ولد ابيه وأمه هجمة لا يعود منها الا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما ؟ وعلام تقتتلان ؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ؟ ومتى ابتدأت الخصومة بينكما ، وعهدي بكما ما أنكما ما تعارفتما الا في الساعة التي اقتتلتما فيها ؟ لعرفت انهما مخدوعان عن نفسيهما ، وأنهما ما خرجا من ديارهما ليضعا درة في تاج الملك ، او نيشاناً على صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم ـ الا من رحم الله ـ يتجرون بالعقول في اسواق الجهل ، ورأيت كلا منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها الى الاخلاق فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها .

فتشت عنها في كل مكان اعلم انه تربتها وموطنها فلم اعثر بها ، فليت شعري هل اجدها في الحانات والمواخير ، او في مغارات اللصوص ، او بين جدران السجون .

سيقول كثير من الناس : قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً ، ومورداً عذباً ؛ وإني قائل لهم قبل ان يقولوا كلمتهم : إني لا انكر وجود الفضيلة ، ولكني اجهل مكانها ، فقد عقد رياء الناس امام عيني سحابة سوداء اظلم لها بصري ، حتى ما اجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ، ولا كوكباً طالعاً .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها ، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الاذكياء والاغنياء ، ومظهر يخدع اسوأ الناس بالناس ظناً ، فمن لي بالوصول اليها في هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل ؟

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ، فسعادتي فيها ان اعثر في طريقي في يوم من ايام حياتي بصديق يصدقني الود واصدقه ، فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون ان يتجاوز ذلك الى ما وراءه من مآرب واغراض ، وأن يكون شريف

النفس فلا يطمع في غير مطمع ، شريف القلب ، فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره؛ شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر[1] . شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ، ولا يبغض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي اتمناها ولكنني لا اراها .

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها ، وترن اطيارها ، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وازهارها ، انسياب الافاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى انامل النسائم تعبث بمنثورها الاوراق ، عبث الهوى بالباب العشاق ، واسمع ما بين صفير البلابل ، وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ اوتار العيدان، فلا يسرني منها منظر ، ولا يطربني مسمع ؛ لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي انشدها .

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني ، وثقل حديثها في مسمعي ، حتى اصبحت اتمنى ان اعيش بلا قلب فلا اشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها .

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق الى ذلك العالم الصامت ، فأجد من الأنس به والسكون اليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت اطير

---

(١) الهجر : الفحش .

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إليّ الجوع، ففثأته[1] عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة، فادهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه، وانه يشكو من الالم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إليّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألما.

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفىء غلته؛ ولكنه كان محباً لنفسه، مغالياً بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

(١) يقال: فثأت فلاناً عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه.

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحت الارض بنباتها ، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما [1] واحتجنهما [2] دونه ، فاصبح فقيراً معدماً ، شاكياً متظلماً ، غرماؤه المياسير الاغنياء ، لا الارض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس. فأستطيع ان اتصور كما يتصورون ، حجة الاقوياء في أنهم أحق بإحراز المال ، واولى بامتلاكه من الضعفاء ؛ إن كانت القوة حجتهم عليه ، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب اموالهم ؟ وما الحياة في نظر الحي بـاثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم : إن كانت الابوة علة الميراث فلم ورثتم آباؤكم في اموالهم ولم ترثوهم مظالمهم ؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقاً عليهم ان يردوا اليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال الى أربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الاقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم ، ينام احدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ، ولا يقلقه في مضجعه انه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد برداً وقراً ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه . أن بين أقربائه وذوي رحمة من تتواثب أحشاؤه شوقاً الى فتاة تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها . بل ان بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء

---

(١) زوى عنه حقه : منعه اياه .

(٢) احتجن الشيء : اذا جذبه بالمحجن الى نفسه ؛ والمحجن الصولجان ، والمراد انه استأثر به.

لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد مـا تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الاثاث والريش ، ليكسر قلبه وينغص عليـه عيشه ويبغض اليه حيـاته وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته : أنا سعيد لاني غني ، وانت شقي لانك فقير .

أحسب لولا أن الاقويـاء في حـاجة إلى الضعفـاء يستخدمونهم في مرافقهم وحـاجاتهم كما يستخدمون أدوات مـنازلهم ، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم،ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين ايديهم ، لامتصوا دمـاءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا استطيع ان أتصور ان الانسان انسان حتى أراه محسنـاً ، لاني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الاحسان ، واني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن الى غيره ليتخذ احسانه اليه سبيلاً الى الاحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبـار الذي لا يفهم من الاحسان الا انه يستعبد الانسان ، ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره وهو الشره المتـكالب الذي لو علم ان الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً ، ورجل لا يحسن الى نفسـه ولا الى غيره وهو البخيل الاحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه ، وأما الرابع : وهو الذي يحسن الى غيره ، ويحسن الى نفسه ، فلا أعلم له مكاناً ، ولا اجد اليه سبيلاً ، واحسب انه هو الذي كان يفتش عنـه الفيلسوف اليوناني « ديوجين الكلبي » حينـما سئل : مـا يصنع بمصبـاحه ؟ وكان يدور به في بياض النهـار ، فقال : « افتش عن انسان » .

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني امشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الامواج المتكسرة على سطح القاموس[1] المحيط وكانت الشمس قـد طفلت[2] للإياب فلم أر في بطحائهـا ظلا غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر[3] فاوسعتني طولا ورسمتني ميلا .

أنشأت أمشي لا اعرف لي مذهبا ولا مضطربا ، واني يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكهـا . وتشا كلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيهـا حتى انحدرت الشمس الى مستقرهـا : وطار طائر الليل من مكمنه . ونشر الظـلام اجنحته السوداء في الافق حتى وجدتني احير من دمعة وجد في مقلة عاشق ، يدفعها الحب ويمنعها الحياء ، ولا اعلم هل

---

(١) القاموس : وسط البحر ومعظمه . (٢) طفلت الشمس : احمرت للغروب .

(٣) وربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين) .

أنا سر كامن في بـاطن الظلمـاء ، او حوت مضطرب في اعمـاق المـاء .
وأحياناً كان يخيل اليّ اني في منجم من منـاجم الفحم فأمـد يدي أتلمس جدرانه مخافة ان اصطدم بواحد منها ؛ ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدا ينفض صبغته . وان ذراته تتطاير ههنا وههنا ؛ فإذا انابين يدي جبل عال كانمـا هو جدار قائم يمسك السماء ان تقع على الارض ، او ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الاحمر ، ومن شعاعهـا الرداء الاصفر .

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبي من الهم وعقلي من الخبال ؛ حينما رأيت ان صعود السماء اقرب الى الامـل ، من صعود هذا الجبـل ، وحرت بين الاقدام والاحجام ، فلم ار بد من الاستسلام لمقدور الحمام،ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضـاء ناعمة الملمس ، فاضطجعت عليها وانا اتمثل بقول ابي العلاء ؛

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

ومـا هي إلا غمضة الطرف ان اشعرت بأنها تتحرك قليلاً قليلا ، ثم استقلت ثم طارت ، فكدت احسب انه الموت قد نزل،وانها الروح تصعد الى الملأ الأعلى .. لولا ان فتحت عيني فرأيت مـــا كنت احسبه صخرة طائراً اشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها،واستمر ذاهباً بي في افق السـماء ، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط الى قمـة الجبـل فاسرعت بالانحـدار عنـه وهنـالك احسست بسلسبيل بـارد من الامـل يتسرب الى قلبي فينقع غلته . ويطفيء لوعته ، لانني رأيت السفح الثاني

ورأيت بهجة الحيـاة وزهرة العمران .

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ورأيت الاكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كانهـا العصافير السوداء ، والحمائم البيضاء ، وكان ما ألم بنفسي من السرور انساني ما ألم بجسمي من النصب فانحدرت اليهافما بلغتهاحتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابهاشيخ هو اشبه الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ ، فذعر مني كما يذعر الانسان لرؤية الجان ، وما كان الذي قام في نفسه مني باكثر ممـا قـام في نفسي منـه ، لولا اني الفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكانما الهمت لغته،فحييته بها فحياني وهو يقول:ما كنت احسب ان الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الانسان ، فمـا زلت احدثه واستدنيه حتى أنس بي ودعـاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعاماً شهياً ومهد لي مرقـداً وثيراً [1] . وكان الليل قد اقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه،فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك .

استيقظت انا والشمس من مرقدينا عـلى صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي الى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفاً واحداً ان ييسر لها الله عسرها ، وييسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره، فأخذ منظرها هذا من نفسي ماخذاً عظيما فلم ار بدأ من

(١) الوثير : الواطىء .

الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها ؛وعجبت ان يكون مثل هذا الايمان الخالص راسخاً في نفوس اهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول،ولم ينزل عليها كتاب؛فلما فرغنا من الصلاة التفت الى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون ، فمن تعبدون؟ وتصلون ، فمن الذي تدعون؟ قال : نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها ؛ قلت : هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته ؛ رأيناه في السماء والماء ، والفلك الدائم والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات؛ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ؛ قلت: ولم تعبدونه ؟ قال:شكراً له على نعمة الخلق والرزق ، وان أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن اليه بجرعة او انعم عليه بمضغة ؛ فأحرى به أن يشكر مانح المانحين ، والمحسن الى المحسنين ؛ فقلت في نفسي : لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، ثم سألته اين تذهبون بعد الموت ؟ قال:الى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ؛ قلت : لعلك تريد الجنة والنار ؟ قال : لا افهم ما تقول ، وانما اعلم ان الإله الحكيم لا يترك المحسن دون ان يجازيه خيراً على إحسانه ، كما يابى عدله ان يسوي بين المحسن والمسيء؛قلت : متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً ؛ قال : الاحسان عمل الخير ؛ والاساءة عمل الشر؛ لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار بأخيه، او من يقصر في دفع الأذى عنه؛فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذين ينفقون اعمارهم في الحيض

والاستحاضة والمذى والودى [1] والحدث الأكبر والحدث الاصغر . وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل، وليت المتصوفة الذين يحاولون ان ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته ، ويغالبوه على امره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه — يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار ، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ، ولا يميزون بين الدين والتين .

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ ان يزيرني في المدينة .فانحدر بي اليها، فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة ؛ ورأيت سكانها مكبين على اعمالهم ، مجدين في شؤونهم . . صغاراً وكباراً . . رجالا ونساء . . مافيهم فقير يتسوّل . . ولا متبطل يتثائب ويتململ، واغرب ما استهوى نظري انني لم ار في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي اعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم . . ومطاعمهم ومشاربهم، وهيآتهم وازيائهم، كان جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة، فسالت الشيخ: ألا يوجد فيكم غني وفقير ،وسيد ومسود؟ قال: لا يا سيدي، حسب الرجل منا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل اثقاله ، ثم لا شان له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لانه لا يوجد فينا غني وفقير. قلت لا بد ان يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان ! قال : اما الكسلان

---

(١) المذى والودى : نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب .

فلا وجود له بيننا ، لأنه يعلم انا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلها عن العمل ، واما العاجز فنحدب عليه ونحسن اليه ، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلاً لأننا انما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين ، ورحمة البائسين .

وانه ليحدّثني بهذا الحديث اذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البني بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال لا ، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجن [1] دون عباده أرضهم ومالهم ليعلو عليهم ، ويستأثر بالنعمة من دونهم ، فغضب الله عليه ، وقلب نعمته نقمة ، ورخاءه شدة ، فإنه ما أراح [2] رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه الى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الامراض وأنواع الاسقام ما بغض اليه العيش ، وحبب اليه الموت : لم يحمه قصره ، ولم يغني عنه ماله ، فهو عبرة للمعتبرين ، وموعظة السابلة [3] ؛ فكبر الرجل في ذرعي [4] وعظم في عيني ، وأكبرت فيه وفي امته هذه الخلال الشريفة ، والأخلاق العالية، وقلت في نفسي ان مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة واصول التربية وفنون الآداب ، لتعجز عن ان تخرج للناس رجالاً يستطيعون ان يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم ؛

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٢) اراح فلان الشيء : وجد ريحه .
(٣) السابلة : المختلفون على الطرقات في حوائجهم .
(٤) كبر في ذرعي : عظم وقعه عندي .

وأردت ـ على ذكر المدارس ـ ان اعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ : هل لك ان تزيرني مدرسة من مدارسكم ؟ فعجب لسؤالي وقال : مـا المدرسة ؟ فكان عجبي لجوابه اكثر من عجبه لسؤالي وقلت:المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون ، قال : مـا الذي يتعلمه الصغار من الكبار ؟ قلت : مـا يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم وميعادهم ، قال : وأي حاجة بنا الى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ؟ إنا يا سيدي ارحم بابنائنا من ان نكل امرهم الى غيرنا، فنحن الذين نتولى هـذا الشأن منهم . فـلا مدارس عندنـا غير المصانع والمزارع؛نعلمهم فيها كيف يرمون البذور ..وكيف يستنبتونها..وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها .. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم .. وإنا لا نعرف علما غير العمل ولا نعرف من العمل غير مـا نحفظ به قوام حياتنا .. ونستعين به على عبادة ربنا . قلت الكم حاكم يتولى اموركم ؟ قـال لنا : حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته .. فاخترناه لفصل الخصومات ان عرض لنا من ذلك عـارض . قلت : اليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ احكامه ؟ قال كلنا جنده وكلنـا واعوانه على كل من يختلف عليه او يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى .

قلت : اليس له سجناً يسجن فيه الجرمين ؟

قال : لا .. حسب الجرم عندنـا عقوبة ان يتفق اهـل المدينة على احتقاره والزراية به .. وان احدنا لا يؤثر ان يتخطفه الطير او يسقط

عليه كسف[١] من السماء على ان يرى نفسه بغيضاً الى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في اعينهم . . لا يرفعون اليه طرفاً ولا يقيمون له وزناً .

وما وصلنا من حديثنا الى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا الى المنزل الذي خرجنا منه .. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق .. فلم ار فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتاً اسعد حظاً ولا انعم عيشاً ولا اروح بالا من هذا البيت .

تلك هي « مدينة السعادة » التي يعيش اهلها سعداء لا يشكون هماً .. لأنهم قانعون . ولا يمسكون في أنفسهم حقداً .. لأنهم متساوون ؛ ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون .

تلك « مدينة السعادة » التي رأيتها فاحببتها وأحببت العيش فيها .. لولا ان الله في خلقه سنة لا تتبدل .. وشاناً لا يتحول .. فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي في منزل الشيخ فلم استيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ؛ فلا السهل ولا الجبل .. ولا الشيخ ولا المزرعة .. ولا المدينة ولا السعادة :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى[١] أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه منى، فتمنينا فكنت الأمانيا

(١ الكسف القطعة .

(١) طل امطره الطل ، وهو المطر القليل .

أيها المحزون

إن كنت تعلم انك اخذت على الدهر عهداً ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك..وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك ان تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مارب او استعصى عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في اخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها ،. حتى تكر عليها راجعة فتستردها .. وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم . . سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ .. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء .. ومن ينام على بساط الغبراء ؛ فخفض من حزنك وكفكف من دمعك .. فما أنت باول غرض أصابه سهم الزمان . وما مصابك باول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان .

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الامل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً .. وقلبك سروراً ؛ وما هي إلا كرة الطرف ان

افتقدته .. فما وجدته . ولو انك اجملت في املك لما غلوت في حزنك .. ولو أنت انعمت نظرَك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ..ما تظنه نجما زاهراً . وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها .. ونظر اليها نظرة المستريب بها .. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها .. فإن بقيت في يده فذاك ، والا فقد أعدّ لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت،ولو الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق .

* *

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزويا في ركن من الأركان في احد الاندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن ، وانحنى على نفسه كانما هو يشعر ان قلبه يتنزى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه اراد بنفسه خيراً لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والاحزان .

سألته : ما بالك ايها الصديق ؟ قال : لا شيء ؛ قلت : انت تكتمني ما في نفسك ، ولو عرفتني ما كتمتني ، قال : ما جهلتك مذ عرفتك ، ولكنني أعطيت الله تعالى عهداً مذ خلقت ألا اشكو الا من ارجو عنده البرء ، وما انا براج عندك ولا عند احد من الناس براءاً من دائي، قلت : هبني طبيباً ، والطبيب وان كان لا يشفي الا نادراً فإنه يسكن غالباً ويعزي دائماً . فان انا عجزت عن معالجتك فلن اعجز عن تعزيتك ، على

ان المـــاء اذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس عنه ، والا طـــار بالقدر ، طيران الهم بالصدر .

فاصغى الى كلماتي واستخذى لها وأنشأ يحدثني حديثاً تمازجه العبارات وتقطعه الزفرات ، يقول : زوجني ابي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج الا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وارضاء نفسها وهو يحسب انه قد احسن اليّ بسليلة المجد، وربيبة النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور ، اجل انهـا ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عنه — غفر الله له ! — انني مـا كنت اريد ان اكون تاجراً اكسب مالا ، بل زوجاً ، وأن اجد بجانبي نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبهـا ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي ، لا تكذبني في خير ولا شر واني اريد ان اجد في الزوجة التي اتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى ارضاع طفلها، ولبس ثوبها على ان ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها ؛ فقد كانت لها خادم للابسها، واخرى لشعرها واخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ؛ ومرضع وقهرمانة[1] وخياطة خـاصة بهـا ، وطبيب لا يغب[2] عن زيارتهـا ، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها .. ولم تكن ممن انعم الله عليهن بنعمة الجمال .. فكانت تنفق مـا يزيد عن نصف دخلها في الحسن المجلوب والجمال المكذوب .. وليتها كانت كانت تغفل أمري وتتركني وشاني فاستطيع ان اتناساهـا واعد نفسي

(١) القهرمان : الوكيل ، أو أمين الدخل والخرج ، جمعها : قهارمة .
(٢) أغب فلان القوم : إذا جاءهم حينا بعد حين .

من العذاب تخيلا وتقديراً، بل كانت تقيم عليّ من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب [1] المحيط بهـا حراسـاً كحراس الليـل وجواسيس كجواسيس الإنكليز ، يرقبن مواقع نظري ومواطىء قدمي ، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتتغار عليّ من الكواكب اذا رأتني انظر اليهـا .. وتـكاد تمزق الثوب الذي تعلم اني احبه وأؤثره .. وتحسبها آهة الوجد او دمعـة اذا رأتني اتاوه من آلام عشرتها او ابكي لعظم مصيبتي فيهـا .. وما هي بغيرة الحب ، ولكنها الاثرة [2] قبحها الله وقبح كل من تاتي به ، واكثر ما كان يغيظني منها : انها مـا كانت تفتح عليّ باب الحساب على اللفتات والخطوات الا في الساعة التي اريد ان اخلو فيها بنفسي او بكتابي ، فمـا اكاد انتفع بواحد منها . فإن سكت اغضبها سكوتي وان نطقت اغضبها حديثي . وان قرأت في كتابي ظنت ان المؤلفين ما الفوا الكتب الا نكاية بها لاستطيع ان اتخذها معتصماً اعتصم به من محادثتها ومسامرتها. .فكان الكتاب في نظرها اعدى أعدائها وابغض الاشياء اليها ، وجملة القول انها ما كانت تستطيع ان تتصور الا ان الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع اطوار حياتها ، وانه ما خلقني الا لاكون زينة مجلسها ودمية [3] قصرها ، واداة لهوها ولعبها ، فلا اقرأ ولا اكتب ولا اعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا ابكر لمزاولة اعمالي ولا اسام أحاديثها الطويلة المملة التي لاتشمل الا على نقد الازيـاء واغتيـاب النسـاء . فإن وافيت فذاك والا

(١) الجحفل : الجيش واللجب : ذو الجلبة والصياح .
(٢) الأثرة : اختيار الشيء والاستئثار به .
(٣) الدمية : الصورة المنحوتة من المرمر .

استحالت في لحظة واحدة من انسان ناطق الى وحش مفترس، فلاتعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها عليّ. فكنت ـ بين الم رضاها وعذاب غضبها ـ في شقاء حبب اليّ الموت وبغض اليّ وجه الحياة . وبعد : فقد رأيت ان العيش معها مستحيل .. فلم ار بدأ من فراقها ففارقتها وما على وجه الارض شيء ابغض اليّ من الجد .. ولا اسمج في نظري من المال .قلت:ولكنني لا ازال اراك حزيناً حتى الساعة . قال : نعم لانني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة .. ورحت افتش عن الزوجة المتعلمة وقلت : ليكونن لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول .. بعد ما صار اليّ الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار .. فهيا لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جواري ان في بيته فتاة جميلة ما زال يعني بأمرها حتى خرّجها [1] وأدبها فاصبحت نابغة مدرستها .. وسيدة أترابها علماً وفضلا وتهذيباً وأدباً . فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها .. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها.. فوقعت في نفسي احسن موقع .

* وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل *

خطبت الفتاة الى أبيها فما لبث ان أخطبني [2] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً .. وخيل اليّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة

---

(١) خرج الأستاذ تلميذه : هذبه وعلمه .

(٢) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه : أي أجابه .

حيـاتي ، وسجلت ان الدهر أنشأ يكفر بحسناته مـا اسلف من سيئاته ؛ فاني لكذلك وقـد أعددت للبناء بهـا عدته ، ولم يبق بيـني وبينه الا يوم واحد ، اذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب ، فهاكهه فاقرأه ؛ فان فيه بقية قصتي ، وسر نكبتي . ثم ألقى اليّ بكتاب معنون بإسمه ، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه ، ووجدت مع البطاقة كتاباً فقرأت فيه ما ياتي :

« علمت انك خطبت فلانة الى أبيها وانك عما قليل ستكون زوجها، ولعمري لقد كذبك نظرك ، وخدعك من قال لك انك ستكون سعيداً بها ، فانها لن تكون لـك بعـد ان صارت لغيرك ، ولا يخلص حبـك الى قلبها بعد ان امتلأ بحب عاشقها ، فاعدل عن رأيك فيها ، وانفض يـدك منها ، وان أردت ان تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صـدق خبري واخلاصي اليك في نصيحتي فانظر الى الصور المرسلة مع هذا الكتاب ؟

التوقيـع »

فما نظرت الصورة وقرآت الكتاب حتى عرفت كل شيء، فاحسست برعشة تتمشى في اعضائي ،وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، الا انني تماسكت قليلا ، فاعدت اليـه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت ان اقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد مـا انكشف لك سرها ، وظهرت لـك حقيقتها ، ولو كنت

مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها ، الى الاستغفار من حبها ، وحمداً لله على ما الهم من صواب الرأي فيها ؛ أمـا ان سالتني عن رأيي في زواجك بعد الآن ، فاني لا أرى لك الا ان تترهب وتتعزب [1] وان تقول ما قاله « هملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها : « الى الدير .. الى الدير » .

* *

(١) تعزب : أي عاش عزباً لا يتزوج

الرحمة

ساكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر، لأني أريد ان اخاطب القلب وجهاً لوجه ، ولا سبيل الى ذلك الا سبيل الشعر .

ان البذور تلقي في الأرض فلا تنبت الا اذا حرث الحارث تربتها ، وجعل عاليها سافلها ، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته ، وتخللت اجزاءه ، وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد : كن رحيماً ، اشعر قلبك الرحمة ، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : اني غير سعيد ، لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب ، اجل . فليكن ذلك كذلك ، ولكن اطعم الجائع واكس العاري ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك واحزانك ، ولا تعجب ان يأتيك النور من سواد الحلك ، فالبدر لا يطلع الا اذا شق

رداء الليل ، والفجر لا يدرج الا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها .. ورثت حبالها ..واصبحت اثقل على النفس من الحديث المعاد .. ولم يبق ما يعزى الإنسان عنها الا لذة واحدة : هي لذة الإحسان .

ان منظر الشاكر منظر جميل جذاب .. ونغمة ثنائه وحمده اوقع في السمع من العود في هزجه ورمله [1] واعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول [2] .

احسن الى الفقراء والبائسين ، واعدك وعداً صادقاً انك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ، انك اكرم مخلوق ، وأشرف إنسان ، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك ان يجزيك الله خيراً بما فعلت .. فيدعو صاحبه بدعائه ، ويرجو برجائه .. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بها الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة : ما يجده الصالحون اذا ذكروا في الملأ الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون او مفؤود [3] فتبتسم سروراً ببكائك .. واغتباطاً بدموعك ، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور .. تسجل لك في تلك

(١) الهزج والرمل : نوعان من الموسيقى .
(٢) معبد : أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقيل الأول : ضرب من ضروب الغناء.
(٣) المفؤود : المصاب في فؤاده بألم او غيره .

الصحيفة البيضاء : انك إنسان .

ان السماء تبكي بدموع الغمام..ويخفق قلبها بلمعان البرق .. وتصرخ بهدير الرعد ، وان الارض تئن بخفيف الريح .. وتضج بأمواج البحر ، وما بكاء السماء ولا أنين الارض الا رحمة بالإنسان .. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وانينها .

ان اليد التي تصون الدموع ، افضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور . اشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن افضل من القائد واشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيي الميت . ومن يميت الحي .

ان الرحمة كلمة صغيرة .. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها . والشمس في حقيقتها .

واذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالتـه من القلب الرحـيم .. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة .

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم .. ولأقفرت الجفون من المدامع .. ولاطمانت الجنوب في المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه . ولم يقذف به في هـذا المجتمـع ليموت فيه جوعاً .. بل أرادت حكمته ان يخلقه ويخلق له فوق بساط الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته . ويسد حاجته .. ولكن سلبه الرحمـة فبغى بعضه عـلى بعض وغـدر القوي بالضعيف واحتجن دونه رزقه .. فتغير نظام القسمة العادلة .. وتشوّه وجهها الجميل .. ولو

كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان للشقاء اليها سبيل .

الفرد هو المجتمع .. وإنما يتعدد بتعدّد الصور .. أتدري متى يكون الإنسان إنساناً ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة واشعرها نفسه .. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها . فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها ، انفرد عنها واستوحش من نفسه ، واذا كان الأنس ماخذ [1] الإنسان المجتمع .. فالوحشة ماخذ الوحش المنقطع .

وجماع القول انه لا يمكن ان تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الاشقياء في مكان واحد ، الا اذا أمكن ان يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم .

ان من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل .. فاذا مشى مشى مندفعاً مندلثاً [2] يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة ، واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه الا الإغراق في الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه ، وان من الناس من اذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم [3] ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم الا كما يعامل شويهاته وبقراته .. لا يطعمها ولا يسقيها الا لما يترقب من الربح في الاتجار بالبانها واصوافها ..ولو استطاع ان يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل .. وان من الناس لا حديث له الا الدينار واين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل الى حبسه والوقوف في

(١) ماخذ الكلمة : أصل اشتقاقها .
(٢) الدلث : كاندفع .
(٣) الدرة : اللبن اذا كثر وسال .

وجهـه والحيطة لفراره .. يبيت ليـله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته او يحلم في منامه انه سيأتيه فلم يقيض له ، وأن من النـاس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة او يدفـع عنهـا مضرة ، بل لأنه شرير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه او ليضرّي[1] نفسه بالاذى مخافة ان ينساه عند الحاجة اليه .. حتى لو لم يبـق في العـالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه .. وان من الناس من اذا كشف لـك عن أنيابـه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيهـا ، او عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها الا الصورة البشرية ، او عن قلبـه رأيت حجراً صـلداً من احجار الغرانيت لا يبـضّ[2] بقطرة من الرحمة .. ولا تخلص اليه نسمة من العظة .

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله ان تكون واحداً من هؤلاء فـانهم سباع مفترسة وذئاب ضارية .. بـل اعظك ألا تدنو من واحـد منهم او تعترض طريقه .. فربما بدا له ان يأكلك غـير حافل بـك .. ولا آسف عليـك .

أيها الإنسان . ارحم الارملة التي مات عنهـا زوجها ، ولم يترك لهـا غير صبية صغار ، ودموع غزار، ارحمها قبل ان ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة .

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منهـا عرضها علهـا

---

(١) يقال : أضري فلان كلبه بالصيد ، وضراه : اذا أغراه به وعوده متابعته .
(٢) بض الدم : سال .

تعجز عن ان تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به سالماً الى كسر بيتها .

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ، ولأن الله قد وكل أمرها اليك ، وما كان لك ان تكذب ثقته بك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فانك الا تفعل قتلته او أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين .

ارحم الحيوان لانه يحس كما تحس ويتالم كما تتالم ويبكي بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يبين .. ارحمه وكذب من يقول ان الإنسان طبع على ضرائب لؤم ، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يداً .

ارحم الطير لا تحبسها في اقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء ، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، ان الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها ؛ أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الاشجار ، وفي الغابات ، وعلى شواطىء الانهار ، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء ، فيخيل اليك انها اجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار .

أيها السعداء . احسنوا الى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الاشقياء ، وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .

رسالة الغفران [1]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها ، ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة [2] بانواع من الخلق لا احصيهم عدداً ، فعلمت أني بعثت ، وانه يوم القيامة ، فساورني [3] من الهم ما ساورني حين ذكرت ان مقداره ألف سنة من سني القيامة ،وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظما وجوعاً ، ويحترق تحت اشعة شمس ليس بينه وبينها الا قيد ظفر ، فتماسكت بضعة اشهر ، ثم لم أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلا ، فزينت لي نفسي الكاذبة ان اذهب الى رضوان خازن الجنان ، وكنت احمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه وألتمس منه الاذن بالدخول قبل انفضاض الحشر ، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة [4] باسمه كما كنت أرقي بامثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها ، فما أبه [5] لي ولا فهم كلمة مما اقول ، فانصرفت عنه الى

(١) للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها .
(٢) مكتظة : مملوءة . (٣) ساورته الهموم : واثبته وملكت ناصيته .
(٤) المسومة : المعلمة . (٥) أبه : احتفل .

خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه ؛ الا انه كان أرق منه وألين جانباً ، فاشار عليّ بالذهاب الى النبي الذي أتبعه ، وأفهمني ان الأمر موكول اليه ، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به ، فبينا أنا اتخلل الصفوف ، وازاحم الوقوف ، إذ وقـع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم ، وانعمت النظر فيـه ، فـاذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، واذا بالمحتفين بـه جماعـة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه ، هذا يقول له : رويت بيتي عـلى غـير وجهه ؛ وذاك يقول : أعربته عـلى غير مـا أردت وذهبت ، فدفعني الفضول كما دفعهم الى الـنزول في ميـدانهم فما فرغنـا من الرفـع والنصب والزيادة والحـذف حـتى أدركت شؤم مـا فعلت ، وعلمت ان شهادة التوبة قـد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت : قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب ، إنها شؤم الآخرة والاولى .

وقفت أحير من ضب في حمارة قيظ [١] لا أدري ما آخذ ، وما أدع ، حتى رميت بطرفي فاذا بامـير المؤمنين عـلي بن أبي طالب في لفيف من العترة [٢] الطاهرة النبوية فدلفت [٣] اليه وأبثثته [٤] أمري وأمر الشهادة المفقودة فقـال : لا عليـك ، ألـك شاهـد بالتوبة ؟ قلت : نعم ، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي ، فقال : تريث [٥] قليـلا حتى تمر فاطمة بنت محمـد فنسالها في أمرك ، فهي تمت الى أبيهـا بمـا لا نمتُّ به [٦] وكانت ممن

(١) الحمارة ـ بالتشديد ـ شدة الحر .
(٢) عترة الشخص : عشيرته وأهله .
(٣) دلف : مشى مشياً متثاقلا .
(٤) أبثه السر : كاشفه .
(٥) تريث : أبطأ .
(٦) تمت بالشيء : توصل به .

قسم لهم دخول الجنـة قبـل فصل القضاء الا أنهـا كانت تخرج كل حـين للتسليم على أبيها ، ثم تعود الى مستقرها ، فإنا لكذلك ، واذا بمناد ينادي ان غضوا ابصاركم يا اهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمـد صـلى الله عليه وسلم ، فهرعت اليها ، فرأيتها راكبـة مـع اخوتها وجواريها عـلى افراس من نور ، وتقدم من وعـدني بسؤالها في أمري ، فانجز وعـده ، فقالت لأخيها ابراهيم : دونك الرجل ، فقال : تعلق بركابي ، فتعلقت ، فطارت الافراس في الهواء تقطـع الاجيـال وتتخطى رؤوس القرون ، حتى وافينا محمداً صـلى الله عليه وسلم ، واقفـاً لشهادة القضـاء ، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري ، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفـع لي فعـدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً ، ومـا كنت اقدر ان بين يدي عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فامرت فاطمة جارية من جواريها ان تعبر معي فامسكت بيدي ، فمشيت اترنح ذات اليمـين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لهـا : احمليني زقفونـة ، فقالت : ومـا زقفونـة ؟ فقلت : أمـا سمعت قول الجحجلول من اهل كفر طاب :

صلحت حالتي الى الخلف حتى صرت امشي الى الورا زقفونة

فقالت : ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب ، فقلت : ألقي يدي فوق كتفيك ، واجعل بطني الى ظهرك ، فحملتني ، وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف ، حتى صرت الى باب الجنة،فرمت الدخول

فوقف رضوان في وجهي وقال : اين جوازك [١] فبعلت [٢] بالأمر ؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على ان يعطيني منها ورقة اعود بها الى الموقف لأستكتب عليها الجواز فابى ؛ فقلت ، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي : أما والله لو انك حارس على أبواب الكرماء ، او خازن لخزائن الملوك والامراء لما وصل شاعر الى درهم ، ولا سائل الى سحتوت [٣] ، ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً ، فسمع ابراهيم عليه السلام حواري [٤] فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر اليّ شزراً فدخلت ، فرأيت ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

رأيت انهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، واصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر ، اذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وامن ان يذوق كاس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكئوس من الزبرجد ، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لاهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خمار [٥] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطر بل [٦] من من البواطي [٧] والدنان ، ولو نظر الاقيشر الاسدى بعين الغيب الى

---

(١) الجواز : صك المسافر . (٢) بعل بأمره : برم به فلم يدر ما يصنع فيه .
(٣) السحتوت في الأصل : السويق القليل الدسم ، ثم أطلق على كل شيء قليل .
(٤) الحوار : مراجعة الكلام .
(٥) الخمار : صداع الخمر . (٦) بلدان معروفان بجودة خمرهما .
(٧) جمع باطية ، وهي إناء الشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه .

عسجد هذه الاباريق وزبرجد تلك الكئوس لخجل من نفسه ان يقول :

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القوازيز [1] أفواه الاباريق

وفي تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور كالكراكي والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها اسماك من الذهب والياقوت :

يعمن فيها بأوساط مجنحة [2] كالطير تنشر في جو خوافيها

ورأيت انهاراً من لبن ، وانهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه الا اذا ادرك ما يمتص نحل الجنة من ازهارها وانوارها .

رأيت جميع تلك الانهار مكبرة ، ثم تمثلت في نظري مصغرة ، فاذا هي سطور من النور ، واحرف بيضاء في صحيفة خضراء ، قرأتها فرأيتها « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن، وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات » .

ظللت أمشي فما أكاد اخطو خطوة حتى أرى منظراً عجباً ينسى السابق ، ويشوق الى اللاحق، فوددت لو طويت لي الارض طياً فاتعجل النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرساً من الجوهر المتخير مسرجاً ملجماً فعلمت أني قد سعدت وانها الامنية التي كنت أتمناها ، فعلوت ظهره

---

(١) القوازيز : جمع قازوزة ، وهي قدح الشراب . (٢) مجنحة : ذات أجنحة .

وغمزتـه غمزة خرج بها خروج الودق[١] من السحـاب ، والسيف من القراب[٢] ، وعلى مـا جهدته لم يشك اليّ مـا شكاه جواد عنترة العبسي اليه في قوله :

فازور من وقـع القنـا بلبانه وشـكا اليّ بعـبرة وتحمحم

او ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة اليه في قوله :

تشكي الكميت الجرى لما جهدته وبين لو يسطيـع ان يتكلما

ذكرت أني ، وأنا في الدار الفانية كنت اسمع بذكر الذاهبين الاولين من الادبـاء والشعراء والرواة ، فآسف عـلى ان لم اكن في زمنهم أراهم واحضر مجالسهم ، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار ، وهل سعدوا او شقوا ، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء ، ما لم يقيض في دار الفناء ؟

ثم رميت بطرفي فاذا فارس يحضر فرسه[٣] في الهواء إحضاراً حتى تقاربنـا فتماست الركب واختلفت الاعناق ، فقـال : انتسب ، فقلت : فلان ، ومن انت يرحمك الله ، وقد فعل ؟ فقال : عدي بن زيد العبادي ، فدهشت وقلت : عدني ابن زيد في الجنة بعد الزيـغ والضلال ؟ فقال انا عيسوي ، وانت محمدي ،وليس لصاحبك على احد حجة الا بعد ظهوره، وبلوغ دعوتـه ، فقلت : لا نكران ؛ ولكن كيف لم يقعـد بـك فسقك وشرابك ، واين استهتارك في قولك :

(١) الودق : المطر . (٢) قراب السيف : غمده .
(٣) أحضر الفرس : ارتفع في عدوه .

بكر العاذلون في وضح الصبح   يقولون لي أما تستفيق
ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت   قينـة في يمينـها إبريـق

قال : غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلت : هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله ان أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة ! فقال : اصحبني ، فطارت بنا الخيل ، فقلت له : هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد او هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً او ساقاً ؟ فتبسم ، وقال : اين يذهب بك ؟ نحن في دار الخلود والبقاء .

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر. متقابلين ، او على الأرائك متكئين ، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هويه ، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار ، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ، ثم اخذوا فيا كانوا فيه ، فاذا الأصمعي ينشد مروياته ، وابو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان ، واذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد ان وقع بينهما في مجلس البرامكه ما وقع ، وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر ، واخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون :

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه ، وقلت في نفسي : لولا ان قريشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا ، فسمعت

هاتفاً من ورائي يقول : انـا بينكم ، وفي مجلسكم ، فالتفت فـاذا الأعشى ميمون ، فلم أدر من أي مدخليه [1] اعجب ، امن مدخله الى الجنة ؟ أم من مدخله الى نفسي ، وعلمه بما هجس في صدري ؟ فعلمت ان أهل الجنة ملهمون ، ثم سالته : كيف غفر لك ؟ فقـال : سحبتني الزبانية الى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلا يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد ، فاخذت أخذهم ، وهتفت هتافهم فأمر ان أدنو منه ، فدنوت فسالني : ما حرمتك ؟ فقلت : أنا القائل :

ألا أيهـذا السائـل ان يمت   فإن لهـا في اهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لهـا من كلالة   ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم   تراحى وتلقى من فواضله ندا
نبي يرى ما لا ترون وذكره   أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فقال : مـا سمعتها منك قبـل اليوم ، فقلت : خدعتني عنك الناس بعد ما شددت راحلتي اليك ، وكنت رجلا احب الشراب وخفتك عليه ان تفرق بيني وبينه ، فشفع لي ، فدخلت الجنة على ألا اذوق فيها الخمر ، فقنعت بالرضاب عن الشراب ، وبمـاء الثغر المنضود عن مـاء العنقود ، ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب ، فسالت عنه فقيل لي : زهـير بن ابي سلمى ، فما كدت اصدق انه القائل :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانـين حـولا لا أبالـك يسأم

فقلت له : بم غفر الله لك ؟ فقال : كنت في جاهليتي أترقب مبعث

---

(١) المدخل : مصدر دخل ، كالدخول .

محمد ، وأتمنى البقاء حتى أراه ، فحال بيني وبينه الموت ؛ فأوصيت به ابني كعباً وبجيراً وكنت أؤمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن الله مافي نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب او يقدم فينقم

والى جانب زهير ، عبيد بن الأبرص ، فسألته عن مصير أمره ؟ فقال : كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم الى النعيم .

ذهبنا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنا الى ارتشاف الخمر من النهر ، في آنية الدر ، فانتشينا جميعاً فما افقنا الا على حفيف رف [1] من إوز الجنة نزل بنا ،ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج ، فما أتين على الألحان الثانية حتى دارت بنا الارض الفضاء ، وحتى ملكنا من الطرب ما يستخف الحلوم ويطير بالهموم ، وقلنا : لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيه ، لقرع السن على ان باع دينه بسرور محدود وانس معدود ، ودف وعود .

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فتمنيت ان أطلع فأرى المعذبين كما رأيت المنعمين ، فألهمت الإذن ، فأشرت لصاحبي فقام وقمت ، وركبنا فرسينا فطارتا بنا

(١) الرف : القطيع من الطير .

حتى انتهيا الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ زري الهيئة ، فاشرفنا عليه فقال : لا تعجبوا لشاني ، أنا الحطيئة .. فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي :

أرى وجهاً شوّه الله خلقه   فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة .. ولما ادركت كوخاً ولا حجراً ، فتركناه .. وطلعنا ، فما رآنا اهل النار حتى ضجوا بصوت واحد « ان أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله » فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون [1] في السلاسل والاغلال ويقولون : « ربنا ارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فيهتف بهم هاتف « او لم نعمركم ؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فاذا هي الخنساء ، تطلع مثلنا فترى رجلا كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار . فتمتعض وتقول : يا صخرة .. هذا تأويل قولي فيك من قبل :

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيراً من امثال أمرىء القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد ، ورأيت بشارا بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار ، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله ، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك :

---

(١) يقال : بات الصبيان يتضاغون من الجوع ، أي : يتضورون منه .

إبليس افضـل من أبيـكم آدم   فتبينـوا يـا معشر الأشرار
النـار عنصره وآدم طينـة   والطـين لا يسمو سمو النـار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع .. واذا إبليس يهتف بنـا : يا اهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم ادخل النار بسببه حتى اخذت معي اكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلا يهنأ كثيراً بمصيري ، فقلنا : قبحه الله ، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم ، فما كان لنا همّ بعـد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام .. فلقيناه .. فبلغناه الرسالة ، فقال: وارحمتاه له ، مـا كان بينه وبـين الإيمان الا القليـل .. فأرداه الحسد فكان من المهلكين .. فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير .. وحور وولدان ، كأنهم الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

●

عبرة الدهر

بـني فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصراً فخما يتلألأ في تلـك البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنـير في البقعة الزرقاء .. ويطاول بشرفاته الشماء افلاك السماء ، كانه نسر محلق في الفضاء ، او قرط معلق في أذن الجوزاء ، وكان شرفاته آذان تفضي اليها النجوم بالاسرار ، وطاقاته ابراج تنتقل فيها الشموس والاقمار .

شاده مرمراً وجلله كلسا فللطير في ذراه وكور [1]

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة[2] لرسام الا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته واركانه حتى ليخيل الى السالك بين ابهائه [3] وحجراته ، ومحاربيه وعرصاته [4] انه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء ،

---

(١) الكلس : الصاروج يبنى به .

(٢) ليقة الدواة : صوفتها ، ويتخذها أيضاً لجمع أخلاطه فيها .

(٣) الأبهاء ، جمع بهو ، وهو البيت المقدم أمام البيوت .

(٤) المحراب هنا : صدر البيت ، والعرصات ، جمع عرصة : وهي ساحة الدار .

والانوار البيضاء ،الى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء، والنمور الرقطاء ، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الاسود ، الى غاب تصيد فيه الاسود الظباء، وأنشأ في كبرى ساحاته ، وأوسع باحاته : صهريجاً من المرمر مستديراً يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعداً كانه سيف مجرد ، او سهم مسدد ، فيخيل الى الرائي ان الارض تثأر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب ، وهذه تحاربها بالسهام والقضب . وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات ، واغصان ، صنوان وغير صنوان ، اذا رنحتها نسائم الاسحار .. رقصت فوق بساط الأزهار ، وتحت ظلال الأثمار ، فغنت على رقصها الاطيار ، غناء الاغاريد لا غناء الأوتار ، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته[1] ما شاء الله ان يدخر من نضائد[2] ومقاعد ، ووسائد ومساند ، وفرش ، وعرش ، وكلل[3] وحجل[4] ، وتماثيل وتهاويل[5] وصحاف من ذهب ، كاللهب ، واكواب من بلور ، كالنور ، واقفاص للحمائم والنسور ،ومقاصير للسباع والنمور ،وعربات وسيارات ،وجياد صافنات،ووصائف وولائد ،تحيط بالمجالس والموائد .. إحاطة القلائد .. بأعناق الخرائد .. وخدم حسان .. تنتقل في الغرف والقيعان .. تنقل الولدان في غرف الجنان .

---

(١) بلهنية العيش : رخاءه : (٢) النضائد : جمع نضيدة ، وهي الوسادة .
(٣) جمع (كلة) بالكسر : وهي الستر الرقيق .
(٤) جمع (حجلة) بفتحات : وهي ستر العروش في جوف البيت .
(٥) التهاويل : النقوش والصور ؛ لأنها تهول من ينظر إليها .

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية [1] الإهاب ، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير امامه غير خادمه « بلال » ، وهو خصى اسود من ذوي الاسنان ، رباه صغيراً وكفله كبيراً ، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء ، فأشار اليه إشارة الواله المتلهف ان يأتيه بجرعة ماء ، فجاء بها ، فتساند على نفسه حتى شرب ، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه ، فسأله : في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال ؟ فأجابه : نحن في الهزيع الاخير يا سيدي ، فقال : ألم تعد سيدتك الى الآن ؟ قال : لا ، فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : انها تعلم أني مريض ، وأني في حاجة الى من يسهر بجانبي ويتعهد أمري ويرفه [2] عني بعض ما اعالجه ، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي واقوم عليّ منها ، واين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الأيمان عليه ؟ اين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها واصائلها ؟ اين النعيم الذي كنت اقلبها في اعطافه والعيش الذي كنت ارشفها كؤوسه؟ أإن علمت أني اصبحت بين حياة لا ارجوها، وموت لا اجد السبيل اليه برمت [3] بي واستثقلت ظلي واستبطأت اجلي واستطالت ضجعتي ، فهي تفر من وجهي كل ليلة الى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور ، آه من العيش ما اطوله ، وآه من الموت ما ابعده !

---

(١) الغداف : الغراب الأسود ؛ وليلة غدافية شبيهة به .
(٢) رفه عنه : نفس عنه وخفف .   (٣) برم به : سئمه وضجر منه .

مازال يحدث نفسه بمثل هذه الاحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت اعصابه . فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كاس الموت جرعاً مريرة ، بيد انه لشقائه لم يأت على الجرعة الاخيرة منها .

أفاق من غشيته مرة ثانية ، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها ، فسأل الخادم : ألا تعلم اين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي ، وألا تلومها في بعدها عنك ؛ فان لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه ؛ قال : ما عرفت قبل اليوم ان بينها وبين احد من الناس شيئاً من ذلك ، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل ؟ وهل اعياها ان تجد من يقوم لها بذلك ، فهي تتولاه بنفسها ؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها اليه سنة كاملة ! قال : ان بينها وبين غريمها صكاً مكتوباً ان يؤدي ما عليه من الدين اقساطاً في كل ليلة قسط ، على ان تتناوله بيدها وان تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي ، قال : ما سمعت في حياتي باغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك ، ومن هو غريمها ؟ قال : انت يا سيدي . فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه [1] وقال : إني أكاد اجن لغرابة ما اسمع ، واحسب انك هاذ فيما تقول او هازىء . فدنا منه الخادم وقال : والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكأس تشربها ،

(١) المشدوه : المدهوش .

وملاعب تجرر فيها أذيالك،ومراقص تهتك فيها اموالك ،تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة ، تتقلب على أحر من الجمر شوقاً اليك ووجداً عليك ، فلا تعود اليها الا اذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح ؛ انك سلبتها تلك الليالي السابقة فاصبحت غريمها فيها ، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تاتي عليها، ذلك هو دينها وهذا غريمها ؛ألا تذكر انك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه ، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب ؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقه ، ويأبى الا ان يأخذه عيناً بعين ونقداً بنقد ، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته ، ويقض[1] مضجعك كما تقض مضجعه ، وانا اعيذك بعدلك وإنصافك ان تكون من لواة الدين ، او تكون من الظالمين .

قال حسبك يا بلال ، فقد بلغت مني ، وان لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي ، فادع لي ولدي ، قال : لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن ، قال : لا اذكر أني بعثته في وجه ما ، واين ذهب ، قال : ذهب الى الحانة التي يختلف اليها ، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعاً اليك ان تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك ، فكنت تعرض عني إعراض من يرى ان تدليل الولد

---

(١) أقض مضجعه : جعله خشناً .

وترفيهه [1] وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال ، كنت اسالك ان تعلمه العلم وان تهديه الى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة ، فكنت ترى ان الذي يحتاج الى العلم إنما هو الذي يرتزق منه . وان ولدك عن ذلك من الأغنياء ، فلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فانت الذي ارسلته الى الحانة ، وانت الذي أبقيته فيها الى مثل هذه الساعة من الليل ، وانت الذي ابعدته عن فراشك احوج ما كنت اليه .

وما وصل الخادم من حديثه الى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده ، واذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها ، فقال السيد : هات يدك يا بلال واحملني الى جوار النافذة لأروّح عن نفسي بعض ما ألم بها ، او أودع الى جانبها نسمات الحياة ، ثم اعتمد على يده حتى وصل الى النافذة : فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين الى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال اثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة . رآهما متحابين متعاطفين ، لا يتعاتبان ولا يتشاحان [2] ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً ، رآهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافياً متسلسلاً وكأنهما يحاولان ان يخرجا من إهابهما [3] مرحاً ونشاطاً ، رآهما راضيين

---

(١) رفهه : جعله مرفهاً ، أي لين العيش .

(٢) من المشاحة . وهي المخاصمة والمجادلة .

(٣) الإهاب : الجلد .

بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشونة [1] المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة ، سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فاذا البستاني يقول لزوجه : والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه ، وآنيته وخرثيه [2] ، على ان تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران ، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والاحزان . فقالت : لا احسب ان سيدنا ينجو من خطر هذا المرض ، فقد مر به على حاله تلك عام كامل ، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولا ، قال : قد علمت ان الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه واضمر اليأس منه . ولا عجب في ذلك ، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها : قالت : ما أشقاه ، أكانت نفسه عدوة اليه فجنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ، قال : ما كان عدواً لنفسه ، ولا كانت نفسه عدوة اليه ، ولكنه كان رجلا جاهلاً مغروراً ، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد اخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه ، قالت : أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده ؟ قال : أعلم انه سيكون لولده ، قالت : ولكنني أعلم انه سيكون لفلان ، قال : ان فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه ، قالت : إنه ليس بصديق السيد ، بل صديق السيدة ، فهو خاطب زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد مماته .

(١) جشونة المطعم : خشونته .

(٢) الخرثي : أثاث البيت .

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً ، وسقط عن كرسيه وهو يقول : اشهد أني من الاشقياء . وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم .

رأى ولده لاهيـاً بمحادثة فتـاة من فتيـات القصر ، ورأى زوجته تضاحك ترباً من اترابها وتغمزها بطرفها ان قد حان حينه ودنا اجله ، ورأى صديقه او ولي عهـده يامر في القصر وينهي ، ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ، ويعد عدته للانتقال من القصر الى القبر ، وهنا سمع كان هاتفاً يهتف به من السماء ويقول : أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو احسنت اختيار صديقك مـا خانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك .. فاغمض عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئة الله » .

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره :

رب ركب قد أناخوا حولنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها ، والاجسام ارواحها، لست احمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك ، ولا انظر اليك بالعين التي نظر بها اليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك ، لأني اعتقد ان لك شركاء في جريمتك . فلا بد لي من ان انصفك ، وان كنت لا استطيع ان انفعك .

شريكك في الجريمة أبوك ، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك ، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيراً ما كان يبخبخ [1] لك اذا رآك هجمت على تربك وضربته ، ويصفق لك اذا رأى انك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك ، او اختطاف لقمة من يده ، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي انت معلق به اليوم ، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات ، ويصعد الزفرات ، ولو عرف انها جريمته ، وانها غرس يمينه

(١) بخبخ : قال له « بخ بخ » .

لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على ان لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك[1] في يده .

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي اغراك بها ، مهد لك السبيل اليها ، فقد كان يسميك شجاعاً اذا قتلت ، وذكياً فطناً اذا سرقت ، وعالماً اذا احتلت ، وعاقلا اذا خدعت ، وكان يهابك هيبته للفاتحين ، ويجلك إجلاله للفاضلين ، وكثيراً ما كنت تحب ان ترى وجهك في مرآته وجهاً ابيض ناصعاً ، فتتمنى ان لو دام لك هذا الجمال ؛ ولو انه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصورتها الشوهاء ، وهنالك ربما وددت بجدع الانف لو طواك بطن الارض عنها وحالت المنية بينك وبينها .

شريكك في الجريمة حكومتك ، لأنها كانت تعلم ان الجريمة هي الحلقة الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات ، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم ما سينتهي اليه أمرك فلا تضرب على يدك ، ولا تعترض سبيلك ؛ ولو انها فعلت لما اجترمت ، ولا وصلت الى ما اليه وصلت .

كانت حكومتك تستطيع ان تعلمك وتهذب نفسك ، وان تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير ، وان تحول بينك وبين مخالطة الاشرار بإبعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل الارض ومخارمها .. وان تعديك[2] على قتيلك قبل ان يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك .. وان تحسن تأديبك في الصغيرة قبل ان تصل الى الكبيرة .. ولكنها اغفلت أمرك

(١) الجامعة : الغل . (٢) أعدى الأمير فلاناً على فلان ، اذا نصره وأعانه عليه .

فنامت عنك نوماً طويلاً .. حتى اذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت صراخ المقتول .. وشمرت عن ساعدها لتمثل منظراً من مناظر الشجاعة الكاذبة .. فاستصرخت جندها ، واستنصرت قوتها واعدت جذعها وجلادها ، وكان كل ما فعلت انها اعدمتك حياتك .

هؤلاء شركاؤك في الجريمة .. وأقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكني لا استطيع ان انفعك .

فيا أيها القتيل المظلوم : رحمة الله عليك .

★

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء .

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق ، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر .. وسمعت بالكذب .. وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب .. وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم الى اليوم .. وإجماعهم ان الصدق فضيلة الفضائل والاصل الذي تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة .. والصفات الكريمة .. وانه ما تمسك به متمسك الا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله .. وأعلق به من نفسه . سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق في نفسي ريب في ان ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء ، وعيشي من الضنك ، وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب ، وان ما كنت أتخيله قبل اليوم من ان هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة ، إنما هو ضرب

من ضروب الوهم الباطـل .. ونزعة من نزعات الشيطان ، فعاهدت الله ونفسي الا اكذب مـا حييت ، واعددت لذلك القسم العظيم عدتـه من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهت وجهي الى الله تعالى وسألته ان يمدني بمعونته ونصره .

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعـد ذلك العهد ، ومـا رأيته من آثارها ونتائجها .

الموقف الأول : جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم الا صدقتـه القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا استطيـع ان أعد نفسي رابحاً اذا تجاوزت عن بعضه .. فيأبى الا الحطيطة [1] فآباها عليه ، فينصرف عني استثقالا للثمن واستعظاماً لقدره ،وما هو الا الربح الذي اعتدت ان آخذه منه في مثل تلك الصفقة، الا أنني كنت اكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح ، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني الى سواي ، ولم أزل عـلى هـذه الحال حتى أظلـني الليل ، ولم يفتح الله عـليّ بقوت يومي ، ومـا هي الا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمـع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق .

الموقف الثـاني : جلست في مجلس يتصدره شيـخ من تجـار العقول الضيقـة المعروفين بمشايـخ الطرق .. وقـد حف بـه جماعـة من عبدته وسدنة [2] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريبـاً يذهب

---

(١) الحطيطة : ما يحط من الثمن :

(٢) السادان : خادم الهيكل او خادم الكعبة والمراد به الحاجب ، والجمع : سدنة .

فيه الى أنه العقود عن العمل ، وإلقاء حبـل هـذا الوجود عـلى غاربه ، واعراض عن كل سعي يؤدي الى أية غاية ، ويعتمد في هذيانه هذا عـلى آيات يؤولها كما يشاء ، وأحاديث لا يستند في صحتهـا عـلى مستند سوى أنه سمعها من شيخه ، او قرأها في كتابه ، واكثر ما كان يدور على لسانه حديث « لو توكلتم عـلى الله حق توكلـه لرزقـكم كما ترزق الطـير تغـدو خماصاً وتروح بطاناً »[1]. فقلت له ، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه: يا شيخ : أردت ان تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتعمـد الى حديث يستدل به رواته عـلى وجوب السعي والعمل فتستدل بـه عـلى البطالة والكسل ، ألم تر ان الله سبحانه وتعـالى مـا ضمن للطير الرواح بطاناً الا بعد ان أمرها بالغدو ، وهي التي ترويها القطرة ، وتشبعها الحبة ،فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي ، وهو من لا تفني مطالبه ، ولا تنتهي رغباته ؟

أيها القوم ، إنـكم تقولون بالسنتـكم ما ليس في قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم الى الكسل ، وأردتم ان تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلا ،وما هو الا العجز الفاضح، والإسفاف الدنيء .

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ، ونادى في قومه : ان أخرجوا هذا الزنديق الملحـد من مجلسي ، فتالبوا عـليّ تالبهم عـلى قصـاع الثريـد ، وأوسعوني لطماً وصفعاً ، ثم رموا بي خارج الباب ، فما بلغت منزلي حتى هلكت او كدت ، فـما مررت بعـد ذلـك بطائفة من العامـة الا رموني

(١) الخماص جمع خميص ، وهو ضامر البطن ، والبطان جمع بطين ، وهو ممتلىء البطن .

بالنظر الشزر ، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون بـه من الشيطان الرجيم .

الموقف الثـالث : لا أكتمك يـا سيدي ، أني كنت أبغض زوجـتي بغضاً يتصدع له القلب ، غير أني كنت أصانعها وأتودد اليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي ، مداورة لها وإبقاء على مـا تحتويه يدي من صبابة مال كانت لها ، فرأيت ان ذلك اكذب الكذب وأقبحه ، فآليت على نفسي ألا اسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريرتي، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني وأظلم مـا بيني وبينها ، فـما هي الا عشية او ضحاهـا ، حتى وهنت تلك العقدة ، وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق .

الموقف الرابـع : حضرت مجتمعاً يضم بـين حاشيته جماعة من الفضولين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجاون الى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم ، ويحاولون ان ينبشوا دفائن صدورهم ، ويتغلغلوا في أطواء[1] سرائرهم ؛ ويغالون في ذلك مغالاة الكيمائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بالسنتهم رجلا عظيماً من اصحاب الآراء السياسية لا أعتقد ان بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه ، او وقف المواقف المشهورة وقوفه ؛ او لاقى في ذلـك السبيـل من صدمات الدهر وضربات الايام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً ، فوالله لان تقع السماء على الارض أحب اليّ من ان يتهم البريء او يجازي المحسن سوءاً

(١) أطواء الثوب : طرائقه ومكاسر طيه .

على إحسانه ؛ سمعت ما لم املك نفسي معـه ؛ فقلت يا قوم ، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً [1] ثم لا تزالون عبيد الاوهام ، أسرى الخيالات ، سراعاً الى كل داع ، سعادة مع كل ساع ، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم ، إنـكم بعملكم هـذا تزهدون المحسن في إحسانـه ؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم ؛ وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ؛ أليس مما يلقي في النفس اليـأس من نجاحكم وصلاح حالكم ، ان نراكم طعمة كل آكل ؛ ولعبة كل لاعب ، ويستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بهـا المرضعات اطفالهن ثم يدعوكم الى مناوأة الصـادق فتمنحون الأول ودكم واخـلاصكم ، والثـاني بغضكم وموجدتكم . خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم ، فارادوا شراً بي ! فما خلصت من بينهم الا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم اين مكانها من عنقي !

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً [2] كبيراً كنت ذاهباً الى موعد لا بد لي من الوفاء به، فرض عليّ ان يسمعني قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعـد ان كاشفته بعذري فابى ، فانتحيت بـه ناحية من الطريـق فانشأ يـترنم بالقصيدة بيتاً بيتـاً ، وأنا اشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أنه لو ضربني بهـا جملة واحـدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هـذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيـع ، وكلما أتى عـلى بيت

---

(١) يريد ان تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف . (٢) الطومار : الصحيفة .

منها أقبل عليّ بوجهه ، وأطال النظر في وجهي وحدق في عيني ، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكاس فيستمر في شانه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً ، ثم وقف وقال : هذا هو القسم الاول من اقسام القصيدة ، فقلت ؛ وكم عدد أقسامها يرحمك الله ؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها ،قلت: أتأذن لي ان اقول لك يا سيدي ان شعرك قبيح ، واقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الاجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل عليّ فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي الا لأجله ..فتلقاني بضربة بجمع يده [1] في صدري ، فرفعت عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها ـ يعلم الله ـ الا ان اصيب مركز الشعر من مخه فافسده عليه فسقط مغشياً عليه . وسقطت القصيدة من يده فاسرعت اليها ومزقتها ، وأرحت نفسي منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبتي فيها ، وكان الشرطي قد وصل الينا فاحتملنا جميعاً الى المخفر ثم الى السجن حيث اكتب اليك كتابي هذا .

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري ، وأنر ظلمة نفسي ، فقد اشكل عليّ الأمر ، واصبت أسوأ الناس بالصدق ظناً ، بعد ما رأيت أني ما وقفت موقفه في حياتي الا خمس مرات ، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي ، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة اخرى ؛ ذلك الى ما اقاسيه اليوم في هذا السجن من انواع الآلام ، وصنوف الاقسام .

* * *

---

(١) جمع اليد : هيئتها حين تقبضها .

أيها السجين :

كتبت إليّ ـ مسح الله ما بك ، والهمت صواب الرأي في حاليك ـ تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره ، وكاد يزلق بك الى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك ان تجعل لليأس هذا السبيل الى نفسك ، وان يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الايام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ؛ فما انت بأول صادق في الارض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شراً ، وكابد ضراً .

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال .

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش او كسب المال ، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال .

ان الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله ، او يرفه بها عيشه ، يحتقرها ويزدريها ؛ لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأي ان يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به اخلاقه فان اتسع عيشه اطمأن اليها ، وان ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين اشقياء ،وبين الأرذلين كثيراً من ذوى النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل ان يبلغ غايته من عيشه الا اذا استطاع ان ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام ، ولن يستطيع ذلك

الا اذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء او أشباه فضلاء ، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده اسباب العيش ويملك ينابيعه : سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب اليه نفسه ، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش ، وقلب يحمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار .

الصدق جنة حفت بالمكاره ، فان كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية .

كما ان الجود يفقر والإقدام قتال ، وكما ان لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توعر طريقها وتبعد منالها الا على أيدي الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون ، للصادقين وهم الأقلون .

أتريد أيها الرجل ان تسمى صادقاً ، وان تنال أشرف لقب يستطيع ان يناله بشر ، وان يوافيك الجد طائعاً مذعناً دون آن تبذل في سبيله شيئاً من مالك او راحتك ؟

إنك ان أردت ذلك او قدرته في نفسك ، تظلم الفضيلة ظلماً بيناً وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطىء النعال .

أيحزنك انصراف الاغنياء عن حانوتك او اتهامك بالزندقة والإلحاد او المروق والخيانة ، وترى ان ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته ، وانت تعلم ان الفاضلين قد بذلوا من قبلك اكثر مما بذلت ، في سبيل إحراز ما احرزت ، فما ندموا ولا حزنوا ؟

أيها السجين الشريف :

هنيئاً لك السجن الذي تكابده ، وهنيئاً لـك البغض الذي تحتمـله ، وهنيئاً العيش الذي تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من اولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء .

لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن بـه ، وكن احرص الناس عـلى ولائه ومودته ، وإياك ان يخدعك عنـه خادع ، واصبر قليـلا يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله ، وهنالك تجـد في نفسك من اللذة والغبطة مـا لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وارباب الكنوز كنوزهم ، لما استطاعوا اليه سبيلا .

●

النظامون

مـا لهؤلاء النظامين لا يهدؤون ساعـة واحـدة عن تصديع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهـذه الصواعق الـتي يمطرونها علينـا كل يوم من سمـاء الصحف ، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولا ابيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ، ففزعنا والقينا الصحيفة كما ألقاهـا الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويـل والتفخـيم ، فـاكتب بـه الى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : ان علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بانه الكلام الموزون المقفى ، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر اكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه ، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من ان يقفوا في تعريف الشعر عند هذا

القـدر مـا دام لا يتعلق لهم غرض منـه بغـير اوزانـه وقوافيه وعلله وزحافاته .

لا تظنوا انـ الشعر كما تظنون ، والا لاستطاع كل قارىء بـل كل ناطق ان يكون شاعراً ؛ لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيـع عليها من اخصر طريق .

أيها القوم : مـا الشعر الا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبـدإ نشأته ولا تزال كامنة فيـه كمون النـار في الزند حتى اذا شدا [1] فاضت على اسلات أقلامه [2] كما تفيض الكهرباء على اسلاكها ، فمن احس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم انه شاعر ، او لا فليكف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير ، وليصرفها الى معـاناة مـا يلائم طبعه ويناسب فطرتـه من اعمال الحياة ، فوالله للمحراث في يـد الفلاح ، والقدوم في يـد النجار ، والمسبر في يد الحداد : اشرف وانفع من القلم في يد النظام .

فان غم عليكم الأمر ، واعجزكم ان تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم ، فاعرضوا انفسكم على من يرشدكم اليكم ويدلكم عليكم ، حتى تكونوا على بينة من أمركم .

---

(١) شدا : أخذ طرفا من الأدب والعلم .
(٢) الأسلات جمع أسلة : وهي نبات رقيق الغصن .

الحرية

استيقظت فجر يوم من الايام على صوت هرة تموء[1] بجانب فراشي وتتمسح بي ، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً ، فرابني أمرها ، وأهمني همها وقلت : لعلها جائعة ، فنهضت، واحضرت لها طعاماً فعافته، وانصرفت عنه . فقلت : لعلها ظمآنة ، فارشدتها الى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر اليّ نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والاحزان ، فاثر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً ، حتى تمنيت ان لو كنت سليمان افهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وافرج كربتها ، وكان باب الغرفة مرتجاً ، فرأيت انها تطيل النظر اليه وتلتصق بي كلما رأتني اتجه نحوه ، فادركت غرضها وعرفت انها تريد ان افتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه فما وتسع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم الى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها ، فعدت الى

(١) المواء : صوت الهرة .

فراشي واسلمت رأسي الى يدي ، وانشأت افكر في أمر هذه الهرة ، واعجب لشأنها واقول : ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها ؟ اجل . انها تفهم معنى الحرية حق الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وامساكها عن الطعام والشراب الا من اجلها ، وما كان تضرّعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الا سعياً وراء بلوغها .

وهنا ذكرت ان كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة ، والوحش المعتقل في القفص ، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص او يتلمس السبيل الى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه واسقامه .

من اصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها : ان يكون الحيوان الاعجم اوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته ؟ وهل يجمل به ان يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل ان يصبح ناطقاً مدركاً ؟

يحلق الطير في الجو ، ويسبح السمك في البحر ، ويهيم الوحش في الاودية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد الى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل واغلالا ، وسماها تارة

ناموساً وأخرى قانوناً ، ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلة المخيفة ، وتركه قلقاً حذراً ، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله ، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما اكثر جهله ! وويح له ما اشد حمقه ؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب اكبر من العذاب الذي يعالجه ؟ او سجن اضيق من السجن الذي هو فيه ؟

ليست جناية المستبد على اسيره انه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه انه افسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وادرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل اذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيراً لهمن حياة لا يرى فيها شعاعاً من اشعة الحرية، ولا تخلص اليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدإ خلقه يمشي عرياناً ، او يلبس لباساً واسعاً يشبه ان يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، او هبة النكباء ، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل ، وكفنوه كما يكفنون الموتى ، وقالوا له : هكذا نظام الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا

بينه وبين ذلك ، وملأوا قلبه خوفاً من المرض او الموت ، وأبوا ان يأكل او يشرب الا كما يريد الطبيب ، وان يتكلم او يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني او الحاكم السياسي ، وان يقوم او يقعد او يمشي او يقف او يتحرك او يسكن ، الا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات .

لا سبيل الى السعادة في الحياة ، الا اذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر الا ادب النفس .

الحرية شمس يجب ان تشرق في كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة ، يتصل اولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان اشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في ايدي الاطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، او طارئاً غريباً ؛ وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق باغصان الأشجار .

ان الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوّل ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لاحد عنده .

عبرة الهجرة

ان في اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض او السماء ، او الماء او الهواء .

ان ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وايثاره ، وصدقه واخلاصه ،اكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ، ومشي الشجر ،ولين الحجر ،وذلك لانه ما كان يريبهم في الاولى ما كان يريبهم في الاخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة ، وسحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده ، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الاثر الذي تركته ، ذلك هو معنى قوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يهب ان يدعو الى التوحيد

قوماً مشركين يعلم انهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لاعراضهم ؛ ويحبون آلهتهم حبهم لابنائهم .

كان على ثقة من نجاح دعوته ، فكان يقول لقريش ـ اشد ما كانوا هزءاً به وسخرية ـ : « يا معشر قريش ، والله لا ياتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما انتم له كارهون » .

كان حليا سمح الاخلاق فلم يزعجه ان كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون [1] منه ويضعون التراب على رأسه ، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى [2] الجزور ، وهو في صلاته ، بل كان يقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس ، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلا يلبي دعوته الا الرجل بعد الرجل ، فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس الى قلبه ، فكان يقول « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته » .

وما زال هذا شانه حتى علم ان مكة لن تكون مبعث الدعوة ، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة ، فهاجر الى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون الى الحركة ، ومن طور الخفاء الى طور الظهور .

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها اكبرمظهر من مظاهره،

---

(١) يقال شعث فلان من فلان : تنقصه ،

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان .

وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها اجمل ذكرى للثبات عـلى الحق والجهاد في سبيل الله .

لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عناء كثيراً ومشقة عظمى ، فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به ، بل مخافة ان يجد في دار هجرته من الاعوان والانصار ما لم يجد بينهم ، كانما يشعرون بأنه طالب حق ، وان طالب الحق لا بـد انـ يجد بـين المحقين أعواناً وأنصاراً ، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من ببنهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، عبثاً بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به ، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ، ويتسربان في الاغوار والكهوف ، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب ، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما ، مـا أرادا بفضـل الصبر والثبات على الحق .

ان حياة النبي صلى الله عليه وسلم اعظم مثال يجب ان يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق بأشرف الاخلاق والتحلي بأكرم الخصال ، واحسن مدرسة يجب ان يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والاخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل .

لا حاجة لنـا بتاريخ حيـاة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الافرنج ،فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجدّ والعمل ،والبر والثبات والحب والرحمة ، والحكمة والسياسة ، والشرف الحقيقي ، والإنسانية الكاملة ، وهي حياة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحسبنا بها وكفى .

الانصاف

اذا كان لك صديق تحبه وتواليه ، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك ، ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطرد عندك من أعماله ، أو كان لك عدو تذم طباعه ، وتنقم منه شئونه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة التي حمدتها ، عدك الناس متلوناً او مخادعاً او ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالامس ، وتذم في ساعة من تمدح في أخرى ، وقالوا : إنك تظهر ما لا تضمر ، وتخفي غير الذي تبدي ، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك ، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالا لا نفاقاً ، وإنصافاً لا خداعاً ، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف ، فعنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لاصلاح ما فسد من الاولى ، واعوج من الاخرى .

إن صديقك الذي يبسم لـك في حـالي رضـاك وغضبك ، وحلمـك وجهلـك ، وصوابك وسقطـك ، ليس ممن يغتبط بمودتـه ، او يوثـق بصداقته ، لانه لا يصلح ان يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك ، وتصدقك عن زينـك وشينك وحـلوك ومرك ، وهو إمـا جاهل متهور في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد ان ترى نفسه ، لا ما لا يجب ان تراه ؛ وإما منافق مخادع قـد عـلم ان هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول ، فجاراك فيما تريد ، ليبلغ منك ما يريد .

فها انت ذا ترى ان الناس يعكسون القضايا ، ويقبلون الحقائق ، فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذب صادقاً ؛ ولكن الناس لا يعلمون .

المدنية الغربية

ساودّع في هذه النظرة الخيال والشعر ، وداع من يعلم ان الامر أعظم شاناً وأجل خطراً من ان يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله .

ان في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها الى أخلافنا من بعدنا ، كما أداها الينا أسلافنا سالمة غير ماروضة [1] ولا متآكلة ، فان فعلنا فذاك ، أولا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء .

الامة المصرية أمة مسلمة شرقية ،فيجب ان يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها ، وذهبت أهرامها في سمائها ، حتى تبدل الارض غير الارض والسموات .

(١) الخشب المأروض : الذي أكلته الأرضة

ان خطوة واحدة يخطوها المصري الى الغرب تدني اليه أجله ، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم يبعثون .

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم ان يكون من المدنية الغربية ان داناها الا كالغربال من دقيق الخبز ، يمسك خشاره ويفلت لبابه ، او الراووق [1] من الخمر ، يحتفظ بعقاره ، ويستهين برحيقه ؛ فخير له ان يتجنبها جهده ، وان يفر منها فرار السليم من الاجرب .

يريد المصري ان يقلد الغربي في نشاطه وخفته ، فلا ينشط الا في غدواته وروحاته ، وقعدته وقومته ، فاذا جد الجد وأراد نفسه على ان يعمل عملاً من الاعمال المحتاجة الى قليل من الصبر والجلد ، دب الملل الى نفسه دبيب الصهباء في الاعضاء والكرى بين أهداب الجفون .

يريد ان يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما الا ان الاولى التأنث في الحركات ، الثانية الاختلاف الى مواطن الفسق ومخابىء الفجور .

يريد ان يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها ، وضجيجها وصفيرها ، فاذا قيل له : هذه المقدمات ، فأين النتائج ؟ أسلم رجليه الى الرياح الاربع واستن في فراره استنان المهر الأرن [2] فاذا سمع صفير الصافر مات وجلاً ، واذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد ان يقلده في السياحة ، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب

(١) الراووق : المصفاة .   (٢) الأرن : النشيط .

الارض الميتة فصل الربيع ، حتى اذا حان حينه طار الى مدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور ، وملاعب القمار ، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الاول ما يقوده الى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من الثاني اكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته ،حادثة عودته موشاة بجمل الاجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والاعظام .

يريد ان يقلده في العلم ، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن .

يريد ان يقلده في الاحسان والبر ، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب ، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب .

يريد ان يقلده في تعليم المرأة وتربيتها ، فيقنعه من علمها مقال تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ؛ ومن تربيتها التفنن في الازياء ، والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية،يأخذها صورة مشوهة وقضيةمعكوسة

لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحى بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقـذار والأكـدار ، ويجـارونهم في أداء صور العبادات ، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب ، وإن كانوا احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي ،فينتحر كما ينتحر الغربي ، ويلحـد كـما يلحد ، ويستهتر في الفسوق استهتاره ، ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمة في اخلاقهم وطباعهم،ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحهـا ، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس وروما وسويسرا ونيويورك ،وان دعوناهم الى مكرمة ، فلنتـل عليهم آيات الكتب المنزلة ؛ وأقوال أنبيـاء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر ؛ وان دعوناهم الى حرب ، ففي تاريـخ خـالد بن الوليد وسعيـد بن أبي وقاص وموسى بن نصـير ، وصـلاح الدين ؛ مـا يغنينـا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر ؛ وفي وقائـع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية ، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز

والسبعين .

ان عاراً على التاريخ المصري ان يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادىء ديكارت وأبحاث داروين ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي والمعري.

لا مانع من ان يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم ، على ان ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوراً ، ولا مانع من ان ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم ، على ان ننظر اليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على ان نقلدها ونتقلدها وننتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شئوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد . فليعلم كتاب هذه الامة وقادتها :أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً . فلا يخدعون أمتهم عن نفسها ، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي .

يوم الحساب

ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأدنيه فيبعده ، حتى أسلس قياده ، وسكن جماحه .

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل اليّ أني قد انتقلت من العالم الاول الى العالم الثاني ، ورأيت كأني بعثت بعد الموت وكان أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على اعمالهم ، فالهمت أنه موقف الحشر ؛ وأنه يوم الحساب .

وأنشات أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه ، فلا يجد اليها سبيلا ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ؛ علني أجد صديقاً أستأنس به في وحدتي ؛ وأستعين برافقته على وحشتي ، فلا أرى الا خلقاً غريباً ،

ومنظراً عجيباً ، ووجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريباً ، ولو لا أني أعلم ان الحساب خاص بالانسان لظننت ان الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان .

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي رأيت على البعد وجهاً يبتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً ؛ فارقلت نحوه حتى بلغته فاذا صديقي « فلان » واذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء ؛ فسألته ما فعل الله به ؟ فقال حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي ، وها أنذا ذاهب الى ما أعدّ الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم ، فعجبت لشأنه وقلت في نفسي : لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه : لا يتقي مأثماً ، ولا يهاب منكراً ؛ ولا يخرج من حان الا الى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق الا على موعد من اللقاء ، فنظر اليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها ان الرجل قد ألم بما ضمرته في نفسي ، فذكرت ان قد كشف الغطاء في هذه الدار ؛ وان قد رفع الحجاب بين الناس : فلا سر ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان ، نظر اليّ تلك النظرة وقال : لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب ، واعلم ان الله حاسبني على كل ما كنت أجترح من الآثام في الدار الأولى ، الا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات : ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر ، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله ، فاهمني أمره وأزعجني ان أراه في مستقبل

أيامه بائساً معدماً ، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي اليهم نعمته ، فاحتلت على ان ادخل في بيته خادماً كانت في بيتي وجعلت لها جعلاً على ان تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بماتاها ، ولا يقف على سرّها ، وما زال هذا شاني وشانه ، لا يعلم من اين يأتيه رزقه ، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرّق الموت بيني وبينه ، فما نفعني عمل من اعمالي ما نفعني هذا العمل ، وما كان الاحسان وحده سبب سعادتي ؛ بل كان سببها أنه اصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت اليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة . فقال : اما الوحشة فلن أفارقك حتى ياتي دورك ، اما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شانك ، فقلت : انت من السعداء ؛ فهل تستطيع ان تشفع لي او تطلب لي شفاعة من ولي من الأولياء او نبي من الأنبياء ؟ قال : لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين في الدار الاولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا ؛ وما الشفاعة الا مظهر من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقرّبين ؛ فلا يشفع عنده احد الا بإذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد الآ اذا كان بين اعمال المشفوع له او في اعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى اجل من العبث وأرفع من المحاباة .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة

العذاب تحيط برجل يساق الى النار ، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه،وهو يصرخ ويقول: « أهلكتني يا أبا حنيفة » فسالت صاحبي : ما ذنب الرجل ؟ فقال : انه كان في حياته يتخذ في اعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية » فكان يهب ما لأحد أولاده على نية استرداده قبل ان يحول عليه الحول ، ليتخلص من فريضة الزكاة ،ويطلق زوجته ثلاثا ، ثم ياتي بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها ؛ وكان يرابى باسم الرهن ، فاذا جاءه من يريد ان يقترض منه مالاً أبى ان يقرضه الا اذا وضع في يده رهناً ، فاذا وضع يده على ضيعته ألزمه ان يستأجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح واصل المال ؛ وكان اذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته ، او لا يأكل رغيفاً أكله الا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد الى الاحكام الشرعية فينتزع منها حكمها واسرارها ، ثم يرفعها الى الله قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الاطفال والبله ، مستنداً على تقليد أبي حنيفة او غيره من كبار الأئمة ، وابو حنيفة ارفع قدراً وأهدى بصيرة ، من ان يتخذ هزؤاً وسخرية ، وان يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين .*

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي ، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة ، قد احاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة ، وقد اخذ كل منهما بطرف منها ، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه احدهما على رأسه ويقول له :« أمكر وانت في الحديد ؟» فدنوت منه وانعمت النظر في وجهه فعرفته ، فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت

ايكون هذا من اشقياء الآخرة ، وقد كان بالأمس من أقطاب الاولى !
فقال لي صاحبي : ان هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الاقطاب كان اكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة الا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس واموالهم ، ولكن الناس لا يعلمون .

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا : هذا الى جنته ، وذاك الى ناره، وانا اسال عن شان كل منهم واحداً فواحداً فارى سعيداً من كنت احسبه شقياً ، وشقياً من كنت احسبه سعيداً ، فسجلت ان الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم ، لا على جوارحهم ، ويسالهم عن نياتهم ، لا عن افعالهم ، وان لا سعادة الا الصدق ، ولا شقاء الا الكذب ، وعامت ان الله لا يغفر من السيئات الا ما كان هفوة من الهفوات ، يلم بها صاحبها إلماماً ،ثم يندم عليها ،ورأيت ان اكبر ما يعاقب عليه جناية المرء على اخيه بسفك دمه او هتك عرضه او سلب ماله، وان اضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام والقعود ، فلو ان امرأ قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ظلم طفلاً صغيراً في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته الى سيئات، وما اغنى عنه نسكه من الله شيئاً .

وبينما انا احدّث نفسي بهذا الحديث ، واقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر ، اذ قال لي صاحبي : اتعرف هذين ؟ واشار الى رجلين واقفين ناحية يتناجيان : احدهما شيخ جليل ابيض اللحية ، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ؛ فما هي الا النظرة الاولى حتى

عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام « محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم امين » فقلت لصاحبي : هل لك في ان ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران ؟ ففعلنا ، فسمعنا الاول يقول للثاني : ليتك يا قاسم اخذت برأيي واحللت نصحي لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك ان تفاجىء المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل ان تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها واراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء ؛ فقال له صاحبه : اني اشرت عليها ان تتعلم قبل ان تسفر ، وان لا ترفع برقعها قبل ان تنسج لها برقعاً من الادب والحياء ؛ قال له : ولكن فاتك ما كنت تنبأت به من انها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل ، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء ، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال : اتأذن لي يا مولاي ان اقول لك : انك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ ، وانك نصحتني بما لم تنتصح به ، انا اردت ان انصح المرأة فافسدتها كما تقول . وانت اردت ان تحيي الإسلام فقتلته ؛ انك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما اردت ؛ وفهموا غير ما فهمت . فأصبحوا ملحدين ، بعد ان كانوا مخرفين ، وانت تعلم ان ديناً خرافياً خير من لا دين . اولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى اولوا الملك والشيطان والجنة والنار ! وبينت لهم حكم العبادات واسرارها وسفهت لهم رأيهم في الاخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها

جملة واحدة وقلت لهم : ان الولي اله باطل ، والله اله حق ؛ فانكروا الالوهية حقها وباطلها ؛ فتهلل وجه الشيخ وقال له : ما زلت يا قاسم في اخراك ، مثلك في دنياك ، لا تضطرب في حجة ، ولا تنام عن ثار ، لا تحمل هماً ، ولا تخش شراً ، وثق ان الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، انا ما اردنا الا الخير لامتنا ، وما اردنا لها الا ما تحتمله عقولها ، فان كذبت فراستنا او اخطأ تقديرنا فذلك لان المستقبل بيد الله .

وما وصلا من حديثهما الى هذا الحد حتى تركا مكانهما ، وذهبا لشأنهما؛ فقلت لصاحبي : هل لك ان تريني الميزان والصراط والجنة والنار ، فاني ما زلت في شوق الى رؤية تلك الاشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها في « خريطة الآخرة » التي رسمها الشعراني في بعض كتبه ، قال : اما الميزان فتقدير الاعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، واما الصراط فهو سبيل الانسان الى سعادته او شقائه ، واما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما .

وبينا انا كذلك اذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي ، فعلمت ان قد جاء دوري ، فادركني من الهول والرعب ما ايقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً ولا موقفاً ولا محشراً ، فعلمت انها خيالات واوهام ، او اضغاث احلام ، وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين .

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم امام المرآة،فلمحت في رأسي شعرة بيضاء ، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء .

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي [1] فارتعت لمرآها كانما خيل اليّ انها سيف جرده القضاء على رأسي ، او علم ابيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الاجل ، او ياس قاتـل عرض دون الامل ، او جذوة نار علقت باهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولا بد لها مهما ترفقت في مشيتها واتأدت في مسيرها من ان تبلغ مداها ، او من خيط خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعده لباساً لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل .

ايتها الشعرة البيضاء ! ما رأيت بياضاً اشبه بالسواد من بياضك ، ولا نوراً اقرب الى الظلمة من نورك ، لقد ابغضت من اجلك كلَ بياض

(١) المفرق : موضع افتراق الشعر .

حتى بياض القمر ، وكل نور حتى نور البصر واحببت فيك كل سواد حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان .

أيتها الشعرة البيضاء ! ليت شعري ! من أي نافذة خلصت الى رأسي ؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت الى فودي ؟

كيف طاب لك المقام في هذه الارض الموحشة التي لا تجدين فيها انيساً يسامرك ، ولا جليساً يساهرك ، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم .

أيتها الشعرة البيضاء ! لقد عييت بأمرك ، وبعلت [1] بحملك ، واصبحت لا اعرف وجه الحيلة في البعد عنك ، والفرار من وجهك ، لا ينفعني معك ان انزعك من مكانك ، لأنك لا تلبثين ان تعودي اليه ، ولا ينقذني منك ان اخضبك بالسواد ، لأنك لا تلبثين ان تنصلي [2] ولاني لا احب ان اجمع على نفسي بين مصيبتين : مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء ! يخيل اليّ وانا انظر اليك انك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث ، وانك تهمسين في آذان اخواتك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، والتردي بردائك ، وكأني بك .. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء ، وفتنة عمياء ، يختلط فيها الرامح بالنابل [3] والدارع بالحاسر [4] ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم ..

---

(١) بعل الشيء : برم به واستثقله . (٢) نصل الشعر : خرج من الخضاب .

(٣) الرامح : حامل الرمح . والنابل : ذو النبل .

(٤) الدارع : لابس الدرع ، والحاسر خلافه .

ان كان هذا مصيرك فسيكون شانك شان ذلك السائح الابيض، الذي يـنزل بامـة الزنج مستكشفاً ، فيصبح مستعمراً ، ويدخل ارضها سلماً ويفارقها حرباً ، فاسال الله لرأسي العافية منك ، ولأمـة الزنج السلامة من صاحبك ، فكلاهما مشؤوم الطلعـة في مقامـه وارتحاله ، وكوكب النحس في وقوفه وتسياره .

أيتها الشعرة البيضاء ! ما انت وما شانك ؟ وما وفودك اليّ ؟ ومـا مكانك مني ؟ وما مقامك عندي ؟ ان كنت ضيفاً ، فاين استئذان الضيف وتلطفه ، وتجمله وتودده ، وان كنت نذيراً ، فأنا اعلم من الموت وشأنه ما لا احتاج معـه الى نذير ، فـلم يبـق الا تكوني اوقح الخلائق وجهـاً ؛ واصلبها خداً ، وانك قـد نزلت من السماجة والفضول مـنزلة لا أرى لك فيها شبيهاً الا تلك الحية التي تلج كل جحر من اجحار الهوام والحشرات تعده جحرها ، وتحسبه بيتها .

أيبلـغ بـك الشان وانت الـتي يضربون الامثال بدقتها وخفائها ، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها ، فلا يكادون يعرفون السبيـل الى مدارجها ومكانها ان تملئي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد ، ولا السهم المسدد ؟

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك ان تتجاوزي عما اسات به اليك في إطالة عتبك ، واستثقال ظلـك ؟ فلقـد رجعت الى نفسي فعلمت انـك اكرم الخلائق عندي ، واعظمها شاناً في عيني .

هنيئاً لك رأسي مصيفاً ومرتعاً ،وهنيئاً لك فودي مراداً ومسرحاً،

فأنت رسول الموت الذي ما زلت اطلبه منذ عرفته فلا اجد له سبيلاً ، ولا اعرف له رسولاً .

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه ، ولم يـذق حلاوة الحيـاة ، فيجزع لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً ، فياسى عليها عوداً يابساً .

ما الذي ينقمه من شؤونك رجل يعلم انك وحي الامل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءة .. الا لحظات قليلة يكدرهـا مـا يحيط بهـا من الهموم والأحزان .. كما تكـدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة .

أليس كل مـا أعدّه عليك من الذنوب انـك طليعة الموت ، والموت هو الذي يخلصني من منظر هـذا العالم المملوء بالشرور والآثام ، الحافل بالآلام والأسقام الذي لا اغمض عيـني فيـه الا لأفتحها عـلى صديق يغدر بصديقه ، وأخ يخون اخـاه ، وعشير يحـدد أنيابه لمضـغ عشيره ، وغـني يضن على الفقير بفتات مائدته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته ، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بـين ملك الملك وربوبيته ، وقلوب تضطرم حقـداً عـلى غـير طائـل ، ونفوس تتفانى قتلا على لون حـائل ، وظـل زائـل ، وغرض باطـل ، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها وانياب تمزقها ، وعيون حائرة في رؤوس طائرة ، تنظر ولا ترى شيئاً ممـا حولها ، وتلمع ولا تـكاد تبصر مـا امامها ، ان كان هـذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك ،

فاني لك من الغافرين .

أيتها الشعرة البيضاء ! مرحباً بك اليوم ، ومرحباً باخواتك غداً .. ومرحباً بهـذا القضـاء المختبىء وراءك او الكامن في اطوائك ، ومرحباً بتلك الغرفة الـتي اخـلو فيهـا بربي ، وآنس بنفسي ، من حيث لا اسمع حتى دوي المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلا بوافدة للشيب واحدة وان تراءت بشكل غير مودود

* * *

الصياد

حدّث احد الاصدقاء قال : بينـا انا في منزلي صبيحة يوم إذ دخـل علي رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فلم اساومه فيها بـل نقدته الثمن الذي أراده ، فـاخذه شاكراً متهللاً وقال : هذه هي المرة الأولى الـتي اخذت فيهـا الثمن الذي اقترحته ، احسن الله اليك كما احسنت اليّ وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك ؛ فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في ان تتفتح لها ابواب السماء المغلقة دوني ، وعجبت ان يهتـدي شيـخ عامي الى معرفة حقيقـة لا يعرفها الا القليـل من الخاصة ، وهي ان للسعادة النفسية شانـاً غـير شان السعادة المالية ، فقلت له : يا شيخ ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال ؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت السـعادة سعادة المال لكنت انا اشقى الناس ، لأنني افقر الناس ، قلت : هل تعد نفسك سعيداً ؟ قال : نعم ، لأنني قانـع برزقي مغتبط بعيشي ، لا احزن عـلى فائت من العيش ، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع ، فمن أي باب يخلص الشقاء

الى قلبي ؟ قلت : أيها الرجل ، اين يذهب بك ؟ ما أرى الا انك شيخ قد اختلس عقله ، كيف تعد نفسك سعيداً وانت حاف غير منتعل ، وعار الا قليلا من الأسمال البالية ، والاطمار السحيقة ؟ قال : ان كانت السعادة لذة النفس وراحتها ، وكان الشقاء ألمها وعناءها ، فأنا سعيد ؛ لأني لا اجد في رثاثة ملبسي ، ولا في خشونة عيشي ، ما يولد لي ألماً ، او يسبب لي هماً ، وان كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك ، فانا لا افهمها الا كذلك؛ قلت : ألا يحزنك النظر الى الاغنياء في أثاثهم ورياشهم ، وقصورهم ومراكبهم ، وخدمهم وخيولهم ، ومطعمهم ومشربهم ؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ؟ قال : إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أني لا اجد اصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها اكثر مما نلته بفقدانها .

هذه المطاعم التي تذكرها ان كان الغرض منها الامتلاء فانا لا اذكر أني بت ليلة في حياتي جائعاً ، وان كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فانا لا آكل الا اذا جعت ؛ فاجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب ان في شهوات الطعام ما يفضلها ؛ أما القصور فإن لدي كوخاً صغيراً لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فاقرع السن على ان لم يكن قصراً كبيراً ؛ وان كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي ان أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر واذهب بها الى شاطىء النهر فارى منظر السماء والماء ، والاشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هي الا لفتة الجيد ان يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كانه مجن من ذهب او

قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الافق ميلا او ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، او دره المتحدر ، فاذا تجلى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ، ملك عليّ شعوري ووجداني ، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة ، حتى أحب ان اعود الى نفسي الى يوم النشور ، ولا ازال هكذا هائماً في أحلامي حتى اشعر بجذبة قوية في يدي ، فانتبه فاذا السمك في الشبكة يضطرب ، وما اضطرابه الا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح ، وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً ، فلا اجد له شبيهاً في حالتيه الا الفقراء والاغنياء . يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كانما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير ، ولولا ان تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء ، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق ، ومن الأرصاد أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله إلا اذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً ، ثم يطيل التفكير : هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً ؟ حتى اذا استوثق لنفسه بذلك خرج الى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات ، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ، ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته ، مخافة ان يغفل عن اشارات السلام ، ومظاهر الإكرام .

فاذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الاسواق او علـى أبواب المنازل ، فـاذا أدبر النهار عدت الى منزلي ، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي ، فاذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حـق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة ، لا أحتاج معها الى ديباج وحرير او مهـد وثير ، فهـل أستطيـع ان أعد نفسي شقياً ، وأنا أروح الناس بالاً ، وان كنت أقلهم مالاً ؟

لا فرق بيني وبين الغني ، إلا ان الناس لا ينهضون إجلالاً لي اذا رأوني ولا يمدّون أعناقهم نحوي اذا مررت بهم ، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، وما يعنيني من أمرهم ان قاموا او قعدوا ، او طاروا في الهواء ، او غاصوا في أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر اليهم الا بالعين التي ينظر بها الإنسان الى الصور المتحركة .

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم الا تلك العلاقة بيـني وبين ربي فانا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده ، فـلا أعتقـد ربوبية أحـد سواه ، ولا أكتمك يا سيـدي أنـني لا أستطيع الجمـع بـين توحيـد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس ، ولقد اخذ هـذا اليقين مكانه من قلـبي ، حتى لو طلـع عـلى الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لما خفق قلبي خفقة الرهبة والخشية ، ولا شغل من نفسي مكاناً اكثر مما يشغله ملك التمثيل .

ولقـد كانـ هذا اليقين اكبر سبب في عزائي ، وراحة نفسي من

الهموم والاحزان ؛ فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكون الا انتزعني من بين مخالبها وهوّنها عليّ ؛ حتى لا أكاد اشعر بوقعها ؛ وكيف أتألم لمصاب أنا اعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه ، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه ، وسكوني اليه ؟

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره ؛ وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ؛ فصغرت الدنيا في عيني ، وصغر شانها عندي حتى ما افرح بخيرها ، ولا احزن لشرها ، ولا أعول على شأن من شئونها حتى شأن الحياة فيها ؛ وأقسم ما خرجت مرة الى ضفة النهر حاملا شبكتي فوق عاتقي الا وقع الشك في نفسي : هل اعود الى منزلي حاملا او محمولاً ؟

ما العالم الا بحر زاخر ، وما الناس الا اسماكه المائجة فيه . وما ريب المنون الا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً ، فكيف اغتبط بما لا املك ، او اعتمد على غير معتمد ، إذن أنا اضل الناس عقلا واضعفهم إيماناً !

قال المحدّث : فاكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار ، واعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه . وقلت له : يا شيخ ان الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها . فاستقر رأيهم على ان الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا شقاء ؟ قال : لا يا سيدي ، ان الإنسان سعيد بفطرته ، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه ، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطمعه ، فيطول بكاؤه وعناؤه ،

ويعتقد ان بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه ، فاذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه ، انّ وشكا شكاة المظلوم من الظالم ؛ ويبالغ في حسن ظنه بالأيام ، فاذا غدرت به في محبوب لديه من مال او ولد ، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر ، وقتل الايام علماً وتجربة وعرف ان جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ، ووديعة موقوتة ، وان هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها .. ان اكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما ياتي من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتالم كلما وقع نظره على محسود ؛ والحقود يتالم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتالم كلما ناجته بالإثم سريرته ؛ والظالم يتالم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه ، او حاقت به عاقبة ظلمه ؛ وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتاب ، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل .

ومن أراد ان يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، والا فهو أشقى العالمين ؛ وان احرز ذخائر الارض وخزائن السماء .

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه الى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال : استودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك واحببتها لك ، وهي : ان يجعلك الله سعيداً في نفسك ، كما جعلك سعيداً في مالك ..

والسلام عليك ورحمة الله .

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه ان يخسر سعادته الأخروية خسراناً مبيناً أسفاً على ان لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية ، ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لانها لم تقدم اليه في لفافة الشهادة المدرسية ، ولو ان أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه : ان جناية المرء على نفسه اكبر إثماً عند الله واعظم جرماً من جنايته على غيره ، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته ، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي الى ربه ، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه . ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الاخلاق والآداب ان العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب ان ينظر اليه طالبه من حيث ذاته ، لامن حيث كونه وسيلة من وسائل العيش ، لما جرى على القاعدة الفاسدة « والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه

على الاستقلال الذاتي وعلمه ان الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الامة او المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة ، وفي حانوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما اكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار ، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية وعوّده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء ، لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه ان عذاب النزع أهون من عذاب الهم .

لا يجني الطالب على نفسه ؛ وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه .

أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب به الى المدرسة : ستكون غداً يا بني مديراً كهذا المدير ، ووزيراً كهذا الوزير ؛ وكلما أراد ان يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صوّر له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه ؛ وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له : اذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك ، أما الاستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني ، إذ يراه بعينه يتجرّع مرارة الذل ، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً ؛ ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصاً على منصبه وإرعاء عليه . فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه « ان من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته ، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة » ؛

أما المجتمع فانه يحترم الموظف الصغير ، اكثر مما يحترم العالم الكبير ، ويطير الى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه ؛ كأن الكوكب لا يدور الا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ؛ فاذا رأى الناشيء ذلك اكبر الوظيفة أيما إكبار ؛ ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه ، او بعدها عنه ؛ فاذا وفق اليها لطم بانفه قبة السماء . وداس بنعله هام الجوزاء ، وان يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الاحمق :

* فإما الثريا وإما الثرى *

أيها الناشيء : لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخدعك هذا المجتمع الفاسد ، فكن احسن حالاً منهم ، واعلم ان شرف العلم اكبر من شرف المنصب . وان المنصب ما كان شريفاً الا لانه حسنة من حسنات العلم ، وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه فلا تحفل به ، فهو أحقر من ان تشتد في أثره ، او تبذل حياتك وجداً عليه ، ولا تحسد ارباب المناصب على مناصبهم ؛ فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول ، وظاهر من النعمة ، وبهرج من الابتسام ؛ ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً ، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى .

خذ لنفسك حظها من العلم والادب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء .

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة ، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات ، وفي الحقائق أم في الخيالات .

ما كان الوجه الجميل جميلاً الا للتناسب بين اجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلاً الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسق في ازهار الروض ما هام به الشعراء .

ليس للتناسب قاعدة مضطردة يستطيع الكاتب ان يبينها ،فالتناسب في المرئيات غيره في المسموعات ، وفي الرسوم غيره في الخطوط ، وفي الشئون العلمية غيره في القصائد الشعرية ، على أنه لا جاجة الى بيانه ما دامت الاذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه ، وما لا يلائمها فتنفر منه .

ان كثيراً من الناس يستحسنون الانف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرص في الجسم

الاسود ، والخال في الخد الابيض ، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه ، ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان ، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعي اكثر مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتري، ويضحكون لما يبكي، ويبكون مما يضحك ، ويرضون بما يغضب ، ويغضبون مما يرضي !

اولئك هم اصحاب الاذواق المريضة ، واولئك هم الذين تصدر عنهم افعالهم واقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة ، لانهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تالفه نفوسهم ، فيصبح غريزة من غرائزهم .

ان رأيت شاعراً يبتدىء قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلال ،ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهزلية ، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه ؛ او متكلما يقتضب الاحاديث اقتضاباً ، ويهزل في موضع الجد ، ويجدّ في موضع الهزل ؛ او صحفياً يضع العنوان الضخم للخبر التافه ، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الارض ، او حاكما يضع الندى في موضع السيف ، والسيف في موضع الندى ، او ماشياً يتلوى في طريقه من رصيف الى رصيف ، كانما يرسم خطاً متعرجاً ، او لابساً في الشتاء غلالة الصيف ، وفي الصيف فروة الشتاء ، فاعلم ان ذوقه مريض ، وأنه في حاجة الى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون الى علاج عقله ، والمريض الى علاج جسمه .

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى ابلاله ،

كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فان رأيت من تؤمل في اصلاحه خيراً ، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه ، فعلاجه ان تحفه بأنواع الجمال ، وتدأب على تنبيهه الى متناسباته ومؤتلفاته ، وان استطعت ان تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل ، فانها المقومات للأذواق ، والغارسات في النفوس ملكات الجمال .

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب ، فلا تامن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد ، وأهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك : الرجل الكاذب .

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع ، ولعلهم جاروا في هـذا التعريف الحقيقة العرفية ، ولو شاءوا لأضافوا الى كـذب الاقوال كذب الافعال .

لا فرق بين كذب الاقوال وكذب الافعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين ان يكذب الرجل فيقول : إني ثقة أمـين لا أخون ولا أغـدر فاقرضني مـالا أرده إليك ، ثم لا يؤديه بعد ذلك ، وبـين ان يأتيك بسبحة يهمهم بهـا فتنطق سبحته بمـا سكت عنـه لسانه من دعوى الأمانـة والوفاء ، فيخدعك في الثانيـة كما خدعك في الأولى ، لا بـل يستطيـع كاذب الافعال ان يخدعك

ألف مرة قبل ان يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

ليس الكذب شيئاً يستهان بـه ، فهو أس الشرور ورذيـلة الرذائل فكأنه أصـل والرذائل فروع له ، بـل هو الرذائل نفسها . وإنمـا ياتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة .

المنافق كاذب لان لسانه ينطق بغير ما في قلبه ، والمتكبر كاذب لانه يدعي لنفسه مـنزلة غـير منزلته . والفاسق كاذب لانه كـذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه ، والنمام كاذب لانه لم يتق الله في فتنته ، فيتحرى الصدق في نميمته ، والمتملق كاذب لان ظاهره ينفعك ، وباطنه يلذعك .

لقد هـان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض عـلى النـاس أمره وتطرفهم بحديثه كأنـك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات .

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ، وويل له من صديق يخون العهـد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غـير أمـين ، وجاهـل يفشي السر ، وعالم يحرف الكـلم عن مواضعه ، وشيـخ يدعي الولاية كذباً ، وتاجر يغشُّ في سلعته ، ويحنث في إيمانه، وصحفي يتجر بعقول الاحرار ، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء .

غرفة الاحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه ، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه ، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، او فسقه واستهتاره ، لانني ما فكرت قط ان أتلقى عنه علوم الشريعة او دروس الاخلاق .

قضيت في صحبته عهداً طويلا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلا فتراسلنا حيناً ، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني ، ثم رجعت فجعلت أكبر همي ان أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت الى منزله ، فحدّثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد ، وأنهم لا يعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فأيقنت أني قد فقدت الرجل ، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلا .

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها الا من قلّ نصيبه من الاصدقاء ، وأقفر ربعه من الاوفياء ، وأصبح غرضاً من اغراض الايام ، لا تخطئه سهاما ولا تغبه آلامها [1] .

بينا أنا عائد الى منزلي في ليلة من ليالي السرار [2] إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم الى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان ، او مأوى الغيلان، فشعرت كأني أخوض بحراً أسود ، يزخر بين جبلين شامخين ، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض ، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد في جوف الليل ، ثم تلتها أختها ثم أخواتها ، فأثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين .. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى اقف أمامه وقفة المساعد ان استطعت ، او الباكي ان عجزت ، فتلمست الطريق الى ذلك المنزل حتى بلغته ، فطرقت الباب طرقاً خفيفاً فلم يفتح ، فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها ، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فاذا هي في ثيابها الممزقة ، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها : هل عندكم مريض ؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت : أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ، ثم مشت أمامي فتبعتها حتى

(١) أغبه الألم : جاءه حيناً بعد حين . (٢) ليالي السرار : الليالي الأخيرة من الشهر .

وصلت الى غرفـة ذات باب قصير مسنم ، فدخلتها ، فخيل اليّ أني قـد انتقلت من عالم الاحياء الى عالم الاموات ، وان الغرفة قبر ، والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه ، فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي . فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه واطال النظر في وجهي ، ثم فتح شفتيه قليلا قليلا قليلا ، وقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت صديقي » فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً ، وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها ، وكنت أتمنى ألا أعثر بها ، وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً ، وبين اضالعي دفيناً ، فسألته ما باله ؟ وما هذه الحال الـتي صار إليها ؟ وكأن أنسه بي أمـد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور ، فاشار اليّ أنه يحب النهوض ، فمددت يدي إليه ، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص عليّ القصة الآتية :

منذ عشر سنين كنت اسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من ارباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور اجنحتها على مثلها حسناً وبهاء ، ورونقاً وجمالاً ، فالم بنفسي من الوجد بهـا ما لم استطع معـه صبراً ، فمـا زلت بهـا أعالجها فتمتنع . واستنزلها فتعتذر ، وأتاتى الى قلبها بكل الوسائل فلا اصل اليه . حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه اليها ، فسكن جماحها ، وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد ، ومـا هي الا أيام قلائل

حتى عرفت ان جنيناً يضطرب في احشائها ، فأسقط في يدي ، وطفقت أرتئي بين ان أفي لها بوعدها او اقطع حبل ودّها ، فآثرت أخراهما على أولاهما ، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً .

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال ، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب ، ومد يده تحت وسادته واخرج كتاباً بالياً مصفراً ، فقرأت فيه ما ياتي :

« لو كان بي ان اكتب إليك لأجدد عهداً دارساً ، او وداً قديماً ، ما كتبت سطراً ، ولا خططت حرفاً ، لأني اعتقد ان عهداً مثل عهدك الغادر ، ووداً مثل ودك الكاذب ، يستحق ان احفل به فاذكره ، او آسف عليه فاطلب تجديده .

انك عرفت حين تركتني ان بين جنبي ناراً تضطرم ، وجنيناً يضطرب ، تلك للأسف على الماضي ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم تبال بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر الى شقاء انت صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع انت مرسلها ، فهل استطيع بعد ذلك ان اتصور أنك رجل شريف ؟ لا ... بل لا استطيع ان اتصور انك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحش الا جمعتها في نفسك ، وكل ما في الامر أنك رأيتني السبيل الى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرقت لي باباً ، ولا رأيت لي وجهاً .

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهاباً بنفسك ان تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة الا صنعة يدك وجريرة نفسك ، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة ، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك ، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدي الجبار الكبير .

سرقت عفتي ، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب ، استثقل الحياة واستبطىء الاجل ، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع ان تكون زوجة لرجل ولا أماً لولد ، بل لا تستطيع ان تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية الا وهي خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها على كفها ، ترتعد اوصالها وتذوب احشاؤها ، خوفاً من عبث العابثين وتهكم المتهكمين.

سلبتني راحتي لأني اصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة ابي وامي ، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد الى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه احد ، ولا يطرق بابه ، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من ايام حياتي .

قتلت امي وابي ، فقد علمت انهما ماتا ، وما احسب موتهما الا حزناً لفقدي ، ويأساً من لقائي .

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كاسك ، والهم الطويل

الذي عالجته بسببك . قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي ، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس ، واحسب ان الله قد صنع لي ، واستجاب دعائي ، واراد ان ينقلني من دار الموت والشقاء ، الى دار الحياة والهناء .

فانت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا احسب ان الله تاركك دون ان ياخذ لي بحقي منك .

ما كتبت اليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً ، او اخطب إليك وداً، فانت اهون عليّ من ذلك ، إنني قد اصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة باجمعها خيرها وشرها ، سعادتها وشقائها ، فلا امل لي في ود، ولا متسع لعهد ، وإنما كتبت إليك لان لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فان كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الابوة ، فأقبل اليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما ادرك امها من قبلها » .

فما اتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدّر على خدّيه فسألته : وماذا تم بعد ذلك ؟ قال : إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع اعضائي ، وخيل اليّ ان صدري يحاول ان ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً ، فأسرعت الى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها الى جانبها تبكي بكاءً مراً ، فصعقت لهول ما رأيت ، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية ، واساود ملتفة ، هذا ينشب اظافره ، وذاك يحدّد انيابه ، فما افقت حتى

عاهدت الله ألا ابرح هذه الغرفة التي سميتها « غرفة الاحزان » حتى اعيش فيها عيشها ، واموت موتها .

وها أنذا اموت اليوم راضياً مسروراً ، فقد حدثني قلبي ان الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فاسلم الروح وهو يقول : ابنتي يا صديقي ؛ فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت الى اصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته ؛ ومارئى مثل يومه يوم كان اكثر باكية وباكياً .

ولماحثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أني اكتب قصته ، ولا املك نفسي من البكاء والنشيج ؛ ولا أنسى ما حييت نداءه لي وهو يودع نسمات الحياة ، وقوله : « ابنتي يا صديقي » .

فيا اقوياء القلوب من الرجال ، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء . انكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن ، وعفتهن .. أي قلب تفجعون ، وأي دم تسفكون !!

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء .

ما من عامل يعمل في هذه الحياة الا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوّره ، يقتل القاتل وفي اعتقاده ان الشرف في ان ينتقم لنفسه او عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالي ان يسميه القانون بعد ذلك مجرماً ؛ لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية ؛ وهي في نظره اعدل من القانون حكماً ، واصدق قولا .

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الاعفاء والمستقيمين ، وأنه استطاع ان يعمل عملاً لا يقدم عليه الا كل ذي حذق وبراعة ، وشجاعة وإقدام .

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن ، وفي اعتقاد كل منهم ان الشرف كل الشرف في إحراز المال وان كان السبيل اليه دنيئاً وسافلا، وان للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته اصوات المعترضين والناقدين شيئاً

فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه .

هكـذا يتصوّر الأدنيـاء انهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانـه ، ومـا افسد عليهم تصورهم الا الذين احاطوا بهم من سجرائهم وخاطائهم وذوي جـامعتهم ؛ اولئـك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه ، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه ، ويكرمون صاحب الذهب ، ولو ان كل دينار من دنانيره محجم من الدم ، واولئك الذين يسمون الفقير سافـلا ، وطيب القلب مغفـلا ، وطاهر السرير بليداً ، والحليم عاجزاً .

لا تعجب ان سمعت ان جماعة الاغنياء الجهلاء تنعكس في ادمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها ، وتتراءى في لون غير لونها ، فان بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح افهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى ليكاد يفخر بالاولى ويستحي من الاخرى .

لولا فساد التصوّر ما افتخر قائد الجيش بـانه قتـل مائـة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية او الاجتماعية ، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب اسماء العلماء والحكماء والاطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها واصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصوّر ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي

القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب له عنده الا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهماً،وهو يسرق الدنانير في جميع أنائه واوقاته . ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه اشرف من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدريها لوقفا معاً في موقف واحد امام قاض عادل يحكم بإدانة الاول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه ، وبراءة الثاني ، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء ان يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهذب تصوراتهم وليقوّم افهامهم ، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليس الرأي من ان يشير المعلم على المتعلم ان يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به اعماله او مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقه بوزنه وتقديره .

ليس من الرأي ان يرشد المعلم المتعلم الى ان يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك .

ألا تراهم يعدون اشرف الشرف ان يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة او الذهب او يحلي بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها ؟

لا شرف الا الشرف الحقيقي ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته

او مـاله او راحته في خدمـة المجتمـع البشري جميعه او خدمـة نوع من انواعه .

فالعالم شريف ، لأنـه يجلو صـدأ العقل الإنساني ويصقل مرآتـه ؛ والمجاهد في سبيل الذود عن وطنـه شريف ، لأنـه يحمي مواطنيه غائـلة الاعداء ويقيهم عادية الفنـاء ؛ والمحسن الذي يضـع الإحسان في موضعـه شريف لأنه ياخذ بايدي الضعفاء ويحيي أنفس البائسين ؛ والحاكم العادل شريف ، لأنه رسول العناية الإلهية الى المظلومين يمنعهم ان يبغي عليهم الظالمون ؛ وصاحب الاخلاق الكريمـة شريف لأنـه يؤثر بكرم أخلاقـه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه ، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة افضل درس في الاخلاق والآداب ؛ والصانـع والزارع والتـاجر اشراف مـتى كانوا أمناء مستقيمين ، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هـذا المجتمـع البشري ويحتملون في سبيـل ذلك مـا يحتملون من المؤنة والمشقة حـذراً عليه من التهافت والسقوط .

فان رأيت في نفسك أيها القارىء أنك واحد من هؤلاء ، فاعلم أنك شريف والا فاسلك طريقهم جهدك ، فان لم تبلغ غايته فاخذ القليل خير من ترك الكثير ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي .

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها ان كاتبها غاب عن بـلده بضعة اعوام ، ثم عـاد اليها بعـد ذلك فزار صديقاً له من اسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الاخلاق الكريمة والانفس العالية ، فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبـل اليوم فاستفهم منـه عن دخيلة أمره ، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده ، وانها فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب ، فاجتهد الكاتب ان يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها ، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت اليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنـه في الاربعين من عمره وهي لم تبلـغ العشرين ، وقالت : انها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وان خالفت الشرائع الدينية ؛ لان الاولى عادلة ، والثانية ظالمة ، وقالت : ان ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع الا ان تاذن المرأة لزوجها الذي تكرهـه بالإلمام بهـا

إلمام الازواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تالف عشرته ، وقالت : لو ادرك الناس اسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسالة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تعدّ المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها طاهرة ، اذا كانت تكره الاول .

هذا ملخص القصة على طولها ، واحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء او تاييد مذهب من المذاهب ، لان الكاتب قد أعذر [1] تلك الفتاة فيا فعلت ، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها [2] وقضى لها فيا كان بينهما .

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية ، فالحق أقول : ان الكاتب أخطأ في وضعها وما كنت احسب الا ان مذهب الإباحية [3] قد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة ، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الامة العربية ، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به .

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة ، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها اليها دافع خداع او سائق حاجة ثم ثاب اليها رشدها وهداها ، فقلنا : لا باس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة ، وألبسته ثوباً اوسع من ثوبه،ولا باس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ويابى المجتمع البشري الا ان يسد عليها

(١) أعذرها : قبل عذرها .
(٢) أعداها عليه : ألصف لها منه .
(٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأيا واعتقاداً .

ابواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين .

أما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها الى ذلك داع من الهوى ، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله ؛ ان فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها ، ولم يسقها الى ذلك سائق شهوة بشرية ان صح ان تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها الى مثل ما صنعت ؛ لانها فرّت من فراش زوجها ، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع ؛ لانها كانت أهنأ النساء عيشاً ، واروحهن بالاً ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في اعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة .

ان كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم ، لانها لا مسمى لها في هذا العالم ، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح ، ولا يمكن ان يكون المراد منها فتاة المواخير لانها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً ، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت اليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة .

كل الازواج ذلك الزوج الا قليلا ، فاذا جاز لكل زوجة ان تفر من

زوجها الى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم الف سلام .

أيها الكاتب ! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة احد من الناس ان يقف دورة الفلك ويصدّ كر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الاربعين من عمره مخافة ان تراه زوجته غير اهل لعشرتها اذا علمت ان في الناس من هو اصغر منه سناً وأكثر منه رونقاً وانضر شباباً .

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه ، وعلم ان نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتها ، ويطول ائتلافهما ،فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب ، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما الى طبيعتهما ، وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب ، من حيث الميل لكل جديد ، والشغف بكل غريب .

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج ، فقد خالف إرادة الله وحاول ان يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية .

أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل

منه ؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى ان يكون في منزله اجمل منها ، لولا هذا الرباط المقدس : رباط الزوجية ، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس وهو الذي يعيد الى النفوس الثائرة سكونها وقرارها .

لا باس ان يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا باس ان تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى ان يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ويموت بموته . فالقلوب متقلبة ، والأهواء نزاعة ، بل بمعنى ان يكون كل منهما لصاحبه صديقاً أكثر منه عشيقاً ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها ، ويمتد ظلها ، أما الحب فظل ينتقل ؛ وحال تتحول .

●

الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حيـاتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً ممـا كتبه اللورد كرومر عن الإسلام ، كأنما كانوا يتوقعون من رجـل يدين بدين غير دين الإسلام يضن به ضنه بنفسه وماله ان يؤمن بالوحـدانية ، ويصدق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصـلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت مـا استطاع اليه سبيلا !

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته ان الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدنية الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران .

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل ،فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من ان يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه ان ينظر اليـه بالعين التي ينظر بهـا المسلم اليـه من

حيث كونه نبياً مرسلاً موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما ما نقرؤه احياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته ، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق ، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية في اقلامهم ولا ريب في ان اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل اليه انه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو يذهب به العجب كل مذهب اذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين ، وجرائدهم ومجلاتهم ، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه ؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين ان حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب ، وليست مسألة الإعراب واللحن مسألةعقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وانما الاعراب ما نطق به العرب ، واللحن ما لم ينطقوا به ، فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الاول ونصب الثاني لحناً ، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دوّنها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتتبعوا

تراكيبه وأساليبه ، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حجة على النحاة ، وليست النحاة حجة على القرآن ، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء ، على انهم قصروا في شيء من ذلك ، وما تركوا كثيراً ولا قليلا ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم ، فلا القرآن بملحون ، ولا النحاة مقصرون ، ولكن المبشرين جاهلون ، فإذا كان التعصب الديني انطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب ان نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكنا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا ، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول اللورد كرومر : إن الدين الاسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الاسلامية ، ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الاسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الاسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين .

في أي عصر من عصور التاريخ ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران ؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الارثوذكس والكاثوليكية تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس

الانسانية ، وبكت الارض منها والسماء ؟ أم في العصر الذي كانت ارادة المسيحي فيه صورة من ارادة الكاهن الجاهل ، فلا يعلم الا ما يعلمه اياه ، ولا يفهم الا ما يلقيه اليه، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر او ايمان ، وبهيمية او انسانية ، فيكاد يتخيل ان له ذنباً متحركاً وخيشوماً طويلا ، وانه يمشي على اربع اذا قال له الكاهن : انت كلب: او قال له : انك لست بإنسان ؟ ام في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي ان دخول الجمل في سم الخياط اقرب من دخول الغني في ملكوت السموات ؟ ام في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي ان ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس . وان يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة ؟ ام في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الادبار ؟! أما في العصر الذي اهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان ، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فرّ من وجهها ظناً منه انها تشتمل على الجن والشياطين ؟! ام في العصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة واربعين ألفاً بالقتل حرقاً او صلباً ؟ ام في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لانها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة ؟

هذا الذي نعرفه ايها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية

التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك ام باطلة ، وانما نريد ان نستدل بالمسيحيين على المسيحية ، وان لم تقف على حقيقتها كما فعلت انت في استـدلالك بالمسلمين على الاسلام وان لم تعـرف حقيقته وجوهره ، على ان استدلالنـا صحيح واستدلالك باطـل ، فان المدنيـة الحديثة ما دخلت اوربا الا بعد ان زحزحت المسيحية منها لتحتل محلهـا كالماء الذي لا يدخل الكاس الا بعد ان يطرد منه الهواء لانه لا يتسع لهما ، فان كان قـد بقي اثر من آثار المسيحية اليوم في اكواخ بعض العامـة في اوربا فما بقي الا بعـد ان عفت عنه المدنية ورضيت بالابقـاء عليـه ، لا باعتبار انه دين يجب أجلاله واعظامه ، بل باعتبار انه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومـات بهـا وبقوتها على كسر شرة النفوس الجاهلة ، فلا علاقـة بين المسيحية والتمـدين الغربي من حيث يستدل به عليها ، او باعتبار انه أثر من آثارها ،ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها اوربا وراء مـا يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ولا اغنى عنها كهنوتها ».

اما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد ، ثم سارت الى جانبـه كتفاً لكتف ما ينكر من امرها ولا تنكر من امره شيئاً ، فالمتعبد في مسجده ، والفقيه في درسه ، والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرسته ، والكيمائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفـله ، والفلكي امـام اسطرلابه ،

والـكاتب بين محابره وأوراقه ، اخوة متصافون واصـدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغي احـد منهم على احد .

ايها الفيلسوف التاريخي : ان كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم اثر من آثار الاسلام بالامس، والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى . واليك البيان :

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته ، وما يفيده منفرداً ،وما ينفعه مجتمعاً .

هذب عقيدته بعد ما افسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة التماثيل والاوثان ، واحنـاء الرؤوس بين ايـدي رؤساء الاديـان ، وارشده الى الايمان بالوهية اله واحـد لا يشرك به شيئاً ، ثم ارشده الى تسريح عقـله ونظره في ملكوت السموات والارض ليقف على حقائق الكون وطبائعه، وليزداد ايماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره ، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً ، فلا يكون آلة صماء ، في يد الاهواء تفعل به ماتشاء، ثم ارشـده الى مواقف تذكره بربـه وتنبهـه من غفلتـه وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلا ، وهي مواقف العبادات ثم اطلق له الحرية في القول والعمل ، ولم يمنعه من الشرك بالله والاضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها ، وعلمه أن الانسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وأن الملك والسوقة ، والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي : امام الله والحق سواء ،

وأن الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضر ، والثواب والعقاب ، والرحمة والغفران : بيد الله وحده لاينازعه منازع ، ولا يملكها عليه احد من الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ثم نظر في اخلاقه فارشده الى محاسنها ، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب ،والنوم والمشي ، والجلوس والكلام ، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده . ويعطف الأخ على أخيه ، ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الاقرباء وذوي الرحم ، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الاقوياء للضعفاء ، وعطف الاغنياء على الفقراء . ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية . ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه ، فلا يغبن أحداً أحداً،ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه ان يبغي بعضه على بعض بشتم او سب او قتل او سرقة او انتهاك حرمة او مجاهرة بمعصية اوشروع في فتنة او خروج على امير اوسلطان ، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها ، والقضاء وصفاته، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسالمة لهم .

وجملة القول : ان الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده ، الا مدّ يده اليه وأنار له مواقع أقدامه ، وأرشده الى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نوراً واشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع .

طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت اشعتها البيضاء الى أوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا ، فابصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين ، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا : أيمكن أن يعيش الانسان حراً على ظهر المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسرقه كاهن؟ أيمكن ان يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقده ، لا يروعه دولاب العذاب ، ولا سيف الجلاد ؟ أيمكن ان تملك النفس حريتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ؟ أيمكن ان يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت ابصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً ؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول اولئك الأذكياء هي الخطوة الاولى التي مشتها اوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في اوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم اخذوا يعلمونها للناس سراً ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ، ويلقون في سبيل نشرها عناء شديداً ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى امره بالثورة الفرنسية ، فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي : انك لا بدّ تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ ان يعلمه ، كما تعلم ان المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فأحر بها ان تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك ان انكرت فضل صاحب الفضل عليك ، حتى انكرت عليه فضله في نفسه !

لا حاجة بي ان اشرح لك المدنية الاسلامية او اسرد لك اسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والاخلاق والعمران ، أو أعدّد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، او اصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءتها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول .

غير اني لا انكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الاخيرة من الضعف

والفتور ، وما اصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب ذلك الاسلام كما نتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على ايـدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بـلاده وتمكنوا من نفوس ملوكـه الضعفاء ، وامرائه الجهـلاء ، فامـدوهم بشيء من السطوة والقـوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى افسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، واوقعوا الفتنة فيهم ، وحـالوا بينهم وبـين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فـكان من امرهم بعد ذلك ما كان .

كل ما نراه اليوم بين المسلمين : من الخلط في عقيدة القضاء والقدر ، وعقيدة التوكل ، وتشييد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامي على اعتابها ، والاهتمام بصور العبادات واشكالها دون حكمها واسرارها ، واسنـاد النفـع والضرر الى رؤساء الدين ، وأمثـال ذلـك أثر من آثـار المسيحية الأولى ، وليس من الإسلام في شيء .

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل اننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد اسأت الينا والى ديننا ، فلم نر بداً من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الديني الا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم ؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضاً حب آل محمـد　　فليشهـد الثقلان أني رافض

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية .. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعد ما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون الينا فنسيء اليهم ، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسب انهم قوم من شذّاذ الآفاق او نفايات الأمم جاءوا الينا يصادروننا في ارزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم وعرفنا ان اكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وانما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدّة مع احرار النفوس وأباة الضيم ،

فاحرجت صدورهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعاهم ، ومجداً يبكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، واساتذة كباراً ، فما احسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم .

وبعد : فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم انشكر للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على أنفسهم، وردهم الى اوطانهم أم ننقم منه أنه كان سبباً في حرماننا منهم ، بعد أنسنا بهم ، واغتباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟ .

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا اذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان

حدّثني احد الاصدقاء قال : ساقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين .

أويت الى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الإهاب فما استقبلت اول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فاذا الخادم تقول : ان امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول : ان لها عندك شأناً ، فقلت في نفسي : لا شان لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها اليّ اكثر من حاجتي الى النوم ، على ان النوم لا يفوتني ، فليل الشتاء اطول من يوم القضاء ، فارتديت ردائي ونزلت ، فاذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفىء هذه الجذوة التي تتاجج بين اضالعي بقطرة

واحدة من الرحمة ؟ فقلت : من انت يرحمك الله ؟ قالت : انا فلانة زوج فلان ، فدهشت وغصصت بريقي حتى ما اجد بلة احرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت ، وقلت : يا للعجب ! زوج فلان على عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة ! وسألتها : ما شأنك يا سيدتي ومم تبكين ؟ قالت : لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها ، فوالله ما جئت اليك تحت ستر الليل الا وانت اوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ،ولولا شدة اقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت اليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت ، قلت : عهدي بسيدتي رخية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الاخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك ، ولا يعدل بك أحداً ، قالت : انك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاستمع مني حديث اليوم :

اظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة اعوام ، وان أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين اليه من علية القوم وجلتهم ، وانا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد ان يسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلا طيب السريرة طاهر القلب ، فخدعه الخادعون عني ، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب الغالية ، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها

حتى يفرق بيننا الموت ، وكنت امرأة اجمع في نفسي جميع ما يمت به النساء الى الرجال ، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به ، ولا قطبت في وجهه مرة ولا اتلفت له مالاً ، ولا نقضت له عهداً ، فجازاني بالإحسان سوءاً ، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان ، وخان ودي ، ونقض عهدي ، لا لذنب جنيته ، او وصمة يصمني بها ، ولكنه رجل ملول متبرم ، ولا تغضب يا سيدي ان قلت لك : ان قلب الرجل متقلب متلون يسرع الى البغض كما يسرع الى الحب ، وان هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها اوثق منه عقداً ، وامتن وداً ، وأوفى عهداً ، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع ان يفرق بين قلبيهما الا ريب المنون . قلت : انا لا اغضب لشيء الا للإنسانية ان يخفر ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ قالت : مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً امكنت منه زوجي فاتلفه بين الخمر والقمر ، فكنت أغضي على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده ، حتى اذا صفرت يدي واقفر ربعي احسست منه مللاً كان يدعوه الى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً ما يتهكم بي ويقول : انني لا احب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا افهمها ، وآونة كان يعرض بي قائلا :ان الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة ، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريض احياناً الى التصريح ، فيقول كلما دخل عليّ متأففاً متذمراً : ليت لي زوجة كفلانة فانها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية ، فكنت أشك

في سلامة عقله ، واقول في نفسي : كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحيية المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة ان اكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت ابذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعد ، فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الاعضاء حتى تحوّل الى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظني الا شزراً ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض او قضاء حاجة ، ثم يخرج لشانه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له بعد ذلك ان تنقل الى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الاقاليم ، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلتي ، فلبثت ارتقب كتاباً منه يدعوني فيه الى اللحاق به ، فما أرسل كتاباً ولا رسولاً ولا نفقة ، فاستكتبت اليه الكتاب فما اسلس قياده ، ولا طاوع عناده ، فسافرت اليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شانه معي ، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره ، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية ، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية ، فداخلني من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع ، ولا أظن الا ان العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير .

وكانه شعر بمكاني ، فجاء اليَّ يتهددني ويتوعدني فتوسلّت اليه

بيكاء طفلته التي كنت احملها على يدي ، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها ، وذهبت في استعطافه واستدنائه كل مذهب ، فكنت كانني اخاطب ركوداً صماء [(١)] او استنزل أبوداً عصماء [(٢)] ثم طردني وأمر من حملني الى المحطة ، فعدت من حيث اتيت .

فما وصلت الى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل ، لأني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم ، ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى ان تري لي رأياً في التفريق بيني وبينه ، علني أجد في فضاء الحرية منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ به وأنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله .

فاحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما احزنني ، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد ان هونت عليها بعض احزانها ولواعجها ، فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة ، وقد اكتنفني همان : هم تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ولا نجماً انحس من نجمها ، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته في ساعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسي عليها فاصبحت أعزيها عنه ، وكنت أحسبه إنساناً فاذا هو ذئب عملس [(٣)] تستره الصورة البشرية

---

(١) الركود ـ من الركود ـ وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء : الصلبة المصمتة .
(٢) أبدت البهيمة : توحشت . والعصماء من الظباء : التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود .
(٣) العملس : السريع .

وتواريه البشاشة والابتسامة .

هذا ما قصه عليّ ذلك الصديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه امس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه :

سيدي :

يهمني كثيراً ان أرى بين كتب التهنئة التي ترد اليّ كتاباً منك لأسر بشاركتك إياي في سروري وهنائي .

انك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها الى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها اليّ ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم انها دفعت زوجها الى موقف القضاء فضاق بامرها ذرعا فطلقها ، وكنت افكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة اجد السعادة في العيش بجانبها ، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا اكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها ، وابشرك ان الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر ،

والشقاء الأكبر ، وانها امرأة قد اخذت التربية الحديثة من نفسها ماخذاً عظيما فحولتها الى فتاة غربية في جميع شؤونها واطوارها ، والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان ، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه ، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء ، اضعاف ما كانت تقاسيه منه اشرف النساء ، والسلام ؟

*

في سبيل الاحسان

الإحسان شيء جميل ، وأجمل منه ان يحل محله ، ويصيب موضعه .

الاحسان في مصر كثير ، ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة اليه قليل ؛ فلو أضاف المحسن الى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس ، وأنة محزون .

ليس الاحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ؛ فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياء ، وقد يكون احبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس الاعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبذل قليلا ويربح كثيراً .

إنما الاحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء : فلو ان جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً — صادر عن تلك العاطفة الشريفة — لما تجاوز محله ، ولا فارق موضعه .

فوضى الاحسان :

الاحسان في مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ، ويحرم منه مستحقه ، فلا بؤساً يرفع ، ولا فقراً يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه ابو العلاء :

ولو ان السحاب همي بعقل   لما أروي مع النخل القتادا [1]

الاحسان في مصر ان يدخل صاحب المال ضريحاً من اضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة او الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالاً ، او يهدى ما يسميه نذراً من نعم وشاء الى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه ، وما أهدى شاته ولا بقرته – لو يعلم – الا الى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له ان يهديها الى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاوياً يتشهى ظلفاً [2] يمسك رمقه ، او عرقوباً يطفىء لوعته .

واعظم ما يتقرّب به محسن الى الله ، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيها : ان ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات ، ينشدون مواطن الصلات ، لا اماكن الصلوات ، او يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب

(١) القتاد : شجر صلب له شوك لا فائدة منه .
(٢) ظلف البقرة : ظفرها

والأركان ، مذهبة السقوف والجدران يسميها « سبيلا » ولا يهولنك هذا الاسم الضخم ، فكل ما في الأمر ان السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع خطوات ، على ان الماء كالهواء ملء الارض والسماء ، ويقف الضياع الواسعة من الارض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه احسن اليهم ،ولو عرف موضع الاحسان لأحسن اليهم بقطع ذلك الاحسان عنهم علهم يتعلمون صناعة او مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً ، فان كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه الى الله تعالى اجل من ان يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً الى طعام يطعمونه ، او درهم يتناولونه ، او يفتح ابواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو انصفوهم لسموهم قطاع الطرق ،ولا فرق بين الفريقين : الا ان هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى ، واولئك يتسلحون بالسبح والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع ، فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ولا خفاً ولا حافراً ،ولا شيئاً مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .. الا أتوا عليه .

أسوأ الاحسان :

لم أر مالا أضيع ولا عملاً اخيب ولا إحساناً أسوأ من الاحسان الى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الارض ويقلبونها ظهراً لبطن،ويجتمعون في مفارق الطرق ، وزوايا الدروب ، وعلى ابواب الاضرحة والمزارات

يصمون الاسماع باصواتهم المزعجة ، ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة ، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل ، والجالس والقائم ، فلو ان نجماً هوى الى الارض لهووا على أثره ، او طائراً طار الى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه[1] .

وان شئت ان تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك ، وهل ما تسديه اليه من المعروف تسديه الى صاحب حاجة ، فاعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ، ولا مسكن له يحتاج الى مؤن ومرافق ، ولا شهوة له في مطعم او مشرب او ملبس . حتى لو علم ان الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب ، لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه ، وهو لو شاء ان يتزوج او يتخذ له ماوى ياوي اليه لفعل ، ولو جد في حرفته متسعاً لذلك ؛ ولكنه الحرص قد افسد قلبه وامات نفسه ، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ، ليجمع مالاً لا فائدة من جمعه ، ولا نية له في اصلاح شانه به اذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الارض حتى يدفن معه ، او لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده ، ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل ، ان يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد ان يحمل في سبيل الله ، فيتعمد قطع يده او ساقه او إتلاف عينيه او إحداهما ، ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما يحسد صاحبه اذا رآه اكثر منه دمامة ، واعظم تشويهاً .

---

(١) القوادم : الريشات التي في مقدم الجناح ، والخوافي : التي اذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

كما يحكى ان شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر ، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين ، واقتل للنفوس ، واجلب للرحمة والشفقة ، فقال الأول للثاني : لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك افضل حبالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب . فقال له صاحبه : واين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً ؟

ان اكبر جريمة يجرمها الإنسان الى الإنسانية ان يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر في نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحرفتهم ؛ فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضواً كاملا ، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملا ، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الانبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الانساني ،وتهذيب اخلاقه، وتخليصه من آفات الجمود والخمول ؛ فهل رأيت معروفاً اقبح من هذا وإحساناً أسوأ من هذا الاحسان ؟ !

تنظيم الاحسان :

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الاحسان مما يستهان به ، فلو قال قائل : انها تبلغ فى مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما اخطأ التقدير .

سالت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والاحسان عن كمية

ما ينفقه كل عام في هذا السبيل ، فاطلعني علـى جريـدة حسابه فرأيتها هكذا :

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق .
٦٠	ليالي في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي .
٧٢	مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله .
٣٠	هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر .
١٨	صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً .
١٠	توضع في صناديق الأضرحة .
٤٠	ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية .
٢٤٠	المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الاحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد ، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة في ان يقدر هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو ان هـذا المقدار حـل من الاحسان محـله ، واصاب منـه موضعه ، وأنفـق في سبل الخير النافعة ، ووجوه البر الحقيقية ، لأرتقى بالأمة المصرية الى ذروة الكمال، ولكان له الأثر الجليل في وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة .

لذلك أقترح في تنظيم الاحسان اقتراحاً نافعاً وأدعوا الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهييج النفوس ، وضرب الناس بعضهم ببعض ، ان يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد .

أقترح ان يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها واصحاب الرأي فيها بتاليف مجتمع في القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له .

أما أعماله التي احب ان يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة :

ا ـ استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التاثير معنى الاحسان ، وما هو الغرض منه ، وما هي أفضل وجوهه ، وأي أنواعه اجمع لخيري الدنيا والآخرة .

ب ـ بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم او وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها ان تأخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك ماخوذاً بشيء من الاحسان امام ربه ، وامام أمته اكثر مما قدمه لهذا المجتمع .

ج ـ إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر

وتنكر لهم بعد العزة والنعمة ، وصيانة ماء وجوههم ان تراق على تراب الاعتاب ، والانفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى ان تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء ، الى امثال هذه الاعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الاحسان بدونها ، ولا ينصرف معناه الا اليها .

أنا اعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ان من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل ، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الانسان ، هو افضل عامل في الوجود واشرف إنسان .

*

أدب المناظرة

أنا لا اقول الا مـا اعتقد ، ولا اعتقد الاّ مـا اسمع صداه من جوانب نفسي ؛ فربما خالفت الناس في اشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتي اليهم في ذلك ان الحق أولى بالمجاملة منهم ، وان في رأسي عقلاً اجـله عن ان انزل به الى ان يكون سيقة [1] للعقول ، وريشة في مهاب الاغراض والأهواء .

فهل يجمل بعد ذلك بـأحد من الناس ان يرميني بجارحة من القول او صاعقة من الغضب لأني خالفت رأيه او ذهبت غير مذهبه ، او ان يرى ان له من الحق في حملي على مذهبه ، اكثر مما يكون لي من الحـق في حمله على مذهبي .

لا بأس ان يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس ان ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه في ان

---

(١) السيقة : ما يساق سوقاً ؛ ومنه « إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله » .

يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة التي يعتقدها الا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا اعتقد انها تنفعه او تغني عنه شيئاً ، وهي وسيلة الشتم والسباب .

ان لاخلاص المتكلم تاثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحل الاعظم في القلوب والأفهام ، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيا يقول ، فعبثاً يحاول ان يحمل الناس على رأيه ، او يقنعهم بصدقه ، وان كان اصدق الصادقين .

أتدري لم يسب الانسان مناظره ؟ لأنه جاهل وعاجز معاً ، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة الى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفاته وطبائعه ، كأن كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجي » ؛ وما أعجزه فلأنه لو عرف الى مناظره سبيلا غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، محقاً كان أم مبطلا .

لا يجوز بحال من الأحوال ان يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتاييدها ، واحسب ان لو سلك الكتاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيها الا لأنهم فيما بينهم مختلفون . يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من اجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وان كان هو

قوياً في ذاته ، لأن القلم لا يقوى إلا اذا استمدّ قوتـه من القلب ، فـاذا جيء بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلا : إنك جاهل لا يعتد برأيك او إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك ، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس ، وهنالك يقول له الناس : رويداً ، لا تخلط في كلامـك ، ولا تراوغ في مناظرتك ، ولا شأن لـك بعـلم صاحبك او جهله ، فانه يقول شيئاً ، فان كان صحيحاً فسلم به ، او باطلا فبين لنـا وجه بطلانه ، وهبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطىء مرة ويصيب ، فاذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرّ الى اضعف الوسائل وأوهنهـا ، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيـل بـه كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان في ذلك الميدان .

على ان اكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شيء جهتين : جهة مدح ، وجهة ذم ، فإما ان تتساويا ، او تكبر إحداهما الأخرى ، فإن كان الاول فلا معنى للاختلاف ، وان كان الثاني وجب على المختلفين ان يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا ان يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الاخير .

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد الـنزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف ممـا يخالفه فيـه ، فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحـدى الليالي وهما يتناظران في المرأة ، يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير الى منزلة

الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد وبين أثوابه لوح على احد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما : أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن انه يذم الصورة التي رآها هو . فلما عادا الى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكاً كثيراً ، ثم قال لهما : هذا ما انتما فيه منذ الليلة ، وما أحضرت اليكما هذا اللوح إلا لأضرب به لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو انكما تنظران الى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها ، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً .

الاحسان في الزواج

ورد اليّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

حضرة السيد الفاضل :

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فاخذته الرأفة بها فتزوجها ، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له ، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ، ولم يستطع احد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه ، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة ، والسلام .

ف.س

أيها السائل الكريم :

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلا الى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها

إلا هذا السبيل ، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا ، فقد أخطأ خطأ جماً ، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا أمر نفسه ،ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته ، ويتعلق بلذته ، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها ، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة في نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لا يكفيها مؤونة العيش،ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بان في قلبه بقية من الشغف بها ، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم ان فراقها لا يهيج له وجداً ، ورجوعها الى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك المسكينة الى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به .

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاء لشهوته وإثاراً للذته ، لا ينفعها ولا يحسن اليها ، لأنه لا يهذب نفسها ، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها ، والاستمرار على عشرتها ، بل يسيء اليها بسوء تصرفه معها فيبغض اليها الصلاح ويحبب اليها الفساد ، وعندي انه في عمله هذا فاسق لا متزوج ، لأنه لو لم يرَ أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي مهراً ولا عقد عقداً .

فإن كان حقاً ما تقول من ان باعثه الى ذلك الرحمة والرأفة والحنان

والشفقة فقد أحسن كل الإحسان ، ولا أحسب ان بين أعماله الصالحة عملاً هو افضل عند الله ذخراً واعظم أجراً ، من هذا العمل الصالح .

العرض أثمن من الحياة ، فان كان من يمنح الحياة فاقدها شريفاً ، فاشرف منه من يرد العرض الضال الى صاحبه المفجوع فيه .

ليت الرجال يتفقون جميعاً على ان يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها الى البغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل ان تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن .

لمَ لا يكون باباً من ابواب الاحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من اولادهم واقربائهم، وإن لم يكنَّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب ، لأنه إحسان ، والاحسان لا يجمل الا اذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال على بناء التكايا والزوايا ، وتوزيعه على المتسوّلين والمتكففين ، ووقفه على القارئين والذاكرين ، لا يدّخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الاحسان الى النساء بالعصمة من البغاء .

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل ، فجدير به ان يغرم ما أتلف ، ويصلح ما أفسد .

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله ان يعده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى اذا خدعها عن نفسها ،

وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدها ، نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده .

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين ، مسبلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها ، تفلي أناملها التراب ، لا تدري اين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش !

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ؛ لأن الرجل يسميها ساقطة ؛ وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ؛ لأن الرجل اهمل شانها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ؛ وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ؛ لأن الرجل يؤثر ان يمنحها القنطار حراماً ؛ على ان يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بداً من ان تطلبه من طريق البغاء .

فها انت ذا ترى ان شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ، وان الرجل هو الذي يمثل جميع ادوارها ، ويظهر في كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فإنا لا نزال نعتقد ان الرجل غريم المرأة ، وان حقاً عليه ان يؤدي دينه ، ويغرم أرش [1] جنايته .

ان أبى الرجل ان يتزوج المرأة بغيا فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له الى ذلك الا اذا اعتبر الزواج باباً من ابواب الإحسان ، أي أنه

(١) الأرش : دية الجراحات .

يتزوجها لها اكثر مما يتزوجها لنفسه ، واحق النساء بالإحسان اولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال ، وحلية الحسب والنسب ؛ فان أبى الا ان يتزوج من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذي اخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه الى مواطن الشقاء ، ورماها بيده في هوّة الفسق والبغاء .

*

لا همجية في الاسلام [1]

أيها المسلمون : ان كنتم تعتقدون ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين لا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ، فقد اسأتم بربكم ظناً ، وانكرتم عليه حكمته في افعاله وتدبيره في شؤونه واعماله ، وانزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدّده .

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه . ويمده برحمته وإحسانه ، ويرسل اليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها : نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فجنيناً ، فبشراً سوياً .

ان إلهاً هذا شانه مع عبده ، وهذه رحمته به وإحسانه اليه ، محال عليه ان يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها ، او يرضى بسفك دمه الذي

(1) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩ .

أمده بـه ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسيل بـين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال .

في أي كتاب من كتب الله ، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله ، قرأتم جواز ان يعمـد الرجل الى الرجـل الآمن في سربـه ، والقابع في كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه اهله وقومه ، لأنـه لا يدين بدينه ، ولا يذهب مذهبه في عقائده .

لو جاز لكل إنسان ان يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها واصبح ظهر الارض أعرى من سراة أديم .

ان وجود الاختـلاف بـين النـاس في المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون ، لا يمكن تحويلها وتبديلها ؛ حتى لو لم يبق على ظهر الارض الا رجل واحـد ، لجرد من نفسه رجـلا آخر يخاصمه وينازعه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

ان الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج الا من التحاك بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه .

أيها المسلمون : ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والانتقام منهم ، او القضاء عليهم ، وإنما كان لحمايـة الدعوة الإسلامية ان يعترضها في طريقهـا معترض او يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الارض ومغاربها حائل ، أي ان القتال كان ذوداً ودفاعاً ، لا تشفياً وانتقاماً .

وآيــة ذلك ان السرية من الجيش مـا كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب فيــه حتى يصل اليهـا أمر الخليفة القائم ان لا تزعج الرهبـان في أديرتهم ، والقساوسة في صوامعهم ، وان لا تحـارب الا من يقاومها ولا تقاتل الا من يقف في سبيلها ، ولقد كان أحرى ان تسفك دمـاء رؤساء الدين المسيحي وتسلب ارواحهم لو ان غرض المسلمـين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم .

لو انكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى اصبحت رقعة الارض خالصة لكم ، لانقسمتم على انفسكم مذاهب وشيعاً ، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل ارباب الأديان على أديانهم ،حتى لا يبقى على وجه الارض مذهب ولا متمذهب .

أيها المسلمون : مـا جاء الإسلام الا ليقضي عـلى مثـل هـذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام .

ما جـاء الإسلام الا ليستل من القلوب أضغانها واحقادها ، ثم يملأهـا بعـد ذلك حكمة ورحمة ، فيعيش الناس في سعادة وهنـاء ، ومـا هـذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل الا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب الى شفاء المريض .

عذرتكم لو ان هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتـكم ، أو ذاهبـين في معاشرتـكم والكون معـكم مذاهب سوء تخافون مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالـكم والكون تحت اجنحتـكم أضعف من ان يمدوا اليـكم يد سوء ، أو يبتدرونـكم ببـادرة شر ، فلا عذر لـكم .

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الاطفال الذين لا يسالمهم الله عن دين ولا مذهب قبل ان يبلغوا سن الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في الحياة أخذاً ولا رداً ، والشيوخ المالكين الزاحفين وحدهم الى القبور قبل ان تزحفوا اليهم ، وتتعجلوا قضاء الله فيهم .

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون .

من أي صخرة من الصخور ، أو هضبة من الهضبات ، نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم ، والتي لا تروعها أنات الثكالى ، ولا تحركها رنات الأيامى ؟

من أي نوع من أنواع الاحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون ان تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تاكل أطرافه وتتمشى في أحشائه على مرأى ومسمع من أمه ، وأمه عاجزة عن معونته ، لأن النار لم تترك لها يداً تحركها ، ولا قدماً تمشي عليها ؟

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار ، لأني اعتقد ان قتل الضعفاء جبن ومعجزة ، وان سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أحرى ان يعزى فيها صاحبها ، لا ان يهنأ بها .

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم ، ولكن حذار ان تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجل من ان يامر بقتل الابرياء ، أو يرضى باستعطاف الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وارحم الراحمين .

البخيل

سالني سائل : ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه ؟ وأي غرض يرمي اليه من ذلك ؟ فأجبته بهذا الجواب :

البخل إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يسال المسرف عن سبب إسرافه ، والغاضب عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لا يسال البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه ، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم الى الرغبة عن التخلي عنها حيناً ، فلا يجدون الى ذلك سبيلا ، لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الارادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله ، فاذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه ، احس كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه الى يده فتشنجت اعصابها وتصلبت أناملها واعيت على

الالتواء والانثناء ، فاخرجها صفراً كما ادخلها ، وبودّه ان لا يفعل لولا ان للغريزة قوة فوق قوة الإرادة ، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول ، الا اذا كان وراءها وازع من القانون يزعها ؛ فانه يكسر شرتها احياناً ، وان لم ينتزعها انتزاعاً .

ويحكى ان شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية ، فاراد نفسه على ان يبذل لها شيئاً من ماله فتأبت عليه ، فأذن لوكيله ان يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه ، علماً بانه لا يستطيع ان يكون كما يريد .

فالوجه في السؤال ان يقال : ما هي الاسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل ؟ فيكون الجواب عن ذلك : ان الاسباب تختلف باختلاف الاشخاص واطوارهم واخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع .

الأول ــ الوراثة : وهي وان كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة احياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين باضدادها والتأثر بمخالطتهم ، الا انها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا اغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها .

الثاني ــ التربية : اذا نشأ الطفل بين اهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه ، اخذ اخذهم في الحرص ، وتخلق فيه باخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في

استحسان او استهجان، كانما هي عدوى الامراض التي تسري الى الانسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها ..ويحكى ان رجلا دخل منزلاً يعرف اهله بالشح والحرص ، فرأى طفلا صغيراً في يده ليمونة ، فطلب اليه ان يعطيه إياها ، فأجابه الطفل « ان يدك لا تسعها » !

الثالث ـ سوء الظن بالله : ذلك ان المتدين اذا اخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه ماخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء ، فهو ارحم من ان يغفل شأنهم ويكلهم الى انفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الايام ، فلا يلج به الحرص على الجمع ، ولا يزعجه الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان ، ضعيف الثقة بواهب الارزاق ومقسم الحظوظ والحدود ، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه

الرابع ـ النكبات : كثيراً مـا تحـل بالانسان نكبات تصهر قلبـه وتزعج غريزته من مستقرها ؛ ومن ذلـك النكبات الـتي يكون مرجعها قلة المال ، كان يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يـده لمـا وقع في مثلها ، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص واغرق في المنع ، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له ؛ ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبـة من الزمان وكابد منه مـا كابد من الآلام والاوجاع ، فانه مها حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة ، ولا تضيع من ذاكرته آلامها . فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل اليـه ما لا يتخيل ، ويريه مـا لا يرى ،

كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في ابشع صورة وافظع شكل فهاله منظره ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالتي الامن والخوف ، والوحشة والانس .

الخامس ـ اللؤم : فان النفس اذا خبثت طينتها ولؤم طبعها ، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه ، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم ، وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع ان يمنع عنهم سارية السماء ، ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل .

السادس ـ سقوط الهمة : اذا نشأ الانسان عالي الهمة طموحاً الى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل ، سهل عليه ان يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده او ذات نفسه ، وحب المجد ، اسال الذهب من خزائن الاغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسما بين شفرات السيوف ، وأسنة الرماح ، طلباً لسعادة الحياة بالذكر ، وسعادة المات بالخلود . فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حب الثناء ، وهو لا يشعر بلذته ؟ او خوف المذمة ، وهو لا يتالم منها ، ولا يحس بمرارتها ؟ أم سعادة الحياة وسعادة المات ؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها ، وحلة يلبسها .

السابع ـ فساد المجتمع الانساني : ذلك ان كثيراً من الناس قد بلغ

بهم حب المال والتعبد له ان صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها ، خير يطمعون فيـه ، بـل لأنه ذو مـال وذو المال في نظرهم احـق الناس بالمحبة والاكرام والاجلال والاعظام ، وان لم يحصلوا منـه عـلى طائل ، فلو انهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهـذا النوع من العبـادة ساعة واحدة لاصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء انـ ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها الا الحرص على ما في يده ، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له ، بـل هو أشهى الاشياء اليـه ، واكثرها ملاءمة لفطرته ؛ ليزداد شرفاً وعزاً ، كلما ازداد ثراء ووفراً ، ومن هنا قال احد البخلاء لاولاده : يا بني لان يعلم الناس ان عند احدكم مائة الف درهم اعظم له في اعينهما من ان يقسمها فيهم ،وقال رجل لآخر: يا بخيل ؛ فقال له : لا احرمنى الله بركة هذا الإسم ؛ فاني لا اكون بخيلا الا اذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء .

هذه هي أهم الاسباب التي تالفت منها رذيلة البخل ؛ فـانـ اغفلنا النظر اليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عمـا يستفيده البخيل من بخلـه ، حتى على نفسه وفرضنا البخيلمختاراً فيما يفعل غير مساق الى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة ، كان منال النجم اقرب من تطبق حاله هذه عـلى قاعدة من قواعد العقل ؛ لان الله تعالى خلـق الانسان وركب فيه رغبـات الشهوات مختلفة ، بعضها نفسي ، والآخر جسدي ؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة ، والجرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومـة

نزوات نفسه ونزعاتها الى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز ، لأنه قادر ؛ ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيا لا ينفع فيزهد فيا ينفع ؛ ولا على الخوف من الفقر ، لأن عنده من المال ما يفني الاعمار ، فهيهات أن يفنيه عمر واحد ، ولا على رغبة في سعادة الذرية ، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته ؛ فاما أن يشقى في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا الا أن نتوسل الى علماء النفس أن ياذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصورا على المعربدين والهاذين ، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما ياخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لانفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على انفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان ، كما نتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين ؛ فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً ، اما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين .

*

البعوض والانسان

جلست ليلة امس الى منضدتي وعلقت قلمي بين اصابعي ، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن اكتب فيه .. وتلك عـادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي : أنني لا أميل الى الكتابة في بياض النهار ، ولا احب ان اخط حرفاً عـلى مـا أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه .

ولا يظن المولعون باكتناه الحقـائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنني اريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، او انني اترقب طلوع النجم لاتسلق اشعته الى سماء الخيـال ، فكل ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو ادرى بدخيلة امري مني ، وكل ما في المسألة ان هذه عادتي وتلك طريقتي ، وكفى .

لم اكد افرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في اذني ، ثم احسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعاً وتجمع

من همي مـا كان مفترقاً ، ولم ار بدأ من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل .

طاردته بالمذبة فما اجدى ذلك نفعاً لانه على الطيران اقوى مني على المطاردة ، وفتحت النوافذ لاخرج ما كان داخلا، فدخل ما كان خارجاً، وحاولت قتله فوجدته مبعثراً ؛ ولو كان مجتمعاً في دائرة واحـدة لهلك بضربة واحدة ، ولم ارى في حياتي امة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير امة البعوض ؛ فما اضعف هذا الانسان ، وما اضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه ، واعتقاده ان في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد ! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا ان يرسل اشعة عقله دفعة واحدة، ويشحذ سيف ذكائه ، ويبتعث عزيمته ويقتدح فكرته .

يزعم ذلك ، وهو يعـلم انه اضعف من ان يحتـال لنفسه في مدافعة اصغر الحيوان جسماً وعقلا ، وادناها قيمة وشاناً ، بيد انـه يعـلم ذلك بلسانه ، وفي فلتات وهمه . ولو علمه علماً يتغلغل في نفسه ، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه ، وخفض من كبريائه ، وعلم علم اليقين ان الانسان العاقل ، والحيوان الملهم ، والنبات النامي ، والجماد الجـامد ، سواء بين يدي القوة الالهية الكبرى ، التي لا ينفـع نفعها حول ولا قوة .

علمت أني عييت بأمر هذا الحيوان ، فلذت بجانب الصبر ، والصبر ــ كما يعـلم معشر الصابرين ــ حجـة العاجز ، وحيـلة الضعيف وأيسر مـا يستطيع ان يدفع بهدافع عن نفسه ملامة اللائمين، وفضول المتطفلين، وقلت

في نفسي : لو كان البعوض يفهم ما اقول لقصصت عليه قصتي ، وشرحت له عذري ، وسألته ان يمنحني ساعة واحدة اقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي، ينزل منها حيث يشاء ، ويمتص منها ما يشاء ، ولكنه ـ ويا للأسف ـ لا يسمع شكاتي ، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة ، لأنه ليس بإنسان .

احسب ان لذعات البعوض قد اخذت مأخذها من عقلي وفهمي ؛ وأني قد بدأت أهذى هذيان المحموم ؛ فمن اين لي ان لو كان البعوض إنساناً كان يسمع شكاتي ، ويكشف ظلامتي ، او أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الإنسان احسن حالاً من البعوض وارحم منه قلباً واشرف غاية ، فأتمنى لو كان مكانه ؟ بل ، ومن اين لي ان هذا الذي احسبه بعوضاً ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق ؟ وأي غرابة في ان أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل الى الأذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية ، والاجزاء المقومة للماهية ؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعاً في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفرداً ؟

ان البعوض في امتصاصه الدم من الجسم اقل من القاتل ضرراً واشرف غاية ، واجمل مقصداً ؛ لأنه ان أذى الجسم فقد أبقى على الحياة؛ ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف

له طريقـا سواه ولا يستطيع ان يرى لنفسه غـيره ولو استطاع لعافت نفسه ان يكون كالانسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر .

إني وجدت بين الانسان والبعوض شبهاً قريباً في صفات كثيرة انا ذاكر لك طرفاً منها وتارك لفطنتك الباقي .

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يمتلىء فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك ، وهو اشبه شيء بشارب الخمر : يتناول الكاس الأولى منهـا ، لأنه يرى فيهـا وجـه سروره وصورة سعادته ، فتطمعه الأولى في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفهـا ويؤدي بهـا ، من حيث يظن أنـه ينعشها ، ويجلب اليهـا سرورها وهناءتها .

البعوض سيء التصرف في شؤون حياته ؛ لأنه لا يسقط على الجسم الا بعد ان يدل على نفسه بطنينه وضوضائه . فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه ، او يفتك به قبل بلوغه اليه ، فمثله في ذلـك كمثـل بعض الجهلة من اصحاب المطالب السياسية : يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير انهم لا يكتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة اليهـا الا بـين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ؛ ويشهدوا الملأ الأعـلى والأدنى عليها ، وهنالك يدرك عدوهم مقصدهم ، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث

لا يشعرون .

البعوض خفيف في وطأته ، ثقيل في لذعته ، فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره ، ويسوءك مخبره! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء ، والسحر الحلال جمالاً وبهاء ، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب اليها سلسبيل الوفاء ، يقول لك : إني أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فان تم له ما أراد سلبك مالك ان كنت من ذوي المال ، وجاهك ان كنت من ذوي الجاه ؛ فان لم تكن هذا او ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك، ويثلم شرفك ، فان فاته ما يشفى به داء بطنته ، لا يفوته مـا يطفيء بـه نار حقده وموجدته .

لا يزال البعوض ملحاً في مهاجمتي ، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد مما كتبت ، والسلام .

●

الجزع

يا صاحب النظرات :

لي صديق سقط في امتحان « البكالوريا » هـذه السنة فاثر فيـه ذلك السقوط تاثـيراً كبيراً ، فهو لا ينفك باكيـاً متالماً حتى أصبحنا نخاف عليـه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول : كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي ؟ وكيف أستطيـع مقابلة والدي وأهلي ؟ فهل لك أيها السيد ان تعالج نفسه بنظرة من نظراتك ، التي طالما عالجت بهـا قلوب المحزونين ؟ ؟

حقوقي

ليست المسالة مسالة صديقك وحده ، بـل مسالة الساقطين أجمعين ، فان المرء لا يـكاد يتناول نظره منهم في هـذه الايام الا وجوهاً قـد نسج الحزن عليهـا غـبرة سوداء ، وجفوناً تحار فيهـا مدامعها حيرة الزئبـق الرجراج ، حتى ليخيـل اليك ان نازلة من نوازل القضاء قـد نزلت بهم

فزلزلت أقدامهم ، او فاجعة من فواجع الدهر قـد دارت عليهم دائرتها فاثكلتهم ذخائر نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهناءته سداً لا تنفذه المعاول ، ولا تنال من أيده الزلازل .

خفض عليك قليلاً أيها الطالب ، فالأمر أهون مما تظن ، واصغر مما تقدر ، وأعلم وما احسبك الا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ الى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك ، ولم يهو بك القضاء الى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر .

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيات له أسبابه ، وأعددت له عدّته ، وبذلت له من ذات نفسك مـا يبذل مثله الباذلون في مثله ، فقـد أعـذرت الى الله والى الناس والى نفسك ، فحري بـك ان لا تحزن عـلى مصاب لم يكن عمـلاً من أعمـال يديك ، ولا جناية من جنايات نفسك عليـك ، وان كنت قصرت في تلمس أسبابـه ، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك ان تترقب فواته قبل وقت فواته ؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك ان تعـلم وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام ، ومطاوعة الاقدار ؟ وهـل تستطيـع ان تبرز لنا صورة العهد الذي اخذته على الدهر ان يكون لك كما تحب وتشتهي ؟ وعـلى الفلـك ان لا يدور الا بسعدك ، ولا يجري الا بجدّك ؟ وعلى القلم ان لا يكتب في لوحة الا مـا دللته عليـه ، وأوحيت به اليه ؟

لا تجعل لليأس سبيلا الى نفسك ، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك ، وامض لشأنك ولا تلتفت الى ما وراءك ، فان تم لك في عامك المقبل من طلبتك مـا أردت فذاك ، او لا ، فما فقدت إذ فقدت الا ورقة كان كل ما تستفيده منها ان تشتري بها قيداً لرجلك ، وغلا لعنقك ، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم ، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الاسراء في سجون الآسرين .

ان اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد ان تجعلها منتهى املك ، وغاية همتك ، وانك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد ، فـان صدقت فراستي فيك ، فاعلم ان الله قد خار لك في هذا المصير ، وساق اليك من الخير ما لا تعرف السبيل اليه ، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم الا لتطلب لنفسك كمالا معلوماً ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الاوراق ، الا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب

ان كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيـه ، ولا حاجب لها عليه ، وما هو الا ان تجـد في التزيد من العلم والمعرفة ، واستكمال مـا ينقصك من الفضائل النفسية ، فـاذا انت شريف في نفسك ، وفي نفوس الخاصة من النـاس ، واذا انت في منزلة يحسدك عليها كثير من ارباب الشهادات والمناصب ، ولا حيي الله شرفاً يحيى بورقة ويموت باخرى،ولا مجداً يأتي به سطر ويذهب به سطر،وان

كنت تبكي على العيش ، ففي أين كتاب من كتب الله المنزلة قرأت ان ارزاقه وقف على الموظفين ، وحبائس على المستخدمين ؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزائنه الا اذا جاءته سفتجة بتوقيع امير ، او اشارة وزير ؟

أيها الطالب :

قل لأبيك واخيك واهلك واصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء : ان الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه ، وان الذي صوّر لي اعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها فيا خلقت له ، وان الذي خلقني سوف يهدين، إنه الرزاق ذو القوة المتين .

●

النبوغ

من العجز ان يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً ، وان ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم الى الحيوان الناطق،وعندي ان من يخطىء في تقدير قيمته مستعلياً ، خير ممن يخطىء في تقديرها متدلياً ؛ فان الرجل اذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من اعماله واطواره الا ما يشاكل منزلتها عنده ؛ فتراه صغيراً في علمه صغيراً في أدبه ، صغيراً في مروءته وهمته ، صغيراً في ميوله وأهوائه ، صغيراً في جميع شؤونه واعماله ؛ فان عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة .

ولقد سأل احد الأئمة العظماء ولده ، وكان نجيباً : أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب ان تكون ؟ فاجابه : احب ان اكون مثلك ، فقال : ويحك يا بني ! لقد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبك على عقلك البواكي ، لقد قدّرت لنفسي يا بني

في مبدإ نشأتي ان اكون كعلي بن أبي طالب ، فما زلت اجد واكدح حتى بلغت المنزلة التي تراها ، وبيني وبين عليّ ما تعلم ، من الشاو البعيد والمدى الشاسع ؛ فهل يسرك ، وقد طلبت منزلتي ان يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين عليّ ؟

كثيراً ما يخطىء الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس ؛ وبين الكبر وعلو الهمة ، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعاً ، ويسمون الرجل اذا ترفع بنفسه عن الدنايا ، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً ؛ وما التواضع الا الأدب ، ولا الكبر الا سوء الأدب ؛ فالرجل الذي يلقاك متبسما متهللا ، ويقبل عليك بوجهه ، ويصغي اليك اذا حدثته ويزورك مهنئاً ومعزياً ، ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه نتواضع ، والأدب ارفع لشانه فتادب .

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا ان يقال به كبر

فاذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل ان ينكس رأسه للكبراء ، ويتهافت على ايديهم واقدامهم لثماً وتقبيلا ، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ، ويبصبص برأسه ،وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق ، وعلى افواه الدروب جلسة البائس المسكين ، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متادب .

ان علو الهمة اذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه الى التنطع وسوء العشرة ـ كان احسن ذريعة يتذرع بها الإنسان الى النبوغ في هذه الحياة ، وليس في الناس من هو احوج الى علو الهمة من طالب العالم ، لأن حاجة الأمـة الى نبوغـة اكثر من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون الا حسنة من حسناته ، وأثر من آثاره ؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران .

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبـان المستطار حينما يسمع قصـة من قصص الحروب ، او خرافة من خرافات الجان ؛ وحذار ان يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول : من لي بسلم اصعد فيها الى السماء حتى أصل الى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال ؟

يا طالب العلم ، انت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك الى خلق غير خلقك ، وجو غير جوك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ؛ ولكنك في حاجة الى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسع من رقعة الارض ، وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة او بالسماجة ، فنعم الخلق هي ان كانت السبيل الى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون .

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف : علو الهمة

والفهم في العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته . وأما الفهم في العلم ، فإليك الكلمة الآتية :

العلم علمان : علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين ان تسمع من الحافظ كلمة، او تقرأ في الكتاب صفحة ؛ فان أشكل عليك شيء مما تسمع ، فانظر ان نطق الكتاب بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوي الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل ؛ لأن الحافظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات : وانك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم ، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها ، ويرتعد فرقاً حينما يسمع ابنته تخيف طفلها باسماء الجن والشياطين ، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر ؛ وقيل لأحد العلماء : ان فلاناً حفظ متن البخاري ، فقال : لقد زادت نسخة في البلد !

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ؛ لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه،وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان احدى غرائزه ، فلا يرى له بداً من العمل به رضي أم أبى .

لولا ان العلم الديني قد اصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على ابواب الاحياء والاموات

في مزاراتهم وفي مقابرهم يسالهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً » من يسند النفع والضر الى كل من سال لعابـه وتمزق إهابه ، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون مـا ورد على ألسنة الانبياء والحكماء من مـدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجـد فرقاً بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات .

لو كان العلم المحفوظ علماً ـ وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الاثر وقلة الجدوى ـ ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ، ولا قدّسه كاتب ، او ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكر العـلم فاعلم أنـه العـلم المفهوم لا المحفوظ ، وآية فهم المعلوم تاثر العالم به ، وظهوره في حركاته وسكناته ، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل اليك . فربما مرّ بالمعلوم محرفاً فاخذه على علاته ، واقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والسمين ، والجيد والزائف ، فكان ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الادوية الشافية ، بالعقاقير السامة .

وجملة الأمر انـ الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب ، ولا أثر لمعلوماتـه في نفسه فيقتدي بـه ، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله .

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي اذا جمـع المتعلم بينها وبـين علو الهمـة طـار الى المجـد بجناحين . وكان له سبيل مختصر الى منزلة العظماء

ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور[1] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ الا اذا وضع في العلم الذي مارسه مسالة ، او كشف حقيقة ، او اصلح هفوة او اخترع طريقة،ولن يسلس له ذلك الا اذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً الا اذا أخلص المتعلم اليه ، وتعبد له وأنس به أنس العاشق بعشوقه ، ولم ينظر اليه نظر التاجر لسلعته ، والمحترف لحرفته ؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه ، لا ما يغلو جوهره ؛ والمحترف لا يهمه من حرفته الا لقمة الخبز وجرعة الماء ، احسن أم أساء .

لا يزور العلم قلباً مشغولا بترقب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الأموال ، كما يزور قلباً مقسما بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرّة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام بالكاسين: كاس المدام ، وكاس الغرام .

---

(١) المراد ان العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر ، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها .

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله ، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ، وهماً في نفسها ، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج ؛ فسالت: ما شانها ؟ فعلمت ان اهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق . ثم زفوها اليه فحاول ان يفترشها ، وهي على حالة لا تستطيع معها ان تلم بفراش فامتنعت عليه ، فاراد اغتصابها فعجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه الى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة ، وأعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه اليه مرة أخرى ؛ وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما أعياها الامر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا

مستقراً ، حتى رفع امرها الى ذلك الحاكم ، فامر باستدعائها وآواها في منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد.
وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت اليه حادثة اخرى تشبه الحادثة الاولى من جميع وجوهها ، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل .

إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها .

إنها لا تحسن عملا ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها الا قلب الرجل ، فإن استطاعت ان تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أو لا ، فلا مفر لها من الشقاء ، من المهد الى اللحد .

ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام ، وعقبات جسام ، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام .

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير اولئك الجهلاء اولياء امر تينك الفتاتين : استثقل اهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة . والقومة والقعدة ، ورأوا انها عالة عليهم ، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً . وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب ، أي خاطب كان ، يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها .

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من القسوة ، وهذه

منزلة فلذات اكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الاحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، او يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شانا من شئون أهله ، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل .

فإن كانت ذات جمال او مال ، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهي تقاسي كلا صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع، آلاماً جثمانية تطفىء نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها ، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء ان بكى ما يجعل أخلاقها قضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء ، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازى، فما أنس لا انس ليلة زرت فيها صديقاً لي ، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكانما هي الخلال رقة وذبولا ، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها ، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفة بهم ان يلموا ببعض شانها فيبكوا لبكائها ، فسالتها عن شأنها فاخبرتني انها مطلقة من زوجها وان بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الإرادة » تماطل في إنقاذه ، فجاءت الى هذا الصديق تستعين به على امرها ، ثم اخذت

تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدّة ومعالجة القوت ما أسال شئوننا ، وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدّعا .

فخففت أنا والصديق شيئاً من آلامها فانصرفت ، وفي صباح تلك الليلة سمعنا ان امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا انها صاحبتنا بالأمس ، وانها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة .

أيها الرجل :

إن كنت تعتقد ان المرأة انسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة ، والا فاحسن اليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك .

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد ان تقضي مآربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وان كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً ، ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها ، ثم يلقي اليك بعظامها ،

ويا أيها المحسنون : والله لا اعرف لكم باباً في الاحسان تنفذون منه الى عفو الله ورحمته اوسع من باب الاحسان الى المرأة .

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها اولادكم قبل المدرسة ،وأدبوها لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

القِسْمُ الثَّانِي

البيـــان

قال لي أحد الوزراء ذات يوم : « إني لتأتيني أحياناً رقاع الشكوى فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، والكلمات الجارحة ، لولا أن الله تعـالى يلهمني نيـات كاتبيها وأين يذهبون ، ولولا ذلـك لكنت من الظالمين » .

ذلك مـا يراه القارىء في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزل في موضع الجـد ، وجـد في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان الإيجـاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ، وجهل لا يفرق مـا بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصور عن ادراك منـازل الخطاب ومواقفه بين السوقـة والامراء ، والعلماء والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في في الفاجعة يفجع بها ، ويكتب في الحوادث الصغار مـا يعجز عن كتابة

مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ويناجي أجيره بما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيـان مذاهب متشعبة ، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً ، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون ؟ وهـذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها ؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر القارىء أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ، ولا يقصر عنه ، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنـه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فاغصوا بها صدور كتابتهم ، وحشوها في حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها ، فإذا قدّر لك أن تقرأها ، وكنت ممن وهبهم الله صدراً رحباً ، وفؤاداً جلداً ، وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه ، قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول ، والتبسط في الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقـع ، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرّتها ، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها ، حتى تسف وتتبذل ، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

يخيل إليّ أن الكتّاب في هـذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فإني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع ، وينفث في روعه مـا يريد أن ينفث من خواطر قلبه ، وخوالج نفسه .

الكلام صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف ، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيـان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربي بمـا أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة ، ولا أدري كيف يستطيـع الكاتب أن يكون كاتباً عربيـاً قبل أن يطلع على أساليب العرب في اوصافهم ونعوتهم ، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومحاوراتهم ومساجـلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعـاقبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ويتغزّلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأية لغة يحـاول ان يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من انبوب يراعته على صفحات قرطاسه .

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابىء والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هـذه الصحف والأسفار فأشعر بمـا يشعر به المتنقل دفعة

واحدة من غرفة مُحكمة النوافذ، مُسبلة الستور، الى جو يسيل قرا وضرا، ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فاغتبط بها ، وهي بالعامية فالهو باحماضها ومجونها .

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين : رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في روع قارىء كتابته أدون مما أخذها ، فيدلى آخذها كذلك الى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الاطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشيّ ، وطالب قصارى ما يأخـذه من استاذه : نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملاؤها ، ومترادفها ومتواردها ، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها ، أمـا روحها وجوهرها فاكثر اساتذة البيان عنده علماء غير ادباء ، وحـاجة طالب اللغة الى استـاذ يفيض عليه روح اللغة ، ويوحي اليه بسرّها ، ويفضي له بلبها وجوهرها اكثر من حـاجته الى استاذ يعلمه وسائلها وآلاتها ، وعندي أن لا فرق بين استاذ الاخلاق واستاذ البيان ، فكما ان طالب الاخـلاق لا يستفيدها إلا من استاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه . كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من استاذ مبين .

ولا يقذفن في روع القارىء أني أحـاول استلاب فضل الفاضلين او

أني أريد ان انكر على شعراء الامة وكتابها ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا اردت ولا اليه ذهبت ، وإنما اقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب .

وبعد : فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلاً اليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج . فإن رأيت انك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف اليها ، وأن قد لذّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام ، فاعلم انك قد اخذت من البيان بنصيب ، فامض لشانك ، ولا تلو على شيء مما وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثك نفسك اني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لاسلوب تسترقه او تركيب تختلسه ، فإني لا احب ان تكون سارقاً او مختلساً ، فإن فعلت لم يكن دركك دركاً ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدته[1] ان تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين اجزائها ، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها وإنما اريد ان تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، وإلا كان شانك شأن اولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها ، فقنعوا بها ، وظنوا انهم قد وصلوا من البيان الى صميمه . فإذا جد الجد وأرادوا انفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم،

(١) بمعنى : أفاد واستفاد .

رجعوا الى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فـان وجدوا بينها قالبـاً لذلك المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً وحشروه في كتابتهم حشراً . وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطـة المشنوعة او هجروا تلك المعاني الى معـان أخرى غيرها ، لا علاقة بينها وبـين سابقاتها ولاحقاتها ، فلا بد لهم من إحدى السوأتين : إما فساد المعاني واضطرابها، او هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحذر أن تكون واحداً منهم ، أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعـاني المستحدثة ، وأنهم ما لجأوا الى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفـع فيها . فاللغة العربية ارحب صدراً من أن تضيق بهذه المعـاني العـامة المطروقة بعدما احتملت من دقـائق العلوم والمعـارف ما لا قبل لغيرها باحتماله ، وقدرت من هواجس الصدور وخوالج النفوس عـلى ما عيّـت به اللغات القادرات .

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في ارجـائها ، والتغلغل في أعمـاقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تثلج صدراً ، ولا تشفي أواما .

وكل ما يعد عليها من الذنوب انها لا تشتمل على أعلام لبعض هـذه الهنات المستحدثة، وهو في مذهبي أهوَن الذنوب واضعفها شأناً ، ما دمنا نعرف وجـه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل اليه ، او التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالامر اهوَن من ان نحـار فيه ،

واحقر من ان نقضي اعمـارنا في العراك ببـابه ، والمناظرة في اختيار اقرب الطرق اليه ، واجداها عليه .

واعلم انه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد ان تزاوله من المنشآت العربية ، فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك ، ولا احسبك إلا واقفاً بين يدي هـذا الامر موقف الحـيرة والاضطراب ، لان حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعنـاق الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الادباء الذين تعرف ويعرف النـاس منهم ذوقاً سليماً ، وقريحة صافية ، وملكة في الادب كصفاة الذهب ، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي اليها من البذور الطيبة ، عـدت وبين جنبيك ملكة في البيـان زاهرة ، يتناثر منها منثور الادب ومنظومه ، تناثر الورود والانوار من حديقة الازهار .

***

السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الانسان لرأى منها ما يرى الاعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيراً .

تتراءى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء او صفحة الماء ، فإن بدا لك ان تكتنه باطنها فانك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت ان تخترق جلدة السماء ، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات .

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمس لعابها من نافذة غرفته فإذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواح السانحات وغدو البارحات ، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلاً .

وقف آدم أمـام باب السريرة يوم الشجرة يعالـج فتحه فاستعصى عليه ، ثم وقـف بنوه من بعده موقفه فحجزوا عجزه ، فلجّ بهم الشوق إليها لجـاجاً طار بعقولهم وذهب بألبابهم ، فترامو على أقدام المنجمين والعرّافين لثماً وتقبيلا ، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعاً وسجوداً ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيـام الابل العطاش بمنازل الماء ، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجـع فيه النفثات ، ولا تجدي معه العزائم والرقي .

انك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكواكب في جنح ليل مبرد ، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكام عن الأزهار ، فتحسده عـلى نعمته وسعادته ، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وان بـين جنبيه ــ لو علمت ــ هماً يعتلج ، وقلباً يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الاعمار ، وكبداً مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والاحزان ما وجـد من يبتاعها منه بأبخس الاثمان .

وانك لترى الصديق فيعجبك منـه حديثه الحلو ، وثغره المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك واعظامه لك واعجابه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعه لآرائك ، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتـاع أقدام السليك [1] بجميع مـا تملك يدك ففررت من وجهه فرارك من وجـه الاسود السالخ [2] ووددت بجدع الانف ان لا يصافح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم .

---

(١) السليك : رجل معروف بسرعة عدوه في العرب . (٢) ذكر الحيات .

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الارض غير الارض ، والسموات غير السموات ، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات .

لو علم الجند أنهم لا يحاربون الا ليضعوا « نيشاناً » في صدر القائد ، او جوهرة في تاج الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين في مواقفهم باشراك الوطنية وحبائل الدين ، لما دالت الدول ، ولا أنتقلت التيجان ، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان . ولو علم جهلة المتدينين ان أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم عقولهم واموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية ، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال ، لضعفت اصوات النواقيس ، وقصرت قامات المنائر ، ولهلك أرباب الطياليس والقلانس جوعاً وسغباً ، ولأصبحت حبات السبح اكسد في سوق الاديان من بعد الآرام في سوق الأنعام ، ولو علم الابن ان أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته ، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه ، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة ان زوجها يحب منها جسمها اكثر مما يحب نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيراً منها ، لما وثقت بودّه ولا اطمانت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد .

زيد وعمرو

أراد داود باشا ـ أحد وزراء تركيا في العهد القديم ـ ان يتعلم اللغة العربية ، فاحضر احد علمائه ، وأخذ يتلقى عنه علمه عهداً طويلا ، فكانت نتيجة عمله ما ستراه .

سأل شيخه يوماً : ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق ان يضربه زيد كل يوم ويبرّح به هذا التبريح المؤلم ؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه ، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير ؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ،ويضرب الارض بقدميه ، فأجابه الشيخ : ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي ، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب ، واكبر ان يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية . فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل الى نحوي آخر

فساله كما سال الاول ، فاجابه بمثل جوابه ، فسجنه كذلك ، ثم ما زال ياتي بهم واحداً بعد واحد . حتى امتلات السجون وأقفرت المدارس ، وأصبحت هذه القضية المشئومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له ان يستوفد علماء بغداد ،فامر باحضارهم ، فحضروا وقد علموا قبل الوصول اليه ماذا يرادبهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق والبصر بموارد الامور ومصادرها،فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه رئيس العلماء : ان الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق ان ينال لاجلها من العقوبة اكثر مما نال ، فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أسارير وجه ، وأقبل على محدّثه يساله : ما هي جنايته ؟ فقال له : انه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله ـ يشير الى زيادة واو عمرو واسقاط الواو الثانية من داود ـ فاعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : انت أعلم من أقلته الغبراء ، وأظلته الخضراء ، فاقترح عليّ ما تشاء ، فلم يقترح عليه سوى اطلاق سبيل العلماء المسجونين ، فامر باطلاقهم ، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات .

أحسن داود باشا في الاولى وأساء في الاخرى ، ولو كنت مكانه لما اطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهداً وثيقاً ان يتركوا هذه الامثلة البالية الى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه

الحوادث الدموية بين زيد وعمرو ، وخالد وبكر .

لا ينـال المتعـلم حظه من العـلم الا اذا استطاع تطبيقه عـلى العمـل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها ، ولن يـستطيـع ذلك الا اذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافتن له في إيرادها افتناناً يقرّب الى ذهنه تلك الصلة من العلم والعمل ، ويسهل له الوصول الى القدرة على تلك المطابقة ، وان اكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة ، لما حال بينهم وبـين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم ! فلو أنك أردت أحدهم عـلى ان يخرج في المنطـق عن الحيوانية والناطقية ، وفي النحو عن ضرب زيد عمراً ، وقتـل خالد بكراً ، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر ، واستعارة الأظافر للمنية ، وفي الصرف عن فعلل وافعوعل لوجدت في نفسه من الجهـد والمشقة ، وفي لسانـه من العى والحصر مـا يحزنك عـلى اعوام طوال قضاها بـين المحابر والدفاتر ، ثم لم يحصـل من بعدها على طائل .

علام يتعلم الطالب النحو والصرف ان عجز عن ان يقرأ صحيحاً كل كتاب وكل صحيفة ؟ وعلام يتعـلم علوم البلاغة ان عجز عن معرفة أسرار الكلام ، وأوجه بلاغتـه وفهم المراد من مختلفات أساليبه ، وعن الإبانة عما يدور في نفسه إبانـة واضحة لا يشوبها قلـق ولا اضطراب ؟ وعلام يتعلم المنطق ان عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل ما يعرض عليـه منها ، وان لم يكن الموضوع الإنسان ، والمحمول

الحيوان الناطق ؟ !

عجيب جداً ان يفهم الصانع الأمي ان العلم للعمل ، فلا يتعلم النجارة الا ليصنع الأبواب والصناديق ، ولا الحداد الا ليصنع الاقفال والمفاتيح ، وان يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية ، فلا يهمه من العلم الا الاستكثار من المعلومات والقواعد ، وان عجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع بها في مواطنها .

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من اسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام ان ينبغ منها العلماء الذين تستطيع ان تنتفع بهم الأمة انتفاع امثالها بأمثالهم في مشارق الارض ومغاربها ، فويل للعلم من العلماء .

•

أبو الشمقمق[1]

ان كثيراً من الفقراء لم تمتد يد الفقر الى رؤوسهم ، كما امتدت الى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء ، ويفهمون كما يفهمون . وكما ان في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس .

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية : ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة ، وزارع يفخر بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ . وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار ، والكل متفقون على ان السعادة التي أظلتهم أجنحتها في هذا العهد الأخير :عهد العدل والانصاف، عهد الحرية والمساواة ، عهد الرقي والعمران : هي أشبه شيء بسعادة

(١) هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر .

المتقين في جنات النعيم .

كل هـذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه ، ويهز رأسه ، ويصعد أنفاسه ، ويمضغ أضراسه ، ويئن من أعماق قلبه أنيناً يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر :

فيا لك بحراً لم أجد فيه مشربا على ان غيري واحد فيه مسبحا

فما هو الا ان قضوا لبانتهم من الكلام المملول ، والحديث المعاد حتى قاموا يطيرون الآمال وراء الأموال. فاشرت الى أبي الشمقمق ان يختلف ففعل . فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيه ؟ فاجاب إني أكره الفضول في الحديث وقد فرق المقدار بيني وبينكم في المال ، فلا اشترك في المقال ، فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمـة المصرية في عهدها الأخير وانت فرد من أفرادها ، وجزء من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك ، وسقوطها سقوطك ، والأمة ـ كما تعلم ـ هي الفرد المتكرر والواحد الدائر ، فانت الإمة والامة انت ، فقال والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفية ؟ ولست بصوفي ، أم بلغـة الفلاسفة ؟ ولا أفهم للفلسفة معنى ، وكانك تقصدني بالفرد المتكرر ، فان كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحد لا سند لي ولا عضد ، ودائر في مدارج الطرق ومعابر السبل ، فقد اصبت واحسنت ، وان كنت تريد معنى غير ذلك ، فانا لا أفهم الا كذلك ، فهل لك ان تعفيني من الجواب على هذه المعميات وتزن كلامك على مقدار عقلي وتحدثني فيما يتناوله سمعي وبصري ؟ فقلت : أنا لم اخرج

بك عن المألوف المعروف ، ولا أريد الا ان الامة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها ، فإذا سعدت او شقيت فالسعداء والاشقياء أبناؤها ، وحسبك ان ترى تقدم الامة المصرية في ثروتها وعمرانها ، وبذخها وترفها ، وكثرة ناطقها وصامتها ، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها ، فقال : ان لم تبين لي سهمي من هذه السعادة ، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء ، وما دمت أرى ان لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء ، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم ، وبطناً لا يمتلىء بما تمتلىء به بطونهم ، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق .. وقميصي المخرق .. ويقاسمني همي .. ويشاطرني فقري .. فهيهات ان أسعد بسعادتهم ، وأسر بسرورهم .. وهيهات ان افهم معنى قولك انت الامة والامة انت .. فقلت : ان الغيث اذا نزل يسقي الخصيب والجديب .. والنجد والوهد ، وينتظم من الارض الميت والحي . فقال : كل سماء فيها هذا الغيث الا سماء مصر فإني أراه :

كبدر أضاء الارض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم

مالي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه .. والقصر الذي لا ادخله مالكا ولا زائراً .. وهب ان الطرق مفروشة بالحرير والديباج .. لا بالحصى والمدر .. فهل أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئاً فاستطيع ان اميز بين خشن الملمس وناعمه ، ومعوج الارض ومستقيمها ؟ وهبني اذا مشيت خضت في بحر مائج بانوار الكهرباء . فهل يغنى ذلك عني شيئاً ؟ وهل يكون نصيبي منه الا انكشاف سوأتي ورثاثة حالتي لأعين

الناظرين ؟ ولقد حبب اليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرتق والفتق .. والتمزيق والترقيع .. وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني ؟هل ترقت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين ؟ وهل خفقت قلوب الاغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت : نعم .. أما ترى الاموال التي يتبرع بها الاغنياء للجمعيات الخيرية ،والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال : ان هذه التي تسميها مكارم ، لا يسميها اصحابها الا مغارم ، ألجأهم اليها التملق للكبراء ، وحب التقرب من الرؤساء ، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب .

مالي وللمدارس والمستشفيات ، وانا جوعان خبز لا جوعان علم .. ولا مرض عندي الا مرض الفاقة ، فهل اجد في المدارس خبزاً او في المستشفيات دواء كذلك الدواء الذي وصفه احد الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا اليه مرضاً فعرف سر مرضه فأعطاه علبة وكتب على غطائها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير .

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى .. فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً او يحسن صنعاً، ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه ، والعهد الذي تنقمون عليه ، منفسح عظيم في منازل المحسنين ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فاني أبيت طاوياً،

واصبح شاكياً ، وأغدوا راجياً واروح يائساً .

وهنا ارسل من جفنيه دمعة ليست باول دمعة ارسلها على ردائه ، ولكنها أحر من سابقاتها ، لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة .

ثم نهض ومد يده اليّ مودعاً ، فسحت بيميني دمعة واحدة من دموعه الكثيرات .

*

دورة الفلك [1]

أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في ابراجك ؟ اين النسر الطائر الذي كان يحلق في اجوائك ؟ اين الملك القادر الذي كان يطلع شمساً في صباحك وبدراً في مسائك ؟

اين الاعلام والبنود تخفق في شرفاتك ؟ والقوّاد والجنود تخطر في عرصاتك ؟ اين الشفاه التي كانت تلثم ترابك ؟ والافواه التي كانت تقبل اعتابك ؟ والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك ؟ والقلوب التي كانت تخفق لروعتك ؟

اين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع آذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء ؟ اين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ؟

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا .

كيف استطاع الدهر ان يمد يده الى شملك فيبدده ؟ وجمعك فيفرقه ؟ وسمائك فيكور شموسها ؟ وأرضك فيزعج أنيسها ؟

اين كانت أسوارك وابوابك ، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت ان تمتنع على القضاء ؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت على عجل أستاره وستائره

أيها السجن :

حلّ بارجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز عن احتماله قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقاً به لا تزعجه ، ولا تحرج صدره ، وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال الذاهب ، والعز الزائل ، والرأس الذي بيضته حوادث الدهور ، والظهر الذي قوسته ايدي المقدور .

ايها الدهر :

ألا تستطيع ان تنام عن الإنسان لحظة واحدة ؟ ألا تستطيع ان تسقيه كاس السرور خالصة ، لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

ان كنت تريد ان تسلبه فلم اعطيته ؟ وان كنت تريد ان تعطه فلم سلبته ؟ كان خيراً له ان لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية ، وان لا تسقيه كاس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السم الذي أودعته تلك الكاس

أيها الرجل المودع :

كان ارتفاعك عظيما ، فوجب ان يكون سقوطك عظيما .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت، كما يجزع ويقطب كل من ذاق من الشراب ما لا عهد له به ولا قبل له باحتماله .

لا تأس على ما فاتك ، فإنما كان وديعة من ودائع الدهر ، أعاركها برهة من الزمان ، ثم استردها .

إنك لا تدري ، لعلّ الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول اجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فها فهرس أعمالك ، فان رأيت خيراً اغتبطت او شراً استغفرت .

قضى الله ان يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت انت عبرة هذا الدهر وموعظته.

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالاحلام مغرور

*

تأبين فولتير [1]

في مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير .

ما مات « فولتير » حتى احدودب ظهره تحت اثقال السنين الطوال، واثقال جلائل الاعمال،واثقال الامانة العظمى التي عرضت على السموات والارض،فأبين ان يحملنها ،فحملها وحده وهي تهذيب السريرةالإنسانية فهذبها ، فاستنارت ، فاستقام أمرها .

مات فولتير مرذولاً محبوباً في آن واحد يبغضه الحاضر لأنه يجهله ، ويحبه المستقبل لانه عرفه .

ان في هاتين العاطفتين ـ البغض والحب ـ سراً عظيما من اسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل العظيم .

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها « فكتور هيجو » في باريس في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨ م بعد مرور قرن على وفاته ، مع بعض تصرف .

كان وهو على سرير الموت محفوفاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً،متفقتين معنى ، لانهما جميعاً في سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه ، فيسرُّه منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله ، ويلتفت وراءه فيطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يضمره الماضي في صدره لاولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه .

كان « فولتير » رجلاً واكبر من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسه على انجاز عمل عظيم فانجزه ولم يخلف وعده ، وكان الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع ، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه ، فوجدت فولتير اصلبها عوداً ، فاختارته للقيام بالعمل الذي قام به فاتمه .

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية الكبرى ، جئنا لنرفع شان المدنية ونكرم الفلسفة اكراماً ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه،جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى اليها العلماء والعاملون ، والكتاب المجدّون ، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا الا لنمجد العاطفة الشريفة السامية ، عاطفة السلام العام .

إنا نمجد السلام حباً في المدنية ، وحرصاً على جمالها ورونقها ، فالسلام فضيلة المدنية ، والحرب رذيلتها .

نحن في هذه الساعة العظيمة ، في هذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ، ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ، ونقول للعالم الذي

ينصت لسماع صوت فرنسا « لا قوة الا قوة الضمير ، ولا مجد الا مجد الذكاء » هذا في سبيل العدل ، وهذا في سبيل الحق .

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال : الشعب في المنزلة الدنيا ، وفوق الشعب الدين والقضاء ، وهذا يمثله « القضاة » وذاك يمثله « الإكليروس » .

أتدرون كيف كان الشعب ؟ وكيف كان الدين ؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً ! والدين رياء ! والقضاء ظلماً !

ان كنت في شك مما اقول فاني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعاً .

في ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شاب مصلوباً في الطبقة الارضية من بيت في مدينة « تولوز » فهاج الشعب ولغط « الإكليروس » وبحث القضاة ، فكانت النتيجة ان كان الشاب منتحراً ، فسمي قتيلاً ، وكان والده بريئاً ، فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته ان يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتياً ولأنه كان يمنع فتاه ان يتدين بالكثلكة ، إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ، ويحيلها العقل ، ولكن هان أمرها ، ولم يحفلوا بالشريعتين : شريعة القلب ، وشريعة العقل ، فحكموا ان الشيخ الكبير قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق الى الميـدان العام شيخ ابيض الشعر هو « جان كالاس » ثم جرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت ليه أطرافه وترك رأسه متدلياً .

ثلاثة رجال تلوثت ايديهم بدم القتيل : كاهن يحمل الصليب ، وجلاد يحمـل القضيب ، وقاض يحمـل في صدره عهـد القوم اليـه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشيـخ المسكين وقـد شق الخوف مرارته ، وتمشى قلبـه في صدره ، لينظر الى الصليب في يد الكاهن ، بل الى القضيب في يد الجلاد .

ورفع الجلاد القضيب ، وضرب ذراع الشيخ ضربة قاسية صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه، فتقدم القاضي الرحيم وأمره له بالمنبهات فانتعش ، فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الأخرى فعاد الى صرخته وإغمائه فعادوا الى تنبيهه وانعاشه ، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقـدم الكاهن ومدّ اليه الصليب ليقبله فحوّل وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينـين ، فاقبـل الجـلاد وسدد الى صدره الطرف الغليظ من لقضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات « جان كالاس » .

وما هي الا أيام قلائل حتى عرف الناس ان الفتى مات منتحراً ، لا

مقتولا فحكموا ببراءة الشيخ بعد ان نفذ فيه سهم القضاء ، وماذا يعنيه بعد الموت ، أمات ظالماً أم مظلوماً !

أمـا الحادثـة الاخرى فهي عـبرة الشباب كما كانت الاولى موعظـة الشيخوخة .

بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا في « ايفل» في ليلة عاصفة صليباً أكل السوس احشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحاً فوق الجسر بعد ان عاش فوق السور ثلاثة قرون .

من ألقى به من أعلى السور ؟ من أهانه ؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذي اجرم هذا الجرم العظيم ؟

ربما عصفت به ريح ، او عبث به عابر طريق ، او هوى به ضعف الشيخوخة واعياء الهرم ، لا .. لا .. كل ذلك لم يكن ، لأن الدين أبى الا ان يوجـد مجرماً .. هنالك اعلن مطران « اميـان » براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم او ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه .

ان الحرمان في الكثلكة جريمة هائـلة فظيعة قاتـلة متى أوحى بـه التعصب الذميم ، الى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمان سبباً في ان القضاء عرف او ظن أنـه عرف ان ضابطـين اسم احـدهما « لابار » والآخر « ديتالون » مرا على جسر « ايفل » في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكراً ، وينشدان نشيـداً عسكرياً ، مراً بالجسر وأنشدا النشيـد ، فهما المجرمان ، وكانت المحكمة تقدس « ايفل » ولم تكن باقل عدلا وانصافاً

من « مجلس الكابيتول » في « تولوز » فـأمرت بالقبض عـلى الرجلين ، فاختفى « ديـالون » وقبض على « لابار » .

وأسلم الى القضـاء ، فاعترف بالشبـد وانكر المرور عـلى الجسر ، فحكمت محكمة إبفـل بالاعدام ، وأيـد حكمها برلمان باريس ، فدنت الساعة المخيفة الهائلة .

لقـد تفننوا في تعذيب « لابار » وارهاقه ليكشفوا عن سر فعلتـه ، وعن شركائه في جريمته ، أي جريمة المرور على الجسر ، وانشاد النشيد .

لقد عذبوه عذاباً أليماً ، حتى ان الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه .

مضى هـذا اليوم وجـاء اليوم الثاني ، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم الى ساحـة « ايفـل » الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضراما ، فاسمعوه نص الحكم ، ثم بتروا يده ، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستاصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار .

عـلى هـذه الصورة مات « الشيفاليه دي لابار » كما مـات من قبلـه « جان كالاس » .

احزنك هذا المنظر يا فولتير ، وآلم نفسك ، وملك عليك عواطفك وشعورك ، فصحت صيحة الرعب والفزع ، فكانت تلك الصيحة الحجر الاول في بناء مجدك الخالد العظيم .

هنالك انبعثت نفسك الى النزول في ميدان المجتمع الانساني لتكف عادية الظالمين ، وتقلم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه ، وتنتصف منه للمستقبل ، فانتصفت وانتصرت ، وكنت من المحسنين .

فيأيها الرجل العظيم ! طبت حياً وميتاً .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء ، يغدو اليها الانسان لاهياً ، ويروح ساهياً ، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ، ولا يخفضه فيرى ما تحته .

حدث ذلك وايام البلاط أعياد ، و « فرسايل » تتلألأ » حسناً وبهاء ورونقاً ونماء ، وظرفاء الشعراء امثال « سان أولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها ، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية ان يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع ، بذلك القضيب الحديد ، وان يستل لسان الفتى لأنه انشد الاناشيد .

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاد وقوة الاشراف، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المتدفع ،وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية ، ونعامة بين يدي الملك ، تجثو أمامه خاضعة صاغرة ، الا ان جثيها كان على جثة الشعب .. وقوة « الاكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة .. ولم يره اكبر من ان ينخذل .. ولم ير نفسه اصغر من ان ينتصر .

أتدرون ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها .. وتسبق الصاعقة في انقضاضها.. ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب ، وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة ، فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الهائلة ، حرب العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهوى ، والصلاح والفساد ، فتم على يديه الغلب للخير على الشر ، وفاز فوزاً مبيناً .

وكان « فولتير » قلباً وعقلا .. كان له رقة الفتاة في غلالتها [1] وشدة الاسد في لبدته .

« فولتير » محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة ، وارغم انف الكبرياء وأذل عز الرؤساء ،ورفع السوقى الى حيث لا يصل ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن .

علم ومدن وهذب ، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس ، فلم تنكسر سورته ، ولم تفتر عزيمته . بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة .

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

اقف هنا قليلا اجلالا لابتسامة « فولتير » .

« فولتير » هو الابتسامة ، والابتسامة هي فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم ان يملك نفسه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير .. كان عقله ميزان اعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابساً مقطبا ، فما هي الا كرة الطرف ان ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

تكاد تكون ابتسامته ضحكا ، لولا حزن الحكيم ، وهم العاقل .

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء، ويرتاح لها الاولياء.

كان يبتسم للقوي فيخجله بتهكمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه .

فلنمجد تلك الابتسامة التي كانت اشعتها كاشعة الفجر ، تمحو الظلام وتبعث الانوار .

نعم الابتسام ، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح ، وبدد ظلمات التقليد .

ان ابتسامة فولتير أنشات هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة ، فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام ، سواء أسكن القصر الكبير ، أم الكوخ الحقير ، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة ، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ، ونشر السلام اجنحته البيضاء على المجتمع الانساني

فقرّت السيوف في الاغماد ، وهدأت الدماء في العروق ، والارواح في الاجسام ، كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير ، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء ، والعفو عن الخاطئين ، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الاكبار .

هل كان « فولتير » يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب ؟ كلا : بل كان يغضب احياناً في سبيل الحق .

ان التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلي للإنسان، حتى لا تهبط بـه كفـة وتعلو بـه أخرى ، وحتى لا يهلك بـين عاطفتي الحب والبغض ، وان الفلسفة هي الاعتدال وامتلاك ازمة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها ، الا ان حب الحق يجب ان يكون دائماً في مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها .

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الاولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الامل ، لذلك يحب الناس القاضي العـادل ، والكاهن الصالح : لأن الاول صورة العدل ، والثاني مثال الرجاء ، فـاذا انقلب العدل ظلماً ، والامل يأساً ، عافهما الانسان ولوى وجهه عنهما ، وقال للقاضي « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أؤمن بك » وهنا يهب الفيلسوف الغيور غاضباً ، فيحاكم القضاء امـام العدل والكهنوت امـام الله ، وكذلك فعل فولتير » فكان من المحسنين .

ان الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً الا قليلا ، وكلما كثر

العظماء حوله ارتفع شانه وعلا ذكره ، فهو كالشجرة الباسقة تكون في الغابة الشجراء أطول منها في التربة الجرداء ، لانها تكون بين لداتها واترابها ، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة : روسو وديدور وبوفون وبورماشيه ومونتسكيو ، اولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الاشياء ، والتفكر الصحيح الموصل الى اتقان الاعمال ، وعلموهم ان صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل ، فاجادوا وأفادوا .

مات اولئك القوم العظماء ، وهوت من أفقها كواكبهم ، ولقد كانوا في حياتهم جسداً وروحاً ، اما الجسد فقد طواه القبر ، واما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .

اجل ، ان الثورة روحهم ، والمظهر الساطع المتلالىء بحكمتهم ومبادئهم .

هم في الحقيقة ابطال الثورة المقدسة ، التي هي خاتمة الماضي ، وفاتحة المستقبل .

انك تراهم بعين بصيرتك ، في كل مواقفها ومواقعها ، واذا استطعت ان تنفذ بعين بصيرتك في مواطن الاشياء،رأيت على نور الثورة الساطع ان ديدور كان واقفاً وراء دانتون ، وروسو وراء روبسبير ، وفولتير وراء ميرابو ، ووجدت ابطال الثورة صنيعة ابطال الفلسفة [1]

ان الكلمة الاخيرة التي انطلق بها في هذا الموقف العظيم ، هي دعاء

(١) دانتون ، وروبسبير ، وميرابو : أبطال الثورة الفرنساوية .

المجتمع البشري الى التقدّم بهدوء وسكون ، وثبات ووقار .

ولقد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها ، وهي الاخاء الانساني والتعارف النفسي ، فمن العبث ان تشغل القوة بعد ذلك مكاناً في هذا المجتمع ، فان فعلت كان أليق الاسماء بها اسم الاستبداد .

ان المجتمع الانساني انكر على القوة حقها المزعوم ، وضاق صدره بجرائمها وآثامها ، فقضاها بين يدي الحق ، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه ، فقضي عليها « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » .

شف ثوب الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فاصبح الابطال والمجرمون في نظر الانسانية سواء لانهم جميعاً يسفكون الدماء.

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة : وهي ان الجرم العظيم اصغر من الجرم الصغير، فأدرك الإنسان ان قتل الشعوب اكبر إثماً، واعظم جريرة من قتل الافراد ، واستكبر ان يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً ، وبالجملة : عرف ان الجريمة جريمة ، حيثما حلت ، وفي أي مظهر ظهرت ، وان القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً ان يسمى القيصر او يدعى الامبراطور . ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تاج الملك ، او قلنسوة الاعدام ! .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة ، ولنحتقر الحرب اشد الاحتقار ، ان الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

ان منظر الدماء والأشلاء افظع منظر .

لا يعقل ان يكون الشر طريق الخير ، وان يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي : خففن من احزانكن فقد اوشكت يد الحرب ان تكف عن اختلاس أفلاذ اكبادكن .

أتشقى المرأة فتلد ، ويغرس الزارع فيكسو الارض بساطها الاخضر ، ويجد العامل فيملأ الخزائن فضة وذهباً ، ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات ، حتى اذا اخذت الارض زخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها ، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟ !

آه ... اننا لا نستطيع مع الاسف ان نخدع أنفسنا ، وننكر ان الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها ، وتنقص من سرورها .

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء .

ان الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لا تزال باقية .

فلنذكر عند ملوك الحرب : فولتير وجان جاك وديدور ومونتسكيو ملوك السلام ، ولنوجه وجوهنا الى تلك الروح العالية ، الى تلك الحياة العظيمة ، الى ذلك الدفين المقدس ، الى فولتير ، ولنجث امام قبره ضارعين متوسلين ، عسى ان يمدنا بروح من عنده ، ويهدينا الى

حظيرة السلام المقدسة ، فانـه وان مر قرن عـلى موته لم يزل في الأحياء الخالدين .

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال : كفى كفى انها همجية ، انها وحشية ، انها تشوه وجه المدنية الجميل .

ان أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق الى البشر .

فلنضرع اليهم في تذكارهم هـذا ان يتداركوا الفتنة قبـل وقوعها ، وينادوا : ان الحياة ملك الإنسان ، وعزيز عليه ان تسلب منه ، وان التمتع بالحرية حـق من حقوق العقول والافكار ، فـلا يعترض سبيلها معترض .

ان النور لا أثر له بين اضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور .

العلماء والجهلاء

لا تحسبن ان الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام ، او ان بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما ، وانزالهما منازلهما ، فالعلماء والجهلاء — ان دققت النظر — سواء لا فرق بينهما الا ان هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة ، واولئك يعلمونها مبعثرة ، وان هؤلاء يحسنون البيان عنها واولئك لا يبينون .

ومن نظر الى الاشياء نظراً نافذاً وجد ان المعاني الصحيحة ، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر ، والمسائل المتوطلة بالإنسان في حياتيه المادية والمعنوية ، يشترك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل ، لا سيل يتدفق من الخارج ، ولأن المعلومات كامنة في النفوس

كمون النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم الا استثارتها من مكانها ، وبعثها من مراقدها .

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآيـة فضلهم ، الا وترى في ألسنة العامـة وشوارد أقوالهـا وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب ، ولا قضيـة من قضايا الاخلاق الـتي تعـدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق ، الا وهي ملقاة تحت أقـدام العامة ، ومذلة بـين أيدي الغوغاء والأميين .

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات عـلى صورة مرتبة منظمة لمـا خيـل اليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، او معنى غريباً .

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون احاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، او أدركوا ما لا عهد لهم بـه من قبـل ، بـل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شتات المعـاني المبعثرة في أنحـاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأنس بافكار تشابه أفكارهم ، وآراءهم .

ولا أخشى باساً ان قلت : ان علم العامة أفضل من علم الخاصة ، لانه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل ، حتى إنك لتجـد في بعض الاحايين بـين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم مـا يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه ، وما يترفع أضيق العامة ذهناً وأضعفهم فهماً ان يحمل

له شاناً ، او يقيم له وزناً ، وثانياً : لانه يعلق بالنفس ويتغلغل بين أطوائها تغلغلاً تظهر آثاره عل الجوارح ، وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وان كان صحيحاً ما يقولون من ان العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء .

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ،ولا تنظر اليهم نظراً يملأ قلبك رهبة ولا تغل في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الالقاب .

ان في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها ، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه ، وتفرقه مذاهب وشيعاً ، وركوب كل فريق رأسه ، وهيامه على وجهه ، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى ــ ينشدون فلا يجدون ويجدّون فلا يصلون ــ لدليلاً على ان الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات ، وان حقائق الاشياء واسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده ، ولم يمنحهم الا بلة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقاً كلما تذوقوا طعمها :

ضريبك في بني الدنيا كثير وعز الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

سيدي المحترم :

لا تعجب ان رأيت إعجابي بك ظاهراً في كل سطر من سطور كتابي هذا فإنما أنطق بلسان كثير من العقلاء ، الذين يحبونك حباً جماً ، ويعتقدون أنك فريد في أدبك ، فريد في قلمك ، فريد في تسامحك وتساهلك ، لذلك أردنا ان نوجه اليك السؤال الآتي راجين منك الاجابة عليه :

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها ، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع ان جريمتهما واحدة ؟

هذا ما أردنا ان نسترشد برأيك فيه ، والسلام ؟

« سائل »

يعتقد كثير من الناس ان الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقل ، وعندي أنهم أصابوا في الأولى وأخطأوا في الاخرى .

تستطيع المرأة ان تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ، ولا تستطيع ان تجاريه في الاناة والرفق وامتلاك هوى النفس ، والاخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب .

تستطيع المرأة ان تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والاطوار ، وان تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنها لا تستطيع ان تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لان بين جنبيها نفساً غير نفسه ، وهوى غير هواه ، ولان لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير .

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه .. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها ، فما وقفت معه في موقف الا سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً .. لانه يعرف السبيل الى قلبها .. ولا تعرف السبيل الى عقله .

لا تعجب ان قلت لك : ان الذكاء غير العقل ، فاللصوص والمحتالون والمزوّرون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء .. وليس بينهم عاقل واحد .. لانهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك ، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً .. وكثيراً ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون ؛ حتى انك لا تكاد ترى ذكياً من الاذكياء ، الا وترى له في شؤونه وأطواره احوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل .. ولا قاعدة من قواعد الطبيعة . وعندي ان اكثر ما يصيب النوابغ والاذكياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد الى ضعف في عقولهم .. ونقص في تصوراتهم ، وبعد . فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد

الشجاع .. وكثيراً مـا يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه اذا كان طائشاً أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن او الغضب .

فما يغني المرأة ذكاؤها اذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويمسك بيدها ان تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة .

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن .. ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهن ان ينازعني فيـه مـع شدة ذكائهن .. ولا في استطاعة انصارهن من الرجـال ان ينقضوه .. ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

لولا ان الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان .. وذلك الغلب .. ولا استطاع ان يقودها وراءه كما يقاد الجنيب [1] ولا ان يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها ، والخروج عليها .

القويّ يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه ، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان ، وشان الرجل مع المرأة .

الإنسان نوع من أنواع الحيوان ، لم يكن في مبدأ خليقته خيراً منها في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلاً وأوسع حيـلة ، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته ، حتى اصبح سيد الحيوان فمدّن المدن ومصّر الامصار ، وشاد وبنى ،وتانق وترفه ،

---

(١) الجنيب : المهر الذي يقاد الى مهر آخر .

ثم طرد صاحبه الى الصحارى والرمال ، ورؤوس الجبال ، ياكل بعضه بعضاً ، ويتفانى شقاء وجهلا ، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد، والابوة والامومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد في نفسه فضلا عليها في قوة العقل والتدبير .. وكان ظالماً خشن النفس قاسي القلب فابى الا ان ياسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها ، فتم له ما أراد .

ملك عليها جسمها لانه حجبها عن النور والهواء فاذعنت .. وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها ان ذنبها في جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها اكبر من ذنبه ، وان جنايتها ضعف جنايته فصدقت ، وطلب منها ان تسلم اليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف باموالها فسلمت .. واصبحت تنظر الى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها ، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها معها ، كما ينظر اليها هو بعين الإجلال والإعظام .

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فاذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونساؤه .. وملأ قلبها هولاً ورعباً واوسع نفسها تقريعاً وتانيباً من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة .. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة .. وما كان له ان يقصر في ممالأة نفسه ومحاباتها ، لأنه شره طماع محب لذاته ، ولا ان يعدل في القضاء في قضية هو الخصم فيها والحكم ، لأنه ظالم جبار .

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل ، لاستطاعت هي ان تحجبه في المنزل ، وان تتولى التصرف في شانه ، وان تعبث بعقله ما شاءت ،

فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ، وان تنفذ الى قلبه فتلعب بـه لعب الصبي بالكرة ، وان تحدثه فيصدق ، وتأمره فيأتمر .. وان تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد .

لا أريد ان أقول : ان هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد ان اقول : ان هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر .. والحكم الجائر .

وجملة القول : ان حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم ، ولو أنه أنصفها لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية ، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة .. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون ، ولان نساء ساذجات بسيطات ، يصدقن الرجال في أقوالهم ، وينظرون الى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم ، فإن أردنا ان تنال المرأة حقها من الرجل ، وان تنتصف منه . فليس سبيلها الى ذلك المغالبة والمصارعة . فانها اضعف منه جسما وعقلاً . بل السبيل اليه ان نعلمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها واعظامها ، وان تعلمه ليستطيع ان يكون شخصاً كريماً ، وإنساناً رحيماً .

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً الى ترك ضلالة من الضلالات او بدعة من البدع ، الا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك ، او يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب باحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الاجسام ارواحها ، باقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .. ولا يضن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وأنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم الا حماية للمذاهب وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها ، لأنهم يحاولون ان يرزءوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعونها في أعلاق قلوبها .

الدعاة احوج النـاس الى عزائم ثابتـة ، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة ، حتى يبلغوا الغاية الـتي يريدونها او يموتوا في طريقها .

الدعـاة الصادقون لا يبالون ان يسميهم الناس خونـة او جهـلة او زنادقة او ملحدين ، او ضالين، او كافرين، لأن ذلك ما لا بد ان يكون .

الدعاة الصادقون يعلمون ان محمـداً صلى الله عليـه وسلم عاش بـين أعدائـه ساحراً كـذاباً ، ومات سيد المرسلين ، وان الإمام الغزالي عاش بالكفر والالحاد ومات حجـة الاسلام ، وان ابن رشد عاش ذليـلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه اذا رأوه ، ومات فيلسوف الشرق ؛ فهم يحبون ان يكونوا امثال هؤلاء العظماء احياءاً وامواتاً .

سيقول كثير من الناس : وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً ، ولا تسمع له قولاً ، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته ، فيكون أجهل الناس واحمق الناس .

هذا مـا يوسوس بـه الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهـذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء فامسك ألسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والارشاد ، فاصبحوا لاعمـل لهم الا ان يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الاذهان ، وتبلدت المدارك ، واصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلـع عليه الشمس ، ولا ينفذ اليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يغشى العقــل ، والعـلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً . فلا يزال العقل يتالم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى اذا أتت عليــه انكشف له الغطاء فرأى النــار نوراً ، والألم لذة وسروراً .

لا يستطيــع الباطل ان يصرع الحق في ميدان ، لأن الحق وجود ، والباطل عدم ، إنمـا يصرعه جهـل العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبتــه ، واغفالهم النداء به والدعاء اليه .

محال ان يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد ، وإنمـا يهدمـه افراد متعددون ، في عصور متعددة ، فيهزه الاول هزة تباعد مـا بـين احجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجراً ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء اطباء ، ولا يجمل بالطبيب ان يحجم عن العمل الجراحي فراراً من ازعاج المريض ، او خوفاً من صياحه وعويله ، او اتقاء لسبه وشتمه ، فانه سيكون غداً اصدق اصدقائه واحب الناس اليــه .

وبعد : فقليل ان يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً اليها الا اذا كان خائناً في دعوته ، سالكا سبيل الرياء والمداهنة في دعوته ، وقليل ان ينال حظه من اكرامها واجلالها الا بعد ان تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء ، وكظة[1] الارض والسماء ، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد ، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

اصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء الجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون الى الحق ، وكلهم يعظون وينصحون ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع ان يحمل في سبيل الدعوة ضراً ، او يلاقي في طريقها شراً .

رأيت الدعاة في هذه الامة اربعة : رجلا يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبناً ، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر ، ورجلا يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته ، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها ، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده ، ورجلا لا يعرف حقاً ولا باطلا ، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها ، فيدعو الى الخير والشر والحق والباطل ، والضار والنافع ، في موقف واحد . فكأنه جواد امرىء القيس الذي يقول فيه :

* مكَرٍّ مفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً *

ورجلا يعرف الحق ويدعو الأمة الى الباطل دعوة الجد المجتهد ، وهو أخبث الاربعة واكثرهم غائلة ، لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه الا اذا أهلك الأمة في سبيله ، فهو عدوّها في ثياب صديقها ،

---

(١) الكظة : البطنة .

لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد . فليت شعري من أي واحد من هؤلاء الاربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها ؟ !

ما اعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها ، فقد اصبح دعاتها في حاجة الى دعـاة ، ينيرون لهم طريق الدعوة ، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها . فليت شعري متى يتعلمون ، ثم يرشدون ؟

•

الحياة الذاتية

اكثر الناس يعيشون في نفوس الناس اكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا ياخذون ولا يدعون الا لأن الناس هكذا يريدون .

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدّخلة في حياة الآخرين ، فلو فتش عنها لا يجد لها أثراً الا في عيون الناظرين، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين .

يخيل اليّ ان الانسان لو علم ان سيصبح في يوم من أيام حياته وحيداً في هذا العالم لا يجد بجانبه أذناً تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردد ذكره ، لآثر الموت على الحياة عله يجد في عالم غير هذا العالم ـ من آذان الملائكة او عيون الجنة ـ مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها.

اذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين ، فاي مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكثرة متعددة ، إنما هي

حياة واحدة يتفق جوهرها ، وتتعدد صورها ، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قـددا ، ونحسب كل موجة من امواجه قسماً من اقسامه ، فاذا دنونا منه لا نرى غيره ، ولا نجـد لجزء من اجزائه حـيزاً مستقلا ، ولا وصفاً ثابتاً .

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية ، الا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه واطواره وآرائه واعماله ، الذي كثيراً ما نسميه مجنوناً ، فان رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفاً ، ونريد بذلك أنه نصف مجنون ، فهو الذي يتولى شان الانسان ، وتغيير نظاماته وقوانينه ؛ وينتقل به من حال الى حال بما يغير من عاداته ويحول من افكاره .

أية قيمة لحياة امرىء ، لا عمل له فيها الا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى بـه النـاس ، فيا كل مـا لا يشتهي ، ويصدف نفسه عمـا تشتهي ، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره، ويقصم ظهره، ويشرب من الشراب ما يحرق امعاءه ، ويا كل احشاءه ، ويضحك لما يبكي ويبكي لما يضحك، ويبتسم لعدوه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك ــ أي عـلم المداهنة والملق ــ زمنـاً لو انفق عشر مشعاره في دراسة عـلم من العلوم النابغة لـكان نابغته المبرّز فيه حرصاً عـلى رضاء الناس ، وازدلافاً الى قلوبهم .

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبـة في غرائز النـاس فـلو لم يذوقوها لـمـا طلبوها ولا كلفوا بهـا ، ومـا جناها عليهم الا كلف

تاركيها برضاء شاربيها ، وما كان الترف خلقاً من الاخلاق الفطرية في الانسان ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه واثقال الحياة وأعبائها ، ما نغص عليهم عيشهم وافسد عليهم حياتهم ، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع ، يبيع منزله في نفقة عرس ولده او ابنته ، فلا تجد لفعله تاويلا الا خوفه من سخط الناس واتقاءه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الاذكياء ، وأطفأ عقول العقلاء ، وكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملا متلففاً لا يجرؤ على اظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافةهزء الناس وسخريتهم، وعاقل لا يمنعه من الاقدام على اصلاح شأن أمته وتقويمها الا سخط الساخطين ونقمة الناقمين .

وما اعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها الى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئاً ، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأى الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ، او رضوا بها ؟ ولا يمسي متنقلا في المجامع والاندية ، مسائلا عنها كل غاد ورائح ، ليجد خيراً فيضحك ويستبشر ، او شراً فيبكي ويبتئس ، بل كثيراً ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً ، كأنما يتحدثون عن غيره ، ويعنون شخصاً سواه ، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين : احسنت واجدت ،

وأسات وأخطات ، بل قلما رأيته على كثرة لصوقي به ، وتفقدي مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تعلقه غلو آرائه وافكاره، من مدح او ذم ، حتى كدت احمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة ، او العظمة والكبرياء ، لولا أني فاتحته مرة في ذلك وسالته : لم لا تحفل برأي الكتاب فيك ، ولمَ لا تقرأ مـا يكتبون عنـك ؟ فأجاب : إنني ما اقدمت على الكتابة للناس في اصلاح شؤونهم ، وتقويم معوجهم ، الا بعـد ان عرفت أني استطيـع ان انزل منهم مـنزلة المعـلم من المتعـلم ، للناس خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شان لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شان من شؤونهم ، فـلا افرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، ولأني لم أكتب لهم ، ولم أتحـدث اليهم ، ولم أشهـدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطيـع ان أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير او شر ، لأني راض عن طريقتي الـتي اكتب بها رسائلي ، فلا أحب ان يكدرها عـليّ مكدر ، وعن آرائي الـتي أودعها إياها ، فلا أحب ان يشككني فيها مشكك ،ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيـع ان أميز بـين مخلصهم ومشوبهم ، فاقبل عـلى الاول لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة محدودة ، ثم علم ان على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيارها وتتالق ازهارها ، وان على يساره غابـاً تزأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفح أفاعيه وصلاله ، فمشى قـدماً لا يلتفت يمنـة مخافة ان يلهو

عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباعْ المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه ، وأما عامتهم : فهم بين ذكيّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع أحسنه ، فانا أحمد الله في أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسراً ، فانا إنما اكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لانفعهم ، ولا لأسمع منهم انت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، فلو ان هذه الملايين الاثنى عشر التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني ، ثم رأيت من بينها رجلاً واحداً ينتفع بما أقول ، لكان الواحد المستفيد آثر في نفسي من الملايين المعجبين ، أتدري لمَ عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها ؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنهم جالسون بين يدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ، فترى واحداً منهم يكتب وهمه المالىء قلبه ان يعجب اللغويين ، او يروق المنشئين ، او يطرب الادباء ، او يضحك الظرفاء ، ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده ان يتفقد المسلك الذي يجب ان يسلكه الى قلوب الذين يقول إنه يعظهم او ينصحهم او يهذبهم او يثقفهم ، ليعلم كيف ينفذ الى نفوسهم ، وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم ، فيعدل بها عن ضلالها الى هداها ، وعن فسادها الى صلاحها ، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملاً سيفه كل

يوم الى الجوهري ليرصع له قبضته او الحداد ليشحذ له حدّه ، او الصقيل ليجلو له صفحته ، ولا تراه يوماً في ساحة الحرب ضارباً به .

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها لو ان الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم ، والغالب على أمرهم ، ولو كان الأمر كذلك لآثرت ان يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي ، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم، فاذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وافعالهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه ، أحبوه أم أبغضوه ، فإنما يبكي على الحب النساء .

●

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر ، واحسبني قادراً على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شانه ، وعظم وقته ، فلما مات «مصطفى كامل » علمت ان من الرزايا ما لا يطاق احتماله ، ولا يستطاع تجرعه .

كل يوم نرى الموت ، ولا نزال نعد الموت غريباً ، هيهات ! لا غرابة في الموت ، ولكن الغريب موت الرجل الغريب .

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نابه لها ، واكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة « مصطفى كامل » دهشنا وجزعنا ، لانه كان غريباً في حياته ، فاحرى ان يكون غريباً في مماته .

مات « مصطفى كامل » فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك ، لاننا ما كنا نرى الا أمواتاً ينقلون من ظهر الارض الى بطنها . أما « مصطفى كامل » فكان حياً حياة حقيقية ، فكان موته كذلك .

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئاً اذا بذلوا لذلك الرجل العظيم

قطرة من المداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاء حسناً اذا بذلوا له قطرة من الدمع ، فانه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه ،ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه .

اين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ، او قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم ، من قطرات الحياة التي أراقها « مصطفى كامل » في سبيل وطنه وأمته ؟

كان « مصطفى كامل » سراجاً كبير الشعلة ،وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكاً ، وتحترق ذبالته ، فينطفىء نوره .

كان « مصطفى كامل » نشيطاً سريع الحركة فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح « مصطفى كامل » وأسمع في صياحه عرفوا ان آذان السياسة لا يخترقها الا الصوت الجهوري، ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن به ، فلا يصدقون ان تربة مصر تنبت أمثال «فولتير، وهوجو ،وغاريبالدي، وواشنطون» فلما نبغ بينهم « مصطفى كامل » عرفوا ان تربة الشرق لا تختلف كثيراً عن تربة الغرب لو تعهدها الزارعون .

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على اوتار القلوب ، وكانما كان بينه وبينها سلك كهربائي ، فهي تتحرك

بحركته وتسكن بسكونه .

ما كان « مصطفى كامل » أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ولكنه كان اشجع الناس .

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي فلا ينثني حتى الموت،كان يخطىء احياناً في اتخاذ الوسائل الى آماله ، ولكنه كان اذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أي طريق يأخذ ، ولا أي مسلك يسلك ، مخافة ان تفتر همته بين الاخذ والرد ، فيكون خطؤه في تردده اكثر من خطئه في جهاده .

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له : إنك مخطىء او مضر ، او غير محسن ، او غير عظيم ، فما كان يصدق من ذلك شيئاً كأنما كان ينظر بعين الغيب الى هذا اليوم الذي اتفق فيه اصدقاؤه وأعداؤه ، وخصومه واولياؤه ، على أنه رجل عظيم .

ما كان « مصطفى كامل » من الاغنياء ، ولا من بيت الملك ، وما كان آمراً ولا ناهياً . ولا رافعاً ولا خافضاً . ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته .. ما لم يلق واحد من هؤلاء ، ولا فضل لهم في ذلك عليه ، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ، ويجلون المناقب والمزايا .

فيا أيها القارىء الكريم : ان كان لك ولد تحب ان تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة « مصطفى كامل » ليتعلم منها الشجاعة والإقدام .

ويا أيها المصري : كن احرص الناس على وطنيتك .. ولا تبغ بها

بدلاً من عرض الدنيا وزخرفها .. فانك ان فعلت كنت « مصطفى كامل » .

ويا أيها الإنسان : أقدم على عظائم الامور ،ولا تلتفت يمنة ولا يسرة واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والناقمين والهازئين والساخرين فانهم سيعترفون بفضلك ، ويسمونك عظيماً كما سموا « مصطفى كامل » .

ويا أيها الراحل المودع : ان بين جنبي لوعة تعتلج لفراقك لا اعرف سبيلا الى التعبير عنها الا القلم .

وهانذا اعالج القلم علاجاً شديداً على ان يسعفني بحاجتي ، وأقلبه ظهراً لبطن ، واكثر من استمداده ، واضغط به على القرطاس ضغطاً شديداً ، فلا أراه يغني عني شيئاً .

خطر لي ان الحزن سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه الأداة القصيرة التي في يدي ، فاستبدلت بها أداة اطول منها ، فكان حكمها حكم سابقتها .

إذن كيف أعبر عن وجدي أيها الفقيد الكريم ، وقد خرس القلم وعي اللسان ؟

الآن عرفت السبيل ووصلت الى ما أريد .

انت الآن في عالم الأرواح .. وقد انكشف لك كل شيء من أسرار النفوس ودخائل القلوب ، ولا بد ان يكون قد انكشف لك ما يكن قلبي

من الوجد عليك .. والأسف على فراقك .. فما حاجتي بعد ذلك الى ترجمة القلم او تعبير اللسان .

أيها الراحل المودع : طبت حياً وميتاً ، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك ، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع ان الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين .

●

دمعة على الاسلام

كتب إليّ أحد علماء الهند كتاباً يقول فيه : إنـه اطلع عـلى مؤلف ظهر حديثاً بلغة «التاميل» ، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس .. موضوعه : تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني ، وذكر مناقبه وكراماته ، فرأى فيه من الصفات والالقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقبه بها صفاتاً وألقاباً هي بمقام الالوهية أليق منها بمقـام النبوّة .. فضـلا عن مقـام الولاية كقوله « سيد السموات والارض و «النفاع الضرار» و « المتصرف في الاكوان » و « المطلع عـلى اسرار الخليقة » و « محيي الموتى» و « مبرىء الاعمى والابرص والاكمة » و « أمره من أمر الله » و « ماحي الذنوب » و « دافع البلاء » و « الرافع الواضع » و « صاحب الشريعة » و « صاحب الوجود التام » الى كثير من امثال هذه النعوت والالقاب !

ويقول الكاتب : إنه رأى في ذلك الكتاب فصلا يشرح فيـه المؤلف

الكيفية التي يجب ان يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه : « أول ما يجب على الزائر : يتوضأ وضوءاً سابغـا ، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجه الى تلك الكعبة المشرفة .. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين .. أغثـني وأمـدني بقضـاء حاجتي .. وتفريج كربتي . أغثـني يا محي الدين عبـد القادر .. أغثني يا ولي عبد القادر .. أغثني يا سلطان عبد القادر .. أغثني يا بادشاه عبـد القادر .. أغثـني يا خوجة عبد القادر » .

« يا حضرة الغوث الصمداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتـاج اليك في جميـع الأمور في الدين والدنيـا والآخرة » .

ويقول الكاتب ايضاً : ان في بـلدة (ناقور) في الهنـد قـبراً يسمى « شاه الحميد » ، وهو أحد اولاد السيد عبـد القادر ـــ كما يزعمون ـــ وان الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله .. وان في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر .. فيكون القبلة التي يتوجه اليها المسلمون في تلـك البلاد والملجأ الذي يلجأون في حاجاتهم وشدائدهم اليه .. وينفقون من الاموال على خدمته وسدنته .. وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الارض جميعاً لصاروا اغنياء.

هذا ما كتبه اليّ ذلك الكاتب .. ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الارض الفضاء ، وأظلمت الدنيا في عيـني .. فما أبصر مما

حولي شيئاً .. حزناً وأسفاً على ما آلت اليه حالة الإسلام بين اقوام أنكروه بعد ما عرفوه ، ووضعوه بعد ما رفعوه .. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها .. ولا شأن له بها .

أي عين يجمل بها ان تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن ، منظر اولئك المسلمين ، وهم ركع سجد على اعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته . فاحرى ان يكون كذلك بعد مماته !

أي قلب يستطيع ان يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعاً حينما يرى المسلمين اصحاب دين التوحيد اكثر من المشركين اشراكاً بالله ، واوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات !

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين .. لم يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن ، وعلام يحاربونهم ، وفيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ، ولم يغرقوا فيه إغراقهم ! ؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل . فيتأولون فيه ويقولون ان الثلاثة في حكم الواحد ، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة اكثرها جذوع اشجار ، وجثث اموات ، وقطع احجار ، من حيث لا يشعرون ! .

كثيراً ما يضمر الإنسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر به ، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً

لذلك اقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم الى سكان القبور ويتضرعون اليهم تضرعهم للإله المعبود فاذا عتب عليم في ذلك عاتب ، قالوا : إنا لا نعبدهم ، وإنما نتوسل بهم الى الله ، كأنهم يشعرون ان العبادة ما هم فيه ، وان اكبر مظهر لألوهية الإله المعبود ان يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين ، يلتمسون إمداده ومعونته ، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الاموات من حيث لا يشعرون .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم،ولا يكون لذى سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل . وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى ، فكانوا ذوي أنفة وعزة ،وإباء وغيرة ، يضربون على يد الظالم اذا ظلم ،ويقولون للسلطان اذا جاوز حده غيرها سلطانه : قف مكانك، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك ، فإنما انت عبد مخلوق لا رب معبود ، واعلم أنه لا إله إلا الله .

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت رقابهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضرعت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستناموا الى المنزلة الدنيا ، فوجد اعداؤهم السبيل اليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكوا عليهم نفوسهم واموالهم ومواطنهم وديارهم فاصبحوا من الخاسرين .

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها الا اذا استرجعوا قبل ذلك ما اضاعوه من عقيدة التوحيد ، وان طلوع الشمس من مغربها ، وانصباب ماء النهر في منبعه ، اقرب من رجوع الإسلام الى سالف مجده ، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون للأول كما يقولون للثاني : « انت المتصرف في الكائنات ، وانت سيد الأرضين والسموات » .

ان الله أغير على نفسه من ان يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرياً ، فاذا نزلت بهم جائحة ، او ألمت بهم ملمة . ذكروا الحجر قبل ان يذكروه ، ونادوا الجذع قبل ان ينادوه .

بمن أستغيث ؟ وبمن أستنجد ؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة ! أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على « يوم الكنسة [1] » تهافت الذباب على الشراب؟أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية ! أم علماء العجم وهم الذين يحجون الى قبر الإمام كما يحجون الى البيت الحرم ، أم علماء الهند وبينهم امثال مؤلف هذا الكتاب .

يا قادة الامة ورؤساءها ، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها ، وقلنا ان العامي اقصر نظراً واضعف بصيرة من ان يتصور الألوهية إلا اذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والاضرحة والقبور ، فما عذركم أنتم

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه .

وأنتم تتلون كتاب الله ، وتقرؤون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله تعالى « قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله » وقوله مخاطباً نبيه :« قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً » وقوله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم : « كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف » فهل تعلمون ان السلف الصالح كانوا يجصصون قبراً ، او يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون ان واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، او قبر احد من اصحابه وآل بيته ، يساله قضاء حاجة ، او تفريج هم ؟ وهل تعلمون ان الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله واعظم وسيلة اليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون ان النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً ؟ أم مخافة ان تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الاضرحة والقبور ، ما دام كل منها يجر الى الشرك ، ويفسد عقيدة التوحيد ؟

والله ما جهلتم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ، وانتقاض أمركم ، وسلط عليكم اعداءكم يسلبون اوطانكم ، ويستعبدون رقابكم ، ويخربون دياركم ، والله شديد العقاب .

السياسية

حضرة السيد الفاضل :

ما لـك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية ، إكثارك منهـا في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية ؟ وكيف يضيـق بالسياسة قلمك ، وقـد وسع ما هو أدق مذهباً منهـا ، فاكتب لنـا في السياسة ، فأمتك تحب ان تراك سياسياً ، والسلام .

« فلان »

أيها الكاتب :

يعلم الله أني ابغض السياسة واهلها بغضي للكذب والغش ، والخيانة والغدر .

أنـا لا أحب ان اكون سياسياً ، لأني لا احب ان اكون جـلاداً ، لا فرق عنـدي بـين السياسيين والجلادين ، الا ان هؤلاء يقتلون الافراد ، واولئك يقتلون الامم والشعوب .

هل السياسي الا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين افرادها من هو أقسى منه قلباً ، ولا اعظم كيداً ، ولا اكثر دهاء ومكراً ، فنصبته للقضاء على الامم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، واجزل لها من الخيرات ؟

أليس اكبر السياسيين مقاماً ، واعظمهم فخراً ، واسيرهم ذكراً ، ذلك الذي تقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها أشلاء القتلى ، ونقطها قطرات الدماء ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً الا اذا كان كاذباً في اقواله وافعاله ، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن، ويبسم في موطن البكاء ، ويبكي في مواطن الابتسام ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً .. الا اذا عرف ان بين جنبيه قلباً متحجراً لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرق السارق ، فاذا قضى ماربه من عمله .. رفع يديه الى السماء متضرعاً الى الله تعالى ان يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حراماً ، وكثيراً ما يقتل القاتل ، فاذا فرغ من أمره ، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثاكل وحيدها ،ويتمنى بجدع الأنف لو رد اليه حياته ،وافتداه بنفسه . أما السياسي فلا يرى يوماً في حياته اسعد من اليوم الذي يعلم فيه ان قد تم له تدبيره في هلاك شعب . وقتل أمة ، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره ــ كما يسميه هو ــ او في يوم جريمته ــ كما اسميه انا وتسميه العدالة الإنسانية ــ يسمع هتاف الهاتفين باسمه ، واسم الجريمة التي ارتكبها

مطمئن القلب ، مثلج الصدر ، حتى ليخيل اليه ان الفضاء بأرضه وسمائه اضيق من ان يسع قلبه الطائر المحلق فرحاً وسروراً .

يقولون : ان السياسة ليست علماً من العلوم التي يتلقاها الإنسان في مدرسة او يدرسها في كتاب ، وإنما هي مجموعة افكار قانونها التجارب ، وقاعدتها العمل .. اتدري لماذا ؟

لأن العلماء اشرف من ان يدونوا المكايد والحيل في كتاب .. ولأن المدارس اجل من ان تجعل بجانب دروس الاخلاق والآداب ، دروس الاكاذيب والاباطيل ، والا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها ، ويجمع شتاتها ، ويسمى علماً .

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي اخلاقهم وغرائزهم ، فهل تظن يا سيدي ان رجلا نصب نفسه لخدمة الحقيقة ، ومناصرتها على الباطل ، واستنقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الاخلاق ..وملأ في رسائله فضاء الارض والسماء بكاء على الضعفاء والمساكين والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع ان يكون سياسياً ، او محاسباً للسياسيين ؟

★

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا : ان الكتاب يعرف بعنوانه .. فاني لم أرى بين كتب التاريخ اكذب من كتاب « بدائع الزهور » ولا اعذب من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب اسخف من كتاب « جواهر الأدب » ولا أر من اسمه ، كما لم أر بين الشعراء اعذب إسماً ، واحط شعراً من « ابن مليك » و « وابن النبيه » و « الشاب الظريف » .

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول : ان العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها .. وألصق باضدادها منها بمنطوقاتها ، وان العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير ، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل .

الأتقيـــاء :

لولا خداع العناوين ما سمعنا صالحاً تقياً كل من حرك سبحته .. واطال لحيته ، ووسع جبته ، وكور عمامته ، ولقد نعلم ان وراء هذا

العنوان كتاباً اسود الصفحات كثير السقطات ، وان تحت هذا الستار الحريري الرقيق نفساً سوداء مظلمة ، لا ينفذ اليها شعاع من اشعة الرحمة ، ولا تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان .

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله ، او في سبيل الجماعة من ذات نفسه ، او ذات يده ، ما يشق على مثله الجود بمثله ، أما الجود بالشفاه للهمهمة ، والانامل للمسبحة ، فعمل لا يتكلف صاحبه له اكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه ، وتحريك هدبيه ، وهل خلقت الشفاه الا للتحريك ، والانامل الا للتقليب .

ان للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فان بذل الضنين بماله في مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه .. والذب عن عشيرته وقومه .. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها . فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب او لا فاهون بهمهمته ومسواكه ومسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب اجدر منه بعنوان التقي الصالح « احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

الأمجاد :

يقولون ان الولد سر أبيه ، ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتسم فيها صورته ، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته ، وعلى هذه القاعدة بني البانون قاعدة الج‍ ، فاعظ لرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في

النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس ، او شريف من شرفاء الاخلاق .

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون في معناه ، حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء ، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا ، والسفاحين الذين يسمونهم قواداً ، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم الخطأ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد فسموا ماجداً كل من ولد في فراش ملك وان كان الحاكم بأمر الله ، او امير وان كان الحجاج ، او وزير وان كان ابن الزيات ، او قائد وان كان تيمورلنك ، او غني وان كان قارون .

لا مجد الا مجد العلم ولا شرف الا شرف التقوى ، ولا عظمة الا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة ، رحمة بها وحناناً عليها .

اولئك هم الأمجاد، واولئك الذي يفخر الفاخر بالاتصال بهم، والانتماء اليهم ، واولئك هم المفلحون .

الأغنياء :

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الارض وراء لقمة يتبلغون بها او خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاء ونحيباً على صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوى الافاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة وتحت الشمس المحرقة ، اسوأ حالاً ولا أنكد عيشاً ، ولا اعظم

شقاء من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس اغنياء .

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما ينام ، ويشتهي كما يتشهى حتى لتكاد تثب امعاؤه من جوفه وتسيل احشاؤه من بين أشداقه . شوقاً الى ما حرم على نفسه من اطايب العيش ولذائذه ؛ ويستن [1] استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله ، حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل اوصاله ، حتى لو تخيل ان نجوم السماء دنانير منثورة ، لطار اليها بغير جناح ، فسقط هاوياً ؛ او ان في بطن الارض كنزاً مذخوراً ، لتمنى ان لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعته فاصبح من الهالكين .

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ؛ ولا تقف به نفسه عند مطمع .

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين؟!

المجرمون :

حضرت مجلساً من مجالس الاحكام ، حكم فيه قاض مرتش على متهم سرق رغيفاً ، فوضعت يدي على فمي مخافة ان يخرج أمر نفسي من يدي فاهتف صارخاً لما ألم بقلبي من الرعب والفزع ،صرخة تدوي بها جوانب القاعة دوي الموج الثائر ، في البحر الزاخر قائلاً فيها : مهلا رويداً أيها الحاكم الظالم، فانت الى قاض عادل تقف بين يديه، احوج منك الى كرسي

(١) استن الجواد : عدا عدواً شديداً ..

فخم تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماس بين يديك لبت وأعلا كما الاسفل .

إنـك ترتزق في كل شهر ثلاثـين ديناراً ، فـلم ترتش الا لأنك شره طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف الا لأنه جائع مرتاع ، ولو ملك ثلاثين درهماً فقط ما فعل فعلته التي فعل ، فانت مجرم الا أنك في وشاح شريف ، وهو شريف الا أنه في شملة مجرم .

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيهـا العناوين .

ربّ نفس بين جدران السجون اطهر قلباً ، وأنقى ردناً ، وابيض عرضاً ، من مثلها بين جدران القصور ، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها القدر الذي لا مفر منه الى وقفة بـين اعواد المشنقة ، كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حبالة ماله لخراب البيوت العامرة ، وقتل النفوس الطاهرة ، او ذلك القائد الذي يسفك في موقف واحد من مواقفه دم مائة الف او يزيدون ، في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع ، او ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة في سربها ، سعيدة في عيشها ، فيستعبد احرارها ، ويستذل اعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها ، وسعادتها وهناءتها .

المتمدينون :

ليس بين المصري وبين ان ياخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب

العصري او الإنسان الراقي الا ان يصقل جبهته ، ويصفف طرته ،ويفتح فمه للابتسام المتصنع ويقوّس يده للسلام المتعمل ، ويكثر في حديثه من ذكر المدنيــة الغربية وشؤونها ، وسرد اسمـاء نسائها ورجالها . وطرفها ونوادرها ، ويستحسن مـا تستحسنه ــ وان كانـ البراز والانتحار ــ ويستطرف ما تستطرفه ــ وان كان الزندقة والإلحاد ــ ثم يزعم أنه أرق الناس أدباً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأدقهم نظراً في إدراك سقطات الناس وعثراتهم ، وتحليل طبائعهم وغرائزهم . ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين ان يكون فاسقاً ينتهك الحرمات او مدمناً يترامى على اعتاب الحانات ، او احمق لا يصفح عن ذنوب ، ولا يغضى عن هفوة . وسفيهاً يشتم حتى أميره وسلطانه ، ووالده واستاذه ، او وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة ، ولا يستخـذى لـمروءة ، وشحيحـاً لا يشرك صاحبـه في مطعم ولا في مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر او طارق حائر ، زاعماً ان التمدين شيء وذاك شيء آخر . ان كان حقاً مـا يقولون من ان التمدين يصقـل الطباع الخشنة ، وينير النفوس المظلمة ، ويهذب الاخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون .

لو كانـ بي ان اكتب لمحو الفساد من المجتمع الانساني والقضاء عـلى شروره وآثامه لما حركت يـداً ، ولا جردت قلمـا ، لأني أعـلم ان طلب المحال عثرة من عثرات النفوس ، وضـلة من ضلالات العقول ، ولكـنني

اطلب مطلباً واحداً ـ لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه ـ هو ان يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التي أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها ، فلا يسمون المنافق تقياً ، ولا المتمجد ماجداً ، ولا البخيل غنياً ، ولا الفقير مجرماً ، ولا المتوحش متمدينا ، حتى لا ينتزع محسن عن إحسانه ، ولا يستمر مسيء في إساءته .

***

الاغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون .

يسمع السامع ان زيداً ملك كريم ، ثم يسمع أنه شيطان رجيم ، فيخرج منه صفر اليدين ، لا يعلم اين مكانه من هذين الطرفين .

يقولون ان المشعوذين اذا أرادوا ان يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الارض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين .

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب ، كالحبل بين الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهي به الأمر الى الانقطاع .

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الاشخاص أنه جالس على كرسي القضاء ، وان الناس سيسالونه عما قال ، كما يسالون القاضي عما حكم ، ما طاش سهمه في حكمه ، ولا ركب متن الغلو في تقديره .

كما أنه يجب على القاضي ان يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب ان يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها ، وان لا يعلو به فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته .

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقضات الحكم على الاشخاص ، وليس بينهم من لم يتمن ان يكون في موضع اولئك المؤرخين المتطرفين ، حتى لا يغلو غلوهم ، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم .

أيها الكتاب المحزونون : لا يحزنكم ما كان ، فقضى ذلك الزمان بخيره وشره ، ولا سبيل الى رجوعه ، ولئن فاتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الماضي ، فلن يفوتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الحاضر ، وكما ان للماضي مستقبلاً وهو حاضركم هذا ، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آت يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم ، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم ، وتطرفهم في آرائهم .

ان من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم ان تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتاخذوا عليهم ما أنتم به آخذون .

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء ، وكل

مؤلف أعلم العلماء ، وكل خطيب رئيس الأمة ، وكل فقيه إمام الدين ، فأين الفاضل والمفضول ؟ واين الرئيس والمرؤوس ، وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو ، ويكون عمرو غداً أفضل منه ، واين ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم ؟ وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم ان يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس ؟ !

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان، فتخيلت كاني رجل من رجال العصور الآتية ، وأني ذهبت الى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا ، فقرأت ما كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم ، فرأيته تارة عظيما وأخرى حقيراً ، ومرة شريفاً ، ومرة وضيعاً ، ورأيته عالماً وجاهلاً ، وذكياً وغبياً ، وعاقلاً وممروراً [1] في آن واحد فخرجت أضل مما دخلت ، لا أعرف من تاريخ الرجل اكثر من أنه رجل ، أي أنه ذكر بالغ من بني آدم !

أيها القوم : إنكم لا تستطيعون ان تكونوا رجالاً عادلين في احكامكم وآرائكم ، الا اذا اصلحتم نفوسكم أولاً ، وتعلمتم كيف تستطيعون ان تتجردوا من أهوائكم واغراضكم قبل ان تتناولوا اقلامكم .

(١) الممرور : المصاب بخبل في عقله .

أيها القوم : ان عجزتم عن ان تكونوا عـادلين ، فكونوا راحمين ، فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول في مـآزق أنـتم عاجزون عنهـا ، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلـك المبالغات .

اللقيطة

مر عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشتاء ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء [1] وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود ، وليس في يدها ما تتقيه به الا أسمال تتراءى مزقها [2] في جسمها العاري كأنها آثار سياط المستبدين ، في أجسام المستعبدين .

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس ، وتزعج نفسه مواقف الشقاء ، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح « لا أعود .. لا أعود » فلم يزل يمسحها [3] ويروضها

(١) القرفصاء : ان يحتبي الرجل بيديه فيضمها على ساقيه وهو جالس .
(٢) المزق : القطع .　　　　(٣) مسحة : أمر يده عليه .

حتى هدأ روعها وعاد اليها رشدها وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه ، فنظرت اليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان .

– ما اسمك أيتها الفتاة ؟

– لا أعلم يا سيدي .

– بماذا ينادونك ؟

– يدعونني اللقيطة .

– وهل انت لقيطة كما يقولون ؟

– نعم يا سيدي ، لأنني لا أعرف لي أباً ولا أماً ، في الأحياء ولا في الاموات ، سوى رجل يتولى شاني ، ويضمني اليه في منزله ، وكنت أحسبه أبي فيمتلىء قلبي سروراً به ، وعطفاً عليه ، فلما رأيت أنه يعذبني عذاباً أليماً ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء أبناءهم علمت أني وحيدة في هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمة التي ينادينني بها ، فالم بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به ، وكنت كلما مشيت في الطريق ، ورأيت فتاة صغيرة سالتها ألك أم ؟ فتجيبني : نعم ، ثم تقص عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها ، وعطف أمها عليها ، ورأفتها بها ما يريدني هماً ، ويملأ قلبي ياساً ، حتى كان يخيل اليّ أنني اذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا الوجود ، بيد أني صبرت على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق ، إبقاء على نفسي ، وضناً بحياتي ، ان تغتالها غوائل الدهر ، وكان كلما

رأى حاجتي اليه والى ماواه ، اشتط في ظلمي ، ولؤم في معاملتي ، حتى صار يضربني ضرباً مبرحاً كلما عدت اليه عشاء بأقل من المبلغ الذي فرض عليّ تقديمه في كل يوم ، ولم أزل اصابره واحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان، حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي ،ومصيبة المصائب ، فقد حاول ان يسلب من بين جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أر بداً من ان أفر من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيث لا يراني . وما زلت امشي على غير هدى ، لا اعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، حتى أويت الى هذا الزقاق كما تراني . فهل لك يا سيدي ان تحسن اليّ كما احسن الله اليك ؟ وان تبتاع لي رغيفا من الخبز اتبلغ به ، فقد مر بي يومان لم اذق طعاما ولا شرابا ؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهي سلكه فانتثر ، ثم أخذ بيدها ، ومشى بها صامتاً واجماً يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلغ قصره ، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله ، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمني نفسها بالوشل القليل منه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من اجمل الفتيات وجهاً، وأرقهن شمائل . . وأكرمهن اخلاقاً ، واكملهن آداباً . . لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان الى هذا القصر مصيرها .

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي ربين التربية الحديثة

التي يسمونها « التربية العصرية » ويريدون منها التربية الأفرنجية فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية :

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي ، وكلبها الرومي .

(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة .

(٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس .

(٤) الكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها حتى ابويها .

(٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً ، حتى إنها لا تستطيع ان تسمع وصفاً من اوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد اصبحت تقاسمها قلب ابيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق ، وحلاوة في الطبع . وعذوبة في النفس ، فاضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضمره دائماً امثالها من اللواتي ربين تربيتها ، ونهجن في الحياة منهجها ، فكانت تتعمد اساءتها وازدراءها ، وتغري بتبكيتها وتانيبها ، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها ، وذهاباً بنفسها عن النزول الى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات ، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينا هو صاعد في السلم اذ عثر برقعة ملقاة ، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة :

سيدتي :

انا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة .

«حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت بـه الارض الفضاء ، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه ام لا يزال باقياً فيه ، ثم كأنه اراد ان يخفف ما الم بنفسه من الحزن والقلق فقال : لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة ، ومن الظلم ان اتعجل باتهام ابنتي قبل ان اقف على الحقيقة ، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة ، فرجع ادراجه ، ومـا زال يترفق في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة الى شجرة حتى وصل الى شجرة اللقاء فكمن وراءهـا ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه ، ومـا اضمر له الغيب في طياته .

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة ، بـل رسالة السيدة الشريفة . وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها امام مرآتها تختار لنفسها اجمل الأزياء واليقها بموقف اللقاء ، كانت الاولى نائمة في غرفتها نوماً هادئا مطمئنا لا تزعجه زورة الطيف ، ولا تروعه احلام الشباب ، حتى سمعت وقع اقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت، ثم رابها موقفه فاشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء .. وعرفت ان سيدها سيقف عـلى سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانه زمنـاً طويلاً . . وانه لا بد قـاتل نفسه في ذلك الموقف حزناً ويأساً .. فعناها من امره ما عناها ، ثم اطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هـذه النازلة ، وتتطلب المخرج منها ، ثم رفعت رأسها ، وقد قررت في نفسها امراً .

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر الى ذلك الموعد فادركتها ، وامسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت اليها وقالت لها : ماذا تريدين مني ؟ أتتجسسين عليّ ! ! قالت لها : لا يا سيدتي . . وأفضت اليها بالقصة من مبدئها الى منتهاها ، فسقط في يدها ، وعلمت ان اباها قد وقف على سرها ، فقالت لها : لا تزعجي نفسك ، فإن اباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي الى غرفتك ، وسأذهب الى الموعد مكانك ، حتى إذا رآني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في امرك .

ثم استمرت ادراجها حتى وصلت الى تلك الشجرة ، وهنالك برز الرجل من مكمنه ، واقترب منها حتى عرفها ، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ، ثم قال لها :

ايتها الفتاة : إني احسنت اليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأت إليّ بما فعلت ، حتى كدت الليلة اهلك حزناً وكمداً ، وألصق بابنتي ذنبك واحمل عليها عارك ، فاخرجي من منزلي ، فاللئيم ليس اهلا للإحسان .

فخرجت خائبة تتعثر في اذيالها ، حتى وصلت الى شاطىء النهر ، وهنالك اخرجت مذكرتها من محفظتها ، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها اناملها :

« احمد الله اني قدرت على مكافاة الرجل الذي احسن إليّ بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه » .

ثم ألقت بنفسها في النهر ، وما هي الا دورة او دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها ، فطفا منها ما طفا ، ورسب ما رسب .

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها ، وعادوا بها الى منزل سيدها . . فبكاها بكاء كثيراً وندم على ما اساء به اليها من طردها وازعاجها ، ثم امر بدفنها ، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها .

مرت الأيام تلو الأيام ، وجاءت الحوادث إثر الحوادث ، وظهر للرجل من اخلاق ابنته وطباعها ، وتهتكها واستهتارها ، ما لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ضاق بأمرها ذرعاً ، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق اليه الدهر من خطوبه ورزاياه ، ثم ألم به الضجر ، فقام الى صندوقه يفتش عن شيء يتلهى به ، فعثر بتلك الحقيبة ، ولم يكن قد فتحها قبل اليوم ، فإنه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي كتبتها الفتاة على شاطىء النهر قبل موتها، فما اتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشياً عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت .

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم ، ولبث على هذه الحال بضعة اشهر ، يمرض ثم يبل ، ثم يمرض ثم يبل ، حتى ادركته رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض الا بانقضاء اجله .

فيا ايها الوالد المجهول ، الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا

الوجود الزاخر ، اعلمت قبل ان تفعل فعلتك التي فعلت انك ستبرز الى هذا العالم فتاة تلاقي شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله ؟

ويا ايها الآباء العظماء : ان كنتم تريدون ان تسلموا بناتكم الى هذه المدنية الغربية تتولى شأنهن ، وتتكفل لكم تربيتهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة ، حتى اذا رزأكم الدهر فيهن . وفجعكم في اعراضهن وقفتم امام ذلك المشهد هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألمون .

ويا ايها الناس جميعاً : لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ، ولا تفرّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور ، ولا تعتقدوا ان الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء ، فقد علمتم ما اضمر الدهر في طيات احداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء .

*

الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور ، ويبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء باخذ نحو الربع مما فيه، والباقي يوزع على اصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدّون بالمئات ، فهل ترون ان هذه القسمة شرعية ، مع ان الذين يأخذون الألوف أغنياء والذين يأخذون الآحاد فقراء ؟

افتنا ايها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي اصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس ؟

« ابن جلا »

ايها السائل : اراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك تعتقد انه ميراث شرعي ، وأن لهؤلاء الذين تسميهم اصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورّثين .

ان الذي اعلمه ان هـذا الحق المزعوم حق موهوب ، لا يستطيع ان يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ، لأن الذين يضعون المـال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك ان يهبوه احداً من السدنة والخدم ولو ان ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلاً من الصندوق ، ولكنهم لما تصوروا ان ذلك الميت حي في قـبره يسمع نجواهم ، ويفهم حديثهم ، ويلبي دعـاءهم ، تجسم في نظرهم هـذا الخيال ، فارادوا ان يعطوه جميع احكام الأحيـاء وصفاتهم حتى حب المـال وادخاره ، فخيل اليهم ان ان الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المـال ويضعونه في صندوقه ، لأنهم يعجزون عن وضعه في يده .

اما كيفية تصرف الميت بهذا المال ، وكيف ينفقه وفي أي شيء ينتفع به ، فذلك أمر لا يخطر ببالهم ، ولا يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم .

فإن وجـد بينهم من يعلم ان مرجع هـذا المـال الى سدنة الضريح ، وخدمته فعلمه هـذا لا يستفاد منه ان يهبه لهم ، او يمنحه إيـاهم ، لأنهم لو ارادوه عـلى ان يعطيهم ذلك المـال ، او يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي ، لما وسعه ذلك ولا رأى ان فعله أن عمل عملاً صالحاً .

بل هو يعتقد ان اخذهم المـال من الصندوق بعد ان يضعه فيه أمر لا عـلاقة له به ولا شأن له فيه ، لأن المـال قد خرج من يده الى صاحب الضريح ، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء .

فهو في جميع حـالاته وشؤونه لا يهب هبـة صحيحة ، ولا يتصرف

تصرفاً شرعياً ، ولا يضع صدقة في موضعها ، ولا يطرق باباً من أبواب البر المسنونة .

وعندي ان مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه الى غير يد ، وانقطعت ملكيته الاولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى ، يعتبر مالاً مهملاً ، لا صاحب له ، ولا علاقة لاحد به .

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في هذا المال ان ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها ، وافتتحها بأداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فإن كان بين هؤلاء المتظلمين من قلة انصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة داخل في قسمه من الآية الشريفة ، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيراً معدماً ، كعامة فقراء المسلمين ، لا من حيث ان له صلة بصاحب الضريح تسوّغ له ان يكون من ذوي الانصبة والسهام في صندوقه ، فإن أمثال هذه الصلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الاولى . فلا هيا كل اليوم ولا سدنة ، ولا وسطاء ولا شفعاء ، ولا اقراط تعلق في آذان الاصنام ، ولا عقود تقلد بها اعناق الاوثان ، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به بعد بعثهم من مراقدهم ، وانما الناس جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى ، لا فضل لاحد منهم على احد

إلا بالتقوى ، ولا زلفى لاحد يزدلف بها اليه إلا يقينه وإيمانه ، وبره وإحسانه .

ذلك ما أراه في هذه المسالة وهذا ما اعتقده فيها ، ولا اعلم ان كنت ارضيت الناس فيما كتبت او اغضبت ، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي ، وحسبي ذلك وكفى .

***

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن ابرازها اللسان ، فابرزتها الألحان فهو افصح الناطقين لساناً ، وأوسعهم بياناً ، وأسرعهم نفاذاً الى القلوب وامتزاجاً بالنفوس ، واستيلاء على العقول ، وأخذاً بمجامع الأفئدة ، وبيان ذلك ان النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتاثير فيها ، فادناها النثر وأوسطها الشعر ، وأعلاها الغناء ، فلو أن عاشقاً برّح به الهجر مثلا فاراد ان يبلغك ما في نفسه من ذلك ، فإن قال لك : إني مهجور ، فحسب ، فقد أبلغك بعض ما في نفسه . وترك في قلبك من الاثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التاثير ، وإن انشدك قول الشاعر :

فواكبدا من حب من لا يحبني ومن زفرات ما لهن فناء

او قول الآخر :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدّة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيـال ، وصوّر لـك خواطر نفسه بصورة اوضح من الصورة الاولى ، وترك في نفسك أثراً اعظم من الاثر الاول ، وان رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح مـاذا بنفسه صنعـا
فارق أحبابه فمـا انتفعوا بالعيش من بعده ومـا انتفعا

فقد صوّر لك قلبه كما هو . وألمسك موضع الألم والحزن منه ، فبلـغ بك التاثير منتهاه ، وربما بكيت عند سماعه حزناً ورحمة ، وما بكيت إذ بكيت الا لان الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة الا نطق بها لك واسمعك اياها ، وكما ان الابيات قيود المعاني كذلك الالحـان قيود الابيات، فلا يزال المعنى مشرّداً ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر. فإذا هو مستقر في مكانـه ، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يقوده الصوت الحسن ، فإذا هو مستودع في الصدور .

والغناء فن من فنون الطبيعة ، تهتدي اليه الامم بالفطرة المترنمة في هدير الحمـام وخرير الميـاه ، وحفيف الاشجار . فمن أبـكاه الحمـام غرد تغريده كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليطرب جمله او ناقته فينشطان للمسير ، وما زال هذا الفن مبتدياً ببداوة الامـة العربية لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال ، ومناغاة الاطفال ، حتى اذا انتقلت من مضيق الحاجيـات الى منفسح الكماليـات ، وتوسعت فيـه وزادت في أنغامه وضروبه ، وتفننت في آلاتـه وأدواته ، وكذلك كان

شان العرب في جاهليتهم ، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنـة . فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنـات وتعدادهـا ، والشطر والتفعيلة يوازنـان الشطر والتفعيلة كذلك ، فكأنما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحاناً موسيقية ، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هـذا النوع من الموسيقى . وهو نوع التنـاسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هـذا الفن الزاخر ، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لهـا من حضارتها وتمدينه متسع للبراعـة في هـذا الفن ومنتدح في مناحيه ومقاصده ، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير ، يلحنون بها اشعارهم الفارسية والرومية ، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بهـا اشعارهم تلحيناً بزوا فيه أساتذتهم ، وولدوا ألحاناً وأنغاماً لم يأت بها من قبلهم ، شانهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر في تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومخارق ، وطويس ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحـاق ، وابراهيم بن المهدي ، ومعبد ــ الذي طـالمـا ضربت به وبحسن صوته الامثال عـلى ألسنة فحول الشعراء . كقول أبي عبادة البحتري في وصف فرس كان اهداه اليه احد الامراء :

هزج الصهيل كأن في نبراته   نغمات معبـد في الثقيـل الاول

والثقيل والخفيف الاول والثاني اسماء اصطلح عليهاالعرب ومرجعها

الى حركات الاصابع الخمس في أوتار العود الخمسة شدة وضعفاً ، وما أحسن قول أبي العلاء المعري :

ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما نزل الدليل الى التراب يسوفه[1]
وهواك عندي كالغناء لانه حسن لديّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضارة الدين وغضاضته في ذلك العهد ـ عهد الصدر الاول ـ وشدته في النهي والتلهي بالغناء والعزف والزمر وأمثالها ونعيه على من يحترف ذلك او يتخلقه، فقد كان للمغنين الشان الرفيع في مجالس الخلفاء والامراء ، والنصيب الاوفر من جوائزهم وصلاتهم ، ولا غرو في ذلك ، فسلطان الوجدان فوق سلطان الاديان ، ولقد بلغ من شان المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن اسحاق الموصلي شتم ابراهيم بن المهدي في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل ، فما استطاع اخو الخليفة ان ينتصف لنفسه منه هيبة واجلالا ، وكان ابن عائشة المغني لا يغني الا لملك ، او ولي عهده ، حتى كان الخليفة اذا أراد ان يختار من بين ابنائه من يعهد اليه بالامر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً ، بل ياذن لابن عائشة ان يغني عنده ، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى يفد الناس اليه يهنئونه بولاية العهد ، فإن دعاه الى الغناء لديه أمير او وزير وجد من قوة الدالة بنفسه ما يدفع به الطلب عنه . ويروى أن ابن عتيق وهو من تعلم في شرف البيت وجلال المحل رأى ابن عائشة يوماً وحلقه مخدوش ، فقال : من

(١) ساف التراب : اشتمه . يريد انه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل ، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض .

فعل بك هذا ؟ قال : فلان ، وأشار الى ضاربه . فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه[1] وجعل يضربه ضرباً موجعاً ، والرجل يصيح : أي شيء صنعت ؟ وما ذنبي اليك ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه وسالوه عن ذنبه ، فقال : انه اراد ان يكسر مزماراً من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه . ومما يروى من حوادث تيهه وترفعه انه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه :

أبعدك معقلا أرجو وحصنا قد اعيتني المعاقل والحصون

فاطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ، فبينا هو يسير إذ نظر اليه رجل من اهل وادي القرى كان يشتهي الغناء فدنا من غلامه وقال : من هذا الراكب المختال ؟ قال : ابن عائشة المغني ، فدنا منه وقال: جعلت فداك انت ابن عائشة؟ قال نعم، قال: أم عائشة المؤمنين ؟ قال لا ، انا مولى لقريش وعائشة امي ، وحسبك هذا فلا تكثر ، قال : وما هذا الذي بين يديك ؟ قال غنيت امير المؤمنين صوتاً فاطربته فأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة ، قال : جعلت فداءك هل تمن عليّ بأن تسمعني ما اسمعته اياه ؟ فقال له : ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟ قال فما اصنع ؟ قال : الحقني الى المنزل ، يريد مخاتلته والنجاة منه وحرك بغلة شقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه . حتى وافيا المنزل كفرسي رهان ، ودخل ابن عائشة فمكث طويلاً طمعاً في ان ينصرف فلم يفعل ،

(١) التلبيب : ما في موضع اللبب من الثياب ، أي ما يدور بالعنق من القميص ونحوه .

فلما اعياه قال لغلامه : ادخله فلما دخل قال له : من آين صبك الله عليّ ؟ قال : انا رجل من اهل وادي القرى اشتهي هذا الغناء ، قال له : هل لك فيا هو انفع لك منه ؟ قال : وماذاك : قال : مائتا دينار وعشرة اثواب تتصرف بهـا الى اهلك ، فقال له : جعلت فداءك والله ان لي لبنية مـا في اذنها عـلم الله حلقه من الورق[1] وأن لي زوجـة عليها يشهد الله قميص ، ولو اعطيتني جميـع ما أمر لك به امير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان الصوت اعجب إليّ منه ، ومـا زال بـه حتى رحمه ابن عـائشة وغنـاه الصوت بعد لأي[2] فطرب الرجـل له طرباً شديداً وجعـل يحرك رأسه وينطح بهـا الجـدار حتى خيف ان يندق عنقه ، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئاً .

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل عـلى ان الغنـاء العربي كان قريباً الى القلوب وأنـه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار ، فإذا لمسها رنت رنين الثكلى والمرزوءة في واحدها . وان الوجدان العربي وجدان رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الانغام ، فوق ما تأخذ الكهرباء من الاجسام ، كما تبلغ منه نظرات الغرام ، فوق مـا تبلغ من عقل شاربها المدام .

وكانت الاصوات عندهم تنسب الى واضعيها وتسمى باسماء اصحابها كما هو الشأن في الشعر ، فيقال : صوت اسحاق او معبد ، كما يقـال شعر مسلم او بشار ، وكان المغني احرص عـلى صوته من الكريم عـلى عرضه ،

(١) الورق : الفضة .   (٢) اللأي : الجهد .

فإذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين ان يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبته اليه ، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغريبة على مخاتلة المغنين عن اصواته ، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم ان يأخذوه بعدما سمعوه منه اكثر من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه ، فكان احدهم لا يحجم ان رأى في صوت صاحبه مأخذاً ان يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شان المجلس وشان صاحبه ، وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء الغربي كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو ، وان الغربيين في هذا العهد ليسوا باعلم بصناعة الغناء ولا اقوم على امرها من العرب في ذلك العهد ، ولو ان العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها . ولكنهم كانوا قلما يحفلون بإدخاله في الاغراض العالية كالحروب والشؤون الوطنية وامثال ذلك من المناحي والمقاصد الا قليلا، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن اعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا ان سبيل الوشاية بهم الى الرشيد سبيل وعر دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالامر من دونه ، فقال عند تمام الصوت : « نعم إني عاجز » ثم كان امره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد مضى الصدر الاول من الإسلام وشان فن الغناء العربي هذا الشان العظيم خصوصاً في اواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، ثم اخذت شمسه الباهرة تنحدر الى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها حتى اصبح في حضارة الأندلس قدوداً وموشحات ، بعد ان كان قصائد ومقطعات ، فكان لا يسمع ابناء العرب في ذلك العهد الا الى قول المغني:

كحل الدجى يجري   من مقلة الفجر   على الصباح
ومعصم النهر   في حلل خضر   من البطاح

او قوله :

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى
واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات فانها وان لم تكن شعرية اللفظ فهي شعرية المعنى عالية الخيال ، وهي على علاتها خير من شعر العامة الذي قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به كالزجل ، والمواليا ، والقوما ، والدوبيت ، وكان ويكون ، غير ذلك مما يسمى في عهدنا هذه بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها .

فهل لجماعة المغنين في عصرنا ان يعفونا من : « احب جميل طبعه

الدلال » ومن : « يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك » ويأخذوا بنا في مسلك اشرف من هذا المسلك ، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر ، فلقد كان الشعر والغناء اخوين أليفين،رضيعي ثدى وضجيعي مهد،ثم ضربها الدهر بضرباته فافترقا فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينها، وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهداً ان يهذبوا اخلاق امتهم ويرفعوا شانها ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء ، فينظم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الاعمال ومكارم الاخلاق ، كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد في صغائر الامور ، والترغيب في عظائمها ، فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها اكثر ما يتكلفه في تلحين سواها من الادوار والمواويل ثم يغنيها في الناس غير مبال بما يفاجئه به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه، وفي اعتقادي ان لهذه الطريقة من الاثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب اخلاقهم وطباعهم ، وتقويم ألسنتهم وعقولهم ، ما يخلد للملحنين والمغنين اجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال .

التوبة

علم فلان ، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو ، وقاضياً من قضاة الحاكم ، ان المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد ، فرنا اليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكررها أخرى فبلغت منه ، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا ، وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها ابناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة الى اهلها تحمل بين جنبيها هما يضطرم في فؤادها ، وجنيناً يضطرب في احشائها ، وقد يكون لها الى كتمان الأول سبيل ، اما الثاني فسر مذاع ، وحديث مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تتسع له البطون ، وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد .

ذلك ما اسهر ليلها وأقض مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها بداً من الفرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمدت الى ليلة من

الليـالي السوداء فلبستها ، وتلفعت بردائها ، ثم ألقت بنفسها في بحرهـا الأسود ، فما زالت امواجها تترامى بهـا حتى ألقتها الى شاطىء الفجر ، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية، في بعض الاحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب .

كان لهـا أم تحنو عليها ، وتفتقد شانها ، وتجزع لجزعها . وتبكي لبكائها ففارقتها ، وكان لها أب لا هم له في حيـاته الا أن يراها سعيدة في آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزله ، وكان لهـا خـدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها ! فاصبحت لا تسامر غـير الوحـدة ، ولا تساهر غـير الوحشة ، وكان لهـا شرف يؤنسها ويمـلأ قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة وافتخاراً . . ففقدته . . وكان لهـا امل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام في املها .

ذلك مـا كانت تناجي نفسها به . . صباحها ومساءها ، بكورها وأصائلها فاذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب احزانها علمت انـه ذلك الفتى الذي وعدها ان يتزوجها فخدعها عـن نفسها ، ولم يف بعهده لها ، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير .

فلا يكاد يستقر ذلك الخـاطر في فؤادها ، ويأخـذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بـين جنبيها من الحقد والموجدة عـلى ذلك الفتى لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته ، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

ومـا هي الا أيام قلائل حتى جـاءها المخاض . . فولدت وليدتها من

حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشت اليها وأعانتها على امرها بضع ساعات . . ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد . . وتعاني من صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو أحب المخلوقات اليها واكثرهم قرباً الى نفسها . . فجلست ذات ليلة ، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها الى كفها ، وظلت تقول :

ليت أمي لم تلدني ، وليتني لم اكن شيئاً .

لولا وجودي ما سعدت ، ولولا سعادتي ما شقيت ، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي .

لقد كان لي قبل اليوم سبيل الى النجاه من هذه الحياة ، اما اليوم ، وقد اصبحت أماً فلا سبيل .

أأقتل نفسي فاقتل طفلتي ؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة ؟

لا احسب ان الموت تاركي حتى يذهب بي الى قبري . فماذا يكون حال طفلتي من بعدي ؟

إنها ستعيش من بعدي ، وتشقى في الحياة شقائي ، لا لذنب جنته ولا لجريمة اجرمتها ، سوى أنني آمها .

هل تعيشين ايتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومتي حينما تسمعين

قصتي وتسمعين شكاتي ؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلاي الا قليـل سابيعا كما بعت سابقه ، فماذا يكون شاني وشانك بعد اليوم ؟

محال أن اعود الى أبي فاقص عليه قصتي ، لأنه لم يبق لي ممـا يعزيني عن شقاء العيش وبلائه ، الا ان اهلي لا يعرفون شيئاً عن جريمتي ، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الاعزاء ، ولان يبكوا مماتي ، خير لي ولهم من ان يبكوا حياتي .

وكذلك ظلت تلك البـائسة المسكينة تحدث نفسها تارة ، وطفلتها أخرى بمثـل هذا الحديث المحزن الاليم ، حتى غلبها صبرها عـلى أمرها ، فارسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل مـا يملك الضعفاء العاجزون ، ويقدر عليه القانطون اليائسون .

دارت الايام دورتها وباعت الفتاة جميـع مـا تملك يدها ، ومـا يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلى وثياب ، وأثاث ورياش ، ولم يبق لها الا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها ، ولم يبق لطفلتها الا أسمال باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة ، فكانت تقضي ليلهـا شر قضاء حتى اذا طـار غراب الظـلام عن مجثمه اسبلت برقعها عـلى وجهها ، واتزرت بمئزرها ، وأنشات تطوف شوارع المدينة ، وتقطع طرقها ، لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسايرها ويترسم مواقع اقدامها .

وأحسب ان عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فالمت ببعض شأنها فاقتفت اثرها حتى دخلت غرفتها، فوغلت عليها، وسالتها ما خطبها؟ فانست الفتاة عند رؤيتها، وكذا يانس المصدور بنفثاته، والبائس بشكاته، فاصرحت لها بسرها وألقت اليها بخبيئة صدرها، ولم تترك خبراً من اخبار نعيمها، ولا حادثا من حوادث بؤسها لم تحدثها به، فعرفت الفاجرة محنتها، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها، وعلمت أنها ان احرزتها في منزلها فقد احرزت غنى الدهر، وسعادة العمر، وما هو الا ان ارسلت اليها بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها، حتى غلبتها على امرها وقادتها الى منزلها، وما هي الا عشية او ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا لامثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد، عيشاً أشقى من عيشها الاول في منزلها القديم لانها ما كانت تستطيع ان تصل الى لقمتها ــ وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة ــ الإ اذا بذلت راحتها وشرّدت نومها، وأحرقت دماغها بالسهر، وأحشاءها بالشراب، وصبرت على كل من يسوقه اليها حظها من سباع الرجال وذئابهم، على اختلاف طبائعهم، وتنوّع أجلاقهم، لانها لم تر بداً من ذلك.. فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش الى الرجاء سبيلا.

ولو ان الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان الامر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يالفه ويمرن عليه كل من سار في الطريق التي سارت فيها،

ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه ، فساق اليها ذئباً من ذئاب الرجال كان ينقم عليها شأناً من شؤون شهواته ولذاته ، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاها عندها ، ورفع أمرها الى القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها .

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقت الى المحكمة ، وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها ، فاخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة ، فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها ، ذلك انها عرفته وعرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعلة بلائها ، فنظرت اليه نظرة شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى بها المكان دوياً وقالت :

رويدك يا مولاي القاضي ، ليس لك أن تكون قاضياً في قضيتي ! فكلانا سارق وكلانا خائن ، والخائن لا يقضي على الخائن ، واللص لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغضب لهذه الجرأة العجيبة ، وهمّ ان يدعو الشرطي لإخراجها ، فحسرت قناعها عن وجهها ، فنظر اليها نظرة ألم فيها بكل شيء ، فشعر بالرعدة تتمشى في أعضائه ، وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت ، وعادت

الفتاة الى اتمام حديثها فقالت :

أنا سارقة المـال ، وأنت سارق العرض ، والعرض أثمن من المـال ، فانت اكبر مني جناية ، وأعظم جرماً .

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه بأسترداده او الاعتياض عنه ، امـا الفتاة التي سرقت عرضها فـلا عزاء لها ، لأنـ العرض الذاهب لا يعود .

لولاك ما سرقت ، وما وصلت الى ما اليه وصلت ، فاترك كرسيك لغيرك ، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العـادل عـلى جريمة واحدة أنت مدبرها ، وأنا المسخرة فيها .

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمـة واحدة ، ثم تاتي بنـا الى هـذا المكان ، فتقف أحـدنا في أشرف المواقف ، وتقف الآخر في أدناهـا ، لشريعة ظالمـة ليس بينها وبين العدل نسب موصول ، او زمـام غير منقضب .

رأيتك حـين دخلت هـذه القاعة وسمعت الحـاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيـام لك ، ورأيت نفسي حـين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت : يا للعجب ! ! كم تكذب العناوين ، وكم تخدع الألقاب ، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء ! !

بخ بخ لأولئك الذين منحوك هـذه الشهادة ، شهادة العـلم والفضل والاخلاق والآداب . ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد،

ووضعوا بين يديك هـذا القانون ، وأوقفوا امـامك هـذا الشرطي يأتمر بأمرك وينزل على حكمك .

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضـاة نفوساً ليست بأقل من نفوسنا شراً ، ولا أخبث منهـا مذهبـاً ، وربما لا يكون بيننا وبـين الكثير منكم فرق الا في العناوين والألقاب ، والشمائل والأزياء .

أتيت بي الى هنا لتحكم عليّ بالسجن ، كأن لم يكفك ما أسلفت إليّ من الشقاء حتى اردت ان تجيء بلاحق لذلك السابق .

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ ألست إنساناً ذا شعور وإحساس فترثي لشقائي وبلائي ؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمتُّ بهـا اليك ، فوسيلتي عندك ابنتك هذه ، فهي الصلة الباقية بيني وبينك .

فرفع القاضي رأسه ونظر الى ابنته الصغيرة نظرة رحمـة واشفاق وقد قرر في نفسه ألا بد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لهـا من نفسه ، غير انه أراد ان يخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً ، فأعلن ان المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها ، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب . فصدق الناس قوله . ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه ، وقلب غير قلبه ، ومـا هي إلا أيام قلائـل حتى استقال من منصبه بحجة المرض ، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم اليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بهـا

الى بلد لا يعرفها فيه أحد ، فتزوج منها وأنس بعشرتها ، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة ان ادل عليه اذا ذكرتها لذكرتها ، ولا يزال حتى اليوم يكفّر عن سيئاته الى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية ، وأنواع الكرامة ، حتى نسيا ما فات . ولم يبق أمامهما إلا ما هو آت .

***

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى اليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين ، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين .

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته ، لا يعرف لها شأناً ، ولا يقيم لها وزناً ، حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها ، ويرشده اليها بتحقيرها ، والغض منها ، فهو الصديق في ثياب العدو ، والمحسن في ثياب المسيء

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد ، ينقم على محسوده نعم الله عليه ، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة ، وفي تلك الأمنية قد أضاف الى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم .

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها ، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخيرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرة خفيفة ، فحيث

ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها .

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأناً ، وأهون خطراً من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين ، وألقها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها، فاعلم انهم قد منحوك لقب « المحسد » فليهنأ عيشك وليعذب موردك .

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل ، فانظر الى أكثرهما نقمة على صاحبه ، وكلفاً بالغض منه ، والنيل من كرامته ، فاعلم أنه أصغرهما شأناً وأقلهما فضلاً .

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها ، فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر، والسارق يتألم يوم دخول السجن .

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة ، لا تفارقه ساعة واحدة .

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها الا التنقل من مظهر الى مظهر ، والتحوّل من موقف الى موقف فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضي عذابه ، حتى تقر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي ينبض .

الحسد مرض من الامراض القلبية الفاتكة ، ولكل داء دواء ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ، ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي

يحسده عليها ، ولا أحسب أنـه ينفق من وقته ومجهوده في هـذه السبيل أكثر ممـا ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده ، والنيل منه ، فإن كان يحسده على المال ، فلينظر أي طريق سلك اليه فيسلكه، وإن كان يحسده عـلى العلم فليتعلم أو الادب فليتأدب ، فإن بلـغ من ذلك مـأربه فذاك ، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل .

●

الوفاء

يا صاحب النظرات :

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان ، وقد عرض لها في هذه الايام رمد في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء ، وأصبحت أعمى بجانبها ، وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها . . فماذا ترى ؟

« انسان »

أيها الإنسان : لا تفعل ، فانك ان فعلت كان عليك اثم الخائنين وجرم الغادرين ، ولكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين .

لا تقل انها عمياء فلا خير لي فيها ، ولا غبطة لي بها ، فانك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه

الناعمون بالحور الحسان ، في مقاصير الجنان .

اجلس اليها صباحك ومساءك ، وحـادثها محادثة الصديق صديقه ، بل الزوج زوجه ، وتلطف بها جهدك وروّح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها : لا تجزعي ولا تحزني ؟ فانما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين .

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته ، والعهد وزمامه ، ألا تجعـل لهذا الخـاطر السيء ـ خاطر الطـلاق والفراق ـ سبيلا الى نفسك ، فانها لم تسوء اليك فتسيء اليها ، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها ، فان كنت لا بد ثائراً لنفسك فاثار من القدر ان استطعت اليه سبيلا .

ان عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة الى غير من أذنب اليه ، ويعتدي عليه .

ان لم يكن احتفاظك بزوجـك وابقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه فليكن احساناً تحاسبك الإنسانية فيه .

انك قد خسرت بصرهـا ، ولكنك ستربح قلبها ، وحسب الإنسان من لذة العيش وهنـاءته في هـذه الحيـاة قلب يخفق بحبه ، ولسان يهتف بذكره .

انها أسعدتك برهة من الزمان ، فليخفق قلبك رحمة بها ، بقدر مـا خفق سروراً بعشرتها .

لا أحسب أنها كانت تاركتك ، أو غـادرة بك ، لو أن هـذا السهم

الذي أصابها قد أصابك من دونها ، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك الى فضيلة الصدق والوفاء .

الى من تعهد بها بعد فراقك اياهـا ؟ وأي موطن من المواطن هيأته لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها؟ وتأنس بها في وحشتها ووحدتها ؟

كيف يهنأ لك عيش، او يغمض لك جفن ، اذا أظلك الليل فذكرتها وذكرت انها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله ، وأنها ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها اليها ، او كسرة خبز فلا تجـد من يدلها عليها ، او ربمـا قـامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق الى حاجة من حاجاتها فاخطأ تقديرها فصدمها الجدار في جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها ؟

أيها الأنسان : إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسك من هـذا الخيـال الذي لا بد ان سيساورك ، يفت في عضدك ويزعجك من مرقدك ، فان لم تكن هـذا ولا ذاك ، فغيرك أخاطب لأني لا أحسن الا مخاطبة الإنسان .

إني محدثك عن صديق لي من كرام النـاس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء فاغتبط بها برهـة من الزمان ، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجـك ، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حـاشية الأفق ، فـلم يقنعه من الوفـاء لها أن استبقاها واستمسك بها ، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها

شيئاً ، فكان يعتب عليها في بعض الآحايين في أشياء لا يؤاخذ بها عـادة إلا الناظرون المبصرون ، يريد بذلك أن يلقي في روعها انـه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة ، وأنه لا يرى شيئاً جديداً طرأ عليها ، رحمـة بها وابقاء عـلى ما كانت تحب ان تحـاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها .

ولقد قرأت جملة صالحـة من نوادر العرب في آدابهم ، ومـكارم أخـلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم ، فلم أر بينها نادرة اوقـع في النفس ، ولا اجمل اثراً في القلب ، مـن قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية ، وكان كفيف البصر : اختلفت الى القاضي احمد بن أبي دؤاد أربعين عاماً فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي ، خـذ بيده يا غلام ، بل يقول أخرج معه يا غلام .

فان كنت تريد أن يسجل لك من الوفـاء في صفحات القلوب ، مـا سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريـخ ، فلا تطلق زوجك ، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها ، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش ، فاعلم انه ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حيـاته الا ويشوبها الكدر ، او يعقبها الألم ، الا لذة البر والإحسان .

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضائه ، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان[1] قذر « دميم » المنظر ، تسنح شعراته البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الابيض في الدخان الاسود ، وتتمشى في أديم وجهه غبرة قاتمة من رآها علم أنها نسيج دخان الحشيشة ، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه ، ووقف عن يساره صبية ستة نحل الأبدان جوع الاكباد ، لم يترك لهم الدهر ـ آكل الناس وشاربهم ـ إلا هيكلاً من العظم تلمع في رأسه عينان جائلتان ، لا يستقران في محجريهما إلا اذا استقر الزئبق الرجراج في قرار مكين .

نظر اليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة ، وتخالطها الشفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون ، لولا ان من المناظر مناظر تستهوي القلوب القاسية ، وتذيب الأفئدة المتحجرة ، وأنشا يسالهم

(١) جمع سن : وهو العمر .

واحداً فواحداً ما شأنهم ؟ وما خطبهم ؟ وما مصيرهم ! فكان جوابهم جواباً واحداً خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلتهم[1] من حيث يخفي مكانها فثغر[2] فيها ثغرة انحدر منها الى أعراضهم ، فبعث بها ما شاء وشاء العابثون ، فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها ، حتى اذا استنفد درتها[3] ألح على دمائها فاستنزفها ، ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فاذا علم انهم هلكوا او كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغة بعد المضغة ، ويرمقهم[4] العيش ترميقاً لا ابقاء عليهم ، بل على ما يصل الى يده من المال من طريقهم ، وزعموا انه كان يريبه منهم في بعض الاحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيملأ ادمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم ، ويحل عقدة إبائهم ، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون .

وما وصلوا من شكواهم الى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي فراعه من أمرهم ما راعه ، ثم علم انه الجوع ، فامر لهم بخبز وأدم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته . وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر اليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده اذا أفلت من حبالته .

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه ، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله ، وحسبت انه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليقة في

(١) الخلة : الحاجة .
(٢) ثغر الشيء : ثلمه وفتحه .
(٣) الدرة : اللبن .
(٤) رمقه الشراب : أعطاه إياه حسوة حسوة

مغارة من مغاور الجن او شفعة[1] من شفعات الجبـال ، وقلت له : أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن انسان ؟ قـال : لا تعجل فما حدثتك الا عن رجل حمّـار لا يفارق وُجهه صورة حماره ليله ونهاره ، وربما سرت اليه تلك النتيجة من هـذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هـذه الرذيلة لا يترفـع عنها في هـذا البلد كثير من الاتقيـاء والصالحين ، والاشراف والمستورين ؟

قلت : لا تحدثين عن شيء ، فلم يبق في قلبي متسع ، لاحتماله أكثر مما احتملت والامر لله وحده .

ليست مسألة الزوايا وخباياهـا أمراً يستهان به ، أو تغضي العيون عليه فاننا نريد ان نعد لوطننا رجالاً ذوي شجاعة واقدام، وعزة وأنفة، من الذين اذا عظم الخطب كانوا حماة الديار ، واذا اشتد البأس لا يولون الادبار .

(١) الشفعة : رأس الجبل .

القمار

لا أستطيع أن أعتقد مـا يسمونه الجنون الفرعي ، ويريدون منه أن يكون الانسان مجنوناً في شأن واحد من شؤونه ، عـاقلاً في باقيها ، وعندي أن الرجل اما أن يكون عاقلاً او مجنوناً ، ولا ثالث لهما .

العقل قوة يقتدر بها المرء عـلى ضبط نفسه عن شهواتها ، فموقفه أمامها موقف واحد ، فاما أن يغلبها جميعاً أو تغلبه جميعها .

أما مـا يراه الرائي أحياناً من استهتار الرجـل في بعض الشهوات استهتاراً يستهلك نفسه وعقله ، وزهده في بعضها زهد الاعفاء القانعين ، فذلك لأنه رغب في الاولى فاسترسل وراء رغبته ، ولم يدعه الى الاخرى داع من شهوات قلبه ونزعـات نفسه ، ولو دعـاه لخف اليه ولباه ، ولن يسمى الرجل زاهـداً أو عفيفاً إلا اذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه اليها فيدفعها ، وتثور ثائرتها بين جنبيه فيقمعها .

لا تقل ان السكير عـاقل ان رأيته غـير فاسق ولا عاهر ، واعلم انه

يؤثر الفسق ولا تجذبه اليه جواذبه ، ولو آثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات ، ولا تقل ان الفاسق عـاقل ان رأيته غـير سارق ولا مختلس ، فإنه لا يحب السرقـة ولا الاختلاس ، ولو أنه احبها لكان في التسلل الى اعماق الدور والقصور ، أبرع منه في التسلل الى مكامن الفسق والفجور ، ولا تقل ان المقامر ان رأيته لا شارباً ولا فـاسقاً ، فان القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلة لسواها ، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين ، وأفسق الفاسقين .

ولو كنت من المصانعين ، الذين يزخرفون لارباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروهـا في نظرهم فضائل بمـا يلبسونها من أثواب التـأويل ويصبغونها من ألوان التعليل ، لما استطعت ان تصانع المقامر لان حـاله من الجهل الفاضح ، والغبـاوة المستحكمة ، أبعد الحـالات عن عـذر المعتذرين ، وتأويل المتأولين .

ما جلس المقـامر الى مـائدة القمار ، الا بعد ان استقر في ذهنه ان الدرهم الذي في يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن الى دينار ، ويعود بـه الى اهله فرحـاً مغتبطاً ، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة ، تعجز عن ادراك هذه العقيدة ومثارها .

ان كان يؤمل الربح لانه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح . فلم لا يخـاف الخسران لانه يرى عن يساره مـائة خـاسرين ؟ وان كان يضحكه منظر الربـح لانه يرى في بعض مواقفه احـد الرابحين ضاحكاً ، فلم لا يبكيه

منظر اصدقائه ورفقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود المعركة تحت القذائف المنطلقة .

ما اشبه المقامر الذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائي الذي يطلب من القصدير فضة ، ومن النحاس ذهباً ، كلاهما يتاجر بالاحلام في سوق الاوهام ، فيربح ربحاً مقلوباً ويكسب كسباً معكوساً ، وما اشبههما جميعاً بذلك الرجل الذي علم ان في صحراء من صحاري اواسط افريقيا كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعة معينة ، وليس عليه دليل فحمل فاسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفذ قوته وتستهلك منته . . وتبلغ من نفسه ما لايبلغ كر الغداة ومر العشى .. حتى اذا بلغ قرارتها . . وعلم انه لم يعثر بضالته . . تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها . . فلا يكون نصيبه من الاخرى اوفر من نصيبه من الاولى . . وهكذا . . حتى ادركه الموت ، وهو في بعض تلك الحفر . . فكان هو نفسه الكنز الدفين . . الا انه كنز لا يطمع فيه طامع ولا يرغب فيه راغب .

ان كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتلاقي الضدين ، فاعلم ان المقامر في آن واحد اجشع الناس ، وأزهد الناس ، فلولا حبه المال لما هان عليه ان يبذل راحته وشرفه وسعادته وحياته في سبيله ا ولولا زهده فيه لما اقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها ولا لمارب يسعى اليه .

أنا لا أريد أن أنصح للمقامر بترك القمار ، لاني اعتقد ان من يملك

عقلاً مثل عقله ، وفهماً مثل فهمه ، لا يستطيع ان يفهم كلمة مما اقول ، ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الايام عن ان ترد عليه ضالة عقله وتهديه السبيل الى نفسه لا تنفعه كلمة كاتب ، ولا موعظة واعظ ، وانما اريد ان اقول للذين لم يقدر لهم ان يخطوا خطوة واحدة في هذه الطريق الوعرة حتى اليوم : لا تقامروا جدّاً ولا هزلاً ، فان هزل القمار يجر الى جده ، ولا تمروا بمعاهد القمار قصداً ولا عفواً ، فان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الاحوال ، فانهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم ، فان فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوّض عليكم ما خسرتم ، فارحموا انفسكم ان كنتم راحمين ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

الأوصياء

مرض فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومسائها ، وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل ، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا ان بين يديه ولداً صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد قريب . والشيوخ الكبار الى ابنائهم الصغار حنين الإبل الى أعطانها ، فنظر اليه ، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها الا مبللة بالدمع المنسجم ، ثم زفر زفرة حرى خيل لرائيها أنها الزفرة الاخيرة ، وأنشأ يقول :

أي بني ، من لي بقلب يرعاك مثل قلبي ، وعين تسهر مثل عيني ، وروح ترفرف فوق رأسي مثل روحي ، ونفس تضم جوانحها عليك مثل نفسي ؟

أي بني ، كاني بركب الموت ، وقد نزل بي ، وحل بساحتي ، وكأني

به ، وقد احتملني من فضاء القصر الى مضيق القبر ، ومن نور الحياة ، الى ظلمة الموت ، وكاني بك ، وقد طفقت تنشدني فلا تجدني ،وتفتش فلا تراني ففزعت وارتعت ، ثم صرخت فصعقت ، ولم تجد بجانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك .

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه ، ورحمته وحنانه ، فأكل اليه أمرك وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك ، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك ؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يانس به ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه ، فقال له : هوّن عليك يا مولاي فانا صديقك الذي تنشده ، وأنا والد ولدك من بعدك ، وخليفتك بعد الله عليه ، ثم تهافت على فراشه وظل يبكي لبكائه، وينشج لنشيجه، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل وقال : أحمدك اللهم قد رحمت ولدي وحفظت بيتي .

وما هي الا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده ، ثم اجاب دعوة ربه تاركاً في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه ، وماله وولده .

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقاً له في الاعوام الأخيرة من اعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف اليه ، ويطيل اللبث بجانبه ، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخف لقضاء حاجاته ولباناته ، ذلك الى ما

كان يراه متجملاً به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات ، والتسبيحات المتواليات وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته .. وتورع حتى عن الجرعة يتجرعها في حضرته .. فاستخلصه لنفسه .. وأنزل من قلبه المنزلة التي لا ينزل معه فيها غير ولده .. واصبح آثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، الى ان أحس باقتراب الأجل ، فاوصاه بما أوصى ، وعهد اليه بما عهد .

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ ، أما تاريخه بعد مماته فاسمعك منه ما تهوى له الأفلاك عجباً ، وتخر له الجبال هدّاً .

لم تكن صلاته الا رياء ونفاقاً،وركوعه وسجوده الا كيداً ومداهنة، وعفته وزهادته الا حبالة نصبها ليعلق بها عقل الشيخ ،وقد علق ، فيسلبه ماله وولده ، وقد فعل ، وما كان اختلافه اليه ، ولا تردده عليه الا طمعاً في هذا المصير الذي صار اليه ، فلما علم ان قد تم له من أمره ما أراد ، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود ، ويبتاع به لنفسه ما شاء ان يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع ، فنبه ذكره بعد ما كان خاملا ، ونبت ريشه بعد ما كان عارياً ، واصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء .

أما شأنه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده ، ويملك رشده وأنه سيقطع عليه لذته ، ويقف له موقف المعترض سبيله ، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم ير بداً من ان يعد لذلك اليوم عدته

فعمد الى الولد فقطعه عن المدرسة لأنه لا يحب ان ينشأ متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه الى مواطن الفسق ومجامع الفجور ، لأنه لا يحب ان ينشأ عاقلا ، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب برأسه علوق السلال بالصدور ، فاصبح بين الحانات والمواخير ، كالطائر بين الاغصان لا يرسل الساق الا ممسكاً ساقاً .

فكانما وكل بعقله مقراضاً يبضع له في كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتي عليه ، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصي على القاصر قيما على المعتوه ، ولم يبذل في سبيل الوصول الى ذلك اكثر من لقيمات ألقاها من فتات تلك المائدة الى اعضاء المجلس الحسبي، فادخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب .

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوّام عليهم ، رحمة بهم، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم واصبح اللص الذي يجهل صناعة فتح الاقفال ويتقي مغبة تسلق الجدران ، قادراً على ان يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات ، وجر الاغلال الثقال في غيابات السجون . وانتقلت الثروات العظيمة من ايدي اصحابها مخافة ان يسرفوا فيها الى ايدي آخرين يبددونها تبديداً ، ويمزقون أديمها تمزيقاً ، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب ، او وشيجة رحم ، حتى أصبح السعي الى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملاً من الاعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الخرق الواضح ، والجهل الفاضح ، فمن لي

ان أنا دبرت المال وجمعته ان لا يكون خليفتي عليه من بعدي لصاً من اولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية ، ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي ان أعيش الى ان أدرك ولدي فاتولى أمر تربيته بنفسي قبل ان يظفر بـه في حداثته ظفر جارح من اظفـار اولئـك الأوصياء فيميت نفسه ، ويقتل عقله .. ويفسد عليه حياته ، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها ، ويزعج عظامي في مرقدها .

فلقد حدثني من قص عليّ تلك القصة ان ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد ، عمد الى تزويجه من فتاة حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له في ذلك ماربا من المـآرب الفاسدة ، فإنها مـا كادت تخلـع ثوب عرسها حتى أنشأ يختلف اليها ، ويكثر ازديارها في الجناح الذي تسكنه من القصر ، بمـا له عـلى زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية وبحجة النظر في شؤونها ومرافقها، ثم ما زال يختلها عن نفسها ويزين لهـا ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بحبالته ، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها ، وبرمت به، فرابه من أمرها مـا رابه ، فرصدها ليلة من الليالي حتى عرف سرهـا وموضع هواهـا ، فشكا فلم يجد سامعـاً ، ثم بكى فلم يجد راحماً ، فكان يقضي كثيراً من لياليه في غرفة من غرف القصر واجماً مطرقـاً مسلماً رأسه الى ركبتيه ، ودمعه الى خـديه ، لا سمير له ولا مؤنس الا رنات الضحكات التي تنهل عليه من مخدع زوجه ، فكان يثب تارة وثبة الأسد فيثير في القصر ثائرة شعواء تضج لهـا جوانبه ، فيتسارع اليه الخـدم

فيضربون علی يده وفمه ، وآخری يعود اليه بلهه وخبله ، فينظر الی هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب .

مرت علی تلك الحوادث سنوات استأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسعة وألح عليها بكلكله ، حتی اجتز وبرها ، ثم استكشط جلدها فلم يبق منها إلا هيكل عظمي قائم ، فلما علم ان قد قامت قيامة الناس عليه ، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مسمع الخافقين ، وأن نجمه الثاقب قد مال الی الأفول ، عمد الی حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل المحزن الأليم .

تفتح للغلام بعد انقباضه ، وابتسم اليه بعد تقطيبه ، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر ، ومركب فاره ، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان ، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته وارتياحه فقال له : أيها الصديق قد آن أوان استقلالك بشأنك وانفرادك بأمرك ، فاكتب الی المجلس الحسبي رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك ، واكتب توقيعك علی هذه « المخالصة » براءة لذمتي ، فاستطير الغلام فرحاً وسروراً ، وما لبث ان كتب الاولی ووقع علی الاخری ، ثم اوعظ الی المجلس الحسبي بتلبية طلبه ، فلباه ، وقضی برفع الحجر عنه ، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامیء كأس الشراب ، وكان لا بد له من أن يشرب حتی يبشم ، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد ، وكان الرجل قد وكل به عوناً من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته الی المال فيمنحه ما يريد ، فكان يعطيه المال باليمين ، ويأخذ منه صك البيع

باليسار ، وما زال هذا يعطي وذاك يأخذ حتى أصبح نصف « الدائرة » بعد عامين ملكاً لعون الوصي وللوصي غداً بثمن لا يساوي عشر معشارها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها ، وأنفق عليها إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصي وقعد ، ونادى في الناس بصوت يشبه صوت الحق ونغمة تشاكل نغمة الصدق : أيها الناس قد كنت انذرتكم بمصير هذا الغلام ان صار أمره الى نفسه ، فكذبتم قولي ، وسفهتم رأيي ، وما زلتم تقولون وتتقولون حتى احرجتم صدري ، ودفعتموني الى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده ، ولا اتخلى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها ، فها أنتم ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم .

ثم أعاد كرته على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبي فأعاد سيرته الأولى ووضع في عنقه غلا لا فكاك له من بعده ، الى يوم يبعثون .

ليت شعري ، هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده ، وان المال قد ورثه غير وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ؟ وأن ولده قد اصبح ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة فتلتوي عليه ؟ وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مطرحاً في زوايا الحانات ، لا وطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير قطع

السحـاب ؟ وهل اعد عدته للوقوف بـين يدي الله تعـالى في ذلك اليوم المشهود ؟ يوم تكشف المنات ، وتفضح العورات .. فيمسك ولده بيمناه ووصيه بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول :

اللهم اعدني عـلى هـذا الكاذب الذي ختلني وخدعني وخفر ذمتي وخـاس بعهدي وخان أمانتي ، وأفسد وصيتي ، وخـذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله ، وهتك عرضه، وعذب نفسه ، ونغص عيشه، فانت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين .

●

العام الجديد

في مثل هـذا اليوم من كل عـام يقف ركب العـالم السائر بمنزلة من منازل الحياة ، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعـة من وعثـاء السفر بعد أن نـال منه الأين والكلال ، وأضناه سري الليل وسير النهـار ، ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً .

هنالك يجتمع السفر [1] في صعيد واحـد فيتعارفون ويتصافحون ، ويتفقد بعضهم بعضاً، فيجدون أن فلاناً مات جوعاً ، وفلاناً مات ظمأ، وآخر افترسه سبـع ، وآخر قتله لص ، وآخر مات غيله ، وآخر سقط عياً وآخر طارت به قنبلة ، وآخر هوت بـه طيارة ، وآخر اجتـاحه بركان، وآخر تردى عليه معدن ثم يعودون الى جرائد الإحصاء فيدوّنون فيها حاضرهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازنون بين هـذا وذاك فيجدون أن الحاضر شر ، وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء ، ومصانـع

(١) السفر : المسافرون .

الموت لا تزال تفتن في عدده وتستكثر من ادواته ، وأن جـذور الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر ، حتى ما يتمنى احد ان تقع عينه على احـد وان سحب البغضاء القائمـة لا تزال مخيمة على المجتمع الانساني من ادناه الى اقصاه شعوباً وقبـائل واجناساً وانواعـاً ، ومذاهب واديانا ، ومنـازل واوطانا ، فيبغض الرجـل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه ، فإن عرف انه يوافقه أبغضه لأنه يخـالفه في دينه ، فإن وافقه فيه ابغضه لأنه ينطق بغير لغته فإن نطق بهـا ابغضه لأنـه لا يشاركه في وطنه فإن كان مشاركاً له ابغضه لأنـه يزاحمه في حرفته فإن بعد عن طريق مزاحمته ابغضه لأنه يخالفه في رأيه ، فإن لم يخالفه ابغضه لانه لا يحاكيه في لونه ، فلن لم يجد شيئاً من هذا ولا ذاك ابغضه لانه شخص سواه ! كان قضاء حتماً على الإنسان ان يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته .

فاذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم ، والموازنة بـين حـاضرهم ومـاضيهم ، اضافوا الى سيئاتهم المـاضية سيئة الغش والكذب ، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد اخيه مهنئاً له بالعيد السعيد داعيـاً له بدوام الغبطة والهنـاءة ، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية .

علام يهنىء الناس بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها ؟ ويغتبطوا المراحل التي يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنـه أصبح سعيداً كما أمسى ؟ أو أمسى

سعيداً كما أصبح ؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع في إحدى لياليه ولم ير بجانبه ما يرى في الليلة البارقة من رعود قاصفة ، ورياح عاصفة ، وصواعق محرقة ، وشهب متطايرة ؟

باية نعمة من النعم ، أو صنيعة من الصنائع ، تمن يد الحياة على إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم الا الى ظلمة العيش ، ولا يفلت من ظلمة العيش الا الى ظلمة القبر ، كأنما هو يونس ، الذي التقمه الحوت فمشى في ظلمات بعضها فوق بعض ! وأية يد من الأيادي أسدتها الأيام الى رجل يظل فيها من مهده الى لحده حائراً مضطرباً ، يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه ، ويثلج صدره ، فلا يعرف لها مذهباً ولا يجد اليها سبيلاً ، إن كان غنياً اجتمعت حوله القلوب الضاغنة ، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة ، فإما قتلته ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً عد الناس فقره ذنباً جنته يداه ، فتتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والألسن بالقذف ، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى ، وإن كان عالماً ولع الحاسدون بذمه وهجوه ، وتفننوا في تشويه سمعته ، وتسويد صحيفته ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل وحياً كميت ، وأن يكتم علمه في صدره ، فلا يفضي به الى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموت ، وإن كان جاهلا اتخذه العاقلون مطية يركبونها الى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يهادنونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها . وإن كان بخيلا ازدرته القلوب ، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه ، وبرزت له الانياب ، وانقبضت

له الاسرة ، والتهبت له الانظـار ، وأرسلت اليه الاغصان ألسنة نيرانهـا حتى تحرقه ، وإن كان كريماً محسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن اليهم إما لانه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه فـلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لانهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل اليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدي ، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقـابل فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم .

لا سعـادة في الحيـاة إلا اذا نشر السلام أجنحته البيضاء عـلى هـذا المجتمـع البشري ، ولن ينتشر السلام الا اذا هدأت أطماع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كل ذي حق حقه ، وقنع كل بما في يده عما في يد غيره ، فلا يحسد فقير غنياً ، ولا عاجز قادراً ، ولا محدود محدوداً ، ولا جاهل عالماً ، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جـائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين ، وامتلأت النفوس عزة وشرفاً ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال اموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أخرى ، ولا ترى طبيباً يدعي علم ما لم يعلم ليسلب المريض روحه وماله ، ولا محامياً يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق مـا سلب منـه خصمه ، ولا تاجراً يشتري بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، وكاتباً يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منها .

وما دامت هذه المطالب أحلاماً كاذبة وأماني باطلة ، فلا مطمع في سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا هناءة ، ولا فرق بين امس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده ، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه .

*

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير ، وهي الرواية المعروفة برواية « يوليوس قيصر » موقفاً لبطلين من ابطال الفصاحة ، وفارسين من فرسان البيان . وقد وقف كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين.. تعلو بها حيناً وتسفل أحياناً ، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة ، فعلمت أن العامة عامة في كل عصر ، والشعب شعب في كل مصر . وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر ، وأن رأس التاريخ اليسوعي ، مثله في ذنب التاريخ المحمدي ، تدنو به كلمة ، وتنأى به أخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء .

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد استبد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلا . . ملك عليه حواسه ومشاعره حتى ما يكاد

يشعر بحرارته ، وكذلك الذل اذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله فيها ، وعلم ان حياة ذلك الشعب بموت ذلك القيصر . . فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده ، افتداء لامته ووطنه ، فطعنه طعنة نجلاء ، سلبته نفسه في لحظة واحدة ، فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه ، هياج الأمواج الثائرة على السفن الماخرة ، فوقف الرجل خطيباً أمام ذلك الشعب المائج المحتدم وقفة المستبسل المستميت ، وكان لا بد له في هذا الموقف من أحد المصيرين ، إما نصر يعلو بـه الى مدارك الأملاك ، أو خذلان يهوي به الى مقر الأسماك ، ومن أحد المخرجين : إما مخرجه مرفوعاً على محفة الابطال ، أو محمولاً على أعناق الرجال ، فبعد لاي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم الى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحك ، وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته .

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة) : أيها الرومانيون ، أتعدونني بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره ، إكراماً لموقفي وإكراماً للعدل ؟

أنا لا أريد أن أخدعكم ، ولا أعبث بعقولكم وأهوائكم بل أريد منكم أن تنظروا الى قضيتي نظر الحذر المتيقظ الذي لا يعطي هوادة ولا يلقي قياداً لاني لا اعتقد ان في زاوية من زواياها كميناً اخاف ان

تقع عليه العيون .

أيها الرومانيون ، إن كان بينكم صديق لـ « قيصر » يحبه ويذوب حزناً عليه فليسمح لي ان اقول له : ايها الصديق الكريم ، ان بروتس قاتل قيصر كان يحبه اكثر منك .

ايها القوم : والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، فاعلموا اني ما قتلت قيصر لاني كنت ابغضه ، بل لاني كنت احب روما اكثر منه . كان قيصر طماعاً فقتلته ، ففي ساعة واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري .

انا لا اصدق ان بينكم من يحزن لموت قيصر ، فانتم رومانيون ، والروماني لا يحب ان يعيش ذليلاً .

من منكم يكره ان يكون رومانياً ؟ من منكم يكره ان يكون حراً؟ من منكم يحتقر نفسه ؟ من منكم يزدري مصلحة وطنه ؟ ان كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم ، لانه هو الذي يحق له ان يثأر لنفسه مني ، لاني لم أسيء الى احد سواه .

الشعب ـ لا ، لا ، ليس فينا واحد من هؤلاء .

بروتس ـ إذن انا لم أسيء الى احد منكم .

وهنا دخل انطونيوس صديق قيصر ورأس الناقين على قتلته والمطالبين بثاره هو وآخرون يحملون على ايديهم جثة قيصر لتأبينه في

هذا الجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال

ها هي جثة قيصر ، وها هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا له واعلموا ان قيصر المذنب غير قيصر الماجد ، وقد سمعتم ما قيل عن الاول فاسمعوا ما يقال عن الثاني ، واسمحوا لي ان أقول كلمة أختتم بها خطابي .

أيها الرومانيون : ان الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل روما لا يزال باقياً عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر اذا أرادت روما ذلك .

تأثير الخطبة

الشعب ــ ليحيى بروتس .

أحد الناس ــ أنا اقترح ان نحمله على الأكف الى منزله .

آخر ــ انصبوا له تمثالاً

آخر ــ امنحوه عرش قيصر .

آخر ــ إنه أفضل من قيصر .

آخر ــ إن قيصر كان ظالماً .

آخر ــ إنه كان الظلم بعينه .

آخر ــ لتهنأ روما بالخلاص منه .

آخر ــ ألا نسمع تأبين أنطونيوس ؟

آخر ــ نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك .

وهنا نزل بروتس والقلوب طائرة حوله ، والعيون حائمة عليه . ثم وقف على أثره أنطونيوس فرمقه الشعب بين الغضب والحقد .. ولولا

إشارة من بروتس ما استطاع ان يثبت في موقفه لحظة واحدة ، ثم أخذ يتلو كلمة التابين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبياناً .

القصيدة

أنطونيوس ــ أيها الرومانيون ...

أحد الناس ــ اسمعوا ما يقول أنطونيوس .

آخر ــ لا .. لا نسمعه .

أنطونيوس ــ اسمعوني إكراماً لبروتس .

أحد الناس ــ ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس ؟

آخر ــ لا يقول شيئاً .

آخر ــ اذن نسمعه .

أنطونيوس ــ أيها الاصدقاء ، انني ما جئت هنا الساعة لأرثي قيصر بل لأدفن جثته .

أيها القوم : مـا من أحـد من الناس الا وله في حياتـه اعمـال حسنة وأخرى سيئة .

أمـا حسناته فتموت بموته ، وأمـا سيئاته فتبقى من بعـده الى يوم يبعثون .

كذلك كان قيصر في حياته ومماته . وكذلك كانت سيئاته .

أيها القوم : ما كنت لاستطيع ان أقف موقفي هذا بينكم ولا اسـ

أقول كلمة مما أريد ان أقول لولا ان بروتس قاتل قيصر امرني بالوقوف وامرني بالكلام ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته ، وأذعنت له لانه رجل شريف .

أيها القوم : يقول الشريف بروتس ان قيصر كان رجلاً طماعاً ، وأنا لا استطيع ان أخالفه فيما يقول ، لانه رجل صادق لا يكذب .

أنا لا استطيع ان اقول ان قيصر كان رجلاً قانعاً معتدلاً ، لان الشريف بروتس يقول غير هذا .

كل ما استطيع ان اقوله ان الفدية التي افتدى بها اعداؤنا أسرائهم الذين جاء بهم الى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها .

كل ما استطيع ان اقوله اني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم ، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفن حدباً بهم ، وعطفاً عليهم .

كل ما استطيع ان اقوله اني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في « لوبر كال » عدة مرات فاباه زهداً فيه ، وتعففاً عنه .

كنت استطيع ان اقول ان الطمع لا يسكن قلباً مثل هذا القلب ولا يخالط فؤاداً مثل هذا الفؤاد ، لولا ان بروتس يقول ان قيصر رجل وأنا لا استطيع مخالفته ، لانه رجل شريف

أيها الرومانيون : انكم أحببتم قيصر قبل اليوم حباً جماً ، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه .

ان لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لانكم كنتم تحبونه ، ابكوه

لانه كان بالامس ينطق بالكلمة فتدوي في صدور العظماء دوي الرعد في آفاق السماء ، فاصبح اليوم مطرحاً مهيناً في ظل هذا الحائط ، ولا يجد بين الناس من يأبه له ، ولا من يعطف عليه .

أيها العقل الإنساني : كيف حالت حالك ، وتغيرت آيك ؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسية ، الى الصدور الوحشية ، وكيف ضللت سبيلك ، وعميت عليك مذاهبك ، فحسبت الخير شراً ، والشر خيراً واختلط عليك الامر ، فلم تستطع ان تميز بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم .

أيها الرومانيون : عفواً ان هذيت بينكم ، او اسأت اليكم ، واعلموا ان الحزن قد قسم فؤادي قسمين : قسم على هذا المنبر ، وقسم في ذلك النعش .

أيها الاصدقاء : ان بين جنبي قلباً يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ولولا مخافة ان تنفجر صدوركم حزناً وجزعاً لقلت لكم : ان قيصر قتل مظلوماً .

انني اعتقد ان بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء ، لذلك احب ان أسيء الى نفسي والى قيصر واليكم قبل ان اقول انهم أخطأوا في قتل قيصر.

« وهنا صمت أنطونيوس وارسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع » .

أحد الناس (يقول لصاحبه) ـ يلوح لي ان فيما يقول الرجل شيئاً معقولاً .

آخر ـ انك ان أنعمت النظر وجدت ان قيصر قد أسيء اليه .

آخر ـ لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك .

آخر ـ لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي رحمة بالفقراء .

آخر ـ ان الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعا ولا ظالما .

آخر ـ اذا فسيكون لمقتل قيصر شأن غير الشأن الاول .

آخر ـ لا بد من عقاب القاتل .

آخر ـ (يقول لجليسه) أنظر الى أنطونيوس فهو يبكي وينتحب .

آخر ـ ليس في رومة رجل أشرف من أنطونيوس .

أنطونيوس ـ أتأذنون لي ان افارق موقفي هذا لحظة ، لاقف قليلا بجانب جثة القتيل ؟

الشعب ـ نعم ... نعم .

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل الى جثة قيصر، وهو لا يزال في ملابسه التي قتل فيها ، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه) ثم قال :

أنطونيوس ـ من كان يملك منكم دموعا فليعدها لهذا الموقف العظيم ، فانه موقف يحتاج الى كل ما في عيونكم من دموع .

انكم تعرفون جميعا هذا القباء ، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئا ، انا اعلم ان قيصر لبسه اول ما لبسه في مساء اليوم الذي انتصر فيه على « الدفى » ذلك الانتصار العظيم الذي نالت به روما فخر الابد .

(ثم وضع يده على احد الثقوب التي في القباء وقال) : في هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم .

ومن هـذا الثقب مرّ خنجر بروتس الى صـدر قيصر . ومن هـذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب ، واحسب ان جميع افراد النوع الإنساني قد مرّوا بخاطر قيصر واحداً واحداً قبل ان يمر بخاطره صديقه : « بروتس » .

عرف قيصر ان قاتله هو صديقه ، وصنيعة إحسانه ، ففترت همته ، وعجز عن المقاومة ، لأن الطعنة التي اصابته في جسمه ، لم تكن باقل من الطعنة التي اصابته في قلبه ، ولم يكن منظر المدي والخناجر ، ابشع في نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصر عن ان يقول شيئاً غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الاخير :

« وانت ايضا يا بروتس » ؟

وهنالك تحت تمثال « بومباي » وجد قيصر قتيلاً وقـد لف وجهـه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل .

ها انتم تبكون على قيصر ، فشكراً لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهرتم بها ما لوّثت به يد الظلم تربة هذه الارض من الدماء .

انكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته ؟ .

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه ، وقال) :

ان في كل جرح من هذه الجروح لسانا يشكو اليكم ، فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء .

أحد الناس — يا له من منظر فظيع !

آخر — وارحمتاه لقيصر !

آخر — ان يوما يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير !

آخر — يا للدناءة والسفالة !!

آخر — يا للغدر والخيانة !!

آخر — الانتقام .. الانتقام .

الشعب (وهو يضج ضجيجا عظيما) — حرّقوا القتلة ، مزقوهم ، لا تبقوا على أحد منهم .

أنطونيوس — مهلا . مهلا . أنا لا أريد ان اشعل بينكم فتنة عمياء ولا اريد ان تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها ، فانني لا ازال اعتقد أنهم قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أسبابا لقتله لا نعرفها ، وإنما أريد ان اقول لكم : ان قيصر كان يحبكم حبا جما فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه .

لولا انني أؤثر البقاء عليكم ، ولولا أني احب تخفيف ما ألم بقلوبكم

من الحزن على فقيدكم ، لتلوت عليكم وصيته ، لتعلموا ان الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقا ان يقتل بينكم ، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض .

الشعب ــ اقرأ الوصية .

أنطونيوس ــ إني اخاف على صدوركم ان تنشق حزنا على القتيل الشهيد .

الشعب ــ نريد سماع الوصية .

انطونيوس ــ إنه يعطي كل فرد من افراد الشعب الروماني خمسة وسبعين فرنكا ، ويوصي بجميع غاباته ومنتزهاته للأمة .

احد الناس ــ يا له من رجل كريم !

آخر ــ يا له من رجل شريف !!

آخر ــ ويل للقتلة !

آخر ــ الثورة .. الثورة .

آخر ــ سنحرق منزل بروتس .

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط .

انطونيوس (في موقفه وحده) ــ ايتها الفتنة العمياء قد ايقظتك من مرقدك فارفعي رأسك وامضي في سبيلك ، واشتعلي حتى يحرق

لسانك اديم السماء ووجه الغبراء .

وهكذا استطاع انطونيوس في موقف واحد ان يستعبد الشعب الروماني لنفسه قبل ان يفيق من استعباد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من احدى العبوديتين : اما العبودية لحملة التيجان ، او لحملة البيان .

*

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم، لأني أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف الى المسجد لصلاة الجمعة ، فاختلفت حتى فاجاني يوماً من الأيام ما لم يكن في الحسبان .

حدث أن صعلوكاً يعرفني ، ويعرف مقامي ، تمادى في وقاحته وسوء أدبه ، حتى وقف بجانبي في الصلاة ، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر اشمئزازاً عظيماً ، وحاولت أحتمله فلم أستطع ، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به ، فهل تعرف مسوّغاً شرعياً يفرّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات ؟ «سائل»

يا مولانا الحاكم :

رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك ، لا تضن عليه بذقة من ظلك الظليل أن تمتد اليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى

فيها ، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردانك علة يجدفيها روح الحياة ، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناءة ، فيهدأ ساعةمن الزمـان عن الشعور بمصائبه ورزاياه ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، إن الله يحب المحسنين .

ليفرخ روعك وليثلج صدرك ، واعلم ان هـذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم ، وبرح بـه الشقاء ، أن يقتطـع قطعة من سعـادتك او يفتلذ فلذة من شرفك ، فشرفك كالمصباح تستمد منه المصابيـح ، ونوره نوره ، وبهاؤه بهاؤه .

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه ، أو سيء الأدب ، فإني ـ بما أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم وآمالهم التي تعتلج بها صدورهم وتهتف بهـا احلامهم ـ أعتقد انه مـا وقف بجـانبك إلا طمعاً في دورة الفلك التي علت بك ، وأنزلتك منـازل العظماء ، أن تدور به كذلك فتنزل منزلتك ، وتعلو به الى مقامك ، فاغفر له جهله وقصوره ، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة .

إنك تريد مني أن ألتمس لك من ابواب الشريعة الإسلامية باباً يسوغ لك طرد هـذا الصعلوك المجترىء عليك من موقفه الذي اختـاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقي عليك .

إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك اعظم شاناً وأجل خطراً ، من أن يحفل بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقميصك المحبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف اكثر مما تعرف لصاحبك فما

كان له أن يأمرك بالتقدم عليه في موقف الصلاة ، ولا أن يأمره ان يقف منك موقف العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم .

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة ، وحكما جمة ، أرادها الشارع منهما ، وانك لن تجد بين هذه الحكم ، وتلك الفضائل ، حكمة أغلى ، ولا فضيلة انفس من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى انه قد وقف من الفقير في ذلك الموقف المقدس موقف الاخ من اخيه والكفىء من كفيئه .

ان كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك الى المسجد ألا تترك للفقير موقفاً من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه ، حتى موقفه بين يدي ربه ، فخير لك ان تستصحب معك عند ذهابك شرطتك واعوانك لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده واقصائه والتنكيل به جزاء له على وقاحته وسوء ادبه ، فإن تم لك من ذلك ما أردت ، فاحذر ان تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية ، بعد ما نطقت بكلمة الالوهية ، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء .

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم ان الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها ، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه ، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره ، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يعلم أواقف هو في صفوف الملوك ، او في زمرة الصعاليك ؟

ايها العظماء :

ليست العظمة التي تعرفونها لانفسكم الا منحة من الفقراء اليكم فلولا

تواضعهم بين ايديكم ما علوتم . ولولا تصاغرهم في حضرتكم ما استكبرتم فلا تجزوهم بالإحسان سوءاً ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر ، تستدفعوا النقم ، وتستديموا النعم .

ايها العظماء :

ما هذه القصور التي تسكنونها ، ولا هذه الدور التي تغمروتها ، وهذه الاردية التي تجرون اذيالها، الا الواناً واصباغاً لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم ، ولا صلة لها بجواهر افئدتكم وقلوبكم ، وما هو الا ان تطلع عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابها بالوان السحاب واصباغ الثياب ، فإذا انتم عراة مجردون ، لا تشفع لكم الا فضائلكم ، ولا تنفعكم الا مواهبكم ومزاياكم .

ايها العظماء :

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم ، فان كنتم من ارباب الفضائل فحري بالفاضل ان لا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء ، اولا ، فما تحمل الارض على ظهرها اسمج وجهاً ، ولا اصلب خداً من جهلة المتكبرين ، فانظروا اين تنزلون ، وفي أي مقام تقيمون ؟

الانتحار

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد ، أو شدة مرض ، أو بؤس حال ، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه .

ان الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر ، فكيف هان عليه ، وهو في آخر يوم من أيام حياته ، أن يضم الى خسارة دنياه ، خسارة آخرته ، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء ؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة ، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها .

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم ، وكنا اذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك ، قلنا يوشك ان يقتل الشرقي نفسه بنفسه اذا علم ان

تلك عادة من العادات الغربية ، فقد صار قريباً ما كان بعيداً ، وأصبح مألوفاً ما كنا نعده فرضاً من الفروض .

الانتحار منتهى مـا تصل اليه النفس من الجبن والخور ، ومـا يصل اليه العقل من الاضطراب والخبـل ، وأحسب ان الانسان لا يقدم عـلى الانتحار ، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور .

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده ، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه، فهو شاذ في طبيعته ، غريب في خلقه ، معـاند لإرادة الله تعالى في بقـاء الكون وعمرانه ، ومن كان هذا شانه كان بلا قلب ولا عقل .

لا عذر للمنتحر في انتحـاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالأسى ، ومهما ألمت بـه كوارث الدهر ، وأزمت به أزمات العيش ، فإن مـا قدم عليه أشد مما فر منه ، وما خسره اضعاف ما كسبه .

ولو كان ذا عقل لعلم ان سكرات الموت تجمع في لحظة جميع ما تفرّق من آلام الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال ، وان قضاء ساعة واحـدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه ، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة .

ما اكثر هموم الدنيا ، وما اطول احزانها ، لا يفيق المرء فيها من همّ الا الى همّ ، ولا يرتاح من فاجعه الا الى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسعادة وشقاء ،

فاذا صح لكل مهموم ان يمقت حياته ، ولكل محزون ان يقتل نفسه ، خلت الدنيا من اهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود اليها ، وتبدلت سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ما سمي القاتل مجرماً الا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد ، وأقسى منه قاتل نفسه ، لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول ، فهو اكبر المجرمين ، واقسى القاتلين .

يخدع المنتحر نفسه ان ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة ، وأنه انما يفعل فعلته عن روية وبصيرة ، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الاول من مآزق الموت حتى يثوب الى رشده وهداه ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد الى ذلك سبيلا .

ان ألقى نفسه في الماء تخبط وبسط يده الى من يرجو الخلاص على يده وود لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه ، وان حبس نفسه في غرفته ليموت مختنقاً بالغاز ولو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل ، فاسد السمع والبصر .

ان فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشريرة ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتريث ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت ، وآلام النزع ، وماذا يكون

حديث الناس عنه بعـد موته ، وهـل يمكن ان يوجد بينهم عاذر له او مشفق عليه ،او مقتصد في النيل منه والسخرية به ؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك اشكال العذاب وانواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لامثاله .

اني لا اظنه بعد ذلك فاعلا الا اذا كان وحشاً في ثوب انسان ، او بطلا من ابطال المارستان .

*

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس احيانا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها في أفواههم ، حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت .

لذلك ترى كل حي يهرب من الحياة الحسية جد الهرب ، لاجئاً الى الحياة الشعرية من اي باب من أبوابها ، لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السآمة والضجر من صنوف المناظر وآفانين المشاهد ، وغرائب المؤتلفات ، وعجائب المختلفات .

لولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس كثير من المولعين بتخدير اعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيش وآكلي الأفيون . وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء ، إلا انها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد في

الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين .

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته الا اذا أسلم نفسه الى كاس الشراب فتنقلته من هـذا العـالم البسيط المحدود الى عـالم واسع النطـاق ، شاسع الاطراف يرى فيه كل مـا تشتهي نفسه أن تراه ، فإن كان قبيح الوجـه مشوه الخلقة تخيل انه شرك الابصار ، وفتنة النظار ، وأن القلوب محلقة على جماله تحليق الاطيار على الاشجار ، وإن كان فقيراً معدماً لا يملك فلساً واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجان في يمينه ، والتاج فوق رأسه واعتقد ان عبيد الله تعـالى جميعاً عبيده ، وجنود المملكة بأسرهم جنوده ، حتى ذلك الجندي الذي يسحبه عـلى وجهه الى غرفـة السجن ليقضي فيها ليلته ، وجملة القول ان عينه لا تقع عـلى مـا يحزنه من المنظورات ، وان اذنه لا تسمع ما ينفره من المسموعات ، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء .

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحيـاة الا اذا جن الليل ، وأوى الى معبده ، وخلا بنفسه ، فتخيل أن له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء فيرى الجنة والنـار ، والعرش والكرسي ، ويسمع صرير القلم في اللوح ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون .

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها ، الا اذا جلس الى منضدته ، وأمسك بيراعه ، فطار به خياله بين الازهار

والانوار ، وتنقل به بين مسارح الافلاك ومسابح الأسماك . ووقف تارة على الطلول الدوارس ، يبكي اهلها النازحين وقطانها المفارقين . وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومها الباليات ، وأعظمها النخرات .

ليس الأمل إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال العظام والأماني الحسان ؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يعيش في ظلها الناس جميعاً اذكياء واغبياء ، فهماء وبلداء ، والامل هو السد المنيع الذي يقف في وجه اليأس ، ويعترض سبيله ان يتسرب الى القلوب ، ولو تسرب اليها لضاقت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم ، فطلبوا الخلاص منها ولو الى الموت ، طلباً للتغيير والانتقال ، وشغفاً بالتحوّل من حال الى حال .

يقولون : أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء ، ويقولون : ما لذة العيش الا للمجانين .

أتدري لماذا ؟ لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين ، وذلك ان عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له علمه بأحوال الدنيا وشؤونها، ومعرفته أن المصائب والآلام لازم من لوازمها التي لا تفارقها، يؤمن منها في طبيعتها من دوام السرور واستمرار الهناءة ، فلا يطلب

سعة العيش من وراء الأمـل كبقية المؤملين ، ولا يتلذذ بتصديق مـا لا يكون تلذذ المجانين .

والحق أقول ، لولا الحيـاة الشعرية التي أحيـاها أحيـانا في هـذه الكلمات التي أكتبها ، لاحببت ، زاهداً في هذه الحياة الحسية ، ان تطلع الشمس من مغربها إيذاناً بانقضاء العالم وفنائه، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال الى حال أن أنتقل ولو الى رحمة الله .

*

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام [1] يوماً من الايام كما يقف مسافر ضل به سبيله في فلوات الارض ومجاهلها بواد معشب أريض في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران ، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله ان أرى من أنوار بيضاء ، وورود حمراء ،وألوان من النبات، مشتبهات وغير مشتبهات ، وغدران مطردة متسلسلة تنبسط في تلك الديباجة الخضراء تبسط النجوم البيضاء في الديباجة الزرقاء وأسراب من الحمائم والعصافير والبلابل والشحارير ،تتطاير من فرع الى فرع ،وتنتقل من غصن الى غصن ، وتجتمع لتفترق ، وتفترق لتجتمع ، وتتقاتل مرة ، وتتلاءم أخرى ، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط حتى تصافح صفحة الماء ، ولا تزال تغرّد في صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات ، متنوّع النبرات ، فيتالف من ذلك الاختلاف والتنوع

(١) عمر الخيام : شاعر فارسي كان في القرن السادس من الهجرة ، ورباعياته هذه مترجمة الى اكثر لغات العالم .

نغم لذيذ لا أعرف له شبيهاً الا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان ، في فراديس الجنان .

فلم أزل أتقلب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجر ذيول تلك الجداول البيضاء ، وأقلب طرفي فلا أرى رائحاً ولا غادياً . أتسمع فلا أسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بي الحظ على دوحة فرعاء ، مائلة على رأس بعض الجداول ، وقد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم رجل هانىء باسم ، يقرأ تارة سورة الجمال في وجه فتاة جالسة بين يديه ، ويقبل أخرى ثغر الكأس التي تتلألأ في يمينه ، ويترنم بين هذا وذاك بمقطوعات شعرية بديعة،يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها وسعادة الوحدة وهناءتها ، ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ، تاركاً هذا العالم الحافل بالهموم والآلام ، طارداً عن نفسه كل خاطر من خواطر الشرور والآثام ، ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله ومائه وكأسه وفتاته .

فان مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز وسلطان ، ولذة واستمتاع ، قال : مالي وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور الشماء ، والجنان الفيحاء ، هنالك المحنة والشقاء ، والفتنة الشعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء والأشلاء ، والعويل والبكاء ، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين : ثغر الفتاة ، وثغر الكأس ، وذينك الصديقين : هذا الكتاب المفتوح ، وذلك الغصن

المطل ، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة .

وان ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على انفسهم قال : ان من العجز ان ابيـع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول ، انا اليوم موجود ، فلا بد ان أستمتع بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي به . ولا بما قدر لي فيه ، وعسير عليّ ان أتصور أننا معشر الاحياء الناطقين قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم في باطن الارض لينبش عنا النابشون غـداً .

ثم يعود الى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكه وارتيابه فيقول : اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر المؤمنون الموحدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فاني ما أذنبت عناداً لك ، ولا تمرّداً عليك ، ولكنها الكاس غلبتني على أمري ، وحالت بيني وبين عقلي وانت اجل من ان تقاضيني مقاضاة الدائن غريمه ، لأنك كريم . والكريم يمنح العطية منحاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسبـغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين .

واحيـاناً يستشعر قلبه الرحمـة بالعباد فيبكي أحيـائهم وأمواتهم ، ويقول مخاطباً فتاته : رويداً أيتها الفتـاة في خطاك عـلى هذه الاعشاب النابتة ، فلعل جذورها ممتدة الى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك ، ووجدانـ مثل وجـدانك ، وجمال ورواء مثـل جمالك وروائك ، ثم

ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء ، وإذا هي في دجنة تلك الاعماق السوداء ، فارفقي بها ، واسكبي هذه الفضلة من كاسك على تربتها علها تتسرب اليها فتطفىء ذلك اللاعج الذي يعتلج بين جوانحها .

ثم يتخيل أحياناً كانه واقف بين يدي رجل خزاف يحرق حمأته في تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه النار ، فقد كانت بالأمس إنساناً مثلك ، وستكون أنت في مستقبل الأيام حمأة مثلها ، وربما ساقك القدر الى يد خزاف تحتاج الى رحمته ورفقه، فارفق بها اليوم يرفق بك خزافك غداً .

وآونة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعي على السعداء سعادتهم ، ويذكرهم بما آلت اليه حال الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ، من خرائب دورهم وعمران قبورهم ، وغروب شموسهم ، وعفاء آثارهم .

ثم ينتقل من ذلك الى البكاء على نفسه ، وترقب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته، وتنطفىء جذوته ، وتضعف منته،ويمحو نهار مشيبه ليل شبابه ، فيزحف الى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه ، فيعود كما كان سراً مكتوماً في ضمائر الأقدار ، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان .

وهكذا ما زال يتنقل من عبرة بليغة ، الى عظة بديعة ، ومن خيال جميل الى تشبيه رقيق ، ومن وصف ناطق ، الى تمثيل صادق ، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل

مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه ، وليله ونهاره ، وناطقه وصامته ، وصادحه وباغمه ، وأن فخار الأعراب بمتنبيها ومعريها ، والفرنسية بلامرتينها وفكتورها ، والسكسون بشكسبيرها وملتونها ، والطليان بدانتها ، والالمان بجيتها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميرها ، ومصر القديمة بينتاؤورها ، ومصر الحديثة بأحمدها ، لا يقل عن فخار فارس بخيامها .

*

الى تولستوي[1]

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك ، وتتخذ السبيل الى دار عزلتك ، فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار ، وشط المزار ، عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك ، وإن لم نرك ، وأبناءك ، وإن كان لنا آباء من دونك ؛ وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع .

حدثنا الناس عنك انك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعاً بعد أن أعجزك اصلاحه وتقويمه فأبغضته ، وعفت النظر اليه ، وأبغضت لبغضه كل شيء حتى زوجك وولدك ، ففررت بنفسك منه الى غاب تسمع زئير سباعه ، أو دير تانس برنة ناقوسه ، وأسجلت أن لا تعود اليه ، وأن تقطع كل صلة بينك وبينه الى الأبد فعذرناك ، ولم نعتب

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن (تولستوي) الفيلسوف الروسي المشهور ترك منزله هائماً على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة ، أو في إحدى الغابات .

عليك، ولم نسمك جباناً ولا رعديداً ، ولا مولياً ولا مدبراً ، لأنك قاتلت فابليت ، حتى لم يبق في غمدك سيف ، ولا فوق عـاتقك رمـح ، ولا في كنانتك سهم ، والعـدو كثير عـدده ، صعب مراسه ، وافرة قوتـه ، والشجاعة في غير موضعها جنون ، والوقوف اكثر من ثمانين عاماً أمام عدو لا أمل في براحه ، ولا مطمع في زياله : عناد ، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت قتيلاً في المعركة إلا مصير اولئك الفلاسفة العظماء مـن قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهدرت دمـاؤهم ، واغتمضت عيونهم قبل ان يروا منظراً من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشري يعزون به أنفسهم عن أنفسهم ، ويروّحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع ، وفي أفواههم من مرارة الموت .

مـاذا لقيت من الدنيـا ؟ وما الذي أفدت منهـا ؟ وأين وقـع علمك وفضلك ؟ ولسانك وقلمك ؟ وقوة عارضتك ، ومضاء حجتك ، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم ، وظلم ألسنتهم وايديهم ؟

قلت لقيصر : ايها الملك ، انك صنيعة الشعب واجيره ، لا إلهـه ومعبوده ، وانك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الاكار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاكما ماجور على عمل يعمله، وكلاكما ماخوذ باتقان مايعمل ،فكما ان صاحب المصنع يسال العامل هل وفى عمله ليوفي له اجره ، كذلك يسالك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكل اليك حراسته فانقذته كما هو من غير تبديل ولا تاويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت

ان تستخلص عقلك من يدي هواك ؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطاناً على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته ؟ وهل اصممت اذنك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء ؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، او الطمع في ضعفك ، مذهب الزلفى اليك بالكذب والنميمة والتجسس ، والتسقط ، وذلة الاعناق وصرع الخدود ؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه ، ورآك اميناً على العهد الذي عهد اليك به ، ابقى عليك وابقى لك عرشك وتاجك ، وحفظ لك يدك التي اصطنعتها عنده ، واحسن اليك كما احسنت اليه ، او لا ، كان له معك شأن غير هذا الشان ، ورأي غير ذلك الرأي .

فما سمع منك هذه الكلمات حتى اكبرها واعظمها ، لانه لم يجد بين الكثيرين الذين يعاشرونه من يسمعه مثلها فحقد عليك وأضمر لك من الشر ما يضمر أمثاله لامثالك ، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه .

وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك ـ وأنت نائم في سريرك ، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك ـ هذه الارض التي تضم بين أقطارها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين ـ الذين يفلحونها ويحرثونها ، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها ، ويسوقون ماشيتها ، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها ـ

شبراً واحداً فيها ، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم ، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في سبيل حياتك ، واعلم أن الارض لله يورثها من يشاء.

ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك ، فعمدت الى أرضك فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عمدت الى فاسك فحملتها ، وماشيتك فاخذت بزمامها ، ولم تزل سائراً حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين ، وخضت ما الخائضين ! لتعلم ذلك الجبار بفعلك ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك ، فسخر منك ، ورثى لعقلك ، وألف من أحاديثك رواية غريبة يروّح بها عن نفسه ـ في مجتمعات أنسه ولهوه ـ ما يساوره من السآمة والضجر .

وقلت للكاهن : إن المسيح عاش معذباً مضطهداً لانه لم يرض ان يقر الظالمين على ظلمهم ، وأنه أبى أن يخفي المصباح الذي في يده تحت ثوبه ، بل رفعه فوق رأسه غير مبال بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوآتهم ، ويهتك استارهم ، وانت تزعم انك خليفته ، وحامل امانتـه ، والقائم بنشر آياته ، والمترسم مواقع اقدامه في خطواته ، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين ؟ وما هذه اليد التي تبسطها اليهم بالمودة والأخاء كانما تريد ان تعقد بينك وبينهم عهداً ان يظلموا ما شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذي تحمله في يدك ، وما هذه السلطة التي تزعمها لنفسك ان تدخل الجنة من تشاء ، وتخرج منها من

تشاء ؟ وما هذه القصور التي تسكنها ، والديباج الذي تلبسه ، والعيش البارد الذي تنعم به ؟ وانت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن الدنيا وزخرفها الى عبادة الله والانكماش في طاعته .

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه ان ارسل اليك كتاب الحرمان ، وهو يعلم انك لا تعترف له بالقدرة على اعطاء ولا منع، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغض من كرامتك، واغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت من نصيحتك وعظتك .

وأبكاك منظر المنفيين في سيبريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من انواع الآلام ، فصرخت صرخة دوى بها الملآن : الاعلى والادنى ، وقلت : ايها الناس ان الشر لا يدفع الشر ، وان الاشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم ، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم ، والانتقام يلهب نارها ، واجعلوا المدارس مكان السجون، والمعلمين مكان السجانين. فلم يسمع صرختك سامع، ولا بكا لبكائك باك ، وما زال القضاة يحكمون والجند يصادرون ، والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون .

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب ، وبكاء النساء المعولات خلف ازواجهن واولادهن واخوتهن ، وهم سائرون الى حرب لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً ، وقد حمل بعضهم لبعض ضغائن وسخائم لا سبب لها الا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة فخيل اليهم انهم اعداء وهم اصدقاء ، فخلعوا ثوب الانسان ولبسوا فروة السبع،

وأنشب كل منهم ظفره في صدر اخيه كانـه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً لو لا جور السياسة وظلالها .

فما اغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا اجدى عليك عويلك وانينك، فالحرب لم تزل باقية ، ومصانع الموت لم تكتف بما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض حتى اصبحت تعد مثلها لمعارك السماء .

فهنيئاً لكايها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلكالعزلة الهادئة المطمئنة ، لقد نجوت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها الا ان يسكت فيهلك غيظاً ، او ينطق فيموت كمداً .

ربما استطاع الحكيم ان يحيل الجهل علماً ، والظلمة نوراً ، والسواد بيضاً والبحر براً ، والبر بحراً ، وان يتخذ نفقاً في الارض او سلماً في السماء . ولكنه لا يستطيع ان يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة ، وفساده صلاحاً .

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه ، وما دام لا يحسن اليه الا اذا اراد ان يتخذ عبداً يعبده من دون الله ، وما دام للأثرة هذا السلطان الاكبر على افراد المجتمع ، ومن اكبر كباره الى اصغر صغاره ، فإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والاحراش بالامس ، لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروره ومفاسده الى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج شفاف لا يكتم ما وراءه .

وارحمتاه[1]

في ذلك الإقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم ، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة به ، ولا من الحياة غير ألسنة تهتف به في صباحها ومسائها ، وبكورها وأصائلها بالدعاء الى الله تعالى أن يتولى امرها ، ويسدد خطاها ، وييسر لها السبيل الى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ ، يريد أن يسلبها ما أبقت الايام في يدها ، وما ابقت في يدها سوى لقيمات غير سائغة ، وجرعات غير هنيئة ، وظل غير ظليل .

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس ، إنهم عاجزون عن ان يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل اشلاء مبعثرة تحت كل كوكب،وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات

(١) كتبت اثناء الحرب بين ايطاليا وطرابلس الغرب .

المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء .

وارحمتاه لهم ، انهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخون فلا يسمعون مجيباً ، وقد تقطعت بهم الاسباب ، وأعوزتهم الوسائل ، وسدّت في وجوههم السبل ، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت ، وفي الموت راحة اليائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها ، لولا انهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم ارامل ضعفاء ، وأيتاما صغاراً ، وشيوخاً كباراً ، لا يعلمون ماذا اضمر لهم القدر في صدره من نعيم او شقاء .

كأني أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية ، فأبوا إلا أن يزحفوا الى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم ان باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدي الارواح التي احتقرت اجسادها وازدرتها ، فتجردت من اثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها ، وكأني ارى الرجل منهم ، وقد دخل الى بيته ليعدّ عدّته ، ويودع اهله الوداع الاخير ، فبكت أمه وناحت زوجه وصاح ولده ، فبكى لبكائهم ، ورن لرنينهم ، لا جزعاً من الفراق ، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى ، ولا خشية من الموت ، لانه يعلم ان الحياة الذليلة احقر من ان يضن بها صاحبها ، بل مخافة ان تستبد باعراض بيته وحرماته ، تلك الايدي الظالمة التي لا ترحم صغيراً ، ولا تعطف على كبير ، او ان يهلكوا من بعده جوعاً وفقراً ، لانه لم

يترك لهم قوتاً يتبلغون به ، ولا عماداً يعتمدون عليه ، فإذا علم ان موقفه بـين اهله موقف جلل يكاد يغلب فيه عـلى صبره ، نظر نظرة في السماء ارسل فيها الى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين ، وأمل ورجاء ، ثم انفتل من بين ايديهم ، ومضى لسبيله لا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يبلغ ساحة الحرب ، فلا يزال يقرع باب الحياة الاخرى حتى يفتح له .

هنـالك تنوح النائحات ، وتبكي الباكيات ، وتطـير النفوس ، وتصعق القلوب ، وترن المنـازل والدور بالنحيب والتعداد ، وهنـالك ترى المرأة المسلمة المخبـأة التي لم تر في حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها : برزة ألوجـه ، عـارية الرأس حيرى مولهـة هـائمة في الطرق والمذاهب ، تسائل الغـادين والرائحين ما فعل الله بولدهـا او زوجها او اخيها ، فإما بقيت في حيرتها بياض يومها وسواد ليلها ، وإمـا عادت الى بيتها بالثقـل القـاتل ، والحزن الدائم ، وهنـالك ترى الشيوخ الكبـار والاطفـال الصغـار ، والعـاجزين والضعفـاء لائذين بالتـلال والآكام ، يحاولون ان يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها ، فـلا تقيهم ، او عـائذين بالمضايق والشعاب يفرون اليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم ، وهناك ترى اولئك القوم الذين يسمون انفسهم مجاهدين ، او فاتحين ، او قوّاداً عظامـاً ، او سواساً كباراً ، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرح المختال ، وينظرون الى اولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم، وانتهبوا ارواحهم واموالهم ، نظر السيد الى مولاه الذي ملك

ولاءه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رموا اليهم في تلك الساعة بلقيمات كتلك التي يلقيها سيد الكلب الى كلبه ، او الراعي الى ماشيته ، ليشهدوا العالم الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الاوصال ، ولا أيموا النساء ، ولا يتموا الأطفال ، ولا انتهكوا الحرمات الا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشانها .

لا أحسب أن مسلماً دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحسانا ، وعطفاً وحنانا ، يستطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعاً ، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قراراً ، حزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون باعينهم في مشارق الارض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو منجداً يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفسها ، فاحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الامل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم .

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب الى الله ، وأدنى الى رحمته وإحسانه ، وأجلب لمغفرته ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزلهم ،

تعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده .

انكم ان تحسنوا اليهم تحسنوا الى أنفسكم ، وان تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم ، فإن بينكم وبينهم لحمة أقوى من لحمة النسب ، ووشيجة أوثق من وشيجة القربى ، وانكم جميعاً تصلون الى قبلة واحدة ، وتهتفون في الغداة والعشى بذكر واحد ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وباسائكم الى اله واحد ، وتقفون في بيت الله بين حرمه والمقام موقفاً واحداً .

أيها المسلمون :

انكم ان اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غداً ، وان هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبداً ، وانكم ان قدمتم بين ايديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم ، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته ، و «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

★

خطبة الحرب

يا أبطال برقة ، وليوث طرابلس ، وحماة الثغور ، وذادة المعاقل والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء ، فاستنيروا بنورها ، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم .

ان الله وعدكم النصر ، ووعدتموه الصبر ، فانجزوا وعدكم ينجز لكم وعده .

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار ، فوالله ان فررتم لا تفرون الا عن عرض لا يجد له حامياً ، وشرف لا يجد له ذائداً ، ودين يشكوا الى الله قوماً أضاعوه ، وأنصاراً خذلوه .

انكم لا تحاربون رجالاً أشداء بل أشباحاً تتراءى في ظلال الأساطيل ، وخيالات تلوذ باكتاف الأسوار والجدران ، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها ، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ولا لأسيافهم ساعداً .

انهم يطلبون الحياة ، وانتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوت ، وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم ، وتطلبون جنة عرضها السموات والارض ، فلا تجزعوا من لقائهم، فالموت لا يكون مر المذاق في افواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعدله ورحمته ، فتقدموا الى الموت غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ، ويكلكم الى انفسكم ، وانتم من القوم الصادقين .

ان هذه القطرات من الدماء التي تسيل من اجسامكم ستستحيل غداً الى شهب نارية حمراء تهوى فوق رؤوس اعدائكم فتحرقهم وان هذه الانات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة الى الله السماء ان ياخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم ، والله سميع الدعاء .

ان أعداءكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نسائكم ، وأخذوا بلحى شيوخكم الاجلاء فساقوهم الى حفائر الموت سوقاً ، فماذا تنتظرون بانفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجالكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل ارض وتحت كل سماء ، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم ومنامهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين !

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً ، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا

يكون حفرة من حفر النار .

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الواسطة بين الطرفين ، ولا العيش الذي هو الموت اشبه منه بالحياة ، بل اطلبوا اما الحياة أبداً ، واما الموت أبداً .

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم ، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم ، ويطاون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم ، وينظمون في ثقوب آنافكم مقاود يقودونكم بها الى مواقف الذل والهوان ، كما تقاد الإبل المخشومة الى معاطنها ، فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته ، فموتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .

ان هذه الاساطيل الرابضة على شواطئكم ، والمدافع الفاغرة أفواهها اليكم والبنادق المسددة الى صدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتالف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار الى تلك الدار ، فسيروا في طريقكم الى آخرتكم ، فإن الأعداء ان ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت .

المستميت لا يموت ، والمستقتل لا يقتل ، ومن يهلك في الإدبار اكثر من يهلك في الإقدام ، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغي الموت .

ان كتاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا

صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تماون عليهم من حسنات أو سيئات ، فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام .

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء .

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتنشدوه فيعجزكم .

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم ، وتغسلكم دماؤكم وتصلي عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله اليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلماً يصلي عليه صلاة الجنازة ثم يمشي وراء نعشه الى قبره حتى يودعه حفرته ، ويخلي بينه وبين ربه .

إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالداً وعلياً ، والأسدين حمزة والزبير ، والفاتحين سعداً وأبا عبيدة ، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة الإسلام وذادته ، من السابقين الأولين والمجاهدين الصابرين ، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء ، لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وانا على آثاركم لمهتدون .

أن هذا اليوم له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم الى أعدائكم ، فإنكم ان فعلتم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الارض أبداً .

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ الى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته آزمة ، أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه ، وتكشف غماءه ، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها ، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها ، وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله ، فتخر له الجباه سجداً ، وتبتدر يديه الافواه لثماً وتقبيلاً .

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الاساسية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً ، وسترى نفخة اسرافيل آخراً والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره وسهله وحزنه وحياته وموته ، وتدور معه حيث دار في ايمانه وكفره وصلاحه وفساده ، واستقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها ، ولا تستحيل مادتها ، ولا تبلى جدتها على كر الليالي ومر الايام .

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية الا وهي تعتمد على الجامعة الانسانية في سيرها وتستظل بظلها ، وتهتدي بهديها ، فالمجاهد الوطني يقول : اني أدافع عن وطني ، وأحمي حوزته ، وأقوم على ثغوره وعوراته مقـــام الذائد المناضل ، لاني أعتقد أني ان أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنو بمثل ما أنا ممنو بـــه في وطني تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية ، فجرى سيلها متدفعاً لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه ، والمجاهد الديني يقول : اني أعتقد أن الانسانية لا تزال معذبة يأكل قويها ضعيفها ، ويغتال كبيرها صغيرها ، ويستضعف حاكمها محكومها ؟ حتى تدين بالدين الذي أدين به ، فأنا ان حاربت البلاد ، وقاتلت العباد ، فإنما أريد بخوض هذا البحر الاحمر من الدماء أن أصل الى سفينة الانسانية المشرفة على الغرق فأستخلصها من يد الموت الذي يحيط بها .

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن ، ودعاة كل جامعة ، وهكذا يجب أن يقولوا ، فإن لم يفعلوا ، وأبوا الا أن يغفلوا ذكر الجـــامعة الانسانية في دعائهم الى جامعاتهم التي يدعون اليها ، فسد عليهم امرهم في كل ما يقولون وما يفعلون .

ليس لصاحب وطن من الاوطان ، او صاحب دين من الاديان ان يقول لغيره ممن يسكن وطناً غير وطنه ، او يدين بدين غير دينه : انا غيرك ، فيجب ان اكون عدوك ، لان الانسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية ، ولان هذه الفروق التي توجد بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ، ومواطن اقامتهم

وألوان أجسادهم ، واطوالهم واعراضهم انما هي اعتبارات ومصطلحات ، او مصادفات واتفاقات ، تعرض لجوهر الانسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه ، وتتوارد عليه توارد الاعراض على الاجسام، ففي كل بلد، وفي كل عصر يستعجم العربي ويستعرب الاعجمي، ويسلم المسيحي ويتمسح المسلم، ويلحد المؤمن. ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربي، ويستغرب المشرقي، ولو شئت ان اقول لقلت انه لا يوجد فوق رقعة الارض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ، ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه ، ودين غير دينه ، وأمة غير أمته .

اذا جاز لكل اقليم ان يتنكر لغيره من الاقاليم ، جاز لكل بلد ان يتنكر لغيره من البلاد ، بل جـــاز لكل بيت ان ينظر تلك النظرة الشزراء الى البيت الذي يجاوره ، بل جاز للأب ان يقول لولده ، وللولد ان يقول لابيه : اليك عني ، لا تمد عينيك الى شيء مما في يديّ ولا تطمع ان أوثرك على نفسي بشيء مما اختصصتها به ، لانني غيرك ، فيجب ان اكون عدوك المحارب لك ، وهناك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة ، ويحمل كل انسان لاخيه بين اضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنق عيشه ، ويطيـــل سهده ، ويقلق مضجعه ويحبب اليه صورة الموت ، ويبغض اليه وجه الحيـــاة ، وهنالك يصبح الانسان اشبه شيء بذلك الانسان الاول في وحشته وانفراده ، يقلب وجهه في آفـــاق السماء ، وينبش بيديه طبقات الارض فلا يجد له في الوحشة مؤنسا ، ولا على الهموم معيناً .

الجامعة الانسانية اقرب الجامعات الى قلب الانسان ، واعلقها بفؤاده ، وألصقها بنفسه ، لانه يبكي لمصاب من لا يعرف ـ وان كان ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ او اسطورة من الاساطير ، ولانه لا يرى غريقاً يتخبط في الماء ، او حريقاً يتلظى في النار، حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله ، فيقف وقفة الحزين المتلهف ان كان ضعيفاً، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل ان كان قوياً ، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم ان اولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية ، وان لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها ، ولولا ان ستاراً من الجهل والعصبية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين او تجارهما على قلوب الضعفاء السذج ، لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين .

لا باس بالفكرة الوطنية،ولا باس بالحمية الدينية،ولا باس بالعصبية لهما ، والذود عنهما ، ولكن يجب ان يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها ، أي ان تكون دوائر الجامعات كلها داخلة في دائرة الإنسانية العامة غير خارجة عنها ، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية ، فاذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة ، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها ، فاذا هو شعبة من شعب الجنون .

فان كان لا بد للإنسان من ان يحارب أخاه او يقاتله ، فليحاربه

مـدافعاً لا مهاجـاً ، وليقاتله مؤدباً لا منتقماً ، وليكن موقفه أمامـه في جميـع ذلـك موقف العادل المنصف ، والشفيق الرحيم ، فيدفنه قتيـلاً ، ويعالجه جريحاً ، ويكرمه أسيراً ، ويخلفه عـلى أهله وولده بافضل مـا يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده ، وليكن شانه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

اذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

★

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجمالها ، ولا تعبث المدنية في صورتها ، شمسها في آفاقها، فتنبسط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها ، من حيث لا يعترض سبيلها من الظل سحب ، ولا من السقوف حجب ، وينبت نباتها حيث يجري ماؤها ، لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير ، ولا تقويس ولا تعريج ، ويجري ماؤها في سبيله حيث ينساب به تسلسله واطراده ، لا تلوي به عن قصده الحفائر ، ولا تنتصب في وجهه القناطر ، ويهيم وحشها في جبالها .. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الاول عرين موصود .. ولا الآخر قفص محدود ، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر المطرية على طبيعتها وفطرتها .

ينطق العربي بما يعلم .. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدث عما تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل.. لأن كلا ما هو محيط

به من هواء وماء وأرض وسماء ..وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات .
على الفطرة السليمة الخاصة ، فاحرى ان يكون شعره كذلك .

ذلك كان شان الشعر العربي والعرب على فطرتهم . وذلك معنى قولهم : الشعر ديوان العرب ، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية ؛ ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية ؛ فان ظن ظان ان التماثيل والنصب والصور والتهاويل ،وبقايا الآثار ، وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان ، والفينيقيين والفراعنة ؛ أدل على تواريخ اولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب قلنا له : ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته ؛ أما الديوان العربي فصورة صحيحة وآية ثابتة ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس ؛ فانتقلت الأمة العربية من بدواتها الى حضارتها . وهاجر معها شعرها بهجرتها . فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان : بشار ، وأبو نواس ، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة ؛ فقلنا لا باس ، فالشعر العربي أوسع من ان يضيق بحاجات أمته وضرورتها ، في جميع شؤونها وحالاتها ، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعة اللفظية ، فسلك الى كثير من معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والاسلوب المتكلف، فثغر في الشعر العربي ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده باظفارهم وأنيابهم حتى صيروها فوهة واسعة لا تمنع ما وراءها ولا تدفع ما أمامها،

فاصبح الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج والورّاق وابي الحسن الجزار والصفي الحلي وامثالهم ، اشبه شيء بتلك الآنية الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً ، لا تشفي غلة ، ولا تبض بقطرة ، ولا تسمن ولا تغني من جوع ، ثم جاء على اثر هؤلاء من تدلى الى منزلة أدون من هذه المنزلة ، فجاءوا بشيء هو اشبه الاشياء بتلك التفاعيل التي وضعها الخليل ميزاناً للشعر ، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل ، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل ، حتى انزل الله اليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا العهد الاخير أخذوا بيده ، ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فاصبحنا نرى في ابراد الكثير منهم ، اجسام امرىء القيس، والنابغة ، ومسلم ، وابي نواس، وابي عبادة ، والشريف، ومهيار لا فرق بينهم وبينهم سوى ان هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار وأ[illegible] مبتدعون يفترعون الا[illegible].

حوانيت الاعراض

أنا لا أستطيع ان أتصوّر الفرق بين رجل يمد يده الى خزانـة بيتي فيسرق مالي ، وبين آخر يمد لسانه او قلمه الى شرفي فيستلبه ، كلاهما مجرم فاتك ، وكلاهما لص مغتال ، وان كان اولهما في نظر القـانون وفي عرف الناس أكبرهما إثماً ، وأسوأهما أثراً .

المال خادم من خدام الشرف ، وحاجب من حجابه والوقوف على بابه ، ولولا مكان الشرف ، والكلف بصيانته ، والضن به ان يعبث بجوهره عابث . ما كان لامرىء في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من ان يقيم به صلبه . ويمسك به حوباءه ، فان كان سارق المال مجرماً من حيث كونه هاتكاً لذلك الحجاب المسبل دون الشرف، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه ان يكون رأس الجانين واكبر المجرمين .

يكون للرجل ــ من الصحفيين مثلاً ــ عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم مأرب من المآرب التي لا يعرف

لنفسه فيها حقاً ولا يمت اليها بسبب من الاسباب الظاهرة او الباطنة ، فما هو إلا ان يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات ،يصيب به مقتلاً من شرفه وكرامته ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته يلف عثنونها على يده ثم يقوده بها الى حيث شاء كما تقاد السائمة الى مصرعها.

يحب الرجل الجد حباً يملأ ما بين جوانحه ، ويكلف به حتى يصبح آثر عنده من نفسه التي بين جنبيه ، ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد ليله يساهر الكوكب حتى ينحدر الى مغربه، وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب في حمأتها ، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حرباً عواناً يحمل في سبيلها ما لا يستطيع ان يحمله بشر ، حتى اذا أمكنه المقدار منه وبدأ ينهل اول نهلة من مورده البارد العذب ، رآها ممزوجة بذلك العلقم المر الذي صبه له في انائه ذلك المجرم الاثيم .

ان بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها « ادارات » قوماً مفاليك قد دارت عليهم الايام دورتها ، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ، ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم . فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو ان الله ابقى لهم بعد ان سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة ، فلم يجدوا بين ايديهم منفذاً ينفذون منه الى القوت، فتحوا حوانيت للاتجار بأعراض الناس وكرامتهم سموها صحفاً ، واكثر مشتملاتها اعراض الاشراف والعظماء وارباب الجد والعمل ، الذين سبقوهم الى فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكلون غيظاً لحرمانهم مما أفاض الله عليهم . فهم ان فتشت عنهم ، وكشفت عن

دخائل نفوسهم ، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل الملوك والامراء ، وأستغفر الله ، فللفوضويين رأي في تلك الجرائم يرونه ، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون وهم مقفرو الأيدي من الزاد .

ولقد يكون خطبهم سهلا ومصابهم محتملا ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البنية ، ولكنهم مراءون مخادعون ، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية او الادبية ، ووالله ما بهم من أدب ولا دين ، ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محددون ، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغاً ، وضاقت بهم الارض الفضاء على رحبها ، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء ، وتنغيص لذة السعداء .. ويطلبون قوتهم فيما بين هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيع أن تفرق بين الكاتب الذي يكتب ليقوّم معوجاً ، او يصلح مختلا ، او يرفع بدعة باطلة ، او يكشف عن حقيقة خافية ، وبين الآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس ، لا يفارقه حتى تفارقها ، والذي لا يلذه شرب الماء إلا ممزوجاً بدم . ووالله ما أدري ما الذي أقامهم هذا المقام وعهد اليهم هذا العهد ، ومن الذي وكل اليهم النظر في شؤون الناس والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الاتقياء الذين يصلحون أن

يكونوا امثلة حسنة في منـازلهم ، فيكونوا قدوة صالحـة في أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم، ونستن بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين فنتعبد بإجلالهم وإعظامهم، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه، او التاجر في حانوته ، او العامل في معمله ، فيصلح ان يكون حكماً في قضايا الأشراف والنبـلاء ، وميزاناً لحسنـاتهم وسيئـاتهم . وعندي أن لو جمعت عيوب النـاس جميعهـا في كفة ميزان ، ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس ، وهتك الاعراض ، واتهام الابرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلت كفتهم أمام كفة الذين يزعمون انهم يقوّمون معوجهم ويثقفون منـآدهم ، ويصلحون مـا فسد من شؤونهم .

★

الرثاء

ما أنس لا أنسى رجلا كان خير من لقيت من الرجال ، وكان يعجبني منه أدبه وفضله ، وعفته وحياؤه ، وشرف نفسه ، وطهارة قلبه ، وأنه كان صبوراً محتملا تقرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية ، كما ترتد الكرة عن الحائط اذا قرعتها .

كان فقيراً لا يملك من الدنيا اكثر مما يقيم صلبه ، ويمسك حوباءه ويستر سوأته ، فزوّجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دمامتها ، وسوء خلقها ، وجفاء طبعها ، ممن يطمع مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه ، لأنه كان برّاً به ، مطيعاً له ، نازلاً عند أمره ونهيه ، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانقباض عنها ، لأنه كان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، رقيقاً بالضعفاء والعاجزين ، فتزوجها وفي نفسه من المضض والألم ما يلهب الجوانح ، ويذيب لفائف القلوب .

وأذكر أني على طول عشرتي له ، ولصوق نفسي بنفسه ، ما سمعته يشكو إليّ يوماً من الايام ما كان يعالجه من سوء عشرتها ، ويكابده من شرورها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته . وإيثاراً لفضيلة الصبر والجلد ، وسكوناً الى ما جرت به الاقلام في ألواح المقادير . فكنت أرحم صمته وسكونه ، وأرثي لجمود عينيه عن البكاء ، لأني أعلم أن نيران الاحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها ، إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات . وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأطايبها ، أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين الى أحد اصدقائه في الريف فيقضي عنده يومين او ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تلالؤ نجمة الصبح قبل انحدارها الى مغربها ثم لا تلبث ان تتلاشى، ولا يلبث أن يعود الى جموده الاول ، لا يحزن فيبكي ، ولا يفرح فيبتسم ، حتى يخيل للناظر اليه أنه يعيش في عالم غير هذا العالم ، ولا يظلله ليل ولا يضيئه نهار .

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أني أجهله فاكاتمه ذلك العلم جهدي رفقاً به واشفاقاً عليه ، حتى زرته في منزله ذات يوم فرأيته جاثماً في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد اطرق اطراقاً طويلا ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولي حتى أخذت مكاني ، فرفع رأسه فادهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه ، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر اليّ نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال :

ـ أتعتقد أن الله موجود ؟ قلت : نعم ـ معالجاً نفسي على كتمان ما كان يذهب بلبي من تنكر حاله ، وتغير اطواره .

قال : وتعتقد أنه عادل ؟ قلت : نعم .

قال : وراحم ؟ قلت : نعم .

فبسط يده الي فعل الضارع المستصرخ وقال :

ـ هل لك ان تحدثني ايها الصديق عن نزول الصواعق ، وثورة البراكين ، وطغيان البحار ، وغرق السفن ، وانتشار الأوباء ، وفتك الأداء ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء ، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والاحزان ؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة ؟

قلت : نعم ، ان الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لانفسهم من سعادة الحياة وهناءتها .

قال : ان الله اكرم من أن يجعل الشر طريقاً الى الخير ، وألا يحسن الى عباده الا بعد ان يسلبهم الإساءة .

قلت : ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عامل بعمله . ان خيراً فخير وان شراً فشر .

قال : انه كتب على نفسه الرحمة .

قلت : نعم ، انه اكرم الكرماء ، وارحم الرحماء .

قال : حدثني عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شر ، ولم يتسرب الى قلبه كيد ، مالي اراه مفترشاً حجر امه وقد تولى الليل الا اقله يتقلب على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام ؟ فينتفض تارة ويختلج أخرى ، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع ، وتحول بين العين وبين الدموع؟ وما لي ارى امه باكية مولهة ، ذاهلة اللب موجعة القلب ، تفزع لفزعاته ، وتصرخ لصرخاته وقد اختبل عقلها والتاث امرها ، وعظم يأسها ، وفنيت حيلتها وقلّ مساعدها وضعف ناصرها ، فانشأت تقلب وجهها في السماء ضارعة الى الله تعالى ان يأخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها ، وبينا هي تنتظر صوت الاجابة يرن في آفاق السماء ، اذا بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها ، واذا به ينزع نزعاً مؤلماً يطير باللب ، ويذهب ببقية الصبر ، حتى تفيض نفسه ، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى اصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة ؟

قلت : وما يدريك لعل الله اراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم انه سيلقى فيها مثلما تلقى انت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الاليم ؟

فنالت هذه الكلمة من نفسه ، وجمد أمامها جموداً طويلاً ، ثم قال : أحسنت ايها الصديق ، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا ، وحقارة شأنها ، فيتمنون لو لم تلدهم امهاتهم ولم يكتب لهم سطر واحد في الوجود ، وبعد فهل لك في سفرة معي الى ذلك الصديق

الريفي نقضي عنده يوماً واحداً ثم نعود ؟ على أن تكون معي كما كان موسى مع الخضر ، لا تسالني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ؟

فوافيت رغبته ، وقبلت شرطه ثم قام وقمت ، ولو أنني ملكت في هذه اللحظة الدنيا بحزافيرها لوهبتها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على مكان نكبته التي زعزعت نفسه ، وصهرت قلبه ، وملكت عليه لبه، وكادت تعبث بيقينه ، وما هي الا ساعات حتى بلغنا المنزل الذي أردناه، وقد أظل الليل بجناحيه ، فقضينا واجب التحية والسلام ، ثم خلا الصديق بصديقه خلوة طويلة لا اعلم ما دار فيها بينهم ، ثم خرجا إليّ فجلسنا ساعة نتحدث . ثم قمنا الى فراشنا فنمت نوماً متقطعاً مملوءاً بالوساوس والهواجس ، فما انتصف الليل حتى شعرت ان صديقي يتحرك في فراشه ، ويطيل النظر إليّ ليعلم أنائم انا أم مستيقظ ؟ فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل الى المشجب فلبس أثوابه ، ثم تسلل من الغرفة فخفق قلبي خفقة الرعب والفزع وقلت : لا بد أن الرجل يريد بنفسه شراً وأنا اكون ألأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء ، فقمت على أثره اتتبع خطواته ، وأسير وراءه من مدرجة الى أخرى ؛ حتى بلغ مقبرة البلد ، فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التي جثمت في امكنتها جثوم الآبال في معاطنها ، ثم مشى يتصفح القبور قبراً قبراً ، فخيل اليّ انه شبح من اشباح الموتى يهيم في أرجاء تلك المقبرة الموحشة، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا اجلالي لهذا الموقف الرهيب،

وشعوري أنني واقف على ابواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين عقولهم ، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم ، ونغص عليهم ما يتمنون ان يصفوا من طعامهم وشرابهم،والتي يفد اليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي اهليهم ، وذوي أرحامهم .. ليقدموهم بأنفسهم هدية الى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من سواد عيونهم وبياض ثغورهم ، مراتع ترتع فيها كما تشاء .. من حيث لا يملك مالك منهم عن نفسه دفعاً، ولا يعرف الى النجاة سبيلا .

مرت بخاطري تلك الذكرى فملكت على نفسي حتى ذهلت عن موقفي ، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة من امر صديقي ، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفقت فرأيته جاثياً امام قبر من تلك القبور جثيّ العابد بين يدي معبوده ، فدلفت اليه حتى دنوت منه فسمعته يقول :

اللهم انك تعلم اني ماكفرت نعمتك ، ولا خفرت ذمتك ، ولاهتكت حرمة من حرماتك ، ولا نزلت عند سخطك وغضبك ، ولا تبرّمت بقضائك وقدرك ، وانك احسنت اليّ بتلك الطفلة احساناً عظيماً لأنك انقذت بها حياتي من همومها وآلامها ، ثم لم تلبث ان سلبتنيها وشيكاً أهنأ ما كنت بها وأرجى ما كنت الى قضاء ساعات العمر بجانبها ، فاغفر لي جزعي وحزني فكثير عليّ ان لا اجزع ولا احزن .

لقد تبدلت الارض غير الارض والسموات ، وكانما استحالت في

نظري حقائق الاشياء ، فأصبحت لا ارى في النجمة لالاءها ، ولا في الزهرة جمالها ، ولا في السماء صفاءها ، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى اذا ذهبت ذهب بذهابها كل شيء ؟

لقد ذهبت بي الايام فيما مضى كل مذهب ، وجرّعتني من كؤوس الشقاء جرعاً ما احتمل فيم قبل فمي مرارتها ، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي حينما أسدت اليّ تلك اليد التي انستني جميع هموم الحياة وآلامها .. وأما اليوم وقد صفرت منها يدي ، وأقفر بفراقها ربعي .. وحالت تلك الصفائح بيني وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى .

من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي جملة واحدة ، فلا اعود اذكر ايام حياتها معي ومقعدها بجانبي ، وصوتها الرقيق ، وحديثها العذب ، وصفاء عينيها ، ورونق وجهها ، وصورة قومتها وجيئتها وذهوبها وضحكها وبكائها ويقظتها ومنامها ، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي ، فاني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال الى أفلاذ صغيرة تتطاير في اجواز الفضاء .

اللهم إني أعلم ان الدنيا ليست بدار قرار ، فلا أمل في البقاء فيها ، والركون اليها ، والاستمتاع بلذة العيش فيها ، وانها الجسر الذي يمر به الأحياء الى دارهم الأخرى ، وكل ما كنت أطمع فيه منها ان يكون لي كما للناس جميعاً رفيق يعينني على قطع تلك الشقة البعيدة ، ويهوّن عليّ آلام وحشتها وكآبتها ، فحرمتني ذلك الرفيق المعين . فكيف أسير ، واين أعيش ؟

اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ويطفىء بها المحزونون لواعج قلوبهم ، فاصبح الحزن بـ نلي بين جوانحي غليان الماء في القدر المحكمة الغطاء ، فامنن عليّ بدمعة واحدة أطفىء بها غليلي ، ولا أحسب أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك ان تعالج بها نكبات المنكوبين ، وبؤس البائسين .

اللهم لا ريبـة في عدلك ، ولا ظنـة في كرمك ، ولا اعتراض عـلى قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحنتك ، خرج أمر نفسي من يدي ، وأصبحت لا استطيع ان أبصر مـا بـين يدي ، فاغفر لي سقطي وزللي .

اللهم إنك منعتني حظي من الحيـاة ، فـلا تمنعني حظي من الموت ، فاسترد اليك عاريتك التي أعرتنيها فقد عجزت عن حملها ؛ وضقت ذرعاً بأمرها ؛ إنك بعبادك رؤوف رحيم .

وما أتم كلمته حتى صاح صيحة عظمى ، ثم سقط على صفائح القبر ؛ فعلمت ان الرجل قد انفجر ؛ وان الله قد استرد وديعته اليـه ؛ واختار للرجل ما عنده ؛ فذعرت وارتعدت والتفت حولي فاذا صديقه واقف ورائي يشهد المنظر الذي أشهد ، ويذرف من الدموع أضعاف ما أذرف ، فدنونا منه معاً وحركناه فاذا هو ميت ، فنقلناه الى المنزل ، وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع ، وهنالك قص عليّ ذلك الصديق قصته وكشف لي عن خبيئة أمره فقال : إنه قضى زمناً طويلاً يشكو اليّ آلام نفسه التي يعالجهم من سوء عشرة

زوجه وخشونة طبعها ، وجفاء خلقها ، ثم اقترح عليّ يوماً من الايام ان أزوجه من أختي ففعلت رحمة به واشفاقاً عليه ، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة او مرتين ، وظل على ذلك عدة سنين ، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهبت بها الى ربها ، وتركت له فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهناءتها ، وكان يختلف اليها كما كان يختلف الى أمها ، وشغف بها شغفاً بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقول لي انني أشعر ان حياتينا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة ، وأنا اما ان نعيش معاً ، او نموت معاً وكانه ألهم بما سيكون ، فقضى الله ان تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها اكثر من خمسة أيام ثم لحقت بامها ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتها اليه بكتاب أرسلته اليه بالأمس ، فجاء وجئت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله ان يكون .

دفنت صديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنته التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظة واحدة شوقاً اليها ، ووجداً عليها ، ثم عدت الى بلدتي صفر الكف من ذلك الإنسان الذي كنت مالئاً منه يدي ، والذي كنت أجله وأعظمه حياً ولا أزال أبكيه وأذكره ميتاً ، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد ، والوفاء والكرم عبرة أعتبر بها حتى يجمع الله بيني وبينه .

كفى حزناً بموتك ثم إني   نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات   وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الشعر

كتب اليّ كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكاد تكتب سطراً ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تكاد تنظم بيتاً ، فلم لم تكتب في عهدك الأول ، ولم لم تنظم في عهدك الثاني ؟ كأنما ظن عافاه الله أنني اكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، او أهيم في واد غير ذلك الوادي ! وهل الشعر الا نثارة [1] من الدر ينظمها الشاعر ان شاء شعراً ، وينثرها الكاتب ان شاء نثراً ؟ او نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم ، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر ، او عالم من عوالم الخيال، يطير فيه الطائر بقادمتين [2] من عروض وقافية او خافيتين [3] من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر الا

---

(١) النثارة : ما تناثر من الشيء .

(٢) القادمة : مفرد قوادم ، وهي عشر ريشات في جناح الطائر .

(٣) الخوافي : ريشات اذا ضم الطائر جناحيه اختفت .

ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤونه واطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا ان غريزة في النفس ان يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ، ما نظم ناظم شعراً ولا روى عروضي بحراً .

ما كان الرجل العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر .. ولا يعرف ما قوافيه واعاريضه ، وما علله وزحافاته ؟ ولكنه سمع اصوات النواعير وحفيف الاوراق وخرير المياه ، وبكاء الحمائم ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذ له ان يبكي لبكائها وينشجج لنشيجها ، وان يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها ؛ فاذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالبة ، ولا من ابحره وضروبه سوى انها صورة من صوره ، ولون من الوانه .

ذلك منتهى نظر العربي الى الشعر ، وذلك ما دعاه الى ان يسمى النبي الذي بعثه الله اليه شاعراً ، وهو يعلم انه ما قصد في حياته قصيدة ولا رجز ارجوزة ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات ابلغ الكلام وافصحه واعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب ، واملكه للعواطف والمشاعر ، واجمعه لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة ، والكنايات المستطرفة ، وامثال تيك مما لا ينطق به الناطق في اكثر مناحيه ومنازعه الا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى الناطق به شاعراً ، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

مـا كل موزون شعراً ، وكل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلـق بالنفس من طول ترديـد المنظوم والتغني بـه مقطعـاً تقطيعاً يوازن تفاعيله .. فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغنـاء ، يتمثل في قول الملك الضليل [1] :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

كما يتمثل في قول الخليل :

* فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن *

ويتراءى في اوتار الحلق الناطق كما يتراءى في اوتار العود الصامت .

أما الشعر فامر وراء الأنغام والأوزان ، ومـا النظم بالإضافة اليـه الا كالحلى في جيد الغانية الحسناء ، او الوشي في ثوب الديباج المعلم . فكما ان الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزرى بـه أنه غير معلم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها انت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى مـا اعتاده النـاس من أنهم ينظمون مايشعرون به، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما، وهي التي ادخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءاً واحداً لا يستطاع معه التمييز بينهما الا القليل من الناقدين ، فاصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فـلا نجد بيتاً ،

---

(١) هو لقب امرىء القيس .

وتتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة ، واصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصوّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بعد به عن مكانه وضل به عن قصده ، وعندي ان أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التاثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر ، وسر ذلك ان الشاعر يتمكن ببراعة اسلوبه ، وقوة خياله ، ودقة مسلكه ، وسعة حيلته ، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع ، فيريه نفسه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنانه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ، ويضحك لضحكه ، ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بارضها وسمائها ، وشموسها واقمارها ،ورياضها وازهارها ، وسهولها وجبالها ، وصادحها وباغمها [1] وناطقها وصامتها ، من حيث لا ينقل الى ذلك قدماً ، او يلاقي في سبيله نصبا ، فان سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أني واجهتنا	فيحجبها ، ويأذن للنسيم

(١) يقال : بغم الغزال اذا صوت بأرخم صوته ، فهو باغم .

يروع حصاه حالية [1] العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

خيل اليه أنـه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وازهاره ، خطران النسيم بين ظلاله واشجاره ، وأنه يرى بعينه اولئك العذارى السانحات،وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء. فتولهن وفزعن الى جوانب عقودهن يلمسنها باطراف بنانهن ، يحسبن ان قد وهت فانتثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض .

وان سمع قول الآخر :

ودار ندامى عطلوهـــا وأدلجوا
بهـا أثر منهم جديـد ودارس
حبست بها صحبي وجمعت شملهم
وأنى عـلى امثـال تلـك لحابس
أقمنـا بهـا يومـا ويومـا وثالثا
ويومـا له يوم الترحل خامس
تدار علينـا الراح في عسجدية
حبتهـا بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتهـا
مها تدريها [2] بالقسي الفوارس
فللراح ما زرّت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) الحالية : لابسة الحلي . (٢) أدرى الصيد : ختله .

تمثل له كأنه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيها اصوات قوم يلهون ويقصفون [١] ويقرعون الكؤوس بامثالها ، فاقترب منها وأطل من خصاص [٢] بابها ، فرأى اولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قد تكاملت سنه ، وشيب الدهر فوديه [٣] ففصدوه فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشا فارسية قد صورت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين ايديهم ، ورآهم يملأون الكؤوس خمراً الى ما يوازي اعناق اولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء الى ما يغطي رؤوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطا بمجتمعهم ، وبما هيىء لهم من الهناءة والنعمة فيه ، ثم مر بتلك الدار بعد ايام فرآها مقفرة من اهلها لا تسمع بها نغمة ولا نامة [٤] فدخلها فلم ير فيها الا اعواد ريحان قد يبس اكثرها .. مبعثرة في جوانبها .. وخطوطا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوّها ورواحها بين اولئك الندماء فانصرف حزينا مكتئبا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها فيردد قول القائل :

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

---

(١) قصف : أقام في أكل وشرب ولهو .
(٢) الخصاص : كل خلل وخرق في باب او غيره .
(٣) الفودان : ناحيتا الرأس . (٤) النأمة : النغمة والصوت .

ويوم كتنور الإماء سجرنه[1] وأوقدن فيه الجزل حتى تضرّما
رميت بنفسي في أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كان لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه فيشيح عنه فراراً من لفحاته ويكاد يبكي رحمة بذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله ، وحالت بينه وبين نفسه ، فلا هو بصابر ان رام صبراً ، ولا بناج ان أراد نجاء .

وان سمع قول الآخر :

وارحمتا للغريب في البلد النا زح ، ماذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه حزناً على ذلك الغريب الحائر ، وتمنى ان لو التقى به في بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته . ثم أخذ بيده فأنزله من بيته منزلاً كريماً وابدله أهلاً باهل ، وجيراناً بجيران .

وان سمع قول الآخر :

وان الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

(١) سجر الرجل التنور : ملأه وقوداً .

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وانهم هووا غيبى هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس تمُّر بي
زجرت لهم طـيراً يمر بهم سعـدا
ولا أحمـل الحقـد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جلّ مالي ان تتابع لي غنى
وان قـلّ مالي لم أكلفهم رفـدا
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً
وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

اكبر تلك المكرمة واجلها ، ونظر اليها وهي في علياء سمائها ، نظر الفلكي الى كوكبه الساري ، وشعر كان نورها قد لمع فامتد شعاعه الى الى نفسه فاضاءها .

ولا غرو ان يبلـغ الشعر من نفسه هـذا المبلغ ، فطالما كان للشعر السلطان الاكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما دس له اعداؤهم ذلك المغنى الذي غناه هذا الصوت :

ليت هنداً انجزتنا مـا تعـد وشفت أنفسنـا ممـا تجـد
واستبـدّت مرّة واحـدة إنمـا العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل

عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تقيلن عبد شمس عثارا　　واقطعن كل رقلة [1] وغراس

أنزلوها بحيث أنزلها الله　　بدار الهوان والإتعاس

خوفهم أظهر التودّد فيهم　　وبهم منكم كحز المواسي

أقصهم أيها الخليفة واحسم　　عنك بالسيف شأفة الأرجاس

فلقد ساءني وساء سوائي　　قربهم من نمارق وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الحطيئة واطلقه من سجنه حين سمعه يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ　　حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة　　فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة :

أمحمد يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرّك لو مننت ، وربما
منّ الفتى ، وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من اصبت وسيلة
وأحقهم ، ان كان عتق ، يعتق

(١) الرقلة : النخلة التي تفوت اليد .

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه،

لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال – وهو من لا ظنة[1] في عدله، ولا ريبة في حكمه –: «لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته».

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته الا للشعر، وللشعر الفضل الاول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال.. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقاً وصامتاً، أما الناطق فقد عرفته، وأما الصامت، فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال: شعر، وهذه النغمات الموسيقية التي تصوّر خواطر القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي: شعر، وهدير الامواج: شعر، لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام الليل: شعر، لأنه يطلق دموع الباكين، وحفيف الأوراق: شعر،لأنه يمثل تناجي العشاق، وبكاء الحمائم: شعر، لأنه يمثل فجيعة البين ولوعة الفراق، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة، وفم الطبيعة أخرى، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة، وألبستها ذلك الثوب الناعم الابيض حتى احببناها، وولعنا بها، وحرصنا عليها، وأعددنا العدة للبقاء فيها.. والسكون اليها، فكتبنا ودوّنا وألفنا واخترعنا،وتعلمنا فعلمنا، وبنينا

(١) الظنة: التهمة.

فشيدنا ، وغرسنا فجنينـا ، وعملنـا فربحنا ، واجتهدنا فاثرينا ، وأملنا فسعينا ، وسعينا فبلغنا ، فكأن الشعر سر هذه الحياة ، وعـلة هـذا الوجود ، لا تطير الينا الحقائق الا على جناحه ، ولا يطيب لنا العيش الا في جواره ، فلنمجد الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شموس الحكمة ، ومطالع كواكب الفضل ، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها ، ثم يتسرب الى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءة .

★

الشهيدتان

لم تغتمض عيناي ليلة امس ، لأنني بت اسمع في الدار الملاصقة لبيتي انين امرأة متوجعة ، تعالج هماً ثقيلاً ، وتشكو مرضاً أليماً ، ويخيل اليّ أني لا اسمع بجانبها معللاً يعللها ، ولا جليساً يتوجع لها ، فلما اصبح الصباح ذهبت اليها ، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على اكثر من سرير بال يتراءى فوقه شبح ماثل من اشباح الموتى ، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها ، وكأنها شعرت بمكاني فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء ، فاسعفتها بها .. فاستفاقت قليلا ، فوقفت بجانبها أسائلها عن خطبها ، فانشأت تقص عليّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كأني انتزعه من بين ماضغيها انتزاعاً وتقول :

زوجني ابي منذ سنوات من رجل مزواج مطلاق ، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عاماً واحداً ، ولو كان للفتاة رأي في نفسها من دون رأي اوليائها لعرفت كيف احسن الاختيار لنفسي ، بل لو لم يكن في

الأمر الا ان أتبتل كما تتبتل الراهبات ، او اتزوج زواجاً ينتهي بي الى هذا المصير ، لكان لي في الرهبانية رأي غير ما يراه النساء جميعاً ، ولكنني عجزت فاذعنت ، وحملت اليه فاستقبلني باحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه لديه ، واكرمهن عليه ، فكان يريبني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الاسد ، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبنى وانني اصبحت في المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لي الا طفلتي الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا املك ردّه ولا اعرف وجه الحيلة فيه ، واحتملت طفلتي الى بيت أبي فوجدته مريضاً مشرفاً ، فبكى رحمة بي ، واستغفرني من ذنبه اليّ فغفرته له ، وما هي الا ايام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعاً برزئي الذي نزل بي ، فعلمت ان الدهر قد سجل عليّ في جريدة الشقاء اياماً طوالاً لا اعلم متى يكون انقضاؤها ،ولا أدري ما الله صانع فيها ،فظللت استكتب الناس الكتب الى ذلك الرجل اساله القوت ، لأستعين به على تربية طفلته ، او التسريح ، عسى ان يبدلني الله خيراً منه زكاة واقرب رحماً ، فضن بالأولى واستعظم الاخرى ، فلم أرى لي سبيلاً غير سبيل العمل ، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل ، قائمة النهار، استقطر الرزق من سم الخياط ، فلا ابلغ منه الكفاف .. حتى نال مني الجهد .. فذهبت بمعضلة من الأدواء خرجت لها عن كل ما املك من حيلة وذخيرة .. وكسوة وآنية ، واصبحت لا املك درهماً ابتاع به قارورة الدواء ، ولا

اجد مزقة امسك بها قوائم هذا السرير المتداعي ، ولم يقنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر بجانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد كتبت الى ذلك الرجل منذ شهر اصف له حالتي وافضي اليه بذات نفسي واساله ان يمدّني وابنتي بقليل من القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتهـــا خطوب الايام وارزاؤها من اعظمنا وجلودنا ، ولبثت اترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإني لجالسة منذ ايام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه اليّ وسيئاته عندي ، فلا افرغ من عقد الا الى عقد ، ولا انتهي الا الى حيث أبتدىء، وقد اجلست طفلتي بين يدي اتطلع الى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلماتِ بحره الى نجمة القطب .. إذ هجم عليّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتي من بين يدي من حيث لا املك دفعاً لما نابني ، ولا اجد ما أذود به عن نفسي ، الا زفرات لا يسمعها سامع ، وعبرات لا يرحمها راحم ، فشعرت كأن سهم الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم ههنا وهنا .. قد اصاب في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي كما يجب ان تبيت امرأة بائسة معدمة قد فجعها الدهر بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالهـا ، فأصبحت لا تجد أمامها يداً تنبسط اليهـا ، ولا عيناً تبكي عليها ، وقد مر بي على ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقـأ لي دمع ولا يهدأ بي مضجع ، حتى اذا اختلست من يد الظـلام نعسة تراءت لي تلك الفتاة في نومها كانها صارخة باكية تهتف باسمي ، وكان أباهـا يوسعها ضرباً وتعذيباً ، وكانني أحاول استنقاذها ممـا هي فيه فلا أجد اليها سبيلا ،

وهانذا أشعر أن سحابة الموت تغشي على بصري . وأني مفارقة هذا العالم قبل أن ألقي على ابنتي نظرة اتزود بها منها قبل ان افارق هذه الدار .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى جرضت بريقها وتتابعت أنفاسها وشطر بصرها ، فجثوت عند سريرها أدعوا لها الله أن يعينها على أمرها ، ويمدها برحمته وإحسانه . فإني لكذلك ، وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله . إذ رأيت من خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحاً منتصباً عند باب الغرفة فتأملته فإذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة . فتقدمت نحوه فرأيته خاشعاً مستكيناً ينظر الى فتاته نظرات الوجد والرحمة ، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضو ، ولا ينبض بها عرق . فقلت : من أنت وماذا تريد ؟ قال : أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة ، قلت : لعلك جئت تستغفرها من ذنبك اليها في التفريق بينها وبين ابنتها ؟ قال : يا سيدي ما زالت الفتاة مذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءاً مراً ، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها ، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب ، ولا ينجع فيها دواء ، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها الى هذا الحد جئت بها الى امها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها ، قلت : ذلك موكول الى القضاء ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي امها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بامها ، والأم بفتاتها ، حتى فاضت نفساهما معاً ، كأنما

كانتا من الردى على ميعـاد ! !

***

الآن وقـد عدت من دفن تينك الشهيدتين ، وجلست لكتابة هذه السطور ، أشعر أن نفسي تسيل من بين جنبي حزناً عـلى تلك المرأة المسكينة ، لا بل حزناً عـلى جميع البـائسات من النساء اللواتي يقتلهن الرجـال كل يوم صبراً بسيف الطلاق الماضي ، من حيث لا يجدن راحماً يرحمهن ، ولا ثائراً يثأر لهن .

*

الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو :

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد نزل ستار الليل ، ودب الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب ، وأجرى البدر المنير ليقته الفضية البيضاء على صفحة النهر ، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار ، غبار النهار .

قومي يا بنية الى الصلاة . فقد مات النهار ، وماتت بموته الآلام والأحزان والاحقاد والاضغان ، والمظالم والمآثم ؛ ولم يبق من تلك الاعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه الى أبواب السماء .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد أوى الناس الى منازلهم ، والطيور الى وكناتها ، والوحوش الى أوجرتها ، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها ، ولم يبق من اصواتها الا انين الراحة المتمثل في جعجعة هذه المركبة المقبلة ، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها ، ودمدمة تلك

الرياح الضاربة في ذوائب الاشجار ، وأعالي الابراج .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الاطفال حول اسرتهم حفاة الاقدام عراة الرؤوس ، شواخص الابصار ، يطلبون الراحة من الله تعالى لآبائهم وامهاتهم وللناس اجمعين ، فترن اصواتهم ، في علياء السماء ، رنين نغمات الموسيقي في أجواز الفضاء فيرددها الملائكة طائرين بها الى عرش الرحمن ، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ؛ ذهبوا الى مضاجعهم وناموا نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول افواههم الباسمة ، كما تتطاير اسراب النحل حول احواض الازهار .

قومي يا بنية الى الصلاة .. واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الاولى من عالمها ، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرك ومن احشائها مهاداً قبل مهادك ، والتي قدم لها الدهر كاسي شقائه ونعيمه فشربت الاولى وآثرتك بالاخرى .

اطلبي لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب ، طاهرة النفس ، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها ، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذي يمازج ابتسامات النساء ، وتمد يدها الى اجتناء كل ثمرة الا ثمرة الشجرة المنهى عنها ، وكانت تقف امام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتمهل الذي يتهم سمعه وبصره، وتنظر اليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم ان السعادة الكاذبة أمر مذاقاً في الافواه من الشقاء الصادق، وأن الذين يضحكون سروراً بهذه الصور

الخالية إنما يبكون من حيث لا يشعرون ، وأن الجالسين حول مائدة الشهوات واللذائذ إنما يقامرون بانفسهم ولا بد أنهم خاسرون ، فتحول بصرها ، وتشيح بوجهها ، وتعود أدراجها ، بقلب غير مخدوع ، وفؤاد غير مصدوع .

اذكري يا بنية ان تطلبي الرحمة لأبيك كما تطلبينها لأمك ، فهو أحوج اليها منها ، ولأن الخطايا قد اثقلت ظهره فاصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه الى السماء ، وغلت يده ، فلا يستطيع أن يمدها الى الله بالدعاء .

إنني أشعر يا بنيتي حينما اسمع نشيد دعائك أنني أسمع صوت انقسام القيود عن قدمي ، وأن تلك السحابة السوداء التي تغشى على عيني تنقشع عنها قليلاً قليلاً وكان جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به في أعالي السماء .

اطلبي الرحمة للآباء العائدين الى منازلهم تحت جنح الظلام بدموع منهلة ، وقلوب واجمة ، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها الى مغربها فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم .

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة ابناتهن المرضى وقد رجفت قلوبهن ، وحارت ابصارهن مخافة أن يذقن مرارة الثكل والثكل كثير على قلوب الامهات .

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه ، والاحمق الذي يبتسم للمعان الحرير في صدره ، والذهب في اصابعه ، والملك الذي يشعل نار الجرب في امته ، ليطفىء نار غضبه ، والزوج الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته ، ويحاسب زوجه على ابتسامة تبسمها لرجل غيره، وسائر البائسين الذين لايشعرون ببؤسهم، والاشقياء الذين يظنون أنهم سعداء .

اطلبي الرحمة لاولئك الذين عمروا الارض وبنوا دورها ، وشادوا قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها ، وأغوارها ، وأنجادها ، فجازتهم سوءاً بما عملوا ، وابتلعتهم في أعماق جوفها ، فاصبحوا في تلك الحفرة المظلمة الموحشة التي تختلط فيها الرؤوس بالاقدام ، والنعال بالتيجان ، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث ، انطواء اللجة تحت اللجة في البحر المحيط،يتألمون وينطقون، ولايستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم ، او يلبي دعاءهم .

اطلبي الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص يستحيل في نظرهم الى روضة غناء تزهر فوق اجداثهم ، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها ، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم . وتطفىء جذوة الحزن الملتهبة في أحشائهم ، إنهم الى الرحمة محتاجون والى الله راغبون .

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار ، والعصاة والطائعين ، والملحدين

والمؤمنين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل سابحة في السماء ، ولا تيأسي أن يستجيب الله دعاءك ، فلكل بداية نهاية ، ولكل سائلة قرار .

كما ان النهر يصب في البحر ، والطائر يقع على الغصن ، والشمس تجري لمستقرها ، والنفس تصعد الى عالمها ، كذلك أبواب السماء ، مفتحة لخالص الدعاء .

★

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسداً أحداً عـلى نعمة ، فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر عـلى قصره ، لو أن للأوهام سلطاناً على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله .

أنا لا أغبط الغني الا في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيته يشبع الجائع ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من مـاله عـلى اليتيم الذي سلبه الدهر أبـاه ، والأرملة التي فجعها القدر في عـائلها ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ثم أرثي له بعد ذلك في جميـع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الانساني فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثي له وأبكي على

عقله إن مشى الخيلاء ، وطـاول بعنقه السماء ، وسلم بإيمـاء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر بعينه خزراً ليرى هـل سجـد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عـاش شحيحاً جعداً مقتراً على نفسه وعياله ، بغيضاً الى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه .

امـا الفقير فهو أسعد النـاس عيشاً ، وأروحهم بالاً ، إلا إذا كان جـاهلا مخدوعـاً يظن أن الغني أسعد منه حظـاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلج صدراً فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العـبرة فالعبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعـلم أن رُبَّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه اسطع ذبالا واكثر لألاء من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشية من الشعر او الوبر انعم ملمساً وألين مضجعـاً مـن وسائد الحرير ونضائد الديباج .

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس انهم يحفلون بالأغنياء لأنهم اغنياء ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة او يسيغ غصة، وليت شعري ان كان لا بد لهم من اجلال المال واعظامه حيث وجد، فلمَ يقبلون ايدي الصيارفة ، ولا ينهضون اجلالاً للكلاب المطوّقـة بالذهب ، وهم يعملون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟

لو عامل الفقراء بخلاء الاغنياء بما يجب ان يعاملوا به لو جدوا انفسهم في وحشة من انفسهم ، ولشعروا ان بدرات الذهب التي يكنزونها انما هي اساور ملتفة على اقدامهم ، واغلال آخذة بأعناقهم ، ولعلموا ان الشرف في كمال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في احمال المال .

فليعظم الناس الكرماء ،وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا ان الشرف شيء وراء الغنى والفقر ، وان السعادة امر وراء الكوخ والقصر .

★

على سرير الموت

مررت يوماً من الايام على باب منزل صغير في احد الازقة الضيقة ، فرأيت حوله مجمعاً حافلا تصطك فيه الاقدام بالاقدام ، وتمتزج فيه الانفاس بالانفاس ، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة وسمعت قائلا يقول: « قبح الله الانتحار » وآخر يقول : « احسبه شاباً غريباً لاني لم ار عيناً تدمع عليه » فعلمت ان هناك شاباً منتحراً ، وان هذا الحادث سبب هذا الاجتماع .

لم اقنع بالاجمال ، فاحببت معرفة التفصيل ، فحاولت الدخول الى المنزل فما استطعت الى ذلك سبيلا ، فتريثت حتى لمحت رجلا من رجال الشرطة اعرفه فدخلت معه وهنالك رايت على سرير الموت فتى في نحو العشرين من عمره ، رقيق الجسم اصفر اللون ، لم تستطع يد الموت ان تمحو كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة .

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ، واهتم الطبيب بجثته ليعرف علة موته ، اما انا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون افكر في مصيبته ، واندب شبابه وجماله ، فلمحت حول سريره اوراقاً منثورة فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما افعل ، علني اجد فيها عبرة من العبر .

وما هي الا ساعة ، حتى قرر الطبيب انه منتحر بشرب مادة الزرنيخ وقرر الضابط نقل جثته الى المستشفى ، فنقلت الجثة ، وانفض الجمع المزدحم ، ثم لم اعد اعلم بعد ذلك من امره شيئاً .

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق ، تناول كاس الحب بيده ، فارتشف منهـا الرشفة الاولى فوجدها حلوة المذاق ، فالصق الكاس بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعر بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الاخيرة ، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته .

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه ، ثم طويتها وألقيت بها بين اوراقي ، وظلت على ذلك اعواماً طوالاً .

وبينا أنا أقلب أوراقي ليلة أمس إذ عثرت بها في سفط صغير ، قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه ، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية ، فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي ، وتخيلت انها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر .

ثم عدت الى نفسي فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها ، فرأيت قلب العاشق مرسوماً فيها رسماً صحيحاً في حالي سعادته وشقائه ، وهانذا انشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل ، سبيل الحب القاتل :

ـ ١ ـ

رأيتها فاحببتها ، وما كنت أعرف الحب من قبلها .

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة ، لها من الشمس نورها وجمالها ، وليس لها منها حرارتها ولذعتها .

كنت اشعر قبل اليوم كان قلبي في صحراء هذه الحياة وحيد موحش لا يعرف القلوب ، او يعرفها ثم ينكرها ، فلما احببت رأيت بجانبه قلباً يؤنسه ويزيل وحشته ، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعاً ما خالطها حزن ولا مسها ألم .

كنت اسمع باسم السعادة ولا افهم معناها غير أني كنت أسمعهم اذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة ، والفضة والذهب ، والسلطة والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما احببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير سعادة الحب ، وأيقنت ان الناس جميعاً إنما يطلبون سعادة الاجسام لا سعادة النفوس ، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديباج ، وباطنه مسرح الدود ومرتع الهوام والحشرات .

ـ ٢ ـ

احببتها قبل أن اعرف عنها شأناً من الشؤون سوى أنها تحبني ، فكأنني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحتني قلبها ، وهو ثمن قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت احدث نفسي بها ، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأماني ، ولا سوانح الاحلام .

عشت دهراً بين أقوام لا يعنيهم امري ولا يهمهم شأني ، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا استطيع أن يحتمله بشر ، فسمعت من يسالني : كيف حالك ؟ ومن يقول لي : ما اشد جزعي لمصابك ؟ ومن يتباكى رحمة بي وإشفاقا عليّ ، ولكني لم ار بجانبي يوماً من الايام عيناً تدمع ، ولا قلباً يخفق !

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالاً متقن الصنع ، ومن يحب مالي كما يحبه في كيسه او خزانته ، ومن يعجب بحديثي اعجابه برواية بديعة ، ولكني لم ار في حياتي من يحبني !

اما اليوم فقد وجدت بجانبي القلب الذي يخفق لاجلي ، والعين التي تبكي في سبيلي ، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي ، فقليل لها مني أن امنحها حياتي فكيف أبخل عليها بقلبي !

ـ ٣ ـ

جلست اليها للمرة الاولى فحدثتني نفسي أن أمد يدي الى يدها فاضعها على صدري لاطفىء بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرت اليّ نظرة

العاتب ، وقالت : كن رجلا في حبك ، واترك الطفولة لغيرك .

ان كنت تحبني لنفسي فها أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني.. وان كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك .. وما أصغر نفسك !.

اتذرف دمعك ، وتسهر ليلك ، وتذيب حبة قلبك ، من اجل عظمة تلمسها او جلدة تلثمها ؟

أنت شريف في نفسك ، فكن شريفاً في حبك، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي وتمنيت ان لو عجل الى اجلي قبل ان يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني . ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي ، وما عدت من بعدها الى مثلها .

ـ ٤ ـ

الآن عرفت مبلغ عظمتها ، وفضل هدايتها ، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس، فهانذا أشعر كأن نفسي مرآة يغشاها الصدأ ، وكأن الحب صيقل يصقلها فيجلو صفاتها شيئاً فشيئاً .

كنت احمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقداً ، فأصبحت لا أشعر بما كنت اشعر به من قبل ، لأن الحب ملك على قلبي ، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه .

كنت ضيق الصدر إن مسني ألم .. سريع الغضب إن فاتني مارب .. فاصبحت فسيح رقعة الحلم ، لا يستفزني غضب ، ولا يحرجني محرج لأني قنعت بسعادة الحب ، فلم احفل بعدها بشيء سواها .

كنت شديد القسوة ، متحجر القلب ، لا اعطف على بائس ، ولا احنو على ضعيف ، فاصبحت اشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ولا تصيبني ، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون ، لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نوراً .. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب .

وجملة القول انني كنت وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضته وتدليله ، فصرت بين يدي الحب الشريف إنساناً شريفاً ، وملكاً كريماً .

ـ ٥ ـ

خرجت بها في الليل الى ضفة النهر ، وكان الماء رائقاً ، والسماء صافية ، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلط علينا الامر حتى ما نفرّق بين الاصل والمرآة ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء ، فمشينا طويلاً لا ينبس احدنا بكلمة ، وكان سكون الليل قد سرى الى أفئدتنا وملا ما بين جوانحنا ، فامسكنا عن الحديث هيبة واجلالاً .

وكنت اشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي ، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل اليّ أني لو شئت ان اطير لطرت بغير جناح، وأن في استطاعتي

أن اخترق بنظري حجب السماء وأنفذ الى الملا الاعلى فارى هنالك ما هو محجوب عن نظر النـاس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فـلا يهتدي الى مغربه ، وأن يختبىء الليل في بردته فـلا يعثر به فجره ، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام .

فالتفت اليها وسالتها : هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها ؟

قالت : لا ، لاني أعرف من شؤون الايام وأحوالهـا غير مـا تعرف ولأني لا أنظر الى الدنيا بالعين التي تنظر بها اليها !

أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة .

إنك سعيد لانك تظن أن سعادتك دائمـة لا انقطاع لهـا ، وأنا شقية لاني اتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها .

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء ، وأن تحول بـين الارض ودورتها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك ، والمتحرك ان يسكن ، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها .

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلا ، فرأيت مدامعها تنحدر عـلى خديهـا بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون ، فبكيت لبكائها ، وقلت لِمَ تبكين ؟ قالت : خوف الفراق ، قلت : فراق الحياة ، أو فراق الموت ؟ قالت : أمـا فراق الحياة فإنني لا اخـافه ، لانه لا توجد قوة في العـالم تستطيع ان تحول بيني وبينك ، انمـا اخـاف فراق الموت ، لانه الفراق الذي لا حيلة لي فيه .. ولا منتدح عنه ، قلت : هل لك ان نتعاهد

على أن نعيش معاً ونموت معاً، قالت : ذلك ما يهوّن عليّ ألمي، فتعاهدنا، ثم رجعنا أدراجنا ، والليل يشمر أذياله للفرار من النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

ـ ٦ ـ

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الانسان؟

ألا يستطيع ان يستقيه كاساً واحدة لا يخالطها كدر ، ولا يمازجها شقاء ؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتاً فلا يذيقه من كاسها قطرة واحدة ما دام يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً ؟

ان الانسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المتقطعة .

يقولون : ان الامل حياة الانسان ، وما قتل الانسان ومزق شمل حياته الا الامل .

ليتني ما سعدت ، لانني ما شقيت الا بسعادتي ، وليتني ما أملت ، لان اليأس القاتل ما جاءني الا من طريق الامل الباطل .

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي ، وأشعة آمالي ، وينبوع سعادتي وهناءتي .

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء ، فمات بموتها كل حي في هذا الوجود .

أرى الارض غير الارض، والسماء غير السماء ، وأرى الطيور صامتة لا تغرد ، والغصون ساكنة لا تتحرك ، وأرى النجوم آفلة ، والازهار ذابلة ، والطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلالا جمالها ، وأرى الدنيا كانما عادت الى عهدها الاول لا يسكنها انسان ولا يخطر بها حيوان، وكانني فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته .

أيها الدهر الغادر : ان غلبتني عليها فإنك لن تستطيع ان تغلبني عن نفسي ، لك أن تخرج من الدنيا من تشاء ، ولكن ليس لك ان ترد اليها من تخرج منها .

ويا ايتها النفس الهائمة في سمائها ، لا تجزعي ولا تعجلي ، فوالله لأفين بعهدك ولأذهبن عما قليل وحشتك ليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا ، فما تعارفنا في العالم الاول الا بأرواحنا فلنكن كذلك في العالم الثاني .

غدر المرأة

يقصون في بعض الاساطير القديمة أن حكيماً من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه قلبه وعقله .. وأحاط به احاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه الى نفسه الخوف من أن تدور الايام دورتها ، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطاً باعتلاقه الى صائد آخر يعتلقه من بعده ، وكان كلما أبث زوجته سرّه وشكا اليها ما يساور قلبه من ذلك الهم ، حنت عليه ، وعللته بمعسول الاماني وأقسمت له بكل محرجة من الايمان انها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً .. فكان يسكن الى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب تحت الماء البارد .. ثم لا يلبث أن يعود الى هواجسه ووساوسه ، حتى مر في بعض روحاته الى منزله في احدى الليالي المقمرة بمقبرة المدينة.. فبدا له ان يدخلها ليروّح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى ، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقاً

الإصغاء الى حديث المردة والجان، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة امام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الابيض مطرز بأسلاك من الذهب ، تحركها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمرآه .. ثم أنست به حينما عرفته .. فسألها ما شأنها .. وما مقامها هنا ؟ ومن هذا الدفين ؟ وما هذا الذي تفعل ؟ فابت أن تجيبه عما سال حتى تفرغ من شانها ، فجلس اليها وتناول المروحة منها ، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها ، وأنه مات منذ ثلاثة ايام ، وأنها جالسة من الصباح بمجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد اقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره ، وان هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فابى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن اليها ان تحنث بيمين اقسمتها له .. او تخيس بما عاهدته عليه ، ثم قالت له : هل لك يا سيدي ان تقبل هذه المروحة هدية مني اليك .. وجزاء لك على حسن صنيعك معي ؟ فتقبلها منها شاكراً بعد ان هنأها بزواجها الجديد ! ثم انصرف وليس وراء ما بـه من الهم غاية ، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدّث نفسه ويقول : انه احبها واحسن اليها ، فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه .. ولا لتذكر عهده ، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي اقسمتها له ؛ فكأنها وهي جالسة امام زوجها الاول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل امامها جبينها ، وتصفف طرتها وتلبس حليتها،

للزفاف الى غيره .

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ، ورأى زوجه ماثلة امامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن فقال لها : ان امرأة خائنة غادرة اهدت الي هذه المروحة فقبلتها منها اليك .. لانها اداة من ادوات الغدر والخيانة ، وانت اولى بها مني . ثم انشا يقص عليها ، قصة المرأة حتى اتى عليها ، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها اربا اربا.. وانشات تسب تلك المرأة وتشتمها، وتنعي عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها ، ثم قالت : ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك ما دمت حياً ؟ وهل تحسب ان امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة ؟ فقال لها : انك اقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي ، فهل تفين بعهدك ؟ قالت : نعم ، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر ان انا فعلت ، فاطمان لقسمها وعاد الى هدوئه وسكونه .

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً ، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى اشرف على الموت ، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه ، فامرت ان يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله ان تفعل ، وانها لكذلك اذ دخلت عليها الخادم واخبرتها ان فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعوده حينما سمع بخبر مرضه، فلما سمع حديث موته ذعر

ذعراً شديداً وخرّ في مكانه صعقاً وانه لا يزال صريعاً عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره ، فامرتها ان تذهب بـه الى غرفة الأضياف وأن تتولى شانه حتى يستفيق ، ثم عادت الى بكائها ونحيبها ، فلما مر الهزيـع الثاني من الليل دخلت عليها الخـادم مرة أخرى مذعورة مرتـاعة وهي تقول : رحمتك وإحسانك يا سيدتي فإن ضيفنا يعالـج من آلامـه وأوجاعه عذاباً أليماً وقد حرت في امره ، ومـا احسبه ان نحن أغفلنـا امره الا هـالكاً ، فاهمها الامر وقامت تتحامل عـلى نفسها حتي وصلت الى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت في وجهه ، فرأت ابدع سطر خطته يـد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، فخيل اليها ان المصبـاح الذي امـامها قبس من ذلك النور المتلألىء في ذلك الوجه المنير، وان انينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنـة ترن في جوف الليل البهيم ، فأنساهـا الحزن عـلى المريض المشرف الحزن عـلى الفقيد الهالك ، وعنـاها امره ، فلم تترك وسيلة من وسائـل العلاج الا توسلت بها اليه حتى استفاق ونظر الى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء ، ثم انشأ يقص عليها تاريخ حياته ، فعرفت من امره كل ما كان يهمها ان تعرفه ، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب في قومه لا أب له ، ولا أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنـا أطرقت برأسها ساعة طويلة عـالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها وامسكت بيده، وقالت له: انك قد ثكلت استاذك وأنا ثكلت زوجي فاصبح همنا واحداً، فهل لك

ان تكون عوناً لي وأن اكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً ، فالم بخبيئة نفسها فابتسم ابتسامة الحزن والمضض ، وقال لها : من لي يا سيدتي ان اظفر بهذه الأمنية العظمى ، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليّ عيشي ، وافسد عليّ شأن حياتي، وقد انذرني الطبيب باقتراب ساعة اجلي ان لم تدركني رحمةالله، فاطلبي سعادتك عند غيري، فانت من بنات الحياة ، وانا من ابناءالموت. فقالتله : انك ستعيش، وساعالجك ولو كان دواؤك بين سحري، ونحري قال : لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فأنا عالم بدوائي ، وعالم بأني لاأجد السبيل اليه ، قالت : وما دواؤك . قال : حدثني طبيبي ان شفائي في أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء ، فارتعدت وشحبلونها وأطرقت إطراقة طويلة لا يعلم الا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيها .. ثم رفعت رأسها وقالت : كن مطمئناً فدواؤك لا يعجزني ، ثمأمرتهان يعود الىراحتهوسكونه،وخرجتمن الغرفة متسللة حتىوصلت الى غرفة سلاح زوجها فأخذت منها فأساً قاطعة ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت الى غرفة الميت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريراً مزعجاً ، فجمدت في مكانها رعباً وخوفاً ، ثم دارت بعينيها حولها فلم تر شيئاً فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده ، ولم تكد تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها ، فسقطت الفأس من يدها ، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف

والخادم واقفين يتضاحكان ، ففهمت كل شيء .

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة اجمل من هذه الفاس في يدك ؟ أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه افضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ؟ فصارت تنظر اليه نظراً غريباً ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها .

★

الضاد [1]

كان العرب الأولون أحراراً في لغتهم ، يضعون لكل ما يخطر ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط ، ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسهمنا في الضاد سهمهم ، وحقنا فيها حقهم ، فلمَ يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا اكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا اوفر عدداً من مرافقهم ، واوسع فصولاً وأنواعاً ؟

اين باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يعمرها الا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل ومرابض الشاء ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات ، وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، واكثرها مستحدث متطرف لم تتداوله السنون والايام ، ولم تعصف بـه عواصف

(١) الضاد : عنوان اللغة العربية .

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، ان تضيق حاجاتهم عن لغتهم، فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد ، واربعمائة للداهية ، وثلثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقة ؟ وتضيق عن حاجاتنا ، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الادوات التي يضمها المعمل إسماً عربياً واحداً ؟ اللهم الا القليل التافه من امثال : المسبر والمبرد ، والمنشار والمسمار ؟

ايكون لسفينة البر ــ وهي لا تحمل الا الرجل ، او الرجل ورديفه ــ مائتا اسم ومائتان من الأسماء لأعضائها واوصالها ، ورحلها وكورها .. ولا يكون لسفينة البحر ــ وهي المدينة المتنقلة في الدأماء ــ القليل من ذلك الحظ الكثير ؟

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف ، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم ، ويتناشدون ويتساجلون ويتحاورون ، ويتطارحون ، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم ، ويحكمون لمبرّزهم على مقصرهم ، حكماً لا يرد ولا يعارض ، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل في تلك البقاع وبعد ما بين قاصيها ودانيها فكان مطمح انظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شتاتهم والرجوع بها الى لغة قريش التي هي افصح اللغات وأقربها ماخذاً وأسهلها مساغاً وأحسنها بياناً .

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الاولى على ما نعجز عنه نحن ؟ ونحن الى مؤتمرهم أحوج منهم اليه ، لان تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن ان يبلغ مبلغه في عصرنا بين لغة الادباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين ، ولغة المترجمين ، ولغات العامة التي لا حصر لها .

ان كان الجاهليون في حاجة الى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة ، فنحن في حاجة الى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به ، ومجتمع دائم لوضع اسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب او النحت او الاشتقاق ، وآخر للإشراف على الاساليب العربية المستعملة ، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر ، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والاذهان ، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرّز منهم والمقصر ، ان خيراً فخير وان شراً فشر .

سياحة في كتاب

اعجب ما اعجب له من أمر نفسي أني احب الجمال خيالا ، اكثر مما احبه حقيقة ، فيعجبني وصف الروض اكثر مما يعجبني مرآه ، ولا اطرب لمنظر الفتيات الجميلات ، طربي لمنظر القصائد الغزليات ، واحب ان اقرأ وصف المدن الجميلة ، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهولها وبطاحها وانهارها وجداولها .. وميادينها وتماثيلها ، وانديتها ومجامعها ولا يهمني ان اراها ، كأنني اريد ان استديم لنفسي تلك اللذة الخياليةواخاف ان تحول الحقيقة بيني وبينها واحسب اني لو كنت عاشقاً لاصبحت اضحوكة العاشقين .. واعجوبة الهازئين والساخرين ، ولكان مثلي مثل ذلك الرجل الذي احب امرأة فاستزارها فمنعته حيناً ثم زارته ، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه وسألته : ما باله ؟ فقال لها : اريد ان انام علني آرى طيفك في المنام !

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس اليه يستقبلونه استقبال الجيش

المدجج للملك المتوّج ، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق ، بعد طول الفراق ، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة ، وقد ذهبوا في شانه المذاهب كلها : فمن صاعد الى رؤوس الجبال، وسارب في سهل الرمال ، وواقف موقف الإعجاب والإجلال..بين جمال الأنوار، وانوار الجمال ، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات وحسن الفتيات .. لا يعلم اتشبه القامات الغصون ، ام الغصون القامات

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب،وما كان لي ان اذهب مذهبهم لأني لا اعجب بما يعجبون . ولا اهتف لما يهتفون ، فقبعت في كسر بيتي افتش عن ضالة خيال اجد فيها من السعادة والهناءة ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء ، فلمحت بجانبي كتاب بلاغة العرب ، وهو الكتاب الذي ترجمه الاستاذ « كامل حجاج » ، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها .. فقلت : حسبي من الرياض هذه الزهرات ، ومن النسائم تلك النفحات .

خطوت الخطوة الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في باريس ، ورأيت الناس وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رقعة الارض، ورأيتهم يمدّون اعناقهم الى تلك النافذة وينظرون اليها نظرة الفلكي الى كوكبه اللامع ، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب ، وانهم لكذلك إذ اطل عليهم نابليون الاول من نافذة قصره كما يطل البدر من

وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس ، وملك روما كما يسميه ابوه ، فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملأ مسمع الخافقين ، وابتسموا لمرآه ابتساماً اضاء ما بين المشرقين والمغربين ، وهنا سمعت الشاعر الكبير[1] يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلاً له :

رويداً ايها الرجل المغرور بالتاج والسرير ، والملك الكبير ..والجيش الخاضع ، والشعب الطائع ، انت تقدر لطفلك في مستقبل الايام ملكاً كملكك ، ومجداً كمجدك ، وعزاً وسلطاناً كعزك وسلطانك ، غير عالم بما تكتمه ضمائر الايام من الحوادث العظام ، والخطوب الجسام ، فهل اخذت على الايام عهداً لنفسك فتأخذه لولدك ؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك ؟

ايها الملك المغرور : انك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير .. الى الكوخ الحقير ،وسيحيط بك الجند في منفاك احاطة الإخضاع والإذلال .. لا احاطة الإعظام والاجلال ، وسيموت ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له بل محروماً بضعة اشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت .

ايها الملك المغرور : لا تقل ان المستقبل لي فإنما المستقبل لله .

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلأت نفسي عبرة بمصائر

(١) فيكتور هيجو .

الايام ، ومصارع الكرام ، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض ، وابرام ونقض ، ومشيت حتى وصلت الى برية جرداء ،ودوية قفراء،لا يطرقها انسان ، ولا يدب بها حيوان ، فلمحت على البعد رجل يمشي على بعض الشواطىء فوق أرض رملية يخدع ظاهرها ، ويقتل باطنها ، ويدب ماؤها في احشائها ، دبيب الصهباء في الأعضاء ، ويكمن في صدورها كمون الاسرار في صدور الاقدار .

فما هي الا بضع خطوات حتى وقع نظري على رجل مسكين غاصت قدماه في الرمل فحاول نزعها فغاص الى ركبتيه ، فتحلحل ، فغاص الى صدره ، وما زال يساعد على نفسه بنفسه ويهبط شبراً كلما حاول ان يرتفع فتراً ، حتى لم يبق منه على ظهر الارض غير فم يصرخ بالنداء ، وعين تذرف بالبكاء ، ثم ما لبث أن غطاهما الرمل فرفع يديه بالدعاء ، فلم يجد من رحمة في الارض ولا في السماء .

وقفت أمام هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة أرسلت فيها بضع قطرات من الدمع على هذا البائس المسكين ، وقلت في نفسي : إنني عجزت عن اسعاده في نكبته ومعونته في شدته، فلا أقل من أسعده بقليل من الأسف على مصيره المحزن الأليم .

ثم فارقته ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامرتين فرأيته جالساً في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقعى على عتبة بابه ، فسمعته يخاطبه ويقول له :

أيها الكلب الأمين ، قـــد هجرني الناس وبقيت بجانبي ، وخانني الاصدقاء ووفيت لي ، فأنت في نظري أوفى الأوفياء، وأصدق الأصدقاء، ولولا أنك كريم الاخلاق متواضع ، تابى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السيادة عليك ، وتحفظ له فضل مـا اسدى من النعمة اليك ، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة البـاب ، ولأجلستك بجانبي عـلى فراشي ، لأنك صديقي ومؤنسي ، ولأنك أحق بالإكرام مـن كثير مـن اولئك الذين يفترشون الطنافس ، ويتوسدون الوسائد ، وحسبي منك هذه النظرات التي تلقيها عليّ بهدوء وسكون ، كأنك تقرأ فيها صفحة وجهي ، مـا غاب عنك من دخيلة أمري ، وكأنني أسمعك تقول : ما باله ، وما شأنه؟ وما الذي يبكيه ؟ ليتني أعرف دخيلة أمره ، وليتني أستطيع أن اكون فداءه ! فحسبي منك ذلك ، وهل يطمع الانسان ان يجد من اوفى اصدقائه اكثر مما اجده في لفتاتك ، وألمه في نظراتك ؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجـاء الرقيق ، فتسللت وذهبت لشاني وأنا أقول في نفسي: إذا كان لامرتين ــ وهو أشعر شاعر في فرنسا، وفرنسا مهبط وحي الشعر ــ لم يجد له صديقاً وفياً غير كلبه المقعى عـلى عتبة غرفته ، فاين يذهب سائر الشعراء ، ومتى يجدون الاصدقاء ؟

تركت منزل لامرتين وذهبت الى منزل « دى موسيه » فرأيته معتزلاً في غرفـة من غرف منزله يبكي بكاء مراً .. ويزفر زفيراً شديداً ، تكاد تتقطع له احشاؤه . فقلت : ليت شعري مـا أبكاه ؟ ومـا الذي دهـاه ؟ فسمعته يترنم بقصيدة مـن قصائده يشرح فيها تاريـخ وجـده وهواه ،

شرحاً مؤثراً مؤلماً حتى كان يخيل اليّ ان كل بيت من ابياتها جذوة نار ملتهبة . وسمعته يشكو من خيانة حبيبته « جورج صاند » ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهدها وزمامها فلا يجد الى ذلك سبيلا .. وما هو الا ان اتم قصيدته حتى تغير لونه وشخص بصره .. واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة .. بين ايدي الرياح العاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم ، ويخلط في كلامه خلطاً شديداً ، فعلمت ان الرجل قد جن ، وان العالم الشعري قد فجع الى الابد . فمضيت لسبيلي ، وأنا أسأل الله العافية . وأقول : ان جمال المرأة احقر من ان يقتل اوفر عقل ، وأعجز ان يطفىء اكبر قريحة .

ولكنها الاقدار تجري بحكمها   علينا وأمر الغيب سر محجب

تركت منزل دى موسيه ، ومشيت في شارع من شوارع باريس ، فرأيت شيخاً رث الثياب ، زري الهيئة ، يمشي مشية هادئة مطمئنة ، ويجر في رجليه نعالاً بالية ، قد اطلت اصابعه من خروقها كما تطل الحيات من احجارها فاتبعته نظري ، فرأيته لا يرفع طرفه سكوناً واطراقاً ، ولا يكاد يحرك عضواً من اعضائه رزانة ووقاراً ، فقلت في نفسي : ان لهذا الرجل شاناً ، فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت اسكاف ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه ، فجلس على الارض ينتظره حتى يعود فيخصف له نعله ، فسالت بعض المارة عنه فقال : هذا « كورنى » شاعر فرنسا ، فاخذتني الدهشة وملكني العجب ، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي ، وقلت في نفسي : ويح لكم معشر الناس.

أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر ، على رجل يقلد اعناقكم الدر والجوهر. اعجزتم على أن تجمعوا امركم على ان تمسحوا هذه الغضون عن تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم ، ويخفف محنتكم ، ثم رجعت ادراجي وأنا اقول : كان قضاء حتماً على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون .

ان في جلسة « لامارتين » منفرداً في منزله لا مؤنس له غير كلبه ، وفي عزلة « دى موسيه » في غرفته بين دموعه وأحزانه ، وفي جلسة « كورني » امام حانوت الاسكاف ينتظر ترقيع نعله ، لآية للمتفكرين ، وعبرة للمعتبرين .

* * *

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب اشكر للكاتب ما كتب ، وللمترجم ما ترجم، وأقول : من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب ؟

دمعة على الأدب

مات بالأمس امام الشعر البارودي ، وامام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، وسكبنا عليهما من الدموع مـا سكبنا ، ثم كفكفنا من تلك الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : ان في الباقي عزاء عن الفاني ، وان الأبناء خلفاً من الآباء ، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم في مكمنه هامد لم يبعث من مرقده بعد مـا قبرناه ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه ، فتساءلنا : أين الباقي الذين يزعمون ؟ والخلف الذي يذكرون ؟

أين فطاحل اللغة الغربية ، لا السياسية ، وأرباب الاقلام العربية ، لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير واليازجي ، لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما ، فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير ؟

ما مـات منهم أحد ، وانما كانت حياة ذينك الرجلين ، حياة

الصناعيين ، وكان لوجودها سر من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتها من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء ، تشتعل المصابيح بتيارها ، وتضيء بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها وانقضى اجلها ، عم الظلام واشتد الحلك ، والمصابيح ـ كما هي ـ جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى .

اما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجو ، وهام في واد غير. ذلك الوادي وما زالت تعبث به الانواء حتى اغرقته في شبر من الماء ، وأما حافظ فقد انقبضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء[1] ، أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام الى العام ، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان ؟ وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التاليف ، هذا بصهاريجه[2] وذاك بفتراته[3] ثم لحقا بالسابقين ، ومضيا على آثر الماضين :

أين سكانك لا أين لهم　　احجازاً اوطنوها أم شآما

اين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها ، ونهصر اغصانها ، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها ؟ وأين البلابل التي كانت تنتقل بين

---

(١) هو كتاب لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسوي ترجمه حافظ ابراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه

(٢) هو كتاب « صهاريج اللؤلؤ » للسيد البكري .

(٣) هو كتاب « فترة من الزمن » المسمى « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحي .

اشجارها فتطرب بالأغاريد ، وتستهوى بالاناشيد .

فاسألنها واجعل بكاك جواباً   تجـد الدمـع سائلاً ومجيباً

انا لا اعجب لشيء عجبي لهؤلاء الادباء : يحزنون فلا يبكون ، ويطربون فلا يضحكون ، ويألمون بلا أنين ، ويعشقون بغير حنين .

ايطرب البلبل فيغرد ، ويشجي الحمام فينوح ، ويطرب الشاعر ، ويشجي الكاتب ، فلا ينطق لسانهما ولا ويهتز قلمهما ؟

لما اسنّ عمر بن ابي ربيعة ورأى ان شعر الغزل والتصابي غير لائق بشبيبه ووقاره ، عزم على هجره فما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وغلب على امره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه ، فاحتال لذلك بأن حلف الا يقول بيتاً من الشعر الا اعتق رقبة ، فشكا اليه رجل حباً برّح به ، فحن واهتاج ، ونظم ابياتاً في شأن الرجـل ووجـده ، ثم اعتق عن كل بيت رقبة .

فهـل نزر أدباؤنا ما نذر عمر بن ابي ربيعة ، وهم في شرخ الشباب وابان الفتوة ؟ ان كانوا فعلوا ذلك فاسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج اشجانهم ، فتحنث ايمانهم ، والامة كفيلة لهم بوفاء النذور ، وكفارة الايمان :

وذو الشوق القديم وان تعزّى   مشوق حين يلقي العاشقينا

القِسْمُ الثَالِث

البيان

أعرف أديباً من أفضل الأدباء في هذا البلد المضطلعين باللغة وفنونها. الحافظين للكثير المتع من منظومها ومنثورها ، الا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة ، ولا ينشر في الناس كتاباً ، الا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعملاً يأخذ على القارىء عقله وفهمه ، فلا يدري أي سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها ، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه ، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة،فلا سبيل له الى التخلص منها ، والنزوع عنها ، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله اليه في بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العامية ، فاعجبت بأسلوبه في كتابه هذا اعجاباً كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته ، قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه ، كأفضل ما يتقدر متقدر على ذلك ، الا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفاً ، ويأخذ نفسه أخذاً ، ولو أنه أرسل

نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها هذا لكان من أعظم الكتاب شأناً ، وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قدر له أن يقضي بنفسه على نفسه .

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها ، وما أحسبها أفلتت من يده ، ولا جاءت في هذه الصورة من الجودة والحسن الا لأنه أغفل العناية بها ، والتدقيق في وضعها فارسلها عفو الخاطر ارسال من يعلم أنه انما يسأل عن الاجادة في الشعر ، لا عن البراعة في النثر ، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب ، أمام قوة الشاعر غير عالم أنه كاتب من افصح الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما احسن الا حيث ظن الاساءة ، ولا اساء الا حيث ظن الاحسان .

ووالله لا ادري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الاغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون انهم انما يكتبون للناس لا لأنفسهم ؛ وأن الناس ، خصوصاً في هذا العصر عصر المدنية والعمل ، والحركة والنشاط أضن بانفسهم وباوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه ، او سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه ، ولم لا يؤثر أحدهم أن كان يكتب للمنفعة العامة ان يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله ، او للشهرة والذكر ان ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها علمائها وجهلائها ،

وهل الشعر والكتابة الا احاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتاب الناس ليفضوا اليهم بخواطر افكارهم، وسوانح آرائهم، وخلجات نفوسهم، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما يقول، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغياً، ومقبلاً محتفلاً، وأي فرق بين أن يجلس الرجل الى جمع من اصدقائه ليقص عليهم بعض القصص، او يفضي اليهم ببعض الآراء فيتلطف في تفهيمهم، وإيصال معانيه الى نفوسهم. ويفتن في اجتذاب ميولهم وعواطفهم. وبين أن يجلس الى مكتبه ليبعث اليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم، ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى؟

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة في اللغة واوسع اطلاعاً على مفرداتها، وتراكيبها، وأقدر على استظهار نوادرها وشواذها ومترادفها ومتواردها، ولا متحفاً لصور الاساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزناً لأحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره، إنما يعني بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، اما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً، فإن عجز الشاعر او الكاتب - مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه - عن ان يصل بسامعه الى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء الفضلاء، أو أذكى الأذكياء، ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني ، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر .

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون ، ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبئاً ثقيلا على كواهل الناس وعواتقهم فمله الكثير منهم وبرموا به ، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس ان يجمعوا بين الأخذ باسباب دينهم ، والأخذ باسباب دنياهم .

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها ، ويابون على الناس الا ان يجمدوا معهم حيث جمدوا وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة العربية والمعنى المبتكر ، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب ، وكل خيال لم يمر بأذهانهم ، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعو طاعتهم ، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلائقهم فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها ، لولا ان تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا

كنهـه ، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطـا معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت ، او غلبت عليها العامية فاستحالت .

★

قال لي أحد الأدباء المتكلفين في معرض اعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هـذا المنهج الخشن الوعر الذي ينهجه في أسلوبه : انت تعـلم ان الناس في هـذا البلد قـد ألفوا من طريق خطأ الحس ان ينظروا بعـين الإجلال والاعظام الى كل أسلوب شعري او كتابي معقد غامض ، وان تفهت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار الى الأساليب السهلة البسيطة وان اشتملت على أشرف الاغراض وأبرع المعـاني ، أي أنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والفسولة ، ولا يرون الركاكـة والمعاظلة حتى يظنوا الحـذق والبراعـة وسمو المعـاني وشرفهـا ، وهي حـالة طبيعيـة في جميـع النفوس البشريـة ان تزدري المبذول لها ، وتستسني قيمة الممنوع عنها ، وليس هـذا شأنهم مـع أدباء العصر فحسب ، بـل مـع أدباء كل عصر وجيل ، فهم يسمون البحتري وأبا نواس والشريف الرضي وامثـالهم : شعراء الالفـاظ ، ويسمون المتنبي والمعري وابن الرومي واشباههم : شعراء المعاني ، ليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعـاني وشرفها الا ان الأولـين أمطروها عـلى النـاس وبعثروهـا تحت اقـدامهم فهـانت عليهم ، وضن بهـا الآخرون

ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم ، وحلت في صدورهم . قال : ولقد عرضت السلعتين في سوق الادب فكتبت أتفه المعاني وأدونها في اخشن الاساليب واوعرها فنفقت في تلك السوق نفاقاً عظيماً ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها ، وكتب أشرف المعاني وابرعها في ألطف الاساليب واعذبها فما أبه لها الا القليل من الناس ، وربما لم يابه لها احد ، فلم أر بداً من ان انتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي اعلم أنها اجدر بي وأجدى علي.

فعجبت لرأيه عجباً شديداً وقلت له : أما هذا الذي تذكره فاني لا اعرفه الا لفئة قليلة من القراء فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابىء ، وليس هذا رأي جمهور المتادبين ، بل ولا رأى العامة من ابناء هذه اللغة ، وهب ان الأمر كما تقول ، فالادب ليس سلعة من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى ان يحتال لنفاقها في سوقها ، إنما الادب فن شريف يجب ان يخلص له المتادبون — بأداء حقه والقيام على خدمته — إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والادباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم فلا يجمل بهم ان ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالتهم وفساد تصوراتهم ، ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له ، فحمدت الله على ذلك .

*

ليس من الرأي ولا من المعقول ان ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل — في هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف اكثر من العامية الا قليلا — باللغة التي كان ينظم

بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والحطفى ورؤبة والعجاج ، ويكتب بها الحجاج وزياد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربية الأولى ، فليس عصرنا كعصرهم ، ولا جمهورنا كجمهورهم واحسب لو أنهم نشروا اليوم من اجداثهم لما كان لهم بد من ان ينزلوا الى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم او يعودوا الى مراقدهم من حيث جاءوا .

ليست الاساليب اللغوية ديناً يجب ان تتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة ، إنما هي أداة للفهم وطريق اليه ، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً .

يجب ان نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها ، ثم نكون احراراً بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الاسلوب الذي نريد .

يجب ان يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لا يكون للمادة اللفظية شان عنده اكثر مما يكون للمرآة من الشأن في تمثيل الصور والخائل .

ويجب ان يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل ان يتمثل اللفظ ، حتى اذا حسن الاول أفاض على الثاني جماله ورونقه ، فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ الجميل الا المعنى الجميل .

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع اليه من يريد معرفتها ، ومقياس

تقاس عليه ، لوجب ان يكون قانونها العقلي ان يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده فان عجز عن ذلك فلا أقل من ان يصور له المعنى القائم في نفسه ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما صغر قدرها ، واتضع شأنها أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم .

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة ، ولا يقضي حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية اليه ، فالأمة قد ارتقت واستنارت ، واصبحت طماحة متطلعة لا يقنعها من قلم الشاعر ان يرن على صفحة القرطاس دون ان يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب ان يسود بياض الصحف دون ان ينير لها أذهانها ، ويغذي عقولها ومداركها ، فان كان لا بد باكياً فليبك على نفسه ولينع عجزه وقصوره وليعلم أنه لو استطاع ان يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الامة ان تفهم عنه ما يقول .

إنني لا ألوم على الركاكة والتفاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت اقلامهم ، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغة الاعجمية على أمرهم فاصبحوا اذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها ميز واحد من ميزات العربية ، ولا خاصة من خواصها ، واذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك فهؤلاء جميعاً لا حول

لنا فيهم ولا حيلة ؛ لأنهم لا يستطيعون ان يكونوا غير ذلك ؛ إنما ألوم المتادبين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلعوا على أ.بها ، وفهموا سر فصاحتها ، وأنقم منهم عدولهم عن الحجة في البيان الى الجمجمة والغمغمة فيه ؛ وأنعي عليهم نقص القادرين على التمام .

*

الناشىء الصغير [1]

لي ولد وحيد في السابعة من عمره ،لا استطيع على حبي إياه وافتتاني بـه ان اتركه من بعدي غنياً لاني فقيـر ، ومـا أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس لاني أرجو بفضل الله وعونه ، ورحمته وإحسانه ، ان اترك له ثروة من العقـل والادب ، هي عنـدي خـير الف مرة من ثروة الفضـة والذهب .

احب ان ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته ، لا عـلى أي شيء آخر ، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه . ومن نشأ هذا المنشأ والف ألا ياكل الا من الخـبز الذي يصنعه بيـده ، نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يتطلع الى مـا في يـد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والاحسان .

(١) كتبت هذه الرسالة جواباً عن سؤال هذا نصه « أيها أصلح للانسان : ان يولد فقيراً او غنياً » ؟ .

احب ان ينشأ رجلاً ، ولا سبيل الى الرجولة الا من ناحية العمل ، وقلما يعمل العامل الا بسائق من الضرورة ، ودافع من الحاجة ، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرها وفضولاً ، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته .

احب ان يعيش فرداً من افراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة ، يصارع العيش ويغالبه ، ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروى ، ويجرب ويختبر،ويقارن الامور بأشباهها ونظائرها ويستنتج نتائج الاشياء من مقدمتها ، ويعثر مرة وينهض أخرى ، ويخطىء حيناً ويصيب احياناً ؛ فمن لا يخطىء لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم له شؤون حياته .

ذلك خير له من ان يجلس في شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين ، والمجاهدين ، يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في احد ملاعب التمثيل .

احب ان يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء وشقاء الاشقياء ، ويسمع بأذنيه آنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ليشكر الله على نعمته ان كان خيراً منهم ويشاركهم في همومهم وآلامهم ان كان حظه في الحياة مثل حظهم ، لتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس

ومصائبهم ، او يعطف على باسائهم وضرائهم ؛ فان حاول يوماً ان يمدّ يـده بالمعونة الى بائس او منكوب ، فعل ذلك متفضلا ممتناً لا راحماً ولا متالماً .

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الارض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه ،بل هو معنى الانسانية وروحها وجوهرها ، فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مكرمة من مكرماتها ، واصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالانسان الناطق .

أحب ان يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه ، أي أنني احب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا الا لمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء ، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها ، وأشقى الاشقياء اولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون ينعمون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها ؛ فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر ؛ فيتالمون من الراحة اكثر مما يتالم التعب من التعب ؛ ويقاسون من عذاب الوجود اكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان ؛ وقد تدفعهم تلك الحالة الى الالمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها . تفريجاً بكربتهم وتنفيساً عن انفسهم وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم

في ملاعب القمار ، ومجالس الشراب ومواقف الرهان الا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل . يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت الى الموت .

أحب ان يكون غنياً بالمعنى الحقيقي ، لا بالمعنى الاصطلاحي ، أي ان يكون مستغنياً بنفسه عن غيره . لا كثير المال والثراء ، وما سمي المال غنى الا باعتبار أنه وسيلة الى الغنى وطريق اليه ، وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب ، فان اكثر الناس فقراً الى المال وأشدهم ولعاً بإحرازه ، واعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الاغنياء ، اصحاب المال والثراء ، وان كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين ، اكثر منه في جانب الاغنياء الكثيرين ، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة الى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فاذا هو في نظره الحياة نفسها ، يجمعه ولا يدري ما يريد منه ، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بانه لا ينتفع بقليله ، فضلا عن كثيره ، واذا بلغ المرء في حالته العقلية الى درجة ان تنقلب في نظره حقائق الكون ، وتغيير نواميسه ، فيرى الرؤوس أذناباً ، والاذناب رؤوساً ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام .

لا أكره ان ينشأ ولدي غنياً ، ولا أحب ان اعرضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكني اخاف عليه الغنى اكثر مما اخاف عليه الفقر .

اخاف عليه ان يعتدّ بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقدره فوق قدره ،

ويعتبره الكمال الانساني كلـه . فـلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ؛ وألا يجد من حوله من عشرائه وخاطائه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه لان عشراء الاغنياء متملقون ، مداهنون ، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم .

اخاف عليه ان تستحيل نفسه الى نفس ماديـة جامدة ، لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ، ولا تعـني بشيء سواها ، فيصبح رجـلا قاسياً صلباً ، ميت النفس والعواطف ، لا يرحم بائساً ، ولا يعطف عـــلى منكوب ، ولا يرثي لأمة ، ولا يبكي على وطن ، ولا يشترك في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً بحظه ؛ أسقطت السماء على الارض ، أم بقيت في مكانها .

أخاف عليه ان يحتقر العلوم والآداب ، ويزدري المواهب والعقول ، والفضائل والمزايا ؛ فيصبح عار أمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة الـتي لا تزول ، ومن أشرب قلبـه حب المـال ، ونزل من نفسه الى قرارتهـا ، لا يحترم غيره ولا يقيم الا لأربابه وزناً ، ويخيل اليه ان من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة ، بل لا حق لهم في الوجود .

أخاف عليه ان تزوج ان يأبى الزواج الا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة قلمـا تـنزع نفسه الى اشتراط شيء سواه ، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه .

أخاف عليه ان ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر

في تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً في أيـدي الخـدم ، وكـبيراً في أيـدي عشراء السـوء ، فيصبح نكبته الكبرى في حياتـه ، وعـاره الدائم بعد مماته .

أخاف عليـه ان يقضي أيامه ولياليه مروعاً مذعوراً خافـق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة ان خسر ، ويصعقه فوت الربح ان فاته ، ويطير بنومـه وهدوئـه هبوط الاسعـار ، ونزول الاسهم ، وتقلبـات الاسواق ، وخسران القضايـا ومنازعات الخصوم ، والآفـات السماويـة والجوائح الارضية .

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيـده من حيث لا يعرف له طريقاً الى سواه على نفسه وعلى مستقبله باشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه ، او الذي كان يؤمل ان يتمم به مليونه فلم يتح له .

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً ، ولا يجد ما يسدّ به رمقهم ، باطول من ليلة الغني الذي يسقط اليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، او ان سهماً من أسهمه قد نزل .

وحدّثني من رأى بعينـه من جن وهو واقـف ينظر الى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم الى درجة الإملاق وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم الى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى .

أخاف عليه ان يصبح واحداً من اولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بايديهم ، وهدم مـا ترك لهم آبائهم واجدادهم من مال وجاه ، فاندب حظي في قبري ، وأقرع السن على ان لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد .

ولا أزال اذكر حتى الساعة أنـني مررت بأحـد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً بإحـدى الحانات يمرح في نعمائـه ، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه ، أما الاول فقـد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار ، تسلب الاولى عقله والاخرى ماله ، وقد أحاط بـه جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على اقواله ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ، ويصيح صياح الثعالب ، وأما الثاني فقد كان عارياً الا قليلا ، يفتح إحدى عينيه من حين الى حين كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيه الى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه احياناً وهو مغتمض ان خيل اليه ان يداً تمتد اليه بالاحسان ، ولا يد هناك ولا إحسان .

رأيت هـذين المنظرين الغريبين المتناقضين ، فثارت في نفسي تلـك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار لـلأول وعاطفـة الرحمة والشفقة على الثاني ، وقلت في نفسي : لو كان لي ولد وكان لا بـد

له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً ، او المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت ان أراه بين فئة المتشردين ، على ان أراه بين فئة الوارثين ، لأني أرجو له في الأولى ان يجد بين الراحمين راحماً يحسن اليه ، ويستنقذه من شقائه ، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة أما في الثانية فاني لا أرجو له شيئاً .

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة ، واطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد ايام حياته في جمع الثروة لأولاده دائباً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضناً بهم ان يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها فاذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه اكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الاثقال التي يحملونها من مكان الى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً الى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد ، فاذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين ، صفر الأكف ، فارغي الجيوب ، مطرقي الرؤوس ، لا حول لهم ولا حيلة ، فقد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم واجدادهم وعدموا في عام واحد او عامين قرناً كاملا مجيداً من أعلاه الى أسفله ولا يعلم الا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك .

ولو ان أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هذا المصير المحزن ، وضن بهم على هذا التراث المشؤوم .

يقولون ان الفقر يدفع الى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات وأنا أقول : إننا اذا استطعنا ان نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألا ننخدع بصور الالفاظ وألوانها علمنا ان للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء ، بل أشد منها خطراً واعظم هولاً ، فان كان بين الفقراء ، اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعوا الطرق ؛ فبين الاغنياء : المحتالون والمزورون ، والمغتصبون والخائنون ، والمداهنون والمهالئون واصحاب المعامل والشركات الذين يغذون اجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في شهر كامل ، والقوام والأوصياء الذين يورثون التركات من دون وارثيها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ،والسماسرة الذين يغتالون الاسواق بأجمعها والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها .

على ان جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى ، فلولا شح الاغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الارض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق . ولا يسرق السارق ، ولا يسلب السالب ، ولا يلص اللص الا جزءاً من حقه الذي كان يجب ان يكون له لو كان للمال زكاة ، وللرحمة سبيل الى الأفئدة والقلوب .

ليفتح الاغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء ، ولينشئوا المصانع

والمعامل للعاطلين والمتشردين ، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة ، فان وجدوا بعد ذلك لصوصاً او قتلة او مجرمين فليتهموا الفقر وينعوا عليه جرائمه وآثامه .

لا أريد ان أقول ان الغنى علة فساد الأخلاق ، وان الفقر علة صلاحها ولكن الذي أستطيع ان أقوله عن تجربة واستقراء : إني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ، ولم أر الا قليلا من أبناء الاغنياء عاملين .

ان العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة باجمعها حسنة من حسنات الفقر ، وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذي كتبت به المصنفات ، ودونت به الآثار ، الا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والافكار الناضجة التي رفعت شان المدنية الحديثة الى مستواها الحاضر الا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم، والاحزان وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية الا من صدوع القلوب الكسيرة ، والأفئدة الحزينة ، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الارض ومغاربها الا من ظلمات الاكواخ الحقيرة ، والزوايا المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء ، وحكماء وأدباء ، الا في مهود الفقر ، وجحور الإملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة .

ان المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون لا يرحم أحد أحداً ، ولا يلوي مقبل على مدبر ، يعدون ويسرعون

ويتصادمون ، ويختطبون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض كأنهم هاربون من معركة ، او مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو .

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل الى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ، ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة والقتال المستحر بين البشر جماعات وأفراداً وقبائل وشعوباً وممالك ودولاً ؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد : هو ان الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ ان المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسعون اليه لا من أجل الجمع والادخار ، كما يجب ان يكون ، بل ومن أجل القوت وكفاف العيش ، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة ، او تنازع البقاء . وما هو بالتنازع ولا التناظر ، إنما هو التفاني والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد .

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة ان يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة ، وان الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وان سعادة العيش وهناءة وراحة النفس وسكونها لا تاتي الا من طريق

واحد وهو الاعتدال .

★

الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا عتباً ان أقضي للناشىء الفقير على الناشىء الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم ! وان أقول للناشىء الفقير : صبراً يا بني وعزاء ، فانك لم تخلق الا للعمل ، فاعمل واجتهد ، ولا تعتمد في حياتك الا على نفسك ، ولا تحصد غير الذي زرعته يدك ، فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك ، والزمن خير مؤدب ومهذب ، وان ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ، وان كنت ممن لا يعدّون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون ، فها هو ذا فضاء الارض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور التي ليس لها مثل عقلك وقوتك ، فان الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك الى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً او تهلك ظمأ ، ولا تصدق ما يقولونه لك من ان الناشىء الغني أسعد منك حالاً ، وأوفر حظاً ، وان راقك منظره وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدّتها أقل هموم الحياة وأهونها .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ونفس هادئة وقلب شريف، وان تعمل بيدك فترى بعينك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الارض التي فلحها بيده ، وتعهدها بنفسه ، وسقاها من عرق جبينه .

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام ان رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة او منتحرة حتى حضر الطبيب ، ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً .

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر ، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد .

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة او بيداء مجهل ؛ فنفزع في أمرها الى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم ، وفي ملتقى غاديهم برائحهم ، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد اليها يده بلقمة واحدة تسدّ بها جوعتها ، فما أقسى

قلب الإنسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة الى جبل المقطم في ساعتها الاخيرة ؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت اليه تبثه شكواها ، او ان الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه ، وأحسب لو ان الصخر فهم شكواها لأشكاها [1] ولو ان الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها ، لأني لا أعرف مخلوقاً على وجه الارض يستطيع ان يملك نفسه ودموعه امام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

ألم يلتق بها احد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم انها جائعة فيرحمها .

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ، ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره !

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين افراد الأمة جميعها من اصحاب قصورها الى سكان اكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك ، فالمال والحمد لله كثير ، والخبز أكثر منه ، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها

(١) شكا اليه فاشكاه أي أرضاه وقبل شكواه .

السامعون ، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة والمكاثرة ، والتي لا تفهم من معنى الاحسان إلا أنه الغل الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ، لا يمكن ان ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً .

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات ، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من النفوس ، فأما اليوم وقد أصبح كل امرىء موكولاً الى نفسه ، ومسئولاً امام ربه وضميره ان يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمه ويلتمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدّها ، فها هم الفقراء يموتون جوعاً بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين .

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة ان تسرق رغيفاً تتبلغ به او درهماً تبتاع به رغيفاً فلم تفعل ، وكان في استطاعتها ان تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات اعراضهن فلم تفعل ، لأنها امرأة شريفة تفضل ان تموت بحسرتها ، على ان تعيش بعارها ، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وأعفائها .

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر ، أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه . فإن ساقتـه اليه شهوة من شهوات النفس . او نزوة من نزوات العقل ، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه ، ثم اصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم ، وحركات وسكنات ، واشارات والتفاتات ، لا دخل لها في جوهر النفس ، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها ، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً ، وأشرفهم مذهباً ، من يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يخلف الوعد على ان يحسن الاعتذار عن إخلافه ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على ان يحبهم جميعاً بلسانه، ومن يقترف مـا شاء من الجرائم والذنوب على ان يحسن التخلص من نتائجها وآثارها ، وافضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن « الآداب العالية » اي فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا في استظهار تلك الصورة الجامدة التي تواضع عليها « جماعة الظرفاء » في التحية والسلام .

واللقاء والفراق ، والزيارة والاستزارة والمجالسة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس وإسفافها ، أكثر مما يرجع الى أدبها وكالها ، فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة الا لونها ، فاذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا اليها ، ولا يعجبهم من الحسنة الا صورتها ، فاذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها ، أي أنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجراً ، على اليد الخشنة التي تحمل بدرة ، ويؤثرون كاس البلور المملوءة سماً على كاس الخزف المملوءة ماء زلالاً ، ولقد سمعت باذني من أخذ يعدّ لرجل من اصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث صحائفهم ثم ختم كلامه بقوله : وإني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل « ظريف » ! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة كأن جميع هذه الاشياء فضائل لا شك فيها ، وكان الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها ، وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ ايام على احتقاره وازدرائه لا لأنه لعب القمار بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في احد أندية القمار ، وسموه لصاً دنيئاً ، والقمار لصوصية من اساسه الى ذروته .



أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ، ومركز واحد : أحدهما خير الناس ، والآخر شر الناس ، وان كان الناس لا يرون رأيي فيهما .

أما الاول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق، والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة، والزهد والسماحة والنجدة ، والمروءة والكرم ، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على انفسهم ، وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً ، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه ان الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف ! وفهموا من معناه مثل ما فهم ، واخذوا منه بمثل الذي أخذ ، فغضب في وجه الاشرار ، وابتسم في وجهه الاخيار ، والأولون اكثر عدداً واعظم سلطة وجاهاً ، فسمي عند الفريقين شرساً متوحشاً ؛ وامتدح إحسان المحسن ، وذم إساءة المسيء ، والمحسنون في الدنيا قليلون ، فسمي وقحاً بذيئاً حتى بين المحسنين ،وبذل معروفه للعاجز الخامل ، ومنعه القادر النابه ؛ فلم يشعر بمعروفه أحد فسمي بخيلا ؛ واعتبر الناس بقيمهم الأدبية ؛ لا بمقاديرهم الدنيوية ، فلقي الاغنياء والأشراف بمثل ما يلقى بـه العامة والدهماء ؛ فسمي متكبراً ؛ وقال لمن جاءه يساومه في ذمتـه : إني أحبك ولكني أحب الحـق اكثر منك ؛ فكثر أعداؤه وقل اصدقاؤه .

أما الثاني فاقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده ؛ ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه احد مخلافاً ؛ ومـا رآه الناس في يوم من ايامـه عاطفاً عـلى بائس او منكوب ؛ ولكنـه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين ، ويستبكي لهم فعدّ من الاجواد السمحاء ؛ وكثيراً ما أكل أموال اليتـامى وأساء الوصاية عليهم ؛ ولكنـه لا يزال يمسح رؤوسهم ؛

ويحتضنهم الى صدره في الجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين؛ فسمي الوصي الرحيم ؛ ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم ، الا أنه يخلط جده بالهزل ، ومرارته بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف .

ذلك هو الأدب الذي اصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ؛ ويعلمه الوالد ولده والاستاذ تلميذه ؛ ويقتتلون اقتتالاً شديداً على انتحاله والتجمل به ؛ كما يقتتلون على أعز الاشياء وأنفسها حتى تبدّلت الصور،وانعكست الحقائق، واصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً ، وأضلهم بها سبيلا ، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين ؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين ؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم الى عزلة منقطعة يقضي فيها بقية ايام حياته غريباً شريداً ؟ أم يبرز للعيون فيموت هماً وكمداً ؟



يجب ان يكون أدب النفس اساس أدب الجوارح ، وان يكون ادب الجوارح تابعاً له واثراً من آثاره فان أبى الناس الا ان يجعلوا أدب الحركات والسكنات اساس صلاتهم وعلائقهم ، وميزان قيمهم واقدارهم، فليعترفوا ان العالم كله مسرح تمثيلي ، وانهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين .

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب ، قبحها الله ، وقبح كل ما تاتي به ألا اكتب كلمة في صحيفة سيارة في شان من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي اجلها وان أترك هذا القلم هادئاً مطمئناً في مرقده مدرجاً في ذلك الكفن الابيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى ياتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه ان ينبعث كما يريد لا كما يراد منه ، ولكن نازلاً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام او عامين لم أحفل به في مبدئه ، ولم ألق له بالاً ، وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها ان تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنقشع ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باق في مكانه، لا يتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الايام ثباتاً ورسوخاً واحسبه سيبقى في مستقبل ايامه اضعاف ما بقي في ماضيها ان لم نثر عليه معشر الكتاب حرباً شعواء ، تهز جدرانه هزاً ، وتدكه دكاً ، وتلحق أعاليه باسافله لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الألية التي

كنت آليتها ، فلعل اصدقائي من افاضل الكتاب يساعدونني في هذا الشان الذي ان عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً .

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية وما هي في شيء من الهزل ولا الجد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا باي فن من الفنون الأدبية ، فاقبل عليها الناس إقبالاً عظيما، وأغرموا بها غراماً شديداً، فليقبلوا عليهاما شاؤا ، وليفتتنوا بها ما أرادوا ، ولكن فريقاً واحداً من الأمة هو الذي نضن بـه على تلك المواطن الساقطة ان تطأها قدمه او تظلل سماؤها رأسه لأنا نضن به على كل منقصة في العالم تزري به ، او تنال من كرامته .

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا وأبناءنا ، وعنوان مجدنا وشرفنا ، وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط أمانينا وآمالنا فائذنوا لكاتب من كتابكم، وصديق من اصدقائكم، ان يحادثكم قليلا في هذا الشان كما يحادث الأب ولده ، او الأخ أخاه لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتباً متلطفاً ، وأمله عظيم ان ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم ، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم .

الحق أقول ، ان الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم ، فلا أدري كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم ؟

أأعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم أوأدعوكم الى اجتناب سيئة لاأحسب ان بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها او ماضيه !

او اقول لكم ان هذه الاماكن التي تطؤها اقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والاخلاق ، ومصارع الاعراض والحرمات ! وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فاعلمكم منه ما لا تعلمون ؟ !

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما اقول ، ولكنه الشباب يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضي اليها قدماً ، لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها ، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم .

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة ، او جمالاً يفي بقبح ، او خيراً يعزى عن شر . فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق ان يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر اليه وملحها ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترقرقة في شفاهم ما يذيبه حياء وخجلاً ، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها الا اصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق ، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك ؟

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا ، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا

والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها ، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وامثالهم .

بل بقي مـا هو شر من هـذا جميعه ، وهو تمثيـل الشهوات الدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا واطفالنا وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخي على مثلها الستور ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .

فلو ان غريباً وفد الى هذا البلد وهو لا يعـلم من شانـه شيئاً فذهب الى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضي عليها للنظرة الأولى بانها أحط الأمم وأدناها .

ذلك الى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهجو الـــتي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من مواقف حياته او مشهـد من مشاهدها ، الا اذا قدر له ان يتغلغل بنفسه يوماً من الايام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل الى « عرب اليسار » او « عشش الترجمان » فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين .

ولقد قال لي أحد الاصدقاء الظرفاء مرة ان شتائم « أم شولح » قـد انتقلت الى بيتي ولا اعرف كيف انتقلت اليه ، فاني اسمع الكثير منها منذ ايام يتردد في أفواه الاطفال هازلين ، وفي افواه الخدم جادين .

أتدرون أيهـا الاصدقاء من هم هؤلاء الذين يسمون انفسهم ممثلـين ، ويسمون مـا يهذون بـه في مسارحهم روايات ، والذين يدعونـكم معشر المتعلمين الراقين الى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لو ان جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين وجماعة غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقيـة السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنـازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقي لهم بالاً ولا نعيرهم أذناً اتفقوا فيما بينهم عـلى ان يكونوا جماعة واحدة يداً واحدة في مكان واحدة لـكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربري وشر فنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى انـ اولئك يقفون بأبوابنـا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمـة ، ويجتزئون بالشربة ، وهؤلاء يأبون الا ان نقف على ابوابهم ونتعلق باستارها فلا يفتح لنا حجابهم الا اذا دفعنا الأتاوة المضروبة عليها .

والطف كلمة سمعتها في هذا الشان قول بعض المفكرين « كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد » .

فهل تسمح لـكم نفوسكم أيهـا الاصدقاء وأنـتم عيون الأمـة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، ان تنخدعوا بالاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم الى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لهـا ، ولا يمتون اليهـا بسبب من اسباب العـلم او الذكاء او الشرف او الخلـق ، وهـا هم أولاء نوابـغ الممثلين في أمتـكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بـين ظهرانيكم مـا يقيمون به أود عيشهم ، او يعينهم على مـا هو بسبيله من خدمـة الفن والقيام عليه .

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجـدي الشريف في مسارح ابيض ورشدي وعكاشة وامثالهم ان كنتم أنتم لا تذهبون اليها ! ومن هو أولى

بها من بعدكم ان قطعتم صلتكم بها ! ؟

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين ، فاذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وامثالهما راضين عن مقامكم فيها ، مغتبطين بسفسافها وهذياناتها ! ؟

الا تخشون ان يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان ـ مشهدكم في الاجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الاجواق الجدية الشريفة ـ ان الأمة المصرية أمة غريبة الشان يفسدها العلم ، ويصلحها الجهل ، او ان يتطرف متطرف منهم في رأيهم فيقول : ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء ، موفوراً لها حظها من الاخلاق والآداب. فذلك خير لها من علم يهوى بها في مهواة الشقاء والعار

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو اعظم كيداً ولا أسمج وجهاً من هؤلاء القوم .

إنهم يحاولون دائماً ان يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد ، وهو ان كان ثوباً شفافاً ينم عما وراءه ، الا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة ، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكه للدخول في سلك المخدرات المتحجبات .

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل الا ويلصقونها به وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية

بشكله . والهزء بصفاته واعماله ، ثم لا يخجلون ان يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الاناشيد (ما دامت بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح ان كنتم تحبوا وطنكم) .

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصري تبديد امواله في سبيل شهواته ، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز اموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقي هذه الاقوال !

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم ، وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها في كل مكان ، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك أنهم انصار اللغة العربية وحماتها ، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (ما لها لغتنا العربية ، آل همجية ، يادي المصيبة يا دي العار ، فشر ... دي لغة المدنية اتمسكوا بها صغار وكبار) .

ولا يستحيون ان يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم « ابيع هدومي عشان بوسة ، من خدك القشطة يا ملبن ، يا حلوة زي البسبوسة يا مهلبية تمام واحسن » وبين قولهم « مصر يحميك ربك ، ما تشوفي الا ايام سعدك » أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون ان يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» « وحب وطنك » و « مت في سبيل الاوطان » وامثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في افواههم الا انم يعتقدون ان المصريين قد بلغوا من

الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه اطفال المكاتب ولا سكان المارستانات .

لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين امام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا الا ان ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب الى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم ، فان امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعا ان الدخول الى تلك الاماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين اصدقائه ومعارفه .

نحن في حالة نحتاج فيها الى ان يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة اخلاق وآداب ، وان في نفوس افرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا الى مصاف الأمم العظيمة ، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل ان يكون بأي شيء غير ذلك ، فان فات آباءنا ان يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون في الحقيقة الى هذه الاماكن وحدكم بل يذهب اليها معكم إخوانكم واخواتكم ، وبقية افراد أسركم ، لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم ، وترون لهم ما سمعتم فكأن سكان البلد جميعاً رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة ، فهل يستطيع متصور ان يتصور خطرا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها اعظم من هذا الخطر ؟

إنني لا أدعوكم الى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من اجل انفسكم فقط ، بل من اجل إخوتكم واخواتكم اليوم ، ومن اجل

ابنائكم واحفادكم غداً ، ومن اجـل مستقبل الامة المصرية كلهـا الذي أعتقد أنه امانة في ايديكم ، ووديعة موكولة الى كرم نفوسكم ، وشرف ضمائركم .

اهدموا هـذه الاماكن هدماً بالإعراض عنهـا واحتقارها ، ثم قفوا بعـد ذلك عـلى اطلالها البالية هاتفـين صائحين صيـاح الظافر المنتصر قائلين : ها قـد نجت الامة من خطر عظيم ، وها نحن قـد قمنـا جميعاً بالواجب علينا لوطننا .

★

الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ في الصور ، وهكذا تطوي السماء طي السجل للكتاب .

أفيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الافئدة والصدور ، وملء الاسماع والابصار ، وملء الارجاء والاجواء ، جثة ضاوية نحيلة مدرجة في كفن، ملحدة في مهوى من باطن الارض سحيق؟

ما اعظم الفرق بين الحياة والموت ! تغرب الشمس فلا تلبث ان تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث ان تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعري الاشجار عن اوراقها ، ثم تعود الى جمالها مخضرة نضرة ، حينما تهب عليها نسمات الربيع ، وينام الاحياء في مضاجعهم ، حتى اذا طلع عليهم الكوكب النهاري ، وعبثت أشعته بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم ، وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها ، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ولا يؤمل أوبته آمل ، فكان ما صار

اليه : العدم الذي لم يسبقه وجود .

اللهم إنا نعلم ان الموت غاية كل حي ، وان مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ، ولا نياقاً عشواء ، وان ورود الحياة لا يمكن ان تنبت الا في التربة التي نبتت فيها اشواك الموت ، ولكننا لا نستطيع ان نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع ، اذا فارقنا عزيز علينا ، لأن ساحة الصبر التي منحتنا ، أضيق من ان تسع نازلة البلاء التى ابتليتنا ، فاغفر اللهم لنا عجزنا وبكاءنا على الملكى والذاهبين

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة لا نجد فيها ظلا نستظل بـه ، ولا أكمة نأوى اليها ، وان الصديق الذي نعثر بـه في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي اليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى في ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين ، فإذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء واصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فإنا لا نجد بـداً من البكاء والجزع ، لأن من الشقاء مـا لا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كاسه .

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب ، والنجم المتلألىء الذي كنا نتنوره من حين الى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم ، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها فنحن ان بكيناه فإنما نبكي الامل الذاهب ، والسعادة الراحلة ، والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من

سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو لهـذه الأمة غـير هذين الرجلين ، ميت الامس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ علي يوسف ، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها ، يمسكها الاول ان تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها ، ويمسكها الثاني ان تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لهـا من بعدهما أحـداً ، فويل للأمـة في دينها وويل لها في جامعتها .

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الامة كثير ، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفع الامة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه : الرجل الذي يشعر من نفسه بانه ينزل منها منزلة رئيس الاسرة من أسرته التي يعلم أنـه ماخوذ بالقيام عليها والسعي لها ، فيقوم لها بكل مـا تريد ، ويسعى لها سعي الكادح الجد ، ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر عبث اطفالها ، وجهل شيوخها ، ويرى لها في كل شان من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها ، من حيث لا يمن عليها بذلك . ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً ، بل من من حيث لا تعـلم مـا يلاقي بينه وبين نفسه آلام الحياة ومـا يعالج من شدائدها في سبيلها .

وكذلك كان شان الشيخ علي يوسف في أمته ، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال .

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لأن الذين ينظرون

بصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً ، وأدق مسلكاً ، من ان تتناولها النظرة الطائرة ، ولأنه كان مخلصاً متحنثاً يعمل في سره اكثر مما يعمل في علانيته . ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه .

رأيته في حادثة الازهر – في تلك الايام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الازهر والازهريين – يقضي كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالامر ضارعاً اليهم ان ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم او بعض مطالبهم قائلاً عنهم ما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم عن فئة حنين « اللهم ان تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الارض أبداً » فلا يقف في سبيله الا حماقة اولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم اصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم .

ورأيته يضم الى كنفه كثيراً من اصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة « عبد الحميد » وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً اولئك الذين كانوا يزدلفون اليهم أيام إقبالهم ، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله ، فلم يبال بشيء من ذلك .

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض ايام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون الى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس اليهم ويتحدث معهم حديث المودة والاخاء كأنما كانوا معه على ميعاد .

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقداً ولا واجداً ولا منتقماً ولا

طالباً بثار ولا ذائداً عن نفسه الا في الساعة التي يعلم فيها ان قد جد الجد وان قد اصبح عرضه وشرفه على خطر ، ولم أر سائلاً دخل اليه يشكو حاجة من الحاج صادقاً كان فيها أم كاذباً ويسأله المعونة عليها من ماله او جاهه الا أعانه عليها ما وجد الى ذلك سبيلا ، رحمة وإشفاقاً ، لا رياء ونفاقاً ، وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فاذا هو مصيب والناس جميعاً مخطئون .

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك ، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذا الدنيا سراً كامناً بين أحشاء ضلوعك لا يكتنهها ولا يستشف باطنها الا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعاً رأى العين الا وهي طائرة في جو السماء الى ربها ، وكذلك شأن هذه الامة البائسة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم ، الا وهم ذاهبون الى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم ، فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل ان في ارضها كنزاً مخبوءاً حتى اذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس الى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون .

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها ، بل كنت أفضل من الحقيقة ، لان الحقيقة يخدمها أعداؤها واصدقاؤها ، أما انت فكنت تخدم اصدقاءك وأعداءك ، أما الاولون فلأنك كنت تحسن اليهم بجاهك او بمالك او برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك

وشرفك ، فويل للفريقين معـاً من بعدك ، وكنت القطب الذي تدور حوله رحى الاقلام في هذا البلد ، فقد كانت وظيفة الكتاب ان يشرحوا آراءك او يفسروا كلماتك او يكتنهوا مقاصدك او يوافقوك او يخالفوك او يمدحوك او يذموك ، فإن كتبوا في شان من الشؤون غير هذا فتروا واستبردوا ، فواضيعة الاقلام وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك ، وكنت العصمة التي تعتصم بهـــا الأمة في مواقف بؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، ومـا احسب الا ان الدهر مدخر لهـا من ذلك في مستقبل ايامها اكثر مما ادخر لها في ماضيها ، فما اكـثر شفاءهـا وبلاءها بعد اليوم .

ايها الراحل الكريم : لقد كنت ارجو ان اجد بين جنبي بقيـة من الصبر آغالب بها هذا الحزن الذي اعالجه فيك حتى يبلى على مدى الايام كما يبلى الكفن لولا قدر أبعدني عن موطنك في آخر ايام حياتك فحرمني جلسة اجلسها بجانب سريرك اسمع فيها آخر كلمة من كلماتـك ، وأرى آخر نظرة من نظراتك ، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات ؛ ووقفة اقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيهـا على تربتك اول دمعـة يذرفها الباكون عليـك ، فلئن بكيت موتك يومـاً فسابكي حرماني وداعك اياماً طوالا حتى يجمع الله بيني وبينك .

العظمة

إن رأيت شاعراً من الشعراء ، او عالماً من العلماء ، او نبيلا في قومه، او داعياً في أمته قد انقسم الناس في النظر اليه وفي تقدير منزلته انقساماً عظيماً وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه ، ففافتتن بحبه قوم حتى رفعوه الى رتبة الملك ، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان ، فاعلم انه رجل عظيم .

العظمة أمر وراء العلم والشعر ، والامارة والوزراء والثروة والجاه، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون ، والعظماء منهم قليلون ، وانما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بانه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات افكاره واساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال ، ولا مقدود على مثالهم ، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة ، فاذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة اصبح لا ينظر الى شيء من الاشياء بعين غير عينه ، ولا يسمع باذن غير اذنه ، ولا يمشي

في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشان صاحبه سلطاناً عليه في رأي او فكر او مشايعة لمذهب او مناصبة لطريقة ، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم ان حقاً على الناس جميعاً ان يستقيدوا له ، وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع اقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع اعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس واعمالهم تبهر العيون وتدهش الانظار ، وتملأ القلوب هيبة وروعة ، فان كان شاعراً كان مبتكراً في معانيه او طريقته ، او كاتباً اخذ على النفوس مشاعرها وأهوائها ، او فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ، او ملكاً شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه ، او وزيراً ساس امته بسياسة جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل ، او قائداً ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء .

تلك هي العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومعترك انظارهم وأفهامهم ، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناه امره ، وتقدير منزلته فيعجب به الذين فطروا على الاعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد ، حتى ينتقل بهم الاعجاب به الى الافتتان بأقواله وافعاله وحركاته وسكناته ، والإغراق في حبه ، والمشايعة له ، والسير بعجبانه وغرائبه في كل صقع وناد فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل ، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الإغراق في

حبه بالإغراق في بغضه ، على قاعدة المشادة والمعاندة . وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه ، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه ، ويناضل عنه اولئك يريدون استبقاءها في يده ، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هانئاً مغتبطاً ، لا يحزن ولا يبتئس ، لأنه يعلم ان جميع هذه الاصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته .

لا أريد ان اقول ان الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل ، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط، فربما كان من هو اضعف منه قوة ، وأخمل ذكراً ، أسدّ منه رأياً ، واصدق نظراً ، وإنما أريد ان اقول ان احداً من الناس لا يستطيع ان يشغل أقلام الكتاب ، وعقول المفكرين وألسنة الناطقين ، وقلوب المحبين والمبغضين ، الا الرجل العظيم .

أحب علياً قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه . وسمي بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين ، وانكر بعضهم صحبتهما ، وإخلاصهما . وعاش محيي الدين بن العربي بين فئة تراه قطب الاولياء ، وأخرى تراه شيخ الملحدين . واغتبط فريق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الإسلام ، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً في المسجد الجامع . وسمي قوم صاحب كتاب الإحياء حجة الإسلام . ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح ، وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه يلثم الأولون مواطىء نعاله .

ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة . وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمة شماتة به ، وعيون دامعة حزناً عليه . وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارة فاذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فاذا هو اكبر المتكلفين ، ورفع قوم شكسبير الى مرتبة الكمال الإنساني فقالوا نابغة الدهر ، وهبط به آخرون الى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب . وافتتن المفتتنون بنابليون الأول فعلوا به الى رتبة الأنبياء ، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك الحمقى والمرورين ، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وفولتير ونيتشه وتولستوي كاسي الحب والبغض في حياته وبعد مماته الى القطرة الاخيرة منهما ،وماانقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلي يوسف وقاسم أمين .

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه اليها المغرقون في حبه ، او ينزل به اليها الغالون في بغضه ، ولكنهم كانوا قوماً عظماء فانقسم الناس في شأنهم ، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم ، الا في شأن الرجل العظيم .

ليس معنى الوجود في الحياة ان يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخرهم بباب لحده ثم يتزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الارض ، وإنما الوجود قرع الأسماع ،

واجتذاب الانظار ، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة ، وتحريك الاقلام الراقدة ، وتأريث نار الحب في نفوس الاخيار ، وجمرة البغض في قلوب الاشرار ، فعظماء الرجال اطول النـاس أعماراً وان قصرت حياتهم ، واعظمهم حظاً في الوجود وان قلت على ظهر الارض أيامهم .

العظمة كالحقيقة يخـدمها أعداؤها واصدقاؤها ، ويحمـل احجـار هيكلها على رؤوسهم هادموها وبناتها ، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الاصدقاء ، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد ، فاعلم ان العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً .

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم فلا يزال ذلك القصر ثابتاً في مكانـه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانها ، فاذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما .

لا يعجبنك ان يتفق الناس جميعاً عـلى حبك لأنـهم لا يتفقون الا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ، ثم يقعى عـلى ذنبه تحت أقدامهم إقعـاء الكلب الذليـل ، يضربونه فيصطبر لهم ، ويعبثون بـه فيبصبص بذنبـه طلبـاً لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب ، ويزجرونه فيزدجر .

ولا يعجبك ان يتفقوا على بغضك ، لأنهم لا يتفقون الا على بغض الخبثاء الاشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد.

وليعجبك ان يختلفوا في شانك ، وينقمسوا في أمرك ، ويذهبوا في النظر اليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فتلك آية العظمة ، وذلك شان الرجل العظيم ...

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعاد عليه ، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم .

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته الى مشارق الارض ومغاربها ، ولا تكن الريح التي تختلف الى آذان الناس باصوات الناطقين من حيث لا يابهون لها ، ولا يعرفون لها يدها .

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الارض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التي تطؤها الاقدام وتدوسها الحوافر والاخفاف .

كن زعيم الناس ان استطعت ، فان عجزت فكن زعيم نفسك ، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء ، والتلصق بهم ، او مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم،فان فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء والأعزاء .

★

الانتقـاد

سالني بعض الاصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطـه وحـدوده ؛ وآدابه وواجباته ؛ ورأيي فيه ألا شروط له ولا حـدود ؛ ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب او قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام ، مصيباً كان أم مخطئاً محقاً أم مبطلاً ، صادقاً ام كاذبـاً ، مخلصاً ام غـير مخلص ؛ لان الانتقـاد نوع من انواع الاستحسان والاستهجان . وهما حالتان طبيعيتان للانسان لا تفارقانه من صرخة الوضع ، الى انة النزع ، وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيـه ولا مراء فان أصاب الناقـد في نقده فقد أحسن الى نفسه والى الناس ، وان أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه ؛ ويرشده الى مكان الصواب منـه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ ، حتى يستقيم له الصواب كله .

فان أبينا عليه ان ينتقد إلا إذا كان كفؤاً في علمه ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك اكثر الناس ، فقد أبينا عليه ان يخط سطراً واحداً في

الانتقاد ، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة ، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منها ، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله ، فيسمح به لجماعة المنتقدين !

على ان المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من ان يكون مصيباً في بعض ما يقول لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً ان يختلق جميع المآخذ التي يأخذها ، وألا يكتب إلا الباطل والمحال ، وانما هو رجل عياب بالحق وبالباطل ، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ الى السيئات المختلقة .

ولقد كتب اول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحقد ، فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ، ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الاسواق والمجتمعات ، وبين ايدي الأمراء والعظماء ، فيكرمهم الناس ويجلونهم اجلالاً عظيماً ، ويجزلون لهم العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك العظماء حظوتهم ، فاخذوا يعيبونهم ، ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم واصواتهم ، ومعاني اشعارهم ، وأساليبهم ، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد ، والفضل في ذلك للضغينة والحقد ، فلرذيلة الحقد الفضل الاول في وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة .

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من ان يكون رأيه في استحسان الكلام

واستهجانه رأياً صائباً . لا ، بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه ـ متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم ـ أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملا ، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما ، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامي عفواً أنفع للاديب حين يراهما ، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه ؛ من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره .

واذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للامة جميعها ، أو خاصتها أو عامتها ، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلا ، ان يدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه ، واستهجان من يستهجن منه .

وهل رفع العظماء من رجال الادب الى مواقف عظمتهم وسجل لهم اسماءهم في صحائف المجد ، الا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الاعظم من الأمة ، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها ؟

وبعد ، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً الا الغبي الابله الذي لا يبالي ان يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين انفسهم ، ويزعجه كل الانزعاج ان يتحدثوا بها في مجامعهم،ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها ، او الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم ، ويفرق من رؤية الاشباح ، ولو رجع الى أناته ورويته لعلم ان النقد ان كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، او خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته

منه ، لأن النـاس ليسوا عبيـد الناقدين ولا أسراهم ، يامرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم الى المحال فيتبعون ، ولئن استطاع احد ان يخدع أحداً في كل شان من الشؤون فانه لا يستطيع ان يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام او قبحـه ، ولو ان الاصمعي وأبا عبيدة وأبا زيـد والمـبرد والجاحظ والقـالي وقدامة وابن قتيبـة والآمدي وابا هـلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا ان يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلا لما كرهوها ، او يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر « فـلان » لمـا أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل اليهـا ، فهي تختفي حينا ، او تتنكر ، او تتراءى في ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تنمحي ولا تزول .

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت ، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت فلقد حرمنا الحرية في كل شان من شؤون حياتنا ، فـلا أقل من ان نتمتع بحرية النظر والتفكير .

*

يوم العيد

افضل مـا سمعت في باب المروءة والإحسان ان امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الاعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار ، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله ، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيما ، لا لأنها غريرة بلهـاء يستفزها من تلـك المناظر الصبيانيـة مـا يستفز الاطفال الصغار ، بل لأنها كانت تنظر اليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها اليه بلعبة العيد ، كما وعدته، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغالاة شديدة حتي علمت ان يدها لا تستطيـع الوصول الى ثمنه ، وأنها لا تستطيـع العودة بدونه ، فساقتها الضرورة التي لا يقدرها الا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم ، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها ، الى ان تمد يدها خفية الى التمثال فتسرقه من حيث تظن ان الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها ، ثم رجعت ادراجها وقلبها

يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة الى ولدها .

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع اقدامها حتى عرف منزلها ثم تركها وشأنها وذهب الى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها ، وصعدوا جميعاً الى الغرفة التي تسكنها ففاجاوها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر الى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظمى ، لا على التمثال الذي انتزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين يديه ، وكانت كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل : رحماك بأمي يا مولاي ، وظل يبكي بكاء شديداً .

جمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق إطراقاً طويلا ، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة ، وصعب عليه ان يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت الى الجنديين وقال لهما : أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة ، فاني لا أبيع هذا النوع من التماثيل ، فانصرفا لشأنهما . والتفت هو الى الولد فاستغفره ذنبه اليه والى أمه ، ثم مشى الى الأم فاعتذر اليها عن خشونته وشدته ، فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفض عرقاً حياء من فعلتها ،

ولم يفارقهما حتى أسدى اليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان .

★

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان ، نجم سعود ونجم نحوس أما الاول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ، ولاولادهم اللعب والتماثيل ،ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء ،وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون في فراشهم أنيناً يتصدع له القلب ، ويذوب له الصخر ، حزناً على اولادهم الواقفين بين ايديهم يسألونهم بالسنتهم وباعينهم : ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم ، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم ؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها .

فهل لأولئك السعداء ان يمدوا الى هؤلاء الاشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل .

ان رجلاً لا يؤمن بالله ورسله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع ان يملك عينه من البكاء ، ولا قلبه من الخفقان عندما يرى في العيد ، في طريقه الى معبده ، او منصرفه من زياراته ، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول

ان تتوارى وراء الاسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها ان تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، ورثاثة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلىء به أيديهن ، فلا يجد بدّاً من ان يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها ، وعلى بؤسها ومتربتها ، لأنه يعلم ان جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها .

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع ايام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من ان يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة او مرتين .

*

من الشيوخ الى الشبان

لا نستطيع ان ننكر عليكم معشر الأبناء ان شبابكم اعظم قوة ونشاطاً ، وأبعد همة ، وأقوى عزيمة ، من شيخوختنا ، وان أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع ان تصل الى ما تصل اليه ايديكم الفتية المقتدرة ، وان آراءكم وافكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم اكثر حدة وحرارة ، وأبعد غوراً وعمقاً ، من آرائنا وتصوراتنا ، ولكن الذي ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا ، واحتقاركم لنا ، ورميكم إيانا بالجمود مرة ، والخرف أخرى ، كلما اختلفنا معكم في شان من الشؤون ، كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بانفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيل اليكم معه ان هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم ، ووقف عليكم ، لم تمر بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الاول في ابتكارها وافتراع

عذرتها ، ولو أنكم استطعتم ان تحملوا أنفسكم على الروية والأناة ، وان تنتقلوا بانظاركم من الحاضر الى الماضي – وان لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه – لعلمتم ان هذا العهد الذي يمر بكم اليوم ، والذي تفاخروننا به وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه ؛ وتصوراته وخيالاته مر بنا مثله في زماننا ، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورون ونفكر كما تفكرون ، ونردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والافكار التي ترددونها اليوم ، حتى انطوى ذلك العهد ، وزالت معالمه ، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتامل ، والخبرة والتجربة فاستطعنا ان نرجع الى نفوسنا ، ونثوب الى رشدنا ، وان نهبط بهدوء وسكون الى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والافكار ، والاحلام والآمال ، بإمعان وتدقيق ، فاستطعنا ان نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها ومعقولها من موهومها ، وان نقلب الاشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ، ونوازن بين هذه وتلك ، فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته ، واطرحنا ما زادت سيئاته على حسناته فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون ان لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً،وإنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة ، وأخص صفاته

قصر النظر ، وسرعة الحكم ، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع ان يتصور تصوراً ثابتاً متيناً ان الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق الا من مطلعه ، ولا ينبت الا في تربته ،وان المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب اليه من ان يتصور ان في استطاعته ان يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسمائه ، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدها ويتصورها ، وان في إمكانه ان يحيل الترب أمواها ، والأمواه ترباً ، وان يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع الا بإرادته ، وان يرغمها متى أراد ان تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه ، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والاحلام التي لافائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع في رأسه اول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته ، وتفتر حدته ، ثم لا يلبث ان يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً : ان للكون إلهاً لا أستطيع محادته ، وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها .

كنا نفكر كثيراً في شان المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثاً ألذ ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا لشدة إعجابنا بها ، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها ، والوقوع من نفسها موقعاً جميلا نداقع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا اكثر مما تطلبه لنفسها ، ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية الى أقصى

حدودها ، فتتبرج كما تشاء وتسفر كما تريد وتجلس الى الرجل جنبا لجنب في المجتمعات العامة والخاصة ، دون ان يعارضها معارض ، او يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها الى اكثر من ذلك فكنا نغتفر لها سيئاتها الأدبية ، ونسميها سقطات ، أي هفوات فردية لا أهمية لها ، ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانته لها ومقابلة فعلاته بمثلها لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ، ونقول لها : ليس من العدل ان يغضب الزوج من خيانة زوجته اذا كان هو يخونها ، وكنا نظن ان هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا ، صادرة من اعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها ، وأنها آراء الشباب وخواطره وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرآة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه .

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ،وننفر من كل قديم كما تنفرون ونعد الاول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره ، لا لأننا وازنا بينهما ، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمن الطفولة ، والطفل سريع الملل كثير السآمة ، لا يصبر على لعبته اكثر من يوم ثم يملها فيكسرها ويستبدل منها .

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لانكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها اعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف

انواعها وألوانها فنلتقطها باسرع مما يلتقط « الفلم » صوره ، كان فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها .

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث ان يفتتن بها وباصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في احاديثه واستشهاداته ، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان احد غيره لا لأنه يفهمهم او يفهم غيرهم ، بل لأنه كان بسيطاً غريراً يحتقر كل ما في يده ، ويستعظم كل ما في يد غيره .

ولم نعرف الا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والافكار ، وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل اشباحاً وصوراً تتراءى في حياتنا ، فنعجب بها ، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها وبهجة ألوانها فاصبحنا معتدلين في آرائنا متئدين في احكامنا ، نحب حرية المرأة ولكننا نكره فسقها وفجورها ، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الامم المتمدينة ولكنا لا نقلدها ،.ونحن نحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم ، ولكننا لا نحتقر من اجل ذلك رجالنا وتاريخنا .

نحن لا نطلب منكم معشر الابناء وانتم في ثورة الشباب ونشوته ان تكونوا معتدلين متئدين في احكامكم وتصوراتكم ، او هادئين في مطامعكم وآمالكم ، فليس من الرأي ان نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عن انفسنا ، ولكن أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا اشد الحرص هو الذي اليكم ان تحرصوا عليه مثلنا ، وتضنوا به ضننا .

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا واجدادنا ، واوسع منهم علماً وأقوى إدراكاً ، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون ، او متاخرون او جـامدون ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكـرامتها فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقـاب التي تلقبوننا بها ، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم مـــا قدر لهم أن يقضوه بيننا من ايام حياتهم ، وكان شاننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافةالخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبدالله القسري أميرالعراق إذكان مسيحياً فأسلم وحسن اسلامه ، وكان أبوه لايزال على دينه فطلب اليه أن يبني له بيعة في قصره يقوم فيها باداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شانا من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب الى ربه .

ذلك ما نضرع اليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا ، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم ابنائكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم ــ وأساتذتكم آباؤكم ــ أن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود ، ومـا هم بجاهلين ولا جامدين ولكنهم شيوخ عاجزون .

الزهرة الذابلة

ورد الي من صاحب التوقيع الكتاب الآتي :

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح ، غير أني عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض « الحمى » العضال الذي ضعضعني وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني « الصمم » الكامل فضاعت بذلك آمالي واظلمت الارض في وجهي فرأيت ان أستغيث بك لعلك تسدي الي جميلا بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام .

٦ يناير سنة ١٩١٤ .

لا أستطيع ان أعزيك عن مصابك يا بني ، فهو فوق ما يحتمل المتحمل ، ويطيق الجلد الصبور ولو حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكان شاني معك شان اولئك الخادعين من المعزين الذين

يتخلفون ليلهم ونهارهم الى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقولوا للثاكل « لقد قدمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك » وللباكي أباه « ما مات من خلف مثلك » وللباكي أخاه « ان في الباقي عزاء عن الماضي » وللباكية زوجها « الشباب غض والرجال كثير » وللفاقد بصره « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك » وللمحتضر المشرف « ان في لقاء ربك عوضاً من لقاء الدنيا » ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك « لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع اقوال الكذب وكلمات السوء » وكأنما هم يحسبون ان الفواجع والرزايا صفقات تجارية اذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه ، هان عليه هذا لذاك واغتفر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون ان الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب او نفثة من نفثات الود ، ولا دخل للحساب والمعارضة في شيء من ذلك ، وان أقسى الآباء قلباً ، واصلبهم فؤاداً ، لو ساومه مساوم في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الارض والسماء لكان رأيه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله :

وما سرني ان بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وان الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من اولادها، والصديق يبكي فراق صديقه وان كثر اصدقاؤه في كل محلة يحل بها ، والزوجة تبكي زوجها وان كانت تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها، وان البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكاً وبؤساً يضن بحياته الضن كله اذا أحس بوشك فراقها وان علم أنه سينتقل

منها الى جنة عرضها السموات والارض ، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائهم ، وتصغير شانها في أعينهم ، ويلقون في نفوسهم الياس من ان يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس بإحساسها وتشعر بشعورها ، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها .

وأعوذ بالله ان اكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك ، او الغاشين لك فيها ، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت ، وكيف يستطيع ان يعزيك عن مصابك من لا يستطيع ان يعزي نفسه عن مصابه فيك ، فقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرت كأني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به وكان الذي اصابك من البلاء قد اصابني من دونك ، فلقد انقطع عنك بفقدك سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعاً من سبب وصلة ، فأصبحت وانت في دار الأنس والاجتماع ، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها ، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها احد ، ولا ترى بين يديك الا نصباً ماثلة ، وتماثيل جامدة .

تحسب العين أنهم جدا أحياء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء ، ولا رنة حداء ، ولا خرير نهر ، ولا تغريد طير ، ولا حفيف

شجر ، ولا زفيف ريح ، ولا ثغاء شاة ، ولا نقيق ضفدع ، ولا صرير جنـدب ، سواء لديك ليلـك ونهارك : وصبحك ومساؤك ، ويقظتك ومنامك ، فان فررت من وحشتك هذه الى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست الى الناس ساعة تتفرج [1] فيها مما بك ، لا تسمع شيئاً مما يقولون، ولا يعنيهم ان يسمعوا شيئاً ممـا تقول ، فـان قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفـاً من حروفهم ، او تتفهم حركـة من حركات شفاههم ، او إشارة من إشارات أيديهم ، أنكروا عليك نظراتك ، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم ، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم ورموا بهـا في وجهك من حيث لا تعلم ، فـان رأوا منـك أنك تقتضب الاحاديث اقتضاباً ، وتذهب منها في أودية غير أوديتهم ، وانك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس اسماعهم ، فتعلو به عليها ، او تنزل به دونها وأنك تبتسم في موضع التقطيب . وتقطب في موضع الابتسام اصبحوا ينظرون اليك بتلك العين التي ينظرون بها الى الاطفال الصغار والبله الاغرار فان ألممت بسر نظرتهم هذه اليك ألم بكمن الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله ، واصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه اليك ، وكل ابتسامة تتراءى لك ، واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس اليك من اصدقائك وعشرائك ، بـل من أبويك وأهليك فـلا يكاد يسلم لـك صديق ، او يصفو لك حميم .

---

(١) طلب الراحة والفرجة .

فاذا فررت من الناس نجـاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت الى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك ، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في ايامك الأولى ، ومـا انتهى اليه أمرك في ايامك الأخرى فـلا تنفعك خلوة ولا يؤنسك اجتماع .

واخوف ما أخاف عليك ان أستمر بك هذا الشأن ــ ولا أسال الله لك دوامه ــ وظللت تنطق ولا تسمع ، وتقول ولا تفهم ما يقال ان تصبح في يوم من ايامك لا سامعاً ولا ناطقاً ، فالسماع مـادة النطق الـتي يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير .

وكثير عليك يا بني وانت زهرة يانعة في روض الشباب وابتسامة لامعة في ثغر الآمال . وفجر مشرق في سماء الحياة ان تصعد عـلى هـذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة ، فلا تلبث الا قليلا حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك الا قليلا حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء .

فوارحمتاه لك يا بني مما بك اليوم ، ومما يستقبلك بـه الدهر غـداً ، فأسال الله تعالى لك ان يرفع عنك محنتك ، او يمنحك عيناً ثرة من الدمع لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سجلا على فؤادك

الملتاع فتبرد غلته ، وتفثأ لوعته ، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ اليها المنكوبون المحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الارض ولا في سبيل من سبل السماء ناصراً ولا معيناً ، والسلام عليك ـ من الراثي لك ، الباكي عليك ـ ورحمة الله .

★

الوجهاء

جرى بيني وبين احد الوجهاء المصريين الحديث الآتي :

الكاتب ــ ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء ، من السحب السوداء ؟

الوجيه ــ إن بين جنبي همــاً يعتلج ، وكمــداً يذهب باللب ويطير بشظايا القلب، وناراً من الحزن متأججة متطربة دخانها هذا الذي تراه.

الكاتب ــ أحق ما تقول وانت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصر غمدان ، وخورنق النعمان ، وحور وولدان ، وظل ظليل ، ونسيم عليل ، وخزائن تموج بالذهب ، موج التنور باللهب ، ذلك الى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس ! وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة ، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك ؟

الوجيه ــ أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر ، والشقاء المقبل في السعد المدبر ، واني لأرى في السماء غمامة دكناء يوشك ان تنفجر بالصاعقة

الكبرى والكارثة العظمى .

الكاتب ـ ما كنت أحسب ان الشقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الاحرف الذهبية ، ألا يسدد سهمه اليك ، ولا يدور بدورته عليك .

الوجيه ـ متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه، فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي ، يديرها فترى الاسود في مكان الأبيض ، والأبيض في موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها ، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد .

الكاتب ـ هل لك ان تحدثني من اي منفذ نفذ الدهر اليك وما عهدتك شارباً ولا عاهراً ، ولا مقامراً ولا مستهتراً ؟ وما للدهر مدخل يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل .

الوجيه ـ أين يذهب بك أيها الصديق ، وهل يؤتي الاغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة ؛ وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم، إلا الشغف بنظرة الامير ،ولفتة الوزير ، وزورة المدير ، وأنت تعلم ان رجلا مثلي لا يمكن ان يكون له مطمع في المجد الصحيح ، فلست بصاحب علم فافخر به ، ولا صاحب قلم فامتُ بما يمتّ به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ولا سبيل اليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز

روكفلر ، وقد انفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة ، في بناء القصور نزلاً للحكام ، وغرس البساتين منازه لهم ، وإعداد الفرش والآنية لمآربهم وولائمهم ، فلما نضب معين الذهب ، وعيت الأرض ان تثمر فوق ما تثمر لجأت الى مصرف من المصارف المالية فأثقلني بالديون ، وارهقني بالطلب ففزعت منه الى آخر ، ثم الى آخر فكنت كناقس الشوكة بالشوكة ، أو غاسل الدم بالدم ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت ان جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ، ودور وقصور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائد الصيارف ، وهأنذا اليوم طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين : قضاء الأرض وقضاء السماء .

ذلك كل ما يستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ما تاتي به ، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب ، وزخرفة الباطل ولا تنفس عليه بؤسه الكامن ، وشقاءه الخفي ، فهو أتعس خلق الله ، واكثرهم هماً وأثقلهم مئونة ، واخسرهم حاضراً ومستقبلاً ، يكون عنده من الضياع او العمائر جملة لا تثمر له من المال اكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيهاً ، والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير ، كانما هي عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمدّ لكل غريب نزل بلده مائدة ، ويسبغ العطاء على كل عابر سبيل مر بحيه ، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وان كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ويبتاع تذاكر حفلات

الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها واشكالها وان كان لا ينتفع بواحدة منها ، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالإنسان ، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير او المأمور بابتياعها وان كانت في علم الأرتناطيقي او علم المنطق وكان هو عمدة او شيخ بلد ، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الاوفر الا اذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وامثال ذلك مما تضرب به الحكومة علينا ضرب الجزية على اهل الذمة في سالف الازمان ، والتي لا فرق بينها وبين خراج الاطيان وعشور النخيل وعوائد الاملاك .

الكاتب — انها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام ، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم سجناً ، وكل ما في الأمر ان رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم الى هذه الاعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة .

الوجيه — لا أزال اكرر القول : ان رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون ، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد ، مجبور باطناً مختار ظاهراً ، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه ، وأما الباطن فهو ان الوجيه منا — كما علمت — مفلس من جميع انواع المجد الا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم الا على مقدار

ما يفتح من ابواب خزائنه لهم، فنا من يزوره المدير او المفتش لأنه وهاب الآلاف ، او المأمور لأنه من اصحاب المئات ، ومن لا يزوره احد منهم ولا ينهض له اذا أقبل ، ولا يشيعه اذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعاً ، ولا يكتب رقماً في قائمة اكتتاب ، فلا يلبث ان يسلس قياده ، ويصحب عناده ، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير ان تشهر عليهم سلاحاً ، او تعد لهم سجناً ، ولكنها تبلغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و « الويركور » و « البطانطا » والعوائد الشخصية في عدة اعوام ، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام — عام الأزمة والجدب — فوجدت أني دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية .

الكاتب — هب ان الأمر صحيح كما تقول ، فالحكومة لا تودع هذا المال خزانتها ، ولا تقضي به غرضاً من اغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها ، وتقدمها وارتقائها .

الوجيه — ذلك ما يجب ان تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من اموال الأمة لهذه الاغراض التي تذكرها ، ولكنها تضن بمال هي في حاجة اليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الاجانب منهم وإقرار عيون السياح الاوروبيين بالمناظر البهيجة والمشاهد الجميلة ، فلا ترى لها بداً من حمل تلك الحمالات على اعناقها بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر الى ما تتكبده في هذا السبيل مما

يذيب الشحم ، ويعرق العظم ، وليتهـا كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيـه فتـدرك في ذلـك سياسة الحكومات السالفة المعروفـة باستبدادها وإرهاقها ، فقد حكي عن احد رؤسائها أنه علم ان أحـد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة أنهم ضاقوا بـه ذرعاً فاحضره في مجلسه وأمر ان تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل ، ثم أمر ان تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتـألم ، فقـال له هكـذا يجب ان يكون أخـذ الاموال من الرعية ، متفرقاً تحتمـله ، لا مجتمعاً تتألم له .

الكاتب ــ حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال في سبيله ، وللآخرة خير وأبقى .

الوجيه ــ من اين يأتيني الثواب والاجر ، وهل يثاب المرء الا على قدر نيته وإخلاصه في عمله ؟ وإني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من احوالهم . ومارست من طباعهم ، أننا لا نريد من بذل ما نبذل الا رضـا الحاكم ، والتودد اليـه ، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة ، وقضـاء المآرب والحاجات أخرى ، ووالله لقـد أفسد علينـا هؤلاء القوم بخطتهم هـذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الريـاء في الإحسان والنفـاق في المعامـلة خطـة قست معهـا قلوبنـا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى ان أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد الى جاره البائس الفقير الا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهـد فينا الفقراء ، ولوت المساكين وجوههـا عن أبوابنـا وجفانـا ذوو الرحم

والاقرباء ، واصبحت قصورنا في نظرهم قبوراً يستدرون لها الرحمات ، لا مناهل يرجون منها الصدقات . وأقفرت « مضايفنا » الا من عربدة المطربشين ورطانة المبرنطين فمن اين لثواب الله ان يعرف طريقنا عافاك الله ! ؟

الكاتب ـ أتغضبك كلمة الحق ان قلتها لك أيها الصديق ؟

الوجيه ـ قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل .

الكاتب ـ أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه، وتمد يدك الى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه ، فقد زعمت ان مجد القربى من أولياء الأمر باطل ، ولقد أصبت فيما تقول فما شانك به ، وما نهوضك اليه ، ومالك واللصوق بأمر انت تعلم قلة جدواه ، وسوء مغبته ، ولقد كان طريق مختصر الى المجد الصحيح والشرف الصميم ، لو كنت اكبر منك همة ، وأصح رأياً ، وأقوى عزيمة ، فمجد الكرم ليس باقل شاناً من مجد السيف والقلم ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله الا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب وما كان يصيبك في الاول من الشقاء ما أصابك في الثاني ، فالكريم معان على أمره ، ومبارك له في عيشه ، متى صح له معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه الى تفقد الضعفاء ومواساة الفقراء ، من حيث لا يبتغي على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر ، ورفع الذكرى في الآخرة والأولى ، ولكنكم بخلتم باموال الأمة

عليها واحتجنتموها من دونها ، وأبت لكم هممكم الضعيفة ان يكون لكم كما كان لأمثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجيء والمستشفيات تسمى باسمائكم ، وتسجل في صحيفة أعمالكم فتنالون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بان سلط عليكم من يعبث بعقولكم ، ويلعب باموالكم ، ويرغمكم على الإحسان إرغاماً ، من حيث يكون له الغنم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكراً حصلتم ، ولا مالاً حفظتم ! وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .

*

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته ، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها ، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها ، فان كان صحيحاً ما يقولون من ان ساكن القبور يستطيع ان يجد بين صخورها ورجامها منفذاً يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل ، وثناء عاطر ، وسيرة صالحة ومجد باق ، فان نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار ، وصالح الاعمال أوفر الأنصبة وأجزلها .

ما أنعم الله على عبده نعمة أثنى قيمة ، ولا أغلى جوهراً ، ولا أحسن أثراً من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب ، فهو يعتقد انه مجزى على عمله، مكافأ به، مؤمناً كان أم ملحداً، معترفاً بنعيم الآخرة أم منكراً له ، فان كان الاول ساقه الى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد

وحورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وان كان الثاني ساقه اليه شغفه بالذكر الجميل ، والسيرة الصالحة ، والحياة البـاقية في ألسنة الاجيال وبطون التواريخ ولولا هاتان الجنتان ، جنة المؤمنين وجنة الملحدين ، ما جدّ في هذه الحياة جاد ، ولا عمل فيها عامل .

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العمل الصالح والجزاء عليه معاً ، وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفىء ذبالة حياته ، وتحترق فحمة شبابه ، حيث تموت في قلبه لذة العظمة ، وتنضب في فؤاده شهوة المجد ، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعـات فراغه يستطيـع أن يسكن فيهـا الى نفسه ، ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء ، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة ، إما حياة الأجر ، أو حياة الذكر .

مات جورجي زيدان فنحن نبكيه جميعاً ، أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظراً من أجمل المناظر وأبهاها ، لأنه يعلم أن هـذه الدموع التي ترسلها وراء نعشه أو نمطرهـا فوق ضريحه إنمـا هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه ، والإعتراف بفضله ، والثناء عـلى عمله ، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتتب بـه في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخـالد ، وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون .

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده واخاءه ، وبكاه جاره لأنه كان يجد في جواره لذة الأنس وجمال العشرة ، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله ، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه ، وبكاه قارىء كتبه لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة ، وجمال الاسلوب ، وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها ، وبكاه قارىء رواياته لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها ، عوناً له على هموم الحياة وآلامها ، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله .

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها ساكنها ومتحركها ، جامدها وسائلها ، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها ، او صورتها التي تتشكل بها وتاخذ منها الاغراس نماءها ، والازهار ألوانها ، والنار حرارتها ، والاجسام الحية قوتها ، والاجسام الجامدة صورتها ، والاجواء طهارتها ونقاءها ، والآفاق جمالها وبهائها وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد .

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل ، والهمة والنشاط ، يكتب احسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب ، وينشىء اجمل الروايات ويناقش ويناضل ، ويبحث وينقب ، ويستنتج ويستنبط ، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آن واحد ، لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره . ولا يشكو مللا ولا ضجراً ، ولا يستشعر خوراً ولا فتوراً ، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه ان قليلا من العلم

يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير ، والعمل القليل .

ولو شئت ان اقول لقلت : ان جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت الى مصر في اواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييراً كلياً ، وغرست في صحرائه القاحلة الجدبة أغراس الجد والعمل ، والشجاعة والإقدام ، والهمة والاستقلال ، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون ، وينشؤون الجرائد والمجلات ، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية ، وحياة أمتهم الادبية ، ويتقون بها مذلة الوقوف على ابواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها ، ويسالونهم ان يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها فاما عطفوا عليهم فالقوا اليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد ، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية .

وكان شريف النفس بعيد الهمة ، متجملاً بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز . ولا يداهن ولا يجامل ، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ، فكتب وهو المسيحي الأرثوذكسي تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة اذا رآها ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه في مجالس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها ،عربها وعجمها،

جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر ، فأقام بهـذا العمل العظيم لهـذا الدين القويم حجته أمـام اولئك المتعصبين من الاوروبيين الذين لا يثقون في خبر من اخباره ، ولا في بحث من أبحاثه ، بحديث شيعته وأبنائه ، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ ، بلسان التاريخ لا بلسان الدين ، والمثـل الاعـلى للعـالم يتعـلم منه كيف يستطيع ان يتجرد من عواطفه ، وميول نفسه ، وخواطر قلبه أمام الامانة والعـلم ، والوفاء بحقـه .

وكان مستقيماً في عمله ، أميناً في علائقه ، لا يكذب ، ولا يتلون ولا يخيس بعهـده ، ولا ينكث وعـده ، ولا يكسو بضاعته لوناً غـير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم ، فتعلم منه العاملون ان الكذب في المعاملة ليس شرطاً من شروط الربح ، ولا سبباً من اسباب النجاح .

وكان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبلـه ومن بعده فريق المقاطعين في هـذا البـلد الذين لا ينطقون ، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين ، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكمنوا وراء أكـة الدين ليرموه فيصموه ، وقالوا إنـه شوه وجه التاريخ الإسلامي ، وعبث بحقائقه ، ولم يسالوه من اين نقل ، ولا كيف استند ؟ بل سالوه لِم لم يكتبه كما كتبوا ؟ ويستنتج منه مثـل مـا استنتجوا ؟ كانمـا لم يكفهم منـه ان يروه بينهمْ مسيحياً متسامحاً حتى

أرادوا منـه ان يكون مسلماً متعصباً ، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون : وينهج فيـه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله ، وخبث النية في مذهبه ، ولم يستطيعوا ان يروضوا أنفسهم الجامحة على ان يقولوا : ان الرجل باحث مستنتج ، يخطىء مرة ويصيب أخرى ،او يقولوا ان له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هـذه لتلك ، وما أحسب ان أحداً منهم كان يعتقـد شيئاً مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون ان الدين سلعة تباع وتشتري ، وان سلعته ملك لهم ، ووقف عليهم ، لا يجب ان تعرض في حانوت غـــير حانوتهم ؟ وكانوا يظنون ان الرجل تاجر مثلهم يريد ان يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها ، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه ، واستثقلوا ظله ، وقالوا مرة : إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه ، كانما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى ، وقالوا أخرى : إنه سوري دخيل وفد على هذا البلد مسترزقاً او متجراً ، فما هو بمخلص ولا بأمين ، وفاتهم ـ عفا الله عنهم ـ أنه ان كان ضيفاً فليس من أدب الضيافة ، ولا من خلال المروءة والكرم : ان يمن المضيف على ضيفه بيده عنده ، وان يعد عليه لقيمانه التي يطعمها على مائدته ، وان كان تاجراً فقد باعهم بهـذا النذر الخسيس من متـاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله ، وينبوع ذكائه ومادة حياته ، فمـــا كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الرابحين .

ووالله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الايطالي

وللفاجر الارمني ان يفتح كل منهم في كل موطىء قدم من مدنهم وقرارهم حاناً يسلب فيه عقولهم ، او مقمراً يسرق فيه أموالهم ، او ماخوراً يهتك فيه أعراضهم ، فلا يطاردونه ولا يحاربونه ، ولا يسمونه دخيلا ولا واغلاً ؟ ثم يضيقون ذرعاً بالعالم السوري او العراقي او المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم ، ويهذب نفوس أبنائهم ، ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والاقدام .

ذلك هو شقاء الامم ، وهذا هو جواب السائلين عن اسباب سقوطها وانحطاطها .

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله ، بل كان شانه معهم ان كان يعتب عليهم ولا يشتمهم ، وينبههم الى أدب المناظرة وواجباتها ، ولا يؤنبهم ، ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ، ولا يمكر بهم ، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم ، وان كان مخطئاً ، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل ، وسوء الخلق ، وضيق العطن ، وان كانوا مصيبين .

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في بناء الاخلاق الفاضلة في هذه الامة ، فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون ان يتناظروا ولا يتشاتموا ، وان يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون ان يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف ، فان تم لهذه الامة في مستقبل

حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شؤونها وأغراضها فلنتذكر دائماً ان جرجي زيدان كان احد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة ، دولة الآداب والاخلاق .

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات ، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون ، وإنما الذي يعوزنا روح عالية تخفق في سماء هذه الامة خفوق النجم الزاهر في سمائه ، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها فتبعث العزيمة في قلب العاجز ، والشجاعة في فؤاد الجبان ، وتقوم من الاخلاق معوجها وتصلح من الآداب فاسدها ، وتثبت من العقول مضطربها ، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف : ان قيمة المرء في حياته أداء واجبه الإنسانية أولاً ولامته ثانياً ، ولنفسه أخيراً ، وان الحب سعادة لإنسان ، والبغض شقاؤه وبلاؤه وان الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب ان الاول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفيه ومحاربيه ، وان الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه ، وان الله تعالى أوسع رحمة ، وأعلى حكمة ، من ان يسدّ في وجوه عباده كل طريق للوصول اليه الا طريق السيف والنار ، وان هذه الاحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها في صدورهم الاديان نفسها، بل رؤساء الاديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل ، وان الذين يقدسون الاحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ، ومقوماً من مقوماته ، إنما يقولون من حيث لا يشعرون : ان الإلحاد في العالم ، والفوضى الدينية فيه ،

وعبادة الشمس والقمر ، والترب والحجر ، أنفع للمجتمع واحسن عليه عائدة من عبادة الله المعبود .

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الارواح العالية تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلا ثم فقدناها أحوج ما كنا اليها ، فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه .

★

الكاتب كالمصور ، كلاهما ناقل ، وكلاهما حاك ، الا ان الأول ينقل مشاعر النفس الى النفس ، والثاني ينقل مشاهد الحس الى الحس .

وكما ان ميزان الفضل في التصوير ان تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد كذلك ميزان الفضل في الكتابة ان يكون المكتوب في الطرس، خيال المكنون في النفس .

بهذه العين التي لا ازال انظر بها دائماً الى الكتابة والكتاب ، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم ؛ كنت أقرأ ذلك الاسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته ، فاتخيله مرآةنقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جلية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام .

وقليلا ما كنت أجد فينفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه لأن الكاتب ان استطاع ان ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه ، أو براعة معناه ، أو سعة خياله ، أو قوة حجته ، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا اذا كان من الصادقين المخلصين .

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه في طهـارة لسانه ، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته ، وكان خير مـا يعجبني منه ترفعه عن مجـاراة المتكبرين من الكتاب في كبريائهم . ونزوله في كثير من مواقفه الى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون لأنه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الألفاظ ولأنه كان يؤثر ان يتعلم عنه الجاهلون على ان يرضى عنه المتحذلقون .

وان كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون ، فلا أعلم ان أحداً في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان ، فوارحمتاه له ، ووا أسفًا عليه .

★

احترام المرأة

نعم ان الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أمره، وسر حياته، من صرخة الوضع الى أنة النزع .

لا يستطيع الاب ان يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الام، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيلا الى قلب واحد، يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد، وهي التي تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله، غير شاكية ولا متبرمة، بل تزداد شغفاً به، وايثاراً له، وضناً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته، ولو شئت ان أقول لقلت ان سر الحياة الإنسانية، وينبوع وجودها وكوكبها الاعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة هي « قلب الام » .

لا يستطيع الرجل ان يكون رجلا حتى يجد الى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة ، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها وحسب المرء ان يعلم انه سيد وأن رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد في شؤون حياتها عليه ، حتى يشعر بحاجته الى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً حتى يتم له ما يريد ، وما نصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شئون حياته ، وسلوك الجادة في سيره ، ولا هداه الى التدبير ومزاياه ، والاقتصاد وفوائده ، والسعي وثمراته ، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة ؛ والدأب والمثابرة ، مثل دموع الزوجة المنهلة ، ويدها الضارعة المبسوطة .

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف ، والحب والإيثار ، ما يجد في قلب ابنته الفتاة، فهي التي تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته ، وقلبها مستودعاً لأسراره ، وهواجس نفسه ، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه ، وتصغي الى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ، ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظمى لا يهونها عليها ، ولا يخفف من لوعتها في نفسها ، أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً ، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ، ويشتجرون في الساعة التي

يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات .

وجملة القول ان الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة ، لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها الى مسرات أو ترويحها عن نفوس اصحابها على الأقل ، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها .

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول أن الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنياً بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم ، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك .

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها الينا وجازيناها بها خيراً ؟

لا .. لا ، لأننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا وخوالج نفوسنا فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود ، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والاجلال ، وهي الى نهلة واحدة من نهلات الاجلال والاعظام أحوج منها الى شؤبوب متدفق من الحب والغرام .

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد، لا رحمة الصديق بالصديق وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا انها عفة الخدر والخباء ، لا عفة النفس والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار انها إنسان كامل لها الحق في الوصول الى ذروة الانسانية التي تريدها ، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ، بل لنعهد اليها بوظيفة

المربية او الخادم او المرضة ؛ او لنتخذ منها ملهاة لأنفسنا ، ونديماً لسمرنا ومؤنساً لوحشتنا ؛ أي أننا ننظر اليها بالعين التي ننظر بها الى حيواناتنا المنزلية المستأنسة لا نسدي اليها من النعم ، ولا نخلع عليها من الحلل، إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً.

إنها لا تريد شيئاً من ذلك ، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته ، ولا أداة لهوه ولعبه ، بل صديقته وشريكة حياته .

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه..

إنها لم تخلق من أجل الرجل، بل من أجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه .

يجب ان ينفس عنها قليلاً من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً مستقلاً ، وحياة ذاتية ، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها ، لا أمام الرجل .

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح ، وتستروح رائحته الأريجة، ليستيقظ ضميرها الذي أخمده السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ، ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطاناً ، وأقوى يداً من جميع الوازعين المسيطرين .

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات .

لا يمكن ان تكون العبودية مصدراً للفضيلة ، ولا مدرسة لتربية

النفوس على الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكريمة ، الا اذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور ، والموت علة للحياة ، والعدم سلماً الى الوجود .

كما لا أريد ان تتخلع المرأة وتستهتر ، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم ، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها ، كذلك لا أحب أن تكون جارية مستعبدة للرجل ، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها ، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير .

وبعد ، فإما ان تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه او اقل منه . فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق، والنظير للنظير ، وإن كانت الأخرى فليكن شانه شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده ، اي انه يعلمها ويدربها ، ويأخذ بيدها حتى يرفعها الى مستواه الذي هو فيه ، ليستطيع ان يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم . والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله ، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه .

* * *

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ، ويصفر أخرى، فقـال رجل من قريش لآخر بجانبه : مـا له لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب ! ؟ فقـال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه ، وهو غير ملوم إن جزع .

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفـلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة ، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه ، وهو الرجل الجلد الصبور الذي مـا جزع في حياته قط ، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأحرجها ، وأذهبها بالعقول والألبـاب فما اشبه هـذا البطل الباكي ، بذلك البطل الجازع .

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه

أنفة وإباء ، حتى اذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها الا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل .

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وانطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين ، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالاعجاب بفصاحة الفصيح ، أو نباهة المؤرخ ، أو بلاغة الشاعر ، أو إبداع المبدع في معانيه ، او إحسان المحسن في إلقائه ، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً ، شيوخاً وشباناً ، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم ، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال .

ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه، او عالماً كان ينتفع بعلمه، او كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه ، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه .

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون في احكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر. فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمراً، وتارة يكون خلاً؛ ويكون حيناً صافياً وأخرى كدراً، والوعاء باق على صورته لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها؛ فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها كذلك لا يجوز ان نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك، فليعلم الناشىء المتادب أنه ليس للفظ كيان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأن القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها

وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء او الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون .

لا يضطرب اللفظ الا لأن معناه مضطرب في نفس صاحبه ، ولا يغمض الا لأن معناه غامض في نفسه ، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع عن الإقناع ، وما البيان الا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو قبيح ، أو مضيئة فهو مضيء ، أو مظلمة فهو مظلم ، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها ، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه .

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة :

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا	ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل على اكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها ، بل هو رأس المعاني وسيدها ، والغاية الأخيرة منها ، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينيه ، فقد أتى بأجمل المعاني في

أجمل الأساليب .

وإن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

لخير الف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة ، والخواطر المبتكرة لا تمثل الحقيقة ، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها ، كقصيدة المتنبي التي مطلعها :

* أيطمع في الخيمة العذل *

ويقولون أيضاً عن هذا البيت :

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ، وهم واهمون فيا يقولون ، فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هـذا البيت بل المعنى خطر على اذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه ، فالصقوه به إلصاقاً ، وتوهموه له توهما ، أمـا البيت نفسه فـلا معنى له مطلقاً ، وهـذا شان جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق ، او كلمة غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين، أولى من ان تكون معاني القائلين.

اذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك ، او احزنك ، او أقنعك ، او ارضاك ، او هاجك وانت ثائر ، او ترك أي أثر من الآثار في نفسك ، كما تترك النغمة الموسيقية اثرهـا في نفس سامعها ، فاعـلم أنـه من بيوت

المعاني ، وان هذا الذي تركه في نفسك من الاثر إنما هو روحه ومعناه ، وان مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه ،وثقل عليك ظله ،وشعرت بجمود نفسك أمامه ،وخيل اليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها ، فاعلم أنه لا معنى له ، ولا حياة فيه ، فان وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول ان يوسوس لـــك ان وراءه هـذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن في طياتها ، فكذبه ، وفر بنفسك وأدبـك وذوقك منـه فراراً لا عودة لك من بعده .

هذا هو الميزان الذي يجب ان تزن بـه الكلام ، ونصيحتي اليـك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة الـتي يضعها واضعوهـا من الادباء لأشعارهم خاصـة ، ويزعمون أنهـا للشعر عامـة ، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن بـه مـا تسمع ، فكما أنـك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ، ولا تلجأ الى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك عـلى وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، وكذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام ، واستهجان مـا تستهجن منه ، الا على شعور نفسك وإلهام حسك .



الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء . ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير ، وتمثيل الحقيقة، واكتناه اسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس وامثال ذلك من الاغراض والمقاصد ، على ان تكون تلك النغمة الموسيقية اساسها والروح الساريـة فيهـا ، ليتحقق الفرق بـين الشعر

والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها ،وحججها وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برنانه ونغماته ، واهازيجه ونبراته .

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الاولى الى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه الا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده ، وسيموت شعر جميع الشعراء في هـذا العصر ولا يبقى منـه في المستقبل الا كما بقي من الماضي في الحاضر .

*

الاداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام واتخذوا لانفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه ، فاصبحوا متبذلين في شهواتهم مستهترين في ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجرىء الذي لا يخاف مغبة ولا يخشى عاراً واهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن الى مدارسهن،او اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب الى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وانواع الاشراك لأصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار ، وهذا ما اريد ان اتكلم عنه قليلاً ! ؟

أصحيح ما يقولون عنكم ايها الفتيان التعسون انكم تتخذون صلة العلم التي هي اشرف الصلات واكرمها صلة فساد بينكم وبين اولئك

الفتيات الضعيفات وان الحبالة التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي ، حبالة القلم الذي هو افضل اداة للخير ، واعظم وسيلة للفضيلة ، وخير واسطة للأدب والكمال ؟

اصحيح ما يقولون عنكم انكم تكتبون اليهن ليكتبن اليكم ، وتهدون اليهن صوركم ليهدين اليكم مثلها ،فاذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن اخذتم تنشرونها في كل مكان ، وتعرضونها في كل معرض ، واخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها او بجماله ورونقه ، كما يفخر المرء بافضل المزايا واشرف الخصال ؟

اصحيح انكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل سبيل ، وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن ، وحيث ذهبن الى عمل ، او خرجن لزيارة ، او برزن في مجتمع، فاذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن ، وربما توسلتم اليهن بأخواتكم وبنات اعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الاصدقاء حتى يجتذبنهن الى منازلكم ؟

اصحيح أنكم تقضون اكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام واكثر ايامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم الى ساكنيها ، وربما جلستم على ابوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها علها تنفرج لكم عما تحبون ؟

اصحيح أنكم اصبحتم لا تقنعون في أمر اولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد اخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا

موقعاً عليه بتوقيعاتهن ، مستشهداً عليهن بصورهن وخطوطهن ، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلت من ايديكم ، والحياة بعيداً عنكم في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ، عذارى او متزوجات ؟

اصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن ، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها ، فلا تلبث ان تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن انفاسهن الاخيرة في أقبية الحانات او بين جدران المواخير ؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فاصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء ، وتزدلفون اليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن ، واصبح الرجل منكم لا هم له في حياته الا ان يتجمل في ملبسه ، ويتكسر في مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور ، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهداً شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم ، وحتى سرى التأنث من اجسامكم الى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة واخلاقها غير الاسماء والالقاب ؟

ان كان حقاً ما يقولون كله او بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف ، سلام من لا يرجو عودة ولا

ينتظر إياباً .

ان هـذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها ، وتعبثون مـا شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أم اولادكم ، وعماد منازلكم ، ومستودع اعراضكم ومروءاتكم ، فانظروا كيف يكون شانكم معها غداً ،وكيف يكون مستقبل اولادكم وأنفسكم على يدها .

اين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم ان انتم افسدتم الفتيـات اليوم ! وفي أي جو يعيش اولادكم ويستنشقون نسمات الحيـاة الطاهرة ان انتم لوثتم الاجواء جميعها وملاتموها سموماً واكداراً .

لا تتكون اخلاق الفتاة في عهد طفولتها او في عهد شيخوختها ، بل في عهد شبابها ، فاذا سلم لها ذلك العهد فقـد سلم لها كل عهـد بعـد ذلك ، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة ، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج ، وخـــير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل .

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوهـا غداً زوجـة طاهرة شريفة في منازلكم ، بدلاً من أن تجـدوهـا فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات .

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحـات شريفات يحفظن لكم اعراضكم ، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم فتلك جنـاية انفسكم عليكم ، وثمرة مـا غرست أيديكم ، ولو انكم حفظتم لهن مـاضيهن لحفظن لكم حـاضركم ومستقبلكم ، ولكنكم

أفسدتموهن ، وقتلتم نفوسهن ، ففقدتموهن عند حاجتكم اليهن .

إنني لا أفزع في أمركم الى التانون ، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي ، ولا الى الحكومة، فالحكومة مشغولة بشان نفسها عن شأن غيرها: ولا الى الدين فقد ضعف شانه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم ، ولا الى آبائكم وأولياء أموركم ، فقد عجزوا عنكم ، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم ، بل أفزع في امركم الى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فاصغوا الى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه اليكم ، وصوت الضمير اقوى من كل صوت في العالم.

أصغوا اليه تسمعوه يقول لكم : إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا اليهن اعينكم وأيديكم إنما هن اخواتكم الحميات يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهي البلد ، وشرف الأخوة وهو الملجأ الأمين لأعراض الاخوات وشرفهن .

يجب أن لا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها . لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي ، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان ، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف .

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت اليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها ، فلما تزوجت ــ وكان لا يحب ذلك منها ــ أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة ، ثم ارسلها مع كتاب وشاية الى زوجها ليلة

عرسها ، فما لبثت ان خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها .

وحدثني من اثق به ان كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن الا بعد ان يأخذن على انفسهن عهداً امام اخلائهن ان يكن لهم بعد الزواج ، اي بعد ان يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها ، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل الا وردت عليه ليلة البناء بها او في صبيحتها كتب الوشاية بها من الاشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت اليهن ، فانتهى امرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار .

نحن في حاجة الى ان نعلم بناتنا ، لأننا لا نريد ان يعشن جاهلات متأخرات ، فتنحوا عن طريقهن ايها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن الى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن واعراضهن ، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن ، بل ليضفن الى فضيلة الادب والكمال فضيلة العلم والمعرفة .

افسحوا الطريق لهن ، وافسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها ، والأرمل المسترزقة لبنيها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها الا بنفسها ، والذاهبة لصلة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الارض سعياً وراء رزقها ، وقضاء مصالحها ، فإن ابيتم عليها ذلك فاعترفوا انكم اعداؤها القساة المتوحشون لأنكم تأبون عليها الا احدى الخطتين القاتلتين : إما الجهل الدائم ، او السقوط العظيم .

الفضيلة الفضيلة ايها القوم ! فهي العزاء الوحيد لهذه الامة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها ، والامل الباقي لها ان ضاعت ـ لا قدّر الله ـ جميع آمالها وأمانيها ، والشرف فربما جاء يوم ندير فيه اعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك ايدينا شيئاً سواه .

★

المؤتمر الاسلامي

سرني منظر ذلك الرجل[1] العظيم، والداعي الكريم، وهو قادم الى مصر يجتاز التخوم ، ويتخطى البلدان ، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء يقوده الأمل ، ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه همة عالية ، ونفس كبيرة وقلب مشيع ، وفؤاد في الافئدة ، كالنسر في الطيور ، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول ان يظلله بجناحيه .

سرني منظره ، وان لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول ان يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو الى الله تعالى دعوة النبوة الاولى ، الا ان تلك عربية تدعو الاعجمية ، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى .

هنا ذكرت الإسلام ومجده ، والإسلام وجنده ، والإسلام ودولته ،

(١) كتب لمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير اسماعيل بك غصبرنسكي الروسي الى مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة الى مؤتمر إسلامي عام .

والإسلام وصولته ، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول : والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه ، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحاً اسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره ، حتى اقترب منه فتبينه فاذا هو اعرابي قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والاعرابي راكب لا يعرفه ويسأل ما فعل الله بسعد وجنده ، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن ، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره ، وتراث مرازبته ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع ، وفرحاً بما تم.وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، الى حيث يستنقذ الثغور ، ويستخلص الامصار ويخوض جمرة الحرب المتاججة ليفتدي بنفسه أجساماً ان لم تلتهمها النيران فكانه قد من صخر ، وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الارض لعب الصبي بكرته ويخترق بسفائن البحر رمال القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد في معبد أيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق الى الغرب فانشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا ، وذكرت مع ابطال الحرب ابطال السلم فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالي وحكمته ، وابن رشد وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبد الملك وكياسته ، وذكرت مدارس بغداد وبخاري والاسكندرية والقاهرة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة ، وذكرت مترجمي كتب اقليدس

وبطليموس وارسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء وذكرت مخترعي البنـدول والبوصلة « بيت الإبرة » والساعة الدقاقة الـتي أهداها الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا ففزع منهـا سامعوها فزعـاً شديداً ، وسموها شيطانـاً رجيمـاً او آلة سحرية او مكيدة عربية الى كثـير من امثال هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية .

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ،ورماه بنكباته ، فأصبح أثراً من الآثار ، وخبراً من الاخبار ، وعليلاً حار فيه أطباؤه ، ومـله عواده وظل مترجحاً بين داهيتين ، ومضطرباً بين غايتين إمـا ان يموت موتة أبدية ـ وبالله العياذ ـ او يحيا حياة مادية ، لا حيـاة أدبيـة ، وينهض جامعة تجارية ، لا جامعة دينية ؛ ما دامت قاعدة الحكومات ، وما دامت الحكومات عدوة الاديان ، وما دامت الاديان لا تستطيع التحليق الا في فضـاء من الحرية لا ينتهي البصر فيـه الى مـدى ، لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب اذا عثر بـين اوراقه على رسائل الحب ، وأناشيـد الغرام ، وأمضني مـا يمض العاشق المفارق ، اذا مر بالآثار واطـلال الديـار ، فرأى النـؤى والاحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الذيول ، فذكر ما كان ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر .

وود بجدع الأنف لو عاد عهدها وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهليـة الأولى بـأحوج الى الاصـلاح الديني من الجاهليـة الأخرى ، بل ربما كانت هذه احوج من تلك اليه .

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها الى الله زلفى ، وجاهليتنا تعبد الاحجار والاشجار ، والاحياء والاموات ، والابواب ، والكوي ، والقواعد والاساطين : تبركا ، او تقربا ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظاً متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه .

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوباً ، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتاً ، بل آحاداً وافراداً ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الأخ واخيه ، والأب وبنيه .

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الاوتار ، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات ، وكان افظع ما في جرائمهم وأد البنات ، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار ، وكان بعضهم يبعي على بعض بسرقة ماله ، او استياق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا ، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الاوراق وتحريف الصكوك ، وتقليد الاختام ، والبراعة في النصب والاحتيال ، يكاد يستوى في ذلك العالم والجاهل ، والشريف الهاشمي ، والفلاح القروي .

وليتنا إذ اخذنا جاهليتهم اخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها ، ولكنا أسأنا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم ، وغيرتهم وحميتهم وعزتهم ومنعتهم ، فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى احوج الى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الاولى ؟

نبئني عن الإسلام اين مقره ومكانه ؟ واين مسلكه ومضطربه ؟ وفي

أي موطن من المواطن حل ، ومعهد من المعاهد نزل ؟

أفي الحانات والمواخير التي يغص بها الفضاء ، وتئن منها الارض والسماء ، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء ؟ كانما هم يشربون الماء الزلال ، ويغشون البضع الحلال ، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقية في عمله ، او الاحتشام في أمره ، سموه جباناً جامداً ، او متكلفاً بارداً ، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية ، والمعاهد الدينية ، والقضاءين الشرعي والنظامي ؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح ، والغبن الفاحش ، مزخرفاً بالاقوال الكاذبة ، والأيمان الباطلة ؟

أم في مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطان الاكبر على سلطان العدو وسلطان الذمة وسلطان الشرائع ، اللهم الا ما كان من تلك الالواح المكتوب فيها (العدل اساس الملك) او (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) ؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام ، وكانت تلك الاعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم لكفت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ويحسبونها حسنات ، لغفران تلك السيئات ؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسما بلا روح ،وعلماً لا عمل ، كانما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الداثرة ، او أحد الاديان

الغابرة ، وحيث يتلقون كشكولاً عجيباً وخلقاً غريباً من الاكاذيب ، والترهات ، فلا تكاد تسمع من أفواههم الا حديثاً موضوعاً ، او قولاً مصنوعاً . او خرافة تاريخية ، او بدعة دينية ، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات ، والتحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر ، وهي بعينها الاخلاق والرذائل التي ما جاءت الاديان الا لمحاربتها ، والقضاء عليها ، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الالعاب الجبازية،والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات ؟

ان أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً ، وللاسلام صلاحاً ، فليبدأوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية ، لا تربية مادية ، أي أنهم يدخلون الى الاصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ، والإسلام وان كان دين العقل والفطرة ، والاصلاح ، الا ان الخطر كل الخطر على المسلمين ان يكون في نظرهم تابعاً للعقل ، وان يكون العقل الحكم بينهم وبينه ، والخير كل الخير في ان يكون الدين حاكما والعقل مفسراً ومبيناً ، فاذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شيء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين : الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك في العهد الاول من هذا الباب نفسه ،

وفي هـذه الجـادة المستقيمة ، فهـل يستطيـع دعـاة الاصلاح في الجاهلية الحاضرة ان يكونوا كدعاتـه في الجاهلية الأولى ، وهـل يستطيعون ان ان يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين ، لا تاخذهم فيـه هوادة ولا عنـه سنة ، وان لا يرى احدهم لنفسه عـلى أخيـه فضلاً الا بالإيمان والتقوى ، وان يرى كل منهم نفسه بمـنزلة المجاهد في سبيـل الله ، يتحمـل الأذى ويستسهل الوعر ، ويحتمل الكريهة ، ولا يجعل لليأس الى قلبه سبيلاً ، ولا للهوان على نفسه سلطاناً ؟

هل يستطيع المصلحون ان يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما اصلح المصلحون في الاولين ؟ « لست أدري ولا المنجم يدري » ؟

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

★

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي ؟

هو شعور المرء أنه مسؤول أمام ضميره عما يجب ان يفعل .

لذلك لا أسمي الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية ، ولا العفيف عفيفاً حتى يعف في حالة الامن كما يعف في حالة الخوف ، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في افعاله صدقه في أقواله ، ولا الرحيم رحيماً حتى يبكي قلبه قبل ان تبكي عيناه ، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه .

التخلق غير الخلق ، واكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة ، لا فاضلون ، لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس ، او خوفاً منهم ، او طمعاً فيهم ، فان ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه طمعاً في الجنة التي أعدها الله للمحسنين ، او خوفاً من النار التي أعدها الله للمسيئين .

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة ، او يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجوداً ، او لا نعرف له مكاناً .

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار ، لأنه لا يعدم ان يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب انه يمشي في طريق الفضيلة ، أو خوفه من القانون، لان القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب ، أو خوفه من الناس ، لان الناس لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضربهم ، رذائل كان أم فضائل ، وانما ينفعه ان يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته .

وما زالت الاخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى عنها ، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات ، والقواعد والانظمة ، ففسد أمرها ، واضطرب حبلها ، واستحالت الى صور ورسوم وأكاذيب وألاعيب ، فرأينا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد ان يسلبه إياها ، والامير الذي يتقرب الى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله الف بيت من بيوت المسلمين ، والفقيه الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته الى خاتمته ، والغني الذي يسمع انين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به ، فاذا أصبح الصباح ذهب الى ضريح

من أضرحة الأولياء ، ووضع في صندوق النذور بـدرة من الذهب قـد ينتفع بها من لا حاجة بـه اليها والمومس التي تتصدق بنفسها ليـلة في كل عام عـلى روح بعض الأولياء وعندها أنهـا قـد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام .

الى كثير من امثال هذه النقائص التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الاخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة .

الخلق هو الدمعة التي تترقرق في عـين الرحيم كلما وقـع نظره عـلى منظر من مناظر البؤس ، او مشهد من مشاهد الشقاء .

هو القلـق الذي يساور قلب الكريم ويحول بـين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلاً محتاجاً ، او أساء الى ضعيف مسكين .

هو الحمرة التي تلبس وجـه الحي خجلاً من الطـارق المنتاب الذي لا يستطيع رده ، ولا يستطيـع مد يد المعونة اليه .

هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبةربما دفعته اليها ضرورة من ضرورات الحياة .

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد من الأيـدي الى العبث بعرضه أو بكرامته .

هو الصرخةالتي يصرخها الأبي فيوجه من يحاول مساومته علىخيانة وطنه ، أو ممالأة عدوه .

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عمـــا يترتب عليه من النتائج فمن أراد ان يعلم الناس مكارم الاخلاق فليحيي ضمائرهم ، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة ، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء ، ومن أي طريق أراد ، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بهـا الاذهان ، بل ملكات تصدر عنها آثارها صـدور الشعاع عن الكوكـب ، والأريج عن الزهر .

★

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها ، وبلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجاراة الامم الغربية في عظمتها وسلطانها ،فاصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها .

أصبحت أعتقد ان مفاسد الاخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان وتوأمان متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه الا اذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها. فكيف أتمناها لامتي أعز عليّ من نفسي التي بين جنبي؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب ، فقلت قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقل ، ففروا من وجهها الى حيث يجدون الراحة الدائمة في اعماق القبور ، وما اكثر الجبناء في مواقف الحرب وميادين الجهاد !

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تمتل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من

أن العرض إناء اذا ألم به القذى لا يغسله الا الدم المسفوح ، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف .

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام الى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات ، شوقاً الى لثمة من خد يرشح صديده، أو رشفة من ثغر يتناثر دوده حتى إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام . فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم ، رأوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالاً لما فاتهم الإلمام بهم حقيقة ، فأنشأوا لأنفسهم في باطن الارض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالأستار السوداء ، ووضعوا في وسطها صندوقاً من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها ، وإسبال جفونها ، وسكون أنفاسها ، فإذا لج بأحدهم الشوق الى الإلمام بفتاة ميتة نزل الى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً مظلماً موحشاً ، يضم بين اقطاره فتاة ميتة لا حراك بها ، فيلم بها وهو يسمع نغمات الاحزان من قيثارة اعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال .

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه الى الغرام ببعض أنواع الحيوان ، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا ، فقلت لا عجب في ذلك . وهل هو الا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء الى حصرها

سبيلا ! ؟

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإني لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأساً ولا يجدون فيه متلوماً .

وقد وضعوا لها البرنامج الآتي :

يوم الأحد : دروس استعدادية .

« الاثنين : الغزل .

« الثلاثاء : المطارحة .

« الاربعاء: صناعة التقبيل والتخميش .

« الخميس : فلسفة الدلال والتصبي .

« الجمعة : اختيار مواعيد اللقاء .

« السبت : الامتحان .

هذه هي المدرسة الغرامية ، وهذا نظامها ، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة الى ما بينها وبين البهائم من حب الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها انها زهرة المدنية الحديثة ، وتاجها المرصع .

لماذا نسمي الزنوج قبائل متوحشة ، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل الى مخالطة النساء ، فيأخذونهم جميعاً الى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها تراباً معبداً ، حتى اذا أراد أحدهم أن يختاس من ظلام الليل غرة نم أثره عليه ، كما نعلم انهم يخيطون فروج العذارى حيطة وحذراً ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات ، ولماذا تسمى الأمة الأمريكية أمة متمدينة ، وها هي ذي تفتتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها ، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها !!

إذا كان توحش الاولين لإغراقهم في صون الاعراض ، والحيطة لها فالآخرون أكثر منهم توحشاً لإغراقهم في هتكها وابتذالها ، والإغراق في الخير ، خير من الاغراق في الشر .

فيأيها الزنجي المسكين ، لقد ظلمك من سماك متوحشاً ، ويأيها الامريكي المتوحش لقد كذبك من سماك متمدينا .

أيها الزنجي الأسود : إن كنت أسود اللون ، فالفضيلة اعلى قدراً من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه ، وجريمة لا تغتفرها ! وإن كنت جاهلاً فهل استفاد صاحبك من علمه الا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفنناً لا أحسبك تحن اليه ، أو تتقطع نفسك حسرات عليه ؟ وإن كنت عارياً فربما لبست من

الفضيلة ثوباً يحسدك عليه ـ لو يعقل ـ ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجه ودمقسه وحريره :

ولو بتما عند قدريكما   لبت وأعلا كما الأسفل[1]

(١) أي لو تنزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى مكان الأسفل ، والأسفل مكان الأعلى .

أمس واليوم

مثلنا ومثل آبائنا الاولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعـده كمثـل رجل ضل بـه طريقه في ليلة ليـلاء غدافية الإهاب ، حالكة الجلباب قد تجسد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح ، فانقلب جرهراً بعد إذ هو عرض ، فاصبح كانما هو فحل سائل ، او مداد جامد ، فانشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد ، وتخفضه الوهاد لا يرى علماً فيهتدي به ، ولا يتنور نجما فيعتمد في سراه عليه .

وإنه لكذلك وقد استوت في نظره الجهات الست ، فسمائه ارض ، وأرضه سمـاء ، ووراءه امـام ، وامامه وراء ، واذا بقرن الشمس قد نجم في جبهـة الأفـق ، وافرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبـة من ذائب أشعته المتلألئة فعشى بعد ان كان بصيراً فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً ، وما زال في ضلاله القديم ، الا ان ذاك ضلال الظلام ، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلالين ، واقتل الداءين ، فان ضلال الظلام يتخلله

بريق الامل في الضياء ، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء .

لو بغير الماء حلقي شرق   كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة التي همي سيلها على هذا العالم الإنساني فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ورأى الشرق تربة طيبة صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الاعشاب الضعيفة ، والجذور الفاسدة ، فاما ما تحجر منها ، فلم تغن عنه السقيا شيئاً ، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسداً كأصله وكان خيراً له لو ذهبت ذلك الفيضان به وبجذوره .

أي أن المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب ، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين فصعدت بهم الى سمائها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا ، فبلغوا ما أرادوا ، وهوينا الى أعمق مما كنا ، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو ، فإذا ارتد ارتد الى حفرة يدفن نفسه فيها .

أي أن الغربيين أحسوا ، فنهضوا ، فجدّوا ، فأثروا ، فتمتعوا بثمرات اعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات . ووثبنا الى الغاية وثبا فسقطنا .

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة ، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً وأهنا

عيشاً ، وأسدّ خطوات في سبل الحيـاة ؛ وكانت المعيشة فيهم اجتماعية ؛ أكثر منها فردية ؛ فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالمملكة الدستورية المنتظمة يديرهـــا عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخـلاق والعـادات ؛ تجتمع حول المـائدة كما تجتمع في نادي المسامرة ، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساعة المتنزه ، يحبون الله، لا يختلفون الا في الطريق الى رضاه ؛ ويحبون الوطن ولا يختلفون الا في الطريق الى خدمته ، ويحترمون عـاداتهم وأخـلاقهم ولغتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية ، ويفرون من العـادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من الاسد ؛ مخـالفة أن يرق هـذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتجمد نفوسهم ، فإذا هم ميتون ثم لا يبلغون .

وكان بين الصغار في الاسرة والكبار فيهـا معاهدة رحمة واحترام يحترم الصغير الكبير فيكبر عمله وإرادته ومذهبه ، فإذا أنزل نفسه منه هـذه المنزلة أصبـح بحـكم الطبيعة مرآة له تنطبـع فيهـا تلك الأعمـال والإرادات والمشارب ، حتى اذا اصبح الصغير كبيراً وجـد من صغيره ما وجد منه كبيره ، فلا تزال سلسلة التوارث في الاسرة متصلة اتصالاً تعيا به الحوادث ، وتكبوا دونه عاديات الليالي .

ويرحم الصغير الكبير فلا يألوه نصحاً في حاضره ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ فإذا هو هو ، حتى اذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الاسرة بفقده شيئاً .

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أثكلتنا اياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالية، وزخارفها اللامعة الباطلة؟ فانقلبت المعيشة البيتية اجتماعية فردية محضة فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقي بأبيه، والأب شقي بولده، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب، لا ترى فيها غير وجوه مقطبة، ونفوس منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء أثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء.

ومن كان في شك من هذه الحقائق فإني أكله الى جداول القضايا في المحاكم فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها - خصوصاً المدنية منها - واقعة بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة باكمل وجوهها فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشرت آباءه أجيال متعددة؛ فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة اولاد و «امرأة جديدة» متعلمة تعرف كل شيء الا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها، وليتها جهلت كل شيء الا هذا فتكون قد علمت كل شيء، وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسدة حباً ملك عليها مشاعرها وخوالجها فربما عرض لها المهم من الامر فلا تخف له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه، وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشاهدته، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على صواحبها وأترابها، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى (روميو) فتكون له (جوليت)[1] وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور، فيومها

(١) روميو وجوليت: اسم رواية لشكسبير.

نصفان : نصف للخروج ، ونصف للتهيؤ له ، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس الى مغربها ، بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الاولى فلم يغتبط بها غير عام واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته فاذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم اشد نكالاً منها .

اما اولاده فادخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة . الإنكليزية والفرنسية والالمانية ، ثم تخرجوا ، هذا انكليزي بفظاظته وخشونته ، وهذا فرنسي بخلاعته واستهتاره ، وذاك ألماني بخيلائه وكبريائه، وجميعهم متفرنجون مشرباً ومذهباً ومطعماً وملبساً ومسكناً ، وما فيهم من تفرنج همة وعملاً .

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، اما الدين فلأن اكثر مدارسنا حتى الاهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشان من شؤونها والدين خلق شانه كبقية الاخلاق ، لا يرسخ في النفس الا بتكرر الصور الدينية وتداولها عليه ، فان بعد عهدها به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شان هؤلاء الاولاد المساكين فقست قلوبهم ؛ وجمدت نفوسهم ، وفقدوا بفقد دينهم اطيب عزاء يستروحه الانسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب ، الحافلة بالكوارث والهموم .

والانسان مهما طال حوله ، وكثر طوله ، واتسعت مذاهب قوته ، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد، لولا زهرة الامل التي يتعهدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن ، فيستروح منها ما يروح عن قلبه ، ويسري عن نفسه ، ولولا يقينه أن هناك حولاً اكبر من حوله ، وطولاً أعظم من

طوله ، وإلهاً قادراً يقرب إليه ما يريد مما ضاق بـه ذرعه ، وعيت عنه قوته .

وأما الوطن ، فلان المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيد أجنبية تربي التلاميذ لها لا لاوطانهم

فكنت ترى منزل الرجل كانما هو مجمع من مجامع السفراء تركي متمسك بتركيته ، وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بان الدولة الإنكليزية سيدة البحار ، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكها ، وفرنسي يعبد فرنسا ويسبح بحمدها ، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة،وان أسعد المستعمرات مستعمراتها ، وألماني يستظهر خطب الامبراطور ، ويتكهن أن المستقبل لألمانيا يوم يمحى اسم انكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا ، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاع الطويل في شان الألزاس واللورين ، وبين المتألمن والمتكلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلوا ، وأي القائدين كان له الفضل فيها بلوخن أو والنجتون ؟ ولا يتفقون الا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم ، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبسونها ورجالها قديماً وحديثاً أثواب المراقع المضحكة، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس ، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من ناحية والدم الجالس ناحية يندبهم ، ويندب نفسه معهم ، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون .

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل ، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيما تفرق وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون في متنزه ولا

يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون في سمر ، ولا يتفقون في شان من شؤونهم البيتية ، حتى أصبح لكل منهم من المآكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه .

فأنى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة ، وأنى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه ؟

وأي شان لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم ، وهل أفادوا [1] بها إلا هذراً في المنطق ، وثرثرة في اللسان ، وشغلا للأذهان ، لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلاً ؟

ولو عقلوا ان ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلا وهمجية ، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به ، وننعي عليهم تاريخهم من أجله ، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا .

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وان مصر في شمال إفريقيا وسوريا في غرب آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون ان وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم، وان ابناء وطنهم اخوة لهم يسعدون معاً ويشقون معاً وان سعادتهم في استقلالهم، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية اليهم ، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والاوهام، وان هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ،

(١) أفادوا كاستفادوا

ويطاطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحنثا وتعبداً ، وعندي ان ديناً خرافياً خير من لا دين ، لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشر فيها ، ويطهرها من كثير من الرذائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب ، والحقد والحسد ، وسفك الدماء ، واغتيال الاموال ، وغير ذلك من الشرور الانسانية التي لا تزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجراً ، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الاخلاق .

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في اكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم ، ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن ان يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ، ولا شهادة شاهد ، فاصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت ، والويل كل الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه ، أو أنكر شهوده وكثيراً ما يفعلون .

وجملة الحال انهم كانوا يجهلون اكثر ما نعلم ، ولكن لم يجن عليهم جهلهم اكثر مما جنى علينا علمنا ، وكانوا محرومين اكثر مما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة ، ومراكب فارهة ، وملابس زاهية ، وفرش وثيرة ، وآنيه صقيلة ، وأدوات للمآكل والمشرب ثمينة ، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله لانهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضا

بجالتينا ، إلاّ ان معيشتنا يكدرها الفقر والافلاس الآجل أو العاجل ، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء وها هي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم الى حاجيات ، فبنوا القصور ، وشادوا الدور، وما شادوا لا يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم ، فإن هؤلاء الاولاد المساكين بعد ان خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا ان لا يبقوا في قوس الحرية منزعاً فاطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكؤوس وضرب الدفوف ، ثم ينامون النهار بين التمطي والثوباء ، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم ، فابعدتهم عنها ، فاصبحوا كلاً على أبيهم وعلى الناس ، لم ينفعهم علمهم ، ولم تغن عنهم شهادتهم، بعد ان نفخت الكبرياء في صدورهم فأبوا ان ينزلوا للاحتراف بما يقوم حياتهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا ركائب شبابهم في طريق تقليدهم ، وباعوا في سوق التشبه بهم كل ما تملك ايمانهم وقلوبهم ، وبعد ان ملكت الشهوات قيادهم فما وجدوا في أنفسهم متسعاً لسواها ، فاغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تارات ، وكانوا قد قلصوا ظلالها أولاً بنفقات دراستهم ، وثانياً باتباع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الأوربية، التي تفني خزائن روكفلر وروتشلد قبل الوصول الى إشباع بطون تجارها ، فنضب معينها ولم يبق

منها حتى الذماء [1] فتبدل ذلك النعيم شقاء ، وتلك السعادة والرفاهية فقراً وعدماً ، أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف ، والمخترعات والمستحدثات ، وأما الاولاد فاغتالت احدهم يد الزهري وكانت لأمثاله من المغتالين واحتوى الآخر فراش السل حيث لا زائر ولا طبيب ، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جناية دفعه اليها العوز والحاجة ، وفرت « المرأة الجديدة » الى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمن بخس وهو فيها من الزاهدين :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا ، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله ، فلو ان باكياً بكى على ما آلت اليه حالة هذه الأسرة الشقية فهو إنما يبكي أسراً متعددة ، وأمة كاملة :

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافق
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... دعوني فهذا كله قبر مالك [1]

وجملة القول إن للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي ، فلا خير في العصرين ، ولكن ويلا أخف من ويلين ، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل ، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرين ، ولئن دام هذا الحال ، واطرد المقياس، فالغد شر من اليوم ، كما كان اليوم شراً من الأمس .

---

(١) الذماء بقية النفس .
(١) الأبيات لمتمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا .

المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال : ذهبت ذات ليلة الى مرقص من مراقص الأزبكية ولم أكن زرته ولا زرت غيره من قبل ، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة ، فذعرت لمرآه ، وتراجعت قليلا قليلا ، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق الى المرقص ، وأنني بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب ، والذل والانكسار ، الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين .

وقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامس فالتفت ورائي فإذا صديق من أصدقائي يسألني : ما وقوفك ههنا ؟ فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما ساله عن سبب بكوره : أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب ، قال : أنا أفتش عن ابن عمي ، قلت : وأنا أفتش عنك ، فابتسم وقال : هيا بنا ندخل قبل أن تمتد

سلسلة التفتيش الى حيث ما لا نهاية له ، وامسك بيدي حتى جار بي باب المرقص ، فسالته ما هذا الجندي الواقف أمـام الباب ؟ قال : كيف ذهب عنك أن حكومتنا قد اصبحت اليوم حكومة مدنية لا ادبية ، فتساوت في نظرهـا « المصالح » والمراقص ، واختلط عليهـا الأمر بـين مواقف القضاء ، ومعـاهد البغـاء ، فاصبـح الجندي يحمي ابواب العـاهرات كما يحمي ابواب الوزارات ، ويقف امام البارات موقفه امام الإدارات .

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سخـاً وتذرافـاً كلما ابصرت هـذا الجندي الظريف واقفاً هذا الموقف الذليل ، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء ، ويحمي الفسق والفجور ، لا القـلاع والثغور ، ومـا أعجب لشيء عجبي لهـذه الحكومة التي تضن بجنديهـا انـ يشتمه شاتم ، او يلمسه لامس ، فتغضب له غضبة مضرية فتراءى فيهـا الشامة والحمية ، والعزة والنخوة ثم لا تضن بـه ان توجره نائحة في الجنـائز ، او قواداً في المراقص ، وهو هو بعـينه الذي يمثلها في وقفاته ، وينوب عنها في غدواته وروحاته .

هذا مـا كان يحدثني به ذلك الصديق وهو سائر بي الى قـاعة المرقص حتى وصلت اليها ، فماذا رأيت ؟

إن كنت لم تسمع في حياتك ان فداناً واحـداً من الأرض يبتلـع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم انه المرقص الذي يأكل وحـده جميـع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات ، فكانه العين التي تسع الفضاء بارضه وسمائه ، أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون .

رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس ، والعقول جـامدة في الرؤوس ، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهام مسددة لاصطياد القلوب ، ورأيت من كنت احسبه اوفر الناس عقلا ، واذ كاهم قلباً ، ومن كنت اراه فأغضى بين يديه إجلالاً واكباراً ، واقعاً في حبالة بغي تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره ، وتعبث بـه عبث الطفلة بلعبتها ؛ وهو في غـير هـذا المكان قيصر الرومان عزة وفخاراً ، وكسرى فارس أنفة واستكباراً .

رأيت من يزعم ان الله قـد وهبه عقلا يخترق اشعة حجب الغيب ، وعلماً تتساوى امامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر :

وعلمت حتى مـا اسائل واحداً   عن حرف واحدة لكي ازدادها

يجهل قضية من القضايا الاولية التي يشترك في فهمها الاذكياء والاغبياء والعلماء والجهلاء .

رأيته يجلس في المرقص فتمر بـه البغي فما هي الا لمحـة طرف ، او غمزة كف . حتى تحدثه نفسه انه قد وقع من نفسها ، وملأ فراغ قلبها ، فيدعوها اليه فتجلس بجانبه ، فما هي الا ابتسامة خالية ، او كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الايمان ، ان نفسه صادقة فيما حدثته ، وان الفتاة قد علقت به علوقا لا نجاة لها من بعده الى يوم يبعثون .

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى ان ذلك قليل في جانب مـا تبذل له من دقائق تقضيها بـين يديه ، وابتسامـات تجود بها عليه .

لقد كذبتك نفسك ايها الرجل فها هي المرآة بجانبك فهل ترى فيها منظراً رائعاً ، او جمالاً ساطعاً ، ياسر أقسى النساء قلباً ، واعصاهن عناناً .

ان الفتاة التي اسمعتك كلمة الحب قد اسمعتها قبلك وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك ، وعقل مثل عقلك .

وان كنت في شك مما اقول فامسك عن فتح الزجاجات لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك اين مكانك من نفسها ، وموقعك من قلبها ، فان لم تمطر عليك سحائب اللعنات ، وتجعلك غرضاً لسهام التهكمات ، فأنت اصدق الصادقين ، وانا اكذب الكاذبين .

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً يكبر المنظورات ، ويضاعف المسموعات ، تغني المغنية بصوت مضطرب النغمات ، بارد الترجيعات ، ثقيل الحركات والسكنات ، فتمتلىء ارجاء القاعة بالآهات ، وتدوي فيها الصيحات المزعجات ، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجه مغضن وجفن مقرح ، وسن بارز ، وخد غائر ، فتطير حولها القلوب ، وتتحلب لها الافواه ، وتترامى تحت اقدامها الوجوه ، فقلت في نفسي . اهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة ، وتذبل فيه الرياض الزاهرة ؟

اهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار ، تدفق الانهار في البحار ، وتقبر فيه نفوس الكرام ، قبل ان تقبر تحت الرجام ، والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله واساطيله وقنابله ، ولا الارض بزلازلها وبراكينها ، ما

يبلغ منا المرقص ببغاياه .

قال المحدث . والحق اقول إني دخلت المرقص وانا احسب اني انفس عن نفسي كربة ، فرأيت مـا زاد نفسي هما ، وملأ قلبي غيظا ، فقلت لصاحبي . هل لك في القيام؟ فقام وقمت وانا اقول . والله ما ادري ماترك هذا المكان ، للمارستان ؟

★

الماضي والحاضر

عندي ان الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح امران اعتباريان يختلفان باختلاف الامكنة والازمنة ، فكما ان الجمال في امة قد يكون قبحاً في امة اخرى كذلك الفضيلة في عصر ، قد تكون رذيلة في عصر آخر .

ليست الفضائل والرذائل اسما توفيقية كاسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، وليست الفضيلة فضيلة إلا لانها طريق السعادة في الحياة،ولا الرذيلة رذيلة إلا لانها طريق الشقاءفيها،فيحث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة ، وإن كانت صفة الكرم .

اعتاد علماء الاخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم الى اليوم ان ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه او رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحلحان ، يكتبون على رأس احدهما عنوان « الفضائل » وتحته كلمات الشجاعة والكرم والامانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ، وعلى رأس ثانيهما عنوان« الرذائل » وتحته كلمات الجبن

والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة ، واری انهقد آن لهم ان يعلموا ان النـاس اليوم غيرهم بالامس ، وان اساليب الحياة الحاضرة غير اساليب الحياة الماضية ، وان كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجةرذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون منها قد اصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري ، واسساً ثابتة تبنى عليها جميع اعماله وشؤونه ، فلا بدّ للناس منها ، ولا غنى لهم عنها ، ولا مندوحة لهم ان ارادوا ان يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من ان يتعلموها تعلماً نظامياً ، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شان سعادتهم وهنائهم .

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه،ويعرفون له يده التي اسداها اليهم ، فاذا هوى به كرمه في هوة من هوى الفقر لا يعدم ان يجدمن بين الذين احسن اليهم او عظم في نفوسهم شأن إحسانه ــ من يمد اليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه ، او يرفه عليه ، اما اليوم وقد انكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم ، بل اصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل بـه قدمه ، ويصبون عـلى رأسه جميع مـا في كتب المترادفات من اسماء الجنون والقابه ، فليس الكرم فضيلة ، وليس من الرأي الدعاء له ، والحض عليه .

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في احاديثهم عن انفسهم فلا يعترف بالبؤس الا البائس ، ولا يلبس القديم الا من عجز عن لبس

الجديد ، اما اليوم وقد ذلت النفوس ، وسفلت المروءات ، فلبس ثوب الفقر غير الفقير ، وانتحل البؤس غير البؤس ، واصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم الا اللجوء الى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الخشف البالي ، فالرحمة هي الفقر العاجل ، والخسران المبين .

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها ، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد ، اما اليوم وقد فترت همم الناس ، ووهت عزائمهم ، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير ، ووكل كل امرء الى صاحبه ، فان رأوه قائماً بدعوة وطنية او اجتماعية اغروه بالمضي فيها ،وقفوا عن كثب ينظرون ماذا يفعل فان ظفر هتفوا له، وانحدروا اليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها ، وان فشل خذلوه ، وتنكروا له ، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها الا التهلكة والشقاء .

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم ، ويوم كان الفقر مفخرة للشريف اذا عقدت يده ، وعزفت نفسه . والغنى معرة للدنيء اذا سفلت مساعيه واغراضه ، أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم الا المجد المالي ، واصبح الناس يتعارفون بازيائهم ومظاهرهم ، قبل ان يتعارفوا بصفاتهم واعمالهم ، فالقناعة ذل الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها الطويل .

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها

قدرها ويطاطئون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها ، أما وقد اصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم على كواهلهم ، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأساً يصبونها عليه ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك الذي لا يحسن الذياد عن نفسه ، فلا خير في الحلم ، والخير كل الخير في الغضب .

الحياة معترك أبطاله الأشرار ، وأسلحتهم الرذائل ، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى .

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم باس بعض ، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة ، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاهما فليس لذلك إلا معنى واحد: هو أن يهلك اشراف الناس وفضلاؤهم، في سبيل أدنيائهم وأنذالهم.

إن الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص ، في هذا العصر ، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها ، فيستاثروا بها من دونهم ، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا الى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا الى القناعة الا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها ، ولا الى الصدق الا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه .

كلنا يكذب، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق ؟ وكلنا يبتسم

لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة ، فلم نستنكر الرياء والمصانعة ؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها فلم نستفظع الطمع والجشع ، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده فلم نشكو من الظلم والإرهاق ؟

اننا لانفعل ذلك الا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين في الأعصر الماضية .

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب ، وأن قصص الفضائل التي يقرءونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار ، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها انما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها ، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف له وجهه ، ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات .

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخلها فوق ما أعلم يضعون للناشيء كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر ، ويغش الصانع ، ويلفق المحامي ، ويدجل الطبيب ، ويختلس المرابي ، ويرائي الفقيه ، ويصانع السياسي ، ويتقلب الصحافي ، ثم يقولون له : هذه هي الحياة ، وهذا هو ما يجري فيها ، فان أردتها على علاتها فذاك ، او لا ، فدونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال فعش فيها وحيداً بعيداً عن العالم وما فيه ، وكل مما تأكل حشرات الارض ، واشرب مما تشرب منه ، حتى يوافيك اجلك .

الشر لا يقاوم الا بالشر ، والظلم لا يدفع الا بالظلم . وحامل السيف لا يغمده في غمده الا أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه الا اذا وجد في وجهه سداً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم الا اذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال لا يحتال الا اذا وجد أمامه غبياً ، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يامن بعضهم باس بعض، الا اذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد .

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على ان تكون وسيلة من وسائل العيش ، في عصر مثل هذا العصر ، وناس مثل هذا الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل السبيل .

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها ، لولا ان شرور الاشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، ووا أسفا علي ايامها وعهودها .

*

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب ان أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف الى أسرة كريمة ليخطب اليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق ان وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعاً من ان يزوجوها منه على تقدم سنه ، وإدبار أمره لأنه اكثر من أبنه مالاً ، واوسع جاهاً وسلطاناً ، فكانت نتيجة ذلك ان هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها ، لأنه كان يحب الفتاة حباً جماً ، واصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم ، واصبح الشيخ حزيناً بائساً لأنه اصبح بلا زوجة ولا ولد .

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً . ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت ، وتستنتج منهما ما استنتجت :

فجعت سيدة اسمها « مارجريت بونفيل » بوفاة زوجها وهي في

الخامسة والثلاثين من عمرها . وكانت امرأة بارعة الجمال ، رائعة الحسن، لا يرها الرائي حتى يخيل اليه انها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء ، وانها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً وبدأت تختلف الى بعض الاندية العامة علها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان اعجبها منه جمال صورته وعذوبة اخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه . فاحبته وافتتنت به واضمرت في نفسها ان تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وان كان اصغر منها سنا بنحو عشر سنين . فلم تزال تتودد اليه ، وتستدني قلبه حتى نزلت مـن نفسه المنزلة التي تريدها ، وكانت اذا جلست اليه للحديث معه يردد على لسانها كثيراً ذكـر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتـوفي ، فكان يخيل اليه ان تلك الابنة طفـلة في الخامسة او السادسة من عمرها ، حتى زارها في منزلها يوماً من الايام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الاطفـال ويطربون لها ، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت: ما هذاالذي تحمل ؟ قال : إنها هدية لماري أريد ان اقدمها اليهـا واين هي ؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطىء الجدول ، فاذهب اليها وقدم لها هديتك بنفسك .

فذهب حيث أشارت ، فراعه أنه لم يجد امامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعباً رائعة الجمال في السادسة عشرة فوقف امامها موقف الحائر الذاهـل لا يدري مـاذا يفعل ولا مـاذا يقول ، حتى

رنت من ورائه ضحكة مرجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فارفض جبينه عرقاً ، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها : أقدم لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصاناً خشبياً جميلا ، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية ؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة ، فاثر في نفسها خجل جورج وارتباكه فمشت اليه ووضعت يدها في يده وقالت له : أشكر الك هديتك يا سيدي ، وأتقبلها منك باغتباط وسرور ، وأعدك أني ساحفظها لك عندي تذكاراً دائماً لا أنساه ، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعاً يتحدثون ويسمرون ، ومر لهم أطيب يوم مر لأحد حتى أظلهم الليل فاستاذن جورج وعاد الى منزله .

واصبح بعد ذلك يختلف الى منزل مرجريت لا من اجل الأم وحدها ، بل من اجل الأم والبنت ، حتى حضر صباح أحد الايام ، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها ، فوجد ماري وحدها ، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل ، وكانه كان يتمنى ان يجدها خالية فوجدها ، وكانت جالسة على شاطىء الجدول في المكان الذي رآها فيه اول ما رآها ، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلا ذهبا فيه مذاهب مختلفة ، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب ، فورداه ، فاذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب ، وإنهما لمضطجعان وجهاً لوجه على ذلك البساط الاخضر الجميل ضجعة يتمنى المصور ان يراها فيرسمها فيرسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعاً فلا يجدونها ، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران

فرابها منظرهما ، وخيل اليها أنهما يتحدثان في شان غير الشان الذي يأخذان فيه عادة أمامها ، فاصغت اليهما ، فالمت بطرف من حديثهما ، فدارت بها الارض الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثل لها ان صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعة واحدة فثارت من حولها عبرة قاتمة حجبت عن عينها كل شيء فاملست من مكانها إملاساً ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت الى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله ان تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فمسحت عبرتها بيدها فاذا المرآة امامها ، واذا شعرات بيض سانحات في رأسها تهتف بها ان قد انقضى عصر شبابك او كاد ، وقد خطوت الخطوات الأولى الى شيخوختك ، فاخلي مكانك لابنتك ، فهي أولى به منك ، وحسبك من السعادة ان تفرحي لفرحها ، وتهنئي لهنائها ، واعلمي ان للطبيعة حكماً قاسياً لا يختلف عليه مختلف ، ولا يتمرد عليه متمرد الا هلك ، ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكاً وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ، فتثور ثائرتها ، وتأبى الا ان تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها امثالها ، ونحو ابنتها أخرى ، فتلين عريكتها ، ويسلس قيادها ، وتقول في نفسها : إنها أولى به مني ، لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر ، فخرجت من غرفتها باسمة متطلقة حتى وصلت الى مكانهما ، فرأتهما مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيء مما حولهما ، فصاحت بهما : أأنتما هنا يا ولديّ ؟ فاضطربا إذ رأياها ، فابتسمت لهما ووضعت

يدها في أيديها وعادت بها الى غرفتها ، وجلست تتحدث اليهما حديثاً طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما ، وما هي الا اشهر قلائل حتى زفت اليه ، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهداه أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها .

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم في أعماق قلب مرغريت لم تزل تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى رن في أذنها يوماً من الايام صوت حفيدتها تدعوها « جدتي » فكان هذا آخر عهدها بها .

وكذلك استطاعت مرجربت ان تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها .

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره ، وهو يخطو الى القبر خطوات حثيثة ، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصف لا الى الشيخوخة ولا الى الشباب فجوزي هو على تمرده على الطبيعة ، وخروجه عن سنتها شر الجزاء ، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها ، وتأدبها بأدب الحياة ، احسن الجزاء .

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هـذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يوماً من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر ، الى سماء الثروة والغنى، بني بينه وبين ماضيه سداً محكماً لا تنال منه المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد جميـع متعلقات ذلك الماضي ، زيه وهيأته ، ولغته ولهجته ، ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقـه ، وأصحابه وعشراءه ؛ وجميـع صلاته وعلائقه ، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له : صورته واسمه لفعل .

يريد أنه قد أصبح إنساناً غير ذلك الإنسان الأول ، لا صلة له به ؛ولا شان له معه ، وأنه قد خلق خلقاً جديداً .

إنها لخلة رديئة جداً ما رأيت في الخلال أقبح منها .

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب « وعـار » ، والفقر ليس بعيب ولا عار ، فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنـه قد قضى على

أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضاً ، لأنه قضى عصر شبابه ، والشبابُ هو الحيـاة من مبدئها الى منتهاها ، في الفقر والخصاصة ، والعَـدم والإقلال .

ولا أدري ماذا يكون شانه غداً إذا استرد الدهر هبته منه ، وكثيراً ما يسترد الدهر هباته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبـة ، أو يمنح منحة حتى يستردها .

عذرته في ثوبه الذي خلعه ، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها ، وفي داره التي هجرها، وقلت لابد أن يكون هناك فرق بين حياة السعةوحياة الضيق ، وفي لهجته التي غيرها ؛ لأنـه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم ، وفي خده الذي صعّـرة ، وصدره الذي أبرزه ، وأنفه الذي شمخ به، لأن الثروة طغياناً كطغيان الشراب،لا سبيل الى دفعه والخلاص منه ، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره فيزوجه التي طلقها واستبدل بها سواها .

إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرّائه وضرّائه ، ويسره وعسره وشبعه وجوعـه وريه وظمئه ، واحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجـه السماء بسطت يديها بالدعاء الى الله تعالى أن يبدل عسره يسرا ، وضيقه سعة ، وشدته رخـاء ، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته .

إنها شاركته في شدتــــه ، فيجب ان تشاركه في رخائه ، واحتملته

والدهر مدبر عنه فيجب أن يحتملها والدهر مقبل عليه ، وأقرضته الصبر على عشرته ، فيجب أن يوفيها الصبر على عشرتها، ان كان يرى أنها عبء ثقيل عليه .

أيريد أن يتمنى النساء جيعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل الى ذلك ؟

إنهن يتمنين ذلك فعلاً ، بل يسعين له سعيهن ؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى، فياللفظاعة والهول، ويا للمعيشة النكدة المريرة! وياللشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء !

حدثني من أثق به أنه دعي الى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث الى بعض الناس وتقول لهم : انها سيدة هذا البيت بالأمس ، وان زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي انعم الله فيه عليه بنعمة الغنى ، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله ، فكفاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء ، بل تركها في قريتها وحيدة منقطعة ، لايعود عليها بقليل من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولالولدها عنده سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة، وولد جديد ؛ وقالت انها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم .

انه لموقف مؤلم جداً ان تقف امرأة على باب البيت الذي كانت سيدته

بالأمس موقف السائل المتكفف فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين .

لا يجد المرء لذة الطعام الا اذا ذكر الجوع ، ولا لذة الماء الا اذا ذكر الظمأ ، ولا لذة السعادة الا اذا تمثل امام عينيه عهد الشقاء ، فما أحوجه – اذا انتقل من عذاب الفقر الى نعيم الغنى – الى اصدقاء عهده الاول وعشرائه ، ليجلس اليهم من حين الى حين ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره ، فيشعر بلذة الانتقال من حال الى حال،وما أحوجه الى زوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته ، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيماً .

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان رجلاً اعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها « بوشنج » وفد الى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد اليهم بذلك المنصب العظيم ، وقف الناس له صفوفاً على جانبي الطريق ، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور ، وهو مطرق واجم ، فقال له أحد اصدقائه وكان يسير بجانبه : الا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن ؟ قال : نعم اراهن ولكنني كنت افضل ان ارى بدلاً منهن عجائز « بوشنج » .

اي انه كان يتمنى ان العيون التي رأته بالأمس وهو وضيع ، تراه اليوم وهو رفيع .

الأجواء

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر ، وسالت لها دموع الفضيلة حزناً وآسى ، وتحدث المتحدثون عن اولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتاً عيش البؤس والفاقة ، أعجب لهن ولأمرهن ، واقول في نفسي : ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالة من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن ، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن ، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن ، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته ، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الارض حيث شئن ، يطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق ، والاجواء الحرة المطلقة كثيرة ، واسباب العيش فيها متنوعة ، وما على وجه الارض جو أسوأ من جوهن الذي يعشن فيه فيخفن ان يصرن اليه ، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في

تأويل ذلك من ان ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقاً من بأسه وقوته فلا سبيل لهن الى اختراقه ، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها او إنه وضع في أعناقهن أغلالاً من الديون وليس في وسعهن ان يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فان من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس ، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالامس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت .

★

توفيت زوج إحدى الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزناً شديداً لأنها كانت أحب اليه من نفسه التي بين جنبيه ، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف الى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئمها ، فمر بخاطره يوماً من الايام ان يزور حي « مونمارتر » وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها ، فظل سائراً بمركبته يستطرق من زقاق الى زقاق ومن معبر الى معبر حتى وقف بباب خان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه ، فانحدر اليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين ، ما بين قائم وقاعد وصائح وهاتف وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين ، ولابط بالارض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه ، وراقص يوقع حركات قدميه

على نغمة شبابة ينفخ فيها آخر ، وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحباً متكاثفة يزى الرائي من خلالها بعد لأي ما مائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب الا قليلا ، وتنثر على الناس نثارات من الورق الرقيق الملون ، والناس من حولها طائرون بها فرحاً ، يداورونها ، ويعابثونها ، ويخاطبونها باقبح ما خاطب به أحد أحداً ، وربما مد بعضهم اليها يده فجذبها من ثوبها جذباً شديداً حتى يكاد يزلقها من مكانها ، او دفعها في صدرها بعصاه فآلمها ، وهي تبتسم مرة ، وتقطب أخرى ، فلم يدر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين ، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية ، ولكنه رأى على كل حال منظراً غريباً لم ير مثله قط فأعجبه وسكن اليه ، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ، ولو كان منظر الجحيم فانتبذ في الحال مكاناً قصياً ، وجلس الى مائدة منفردة ، وألقى نظرة على تلك الفتاة الراقصة فاذا هي رائعة الجمال ، الا أنه جمال مبعثر مذال ، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة فلا يزال ناظراً اليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها ، ونزلت تدور بعينيها علها تجد من يدعوها الى لقمة تسد جوعتها او كاس تبل بها غلتها ، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه فاستطيرت فرحاً وسروراً لأنها لم تر قبل اليوم زائراً مثله في فخامة هيئته ، وجلال منظره ، وأخذ يتحدث اليها ويسائلها عن نفسها ، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد أمرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء ، وقد سمع في صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك

النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع في نفسه أنه ان أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتالمة من بؤسها وشقائها فقد احسن اليها والى الإنسانية إحساناً عظيماً ، فسالها : ألها باحد من الناس صلة من زواج او مخالة ؟ فاطرقت برأسها واجابت : ان لا ، فعرض عليها رأيه الذي رآه لها ، فاستطارت به فرحاً وسروراً ، وما هي الا ساعة او بعض ساعات حتى كانت بجانبه في مركبته فسار به الى منزله .

وهناك تغير من شانها كل شيء ، فاصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية ، والقبعة القذرة والحذاء المرقع سيدة فخمة يتلألأ وجهها بنور العزة والكرامة ، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشان في الحياة ، وان الدوق يوشك ان يتزوج منها .

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر الا خدمه ، ولا يختلف اليه الا القليل من اصدقائه القدماء من حين الى حين لأنه كان منقطعاً لا زوج له ولا ولد ، ولا قريب ولا نسيب فكانت « مارسيل » ملهاته التي يتلهى بها في وحدته ، وأنسه الذي يانس به في وحشته وكانت هي سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه لا ينازعها في ذلك منازع ، وظل الأمر بينهما على ذلك شهوراً عدة وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما الى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة او ساعتين ثم يعودان ، فإنهما لعائدين ليلة من الليالي من منتزهها اذا مرت بهما المركبة على مقربة

من حي « مونمارتر » فاقترحت عليه « مارسيل » ان يمرا بذلك الحي ليلهوا بمناظره الغريبة ، ومشاهده العجيبة فاذعن لرغبتها ، وظلا يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه فطلبت اليه ان ياذن لها بدخوله لترى ما حل باصحابه وزائريه من بعدها ، فلم ير في ذلك باساً ، ودخل معها ، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها ، واتجها الى بعض الموائد المنفردة فجلسا اليها ، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجاً عظيماً ، وهتفوا لها هتافاً شديداً ، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها وهي تبتسم لهم ، وتعطف عليهم ، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة ، ثم لم يلبثوا ان جذبوها من مكانها ، وأصعدوها الى المائدة لترقص لهم ، فكأنما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم ، فرقصت وافتنت في رقصها ما شاءت . حتى أتمت دورها ، ثم نزلت وودعتهم وداعاً لطيفاً وانصرفت هي والدوق .

وهنا بدأت تشعر بملل شديد من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق ، حتى أصبح يخيل اليها ان هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن ، وان هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها ، وان هذا السكون الذي يحيط بها انما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور ، فكانت اذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء خيالها منظر الحان ومنظر زائريه ، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الاشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها ، ويشدون يدها ، ويصبون عليها فضلات كؤسهم ، فتطرب لتلك الحياة

الهائجة الثائرة ، وتحن اليها حنين العاشق المفارق ، ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبهـا ، فعزمت عـلى الفرار بنفسها والعودة الى عيشتها الأولى ، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادىء قد هجع كل من فيـه فخلعت أثوابهـا وحلاهـا وألقتها على بعض المقاعد ، وارتدت بدلاً منها أثوابها الأولى التي جاءت بهـا ، وكانت لا تزال ملقـاة في بعض الغرف ، وتسللت من باب القصر حيث لا يشعر أحد بمكانها ، واخذت سبيلها الى حي مونمارتر .

وهكذا قضي عليها ان تشقى ، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها.

ولقـد كان أسف الرجل عظيماً جـداً حيـنما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها خصوصاً عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفسها ، فبكاها كثيراً وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل .

ومر على ذلك عام او بعض عام وبينما هو مقبل عـلى قصره في ليـلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع ، وتحـاول ان تمد يدها الى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع ، فدنا منها ليتبينها فاذا هي مارسيل ، او هي شبح متهافت باق منهـا ، فلمـا أحست بـه حدت ذراعيها اليه وقالت له بصوت خافت ضعيف : اغفر لي ذنبي يا مولاي ، فدهش لمنظرها دهشة شديدة ، ورق لحالتها فأمر الخدم بحملها الى القصر فحملوها الى غرفتها الـتي كانت تنـام فيهـا ، وهي في حـالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد ، وتستذرف الدموع ، ثم جلس اليها يسائلها عن

شأنها . فقالت انها مريضة مدنفة منذ شهور عـدة ، وانها قد عجزت عن ان تجد سبيلاً الى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها ، فما زال المرض يأخذ منها ماخذه حتى مزق صدرها تمزيقاً ، فـلم تجـد بـداً من ان تـأتي اليـه لتستغفره من ذنبها ، وتساله ان يعينها عـلى أمرها ، لأنهـا لا تعرف في الدنيا لها راحماً سواه ، فسألها لم فرت من قصره ؟ وما الذي كانت تنقمه منه ؟ فقالت لا أعلم ، وانما هو قدر قدره الله ولا حيـلة لأمري فـيا قدره وقضاه ، فسألها اين كانت تعيش بعـد فرارها ؟ قالت في المكان الذي أنقذتني منه فابيت لشقوتي وبلائي الا ان أعود اليه لتنفذ في ارادة الله ، فرثى لحالها ، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرهـا ، فـلم يستطـع الطبيب ان يصنع شيئاً ، لأنه جاء بعد الاوان ، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها الى خالقها ، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته ، فلم ينتفع بحياته طويلا بعد ذلك .

*

لكل جو من الاجواء رائحـة خاصة بـه يألفها أصحابه ويستنيمون اليها ، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبـين تلـك الاجواء الخبيثة ، ولا تقولوا انهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها ، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها الا البعيد عنها .

الرسائل

كتاب في التقاضي :

أنا ان سالتك حاجتي ، أعزك الله ، وبسطت اليك يد رجائي ، فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً ، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً ، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقت الى منكم أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت ، أيدك الله ، بين ان استشفع اليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى لديك وبين ان أكل ذلك الى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت ان الثانية بك أحرى ، وبفضلك أجدر ، والسلام .

كتاب مقاطعة :

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك ، وصحوت من رقدة

طال على الغيب فيها حتى خفت ان تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني روائعك [١] ولا أجدى عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة [٢] وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري ، فجفت الدموع التي طالما أذلتها [٣] بين يديك وقرت العين التي كنت أساهر بها الكواكب شوقاً اليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك الا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يغرسها الأمل في القلب ، ثم يغذوها بمائه وهوائه ، فلا تزال تشتجر أغصانها ، وترف [٤] ظلالها وترن اطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ولقد عالجت هذا القلب الشموس [٥] في الرجوع الى سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمح جموح المهر الأرن [٦] وركب رأسه الى حيث لا مطمع في أوبته وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأسات عشرته وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ، وركبت به في سبلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهل فما هو الا ان أمكنته العزة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ويبلي الجديدان .

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد اليه بوجه آخر الدهر تقبل

---

(١) أي لم تعجبني محاسنك . (٢) الروعة : المسحة من الجمال . (٣) أذلتها : هنتها
(٤) رف النبات : اهتز واضطرب . (٥) شمس : امتنع وأبى .
(٦) المهر الأرن : النشيط .

كتاب تهكم :

علمت أن ساسانيا[1] طرق بابك بالأمس ، ومـــا زال يكيد لك ويماحلك ، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من روضه ، وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع سن نادم ، فما هـذا الخلق الغريب الذي تخلقه ، وما هـذا المذهب الجديد الذي اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصياً عـلى أولاده من بعده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، عـلى أن الفقراء في الدنيا كثير قـد ضاقت بهم خزائن الارض والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بـين الدرهم الذي أعطيت ، والدراهم الذي أبقيت ، الا حرف واحد[2] ؟ فليت شعري من اين ذهبت ، ومن اي باب نفذ هـذا الشيطان الى قلبك ، وان أخوف ما أخاف عليك ان تكون اتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فإن كانت هي فالخطب عظيم ، والبـلاء جسيم ، فإنك حيثما ذهبت وأنى حللت ، لا تقع عينك الا على يد شلاء ، ورجل بتراء ، وعين عمياء وصورة شوهاء ، وثوب مخرق ، وشلو ممزق ، وطريح عـلى التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فإن لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين وتسولت مع المتسولين ، ثم لا تجـد لك راحماً ولا معيناً . فارحم نفسك قبل ان ترحم سواك ، ولا تنس ان

---

(١) النسبة الى ساسان : وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات .

(٢) يشير الى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست الا درهماً على درهم .

تردد في صباحك ومسائك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي اعقاب صلواتك ، كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة » .

وعلمت انك دعيت الى وليمة فلان فتحلب لك فوك ، ورقصت لها اشداقك ، فطرت اليها ، ثم وقعت على خبزها وشوائها ، وفاكهتها وحلوائها ؛ مثلج الصدر ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس كأنك لا تعلم انها لذة الساعة ، ومرارة العمر ، وشبع اليوم ، وجوع الأبد ، وأنك انما طعمت ما في الحبالة من الحب ، تأكله اليوم ليأكلك غداً . فمن لك بالنجاة من مضيفك اذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه ، وقد حفت به كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمرآك لبك ، وتمشي له قلبك في صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر ان منحت ، والعار ان منعت واعجب من ذلك انك ما برحت الوليمة حتى اخذ المغني مجلسه ، فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب جرب ، ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك وزيتك ، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك ، حيث لا تزور ولا تزار ، منادح عن هذه اللقمة التي اسهرت ليلك ، وأقضت مضجعك ، واقعدتك مثل روق الظبي خيفة وحذاراً ؛ فإياك والعود الى مثلها يطل غمك ، ويسود عيشك ؛ والسلام .

كتاب يأس :

كتابي الى سيدي ومولاي ، والنفس بين جنة من الأمل تغن اشجارها ، وترن اطيارها ، وتشتجر اغصانها ، وتعتنق غدرانها ؛ وهاجرة من اليأس

تتلظى نارها ، ويعتلج أوارها ، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها ، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر ، ثم يدركه الامن فيقر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره ، وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ، وسرور وحزن ، وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمته وإحسانه ، ورأفته وحنانه ، فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، وثغرها البارق ، وجمالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحتوفه ، والايام وما أعدت في طياتها لبنيها عن عثرات في الخطوات ، ونكبات في الغدوات والروحيات ، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانيها ، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي ، ثم أنثني على كبدي من خشية ان تصدعا ، فليت الله يصنع لي فيمطر علي قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي ، وأطفي بها لوعتي ، او ليت القدر ينشب أظافره بين سحري[1] ونحري نشوباً لا يستقي بعده عرقاً نابضاً، ولا نفساً مبردداً ، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف ، لا هو حي فيرجى ، ولا ميت فيبكى .

يقولون « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء ، وصاعقة العذاب ، وطاغية الطوفان ، والزلزال الاكبر ، والموت الاحمر ، والخوف من الجوع ، والنقص في الاموال

(١) السحر : الرئة .

والأنفس والثمرات ، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل ، ومـا ليـلة نابغية ، ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفـة وحـذاراً ، فوق أرض تعزف جناتها [1] وتحوم عقبانها ، وتزأر سباعها ، وتعوي ذئابها ، وتحت سماء تتهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، بأسوأ في نفسه أثراً من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه ، تردد الغصة بين لحييه لا هي نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها .

قد اصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية ، وقنن الجبال ، ان أراها ساربة في مساربها ، سارحة في مسارحها ، تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعنيها الأسف على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق ، قـد قنت من المـاء بالكدر ، ومن العيش بالجشب [2] فتساوي لديهـا شحمها ولحمها ، وشيحهـا وقيصومها ، وسعدهـا ونحسها ونعيمها وبؤسها ، فمـا تحفـل بنوازل القضـاء ، ولا رجوم السماء ، ولا تبـالي أسقطت عـلى الموت أم سقط الموت عليها ؟

فمن لي بهذا العيش من عيش مثـلي منـه كمثـل رجل زلت به قدمه فسقط في جوف بئر بعيـد غورهـا ، نـــاء مكانهـا ، فما زال يتخبط ويضطرب ، ويهب ويثب حتى عـثر بمرقاة علقت رجـله بهـا . ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها ، حتى بلـغ منه الجهد او كاد ، فـلم يصبر عـلى الثانية صبره على الأولى ، فسقط ، فخاف الغرق فعـاد الى نفسه ، فعـاد

(١) جمع : جان (٢) الجشب : الخشن من الطعام .

الى سقوطه ، فلا هو بالـغ رأس البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالـغ قرارة الماء فينجو من الشقاء .

ارم بطرفك حيث شئت من النـاس هـل تبصر الا صريعاً صرعه أمله ؟ او قتيلا قتله رجاؤه ؟ او صديقاً يشكو غدر صديق كان يعدّه لنوائب الدهر فاصبح عون النوائب عليه ، او باكياً يبكي وليداً كان يرجوه لمستقبـل دهره ففجعته الايام فيـه ، او ساعياً دائبـاً وراء غايـة يطلبها من الدهر فلا يقرب منهـا حتى يبتعد عنهـا ، ولا يمسك بها حتى تفلت من يده ، او ساهراً متململا لولا أمله ان تنيله الايام ما يشتهيه من هواه ما بات ليله شاكياً باكياً ، داعياً مناجياً لا تراه الا عين السماء ، ولا تسمعه الا أذن الجوزاء .

هذه حالتي ، وذلك همي ، وهـذا مـا وسوس لي ان أعتزل النـاس جميعـاً ، وافـارق عشيرتي وصحبتي ، ويراعي ومحبرتي ، علـني أجد في البعد عن مثارات الأماني ، ومباعث الآمال ، راحة اليأس ، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء .

فها أنا ذا قابع في كسر بيتي ولا مؤنس لي الا وحشتي ، ولا أنيس الا وحدتي أتخيل البيت قبراً ،والثوب كفناً ، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم لأعالج نفسي على نسيان الحياة ، وأمانيها الباطلة ، ومطامعها الكاذبة ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وهـذا آخر عهـدي بـك وبغيرك ، والسلام .

الكلمات

الجرائد :

لا أرى الصحف في مصر الا نادياً من أندية القمار ، ولا هؤلاء الكتاب الا جماعة من اللاعبين ، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة « البليار » ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها ، فيكسبها في الصباح « زيد » ويخسرها في المساء « عمرو » وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعاً ، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي .

عبد الحميد :

حضرت منذ اشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسان ، ويدعو له بسلامة عرشه وطوله بقائه ، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له هتافاً يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقاً كاد

يضم اضلاع المسرح بعضها الى بعض ، وحضرت ليلة امس منظراً من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلا ظالماً سفاحاً ، ضعيف الهمة ، ساقط النفس ، زَمِن المروءة ، جباناً مستطاراً، ورأيتهم عمدوا الى صورته فجعلوها مواطىء اقدامهم ، ومضارب سيوفهم ، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في اعينهم ، وابتهجوا لمرآه ابتاجاً ملأ فضاء صدورهم ، فتمشى في اعصاب أدمغتهم حتى وصل الى اعصاب ايديهم ، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل .

أنا لا أعلم ان كان عبد الحميد ظالماً او عادلاً ، كريماً او ليئماً ، شريفاً او وضيعاً ، وإنما أعلم أنني سأموت قبل ان اقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم ، كتابهم وشعراؤهم ، علماؤهم وجهلاؤهم ، هم الناس الذين يقول فيهم القائل :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولأم المخطىء الهبل

الشهرة :

لا يمكن ان تكون الشهرة بحال من الاحوال ميزاناً للفضل في مصر ، خصوصاً في عالم الادب ، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد الا اذا سلم السابق من كيد العابث ، وخدعة الاريب وأنى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصاباً ، ويلصقها بنفسه إلصاقاً . وينزع اليها بوسائل لو عرفها الناس لانزلوه منزلته ، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه ، وإمتاع وجدانه فلا يترنم بقصائده في

المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الاسماء والالقاب ، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره ، ولا يتمم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره فترى للاول في هذا البلد الساذج دوياً كدوي الرعد، وترى الآخر مطرحاً بجفوّاً لا يؤبه له ، والدرّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدراً من جميع ما على وجه الارض من الواح البلور . وان كان ملء العيون حسناً وبهاء ، وروتقاً وماء .

فـــكاهة :

حدثني بعض الاصدقاء أنه دخل في ايام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة اكثر من افراد طائفته ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسي امام المرآة وامسك بالموسى وانشأ يحلق له رأسه حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يحلق بقعة ويترك الى جانبها أخرى مستطيلة او مستديرة وأخرى مثلثة او مربعة حتى ريع الرجل وظن ان الحلاق قد اصابه مس من الجنون ، فارتعد بين يديه وخاف ان يمتد به جنونه الى ما لا تحمد عقباه ، واعتقل لسانه فما يستطيع ان يساله عن سر عمله .

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية،ورسومه الجغرافية حتى التفت الى جلسائه وقال لهم كانه يتمم حديثاً سابقاً بينه وبينهم : لأجل فض النزاع بيننا هاقد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس « الزبون » هنا طوكيو ، وهنا بور أرثر ، وهنا انكسرت كروباتكين، وهنا انتصر أوياما وفي هذا الخط مر الاسطول الروسي ، وفي هذه البقعة

تلاقى الاسطولان ، وهنا أخذ يتكلم بجدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم ، ثم اردف كلامه بقوله « وفي هـذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية » وضرب بجمع يده أم رأس الزبون فقام صارخاً يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعـن السياسة والسياسيين والروس واليابانيين ، والناس أجمعين .

لا أعلم إن كان المحدّث هازلاً ، أو مجداً ، وإنما اعلم انه قد اجاد التمثيل !

الأقسام :

لا اعرف فرقاً بين حنث الحانث في يمينه ، وكذب الكاذب في حديثه كلاهما ضعيف المنّـة ، وكلاهما ساقط الهمة ، وكما لا يستطيع الكاذب ان يكون صادقاً ، كذلك لا يستطيـع الحانث ان يكون باراً . وناقض العهد ان يكون وفيّـاً فخداع من المتكلم ان يزعم ان لاحاديثه من الشأن في مواقف الاقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف، وأنه يتحرّج في الحنث، ما لا يتحرج في الكذب ، فان من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً .

الدين :

أيها الناشىء : ان من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين ، وسلطان أمره ونهيـه فخرجوا عليـه ، ونبذوا طاعته ، ثم علموا ان الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها اليهم غـير دعوى انكار الدين وجحوده استثقالاً وتبرمـاً ، لا تقـلداً

وتمذهباً ، وما هم بمنكريه . فاعلم ان الله سيبتليك بهم ، وأنهم سيزينون لك انكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيلون اليك أنك لن تستطيع ان تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة ، وان تنال الحظوة الباسقة في نفوس اصحابها ، الا اذا تنكرت لدينك . وتسلّبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على ان لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم أنك الى نفسك احوج منك الى الناس وان الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً ان انت آثرت مرضاتهم على مرضاته ، وان هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وانواع الآلام ، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة ، ولا يئل من عثرة الا الى عثرة ، لا يعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته. ويستروح من اعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة :

قال لي بعض الناس : إن قوماً يغرقون في مدحك فهلا زجرتهم فقلت له : إن آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع سيئاً ، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضاً فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها .

الانتقاد :

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان : أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان ، أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا

ينتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أي أنـه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في كتابه ، وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً في الكتاب من رواجه وكساده وشهرته وخموله، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مراً فلا يبقى من آثاره فيها الا اثر واحد ، وهو ان الكتاب جليل القدر ، سني القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً مـــن عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم الا اذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يتوسل الى بعض الناقدين ان ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الامر ان ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول ، اولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا واثر انتقاداتهم في نفوسنا، اما الذين يغضبهم الانتقاد ويجرح صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً .

الحـــزم :

إن الدرهم الذي تمنحه من لا يستحقه ، قد خرج من يدك فـلا سبيل بك الى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه امامك من يستحقه ، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كاساً يقتل بهـا نفسه قـد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفاً يسد به جوعة اولاده .

الالم :

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف ان الانسان غافل بطبيعته عمـا يهدده من مصائب هـذه الحياة وأرزائها ، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة هي نذر تاتيه من عالم

الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة .

الغفران :

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للانسان ، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لانفسهم، ويذكر لاصحاب السيئات من الموتى حسناتهم لان الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم ، فلم لا نغتفر ذنوب اولئك الذين ما اذنبوا الا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثم سقطوا على اثرها صرعى لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً ؟

الدعوى :

إن أردت ان تكون في الامة الجاهلة كل شيء فادع لنفسك كل شيء، تنل بقولك في الزمن القصير ، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل فان الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه .

الدين والوطن :

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه ، لانه ان كان بنقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً ، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن الفضيلة للإنسان افضل الاوطان ، فمن لم يحرص عليها فاحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران .

الحلم :

اذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك في موقفك هذا بين

اثنتين اما ان يكون الرجل صادقاً فيما يقول او كاذباً ، فإن كانت الاولى فاحمد الله تعالى على ان قيض لك من ارشدك الى عيبك ، وكشف لك عن خبيئة نفسك ، وان كانت الاخرى فارباً بنفسك ان تكون من الجاهلين الذين يتوهمون ان في استطاعة الاكاذيب ان تبقى زمناً طويلاً على ظهر الارض .

الأدب :

لا تكافىء السفيه على سفهه بمثله، فإنك ان فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم انك تنقمها منه ، فإن كنت لا بد منتقماً فليكن مثلك مثل الاحنف بن قيس إذ جاءه رجل قد جعل له بعضُ الناس جعلاً على ان يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحاً محرجاً والاحنف ساكت لا يقول شيئاً حتى ضاق بالرجل أمره فانقلب الى قومه باكياً نادباً يأكل اصبعه أكلاً ويقول : والله ما سكت عني الا لهواني عليه :

الأخلاق :

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تمترض الرائح ، وتصد سبيل الغادي ، فلا الناس بظلها يستظلون ، ولا هم من شرها ناجون .

الاعتدال :

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام ، وبين البخل

والإسراف منزلة هي الكرم ، وبين العفو والانتقـام منزلة هي العقوبة ، وبين العجز والجهـل منزلة هي الحكمة ، فليكن من افضل ما تأخذ بـه نفسك التريث والتثبت عنــد النظر في الفرق بـين مشتبه الفضائـل والرذائل ، واعلم انك لا تزال كريماً حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا انت مسرف ، وانك لا تزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا انت جهول ، وأنك لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك وشرفك فاذا انت شجاع ، وان كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها ، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها فتلك مرتبة العقلاء الاذكياء .

البــــرّ :

ربما كان لك من أبويك او من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره او عصور نشأته على ان ينال حظاً من العلم والمعرفة مثل ما نلت ، فإياك ان يدعوك ذلك الى تسفيهه او تجبيهه او السخرية به او الإدلال بنفسك عليـه فإنك ان فعلت خسرت من الأدب اضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربما كان لكبيرك هذا الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العـلم بتجارب الحيـاة ومقاتلها ، وموارد الأمور ومصادرها ، ما يبهر علمك الذي تعتد بـه ، وتدل بمكانك منه عليه ، وهناك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقاً بك ان تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالاضافة اليها الا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر .

الشقـــاء :

السبب في شقاء الإنسان أنه دائمًا يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع اليه من سعادة غده ، فاذا جاء غده اعتقد ان أمسه كان خـيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقياً في حاضره وماضيه .

★

الفتاة والبيت

« الكلمة التي قرّظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت »

حضرة صديقي الكاتب الفاضل انطون أفندي الجميل .

أهديتَ الي كتابك : الفتاة والبيت فأهديته الى ابنتي ، لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات ، وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزيته ، وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت الي تقول إنني لم أهد اليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب .

سامحها الله ، فقد كان فيما أهديت اليها كتاب « النظرات » فقد فضلته على كتاب أبيها ، ولكن ما لها وللنظرات ، وامثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة ، فهي فتاة على باب المستقبل يهمها ان تعرف اسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر ان تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن ان يرشداها اليها ، لأنها بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرها لاصقاً بها حتى

اليوم ، ويغنيها ان تعلم كيف تنسج من اخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال ، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به ، ان قدر لها ان تعيش عيش المقلين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه ان قدر لها حظ المكثرين ، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها الى خادمتها ، فتسعد بهم ويسعدون بها ، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخدعها الخدم عن مالها ، ان كانت ذات خدم ، او تستغني عن معونتهم ، ان عجزت عن اتخاذهم ، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ،في اليوم الذي تفقد فيه عائلتها ومعينها، قطرات من الرزق تقيم بها أوَدَها ، وتصون بها ماء وجهها ؟

وكتابك – يا سيدي – هو الجواب عن جميع ما تطلبه ، وتسائل نفسها عنه ، فلا غرو ان أعجبها وأطربها ، ولا عجب ان فضلته على كل كتاب حتى كتاب ابيها .

أشكر لك ، يا انطون ، تلك اليد البيضاء التي أسديتها الي والى أمتك ، وانصح لجميع الآباء والأمهات ان يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها الى فتياتهم ، وان ياخذوهنّ بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها ، فما احرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب « الفتاة والبيت » .

البعث

« هي قصة خيالية ، الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخـلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة ، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بـين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية » .

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلة لهمّ نزل بي ، والهم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين اشياعها فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً، فلما تقضي الليل الا أقله ولم يبق الا ان تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه ، فقلت من الطارق ؟ قال : غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء واعوزه المأوى يطلب كريماً يعتمد عليه ، ومضجعاً يأوى اليه ، وقد أعد لمن يسدي اليه تلك النعمة ، ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب ، فاعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح

القول وصحيحه ما يعيى على جهد المتكلفين ، وترويق المزورين [1] ، وقلت في نفسي : ما لهذا الرجل بد من شأن وفتحت البـاب فاذا شيخ كنتي [2] من حملة أعباء الدهر ، قصير القامة، ناحل الجسم ، زري الهيئة، قد نيف على الثمانين من عمره ، فخيل اليّ ان ظهره المحدودب قوس، وان عصاه التي يعتمد عليها وترٌ قد شدّ إلى تلك القوس،وأنه قد أعدّ من هذه وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون [3] فلما شعر بمكاني رفع رأسه الي ورماني بنظرة خلت أنها نفذت الى موضع الاسرار من قلبي واحاطت بما بين قمة رأسي واخمص قدمي فرأيت وجهاً اسمر اللون قـد انتثرت في اكنافه حفائر الجدَرى [4] واسارير تنطوي تارة عـلى عبر القرون ، وحوادث الدهور ، وتنفرج أخرى عن انوار الصلاح والتقوى ، ولحية بيضاء الا أنها شعثـاء ، وعينـين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفـاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالاً واعظاماً ، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها ، واحسب ان لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغـابرة لنسبتها [5] فمشيت اليه

(١) زور الشيء :حسنه وقومه ،

(٢) الرجل الكنتي الكبير العمر ، نسبة الى قوله : كنت في شبابي كيت كيت .

(٣) وصف ابو العلاء نفسه في شيخوخته في احـــدى رسائله بقـــوله « واني لأعجز اذا اضطجعت عن القعود فربما استعنت بانسان فاذا هم باعانتي وبسط يديه لنهضتي ضربت عظامي، لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن » وقوله في لزومياته :

يا نفس جسمك سربال له خطـــر ... وما يبدل في حـــال بسربال
قـــد اخلفته الليالى فاتركيه لقى ... فما يزيدك لبس الخلك البالي

(٤) اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت ببصره وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك . (٥) نسبتها : أي ذكرت نسبتها الى نوع من أنواع تلك الصور .

مشية الهائب الوجل وقلت : على الرحب والسعة يا سيدي ، لقد حللت بمنزل انت صاحبه وولي الأمر فيه ، ثم قدمت اليه يدي فمشى معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة :

ما اوسع الموت يستريح به الجسم المعنى ويخفت اللجب

حتى وصلنا الى غرفة الاضياف فأعاد النظر اليّ وقال : اذهب لشانك فانا في حاجة الى الانفراد بنفسي ، فتركته وذهبت الى غرفة منامي وقد اخذ منظر الرجل مكاناً من قلبي وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي فلم أزل اقلب النظر في حالة واذهب المذاهب في استبطان سره حتى اخذ عيني نوم ثقيل لم استيقظ منه الا في صفرة الأصيل .

سالت الخادم عن الضيف فعلمت أنه اخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلاه فهبطت اليه في خلوته أهيب ما اكون له فرأيته جالساً الى قبلته يقلب وجهه في السماء ، ويكرر هذا الدعاء :

اللهم لا راد لقضائك ، ولا سخط على بلائك ، أمرت فاطعنا ، وابتليت فرضينا ، فامطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون الا بك ، ولا ملجأ الا اليك ، انك أرحم الراحمين ، واعدل الحاكمين [1] .

(١) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لايعلم ←

ثم أطرق بعد ذلك إطراقاً طويلاً خلت انه وصل فيه الى مقام التجريد وان الذي اراه بين يدي جسد هامد قد اسرى بروحه الى الملأ الأعلى فجعلت اختلس الخطا اليه حتى صاقبته ، فرفع رأسه الي ذاهلاً ، وقال : انت هنا ؟ قلت : نعم ، قال: في اي سنة نحن من تاريخ الهجرة ؟ فعجبت لسؤاله وقلت : في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلثمائة والألف ، قال : ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه ؟قلت : القاهرة المعزية : قال : أفي هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت ، لم افهم ماتريد ياسيدي ، قال:لقداستفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم اجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث ان يراني حتى يرعد مني فرقاً فيوصد بابه في وجهي او ضنيناً يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني ، او اعجمياً لا يفهم ما اقول ، ولا افهم ما يقول : قلت : ما في هذه الحالة اعجمي ، قال : انهم خاطبوني بلحن لا اعرفه وان شئت اعدته عليك كما سمعته،ثم اخذ يسرد علي الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه الي سرداً متواصلاً كما تسرد الببغاء كلماتها ، فقلت : انك قد اعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد ابي العلاء المعري ،فانهم يتحدثون عنه انه كان اذا سمع اعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون ان يفهم

← بمكانه :

كم بودرت غادة كعوب وعمرت أمها العجوز
يجوز أن تبطىء المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى (ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة – الآية) ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الارض وهو يقول : سبحان من هذا كلامه . قال : فعلمت صحة دينه ويقينه .

معناه [1] فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه [2] ورأرأ بمقلتيه [3] وزحف الي حتى اصطكت ركبتانا، فعجبت لامره وما رأيت من استحالة حاله . ثم قال لي : من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ، قلت : رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة نقرأ سيرته في كتب التاريخ والادب وتعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به ؟قلت: ان الناس في امره مختلفون ، ومن يرفضه اكثر ممن يتشيع له ، قال : ومن ايهم انت ؟ قلت: ممن يتشيع له ، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه ، قال : أكنت تؤثر ان تكون في عصره او ان يكون في عصرك حتى تراه ؟ قلت : ما اعدل بهذه الامنية غيرها ، قال : قد بلغك الله طلبتك ، قلت لم افهم يا سيدي شيئاً مما تقول ، قال : أكاتم انت على سرّي قلت: نعم، قال : أتقسم؟ قلت: ان للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متهماً نفسي لأقسمت ، قال : الآن عرفتك ، انا احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري ، فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى اسقط في يدي وعلمت اني قد هلكت ، وكان اول ما كان مني ان التفت ناحية لأرى هل اجد السبيل الى الهرب ان عرض لي من هذا الجنون عارض سوء ، وكأنه ألمّ بما في نفسي فقال : لاالومك على ما ظننت فقد قدرت قبل ان القي اليك كلمتي هذه انها بالغة منك مابلغت فهل تؤمن

(١) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن أنه كان يحفظ ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمناً طويلا حتى يلقيه كما سمعه .
(٢) انكفأ لونه : تغير . (٣) رأرأ بمقلتيه : حركهما وأدارهما

بالله ؟ قلت : نعم ، قال : وتؤمن بالبعث، قلت : نعم ، قال : ومايريبك من رجل اماته الله ثم بعثه بعد موته ؟ قلت : ذلك يوم يبعثون ، قال : هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه (فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً) وبعد فوالله يا بني ما كفرت منذ آمنت ، ولا كذبت منذ عرفت ان الصدق منجاة من النار ، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعد ما منحني إياها ولو كذبت الناس جميعاً ما كذبتك فقد اسلفت الي من اياديك ما لا احتاج بعده الى كذبة اتنفق بها عليك ، او ازدلف بها اليك، واني قاص عليك قصتي فاصغ لها ولك بعد ذلك حكمك ، فسرى عني قليلا ما كان ألم بنفسي من القلق فاقبلت عليه بوجهي فانشا يقول :

لا أزال يابني حتى الساعة اشعر بمرارة الحساب في فمي، فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللمحة وكل ما وجدته حاضراً بين يدي في صحائفي ، فكادت حسناتي تكافيء في الميزان سيئاتي ولولا تلك الكلمات التي كنت ارددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج[1] فقد دخلت بها في زمرة

(١) لأبي العلاء اقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهيد في النسل جاء بها على صور مختلفة تارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله :

قدم الفتى ومضي بغير تثية ... كهلال أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل ... لو عاش كابد شدة في دهره

وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله :

واذا أردتم للبنين كرامة ... فالحزم أجمع تركهم في الأظهر ←

المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان لا بـد من العقاب ففزعت الى الروح الشريفة المحمدية مستشفعاً بهـا لا اريد القضاء ولكن اريد اللطف فيه ، فتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بقوائم العرش الإلهي وقال :

اللهم إنك تعلم ان عبدك هذا عاش في تلك الدار كارها لها متبرماً بها

ـــــ وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله :

تواصل حبل النسل ما بين آدم	وبيني ولم يوصل بلامي باء
تثاءب عمرو اذ تثاءب خالد	بعـدوى فما أعدتني الثوباء

وقوله :

بلت عن الدنيا ولا بلت لي	فيهـا ولا عرس ولا أخت

وقوله :

لقد صرت في الدنيا غبيناً مرزءاً	فأعفيت نسلي من أذاة ومن غبن
فان تحكمي بالجور في وفي أبي	فلن تحكميه في بناتي وفي إبني

وتارة كان يعد ولادة الوالد لولد جناية منه عليه كقوله :

ليذمم والداً ولد ويعتب	عليه فبئس عمري ما سعى له

وقوله :

هذا جناه أبي عليّ	وما جنيت على أحد

وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ماكان يتصوره من ان الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الانساني ولا خلاص له منه الا من طريق العدم المحض ، وان اسناده الجناية الى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل اراد به الامعان في تصوير هذا الشقاء وتبين ضرورة اتصاله بالانسان وانه لو لم يولد لما كان شقياً ، وقد أوضح غرضه هذا توضيحا بيناً في قوله :

الا تفكرت قبل النسل في زمن	به حللت فتدري أين تلقيه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا	وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت	به الفتاة الى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية	عند النذور لعل الله يبقيه
وانت ارشد منها حين تحمله	الى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له	بقراط ما كان من موت يوقيه

متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فراراً من أهلها يترقب فراقهـا في جميـع آنائه وفيناته حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه ان تعاقبـه على مـا اجترح من السيئات في دار العمـل فأسالك بقلمك النوراني الذي تمحو به في لوحك مـا تشاء وتثبت ، انـ تقي جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها واهوالها من عذاب النار [1] وان تجعل عذاب قلبه فداءعذاب جسمه فعاقبه بإرجاعه الى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه ، وحسبه من العقاب ان يلقى فيها آخر ما لقي فيهـا اولاً ، إنك بعبـادك لطيف خبير .

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى ان أعود الى الدار الأولى لأقضي فيهامن الايام بعد ما قضيت فيها من السنين وقد علم سبحانه وتعالى اني كنت في العهد الاول أحمده على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فرد اليّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا اول يوم من الأيام التي سأقضيها في

---

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقده جميع الموحدين ان مالقيه في هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وانعمها مدخر له أجره في دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله :

أأخشى عذاب الله والله عـادل وقـد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله :

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وادخل ناراً مثل قيصر اوكسرى

داركم هذه ، فاكتم على أمري حتى ينقضي أجلي وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها ، فقد اغتبطت بك منذ رأيتك وعلمت ان الله ما قيضك لي الا وهو يريد ان يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً وعلمت أني احرزت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الارض ظاهرها وباطنها ، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي الا خوف انقضائه .

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في خلوته على ان نلتقي غداً .

اليوم الثاني

ما كنت اجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ورأي غير رأيه فقدمت اليه في طعام العشاء دجاجات ربلات [1] كنت أعددتهن للضيفان من قبل فلما اخذ بصره المائدة صار ينظر اليها مرة والي أخرى ثم قال : ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه الي ؟ قلت : انهن دجاجات لم يكن للخادم الصغرى عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهم والحدب بهن ، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب وتنزلهن من نفسها

(١) الربل الكثير اللحم .

منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن [1] واستدرن للذبح ، وقد كنت أبقي عليهن كلما طرقني طارق إبقاء على الفتاة ان ينفجر صدرها حزناً على أترابها الصغيرات ، أمـا اليوم فلم أر من ذلك بـداً فذبحتهن إكراماً لك ، فسال من دموع الفتاة عليهن اكثر مما سال من دمائها .

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهينم [2] فيه بهذه الكلمات، وارحمتاه، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ، ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الإنسان الصامت حتى حسه ووجدانه ، ويأبى الا ان ينظمه في سلـك الجمـادات الصم لأنـه صامت لا ينطق ، وأخرس لا يبين [3] وبمـا كان زقاء الديك ، وقوقاة الدجاجة ، وصرصرة البازي ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصفور ، وثغاء الشاة ، ومواء الهرة ، وخوار الثور ، وحنين النيب [4] بـكاء بغير دموع ، وشكرى بغير لسان ؛ وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجـد والرجاء والبرحاء ما لو استطاع ان يبين عنه لأبكى العيون دماء وفجر الصخور عيوناً .

ثم رفع الي وقال : أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عندما أردت ذبحهن قلت : لا يا مولاي ومتى قلن للنـاس شيئاً فيقلن لي ؟ فنظر الي نظرة شزراء لا انسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ثم قال : أما لو ان

---

(١) اكتنز اللحم : اجتمع وصلب .

(٢) الهينمة : الصوت الخفي

(٣) من كلام ابي العلاء في احساس الحيوان بالألم قوله في احدي رسائله « وقد عـلم ان الحيوان كله حساس يقع به الألم » وقوله » ولم يزل من ينتسب الى الدين يرغـب في هجران اللحوم لا يتوصل اليها الا بايلام حيوان يفر منه في كل اوان » .

(٤) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة

الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له : مهلا رويداً أيها القاتل السفاك لا تدن مني ولا تمدد يدك الي فلا شان لك معي ولا ترة [1] لك عندي .

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد ان اموت ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي افراخاً صغاراً هن الى حياتي احوج منك الى مماتي ، وليس من الرأي ان أكل أمرهن اليك من بعدي لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ولا تهدأ مديتك .

انت لا تملك ان تعطيني الحياة فلا تملك ان تسلبني إياها .

كل ما تستطيع ان تمن به على أنك تطعمني وتسقيني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني الا فتات مائدتك ولا تسقيني الا غسالة يديك ، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحساناً الي بل لتهيىء لنفسك ما يسد شهوتك ويطفىء لوعتها وهل تعلم أنك انت الذي سجنتني في اقفاصك ، وحلت بيني وبين رزق الله أطمعة أنى ذهبت واين حللت من حيث لا يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب ؟! .

أمن أجل الخشارة [2] القذرة والجريمة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي افراخي ولا ذنب لي ولا لهن عندك الا أنا كنا زينة بيتك ولعبة اطفالك وحماة آلك من بنات الارض [3] وهوامها ورسل الفجر المنير اليك .

(١) الترة : الثأر .

(٢) الخشارة : فضالة المائدة .

(٣) المراد ببنات الأرض : الحشرات التي تخرج من بطنها .

لا تظلم السبع اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه فكلاكما وحش وكلاكما مفترس لا فرق بينك وبينه الا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن ، فهو يبقر البطون بأظافره وانت تفري الاوداج بمداك ، لا بل ان جريمتك اكبر من جريمته وعذرك اضعف من عذره لأنه يفترس ليشبع بطنه وانت على ذلك من القادرين [1] .

استضعفتني فبرزت الي فهلا برزت لشبل الاسد ، او ديسم الدب ، او فرعل الضب ، او حرش الحية ،او هيثم النسر ، او ناهض العقاب [2] ؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزاً ، وما اظلمك قادراً ، وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك !

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو ان الله وهبه أذناً كالآذان وبصيرة كالبصائر ، ولكن الناس لا يعلمون .

هيه يا صاحب الدجاجات ! حدثني عنك ألم يكن لك في جميع ما تنبت الارض من بقلها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي ، وانت تعلم أنني رجل سلخت في دنيا كم هذه من حياتي الأولى نيفاً وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا

(١) فضل ابو العلاء الحيوان على الانسان في كثير من كلامه كقوله :

سببت بالكلب فأنكرته   والكلب خير منك اذ ينبح

وقوله :

أقل منهم شراً ومرزية   ماركبوا في السرى وما ذبحوا

وقوله :

خير من الظالم الجبار شيمته   ظلم وحيف ظليم يرتعي الذبحا

(٢) هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان

نتاجه ، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء وأقنعتها بالبلسن طعاماً والبلس حلوى (١) لأني كنت اعلم ان طعامي الذي لا يلاءمني غيره ولا يشبعني سواه ، وان لحم الحيوان انما خلق للشفاه الغليظة ، والأنياب العريضة والأظافر الحادة والجلود المزأبرة (١) والاعضاء المتوثبة ، والهامات الضخمة ، وكنت أرى ان أكلة اللحوم إنما يخادعون انفسهم فيها ويجترونها الى طباعهم اجترارا لا يأكلونها الا اذا عالجوها بالطبخ والصف (٣) والتقديد والشي والقلي ، ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والاقزاح (٤) مزجاً يكاد يخرج بها عن جوهرها الى جوهر النبات ، حتى اذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها وبرئوا الى الله منها وفزعوا الى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم ، كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع الى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له .

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم انهم كانوا ينكرون على رأيي في ترك ذلك الطعام ويمعنون في مسالتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه

---

(١) البلسن : العدس . والبلس : التين ، ومن كلام أبي العلاء :

يقنعني بلسن يمارس لي ... فان اتتني حلاوة فبلس

(٢) الثوب المزأبر : الذي له زئبر وهو ما يظهر من درزه .

(٣) الصف : تشريح اللحم عراضاً .

(٤) التوابل وما يليها : ما يطيب المطبوخ من الاشياء اليابسة .

ويلحون في ذلك إلحاحاً شديداً حتى ظننت انهم قاتلي من دونه [1] كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه انهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم [2] او ان الله تعالى انزل عليهم قرآناً ألا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً الا اذا قدموا عليه ببطون بجر [3] مكتظة بلحوم الحيوان تتقدم بين ايديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم ابواب الجنان، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم ان يؤدوه وترك ما أمرهم ان يتركوه فلم يبق بين ايديهم من ابواب العبادة الا باب التورع عن أكل اللحم مخافة ان ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد أدائها مخافة ان تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة [4] .

واحسب ان لو كنت فيهم من أكلة السحت او الميتة والدم ولحم الخنزير او أموال الناس بالباطل، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة او تبرماً بها او تمرداً

---

(١) كتب ابن أبي عمران الى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويبكته فيها تبكيتاً مؤلماً، ويعرض عليه ان يحمل بعض الامراء على ان يرسل اليه مايكفيه مؤونة ذلك احراجاً له واعناتاً، وأبو العلاء يومئذ في اواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل «ولو مثل بحضرته السامية لعلم انه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا ان يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فانما يصلي قاعداً والله المستعان» .

(٢) القرم والجعم: شهوة اللحم. (٣) بجر، جمع أبجر: وهو الممتلىء.

(٤) من كلام ابي العلاء في الذين يغفلون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها:

يعيب أناس ان قوماً تجردوا ... لحامهم نصب العيون الشوازر
لقد سعدوا ان كان لم يجز عندهم ... من الوزر الا تركهم للمآزر

عليها ، ولكنني كنت امرءاً جزوعاً يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه ، وكنت فقيراً لا املك في كل عام من الرزق الا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين [١] وما كنت أجد السبيل الى غيرها الا من طريق الكدية والتكفف أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين ، وقد علم الله من شاني أنني رجل لو علمت أني ان أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير او قدم وزير امطرت السماء علي ذهبا ، واستحالت الحصباء تحت قدمي دراً ما فعلت ضناً بنفسي على هذا الموقف المستوبل وإيثاراً للرضا بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده [٢] .

---

(١) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله « ومما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً فاذا اخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي ما لا يعجب ، فاتنصرت على فول وبلسن ، وبعض ما لا يعذب في الاحسن » ومن كلامه الدال على أنه كان فقيراً معوزاً قوله :

واتهامي بالمال أوجب أن يطلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل

(٢) كان أبو العلاء غاية في قناعته وأنفة نفسه وقد ظهر ذلك في حالة معيشته واعتقاله بيته وانزوائه عن الناس مع رغبة الامراء فيه والحاح الكبراء عليه في البروز اليهم والسكون معهم فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت في دعة ارضى القليل ولا أهتم بالقوت

وقوله :

من مذهبي أن لا أشد بفضة قدحي ولا اصغى لشرب معوج
لكن أقضي مدتي بتقنع يغني وأخرج بالقليل الأروج
هذا ولست أرد أني قائم بالملك في ثوبي أغر متوج

ولما اضطر ان يخرج الى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب منه اطلاق جماعة من —

فلم أر خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل .

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : ان رسول الله لم يمتلىء قط شبعاً وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي واقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول : يا عائشة اخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مآبهم واجزل ثوابهم ، وكان يقول: شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة [1] وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة [2] إذ

← الاسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم. ولكنه جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعاً ظهر في قوله :

تغيبت في منزلي برهة	ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل	وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام	واسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبني هذا النفا	ق فكم نفقت محنة ما كسد

(١) مخ الحنطة : خالصها .

(٢) الدرة : السوط يضرب به ، كان في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه درة تكاد لا تفارق يده .

دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم ياكله قائلاً : كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوذاب [1] والكباب ولا بالخل والزيت .

فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله او محرماً ما حلل الله ؟ لا ، فما كل من أبغض حلالاً حرمه ، ولا كل من أحب حراماً حلله ، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحل النبيذ فلما أريد عليه قال : لو قطعت إرباً إرباً ما حرمته ولو قطعت إرباً ما شربته وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بحل الطلاق ثم قال : أبغض الحلال الى الله الطلاق ، بل لو تبينت لعلمت ان قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها ، والنفوس لا تنفر الا مما حل لها ولا تشتهي الا ما حرم عليها .

فويل لي من هؤلاء الناس ، شركتهم في دنياهم فقالوا شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون [2]

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثه يبين ، فرثيت له مما به وأمرت برفع

(١) الجوذاب : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .

(٢) من كلام ابي العلاء في عدم رضاء الناس عنه حتى في زهده عما في ايديهم :

حوربت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهدا

المائدة من بين يديه وقدمت له مقترحه من الطعام ، فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فاردت ان أرفه عليه ما ألم به من الهم فقلت له : يا مولاي ان للحيوان اليوم شاناً غير ذلك الشان الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان اليه ، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين يأخذون انفسهم بمناظرة المدارج والسبل والاسواق العامة فاذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل او يسوطها سوطاً عنيفاً[1] رفعوا الى الحاكم أمره ،او رأوا حيواناً هزيلا او مهيضاً[2] حملوه الى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان فعالجوه ان وجدوا الى الرجاء فيه سبيلا والا قتلوه رحمة به وإشفاقاً عليه .

قال : لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الاقدار في تحديد الآجال ، وها نحن نرى في كل يوم مريضاً يبل بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله ، وصحيحاً يخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه الى منيته تأتيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر اليه[3] .

ما احسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم الا مرائين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم الا حبالة من الحبائل نصبوها

---

(١) ساط دابته ـ سوطاً : اي ضربها بالسوط . (٢) المهيض : الكسير .
(٣) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن ادراك الغيب :
وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت وما سطيح

لاصطياد العقول واختتال النفوس ، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا الا ان يقول الناس عنهم أنهم رحموا الحيوان فأحرى ان يرحموا الإنسان ، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرعاً الى البدرة حراماً .

يا بني آدم ، دعوا النوق في مراحها ، والشاء في دروبها ، والوحش في كناسه ، والضب في جحره ، والذئب في وجاره ، والقطا في أفاحيصه ، ولا تزعجوا العصافير في اعشاشها ، ولا الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الاسماك عن مسارحها (١) ، وجنبوها فخاخكم وشباككم ، وقتركم وزباكم (٢) ، ومداكم وشفاركم ، فان لها نفوساً كنفوسكم ، ووجداناً كوجدانكم ، ورجاء في الحياة كرجائكم ، واعلموا ان الله تعالى ما أغوى بعضكم بعض ، ولا سلط قويكم على ضعيفكم ، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين احيائكم الا بعد ان ضريتم (٣) بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم الى المتعة بها ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والاوداج والأباهر (٤) ، فارحموها ترحموا انفسكم ، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم الى الرحمة محتاجون ، والى الله راغبون (٥) .

---

(١) هذه فروق اماكن تلك الحيوانات .

(٢) القتر : جمع قترة بضم القاف ، وهو الناموس الذي يبنيه الصائد ليستتر عن الصيد . والزبى : جمع زبية بضم الزاي وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الاسد .

(٣) ضري الوحش باللحم اعتاده وألفه .

(٤) الغلاصم : جمع غلصمة وهي اللحمة بين الرأس والعنق ، والأباهر جمع ابهر وهو عرق يخرج من القلب الى سائر الشرايين اذا انقطع مات صاحبه .

(٥) للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن ايذائه ومطاردته وذبحه واكل لحمه والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب :

←

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب ، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه ، فشعرت ان سنة من النوم قد رنقت[1] في عينيه ، فانسللت من بين يديه ، وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً .

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته الى حديقة المنزل فافترش ترابها ، وتوسد أعشابها وأنشأ يردد النظر بين أزهارها

→ لقد ساءني مغد الفقير بجهله ... على العير ضربا ساء ما يتقلد

يحمله ما لا يطيق فان ونى ... أحال على ذي قترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله :

لك النصح مني لا اعاديك خاتلا ... بكر ولكني اغاديك مكرما

اذا ما حذرت الصقر يوماً فحاذري ... اخا الإنس اياما وان كان محرما

يصوغ لك الغادي قلادة هالك ... من الدم تخبي وجدك المتضرما

وقوله في النهي عن صيد الوحش :

لا تطرد الوحش فما يلبث ... المطرود في الدنيا ولا الطارد

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت اختلاجه وقبل مفارقته الحياة :

روح ذبيحك لا تعجله ميتته ... فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقوله في الاعتراض على صيد الاسماك :

جاروا على حيوان البر ثم غدوا ... على البحار فقالوا الصيد ما فيها

لم يقنع الحي منها ما تقنصه ... حتى اجاز اناس اكل طافيها

وقوله يبكي على الطائر المقتول :

وابك على طائر رماه فتى ... لاه فأوهى بفهره الكتفا

او صادفته حبالة نصبت ... فظل فيها كأنما كتفا

بكر يبغي المعاش مجتهداً ... فقص عقد الشروق او هتفا

كأنه في الحياة ما فرع الغصـ ... ـن لغنى عليه او هتفا

(١) يقال رنق النوم في عينيه اذا خالطها كأنه مأخوذ من ترنيق الطائر اي تحليقه ورفرفته بجناحيه .

وأنوارها ويبسم للعصافير تنتقل بـين أنجمها[1] وأشجـارها ويصغي الى سرار الحديث بين حصبائها ومائها فعرفت المدخل الى قلبه والوسيلة الى سروره وغبطته فاقترحت عليه البروز الى ضاحية البلد ليرفه عن نفسه ما ألم بها من الحزن والألم فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا الى واد أفيـح يهتز بصنوف الأشجار ، وأفـانين الأزهـــار ويتراءى في ألوان من النبـات ، مشتبهات وغـير مشتبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجميم[2] ، وكروم وأعناب ، وسنابل وأعشاب وتفيض أرجاؤها بالجداول والغدران ، والقني والخلجان ، مطردات ومنعطفات ، ومجتمعات ومفترقـات ، يفضي أولاهـا الى أخراهـا ، ويتصل أقصاهـا بادناها ، ويعطف كبيرها عـلى صغيرها ، وقويها على ضعيفها ، فكأنها صلال رقشاء قـد فرت من حر الظهيرة الى هـذا الروض الأريض تبترد بـين روابيه وآكامه ، ومصاعـده منحدراته ، فهي تنقبض وتنبسط وتنساب وتتمعج[3] وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتتواثب وتتراجع وتتواصل ثم تتقاطع ، وكان حفيف أوراقه ، وخرير مائه ، وتغريد أطياره ، وضجيـج نواعيره ، وعجيـج سائمته أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديـع يسمعه السامـع فيخيل اليه أنه هابط من أبواب السماء او أن سكان الألمب[4] فوق عروشهم يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم

(١) الأنجم : جمع نجم بفتح النون ، وهو ما نجم من النبات على غير ساق .

(٢) الهائج من النبات الذي اصفر ويبس والعميم منه ما عم الارض والبارض اول ما يبدو من النبات فاذا تحرك قليلا فهو الجميم .

(٣) تمعجت الحية : تلوت في سيرها وتثنت .

(٤) الالمب : خرافات اليونان ، مجمع آلهتهم ويقولون ان لتلك الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمعهم هذا ويطربون .

يستمعون .

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه فلم أرجع الى نفسي حتى سمعته يقول :

المليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات إماء
فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثرة والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت الي وقال : كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ ، والمؤرخون يصانعون ويداهنون ، او من أفواه الفقهاء ، والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، او من خطرات عقولهم ، وقد أفسدها ، عليهم القائلون والكاتبون [1] والحقيقة

(١) كثيراً ما نقم أبو العلاء على الرواة والقصاص اخبارهم التي يضعونها من عند انفسهم ويدونونها في كتبهم مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلباً للربح منهم كقوله .

ويقال للكرام قولاً وما في الد هر الا الشخوص والأسماء
وأحاديث حبرتها غواة وافترتها للكسب القدماء
غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء

وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من اخبار المعمرين في التاريخ القديم :

وادعوا للمعمرين أموراً لست أدري ما هن والمشهور
أتراهم فيما تقضي من الايام عدوا سنيهم بالشهور

وقوله في تكذيب القصاص الذين يزعمون ان أول من شاب من الرجال هو سيدنا ابراهيم عليه السلام :

←

موجودة ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق اليها ، قلت واين نجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء ، بين الظل والماء .

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة ، فاذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع ، ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة التي لا تلبث ان تأخذ مكانها مغرسها حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الارض خيراً بجذوعها وسعفها وجريدها وقنواتها وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب الماثلة في السماء والاسماك السابحة في الماء ، والاجواء المملوءة بالهواء والليل اذا يغشى، والنهار اذا تجلى، فيمتلىء قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبث به المناظرات ، ولا تشوه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده الى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي اليه سواه [1] .

→ ما أقبح المين قلتم لم يشب أحد … حتى أتى الشيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة … ان المشيب قد يأحل في اللحم

وقوله :

لعمري لقد فضح الأولين … ما كتبوا وما سطروا

(١) كان ابو العلاء من اشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده انها تورث الأحقاد والاضغان فضلا عما تلقيه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء وكان يكره من المتناظرين ان المنافسة وحب الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهيات كما يظهر ذلك من مثل قوله :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت … كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بأن زخرفه … يوهي العيون ولم تثبت له عمد
وما يزالون في شأم وفي يمن … يستنبطون قياساً ما له أمد ←

هنـا يرى الإنسان السائمـة تاكل العشب ، والعشب ياكل الـتراب ، والـتراب ياكل السائمة ، فيستحيل الجمـــاد نبـاتاً ، والنبات حيواناً ، والحيوان جماداً . فيعـلم ان المواليد الثلاثة مادة واحدة تتـلون ذراتها وتشكل جواهرها ، ويعـلم ان هـذا الإنسان الفاخر بنفسه ، والمـدل بعظمته واقتداره ، وربما كان بالأمس صفيحة [1] ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة [2] نعل [3] .

هنا يرى الانسان الارض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور ، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار الى ان تبلـغ شغافها وأن النـاس مـا اختلفوا الا لأنهم جـاحدون ، ولا اقتتلوا الا لأنهم ملحدون .

هنا يرى الانسان الشمس طالعة من مشرقها ، مصفرة اللون متقاربة

← فـدرهم ودنياهم فقد شغلوا ... بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله : ملـل غدت فرقاً وكل شريعة ... تهـدى لمضمر غـيرها اكفارها

وقوله : علم الفتى النظار ان بصائراً ... عميت فـكم يخفي اليقين وكم يعم

لو قال سيد غضاً بعثت بـلة ... من عند ربي قال بعضهمو نعم

وقوله : هـذا الفتى أوقـح من صخرة ... يبهت من ناظره حيث كان

ويدعى الإخـلاص في دينـه ... وهو عن الإلحاد في القول كان

يزعم ان العشر مـا نصفـه ... خمس وان الجسم لا في مكان

(١) الصفيحة : الحجز العريض .

(٢) الذؤابة من النعل ما أصاب الارض من المرسل منها على القدم .

(٣) يردد ابو العلاء هذا للمعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيراً في كلامه فمن ذلك قوله :

مضى الأنام فـلولا علم حالهم ... لقلت قول زهيراية سلكوا

في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا ... منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

الخطوات مخافة ان تطير اليها رشاشة سوداء من مآثم هـذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث ان تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر الى مغربها هـاربة فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق مـا ألم بـه من تلك الأدران والأوحـال ، ويرى الليل مقبـلاً يقطب وجهه ويزوى مـا بين حاجبيه ويربد شيئاً فشيئاً ، حتى يسود غضباً على هـذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور ، ولا يزال مـاداً يديه بالدعاء الى الله تعـالى أن يعجـل أوبته الى مستقره حتى يستجيب له ويداوله بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ، ثم أطلت بعيونها على هذا العـالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخـافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار ، التي تتطاير يمنة ويسرة وصعوداً وهبوطاً فلا يقوم لها شيء الا أتت عليه.

هنا يرى الانسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ويسمع صوتها

وقوله :

ومـا يدريـك والإنسان غمر	وقد يدري خليلك وهو دار
لعـل مقـاصل البنـاء تضحى	طـلاء للسقيفـة والجـدار

وقوله :

فلا يمس فخاراً من الفخر عائد	الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعـل إناء منـه يصنـع مرة	فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمـل من ارض ومـا درى	فواهاً له بعد البلى يتغرب

وقوله في داليته المعروفة :

رب لحـد صار لحـداً مراراً	ضاحـك من تزاحم الاضـداد
ودفـين على بقـايا دفـين	في طويل الازمان والآباد

واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ، ولا صياح المؤذنين .

فقلت حسبك يا مولاي ، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلا احسبه فلاح هذه الأرض فامض بنا اليه عله ييسر لنا ظلة نفيء اليها وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارة[1] ، فمشينا اليه حتى بلغناه فرأيناه مكبأ على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها ، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره[2] ، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً ، حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم ، فحييناه بتحية حيانا بأحسن منها، وأفضينا اليه بطلبتنا، فاشار بيده الى كوخه، وكان منه على بعد كثب ، فإذا عريش من عيدان القصب مسجج[3] ، قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الاشجار ، واعتمد على أسيطينة[4] من اللبن الأسود ، وامتدت أمامه صفة مستطيلة ، واستدار به نؤى يمنع عنه مسيل الماء ، فدخلناه فلم نر فيه الا رثة[5] من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق الخبز اليبيس ، وخلقان من القمص والأبراد ، وقدر وأثفية ، وجرة مملوءة ماء ، وحشية[6] مفككة تضطرب في جوفها حشوة من

(١) يقال فثأ القدر اذا سكن غليانها ، الصارة : العطش .
(٢) شرست اليد اذا غلظ ظهرها من برد فتشقق . وشثنت القدم اذا خشنت وغلظت ، وزأبر الثوب اذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درزه .
(٣) يقال سجج الحائط اذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين .
(٤) أسيطينة : تصغير أسطوانة .
(٥) رثة المتاع بكسر الراء : ساقطة .
(٦) الحشية : الفراش المحشو .

الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل ، فشربنا حتى ارتوينا ،واخذنا من تلك الحشية مضجعاً ، وما زلنا على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل [1] في مشيته ، ويحمل فأسه على عاتقه ، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة ، فجلس وجلس ولداه بين يديه ، وأنشأ يلقي الينا معاذيره ، ويتوجع لعجزه عن اكرامنا وإسعافنا بما نحب ، فعذرناه . ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي ــ وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان : ــ

الشيخ ــ من يملك هذه الارض ؟

الفلاح ــ هي لسيدي ومولاي ــ أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته ــ صاحب هذا القصر الذي تراه ــ وأشار الى قصر فخم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء رفرفة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء ــ .

الشيخ ــ أراك تدعو له ، وتتمنى له الخير والسعادة ، فلعلك سعيد بجواره ، مغتبط بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه ، ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه .

الفلاح ــ حسبي من سيدي ان أرى وجهه مرة في كل يوم او يومين ، ممتطياً فرسه الدهماء ، في ركب من أصحابه وحاشيته ، ماراً بهذه الاجمالات الملتفة ، يتنزه ويتروح ، ويطارد الثعالب والذئاب ، مطاردة الشجاع المستقتل ، ثم يعود الى قصره مسروراً مغتبطاً بصبحه وممساه .

(١) قزل ــ به قزل : وهو أقبح العرج .

الشيخ ـ إنما اسالك عن أياديه عندك وصنائعه لديك ، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته .

الفلاح ـ وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها ، نعمة اجل قدراً وأسنى قيمة من ان اكون عبداً مملوكاً لسيد كهذا السيد ، رفيع الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطاطىء بين يديه رؤوس العظماء ، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء ؟

الشيخ ـ أيها الرجل : ما عن هذا اسالك ، إنما اسالك هل يسلم عليك سيدك هذا اذا مر ببابك او يخلو بك احياناً ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك ؟

الفلاح ـ الحق أقول يا سيدي إني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده الا بالأمر والنهي او يرفع اليه طرفه الا بالنظر الشزر ، او يلامس بيده جسمه الا للتأديب والتهذيب ، ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة ايام او إغفاله أمري ونهيي وزجري وتاديبي ، وقد أعد لي ـ حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته ـ عصياً غلاظاً يتعهدني بها من حين الى حين كلما نسيت أمراً من أوامره او قصرت في رعاية غرض من اغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كله لأني

أعلم أني منه على ذكر [1] وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه .

الشيخ ـ واين أم هذين الولدين ؟

الفلاح ـ ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها ، فقد كنا يوماً نمتح [2] على حافة بئر فزلقت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا ، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسفت على ان لم أكن قد لحقت بها فاكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليترحم علي كما ترحم عليها ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها .

الشيخ ـ ربما كنت قانعاً من إحسان سيدك اليك وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الارض وثمراتها ؟

الفلاح ـ لا والله يا سيدي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيزبر ، او حفنة تمر ، الا ان تسقط بين يدي تمرة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بيني وبين ولدي او أحتطب من اطراف الوادي بضعة أعواد من الحطب اشعلها تحت قدري وأستغفر الله مما سهوت عنه او أخطات فيه .

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول ان يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه

(١) الذكر : التذكر . (٢) متح الماء متحاً : نزعه .

فاشرت اليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل ، وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي ان اكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال : ما نغص علي يومي الا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر سنه وسقوط همته وذلة جانبه . وما احسب الا ان الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها وسلبها حسها ووجدانها فاصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده [1] فهو لا يفرح الا لفرحه ولا يغتبط الا باغتباطه ، ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على اخلاصه اليه وتعبده له ، بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه ، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين .

ثم تركني وانحدر الى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات :

يحسن مرأى لبني آدم — وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة — لا تظلم الناس ولا تكذب

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً الا بالفضائل النفيسة ، وقد ردد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله :

أسر ان كنت محموداً على خلق — ولا أسر بأني الملك محمود

وقوله : وإقصائي عن الرؤساء كوني — وكونهم لخالقنا عبيداً

وقوله : وإن أفضل من تعظيمهم رجلا — صفرا من الحكم التعظيم للحجر

الاربعون[1]

الآن وصلت الى قمة هرم الحياة ، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر ، ولا أعلم هل استطيع ان أهبط بهدوء وسكون حتى اصل الى السفح بسلام ،او أعثر في طريقي عثرة تهوي بي الى المصرع الاخير هوياً.

سلام عليك أيها الماضي الجميل ، لقد كنت ميداناً فسيحاً للآمال والاحلام وكنا نطير في اجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء ، لا نشكو ولا نتالم ، ولا نضجر ولا نسأم ، بل نعتقد ان في العالم هموماً وآلاماً ، وكان كل شيء في نظرنا جميلا حتى الحاجة والفاقة ، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها ، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوباً قشيباً من نسيج الزهر الابيض ، فاصبح فتنة الانظار ، وشرك الالباب !

---

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجله رحمه الله وبرد ثراه .

وكان يخيل الينا ان هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطرداً مندفعاً لا يعترضه معترض ، ولا يلوى به عن طريقه لا والى ما لا نهاية لاطراده وتدفقه .

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم ، ان يكون لنا مأربان من مآرب الحياة ، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر او غرضان من اغراضها ، فنصل الى القريب ، ونبيت دون البعيد .

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيب او طلعة رقيب او أرق ليلة او ضجر ساعة ، او نظرة شزر يلقيها بغيض ، او نفثة شر يرمينـا بهـا حقود ، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا ان تطرد تلك الآلام امامها كما يطرد النهر المتدفق الاقذار والاكدار بين يده وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها ولا تنغيص .

سلام عليك أيها الشباب الذاهب ، سلام على دوحتك الفينانة الغناء ، التي كنا نمرح في ظلالها ، مرح الظباء العفر في رملتها الوعثاء ننظر الى السماء فيخيل الينا أنها مغدى ومراح لنـا ، والى الآفاق البعيدة فيخيـل الينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا ، فكان العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شئنا .

أبكيك يا عهـد الشباب ، لا لأنني تمتعت فيك براح او غزَل ، ولا لأني ركبت مطيتك الى لهو او لعب ، ولا لأني ذقتُ فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون بل لأنك كنت الشباب وكفى .

أبكيك لأني كنت ارى في سمائك نجم الامل لامعاً متلألئاً يؤنسني منظره ويطربني لألاؤه وينفذ الى اعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب فلما ذهبت ذهب بذهابك فاصبح منظر تلك السماء منظر فلاة موحشة مظلمة لا يضيئها كوكب ، ولا يلمع فيها شعاع .

أجل ، لم اتمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من الملاذ ، ولا نلتُ في عهدك مارباً من مآرب المجد او الجاه ، ولكني كنت اؤمل وأرجو . وبذلك الامل كنت اعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم .

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة الى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل شيء ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه الا ان أعدّ عدّتي لتلك الساعة الرهيبة التي انحدر فيها الى قبري .

مضى عهد الشباب وبدأت اختلف الى الاطباء الثلاثة طبيب العيون، وطبيب المعدة ، وطبيب الاسنان ، وتقاربت خطواتي فاصبح فرسخي ميلا ، وباعي ذراعاً ، ونعى الناعون الى كثيراً من اصحابي وأترابي أي أنهم نعوا الى نفسي ورأيت اصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فانكرت استحالة حالهم واغبرارَ وجوههم ، واحمرار خدودهم ، وابيضاض شعورهم ، فعلمت أنني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء ، وحسن الختام ، أي ان قوتي في هبوط ، ونشاطي في اضمحلال وسلامتي في خطر وحياتي على وشك الانحدار الى مغربها ، ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة

والنشاط والمرح والسرور فخيل الي أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم ولا شان لي معهم ، وأنني اعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه وانتقلت من النظر في شان نفسي، وشأن مستقبلي الى النظر في شان اولادي وشان مستقبلهم ، لأن مستقبلي اصبح ماضياً ، وغداً اصبح أمس لا رجعة له الى الأبد ، وسمعت كلمة « الجدّ » يهتف بها احفادي الصغار ، فلم انكرها ولم أبتئس كانني معترف أنها الكلمة التي يجب ان اسمعها ، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير ابقاءً على مصلحة اولادي الفقراء ، كأنهم يقولون لي إنك موشك ان ترحل فاعد لمن وراءك من اهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك ، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها ، فاصبحت سمحاً كريماً ، عفواً غفوراً ، لا ابغض أحداً ، ولا أحقد على أحد ، ولا أقابل ذنباً بعقوبة ، ولا إساءة بمثلها ، كانني أقول في نفسي : ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكاً ، ان لم يكن اليوم فغداً ، وأخذت أتحدث عن الماضي اكثر مما أتحدث عن الحاضر ، لا لأن الاول أجمل من الثاني بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة ،وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها ايام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء فبكيتها ورثيتها ولم تنسني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلا ومجداً وشرفاً ، لأن الأولى كانت في سماء الاحلام الحلوة اللذيذة ، أما الثانية ففي ارض الحقيقة المرة المؤلمة ، وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة ، فكنت ، اجد في نفسي غبطة عظمى حينما اجلس لمطالعة قصة الف ليلة وليلة ، او سيرة سيف بن ذى يزن ، او حروب عنترة ، او

وقائع أبي زيـد او اساطير الجن والشياطين ، وحـين آوي الى مضجعي فارى في منامي رؤي بديعـة يجتمع لي فيهـا جميع مـا احب واشتهي من مطامع الحياة ومآربها وملاذ العيش ومباهجه ، وحين اختلف الى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة امام حلقات ابوابهم فاشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء ، والآن وقـد حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها ان اساطير الاولين أكاذيب وأباطيل وان الرؤي والاحلام هوس وجنون ، وان الأولياء والصالحين أحياء كانوا او أمواتاً في شاغل بانفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً ؟ أي أنني شقيت حين علمت ، وكنت سعيداً قبل ان اعلم ، وكان كل ما افكر فيه ان أشيد لي بيتاً جميلاً اعيش فيه عيش السعداء الامنين في مدينة الأحياء ، فاصبحت وكل ما أفكر فيه الآن ان أبنى لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الاموات ، وكنت ادهش لبلاغـة البليـغ ، وذلاقة الخطيب ، وبراعـة الشاعر وقـدرة الكاتب الصائـغ ونبوغ المبتكر ، واطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما اسمع،فاصبحت لا ادهش لشيء ولا اعجب من شيء لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم ، واين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها .

ما انا بآسف على الموت يوم يأتيني ، فالموت غاية كل حي ، ولكنني أرى امامي عالماً ، مجهولاً لا اعلم مـا يكون حظي منـه واترك ورائي اطفـالاً صغاراً لا اعلم كيف يعيشون من بعـدي ولولا مـا امامي ومن

ورائي ما باليت اسقطت على الموت أم سقط الموت علي ؟!

لكن ما أراده الله ، أما ما امامي فالله يعلم أني ما المت في حياتي بمعصية الا وترددت فيها قبل الإلمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يوماً من الايام في آيات الله وكتبه ، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره ، ولا اذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولا لعظمة غير عظمته ، وما احسب انه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه بعد ذلك ، واما من ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها ، والقطاة في افحوصها ، والعصفور في عشه ، والفرخ في وكره ، سيتولى هؤلاء الاطفال المساكين وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه .

وداعاً يا عهد الشباب ، فقد ودعت بوداعك الحياة ، وما الحياة الا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر ، فاذا هدأت فقد هدأ كل شيء ، وانقضى كل شيء !

أيا عهد الشباب وكنت تندى   على أفياء سرحتك السلام

القسم الرّابع



وهي مجموعة روايات قصيرة.

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العــبرات ، علهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى ،

مصطفى لطفي المنفلوطي

اليتـــيم

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشر أو العشرين من عمره ، وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على كثب من بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى شاحباً نحيلاً منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً فلم أكن أحفل بشيء من أمره ، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك أمام مصباحه ، وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنيه سنة من النوم فأعجلته من الذهاب إلى فراشه وسقطت به مكانه ؛ فما رمت مكاني [1] حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مدادها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيـــه .

---

(١) رام مكانه : زال عنه وفارقه .

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو هماً من هموم الحياة أو رزء من أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع [1] الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض ، فلم أزل واقفاً مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى ، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخـــلة الصديق لصديقه وأستبثه [2] ذات نفسه وأشركه في همه لولا ، أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكاتمه الناس جميعاً حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل إلي ،

---

(١) الضارع : الضعيف النحيل .

(٢) استبثه السر : طلب إليه أن يبثه إياه .

وهي صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لي من المصير إليه ، فتقدمت إلى خادمي [1] أن يتقدمني بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت إلى باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً ، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إلي هنيهة لا ينطق ولا يطرف [2] فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة فعناني أمرك فجئتك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعت يدي حيث وضعها فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمررت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، وإذا قميص فضفاض [3] من الجلد يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بضع قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إلي نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك ، فقلت ما شكاتك أيها الأخ ؟ قال : لا أشكو شيئاً ؛ فقلت : فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال : لا أعلم ؛ قلت : أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟ فتنهد طويلاً ونظر إلي نظرة دامعة وقال إنما

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به .
(٢) طرف فلان ببصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر .
(٣) الفضفاض : الواسع .

يبغي الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ، ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فلم أجد بدأ من دعاء الطبيب رضي أم أبى ، فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو — من حيث يعلم أني أسمع شكواه — إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأزقة المظلمة في الليالي الباردة ؛ فلم أحفل بتعريضه لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه ؛ فجس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً : إن عايلك يا سيدي مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم ، وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه ، فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر ، فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال : أنت هنا ؟ قلت : نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل ، قال : أرجو أن أكون كذلك ، قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهراً أو هماً باطناً ؟ قال : أشكوهما معا ، قلت : فهل لك ان تحدثني بشأنك وتفضي إلي بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال : هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة ، وبامضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال : قد وثقت بوعدك ، فان من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ، لا يكون كاذبا ولا غادرا .

أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة

من عمري فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم برا وإحسانا وأكثرهم عطفا وحنانا فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحدا من قبلي غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلا ، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخا بعد ما تمنى على الله ذلك زمنا طويلا فلم يدرك أمنيته فعني بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبا شديدا ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين الى حين ، فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدين منها ، أو لاعبين في فناء المنزل أو مرتاضين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت في دراستي .

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدا لا يحله إلا ريب المنون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعاده إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة ، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدتها فيها .

وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا معا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها ، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء

مائها ، ولمعان حصبائها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها ، وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار فنجتمع على حديث نتجاذبه أو طاقة تؤلف بين أزهارها أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى في إتقانه ، وتلك الخمائل الخضراء التي كنا نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فتشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها ، وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطىء الجداول والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأنا قد ظفرنا بغنم عظيم ، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا ، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ، وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى ونناديها بأسمائها التي سميناها بها ، فاذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تلبي نداءنا ، ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمي وداً وإخاء ، أو حباً وغراما ، ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يوما إني أحبها لاني كنت أضن بها — وهي ابنة عمي ورفيقة صباي — أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها ، ولا قدرت في نفسي يوما من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي ، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط [1] منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون ، لأني كنت أجلها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك ، ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها ، أمنزلة

---

(١) تسقط فلان الخبر : أخذه شيئاً بعد شيء .

الأخ فأقنع منها بذلك ، أم منزلة الحبيب ، فاستعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه في صومعته يعبدها ولا يتطلع إليها .

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمي نازلة من المرض لم تنشب [1] أن ذهبت به إلى جوار ربه ، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظناً : « لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أماً كما كنت له أبا وا وصيك أن لا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي » فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه ونظرات غير النظرات ، وحالا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل فتداخلني الهم واليأس ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ، وفي هذا العالم طريدا .

فاني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت علي الخادم ، وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوي خجلة متعثرة ، وقالت : قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب ، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتماها ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم تفارقها .

فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمت به كبدي ، إلا أنني

---

(١) لم تنشب : لم تلبث .

تماسكت قليلا ريثما قلت لها : سأفعل إن شاء الله ولا أحب إلي من ذلك . فانصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعبراتي ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي ، وقلت في نفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده » .

ثم انسللت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها[1] وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها .

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى
لو انا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزنا أن رحت لم أستطع لها
وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريدا طريدا حائرا ملتاعا قد اصطلحت علي الهموم والأحزان ، فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساد لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ، ولا معيناً .

وكانت معي صبابة[2] من مال قد بقيت في يدي من آثار

---

(١) الكلة : الستر الرقيق .
(٢) الصبابة : البقية من الشيء .

تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع علي الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ، ولا يغيض .

فقنعت بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفرداً كمجتمع وغائباً كحاضر وبعيداً كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه . وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب موطنه ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي فأجد برد الراحة في صدري .

لبثت على ذلك برهة من الزمان حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة أو موشكة ، وكنت مأخوذاً بأن أهيء لنفسي عيشاً مستقلا ، وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون فأهمتني نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلا إلى القوت بوجه ولا حيلة ، فعمدت إلى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه وحملت

سائرها[1] إلى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملا فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فنائه امرأة تسائل أهل البيت عني فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي ، فقلت : فلانة ؟ قالت : نعم ، قلت : ماذا تريدين ؟ قالت : لي إليك كلمة فائذن لي ، فصعدت معها إلى غرفتي ، فلما خلونا قلت : هات ، قالت : مرت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت عال ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس ، فقلت : ما بكاؤك ؟ قالت : أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ قلت : لا ، فما أخباره ؟ فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه[2] كتاباً مغلقاً فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغتفر لك ألا تأتي إلي لتودعني الوداع الأخير » .

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبي وقالت : أين تريد يا سيدي ؟ قلت : إنها مريضة ولا بد لي من المصير إليها . فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء إليها .

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم

---

(١) سائر الشيء ، باقيه .
(٢) أضعاف الثوب : أثناؤه .

له مكاناً ، ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين ، ففتحت عيني فإذا الليل قد أظللني وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ قالت : نعم. قلت : قصّي علي كل شيء فأنشأت تقول :

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً » ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر كأنما كانت تعالج في نفسها ألماً ممضاً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل[1] يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلا فزعت إليه أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً. فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها فدنوت منها فأشارت إلي أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسة وقالت : في أي ساعة نحن من الليل ؟ قلت : في الهزيع الأخير منه ، قالت : أأنت وحدك هنا ؟ قلت : نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً ، قالت : ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبت

(١) أبل من مرضه : برء منه .

لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت : بلى يا سيدتي أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئاً ، ولكني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت : ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالة مني من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك يا سيدتي .. فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت إليك هذا الكتاب الذي تراه فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين علني أراك وأرى من يهديني إليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ؛ فحزنت عليها حزن الثاكل على وحيدها ، وما رئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً .

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك .

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت .. فما انفردت بنفسي حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .

* * *

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت[1] وأن هذه أفلاذها . فدنوت منه وقلت : ما بك يا سيدي ؟ قال بي أني أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها .

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه فاذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أني غريب في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي وأني عاجز مستضعف لا اعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الذماء[2] وإني أستحييك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساخطاً ناقماً ، فتول أنت أمرها بيدك واسترد وديعتك إليك وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجُوار جوارك » .

ثم أمسك رأسه بيده كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ قلت : نعم ، وأسأل الله لك السلامة ، قال : الآن أموت طيب النفس عن كل شيء .

---

(١) ارفض الشيء : تفرق وترشش .

(٢) الذماء : بقية النفس .

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها .

* * *

لقد هون وجدي على هذا البائس المسكين أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حياً فلباها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الحجاب

ذهب فلان إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئاً ، فلبث فيها بضع سنين . ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ؛ وذهب بقلب نقي طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء وخالقها ؛ وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ؛ وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملؤها إلا الهواء المتردد ؛ وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة ؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته

على علاته وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر محتملاً في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله ، حتّى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهدي به .

دخلت عليه فرأيته واجماً مكتئباً فحييته فأومأ إلي بالتحية إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت : وأي امرأة تريد؟ قال : تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي . قلت : إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أي آمالك تحدث؟ قال : ليس لي في الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد ، قلت : ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه ، قال : إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب رأيي ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادي[1] القديم الذي وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد غيري من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك

---

(١) العادي القديم : نسبة إلى قبيلة عاد .

حياء منهن وخجلاً ، ولا خجل هناك ولا حياء ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلياء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا الى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه .

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي هماً وحزناً ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي وقلت : أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ قال : نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت ، قلت : هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء ممـــا لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه ؟ قال : ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ قلت : أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك ، قال : إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع ، فتداخلني ما لم أملك معه وقلت له : تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها ، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من

جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال : أتنكر وجود العفة بين الناس ؟ قلت : لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ؛ ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه .

في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم ؟.

أفي جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة : لم لم يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعاً نسائي .

أم في جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه وخجلاً ان خلت محفظته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟ .

أم في جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟ .

وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتمطق[1] بحديثها ، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحريتها وأسرها ، كأنما قد قمتم بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم .

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز .

---

(١) تمطق : صوت بلسانه عند استطابة الطعام .

أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شئتم ودعوا هذا الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً وشقاء طويلا .

أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه .

إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .

ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟ .

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ، تبرماً بكم وفراراً من فضولكم ، فواعجباً لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها !..

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستهتاراً ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا

بذلك العيش الذي خلفتموه هناك .

لقد كنا وكانت العفة في سقاء[1] من الحجاب موكوء[2] فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسلل منه قطرة قطرة حتى تقبض[3] ، وتكرش ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة .

عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب ؛ فقلتم لها إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ؛ وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك

---

(١) السقاء : وعاء الماء من جلد السخلة .
(٢) أوكى القربة : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .
(٣) تقبض : يبس .

أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

وقلتم لها : إن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فعنيت به عنه .

وقلتم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق. فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت[1] .

وقلتم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك ، والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شؤون بيتها .

وقلتم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات[2] ، والضاحكات اللاعبات والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تعرض الأمة

---

(١) أفاد : بمعنى استفاد .

(٢) استهتر فلان : اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل .

نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتم بها ، وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهبين ونساء عانسات .

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها !

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليهذبها أبوها أو أخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجب ما أعجب له في شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا

شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتاً ينبت فيها ، ولكل نبات زمناً ينمو فيه !

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء .

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانهـا فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغني عنه .

ورأيتم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها .

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غيرته وأزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من يشاء ، وتصاحب من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ؛ فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها

مع الرجال ان تحتفظ بنفسها وكرامتها فأردتم من المرأة المصريـة الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها!

وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه ، أو في ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشب فيها فيفسدها .

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين .

• • •

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال : تلك حماقات ما جئنا إلا لمعالجتها فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها ، فقلت له : لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء ، وائذن لي أن أقول لك إني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسي ، لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من اهلك تقتلني حياءً وخجلاً . ثم انصرفت . وكان هذا فراق ما بيني وبينه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشياً

لا تزال النعال خافقة ببابه ، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثـــة أعوام لا أزوره فيها ، ولا يزورني ، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلاً فأحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي .

فإني لعائد إلى منزلي ليلة أمس ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ رأيته خارجاً من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبه جندي من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال : لا علم لي بشيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة ، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً ، وما أنا بالرجل المذنب ، ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون ؟ قلت : لا أحب إلي من ذلك ، ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئاً ، ثم شعرت كأنه يزور [1] في نفسه كلاماً يريد أن يفضي به إلي فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث وقلت له : ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سبباً ؟ فنظر إلي نظرة حائرة ، وقال : إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت : أما كان يصحبها أحد ؟ قال : لا قلت ، ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ قال : لا ، قلت :

---

(١) زور الكلام في نفسه : هيأه .

ومم تخاف عليها ؟ قال : لا أخاف شيئاً سوى أني أعلم أنهـــا امرأة غيور حمقاء فلعـــل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوءني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة ،في حال غير صالحة فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذنا لها بالانصراف معك إكراماً لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراءك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ، ولبث ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف على أن يعود متى دعوناه ، وعهد إلي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني فلبث شاخصاً إلي هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له : هل من حاجة يا سيدي ؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتي أن لا يدخـــل علي من الناس أحـــد ، قلت : لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع ، فقلت :

ما بكاؤك يا سيدي؟ قال ، أتعلم أين زوجتي الآن؟ قلت : وماذا تريد منها؟ قال : لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها ، قلت : إنها في بيت أبيها ، قال : وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجاداً فألبستهم مذ عرفوني ثوباً من العار لا تبلوه الأيام .

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أنني مريض مشرف ، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي ، قبل أن يسبق إلي أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتديتها[1] أن أصون عرضها صيانتي لحياتي ، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي ، فحنثت في يميني فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟

نعم إنها قتلتني ! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي .

البيت بيتي ، والزوجة زوجتي ، والصديق صديقي ، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي ، فلم يذنب إلي أحد سواي .

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فنظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً ، حتى لبست وجهه فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيق الدنيا في وجهي ! في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما

(١) اهتدى الرجل امرأته : جمعها اليه وضمها .

جالسين يتحدثان فتملأ نفسي غبطة وسروراً وأحمد الله على أن رزقني بصديق وفي يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً : ان ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وغبي إلى الغاية التي لا غاية وراءها .

والهفا على أم لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له في البنين [1] .

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض ، أو يحدقون إلي ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البله ، والغباوة في وجوه الأغبياء !...

ولعل الذين كانوا يتوددون إلي ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي ؟ ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قواداً ويسمون زوجتي مومساً ، وبيتي ماخوراً [2] وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم !.

فوارحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالهفاً على زاوية منفردة في قبر موحش يطويني ويطوي عاري معي .

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه .

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته

---

(١) يريد : ليتني لم أولد .
(٢) الماخور : بيت الريبة .

بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انتفض فجأة واستسر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح : أبعدوه عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه ؟ لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثراً خالداً ورائي بعد مماتي ؛ وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر باكياً وصاح : أرجعوه إلي ؛ فعادت به المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتم ، وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما إليك ، فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان .

سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً ! ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأساً

وحزنا .

ثم بدأ ينزع نزعاً شديداً ويئن أنيناً مؤلماً فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفضت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها .

فإنا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره وإذا امرأة مؤتزرة بإزار أسود قد دخلت الحجرة وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له :

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .

ثم انفجرت باكية .. ففتح عينيه ، وألقى على وجهها نظرة باسمة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى .

* * *

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي ، فلا يهون وجدي عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقتحمه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

الهــاوية

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها !؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاماً واحداً مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت « فلاناً » منذ ثماني عشرة عاماً فعرفت امرءاً ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه ، فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى عرض إلي من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري فهجرت القاهرة الى مسقط رأسي غير أسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير اليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن

حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيل إلي أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شبح ولا يلمع في أرجائها مصباح ؛ فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده أو أنني بين يدي منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقته فلم يجبني أحد فطرقته أخرى فلمحت من خصاصه[1] نوراً مقبلاً ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إلي بالدخول ومشى أمامي بمصباحه حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مغبرة بالية المقاعد والأستار ، ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد — ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً ، ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركني ومضى وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي : إن والدته تريد أن تحدثني حديثاً يتعلق بأبيه ، فخفق قلبي خفقة

---

(١) خصاص الباب : خرته .

الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه[1] ، ثم التفت فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحيتني فحييتها ثم قالت لي هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك؟ قلت : لا ، فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام . قالت : ليتك لم تفارقه ، فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى كما تعلمه غريراً ساذجاً فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للانسان حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه ، قلت : وأي شر تريدين يا سيدتي؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟ قالت : سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول :

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلقت حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته فاستحال من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة[2] وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي ؛ ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر ،

---

(١) المأتى : الوجه الذي يأتي منه الشيء .

(٢) الفينة : الساعة والحين .

فعلمت كل شيء .

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسيه في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وانه ما كان يتخذه صديقاً كما زعم ، بل نديماً على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئاً ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ، لأني أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف على رأسها لا بد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا أشم فيه رائحة النبيذ ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيراً مقامرا مستهتراً لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذر ، وبزوجه أن يتجهم[1] لها وجه السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنو منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون[2] حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجوا ويرقصوا ويملأوا الجو

(١) تجهم له : استقبله بوجه كريه .
(٢) قصف الرجل : اقام في أكل وشراب ولهو .

صراخاً وهتافاً ثم يتعادوا[1] بعضهم وراء بعض في الأبهاء[2] والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي وربما حدق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي. ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي فأقضي عندهم بقية الليل .

وهنا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لابد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ، لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين .

هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وبأولادي ، فقد مر على آخر حلية بعتها من حلاي عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنين ملأى بملابسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال[3] يعود علي من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستله من أشداق عياله لهلكت

(١) من العدو : وهو الجري .
(٢) الابهاء : جمع بهو ، وهو البيت المقدم أمام البيوت .
(٣) رقة الحال كناية عن الفقر .

وهلك أولادي جوعاً .

فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح .وأحسب أنك تقدر منه – للمنزلة التي تنزلها من نفسه – على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .

ثم حيتني ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم ؟.

* * *

الآن عرفت أن الوجوه مرايا[1] النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس

(١) المرايا : جمع مرآة .

في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقياً منكوباً قد لبس الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، استشرف[1] عاتقاه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحدب ، فكان أول ماقلت له : لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك ! وكأنما ألم بما في نفسي وعرف أني قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له :

والله ما أدري ماذا أقول لك ؟ أأعظك ، وقد كنت واعظي بالأمس ، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي ؟ أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك ؟ ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء ! .

إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي إنما يلجأ إليها الهمل العاطلون

(١) استشرف الشيء : ارتفع .

الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد منهم !.

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم[1] بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر ! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنياً فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فأصبحت سقيماً ، وشريفاً فأصبحت وضيعاً ؛ فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء.

إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى.

حسبنا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر فلا نضم إليه شقاء جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ، فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن أولاء قد التقينا . فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا.

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له : مالك لا تمد يدك إلي ؟ فاستعبر باكياً وقال : لأنني لا أحب أن أكون

---

(١) تبرم الامر : سئمه وضجر منه .

كاذباً ولا حانثاً . قلت : وما يمنعك من الوفاء ؟ قال : يمنعني منه أنني رجل شقي ، لا حظ لي في سعادة السعداء ، قلت : قد استطعت أن تكون شقياً ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟ قال : لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله ، قلت : ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين ، قال : إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين .

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني مكاني دون أن يجيبني بكلمة وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

* * *

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته

وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زويت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الرقاع والخروق ، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الخان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاها أن ترى ولداها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت نفتاتان فيها ويقيتانها ، فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى

زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلّما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف إليها من حين الى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وبهاء ، ثم تذكر كيف أصبح السيد مسودا ، والمخدوم خادماً ، والعزيز الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام . فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقائها وشقاء ولديها ، لا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو هجرانه ، لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً ، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه حينما لا يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال حتى أضاف إليها ثقلا جديداً ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحمتك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة . وما زالت تكابد من آلام الحمل

ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد الا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها ، لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً : فأكب عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفاً وذعراً فوطىء في تراجعه صدر ابنته فأنّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : واشقاءاه واشقاءاه ؟ وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : ابنتي ! زوجتي ، هلموا إلي ؟ أدركوني ! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياعٍ ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتّى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات البيمارستان ، فوارحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء .

العقـــاب

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيل إلي أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه ، فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأناً ولا أهول منظراً ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوباً ، فسألت بعض الواقفين : ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى نادى مناد في الناس : أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلألؤ الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها : صراخ القبور .

رجل يلبس مسوحاً[1] وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً ، فسألت عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على يساره قاضي المدينة ، ورأيته ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكب عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤت بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظراً وزئيرا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرماً تكاد تسلمه قوائمه ضعفاً ووهناً ، فسأل الأمير : ما جريمته ؟ فقال الكاهن : إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غرارة[2] من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين . فضج الناس ضجيجاً عاليـاً وصاحوا : ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟ ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدين ، فتسار الأمير مع الكاهن هنيهة ثم صاح : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير الغادي والوحش الساغب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه . فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه . ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقا حتى وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : ما جريمته ؟ فقال : إنه قاتل ، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقح في إبائه ، فانتهره القائد فاحتدم غيظاً وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته . فصاح الناس : يا للفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه ؛ ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ،

---

(١) المسوح جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
(٢) الغرارة : الجوالق .

فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه وقال : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعواد شجرة ، ثم تفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ، وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها ، فقال الأمير : ما جريمتها ؟ فقال القاضي : إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : القتل القتل . الرجم الرجم ! ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . فقال الأمير : أين شاهدها ؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلّل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزيناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم ! واعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلماً ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي

ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الايام دينار من غير حله ، فتخف لوعة أسفه على الغرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟ .

ألم تزل قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته، فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟ .

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم ، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ؟ .

من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالة

المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟.

من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟.

من هو القاضي ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟ .

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين وأبراراً طاهرين ؟

عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرماً ، فإذا قتل الأمير القاتل سمّي عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصاً . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقتها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها .

كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ؛ كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدّث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية

رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظراً هائلاً لا يزال أثره عالقاً بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسرات . ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً ماثلاً ، أو خيالاً سارياً . ورأيت الفتـاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلا حتى غاب عن نظري كل شيء فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ، فما زال يتقدم حتى صار بجانبي فأشعل مصباحاً صغيراً كان في يده فتبينته على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويداً وأشرفهم قلباً ونفساً ، فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني

بك وشيكا ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك »
فأبكاني بكاؤها وأحزنني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة
فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء. وأحببت أن
أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت
لمرآي عند النظرة الأولى ، ثم سكتت كأنما ذكرت أن لا قيمة
لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها ، فابتدرتها بقولي : لا
تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من
شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفك على
هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت
لو أفضيت إلي بذات نفسك علني أستطيع أن أكون لك عوناً على
همك ، فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول :

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل
قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتر ساعة واحدة عن السعي
في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ،
فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعد ما كان يستقل بحمله من الهم ،
وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به
نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه
خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، وكانت
قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل
فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة [1] ،
وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من
نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس
يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ،

---

(١) الفينة : الساعة والحين .

ولا ما نعللهم به تعليلا ، فأسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده فلم أر بداً من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلي بجرعة أو مضغة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك ، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل ركوتهم[1] فعدت إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم ، فرأيت الأطفال سهداً يتضاغون[2] جوعاً ، ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل ؟ فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً للصدقات يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفىء لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلا ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من

---

(١) الركوة : وعاء الماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون .

(٢) يتضاغون من الجوع : يتضورون منه .

قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخاءك من المحسنين إليه فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل[1] أو أفحوص[2] القطاة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة[3] دقيق فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش ، ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء[4] تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلو ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ، وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فانحدرت

---

(١) الحابل : الصائد لأنه يرمي الحبالة للصيد ، وكفته : حبالته .

(٢) أفحوص القطاة : مجثمها . لأنها فحصت عنه التراب لتبيض فيه .

(٣) الغرارة : الجوالق .

(٤) الألقاء : جمع لقى -- كفتى ، واللقى الشيء : الملقى المطروح .

على ردائه فسقط في مكانه مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتّى مر به العسس [1] فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ! الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتّى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتّى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتّى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فواأسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده !.

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف ردائها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء ! الوداع حتّى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في اعماق الظلام حتّى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعه ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة حتّى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتّى انحلت ثم احتملته

(١) العسس : الطائفون بالليل لحراسة للناس أو كشف أهل الريبة .

على يدها وأضجعته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة : واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلثم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها ، فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ؛ فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت : على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ قلت : أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت : نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرماً ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة اليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . قلت : هل لك أن تقصي عليّ قصته يا سيدتي ؟ قالت : نعم .

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إلي نظرة مريبة طار لها قلبي رعباً وفرقاً ثم سألني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فأستنسأه[1] إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا

---

(١) استنسأ غريمه الدين : طلب منه أن ينسئه إياه أي : يؤجله له .

أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء. وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل، وقال له: لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعاً؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك، فقال له لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد، فإن أبيت فحياتك فداء عنها، فغضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له «فلتكن حياتي فداء لشرفي» ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غله[1] الأعوان واحتملوه إلى السجن، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته، فلئن بكيته أنا أبكي فتى الفتيان همة ونجدة، ونادرة الرجال عزة، وإباء وأفضل الأخوة رحمة وحناناً.

ثم قالت: هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضعة لا أقوى على شيء؛ فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها؟ فرأيت تربة القبر مخضله بدموعها ثم مدت يدها إلي وقالت: شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً، ومضت لسبيلها.

---

(١) غله: وضع في عنقه الغل.

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها فهاجني منظرها وقلت في نفسي : إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها ، فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه ، فابتدرني بقوله : من صاحب هذا القبر الذي تجثو ترابه يا سيدي؟ قلت : فتاة مرجومة رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه ، فقال : إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأناً ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ قلت : نعم شأنك وما تريد ؛ وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها ، ثم التفت إلي وقال : لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إلي نظرة هادئة مطمئنة وقال : نعم يا سيدي؟ ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها .

أنا الرجل الذي اتهموها به، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ،

وإنها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتني كذلك ثم شببنا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني [1] راضياً مسروراً حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات . إذ نزلت بأبيها نازلـة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا ، حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه ، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبل بقولها وقال لها : ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه

---

(١) أخطبه : قبل خطبته .

تعدو عدواً سريعاً ، وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأتني فألقت نفسها علي وقالت : إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني ، فارحمني يرحمك الله ؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها ، فأقسمت له بكل محرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصغ إليّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي فأعود إلى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الإبلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلا حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائي وألقيت رأسي على بعض الصخور وأنشأت

أحدّث نفسي وأقول :

ليت شعري ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

أجرم الزعيم الديني لأنه ضن على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ، فاضطر الرجل الى ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقته ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق .

وأجرم الأمير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بعرضها فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب الفتى على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإجـــرام .

وأجرم القاضي لأنه أراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرماً ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته .

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها .

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ [1]

---

(١) يسمي قدماء اليونان في أساطيرهم المريخ : إله الحرب .

يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من علياله رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ، إذا به ينتفض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول : « ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحداراً ، فـــلا الأولون بمستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمداً ، فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ، فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

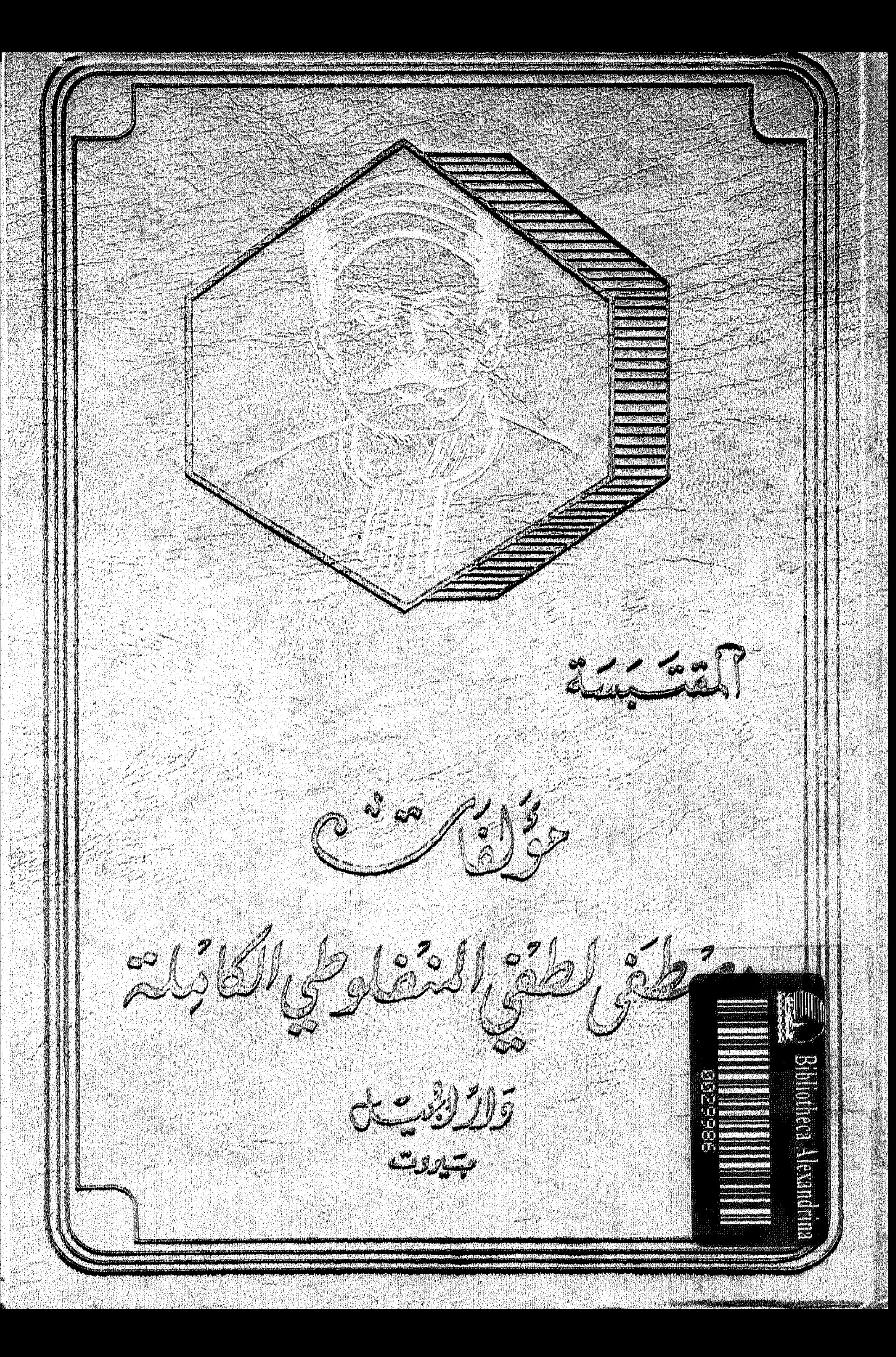
ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحوّلوا معابدهم إلى مغاور لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضنّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ورؤساء ومرؤسين .

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ، ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . »

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

فهرست


المقتبسة
مؤلفات
مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0299986

مؤلفات
مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة
المقتبسة

يحتوي هذا المجلد على:

المقتبس من العبرات
المقتبس في النظرات
الفضيلة
في سبيل التاج
الشاعر - ماجدولين

دار الجيل
بيروت - لبنان

القسم الأول

المقتبس من العبرات

الشهـــداء

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصبابة من المال تترشف[1] الرزق منها ترشفاً مصانعة للدهر فيها

أما الصبابة فقد نضبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالا ، ولا عضداً .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فخاطت الملابس حتى عشى[2] بصرها ، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت في المنازل حتى ذلت ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معاً ، فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الألهية

---

(١) ترشفت الإبل الماء : أخذته قليلا قليلا .

(٢) عشى بصره : ضعف . وله معان اخرى .

حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاء وصبراً ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها .

دارت الأيام دورتها فاكتهلت الأم وشب الولد وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بد له أن يعيش ، وان يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه فمشى يتصفح وجوه الرزق وجهاً وجهاً ، ويرد مناهله منهلا منهلا ، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجده حتى مهر فيها ، والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر خاملا مغموراً لا تدر له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفينة بعد الفينة[1] فلم يستطع أن يسعد «أمه» ، ولكنه استطاع أن يسد خلتها فقنعت منه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها حنت إليه حنين النيب[2] إلى فصالها[3] وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً ، ولم تر منه كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم ، فلا تجد لها بداً كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذي يفزع إليه جميع البائسين والمحزونين في بأسائهم وضرائهم ، خلوتها ودموعها ، فتبكي ما شاء الله ان تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسمة كأن لم تكن باكية قبل ذلك .

---

(١) الفينة : الحين .

(٢) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة .

(٣) الفصال : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فصل من أمه .

دخل عليها ولدها يوماً في خلوتها فرآها تبكي ورأى في يدها صورة فتبينها فاذا هي صورة خاله فألم بسريرة نفسها وأمسك بين أهداب عينيه دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها ، وقال : رفّهي عن نفسك يا أماه فستعلمين خبر غائبك عما قليل ، فتطلق وجهها وأضاء ، وقالت : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : قد علمت أن معرضاً سيقام للرسم في واشنطون حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدني بعض أصدقائي أن يساعدني على الشخوص إليه علني أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهي وأنقذ به نفسي ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره ، فاستسر بشرها الذي كان متلألئاً وقالت : لا تفعل يا بني فما أنا بشقية ما رأيتك بجانبي ، وما أنت بشقي ما قنعت بما قسم الله لك ، ولئن فعلت لا تكونن امرأة على وجه الأرض أعظم مني لوعة ولا أشقى ، ولئن بكيت لفراق أخي مرة فسأبكي لفراقك ألف مرة ، وإني كلما ذكرته وجدت في وجهك العزاء عنه ، فمن لي بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معاً .

فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها في رحلته الأماني العذاب حتى أسلست وهدأت واسلمت إلى الله أمرها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فاذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب في أمريكا لا يعرف له سنداً ، ولا عضداً .

وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هناك ، وكان

يمثل فيه موقف الوداع الذي جرى بينه وبين امه على شاطئ البحر يوم رحيله وكان موقفا محزنا فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر في نفوسهم منظره فقضوا له بالجائزة التي كان يمني نفسه بها فما حصلت في يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهـــل الأرض طرا وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ، وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث ، ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه[1] وملأ قلبه غيظاً وحنقاً أطلع له في تلك السماء المظلمة المدلهمة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى إلى حظيرته راضياً مغتبطا كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما اشقى الإنسان به .

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضا ، وكتب إليها أنه لن يبرح هذه الأرض حتى يفي لها بما عاهدها عليه ، ومشى في طريقه يفتش عن خاله في أنحاء البلاد ويسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين[2] حتى حدثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك . فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة مـــوحشة مقفرة ، وكانت لا تـــزال تغشي سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور الأولى فمر بقبيلة من قبائل الزنج نازلة هناك وراء بعض الجبال المنقطعة ، فما راؤه حتى هاجت في صدورهم

---

(١) أرابه : شككه وجعله يرتاب .

(٢) الطارئون : المهاجرون .

أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض حتى للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ؛ فداروا به دورة سقط من بعدها أسيرا في أيديهم فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام » .

* * *

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم المعرض إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة ، من اكاذيبة وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر الغابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذي آده[1] وأثقله أن هناك إنسانا آخر كريما عليه يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

نزلوا به إلى المحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ؛ فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه شيئا ، فلم يعلم هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل فانحدر إليه من ثقب صغير في حائط المحبس خيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه فأنس به أنس الغريب بالغريب وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته ، واستمر بصره عالقا

(١) آده الأمر أودا : بلغ منه مجهوده

به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل حتّى رآه يتقبض شيئا فشيئاً ، ويتراجع قليلا قليلا ، ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها ، فحزن لفراقه حزنِ العشير لفراق عشيره ودار بعينيه حول نفسه فاذا قطعٌ سوداء مظلمة تتدّجى وتتكاثف من حوله ويملّس بعضها في أحشاء بعض . وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر في ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسا حتّى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه فوجدها وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكيا منتحبا .

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ولم يبق بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه كل مساء .

وما مرت به على حاله تلك سنة واحدة حتّى نسي نفسه ، ونسي أمه ونسي العالم الذي كان يعيش فيه ، والعالم الذي انتقل إليه ، ونسي الليل والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء ، وأصبح في منزلة بين منزلتي الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل ، ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسد يتحرك ، أو خيال يسري ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام !

* * *

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه فأصبح من يراها في طريقها يرى عجوزاً حدباء

والهة متسلبة[1] مذهوباً بها[2] قد توكأت على عصا ما تزال تضطرب في يدها ، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوقف أهداماً[3] خلقاناً يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهداباً متلاصقة أو مزقاً[4] متطايرة ، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنائس تسأل الله أن يرحمها ، والناس أن يطعموها ، حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سمتها[5] إلى شاطىء البحر وجلست فوق بعض صخوره تناجي أمواجه ورماله ، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجمّ كوكبه في أفق السماء ، فاذا سرت إليها نسمة وجدت ريح ولدها فيها ، وإذا أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها ، وإذا تراءت لها سفينة ماخرة على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله ، فلا يزال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطىء فتقف في طريق ركبانها تتصفح الوجوه وتتفرس الشمائل وتهتف باسم ولدها صارخة معولة وتقول : عباد الله ، من يدلني على ولدي أو ينشده لي في معالم الأرض ومجاهلها فقد أضللته منذ عهد بعيد فحار بي الدهر من بعده فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلا فاحتسبوها يداً عند الله وحدثوني عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم ليأتي على أثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما لمحها بعض الناس فظنها امرأة ملتاثة[6] فرثى لها او سائلة فتصدق عليها .

---

(١) المتسلبة : التي أحدت على زوجها أو غيره .
(٢) المذهوب به : المسلوب عقله ، ويقال أين يذهب بك ؟ أي بعقلك .
(٣) الأهدام : جمع هدم (بالكسر) وهو الثوب البالي .
(٤) المزق : قطع الثوب الممزقة .
(٥) السمت ، الطريق .
(٦) التاث : جن واختلط .

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن ولم يبق على شاطىء البحر من غاد ولا رائح سواها . فتتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمته مدفناً لولدها فتظل تبكي وتقول :

في أي بطن من بطون الأرض مضجعك يا بني ، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك ، وفي أي قاع من قيعان البحر مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك ؟

لو يعلم الطير الذي مزق جثتك ، أو الوحش الذي ولغ دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك في جوفه ، أن وراءك أماً مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي ؟

عد إلي يا بني فقيراً أو مقعداً أو كفيفاً فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التي أفارق فيها هذه الحياة لأقبلك قبلة الوداع وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخفف بزورتك عني ضمة القبر ، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة .

ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها ، وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت دبيباً وهي لا تعلم هل تركت ولدها وراءها ، أو أنها ستجده أمامها ؟

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره ، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً .

* * *

دخل السجان على الفتى عشية ليلة في محبسه فاقترب منه ومد يده إلى سلسلته المثبتة في الجدار فانتزعها من مكانها فلم يقل شيئاً ولم يسائل نفسه هل هي ساعة نجاته أو ساعة حمامه ، ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرة جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى ، ففتح عينيه فرأى مكاناً غير مكانه ، ومنظراً غير منظره ، وسماء وأرضاً غير سمائه وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئاً فشيئاً ، حتى استفاق فتذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هنا تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وظلمته ، والقيد ووطأته ، ثم طار بخياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاءها من بعده ، وحنينها ، ويأسها من لقائه ، فذرفت عينيه دمعة كانت هي أول دمعة أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه . وما زال يرسل العبرة إثر العبرة لا يهدأ ولا يستفيق حتى مضى شطر من الليل وهدأ الناس جميعاً في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فإنه لكذلك وقد رنقت في عينيه سنة من النوم إذ شعر بيد تلمس كتفيه فرفع رأسه فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه فخيل إليه أن ملكاً نورانياً نزل إليه عن علياء السماء لينقذه من شقائه فتبينه فإذا فتاة جميلة بيضاء ما التفت الأزر [1] على مثلها حسناً وبهاء ، تتمشى في بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرهو [2] الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار فسألها : من أنت ؟ قالت : أنا فتاة من فتيات هذا الحي وقد ألممت بشيء من أمرك

---

(١) الأزر : جمع إزار .
(٢) الرهو : الرقيق .

فعلمت أنك شقي فرحمتك مما أنت فيه فجئتك أطلق وثاقك لتذهب حيث تشاء ، فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب ، فعجب لزنجية بيضاء ووثنية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنبيها قلباً يعطف على البؤساء والمنكوبين ، وقال في نفسه : ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه ، وأنساه كل شأن في الحياة إلا شأنها فلبث صامتاً واجماً لا ينطق وقال لها : اذهبي لشأنك يا سيدتي فإنني لا أريد النجاة ، فعلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلا ، وانج بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل فإذا أنت فلذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك فإن شديداً علي جداً أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد الذابح ، أو مضغة في فم الآكل ، قال : إنك لاتستطيعين نجاتي . قالت : لا أفهم ما تقول فإنني ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع ، قال : قد كنت قبل اليوم موثقاً بوثاق واحد فأصبحت موثقاً بوثاقين فإن استطعت أن تحلي وثاق قدمي فإنك لا تستطيعين أن تحلي وثاق قلبي ، فألمت بسريرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة فرفع رأسه إليها ولبث شاخصاً إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى تمثاله البديع حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جفنها على وجهه ، فجرت في مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمعة مثلها فالتقت بدمعتها فامتزجتا معاً ، فمد يده إلى ردائها فاجتذبها إليه وقال : قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبي نتحدث قليلاً ، فجلست على مقربة منه فقال لها : إن

امتزاج دمعي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياء أو أمواتاً ، فإن كنت تريدين لي النجاة فإنني لا أنجو إلا بك ، قالت : ليتني أستطيع ذلك يا سيدي ، قال : وما يمنعك منه ؟ فنظرت إليه نظرة دامعة وقالت : أخاف أن أحبك . قال : ولم تخافين ؟ قالت : لا أعلم ، قال : أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار ، ولكني أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل بي ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك ، أما اليوم فحسبي عزاء عما ألاقيه من غصصه وآلامه نظرة رحمة تلقينها علي في مصرعي ، ودمعة حزن تسكبينها من بعدي على تربتي ... فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهي سلكة فانتثر ، ثم مدت يدها إلى قيده فعالجته حتى انصدع ، وقالت : إني ذاهبة معك وليقض الله في وفيك قضاءه .

مشيا يطويان القفار ، ويعبران الأنهار ويضحيان [1] مرة ويخصران [2] أخرى ، ويردان آجن [3] المياه وصفوها ويقتاتان يابس الثمار ورطبها ، فاذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطىء غدير أو سفح جبل أويا إليه فاستراحا بجانبه قليلاً ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزل تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابة سوداء من الحزن ما تكاد تتقشع عنه . وكانا إذا نزلا منزلاً وأخذا مضجعهما من تربه وأحجاره نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليباً صغيراً فقبلته . ثم أنشأت تهمهم

(١) ضحى من باب علم : برز للشمس .
(٢) خصر كسمع : برد ، ومنه « وأما بالعشى فيخصر » .
(٣) الآجن من الماء : الذي تغير طعمه ولونه .

بكلام خفي كأنها تناجي به شخصاً غائباً عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة وتطلب معونته على أمر لا تعرف مصيره ، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها ، وكان كلما سألها عن شأنها التوت عليه ودافعته عنها حتى تلوم أن يعاودها فتركها وشأنها ، وقد أصبح يحمل في صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يوماً على سواء العمران فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء.

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقة يتحدثان ، وهي أول مرة جلسا فيها للحديث فقال لها : ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة الطويلة في هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادة لا أحسب أنه قد أعد خيراً منها لعباده المتقين في جنات النعيم ، قالت : ومتى كانت هذه الحياة موطناً للسعادة أو مستقراً لها ؟ ومتى سعد أبناؤها بها فنسعد مثلهم كما سعدوا ؟ وإن كان لا بد من سعادة في هذه الحياة فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقداً أن لا سعادة له فيها ليستطيع أن يقضي أيامه المقدرة له على ظهرها هادىء القلب ساكن النفس لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب . قال : إن السعادة حاضرة بين أيدينا ، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نطوي هذه المرحلة الباقية من هذا القفر فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله فنجثو أمام مذبحه ساعة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ، ولا يكدر صفونا مكدر ، فأطرقت هنيهة ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها . فقال : ما بكاؤك يا سيدتي ؟ فقالت : أتذكر ليلة النجاة إذ دعوتني إلى الفرار معك ، فقلت لك إني أخاف إن فررت

معك أن أحبك ؟ قال : نعم . قالت : واأسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف .. ثم صرخت صرخة عالية وقالت : ماذا يا أماه .. وسقطت مكبّة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى في أعضائها فعلم أنها البرداء[1] وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ومشى يفتش عن الناس في كوخ كان يتراءى له على البعد حتى بلغه فوجد على بابه كاهناً شيخاً جليل المنظر فدنا منه وحياه تحية حي بأحسن منها وقال له : ما شأنك يا بني ؟ قال : إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائي تشكو البرد فهل أجد عندك جذوة نار أعود بها إليها لتصطلي بها ؟ فمكنه من طلبته ، وقال له : «كتب الله ولعليلتك السلامة يا بني فاذهب فإني على أثرك » فعدا الفتى عدواً شديداً حتى بلغ النهر فأدهشه أن رأى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو برداً ولا ألماً ، فأقبل عليها متهللاً ، وقال لها : لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام ، قالت : ما كان يخالط نفسي من ذلك شيء فاجلس أحدثك حديثي فقد آن أن أفضي به إليك ، فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه وتقول :

أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلي مع الأيام دفينه ، فقد ولدتني أمي على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عاماً فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء فدانت بدينه ، ثم تزوجها فولداني وعشنا جميعاً حقبة من الدهر عيش السعداء

---

(١) البرداء : الحمى مع البرد .

الآمنين وكان رجال قبيلة أمي لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلة من ليالي الظلام فاقتادونا جميعاً إلى أرضهم ، وكنت إذ ذاك لم أسلخ العاشرة من عمري فقتلوا أبي أمامي وأمام أمي قتلة لا يزال منظرها حاضراً بين يدي حتى الساعة لا يفارقني ، فحزنت أمي عليه حزناً شديداً ما زال يدنو بها من القبر شيئاً فشيئاً حتى جاءت ساعتها فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فدعتني إليها أمامه وقالت لي : يا بنية إن أمي قد ولدتني للشقاء في هذا العالم وأحسب أني قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكوني سبباً في شقاء أحد من بعدك وانذري نفسك للعذراء نذراً لا يحله إلا الموت . فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذري فتلألأ وجهها بشراً وسروراً ، ثم نظرت نظرة في السماء وقالت : ها أنذا على أثرك يا رافائيل ، ثم فاضت روحها .

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : هل تعرفين وطن أبيك وأسرته ؟ قالت نعم ، وسمتهما له فاستطير فرحاً وسروراً وقال : أحمدك اللهم فقد وجدت ضالتي ، فعجبت لأمره ، وقالت : وأي ضالة تريد ؟ قال : أتذكرين ليلة اللقاء إذا امتزجت دمعتانا معاً فقلت لك إنها صلة بيني وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ قالت : نعم . قال : قد كنت أمت [1] إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالي معاً فقالت بصوت خافت : أحمد الله فقد وجدت لي في هذه الساعة العصيبة أخاً ، وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ، ووجهها يربد شيئاً فشيئاً ، فذعر

(١) مت اليه بكذا : توصل إليه به .

الفتى وأرتاع وحنا عليها وقال : ماذا أرى؟ قالت : لا ترع فأصغ إليّ فان لحديثي بقية لم تسمعها، إنني منذ حفظت وصية أمي ووهبت العذراء نفسي ، كان لا بد لي أن أتخذ لي ملجأ أفزع إليه في اليوم الذي أخاف أن يغلبني فيه هواي على ديني ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى جاء اليوم الذي خفته فلجأت إليها فنجوت وأستودعك الله. فنظر الفتى حيث أشارت فرأى قارورة مطرحة وراءها فتناولها فإذا هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شيء.

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكأن طائراً قد نفض جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق في مكانه صعقة لم يشعر بعدها بشيء مما حوله فلم يستفق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفاً أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائراً لا يفهم مما يرى شيئاً ، فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهاً لوجه ونظر إليه نظرة شزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط في عقله فأخذ يهذي ويقول :

أتدري أيها الرجل لم ماتت هذه الفتاة؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم غرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت. تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض ، ما كفاكم ، أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذاً ، ولا رداً؟

إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه ، والمرء وقلبه ؟

إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حب فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون؟ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة خافقة .

أتظنون أيها القوم أننا ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر ؟ بئست الحياة حياتنا إذن وبئس الخلق خلقنا ، إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادة نحيا بها غير سعادة الحب ولا نعرف لنا ملجأ نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

هذه الطيور التي تغرد في أفنانها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سمائها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسوائم في مراتعها ، والسوارب في أحجارها .. وإنما تعيش جميعاً بنعمة الحب . فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت أيها القساة المستبدون أرفع

شأناً من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة !؟

فهنيئاً لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ، فقد نجت بذلك من شر عظيم ، وشقاء مقيم.

إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ، فإنا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

إن وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم .. فلا بد لنا أن نقف في وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم حتى لا تصلوا إليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

إنا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، وفي استطاعتنا أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .

كتاب الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آياتكم ، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغماتكم .. هذا الجمال المترقرق في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكنه ، إنما هو مرآة نقية صافية تنظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فنخر بين يديه ساجدين ، ثم نصغي إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا : « أيها الناس إنما خلق الجمال متعة لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتم حياة للجمال فأحيوه » .

ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمراً سواه .

* * *

وما وصل الى حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه، ووهنت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط في مكانه يزفر زفيراً شديداً ، ويئن أنيناً محزناً ، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه وقال له : ارفق بنفسك يا بني فما أنت بأول ثاكل على وجه الأرض ، ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين وجزاء للمحسنين ، فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ويقول : اغفر لي ذنبي يا أبت ، فقد كنت من الظالمين ، قال : غفر الله لك يا بني فما دون رحمة الله بساب موصد ولا رتاج معترض ، قال له : يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض وليس لها فيها أحد سواي ، وقد ماتت من أجلي وفي سبيلي ، فهل تأذن لي أن أدنو منها لأقبلها قبلة الوداع في آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟ قال : افعل يا بني ، فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمة شديدة وأهوى بفمه على فمها فقبلها لأول مرة في حياته قبلة فاضت روحه فيها .

* * *

في الساعة التي دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطىء ذلك النهر الجاري مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها الزيارة من حين إلى حين ، فنظرت إلى مكانها الذي اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خالياً فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها معفرة بترابها لا حراك بها ، فملأت بالتراب الذي كان مجتمعاً حول الحفرة تلك الأشبار الخمسة التي هي مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أسبلت فوق تربتها دمعة كانت هي كل نصيبها من الدنيا .

الذكرى

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة (١) بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابلا (٢) على شاطىء الخليج الرومي تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر فألقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاء مراً وينشج نشيجاً محزناً حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصبح شاطىء البحر كأنه مناحة قائمة تتردد فيها الزفرات ، ويستبق العبرات ، فإنه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفاً يهتف باسمه بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكىء على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

نعم .. لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء

---

(١) هي حاضرة ملك بني الأحمر في الأندلس وهي آخر مدينة بقيت في يد العرب بعد جلائهم عن اكثر بلاد الأندلس ، فلما جلوا عنها تم بذلك جلاؤهم عن الأندلس جميعها .

(٢) كانت إسبانيا في أواخر حكم العرب في الأندلس عبارة عن عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها إلى بعض حتى أصبحت مملكتين قويتين (الأراغون) و(قشتلية) فتزوج فرديناند ملك الأراغون بإيزابيلا ملكة قشتلية سنة ١٤٩٦ واتحدا على طرد العرب من غرناطة فتم لهما ذلك بعد حروب كثيرة .

فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال .

إنك ضحكت بالأمس كثيراً ، فابك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضاء ، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة ؛ لهان أمره عليك ، أما وقد أضعته بيدك ، وأسلمته إلى عدوك باختيارك ، فابك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

لا يظلم الله عبداً من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشؤون شرّاً ولا ضيرا ، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق فأبيت إلا الملك والسلطان فنازعت عمك الأمر واستعنت عليه بعدوك وعدوه فتناول رأسيكما معاً وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قليب [1] من الدم فغرقتما فيه معاً .

لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملك ملكاً يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ، لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا

---

(١) القليب : البئر .

بقـــاء .

اتخذ بعضكم بعضاً عدواً ، وأصبح كل واحد منكم حرباً على صاحبه فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يتربص بكم الدوائر ويرى أن كلا منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رآكم تتهافتون[1] على أنفسكم ضعفاً ووهناً فاقتحمكم فما هي إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم معاً .

ستقفون غداً بين يدي الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألكم عن الإسلام الذي أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام[2] . وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، عن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذمارها ، فلم تحركوا في شأنها ساكناً حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء وتطردون منها كما يطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غداً ؟

ها هي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان ، وها هي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يفر بدينه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكناف الهضاب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدي شعيرة[3] من شعائر

---

(١) تهافت الشيء : تساقط وتتابع .
(٢) الرغـــام : التراب .
(٣) الشعيرة : كل ما جعل علامة لعبادة الله .

دينه إلا في غار كهذا الغار الذي أعيش فيه ! ...

ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد ، فقد كان ذلك خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلفون على أعناقهم جميعاً غلاً واحداً يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذوداً عن أنفسهم . وما تفعل الفوضى وبأمة ما يفعل بها الاستبداد .

يسألكم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعاً أحوج ما كنت إليهم ، وسقتوهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالاً لا شرف فيه ولا فخار حتى ماتوا جميعاً موت الأذلاء الأدنياء فلا أنتم تركتموهم بجانبي آنس بهم في وحشتي وألجأ إلى معونتهم في شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم ووطنهم .

فها أنذا عائش من بعدهم وحدي في هذا الغار الموحش بفوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم ، وأسأل الله أن يلحقني بهم فمتى يستجيب الله دعائي ؟

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فنالت كلماته من نفس الأمير ما لم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه ، فصاح : ما هذا بشرا إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي ، فليصنع الله بي ما يشاء فعدل منه كل ما صنع

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقاً فسجل التاريخ في تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمروها ثمانمائة عام[١] .

* * *

بعد مرور أربعة وعشرين عاماً على تلك الحوادث لم يبق في إفريقية حي من بني الأحمر إلا فتى في العشرين من عمره اسمه « سعيد » لم ير غرناطة ولا قصر الحمراء ولا المرج ولا جنة العريف ولا نهر شنيل ولا عين الدمع ولا جبل الثلج[٢] ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ، ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع ، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تستثير عبرته ، وتهيج أشجانه ، فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على التلف .

فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه في

---

(١) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢ هـ ٧١١ م وتم جلاؤهم منها سنة ٨٩٧هـ ١٤٩٢ م .

(٢) قصر الحمراء في غرناطة : مقر ملوك بني الأحمر ، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر الآثار التاريخية حتى اليوم ، ومرج غرناطه ، مشهور بجمال منظره وإطراد مياهه ويشبهونه بغوطة دمشق ، وجنة العريف بستان عظيم جداً بغرناطة فيه قصور ومبان ومنازه كثيرة . ونهر شنيل : أعظم أنهار غرناطة ، وهو يخترق المدينة من أعلاها إلى ادناها ، وعين الدمع : جبل بظاهر غرناطة به منازه وبساتين ، وجبل الثلج بجنوب غرناطة لا يكاد يفارقه الثلج صيفاً وشتاء وتجري منه ينابيع كثيرة وأنهار صغيرة تسقي ما يحيط بها من الغياض والبساتين .

حياته إلا أن يرى غرناطة ساعة من زمان يشفي بها غلة نفسه ، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزاً من أهله مريضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سبتة إلى شاطىء ملقة ، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكراً في ثوب طبيب عربي من أطباء الأعشاب يتبقل[1] في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل ، فوقف على هضبة من هضاب جبل الثلج فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون كأنها فوق سطحه اللامع المتلألىء قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حيات بيضاء مذعورة تنبعث ههنا وههنا لا هم إلا النجاة من يد مطاردها حتى تعثر بجدول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العقيقية الحمراء وقبابها العالية الشماء ، ومآذنها الذاهبة في جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع وضم إحدى يديه إلى الأخرى ووضعها على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والحرجات يقول :

هذا ميراث آبائي وأجدادي لم يبق لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي والآثار الدوارس .

هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم ؛ وهم لا مضاجع لهم

(١) تبقل : خرج لطلب البقل .

إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات .

هذه قصورهم تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلا تدعو الله أن يعيد إليها بناتها وحماتها فلا يستجاب لها دعاء .

في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يقيلون ؛ وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون ، واليوم لا غاد منهم ولا رائح ، ولا سانح تحت هذه السماء ولا بارح .. ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبددها بين يديه تبديداً فتهافت [1] على نفسه ، وهو يقول :

هكذا تدول الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة .

ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء فلم يستفق حتى مضت دولة الليل فمشى إلى نهر جار في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوي إليه فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ نهر شنيل فمشى على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها .

وإنه لكذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم وإذا فتـــاة

---

(١) تهافت : تساقط .

إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خماراً أسود شفافاً وأرسلت على صدرها صليباً ذهبياً صغيراً ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها فإذا الشمس طالعة حسناً وبهاء ، وقالت له بلسان عربي تخالطه بعض العجمة : أغريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؟ قال : نعم لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوي إليه الغرباء ، ولم أجد في طريقي من يدلني عليه ، فسمعت في صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيته بابتسامة عذبة ، وقالت له : لا تنس أن تزورني أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة ... ثم سارت في طريق كنيستها .

* * *

كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها وتمر بها الشهب فتلمع في أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوؤها ضوء جميع تلك النيرات ، كذلك القلب الإنساني لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء مجتمعة ومفترقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غرناطة منذ الساعة بعين غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن ثائره وبردت جوانحه ، وهدأت نفسه ثورة الغضب التي كانت

لا تزال تعتلج بين أضلاعه ، فكان إذا مر بمسجد من تلك المساجد التي استحالت إلى كنائس استطاع أن يقف أمامه هنيهة عله يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه ، وإذا رأى الصليب مشرفاً على رأس مئذنة ذكر الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أجواز الفضاء ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها ، فأنس به وسكنت نفسه إليه .

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا هم له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر « شنيل » يقلب نظره في أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر عله يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه ، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات عله يراها بينهن فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعاً إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعاً غزاراً ، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة ! .

* * *

نكب الدهر « فلورندا » منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية « العصابة المقدسة » التي قامت في وجه الحكومة أعواماً طوالاً تطالبها بالحرية الدينية والشخصية ، لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيا رجال الحكومة أمرها ، فدسوا لرئيسها من قتله غيلة تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع غدواتها

وروحاتها ، فأصبحت وهي لم تسلخ الثامنة من عمرها تعيش في قصرها عيش الزاهدات المتبتلات ، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا غلامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماضية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة «الراهبة الجميلة» .

فإنها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بني الأحمر إذ لمحت على البعد فتى عربياً مكباً على أحد القبور كأنما يقبل صفائحه ويبل تربته بدموعه ، فرثت لحاله ومشت نحوه حتى دنته فأحس بها فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له : إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى فابكهم كثيراً فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم . قال : أترثين لهم يا سيدتي ؟ قالت : نعم ، لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين ، من العظماء الساقطين . قال : شكراً لك يا سيدة فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب في صدري مذ وطئت قدماي أرضكم هذه ، قالت : هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار ؟ فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه فإذا دمعة تترجج في مقلتيه وقال : لا يا سيدتي ، لقد حاولت الدنو منها فطردني عنها الموكلون بأبوابها كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها مني ، قالت : أتمت[1] إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟ قال : لا يا سيدتي ولكني عبدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم فلا أنسى

---

(١) مت إليه بالشيء : توسل به إليه .

ولاءهم ما حييت ، قالت : إن رأيتك غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها : قال : لئن فعلت لايكونن امروٌ على وجه الأرض أشكر لنعمتك مني ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خانه بين صبابة تُقيمه وتقعده ، وأمل يميته ويحييه .

وفت «فلورندا» لصديقها العربي بما وعدته به فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها ، وهكذا ، ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرهما شيئاً ؟ فقد كانوا إذا رأوهما معاً : إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدي الفتى العربي إلى دينها القويم ، حتى استحال العطف الذي كانت تضمره له في نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف دائماً طريق الحب أو هو الحب نفسه لابساً ثوباً غير ثوبه . إلا أن احداً منهما لم يجروْ أن يكاشف صاحبه بما أضمره له في نفسه حتى جاء اليوم الذي عزم فيه على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم .

* * *

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطاول السماء ، وطوداً يناطح الجوزاء ، وهضبة تشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبلاً تحسر عن قمته العيون ، وتضل في جوانبه الظنون ، وحصناً تتقاصر عنه يد الأيام ، وتتهافت من حوله السنون والأعوام . ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير ، وقباب تفضي إليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء ، كأنها الرياض

الزهراء ، وجدران صقيلة ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرآة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لجة متلاطمة الأمواج يحبسها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتنغم في نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مستعبرا معتبراً أنـــدب أشتاتا
فقلت يا حمراء هـــل رجعة قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي على رسمها هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضوا نوادب يندبن أمـــواتا

حتّى وصل الى الساحة الكبرى فرأى صحناً مفروشاً ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النحاف الطوال ، وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته فهاجت في نفسه الذكرى وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزناً ووجداً ، وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكي أمام « فلورندا » فتركها في مكانها لاهية عنه بالنظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتّى داناها فكان أول ما تناول نظره منها سطراً مكتوباً على بابها فما قرأه حتّى صاح صيحة شديدة قائلاً : « وا أبتاه » وسقط مغشياً عليه ، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر « فلورندا » ووجد في عينيها آثار البكاء ، فقالت له : لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكاتمني شيئاً من أسرار نفسك ، والآن عرفت أنك لست عبد بني الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكنك أحد أمرائهم ، وأنك الساعة في قصر جدك وأمام حجرة

أبيك . فما أسوأ حظكم يا بني الأحمر وما أعظم شقائك أيها الأمير المسكين . فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره فأنشا يقص عليها قصته وقصة أهل بيته وماصنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها : فلورندا ؟ إن جميع مالقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غداً قالت : وأي شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟ فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال : انني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقاً لا لقاء من بعده ، قالت : أتحبني أيها الأمير ؟ قال : نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهاطلة ؛ قالت : وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك ؟ قال : نعم لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التي أحبها فأحببتك لها ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدين قالت : وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ قال : ولم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التي نجد فيها السعادة إن ظفرنا بها ؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟ .

وكان الليل قد أظلهما فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت « فلورندا » يدها في يده وقالت له : « سأحبك كما أحببتني أيها الأمير ، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبك . ولقد فرق الدين بين جسدينا ، فليجمع الحب بين قلبينا » وتركته وانصرفت .

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيا في حياتهما الماضية من شقاء وعناء فأصبحا

فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائرين جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وترقرق صفحة الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير ، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما ولا ينفس عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التي ابتاعاها بكثير من دموعهما وآلامهما والتي لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسرا كل شيء !

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما « الدون رودريك » ابن حاكم مدينة غرناطة ، فرآها في مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى « فلورندا » قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أياما يتحبب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبت أن تصغي إليه وقالت له : إنني لا أتزوج ابن قاتل أبي . فانصرف بلوعة لا تزال كامنة في نفسه حتى اليوم ؛ فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحته من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها ، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضي إليها بما وقع في نفسه ، فأبت أن تقابله ، فخرج غاضباً يحدث نفسه بأفظع أنواع الانتقام .

وما هي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبي عبدالله سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسي مجدها وعظمتها ، وبناة قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهاناً إلى محكمة التفتيش[1] متهماً بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها .

---

(١) أسست هذه المحكمة بأسبانيا على اثر جلاء العرب عنها ، لتنصير المسلمين واليهود الباقين فيها قهراً ، وارتكبت فيها فظائع كثيرة مشهورة .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأنكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له : لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو ان تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ، فطار الغضب في دماغه ، وصرخ صرخة دوت بها أرجاء القاعة وقال :

في أي كتاب من كتبكم ، وفي أي عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم ؟.

من أي عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقاً ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر ؟.

أين العهد الذي اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحراراً في عقائدنا ومذاهبنا وأن لا تؤذونا في عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا في شعيرة من شعائر ديننا ؟.

أهذا الذي تصنعون اليوم ، والذي صنعتم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعي للذمم ؟.

نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ، فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالي بعهد ولا وفاء .

إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيف قاطع في يد الأولين ، وغل ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عثرة البلهاء ولا أقر عيون الأغبياء .

أنتم أقوياء ونحن ضعفاء فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة

القائمة ، فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذي خولتكم إياه قوتكم .

اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتّى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء ، فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء .

ثم حاول الاستمرار في حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة الموت التي هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقاً ، فسيق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساء ، وما جرد الجلاد سيفه فوق رأسه حتّى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفـوا مصدرها ، وما هي إلا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل .

* * *

يرى المار اليوم بجانب مقبرة بني الأحمر في ظاهر غرناطة قبراً جميلاً مزخرفاً هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافي قد نحتت في سطحها حفرة جوفاء تمتلىء بماء المطر فيهوى إليها الطير في أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بني الأحمر »

« من صديقته الوفية بعهده حتّى الموت »

« فلورندا فيليب »

الجـــزاء

جلست على ضفة البحيرة لتملأ جرّتها ، وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرآة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل .

أنست بهذا المنظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا به خيال رجل فذعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فملأت جرّتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : هل تأذنين لي يا سيدتي أن أعينك على حمل جرتك ؟ فالتفت فإذا فتى حضري غريب حسن الصورة والبزة لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فرابها أمره واتقد وجهها حياء وخجلاً ، ولم تقل شيئاً ، واستلقت جرّتها ومضت في سبيلها .

* * *

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد فرضعت معه وليدة ، ولعبت معه طفلة ، وأحبته فتاة ، ومرت بهما في جميع تلك الأدوار

سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرة ، والجياد والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة والغلائل المرصعة ، لأنهما كانا قرويين فقيرين ، بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلألؤ السماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة على الأعشاب الناعمة تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة وأغاني الرعاة وضوضاء السائمة في غدوها ورواحها وبكاء النواعير [1] في مسائها وصباحها ، ومن الحب الطاهر الشريف الذي يشرق على القلوب الحزينة فيسعدها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنهما حتى كان يوم البحيرة .

* * *

لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ، لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء ، ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت في كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت في زاوية من زوايا الأرض أنة وجد لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملأ قلبها غبطة وسروراً .

---

(١) النواعير : جمع ناعورة وهي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر « الساقية » .

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوة مختالة ، لا لأن حباً جديداً حلّ في قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت في طريقها برهاناً جديداً على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فترى ذلك السيد الحضري في غدوها أو رواحها يحييها أو يبتسم لها ، أو يسائلها عن طريق ، أو يستسقيها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقي في أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صخرة منفردة فكانت هذه اللحظة آخر عهدها بحياتها القديمة ، وأول عهدها بحياتها الجديدة .

* * *

هبط المركيز جوستاف روستان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فيقضي في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته « نيس » ، حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة في بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها ، وما زال بها يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره ، وعلى جيدها ومعصميها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيها الأماني الكبار في حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

* * *

استيقظ الفتى جلبرت في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقالها ، ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها في سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشؤون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتاً طويلاً فلم تعد ، فرابه الأمر وأعاد البقرة إلى معتلفها وخرج يفتش عنها في كل مكان ويسائل عنها الناس جميعاً غاديهم ورائحهم فلم يجد من يدله عليها حتى أظله الليل فعاد حزيناً مكتئباً لا يرى أن أحداً على وجه الأرض أعظم لوعة منه ، ولا أشقى ، فرأى أمه قابعة في كسر البيت مطرقة برأسها تفلي التراب بعود في يدها فدنا منها فرفعت رأسها إليه وقالت له : أين كنت يا جلبرت ؟ قال : فتشت عن سوزان في كل مكان فلم أجدها ، فألقت عليه نظرة مملوءة حزناً ودموعاً وقالت : خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم . فانتفض انتفاضة شديدة وقال : لماذا ؟ قالت : قد دخلت علي الساعة جارتنا فلانة فحدثتني أنها ما زالت تراها منذ ليالي تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضري غريب عن هذه المدرة أحسبه المركيز « جوستاف روستان » صاحب هذه المزارع التي تلينا والقصر الأحمر الذي يليها وقالت لي : إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشهب يعدو بها في طريق القصر الأحمر ، ولا بد أنها فرت معه ، فصرخ جلبرت صرخة جادت لها نفسه أو كادت ، وخر في مكانه صعقاً ، فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله تبكي عليه مرة وتمسح جبينه بالماء أخرى حتى استفاق في مطلع الفجر فنظر حوله نظرة حائرة فرأى أمه مكبة على وجهها تبكي وتنتحب ، فذكر كل ذلك فأطرق هنيهة ، ثم

رفع رأسه ووضع يده على عاتقها وسألها : ما بكاؤك يا أماه؟ قالت : أبكي عليك يا بني وعليها ، قال : إن كنت باكية فابك على غيري ، أما أنا فلست بحزين ، ولا باك ، فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحال قلبي الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شيء فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ، ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

* * *

لقد كذبت المسكين نفسه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ، ولكنها الغضبة التي يغضبها المحب المهجور تخيل إليه أنه قد نفض يده من المحب أشد ما يكون به عالقاً ، فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاها حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعه قليلاً قليلا ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات فتنير ظلامها ، وتجلو صفحتها وترقرق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتلألئة بين يدي هذا الكوكب المنير ودار بنظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه فلمح في الأفق الغربي بارقاً يخطف البصر بلألائه ، فخيل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمساً كتلك التي أطلعها المشرق حتى تبينه فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابثه أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماعاً شديداً ، فاسترد بصره إليه سريعاً ووضع يده على يسرى أضالعه كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ، لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبته فيما حدثته ، وأن تلك البارقة

التي كانت تضيء ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضماً ، وتمشي في نفسه مشي الموت في الحياة ، فأطلق لعبرته سبيلها وأنشأ يئن أنيناً محزناً تردده الرياح في جوها ، والأمواج في بحرها ، والأعشاب في مغارسها ، والسائمة في مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة فكفكف عبراته ، وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مذاهبه حتى نال منه ما لم ينل كر الغداة ومر العشي فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلاً بائساً منكوباً مشرد العقل ، مشترك اللب ، مذهوباً به كل مذهب يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحرجات ، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحوش أنس العشير بعشيره ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الظباء واليعافير [1] ، ثم يصدر إذا صدرت معها ، وربما ترامى به السير أحياناً إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعر ذعراً شديداً وصاح صيحة عظيمة ، وانكفأ راجعاً إلى قريته لا يلوي على شيء ، وكثيراً ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تفتش عنه في كل مكان حتى تراه ملقى بين الأحجار على ضفة نهر أو في سفح جبل فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشعة تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أدراجها .

* * *

(١) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبي بلون التراب .

مضى الليل إلا أقله وسوزان جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلتفت إلى سرير ابنتها مرة وتقلب وجهها في السماء أخرى ، وكان القمر في ليلة تمه ، فظلت تناجيه وتقول :

أيها القمر الساري في كبد السماء ها أنذا أراك في ليلة تمك وحدي للمرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إلي خطيبي « جوستاف » فينظر إليك معي كما كان يفعل من قبل ؟

لقد كنت لي أيها الكوكب المنير نعم المعين في لياليّ الموحشة على همومي وأحزاني ، فهل تستطيع أن تحدثني عن « جوستاف » أين مكانه ومتى يعود ؟ وهل نلتقي قريباً فتتم بذلك يدك عندي ؟

حدثني عنه .. هل يذكرني كما أذكره ، وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده ؟ وهل يجلس إليك حيناً فيسائلك عني كما أسألك عنه ؟ فإن فعل ، فقل له : إن ابنته جميلة جداً جمال الابتسامة الحائرة في فم الحسناء ، وبيضاء بياض القطرة الصافية في الزنبقة الناصعة تحت الأشعة الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتف باسم غير اسمه ، ولا تبتسم لرسم غير رسمه ، وإنه إن رآها أغنته رؤيتها عن المرآة المجلوة ، لأنه يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدميتان المصبوبتان في قالب واحد .

ولم تزل تناجي القمر بمثل هذا النجاء حتى رأته ينحدر إلى مغربه فودعته وداعاً جميلاً ، وقالت : إلى الغد يا صديقي العزيز ... ثم قامت إلى سرير ابنتها فحنت عليها برفق وقبلتها في جبينهـــا قبلة المساء ، وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عبثت بجفنها السنة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانيها وآمالها ، فرأت كأن « جوستاف » قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابنتها

على باب القصر ، فنزل من مركبته وضمهما معاً إلى صدره ضماً شديداً ، وظل يقبلهما ويبكي فرحاً وسروراً .

فإنها لمستغرقة في حلمها هذا إذ شعرت بيد تحركها فانتبهت فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة متطلقة تقول لها : بشراك يا سيدتي فقد حضر سيدي ، فاستطيرت فرحاً وسروراً وقالت : أحمدك اللهم فقد صدقت أحلامي ، وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ، ثم دخلت عليه في غرفته باسمة متهللة تحمل ابنتها على يدها ، فرأته واقفاً في وسط الغرفة متكئاً على كرسي بين يديه ، فهرعت إليه ، ولكنها ما دنت منه حتى تراجعت حائرة مدهوشة لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، لا بل هو بعينه ، ولكنها رأت وجهاً صامتاً متحجراً لا تلمع فيه بارقة ابتسام ولا تجري فيه نظرة بشاشة فأنكرته ، إلا أنها تماسكت قليلاً ومدت إليه يدها تحييه فمد إليها يده بتثاقل وفتور كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ولم يلق على وجه الطفلة وكانت تبتسم إليه وتمد نحوه ذراعيها ، نظرة واحدة ، وكانت أول كلمة قالها لها : أباقية أنت في القصر حتى اليوم ؟ فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد وقالت له : وأين كنت تريد أن تراني يا سيدي ؟ قال : في هذا القصر ، كما تركتك ولكني أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم . قالت : لماذا ؟ قال : لأن زوجتي قادمة إليه اليوم وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعجه وجودها .

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في عروقها من الدم قد تراجع كله دفعة واحدة إلى قلبها ، فأصبح وحده الواجب[1]

(١) وجب القلب : خفق .

الخفاق من دون أعضائها وأوصالها جميعاً ، ولكن المصيبة إذا عظمت خلت عن البكاء والأنين ، فلم تصح ولم تضطرب ، بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى ابنتها وقالت له : وما ترى في ابنتك هذه ؟ قال ليس لي ابنة أيتها السيدة ولا ولد لي ، لأني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام فخذي ابنتك معك وعيشي معها حيث تشائين ، وقد تركت لك هذا الكيس على المنضدة فخذيه واستعيني به على عيشك ، وتركها ومضى .

لم تلق على المنضدة نظرة واحدة ومشت تتحامل على نفسها حتّى وصلت إلى غرفتها ، وهنالك انفجرت باكية ، وقالت : واسوأتاه ! إنه يعطيني ثمن عرضي ، وسقطت مغشياً عليها ، فلم تستفق حتى أظلها الليل ففتحت عينيها فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي الخادمة وإذا الخادمة تبكي لبكائها ، فضمتها إلى صدرها ساعة ، ثم قامت إلى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام ، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياء وخجلاً فخلعت أثوابها ولبستها ولم تبق في معصميها ولا في جيدها لؤلؤة ولا ماسة إلا ألقت بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح في مشيتها كأنما تمشي على رملة ميثاء [1] .

وما جاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في حلمها هي وابنتها منذ ساعات تنظر خطيبها حتى لمحت على البعد مركبة فخمة مقبلة على القصر تحمل المركيز وامرأة بجانبه ! فأغمضت عينيها وتسللت تحت جدار القصر ، ومضت في سبيلها .

* * *

(١) الميثاء : اللينة .

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبيها في تلك الساعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصر التي كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلاً عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا إليها كثيراً وأحباها حباً جماً فأساءت إليهما وغدرت بهما فقد سدت دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها في الأرض ، ولا في السماء .

ذلك ما كانت تحدث نفسها به ، وهي سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهباً ولا مضطرباً ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر فأضجعتها فوق عشبها وأسبلت عليها رداءها وجلست بجانبها تفكر في مصيرها .

فإنها لجالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرقة على صفحات الماء إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفاً يهتف باسمها بصوت ضعيف فالتفتت حيث سمعت الصوت فإذا شبح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتاعت وفزعت ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويداً رويدا حتى دانته ، فإذا هو إنسان في زي المساكين مستلق على ظهره شاخص ببصره إلى جدار القصر فذهبت بنظرها حيث يذهب فإذا عينه

عالقة بنافذة غرفتها التي كانت تجلس إليها كل ليلة ، فعجبت لذلك كل العجب وخفق قلبها خفقاً متداركاً ورأته يضم إلى صدره هنة بيضاء أشبه بالرقعة ضماً شديداً فأكبت عليه لتتبينه وترى ما يضم إلى صدره فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو « جلبرت » يجود بنفسه ، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذبين في أعماق القبور : الوداع يا سوزان !! الوداع يا سوزان ! ففهمت كل شيء ، فصرخت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت : آه .. لقد قتلتك يا ابن عمي ، ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها وتقول : ها أنذا يا « جلبرت » جاثية تحت قدميك ، فارحمني واغفر لي ذنبي فقد أصبحت امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني . وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلاً ، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمعة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة وقضى .

ولما دنا مني السياق[1] تعرضت
إلي ودوني من تعرضها شغل
أتت وحياض الموت بيني وبينها
وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

* * *

جثت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيرها الذي أحبها حباً لم يحبه أحد من قبله أحداً حتى مات حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها ، وأنها تركتها على تلك الربوة نائمة وحدها فعادت إليها مسرعة ،

---

(١) السياق نزع الروح .

وقد قررت في نفسها أمراً .

• • •

لا أعرف أحداً من الناس أوصيه بك يا بنيّتي ، لأن أباك أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذي كان يحبني في هذا العالم ذهب لسبيله ولكني أعلم أن لهذا الكون إلهاً رحيماً يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة الحزن في أفئدة المحزونين ولاعج الشقاء بين جوانح الأشقياء فأنا أكل أمرك إليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء . لا أستطيع أن أعيش لك يا بنيّتي ، فإن أحداً من الناس لا يغتفر لي الذنب الذي أذنبته حتّى الذي أغراني به وشاركني فيه ؛ فأنا ذاهبة إلى ذلك العالم العلوي المملوء عدلاً ورحمة لعلي أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنت بريئة ، ويرحمني إن كنت مذنبة .

لا أحب أن تكون حياتي يا بنية شؤماً على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس بذنبي كلما رأوك بجانبي فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعل راحماً من الناس يمر بك فيعطف عليك ويضمك إليه من حيث لا يعلم شيئاً من أمرك فتعيشين في بيته سعيدة هانئة لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمك فتؤلمك ذكراها .

اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها ويكفل أمرها ، وأنني قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرعاها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يد لها في الذي أذنبه أبواها فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك وإحسانك وهيء لها صدراً حنوناً ، ومهداً ليناً ، وعيشاً رغيداً .

ثم بدأت تسر ثيابها عن جسمها وتغطي بها جسم ابنتها وقاية

ها من برد الليل حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد تركته ليكون ستراً لعورتها عند انتشال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق فلثمتها في جبينها لثمة أودعتها كل ما في صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة : الوداع يا ماري ، سنلتقي عما قليل يا جلبرت . المغفرة يا كاترين . وألقت بنفسها في الماء .

* * *

قضى المركيز الليلة الأولى من ليالي شهر العسل مع عروسه في شرفة القصر يسمران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ويرشفان من كل كأس من تلك الكؤوس رشفة تكثراً بما عندهما منها حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما فلم يستفيقا حتى سمعا دوي الريح في أبراج القصر ، وفي ذوائب الأشجار ؛ فعلما أنها الزوبعة فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإنهما لواقفان موقفهما هذا إذ لمحت المركيزة في وجه المركيز دهشة واضطراباً ورأته يلتفت التفاتاً شديداً كأنما يتسمع لصوت غريب فسألته ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر فرأى كما رأت هي على نور القمر طفلة واقفة على الضفة تصيح وتعول وتشير بيدها نحو الماء وتقول : أماه ! أماه ! فنظرا حيث تشير فإذا امرأة عارية إلا قليلاً تتخبط في لجج الماء تخبط الغرقى ؛ فترك المركيز مكانه ونزل يعدو إلى النهر ، وهو يقول : والهفتاه إن كانت هي . وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا . حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر وأمر

الباقين أن يسبحوا وراء الغريقة ، ثم سقط في مكانه واهناً متهالكاً ، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء ، فسبح بعضهم وراء السابحين ووقف الباقون حول المركيز ينتظرون رحمة الله وإحسانه .

انتشر السابحون في كل مكان ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم ، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها عظم عندهم الأمل فاندفعوا وراءها مستبسلين مستقتلين يغالبون جبال الأمواج المعترضة في طريقهم ، حتى إذا دنوا من المكان الذي لمحوها فيه لا يجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئاً فشيئاً حتى غابت عن الأعين ولم تظهر ؛ فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة يرسبون ويطفون ثم ظهروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحية أم ميتة ؟ وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن في الضفتين فتردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضفة فألقوها على الأرض فإذا هي ميتة .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مأتماً قائماً يبكي فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

* * *

لم ينتفع المركيز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضاً شديداً

فلم تلبث أن لحقت بأمها بعد ثلاث ليال ، واستحال الحب الذي كانت تضمره له زوجته إلى بغض واحتقار ؛ فهجرته وسافرت إلى « نيس » ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه من شرفة القصر ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره ، فكان كلما مشى في طريق توهم أن أمامه نهراً هائجاً تتخبط سوزان في لجته وتصيح ماري على ضفته ، فيصرخ قائلاً : لبيك يا سوزان ، ويندفع إلى الأمام كأنما يريد أن يلقي بنفسه في النهر الذي توهمه لينجي الغريقة التي تخيلها فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب ، فيسقط حسيراً طريحاً . وكان يهيم على وجهه أحياناً حتى يصل إلى ضاحية قرية « ليني » فيرى امرأة عجوز مكبّة على قبر بين يديها تبكي وتنتحب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن القبر قبر قتلاه ، فيتراجع خائفاً مذعوراً ، ويصرخ قائلاً : الرحمة الرحمة ! العفو العفو ! وكثيراً ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطاً في بعض الاماكن التي كن يرين فيها جلبرت فيقلن : لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة ، وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه ، لولا أن يتداركه من يراه من المارة .

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان ؛ فعلموا أنها نهاية الجزاء .

• • •

مرّت على هذه الحادثة أعوام طوال ولا يزال عجائز قرية « ليني » والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم ويبكين كلما ذكرنها ، ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بهن طائف من شرور الرجال .

الضحيـــة

نشأت «مرغريت جوتييه» فقيرة لا تملك مالاً تشتري به زوجاً ، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسه بلا مال أو يحسن إليها بما يسد خلّتها ، ويستر عورتهـــا ، وكان لا بد لها أن تعيش فلم تجد بين يديها سوى عرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان ، فباعته إياه كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شؤماً عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكن الجمال سلعة من السلع النافقة [1] . لا يستطيع صاحبه ان ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيراً معوزاً ، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نقمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعاً ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها الذي هو مطمح أنظارهم وقبلة آمالهم : آلة انتقام تنتقم بها منهم لعرضها وشرفها .

ولقد برت بيمينها برّ الوفي بعهده ، فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم في أموالهم ، وفي أنفسهم ، ولم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور ، وهي تقول :

---

(١) نفقت السلعة : راجت ورغب الناس فيها .

ويح لكم يا معشر الرجال ، ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفاً واحداً لغدائي وآخر لعشائي فأبيتموهما علي فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تملك ايديكم من مال ونشب ، بذلتموه لي طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم وأخس أقداركم ! .

ولقد كان في استطاعة أصغركم شأناً ، وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعاً ، أن يشتري مني جسمي وقلبي وحياتي بلا ثمن سوى سد خلتي وصيانة عرضي فلم تفعلوا ، فها هم أولاء اليوم عظماؤكم وأشرافكم يجثون تحت قدمي جثي الكلب الذليل تحت مائدة سيده ، فلا ينالون مني أكثر مما ينال منها .

أحببتم المال حباً جماً فأبيتم إلا أن تتزوجوا ذات مال لتضموا طارفها إلى تليدكم[1] فابذلوا اليوم لامرأة مومس لا تمنحكم مالاً ولا حباً جميع ما في أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد .

• • •

ظهرت مرغريت في سماء باريس كوكباً متلألئاً يبعث الأنوار ويبهر الأنظار ، ويملأ اجواز الفضاء بهجة وضياء ، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر ، وسال النضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل ، وعنت لها الوجوه الكريمة ، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة وأصبحت أعناق الرجال في يدها كأنما قد سلكتهم جميعاً في سلك واحد ، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون ، وتمسك عنه فيمسكون ، وكان شأنها

---

(١) الطارف من المال : حديثه ، والتليد : قديمه .

معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه ، لا يشبعه فيستغني عنه ، ولا يجيعه فييأس منه ، فكانت تملأ نفس عاشقها أملاً ورجاء حتى إذا ظن أن قد دنا به حظه ، وأن ليس بينه وبين أمله إلا أن يمد إليه يده فيناله ، ذادته عنه ذود الظامئ الهيمان عن ورده أدنى ما يكون الى فمه ، فاذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه ، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له ؛ بعثت وراءه شعاعاً من أشعة ابتساماتها العذبة الخلابة فاسترددته إليها صاغراً مستسلماً .

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تعوزها بالأمس اللقمة ، وتعييها الخرقة ؛ سيدة باريس وصاحبة عرشها ، ومالكة أزمة رجالها ، وفاجعة قلوب نسائها ، والنجم الخالق الذي تبتهل إليه العيون ، والسر الغامض الذي تحار فيه الظنون .

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ؛ أما ما تعلمه من أمر نفسها فهي ترى أن جميع ما يبذله لها الناس من فضة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ، لا يساوي دمعة واحدة من تلك الدموع التي سكبتها على نفسها يوم باعت عرضها ، وأن جميع هذه اللآلىء والجواهر والأردية والتيجان التي يهبونها إنما يهبونها أنفسهم ليتمتعوا بمنظرها فوق جسمها كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القلادة في عنق كلبه ، وما له من ذلك شيء ، فكأنما باعت عرضها بلا ثمن ولا جزاء .

وكانت تخلو بنفسها حيناً فتتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وأنها إن حرمت هذا الجمال ساعة واحدة انفض الناس جميعاً من حولها ، وأصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا يعطف عليها قلب ولا تبكي عليها عين ، فتبكي بكاء الأشقياء على أنفسهم ، بل ترى أنها شقية مثلهم ،

لأنها تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها إلا حباً كاذباً .

وربما مرت في بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس قصرها وهو جالس بين زوجه وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ؛ فتتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجاً وأولاداً كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئاً .

وما رآها الناس في يوم من أيامها استقبلت في قصرها رجلاً متزوجاً أو خاطباً ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها وألموا بسريرة نفسها ، لعلموا أنها امرأة حزينة منكوبة ، قد فجعها الدهر في سعادة الزوجية فعرفت قيمتها فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .

لقد تحدث بعض الذين ألموا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو ثلاثاً بعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعن بها على الزواج ممن يردن ، فلم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهباً ، وإن ينبوع الخير لا يمكن أن ينفجر في قلوب النساء الفاجرات ؟ ولكن الحقيقة أنها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب « مرغريت » ، وهذه هي سريرة نفسها : فهي فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ؛ وساقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلها ، ولو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها في قلوب الناس وأن تمحو بصلاحها ما سلف من فسادها لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذي أسقطها وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذي كانت ترتديه ، يأبى عليها أن يعيد إليها

رداءه إن طلبته ؛ فلا بد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة ، وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على « مرغريت » في حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام حتى نزل بها مرض حجبها في بيتها عدة أيام ثم اشتد عليها ، فأشار عليها الأطباء أن تذهب إلى حمامات « البانيير » للاستشفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان في ذلك المصطاف [1] في هذا العام شيخ من الأثرياء اسمه « الدوق موهان » حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر ليستشفي لها من دائها فلم يُجْدها العلاج وماتت بين يديه فدفنها هناك ولبث بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويبكيها بكاء شديداً ؛ فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه « مرغريت » سائرة وحدها وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى البانيير ؛ فدهش لمنظرها دهشة عظمى وخيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها ، أو أرسل إليه خيالها ليعزيه عنها لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها فتقدم نحوها ذاهلاً مشدوهاً وأمسك بطرف ردائها وظل يحدق في وجهها تحديقاً طويلاً ، فعجبت لشأنه وسألته : ما باله ؟ فقال لها : هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقبل يدك ؟ فمدت إليه يدها وهي لا تعلم ماذا يريد ولا ما الذي أصابه فلثمها ثم اعتذر إليها عن جرأته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه في ابنته وما راعه من الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه واستهلت دمعة رآها الشيخ من خلال أهداب عينيها المبتلة بالدموع فسقط على يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدمعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه ، ولم

---

(1) المصطاف : مكان الاصطياف .

يزل سائراً معها حتّى وصلا إلى النزل فودعها ومضى بعد ما استأذنها أن يختلف إليها من حين إلى حين فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها ، فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي اختطفها الموت من يد أبيها في زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائد رد دعاية القضاء عنها ، ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به وأنها ربما ماتت موتتها فلا تجد بجانبها أباً كهذا الأب يندبها ويبكي عليها ، فأثر في نفسها هذا الخاطر تأثيراً شديداً ، وبكت له بكاء طويلاً ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تفارقها .

وظل « الدوق » يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد من الأنس بها ، والاغتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شبتها الوجد في صدره ، حتّى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لذ لها أن يرى ذلك الشيخ الثاكل المنكوب في وجهها سلوته وعزاءه ، فمنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحداً من قبله ، وأنست به أنساً لم تأنسه بإنسان سواه .

وما هي إلا أيام قلائل حتّى أبلت من مرضها بعض الإبلال [1] وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع ابتسامه وافترار ، فلذ لها المقام في البانيير أياماً طوالا حتّى شعرت بهبوب رياح الشتاء فأزمعت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها في ذلك المزدحم العظيم الحافل بخلانها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في البانيير ؛ فخلى بها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثاً طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى حياة المخالّة والمعاشرة وتعيش

(١) أبل من مرضه : برىء منه .

في منزل يهيوءه لها ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني إلى باريس .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هيأه لها الدوق عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلا . ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ومشت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منتزه « الشانزلزيه » فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها ؛ فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ؛ فتقضي فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهافتين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقعها حتى تنتهي .

فلم تمض عليها أيام كثيرة حتى علم الناس جميعاً أن « مرغريت » قد استحالت حالها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها فقصرت عنها أطماعهم وانقطعت منها آمالهم وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها ، فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها وهي أن تلك الحادثة المحزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيهتها في صورتها ومرضها قد أثرت في نفسها تأثيراً شديداً

وصورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس لأنها تعيش من مال الدوق في نعمة لا يطمع طامع في أكثر منها ، وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتي ينعمن بنعمة الشرف في ظلال آبائهن ؛ فأعجبها هذا الخيال ولذ لها ؛ وكثيراً ما بكت ذلك الشرف قبل اليوم وحنت إليه .

* * *

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقرا ؛ فثار ما كان كامناً من داء « مرغريت » ؛ وعاد إليها نفثها وسعالها ؛ فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ؛ لا تفارقها يوماً حتى تعاودها أياماً ؛ فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن روحت[1] عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقي ؛ وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج[2] ما هي فيه فتخلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين ؛ ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت إلى الملعب فتى في زي أبناء الأشراف وشمائلهم لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه ويقضي عنها إن نظرت إليه ؛ ولا يلتقي نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه

(١) روح عنه : تنفس عنه ما يضيقه .
(٢) تفرج : طلب ما يفرج عنه .

حمرة ويرفض جبينه عرقاً ، كأنما جنى جناية لا مقيل له منها ؛ فلم تحفل به كثيراً لأنها لم تر في أمره شيئاً جديداً ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ، وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه ، وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها أنه الفتى الوحيد الذي كان يبكي في ذلك المجتمع لمنظر المشاهد المحزنة التي تمثل على مسرح التمثيل ، لأنها تعلم أن الفتيان الفرحين المغتبطين بشبابهم وصحتهم لا يحفلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفلوا بتمثيلها .

فإنها لخالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو بارداً مقشعراً إذ فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفاً ووهناً فشعرت بيد تمسك يدها فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها . فشعرت بالراحة قليلاً فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحداً ورأت على بعد خطوات منها إنساناً منصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته تخيلاً ، فعجبت لأمره ومضت في طريقها ؛ فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمى تتمشى في أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبلت[1] قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التي تركها الفتيان الذين زاروها في أثناء مرضها تجملاً وتلوماً ، فلم تقرأ واحدة منها ، ثم حدثتها الخادم أن فتى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان ينقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفتها إياه فوصفته لها فلم

---

(١) أبل من مرضه : برىء منه .

تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب وتمنت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر الذي لا عهد لها به في أحد من الناس ، وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة في شرفة المنزل المطلة على الطريق فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة

المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرفضها ، ثم شعر بمكان مرغريت من الشرفة فتلوم ومشى وراء الخادمة حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فتركته وانصرفت ، فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرقاً ولسانه لا يكاد يبين ، فمدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبلة طويلة عرفت مرغريت سر ما أودعها من عواطف قلبه ، وهي العالمة بأسرار القبلات ، ثم أذنته بالجلوس ، فجلس ، فأنشأت تسائله عن نفسه وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتبتسم له فيما بين ذلك ابتسامات تلاطفه بها وتمسح عن فؤاده ما ألم به من الروع ، فحدثها أنه غريب عن باريس ، وأنه وفد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته « نيس » ليقضي فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلباً لتغيير الهواء وترويح النفس ، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه ، فسألته : هل وجد المقام حميداً هنا ؟ فصمت هنيهة ثم نظر إليها نظرة منكسرة وقال : لا يا سيدتي ، قالت : لماذا ؟ فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها فعاد إلى صمته وإطراقه ، فأعادت عليه سؤالها . فقال لها : هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقول لك كل ما في نفسي . فشعرت بما في نفسه قبل أن يقوله ، وقالت له : قل ما تشاء إلا أن تطارحني حبك وغرامك ، فإنني

امرأة مريضة لا أستطيع أن احتمل الحياة وحدها خالصة لا مؤونة فيها ، فأحرى أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام ، فاصفر وجهه اصفراراً شديداً ومد يده إلى دمعة تترقرق في عينيه فمسحها ثم قال لها : ذلك ما يحزنني يا سيدتي ويبكيني وينغص علي عيشي منذ هبطت باريس حتى اليوم ، فإنني رأيتك فأحببتك للنظرة الأولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء ، وعلمت أنك تعيشين منذ شهور عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لآمل ، فانقطع أملي منك ، إلا أن حبي إياك لم ينقطع ، ثم رأيتك بعد ذلك في ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسجته يد المرض على وجهك الجميل فاستحال حبي إياك رحمة وشفقة ، وأصبحت أبكي لمرضك أكثر مما أبكي لحبك ، وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئة ناعمة ، موفوراً لك حظك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحبون المغرمون ؛ فأنا أقف الساعة بين يديك لا لأطارحك الحب والغرام ؛ بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على بابك كلما جئته أسأل خادمتك عنك ، ثم أمضي لسبيلي من حيث لا ترين وجهي ، ولا تشعرين بمكاني ، فسرت في أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحمى وخيل إليها أنها تسمع نغمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعها من قبل اليوم من أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا تأويلها إلا الله تعالى . ثم قالت له : إني آذن لك بذلك يا سيدي ، وأشكره لك شكراً جزيلاً ، بل آذنك أن تزورني كلما شئت على أن تفد إلي صديقاً مساعداً ، لا محباً مغرماً ، فإني إلى الأصدقاء المخلصين أحوج مني إلى المحبين المغرمين ، ومدت إليه يدها ، فعلم أنها قد أذنته بالانصراف ، فقبلها وانصرف مسروراً مغتبطاً ، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها ، فسقطت على وسادة بجانبها وقالت :

رحمتك اللهم فإني أخشى أن أحبه .

لقد أحبته من حيث لا تدري ؛ فإن الخوف من الحب هو الحب نفسه ، بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها ، وتأنس به وبحديثه أنساً كثيراً. وتفضي إليه بذات نفسها إفضاء الصديق إلى صديقه ، وتقص عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئاً ولا تكتم عنه أمراً ، ثم ترامى بها الأمر حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته بضع دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عرض له لم يتمكن من إخبارها به . فحزنت لانقطاعه حزناً عظيماً وذهبت بها الوساوس والظنون كل مذهب ، ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم . فقلقت لذلك قلقاً شديداً ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ولم يبق إلا أن تتردى فيها فسهرت ليلة طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وخوالجها ما عالجت حتى أصبح الصباح وقد أضمرت في نفسها أمراً .

جاء « أرمان » في صباح اليوم الرابع فوجدها طريحة فراشها وفي عينيها حمرة البكاء والسهر ؟ فارتاع لمنظرها وقال لها : لعلك سهرت بالأمس كثيراً يا سيدتي أو بكيت ، فإني أرى في عينيك أثر واحد منهما ؟ قالت : هما معاً يا أرمان قال : وهل حدث شيء جديد ؟ قالت : اجلس بجانبي قليلاً أيها الصديق أحدثك حديثاً قصيراً وربما كان آخر حديث بيني وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراني ، فذعر ذعراً شديداً وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه ، فلم يستطع أن يقول شيئاً وسقط بجانبها واهياً متضعضعاً ، وظل ينظر إلى وجهها نظر المتهم إلى وجه قاضيه

ساعة نطقه بالحكم ، فأقبلت عليه تحدثه وتقول :

عرفتك يا «أرمان» فعرفت فيك الرجل الكريم الذي أحبني لنفسي أكثر مما أحبني لنفسه ، والصديق الوفي الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان فآوى إلي مريضة حينما جفاني الناس لمرضي ، وعاش معي بلا أمل حينما انقطع الناس عني لانقطاع أملهم مني ؛ فأضمرت لك في قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ، وسعدت بك سعادة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، ولكن الله الذي كتب لي الشقاء في لوح مقاديره من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد ، لم يشأ أن يمتعني طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن يسلبنيها وشيكاً ؛ فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التي كنت أستمد منها سعادتي وهنائي قد أخذت تستحيل في أعماق قلبي إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسي ، ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائي وبلائي ؛ فخادعت نفسي عنها حيناً ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى كان ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة ، فشعرت لغيابك بحزن أقلقني وأمضني ، وملك علي جميع عواطفي ومشاعري ، ولو شئت أن أقول لقلت إنه أبكاني كثيراً ، وأسهرني طويلاً ، فعلمت والأسفاه أنني قد أصبحت عاشقة وأن هذا الذي يختلج في قلبي ويقيمني ويقعدني ، إنما هو الحب والغرام ، فقضيت ليلة الأمس كلها أفكر في طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التي نزلت بي فلم أجد أحداً يخلصني منها سواك ، فأنا أسألك يا «أرمان» باسم الصداقة والود الذي تعاقدنا عليه بالأمس ، بل باسم الدموع التي طالما كنت تسكبها رحمة بي وإشفاقاً علي ، أن تنقطع عن زيارتي منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت ، ثم لا تعد إلي بعد ذلك ، فأحمل نفسي على الصبر

عنك حتى يمنّ الله علي براحة اليأس منك .

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد مصفر كأن وجهه وجه تمثال منحوت وإذا عيناه شاخصتان إليها شخوص العين القائمة [1] التي تنظر إلى الشيء ولا تراه وبعد لأي ما [2] استطاع أن يحرك شفتيه ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير : وما يخيفك من الحب يا مرغريت ؟ قالت : يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي ، فقد كتب الله لنا معشر النساء الساقطات في لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ، ونبتليهم بصنوف العذاب وأنواع الآلام ، حتى يغضب الله لهم ويغار عليهم ، فيبتلينا بحب نحمل فيه العذاب جميع ما حملناه من قبل ، ونشقى فيه شقاء لا ينتهي إلا بانتهاء حياتنا ، فنموت بين يدي أنفسنا مهملات مغفلات لا ينعانا ناع ولا يبكي علينا باك ، فهذا الذي أخافه وأخشاه ، وأحب أن يسبق إلى أجلي قبل أن أراه .

أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا « أرمان » فأنت أجل من ذلك عندي ، ولكني أعلم أنك باق في هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك سفراً لا تملك بعده العودة إلي . فإن أبيت إلا البقاء بجانبي حال أهلك بينك وبين ذلك لأنهم قوم شرفاء يضنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارهـا وشنارها ، فلا تجد لك بداً من الخضوع لهم والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة أطلب السبيل إليك فلا أجدك ، والسلو عنك فلا أستطيعه ، وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى

---

(١) العين القائمة : التي ذهب نورها وبقيت حدقتها صحيحة .

(٢) اللأى : الجهد والمشقة ، و (ما) هنا زائدة .

كنف ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إليّ إحساناً كبيراً فطردني من بين يديه عقاباً لي على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجد لي بداً من الرجوع إلى حياتي الأولى – حياة الشرور والآثام ، والهموم والآلام – التي أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

أني أعلم يا « أرمان » أنك تحبني حباً جماً ، وأنك ستكابد في ابتعادك عني عذاباً كثيراً ، ولكني أعلم أن قلباً شريفاً يحتمل العذاب في سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلي فإنك أقدر مني على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو الله تعالى ليلي ونهاري أن يمنحني الصبر عنك ، ويرزقني راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحني ؛ فلعله يرحمنا جميعاً .

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضعضعاً متهالكاً ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقاً حتى بلغه ، فوقف على عتبته والتفت إلى مرغريت وألقى عليها تلك النظرة التي يلقيها المحتضر على أهله في آخر لحظات حياته وقال لها : الوداع يا مرغريت ! ومضى ، فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمة مختبلة ، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به ، ثم تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ؛ فأدركها رشدها وأناتها ، فعادت إلى فراشها تبكي وتنتحب وتعول إعوالا شديدا ، وتدور في أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة ، وهي تصيح : أرجعوه إلي . لا أستطيع فراقه ، سأموت من بعده . وإنها لكذلك إذا سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة ، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت الصوت حتى بلغت باب المنزل

فرأت « أرمان » ساقطاً تحت عتبته مغشياً عليه ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله ، ثم ألقت نفسها عليه ولثمته

ثغره لثمة هي أول لثمة ذاقت فيها لذة العيش في حياتها ، فشعر بها « أرمان » فاستفاق وضمها إلى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من نعيم الدنيا وهنائها .

* * *

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء « مرغريت » وعناؤها ، فقد أبلت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترحت على أرمان أن يتركا باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية فقبل مقترحها وسافرا معاً يفتشان عن المكان الذي يريدان حتى بلغا قرية « بوجيفال » ، وهي ضاحية من ضواحي باريس على بعد ساعتين منها فوجدا في بعض أرباضها منزلاً صغيراً منفرداً واقعاً على رأس هضبة عالية في سفح جبل مخضر تجري من تحته بحيرة صافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما ، فاكترياه ، ونقلت « مرغريت » إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع ، ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً ناعماً هنيئاً لا تضطرب في سمائه غيمة ، ولا تمر بصفحته غبرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء ووساوسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو منحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوباً ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهما من لفحات الهجير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من العشب الممتد في تلك البطحاء الفسيحة يتناجيان ويلهوان بمنظر

الجمال الماثل في الشاطىء ، والأمواه والأخاديد والوديان والغابات والحرجات ، و الكهوف والأغوار ، والغيوم والسحب والأضواء في تشكلها وتلونها ، والظلال في تحولها وانتقالها ، وفي رؤوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفي قطع الصخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفي تلك المعركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشي الأنوار والظلمات فينتصر في صدر النهار أولهما ، ثم يدال في آخره لثانيهما ، حتى إذا جاء الليل عادا إلى منزلهما فنعمتا فيه بألوان النعيم وضروبه ورشفا من كل ثغر من ثغور السعادة رشفة تسري حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمه . مر بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يختلساه من يد الدهر في غفلته ، ثم انتبه لهما بعد ذلك — وويل للسعداء من انتباهه بعد إغفائه — فقد نضب أو أوشك أن ينضب ما كان في يد « أرمان » من المال ، وكان في يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يستعين على البقاء في باريس مدة أخرى ، زاعماً أنه لا يزال مريضاً متألماً لا يستطيع السفر ، وكذلك كان يفعل من حين إلى حين . فلم يأته الرد ، فأقلقه ذلك قلقاً شديداً وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم يسأل في فندق « تورين » الذي كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده ، فيعود حزيناً منقبضاً ، حتى إذا وصل إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه تطلق وتبسم كأنه لا يضمر في نفسه هماً قاتلاً ، ولكن عين مرغريت أقدر من أن يعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه فاكتنهت سره فكاشفته به وقالت : لا يحزنك شأن المال يا أرمان ، فإن عندي منه ما يكفينا العيش معاً سنين طوالا . ولم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رفده مذ عرف قصتها مع « أرمان » ، وعلم

أنها خانته وخانت بعهده ، بل كانت مدينة بمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ، بل أصبح دائنوها يتقاضونها ديونهم بعد ما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها ، ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة لم تفكر في عاقبتها ، فأكبر « أرمان » ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شديدة ، وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسافر إلى « نيس » ليأتي منها بالمال الذي يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجاً شديداً وخافت عاقبته ، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه ، وتبذل في ضراعتها ، ورجائها في سبيل بقائه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ، ورضي بالتي لم يكن يرضى بمثلها لولا لهفة الحب وضراعة الدموع ؛ وقد أضمر في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه في الميراث الذي ورثه من أمه مكافأة لها ووفاء بحقها ، فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأنشأت تبيع القطعة بعد القطعة ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم « أرمان » ، واستمرا على ذلك بضعة أشهر حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعات أنسهما وصفائهما خادم فندق « تورين » الذي كان ينزل به « أرمان » في باريس وقال له : إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

• • •

قال دوفال لولده : لقد كذبت علي كثيراً يا « أرمان » ؛ وما كنت قبل اليوم كذاباً ؛ ولا خادعاً ؛ ورضيت لنفسك بحياة كنت أضن الناس بنفسك على مثلها من قبل ؛ ومزقت بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذي لا يزال مسبلاً على وجهك ؛ وأصبحت تتبذل في العيش مع امرأة عاهرة ؛ كل ما لها من الشأن عند نفسها ؛

وعند الناس جميعاً أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ، وفتات المائدة العامة التي يجلس عليها الناس جميعاً صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معي إلى « نيس » فلست بتاركك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة .

فرفع « أرمان » رأسه إلى أبيه ، وقال له بصوت هادىء مطمئن : لا أستطيع يا أبتاه !.

فنظر إليه أبوه نظرة شزراء وقال له : وتلك سيئة أخرى فقد أصبحت لا تعبأ بي ، ولا تبالي بمخالفة أمري من أجل امرأة ساقطة لا شأن لها معك إلا أن تعبث بعقلك ، وتسلبك مالك وشرفك ، وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك .

قال : لا يا أبتاه ، إنها ليست بعابثة ولا خادعة ، ولكنها تحبني حباً جماً لم يحبه أحد من قبلها أحداً ، وأحسب أني إن فارقتها قتلتها ، وجنيت عليها جناية لا يفارقني الندم عليها حتى الموت .

قال : ذلك ما يخدع به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يحببن بها ، بل لهن ألسن يختلن بها الرجال ويسبلنها حجباً بين بعضهم وبعض ! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الحظوة لديها ، من دون أصحابه جميعاً .

قال : ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهي لا تحب أحداً غيري ، بل لا تعرف أحداً سواي ، فهي تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن ، لأن الخليلة التي تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التي تخون زوجها ، وأخشى إن فارقتها أن تثور في نفسها ثورة من ثورات اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى حياة الشر والفساد ، والشقاء

والعذاب ، بعد ما استنقذت نفسها .

قال : وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء الفاسدات ؟

قال : ذلك خير له من أن تكون وظيفته إفسادهن ، فإن الأشراف في هذا العصر يفخرون بإفساد النساء الصالحات ، واستدراجهن إلى مواطن الفسق والفجور ، وإصلاح المرأة الفاسدة ، أدنى إلى الشرف من إفساد المرأة الصالحة .

قال : لقد أصبحت كثير الرحمة يا أرمان .

قال : لم لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها في الناس من يعولها من ذي قرابة أو ذي رحم ؟ وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلل عنها ، إلا أن يهدأ عنها حيناً ويستيقظ أحياناً ، فهي تكابد الألم مرة ، والخوف من الألم أخرى ، ولا عزاء لها في حالتيها إلا هذه السعادة التي تتوهمها في الحب ، وترى أنها ناعمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شيء في الحياة وعظم حزنها وبؤسها وثقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتي على البقية الباقية من حياتها ، فدعني معها يا أبتاه عاماً آخر أو عامين أهون عليها فيهما شقاءها ، فربما كان ذلك آخر ما قدر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادىء القلب ساكن الضمير ، راضياً عن نفسي وعن عملي ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويهون وجدي عليها كلما ذكرتها أني لم أخنها ، ولم أغدر بعهدها .

فأطرق دوفال هنيهة كأنما يعالج في نفسه هماً معتلجاً ، ثم رفع رأسه ونظر إلى ولده نظرة تشبه نظرة العطف والرحمة وقال

له : لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أختك ورائي تندبك وتبكي عليك صباحها ومساءها ؛ وتحنّ إلى لقائك حنين الظامىء إلى الورود ، واعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك في هذا الشأن لا يغني عنك ولا عني شيئاً يوم يقول الناس كلمتهم التي لا بد أن يقولها غداً وربما قال كثير منهم قبل اليوم : إن أرمان دوفـال سلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس في بيت واحد ، فعد إلى نفسك يا بني واستلهم الله الرشد يلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على عقلك . ودع هذه الحياة الساقطة التي يحياها من ليست له همة مثل همتك ، ولا مجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك ، وإني تاركك الآن وحدك وذاهب عنك لبعض شأني لتخلو بنفسك ساعة تسترد فيها ما عزب عنك من صوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التي أرجو أن تكون شفاء نفسي ، ورواء غلتي .

ثم تركه ونزل فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتاباً خاصاً . ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في باريس فزارهم زيارة طويلة ؛ فلم يعد إلى الفندق حتى أظل الليل فرأى أرمان لا يزال في مكانه . فسأله : ماذا رأى ؟ فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تحدر القطر على أوراق الزهر ، وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه ، ويكشف له من خبيئة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول : والله يا أبت لو علمت أني أستطيع الحياة بدونها لفارقتها براً بك وإيثاراً لطاعتك ؛ ولكني أعلم أني إن فعلت فقد وضعت أمري في موضع الغرر [1] وخاطرت بعقلي أو بحياتي مخاطرة لا أعلم ماذا يكون حظي فيها . ولا أحسبه

---

(١) الغرر : التعرض للهلكة .

إلا أسوأ الحظين ، وأنحس النجمين ، ولو أن أحداً من قبلي استطاع أن يدفع هواه عن قلبه أو يمحو ما قدر له في صحيفة قضائه من شقاء الحب وبلائه لسلكت سبيله التي سلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لي ، فلا رأي لي في رده ، ولا حيلة لي في اتقائه ، وقد نزلت هذه الفتاة من نفسي منزلة هي منزلة الحياة من الجسم ، والغيث من التربة الفاحلة ، فإن كنت لا بد آخذي فخذ معك جسماً هامداً لا حراك به . ونبتة ذاوية لا حياة فيها ، فوضع أبوه يده على عاتقه وقال له : قم الآن يا بني واذهب لشأنك وعد إلي صباح الغد لأتمم حديثي معك ، وأرجو أن تكون في غدك خيراً منك في أمسك ، فخرج محزوناً مكتئباً يمشي مشية الذاهل المشدوه لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربة فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد هدأة من الليل ، فلم ير مرغريت في شرفة البيت تنتظره كعادتها ، فدخل عليها غرفتها فرآها مكبة على منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة . فخيل إليه عند نهوضها أنه لمح في يدها رسالة تضم عليها أصابعها ، فظنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها إليها المركيز « جان فيليب » من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها في عهدها الأول حباً شديداً ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمنيها الأماني الحسان في عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها ، فلم يحفل أرمان بذلك ومشى إليها فقبلها ، فقالت له : ماذا جرى يا أرمان ؟ قال : أرادني أبي على السفر معه فأبيت وبكيت بين يديه كثيراً فلم أنل منه منالا ، وقد أمرني بالعودة إليه غداً ولا

أريد أن أفعل لأني لا أحب حظي منه في الغد خيراً منه اليوم ، وقد أصبحت نفسي تحدثني بعصيانه ، والبقاء هنا على الرغم منه ، لأني أعلم أني قد تجاوزت السن التي يحتاج فيها الأبناء إلى إرشاد الآباء ولأني لا أعرف أحداً بين الناس يستطيع أن يرسم لي خطة سعادتي كما أرسمها لنفسي ، ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ، ونظر إليها فإذا هي مطرقة صامتة وإذا وجهها أصفر مربد كأنما قد نفض الموت عليه غباره . فقال : ما بالك يا مرغريت ؟ قالت : أشعر بألم شديد في رأسي ، وأريد الذهاب إلى مخدعي . فأخذ بيدها إليه ، وجرعها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ، ثم نامت في مخدعها نوماً مشرداً مذعوراً تتخلله أنات طويلة وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح فقالت له أرى لك يا أرمان أن تعود إلى أبيك كما أمرك وأن تعاود استرحامه واستعطافه لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت منه بالأمس ، إني لا أكون راضية عن نفسي ، ولا هانئة بحياتي ، إن لم يكن أبوك راضياً عنك... ولم تزل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها . ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة كأنما يضن بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزع ، ثم قبلها وقال لها : إلى المساء يا مرغريت . فلم ترد عليه تحيته حتى أبعد عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : أرجو أن يكون كذلك .. وتهافتت على كرسي بين يديها باكية منتحبة .

ولم يزل أرمان سائراً في سبيله حتى وصل إلى باريس فذهب إلى فندق « تورين » فلم يجد أباه هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتاً طويلاً حتى عاد بعد منتصف النهار ، وقد رقت قليلاً تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس ، فتقدم نحوه أرمان ، فحياه ، فقال له : لقد فكرت ليلة أمس في أمرك كثيراً يا بني

فرأيت أني قد قسوت عليك وغلوت في أمرك غلواً كبيراً ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان يجب علي أن أنظر إليها فإنَّ للشباب شأناً غير شأن الكهولة والشيخوخة ،، وحالاً خاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا يختلف فيها سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما تريد ، على أن تعدني بالعودة إلي في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها انقطاع حياة أو موت ، فإني إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها من النساء . فاستطير أرمان فرحاً وسروراً ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويبللها بدموعه ويقول : أعدك بذلك يا أبتاه وعداً لا أخالفه ، ولا أخيس به ، ولك حكمك ما تشاء إن رأيتني بعد اليوم كاذباً أو حانثاً .

ثم نهض يريد الذهاب فقال له : أين تريد قال : أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها ما ألم به من الروع منذ الأمس ، فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمعة كانت تترقرق في عينيه ، ثم التفت اليه ، وقال : ابقى معي اليوم يا بني فربما سافرت غداً ، ولا أعلم بعد ذلك متى أراك . فبقي معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فاستأذنه في الذهاب إلى بوجيفال فأذن له فحيّاه وخرج ؛ فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ؛ فانحدرت من جفنه تلك الدمعة التي كان يحبسها من قبل ، وقال : وارحمتاه لك أيها الولد المسكين ! .

• • •

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التي

يرجوانها في مستقبل حياتهما ، وطار بها إليها ليقاسمها إياها حتّى دنا من بوجيفال فأدهشه أن رأى البيت مظلماً ساكناً لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يتراءى فيه ظل ؛ فمشى إلى الباب فرآه مرتجاً ، فوضع أذنه على خصاصه ، فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعاً شديداً ، ويهتف باسم « مرغريت » مرة واسم « برودنس » أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال في نفسه : لعلها ذهبت إلى بيتها في باريس لبعض شأنها واستصحبت خادمتها ، ولا بد أن تعود الآن ، فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتّى مضت هدأة من الليل فلم تعد ، فحدثته نفسه بالعودة إلى باريس للبحث عنها في مظان وجودها ، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقاً غير الطريق التي تسلكها في عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حيناً ويتمشى أحياناً ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القلق المرتاع إلا حديث خيانتها وغدرها ، ولم يزل في حيرته واضطرابه حتّى رأى جذوة الفجر تدب في فحمة الظلام ، فساء ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في نفسه : ما لمرغريت بد من شأن ، ولا بد لي من المصير إليها ، والنظر في الشأن الذي شغلها ! وكان القلق والسهر قد أخذا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ؛ فمشى في طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتّى وصل إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار ؛ فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة من أشجار الحديقة يشذب أغصانها ، فسأله عن مرغريت ، فقال : إنها حضرت هنا بالأمس في منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوباً من أثواب الولائم ، فأعطتني كتاباً ، وقالت لي إذا جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عني

فأعطه إياه ، ثم ركبت عربتها هي وخادمتها وانصرفت ، قال : ألا تعلم أين ذهبت ؟ قال : أحسب أني سمعتها تقول للحوذي عند ركوبها « إلى منزل المركيز جان فيليب » ، فجمد أرمان في مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ، ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يدها بعد عودته إليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته وعاد إليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرّ نظره عليه إمراراً فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعاداً شديداً ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته فإذا هو مشتمل على هذه الكلمات :

« هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمان ، فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلا أني هكذا أردت لنفسي .. والسلام » .

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفاً ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشذب أغصانها ويتغنى في صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامي يعجبه لحنها ، وإن كان لا يفهم معناها ، فإنه لكذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت فرأى أرمان صريعاً معفراً تحت عتبة الباب ، ففزع فزعاً شديداً وظنها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقي من دقات قلبه ، فاطمأن قلباً وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجهه ويدلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالساً بجانبه ورأى الكتاب لا يزال

في يده ، فدار بعينيه حول نفسه فمرت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عينه منذ خمسة عشر شهراً يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ورسمت على ثغره أول قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : ما أبعد اليوم من الأمس ! وأنشأ يبكي بكاء الطفل الذي حيل بينه وبين ثدي أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزيه عن مصابه ، ويهونه عليه حتى هدأ قليلاً ؛ فأمره أن يستدعي له عربة ففعل . فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب ، وقال للسائق « إلى فندق تورين » فسارت به العربة إليه : حتى إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق الخاطف ، تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى : ثم راجع صورتهما في خياله فإذا هما : « جان فيليب ومرغريت » ، وكانت مركبته قد وصلت به إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائماً مختبلا ، فقال : ما دهاك يا بني ؟ ! قال : « قد خانتني يا أبتاه » . قال : ذلك ما أنذرتك به من قبل يا بني .

ثم انقضى النهار ، وجاء الليل فقضاه أرمان ساهراً في مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض في نفسه جميع أطوارها وشؤونها فلم تبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل في مراجعته إلى الأمس واليوم الذي قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كعادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المركيز في يدها عندما

دخل عليها غرفتها وضنها به ضناً شديداً ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضها عن التبسط معه في الحديث بعد ما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائرة لا تستطيع البقاء معه . وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثاني إلحاحاً شديداً في العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضياً عنه ، فاستنتج من هذا كله : أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال وأن أباه إما أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتّر عليه الرزق تقتيراً ، ملته واجتوته ، وفكرت في سبيل الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتّى أتاها بكتاب المركيز فكان هو طريق خلاصها .

ولم يزل هائماً ما شاء الله أن يهيم في تصوراته وأوهامه حتّى غلبته عيناه فهجع قليلاً : ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه وقال له : لي عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها وأريد أن أبتاعها منك بخضوعي لك ونزولي على حكمك أبد الدهر فيما سرني أو ساءني : فهل لك أن تبلغنها ؟ قال : وما هي ؟ قال : أريد أن تعطيني الساعة خمسة عشر ألف فرنك : قال : وما تريد منها ؟ قال : أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسي من دون الناس جميعاً حتّى من دونك ؛ فنظر إليه أبوه نظرة الملم بما دار في نفسه ولم يعاوده ، وأعطاه صكوكاً بالمال الذي أراد . فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتاباً طويلاً ختمه بهذه الكلمة « أما وقد عرفت أنني كنت أعيش مع امرأة عاهر ساقطة لا عهد لها ولا ذمام ، فها هي ذي أجرة لياليك الماضية مرسلة إليك » .

ثم خرج ليعد نفسه للسفر ، فقضى اليوم كله خارج الفندق ثم عاد إليه دبر النهار فوجد فيه كتاباً باسمه ففض ختامه فإذا

الأوراق التي أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فمنعه أبوه من ذلك وقال له : قد وعدتني ألا تخالفني في أمر فلا بد لك من الإذعان ... فأذعن ثم سافرا معاً تلك الليلة إلى نيس .

وكذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الوفيان والعاشقان المخلصان ، فعاد الفتى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التي كانت تأباها الإباء كله ، وتخافها الخوف الشديد ، وفي نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والحسرة عليه ما لا تليه الأيام ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام .

• • •

الأشقياء في الدنيا كثير ، وأعظمهم شقاء ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك ، ثم يغلق دونها باباً من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس باش الوجه باسم الثغر متطلقاً متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه هما : ولا كمداً !

ذلك كان شأن « مرغريت » بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ، تضيء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها مخدعها وخلا لها وجه الليل مرت أمام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب أرمان . ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم ،

ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بدأ من مماذقتهم والتحبب إليهم والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبل الأفواه التي لا تشتهيها وتعتنق القامات التي لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها وتضحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتنشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق ، فكأنها في يد الناس والعود في يد المغني يقطع أوتاره ضرباً ليطرب لنغماته أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصراً لينعم بشذاها ، فتهيجها ذكرى ذلك الماضي السعيد ، وهذا الحاضر الشقي ، فتطلق السبيل لزفراتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتفي نفسها ، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين سحرها ونحرها ، ثم تأوي إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تزل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لمثلها باحتمال مثله ، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعد ما نام عنها حيناً من الدهر ، فهزل جسمها وشحب لونها وغاض ماء ابتساماتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأن نفسها عن شأن المركيز ، فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها ، ثم اختلف عليها من بعده الأخلاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها فكسدت سلعتها في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطىء أقدامها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأعوزها المال إعوازاً شديداً فمدت يدها إلى ما كان باقياً عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يف بدينها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين فأرسل إليها قليل

منهم القليل منها ، فلم يغن عنها شيئاً ، واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعتهم عنها حيناً ثم عجزت ، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها ، وأثاث بيتها ورياشه . ولوَّموا في مقاضاتها لوْماً ضاعف حزنها ومرضها ، وقضى على بقية ما كانت تضمره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها ، فنسيت العالم خيره وشره والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعد به ليلها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة منذ فارقها ولا كتب إليها ؛ فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

« تعال إلي يا أرمان راضياً كنت أو غاضباً ، فإنني مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتي ، لأفضي لك بسر الذنب الذي أذنبته إليك فيما مضى ، والذي لا تزال واجداً علي بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تعفو عني في ساعتي الأخيرة فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبري . واذكر يا أرمان أن أول عاطفة جمعت بيني وبينك وألفت بين قلبي وقلبك ، كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هي الفتاة المريضة المسكينة التي رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها . وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذي كتبته إلي قبل سفرك فقد اغتفرت لك كل ما فيه حتى قولك إنني كنت كاذبة في حبك ، طامعة في مالك ؛ لأني أعلم أن المرأة التي تكذب الناس في حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع » .

ثم لبثت تنتظر حضوره أياماً طوالاً فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزناً شديداً ، وساء ظنها به ، ووقع في نفسها أنه قد سلاهـا واطرحها ، وأصبح لا يعبأ بها ، ولا يبالي بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو شقائها ، وكانت مخطئة فيما ظنت ، فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذي أرسلته إليه مذ فارقها في العام الماضي وسافر إلى نيس ولم يستطع البقاء فيها إلا أياماً قلائل ثم ملكه الضجر وأحاطت به الوحشة ، وضاقت في وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحاً عن نفسه وتفريجاً من كربته ، فأذن له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها وأخذ يتنقل في أنحاء البلاد لم ينزل ببلدة حتى يطير به الضجر إلى غيره ، فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده ، فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها في نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه ؟ ومرغريت لا تعلم بشيء من ذلك ؛ فحزنت لخيبة أملها حزناً شديداً ، ودب اليأس في قلبها دبيب الموت في الحياة ووقع في نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من هذه الأمنية التي بقيت في يدها من بين جميع آمالها الضائعة ، فتنكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت إلى صمت طويل لا تقول فيه خيراً ولا شراً ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شيء تنكره ولا تعرفه ؛ فربما دخل عليها طبيبها وهي في أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألماً ، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم في فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون ! وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى بوجيفال فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الذاهبة ، وكان لا يزال باقياً على الصورة التي تركتها عليها يوم فارقته ومرت بغرفه وقاعاته ، وجلست

في كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبلت جميع آثاره وبقاياه ، ولثمت الكأس التي كان يشرب بها ، والزهرة التي كان يحبها ، والقلم الذي كان يكتب به ، والكتاب الذي كان يقرأ فيه ، فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها . فربما طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته في نيس ، أو يبثها ما يضمره لها في نفسه من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانيء وتستشعر في نفسها لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون في جنات النعيم ، ثم تفتح عينيها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تعود إلى بيتها في باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي أرمان في مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسه كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعها !

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

أرمان :

لم تكتب إلي ولم تأتني ، كأنما ظننت أني أريد أن أستعيد معك عهد الماضي ، وأين أنا من ذلك العهد؟ فلو رأيتني لرأيت امـــرأة ذاهبة مدبرة لا تصلح لشأن من شؤون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك : أن أراك بجانب فراشي في ساعتي الأخيرة لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبري !.

ما أنا بخائنة يا « أرمان » ولا خادعة ، فإن الرسالة التي رأيتها في يدي يوم عدت إلي من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننت ، بل رسالة أبيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة . وهذا نصها الذي لا يزال عالقاً بذهني حتى الساعة :

سيدتي :

أريد أن أقابلك غداً في منزلك في الساعة العاشرة صباحاً في شأن خاص بي وبك ، وأريد ألا يكون أرمان حاضراً تلك المقابلة ولا عالماً بها ، ولا بأني أرسلت هذه الرسالة إليك ، ولي من حسن

الرأي فيك ما يطمعني في أن يكون ما سألتك إياه سر آ بيني وبينك حتّى نلتقي .. والسلام .

دوفال

فلما قرأتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرت بما وراءها بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنك امتنعت عليه حتّى يئس منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابي ، فحدثتني نفسي أن أرفض مقابلته ، وأن أكاشفك بكل شيء ، ثم استحييت من نفسي وأكبرت أن يعتمد على رجل شريف كأبيك في كتمان سر بسيط كهذا السر فلا يجدني عند ظنه ، وطمعت في أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله مني ، فكتمتك أمر الرسالة ، وكتمتك ما في نفسي منها ، ولم أكن كاذبة في شكاتي وألمي حينما قلت لك في تلك الليلة : إنني لا أستطيع البقاء بجانبك ، وسألتك أن تقودني إلى مخدعي ، فقد قضيت في فراشي بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها في جميع ما مر بي من ليالي الهموم والأحزان ، حتّى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته ، ولكني خفت أن يزورني فيراك عندي فأصغر في عينيه ، ولا أشد علي من ذلك ، وما هي إلا لحظات قليلة حتّى وصل إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه ، فاستأذن علي فأذنت له فدخل ، فرأيت في عينيه جمرة من الغضب تلتهب التهاباً فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يحيني بيده ، ولا بلسانه . وكان أول ما استقبلني به قوله : « ماذا تريدين أن تصنعي بولدي أيتها السيدة » ؟ وظل ناظراً إلي نظراً جامداً ساكناً لا يطرف ، ولا يختلج . فعجبت لمدخله الغريب ، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضت في نفسي امتعاضاً شديداً حتّى

كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : تذكر يا سيدي أنك في منزلي ، وأنني لم أدعك إلى زيارتي ، بل أنت الذي دعوت نفسك بنفسك . ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه وبقدمه حتى دنا مني وألقى علي تلك النظرة التي اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء العاهرات وقال : لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان في يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك ، وقد أرسلت إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في استطاعته أن يمدك بأكثر مما أمدك ، ولا في استطاعتي أن أستنزل له من السماء ذهباً يمطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم ، أما أنا فإني في حاجة إلى ولدي ، لأني لم أرزق ولداً سواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مآرب الحياة . فسرت كلماته في نفسي سريان الحمى في عظام المحموم وخيل إلي أن هذا الماثل أمامي لا يحدثني ، وإنما يجرعني السم بيده تجريعاً ، وشعرت بذلة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجلدت واستمسكت ورددت نفسي على مكروهها ، وقلت له بصوت هادىء ساكن لا يمازجه غضب ، ولا نزق : يا سيدي ، نعم إنني أحب ولدك ، ولكني لا أطمع فيه ، ولو كان الذي يعنيني منه الطمع في ماله لفارقته منذ ثلاثة شهور أي منذ خلت يده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقته قبل ذلك لأن الذين لا يزالون يساومونني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغداً ، على أن ولدك لم ينفق علي من هذا المال

الذي تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفسه ؛ ولو استطعت أن أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكني كنت أضن به أن يداخل نفسه ما يريبها أو يؤلمها فقبلت منه هداياه الصغيرة الصغيرة التي كان يقدمها إلي من حين إلى حين إرعاء عليه ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي كما تقول لأصبحت غنية موفورة ، لا أحمل هماً من هموم العيش ، ولا أعاني من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم ؛ فإنني — لو تبينت أمري — امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلاي ومركبتي وأثاث بيتي ، وليتها كانت خالصة لي ، فقد امتدت يد الضرورة إليها منذ عهد قريب فأصبح الكثير منها سلعة في يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ، وإن أبيت إلا أن أتعرف ذلك بنفسك فسأطلعك على ما كتمته عن الناس جميعاً حتى عن ولدك ، ثم قمت إلى خزانة أوراقي فجئته منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعت من جواهري وخيولي وأثاث بيتي ورهن ما رهنت منها ، فظل يقلبها بين يديه ساعة ويتأمل في تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إلي مطرقاً صامتاً لا يقول شيئاً ، ومد يده إلى كرسي بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله ، وطارت عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلله من قبل فعدت إلى حديثي معه أقول : على أنني يا سيدي غير شاكية ولا ناقمة ، فقد مر بي من نوب الأيام وأرزائها ما محا من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة وأنساني جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام ، وسواء لدي الفقر والغنى ، والحلي والعطر ، وسكنى القصر وسكنى الكوخ ، وركوب المركبة ، وركوب

النعل ، وكل ما أرجوه من حياتي وأضرع إلى الله ، وإليك فيه ، أن أرى أرمان يقاسمني هم الحياة وبؤسها ، ويعينني على شدتها ولأوائها حتى يقضي الله في أمري بما هو قاض ، فإن كان في الأجل فسحة قضيتها في شكرك وحمدك ، والإخلاص لك في سري وعلني ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ساعتي الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضارعة مبتهلة أن يبارك لك في نفسك ، وفي أهلك ، وأن يسبل ستره الضافي عليك في حاضرك ومستقبلك .

ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت في تلك الساعة عن أن أملك من دموعي ما كنت مالكة من قبل ، فظللت أبكي وأقول :

رحماك يا مولاي ، إنني امرأة بائسة مسكينة قد قضت علي بعض ضرورات العيش في فاتحة حياتي أن أقف على حافة تلك الهوة التي يقف على رأسها النساء الجائعات فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت نفسي على الرضا بتلك الحياة التي قدرها الله لي فلم أستطع ، فأصبحت في منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعم بعيش النساء الشريفات ، ولا ميتة القلب أسعد سعادة الفتيات الساقطات ، وقد وجدت في ولدك الرجل الوحيد الذي أحبني لنفسي ، ومنحني من وده وإخلاصه ما ضن به علي الناس جميعاً ، فأنست به أنساً أنساني سقوطي وعاري ، وحبب إلي الحياة بعد ما أبغضتها وبرمت بها ، وكدت أقضي على نفسي بالخلاص منها ، فلا تحرمني جواره ، ولا تفرق بيني وبينه ؛ فإنك إن فعلت أشقيتني وبرحت بي ، وملأت حياتي هماً وكمداً ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبني سعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلي .

ماذا يكون مصيري غداً إذا أصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا صديق لي ، ولا معين ؟ أأعود إلى حياتي التي أبغضها وأخشاها فأعود إلى جرائمي وآثامي ؟ أم أقتل نفسي بيدي فراراً من شقاء الدنيا وبلائها فأختم حياتي بأقبح ما ختم امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فأمدد إلي يدك البيضاء وأنقذني من هذه الهوة العميقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذني منها سواك .

أنا أعلم أنك في حاجة إلى ولدك ، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكني أعلم أنك شفوق رحيم لا تأبى أن تتصدق على امرأة مريضة بائسة مثلي بساعات من السعادة تتعلل بها في مرضها الذي تكابده حتى يوافيها أجلها ؛ لا أسألك يا سيدي مالاً ، ولا نسباً ، ولا عرضاً من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معي فإن بقائه بقاء حياتي وسعادتي . فتصدق بهما علي إنك من المحسنين .

وهنا شعرت كأنه يتحرك في كرسيه فخفق قلبي خفقاناً شديداً ، ثم رفع رأسه ونظر إلي نظرة أهدأ ناراً وأقصر شعاعاً من نظرته الأولى وقال : ومن أين تعيشان ؟ .

قلت : عندي بقية من جواهري وحلاي سأبيعها وأعيش بثمنها معه في زاوية من زوايا بأريس عيش الفقراء المقلين ، لا يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نغنى بها عن كل سعادة في هذا العالم وهناءه .

قال : ذلك هو الشقاء بعينه ، فإن الحب نبات ظلي تقتله شمس الشقاء الحارة ، وكل سعادة في العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى ظلاله فهي كاذبة لا وجود لها إلا في سوانح الخيال .

أنتما اليوم سعيدان لأن في يدكما مالا تعيشان به ؛ ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهضبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فإذا خلت يدكما من المال ، وحرمتما هذا النعيم الذي تنعمان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب ولذائذه ، وسرى إلى نفسيكما الضجر والملل ، وربما امتدت تلك السآمة بينكما إلى أبعد غايتها .

إن للحب فنوناً من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تنال منه الصروف والغير ، ولو عقلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطائرة ، تأتي به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب به المثل مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها فإن النفس تطالب حياتها وبقاءها . قبل أن تطلب لذائذها وشهواتها !.

أنا أعلم من شأن ولدي يا سيدتي ما لا تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التي تظنين ، وهو فتى فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تغني عنه ولا عنك شيئاً ، وما أنا بذي ثروة طائلة أستطيع أن أحفظ له بها زمناً طويلاً هذا العيش السعيد الرغد الذي يعيشه اليوم في باريس ، فلم يبق بين يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه ، واسمحي لي يا سيدتي أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون علي وعليه أن يقول الناس إن خليلة أرمان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التي أهداها إليها عشاقها الماضون لتنفق ثمنها عليه .

سامحيني يا بنيتي ، واغتفري لي حدتي وخشونتي ، فإن شديداً

جداً على والد شيخ مثلي أن يرى ولده الذي وضع فيه كل آمال بيته يهوى أمام عينيه في هذه الهوة السحيقة التي لا قرار لها دون أن يطير قلبه خوفاً وهلعاً.

أنه مذ عرفك نسيني ونسي أخته ، فلا يذكرني ولا يذكرها ، وقد مرضت منذ شهور مرضاً مشرفاً فكتبت إليه أن يأتي ليعودني فلم يفعل ، ولم يرد على كتابي ، أي أنني كنت على وشك أن أموت ولا أراه ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبري بحسرة لم يحمل مثلها في صدره راحل عن الدنيا من قبلي .

أنت صادقة يا سيدتي في قولك إنه لم ينفق عليك جميع ما كان بيده من المال لأنني علمت بالأمس أنه قامر منذ عهد قريب ، وخسر في مقامرته كثيراً ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئاً من ذلك فما يؤمنني إن أنا تركته في هذا البلد ألا يستمر في هذه الغواية الجديدة التي خطا الخطوات الأولى في طريقها ولا يخسر في بعض مواقفه خسارة عظمى لا أجد لي بداً من أن آخذ بيده فيها ، فأقدم إليه ذخر شيخوختي ، ومهر ابنتي فنهلك نحن الثلاثة في يوم واحد ؟

من أين لك يا بنيتي أنه إن طال عهده بك لا يملك ، ولا تمتد عينه إلى امرأة سواك ، فتكون فجيعتك فيه غداً شراً من فجيعتك فيه اليوم ؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعاً يوماً من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولى حياة الأنس والاجتماع ، والضوضاء واللجب ، وهو فتى غيور مستطار ! فربما أنفت نفسه أن يزاحمه فيك مزاحم ، وربما امتدت يده بشر إلى ذلك الذي يزاحمه ، فتنازلا ، فأصابته من يد منازله ضربة تقضي على حياته وتفجعني فيه ؟

كيف يكون موقفك يا سيدتي غداً إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاكل المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلام نفسك ولواعجها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟

ثم ارتعش ارتعاشاً شديداً ، وظل نظره حائراً مضطرباً كأنما يخيل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذي يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ونظر إلي نظرة هادئة مملوءة عطفاً وحناناً وأنشأ يقول :

مرغريت ؟ أنت أعظم في عيني مما كنت أظن ، وأكرم نفساً من أولئك النساء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفذاذ الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، ولو قسم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاها .

لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حياً كتمانك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك واحتفاظك بسره في ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكوتك وإغضاءك وأنت في منزلك ، وموضع أمرك ونهيك ، أمام حدتي وخشونتي وجنون غضبي ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدي — من حيث لا يعلم — وفاء له وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها .

لقد كانت ضحيتك التي قدمتها لولدك بالأمس عظيمة جداً ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحية أعظم منها لابنتي ولا معتمد لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

لقد تركت «سوسان» ورائي تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض لأن خطيبها الذي تحبه حباً جماً قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالاً عظيماً ، ووصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات كثيرة ، وتبكي كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلمت موضع دائها ، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لي سبباً غريباً لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فإن أذنت لي حدثتك حديثه .

فخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحسست بالشر يدنو مني رويداً رويداً ، إلا أنني تماسكت وقلت له : نعم آذن لك يا سيدي ؛ قال : لقد أجابني الرجل على سؤالي بقوله «إن أسرتي أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلها من جميع وجوهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك في باريس ، إنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومساً معروفة هناك معاشرة تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمح لنفسي إن يكون مثل ولدك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وفسولتها (١) : صهراً لولدي ولا عاراً على ابنتي» . فاستقبلت خشونته وجفاءه بصبر واحتمال ، لأن الخوف على ابنتي شغلني عن الغضب لنفسي وقلت له : أواثق أنت مما تقول ؟ فأدلى لي بما أقنعني ، فلم أر بداً من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبت في

---

(١) الفسولة : الانحطاط وضعف المروءة .

أمر الخطبة شيئاً حتى أسافر إلى باريس وأعود منها .

ذلك ما حملني على المجيء إلى باريس . وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعاً حتى عن ولدي أرمان ؛ فانظري ماذا تأمرين ؟

وهنا أطرق برأسه طويلاً ، ثم رفعها ، فإذا عبرة تترقرق في عينيه ، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسيت مصابي بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة لا يقول لي شيئاً ، ولا أدري ماذا أقول له : حتى هدأ ثائره قليلاً فمد يده إلى يدي فأخذها بين ذراعيه ، وعاد إلى حديثه يقول :

مرغريت : إن حياة ابنتي بين يديك ، فامنحيني إياها تتخذي عندي يداً لا أنساها لك حتى الموت .

إنني لا أستطيع أن أراها تموت بين يدي . ولو تم ذلك لمت على أثرها حزناً وكمداً ، وضمنا في يوم واحد قبر واحد ؛ لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقياً في نفسي حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابنتها وصورتها الباقية عندي من بعدها .

إنني أحبها حباً جماً ، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ، فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت !

إنك لا تعرفينها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ولرحمتها كما أرحمها ، ولفديتها بما تستطيعين رأفة بها وإشفاقاً عليها .

إنها جميلة جداً ، وبيضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طهارة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحي لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة فإنها لا تستحق الشقاء .

إنها اليوم تعيش بالأمل الذي أودعته قلبها يوم سفري ، فإن عدت إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل ، والقضاء النازل .

إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصة في حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعي ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحي حبك من أجله ، ومن أجل مستقبله ، فإلا تفعلي ذلك من أجله ، فافعليه من أجلي .

لقد قلت لي إنه الرجل الوحيد الذي أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبادليه هذا الحب ، بل كوني خيراً منه فيه ، وليكن عزاؤك عملا تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيداً من بعدك ، وأنك قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخاً حزيناً . وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط على كرسيه بين يدي ، وقال بنغمة المشرف المحتضر :

ارحميني يا مرغريت ، واشفقي على ضعفي وشيخوختي ، وتصدقي علي بمستقبل ولدي ، وحياة ابنتي .

ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فألقى رأسه على كرسيه الذي كان جالساً عليه وانفجر باكياً .

• • •

آه لو رأيتني يا أرمان في موقفي هذا ورأيت لوعتي وتفجعي

ودموعي المنهمرة في خدّي انهمار الديمة الوطفاء رحمة بأبيك وإشفاقاً عليه !

لقد كان يتكلم فتسيل مدامعي مع حروفه وكلماته ، كأنما هو ينشد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها !

إن العظيم عظيم في كل شيء حتى في أحزانه وآلامه ، فلقد كان يخيل إلي وأبوك يبكي بين يدي وينتحب أن كل دمعة من دموعه تستنزل غضب الله على الأرض ، وكل زفرة من زفراته تلتهب بها آفاق السماء .

لقد أكبرت في نفسي جداً أن يجثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة ساقطة مثلي ، واستحييت من ذلك حياء تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمي فسخت فيها أبد الدهر .

وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفي مصابه ، وفي قصته التي قصها عليّ ، وفي الشأن الذي لي فيها ؛ فعلمت أني قد أصبحت شؤماً على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أبيها وابنها وابنتها ، فثقلت نفسي عليّ ، وسمج منظرها في عيني حتى خيل إلي أنها لو كانت حاضرة بين يدي لرميت بها من حالق إلى حيث لا يجمعني وإياها مكان بعد اليوم . ثم قلت في نفسي : إن حياتي الماضية التي قضيتها في الشرور والآثام قد قطعت عليّ طريق الشرف ، فلا حق لي في أن أطمع في حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذي اقترفته في ماضي قد أثمته وحدي فلا بد لي أن أستقل بعبئه دون أن ألقيه على عاتق أحد غيري ، فإن كان مقدراً عليّ أن أموت موت النساء الساقطات ،

فذلك لأنني إمرأة ساقطة ، أو ألاقي في مستقبل حياتي شقاء وآلاماً ، فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضي وثمرته الطبيعية .

هنا ذكرتك يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أنا التي سأتولى قتل نفسي بيدي ؛ لأن الطريق التي لا طريق غيرها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته ، أن أقاطعك وأغاضبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة ، وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرف عني انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسي بين فراقك وغضبك في آن واحد ، وذكرت أن لا بد لي متى فارقتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضها وأمقتها ، لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتى اليوم ، ولأني في حاجة إلى بسطة من العيش أستعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني ، فدارت هذه الخواطر في رأسي ساعة ، وطالت دورتها حتى كادت تغلبني على أمري ، ثم وقع نظري على وجه أبيك المخضل بدموعه فتجلدت وجمعت أمري ومضيت قدماً لا ألوي على شيء مما ورائي .

لقد كان شديداً علي جداً أن أفارقك يا أرمان ! ولكن كان أشد علي منه أن أرى أباك يبكي بين يدي ، وأن أكون سبباً في موت أختك أو شقائها .

إنني أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس ، ولقد كان يخيل إلي وأبوك يحدثني عن أختك وشقائها أنني أراها من خلال دموعي طريحة فراشها ، وهي تمد يدها إلي ضارعة متوسلة وتقول : أنقذيني يا سيدتي وارحمي ضعفي وشبابي .. فأجد لكلماتها

من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأني .

إنني حرمت في مبدإ حياتي سعادة الزوجية وهناءها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يهيج حزني ، ولا يستثير كامن لوعتي مثل أن أرى بين الناس فتاة محرومة السعادة مثلي .

إنني أحب وهي تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ؛ فلأمت أنا فداء عنها ، لأنها أختك ، ولأنها لم تقترف في حياتها ذنباً تستحق بسببه الشقاء .

وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هانئة من بعدي وتراءى لي شبحها ، وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل . وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها . طار قلبي فرحاً وسروراً وهان علي كل شيء في سبيل غبطتها وهنائها .

نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدة جداً ، لا يقوى عليها قلبي . ولكني سأحتملها بصبر وسكون ؛ لأن أباك سيصبح راضياً عني . ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سر تضحيتي ، فتحبني فوق ما أحببتني ! ولأن أختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبها ؛ وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان .

جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضي ذنوبي وآتيها ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدي .

قمت من مكاني كأني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعاً ومشيت إلى أبيك كما يمشي الحائن[1] إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت بيده ، فاستفاق من غشيته ونظر إلي ذاهلاً مشدوهاً . فقلت له : أتعتقد يا سيدي أنني أحب ولدك ؟ قال : نعم ، قلت : حباً هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتمل ؟ قال : نعم . قلت : وأن هذا الحب هو كل آمالي وسعادتي ، وما أملك في الحياة ؟ قال : نعم يا بنيتي ، قلت : قد ضحيته من أجل ابنتك فعد إليها وبشرها بسعادة المستقبل وهنائه وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم تترك في يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك .. تموت الآن من أجلك ، فاسألي الله لها الرحمة والغفران .

فتهلل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إلي فأنساني سروره واغتباطه ألم الضربة التي أصابت كبدي ، واستحال حزني واكتئابي إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم ير في وجهي في تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واغتباطه .

وهنا شعرت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا « برودنس » تشير إلي بيدها . فذهبت إليها فأعطتني كتاباً جاء به البريد فقرأت عنوانه فإذا هو بخط المركيز « جان فيليب » فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، ووقع في نفسي أن الله قد أوحى إلي بما أفعل ، فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبي كأنني أخاف أن يعرض لي في طريقي ما يزعزع عزيمتي ، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه في بطاقة صغيرة هذه الكلمة « سأتعشى عندك الليلة » ، ثم أعطيتها برودنس لتلقيها في صندوق البريد ، وعدت إلى أبيك فوجدته

---

(١) الحائن : الذي حان هلاكه .

حيث تركته ، فقلت له : إن أرمان لا يعلم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين نلقاه ، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لا يشك في أني صاحبة الرأي فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غداً أنني قد اتصلت برجل غيره فيرى أنني قد خنته وغدرت بعهده فلا يجد له بداً من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه مني ، وربما تألم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيبلى حبي في قلبه ، كما يبلى كل حب في كل قلب ، غير أن لي عندك طلبة واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لي بها ؟ قال : نعم أسمح لك بكل شيء ، قلت : إني مريضة مشرفة ، وإن العلة التي أكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان في اليوم الذي تعلم فيه أنني قد أصبحت على حافة قبري أن يأتيني لأراه وأودعه الوداع الأخير وأعتذر له عن ذنبي الذي أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة ... فنظر إلي نظرة دامعة وقال : وارحمتاه لك يا بنيتي ، أنني أعدك بما أردت ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء ... ثم حاول أن يعرض علي شيئاً من المعونة فأبيت ذلك إباء شديداً ، وقلت له : إنني لم أبع نفسي يا سيدي بيعاً ، بل وهبتها هبة ، فأخذ رأسي بين يديه وقبلني في جبيني قبلة كانت خير جزاء لي على تضحيتي التي ضحيت بها وودعني ومضى .

فما أبعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتي فجمعت ثيابي ، وما بقي لي من حلاي ووضعتها في حقيبتي . وسافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبت إلى منزلي هناك فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذي تعلمه . والله يعلم كم سكبت من الدموع ، وكم وقف قلبي بين كل كلمة ، وما يليها أثناء كتابته حتى أتممته ، فأعطيته حارس

المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم ذهبت للوفاء بعهد المركيز .

أما حياتي مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئاً عليك منها سوى أن أقول لك : إنه لم ير في المرأة التي كان يتخيلها ، ويمني نفسه بها ، ولم أر فيه الرجل الذي يؤنسني ويخلط نفسه بنفسي فافترقنا فأصبحت لا أعرف لي في العالم صديقاً صادقاً ، ولا كاذباً .

هذه قصتي يا أرمان كما هي ، وهذا ذنبي الذي أذنبته إليك .. فهل ترى بعد ذلك أني خائنة أو خادعة ؟

قلبي يحدثني أني سأموت قبل أن أراك ، وأملي يخيل إلي أن ما في نفسك من الموجدة علي لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وأنك ستعود إلى باريس في الساعة التي ينعاني لك فيها الناعي ؛ لتزور قبر تلك المرأة المسكينة التي تولت سعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها .

فهأنذا أكتب هذه المذكرات ، وأتركها لك عند برودنس لعلك تقرأها في مستقبل الأيام فتنظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة فتصدق ما فيها وتعفو عني ، فينير عفوك ظلمات قبري ، ويؤنس وحشة نفسي .

* * *

٣ يناير ١٨٥١

أين أنت يا أرمان ؟ أنت بعيد عني جداً ، بعيد بجسمك وبقلبك ، لأنك لم تهمل كتابي الذي كتبته لك ودعوتك فيه لزيارتي وسماع اعترافي الأخير إلا لأن ما كان في نفسك من العتب والموجدة علي قد استحال إلى نسيان وإغفال ، فأصبحت لا تذكرني كما يذكر المحب حبيبه ، ولا تعطف علي كما يعطف الصديق على صديقه ، فليكن ما أراد الله ولتدم لك تلك السعادة التي تنعم بها بين أهلك وقومك ، فإني غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شيئاً ، ولا حاملـــة لك في نفسي إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما تأتي ، وما تدع .

لي عدة أيام لم أر فيها أحداً من الناس ؛ لأن الطبيب منعني من الخروج ، ولأن أصدقائي الذين كانوا يعرفونني فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتي بإرسال بطاقاتهم إلي مع خادمتي ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحاً وسرورا ، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين .

ولا أدري لم لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا زياراتهم ؟ فقد كانوا يظنون أنهم سيرونني بينهم في مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلح للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدونني من قبل ؛ فهم في ظنهم مخطئون .

لقد أحسنوا فيما عملوا ، فإنني أصبحت لا آنس بأحد في العالم سوى نفسي ، ولا آنس بنفسي إلا لأني أستطيع متى خلوت بها

أن أسائلها عنك فتذكرني بك وبتلك الأيام السعيدة التي قضيتها معك في بوجيفال ، وذكرى تلك الأيام هي العزاء الباقي لي عن جميع ما خسرت يدي .

ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التي أكابدها ، فلقد تمر بي ساعات أعتقد فيها أن الألم الذي أكابده إنما هو ألم النزع ، وأنني في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، فإذا استفقت قلت في نفسي : هذا ألم المرض ، وقد عجزت عنه ؛ فمن لي باحتمال ألم الموت ؟

على أن نفسي تحدثني أحياناً أنه إن قدر لي أن أراك بجانبي في يوم من الأيام برئت من مرضي ، وتراجعت نفسي وعدت إلى راحتي وسكوني ، فهل يقدر لي الله ذلك ؟

لا أعلم ؛ فالمستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد .

* * *

٢٤ يناير ١٨٥١

لم أفارق سريري منذ أيام طوال إلا صباح هذا اليوم ، فجلست قليلاً بجانب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة العامة فوقع نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين مغتبطين ، ولم أر بينهم من وقع نظره إلى نوافذ غرفتي مرة واحدة كأنما يمرون ببيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل .

ما أشد وحشتي ! وما أضيق صدري ! وما أثقل هذا الجدار الذي يدور حولي ؟

لا أطيق النظر إلى سريري ؛ لأن نفسي تحدثني أنه سيكون عما قليل سلم قبري ، ولا الوقوف أمام مرآتي ؛ لأنها تحدثني عن نفسي أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشراف من نافذتي لأنها تذكرني بحياتي الماضية السعيدة التي حيل بيني وبينها ، فأين أذهب وكيف أعيش ؟

لا آكل إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلا منظراً متكرراً ، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخادمتي حينما يسألها عني صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسئمت وأصبحت أشعر أن نفسي سجينة في صدري ، سجن جسمي في غرفتي ، وربما مرت بي ساعات يقف فيها ذهني عن التفكير وخاطري عن الحركة ، وينقطع ما بيني وبين يومي وأمسي وغدي وكل شيء في الحياة حتى نفسي .

السعال يهدم أركان صدري هدماً ، والنوم لا يلم بعيني إلا قليلا ، والطبيب يعذبني بمشارطه وضماداته[1] عذاباً أليماً ، وكل يوم أشعر أن نفسي يزداد ضيقاً ، وبصري يزداد ظلمة ، وأن الحياة تبعد عن ناظري شيئاً فشيئاً ، حتى أكاد أحسبها شبحاً من الأشباح النائية فمتى ينقضي عذابي ؟ !

• • •

٣٠ يناير سنة ١٨٥١

سمعت صباح اليوم لجباً كثيراً في فناء المنزل فسألت برودنس :

---

(١) المشارط : جمع مشرط بالكسر ، وهو ما يشرط به الجلد لاستفراغ الدم . والضمادات : العصابات توضع على العضو المجروح أو المكسور .

ما الخبر؟ فذهبت وعادت إلي تبكي وتقول: إنهم يحجزون أثاث المنزل يا سيدتي، فقلت: دعيهم يفعلوا ما يشاؤون، وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مندفعين متصايحين، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احتراماً لصاحبة المنزل، أو يخفض صوته إشفاقاً على المريضة المعذبة، فمشوا يسجلون كل ما وقع نظرهم عليه، وخفت أن يسجلوا دفـتر مذكراتي فأشرت إلى برودنس أن تخفيه عنهم ففعلت، فحمدت الله على ذلك، ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد الدائنين حجزه، وقال إنه ثمين، سيكون له يوم البيع شأن عظيم، فأفهمه الحاجز أن القانون يستثنى الأسرة وفرشها، وألقى في أذنه كلمة أحسب أني سمعته يقول فيها: إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها، ثم انصرفوا بعد ما تركوا على باب بيتي حارساً لا يفارقه ليلـه ونهاره، فكتبت إلى «الدوق موهان». وهي أول مرة كتبت إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه. وأشكو له ما نالته يد الأيام مني وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عليه أن يأتي لزيارتي، ففعل فبكى عندما رآني، ولا أدري هل بكاني أو ذكر عند رؤية مصرعي مصرع ابنته الأخير فبكاها، ثم قضى بجانب فراشي ساعة مطرقاً صامتاً لا يحدثني إلا قليلاً ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة، ثم ذهب وترك في يد برودنس ضمة أوراق استبقت بعضها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر..

لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن الطبيب ما زال يلح على جسمي بالفصد حتى أوهاه واستنزف دمه، فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم.

* * *

٢ فبراير سنة ١٨٥١

إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهنؤها ، فقد وصل إلي من أبيك كتاب هذا نصه :

سيدتي :

إني أتوجع لك توجعاً شديداً ، فقد علمت بالأمس من بعض الوافدين إلى « نيس أنك مريضة مرضاً شديداً منذ شهرين ، وأنك لا تخرجين من منزلك إلا قليلا ، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيراً بما قاسيت من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي ، وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يوماً وأصبحت هانئة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وأنها وإن لم تكن تعلم من امر تلك القصة التي نعلمها شيئاً فقد قلت لها : إن بعض الناس —ولم اسمه لها— قد ضحى بنفسه وبسعادته في سبيل سعادتك وهنائك ، فلا تتركي الدعاء له في جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة ، فهي لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها .

أما الكتاب الذي أرسلته إلى أرمان في أوائل الشهر الماضي فلم يصل إليه إلا اليوم لأنه منذ فارقك وسافر إلى « نيس » لم يستطع البقاء فيها إلا بضعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرق حزيناً مهموماً من اجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التي يقيم فيها فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفتها منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتاباً أطلعه فيه على قصتك وأقول له إنني لا أرى مانعاً يمنعني بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيها ما

شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك في عهد قريب .

أرسلت إليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبليها مني ، وأن تنظري إليها بالعين التي تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذي يحبها ويجلها ، فإن فعلت أحسنت إلي بذلك إحساناً عظيماً .

ي الآمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .

« دوفال »

فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور في قلبي لم اشعر بمثلها مذ فارقتك حتى اليوم فقد علمت أن سوسان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنك لا تزال تحبني ، وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتبك ، وأنني سأراك عما قليل ، وتلك آمالي في الحياة .

أما الهدية التي آرسلها إلي أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أرادها فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إلي .

• • •

٣ فبراير سنة ١٨٥١

أستطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ؛ لأن السرور الذي تركه كتاب أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبي إنك اليوم خير منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرجي في مركبتك

إلى بعض المتنزهات ساعة ، ثم عودي ، فخرجت إلى غابات « الشانزلزيه » فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متهللين مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة محرومة منها مثلي ، فلم أحسدهم على نعمتهم التي آتاهم الله ، بل دعوت لهم لبقائها ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزناً شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارفي الماضين قد مروا على مقربة مني ، ولم يعرفوني ، ورأيت أحدهم ينظر إليّ ، وقد مر بجانب مركبتي نظر المتخيل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عني ومضى لسبيله ، وقد استقر في نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التي يعرفها .

فعلمت أني قد تغيرت تغيراً عظيماً ، وأن مرآتي ما كانت تكذبني حينما تحدثني عن نحولي واصفراري ، واستحالة صورتي ، بل صدقتني كما صدقني الناس .

ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجابها فعدت إلى منزلي ، وقد زال من نفسي ذلك الخاطر الذي أحزنني ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أنني سأراك عما قليل .

وسينقضي بلقائك عهد بؤسي وشقائي ..

* * *

٧ فبراير سنة ١٨٥١

ما أحسب أنك مدركي يا أرمان ، فقد بلغت بي العلة منتهاها وأصبحت لا أجد الراحة في قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي ، وكأن

حجراً من الأحجار العاتية ممتد على صدري يمنعني التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريري إلى مكتبي فأمرت برودنس أن تأتيني بمحبرتي ودفتري حيث أنا ، فجاءت بهما إلي ، فأنا الآن أكتب إليك وأنا في فراشي ؛ فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟

• • •

١٠ فبراير سنة ١٨٥١

أملي في الحياة ضعيف جداً ، ها هو الموت يدنو مني رويداً رويداً ، لم تأت إليّ حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أني سأموت قبل أن أراك ، إن الموت مخيف جداً يملأ قلبي رعباً وهولا ، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدي تلك الحفرة الموحشة المظلمة التي لا أنيس لي فيها ولا سمير ، لم أتمتع بالحياة طويلاً وكانت كل سعادتي فيها آمالاً وأحلاماً ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئاً من آمالي وأحلامي ، ما أحلى الحياة وأمر فراقها ، لم أنل منها طائلاً ، ولكني لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الذين يعمرون في الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا ، أما أنا فإني سأموت في ربيع حياتي ، وسيموت ذكري في الساعة التي أموت فيها ، وكأني لم أعش في الحياة يوماً واحداً ، واأسفاه على ما فرطت في حياتي الماضية ، إنني أدفع اليوم ثمن ذنوبي وآثامي أضعافاً مضاعفة ، لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة ولا أمد عيني إلى ما تقصر عنه يدي فلم أفعل ، فهأنذا لا أسيغ المضغة ولا الجرعة ، ولا أجد السبيل إلى العيش على أية صورة

كانت ؛ أهكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتي قريب .. ولا يبكي عليّ صديق ؟ أهكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامي ، وآمالي ؟ آه لو يمهلني الموت قليلاً فربما كنت على مقربة مني فأنظر إليك نظرة واحدة ... ثم أموت .. لا أمل لي في ذلك . فقد رأيت طبيبي صباح اليوم يلقي في أذن خادمتي ، وهو خارج من عندي كلمة فسألتها عنها فدارت حولها .. ولم تقلها .. وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة : لا أكاد أبصر شيئاً مما حولي حتى بياض الصحيفة التي في يدي .. كنت قبل اليوم أنفث الدم وحده ، والآن أنفث أفلاذ رئتي مصبوغة بالدم ، من لي بكأس من السم اشربها جرعة واحدة فأستريح من هذا العذاب الذي يساورني ، ولكن أي فائدة لي من ذلك وها هو ذا الموت يمشي إلي بأسرع مما أمشي إليه ؟ رحمتك اللهم وإحسانك فأنت وحدك العالم بمقدار ألمي وعذابي ، فارحمني وهون علي أمري ، وامنحني إحدى الراحتين .

لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدي ! .

* * *

١٤ فبراير سنة ١٨٥١

لا تحزن عليّ كثيراً بعد موتي يا أرمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائي فالقى في نفسي منذ الأمس برد الراحة واليقين ، ومحا من قلبي جميع مخاوفه ووساوسه ، فعلمت أنه قد رضي عني ، وغفر لي ذنبي ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده ، ولا أجزع من الألم ، ولا

أبكي أسفاً على الحياة ، فلا يحزنك أمري حين تعلمه ، وعش سعيداً بين قومك ، وأهلك ، وأكرم أبك فهو خير الآباء وأحبب أختك فهي أطهر الفتيات ، وأوصيك خيراً ببرودنس فهي فتاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لي ولك ، وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدي .

إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحاً أخرى تماثلها وتقابلها .. وتسعد بلقائها .. وتشقى بفراقها .. ولكنه قدر أن تضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى فذلك شقاء الدنيا .. وأن تهتدي إليها في الحياة الثانية .. وتلك سعادة الآخرة .

فإن فاتتني سعادتي بك في الأرض .. فسأنتظرها في علياء السماء .

وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة قد محا الدمع أكثرها فلم يبق منها واضحاً بعض الوضوح إلا كلمة « الوداع » .

بقيـــة المذكرات

بقلم الخادمة برودنس

١٣ فبراير ١٨٥١

لم تستطع مرغريت يا سيدي أن تكتب لك أكثر مما كتبت .. لأن الطبيب منعها الحركة .. ولو أرادتها لعجزت عنها .

أتذكر يا سيدي ذلك الجسم الغض الناعم الذي كان يموج بالنور موجاً ويشرق وراء بشرته إشراق الخمر في كأسها ؟ لقد أصبح اليوم عظماً مجلداً وهيكلاً قائماً لا يساوي ثمن النظر إليه ! .

وارحمتاه لك .. لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشعورها وليتهما ماتا معها .. فإنها لا يعذبها شيء مثل خواطرها وأفكارها .

لا يدخل من باب غرفتها داخل حتى ترفع نظرها إليه تظن أنك قد جئتها .. فإذا دنا منها ورأته أطبقت جفنيها على دمعة تنحدر من بينهما بالرغم منها .

إنها لا تتكلم كثيراً فإذا تكلمت كان أول حديثها « ألم يأت أرمان » ؟ فإذا أجبتها أن لا ... سألت عن أمر آخر تتلهى به .. أو عادت إلى صمتها مرة أخرى .

لقد رابها اليوم أن طبيبها لم يأتها ، فلما أردت أن أعتذر له عنه لم تصدقني ، وقالت « الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك

بالأمس ، فسكت .. ولم أعرف ماذا أقول .

* * *

١٤ فبراير سنة ١٨٥١

أصبح اليوم صوتها ضعيفاً جداً لا أكاد أسمعه وأظلم بصرها فهي تنظر إلي ولا تراني ، وقد أشارت إلي في الصباح مراراً أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجري منها الهواء متدفقاً ، ولكنه لا يصل إلى صدرها .

آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياتي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها ، أو بعض سنات من النوم تأوي إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلمني ويعذبني عذاباً شديداً ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة .

* * *

١٥ فبراير

بعد صمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها ونادتني بصوتها الخافت الضعيف ، فدنوت منها ، فقالت لي : أريد الكاهن فأتيني به ، فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ، فغالبت عبراتي حتى خرجت من الغرفة فبكيت ما شاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له اسم المرأة التي يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه ، وقلت له : إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين ؛ فأذعن بعد لأي وجاء معي فخلا بها ساعة ، ثم خرج ، فسألته :

أيرحمها الله يا سيدي ؟ قال : إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين ؛ فحمدت الله على ذلك .

ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى عضواً من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان في صدرها يترجح بين الصعود والهبوط .

* * *

١٥ فبراير — ساعة الغروب .

إن مرغريت تتعذب كثيراً يا سيدي ، وأحسب أنها تعالج سكرات الموت .

لم يقاس إنسان في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها .

إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تذوب لها حبات القلوب .

ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها وأضجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منهما دمعتان كبيرتان ، وكأنما أحست بي فاعتنقتني وضمتني إليها ضماً شديداً ، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزاعها وجهادها .

* * *

١٥ فبراير — نصف الليل

قضي الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جثتها التي ستذهب غداً إلى قبرها ، تلك غايتها وغاية كل حي ؛

فصبراً على قضاء الله وبلائه.

لقد هتفت باسمك كثيراً يا سيدي في ساعتها الأخيرة .. وكان آخر عهدها بالحياة أن نظرت إليّ نظرة طويلة مملوءة حزناً ودموعاً .. ثم حركت أصبعها حركة خفيفة وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذي كان ملقى بجانبها وقالت : «أرمان» ففهمت أنها توصيني أن أبلغه إليك .. ثم أسلمت روحها.

عزيز علي يا سيدتي ما لقيت من العذاب قبل موتك وعزيز علي أن تموتي ، ولا تجدي بجانبك من يغمض عينيك ويلقي رداءك عليك سواي ، وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما حملت في حياتها شراً لمحسن ، ولا لمسيء ، وذلك الصدر الرحب الذي كان يسع الدنيا بأرضها وسمائها .. فلا يضيق عنها ، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما أضمر في حياته غير الخير أوالإحسان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان.

* * *

بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت ، ثم أنارت حولها الشموع وبعثت إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه ، ومشت هي إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها ، ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شبحاً ماثلاً على باب الغرفة . فمشت إليه فإذا هو أرمان في لباس السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبة هائلة كتلك النظرة التي تسبق صرعات الجنون ، ثم استردها وألقاها عليها وسألها : من هذا المسجى على هذا السرير ؟ فبكت برودنس ، ولم تقل شيئاً ، فسقطت حقيبته من يده ، وجمد في مكانه لحظة لا ينطق ولا

يتحرك .

ثم اندفع الى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقي بنفسه عليه ، فأدركته برودنس ووقف الكاهن في وجهه ، وقال له : احترم الموت أيها الفتى ، فاختنقت عبراته في صدره وارتعد ارتعاداً شديداً وسقط مغشياً عليه ، فلم يستفق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير ، وقال : « رحمة بي أيها الناس ؛ فقد فاتني أن أودعها ، وهي حية ، فأذنوا لي أن أودعها ميتة فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغطاء عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال : الوداع يا أعز الناس عندي ، الوداع يا خير فتاة في الأرض وأشرف روح في السماء » ثم أعاد الغطاء على وجهها ، وتراجع عنها وأذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب ، ولم يمش وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق موهان ، وهو يتوكأ على عصاه ويقول في ندبه وبكائه : هأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى ، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة بائسات من ضحايا تلك المقادير .

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت رهينة قبرها وأرمان طريح فراشه يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الثاكل المفجوع ..

ثم اشتد به المرض بعد ذلك فلم تر برودنس بدأ من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ولبثوا بجانبه شهراً يعللونه ويستشفون له حتى أبل ونجا من خطره .

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعوها قبل سفرهم فبكوا حوله بكاء شديد ، وكانت سوسان أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي المرأة التي ضحت بنفسها في سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوفال إلى ولده وقال له : أتغفر لي ذنبي يا بني ؟ قال : نعم يا أبتاه لأنها غفرت لك ذنبك إليها ، ثم انصرفوا .

* * *

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات المسيو دوفال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ؛ ولكن بقيت بين جنبيه لوعة معتلجة لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها وزيارة قبرها من حين الى حين .

تمت

القِسْمُ الثَّانِي

المقتَبَس في النظرات

في أكواخ الفقراء

مضى الليل الا قليلا والظلام مخيم على الكون باجمعه ، والكواكب
تلفعة بأردية السحب ، ما يستشف منها الناظر بصيصاً ولا قبساً ،
الفضاء بحر خضم مترامي الارجاء الا انه ساكن الصفحة، هادىء النأمة،
قصر فيه قاب العين ، وتضل في تيهه اشعة النظر حتى عن نفسها ،
الغيوث منهلة متواصلة ، تهمي بقوة واحدة، وقوام واحد ، ولا تغزز
لا ترق ، ولا تضطرب خيوطها ، ولا تختلف نغمتها كانما هي شباك
تدة بين السماء والارض ، وكوخ السماك « فيليب » جاثم في بجثمه بين
لاكواخ المحيطة به ، لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل تجاهد ذبالته
جهاداً شديداً في تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حولها ، وغير مجمرة هامدة
د خبت نارها الا بقايا جمرات شاحبات قد التفت باكفانها البيضاء ،
أخذت طريقها في مدرج الفناء وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح
ضئيل بضع شبكات معلقة بالجدار كانها الأشباح الماثلة ، ومنضدة عارية

قد نثرت فوقها بضعة آنية نحاسية تلمع لمعاناً ضعيفاً في ذلك الخندس كأنها عيون الجنادب، فاذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشيةمبسوطة على الارض قد اضطجع فوقها ثلاثة اطفالمتلاصقين آخذ بعضهم بأعناق بعض ، كما تتآخذ الأفراخ في اعشاشها وكما يضم الخوف الضلوع بعضهاالى بعض ، وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جاثية على ركبتيها تصلي وتبتهل وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن يرد لها زوجها سالماً ، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتىالساعة.

وانها لكذلك إذ هبت الزوبعة هبوباً عظيما ، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازاً شديداً ، وان لوقعها الأطفال في لفائفهم . فطار قلبها فزعاً ورعباً ، وخيل اليها ان هدير الامواج ، ودمدمة الرعود ، وزفيف الرياح ، وقعقعة السقوف والجدران انما هي نذر السوء تنذرها بمصير زوجها المسكين في اعماق ذلك الاوقيانوس العظيم ، فظلت تردد بينها وبين نفسها : رب اني بائسة مسكينة لا سند لي ولا عضد ، وان هؤلاء الاطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون ان يقوتوا أنفسهم ، ولا ان يعتمدوا على حولهم وحيلتهم في شؤون حياتهم فاحفظ لي ولهم حياة ذلك الرجل المسكين الذي أسلم أمره اليك ، وأودع حياته بين يديك ، وخرج في طلب الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة فلم يعد حتى الساعة ولا ندري ما فعلت به يد الاقدار .

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصيادين وأولادهم !

إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الاكواخ الموحشة ، ويذهبون لطلب

العيش في ذلك التيه المائي العظيم الذي لا نهاية لعمقه ، ولا حد لاتساعه ولا عاصم من مخاطره ، ويحاولون انتزاع ارزاقهم من بين ماضغي تلك الأمواج الثائرة الفاغرة افواهها كالذئاب الجائعة، تحاول التهام كل ما يدنو منها ، ولعل القدر الذي نخشاه عليهم في هذه الساعة قد نزل بهم ؛ فلم تغن عنهم شيئاً تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التي يسمونها زوارق ؛ ولعلهم لبثوا ساعات طوالاً يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم ، فداروا باعينهم حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها الا بقاياها المتطايرة في مهاب الرياح ، فحاولوا أن يسبحوا اليها فأفلتت من أيديهم ؛ فنال منهم العياء ؛ فهووا الى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعاماً للأسماك التي كانوا يظنون منذ ساعة انها ستصبح طعاماً لهم .

هنالك ياتينا نعيهم فنبكي ونندب ، ونهرع الى الشاطىء والهين مدلهين ونقف امام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رد الينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا ، وأفلاذ أكبادنا ، أو تكشف عن نفسك قليلاً علنا نرى جثثهم في قاعك العميق ، فلا نسمع ملبياً ولا مجيباً .

وهنا هدأت الزوبعة قليلا ، وخفتت أصوات الرياح ، فسكن بعض ما بها ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها في السماء لترى كم بقي بينها وبين الصباح ، وكان الظلام لم يزل حالكاً والمطر لم يزل منهلا ، فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من

مقبل يتقدم ، أو شبح يتحرك فلم يقع نوره الا على كوخ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة ، فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة « جانت » التي مات زوجها غريقاً منذ بضعة شهور وخلف لها اطفالاً صغاراً تقاسي الآلام الشداد والأهوال العظام في تدبير عيشهم ، وتقويم أودهم ، فمر بخاطرها أن تزورها وتتعرف حالها ، لأنها كانت تعلم أنها مريضة مدنفة ، وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناء عظيماً ، وأقرب ما تكون النفوس إذا جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، فأخذت طريقها الى ذلك الكوخ حتى بلغته ، فوقفت على بابه وقرعته مراراً فلم يرد عليها أحد . فدفعته ففتح فدخلت رافعة مصباحها أمامها فانار لها ما حولها فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها ، واستوقف دقات قلبها ، وأمسك الدم عن جريانه في عروقها .

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوحة ، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الأخرق فتبلل كل شيء فيه . ورأت فراشاً قذراً من القش قد رقدت فوقه الأرملة « جانت » رقدة ساكنة جامدة لا حس فيها ولا حركة فدنت منها ولمستها بيدها فإذا هي ميتة ، وإذا قطرات من الماء تنحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالي الممزق ، فوقفت امام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت :

هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض ، وهذا مصيرهم الذي يصيرون اليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمناً طويلا ، انهم يعيشون في هذا العالم

مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم .

ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير اولادي غداً هـذا المصير الذي اراه الآن وقد لا تدخل عليّ في تلك الساعة جارة من جاراتي تراني وترثي لحالي كما أرثي لحال هؤلاء المساكين ؟

ثم خلعت رداءها فاسبلته على جثة الميتة ، ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشها وجهاً لوجـه ، وعـلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة كان شبح الموت الهـائم حول مضجعهما لا يخيفهما ، ولا يزعـج سكونهما . ورأت رداء أمهما وكانت ، تعرفه قبـل اليوم ، مسبلا عليهما فخيل اليها انها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة او ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت ثم تلتفت من حين الى حـين الى طفليها النائمـــين ، والمطر يتساقط عليهما والـبرد يعبث باعضائهما ، فتشفق عليهما ، وترثي لهما ، حتى ضاقت بهـا ساحة الصبر ، فخلعت عنها رداءها وهي احوج ما تكون اليه ، وألقته عليهما ، ثم القت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها .

وقفت ماري امـام هـذه المناظر المؤلمة ، والريح تئن انين الوالهين المتسلبين والموج يعج عجيج اجراس الموت ، وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة الى خديها الشاحبين كانما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها ، وكان الفجر قد اخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ويرسل بعض اشعته في جوانب الكوخ ، فاطفات ماري المصباح الذي بيدها ووضعته

جانباً ثم جئت بجانب الميتة وصلّت لها ما شاء الله أن تفعل ، ثم نهضت ومشت الى مكان الطفلين وحملتها برفق وسكون ومشت بها حتى بلغت كوخها ، فاضجعتها بجانب طفليها ، واسبلت عليهم جميعاً رداء واحداً.

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها : لا أدري أأصبت فيما فعلت أم أخطأت ، وإنما أدري ان المرأة التي أودع الله قلبها شعور الأمومة واحساسها لا تستطيع ان ترى طفلين طريحين على فراشهما في كوخ عار من كل شيء الا من جثة امهما فتتركهما وشانهما دون ان تعلم ما مصيرهما بعد ذلك .

ان المنظر الذي رأيته ما كان يسمح لي بالتفكير في نتيجة العمل الذي أعمله فان تبين لي بعد ذلك انني مخطئة فليس معنى هذا أني كنت استطيع تجنب الوقوع في هذا الخطا ، لأن قلبي من لحم ودم ، لا من فولاذ وصوان .

نعم ان زوجي فقير ، وان طفليّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز ، وان عناءنا في تربية اربعة اطفال سيكون ضعف عنائنا في تربية طفلين ولكن لا يجوز لنا ضناً براحة انفسنا ان نترك طفلين صغيرين يموتان — على مرأى منا ومسمع — برداً وجوعاً .

ذلك ما ساقوله لزوجي عند رجوعه ،وما احسبه قاسياً ولا متوحشاً فينكر علي فعلتي هذه ، ويأمرني بإلقائهما خارج الباب .

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه فارتعدت ، ثم علمت أنها الريح ، فاطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها

بتصوراتها وافكارها كل منهب فبكت وضحكت ، وغضبت ورضيت ، واملت ويئست ، ورحمت وقست ، وحمدت فعلتها وندمت عليها ، واحسنت الظن بزوجها ، واساءته به ، وظل فؤادها نهباً مقسما في يد الهموم والافكار حتى شعرت بسواد يتقدم نحوها ، فاستطير قلبها خوفاً ورعباً وانتبهت فاذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها ، فنهضت اليه وعانقته ، ثم ألقت نظرها على وجهه فانكرت شحوبه وتضعضعه كما انكر ذلك منها حين رآها ، وسالته كيف كان حظه الليلة ، وماذا كان شانه مع العاصفة ، فالقى بشباكه وقصبه على الارض وظل يقول لها : اما الليلة فكانت مزعجة جداً لم أر في حياتي مثلها واما الصيد فها هي يدي صفر منه كما ترين ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت وما أنا بآسف على شيء ما دمت اراكم بخير وكيف حال الوالدين؟ فارتعشت وقالت : هما بخير ، قال : ما لي اراك شاحبة صفراء . وكيف قضيت ليلتك ، فأطرقت برأسها وقالت : قضيتها في خياطة قميصين للولدين ، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الامواج خفت عليك، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله ، ثم نظرت اليه وبين شفتيها كلمة تحاول ان تنطق بها فلا تستطيع ، ثم أستنصرت جلدها وقوتها وقالت : وشيء آخر احزنني جداً ، قال : وما هو ؟ قالت : قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليل ان جارتنا « جانت » قد لبت دعوة ربها وان ولديها الصغيرين قد اصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما .

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة ، ونهض من مكانه وتمشى قليلاً ثم

ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره وظل يعبث بشعر رأسه ، فيشده حيناً ، ويمسحه أخرى ، وهي تتبعه بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه ، ثم جلس على المائدة القائمة في وسط الكوخ ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج :

رب إني وان كنت رجلا جاهلا فدما لا أستطيع ان أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما ، الا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لا أنكرها ، ولا بد ان الذين يعلمون اكثر مما أعلم ، يفهمون من شؤونك وتصرفاتك فوق ما أفهم !

نعم إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات وربما مر علي وعلى اولادي ايام لم نجد فيها ما نأتدم به، ولكن ماذا اصنع وقلبي يتألم لحال هاتين اليتيمتين الصغيرتين اكثر مما يتألم من الجوع والسغب ؟

ثم التفت الى زوجته وقال لها : إنني متألم جداً يا ماري ، ويخيل الي ان روح تلك المرأة المسكينة واقفة الآن أمام هذا الباب تقرعه وتضرع الينا ان نأخذ ولديها الينا ، ونكفلها من بعدها ، ولكن كيف العمل يا إلهي ؟ فقالت : إني أكاد اسمع هذا الصوت الذي تسمعه يا فيليب . وان ألمي عظيم كألمك ، فصمت هنيهة ثم انتفض انتفاضة شديدة ودنا منها وقال لها : ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين يا ماري ؟ قالت : بلى ، قال : ما نصنع لو أنهما بقيا حيين حتى اليوم ؟ قالت : لا شيء سوى أننا نفزع الى الله في أمرهما ، قال : فلنفزع الى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين ، وكأن ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم ، او كأنهما بعثا من

قبرهما بعد موتهما .

اذهبي اليهما يا ماري واحضريهما ، فربما استيقظا بعد هنيهة من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفاً ورعباً .

اذهبي اليهما واحمليهما برفق وهدوء دون ان توقظيهما واضجعيهما على فراش ولدينا فسيكون منظرهم جميعاً جميلا جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم في وجوه بعض وحرام عليّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن اقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التي اصبحت سيدها وعائلها ، اذهبي يا ماري وثقي ان الله سيملأ علينا بيتنا خبزاً وفحماً ببركة هؤلاء الاطفال الطاهرين .

فتهلل وجهها بشراً وسروراً ،ونهضت من مكانها ومشت الى مضجع الاطفال فرفعت عنهم الغطاء ، ونظرت الى زوجها صامتة لا تقول شيئاً ، فما وقع نظر « فيليب » على هذا المنظر الغريب حتى استطير فرحاً وسروراً وهرع الى زوجته واحتضنها الى صدره وقال لها : ما أشرف قلبك يا ماري !

يا سكان القصور : ليتكم من سكان الاكواخ ، لتستطيعوا ان تكونوا من الراحمين المحسنين .

الانتقـام

- ١ -

قضى المسيو « كابريني » برهة طويلة من أيام حياته سعيداً مغتبطاً بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه الى الناس جميعاً ، ثم نكبه الدهر نكبة عظمى ذهبت بماله وبزوجته ، فبكاهما ما شاء الله ان يفعل ثم بلى حزنه كما تبلى جميع الاحزان في قلوب الناس ، ولم يجد بداً من ان يعيش لابنته «إلين» ليتولى تربيتها واسعادها ، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل ، ثم لم يزل يجد ويجتهد في خدمة العمل الذي وكل اليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلا لذلك المصرف ، فكان يعمل فيه سحابة نهاره ثم يعود ليلا الى منزله فيرى ابنته منهوكة مضعضعة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة شؤونه فرأى ان يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها ففعل وكان سيء الحظ في اختياره ، فتزوج من امرأة فاسدة خليعة لا هم لها في حياتها سوى ترفيه

عيشها ، وتدليل نفسها ، والتقلب بين أعطـاف شهواتها ولذائذهـا ، فلم ينتفع منها بشيء ، بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه ، ولكن ماذا يعمل وقد وضعت السلة في عنقه وانتهى الأمر ، وأصبحت ابنته بعد ان كانت سيدة بيتها ،وأميرة نفسها ، أسيرة في يد امرأة قاسية داهيةتسومها انواع الخسف ، وألوان العذاب ، فـكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد ، وكانت تكتمه أباها كتماناً شديداً ضناً براحته وسكونه بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها ، رحمة به واشفاقاً عليه.

وكثيراً مـا كان يعود الى منزله في بعض لياليه حـاملا بعض دفاتر المصرف في يده ليتمم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن اتمامـه هناك ، فيجلس الى مكتبه ساهراً ليله ، مكباً على عمله ، ذائداً النوم عن عينيه حتى يغلبه على أمره فينام في مكانه والقلم معلق بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وعشرائها في بعض الملاعب أو الحانات راقصة لاهية عابثة بجميع الفضائل الإنسانية ، فاذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت اليه برفق وهدوء ، وجلست على كرسي أمامه واجتذبت اليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ثم توقظه بعد ذلـك لينـام في فراشه فيشكر لها يدهـا ومعونتها ثم يسألها سؤال المتعض المتمرمر : ألم تعد فلانة حتى الآن ؟ فتجيبه أن لا ، فيذهب الى سريره حاملا بين جنبيه من الهم والالم ما الله به عليم .

وجملة القول أنه كان شقياً منحوساً ، يسير من شئون حياته في ظلمة

داجية ، لا ينتهي بصره فيها الى مدى ، ولا يرى في سمائها نجما يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلمع من حين الى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة فيتنفس أمامه تنفس الراحة ، ويأذن لفمه ان يبتسم في ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور .

فإنه لجالس ذات يوم في غرفة مكتبه من المصرف اذ دعاه اليه مديره وأعطاه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها في دفاتر المصرف فتناولها منه وعاد بها الى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له ان فتاة من هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهي تكتم اسمها وتأبى الدخول الى هنا فاضطرب اضطرابا شديداً ومر بخاطره انها ابنته ، وان حادثاً عظيما حدث بالمنزل دعاها الى الحضور اليه في المصرف وما حضرت اليه فيه قبل اليوم ، فترك كل شيء في مكانه وخرج مسرعاً ليراها ، فاذا هي بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء والخجل ، واذا بيدها كتاب تحمله من زوجته فاختطفه منها وقرأه فاذا هي تقول له فيه : انها تريد ان يرسل اليها في هذه الساعة اربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حلية جميلة رأتها في بعض المخازن وانها ان فاتها ان تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غداً فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم وأخذ ابنته ناحية وقال لها : بلغيها انني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً ، ولا أستطيع ذلك العام كله ، ثم القى عليها نظرة العاتب لحضورها اليه في المصرف وكان لا يحب ذلك منها ، فاطرقت برأسها ولم تقل شيئاً

لأنها لا تستطيع ان تقول له ان زوجته هي التي ارغمتها على ذلك ،فتزيد همومه هما جديداً ثم عادت ادراجها .

وكان بين عمال المصرف عامل سيء الأخلاق ، فاسد النفس والضمير ، ما زال منذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله ، علـه يتوصل الى اختلاس شيء من المال ، فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم اليه بعض الأوراق فلم يجده ، ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب ، فحدثته نفسه باختلاسها ، فـدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها في جيبه ، وخرج متسللا لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه وما هي إلا لحظة حتى عاد المسيو « كابريني » وفي يده الكتاب الذي أرسلته اليه زوجته فمزقه والقى بـه في السلة ، ثم ألقى نظرة الى المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها ، فـذعر ذعراً شديداً ، واخذ يفتش عنها في كل مكان فلم يجدها ، فاشتد حزنه وهمه ، وأخذ يسال العمال والخدم عمن دخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد ، فظل يصرخ صرخات عظمى تقيم المصرف وتقعده فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث ، فافضى اليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئاً إلا انه لم يشأ ان يخبره بموضوع الرسالة التي جاءت فيها ابنته ضناً باسراره البيتية ان يعلمها أحد غيره ،فارتاب به الرجل ، وما كان يعتد عليه بسيئة قبل اليوم ، ولا يعرف له ماضياً مريباً ولكنه كان يعلم انه فقير مقل ، فظن بـه الظنون ، وقديماً كان الفقر ينبوع التهم ، ومثار الشكوك والريب ، وتركـه مكـانه وخرج الى العمال والخدم

يحادثهم في هذا الشان عله يصل الى معرفة الحقيقة ، فأخبره البواب ان الفتاة التي حضرت اليه كانت تحمل في يدها كتاباً وانه اخذها جانباً وأسر اليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً ، فازداد شكه وارتيابه وعاد اليه فوجده واقفاً في مكانه مذهولاً يقلب كفيه ، فلم يقول له شيئاً ، واخذ يدور بعينيه في انحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق عله يعثر بذلك الكتاب الذي أخبره به البواب فلم يجده فالقى نظرة الى السلة فرأى تلك المزق الصغيرة فجمعها فاذا هي الكتاب الذي يريده ، فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له : اني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها الى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلية الجميلة التي أعجبتها فدهش الرجل دهشة عظيمة ، ورد عليه ما طار بلبه ، وأخذ عليه انفاسه فصمت لحظة ، وبعد لأي ما استطاع ان يقوله له : نعم انها أرسلت الي هذا الكتاب ولكني لم أحفل به ولم أرسل اليها شيئاً ، بل رددتها رداً قبيحاً لأنني رجل فقير لا أملك هذا المقدار ، ولأنني رجل شريف لا اختلسه ، ولم يحفل المسيو « لورين» بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ولم يلبث ان رفع أمره الى القضاء فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل في السجن وكانت ابنته المسكينة في حال من الهم والحزن تستثير الأشجان وتستذرف العبرات ، أما زوجته فلم يكن يهمها في تلك الساعة شيء سوى السعي للحصول على ثمن الحلية الجميلة من طريق غير هذا الطريق .

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه ، ولا دفاع ابنته عنه ، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه واصدقائه ؛ لأن القضاة لا

يستطيعون ان يصدقوا ان رجلاً عظيما ثرياً مثل المسيو «لورين» صاحب المصرف المشهور يكذب او يلفق ، او يخطىء في فراسته وتقديره ، وان رجلاً فقيراً مقلا مثل المسيو كابريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل الى ذلك، وكثيراً ما ساقت امثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء، الابرياء والاشراف الى اعماق السجون، وقضت عليهم وعلى اهليهم القضاء الاخير ، كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ، فإن قاضي التحقيق لم يلبث ان سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي ارسلته اليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه واحاله الى محكمة الجنايات .

فاستطير عقل « ايلين » وجن جنونها فلم تجد بداً من ان تذهب الى المسيو لورين لتستعطفه لابيها ، وتضرع اليه ان يساعدها على خلاصه ، فذهبت اليه في منزله فاستاذنت عليه فاذن لها فدخلت ، فدهش دهشة عظمى حين رأى امامه فتاة جميلة بارعة ، بل آية من آيات الحسن والجمال، لا عيب فيها الا انها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلى الجمال ففتتن بها حين رآها الا انه اخطأ في الحكم عليها ، كما اخطأ من قبل في الحكم على ابيها ، فظن انه يستطيع ان يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها فاخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من اجله ، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها الا بعد حين ، لأنها لم تالف سماع مثلها قبل اليوم ، فاخذ وجهها يربد شيئاً فشيئاً ، ثم انتفضت انتفاضة الليث في غيله وألقت عليه

نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصعق في مكانه ، ولكنه كان رجلا وقاحاً متبلداً فلم يحفل بنظراتها ، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها ، فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً حتى عجزت ، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها ، فدارت بنظرها في انحاء الغرفة تتلمس سبيلا الى الخلاص ، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته فاختطفته لتهدده به ، فانطلقت منه رصاصة خطأ فاصابته في ذراعه ، فصرخ صرخة عظمى ، وما هي الا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت الى السجن بتهمة انها دخلت على المسيو « لورين » في منزله لتسأله ان يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدساً كانت تخفيه في طي ردائها وأطلقته عليه لتقتله فلم تصبه الا في ذراعه .

وقد كان في استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التي يعرفها حق المعرفة فلم يفعل ، ولوَ فعل لما ضره ذلك شيئاً وما هي الا ايام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين .

ـ ٢ ـ

دخلت « إيلين » سجن النساء لتقضي فيه المدة المقدرة لها ووضعت في غرفة واحدة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءاً عظيما من حياتها في هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته وجمدت نفسها عليه، فلم تعد تحفل بشيء في هذا العالم ولا تفكر الا في الساعة التي يقدم فيها اليها الطعام فتلتهمه

التهاماً وهي تضحك وتغني كأنما هي سعيدة هانئة ، وكأنها أبعد الناس عن الهموم والأحزان ، فذعرت إيلين حين رأتها ذعراً شديداً وتسللت الى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها ، واستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع في عينيها الا ذرفتها ، وأبت أن تتناول الطعام الذي قدمه اليها السجان ، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها فبكت ما شاء الله ان تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فعمدت الى كتاب صغير من كتب الاخلاق كانت لا تزال تحمله في جيبها ما تفارقه ، فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته فكان اول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة « العفو أشد أنواع الانتقام » فانتفضت عند قراءتها انتفاضاً شديداً وعلق نظرها بها ما ينتقل عنها ، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها ، وتستعرضها واحدة بعد أخرى ، وتفكر في المظالم التي نالتها ونالت اباها ، وما اقترفا ذنباً ، ولا جنيا على احد حتى اوردتها هذا المورد من الشقاء ، فشعرت بدبيب الشر في نفسها للمرة الاولى في حياتها ، وظلت تقول في نفسها : ان الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات إنما كانوا يعيشون في عصر غير هذا العصر ، وبين ناس غير هؤلاء الناس ، ولو انهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهليه رأي غير هذا الرأي ، ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار في كتبهم لأن العفو لا يكون انتقاماً إلا من اصحاب الضمائر الطيبة الظاهرة التي تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات أما الضمائر القاسية المتحجرة التي لا تعبأ بشيء ، ولا تخجل من شيء ، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمرداً وطغياناً .

وإنها لذاهبة هذه المذاهب الغريبة في تصوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى اليها اختلاساً حتى وقفت ورائها ونظرت في الصفحة التي تنظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التي تنعم النظر فيها فقهقهت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت «إيلين» والتفتت وراءها صارخة : ماذا تريدين يا سيدتي ؟ قالت : لا تخافي يا بنيتي ولا تراعي ، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار ، ولكنني رأيتك مستغرقة في هذا الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك: دعي الكتب وشانها لا تحفلي بها ، ولا تعولي على شيء فيها ، فإن أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شؤونه شيئاً الا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن او سكان المريخ ، بل هم قوم معتوهون ممرورون ، قضوا ايام حياتهم في معتزلاتهم الخاصة المظلمة التي لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه ، فملوا وسئموا ، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم وتلهوا بما يسري عنهم مللهم وسآمتهم ، فاخذوا يدونون هذه المبادىء التي انتزعوها من جوانب ادمغتهم ، لا من طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم ، ويقرون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها ، لا التي تتفق مع طبيعة الكون وخصائصه فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن اجرامه ، ثم يخيل اليهم انه قد افلح ونزع ، فيطلبون الى من اجرم اليه أن يعفو عنه ، قائلين له : « إن العفو أشد أنواع الإنتقام » كان الفضيلة عندهم هي الحالة الأساسية للنفوس ، وكان الإجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها لا يلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة

والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم ، وما اقصر انظارهم ، وما ابعدهم عن فهم حقائق الحياة ، وطبائع النفوس ، دعي الكتب يا بنيتي لا تنظري فيها ، وانزعي عنك همومك واحزانك وكلي الطعام الذي يقدم اليك هانئة مغتبطة لا تلوين على شيء مما وراءك . فسيأتي قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا الباب الموصد دونك فتخرجين الى الانتقام من الرجل الذي أساء اليك وساقك الى هذا المكان وتنالين منه فوق ما نال منك ، كما سافعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي ساءني وأفسد عليّ حياتي ؛ فليس العفو أشد أنواع الإنتقام – كما يقولون – بل الإنتقام أعظم ملاذ الحياة .

فهدأت نفس إيلين قليلاً ، واستطاعت ان تتناول شيئاً من الطعام الذي قدم اليها ، الا انها كانت اذا جاء الليل رأت أباها في منامها يقاسي انواع العذاب وصنوف الآلام في سجنه ؛ فتصبح باكية نادبة لا يهون عليها آلامها بعض التهوين الا ثرثرة تلك العجوز وهذيانها ، حتى نامت ليلة فرأته ميتاً على سرير من اسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مضيئتان ، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكي وتنتحب، وما هي الا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن فذهبت اليه فابلغها أن أباها توفي في الليلة في المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها ، ثم استفاقت فإذا هي في غرفة سجنها ، وإذا هي اشد عباد الله بؤساً ، وأعظمهم شقاء .

— ٣ —

قضت « إيلين » سنواتها الخمس في سجنها ثم خرجت فمشت معها" رفيقتها العجوز تشيعها الى الباب وتقول لها: لا تنسي يا بنيتي ان تنتقمي من عدوك الذي أساء اليك ، وتنكلي به تنكيلا عظيما ، وساتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوي مثلك . وهل لمثلي ومثلك في هذه الحياة الشقية البائسة عزاء غير عزاء الانتقام ."

فودعتها وانصرفت ، لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك بل لا تعلم أين تجد قوت يومها ، او المضجع الذي تأوي اليه سواد ليلتها ، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها وطبع على جبينها اسم « المجرمة » الذي خرجت به من سجنها .

ولم تزل سائرة عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب وأحست بالجوع يعبث بأحشائها ، فحدثتها نفسها بالانتحار فراراً من الألم ، وزهداً في الحياة ، وظلت تترجح ساعة بين الأنس بهذا الخاطر ؛ والنفور منه حتى غلبها على أمرها فاخذت طريقها الى النهر ؛ وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها ؛ وتهطل غيومها ؛ وتدمدم رعودها ؛ وتعصف رياحها . فاستمرت أدراجها حتى اذا لم يبق بينها وبين النهر الا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبة مقبلة نحوها من بعد يمزق نور مصباحيها المشتعلتين احشاء الظلمات فتريثت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة بها فإذا المسيو «لورين» جالساً بين بضع فتيات خليعات يعابثهن ويداعبهن، ويقهقه قهقهة عالية ترن في اجواز الفضاء ، فاختبات وراء بعض الأشجار

حتى مر ثم برزت من مخبئها تحـدث نفسها وتقول ها هو ذا المجرم سعيد في حياته ، مغتبط بحظه ، يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغص ولا يكدر حياته مكدر ، وهـا أنذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حيـاتي بجريمة ، ولم أقترف بيني وبـين ضميري إثماً أهيم في هـذا الوادي الفسيح عـلى وجهي ، لا اعرف لي ملجأ ، ولا مـاوى ، ولا أعرف سبيلا للعيش ولا مذهبـاً ، ولو عرفت لما استطعت ان انتفع بمعرفتي ، لأنني عند الناس مجرمة قاتلة ، ومن ذا الذي يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم !

لا ... لا ، لا بد أن أعيش ، ولا بد أن أنتقم ، وما دامت الشرائـع الإلهية والقوانين الوضعية قـد عجزت عن أن تنتصف للنـاس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم .

وانحدرت من طريق النهر الى طريق المدينة ، وقد ودعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء نفسها طول حيـاتها ، وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألىء الذي لبسته مـذ برزت الى الوجود حتى اليوم ــ ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب ــ واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة الى نفس أخرى غيرها لا صلة لها بها ، فلم ينحدر برقـع الظلام عن وجه الصباح حتى رآهـا الناس سائرة مـع أحد العمال المريبين هـادئة ساكنة ، باسمة متطلقة لم يبق في وجهها من دم الحيـاء الا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئاً فشيئاً الى لون البياض لتلحق بأخواتها .

— ٤ —

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك اهوة التي حفرها المجتمع الإنساني لأمثالها من الفتيات البائسات ، فظلت تنتقل من يد الى يد ، ومن مضجع الى مضجع ، وكأن الحظ الذي فارقها وتجهم لها في حياة الطهارة والعفة ، أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط والفساد ، فما هي الا ايام قلائل حتى طلعت في سماء باريس نجما ساطعاً متلألئاً تنير كل أفق تشرق فيه ، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها ، وتعبث بالباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار .

فإنها لجالسة ذات ليلة في مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المفتتنين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو « لورين » جالساً في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته ، فانتفضت حين رأته ، وثارت في نفسها ثائرة الغيظ والحنق ، وظلت تردد النظر في وجهه طويلا ، فلمحها وهي تنظر اليه ، فاعجبه منظرها البارع الجميل الا انه لم يعرفها ، فقد تغير كل شيء فيها حتى ملامحها وشمائلها ، فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعاً وذهب يرود حول مقصورتها حتى التقى بأحد اصدقائه في دهليز المقاصير فسأله عنها ، فاخبره انها السيدة « لوسى » المارسيلية الحسناء اجمل فتاة وفدت الى باريس في هذا العام ؛ فتوسل اليه ان يقدمه اليها ففعل ؛ فأحسنت ملتقاه وقد اضمرت له في نفسها شر ما يضمر عدو لعدوه وأقبلت عليه تحدثه ، وتتلطف به ؛ وتمد له الحبالة التي اعتادت ان تمدها كل يوم لأمثاله ، فما

لبثت أن وقعت من نفسه ، وملكت عليه جميع مشاعره ، ثم رفع الستار فاستأذنها وعـاد الى مقصورته ، وقد حلت من قلبه محـلا لم يحله احد قبلها .

وفي صبـاح اليوم الثاني أرسل اليها مـع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قـد دس بين اوراقها عقداً بديعاً من اللؤلؤ الثمين ، فابتهجت بـه حين رأته ، لا لأنها في حاجة الى العقود والدمالج بل لأنها علمت انها قـد وضعت يدها عـلى الزمام الذي تقوده بـه الى الهلاك ، ثم زارها على الأثر وخر جاثياً تحت قدميها مقدماً لها قلبه وحياته ، وكل ما تملك يده أي انه جثا تحت قدمي تلك الفتـاة البائسة المسكينة التي جثت تحت قدميه منذ سنوات تسأله ان يساعدها على فكاك أبيها من سجنه ، وتضرع اليه أن يغفر له ذنبه اليه ، إن كان يعتقد أنـه مذنب ، فلم يفعل ؛ ولو انه فعل لابتاع بثمن قليل لايوازي ربـع ثمن العقد الذي قدمه الآن اليها قلباً طاهراً نقياً ، لم تلوثه الذنوب والآثام ، ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش عيشاً طاهراً شريفاً مـع خير الزوجات وأفضلهن خلقـاً وخلقاً ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء ان يضنوا بالنزر اليسير من اموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطـاهرة، حتى اذا لوثتها الذنوب والآثام ، واصبحت نهباً مقسماً في ايدي الشهوات بذلوا في سبيل الوصول اليهـا جميع ما تملك ايديهم حتى شرفهم وحياتهم ، فقد ابتاع المسيو « لورين » لخليلته الجديدة قصراً جميلا أثثه أثاثاً حسناً ، ونزل على حكمها في كل ما تريد وتشتهي ، حتى أنفق عليها في عام واحد كل ما تملك يمينه ، ثم اضطر

أن يعبث بودائع الناس المودعة في مصرفه ، فمشى في ذلك المزلق المنحدر مدى بعيداً أشرف منه على الخطر العظيم .

ثم حدث بعد ذلك ان فتحت سوق للإحسان في باريس وكانت « لوسي » إحدى النساء اللواتي وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها وكان تجار تلك السوق اجمل نساء باريس على الاطلاق ، فجلست في حانوتها المعد لها ، وقد أمسكت بيدها زهرة تعرضها للبيع ، وتعد من يبتاعها منها ان يتناولها بفمه من فمها . فازدحم حولها كثير من الاغنياء يتزايدون في ثمن تلك الزهرة ، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت « مارسيال » فعرض فيها خمسماية فرنك، فقالت لا أبيعها إلا بالف فرنك فامسك الكونت ، وأمسك الناس جميعاً وانهم لكذلك اذا بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء وسكون وفي يده ورقة بالف فرنك فوضعها بين يدي لوسي وقال لها : لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتي احد سواي ، فوضعتها بين ثناياها ، فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعاً وخاصة الكونت مارسيال ، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول : ما رأيت في حياتي صاحب مصرف يذهب في حياته هذا المذهب من البذخ والإسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل وما أحسب ان ثروته الخاصة تتسع لكل هذا ، فلا بد أن يكون لصاً دنيئاً يسرق ودائع الناس ويبددها ، فويل للمساهمين في مصرفه ورحمة الله على أموالهم جميعاً وكان يتكلم بصوت عال يسمعه الناس جميعهم، وليس بين الأحاديث أسير ولا أذيع من حديث السوء ، فمشت كلماته في المجتمعات العامة والخاصة،

فاضطرب لها المساهمون واصحاب الودائع اضطراباً عظيما ، ووصل الخبر الى اعضاء مجلس ادارة المصرف فهالهم الأمر وأشفقوا على سمعة مصرفهم ان تنال منها هذه الأراجيف ، فيسقط سقطة لا قيام له من بعدها ، فقرروا الاجتماع في يوم معين لمراجعة حسابه ، وتفقد أمواله فلما علم ذلك المسيو « لورين » أخذ يزور في الصكوك ، ويعبث بدفاتر الحساب ، طلباً للخلاص من التبعة ، فلم يجده ذلك شيئاً ، فقد فهم مجلس الادارة كل شيء ، فلم ير بداً من ان يرفع الأمر الى القضاء ففعل ، والمسيو مستغرق في شهواته ولذاته ، جاث ليله ونهاره تحت قدمي خليلته ، لا يشعر بشيء مما يجري حوله ، لولا ان احد اصدقائه من المحامين وقف على الخبر فزاره في منزله ليخبره به فلم يجده ، فذهب الى منزل « لوسي » فوجده ، فأخبره ان الأمر قد صدر بالقبض عليه وانه ان لم يبادر بالسفر في الحال فقد هلك الى الأبد ، فاشار الى « لوسي » ان تعد له حقيبة ملابسه وأن تهيء نفسها للسفر معه ، وهو اعظم الناس ثقة بها ، وبحبها واخلاصها فتظاهرت بالاذعان لأمره ، والرثاء له ، ولكنها لم تلبث ان خرجت من الغرفة حتى هرعت الى غرفة « التليفون » وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب ، وأشارت عليه بارسال من يقبض عليه في الحال ثم أمرت الخدم بإغلاق الأبواب ، والوقوف في وجهه ان أراد الفرار ثم عادت اليه ، فسألها : هل أعددت كل شيء ؟ فنظرت اليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ، ثم انفرجت ضاحكة بصوت عال ، فدهش وسألها : ما بالها ؟ قالت : لا شيء سوى انك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتي رئيس

الشرطة للقبض عليك ، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة ، فعجب لأمرها ولم يعلم أمازحة هي ، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون ؟ ووثب من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها : ماذا عرض لك يا لوسى ، فقد طلبت اليك ان تهيئي نفسك للسفر معي فهل فعلت ؟ فقد دنت الساعة ، ولسنا الآن في موقف مزاح ، وأخاف ان تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة ، فضحكت ضحكة أخرى ، وقالت : قد بلغت رئيس الشرطة انك عازم على السفر وأشرت عليه ان يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك ، وأمرت الخدم باغلاق الأبواب حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم ، فجن جنونه ، وقد بدأ الريب يدب في نفسه ، وان لم يفهم لما يرى سبباً ، فركض الى الباب ليتحقق الأمر بنفسه ، فوجده مغلقاً ، فأمرها ان تفتحه فأبت ، فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح : أين المفتاح أيتها العاهرة ؟ فقالت : أتريد ان تقتلني كما قتلت أبي بالأمس ؟ فلم يفهم معنى كلمتها ، ووقف في مكانه ذاهلا يقول لها : لم أفهم من أمرك شيئاً ، ماذا تريدين ؟ وما هو رأيك ؟ قالت : هو المسيو « كابريني » — وكيل مصرفك بالأمس — الذي اتهمته ظلماً وعدواناً بالسرقة وانت تعلم انه رجل شريف مستقيم لو علم ان شرب الماء يفسد مروءته ما شربه فكانت نهاية أمره ان مات في سجنه ميتة الأشقياء البؤساء ، لا يعوده من أهله عائد ، ولا يحتضنه الى صدره في ساعة نزعه محتضن ، ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الاخيرة .

فاصفر وجه لورين ، وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ

يحدق النظر في وجهها ، ويتراجع شيئاً فشيئاً ، ويقول بصوت مضطرب متقطع إذن أنت لست ... فقاطعته وقالت : نعم لست حبيبتك «لوسي» كما تعتقد ، بل عدوتك « ايلين » التي تريد ان تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفسها ؛ أنا ايلين التي جئت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تسالك ان ترحم أباها وترحمها فأبيت إلا ان تساومها في عرضها ، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذباً وافتراء كما صنعت بأبيها من قبلها ، فصدق القضاة الأغبياء دعواك، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات ، كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع ان يحتمله بشر ؛ ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء من بيتها واهلها وكرامتها وشرفها ، وكل ما تملك يدها من القوت الذي تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها ، وكان لا بد لها من المغامرة بنفسها في إحدى الهوتين ، أما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذي نكبها ، وأفسد عليها حياتها فآثرت الانتقام على الموت ، لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت الى نفس شريرة حاقدة لا تريد ان تسمح لعدوها ان يبني سعادته على انقاض شقائها ، وأن يفلت من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام وها هي ذي قد انتقمت لنفسها ، وروحت عنها همومها وآلامها .

فنكس رأسه ملياً ثم رفعه وقال : إذن ما أحببتني قط يا لوسي ؟ قالت نعم بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك الى هذا المصير الذي صرت اليه اليوم ، انت الآن متألم جداً . بل لا يوجد في العالم كله ألم مثل الالم الذي

يعتلج في أعماق نفسك ، لأنك فقدت في يوم واحد شرفك وكرامتك ، ومالك وحريتك ، وموضع حبك ووجهة آمالك في حياتك ، وهذا ما كنت أريده وارجوه ، وهذه هي الساعة الوحيدة التي شعرت بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتي .

فنظر اليها نظرة منكسرة دامعة وقال لها : ما كنت لأحفل بخسران شيء في الحياة لو انني ربحتك يا لوسي ، أما وقد أصبحت يدي صفراً منك فلا خير في العيش من بعدك ، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه ، حتى حضر الجند فاعتقلوه ، وساقوه الى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ، ولا يلتفت وراءه ، وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره .

ـ ٥ ـ

نعم ان الانتقام لذيذ جداً كما يقولون ، ولكنها اللذة التي يعقبها الندم والأسف وتاتي على أثرها الحسرات والآلام ، وما استطاع منتقم قط ان يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها ، والفرق بينهما ان القاضي يصدر في رأيه عن نفس هادئة مطمئنة قادرة على الروية والأناة والمقارنة والمقابلة والوزن والتقدير ، والمنتقم يصدر في عمله عن روح هائجة محتدمة لا هم لها الا ان تلتهم وتستاصل ، وتاتي على كل ما تستطيع الإتيان عليه ، فهو يقضي قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه ، بل ليجرح

نفسه ويؤلمها ، وينال منها أقصى ما يرى انه كاف لشفاء حقده ، واطفاء غلته ، فيجازى على الشتم بالضرب ، وعلى الضرب بالقتل ، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ولا يابى ان ياخذ البرىء بذنب المجرم ؛ والجار بذنب الجار ، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه والدافع له ، وكل جريمة تترك في نفس صاحبها نصيباً من الألم والحسرة بمقدارها ، ما من ذلك بد ، ولقد صدق الذي يقول : إن العفو مرارة ساعة النعيم الى الأبد وان الانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى .

عادت إيلين الى غرفتها بعد ذهاب « لورين » وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة، فشعرت بدبيب السآمة والملل في نفسها ، وخيل اليها انها ستعيش بعد اليوم عيشة تافهة مملولة لا طعم لها ، ولا لذة فيها ، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً ، واخذت تسائل نفسها هل اصابت فيما فعلت ام اخطأت ؟ وهل سعدت بالانتقام امشقيت؟ وهل كان خير لها ان تلقي بنفسها في عباب الماء عندما فكرت في ذلك يوم خروجها من سجنها ؟ ام تعيش لتضحي بعرضها وكرامتها في سبيل انتقامها ؟ وهل خرجت من المعركة التي خاضتها ظافرة تمام الظفر ، ام نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذي انتصرته ؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جواباً يرضيها ، حتى مضى الليل الا اقله ، فحاولت أن تأوى الى مضجعها فلم تستطع ، وأن تسري عن نفسها بعض همومها فاعجزها ما أرادت ؛ فلم تنقض دولة

الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنهـا مجرمة آثمة وأنها لم تستفد من كل مـا عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها ، وأنهـا لم تسيء الى الرجل الذي أرادت منه بقدر مـا اساءت الى نفسها ؛ فقررت الالتحـاق بأحد المستشفيات الخـيرية لتكفر عن ذنبهـا بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها ، حتى يوافيها أجلها .

ـ ٦ ـ

دخلت المستشفى، وأخلصت الى الله في عملها، فسهرت على المرضى، وأحسنت مواساتهم وبذلت في ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه ؛ حتى اصبحت مضرب المثل في صلاحها وتقواها ، ورحمتها ، وإحسانها .

وكانت المحكمة قد حكمت عـلى المسيو « لورين » بالسجن عـامين ، فلقي في سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله فسقط مريضاً لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس ، حتى اشتد به المرض وأشرف عـلى الهلاك فنقلوه الى المستشفى الذي كانت تعمل فيه « إيلين » فعرفته حين رأته رغم تغير صورته ، واستحالة حالته ، فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء ، وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وظلت عـلى ذلك عـدة ايام وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله ، حتى استفـاق في ليلة من الليالي فرآها واقفة بجانب سريره تمد اليه يدها بالدواء ، فظل يحـدق النظر في وجهها طويلا حتى عرفها فتناهض من مكانه وأكب على يدها يقبلها ؛ ويسألها العفو عن ذنبه اليها ، فازداد نسيجها وبكاؤها ، وقالت له : انني انـا التي اسأت اليك ، وانا التي أطلب منك العفو والصفـح ،

وكان حياتها الجديدة التي انتقلت اليها قد انستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها ، فلم يبق في قلبها اثر للبغض والموجدة ، واصبحت سريرتها بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان ، ولا تنطوي الا على حب الإنسانية وحب الله .

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمر مثله الأم لواحدها ، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها وما تهدأ ولا تفتر ، ولكن الداء كان قد تمكن منه فلم يغن عنه العلاج شيئاً ، وما هي الا ايام قلائل حتى حضره الموت فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه ؛ وتلقي في روعه ان الله غفر له جميع سيئاته في حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام، والهموم والآلام ؛ وأن جوار الله في دار جزائه خير له من جواهر هذه الحياة الباطلة الفانية ؛ حتى أسلم روحه بين ذراعيها .

وفي صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرة بهدوء وسكون في طريق الدير ، وقد لبست مسوحها وسوادها وعلقت صليبها على صدرها حتى بلغته ، ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله الى الأبد ؛ فدخلته وكان هذا آخر عهدها بالعالم وما فيه .

الموتى

دقت أجراس المساء تنعي اليوم الراحل وتندب جماله الزائل وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها الى حظائرها ، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيهم ، لا يريدون بها شراً ولا أذى لأنهم يحبونها ويرحمونها ، بل يخافون عليها الضلال ، فهم يهدونها الطريق ؛ ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر ، فهو يقيها برد الليل وغائلته ، وساد سكون رهيب في تلك الانحاء ، فلا يسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر ما أهدى الى جناحيه من أشعة متلألئة ؛ ونعيب البوم يمد صوته بالشكوى الى الله تعالى في سمائه ، وماشكاته الا أن بني آدم يطاون ارضه ، وينتهكون حرمة خرباته المقدسة ، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدة طويلة بل اكثر من طويلة ، لأنها لا نهاية لها فلا نسمات الصباح الباردة ، ولا تغريد

الطيور الصادحة ولا صياح الديكة ، ولا رنين الأجراس ولا هتاف الرعاة ، يوقظهم من رقدتهم هذه .

أسفي عليهم لقد امسوا ولا نيران توقد في اكواخهم ، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم ، ولا صبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم . اولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس اشداء اقوياء تمد السنابل اعناقها خاضعة لمناجلهم. ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم وترعد جذوع الاشجار الضخمة فرقاً من ضربات فؤوسهم

اولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين يرقصون ويغنون ويجدون السعادة والبهجة في كل ما يحيط بهم فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء ، كانما يسمعون قيثارة مطربة ، ويجدون في ضجعتهم فوق الاعشاب اليابسة الراحة التي يجدها اصحاب الأسرة فوق مهادهم الوثير ، ويشعرون في تناولهم ألوان الطعام الشهي على موائدهم ، ويغترفون باكفهم المياه من الانهر والخلجان فيلتذون بارتشافه كأنما يتناولون صافية الصهباء في كؤوس البلور والذهب .

اولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصب لهم التماثيل ، ولم ترفع فوق قبورهم القباب. كانوا في حياتهم شرفاء عظماء ، لأنهم كانوا متحابين متآخين ، لا يحسد فقيرهم غنيهم ، ولا يبغي قويهم على ضعيفهم ولا يحقدون ولا يغدرون ولا يخافون شيئاً حتى الموت ولا يعبدون إلهاً الاالله

كذلك كانوا بالامس ، واليوم طواهم الرمس ، فرحمة الله عليهم يوم

كانوا على ظهر الارض ، وبعدما اصبحوا في بطنها .

فليجث فوق رمال هذه القبور المبعثرة ، وبين احجارها المتهدمة المتساقطة ، أرباب المطامع في الحياة وطلاب المجد والعظمة خاشعين مستكينين ، خافضي رؤوسهم إجلالاً وإعظاماً ،وليمسكوا قليلاً الإدلال بعزهم وجاههم ، والمكاثرة بفضتهم وذهبهم وليخفوا في أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة عن شفاههم ، وليعلموا ان طريق المجد والعظمة التي يسيرون فيها ، وان كانت مخضرة جميلة ، مفروشة بالأعشاب محفوفة بالازهار ، فانها تؤدي في نهايتها الى هذا المصير الذي صار اليه هؤلاء المقبورون .

أيها الناعمون في عيشهم ، المدلون بعزهم وجاههم ، المفتخرون بقوتهم وحالهم لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين ان رأيتم اجداثهم مشعثة بالية ، وقبابهم متهدمة خاوية ولم تروا أسمائهم منقوشة باجمل الالوان وازهارها على صفائح قبورهم ، واصغوا قليلا تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران ، والحقول والمروج ، والطيور المغردة فوق أعالي الاشجار والسوائم الحائمة على ضفاف الانهار ، فهم اصحاب اليد التي رصعت التاج للملك وصنعت السيف للقائد ونسجت المسوح للراهب ، وبنت القصور للأمراء ، وصاغت الحلى للاميرات ، وغرست العشب للسائمة ، ووضعت الحب للطائر ، وهيأت للاحياء جميعهم – ناطقهم وصامتهم – طعامهم وشرابهم ، ودثارهم ومهادهم .

أيها العظماء : لا تخلد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحتيها ، ولا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي يخطها التاريخ في صفحاته ، ولا تسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة في اناشيد الرثاء .

رب يد تحت هذه الارض لو أتيح لها الحظ في حياتها لكانت يد العازف الذي يشنف الأذان ، او يد البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان او يد الشاعر الذي يثير الاشجان ويبعث الى القلوب السرور او الاحزان ، ورب قلب في هذه الحفائر المظلمة لو عاش في جو غير هذا الجو ، وعالم غير هذا العالم ، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال العظام ، والأماني الجسام او قلب زعيم جرىء يحاسب الظالمين على ظلمهم ، ويذود النوم عن اجفانهم ، او قلب نائب كبير يستهوي ببلاغته القلوب ، ويسترعي الاسماع فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب .

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين صدفتيها ! وكم من زهرة أريجة لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فأذبلتها ! وكم من ماسة وضاءة عجز المعدنون عن استخراجها من معدنها فانطفأ نورها في منجم الفحم المظلم اوكم من قريحة وقادة لم تصقلها العلوم والتجاريب فعاشت مغفلة مهملة حتى انطفأت شعلتها ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون ، وبدلت الارض غير الارض ! نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن) الا ان التاريخ لا يعرفه ، ومن كان له لسان كلسان (ملتن) الا أنه لم ينصب له تمثال ، ومن

كانت له همة كهمة (كرومويل) الا أنه لم يقد الجيوش ، ولكنهم عاشوا في هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم فمروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد ، ثم ماتوا ولم يذكرهم احدهم .

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم ، فلو أنهم كانوا عظماء لقضوا ايام حياتهم يسفكون الدمـاء ، ويمزقون الأشلاء ، ويغتالون حقوق الضعفاء سعياً وراء أغراضهم ومطامعهم ، لا بل إنهم كانوا عظماء ولكنهم بريئون من آثار العظمة وجرائمها .

رحمة الله عليهم ، لقـد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم ممـا يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى في طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر :

« أيها المار في هـذا المكان احترم تربته ، ولا تطـأ بقدميك رفات الموتى » .

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد موتهم . لم يطلبوا تمثالاً يقام لهم ، ولا قبـة ترفع فوق اضرحتهم ولا صفحة خاصة من صفحات التاريخ تخلد فيهـا اعمالهم ، بـل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم ، ولا قطرة غيث تبل ثراهم فما كان أقنعهم وأزهدهم !

ايفون الصغيرة [1]

ماتت وكانها لم تمت ، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها ، يحسبها الرائي نائمة نوماً هادئاً لذيذاً ، ويخيل اليه انه يسمع صوت انفاسها المترددة ، ويرى هبوط صدرها وارتفاعه .

أين صفرة الموت ونحوله ، اين آلام النزع وشدائده ، اين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها ، والدوائر الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها ؟

لقد مات كل ذلك بموتها فعاد لها رونقها وبهاؤها ، واصبحت كائما

---

(١) هي فتاة صغيرة عثر بها في طفولتها على باب احدى الكنائس في فرنسا ناظر مدرسة قروية وكان شيخاً كبيراً مات جميع اولاده واحفاده وبقي هو من بعدهم وحيداً مستوحشاً فأنس بها حين وجدها أنساً شديداً وسماها « ايفون الصغيرة » لأنه لم يكن يعلم من امر نسبها شيئاً . فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها فأصابها مرض لم يمهلها الا بضع ليال حتى ذهب بها الى ربها فرثاها احد الشعراء بهذه القطعة .

قد خلقت الساعة ولما تنبعث الروح في جسدها .

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ ايام قلائل امام المدفأة باسمة مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني امام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة ، وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف ازهار الربيع وتقدمها هدية الى أبيها الشيخ ، اما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت .

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها «سأموت الساعة ، فائتوني بعصفوري أودعه » فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر اليه باسمة منطلقة . وظل العصفور يلعب ويغرد تغريداً شجياً ، وهو لا يعلم انه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت .

وهنا وقف الشيخ الذي تبناها بجانب فراشها واجماً حزيناً ، مشرد اللب ، ذاهل العقل ، ومد يده الى يدها الضعيفة الواهية التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته ، فأخذها ووضعها على صدره ، كأنما يريد ان يمد حياتها بتلك البقية الباقية في قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه ، وظل على حاله تلك هنيهة ، ثم التفت فجأة الى اصدقائه ، وقال لهم ها هي ذي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئاً فشيئاً فنظروا اليه آسفين محزونين ، ثم نكسوا ابصارهم ، وأسبلوا مدامعهم فظل يدير بينهم عيوناً حائرة ، ويتنقل بنظراته ههنا وههنا ، كأنما يسألهم المعونة على امره ، ومن ذا يعين على القدر ، او يعترض سهم المنية القاتل .

وما هي الا لحظة حتى شعر ان يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسها .

إنا لله وإنا اليه راجعون ، ماتت ايفون الصغيرة ، ماتت الطفلة الوديعة الجميلة . ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ؛ في سبيل الله نجم تلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى وغصن أزهر في روض المنى ساعة ثم ذوى، وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر .

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتسامتها حتى في الساعة تختفي فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التي كانت تقضي فيها كل يوم بضع ساعات من ليلها او نهارها تلاعب أطيارها، وتقطف أزهارها ، وتتعهد أشجارها والماشي التي كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتا ومرجانا ، وقد خلت جميعها منها ، وهيهات ان يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم .

كانت إيفون جميلة الخلق ، طيبة النفس ، نقية الضمير ، تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز ، ولا تتودد الى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وسجرائه اكثر مما تتودد الى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى في حياته وما علموها قط اختلفت مع فتى او فتاة من تلاميذ مدرستها ، لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها والخبيث بعفوها وصفحها . وهي وان لم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر

في عينيهـا ويرى ذبولها وانكسارها ولمعانها الذي يشبـه لمعـان الدمـع الرقراق يخيل اليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها ، وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت أبيها بوصاية جـدها كما كانوا يقولون لهـا ، بـل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئاً ، وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بها اقفال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها ، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنـع والتكلف الـتي يرثها اكثر الفتيات عن أمهاتهن ، بـل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف .

لذلك عجل الموت اليهـا لأن سكان السماء لا يستطيعون ان يعيشوا طويلاً على ظهر الارض .

دقت اجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها ، ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرهـا شوقاً ولهفة كما كان شأنهـا في حياتها ، ثم جـاءت ساعـة الدفن فحملوها على ايديهم ومشوا بها حتى وصلوا الى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الاخير ، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويانسون بها ، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها ، والنساء اللواتي كن يحببنها من أجل حبها أبناءهن ، وبكاها اكثر من هؤلاء جميعاً ذلك الشيـخ المسكين ، لأنهـا كانت كل دنيـاه فخسرها في ساعة واحدة .

وظل كثير من الوقوف يردد ذكراها ، فيقول احدهم : طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسة وحدها وبيدها الكتاب المقدس تتـلو آياته .

ويقول الأخر : لقد دخلت الكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها في الظلام الحالك تحت هـذه الأقبية فعجبت لصلاحها وتقواهـا ، وتقول امرأة : لقد عثرت ابنتي يوماً من الايام في منصرفها من مدرستها ببعض الاحجار عثرة برحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها الى المنزل ، وتقول أخرى : لقد كنت أراهـا تمر كل يوم بجارتنا فلانـة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها ثم تستمر ادراجها الى مدرستها .

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن فعلت الاصوات بالبكاء ثم غيبوها في قبرها وحثوا عليها التراب ، وكان الليل قد اظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون :

« وارحمتاه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت اليها » .

★

القسم الثالث

الفضيلة

أو

بول وفرجيني

للكاتب الفرنسي الشهير
برناردين دي سان بيير

الناشر

دار الثقافة - بيروت

الفضـــيلة

اهداء الرواية

يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ، لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ، ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه ، فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها ؛ ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التي أحب أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما المستقبلة على أساس الفضيلة كما وضعها : بول وفرجيني ..

مصطفى لطفي المنفلوطي

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع

الأستاذ محمود خيرت المحامي

في سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية بإقامة تمثال من البرونز صنعه «دافيد» المثّال الشهير في إحدى ميادين ثغر الهافر لرجل جليل عظيم الهيبة تتــألق ملامحه بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللطف وهو يمسك بإحدى يديه قرطاساً وبالأخرى قلماً وعند قدميه صبي وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارة .

من هما ذانك الصبيان المتصافحان ؟ وما معنى تلك الشجرة التي ليست من نباتات هذه البلاد ؟ وما عسى أن يكون ذلك الرجل الذي كتب له الحظ أن يكون محلاً لعناية «دافيد» واهتمام الجمهورية ؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلد ذكرى رجل من أبنائها قضى حياته محباً للحرية واستقلال الرأي ، وإن ناله بسببهما الأذى ،

منقباً عن الحكمة وهو يتفانى في تمجيدها ، عاشقاً للطبيعة وهو يتغنى بمحاسنها ، وينسق قلمه القدير كل يوم للأدب إكليلا يانعاً من أزاهير الجمال ، وتسمو به نفسه الطاهرة الأبيّة إلى سماء الإنسانية للعمل على تخفيف ويلات البشر وآلامه ، فكان رجلاً ذكياً عالي الهمة ، حكيماً كبير النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها كاتباً فذاً جم الشعور ، ملأت فراغ قلبه فيوض الرحمة بالبشر إلى حد يجعله في وصف القديسين .

وما كان هذا الرجل بحاجة إلى أثر يخلده - وفي رأسه وقلمه ونفسه مثل تلك الآثار الخالدة يحيا بها على تعاقب السنين .

* * *

ولد برناردين دي سان بيير في التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٢٧ بالهافر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دي سان بيير حتى أنه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب [شفالييه] وأخذ يحلّي صدره بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب .

ولقد كان في صبــاه رقيق المشاعر ، عصبي المزاج ، كثير الجري وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهوريـــة واسعة من طائفة العائرين اليائسين يكون هو واضع شريعتهم ومنظم حياتهم ليضمن لهم سعادة العيش فكان في هذا الخاطر مثل جان جاك روسو ، إلا أن هذا كان يرى أن يعود الناس إلى فطرتهم الأولى طاهرين من الأرجاس خالصين من الأدران ، فيعيشون عيشة صافية هنيّة في ظل شريعة الكون التي سنّها الخالق ، أما برناردين فكان يرى أن يضع لهـــم نظاماً جديداً يحارب بـــه

قسوة الحياة الحالية وويلاتها .

ولكنه كان لا يزال طفلاً قليل الحول والحيلة حتى إن أحد أعمامه – وكان قبطاناً لسفينة تجارية – أخذه معه إلى جزر المارتينيك ولكنه عاد منها مثقلاً بالهموم وكراهية العيش فسلّمه أبـوه بلوزويت كاين .

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية إلى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشّرين عن رحلاتهم في البلاد الموحشة حتى تمنى لو أنه يقفو أثرهم فيهدي إلى سبيل السعادة فريقاً من عباد الله الأشقياء الجاهلين .

على أن أباه عجل بنقله إلى مدرسة روون ثم إلى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش ، ولكنه كما ذكرنا كان عنيداً لا يسمع غير صوت نفسه وإن خرج بعد ذلك عن حدود الواجب حتى أن رئيسه عقد مجلساً لتأديبه ثم أوقفه .

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطة لتلمس الرزق فيهـا ولكنها كانت مهددة بالإغارة من جانب الأتراك فعاد أدراجه وأخذ يعيش من بعض دروس في الحساب يعطيها لمريديه .

وهكذا أحدق به الهم وعضّه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجد عند أحد صدراً يسعه في محنتـه ، ولا قلباً يحنو عليه في كربته فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العزلة على البقاء في هذا العالم القاسي قائلاً : « إن العزلة جبل عال تريني قمته الناس صغاراً » .

على أنه لم يعدم صدراً آخر يفيض عليه من حنوه الأبدي الخالد ،

هو صدر الطبيعة ، فاستنام إليها وأحبها وفنى في عشقها .

لقد حببها إليه أيضاً أنه رأى ذات يوم عوداً هزيلاً من « الفراولة » نبت على حافة نافذته فلما أخذ يتأمله قام في نفسه أن يصفه بكل دقائقه ويصف ما حوله من حشرات صغيرة وذباب ، ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئاً فشيئاً إلى حد أعجزه من متابعتها وعند ذلك أدرك مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها .

وإن نفساً مثل نفس برناردين لا تعرف اليأس فعزم على الهجرة من وطنه إلى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولا يحقد عليه لأن « من أحب وطنه تغرب في سبيله » كما قال في ترجمة حياته .

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت في رأسه فسافر إلى روسيا لعله يجد عند ملكتها « كاترين » ما يساعده على إخراجها إلى نور الوجود على شواطىء بحر قزوين ، ولكن سهمه طاش فارتحل الى فنلندا ثم إلى بولونيا فألمانيا فصحاري أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة « موريس » التي كتب عنها روايته ، ولكنه في كل هذه الأدوار كان سوء الحظ حليفه فاضطر إلى العودة لوطنه ثانياً وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديون ذاهباً إلى أن العيب لم يكن على النظم التي تشرع للناس ولكن على نفس القائمين بها .

وكان في أسفاره لا يكاد يرفع طرفه عن الطبيعة التي طالما أحبها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه كان يغلب عليه في تفهمها مزاجه الشعري وهو يعتقد أن خواطره ليست هي

ي تتجه إلى الطبيعة ولكنها هي التي توجه إليها آلاف الأشكال لمختلفة الرائعة . وهكذا كان يغرس على طول طريقه بذور خيالاته يحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهيّة وهو يرى في كل ذرة من ذراتها نفساً حية ناطقة حتى صهره البحث وأنضجته التجربة ولكن شقاء الحظ جرعه آخر ما في كأسه فعاد كما ذكرنا وهو يقول في نفسه : أصبح الناس لا يعرفون قدر الاحسان فكيف رفعتهم الأقدار ؛ ولكن حسبي أن التجربة أصارتني هرماً فأصبحت لا أطمع في غير الراحة .

نعم إنه أحس بعزمه قد وهن ، وكأن الشباب الطامح إلى لقاء الحوادث ومجالدتها قد ذاب فيه وفني وهو مع ذلك لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، أضف إلى ذلك ما آلت اليه حاله-من الفاقة والبؤس ففكر في وضع كتاب عن تلك الجزر التي زارها ، وما شاهد فيها ودوّن في مذكراته عنها .

ولكن كتابه الذي كان يظن أنه وضع به أساس مجده لم يصادف إلا نجاحاً قليلاً لأنه أفسد عليه قلوب الحكام بما ذكره فيه من خلل إدارة المستعمرات وفساد نظامها .

إلا أن هذا السفر قد أكسبه الاتصال بكتّاب عصره وفلاسفته فعرفوه وعرفهم ، ولكنه لم يلبث أن أنكرهم لأنه أدرك أنهم كغيرهم قوم لا يعرفون معنى العدل والحق اللذين كانا دعامة خلقه حتى أنه قاطعهم وهجرهم لأن ألم شوكة واحدة ـ كما كان يقول ـ تنسي المرء لذة مائة وردة يشمها ولذلك عمد إلى ما دوّنه من أبحاثه في الطبيعة فجمعها في كتاب نشره على الناس على ما بها من التفكك وعدم الارتباط ، ولكن هذا الكتاب الناقص أو تلك الأطلال الدوارس ـ كما كان يسميها ـ كانت

وحدة معنوية حية خيراً مائة مرة من أية وحدة علمية لأنها تمثل جلال القدرة حاضرة دائماً في الذهن ماثلة للعين حتى إن نجاحه كان فوق أملـــه فعرف الناس قدره وأحبوه .

وهكذا أمكنه أن يزحزح عن نفسه شيئاً من أحمال شقائه فابتاع منزلاً صغيراً اختاره في طريق ضيق يسكنه الفقراء حتى يشعر أنه بين أفـــراد عائلته الطبيعية ، وعلى مقربة من حديقة الحيوان كي لا يحرم من متابعة أبحاثه .

* * *

وقد كان من نتائج تلك التجاريب الطويلة الشاقة أن برناردين اعتقد أن سعادة الإنسان قائمة على سلوك سبيل الحيـــاة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة ، وأن الفضيلة العامة مهما بلغ من اتساعها فإن مكانها الأول في نفس كل فرد ، ولذلك عدل عن فـــكرة الجمهورية التي حاول إنشاءها واقتصر على وصف حياة بعض الأسر المنزوية في ظلال الوحدة التي تتذوق طعم النعيم في حجر الطبيعة ، وعند بساط الفضيلة .

وهكذا ظهر سفره الخالد (بول وفرجيني) فهزّ أوتـــار المشاعر وملك أزمة القلوب ، وكان فجراً لليل الأدب وتاجاً على رؤوس الأقلام وشعلة صافية باردة فاض بها فؤاده الذي غمرته الفضيلة والصبر والرحمة ، وكان لظهوره تأثير عظيم في جميع أنحاء فرنسا ، فأبكى كل عين وصعد كل زفرة ، ولم تبق أسرة ولد لها إلا سمته « بول » أو ابنة إلا سمتها « فرجيني » .

وكان أكبر ما أثره في نفوس الناس من هذه الرواية أن حوادثها

صحيحة ليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب ، فقد قال مؤلفها في مقدمتها « إني لم أتخيّل قصة روائية أصوّر فيها حياة سعيدة تمتعت بها أسرة أوروبية في وسط ذلك القفر ، بل يمكنني أن أقول إن أشخاص هذه الرواية قد عاشوا حقيقة في تلك الأصقاع وتمتعوا بالسعادة التي وصفتها ، وإن تاريخهم في مجمله صحيح شهد به كثير من سكان تلك الجزيرة ، ولم أضف عليه إلا بعض جزئيات ليست بذات بال .

وقد تنبأ بمبلغ تأثير روايته في النفوس قبل ظهورها فقال : « أزدت عندما وضعت هذه الرواية أن أعرف مقدار تأثيرها في القراء على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ومشاربهم وميولهم ، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات فبكين ، ثم تلوتها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين فبكوا ، فعلمت أني كتبتها للناس جميعاً وأرضاني هذا الحكم الصامت كل الرضا » على أن هذا السفر إذا كان قد هز عالم البيان إلى هذا الحد فإنه لم يكن ابن يومه ، وإنما كان ثمرة مجهود بطيء طويل حتى خرج للناس من ظلمات الفكر إلى فضاء الحقيقة وعليه ثوب الشباب القشيب ، فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التي تضع بذورها في السكون وتنضجها في الظل ، فإذا وافى اليوم الذي تظهر ثمرتها فيه أخذت بالألباب والأبصار .

وكثيراً ما كان يسأله الناس كيف وضعه ، وكيف انتهى منه ، فيقول لهم : حسبكم أنه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الأسئلة غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذة السرور الذي شعرت به ، وإلا كان مثلكم كمثل الطفل يقع نظره على وردة فيذهب خاطره إلى محاولة اهتدائه لكيفية صنعها ، وعند ذلك ينثرها ورقة ورقة

حتى إذا بلغ غايته لا يرى أمامه شيئاً..

على أن جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين في حل من موقفهم هذا فهم معذرون إذا تساءلوا عن زهرة هذا السفر القيم كيف نشأت ، وعلى أي طريقة نبتت ، وبمـاء أي خاطر متقد سقيت ، وتحت أي مؤثرة من مؤثرات النفس أينعت ففاضت على الأجيال بالأريج والألوان والجمال .

ولكن عناصر مثل هذا العمل الكبير دفينة في نفس حياة الكاتب إذا صح أن كل مؤلف يتمثل في سطوره .

على أن برناردين إذا كان لم يخلق كاتباً فإن المشاهدة والتجربة والدرس هذبت قلمه وأنضجته ، حتى إذا انقضت حياته هزيلة بائسة طائرة في مهاب الحوادث ، وقد أحاطتها الأيام بإطار من الشيخوخة لم ير بديلاً منها إلا نفثات قلمه بين سطور السفر الفياض ، ولذلك قال عنه بعض قارئيه : « ليست هذه الرواية أثراً للكاتب ، وإنما هي أثر خالد للغة الفرنسية » .

على أن الرواية ، وإن كانت لم تقم إلا على وصف الطبيعة الجافة الخشنة ، فإن القارىء لا يكاد ينتهي منها حتى يشعر بدبيب النشوة في مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة حوادثها ، ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل القرى السهلة بعبارته الساحرة الجذابة فهي التي أنطقت الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالاً حياً قدسياً خالداً حتى إن بعض قرائه صاح ، وقد هزه الطرب « إنني لا أرى هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة ، ولكني أرى حولها وجوهاً ضاحكة مستبشرة وقلوباً تسيل سعادة وهناء » ، وحتى قال شاتوبريان « إن السحر الذي يتشمع من

سطور هذا الكتاب ليس غير عظة تتلألأ في ثناياها تحكي تألق القمر فوق عزلة مزدانة بالزهور ».

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعد ما حاربته الليالي وخاصمه الحظ أن عرف قدره أولئك الذين جهلوه حتى توجهت إليـــه عناية لويز السادس عشر فقلده إدارة حديقة النباتات ومتحف التاريخ الطبيعي ، وإذا كانت الثورة قد أفقدته هذا المركز وسلبته تلك النعمة التي أصبح فيها ، فإن نابليون بونابرت شمله برعايته وغمزه بإحسانه فأنساه مرارة الأيام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يعد في حاجة إلى الأوسمة الخيالية التي كان يحلم بها في صباه ، وكان إذا قابله قال له : « متى تؤلف لنا يا برناردين رواية ثانية ؟ » .

هذه هي رواية بول وفرجيني ، وهذا هو كاتبها الذي كان يقول في أول أمره « إن إنكار الناس لجميلي والأحزان التي لا تفارقني وضآلة مرتزقي ، وآمالي الضائعة ، كل هذه المصائب تجمعت لتحاربني فأفسدت علي صحتي وأزاغت صوابي حتى إن كل ما يقع تحت بصري أصبحت أراه متحركاً مضاعفاً كأنني « أوديب الملك » أرى شمسين فأصبح يقول : « هكذا بعد منا قاست سفينة حياتي من زعازع الحوادث أخذت تتقدم آمنة مطمئنة إلى بر السعادة » .

محمود خيرت

(١)

جزيرة موريس

هي إحدى الجزر الإفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة « مدغشقر » وعلى مدى غير بعيد من جزائر « سيشيل » وهي جزيرة قفراء بلقع ليس بها إلا قليلاً من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوروبيين النازلين بينهم ويسخّرونهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها ، كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها .

* * *

يرى المقبل على هذه الجزيرة شرقي الجبل القائم خلف عاصمتها « بورلويس » وادياً مستطيلاً مسوراً بسور طبيعي من الآكام والصخور قد تراءت في وسطه أطلال كوخين دارسين لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما ، ويرى الأرض المحيطة بهما مختلفة الألوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء ، مختلفة السطوح ما بين أنجاد وأغوار ، وأحافير وأخاديد ، ومنعرجات

ومستدقات ، إلى كثير من الجداول والغدران القائمة والمتداعية ، كأنما كان يعيش فيها قبل اليوم قوم يتولّون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها ، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها أو رحلوا عن العالم أجمعه .

ولم يكن لذلك الوادي على اتساعه وانفراجه إلا فجوة[1] واحدة من ناحيته الشمالية ، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذي يسمّونه جبل الاستكشاف ، لأنهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة إلى الجزيرة ، وبسفحه تقع مدينة « بورلويس » قصبة الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسي ، وهي مدينة صغيرة نصف متحضرة يتفرّع عن يمينها طريق لاحب[2] عريض ينتهي بضاحية « بمبلموس » وهناك الكنيسة المسماة بهذا الاسم قائمة بمماشيها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزران وسط أفيح فسيح ، ثم الحرجات والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة إلى ساحل البحر ، حيث يرى هنا خليج « تومبو » أي خليج القبر . وعلى يمينه رأس يسمى « كاب مالبرو » أي الرأس البائس . ثم الخضم الفسيح بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة كأنها السفن السابحة على سطح الماء . وأكبر ما فيها جزيرة « كوان دمير » تتهادى بينها كأنها البرج العظيم .

ولا يزال يسمع المقبل على ذلك الوادي حين يدنو منه عصار الرياح الضاربة في بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الأشجف ودمدمة الأمواج المتوثبة على صخور الشاطىء وهضابه حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شيء فلا يحس

(١) الفجوة : الفتحة .
(٢) اللاحب : الواضح .

إلا صدى ضعيفاً لخفيف سعف النخل ولا يسمع إلا وسوسة الأمطار المتساقطة برفق ولين على رؤوس الصخور الملساء فترسم على جوانبها المكسوة بالطحلب ألوان الطيف (١) ثم تنحدر عنها متسلسلة إلى حيث تسقي أحواض الأزهار المهملة التي لا تمتد اليها يد ، ولا يقتطفها مقتطف ثم تفضي بعد ذلك إلى الغدران والأثنية فتمدها بالجم الكثير من أمواهها وإلى خمائل الأشجار ولفائف الأعشاب ، فتتسرب في أحشائها تسرب الأفاعي الرقطاء في بطون الرال ولا يرى بين يديه إلا هضاباً شماء قد نبتت في سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الأشجار الباسقة التي تعابث أشعة الشمس أوراقها الخضراء المترعة وتكسوها بما شاءت من ضروب الألوان ذهبيها فضيها وارجوانيها وناريهـــا . ولا تنحدر إلى قاع الوادي وتنبسط في أرجائه إلا وقت الظهيرة ، فإذا أدبر النهار وطفلت (٢) الشمس للاياب كان منظر الأصيل أبدع منظر رآه الرائي في جمال ألوانه ، وانسجام ظلاله ، ورقة أضوائه وتلهب أفقه وذهاب العين بين أرضه وسمائه في أبهى من الحلة السيراء (٣) والروضة الغناء ، فإذا انحدرت الشمس إلى مغربها خيم السكون على كل شيء من مـــاء وهواء ، وكوكب ونجم ، واستحال المنظر إلى وحشة مخيفة كوحشة القبور ، لا نأمة فيها ولا حركة ، ولا بارق ، ولا خافق .

---

(١) الطيف : هي الألوان المنحلة عن أشعة الشمس .
(٢) طفلت الشمس : أي دخلت في الطفل — أي الأصيل .
(٣) السيراء : المخططة .

(٢)

الشيخ

كان يلذ لي كثيراً أن أختلف إلى هذا المكان الجميل صباح مساء ، وأن أستريح إلى منظره الهادىء الساكن فإني لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية أقلب نظرف بين أرضه وسمائه ، وأفكر في شأن هذين الكوخين للدارسين وفيما تنطق به آياتهما من العظات والعبر وآثارهما من الاحاديث والسير إذ مر بي شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة قد نيّف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجراء[1] في يده ويلبس سراويل واسعة وصداراً ريفياً بسيطاً ، وقبعة عريضة من الخوص كشأن سكان تلك الأصقاع ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على كتفيه ، وقد تلألأ وجهه الأبيض النحيف الضارب إلى السمرة بذلك النور الساطع الذي يتلألأ دائماً في وجوه الريفيين الأتقياء نور البساطة والطهارة ، والنبل والشرف ، فأنست به وبمنظره الجميل الأنيق ، وبدأته بالتحية فرفع رأسه إلي متوسماً وألقى علي نظرة هادئة مطمئنة ، ثم رد تحيتي رداً جميلاً ، وكأنما شعر لي بمثل الذي شعرت له به من العطف والود فأقبل نحوي باسماً متهللاً . وجلس على صخرة محاذية للصخرة التي أجلس عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه ووضع قبعته بجانبه ، فأقبلت عليه وقلت له : لعلك تعيش في هذه الجزيرة يا سيدي منذ زمن طويل ؟

---

(١) عصا عجراء : ذات عجر ، أي عقد في وسطها .

قال : نعم طويت فيها رداء شبابي وها أنذا أطوي فيها رداء شيخوختي ، وستبرد عظامي غداً تحت صخورها وجنادلها . قلت : هل لك أن تحدثني قليلاً عن شأن هذين الكوخين الدارسين ، وعمن كان يسكنهما قبل أن تعبث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه ؟ فوجم قليلاً وظل صامتاً لا يقول شيئاً . وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألىء غمامة رقيقة من الهم والاكتئاب . ثم تنهّد تنهيدة طويلة اختلجت لها أعضاؤه وقال :

نعم يا بني إن هذا الوادي الذي تراه اليوم خراباً يباباً لا يمر به المار إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعتبر — كان منذ عشرين عاماً روضة غناء يعيش فيها أقوام سعداء بأخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ، ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذي تراه اليوم ، وإن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الأشجان وتستذرف الدموع ؛ إلا أن أبطالها ليسوا ملوكاً ، ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح والملاعب والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التي تقرؤونها ، بل قوم فقراء مغمورين تقتحمهم العيون وتتخطاهم الأنظار ، ومن كان هذا شأنهم لا يحفل بهم أحد من الناس ، ولا يعنى بسماع شيء من أخبارهم وتواريخهم ، لأن الناس لا يستطيعون أن يفهموا السعادة من الطريق الذي ألفوه واعتادوه ، فهم لا يصدقون أن قوماً فقراء متقشفين يعيشون في أرض قفرة جرداء ، منقطعة عن العالم بأجمعه قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريقة الفضيلة والبساطة .

فأكبرت الرجل في نفسي وأعظمته وعلمت أنه يحمل بين

جنبيه نفساً كبيرة سامية تختلف صورتها عن صورة هذه الأسمال الحقيرة التي يلبسها. وقلت له : نعم يا سيدي إنني أعترف لك أننا معشر الأوروبيين لا نفهم من معنى السعادة إلا ذلك الذي تقوله ، ولا نعجب بالقصة إلا إذا كان أبطالها أولئك الملوك الظلمة ، والقواد السفاكين ؛ ولكننا لا نستطيع أن نصغي في بعض الأحايين بلذة وسرور إلى أحاديث الفقراء والبائسين ؛ ومهما بلغت القسوة بالقلب الإنساني وغمرت الشهوات شعوره ووجدانه ، فلا بد أن تهب عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الإلهية تنعشه وتوقظ شعوره ، فيستطيع أن يعود إلى نفسه قليلاً . وأن يفهم أن في العالم صنوفاً من السعادة التي يعرفها ويألفها ، وربما أكبرها وأعظمها وتمناها لنفسه وود لو طال استمتاعه بها .

فقص علي قصتك يا سيدي، فما أنا لو علمت إلا رجل بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طلبها من المدن والحواضر بين الدور والقصور ، فلعله يجدها في القفر الموحش بين الهضاب والصخور .

فوضع يده على جبينه المغضن كأنما هو يفتش في طياته عن بعض الذكريات القديمة ، أو يستجمع ما تفرق من شواردها .

وأنشأ يحدثني ويقول :

(٣)

مدام دي لاتور

في عام ١٧٢٦ قدم هذه الجزيرة فتى من « نورماندي » اسمه « مسيو دي لاتور » ليطلب رزقه في هذه الجزيرة المقفرة بعد ما أعياه طلبه في فرنسا وعجز عن أن يجد له فيها معيناً حتى من أهله وذوي رحمه. وكانت تصحبه زوجته وهي فتاة نبيلة، جميلة الصورة، كريمة الخلق، طيبة العنصر، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها إلى قومها فأبوها عليه لأنه كان فقيراً مقلا، ولأنهم كانوا من المدلين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية، فلم يكن مما يهون عليهم أن يُصهروا[1] إلى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم، فتزوجها سراً بدون مهر وهاجر بها إلى هذه الجزيرة علّه يجد سبيلاً إلى العيش فيها، فتركها هنا وسافر إلى جزيرة « مدغشقر » ليبتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الأراضي المهجورة فيقتات منها هو وزوجته. فلم يتح له الحظ الذي أراد، لأنه سافر إلى « مدغشقر » في الفصل الذي يوبأ[2] فيه مناخها ويمتلىء فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة، فلم يلبث أن اشتكى شكاة ذهبت بحياته، وكان يحمل معه بعض الأثاث وشيئاً من المال فتناهبته الأيدي هناك كما هو الشأن دائماً في تراث الغرباء

---

(١) أصهر إليه : صاهره .

(٢) وبئت الأرض توبأ كثر فيها الوباء .

من الأوروبيين الذين يموتون بعيداً عن أوطانهم في تلك الجزر النائية. فأصبحت امرأته أرملة مسكينة لا سند لها ولا عضد، ولا من يعينها على أمرها، إلا جارية زنجية كانت قد ابتاعتها عند حضورها ببعض دريهمات. ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر المهاجرين المقيمين في هذه الجزيرة من عون الحاكم ومساعدته، أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ؛ لأنها كانت أجل في نفسها من ذلك، ولأنها لم يكن يعنيها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذي كان موضع آمالها ووجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائناً من كان.

أكسبها يأسها هذا قوة وجلداً وصحت عزيمتها على أن تعتمد في حياتها على نفسها، وأن تتخذ لها قطعة من الأرض تستصلحها بيدها هي وجاريتها علها تجد فيها قوتها ومرتزقها.

والأرض في هذه الجزيرة على جدبها وإقفارها لا يعدم أن يجد فيها الإنسان بضع قطع خصبة صالحة للنماء والاستثمار، ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم، فتركت المواضع الخصبة الميثاء وأوغلت في المجاهل البعيدة تفتش عن قطعة أرض معتزلة في سفح جبل أو بطن غور أو وراء منقطع لا يطرقها طارق ولا يمر بها سابل[1] حتى وصلت إلى هذا المكان الذي نحن فيه، فأعجبها منظره الهادئ المنفرد، وسكنت نفسها إليه سكون الطائر الغريب إلى العش المهجور، وكذلك شأن البائسين المنكوبين يشعرون دائماً بحاجتهم إلى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته إلى المعتزلات النائية القصية، والمواطن الخشنة الوعرة كأنما يخيل إليهم أن صخورها

(١) السابل: المار في الطريق المطروقة. جمعه سوابل وسابلون.

وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وأرزائه أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسري إلى قلوبهم وأفئدتهم فيروح عنها بعض ما بها ويملؤها راحة وسكوناً.

إلا أن العناية الإلهية ـ التي تتولى حراسة الإنسان وتمده بلطفها وعنايتها من حيث لا يقدر ولا يحتسب وترى له دائماً خيراً مما يرى لنفسه ـ أبت أن تسلمها إلى وحشتها وكآبتها، فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها، وتعينها على أمرها.

(٤)

مرغريت

كانت تعيش في هذه الأرض قبل عام واحد من حضور « مدام دي لاتور » امرأة صالحة كريمة رقيقة الحال اسمها « مرغريت وفدت إليها على أثر نكبة حلّت بها في مسقط رأسها « بريتانيا » وخلاصتها أن نبيلاً من النبلاء الاصطلاحيين ، أي الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب . نزل بلدتها للاصطياف بها فرآها فأحبها وكانت فتاة غريرة ساذجة تصدق كل ما يقال عنها ، فصدقت ما حدثها به عن الحب والزواج والسعادة والرغد . كأنما خيّل إليها أن العظماء عظماء في أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء في مظاهرهم وأزيائهم لا يخلفون إذا وعدوا ، ولا ينكثون إذا عاهدوا . فاتصلت به اتصال الزوج بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبويه .

وما هي إلا أيام قلائل حتى ملّها واجتواها [١] كما ملّ الكثيرات من قبلها ، فرحل عنها فجأة أعظم ما كانت غبطة به وأملاً فيه وترك لها تحت وسادتها شيئاً من المال خيل إليه أنه الثمن الذي يقوم لها بوفاء ما بذلت من عرضها وشرفها ؛ فجن جنونها وهرعت إلى فُرضة البحر التي علمت أنه سيسافر منها فلم تر من سفينته الماخرة على سطح الدأماء إلا ما يرى الرائي من أعقاب النجم

(١) اجتوى الشيء : كرهه .

المغرب[1] فبكت إلى ما شاء الله أن تفعل ، ثم عادت إلى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث إلا قليلا حتى شعرت أنها تحمل جنيناً في أحشائها فأسقط في يدها[2] وعلمت أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها بعدما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التي هي كل ما تملك العذراء في يدها ، وكل ما تستطيع أن تقدمه مهراً لزوجها ، فأزمعت الرحيل إلى إحدى المستعمرات النائية لتواري في قاعها السحيق سوأتها وعارها ، فوفدت إلى هذه الجزيرة بعد عناء كثير وعقبات عظمى واستطاعت بمعونة بعض المحسنين الراحمين أن تبتاع لها خادماً زنجياً يعينها على أمرها ويساعدها على حراثة الأرض التي أوت إليها واستخراج ثمراتها .

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات لا تعرف أحداً من الناس ، ولا يعرفها أحد سواي ، وكانت تجلس دائماً على هذه الصخرة العالية أمام كوخها ترضع ولدها وتنسج نسيجها ، فلما وفدت هيلين « مدام دي لاتور » رأتها جالسة في مكانها الذي اعتادت الجلوس فيه ؛ فعجبت لأمرها وأنست بمرآها أنساً عظيماً ؛ لأنها ما كانت تتصور قبل أن تراها أن في الناس إنساناً له حال تشبه حالها ؛ فدنت منها وحيتها ، ثم جلست بجانبها وأخذت تسائلها عن شأنها فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصرع التي زلت فيه قدمها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها : إن الله لم يظلمني ، ولم يقس علي فيما فعل ، بل عاقبني على جريمتي التي اقترفتها عقاباً عادلاً شريفاً ؛ فله العتبى[3] معطياً وسالباً ،

---

(1) المغرب : المنحدر الى مغربه .
(2) أسقط في يده – على صيغة المبني للمجهول – تحير وندم .
(3) له العتبى : أي له الرضى .

وله الحمد على نعمائه وبأسائه .

رثت لها هيلين «مدام دي لاتور» وأوت[1] إليها وأعجبها منها إخلاصها وصراحتها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بدأً من أن تمنحها من بنات قلبها[2] مثل ما منحتها ، فأفضت إليها بسرها وحدثتها حديثها من مبدئه إلى منتهاه فقالت لها مرغريت : أما أنا يا سيدتي فقد لاقيت عقوبتي التي أستحقها بما أسرفت على نفسي ، وفرطت في أمري ، فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة لا ذنب لك ، ولا جريرة ؟

ثم دعتها إلى كوخها الحقير فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة ، وهي تقول : أحمدك اللهم فقد وجدت لي في هذا المغترب النائي أختاً لم أجد مثلها بين أهلي وقومي ، وما أحسب إلا أن آلامي قد انتهت .

كنت أسكن في ذلك الحين وراء هذا الجبل على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكني كنت على بعد ما بيني وبينها ، واعتراض . هذه العقبات دوننا ، متصلاً بها أزورها ، وأتفقد حالها ، وأزعى لها ما يرعى الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلة لا توجد إلا في سكان القفار المهجورة ، والمغتربات النائية ، فلا الجبال الشامخة ، ولا الصحاري الشاسعة ، ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأنما هم يقطنون محلة واحدة ، أو منزلاً واحداً ؛ أما في أوروبا فكثيراً ما يعيش الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم

(١) أوى له : رق له وأشفق عليه .
(٢) بنات القلوب : همومها وأسرارها .

أو ممر ضيق ، أو ظلة دانية ، ثم هو لا يعرفه ، ولا يحييه ، وربما أنكر وجهه وصورته ، وهناك قلما يستطيع القادم الغريب أن أن ينزل ضيفاً إلا عند نفسه في أخصب البلاد وأغناها وأرغدها عيشاً ، وأصلحها حالاً ؛ وهنا يجد ساعة نزوله المنزل الرحب ، والمناخ الكريم في كل دار وكوخ ، سواء في ذلك فقراء الناس وأغنياؤهم وسوقتهم وأشرافهم ؛ كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الأولى حياة البساطة والسذاجة ، والعيش في الأجواء الحرة المطلقة ، تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التي فطروا عليها من كرم وسماحة ، وجود وإيثار ، وود وإخاء .

وبعد : فلما سمعت أن جارتي قد نزلتْ بها ضيفة غريبة أتيت إليها أتفقد حالها وأعينها على أمرها ، فإذا أنا بين يدي فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألىء هالة وضاءة من الشرف والنبل تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ، ويتراءى في عينيها المنضعضعتين الذابلتين الأثر الذي يراه الانسان دائماً في عيون الفتيات المنكسرات : الذل والانكسار في ميدان الحياة .

وما هو إلا أن جلست إليها جلسة خفيفة حتى ألممت بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتها عن مستقبل حياتهما في هذه الجزيرة وكيف تستطيعان أن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادي مزرعة لهما تقتسمانها بينهما ويعينهما على استصلاحها واستثمارها خادماهما الزنجيان ؛ فأعجبهما مقترحي وعهدا إلي بتنفيذ ما أشرت به .

وكانت مساحة الوادي نحو عشرين فداناً ، فقسمته قسمين : قسماً أعلى ، وقسماً أدنى ، أما الأول فيبتدىء من رؤوس تلك

الصخور العالية التي تكسوها السحب أرديتها الشفافة البيضاء وتنبعث من خلالها أمواه نهر «اللاتينيه» وينتهي عند هذه الفجوة التي تراها أمامك، ويسمونها هنا «لامبرازير» لأنها تشبه في شكلها فوهة المدفع، وتكثر في هذا القسم الصخور والوعور التي يتعذر السير فيها؛ إلا أنه كثير الأشجار والنخيل، حافل بالينابيع والغدران.

وأما الثاني فيبتدىء من هذا المكان منحدراً مع النهر الجاري بجانبه إلى نهاية الوادي حيث ينحرف النهر بعد ذلك سائراً في رملة ميثاء بين جبلين شامخين إلى مصبه في البحر، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة الخضرة والأعشاب، إلا أن المستنقعات تكثر فيها في فصل الأمطار وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف فتصبح كأنها أرض صخرية، فهما في الحقيقة قسمان متعادلان تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما.

فلما فرغت من تهيئتهما اقترعت بين السيدتين عليهما، فكان القسم الأعلى نصيب هيلين «مدام دي لاتور» والقسم الأدنى نصيب مرغريت فرضيت كل منهما بنصيبهما إلا أنهما أبتا أن تفترقا في مسكنهما وعيشهما فرأيت أن أنشىء لهما كوخين متجاورين تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولولديهما أكثر مما تجدان في الكوخ الواحد، وأن أجعل أحدهما في ذيل القسم الأول، وثانيها في رأس القسم الثاني، فتسكن كل منهما في أرضها، وكأنها تعيش مع صاحبتها في مسكن واحد، فأعجبتهما تلك الفكرة واغتبطتا بها، فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال، واجتلاب الأخشاب من الغابات؛ وصنع مواد البناء وأنشأت لهما كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الأغصان المتشابكة، وغرست حولهما خميلة من أشجار اللاتينيه تظللهما وتقيهما وهج الشمس

وغائلة المطر .

وهنا صمت الشيخ وأطرق . ثم رفع رأسه بعد قليل فإذا دمعة رقراقة تترجح في مقلتيه كلما حاولت أن تسيل أمسكها واستمر في حديثه يقول :

نعم بنيتهما وشيدتهما وأنشأت لهما السقوف والأبواب والكوى والنوافذ وها أنذا أراهما الآن بين يدي ساقطين متهدمين ، فلا أبواب ولا سقوف ولا نوافذ ولا كوى ، ولا قطان ولا سكان ، وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى في نفسي ، فلا تبرح مخيلتي حتى تذهب معي إلى قبري فأبقى على هذه البقايا الماثلة من جدرانهما وأحجارهما ليستثير مرآها شجني . ويهيج آلامي وأحزاني ، أو كأن طوارق الحدثان التي لا تبالي أن تعصف بقصور الملوك وصروح الجبابرة وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الأبد ، وقفت وقفة الإجلال والإعظام أمام هذه الأكواخ الحقيرة المشعثة فأبت أن تقضي عليها القضاء كله إجلالاً لها واحتراماً لذكرى أصحابها الأوفياء المخلصين .

وبعد ، فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض فولدت طفلة جميلة كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه ، وسألتني أن أكون (عرابها) وأن أتولى تسميتها كما توليت تسمية ولد صديقتها . فأشرت على مرغريت أن تفعل ، لأني أردت أن تكون لها أما ثانية فسمتها « فرجيني » وقالت لأمها : سيهب الله ابنتك نعمة الفضيلة والعفة فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فإني ما فقدت السعادة إلا منذ اليوم الذي انحرفت فيه عن طريق الفضيلة .

(٥)

الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاسها بارئة نشطة فأخذت هي وصديقتها مرغريت تعملان في أرضهما بمعونة الزنجي (دومينج) وهو رجل كهل قد نيّف على الخمسين من عمره إلا أنه كان فتي الهمة والعزيمة واسع الخبرة في شؤون الزراعة الجليلة وأساليبها ، فكان يغرس في كل أرض ما يناسبها من البذور والأغراس ، لا يفرق بين القسمين ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر ؛ فزرع الذرة في التربة المتوسطة ، والحنطة في الأرض الجيدة والأرز في التربة السبخة ، والقرع والقثاء وما أشبههما من النبات المتسلق حول الصخور -وفوق رؤوس الهضاب ، وزرع البطاطا في التربة الجافة اليابسة ، وشجيرات القطن في الربوات العالية ، وقصب السكر في الأرض القوية المتينة ، وغرس على ضفة النهر حول الكوخين أشجار الموز ذات الأوراق العريضة والأفياء الظليلة ، ولم يفته أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروح بتدخينها عن نفسه هموم دهره وآلامه .

وكان يذهب — فوق ذلك — إلى الغابات البعيدة والأحراش النائية لاحتطاب الحطب واجتلاب أعشاب الوقود ، ويقضي جزءاً عظيماً من يومه في تمهيد الأرض وتذليلها وتكسير الصخور ورصف الحصى وإنشاء الممرات والمستدقات والجداول والأقنية وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضياً مغتبطاً لا أعينه عليه إلا

بالرأي والإرشاد لأنه كان يحب سيدته حباً جماً ، ويخلص لهما إخلاصاً عظيماً ، وربما كان للغرام يد خفية في ذلك النشاط الغريب المنبعث في أنحاء نفسه كما هو الشأن في أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فإنه كان مغتبطاً كل الاغتباط بتلك الصلة التي نشأت بينه وبين الزنجية « ماري » في العمل ، وبودّه لو استحالت إلى صلة أخرى غيرها أدنى إلى نفسه ، وألصق بفؤاده ، وقد تمّ له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ؛ فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها فبنى بها ليلة عيد ميلاد فرجيني وسعد بجوارها سعادة لا تختلف في روحها وجوهرها عن السعادة التي يهنأ بها البيض المتمدينون .

وكانت ماري فتاة نشطة حاذقة ذكية الذهن صناع اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت في مسقط رأسها « مدغشقر » العلم ببعض الصنائع اليدوية التي يزاولها الناس هناك ؛ فكانت تجيد صنع السلال من لحاء أشجار القصب ونسج المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار الليفية ، وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ومناظرته وترتيب أثاثه وتربية الطيور الداجنة ، ورعي الماشية ، ومزاولة الطبخ والغسل ، فإذا فرغت من عملها حملت ما فضل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب — ولم يكن بالشيء الكثير — إلى سوق المدينة ، فباعته فيها ، ثم عادت ببضعة دريهمات تعطيها لسيدتها .

أي إن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعنزتان للبن وبضع دجاجات للبيض ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

وكان لا بد للسيدتين من أن تعملا عملاً يعينهما على عيشهما

ويروح عنهما سآمة الوحدة ومللها ، فكانتا تغزلان بياض نهارهما وأحياناً سواد ليلهما على ضوء القمر ، فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ، ولكن مقتّراً مكدوداً ؛ فأكلتا الدخن والذرة ، وشربتا الماء الرنق ، ولبستا القمص البنغالية الخشنة التي يلبسها الإماء في هذه الجزيرة . ومشتا على الأرض حافيتين غير منتعلتين إلا في اليوم الذي كانتا تذهبان فيه إلى الكنيسة في حي « بمبلموس » لأداء الصلاة ، وقلما كانتا تذهبان إلى « بورلويس » عاصمة الجزيرة إلا في الدرجة القصوى من الضرورة حياء من نفسيهما وفراراً من أعين الساخرين والهازئين فإن فعلتا نالهما من الألم والامتعاض ما ينقص عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعـودا إلى مزرعتهما فإذا أشرفتا عليها ورأتا على بعد ، منظر خادميهما المخلصين وهما يهبطان إليهما من قمة الجبل ليساعداهما على صعوده وتسلقه ، وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ويمازج أنفاسهما ، نسيتا في هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما وآلم نفسيهما من خشونة الناس وقسوتهم وفضولهم ، وكبريائهم ، وكأنما قد نبتتا في هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ، ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها .

ولقد عشت في كل جو وبيئـة وخالطت جميع الطبقات والأجناس وعاشرت الناس أخياراً وأشراراً ، وأعلياء ، وأدنياء ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابين والصداقة بين المتصادقين ، فلم أر في حياتي منظراً أجمل ولا أبهج ، ولا أحلى في العين ، ولا أوقع في النفس ، من منظر الحب والصداقة بين هاتين السيدتين الكريمتين ، حتى كان يخيل إلي أحياناً أن نفسيهما قد استحالتا إلى نفس واحدة يحملها جسدان . وكنت إذا حدثت إحداهما شعرت كأني أحدث الأخرى معها . وإذا حدثتهما معاً كنت كأني

أحدث نفساً واحدة ذات صورة واحدة ولون واحد فلقد وجدت بينهما الهموم والآلام ، ومازجت بين نفسيهما الوحدة والعزلة والفكرة والرأي ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنطقت كل منهما بما نطقت به الأخرى ، وشعرت بما شعرت به ، وفكرت فيما فكرت فيه ، وكأن الله تعالى إذ زوى عنهما الأرض الفسيحة ذات الطول والعرض ، وحرمهما فيها نعمة العيش الهني ، أبدلهما منها بتلك الروضة الغناء من الحب والإخلاص ، لتعيشا فيها ناعمتين هانئتين ، لا تمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجف بأرضهما رجفة .

فإن اضطرمت بين جوانحهما في بعض الأحايين نار أقوى من نار الصداقة وأشد منها لهيباً واستعاراً لا تلبث أن تهب عليها عاصفة من دينهما وتقواهما فتلوي بهما عن سبيلها وتطير بهما إلى العالم الثاني كما تتطاير الشعلة الملتهبة في جو السماء إذا فقدت مادتها التي تتغذى بها على وجه الأرض .

وكان أعظم ما يؤنسهما ويروح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤية طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان ويعدوان ويطفران ، وينامان في مهد واحد ، ويستحمان في إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقاً إلى صاحبه إذا فقد مكانه وغاب عنه وجهه ، كأنهما أخوان شقيقان ، بل توأمان متشابهان .

وكثيراً ما كانت ترضع إحداهما ولد الأخرى فتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدها ، حتى قالت هيلين مرة لمرغريت : « سيكون لكل منا ولدان ولكل من ولدينا أمان » .

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ثدي واحد بعد

ما فجعهما الزمان بأسرتيهما ، وحرمهما حنان أبويهما وعطفهما ، سبباً في نموهما وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ، كالصنوين الباقيين من شجرتين قد عصفت الريح بهما وبأغصانهما إذا لُقّح أحدهما بالآخر أورقا وأثمرا بأبهى وأجمل مما لو بقي كل منهما في مكانه .

وكان يلذ لأميهما كثيراً الحديث عنهما ، وعن مستقبل حياتهما ، وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدهما ، كأنما قد بقيت في زوايا قلبيهما بقية من ذلك الألم الماضي : ألم حرمانهما الهناء الزوجي الذي كانتا تتعللان به في مؤتلف حياتهما فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به .

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهي أحياناً ببكائهما ونشيجهما حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما إلى منزلة في الحياة فوق منزلتها ، ونزول الأخرى فيها إلى مقام دون مقامها ، فعاقبتهما الطبيعة على تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد الذي تقاسيانه وتذوقان مرارته .

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يبغيان في مهدهما ، ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما وتشعران ببرد العزاء يتدفق في صدريهما ، خصوصاً عندما تذكران أن الهناء الذي فاتهما في ماضيهما لن يفوت ولديهما في مستقبل أيامهما ، وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاسد المدنية وشرورها وتقاليدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ، فلا ينالهما من أذاها شيء .

(٧)

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الأشياء وغرائبها أغرب من تلك الصلة التي كانت بين هذين الطفلين الساذجين الطاهرين ، ولا أعجب من ذلك الامتزاج الذي بين روحيهما ، فإذا شكا بول شكت فرجيني لشكاته ، وإذا بكا لا يخفض عبرته ، ولا يسري حزنه إلا رؤيتها باسمة بين يديه ، وكثيراً ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشئون فلا يدل على ألمها وحزنها إلا بكاؤه ونشيجه ، فكانت إذا ألم بها ألم طوت عليه ضلوعها ، وكاتمته نفسها ، ضناً به أن تراه باكياً أو متألماً .

وما جئت هنا مرة في شأن من الشئون إلا رأيتهما معاً يحبوان ، أو يدرجان أو يتداعبان ، أو يتماسكان ، أو يستبقان إلى غاية ، أو يتخاطفان لعبة ، فلم يكن شيء من الأشياء بقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته ؛ فقد كان لهما مهد واحد ينامان فيه معاً عاريين كعادة الأطفال في هذه الجزيرة ، وقد تلازما وتآخذا وتوسد كل منهما ذراع صاحبه كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر .

وكان أول ما نطقا به من الكلمات كلمتا الأخ والأخت ، وهي كلمة جميلة جداً ما خلق الله في الكلم أجمل ، ولا أحلى . ولا أشرف معنى ، ولا أطرب نغمة منها ، ويزيدها جمالاً وحسناً

صدورها من أفواه الأطفال الصغار كأنها عهد يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غداً ، أو كأنها راية السلام البيضاء يرفعونها على رؤوسهم ، ويلوحون بها في الآفاق .

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جدية يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر ، وإلى معونته ومساعدته ، فبدآ يشتركان في خدمة المنزل ومناظرة شؤونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله من طلب العيش ومعالجة القوت كل فيما هيأته طبيعته له .

فلحقت فرجيني بالزنجية « ماري » تتعلم منها الطبخ والغسل والنسيج وإعداد المائدة وتهيئة الفراش وخياطة الملابس وصنع السلال . إلا أنها كانت تعنى بما يتعلق بأخيها بول قبل كل شيء ، ولحق بول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة التي كانت لا تفارق عاتقه على فلح الأرض وحرثها ، وتخطيطها وتقسيمها وتحويل مياهها ، وقلع حشائشها ، وتسلق رباها ، وتقليم أشجارها ، فإذا عثر في طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر في عشه ، أو حشرة في حفرتها ، أو سمكة ملونة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها في جيبه ليقدمها هدية لفرجيني حين يعود إليهـــا .

وكانا على اختلاف شأنهما واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وجدت فرجيني فقد وجد بول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدراً إليها ، أو مشرفاً عليها ، أو هاتفاً بها ، ما من ذلك بد .

وأذكر أني كنت منحدراً ذات يوم من قمة الجبل ، وكان

الجو ماطراً مكفهراً ، فرأيت فرجيني مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقي به المطر المتساقط ، فهرعت إليها لأساعدها على المسير ، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الإزار الذي يضمها لا يضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها بول ، فنظرا إلي ضاحكين متهللين كأنهما مغتبطان باهتدائهما إلى تلك الفكرة الجميلة التي استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل إلى ظلة واحدة فذكرني منظرهما هذا ومنظر رأسيهما الصغيرين المتلاصقان في ذلك الإزار بمنظر طفلي « ليدا » ، وقد حفرا معاً في محارة واحدة .

وكانت حياتهما بسيطة ساذجة لأن ذهنهما كان بسيطاً ساذجاً خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا يفكران في شأن غير شأنهما ولا يسبحان في محيط غير محيطهما ، ولا ينتقلان بذهنهما من الحاضر إلى الماضي أو المستقبل ولا تترامى أبصارهما إلى ما وراء الأفق المحيط بهما ، كأنما يظنان أن العالم ينتهي حيث تنتهي جزيرتهما .

ولقد أراحهما من عناء البحث والتفكير جهلهما وأميتهما وبعدهما عن هموم العلم ومشاغله ؛ فلم يقدر لهما أن يسهرا ليلهما فبكين على المذاكرة والمدارسة حتى يغلبهما النـــوم فيناما في مكانهما ، ولم يذرفا الدموع الغزار يوماً من أيامها أمام معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكـــلاته ، حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يثر غيظهما وحنقهما عجزهما عن التغلب عـــلى خصومهما في ميدان المجادلة والمناظرة حتى تنشق مرارتهما غيظاً وحنقاً ، وما شعرا في ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما أن يعرفا غير ما يعرفان ، لأنهما يعلمان أنهما ما خلقا إلا ليعيشا سعيدين

هانئين ، وها هي السعادة تظللهما بأجنحتها البيضاء ، وتتدفق بحراً زاخراً تحت أقدامهما ، وإلا ليؤديا واجب الحب والإخلاص لذينك الشخصين الكريمين عليهما ، وها هما يقومان بهذا الواجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيده ، بل عابد لمعبوده .

فما بهما من حاجة إلى من يعلمها أن الكذب حرام ، لأنهما يكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ، لأن جميع ما يقع تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ، لأن ما يشتمل عليه كوخهما بسيط محدود لا يحتمل جشعاً ولا نهما ، ولا أن البر بالوالدين واجب ، لأنهما كانا يعبدان أميهما عبادة هي فوق البر والإحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ، لأنهما وإن لم يذهبا إلى الكنيسة إلا قليلا . فقد كانا يصليان في كل أرض وفي كل جو : في البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ؛ وفي بكور الأيام وأصائلها ، وأوائل الليالي وأواخرها .

* * *

وكذلك أشرقت حياتهما الأولى إشراق الفجر المنير في صفحة الأفق مبشراً بيوم صحو جميل وأخذت تمر بهما الأيام عذبة صافية جريان الغدير المترقرق على بياض الحصباء سواء ليلهـا ونهارها ، وصبحها ومساؤها .

وكان من شأن فرجيني أن تستيقظ صباح كل يوم مبكرة والطير لم يفارق وكره فتحمل جرتها وتذهب إلى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة فتستقي منه ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الإفطار ، حتى إذا برزت الشمس من خدرها وأخذت

تنفض بيدها غبار الظلام عن وجه الأرض ، وتمسح جبين الطبيعة المكتئب بريشة أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغريت من كوخها هي وولدها فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ثم اصطفوا لأداء الصلاة وبسطوا أيديهم إلى السماء ضارعين إلى الله تعالى أن يكلأهم بعين رعايته ويبسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهيء لهم من أمرهم رشدا ، فإذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ لتناول الطعام على مائدة من العشب الأخضر تحت ظلة دانية من الأغصان المتشابكة تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النثار الفضي اللامع .

فكان أثر ذلك الغذاء الطبيعي البسيط تحت هذه السماء الصافية وفوق تلك الأرض الندية المخضلة عظيماً في نمو الولدين وترعرعهما ، ونضرة وجوههما ، وحلاوة ملامحهما ، فلم تبلغ فرجيني الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها ، واعتدل قوامها وتهدل شعرها الأصفر اللامع على كتفيها كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، وأضاءت عيناها الزرقاوان بنور سماوي غريب كأنه قبس من النور الإلهي فإن ابتسمتا كانتا كأنهما ثغران ضاحكان ، وإن قطبت سبحتا وحدهما في جو السماء ، حتى تتلقى زرقتهما بزرقتها .

أما بول فقد كانت قامته أطول قليلاً من قامة فرجيني ، ونظره أحد من نظرها ، وأنفه أكثر شمماً من أنفها ، ولونه أقرب إلى السمرة من لونها أي أن ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة في تكوينها واستدارتها وكانت تنبعث من عينيه نار من القوة والنشاط تكاد تلتهب التهاباً لولا تلك الأهداب الندية الحافة بهما .

وكان لا يزال ثائراً مهتاجاً ما يهدأ ولا يسكن حتى تقبل عليه

فرجيي وتجلس بجانبه فإذا هو الطفل الصغير بساطة وسذاجة ووداعة ولطفاً .

وكثيراً ما كانا يجلسان معاً صامتين هادئين ساعات طوالاً على ضفة نهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية أو قمة مشرفة وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومد قدميه العاريين فكأنهما تمثال رخامي عتيق من تماثيل أولاد « بينلوب »[1] وكأن حياتهما حياة الملائكة الأبرار في عالمها العلوي لا تشعر بحاجتها إلى الحروف والكلمات في التعبير عن شعورها وإحساسها .

ولم يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الألسنة في نطقها وإفصاحها ، ولم يكن حبهما حباً صناعياً ولا متكلفاً فيحتاجا إلى استدامته واستبقائه وتأريث[2] ناره في قلبيهما بالملق والدهان والتدليل والترفيه وخلابة الألفاظ وسحر البيان ، لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته لما استطاع أن يجيب بشيء ، لأنه لا يفهم من الحب سوى أنه حاجة إلى بقاء صاحبه بجانبه لا يفارقه ، ولا يغيب عن وجهه ، ولا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً ، ولقد استقر هذا الشعور في نفسيهما وملك عليهما حواسهما وخوالجهما فلم يفكرا في تشخيصه وتحديده واستعراض صوره وألوانه ؛ فكان أشبه شيء بالإيمان في قلوب العجائز ، والإلهام في أنفس الحيوان ، والعبقرية في أذهان الخاملين المغمورين ، فهما ينعمان بحب هادىء لطيف لا جلبة فيه ولا ضوضاء ، ولا تجاذب ولا تآخذ ، ولا شكوى ولا عتاب ، ولا سهر ولا قلق ولا خوف من الطوارق ، ولا خشية

---

(١) بينلوب : زوجة عولس أحد أبطال اليونان في عهدها القديم .
(٢) أرث النار : أوقدها .

من الفواجيء .

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتلألأ وجهها بتلك المحاسن الباهرة بدأت تفكر في أمرها وأمر مستقبلها ، وتقول في نفسها : ماذا يكون مصير هذه الفتاة المسكينة غداً إن عدت علي عوادي الدهر ، وفرقت المنية بيني وبينها ، وخلفتها وحدها هنا في هذه القفرة المجدبة بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة لا سند لها ولا معين ؟

وكانت لها في فرنسا عمة ثرية ثراء واسعاً إلا أنها كانت امرأة متكبرة تياهة شديدة الذهاب بنفسها ، مدلة بجاهها ونفوذها مشردة في آرائها وأفكارها فنقمت عليها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذي اختارته زوجاً لها ، واعتبرت حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التي حلت بها وبأسرتها ، فأبت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة عندما عزمت على السفر إلى هذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها ، وضراعتها ومناشدتها ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ إليها في شأن من شئون حياتها ما تردد لها نفس على وجه الأرض ، أما الآن وقد أصبحت أماً يعنيها من أمر فتاتها ما يعني الأمهات من أمر فتياتهن ، فلم تر بداً من أن تحمل نفسها على ذلك المكروه الذي عافته برهة من الزمان ، فكتبت إلى تلك العمة القاسية كتاباً طويلاً أفضت إليها فيه بخواطر نفسها ، ووساوس قلبها ، وقصت عليها قصة حضورها إلى هذه الجزيرة ، وما كان من وفاة زوجها على أثر حضورها ، وحياتها الشقية التي كانت تحياها الآن من بعده وحيدة منقطعة لا ناصر لها ولا معين ، وظلت تحدثها حديثاً طويلاً عن ابنتها وما تخشاه عليها في مستقبل حياتها إن نشب بها ظفر جارح من أظفار الدهر

وفرقت المنية بينها وبينها ، ثم قالت في ختام كتابها :

« إن كنت ترين أنني لا أزال مذنبة بعد ذلك ، وأن تلك الدموع السخية التي رويت بها ثرى الأرض اثني عشر عاماً لا تكفي لمحو زلتي من صحيفة أعمالي ، فارحمي هذه الفتاة المسكينة من أجلها لا من أجلي فهي حفيدة أخيك وغصن دوحتك ، والبقية من أسرتك » .

لبثت تنتظر رداً على كتابها ، فلم يأتها ، فأتبعته بآخر ، ثم بآخر ، وضرعت في ذلك ضراعة لم يكن مثلها مما يهون على مثلها لولا عاطفة الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨ أي بعد قدومها هنا باثني عشر عاماً وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو « دي لابوردنيه » حاكماً على الجزيرة إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسلمها كتاباً ورد عليها من عمتها ، فاستطيرت فرحاً وسروراً ، وعلمت أن أيام شقائها قد انتهت ، وأن الله رحمها ، ورثى لبؤسها وشقائها ، وهرعت إلى « بورلويس » لمقابلته فدخلت عليه في ذلك الثوب البنغالي الخشن الذي اعتادت أن تلبسه في بيتها غير حافلة بشيء إلا تلك السعادة التي ستقدمها عما قليل لابنتها فاستقبلها الرجل استقبالاً جافاً خشناً ، وهي المرأة الشريفة الطاهرة التي تغضي العيون بين يديها إجلالاً وإكباراً ، والبائسة المسكينة التي تهابها النفوس مرثاة لها ومرحمة لبؤسها وشقائها ولم يزد على أن أومأ إليها برأسه إيماءة خفيفة ، ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته من يده وأنشأت تقرؤه بلهفة وسرور إلا أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتقع لونها ، وارتعشت يدها ، وترنحت في مكانها ترنح الشارب الثمل ، فقد كتبت إليها عمتها تؤنبها وتقرعها تقريعاً مؤلماً مهيناً ، وتشمت

بها وبمصيرها ، وتقول لها : هذا جزاء تمردك وعصيانك وخروجك عن أهلك وقومك وانقيادك إلى شهوتك البهيمية واسترسالك فيها استرسالاً دفع بك إلى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين الذي لا يليق به أن يحل سيور حذائك ، حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذي لا يمحى ، ولقد أحسنت كل الإحسان بمغادرتك هذه البلاد وفرارك إلى تلك الجزيرة النائية المنقطعة لتدفني فيها نفسك وعارك إلى الأبد ، وما موت زوجك ، وولادة ابنتك وشقاء عيشك والوساوس التي تعتلج في صدرك خوفاً على فتاتك ، وعلى مستقبلها ، إلا عقوبة أنزلها الله بك ليمحص عنك ذنوبك ويمهد لك سبيل غفران سيئاتك ، فاصبري ، ولا تجزعي ، حتى يقضي الله قضاءه فيك .

ثم أنشأت تدل عليها بنفسها ، وتفاخرها بعفتها وطهارتها وترفعها وإبائها ، وأنها قضت أيام حياتها عانساً متبتلة ما تزلق بها شهوتها في هوة من تلك الهوى التي تزلق فيها أقدم النساء الجاهلات ، ولا تسلم قيادها إلى رجل من الرجال كائناً من كان ضناً بحريتها أن تعبث بها أيدي المطامع والأهواء .

وكانت كاذبة فيما تقول فهي امرأة دميمة شوهاء غريبة الأخلاق والأطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة ، وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكي ، وكان كبرياؤها الكاذب يأبى عليها إلا أن تتزوج من رجل من ذوي البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة ، وليس بين هؤلاء جميعاً من يرضى أن يبيعها نفسه بيعاً مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف العيش ، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبريائها .

ثم ختمت كتابها بقولها « لا بد لك أن تعملي لنفسك ، فقد

علمت أنك في جزيرة صالحة للعمل والاستثمار ، وأن جميع المهاجرين الذين يؤمونها يعودون منها بالثروة الطائلة والربح الكثير ، على أنني قد كتبت إلى مسيو دي لابوردنيه حاكم الجزيرة أوصيه بك خيراً فاعتمدي عليه ، وعلى معونته ، ولا تكتبي إليّ بعد اليوم .

وكانت صادقة في كلمتها هذه ؛ فإنها كتبت إلى ذلك الرجل كتاباً توصيه بها فيه ؛ إلا أنها ملأته بذمها وثلبها ، والاستطالة عليها في عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها عذراً عنده في قسوتها عليها ، وعنفها بها وضنها عليها بالمعونة والمساعدة .

فكان من أثر ذلك في نفسه أن ازدراها واحتقرها ، وتجهم لها حين رآها ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، لم يسألها عن شأن من شئونها ولم يمنحها غير وعود كاذبة كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجراً ومللاً ، فكأنما أوصته بقتلها والقضاء عليها .

(٨)

العـــزاء

عادت هيلين إلى المزرعة ونفسها تسيل لوعة وأسى ، فما بلغت كوخها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة وتهافتت على سريرها باكية منتحبة ، فهرعت إليها صديقتها تسألها ما شأنها فأشارت إلى الكتاب وقالت : ها هي ذي خلاصة حياتي من أولها إلى آخرها ، ولم تكن مرغريت تحسن القراءة فأتتها بالكتاب فأنشأت تقرؤه عليها وفؤادها يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها : متى تخلى الله عنا ياهيلين فنلجأ إلى الناس في شؤوننا ، ونعتمد عليهم في رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم بما هيأ الله لنا من القوت في هذه الجنة الصغيرة التي نعيش فيها ؛ فما فينا من يشكو جوعاً أو عطشاً ، ولا من يمشي عارياً أو حافياً ، ولا من يبيت مغتماً أو محزوناً فروّحي عن نفسك ؛ فالله أرحم بك وبنا من الأقارب والأصدقاء ، ثم عجزت عن امتلاك نفسها ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء فتهافتت هيلين على عنقها وضمتها إلى نفسها وظلت تقول لها : آه يا صديقتي ! آه يا صديقتي .

وكانت فرجيني واقفة بجانبها فأثر في نفسها هذا المنظر المحزن ؛ فاستعبرت باكية ، وظلت تتناول يد أمها مرة ويد مرغريت أخرى فتقبلهما وتبللهما بدموعها وتقول لهما أرجو أن لا يكون ذلك من أجلي ؛ فبكى لبكائها الزنجيان وكانا واقفين عند الباب واشتد نحيبهما ونشيجهما ؛ أما بول فقد عصفت في رأسه عاصفة الغضب

وظل يضرب الأرض بقدميه ويشير بيديه متهدداً متوعداً لا يعلم من يهدد ، ولا من يتوعد ، ولا على أي رأس من الرؤوس يرسل صاعقة غضبه ، لأنه لم يفهم مما كان شيئاً ، فكان هذا المأتم الغريب في تلك الساعة الرهيبة مظهراً من مظاهر الإخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، ووحدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، واجتمعت القلوب على شيء هو أجمع لشملها وأوثق لرباطها من اجتماعها حول مواقف الهموم والأحزان ، فسرى عن هيلين قليلاً ، وضمت بول وفرجيني إلى صدرها وقالت لهما : إنكما ، وإن كنتما يا ولدي سبب أحزاني وآلامي ، ولكن الشقاء لم يأتني منكما ؛ فلم يفهما شيئاً مما تقول ، ولكنهما علما بها قد هدأت وسكنت ، وأنها تبتسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها .

وما لبثوا جميعاً أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ولعبهم ومرحهم .

وكانت تلك الحادثة أشبه شيء بسحابة اعترضت وجه الشمس ساعة ثم اضمحلت .

(٩)

الاستعمار الأوربي

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان في جوهما نمو النبات المحيط بهما وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجاياهما؛ فبينا فرجيني جالسة في الكوخ ذات يوم تهيء طعام الإفطار لأسرتها كعادتها والشمس لا تزال في خدرها، وأمّاها قد ذهبتا مع دومينج لأداء صلاة الأحد في كنيسة «بمبلموس» وبول في الحديقة يشذّب بعض أشجارها، وماري وراء الكوخ تشتغل ببعض شؤونها، إذ دخلت عليها زنجية مسكينة آبقة[1] كأنها الهيكل العظمي نحولا وهزالا ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بحقويها[2] فجثت على ركبتيها بين يديها باكية منتحبة وأنشأت تقول لها: الرحمة يا سيدتي فإني أكاد أموت جوعاً، وقد مرّ بي يومان، وأنا أجوب هذه الأحراش والغابات أتوارى مرة وأظهر أخرى، وأقتات كل ما هو فوق التراب مخافة أن تقع عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدوني إلى سيدي، والموت أهون علي من أن أعود إليه، فهو رجل قاس غليظ لا يزال يجلدني ويمزق لحمي بسوطه كلما بدا له أن يفعل ذلك، ثم كشفت ثوبها عن جسمها وأشارت إلى مواضع الضرب منه فإذا خطوط حمراء ملتهبة لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة، ثم قالت:

---

(١) الآبقة: الهاربة من مولاها.

(٢) الحقو: الخصر.

ولقد حدثت نفسي كثيراً بالانتحار فما كان يمنعني منه إلا الخوف والجزع ، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثاً حسناً ، ويقولون إنكم ، وإن كنتم من هذا الجنس الأبيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ، فأضرع إليك يا سيدتي أن ترحميني وتعودي علي بلقمة أتبلغ بها ، وأن تحولي بيني وبين الشقاء ، وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها فأوت[1] لها فرجيني ورقت لها رقة شديدة ونهضت إلى الطعام الذي كانت أعدته لأسرتها فأتتها به فالتهمته في لحظات قليلة وأخذ وجهها يتطلق فرحاً وسروراً ، فقالت لها فرجيني : أتحبين أن أذهب معك إلى سيدك وأشفع لك عنده عله يعفو عنك ويرحمك ، ويكون لك في مستقبله خيراً منه في ماضيه ؟ وما أحسبه إلا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك المعذب المقروح ، فشكرت لها الجارية فضلها ورحمتها ، وقالت لها : سأتبعك يا سيدتي حيث شئت فأنت ينبوع الرحمة والإحسان .

فهتفت فرجيني ببول فحضر فحدثته حديث الجارية والرأي الذي رأته لها ، فوافقها على رأيها واقترح عليها أن يرافقها في رحلتها . ثم سارا معاً والجارية تتقدمهما وتخترق بهما الغابات والأجمات في ممرات مستدقة غامضة تعرفها ، وكانت تعترضهما في مسيرهما بعض هضبات عالية كانا يجدان مشقة عظمى في تسلقها حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الأسود حيث مقام الرجل ، فانحدرا إليه ، وهناك شاهدا أبنية عظيمة فخمة تحيط بها حدائق غناء ، وأدواح ملتفة ومزارع منبسطة ، وعبيد كثيرون منتشرون في كل مكان يحرثون ويحصدون ، ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأوحال ويحملون الأثقال ويقطعون الصخور ولمحا صاحب المزرعة يتمشى

---

(١) أوى له وإليه – بالقصر – : رحمه ورق له .

بينهم مشية الخيلاء و «غليونه» في فمه ينفث منه الدخان وبيده عصا خيزران طويلة ، وهو رجل طويل القامة ، مهزول الجسم ، غائر العينين مقطب الجبين ، كأنما قد جثمت روحه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل من يدنو منها ، فارتاعت فرجيني لمنظره المرعب المخيف إلا أنها لم تجد بداً من التقدم ، فمشت نحوه خائفة مضطربة تعتمد على يد بول والجارية من خلفهما تتبعهما حتى بلغته فجثت بين يديه وأخذت تضرع إليه أن يعفو عن جاريته المسكينة ويرحمها وتناشده الله والكتاب في ذلك ، فلم يكترث في مبدإ أمره لمنظر فتى وفتاة فقيرين زريين في ملبسهما وهيأتهما إلا أنه لما وقع نظره على فرجيني ورأى منظرها البديع الجذاب ، وشعرها الأصفر الذهبي المسترسل على ظهرها ، وتلك العصابة الزرقاء التي تدور بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحيـاة يترقرق في وجهها ترقرق الطل في ورقات الورد ، وسمع صوتها الرخيم المتهدج كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بهت رشده ، وأخرج غليونه من فمه ، وابتسم ابتسامة نكراء ، تقدم نحوها قليلاً وألقى عليها نظرة فاجرة مريبة ، وقال لها : قد عفوت عنها أيتها الفتاة الجميلة لا من أجل الله ، ولا من أجل الكتاب ، بل من أجلك أنت .

فأشارت فرجيني إلى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدها نعمته وفضله . ثم انكفأت راجعة تركض ركض الهارب وبول يتبعها حتى ارتقيا الجبل الصغير الذي هبطا منه وجلسا تحت دوحة من أدواحه يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالاً عظيماً ، فقد قطعا في ذلك اليوم خمسة فراسخ في أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيها . ولا يهدآن ولا يتبلغان[1] بطعام ، ولا شراب ،

---

(١) تبلغ بالشيء : اكتفى به وقنع .

فقال بول لفرجيني ها قد مال ميزان النهار وبيننا وبين مزرعتنا مفازة منكرة لا أحسب أننا نستطيع قطعها قبل الغروب ، وليس في هذه البطحاء المحيطة بنا شجرة واحدة ذات ثمر صالح نطعمه أو ننقع ظمأنا بعصارته ، وأنت ظامئة جائعة لا طاقة لك بالصبر على ذلك أكثر مما صبرت ، فخير لنا أن نعود إلى مزرعة مولى الجارية ونطلب اليه أن يمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما نسبه ضاناً علينا بهما .

فوجمت فرجيني وقالت : لا يا بول . إن هذا الرجل قد ملأ قلبي خوفاً ورعباً وما أحب أن أرى وجهه مرة أخرى ، واذكر تلك الكلمة التي كانت تقولها لنا أمي دائماً « إن خبز الأشرار يملأ الفم حصى » فلنمض في سبيلنا وما أحسب أن الله يخذلنا ، أو يتخلى عنا .

قال : وما العمل ؟ والشقة بعيدة ، والمنال وعر ، والأرض قاحلة جدباء لا ماء فيها ، ولا ثمر ، ولا شيء مما يتبلغ به المتبلغ ، أو يتعلل به الظامئ ؟.

قالت : إن الله الذي يسمع زقزقة العصفور الصغير في عشه فيرسل إليه الحبة التي تشبعه ، سيسمع دعاءنا ، ويرد لهفتنا . وما ذلك عليه بعزيز .

ثم سارا في طريقهما فما أبعدا إلا قليلا حتى سمعا خرير ماء على البعد فانتعشا وصاحا بصوت واحد « إن ههنا ماء » وتبعا الصوت حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية ينفجر من صدوعها ماء زلال رقراق كأنه ذوب البلور في شفوفه ولمعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ووجدا من حوله بعض الأعشاب التافهة فأصابا منها

قليلاً ، ثم جلسا في مكانهما .

وإنهما لكذلك إذ لمحا على البعد نخلة ساحقة من نخيل الجوز ، والجوز أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيق مستطيل لا يزيد حجم ساقه عن حجم ساق الإنسان إلا قليلا ، وربما ذهب في الهواء ستين قدماً أو أكثر ، وله في شعفاته [1] لفائف ضخمة متراكمة أشبه بلفائف الكرنب تحمل في جوفها طلعاً أبيض ناصعاً ، حلو الطعم جيد الغذاء .

فاتجها بها إذ رأياها ، وهرعا إليها ، وكانا بين أن يصعداها ، وهو ما لا سبيل إليه ، أو يقطعاها ، وهو ما تعيا به قوتهما ، لأن جذعها على رقته ونحافته مؤلف من خيوط ليفية متداخلة متينة النسيج ، سميكة القشرة ، تعيا بها الفؤوس القاطعة ، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقاها فتهوى بين يديهما فيظفرا بثمرها ، ولم يكن لديهما نار ، ولا شيء مما تقتدح به النار ، وليس في تلك المدرة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها ، واختلاف صورها وأشكالها حجر من أحجار الاقتداح ففتقت الحاجة لبول حيلة من أغرب الحيل وأبدعها وقديماً فتقت الحاجات حيل الرجال ، واستثارت دفائن ذكائهم وفطنتهم ، وما انتفع العالم في جميع شؤونه وأحواله بمثل ما تفتقه الحاجات والضروريات ، ولا نبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا في تربة الفقر والإقلال ، فعمد إلى ظر [2] رقيق الأطراف مما يقوم لدى سكان تلك الأصقاع مقام المدى في منفعتها وجداها ، فبرى به طرف غصن يابس متين حتى صيره كالسهم ، ثم عمد الى غصن

---

(١) شعفاته : أعاليه .

(٢) الظر : الحجر المحدد .

آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقباً دقيقاً بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرف الغصن الأول في ثقب الغصن الثاني بعد ما شد عليه بقدمه وظل يديره بكلتا يديه بسرعة عظيمة ، فما هي إلا لحظات حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها من ساق النخلة فتشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلا حتى هوت بين يديه هوى الكوكب الناري من سمائه ، فأخذ يفض اللفافات عن طلعها الأبيض النضير ، وجلس هو وفرجيني يشتويان ويأكلان ألذ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ومرت بهما ساعة سرور وغبطة نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم ما لبثا أن جمعا شتات نفسيهما وأخذا يتمثلان حيرتهما وضلالهما ، وبعد الشقة بينهما وبين ارضهما ، ويذكران قلق أميهما عليهما وجزعهما لغيابهما ، ويقولان في نفسيهما . لا بد أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة في شأنهما حينما عادتا من الكنيسة إلى المزرعة فلم تجداهما ، ولم تعرفا الوجه الذي ذهبا فيه .

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بأنظارهما يمنة ويسرة ليتعرفا الطريق التي أتيا منها فأضلاها فسقط في أيديهما ولم يعرفا كيف يعودان وكان بول أهدأ من فرجيني روعاً وأثبت جأشاً ، فظل يعللها ويهدىء روعها ويقول لها : إن كوختنا يكون دائماً في مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس ، فإذا نحن اتجهنا جهة الشرق لا نحيد عنه يمنة ولا يسرة ، ثم إذا صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذي نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا في مزرعتنا .

وأخذا يسيران في الوجهة التي توهماها فمرا بغابات كثيرة ، وأدواح ملتفة ، وهضاب عالية ، وأنهار جارية ، لم يطأ السائحون

لها أرضاً حتّى اليوم ، وظلا على ذلك ساعتين حتّى اعترض طريقهما نهر واسع يتدفق ماؤه تدفقاً ، فذعرت فرجيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجاثمة في مجراه واستحال عليها ان تضع قدمها فلم ينشب[1] بول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء لا يحفل بتياره المتدفق ، ولا بصخوره المتزلقة وظل يقول لها وهو سائر بها لا تخشي شيئاً يا أختاه فإنني جلد قوي لا يعجزني حمل شيء من الأشياء كيفما كان شأنه ، وأشعر أني أزداد قوة وجلداً حين أكون معك ؛ وأستطيع أن أقول لك إن نفسي كانت تحدثني بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية حينما ظننت أنه احتقرك وازدراك فلم يحفل بك ولا برجائك ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالي بعواقبها .

فاضطربت فرجيني وقالت له : ولكنك لا تفعل يا بول إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريراً ، دع الأشرار يا صديقي وشأنهم ، لا تهجم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت شرهم في صدورهم حينما لا يجد له مضرباً ولا منتدحاً ، ثم تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت : آه يا رب لم لم تجعل طريق الخير سهلاً ليناً كطريق الشر ؟

ولم يزل سائراً بها حتّى بلغ الضفة الأخرى ، وأراد أن يستمر في سبيله حاملاً إياها على ظهره ويصعد بها الجبل المثلث الرأس اعتزازاً بقوته وبأسه فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها .

واستمرا سائرين في أرض وعرة كأداء[2] كاطراد السيف

---

(١) لم ينشب : لم يلبث .
(٢) الأرض الكأداء : الشاقة الوعرة .

تخفى فيها النعال ، وتدمي الأقدام ، وكانت فرجيني قد نسيت نعلها في كوخها حينما ورد عليها من أمر تلك الزنجية المسكينة ما أذهلها وطار بلبها ، فأضر بها الجهد ، وأدمى قدميها المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته وأخذت تنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانية عليها فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ، فانتعلته ، فهدأ بعض ما بهما ؛ وأقبلت على بول تقول له : ها هي ذي الشمس قد أشرفت على المغيب ، ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جداً وقد نال مني التعب ولم يبق لي جلد على المسير ؛ فاتركني وحدي هنا ، واذهب الى المزرعة لتخبر أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إلي من قبلكم من يحملني إليكم ، فأبى بول مستعظماً الأمر ، وقال الموت أهون علي من أن أتركك وحدك في هذا المكان الموحش المقفر فسأبقى معك ما بقيت فإن أظللنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز فأطعمتك ثمرها كما فعلت الغداة ثم نسجت لك من أعوادها وأغصانها مهاداً لينا تنامين عليه وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح .

فأذعنت لرأيه وكانت قد شعرت بشيء من الراحة بعد ما خصفت قدميها بتلك الأعواد المخضلة فقامت تعتمد بيمناها على فرع قطعته من تلك الشجرة ، وبيسراها على كتف بول حتى بلغا غابة كثيفة قد أحاط بها من جميع أقطارها كثير من الأدواح الباسقة الملتفة فدخلاها ، وما أمعنا فيها إلا قليلاً حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء تلك الهضاب الشامخة ، والأدواح العالية ، وغاب عن عينيهما الجبل المثلث الرأس ، وكان علمهما الذي يهتديان به ، فإذا هما في مضلة بهماء لا يريان فيها غير الصخور العالية ، والهضاب المشرفة والأشجار المتشابكة ، والمسالك

المتشابهة والأعماق المتغلغلة ، فذعر بول ذعراً شديداً ووقف في مكانه حائراً ذاهلاً لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع ؟ ثم اندفع يعدو ههنا وههنا هائماً مخبولاً عله يجد طريقاً أو مسلكاً ، أو دليلاً يهديه الطريق ، فلم يجد فتسلق شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس أو يرى قرص الشمس في منحدرها إلى مغربها ، فلم ير غير ذوائب الأشجار العالية تتلألأ على أوراقها الخضراء أشعة الشمس الذهبية قبل إنحدارها إلى الغروب ، وغير الظلال الممتدة التي يرسلها الليل طلائع لجيوشه الزاحفة المتدفقة ، وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها ساعة الغروب وساد السكون على كل شيء فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء السابحة في أجواز الفضاء لا يدب فيها حيوان ، ولا يخطر إنسان ؛ فملك الخوف قلب بول وجن جنونه وأخذ يصيح بأعلى صوته لا يدري من يحدث ومن ينادي : الغوث ، الغوث ، النجدة ، النجدة ، إلي أيها الناس لتنقذوا فرجيني البائسة المسكينة . فلم يجبه غير الصدى المتردد .

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوته حتى خيل إليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصداء فنزل من مكانه حائراً متضعضعاً ، ليس وراء ما به من الهم غاية . ثم وقف وأجال نظره في الفضاء فلم ير ماء ولا تمراً ولا نخيلاً ولا شجراً ، ولا كناً ولا مأوى ولا شيئاً مما يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل فصرخ صرخة عظمى وتهافت على الأرض باكياً منتحباً ، فذعرت فرجيني حين رأته على تلك الحال وهرعت إليه وضمته إلى نفسها وظلت تقول له : لا تبك يا بول فإن بكاءك يقتلني هماً وكمداً ، واغفر لي جريمتي التي أجرمتها إليك ، فلولاي لما قاسيت هذا

البلاء الذي تقاسيه الآن ، ولقد كان خيراً لي ألا أقدم على عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمي ، ثم قالت له : دع البكاء وتوجه إلى الله تعالى بالضراعة والابتهال عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجاً .

وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورهما ووجدانهما وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس القانتين المتبتلين في مواقف خشوعهم وابتهالهم وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها ولم يبق منها في حاشية الأفق إلا كما يبقى على صفحة البحر الهادىء من آثار السفينة الماخرة ، فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب ينبح نباحاً شديداً فصاح بول : إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون الأيائل[1] في أعماق هذه الغابات ليطلقوا عليها كلابهم فتعقرها ، ثم اشتد نباح الكلب وأخذ يدنو منهما شيئاً فشيئاً ، فارتعدت فرجيني وقالت : يخيل إلي يا بول أني أسمع صوت كلبنا « فيديل » لا بل هو بعينه وما ارتبت فيه قط .

وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل » تحت أقدامهما يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ، ويكاد لو استطاع أن يبكي فرحاً بهما ، ثم ما لبثا أن رأيا الزنجي دومينج مقبلاً عليهما ؛ فازداد سرورهما واغتباطهما وما وقع نظر الرجل عليهما حتى هرع إليهما وجثا تحت أقدامهما باكياً مستعبراً وظل يقول لهما : لقد مر بأميكما اليوم يا ولدي يوم ما مر بهما مثله منذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ولقد كان جزعهما عظيماً جداً حينما عادتا من الكنيسة فلم تجداكما ، ولم تعرفا أي سبيل سلكتما ، ولا أي أرض اشتملت عليكما ، ولم تستطع ماري أن تقول لهما شيئاً لأنها كانت مشتغلة

(١) الأيائل : جمع أيل — بالتشديد — : حيوان كالوعل .

ببعض الشؤون وراء الكوخ في الساعة التي خرجتما فيها فلم تراكما ، وقد فتشنا عنكما كل غاد ورائح فلم نجد من يدلنا عليكما ، فرأيت أن أستعين بالكلب « فيديل » على تتبع آثاركم فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتمها ، وكأنه علم ما يريد منه فألصق خيشومه بالأرض وانبعث في الطريق التي سرتما فيها فعل الدليل الحاذق فتبعته أخترق الغابات والأجمات وأتسلق الصخور والهضاب . وأجتاز الجداول والأنهار وأشعر بجميع ما شعرتما به من المتاعب والآلام حتى بلغنا ضيعة الرجل الأوروبي على شاطىء النهر الأسود ، وهنالك حدثني بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما إليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة كانت قد أبقت منه وخافت الرجوع إليه فوعدكما بالعفو عنها ، ثم ما لبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلما ما تم في شأنها .

فاضطربت فرجيني وقالت : وماذا تم في شأنها ؟ ألم يعف الرجل عنها ؟ فابتسم دومينج وقال : نعم عفا عن قتلها وإزهاق روحها ، أما دون ذلك فلا ، فإنه ما لبث على أثر ذهابكما أن أمر بشدها إلى بعض الأشجار عارية ، وظل يجلدها بسوطه حتى تناثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكي العيون وتذيب الأكباد وقد رأيتها بعيني فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة .

وما أتم كلمته حتى صعقت فرجيني وهتفت بكلمتها التي كانت ترددها دائماً : آه يا رب لم لم تجعل طريق الخير سهلاً ليناً كطريق الشر !؟

ثم عاد الزنجي إلى حديثه يقول :

ثم انكفأ «فيديل» راجعاً فتبعته فسار قليلاً على شاطىء النهر الأسود ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه فصعدت وراءه حتى قادني إلى عين ماء جارية رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة لا يزال ينبعث دخانها وبقايا طلع مشوى متناثر حولها ، فعلمت أنكما جعتما بهذا المكان وأن الجوع قد نال منكما منالاً عظيماً فتجشمتما في طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادني الكلب بعد ذلك إلى هنا كما تريان ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ ، وقد أرسلت لكما سيدتاي هذا الطعام فكلاه وخذا لنفسكما راحتها وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود ، وأخرج لهما طعاماً كثيراً وأثماراً متنوعة ، وركوة ماء قراح ، وشيئاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص على فرجيني أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للمسير فإذا بول وفرجيني ضعيفان متضعضعان لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين والإعياء.

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب لا يدري ماذا يصنع أيحملهما على عاتقه وهو ما لا طاقة له به ، أم يقضي الليل بجانبهما ووراءهما أماهما تنتظرانهما انتظار الظامىء الهيمان علالة الماء البارد؟ أم يرجع إلى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما؟ وكيف له بتركهما وحدهما في هذه القفرة الموحشة التي لا يعلم إلا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوف وأهوال فتنفس تنفسة طويلة وأنشأ يقول : أسفي على تلك الأيام المواضي حين كنت أحملكما فيها يا ولدي على ذراع واحدة ما أشكو ولا أتبرم ، أما اليوم فقد وهن عظمي ، وضعف متني وتقاربت

خطاي ولم يبق لي في الحياة إلا هذه الخطوات البطيئات التي أخطوها إلى قبري .

وإنه لكذلك إذ لمح أشباحاً سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل فراعه منظرهم ، ثم تبينها فإذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليهم البيض في شعاب الجبال ومخارمها وكانوا قد سمعوا وهم في مكمنهم حديثه مع الولدين ورأوا حيرته في أمرهما فجاءوا لمساعدته وقال له زعيمهم : إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلباً وأشرفهم نفساً ، وأدناهم رحمة فقد جشما اليوم نفسهما عناء عظيماً في سبيل مساعدة زنجية مسكينة كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما ، فرحماها وأويا إليها وذهبا بها إلى سيدها ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها ، وقد رأيناهما صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطىء النهر الأسود فشكرنا لهما في أنفسنا فضلهما ونعمتهما وعجبنا كيف استطاع ذلك الإهاب الأبيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلباً غير أسود وقد سمعنا الآن حوارك معهما وعلمنا أنهما في حاجة إلى من يحملهما إلى مزرعتهما ، فجئنا نتولى ذلك بأنفسنا مكافأة لهما على نعمتهما التي أسدياها إلى تلك الطريدة المسكينة .

ثم أشار إلى أصحابه فاقتطعوا في لحظات قليلة بضعة أعواد من الأشجار العاتية وصنعوا منها ما يشبه المحفة فصعد إليها بول وفرجيني وحملها أربعة منهم على عواتقهم ومشى الباقون أمامهم ينيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغنون أغانيهم الخاصة كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التي يعالجونها في أنفسهم حتى وصلوا عند منتصف الليل إلى المزرعة .

وكانت هيلين ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب الشمس

عند سفح الجبل وقد نصبتا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الكبيرة لتريا على ضوئها وجوه القادمين ، فما لمحتا المحفة على بعد حتى طارتا إليها وضمتا ولديهما إلى صدرهما باكيتين ، متنحبتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم والتفتت هيلين إلى ابنتها فقالت لها العفو يا أماه فقد جاءتني اليوم زنجية مسكينة آبقة من سيدها تتضور جوعاً ، وتسيل نفسها هماً وكمداً ، فسألتني أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلائها فقدمت لها ما شاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت في أمرها بعد ذلك فلم أر خيراً لها من أن أصحبها إلى سيدها وأسأله العفو عنها والمرحمة بها وأبى بول إلا أن يصحبني ، فذهبنا إلى شاطىء النهر الأسود ، فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق ، وظللنا حائرين ساعات طوالا حتى وافانا دومينيج ، وكان التعب قد نال منا منالاً عظيما ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء الزنوج الطيبون لمساعدتنا وصنعوا لنا هذه المحفة وحملونا عليها رحمة بنا ، ووفاء بذلك المعروف القليل الذي بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزي الله المحسنين خير جزاء بما فعلوا .

فضمتها أمها إلى صدرها ، وقالت : قد عفوت عنكما يا ولدي ، ولا حرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين .

ثم عادوا جميعاً إلى أكواخهم فرحين مغتبطين وقدموا للزنوج كثيراً من الطعام والشراب فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا .

(١٠)

السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن أقول لك يا بني إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ، لا غيث يهطل من السماء ، وأن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذرها ، ومطامع الحياة وشهواتها ، سعيدة حيثما حلت ، وأنى وجدت : في القصر وفي الكوخ ، في المدينة وفي القرية ، في الأنس وفي الوحشة ، في المجتمع وفي العزلة ، بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور فمن أراد السعادة فلا يسأل عنها المال والنسب، وبين الفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والأرواح والرياحين ، بل يسأل عنها نفسه التي بين جنبيه فهي ينبوع سعادته وهنائه إن شاء ، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد ، وما هذه الابتسامات التي نراها تتلألأ في أفواه الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين لأنهم سعداء في عيشهم ، بل لأنهم سعداء في أنفسهم ؛ وما هذه الزفرات التي نسمعها تتصاعد من صدور الأغنياء والأثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لأنهم أشقياء في عيشهم بل لأنهم أشقياء في أنفسهم ، وما كدر صفاء هذه النفوس وأزعج سكونها وقرارها ، وسلبها راحتها وهناها مثل عاطفة البغض ، ولا أنار صفحتها وجلى ظلمتها مثل عاطفة الحب ، فأشقى الناس جميعاً المبغضون الذين يضمرون الشر للعالم ، فيجزيهم العالم شراً بشر . وأسعدهم جميعاً المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم

وصفاءهم ، فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مثل ما منحوهم .

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة أن تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجعجعة المصائب بها ، فقد كانت تحمل بين جنوبها نفوساً طاهرة شريفة لا تضمر حقداً ، ولا تعرف غلا ، فأحبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسيء ، وعطفت على الناس جميعاً ، من تمت إليه بصلة ، ومن لا تمت إليه بشيء .

ولم تحقد على الناس أو تضمر لهم في نفسها شراً ، وما لها إلى الناس حاجة ولا رأي لها في مطالبتهم بشيء مما في أيديهم من مال أو جاه ، أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله لها ، ولم تطلب مزيداً ، ورضيت من حياتها بهذه العلالة القليلة التي تتعلل بها ، فاراحت نفسها من هموم المطامع ومتاعبها .

وكانت أحاديثها التي تجري بينها أحاديث طاهرة بريئة لا تطغى فيها الألسنة والأفكار ، ولا تتناول شيئاً من شؤون الناس خاصها أو عامها والغيبة رسول الشر بين البشر ، بل هي أساس الشرور جميعها قديمها وحديثها ، لأن المرء إذا اعتقد من طريقها الشر في صديقه أو عشيره وملكته فكرة سوء الظن به أبغضه واجتواه ، وحذره واتقاه وكان لا بد له من إحدى اثنتين : إما أن يصارحه ببغضه إياه ، فتصبح حياته معه حياة نكدة لا نهاية لهمومها وآلامها ؛ أو يماذقه ويداوره ، فيصبح رجلاً منافقاً كذاباً ؛ وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيراً أو شرا .

نعم إنها لم تكن تعتمد في حديثها على العلم والتاريخ كما يعتمد الناس في مجتمعاتهم ، ولا كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والأمثال والعظات والعبر ، والمقارنات والموازنات ؛ ولكنها كانت لذيذة

شهية رقيقة مستملحة. لأنها كانت تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعة المفتوح أمامها، وكتاب الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذي لا يقبل تأويلا ، ولا يحتاج إلى تفسير ؛ والذي يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله؛ فلا حاجة به إلى من يدلّه عليه ، أو يرشده إليه.

وما هي إلا أيام قلائل حتّى انتشر لتلك الأسرة الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكر عطر ؛ فأخذ الناس يتحدثون بأدبها ولطفها ؛ ومروءتها وكرمها، وأياديها الظاهرة والخفيّة ورحمتها الخاصة والعامة وإن لم يعرفوا لها اسماً ولا لقباً فإذا سأل السائل من السابلة أو الطارئين من هم؟ كان جواب المجيب : إنهم قوم طيبون وكفى ؛ كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ينشق الناس طيبها ويحمدون عرفها ، وإن لم يعرفوا مـــكانها .

(١١)

العمــل

وكان بول وهو في الثالثة عشرة من عمره كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطاً وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهى به أمثاله من الغلمان في مثل هذه السن . وكأنما كان يشعر في نفسه أنه مسؤول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض فلا بد له أن يعمل حتى يصل إلى الغاية التي يريدها ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيماً ، وقد وهبه الله قريحة وقادة وذهناً خصباً ، وذوقاً سليماً ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الأشياء والتأليف بين متنافراتها . فرسم في ذهنه صورة بديعة لذلك الوادي الجميل كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لإبرازها وتحقيقها فلم يخطىء ، ولم يضطر ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا في القليل النادر مما يستعصي مثله على أمثاله فكان لا يراه الرائي إلا غادياً أو رائحاً أو مصعداً أو منحدراً ، أو متسلقاً شجرة أو مكباً على قناة ، أو حاملاً غرساً ، أو خائضاً نهراً ، ودومينج وراءه يعينه على ما يعجز عنه من حمل الأثقال وتحويل المياه ونقل الأغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة والقطن والقصب ، تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار الليمون والبرتقال والتمر الهندي ونخيل البلح والجوز وألواناً من الأزهار والأنوار

تتألق في أغصانها تألق الأحجار الكريمة في التيجان المرصعة ، وأجرى المياه حول تلك الأغراس ، وفي خلالها بنظام دقيق كأنما قد خطها بالبركار وزرع الأكمات والروابي المشرفة على الوادي من جميع نواحيه فتراءت لعين الناظر كأنها قباب لطاف أو أهرام صغار مكسوة برقاق الخز والديباج على اختلاف أصباغها وألوانها ، ولم يترك بقعة جدبة ، ولا أرضاً صلبة إلا هز تربتها ، وأحيي مواتها فاستحالت الى روضة أنف[1] تتدفق ثماراً وأزهاراً ، وتسيل عيوناً وغدراناً ، وأعجب ما كان يعجب الناظر في هذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعالي الجبال تنثر الحصب حولها نثراً ، وتدور بالربى والهضاب قلائد وعقوداً ، والحمائل والأشجار أوشحة ومناطق وتتلوى في سيرها وتدفعها تلوي الحيات المذعورة الهائمة على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء تنبسط في مذاهبها ومناحيها ، ثم تتلاقى أطرافها فتكون بركاً صغيرة مستديرة تحف الأعشاب المخضرة كما تحف بالعيون أهدابها . فإذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل إليك أنها المرايا[2] الصافيات في أطرها[3] أو أحجار الفيروز في خواتمها ، ولما كانت الأرض في تلك الدائرة متدرجة غير مستوية فقد راعى أن يغرس الأدواح الباسقة في البقاع المنخفضة ، والأشجار المتوسطة في الأماكن المتوسطة والشجيرات القصيرة في المشارف العالية ، فاستوت رؤوس الأشجار في علوها وارتفاعها كأنما قد قرضت ذوائبها بمقراض ، أو كأنما غرسها غارسها في بطحاء مستوية ، وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة

---

(١) الأنف من الرياض : ما لم يرعه أحد .
(٢) المرايا جمع مرآة .
(٣) الأطر : جمع إطار ، وهو ما يحيط بالشيء .

فيغرس بين يديها الأشجار العظيمة المورقة فتتلاقى ذؤابة الشجر بذؤابة النهضة فتتكون منهما قبة جوفاء تشرف على مجلس رطب ظليل كانوا يفيئون إليه من حر الهاجرة فإذا هم في روضة يانعة من رياض الجنة تزخر أشجارها ، وترن أطيارها وترف ظلالها ، وتتهادى نسائمها ، وأجمل من هذا وذاك أنه غرس صفين متقابلين من الأشجار الوحشية الضخمة يمتدان على مدى بعيد فتتألف منهما دهليز ضيق مستطيل لا تنفذ إليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل إليه أضواء النهار ، فإذا دخله الداخل خيل إليه أنه يسير في نفق مظلم تحت الأرض وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك الوحشة التي يشعر بها سكان السراديب في سراديبهم ، أو عملة المناجم في أعماق مناجمهم .

في أحضان ذلك الوادي الجميل ، وفي ذمة تلك الجنة الزاهرة وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من الربى والهضاب كان يعيش هؤلاء القوم في أكواخهم البسيطة عيشاً سعيداً هانئاً متمتعين بما لا يتمتع به الأثرياء في قصورهم وبساتينهم والسعداء في جناتهم وعيونهم ، فإذا انقضى النهار وأوت الشمس إلى خدرها صعدوا إلى صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادي جميعه فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ؛ وأعشابه وأشجاره وخمائله وكرومه ومروجه وحرجاته ؛ وظلاله وأضوائه ؟ فإذا ألقوا بأنظارهم في جو السماء المائج فوق رؤوسهم بأضوائه وأنواره ، خيل إليهم أنهم بين سماءين متقابلتين : سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ؛ أو روضتين متراثيتين : تتألق في إحداهما الزنابق البيضاء على ديباجة زرقاء ، وفي أخراهما الورود الحمراء على قطيفة خضراء .

(١٢)

التاريخ

وكانوا يسمّون هذه الصخرة « اكتشاف الصداقة » لأن بول غرس في قمتها شجرة الأثل ترفع في أعلاها منديلاً أبيض يشبه العلم وناطه بخيوط مختلفة تسترسل في أسفل الشجرة ، فإذا لمحني مقبلاً على البعد شد الخيط فانتشر المنديل واضطرب في الهواء ، وكان ذلك إعلاناً للأسرة بقدومي كما يرفع العلم على قمة الجبل علاناً بقدوم سفينة إلى الشاطىء .

وكذلك كان شأنهم دائماً في تسمية الأماكن والبقاع والجذوع والأشجار التي يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها إلى غرض ، ويسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل إلي أنهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية فتدب فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم « ميدان الاتفاق » على بساط من العشب الأخضر مسور ببضع شجيرات متسقات من أشجار البرتقال كان بول وفرجيني يرقصان عليه معاً في ضوء القمر ، وأطلقوا اسم « الدموع الممسوحة » على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين ومرغريت لأول عهدهما باللقاء وأخذت كل منهما تقص على صاحبتها وتبثهـا أحزانها وآلامها فتضمها الأخرى إلى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا حقلاً من القمح باسم « نورماندي » مسقط رأس هيلين وآخر من الأرز باسم « بريتانيا » مسقط رأس مرغريت ، إلى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما

أرادوا ، وقد هجروا بلادهم إلى الأبد وحالت الحوائل بينهم وبينها أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيالا ، بعد ما فقدوها سكناً وموطناً ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويلطفوا من حرارة شوقهم إليها .

وأغرب من ذلك أن الزنجيين « ماري ودومينج » لم يكن قلبهما خالياً من ذلك الشعور الطيب الشريف ، شعور الوفاء للوطن والحنين إليه فأطلقوا اسم « أنغولا » و « فول بودانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع شغفاً بأوطانهما وعهود صباهما وضناً بذكراها أن تزول .

وكانت تعجبني من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح الأثرية الغالبة على شعورهم ووجدانهم لأني أعتقد أنها هي بعينها روح الوفاء والإخلاص ، وأن من لا خير فيه لماضيه فلا خير فيه لحاضره ومستقبله .

وما زلت مذ نشأت لا أؤثر منظراً من مناظر الحياة ، ولا مشهداً من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم أعثر به في سفرة من أسفاري في بادية منقطعة أو صحراء شاسعة فأقف بين يديه ساعة من نهار وأرى في نؤيه وأحجاره وصخوره المبعثرة وأعمدته المتناثرة ونقوشه المحفورة على بقايا جدرانه صورة أولئك القوم البائدين الذين كانوا يسكنونه ويعمرون عرصاته ومغانيه ، وكأني أسمع في صفير رياحه وعزيف جنه وغيلانه صائحاً يصيح بي : لقد كان يعيش في هذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون كما تشعرون ويفكرون كما تفكرون ، ويأملون في الحياة الطيبة الهانئة كما تأملون ، وهم وإن ذهبوا بأجسامهم ، وخلا وجه الأرض

من سميرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملة أسرار حياتهم إلا أرواحهم وآثارهم التي بقيت على الأرض من بعدهم .

هنالك أشعر أنني قد انتقلت من حاضري إلى ماضي ، وأنني أعيش في تلك العصور القديمة بين آبائي وأجدادي ، أحدثهم ويحدثونني ، وأفضي إليهم بذات نفسي ، ويفضون إلي بذوات نفسهم ، فأقضي على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأني وقد فاضت نفسي شعوراً بأن النفس الانسانية خالدة باقية لا تنال منها دعايات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الأيام والأعوام .

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الكلمات أو نقشها على كل ما يقع عليه نظري من الجذوع والأشجار ، والصخور والأحجار ، وكل ما أمر به في طريقي مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء كأنني كنت أريد أن أمد الأجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدتنا الأجيال الماضية بذكرياتها وعهودها ، فحفرت على ساق شجرة العلم كلمة « هوراس » اللاتيني « وقاك الله شر العاصفة ، ولا عبثت بك إلا أيدي النسائم » وعلى جذع شجرة كان بول يجلس تحتها أحياناً ليشاهد منظر البحر الهائج قول الآخر « ما أعظم سعادتك لأنك لا تعرف إلهاً غير إله النبات » وعلى باب كوخ هيلين ، وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها هذه الكلمة « وهنا ضمير صالح ونفس لا تعرف الخداع » .

وكانت فرجيني تستثقل هذه الكلمات وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لي مرة : حبذا لو أنك كتبت على شجرة العلم « ثابت دائماً رغم اضطرابه » بدلاً من كلمتك التي كتبتها ، فأجبتها :

ذلك إنما يقال في موقف الحث على الفضيلة ، فاحمر وجهها خجلاً وصمتت .

ذلك كان شأن هذا الوادي فيما مضى ، أما اليوم فقد عفا فيه كل شيء ، ودرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم الماضية إلا كما يبقى من الوشم في ظاهر اليد ، وأصبحت أعيش في هذا المكان كأنني أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال منف ، وما مضى على تاريخنا أكثر من عشرين عاماً .

(١٣)

مخدع فرجيني

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة المؤثرة منظراً أبدع ، ولا أجمل ، ولا أعلق بالقلوب ، ولا أشهى إلى النفوس من منظر ذلك المكان الذي كانوا يسمونه « مخدع فرجيني » ، وهو كهف صغير منحوت في أصل الصخرة الكبرى كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع غزير صاف تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرغريت قد بذرت بذرة إحداهما منذ أربعة عشر عاماً يوم ولادة ولدها بول ، وبذرت هيلين بذرة اخرى منذ ثلاثة عشر عاماً يوم ولادة ابنتها فرجيني ، فنبتتا مع الولدين وسميتا باسميهما ، وما ذهبتا مذهبهما في جو السماء حتى تدانت سعفاتهما واشتبكتا كأنهما تتعانقان ، وكانت نخلة بول أطول قليلاً من نخلة فرجيني لأن بول كان أسن من فرجيني لعام واحد وأطول قامة منهـــا .

وربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذي تركوه للطبيعة تذهب في شأنه حيث شاءت من مذاهبها دون أن يتناولوه بتهذيب ولا تنسيق فنبتت من حول المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والأشكال والأحجام والأطوال ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب في أعماق الأرض ، وذاهب في جو السماء ، فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها وروائحها ونفحاتها ، ودب بعضها إلى ظهر تلك الصخرة

المشرفة فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره ورياحينه ، ثم انحدر عنها خيوطاً دقيقة ناعمة ترفرف في الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء .

ولم يكن شيء من الأشياء أحب إلى فرجيني وأشهى إلى نفسها من أن تأوي في أوقات راحتها وفراغها إلى هذا المكان الجميل لتمتع نظرها بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء المتفجرة من ذلك النبع الغزير ومرأى تينك النخلتين البديعتين المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء المنبسطة من حوله ، وكانوا لذلك يسمونه « مخدع فرجيني » .

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت إلى هناك غنيماتها وأعنزها فتتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد وثبت إلى ظهر الصخرة ووقفت على مؤخر أطرافها واشرأبت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضماً ، فكأنها معلقة في الهواء ، أو كأنها تمثال ماثل في الفضاء .

وربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة فغسلتها على حافة النبع أو جلست ناحية تحلب ألبان ماشيتها ثم تمخضها .

وكان بول يختلف إلى هذا المكان من حين إلى حين كلما أمكنته الفرصة فيجلس إلى فرجيني جلسة هانئة سعيدة يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة وذلك المنظر الساحر البديع .

وكان أعظم ما يروقهما ويستثير سرورهما وغبطتهما منظر الطيور البحرية وهي مقبلة من شاطىء البحر المندى مع الظلام زمراً ترسم في صفحة السماء خطوطاً مستقيمة ومتعرجة ودوائر

تامة وناقصة وتغرد أغاريدها المختلفة الألحان والنغمات حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضي فيه سواد ليلها ، فإذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر رايته البيضاء في آفاق السماء طارت مع أضوائه وذهبت من مذاهبها حيث تشاء وكأن بول قد عز عليه ألا تتمتع فرجيني بذلك المنظر البديع الرائق في جميع أوقاتهـــا فأخذ ينقل إلى الأشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير في أعشاشها فيتبعها أمهاتها وما هي إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها في الروض الأريض موطناً جديداً تروح إليه وتغدو فأنست بها فرجيني أنساً عظيماً ، وعطفت عليها عطف الأم الرؤوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها وتحمل لها في حجرها حبوب القمح والذرة فينثرها بين يديها فإذا رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت إليها من أوكارها وأعشاشها صادحة مترنمة وحامت فوق رأسها تلقط الحب من يدها مرة ومن الأرض أخرى فيكون منظرها في اختلاف ألوانها وتمعجها واضطراب حركاتها أشبه شيء بمنظر الثوب الملفوف قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريرية فملج بعضه في بعض فتظل فرجيني لاهية بهذا المنظر مفتتنة به ، وبول مغتبط باغتباطها راض عن نفسه برضاها حتى يعودا معاً ساعة الغروب إلى كوخهما .

وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة جامدة كأنما ينظر إلى شبح مقبل عليه فألقيت نظري حيث ألقى نظره فإذا هو محدق في تلك البقعة التي سماها « مخدع فرجيني » وأخذ يهمهم كأنما يحدث نفسه ويقول :

أيها الولدان العزيزان ، إن أنس شيئاً فإنني لا أنس أيامكما العذبة الجميلة التي ملأتما فيها حياتي سروراً وغبطة ، وكنتما لي

صديقين حميمين ما أنكر منكما ولا تنكران مني شيئاً ولا أنكما كنتما أبرّ الناس بي وأحدبهم علي حتى أصبحتُ أشعر أنني أعيش بجانبكما في أسرتي بين أهلي وقومي ، وأن أيام صباي قد عادت لي بوجهها الطلق النضير ، فسلام عليكما حيث كنتما ، وسلام على عهدكما البائد الدارس ، عهد الصلاح والبر والفضيلة والشرف والحب والوفاء .

(١٤)

ليالي الشتاء

وكان إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء برداً وقرا . وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أحجارها ، قضوا داخل أكواخهم ليالي سمر جميلة يجتمعون فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح ضئيل يلقي أشعته الصفراء الخفاقة على ما نيط بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير ، وما كدس في أركانه من حقائب وجوالق وقرب وروايا ، فترى كأنها الأشباح الجاثمة ، أو الوحوش الرابضة ، فيتحدث بول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته وثمراته وأحواضه ومستنبتاته ، وما نضج من أزهارها ، وما لم ينضج ، وما نقل منها إلى الظل ، وما أبقي تحت أشعة الشمس وعن الكروم وعناقيدها والقمح وسنابله والذرة وأعوادها وتحدثهم فرجيني عن عصارة القصب ومنقوع الشعير وشراب الليمون وأمثال ذلك من الأشربة التي تعلمت من أمها صنعها واعتادت أن تقدمها لأسرتها صباح كل يوم ومساءه ، وقد تحدثهم أحياناً عن حديقتها الصغيرة فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الثجاج ، ونخلتيها الباسقتين المتعانقتين ، وما نبت حولهما من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف إلى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير وجماعاتها ليلها ونهارها صادحة مترنمة كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها وتختلف رناتها ، وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولاً ورعباً كقصة السائح المسكين الذي ضل

به طريقه في إحدى الليالي الداجية المدلهمة في بعض غابات بريتانيا الموحشة فخرج عليه بعض اللصوص من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ، ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه في أحشاء الغابة أو قصة السفينة التي عصفت بها الريح في بحر الشمال وأحاط بهـا الموج من كل جانب وأخذت عليها جميع السبل فغرقت وغرق معها ركابها ، ولم يبق من آثارها إلا بعضة ألواح ألقاها الموج على جوانب بعض الصخور الناتئة فيتأثر بول وفرجيني لسماع أمثال هذه القصص تأثراً شديداً ، ويتفجر في قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ما تملك أيديهما أن لو وفقا في يوم من أيام حياتهما إلى هداية سائح ضال عن طريقه ، أو إنقاذ غريق من مخالب الموت .

وكثيراً ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئاً من قصص « العهد القديم » وبعض آيات من « العهد الجديد » فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى ، وعيونهم أدمعاً ، إنهم ما كانوا يحفلون كثيراً بتفهم مضامينها ، واكتناه أسرارها ، كأنما كانوا يشعرون أنفسهم أنهم أغنياء عن هذا كله بما وهبهم الله من إيمان فطري بسيط لا يحتاج إلى تفسير ، ولا توضيح ، ومن يقين راسخ في أعماق قلوبهم يثلج صدورهم ويملأ فضاء نفوسهم راحة وسكينة. حتى كان يخيل إليهم أحياناً أن الفضاء الذي بين أيديهم إنما هو معبد مقدس يصلون لله في أية بقعة من بقاعه شاءوا ويرون الله في أي مطلع من مطالعه أرادوا وكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة ، مقام الآيات المتلوة . والبراهين الحسية مقام البراهين التوقيفية المقروءة ، وهل للرحمة الإلهية إلا تلك الثمرات التي نبتت لهم في أرض مقفرة مجدبة لا ينبت مثلها غير الجهد والشقاء؟ وهل القدرة الربانية إلا تلك

الجنة الأرضية الزاهرة التي اختلفت أوضاعها وأشكالها وطعومها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ؟ وهل العناية الصمدانية إلا ذلك التوفيق الغريب الذي ضم بعضهم إلى بعض على بعد دارهم واختلاف مواطنهم؟ فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متآلفة يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الأهل والوطن والمال والنسب .

وكانت تجري بينهم تلك الأحاديث والطبيعة خارج الكوخ هائجة صاخبة ، تجلجل رعودها ، وتعصف رياحها وتتدفق سيولها ، وتصخب أمواجها ، فيحمدون الله تعالى على أن كفاهم شرورها وويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الامين الذي يفزعون إليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السنة أن تخالط أجفانهم ، فينسلوا إلى مضاجعهم وينامون نوماً هادئاً ساكناً لا قلق فيه ولا اضطراب ، ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن لكل امرىء في الحياة يومين : يوم بؤس ويوم نعيم فلقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعاً يوم واحد لا يرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسه إلا بما يحبون ويرتضون .

وكان الدهر يأبى عليهم أحياناً إلا أن يجري حكمه فيهم كما يجريه على الناس جميعاً فيأذن لبعض غيومه القاتمة أن تلم بسمائهم الصافية فتغشى صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فإذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أو هم رأيت الباقين قد أحاطوا به وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من دونه بالذي أصيب به ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه حتى ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعاً ، فإذا هو بارىء سليم كأن لم يشك قبل اليوم هماً ولا ألماً .

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة في كنيسة « بملبموس »

ذات القبة العالية التي تراها هناك في وسط ذلك السهل الفسيح مشاة على أقدامهم لا يشكون تعباً ولا نصباً ، فإذا وصلوا إليها رؤا كثيراً من الأثرياء وأرباب النعمة مقبلين في هوادجهم المحمولة على أعناق عبيدهم في رونق بديع يملأ العين بهجة ، والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم ولا يكترثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو ان يجيبوا داعي مودتهم لأنهم كانوا يعتقدون ان القوي لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ، ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأثره ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا من ذلك شيئاً ، كما أنهم يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ضناً بنفوسهم أن يسري إليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ويغشي لألاءها فاتهمهم الناس بالضعف مرة وبالكبرياء أخرى ومضوا معهم على ذلك عهداً طويلاً حتى عرفوهم حق المعرفة واستشفوا سريرة نفوسهم فعلموا أنهم أشرف من هذا وذلك فإنهم ما كانوا يضنون بأنفسهم أن يقفوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس فيسألهم حاجة من الحاج ، أو يستعين بهم على كارثة من كوارث الدهر ، أو يدعوهم إلى زيارة مريض أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الأكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين .

فإذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلاً وعللوه كثيراً واحاطوه بعطفهم وعنايتهم فتقدم له مرغريت الدواء وفرجيني الابتسامات ، وهيلين التعزية ، وبول النصائح الطبيعية ، فكانوا يعالجون في آن واحد نفسه وجسده ، ثم يعودون وقد خالطت

نفوسهم عاطفتان مختلفتان : عاطفة الحزن على أولئك المعذبين المتألمين ، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية سمومهم ، وتهوين آلامهم .

وكان منزلي على مقربة من تلك الكنيسة ليس بينها وبينه إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صعداً حتى يصل إليه ، فإذا قضوا حاجتهم من مؤاساة البائس وتعليل المريض وتعزية المنكوب سلكوا تلك الطريق إلى منزلي ليقضوا عندي بقية يومهم ، فكنت أعد لهم الغذاء على شاطىء جدول صغير تحت ظلة دانية من شجر الموز ، وكان غذاؤنا بسيطاً جداً ، لا يزيد على ما يقذفه إلينا البحر من أسماكه ، وما يسقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به في فضاء الجو من سارح أو بارح ، وربما ضممنا إليه شيئاً من التوابل والأفاويه المركبة من الأعشاب الهندية الحارة ، فإذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطىء البحر لنمتع أنظارنا برؤية أمواجه ، وهي مقبلة علينا يتلو بعضها بعضاً حتى تنكسر تحت أقدامنا ، ثم تنبسط قليلاً على ذلك الشاطىء الرملي الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن . وكان بول اذا رآها مقبلة فر من بين يديها كأنه طريدها الذي تطلبه . وربما تلكأ في جريه عمداً حتى تدركه فإذا هو مكفن في كفن صاف من نسيجها الأبيض ، فتصرخ فرجيني حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى كأن الأمر قد بلغ عندها مبلغ الجد أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين نفسها : يخيل إلي وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطخب أنني أرى بين كل موجتين قبراً محفوراً ، ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها ، وتثوب إلى رشدها وتستأنف سرورها ومرحها ، فيدعوها بول إلى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التي لا هجر فيها ، ولا

يشوبها عار ، ولا إثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة لا أزال أذكر منها حتى اليوم قطعة «البحر الزاخر» التي يثني فيها قائلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر اليبس ، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء ، وينعي نعياً كثيراً على أولئك الذين يدفعهم شرههم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه طلباً للثراء الواسع ، والمال الكثير بدلاً من بقائهم في أوطانهم بين أهليهم وعشيرتهم ، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق ، وكان يخطر لفرجيني أحياناً أن تمثل بعض الروايات القصيرة التي سمعتها من أمها فتظهر على مسرح الشاطىء الرملي حاملة جرتها على رأسها كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج وماري ومرغريت في طريقها كأنهم رعاة مدين يحولون بين ابنة شعيب وبين البئر ، فيلمحها بول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق كما فعل موسى ، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الأحمر ليضع الجرة فوقها فكأنه يكللها بإكليل الزواج فأقوم أنا بتمثيل دور «شعيب» وأزوج ابنتي «صفورة» من الفتى «موسى».

وأحياناً كانت تمثل دور البائسة «راعوث» حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطة لا أهل لها ولا رحم ، فتظل سائرة في طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تلمح جماعة الصيادين ، وكان يمثلهم دومينج وماري ومرغريت يحصدون في مزرعتهم فتتبع خطواتهم وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها بول ، وهو يمثل دور «بوعز» أحد نبلاء المدينة فتدركه رقة لها فيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها فترتعد بين يديه وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج فتذرف عيناه

الدموع رحمة بها ومرثاة لها ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة في منتداهم ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها.

وهنا تذكر هيلين حياتها الأولى، وأنها كانت أشبه شيء بحياة تلك الفتاة الإسرائيلية المسكينة، وأنها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل ما لقيت، وكابدت من آلام الحياة وهمومها مثل ما كابدت، فتبكي بكاء طويلاً.

ثم لا تلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التي ختمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلاً، وتتفاءل خيراً لابنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد.

وجملة القول أننا كنا نتمتع في ذلك اليوم بجميع ما يتمتع به السعداء في منتدياتهم ومجتمعاتهم، ومعاهد أنسهم ولهوهم من أكل وقصف، ورقص وتمثيل ولعب ومزاح، لا فرق بيننا وبينهم إلا أننا لا نزخرف المسرح الذي نتنقل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطىء والصحراء والسماء والكواكب والنجوم والنبات والعشب وهدير الأمواج وزفيف الرياح ودمدمة الرعود كما يزخرفون، فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لا خيالاً.

ولا نزل هكذا حتى تدنو ساعة الاصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع على قمة الجبل متوهجاً كاللهب الأحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية في عرض الفضاء وتظل قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان، كأنها الدنانير المبعثرة، وتستحيل أوراق الزهر في سكون ذلك الجو وهدوئه إلى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ويخيل للناظر إلى الجذوع المائلة كأنها بقايا بركان قديم قد غمرها في سالف العهد، ثم انحسر عنها فإذا

هي أعمدة صدئة من البرونز القاتم ، ثم لا يلبث الظلام أن يمتـد وينبسط فـإذا الفضاء سكـون ووحشة ، وإذا البحر خشية وجلال ، وإذا الطير جاثمة على أوكارها تفر إليها من وحشة الظلام وهوله ، وإذا كل شيء صامت جامد إلا مـا كان من جرجرة الأذى[1] تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلوق الوحوش الضارية ، فنجمد أمام هـذا المنظر الرهيب ساعة ذاهلين مستغرقين ، وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملأ الأعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود إلى أنفسنا فيودع بعضنا بعضاً ، ثم نفترق إلى أكواخنا .

---

(١) الأذى : موج البحر .

(١٥)

آدم وحواء

نشأ بول وفرجيني في هذه الجنة الأرضية ، منشأ أبوينـا الأولين في جنتهما السماوية، فكان بول مثال آدم ، له قامة الرجل وشطاطه ، وبساطة الطفل وسذاجته ، وكانت فرجيني مثال حواء لها جمال الأنوثة وحلاوتها ، ودعة النفس وعذوبتها .

وكانا يعيشان في معتزلهما هذا حرّين مطلقين لا يسيطر عليهما مسيطر من تلك القيود التي تسيطر على عقول الناشئين وضمائرهم في تلك البلاد التي يسمونها بلاد الحرية والطلاقة، ولا تسجنهما العلوم والمعارف في سجنها الضيق المظلم الذي يحول بينهما وبين التبسط والاضطراب في فضاء الكون كما يشاءان .

ولم تكن لديهما ساعة لمعرفة أوقات الليل والنهار، ولا تقويم لمعرفة الفصول والأعوام ، ولم يتلقيا درساً واحداً في علم الهيأة ، ونظام الكواكب والنجوم . ولكن الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ما تمنح العلوم والمعارف أمثالهما فاستعانا بالأشعة والظلام على معرفة الأوقات ، وبنضوج النبات وظهور الأثمار وتلون الأزهار على معرفة الفصول، وبعدد ما غرسا من الأشجار على عدد ما مر بهما من السنين والأعوام فكانا يقولان « قد حـان وقت الغداء » إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها و « قرب الليل » إذا التفت أوراق التمر هندي على أثمارها ،

وكانا إذا وعدا أحداً بزيارة جعلا ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج النارنج ، وإذا سألت فرجيني عن عمرها أجابت : قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربع عشرة مرة وأشجار البرتقال ثمانية وعشرين ، وإذا سئل بول بكم يكبر فرجيني[1] أجاب بمقدار ما بين النخلتين الماثلتين على حافة النبع كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كأنهما إلهان من آلهة الحقول التي تعيش بينها وترعاها .

فكانا لا يعرفان تاريخاً غير تاريخهما ، ولا يطالعان مصوراً غير مصور جزيرتهما ، ولا يقرآن كتاباً غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامهما ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى في كل ما يأخذان ، وما يدعان .

وكانا إذا خلوا بأنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لا يتكلفان فيها ولا يتعملان ، ولا يحاولان أن يضعا حجاباً بين ما يدور في سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما .

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لا يشعران بمكاني ، وكان بول قد عاد من عمله ساعة الغروب ، فرمى بفأسه وحقيبته إلى الأرض وجلس إلى فرجيني يقول لها :

إني لأراك يا فرجيني وأنا متعب مكدود ما أكاد أتماسك ، فأنسى تعبي وشقائي ، وكأنني لم أحمل في يومي فأساً ، ولم أفلح أرضاً ، وربما وقع نظري عليك وأنا على قمة الجبل وأنت

(١) يكبر فلان فلانا ، يزيد عليه في العمر .

في سفحه فيخيّل إلي أنك وردة بين الورود النابتة حولك . إلا أنك أنضر منها حسناً . وأطيب اريجاً ، فإذا غبت عن ناظري وراء أكمة من الأكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذي أنت فيه ، لأنني أشعر أن موجة من النور تحيط بك حيثما ذهبت. وأنى حللت فإذا برق لي شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادي . فلا احتاج للسؤال عنك فإذا رأيتك وأنت عائدة الى المنزل خيل الي جمال مشيتك ورشاقة حركاتك كأنك قطاة تتنقل على بساط الخضرة وانك موشكة ان تستقلي بجناحك في جو السماء .

انك كل شيء يا فرجيني انك حياتي التي لا استطيع ان اعيش بدونها بل لا استطيع فراقها لحظة واحدة . ان زرقة عينيك اصفى من زرقة السماء ، وإن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذي يجول في أديمك لهو الكوثر الــذي يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنـــان .

أسمع صوتك الــذي هو أشبه شيء بصوت الطائر الغرد فيخفق قلبي خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يـــدي في يدك فتنبعث في جسمي رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور !.

أتذكرين يا فرجيني يوم حملتك على ظهري واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشرير ؟
لقد كنت في ذلك الوقت تعباً واهناً ، ولكنني ما شعرت بملامسة جسمك لجسمي حتى خيل إلي أنني قد استحلت إلى طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت علي في تلك الساعة أن اطير بك في آفاق السماء لفعلت .

لا أستطيع أن أفهم ما هذا الذي يؤثر علي منك يا فرجيني ؟ لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلم أضطرب حين أراك ، ولم أرتعد حين يلمس جسمي جسمك ؟!

إنك لا تستطيعين أن تحبيني كما تحبني أمي ، أو تعطفي علي عطفها أو تقاسميني همومي وآلامي مقاسمتها ، ولكنني أشعر أن الذي أضمره لك من الحب والعطف فوق الذي أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامي الطريقان : طريقي إلى الكوخ فلم أنتبه إليه ، وطريقي إليك فجئتك دون أن أشعر بما أفعل أو أعرف لذلك سبباً .

ما أحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هي السبب في ذلك ، فـإن أنس لا أنسى صورة ذلك الألم الشديد الذي ارتسم على وجهك يوم جئت لك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها ، ولا تلك الدموع الغزار التي ذرفتها رحمة بها وإشفاقاً عليها ، ثم ما خاطرت بـه بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها في سبيلها .

إنك طيبة القلب يا فرجيني ، إنك تحبين الخير للخير لا تطلبين جزاءاً ولا أجراً ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم جميع الناس .

تعالي إلى جانبي وخذي هذا الغصن الأخضر الذي قطعته لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى وضعيه حين تنامين تحت سريرك فإنه يملأ لك فضاء الكوخ عطراً وشذى ، وخذي هذا القرص من العسل فقد عثرت بـه في جوف صخرة عالية في قمة الجبل ، وسيكون فطورنا في الصباح شهياً جميلاً .

تعالي إلي يا فرجيني وضعي رأسك على فخذي لأشعر بالراحة من جميع متاعبي وآلامي ، وتحدثي إلي قليلاً فحديثك غذاء نفسي وراحة ضميري .

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها على فخذه وتظل تقول له :

أترى يا بول منظر هذه الأشعة الصفراء الساقطة على رؤوس الصخور وذوائب الأشجار ، ومنظر ذلك الشفق الأحمر الممتد على حافة الأفق ، وتلك اللآلىء اللامعة الجميلة المنتثرة على سطح المـــاء ؟!

إنها جميلة جداً ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث السرور إلى نفسي كما يبعثه جلوسي بجانبك ، وامتزاج أنفاسي بأنفاسك .

إنني أحب والدتي حباً جماً ، ولكنني أحبها أكثر من كل وقت في الساعة التي أراها تحنو عليك فيها وتضمك إلى نفسها وتدعوك يا ولدي ! وربما غفرت لها إغضاءها عني أحياناً ، ولكني لا أستطيع أن أغفر لها إغضاءها عنك .

إنك تتساءل في نفسك : لم تحبني أكثر من كل شيء في العالم ؟ أما أنا فإنني أحبك هذا الحب نفسه ، ولكنني لا أسأل نفسي عن سبب ذلك ، لأني أعلم أن الطائرين اللذين ينشآن في منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان ويتآلفان حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة .

انظر إليهما ! هاهما يتصايحان ويتهافتان على بعد ما بينهما ،

كأن كلاً منهما يقول لصاحبه : تعالى إلى جانبي ولا تفارقني ، فإنني لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيداً عنك .

كذلك نحن يا بول نشأنا في منشأ واحد ، ورضعنا ثدياً واحداً ، ونمنا في مهد واحد ، وابترَدنا في حوض واحد فأصبحنا شخصا واحداً ، فإذا افترقنا ساعة ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه : أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتي في سفحه ، كما يفعل ذلك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتّى نلتقي .

تقول إنك أحببتني منذ ذلك اليوم الذي رأيتني فيه أعطف على تلك الجارية المسكينة ، وأنا أقول لك إنني أحببتك من ذلك اليوم نفسه ، فإنني لا أستطيع أن أنسى أنك أوشكت أن تخاطر بنفسك في سبيلي حينما عزمت على مقاتلة الرجل الشرير من أجلي ، بل خاطرت بها فعلاً حينما حملتني على ظهرك وأنت تعب مكدود واجتزت بي ذلك النهر الزاخر المتدفق لا تعلم أتصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك .

إني أجثو كل يوم بين يدي ربي أسأله الرحمة لأمي وأمك وماري ودومينج حتّى إذا مر ذكرك على لساني ارتعشت شفتاي وشعرت كأنني أرتشف على الظمأ جرعة باردة ما خلق الله أهنأ ولا أطيب منها .

لم تتسلق الصخور من أجلي يا بول؟ ولم تجشم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذي تكابده طول يومك؟ إنني لا أفكر في شيء وأنت غائب عني سوى أن تعود إلي سالماً موفوراً ، فإذا رأيتك كنت أنت الهدية الثمينة التي تقدمها إلي ، وتستحق من أجلها شكري وحمدي .

(١٦)

الخفقة الأولى

ما لفرجيني حزينة مكتئبة لا تضيء الابتسامات ثغرها كما كانت تضيئه من قبل ؟!.

ما لها واجمة صفراء تمشي مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأن هماً من هموم الحياة الثقال يملأ ما بين جانحتيها ولاهم ـ هناك ولا حزن !. ما لها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد الذي هو أعز عليها من نفسها التي بين جنبيها ؟!

ما لهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظر الشمس في طلوعها وغروبها والطير في غدوها ورواحها ، لا يروقها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسري عنها همومها ، كما كان شأنها قبل اليوم ؟!.

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الأولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة إلى حياة الهموم والأكدار .

نعم قد تحولت الصداقة في قلب فرجيني إلى حب ، وللحب شأن غير الصداقة وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها ، وكما أن المرآة الفارغة تشعر بتغيير في

جميع حالاتها الجسمية إذا بدأت بذرة الجنين تنمو في أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير في جميع حالاتها النفسية إذا أحست بدبيب الحب في قلبها . وربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام .

لقد كانت فرجيني تجهل في مبدإ أمرها حقيقة الحال التي طرأت عليها ولا نفهم منها شيئاً سوى أنها قلقة مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الأول ، ولا تجد في الجلوس إلى أسرتها ولا في الذهاب إلى « مخدعها » الراحة التي كانت تجدها من قبل ؛ فكانت تهيم على وجهها في القفار والغابات وضفاف الأنهار وقمم الجبال ، ما تكاد تستقر في مكان واحد ، فإذا وقع نظرها على بول في بعض غدواتها أو روحاتها طارت إليه فرحاً وسروراً ، وبسطت إليه يدها لتعانقه ، فإذا دانته انقلبت فجأة من سرور إلى حزن ، ووقفت في مكانها جامدة جمود الدمية في محرابها يتلهب وجهها حمرة ، ويرفض جبينها عرقاً ، فيعجب بول لشأنها ، ويظل يقول لها : إن الخضرة اليوم زاهية جداً ، وإن الشمس ساطعة متلألئة تضيء كل شيء حتى الأنفاق والأغوار ، وكل ما في الوجود ضاحك مستبشر ما عداك يا فرجيني ، فهل لك أن تحدثيني ما الذي ألم بك ؟ وما هذه الغبرة القائمة التي تلبس أديم وجهك ؟ ثم ينقض عليها ليضمها إلى صدره كعادته فتملس من بين يديه املاساً ، وتركض هاربة إلى أمها لتضع رأسها في حجرها ، فيظل بول واقفاً مكانه يعجب لأمرها عجباً شديداً ، لا لأن الذي يضمر لها من الحب أقل من الذي تضمر له ولا لأن نفسه خالية من الهم الذي يخالط نفسها ، ولكن المرأة ضعيفة خائرة لا تملك من الصبر والجلد بين أيدي النكبات النفسية التي تنزل بها ما يملك الرجل فإذا أحبت لأول عهدها

بالحب ، وكانت شريفة فاضلة خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون والخبل ، وما هي بجنونٌ ولا خبل ، ولكنها حيرة النفس وضلالها .

ولم يزل هذا شأنها حتّى جاء شهر ديسمبر وهو الشهر الذي تشتد فيه حرارة الشمس في تلك المنطقة اشتداداً عظيماً ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية كأنها السهام المنبعثة من أقواسها ، وتنقطع عنها ريح الجنوب التي تعتادها طول العام ، وتهب عليها بدلاً منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها زلزالاً ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاهلها ، وتشقق ما أرادت من أطرافها وأنحائها ، فيثور الغبار ملتفاً في جو السماء ثم يجمد في مكانه ما يتزحزح ولا يتحلل كأنه العمد المنتصبة ، وتصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها أتّن مشتعلة تنفث أوارها من حولها فتلتهب الأجواء بالتوائها حتّى ما يستطيع متنفس أن يتنفس إلا زفيراً ، ولا مستنشق إلا شواظاً ولهيباً ، وحتّى ما يجد المبترد ضحضاح ماء في غدير من الغدر أو خليج من الخلجان يبترد فيه ، ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص الناري اللاصق به ، وتتساقط الماشية في ظلال الأشجار وفي سفوح الجبال واهنة متضعضعة مادة ألسنتها إلى السماء كأنها أيد مبسوطة بالدعاء إلى الله تعالى أن يجود غليها بقطرة تبل غلتها ، وتطفىء لاعجها ، وكأن ثغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطنين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة فإذا أقبل الليل عجزت يده الباردة الندية أن تخفف شيئاً من لهيب ذلك الأتون المستعر ، وظهر القمر في أفق السماء أحمر كامداً كأنه الوجه المخضب بالدم ثم يمشي في طريقه متثاقلاً متطالعاً كأنما هو يسبح في لجة عميقة من السحب المحيطة به .

في ليلة من تلك الليالي الداجية السوداء عجزت فرجيني عن أن تأخذ لنفسها راحتها في مضجعها وعجز الكرى عن أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت سمتها إلى مخدعها ، عساها أن تجد فيه ما يروّح عن نفسها ، وكان القمر لا يزال يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها أنها لم تجد من جدولها المترع المتدفق إلا خيطاً دقيقاً يلمع في ضوء تلك الأشعة الباهتة كأنه ثعبان ممدود يتقلب على حرة سوداء ، ثم مشت إلى حوضها الصغير التي اعتادت أن تستحم فيه فلم تجد فيه إلا ضحضاحاً من الماء ما يكاد يغمر جسمها ، فخلعت ملابسها ونزلته فاستطاعت أن تجد قليلاً من الراحة ، وكان أول ما مر بخاطرها في تلك الساعة بعد أن عادت إليها نفسها ذكرى تلك الأيام الماضية التي كانت تستحم فيها مع بول وهما طفلان صغيران في هذا الحوض الصغير وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ويتسلقان النخيل والأشجار ليقطعا أغصانها أو يجنيا ثمارها ، ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المسماتين باسمها واسم بول ، وقد طالت عثاكيلهما ، وانتشرت سعفاتهما ، وكبر جوزهما ولصقت كل منهما بالأخرى لصوقاً شديداً ، فأثار ذلك المنظر في نفسها شعوراً غريباً لم تستطع أن تفهمه ولا أن تفهم ما الذي يقلقها منه ، فلم تطق البقاء في مكانها لحظة واحدة ، فنهضت إلى ثوبها فأسبلته على جسمها ، واندفعت راكضة إلى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطاً شديداً ، كأنما تريد أن تبثها ألمها وتفضي إليها بسرها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم بول فيحتبس لسانها في

فمها ، ثم لا يلبث ذلك السعير المتأجج في صدرها أن يستحيل إلى زفير فشهيق فبكاء فتذرف من دموعها ما شاء الله أن تذرف حتى يهدأ ما بها ، وأمها صامتة ساكتة تفهم كل شيء ولا تقول شيئاً سوى أن ترفع نظرها إلى السماء سائلة الله تعالى بنظراتها السابحة في ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة وأن يقيها العثرات والزلات .

ولم يزل الحر آخذاً في اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة ما زالت تتكاثف وتتجمع حتى انعقدت في سماء الجزيرة ظلة سوداء فاحتجب قرص الشمس وتلفعت الجبال والهضاب والربى والآكام بأردية بيضاء من الضباب ، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين ، ثم ما لبث الرعد أن قصف قصفاً شديداً دوت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق يرسل شرارته الحمراء في خلال السحب الكثيفة المتراكمة ؛ فأثار بعضاً منها وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الأودية والقيعان ، وسبحت فيها الربى والهضاب وما هي إلا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحراً عجاجاً يعب عبابه وتصطخب أمواجه ، اختفى كل شيء من هواديه وأعلامه وأطمه وذراه ، ولم يبق طافياً منه على سطح الماء إلا تلك الربوة العالية التي يرفرف فوقها العلم الأبيض ، علم الاستكشاف فكان منظرها في وسط ذلك البحر العجاج منظر السفينة المضطربة ، في أيدي الأمواج الثائرة ، فصعدت إليها تلك الأسرة المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفي زروعها وضروعها .

وظلت الحال على ذلك عدة ساعات ثم هدأت العاصفة ورقت

السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض الأشعة البيضاء في أنحاء الفضاء وأخذ بول ودومينج يفتحان للمياه المتراكمة شعاباً ممتدة في أطراف الحوض تنحدر منها إلى البحر حتى لم يبق منها بعد ساعة إلا ما ركد في الحفائر والأغوار ، والبطون والوهاد ، فذعر بول وفرجيني لمنظر الأشجار الساقطة ، والجذوع المتهافتة والأغصان المتناثرة والأزهار المبعثرة كأنهم يشهدون أطلالاً بالية قد عصفت بها وبساكنيها أيدي الحدثان ، وعوادي الزمان .

وخطر لفرجيني أن تذهب لزيارة حديقتها لترى ما فعلت تلك الحوادث بها ، فعرض عليها بول أن يصحبها فسارا معاً حتى أشرفا عليها فإذا هي قفر يباب لا شجر ، ولا طيور ، ولا أعشاب ، ولا جداول ، ولا غدران ، إلا ما كان من تلك البلابل الضاوية الواقفة على ذوائب بعض الأشجار ترعد برداً ، وتغرد تغريداً شجياً ، هو بالأنين والبكاء أشبه منه بالترجيع والغناء .

فأطرقت فرجيني إطراقة طويلة ، ثم رفعت رأسها والتفتت إلى بول ، وقالت له : لقد ضاعت كل آمالي في الأرض يا أخي فلم يبق لي إلا أملي في السماء ! لقد غرست تلك الجنة الزاهرة ، وأجريت في خلالها الجداول والغدران ، وأنشأت في أنحائها ما شئت من الحظائر لماشيتي ، والأعشاش لطيوري ، وكانت أنسي وراحتي وملجأ همومي وأحزاني .

وها هي ذي أيدي الحدثان قد عصفت بها وعفت رسومها ومعالمها ومحت سطورها من كتاب الدهر كأن لم تغن بالأمس ، فلم يبق لي ما آنس به في هذا العالم ، ولا ما أسكن إليه ، فلا أطلب لنفسي سعادة غير هذه السعادة في عالم غير هذا العالم لا تعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ، ولا تنال منه

أيدي الصروف والغير .

فاضطرب بول عند سماع هذه الكلمات وسرت في نفسه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره فصمت هنيهة ، ثم التفت إليها وقال لها : هوّني عليك الأمر يا فرجيني فكلما يعرض الموت على الحياة تعرض الحياة على الموت وأعدك وعداً صادقاً أن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترين عما قليل خمائلك وأشجارك ومياهك وظلالك ، وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الأول فيعود لك أنسك واغتباطك وسرورك . وابتهاجك، فرفعت طرفها إلى السماء وظلت على ذلك ساعة كأنما تحاول أن تطير بروحها إلى ذلك الملأ الأعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتدري ما هو خير من هذا كله يا بول ؟ قال : لا ، قالت إن لسميك « بول » الرسول عندي منزلة لا تعدلها منزلة أخرى . وقد رأيت له صورة عندك تحتفظ بها في أطواء ثيابك فرجائي إليك أن تهديني إياها ، قال : لا أحب إلي من ذلك وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظليم ليأتي بها ، وهي صورة أثرية قديمة كانت تحملها مرغريت في قلادتها منذ زمن بعيد ، فلما ولدت ولدها بول ورأت في ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته باسمه وناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظه من عاديات الدهر ، وغوائل الأيام ، ولم يزل حاملاً إياها حتى كبر وأينع فاحتفظ بها في صندوقه بين ملابسه كأعز شيء لديه حتى سمع فرجيني تقترح عليه أن يهديها إياها فلم يكن شيء من الأشياء أحب إليه من أن يفعل راضياً مغتبطاً ، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بها طائراً فرحاً فقدمها إليها فسرت بها سروراً عظيماً ، وجرى ماء البشر في وجهها طلقاً غدقاً ، وقالت له : ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم

عندي ما حييت ، ولن تفارق عنقي قط حتّى الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، ولن أنسى أبد الدهر أنك قد أهديت إلي الشيء الوحيد الذي تملكه ، فحنا عليها ، وهم أن يحتضنها إلى صدره فأفلتت من يده برفق وركضت هاربة إلى حجر أمها كعادتها .

فوقف بول في مكانه حائراً مكتئباً مذهوباً به كل مذهب تعبث بعقله الوساوس والأوهام .

ولقد طال هذا الأمر بينهما وأصبحت حياتهما غريبة مضطربة لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يوماً من الأيام بهيلين وقالت لها لم لا نزوّج بول من فرجيني فقد بدآ يشقيان في عيشهما ، وأخاف أن يمتد بهما الأمر إلى ما هو أعظم شراً من ذلك ، وعندي أنه متى تكلمت الطبيعة وجب الإصغاء إليها والإذعان لها ، وما شقي الناس هذا الشقاء الذي نراهم يعالجونه كل يوم إلا لأنهم تمردوا على الطبيعة وخلعوا طاعتها وسولت لهم نفوسهم السير في طريق غير طريقها فقالت هيلين : إن الولدين لا يزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غداً إن قسم لهما أن يلدا أولاداً كثاراً في قفرة مثل هذه القفرة لا يعين المرء فيها على العيش غير المال ؟ إننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ في العالم من عناء وشقاء في سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما — وهما ضعيفان ساذجان ، وقد رحلنا عنهما إلى عالمنا الآخر الذي ينتظرنا ورحل معنا دومينج وماري — بقوة تعينهما على أمرهما وأمر حياتهما العائلية المستقبلة ، وإن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحت أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمي ، وأرى أنني أسير سيراً حثيثاً في تلك

الطريق التي يسير فيها الذاهبون إلى حفائرهم ، وأن ليس بيني وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخاً هرماً لا يكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت ماري مقربة من ذلك فلا يبقى لهما مساعد ، ولا معين .

والرأي الذي أراه أن نباعد بينهما ؛ فنرسل بول إلى بعض أصقاع الهند ليتجر فيها بما يتجر به الأوربيون المنتشرون في تلك البلاد ، عله يتلهى عن فرجيني بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك ما يعينه على أمرها وأمره غدا .

ثم اتفقتا على أن تستشيراني في هذا الأمر فأشرت عليهما بما رأتا ، وقلت لهما : إن في هذه الجزيرة وفيما حولها من الجزر كثيراً من السلع التي تنفق نفاقاً عظيماً في الأسواق الهندية كالقطن والآبنوس والأصباغ وما إليها ، فإذا سافر بول بها فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغربية فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده رجوت له في مستقبل حياته خيراً كثيراً .

فعهدتا إلي أن أفاتحه في هذا الشأن فخلوت به ذات يوم وأنشأت أحدثه حديثاً طويلاً عن التجارة وفضائلها ومزاياها ، وعن الضرب في آفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت إليه بذلك المقترح فأصغى إليه وهو صامت واجم لا يقول شيئاً حتى انتهيت من حديثي ، فرفع رأسه إلي وقال : وهل يوجد عمل أعظم ثمرة وأعود فائدة من عمل الفلاح الذي يقوم بزراعة حقل من الحقول لا يعطيه إلا القليل من جهده وأقل من القليل من ماله فيعود عليه منه ضعف ما بذل له خمسين أو ستين مرة ! ومتى كانت البحار يا سيدي وطاء ليناً أخاطر فيه بنفسي لأربح شيئاً

أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار في أسواق هذه الجزيرة ، وما حولها من الجزر . وأية حاجة بنا إلى المال الكثير ؛ ونحن والحمد لله في سعة من العيش لا نشكو جوعاً ، ولا ظمأ ، ولا ضيقاً ، ولا ضجراً ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة في الحياة فوق المنزلة التي نحن فيها ؟ ولا أكتمك يا سيدي أنني أخاف المال وأخشاه خشية شديدة ، وأقشعر من ذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لا نزال سعداء في هذه الحياة ما دمنا بعيدين عنه ، وعن التفكير فيه ، فإن قدر لنا يوماً أن نشقى فيها ، فإنما شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ، فلنتمتع بالسعادة التي قسم الله لنا ، ولا نجني على أنفسنا بالتكليف ، والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التي لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها ، ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا .

فوقفت بين يدي هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرفاً وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئاً ، ولا أنكر عليه امراً ، ولا أفضي إليه بسر ذلك المقترح الذي اقترحته عليه ، ضناً به أن يهلك يأساً وجزعاً .

(١٧)

الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتاباً لهيلين من عمتها تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها في الماضي من قسوتها عليها ونبوها بها واطراحها إياها ، وأنها قد بلغت السن التي تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوي رحمها يخفق بجانبها لأنها تعيش في بلد لا أهل لها فيه ولا رجم ، فهي تقترح عليها أن تحضر إليها بنفسها ، فإن حال دون ذلك حائل أرسلت إليها ابنتها بدلاً منها لتكون بجانبها في ساعتها الأخيرة ، وقالت لها إنها قد عزمت على أن توصي لفرجيني بجميع ثروتها من بعدها . فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة والعجب وكأنما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر ، فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع انسها عنهم ، وأن ذلك الوادي سيقفر منها ، ومن فواضلها وأياديها بعد ما عمرته أعواماً طوالاً ، فوجمت مرغريت وأطرقت فرجيني ، وجمد بول مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومينج وماري ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها مذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى اليوم ، ثم التفتت هيلين إلى مرغريت باسمة وقالت لها : هدئي روعك يا صديقتي فإنني لن أفارقك قط ، وما أحسبني مستطيعة ذلك لو أردته ، فقد سعدت بك برهة من الزمان لا أستطيع أن أنساها أو أنسى يدك البيضاء فيها ، ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم :

كونوا مطمئنين يا أولادي ، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن في التربة التي تعيشون فيها ، ولقد جرح الدهر قلبي فيما مضى جرحاً دامياً فكنتم أنتم أطباءه وأساته ، وما زلتم به تنفون عنه غثاثته وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم وإخلاصكم وعطفكم ورحمتكم حتى التأم أو كاد فلن أكفر بنعمتكم قط ، ولن أجازيكم على إحسانكم شر الجزاء ، ولئن كانت قد بقيت في أعماق قلبي بقية من ذلك الشجن القديم ، والذكرى المؤلمة ، فذلك ما لا يد لكم فيه ، ولا حيلة لكم في أمره ، ولا توجد قوة في العالم سواء أعشت في هذا الكوخ الحقير أو في ذلك القصر العظيم تستطيع أن تشفيني من دائي إلا أن يمد الله إلي يد معونته ورحمته .

فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحاً وسروراً وداروا بها يقبلونها ويعتنقونها ويهنئونها بوفائها وإخلاصها ، الله ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ؛ إن الثروة الطائلة التي يقتتل عليها الناس اقتتالا وينحر بعضهم بعضاً في سبيلها ، تعرض نفسها عليهم عرضاً فيأبونها ويطيرون فرحاً بالخلاص منها .

وإنهم لكذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتاً غريبة فدخل عليهم دومينج وأخبرهم أن سيداً عظيماً يركب مركباً فارهاً ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ ، وما أتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فاذا هو حاكم الجزيرة المسيو « لابوردينيه » فنهضوا له إجلالا وإعظاماً وحيوه بتحية الحاكمين وقدمت له مرغريت كرسياً من القش فجلس عليه ، وقدمت هيلين شراب الأرز في إناء بسيط من القرع فتناوله مغالباً نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حينما شربه ، ثم دار بعينيه في أنحاء الكوخ ، فعجب لحقارته

ورثاثته ، وبساطة ما يشتمل عليه من الآنية والأثاث ، وبدأ حديثه بمعاتبة هيلين في انقطاعها عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وأنها لم تلجأ إليه في ساعات شدتها وبؤسها ليمدها بالمعونة التي تحتاج إليها ، وكان بول واقفاً بجانب الباب يسمع حديثه ويلقي عليه نظرة شزراء وكأنما قد ألهم ما يدور في نفسه ، وما قدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة وقال له : إنك لست بصادق فيما تقول يا سيدي ، لأن أمي ذهبت إليك في بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسي بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيرا إذ كفاها مؤونة حمل منتك أو منة أحد من الناس غيرك ؛ فالتفت الحاكم إلى هيلين وقال لها : ألك ولد أيضاً يا سيدتي ؟ قالت : لا ، ولكنه ولد صديقتي مرغريت ، وهو يسميني أمه لأنه ربي مع فرجيني في مهد واحد ورضع معهـا ثدياً واحـداً ، وأحبهـا حباً لا يحبه الأخ أخاه ، فنظر إليه الحاكم ، وقال له : ادن مني يا ولدي ، فدنا منه ، فمسح بيده رأسه ، وقال له : إنك لا تزال صغيراً يا بني . فاذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكاماً ، وعلمت أن أعظم ما يشقون به في حياتهم أنهم ليسوا أحراراً في إجراء العدالة بين الناس وإراحة الحقوق على أهلها . وتحري الصدق فيما يقولون والفضيلة فيما يفعلون .

فتناول بول يده وهزها هزاً شديداً ، وقال له : أشكر لك صدقك وصراحتك يا سيدي ، وإن كنت قد أسأت إلينا فيما مضى ، وأظن أني أستطيع أن أتخذك صديقاً لي منذ اليوم ، فابتسم الحاكم ، وقال : ولي الشرف العظيم بذلك يا ولدي .

ثم أشار إلى هيلين أنه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت

إليهم جميعاً فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها : لا بد أن تكوني قد قرأت الكتاب الذي أرسلته إليك عمتك اليوم ، وقد جاءني منها كتاب في البريد نفسه تطلب إلي فيه أن أزورك ، وأبذل كل ما أملك من الجهد في حملك على السفر إليها ، أوأرسل ابنتك فرجيني بدلا منك ، وأرى أن ترسلي إليها ابنتك ، فهي فتاة ناشئة فتية ذات نضرة وجمال ، وليس من الرأي أن تدفني مثل هذه الحياة الغضة الندية في مثل هذه التربة القاحلة المحرقة ، والحياة السعيدة هنالك تنتظرها وتمد ذراعيها لاستقبالها ، وإني وإن كنت أعلم أني أطلب إليك ما يشق عليك ، ويفت في عضدك ، ولكنني أعلم أيضاً أنك أرحم بابنتك وأحنى قلباً عليها من أن تحولي بينها وبين تلك السعادة التي تنتظرها هناك من أجل متعة نفسك برؤيتها جالسة بين يديك ، وأعتقد أنك لا ترين بأساً من التضحية بشيء من عواطفك النفسية في سبيل راحتها وسعادتها ، وهناءة عيشها طول أيام حياتها ؛ لقد كتب إلي وزير المستعمرات أن أعني بهذه المسألة عناية كبرى ، وألا أدعها تفلت من يدي ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، ومعنى ذلك عنده أن آخذك بالشدة في هذا الأمر ، وأكرهك منه على مالا تحبين ، ولكنني لم أحفل بكلامه ، ولم أكترث له ، بل جئت إليك بنفسي لأعرض عليك الأمر عرضاً ، لا لألزمك به إلزاماً ، وإني أكل إليك ، وإلى رحمتك وشفقتك ، ولعقلك ورزانتك ؛ مستقبل هذه الفتاة المسكينة ؛ فاختاري لها ما يجب أن تختاره الأم الرءوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع في مستقبل الأيام ، وستسمعين غداً من أحاديث هناءتها ورغدها ورفاهيتها ونعمتها ، ما ينير لك ظلمة الوحشة التي تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت إليك بعد قليل من الأيام ، فان عمتك على ما أعلم في الدور الأخير من أدوار حياتها ، وهي هامة اليوم أو غد .

فقالت له هيلين : إنني ما تمنيت على الله في حياتي شيئاً سوى أن أرى ابنتي سعيدة في حياتها ، هانئة بعيشها ، إلا أنني لا أحب أن أفتات عليها في أمر من أمورها ، فلا بد لي من أخذها بالرفق واللين حتى تذعن لما أريد ؛ وأرجو أن يعينني الله على ذلك . وأظن أني أستطيع أن افضي إليك بالأمر غداً أو بعد غد ؛ قال : أرجو أن تعجلي بقدر ما تستطيعين ؛ فالسفينة موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ؛ ولا أعلم متى تعود بعد ذلك .

ثم نهض قائماً وأخرج من جيبه كيساً كبيراً مملوءا بالقطع الذهبية ووضعه على المائدة وقال : هذه هدية عمتك إليك لتستعيني بها على شأنك وشأن فرجيني ؛ وودعها ومضى .

(١٨)

الـــوداع

لم يثقل هذا الأمر كثيرا على نفس هيلين ؛ بل صادف هوى من قلبها ولم تكن كاذبة في قولها للحاكم إنها لا تتمنى على الله في حياتها شيئا سوى أن ترى ابنتها سعيدة في حياتها ، هانئة بعيشها ؛ إلا أنها لا تحب أن تفتات عليها في أمرها فان الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ حتى دعت إليها ابنتها وخلت بها وأنشأت تحدثها حديثاً طويلا قالت لها فيه إنني أصبحت يا بنيتي امرأة عليلة منهوكة ؛ لا قوة لي ولا عزيمة ؛ وما مرغريت بأحسن حالا مني ؛ وقد صار دومينج وماري شيخين ضعيفين والشيخوخة أسرع إلى سكان هذه هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق الأخرى ؛ وبول لا يزال فتى غريرا عاجزا عن أن يستقل بنفسه فيما يعالج من شئونه ؛ فماذا يكون حالكما غدا لو أنكما أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ؛ وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غدا بائسين أشقياء لا يملكون لأنفسهم ولا تملكون لهم نفعاً ولا ضرا ؟ وقد مثلت لنفسي بين أن تعيشي بجانبي فأراك فقيرة معوزة تشقين ليلك ونهارك في جمع قوتك كما تشقى الأجيرة العاملة ؛ وبين أن تفارقيني بضعة أعوام أسمع في اثنائها على البعد من أنباء سعادتك وهناءتك ونعمتك ورغدك ، ما يثلج صدري ، ويذهب بوحشة نفسي ؛ فوجدت أني أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الأولى ، فسافري يا بنيتي ؛

وكوني غداً عكاز شيخوختي وعماد حياتي ، ومعينتي على دهري .

فرفعت فرجيني رأسها إليها فإذا دمعة رقراقة تتلألأ في عينيها ونطقت بتلك الكلمة التي عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت : « وكيف لي بترك بول يا أماه ؟ » .

قالت : إنما أطلب إليك السفر من أجل بول ، لا من أجل غيره فهو غلام مسكين يبذل من راحته وقوته في سبيل العمل ما أحسب أنه قاتله وذاهب بحياته إن طال عليه أمره فارحميه واشفقي عليه وأنقذيه من بؤسه وبلائه ؛ ولقد آثرت أن أفارقك وأحتمل كل مكروه في سبيل ذلك حتى الموت ضناً بك وبسعادتك . فكوني مثلي وفارقيه رحمة به وإبقاء عليه ، وليكن حبك إياه عظيماً مجيداً كحبي إياك ، ولن يعظم الحب ولن يمجد إلا إذا بني على أساس من التضحية والبذل .

قالت : ألم تقولي لي يا أماه قبل اليوم أن للكون إلهاً يتولى شأنه ويرعاه ؟ وقد رعانا وتولى شأننا بالأمس ، فلم يتخلى عنا غداً ؟

ألم تقولي لي إننا ما خلقنا إلا للعمل ، وأن العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التي لا تفنى ، فلم تطلبين إلي اليوم أن أعتمد في حياتي على غيره وألتمس الرزق من سبيل غير سبيله ؟

دعيني أعيش بجانبك يا أماه ، وبجانب بول ومرغريت ودومينج وماري ، وعلى مقربة من شويهاتي وأعنزي ، وطيوري وعصافيري وبين أحضان هذا الوادي الجميل الذي أنست به وأحببته وألفت ليله ونهاره وكواكبه ونجومه ، وظلاله ، فإنني لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهم ولا أفهمهم ، ولا

أحسبني أحمدهم إن عرفتهم وفهمتهم .

دعيني أعيش مما قسم الله لي من الرزق ، ولقد رزقني الجم الكثير الذي لا أطلب فوقه مزيداً ، ولا ابتغي به بدلاً !

لقد عشت في هذا الوادي خمسة عشرة عاماً ما شكوت ولا تألمت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة أو ساخطة أو ناقمة ، فلم تطلبين إلي أن أترك ما لا يريبني إلى ما يريبني ، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف ، بذلك الغائب المجهول ؟ وإن نفسي لتحدثني بشر عظيم في هذه السفرة التي تدعونني إليها ، وما أزعم لنفسي علم ما في الغيب ، ولكني أشعر بخوف شديد لا أعرف له سبباً ، وحسبي أن أعلم أن لا سبيل لي إلى الوصول إلى ذلك العالم الثاني إلا إذا ركبت تلك المطية الوعرة التي يسمونها البحر حتى تسيل نفسي رهبة وجزعاً .

فأطرقت هيلين صامتة ، ولم تستطيع أن تقول شيئاً لأنها وإن كانت من أشهى الأشياء إليها أن ترى ابنتها بعيدة عن بول في تلك الأيام ، وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التي تنتظرها هناك ، إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول .

ثم قالت بعد قليل : إنني لا أحب أن أشق عليك يا بنيتي في شأن من شؤونك الخاصة بك ، فاختاري لنفسك الحياة التي تحبينها وتؤثرينها ، غير أني أضرع إليك في أمر أرجو ألا يثقل عليك . قالت : وما هو ؟ قالت : أن تكتمي سرك الذي تعالجينه بين جنبيك ، فلا تبوحي به لأحد الناس كائناً من كان حتى لبول نفسه ، وأن تجعلي الفضيلة والطهارة والشرف والعفة رائدك في

كل ما تقولين وما تفعلين ، وأن تأخذي نفسك بالأناة والرفق في جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاء العثرة والزلة ، وأن تجعلي نصب عينيك دائماً أن الرجل لا يحترم إلا المرأة التي تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التي تبذل نفسها له أي أنه يحب المرأة الفاضلة أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لا يعرف للمرأة جمالاً غير جمال الأدب والعفة وإن زعم في نفسه غير ذلك ، قالت : ذلك ما أعرفه يا أماه ، ولا أعرف شيئاً سواه .

وما أتى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة وهو رجل من أولئك الدعاة الماكرين الذين تستعين بهم الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم ، ولا إنفاق مال ، والذين يكونون دائماً في حاشية حكام المستعمرات ليعينوهم على ما هم آخذون بسبيله من الفتح والغزو ، وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه الأسرة من حين إلى حين ليرشدها ويباركها فلما رأوه قادماً إليهم ظنوه أنه إنما جاء لزيارتهم كعادته التي اعتادها ، فأحسنوا استقباله وتحيته ، ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الأمر الذي كان يشغلها ، فكاشفته به فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء في الجزيرة ويأمر فرجيني بالسفر إلى فرنسا ! وأنهما إن لم تفعلا فقد خالفتا إرادة الله وباءتا بسخطه وغضبه ، فذعرت فرجيني ذعراً شديداً ، ولم تجد بداً من الخضوع والإذعان ، فانصرف الكاهن عائداً إلى قصر الحاكم ليرفع إليه ما تم من الأمر على يده .

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة أن تلك الأسرة الفقيرة الخاملة التي تسكن ذلك الوادي المقفر الموحش قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد إليه الوافدون من كل مكان ما بين

مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، وأعانت المسترفد ، وابتاعت من الانسجة والشفوف وصنوف الديباج والخز وأنواع الأثاث والرياش ما يزيد عن حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع أفرادها أسمالهم القديمة البالية وقمصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام ، ولبست فرجيني ثوباً حريريا أزرق مطرزاً بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ولصق ثوبها بجسمها فمثله تمثيلاً بديعاً ، ووصفه وصفاً دقيقاً . وبول يرى كل هذا ولا يفهم منه شيئاً ، لأن أحداً منهم لم يجرؤ أن يكاشفه الأمر ، إلا أن يظن ذلك ظناً ، فعظم حزنه واكتئابه وساورته الوساوس والهموم ، فرحمته أمه مما به ، وكانت تمسك في نفسها شيئاً من العتب على صديقتها هيلين في رضاها بسفر ابنتها وتضحيتها بابنها في سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له : لم تعلل نفسك يا بني بالآمال الكاذبة والأماني الضائعة ، ولم تتطلع إلى ما تقصر عنه يدك ويضيق به ذرعك ؟ ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذي كتمته عنك زمناً طويلاً لتعلم من أنت ؟ ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لا على مقدار تصورك فاعلم أن أمك أمرأة فلاحة وضيعة لا حسب لها ولا نسب ، وأن قدراً من الأقدار الجارية بين الناس قد نزل بها في صباها فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أي أنك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بفرجيني ، فهي فتاة شريفة نبيلة من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة مثرية كانت قد أغفلت أمرها حقبة من الزمان لأمر ما ، ثم ذكرتها اليوم فأرسلت في طلبها لتعيش معها في باريس متمتعة بثروتها الطائلة ، حتى إذا ذهبت لسبيلها ورثت

عنها هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع في أن تتصل بها يوماً من الأيام إلا أن تكون فلتة من فلتات الدهر ، أو أعجوبة من أعاجيب الأيام ، وأرح نفسك من هموم الأماني ومتاعبها ، والله أولى بك وبي من كل مخلوق . .

واعلم يا بني أنني لم أقترف هذا الجرم الذي ذكرته لك ، وأنا أعلم أني آثمة أو مذنبة ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لا حيلة لي ، ولا لأحد من الناس في أمره ، فاغفر لي خطيئتي إن كنت ترى أنني مخطئة أو أنني الجالبة لك هذا الشقاء الذي تكابده في حياتك .

ثم أسلمت رأسها إلى ركبتيها وبكت بكاء طويلاً .

فحنى عليها بول وطوق عنقها بيديه وقال لها : لا تبك يا أماه ، فما أنت بائسة ، ولا شقية ما دمت معك ، أما هفوتك التي تتحدثين عنها فما أحسب إلا أن الله سبحانه قد غفرها لك ، نعم سوف يغفرها لك لأنك قد كفرت عنها بدموعك ، وآلامك ، وشقائك الذي كابدته زمناً طويلاً ، وكوني على ثقة من أنك أجل في عيني وأكبر في نفسي من أن أعد عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأنني لا يعنيني أكان أبي معلوماً أم مجهولاً ، شريفاً أم وضيعاً ، لأنني ما فكرت يوماً من الأيام أن أفخر به أو أعتمد في حياتي عليه ، أما تلك التي حدثتني عنها فسأحمل نفسي على نسيانها وسلوتها وأرجو أن يعينني الله على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عني وتجهمها لي ! ولا بد أن تكون قد وقفت من بضعة شهور على هذا السر الذي أطلعتني عليه اليوم فازدرتني واحتقرتني ونفضت يدها مني إلى الأبد ،

والأمر لله وحده .

ثم نهض قائماً ، وقد ظن أنه قد شفي مما به ، فتنفس نفس الراحة ومضى لسبيله .

إلا أنه لم يبعد إلا قليلاً حتى شعر بوخزة في قلبه فلم يبل بها ، ثم تتابعت الوخزات فخيل إليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من مكانه ويطير في أجواز الفضاء فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : آه يا فرجيني .. آه يا فرجيني ، حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطىء البحر فتهافت عليها وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب به نفسي مذاهب لا يعلمها إلا الله . وظل على حاله ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه وبدأ كوكب الليل يخطر في جو السماء محفوفاً بحاشية من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صخور وهضاب ورمال وتلال فأضاءتها وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة .

وإنه لكذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه وبأخرى ترفع رأسه فانتبه فإذا فرجيني واقفة أمامه ودموعها تترقرق في عينيها ، فذعر إذ رآها وظل ينظر إليها نظراً حائراً مضطرباً ، فقالت له : ما بقاؤك هنا وحدك في هذا المكان يا بول ؟ فقال لها : لقد حدثوني عنك أنك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وأنك ذاهبة لتفتشي لك عن أخ آخر غيري يصلح لك وتصلحين له لأنك عرفت أنك فتاة شريفة ثرية لا يجمل بك أن تتصلي بفتى وضيع مسكين مثلي ،

فأحزنني ذلك حزناً عظيماً ، وكنت أظن أنني أستطيع أن أحمل نفسي على الصبر عنك واليأس منك فعجزت ، فلم أر بداً من أن أروّح عن نفسي ببضع قطرات من الدمع أذرفها في هذا المكان الخالي .

ثم أشار إليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها وظل يقول لها : إلى أين تريدين أن تذهبي يا فرجيني ؟ وأي أرض تلك الأرض التي اخترتها وآثرتها على أرضك التي نشأت فيها ، وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفياءها ، وخضراءها وغبراءها !؟ وأي قلب ذلك القلب الذي رأيت أنه يحمل لك في سويدائه من الحب والعطف اكثر مما يحمل لك قلب أمك فاستبدلته به وسكنت إليه من دونه ؟!

لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم ؟.

وكيف تستطيع أن تهنأ بنومها حيثما تمد يدها في ظلال الليل وسكونه إلى مضجعك فلا تراك بجانبها ، وكيف تستقبل وجه النهار إذا فتحت عينيها في الصباح ، فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل ، أو تجد لذة الطعام والشراب إذا جلست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين إليها ، أو تصغي إلى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها ، ولا تنبعث رنته بين رناتها !؟.

وكيف لي بتعزيتها ، تعزية أمي عن همومهما وأحزانهما إذا دخلت إليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين تسألان عنك الليل والنهار ، والأصائل والأسحار ، والظباء السانحة ، والطيور البارحة ، فلا تسمعان ملبياً ولا مجيباً ولا تقبلان عزاء ولا سلوى !؟

وصمت هنيهة ثم قال وعيناه مخضلتان بالدموع : وماذا

اصنع أنا من بعدك. أيتها الغادرة القاسية إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها لأجلس إليك ساعة أتمتع فيها بلذة حديثك وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟ ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعباً لاغباً ، فيبتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تذهب بجميع اوجاعي وآلامي ؛ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطىء البحر وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المنبسطة وصبغها بلونه الفضي الجميل فيجلس بجانبي على رملة من رماله الميثاء فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التي تستغرق شعوري ووجداني ، وتملك على مداركي وعواطفي . ويخيل إلي حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان ، في فراديس الجنان !؟ .

إنني لا استطيع أن أعيش من بعدك يا فرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ، فأنت أجل من ذلك شأناً ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضت إلي أمي اليوم بسر حياتك وسر حياتي فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأنني فتى وضيع جداً ، لا أصلح أن أكون أخاً لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك ، وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركبينها لأكون ملاّحاً من ملاّحيها أو خادماً من خدمها ، فأراك على البعد فأجد في رؤيتك راحتي وسلوتي ، وأعدك وعداً صادقاً لا أغدر فيه ولا أحنث ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ولا أتصل بك بوجه من الوجوه إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي غير حياتي ، فابذلها لك طيب النفس عنها .

ما الذي طرأ عليك يا فرجيني ؟ وما الذي نال من نفسك هذا المنال كله حتى استحالت حالتك إلى حالة أخرى أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية عواصفه وأنوائه جزع الأطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب للذين يخاطرون بأنفسهم في ركوبه ، فإذا أنت مزمعة أن تعبريه ، وأن تلبثي بين أمواجه الثائرة تسعين يوماً كاملة !

كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يوماً واحداً ، فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقاً طويلاً لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، ومالك حيث تذهبين من الأرض أم سواها !.

كنت تقولين إنني لا أجد لذة الحياة بعيدة عنك ، فها أنت تجدينها بعيدة عني جداً بين أقوام لاتعرفينهم ، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب .

لقد شعرت بهذا الطارىء الجديد الذي طرأ على نفسك مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك ، وعهدي بك أنك تضيقين ذرعاً بالريح العاصفة إذا مدت يدها إليك ، وحاولت أن تعبث بذيل ردائك ، أو تدور بقميصك حول جسمك ، ولا أدري ماذا يكون شأنك غداً إذا فارقت هذه القفرة الموحشة إلى ذلك العالم المزدحم الهائل الذي يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغداً ؟

نعم إنك قد مللتيني يافرجيني ، ومللت الحياة بجانبي ، وأصبحت تشعرين بالحاجة إلى المال الذي لا أستطيع تقدمه لك ، وإلى العيش

الرغد الذي تقصر يدي عنه ، فلا ألومك ولا أعتب عليك ، ولكنني أسألك هل أنت على ثقة من المال هو السبيل الوحيد إلى السعادة التي تنشدينها ، وأنك تكونين في ذلك الفناء الواسع أسعد منك في هذه الزاوية الضيقة ؟ إنني أخاف أن تكوني مخطئة فيما تظنين .

إنني لا آسي على نفسي يافرجيني ، فقد عرفت من أنا ، وعرفت من أنت وأصبحت لا أمل لي في أن أعيش في دائرة أوسع من الدائرة التي خلقت لها ولكنني أضن بك على الدهر وأرزائه أن يمتد إليك ظفر من أظفاره الجارحة فأهلك على أثرك هماً وكمداً .

فإما أن تعدلي عن السفر ، أو تأذني لي بالسفر معك فإنني لا أستطيع أن أحول بين قلبي وبين القلق عليك ما دمت غائبة عني ، فإن أبيتهما فودعيني منذ الساعة الوداع الأخير ، فلا أمل لي في الحياة من بعدك .

فلم تستقبله إلا بدموعها تنحدر على خديها تحدر حبات العقد وهي سلكه فانتثر ، وأنشأت تقول له :

إنني إنما أسافر من أجلك يا بول لا من أجل نفسي ، لأنني أصبحت أشفق عليك الإشفاق كله من هذا الشقاء الذي تكابده في سبيلي وسبيل هذه الأسرة المسكينة ، وطالما بكيتك بيني وبين نفسي كلما رأيتك صاعداً شرفاً ، أو عابراً نهراً ، أو سالكاً وعراً ، أو حاملاً ثقلاً ؛ حذراً عليك أن تزل بك قدمك في هوة من الهوى فتهلك فأهلك على أثرك ؛ فأنا إن فارقتك فإنما أفارقك بجسمي لا بنفسي لأعود إليك بعد قليل من الأيام بالراحة

الطويلة من آلام هذه الحياة ومتاعبها ؛ ولنستطيع أن نتمتع غداً في هذا المعتزل الساكن الجميل متعة لا يكدرها علينا مكدر حتى الموت .

ورجائي إليك ألا تعود مرة أخرى إلى ذلك الحديث المزعج الذي حدثتنيه الساعة ، فإنما نحن أخوان توأمان ، نشأنا معاً ، ودرجنا معاً ، وشربنا الحياة من كأس واحدة ، وسلكنا سبيلها من طريق واحدة ، هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لا نعرف غيره ولا نفهم شيئاً سواه ، وإني قائلة لك كلمة ما كان يمنعني مني أن أقولها لك قبل اليوم إلا الخجل والحياء : لو أن الدنيا عرضت علي بحذافيرها على أن أبتاعها بشوكة تشاكها أو لحظة تتألم فيها ، لأبيتها غير آسفة ولانادمة .

على أنني لا ذنب لي فيما كان ، فقد أمرتني أمي بالسفر ولا أستطيع أن أخالف لها أمراً ، وأبلغني الكاهن أن تلك إرادته ومشيئته ، ولا قبل لي بالخروج عن إرادته ، وبعد : فهأنذا بين يديك فمرني بما تشاء من أمرك أطعك وأذعن إليك ، غير مبالية بشيء بعدك ، فكل ما في الحياة هين إلا أن أراك جازعاً أو متألماً .

فصاح بول صيحة الفرح والسرور وقال : سافري يافرجيني وسأسافر معك لأقيك بنفسي عاديات الدهر ، وطوارق الحدثان ، فإن حيينا حيينا معاً ، وإن هلكنا هلكنا معاً ، ثم دنا منها وضمها إلى صدره فشعر بالراحة التي يشعر بها الملقي عصاه بعد سفر طويل .

وكنا نفتش عنهما في تلك الساعة أنا وهيلين ومرغريت ولا نعرف لهما مكاناً ، حتى سمعنا صيحة بول حين صاح فقصدنا إليه ؛ فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه ومشى إلينا ، ثم

التفت إلى هيلين وألقى عليها نظرة ما ألقى عليها مثلها قبل اليوم وقال لها بنغمة الهازىء الساخر : نعمت الأم أنت يا سيدتي ، ونعم ما تسدينه إلى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابغة ، ويد بيضاء ، إذ تريدين أن تفرقي بينهما وتمزقي شمل حياتهما ، وتعذبي قلبيهمـــا الناشئين الضعيفين بصنوف العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لا يستطيع أحدهما أن يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ؛ وأن افتراقهما هو القضاء عليهما معاً .

لقد كنت يا سيدتي أزهد الناس في المال وأشدهم نقمة عليه ، وزراية به ، وزهداً فيه ؛ فما الذي بدا لك في شأنه حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك في سبيله ؟ بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ؟ لأنك تريدين أن ترسلي ابنتك إلى تلك الأرض التي أهانتك واحتقرتك ؛ وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ، عقاباً لك على هفوة صغيرة ما كان مثلها جديراً بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد !؟

نعم إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك في ذلك منازع ولكنني أنا أيضاً أخوها وصديقها وعشيرها فصلتي بها عظيمة جداً لا تفترق عن صلتك إلا قليلاً ، ولئن فرق بيني وبينها النسب فلقد جمعنا الحب والإخاء ، والود والوفاء والولادة في مهد واحد ، والرضاع من ثدي واحد ، وبكائي عليها إن مسها ألم ، وبكاؤها علي إن نالني وصب ومخاطرة كل منا بنفسه في سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يد أجله أو يهلك دون ذلك ؛ واشتركنا معاً في الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والجوع والشبع ، والري والظمأ ؛ وخوض الأنهار واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ومقاساة الأهوال ، فكيف لي بالصبر على فراقها ،

أو لها بالصبر على فراقي ؟

أبعدبها عني ما شئت ولكني سأتبعها ، وأترسم آثارها حيثما حلت من الأرض ، فإن أبيتم إلا أن تقفوا في وجهي ، وتحولوا بيني وبين ركوب السفينة التي تحملها خضت البحر وراءها خوضاً ، لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقي ، فإن قدرت لي النجاة فذاك ، أو لا ، فحسبي منها أنها تلقي علي في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي نظرة من نظراتها ، وأن تذرف في سبيلي دمعة من مدامعها ، فيكون شخصاً آخر ما أرى من الأشياء وصوتا آخر ما أسمع من الأصوات .

فاستعبرت هيلين وقالت : وماذا يكون حالنا من بعدك يا بول ؟

قال : وهل تظنون أني أبقى من بعدها إنساناً تستطيعون أن تنتفعوا بي في شأن من شؤونكم ؟ أو أن يبقى لي من الفهم والإدراك ما يعينني على مأرب من مآرب هذه الحياة ؟ إنها فكري وعقلي ، وتصوري وإدراكي ، وقوتي وعزيمتي وحياتي من مبدئها الى منتهاها ، فإن أردتم أن تفقدوني إلى الأبد ، فأبعدوها عني ، وودعوني الوداع الأخير قبل أن تودعوها .

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب صورة لبسها في حياته وظل يهذي ويقول :

أيتها المرأة القاسية ! لا متعك الله برؤية ابنتك بعد اليوم ولا أعادها البحر إليك إلا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عيناك عليها إلا محمولة على الأيدي إلى مقرها الأخير ،

ولكن ذكراها مبعث ألم دائم لك لا يفارقك حتّى الموت .

ثم دار على نفسه دورة سريعة وسقط مغشياً عليه : فبكت هيلين ومرغريت وبكيت أنا أيضاً على جفاف دمعتي ونضوب مادة حياتي لأنني أصبحت والداً لهذا الولد المسكين ؛ وأي والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهلة بين يديه ، وظللت أقول في نفسي : ويل لك أيتها القارة المشؤومة ، لا خلاص منك ولا نجاة من يدك أبد الدهر ، فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ، وبلجأت إلى أقصى مكان يمكن ان تناله يد في العالم فما زلت بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى حتّى أزعجتها من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن تفسدي عليها حياتها وتبدي ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيديها إلى حبائلك المنصوبة التي ظنت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فواشقاءك وواشقاء العالم بك !

وهنا تقدمت فرجيني تمشي بخطوات خفيفة مختلسة حتّى جلست إلى جانبه ، وقد تلألأ وجهها بنور سماوي غريب لا يشبه نور القمر ولا نور الشمس ؛ ولا نور أي كوكب من كواكب الأرض والسماء بل هو مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبت على أذنه تقول له : سواء بقيت هنا يا بول أو رحلت فإني أقسم لك بدموعي ودموعك ، وآلامي وآلامك وبما قدر لنا أن نلقاه في حياتنا من شقاء ولوعة ؛ أنني أكون لك ما حييت ولا أكون لأحد غيرك ، أقسم لك على ذلك بين يدي أمي وأمك ؛ وبين يدي هذا الشيخ الجليل ، فهم شهودي على ما أقول ، والله من ورائهم محيط .

فكأنما صبت على جسمه سجلاً من الزلال البارد ، فانتفض

ورأرأ بمقلتيه واستوى جالساً ، وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع في هدوء وسكون فاحتضنته أمه إلى صدرها وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها ؛ فهمست هيلين في أذني : إن الموقف مؤلم جداً ولا صبر لي على مشاهدته ؛ فتقدمت نحو بول وجذبت يده وقلت له : هيا بنا يا ولدي إلى المنزل ، وقد انتصف الليل ، فمشى معي صامتاً لا يقول شيئاً ولا يلوي على شيء مما وراءه ؛ حتى بلغنا الطريقين طريقي إلى كوخي ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له : هل لك أن تترك أهلك الليلة يستريحون من آلامهم ومتاعبهم ؛ وتذهب معي إلى كوخي لتبيت عندي ثم تعود في الصباح ؟ وكن على ثقة أن فرجيني لا تسافر بعد اليوم فقد عزمت غداً أن أكلم الحاكم في أمرها ، والحاكم لا يرد لي رجاء وما أحسب إلا أن الأمر سينتهي على ما تحب وترضى ، فأسلم لي يده فقدته كما تقاد السائمة البلهاء حتى وصلنا إلى المنزل ، فقضى ليلته قلقاً مروعاً لا يذوق النوم إلا لماماً حتى أصبح الصباح .

(١٩)

السفر

وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت له : ما بك يا سيدي ؟ قال : بي أن هذه الذكرى تهيجني ، وتبعث شجوني وأحزاني ولا أرى لك يا ولدي فائدة من ذكرها، فالحياة كما تعلم ذات لونين أبيض وأسود ، وأنتم معشر المتمدينين لا تحبون منها إلا لونها الأبيض ، فلا أريد أن أنحرف بك إلى ما لا تحب من لونيها ، قلت قل يا سيدي فنحن أبناء الدموع والآلام ، وسلائل البؤس والشقاء ؛ وما لنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب في حياتنا مذهباً غير مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يطهر معدن النفس من أخلاطه وشوائبه وينقيه من أدرانه وأكداره ، غير تلك الألسن النارية التي تنبعث من صدور المتألمين ، وقلوب المحزونين ؟ على أننا لابد لنا أن نفهم الحياة كما خلقت خيرها وشرها سعودها ونحوسها ، ولا بد لنا حين ننظر إلى نصف الكرة الذي يقابل وجه الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا ونحن في ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح في ظلمة الليل البهيم ، فرفع رأسه واستمر في حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض بول من مضجعه القلق المضطرب ، ومشى في طريقه إلى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكاني ، فلم يزل سائراً حتى لمح الخادم «ماري» واقفة على رأس هضبة عالية تنظر جهة البحر ، فذعر إذ رآها ،

ونادها : أين فرجيني يا ماري ؟ فأطرقت برأسها وبكت ، فجن جنونه ، وعلم بما كان ، وهرع إلى شاطىء البحر يعدو عدو الظليم ؛ فلم ير أمامه على سطح الماء شيئاً ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر ، وأنها قد تجاوزت مدى البصر فلا سبيل إلى رؤيتها ، فكر راجعاً حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذي يسمونه جبل الاستكشاف ، فارتقاه بأسرع من لمح البصر على وعورته وتشعب مسالكه حتى بلغ قمته العليا وضرب الفضاء بنظره ، فلم يرَ في عرض البحر إلا نقطة سوداء صغيرة تتلاشى شيئاً فشيئاً ، فعلم أنها السفينة التي تحمل فرجيني ، فاستمر نظره عالقاً بها لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفاً حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لا تزال باقية في مكانها ، وظل على ذلك ساعة حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شيء فلوى رأسه وانفجر منه باكياً ، وأنشأ يعج عجيجاً محزناً يرن في أجواف الغابات والأدغال وتردد صداه أكناف الجبال ، فصعدت درجات من الجبل حتى كنت منه بحيث يسمع صوتي ، وظللت أناديه وأضرع إليه أن ينزل فلم يفعل إلا بعد لأي ، فتناولت يده وذهبت به إلى كوخه ، فبكت أماه إذ رأتاه ، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها في حياته ، وكأن بؤس الحياة بجميعه قد تجمع واتخذ له مكاناً بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتاً لا يقول شيئاً سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل ؛ ثم أخذ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : ولم لم ينبئوني بالساعة التي تسافر فيها لأقضي حق وداعها قبل أن تفارقني ؟ إنهم لو فعلوا لما زدت شيئاً على أن أدنو منها وأقلبها قبلة الوداع ، ثم أقول لها : إن كنت تذكرين يا فرجيني أني أسأت إليك يوماً من الأيام أو بدرت مني بادرة آلمتك وجرحت

نفسك ؛ فاغفري لي ذنبي قبل أن تفارقيني ، وإن كنت عزمت على أن تجعلي فراقك هذا الفراق الأخير الذي لا لقاء بعده ، وأن تتخذي لك في المكان الذي تذهبين إليه آخر غيري ، تمنحينه من عطفك وودك مثل ما كنت تمنحينني فأنت في حل من ذلك . وهنيئاً لك ما تختارين ، وما تؤثرين ، فلا تكن ذكراي سبباً في تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة ، ثم أنصرف بعد ذلك لشأني ، وقد هدأت نفسي وبرد غليلي ، ولكنهم لم يشفقوا علي ، ولم يرحموني ، لأنني ولد مسكين لا شأن لي في الحياة ، بل لا مكان لي بين الأمكنة التي يجلس فيها ذوو الأصول والأنساب .

فدنت منه هيلين ، وما بين القلوب قلب أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده ، وقالت له : كن رجلاً يا بني كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف الساعة التي تسافر فيها فرجيني ، فقد طرق بابنا بعد عودتنا إلى الكوخ ، وفي هدوء الليل وسكونه حاكم الجزيرة ووراءه أعوانه وجنوده وقال لنا : إن الريح قد اعتدلت والسفينة على وشك السفر ، فلتستعد الفتاة ، فأبت فرجيني أن تسافر قبل أن تراك ؛ وظلت تهتف باسمك وتناديك وتبكي بكاء مراً ؛ فلم يجد الحاكم بدا من أن يأمر رجاله بحملها فاحتملوها إلى هودج كانوا قد أعدوه لها وساروا بها إلى شاطىء البحر ، وهي لا تنفك عن ذكرك والبكاء عليك حتى أقلعت السفينة .

فرفع بول إليها نظره وظل يردده بينها وبين أمه ؛ ثم قال لهما : فتشا لكما الآن عن ولد غيري يدعوكما بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ، فقد فقدتماني إلى الأبد ، ثم انفتل من

مكانه مسرعاً وخرج هائماً على وجهه يمر بكل مكان كانت تجلس فيه فرجيني فيجلس فيه ؛ وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها وأخذ يخاطب الماشية التي يجدها في طريقه كأنها تعقل منه ما يقول فيقول لها : مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ؛ من ذا الذي يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبتك ؟ ويقول للطيور التي تغرد في أعشاشها : لا تنتظري بعد اليوم من يحمل إليك الطعام في حجره ، والماء في يده فقد سافرت فرجيني ؛ ورأى الكلب « فيديل » سائراً في طريقه يسوف التراب ويشتمه كأنما يفتش عن شيء ضاع منه ؛ فقال له : فتش ما شئت فإنك لن تراها بعد اليوم ؛ ورأى عنزة تتبعه حيث سار فالتفت إليها وقال لها : أنا سائر وحدي ؛ وليست فرجيني معي ، فانصرفي لشأنك .

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التي جلس عليها معها ليلة الأمس فارتقاها ورمى بنظره في الفضاء حتى استقر في المكان الذي شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر في الصباح فلم يزل نظره عالقاً به كأنما يظن أن السفينة لا تزال باقية فيه ؛ وظل على ذلك ساعات طوالا .

وكنا نتتبعه على البعد من حيث لا يشعر بمكاننا ؛ ونترقب مذاهبه ومراميه ونرثي له مما به ؛ وقد أصبحنا ، ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، حتى استطعنا بعد لأي أن نعود به إلى الكوخ ، واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين لم يذق فيهما طعاماً ولا شراباً أن يصيب شيئاً من الطعام ، فكان إذا جلس على

المائدة خيل إليه أن فرجيني لا تزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلاطفها كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام التي يعلم أنها تحبها ، ثم لا يلبث أن يتنبه لنفسه فيطرق برأسه خجلاً وحياء ، وتظل عيناه تنهملان بالدموع ، ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه .

وكان لا يعجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : يا زوج ابنتي أو يا صهري العزيز ، فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً فشيئاً إلى نفسه سبيلا ، فأخذ يجمع آثار فرجيني من جميع أماكنها ومظانها ، فجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها في أيام الأعياد ، وكأس الشاي التي كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التي كانت تحفظها في صندوقها ، ومشط الآبنوس الذي كانت تمشط به غدائرها ، وأمثال ذلك من الأدوات والآنية ووضعها في مكان واحد سماه « متحف فرجيني » فكان يختلف إليها من حين إلى حين ليلثمها ويقبلها ويضمها إلى صدره كأنما هو يضم صاحبتها .

وما هي إلا أيام قلائل حتى عادت إليه تلك الروح العظيمة الشريفة التي كانت تملأ ما بين جنبيه : روح الرجولة والهمة ، والعزة والأنفة ، فعز عليه أن يرى أميه ، وهما ضعيفتان منهوكتان تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به فعاد له جده ونشاطه وأصبح العمل ملهاته الوحيدة التي يلجأ إليها من همومه وأحزانه ويعتصم بها من وساوسه وبلابله .

وكان يأنس بي في ذلك الحين أنساً عظيماً ويقضي معي جميع

أوقات فراغه لأنني كنت أعزيه وأهون عليه همومه وآلامه ، لا بالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أماه ، بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره ، فاقترح علي يوماً من الأيام أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمر في نفسه أن يعرف السبيل إلى مراسلة فرجيني ، فأعجبني مقترحه هذا وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك يا ولدي أنني ما رأيت في حياتي ذهناً أحدّ ولا أمضى ، ولا فطرة أقوم ولا أسلم من ذهن هذا الغلام وفطرته .

فقد استطاع بعد بضعة شهور لا تزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلاً طويلاً من كتاب أدبي بسيط ، وأن يكتب مسودة رسالة لفرجيني .

وما هو إلا عام وبعض عام حتى طلب إلي أن أعلمه فن الفلاحة ولعله أراد أن يصل من طريقه إلى الثروة الواسعة إرضاء لفرجيني ، وعلم تقويم البلدان ليعرف النقطة التي تحلها فرجيني من سطح الأرض ؛ وعلم التاريخ ليعرف شيئاً من شؤون أولئك القوم الذين تعاشرهم فرجيني ، فعلمته من ذلك ما يستطيع أن يقوم به مثلي ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى استطاع أن يستقل بنفسه في دراسة تلك العلوم وغيرها مما بدا له أن يعزفه ويزاوله ، فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم والإدراك لم يسمح الدهر بمثلها لفتى في مثل سنه ، وفي مثل الزمن الذي قضاه في الدراسة ؛ وأصبح ينظر إلى الحياة وشؤونها نظرة الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشف الكثير من بواطنها وخفاياها ؛ وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر والصلاح والفساد والإساءة والإحسان ،

فلم يشتبه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيل من السبل ، وكان السبب في ذلك أنه تعلم العلم لا ليتخذه آلة يتوصل بها إلى غرض من أغراض الحياة ، أو مطمع من مطامعها ؛ ولا ليتجمل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون الذين يعتبرون العلم حلية من الحلى يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة ؛ وجواهرهم الثمينة ؛ وقصورهم الشامخة ؛ ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ويراها كما خلقها الله لا كما عبثت بها يد الإنسان ، فكان له ما أراد .

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجي المتوحش إنساناً كاملاً مستنير الذهن مستوي العقل فياض الشعور والإحساس ، واستطاعت شمسه المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ، فتنير جوانبه ، وتبدد ظلماءه ، واستطاعت شعلته الملتهبة أن تطهر بنارهـا تلك النفس الصدئة المتبلدة ، وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها ، فإذا هي سبيكة صافية من الذهب تتوهج توهجاً وتلتمع التماعاً ، إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من وصف المجازر البشرية والمصارع الإنسانية ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة الحافلة برذائل الملوك والأمراء وفظائع الأشراف والنبلاء ، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار ، كما مل تقويم البلدان لكثرة ما يحتويه من أسماء الأمكنة والبقاع ، والجبال والتلال والأنهار والنهيرات التي لا نهاية لها ، ولا فائدة منها ، وشغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثراً ، قصصاً وروايات ، وأمالي ومحاضرات ؛ لأنه خلاصة العقل البشري وزبدته الأخيرة التي تمخض عنها ، لأنه المرآة الصافية التي تتراءى فيها صورة الحياة على حقيقتها

ومشاعر النفوس بكلّ ما تشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ، وطمع ويأس وارتياح وانقباض ، وكان خير ما يعجبه من الشعر شعر « هومير » ومن النثر قصة « تليماك » لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها ، وترسم مزالق الشهوات التي تزل فيها أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فإذا جلس لقراءتها ووصل إلى قصة أنتيوت وأوخاريس خيل إليه أن فرجيني مثال الأولى في إبائها وعزتها ، ومثال الأخرى في رقتها وعذوبتها ، فتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقي كتابه جانباً ويسبح في فضاء الخيال سبحاً طويلاً .

وكان من أبغض الأشياء إليه مطالعة تلك الروايات الغرامية التي وضعها واضعوها لا ليهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس وفضول أطماعهم ويلهبوا بنارها ما برد من عواطفهم . وهدأ من لواعجهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة إلى تلك الحمأة القذرة من الرذائل والمثالب ، وكان يقول في نفسه كلما قرأ شيئاً منها : ليت شعري هل تستطيع فرجيني أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث الذي تتحدث عنه هذه الروايات ؟! إنني أخاف عليها خوفاً شديداً .

(٣٠)

أوروبـــا

مرت ثلاثة أعوام ، ولم يرد على هيلين كتاب من ابنتها ولا من عمتها ، فقلقت لذلك أشد القلق لأنها لم تعرف عن ابنتها شيئاً منذ سافرت حتى اليوم ، سوى ما كانت تسمعه من حين إلى حين من أفواه بعض الطارئين على الجزيرة أنها وصلت سالمة إلى بيت عمتها ، وأنها تعيش في ذلك البيت عيشاً سعيداً يحسدها عليه الحاسدون ، ثم ورد عليها منها بعد حين ذلك الخطاب ، ولا أزال أحفظ صورته حتى اليوم :

والـــدتي :

كتبت إليك قبل اليوم كتباً كثيرة ، ثم علمت من عهد قريب انها لم تصلك فأرسلت إليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق الذي كنت أرسل إليك منه .

لا أحدثك كثيراً عن سفري وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسي عظيم ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيراً وتألمت كثيراً ، حتى رحمني من كان معي ، وكان يخيل إلي والسفينة تمخر بي في عباب البحر أنني إنما أفارقك فراقاً لا رجعة لي منه أبد الدهر ؛ ولقد شعرت بوحشة عظمى في الساعة التي دخلت فيها قصر عمتي ، فقد خيل إلي أنه على جماله وورنقه ، وحسن نظامه وبديع هندامه . وكثرة الذاهبين

والآتين في أبهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نأمة فيها ، ولا حركة ، ولقد سألتني عمّي حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول في أديمه قطرة واحدة من الرحمة : ماذا تعلمت في صغري؟ فلما عرفت أنني لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة قالت : إنك لا تزيدين في شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدي ، ولم تنشئي منشأ خيراً من منشئهم ، ثم أمرت بإرسالي إلى دير في ضواحي باريس أتعلم فيه أنواع العلوم فعلموني القراءة والكتابة ، فسرني منهما أني أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك ، ثم أخذوا يعلمونني التاريخ وتقويم البلدان والحساب والهندسة والرسم والعلوم الدينية وبعض الألعاب الرياضية ، فلم أحفل بشيء من هذا كله ، لأني شعرت ببغضه والنفور منه . واعتقدت أن لا فائدة لي فيه ، فوصفني أساتذتي ورفيقاتي بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أبل بذلك ، لأني ما دخلت الدير لأرضيهم ، ولا لأنال الحظوة في عيونهم ، على أن عمّي تعنى بي عناية كبرى . وتبذل في سبيل راحتي ورفاهيتي وتيسير جميع مرافقي وحاجاتي مالاً كثيراً ، وقد خصصت لخدمتي فتاتين متأنقتين ، من وصائفها لا عمل لهما نهارهما وليلهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما في أحاديث تافهة مرذولة لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح أو تلعبان في ملعب ، ويخيل إلي أن عمّي قد أوعزت إليهما ألا تدعواني بلقبي الذي أحبه وأوثره ، فهما تسميانني دائماً « الكونتة فرجيني » بدلاً من « فرجيني دي لاتور » أي أنها تأبى علي أن أحمل اسم والدي الذي أحبه وأعطف عليه وأفخر به كل الفخر . ولا أستطيع أن أنسى ما كابده في حياته من شقاء وألم في سبيلك وسبيل سعادتك حتى سقط في مصرعه المحزن المؤلم في صحارى مدغشقر غريباً

وحيداً لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكي عليه باك ، ويخيل إلي فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا لي بالتحدث عنك ، عن حياتي الماضية معك. فإذا ذكرتك أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التي قضيت فيها زهرة حياتي نظرتا إلي نظرات الهزء والسخرية ، وقالتا لي : إنك باريسية يا سيدتي فلا يجمل بك أن تتحدثي أمثال هذه الأحاديث عن تلك الأصقاع المتوحشة ، وأغرب من هذا أنها على جودها وسخائها وبسطة يدها وإحاطتها إياي بجميع صنوف الرعاية والإكرام لا تسمح ببقاء درهم واحد في يدي ، كأنها تخشى أن أبعث إليك بشيء من المال ، ولا أدري ماذا يعنيها من ذلك ، على أنني أعترف لها بأنها قد صدقت في فراستها ، فإنني ما كنت أتأخر عن أن أبعث إليك بجميع ما يصل إلى يدي ، لو وصل إلى يدي شيء ، ولكن ماذا أصنع ، وأنا فقيرة معوزة لا أملك شيئاً ، بل أنا الآن أفقر مني في كل عهد مضى لأنني عاجزة عن أن أمد يدي بالمعونة إلى من تهمني معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل إليك شيئاً من المال تستعينين به على عيشك في تلك البلاد المقفرة ؟ فكان جوابها : إن الحياة في تلك البلاد لا تحتاج إلى كثير من المال ، وأن المال يفسدها ويربكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، إلى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل فلم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكنني فهمت أنها لا تكترث بك ، ولا تحفل بشأنك ؛ وما كنت أريد أن أقص عليك شيئاً من هذا لولا أنك أوصيتني أن أصدقك الحديث عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر. فليتك تحضرين إلي يا والدتي لتعيشي بجانبي وتحملي عني بعض ما أكابده من الوحشة والكآبة في هذه البلاد ؛ فإن حياتي على رغدها ورخائها وتوفر أسباب النعمة فيها ؛ شقية

جداً ، لا أجد فيها أنساً ، ولا اغتباطاً ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الأثواب الجميلة ، ولا الجواهر الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشيء من وحشتي وضجري لأنني لا أجد حولي تلك القلوب الطيبة الرحيمة التي ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعوري بشعورها ، فأنا أعيش من بعدها في ظلمة حالكة لا يلمع فيها نجم ، ولا يضيء كوكب ، ولولا أني أعلم أن بقائي هنا إنما هو تنفيذ لإرادتك ، ونزول على حكمك ما أطقت البقاء ساعة واحدة .

ولقد كنت أجهل في مبدإ أمري أخلاق سكان هذه البلاد وطبائع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار ما منحهم من جمال الصور ونضرة الأجسام حتى تكشف لي أمرهم ، فرأيت أني أعيش بين قوم ممثلين ، لا علاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم ، فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، في جميع أقوالهم وأفعالهم ، لا يرون في ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الأساس الأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظاماً خاصاً بهم يختلف عن نظام البشر جميعاً في كل مكان وزمان .

ولقد لبثت زمناً طويلاً أكتب إليك الكتاب بعد الكتاب ، ثم أنتظر رده فلا يرد إلي شيء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب . وأذهب في تأويله مذاهب مختلفة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التي كنت أعتمد عليها في حمل كتبي إلى البريد كانت تحملها إلى عمتي فتقرؤها وتمزقها ، فأحزنني ذلك حزناً عظيماً ،

ثم أفضيت بالأمر إلى صديقة لي من طالبات المدرسة كنت أثق بها كثيراً فأخذت على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب إليك ، وها هو ذا عنوانها مرسل مع هذا فابعثي إلي برسائلك من طريقها .

وبعد : فليس في هذه الحياة التي أحياها هنا ما يروقني ويعجبني فانني لا أزال حتى الساعة أعيش في قفرة موحشة لا يؤنسني فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتي لا أطيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتي يزعم أنه يحبني ويعطف علي وأحسب أنه كاذب فيما يقول ، لأني لا أشعر بحبه ، ولا العطف عليه . فأنا أقضي جميع أوقاتي مكبة على منسجي ، أروح عن نفسي بالنسج والتطريز ، وستجدين في الحقيبة الرسلة إليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والأخمرة هي قسمة بينك وبين أمي ومرغريت وقلنسوة لدومينج وثوباً لماري ، وكنت أود أن أرسل إليها كثيراً من أثوابي الخليعة لولا أن الوصائف هنا لا يسمحن لي بذلك ، لأنهن يتقاسمن ملابسي ويقررن مصيرها قبل أن أخلعها .

تحيتي إلى أمي مرغريت ، ووالدي دومينج ، ومربيتي ماري ، وأستاذي الشيخ الجليل ، وكلبي الأمين « فيديل » وإلى جميع شويهاتي وأعنزي وطيوري وعصافيري ، واعلمي يا والدتي أنني في أشد الحاجة إلى بقائي بجانبك ، وإلى الرجوع إلى تلك الحياة الطيبة السعيدة التي فقدتها ولا أزال أبكي عليها ، وأنني أعيش كما تعيش النبتة الغريبة في أرض غير أرضها ، ومناخ غير مناخها . فهي صائرة إلى الذبول والاضمحلال ، وارجو أن أراكم جميعاً عندي قريباً أو أراني عندكم والسلام .

« فرجيني دي لاتور »

وكانوا جميعاً يصغون إلى الكتاب عند تلاوته ويذرفون الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب بول أنها لم تذكر اسمه في كتابها ، ولم ترسل إليه تحيتها كما أرسلتها لكل من في الجزيرة حتى لطيورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائما الحديث عن أهم الأشياء لديها وأجلها شأناً عندها إلى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة في زاوية الكتاب فقرأتها فاذا هي تقول :

« بلّغي أخي بول تحيتي وشوقي ، وقولي له إنني قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة تشتمل على بضعة أنواع من البذور الأوروبية التي يغرسونها هنا ويحتفلون بها احتفالا كثيراً معنونة بأسمائنا ، فانني أرغب إليه أن يعني عناية خاصة بزهرة البنفسج فيغرسها تحت نخلتي الجوز المسماتين باسمي واسمه ، وأن يحبها كما أحببتها ، لأنها على جمالها ورقتها حيية خجولة ، لا تألف إلا المخابىء والمكامن ، ولا تحب ان تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها ، وأوصيه أيضاً أن يغرس الزهرة السوداء التي يسمونها « زهرة الحداد » في ظل الصخرة التي جلسنا عليها معاً « ليلة الوداع » وقد سموها بهذا الاسم لأنها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة تدور بها دائرة سوداء كما يدور الخمار الأسود بوجه الفتاة الحزينة في موقف الثكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع » ويحييها عني كما يحيي جميع الأمكنة والبقاع التي يعلم أني أحبها ، وبلغيه أيضاً أني لا ازال أذكره وأنني لن أنسى قط أياديه البيضاء التي أسداها إلي فيما مضى من أيام حياتي ، وإنني دائما عند ظنه بي » .

فاستطير بول فرحاً وسروراً ، وتناول الكيس الصغير الذي

أرسلته إليه فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الأولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب على شكل زهرتين متعانقتين فسر بذلك سروراً عظيماً وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه .

وقد كتبت هيلين إلى ابنتها كتاباً.قالت لها فيه : إنها وجميع أفراد الأسرة أصبحوا بعد فرقتها في وحشة مخيفة لا يهونها عليهم شيء من الأشياء ، وإن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها منقطعين عن رؤيتها ، وإنها لا ترى بأساً من رجوعها إلى الجزيرة متى أرادت ذلك .

وكتب إليها بول يشكر لها هديتها ، ويقول لها : إنه قد أصبح الآن عالماً عن علماء الفلاحة ، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور في أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التي يرسمها ذلك الفن ؛ وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحييها بابتساماتها اللطيفة وتنشر عليها ظلالها وأفياءها . ثم أخذ يبثها آلام نفسه ولواعجها التي قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاة لم تترك دمعة في محاجرها عندما قرأتها إلا استذرفتها .

ثم أخذ بعد ذلك يهيىء الأحواض لغرس تلك البذور ويعد لها عدتها من ظل وماء فانفق في ذلك وقت طويل ثم غرسها ، فلم تلبث إلا قليلا حتى ذبلت وتضاءلت ، إما لأنها ميتة لا حياة فيها ، أو لأن التربة غير صالحة لنمائها ، أو لأن الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا في نظام واحد ، وحياة واحدة ، فتطير بذلك وتشاءم وزاده حزناً وألما ما أصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين الطارئين على الجزيرة من الروايات الغريبة التي تفترق ما تفترق ثم تتفق على أن فرجيني موشكة أن

تتزوج فلم يحفل بذلك في مبدأ الأمر ، ثم حفل واهتم ، لأن أخبار السوء لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثرها على النفس ، وبدأ يصدق ما يسمعه ، لا لأنه يعتقد صدق القائلين بل لأنه وقع في الخطأ الذي يقع فيه الناس دائماً ، وهو اعتقاد أن الدخان لا يمكن أن ينبعث من غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التي يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة في الصدور فيكون الدخان الذي ينبعث عنها إنما هو دخان المختلقات والمفتريات ، وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء فيقول في نفسه ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها وحول حياتها الطيبة الطاهرة إلى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها . وأيمانها المحرجة التي أقسمتها بين يدي ألا تستبدل بي أحداً سواي . والنفس الإنسانية كما يقول « روسو » مرآة تتراءى فيه مختلفات الصور والألوان ، والمرء كما يقول « موبسان » ابن البيئة التي يعيش فيها .

فكأن استنارة ذهنه . وسعة دائرة معارفه ، واضطلاعه بشئون العالم وأحواله : كان شقاء عليه وويلا له ، ولعله لو بقي قدماً جاهلا كما كان لا يجول نظره في أفق أوسع من الأفق الذي يعيش فيه ؛ كان من أبعد الأشياء عن ذهنه أن يتصور أن فرجيني غادرة خائنة .

وكان إذا حز به الأمر ، ولجت به الوساوس والهموم ، فزع إلي وألقى بين يدي أثقاله وأعباءه ، فأحدثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والأيام وصروفها ، وما يتداوله الناس في دنياهم من نعيم وبؤس وجدة وفقر وراحة وتعب وصحة ومرض ، ورجاء يشرق في ليل اليأس حتى يحيله نهاراً ساطعاً . ويأس يغشى

نهار الرجاء حتى يبدله ظلاماً قاتما ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويفلج عليه ، فيجد في أحاديثي هذه ملهاة يتلهى بها حيناً عن شواغله وهمومه .

(٢١)

الطبيعة

وهنا قلت للشيخ : هل لك يا سيدي أن تحدثني قليلا عن نفسك ! فاني أشعر منذ جلست إليك أني أجلس إلى رجل من عظماء الرجال ليست مثل هذه الأرض مما تنبت مثله في وفور عقله ! وسعة مداركه واكتمال أهبته ؟ وكثرة تجاربه واختباراته ، ولا بد أن حادثاً من حوادث الدهر العظام قد قذف به إلى هذه الجزيرة النائية فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون .

فرفع رأسه إلي وقال : سأحدثك عن نفسي قليلا يا بني ، فلا أحب للمرء من أن يجد إلى جانبه جليساً يستطيع أن يسكب نفسه في نفسه ، ويفضي إليه بسريرة قلبه ، ثم اعتدل في جلسته وأنشأ يقول :

إني أسكن يا بني على بعد فرسخ ونصف من هذا المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذي يسمونه « الجبل الطويل » وهنا أقضي أيام حياتي وحيدا منفردا ، لا زوج لي ولا ولد ولا أنيس ولا عشير ، وعندي أن سعادة المرء لا تعدو إحدى حالتين : أن يوفق إلى زوج صالحة تحبه ويحبها وتخلص إليه ويخلص إليها ، فان أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزل ناء كهذا المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعشيرتها ،

وقد قضى الله أن أحرم الأولى فلم يبق لي بد من اختيار الثانية

والعزلة هي المرفأ الأمين الذي تلجأ إليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج ، وتصطلح عليها هوج الرياح ، وهي الواحة الخصبة التي يفيء إليها السفر بين الأين والكلال ، فيجدون في ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ولوافح الرمضاء ، وهي المنزلة الأولى التي ينزلها المرء في طريقه من الدنيا إلى الآخرة ، ليستجم ذهنه ، ويجمع أمره ، ويعد عدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً في الشعوب الشقية المضطهدة التي لا إرادة لها أمام إرادة حاكميها الظالمين ، وملوكها المستبدين كما كان شأن المصريين والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ وكما هو شأن الهنود والصينيين والايطاليين والشعوب الشرقية اليوم .

وقد يكون ذلك أحياناً في الأمم المتمدينة المتحضرة ، فان للمدنية شقاء كشقاء الهمجية لا يختلف عنه إلا في لونه وصبغته . فان وقوف الإنسان في وسط ذلك المزدحم الماثل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين مختلف المذاهب والشيع والآراء والأفكار يحاول كل منها أن يجذبه إليه ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة في مهاب الرياح لا تستقر في قرار ، ولا تهبط في مهبط ، متعبة عقلية لا قبل له باحتمالها ، ولو أنه كان أسيراً في قوم متوحشين ، وقد شده آسروه إلى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه جذباً شديداً ليمزقوه إرباً إرباً ، لكان ذلك أهون عليه من هذه الحالة التي لا يستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسي ، وسكونه الفكري كما تتمتع السائمة على وجهها في مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ،

ويظفر بكيانه ، ولا سبيل له إلى وجدان نفسه والعثور بها إلا في مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة التي يستطيع أن يجمع في ظلالها ما تفرق من أمره ، وتبعثر من قوته ، ويصغي في وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الأحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ، فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير والكد الطويل كالسيل المتحدر من أعالي الجبال ، لا يزال يحمل في طريقه الأقذاء والأكدار ، فاذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة يتلألأ في صفحتها الصقيلة اللامعة جمال السماء وبهجة الملأ الأعلى .

ولقد كنت أحد أولئك الفارين بأنفسهم من لجب المدنية وضوضائها ، وضلالها وحيرتها ، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذي بنيته بيدي على ضفة ذلك الجدول الصغير ، ولقد رزقني الله أرضاً خصبة جيدة التربة ، أقضي جميع أوقاتي في حرثها وفلحها ، وتصريف مياهها ، وتشذيب أشجارها لا معين لي إلا قوتي ، ولا أنيس لي غير وحدتي ، فان شعرت بشيء من الملل رجعت إلى تلك الأسفار القليلة التي اخترتها لصحبتي حين نفضت يدي من جميع الأصدقاء والأصحاب لأحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام أصحاب المبادىء القويمة ، والعقائد الثابتة ، والآراء الناضجة الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوفوا رغبة الناس في أهوائهم ومطامعهم ولا ليعجبوهم من ذكائهم وفطنتهم وغرابة ابتداعهم ، بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة فيراها الناس كما هي غير مشوهة ولا مزخرفة ، لا يبتغون على ذلك أجراً سوى أن يروا الإنسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقائها ، إلى ذروة سعادتها وهنائها .

فاذا جلست لقراءتها رأيت في مرآتها ذلك العالم الذي فارقته واجتويته ، ورأيت شقاءه الذي يكابده ، وآلامه التي يعالجها دون أن يحس أنه يشقى أو يتألم فأشعر بما يشعر به ذلك الذي نجا من سفينة موشكة على الغرق إلى صخرة عالية في وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء ، فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة .

ولقد أصبحت بعد أن فارقت الناس وصرت بمنجاة منهم ، حنو عليهم ، وأرثي لبؤسهم وشقائهم ، وأضمر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذي يعالجونه وبؤسهم الذي يكابدونه على كثرة ما قاسيت منهم في مقامي بينهم من الهموم والآلام ، والمهانات ، ولم يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم إلى الحياة الطيبة السعيدة ، حياة الطبيعة والفطرة ، وأنعي عليهم ذلك التكلف والتعمل في مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم وعقائدهم ومذاهبهم وآرائهم وأفكارهم .وصلاتهم وعلائقهم وأقول لهم : أيها الناس عودوا إلى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم ، وأرأف بكم من كل شيء في هذا العالم ، وأعلموا أن جميع ما تكابدون من الآلام والأسقام في حياتكم ، إنما هو عقوبة لكم على عقوقكم لها ، وتمردكم عليها وكفركم بسننها وشرائعها فاشربوا قراح الماء إن شربتم ، وكلوا بسيط المآكل إن أكلتم واقنعوا حين تلبسون بما يستر عورتكم وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، ووحدوا نظركم إلى الأشياء والشؤون بقدر ما تستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهدأ عنكم نار تلك البغضاء التي تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم ، واعلموا أن الحياة أبسط من أن تحتاج إلى كل هذه الجلبة والضوضاء فخذوها من أقرب وجوهها ، وألين

جوانبها واقنعوا منها بالكفاف الذي يمسك الحوباء ، ويعين على المسير ، فإنما أنتم مارون لا مقيمون ومجتازون لا قاطنون ؛ ولا يوجد بؤس في العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزل على عين ماء ليطفيء ببردها غلته ، ويجد في ظلالها راحته ، ساعة من نهار ، ثم يمضي لسبيله ، فصدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد فهلك دون مرامه ظمأ وعيا ، ولا يقذفن في روعكم أني أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومقتها ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها ، فالزهد عندي سخافة كالجشع كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة إليه ، وكلاهما خروج عن القصد وضلال عن السبيل ، وإنما أريد أن تترفقوا في الطلب ، ولا تمعنوا فيه إمعاناً فالإمعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوي على الضعيف ، والجشع المتكالب على القنوع المعتدل ، بسلبه ما بيده ويحرمه القليل التافه الذي يتبلغ به باسم جهاد الحياة ، وتنازع البقاء فكان جزائي عندهم على هدايتهم وإرشادهم ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذي يعالجونه أن سخروا بي واحتقروني ، وسموني مجنوناً ، ولم يقنعوا في أمري بتركي وشأني كما يترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذوني عدواً لهم يحاربونني كما يحاربون الله والطبيعة ، ولا ذنب لي عندهم إلا أنني أسمي المال شقاء ، ويسمونه سعادة ، وأسمي الجاه مؤونة ويسمونه متعة ، وأسمي اللجاج في الطلب والتهالك فيه جنوناً وخبلاً ، ويسمونه حكمة وحزماً ، ثم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم وخيبة آمالهم ، ويسقطوا في الهوة التي كنت أقدر لهم السقوط فيها ، فلا يكون أثر ذلك في نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويذعنوا لأحكامه وأحكامها ،

ويعودوا باللائمة على انفسهم فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقع أن يكون . بل ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخلوق والدنيا والآخرة ، ويثيرون الثائرة على الشرائع الأرضية والسماوية والنظم الطبيعية والوضعية ، وعلي أنا ايضاً ، لأنني لم أهو معهم في الهوة التي هووا فيها كأنني أنا الذي أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الوبيل ، وما أشقاهم إلا الطمع لو كانوا يعلمون .

وأما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله ، وأرحت نفسي إلى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة الممضة : مناظر المتهافتين ليلهم ونهارهم في تلك الحفائر الجوفاء التي حفرتها في طريقهم أيدي المطامع والشهوات ، وانقطع عن أذني ذلك الدوي الهائل الذي كان يزعجني ويقلقني ، وأصبحت في وحدتي هذه أتمتع بالهواء طلقاً غير مكدر ، والنور ساطعاً غير منغص ، والجمال خالصاً غير مشوه أتبسط في أنحاء نفسي حيث أشاء ومتى أشاء وأناجي الله والطبيعة وجهاً لوجه لا يحول بيني وبينهما حائل ؛ وأفكر على الطريقة التي أريدها لا التي يريدها الناس ؛ وأنسج ثوبي على مقدار جسمي ؛ لا على مقدار جسوم الآخرين وأشرف من قمة وحدتي وعزلتي على ذلك العالم الذي فارقته واجتويته فأعجب لتلك الهموم والآلام التي يعالجها لغير علة ولا سبب ولتلك المعركة الهائلة التي يشنها بعض أفراده على بعض على غير طائل ، سوى أن يهلك أحدهم في سبيل الآخر ، ثم يهلك الآخر في سبيل آخر ، وهكذا تمتد سلسلة الهلاك فيهم إلى مالا نهاية لها ، كقطع الأمواج التي تتواثب على الصخور المعترضة في مجراها فتتكسر عليها واحدة بعد أخرى ثم تتلاشى كأن لم تكن ، فأحمد الله على نجاتي منهم وخلاصي من أيديهم ،

وعلى أنني أستطعت أن أعيش على حساب نفسي ، لا على حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول لقمتي مغموسة بدمي لا بدماء الضحايا والهلكى ، وأن أعود بما فضل عن حاجتي على البائسين والمساكين ، والساقطين في هوى اليأس ، المنقطعين عن قافلة الحياة ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلاً ومشرباً ، وملبساً ومسكناً ، وضعت لي في كفة ، ثم وضعت لي في الكفة الأخرى لذتي في هداية تائه ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله ؛ لرجحت عليها .

وهكذا أقضي حياتي في تلك الجنة الصغيرة ، على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدي ذلك الخضم العظيم ، متمتعاً بما شئت من جمال الدنيا وبهجتها ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة ومشاهدها ، فالسماء فوقي تتلألأ بنجومها وكواكبها ، والبحر أمامي يعج بأمواجه وأثباجه والأرض بين يدي تختال في أثوابها وأبرادها ، والأصوات المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول المتسلسل، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة والأشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية مختلفة الآلات والنغمات ، تسمعني ما لم أسمعه يوماً من أيام حياتي في أكبر معهد غنائي ، من أكبر فرقة موسيقية .

فاذا جلست أمام كوخي على تلك الصخرة العالية التي اعتدت أن أجلس عليها رأيت النخل الباسق مصطفاً بعضه وراء بعض كأنه السطور في الكتاب ، رؤوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجري في خلال الخمائل الملتفة ، جريان القمر الساري في أعماق السحب المتكاثفة فلا يرى منه الرائي إلا بوارق خاطفة تلمع من حين إلى

حين ، وألقي نظري تارة على الروض الجميل الذي غرسته بيدي فأرى صنوف أشجاره وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأعنابه فأراه في سكون الريح وهدوئها معبداً قد لبس الجلال والوقار ، وانتشرت في جنباته أشخاص الراكعين والساجدين . وفي هبوبها وانبعاثها مرقصاً تترنح فيه القدود وتعتنق القامات ، وتقابل الحركات والسكنات ، ثم أنظر إلى السيل المتدفق من أعالي الجبال فأرى تلك المعركة الهائلة التي تجري بينه وبين الصخور الناتئة في طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه فتتطاير أجزاؤه في جو السماء كأنها شظايا ألواح البلور ، فيشتد غيظه وحنقه ، وإرغاؤه وإزباده ويحاول أن يثأر لنفسه منها ، فلا ينال آخراً أكثر مما نال أولا ، وهي جامدة في مكانها ، لا تحرك ساكناً ، ولا تمد يداً ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ، شأن الطيش والنزق بين يدي الرزانة والحلم ، فينحدر عنها إلى السهل متغلغلا في أعماق الخمائل والأدغال كأنما يتوارى حياء وخجلا . ثم لا يلبث أن يستحيل بعد ذلك إلى مرآة صافية تتراءى فيها صور النخيل والأشجار وظلال القمم والهضاب كأنما قد خطها رسام ماهر بريشة رقيقة في صحيفة ناصعة . وأعظم ما أعجب له من تلك المناظر مناظر الطيور الغريبة حين تفد في أواخر فصل الصيف أسراباً من أقاصي البلاد مجتازة ذلك الخضم العظيم إلى حيث تتلمس رزقها الذي أعوزها في أرضها ، فتقع على ذوائب الأشجار ، وضفاف الأنهار ، وتحلق فوق الجداول والغدر ، شادية مترنمة ، مرفرفة بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتلألئة ، وكأنما قد خلعت من نفسها على الجزيرة برداً مفوفاً ترف حواشيه وأهدابه ، وترجف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها في بعض ، فأجد من الأنس بها والغبطة بعشرتها ما يملأ قلبها

بهجة وحبوراً ، إلا أنها لا تمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها ما يجد العشير لفراق عشيره .

وقد أجلس أحياناً على شاطىء البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء ، وهي تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدورها ، أو تركتها معلقة بأذنابها ، وقد يكون بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة جدول واسع ، أو نهر متدفق ، فيكون لها في غدوها ورواحها ، ووثبها وقفزها ، وضحكها مرة وغضبها أخرى ، وترفقها الغريب في طلب عيشها وتحصيل رزقها ، منظر بديع رائق ، لا تكدره حبائل منظومة ، ولاتزعجه قذائف منطلقة ، وأستطيع أن أقول لك يا بني أنني وقد عاشرت الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة . والنمور الكاسرة ، والقردة الشرسة ، .وخبرت أخلاقها وطباعها ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لا تفترس إلا إذا جاعت ، ولا تشرس إلا إذا أهيجت ، ولا تطمع في أكثر من كفاف عيشها ، وعلالة حياتها ، أصبحت أعتقد أن الإنسان أضرى منها وأشرس وأنه مخدوع أو خادع في تفضيل نفسه عليها .

ولم يزل هذا شأني حتى نزلت بالجزيرة تلك الأسرة الصالحة الكريمة ، فكانت أيامي معها غرة أيام حياتي وكوكب سمائها الساطع ، فوا أسفي عليها ، ووافجيعتي بالحياة من بعدها !

(٢٢)

الحديث

وحسبك الآن يا بني ما عرفت من شأني ، فلأعد بك إلى شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثتك عنه أنه كان يختلف إلي كثيراً بعد سفر فرجيني ليطلب عندي عزاءه وسلواه وراحة نفسه من بلابلها ووساوسها .

فوفد إلي ذات يوم ، وكنت جالساً تحت شجرة قصيرة كانت قد غرستها فرجيني فيما غرست من الأشجار الكثيرة التي كانت تحمل معها بذورها حيثما ذهبت وأينما حلت ، قائلة : لعل الله يمنحها النماء والنضرة فيهتدي بها ضال ، أو يفيء إليها حائر أو يتعلل بها ظامىء ، فجلس بجانبي وأطرق إطراقة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

أنا حزين جداً يا والدي ، ويخيل إلي أن فرجيني قد نسيتني وأن يدي قد أصبحت صفراً منها إلى الأبد ، فلقد مر على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إلي فيها إلا كتاباً واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، وماذا دهاني عندها ، ولقد حدثتني نفسي اليوم أن أسافر إلى فرنسا أسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته ، وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة فرجيني فلا ترى مانعاً — وقد جمعت في يدي بين حاشيتي المجد والشرف — أن تزوجني

من حفيدتها .

قلت : ألم تحدثني يا والدي قبل اليوم أنك لا تتصل بنسب شريف أو أنك لا تعرف لك أباً ؟ .

قال : وأية علاقة للأبوة والبنوة بما نحن فيه ؟ إنني لا أريد أن أتقدم إلى الملك بحسبي ونسبي ، بل بكفايتي وجدارتي ، وخدمتي التي أقدمها لوطني ؛ وهل يوجد في الناس من يأخذني بذنب لست صاحبه ولا صاحب الرأي فيه بل لم أكن حاضره ولاشاهده لأنه وقع قبل وجودي في هذا العالم ؟ على أنني لا أعد ما كان ذنباً ، لأن والدتي أطهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب .

قلت : إنك تحدثني بلسان الحقيقة ؛ أما لسان الاصطلاح فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه فلا سبيل له الى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من درجات المجد ، بل لا سبيل له أن يأخذ لنفسه مكاناً مطمئناً بين الطبقات العالية الرفيعة التي يسمونها طبقات الأشراف والنبلاء .

قال : إنك قد قلت لي قبل اليوم كما قرأت في كثير من الكتب ، أن عظمة فرنسا إنما حملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين الذين لا يمتون إلى الناس بحسب أو نسب ، ولا شأن لهم في حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدمات جليلة كانت هي وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة المجد التي بلغوها ، فهل كنت تخدعني فيما قلت لي وكان يخدعني أولئك الكاتبون ؟

قلت : لم أخدعك يا بني ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضي ، أما اليوم فالملوك متكبرون متغطرسون لا يؤثرون مزية

من المزايا على مزية الحسب والنسب ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يقربون ولا يدنون إلا من أمسك بطرف سلسلة يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء أو قائد من القواد أو نبيل من النبلاء ، وهؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ووزراؤهم ، وقوادهم ، وولاتهم وعمالهم وجلساؤهم وسمارهم ومواضع ثقتهم ، وأمناء أسرارهم، وأحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ، فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يصل أحدا من الناس سواهم، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا وقبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة وشعراؤها وحكماؤها وعلماؤها، ورجال الفنون فيها، أضعف الناس ، وأهونهم خطراً ، وأدناهم منزلة في ترتيب درجات الإنسانية ، لأنهم قد حرموا الاتصال بتلك الشمس المشرقة التي تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل .

قال : وماذا علي إن اتصلت بنبيل من أولئك النبلاء ، وعشت تحت كنفه لأصل من طريقه إلى الغاية التي أريدها ؟

قلت : إنك لا تستطيع أن تنال الحظوة عنده إلا إذا نزلت على حكم أهوائه وشهواته ، أي أن تجعل نفسك جسراً يمشي عليه إليها ، وذلك ماتأباه عليك عزة نفسك وأنفتها .

قال : يخيل إلى أني إن قمت بواجبي لأمتي ووطني وأديت للانسانية العامة خدمة عظمي يرن صداها في جميع الآفاق ، لا أعدم أن أجد بين الأشراف المحسنين من يتولاني بحمايته ورعايته ، ويأخذ بيدي الى المنزلة التي أستحقها .

قلت : استمع مني كلمة أقولها لك يا بني : لقد كان اليونان

والرومان والمصريون حتى في أدوار سقوطهم وانحطاطهم يبجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدسون المواهب والمزايا أعظم تقديس ويعرفون لأصحابها أقدارهم ومنازلهم ، ويبسطون عليها جناح مودتهم ورحمتهم ، ولعلك قرأت من ذلك شيئاً في كتب التاريخ . أما اليوم فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصوراً بين الجاه والمال فلا يظفر به إلا ذو منصب عال أو مال كثير ، وقد يعطف بعض أولئك الذين يسمونهم النبلاء على بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتاب والموسيقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ، أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ، بل ليزينوا بهم مجالسهم كما يزينوها بالتحف والذخائر وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم وخضوعهم بين أيديهم كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم ومجانهم . وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة أو أن يكون منتهى آمالك في حياتك أن تصبح خليعاً ماجناً .

قال : إن فاتني أن أعيش في كنف رجل شريف فلن يفوتني أن أعيش في كنف حزب من الاحزاب أو جماعة من جماعات أخدمها وأخلص لها فأنال الحظوة عندها .

قلت : إنك تستطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سدا إلى الأبد ، فالهيئات كالأفراد لا يعنيها إلا مصلحتها وفائدتها ، وكثيرا ما تكون مصلحتها في جانب ، والحق في جانب آخر ، بل ذلك هو الأعم الأغلب في أمرها ، فاما جاريتها فهلكت أو نابذتها فاستهدفت لغضبها ومقتها .

قال : الموت أهون علي أن أخطو خطوة واحدة لا يرضى بها ضميري .

قلت : إذن ودع جميع آمالك وأمانيك وداعاً دائماً لا لقاء بينكما من بعده .

قال : واشقاءاه ، لقد أخذت علي جميع السبل ! وسدت جميع المسالك ، ويخيل إلي أنني سأقضي بقية أيام حياتي في ظلمة داجية لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيها بارق من بوارق الإحسان ، وأن قد حيل بيني وبين فرجيني إلى الأبد .

قلت : إنك واهم يا بني ، فما أنت بشقي كما تظن ، وما الشقاء إلا تلك العظمة التي تتطلبها وتسعى إليها ، إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة ضميرك وصفاء سريرتك في سعادة لا يتمتع بها متمتع على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التي لا سبيل لك إلى بلوغها إلا إذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة والظلم والإثم ؟ ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس والدنايا بالدنايا ، والأكاذيب بالاكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقداً وموجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك ، وكنت في آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم على من هم دونك ، ثم لا تحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تطعم لقمة يطعمها جميع الناس ، وتستر سوأة لا يوجد في الناس من لا يسترها ، وما أحسب فرجيني ترضى لك ولا لنفسها ، أن تكون وسيلتك إليها هذه الوسيلة الدنيئة الحقيرة ، وهي الفتاة الشريفة الفاضلة التي لها طهارة الملك في سمائه وصفاء الكوكب في أفقه . واعلم يا بني أن الفقير يعيش من دنياه في أرض شائكة قد ألفها واعتادها ، فهو لا يتألم لوخزاتها ولذعاتها ، ولكنه إذا وجد يوماً من الأيام بين هذه الأشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً وأن الغني

يعيش منها في روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبرم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه إذا عثر في طريقه بشوكة تألم لها ألماً شديداً لا يشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملا كل شيء ، من أن يعيش غنياً خائفاً من كل شيء .

قال : إنما أريد المجد الأدبي لا المجد المالي .

قلت : نعم إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لا يصل بك إلى الغاية التي تريدها . إن الأدباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التي تطلع في سمائه الداجية المدلهمة فتنير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الأشعة الباهرة التي تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة فتذيب جهالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها ، وهم المنائر العالية التي يهتدي بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج الساري أي شعب من الشعاب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ؟ وهم الأطباء الماهرون ، الذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة فيعالجون همومها وآلامها ويملأون فضاءها رجاء وأملا ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ، لأنهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة وأكثر عدة وعدداً ، وهم دائماً هدف لغضب الملوك لأنهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ، وغضب النبلاء ، لأنهم يحتقرون نبلهم ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضب الكهنة لأنهم ينعون عليهم رياءهم وكذبهم وغضب العامة لأنهم يطاردون أهواءهم وشهواتهم ، أي أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهي حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقراط الحكيم ، وهومير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس

الرحيم ، من قتل أو صلب أو إلقا في السجن ، أو تشريد في الأرض ، ولا ذنب لهم الا أن أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ، وبكوا لبكائه ، فنقم البشر منهم هذه العاطفة الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بازهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم ، ولم يقنع في أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم وسود صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظلمات المحيطة بهم وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال .

قال : لولا فرجيني ما أسفت على شيء في الحياة ، ولا بكيت على فائت منها .

قلت : إن فرجيني باقية على عهدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث تريد أن تكسبها ، وأعلم أنها ما قطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع في عهد قريب ، فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ، وأعد نفسك لحياة مستقبلة سعيدة يستغفر لك الدهر فيها عن جميع سيئاته إليك ، فأضاءت حول ثغره ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد وقال : أأنت على ثقة مما تقول؟ قلت : نعم ، فكأنما قد نزل عليه بهذه الكلمة وحي السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمراً عن ساعديه يجول في أكناف «حديقة فرجيني» يشذب أشجارها ويشق أنهارها ، ويحول مياهها ، ويسقي ما ذبل من أغراسها ، وقد لبس برداً قشيباً من الجد والنشاط لا عهد له بمثله منذ أعوام ثلاثة .

(٢٣)

السفينة

وفي عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى بول العلم الأبيض يخفق على قمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمة إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينة التي تحمل فرجيني ، فانحدر إلى شاطىء البحر فيمن انحدر إليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ؛ وأنه لم يعد حتى الساعة . فجلس في انتظاره حتى عاد وحده فأخبر أن السفينة اسمها « سانجيران » وربانها اسمه المسيو « أوبن » وأن الريح لا تساعدها على دخول المرفأ الليلة ، ولا يمكنها الوصول إليه إلا الغد ، وكان يحمل في يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ، بعضها آت من فرنسا وبعضها مرسل من ركاب السفينة أنفسهم ، فسمع بول فيما سمع من الأسماء اسم مدام دي لاتور « هيلين » فاختطف الرسالة من يد الرجل اختطافاً . وقرأ عنوانها فإذا هو بخط فرجيني ، فطار بها فرحاً وسروراً ، وأخذ يعدو إلى المزرعة عدو الظليم ، فرأى على البعد أفراد الأسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها في الجو كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم ، فقدم الرسالة إلى هيلين ففضت غلافها وأمرت عليها نظرها فعلمت أن ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب في عودتها من فرنسا أن عمتها حاولت كثيراً أن تغير من طباعها وأخلاقها ،

وتذهب بها في حياتها مذهباً غير مذهبها الأول فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظمى وأصبحت تحتقرها وتزدريها ، وتنظر إليها بالعين التي تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام ، ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن نطردها من منزلها طرداً ، فلم تجد بداً من الرجوع ، فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها : إنني أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة «سان جيران» وبيننا وبين الشاطيء أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول إلى المرفأ إلا في الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفي الغد نلتقي إن شاء الله تعالى .

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحاً وسروراً وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ويهتفان بصوت عال «قد عادت فرجيني ! لقد عادت فرجيني» وكان أول ما مر بخاطر بول في هذه الساعة أن يذهب إلى كوخي ، ويبشرني برجوع فرجيني ، ويشكر لي نبوءتي التي تنبأت له بها في أمرها ، وكانت قد مضت هدأة من الليل ، فاستأذن أمه في ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلاً كبيراً حتى وصل إلي بعد ساعتين ، وكنت قد أويت إلى مضجعي فأيقظني من نومي وألقى إلي ببشراه ، فلم يكن سروري بها بأقل من سروره ، وقال هيا بنا نذهب إلى الشاطيء لننتظر فرجيني فإن السفينة تصل في الصباح .

فقمت إلى ثيابي فأسبلتها علي وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمة قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة

الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة في الصحراء ، فمشينا لا نهتدي بشيء سوى غريزتنا التي تقود خطواتنا دائماً في مفاوز الأرض ومجاهلها وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة آتية من ناحية البحر تشبه دمدمة الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئاً .

فإنا لسائرون إذ لمحنا زنجياً ضخم الجثة يمر بجانبنا ، فاستوقفته وسألته من أين أقبل ؛ فقال : إني مرسل من شاطىء جزيرة الذهب إلى الحاكم لأبلغه أن سفينة قد ألقى بها التيار إلى ما وراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين إلى حين ، أي انها في خطر ، وأنها في حاجة الى المعونة ، فسألته : هل يعرف اسمها ؟ فأجاب أن لا ، وانطلق لسبيله ، فالتفت إلى بول وقلت له : أخاف أن تكون سفينة « سان جيران » وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطىء ، وكانت الطلقات قد انقطعت على الحقيقة ، فمشى معاً صامتاً لا يقول شيئاً حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطىء ، وكانت الطلقات قد انقطعت فراعني سكوتها أكثر مما راعني دويها ، ثم ظهر القمر في كبد السماء محاطاً بثلاث دوائر سوداء كأنه متمنطق بنطاق الحداد فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج تموج ظلماته بعضها في بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطىء أو هضابه فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لامع كذلك الشرر الذي يتطاير من أجنحة الحباحب ، ورأينا الصيادين مكبين على زوارقهم ينقلونها من الماء إلى اليبس ويطرحونها فوق الرمال خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها فقصدنا إليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون

أن السفينة قد حاد بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى شاطىء جزيرة العنبر حيث الخطر عظيم لا حيلة فيه ، وإنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذي بين جزيرة العنبر وجزيرة «سان لوى» فمصيرها الهلاك ما من ذلك بد ، وكان بول يسمع هذا كله ، وهو صامت مطرق الرأس كأنه لا يفهم منه شيئاً .

ولم يزل هذا شأننا حتى بدأت حاشية الظلام ترق عن بياض الفجر فتلمع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطحلب [1] ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ، لأن الضباب كان كثيفاً جداً ، وكأنما قد بنى دون السماء سماء أخرى لا يرى الرائى من خلالها غير بعض القمم العالية تطفو وترسب كما يطفو الغريق ويرسب في عباب الماء ، ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئاً أشبه بغمامة كثيفة ، فتأملناه ، فاذا هو جزيرة العنبر التي زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا أننا لم نر السفينة بحال من الأحوال .

وهنا حضر المسيو لابوردنيه حاكم الجزيرة راكباً جواده ووراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن أن تصطف صفاً واحداً ، ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نوراً لمع على سطح البحر ، وأعقبه دوي مدفع ، فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعاً نحو الشاطىء لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأي أن نرى شبحها الغارق في عباب الضباب ، وأن نرى سواريها الذاهبة في كبد السماء ، وأن نسمع رغم جرجرة الآذى [2] وزمجرة

---

(١) الطحلب : خضرة تعلو الماء المزمن .

(٢) ا! حرة — في الاصل — ترديد البعير صوته في حنجرته والآذى : الموج .

صوت ربانها وهو يصرخ صرخاته العظمى التي يستنهض بها همم رجاله ، فأمر الحاكم باعداد زورق لنجدتها ، وإشعال النار على طول الشاطىء لترى على ضوئها الزورق المعد لإنقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها تباعاً ، واستمر التخاطب بهذه اللغة النارية بينها وبين الشاطىء ساعة طويلة .

وإنا لكذلك إذ دلف إلى الحاكم شيخ زنجي هرم يدب على عصاه ، وقال له : إننا نسمع يا سيدي منذ الليلة زمجرة هائلة تنحدر إلينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز وتضطرب دون أن تهب علينا ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسراباً دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهي العاصفة ما في ذلك ريب ولا شك ، أنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فان لم تفعلوا فانفضوا أيديكم منها إلى الأبد .

فاصفر وجه الحاكم ، وشعر برعدة شديدة في جسمه . إلا أنه تجلد واستمسك ، وصاح : سأنقذها ، ولو كان في ذلك حياتي .

ولقد صدق الزنجي فيما قال ، فقد لبس الجو حلة غريبة لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعث في جميع أوصاله رعشة شديدة كتلك الرعشة التي تنبعث في جسم المحموم ، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة الى البر كأن مطارد يطاردها ويشتد على أثرها ، وتراءت قطع السحاب سوداء قاتمة تلمع في خلالها نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص النار من خلال الرماد ، وامتلأ الجو بفحيح الأفاعي ، وطنين البعوض ، وزمجرة الوحوش .

(٢٤)

العـــاصفة

في نحو الساعة السابعة سمعنا قعقعة عظمى، قد انبعثت من جميع جهات البحر في آن واحد ، فاهتزت الأرض والسماء ودارت الأرض والفضاء ، وانقلب عالي كل شيء سافله وصاح الجميع : « العاصفة » .

هنا رأينا منظراً هائلا مخيفاً جمدت له دماؤنا في عروقنا ، ومشت له قلوبنا في صدورنا ، وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الأيام والليالي ولا نستطيع أن ننساه حتى تبرد أعظمنا في ثراها .

رأينا الضباب الذي كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة فاذا السفينة ذرة هائمة في ذلك الفضاء الواسع ، تقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ، إن حاولت الدنو من الشاطىء وقفت في وجهها الصخور الناتئة المحددة الأطراف كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبتها والانسياب في طريق أخرى غير هذه الطريق عجزت عن مقاومة التيار لأنها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها ، فقلوعها ممزقة ، وألواحها متناثرة وحبالها متطايرة وسواريها منكسة ، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين والإعياء . وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أي أن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى .

وكانت العاصفة في تلك اللحظة قد بلغت أشدها فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصك بمنكبه منكب السماء .

ثم يندفع إلى الشاطىء هوي العقاب إلى وكره فينسف رماله وحصاه ، ويطير بشظياته في جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مجرجراً في تراجعه ، جرجرته في تدافعه . كالسهم الأليم في حالتي وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل كصفحة المرآة في لمعانها واستوائها ، ورأينا المضيق الواقع بين شاطىء الجزيرتين يرغي ويزبد كأنما يشتعل من أتون [1] متقد ، ويرمي بالزبد من حفافيه[2] كما يتناثر العهن المنفوش عن المندف ، أما السماء فقد أصبحت ميداناً تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء والأرض ، والماء واليبس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يموج فيها كل شيء ويضطرب كل شيء ، فلم نعد نعلم أنحن وقوف في أماكننا ، أم طائرون في جو السماء ؟ وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لا يزال الماء ماء واليبس يبساً ؟ .

---

(١) الأتون : موقد نار الحمام .
(٢) تثنية حفاف : وهو الجانب .

(٢٥)

الكارثة

وبينما نحن ذاهلون على أنفسنا ، وعن كل ما يدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا ، فاذا السفينة قد اصطدمت باحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير[1] من أجرتها قد انقطع ، فانبعث في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ؛ وإذا بول يهجم على البحر ليلقي بنفسه فيه فاعترضت طريقه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع وظل يصيح : دعوني أنجّي فرجيني . فلم يكن لنا بد من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا في وسطه حبلا طويلا وأبقينا طرفه في أيدينا خوفاً عليه من الهلاك ، فاقتحم الماء وكان منظره في تلك اللحظة منظراً مخيفاً مرعباً كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت إلى صورة وحش ضار لا يقوم له شيء إلا أتى عليه ، فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعاني في سبيل ذلك ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنو ، فلطمه تيار قوي لطمة شديدة أعادته الى الشاطىء كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الأعضاء ، فلم يضعف ولم يهن ، ولم يبق إلا بمقدار ما تنفس الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول .

وكان الموج يهدأ حيناً عن السفينة ، فيخيل إلينا أنها واقفة

(١) الجرير الحبل .

على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ، ورجالها المتهافتين على سطحها من الإعياء والتعب ، وربانها الواقف في مقدمتها وقفة الليث المصور يصرخ صرخاته العظمى التي تدوي بها أجواز الفضاء ؛ ثم يطغي عليها حيناً فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها كما يغمر القبر دفينه .

وما هي إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ، وبدأ الماء يتسرب إلى أحشائها ؛ وعلم ركابها أنهم هالكون إن بقوا فيها فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف وصناديق وأقفاص ثم يلقون بأنفسهم وراءها .

وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ، وزاغت له الأبصار ، وفاضت له الشئون من آماقها لهفة وجزعاً .

ظهر في مؤخر السفينة منظر فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ؛ واقفة على قدميها العاريتين ؛ وقد ضمت باحدى يديها قميصها إلى صدرها ؛ ومدت يدها الأخرى إلى ذلك البائس المسكين الذي يخاطر بحياته ويكابد اعظم الشدائد والأهوال في سبيل الوصول إليها ، فلم نعلم أهي تستغيث به لينقذها، أم تشير إليه أن يعود إلى مكانه رحمة به وإشفاقاً عليه ؟ فكان منظرها في تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة في صفحة السماء .

من هي هذه الفتاة ؟ إنها فرجيني ! إنها الفتاة الطاهرة الشريفة التي تجثو الفضيلة خاشعة بين يديها ، إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التي نبتت من كل قلب ، فهي حبيبة إلى كل قلب ، إنها الرحمة الإلهية التي طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين والمرزوئين ، إنها النور السماوي الذي

طالما أشرق في القلوب اليائسة الحزينة فأنار حلكتها وبدد ظلمتها وملأها رجاء وأملا ، لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ، ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يد من الأيادي إلا ارتفعت إلى السماء ضارعة إلى الله تعالى أن ينقذها من بلائها .

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تهوي الى مستقرها ، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم الى الماء لا يعلمون أين ذاهبون إلى الحياة أم إلى الموت ؟ وسفينة النجاة واقفة في مكانها من الشاطىء لا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة خوفاً على نفسها من الهلاك .

وأخذت همة بول تضعف وتفتر ، لأنه كان قد استنفد جميع قواه فلم يبق له منها ما يمسك به رمقه .

وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من فرجيني واقفة في مؤخرتها تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بحار واقفاً في مقدمتها قد خلع ملابسه ثم لمح فرجيني واقفة موقفها هذا فأبى له كرمه ووفاؤه إلا أن يمد لها يد المعونة لينقذها ، فمشى إليها وجثا بين يديها وطلب منها أن تخلع ثوبها ليحملها على ظهره ويسبح بها .

أتدري ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة حينما رأت رجلا عارياً بين يديها يريد أن يضمها عارية إلى جسمه فأشاحت بوجهها عنه ،

وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب : أنقذها ! أنقذها ! فوثب الرجل قائماً على قدميه ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه .

وهنا واأسفاه أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر في اندفاعها زمجرة الليث المصور ، فذعر البحار إذ رآها وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه وألقى بنفسه في الماء .

أما فرجيني فلم تخف ولم تطش بل لبثت في مكانها كما هي وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، ووضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها في الفضاء فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه في جو السماء .

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزعاً من هذا المنظر الهائل المخيف ثم فتحوها فاذا البحر قد ابتلع كل شيء وإذا كل شيء قد انقضى .

* * *

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه إلى ركبته وأخذ يضطرب اضطراباً شديداً كأنما يعالج غصة تعتلج في صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكياً ينشج نشيج الأطفال فهاجني بكاؤه فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع إلى نفسي إلا بعد حين ، فرأيته لا يزال في ذهوله واستغراقه ، فنبهته فانتبه ، وعاد إلى حديثه يقول :

يا له من يوم عظيم هائل ! يا لها من ذكرى مؤلمة مريرة ،

يا لها من حسرة لا انقضاء لها حتى الموت ! لقد مر على تلك الحادثة عشرون عاماً ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامي كأنني لا أزال أراها ، إن فرجيني كانت عزيزة علي جداً بل كانت أعز مخلوق عندي ، ولو كان لي ابنة لما نزلت من نفسي تلك المنزلة التي نزلتها ، وكان كل أملي في حياتي أن أعيش في ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عيني بيدها في ساعتي الأخيرة فلم يقدر لي ما أريد ، لقد هجرت العالم كله ولجأت إلى هذا المعتزل البعيد النائي هرباً من الشقاء فتبعني الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركي بعد ذلك حتى ينزل معي إلى قبري .

ثم تنفس الصعداء وقال : ولكن الذي يهون وجدي عليها أنها الآن سعيدة في سمائها مغتبطة بعيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التي ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها إلى الأبد .

نعم إن يومها كان يوماً هائلا جداً ، فلقد بكاها كل من رآها حتى الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق في عيونهم موضع للبكاء وكان أكثرهم بكاء عليها ذلك البحار المسكين الذي حاول إنقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل إليه أنه أجرم إجراماً عظيماً بالفرار منها وتركها وشأنها ؛ فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول : اللهم اغفر ذنبي ، فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتي ولكن الله أراد شقائي .

أما بول المسكين ، فقد جذبناه قبل ذلك إلى الشاطىء فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يرتعد ويضطرب اضطراب

الغصن في مهاب الرياح حتّى انقضى ، فسقط مغشياً عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فظللنا نعالجه ساعة طويلة حتّى استفاق بعد لأي ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول ثم انتفض انتفاضة شديدة وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فأمر الحاكم أن ينقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر طبيبه بالقيام عليه والعناية به وظل هو ملازما له لا يفارقه .

فتركته حيث هو ، وذهبت أنا ودومينج إلى الساحل لنفتش عن جثة فرجيني ، وكانت الزوبعة قد هدأت قليلا فقضينا في البحث عنها زمناً طويلا فلم نعثر بها ؛ فاشتد حزننا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الرعب يدب في قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه مثل الجنون :

ألا يوجد لهذا الكون إله يدبره ويرعاه ؟ ألا يوجد بين هؤلاء الناس من يستحق هذه الميتة التي ماتتها هذه الفتاة سواها ؟ والنفس الضعيفة تعجز دائماً عن احتمال صدمات القضاء فلا تجد بداً حين تصدمها من أن تروح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج في سخطها أحياناً عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فانها ما أتيت إلا من ناحية الإيمان بالله والثقة بعدله ورحمته .

وهنا مر بعض الناس وأخبرنا أن التيار قد ألقى ببقايا السفينة على شاطىء الخليج المسمى خليج «وتمبو» أي خليج القبر فذهبنا إليه نرجو أن نعثر بالجثة هناك ، فوجدناها غارقة في الرمل إلا جزأها الأعلى فنبشنا عنها فاذا هي على الصورة التي رأيناها عليها في ساعتها الأخيرة ، وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لا يزال يجول في وجهها ، لولا اصفرار قليل في خديها ؛ وإذا هي

لا تزال ضامة ثوبها إلى جسمها وواضعة يدها الأخرى على قلبها ، وكأن أناملها تقبض على شيء ، ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول بول التي كان بول قد أهداها إليها قبل سفرها فوعدته أن تحتفظ بها إلى آخر رمق من حياتها ؛ فكأنها تودع صديقها الحميم الوداع الأخير في صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرت هذا الإخلاص العظيم كل الإكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص ، لا يغيرها شأن من شئون الحياة أو الموت .

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين وعهدت إلى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود ، وصعدت إلى الوادي لأبلغ تلك المرأتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل ، وما أحسبني وقفت في حياتي موقفا أشد من هذا الموقف ، فدخلت عليهما في الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان وتدعوان الله تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على الكائنات ويضرب عليها سرادقا من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرهما علي حتى ذعرتا وارتاعتا وصاحتا : أين فرجيني ؟

فلم أستطع أن أنطق بشيء سوى أنني أطرقت برأسي ، فدنت مني هيلين وقد استحالت إلى شبح من أشباح الموتى وقالت لي بصوت خافت متهافت : هل ماتت ؟ فاستمررت في إطراقي ، ففهمت كل شيء وما هي إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت في مكانها لا يختلج في جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتني وأين بول ؟ فتلطفت في قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنني أرجو له حسن العاقبة ، فلم تعبأ بما أقول ، ولم يكن جزعها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبتها على ابنتها .

ولا استطيع أن اصف لك يا بني هول تلك الليلة في ذلك الكوخ فلم تكن ليلة بكاء وعويل وولولة وصياح ، كما تكون ليالي الثكل في بيوت الثاكلين ، بل ليلة حزن صامت عميق يحبس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد ، وما أنس لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة ، وهي ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تئن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط ، وتقلب وجهها في السماء تسألها دمعة واحدة تروح بها عن نفسها فلا تعطاها ، وقد تغمغم أحياناً بكلمات مبهمة لا يستمع منها السامع غير قولها : ابنتي ! حبيبتي ! مسكينة أنت ! الرحمة يا رب ! المغفرة يا إلهي ! ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى لتبكي ولدها ما شاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها في تلك الساعة أعجب منظر رأيته في حياتي ، أما دومينج وماري فقد ظلا يدوران ليلهما حول الكوخ ، يلطمان خدودهما ويخمشان وجوههما وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة في جو السماء حتى تلفا أو كادا .

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت في صمت وسكون من حيث لا يشعر بي أحد ، وانحدرت إلى الشاطىء فرأيت الحاكم قد أعد كل شيء لتشييع جنازة فرجيني ، فكسوا نعشها بصنوف الزهر وأنواع الريحان وحمله ثمان من عذارى « سان لوي » لابسات حللا بيضاء مشرقة وتبعه نحو مائتي طفلة من أطفال الدير يمشين صفوفاً متتالية ، ويحملن في أيديهن سعف النخل وطاقات الزهر ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة ، ومشى في المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده منكسي أسلحتهم ، مطرقي رءوسهم ، والناس فيما

وراء ذلك بحر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ؛ وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطىء .

ولم نزل سائرين في طريقنا حتى وصلنا إلى كنيسة « بامبلموس » وهناك حي الزنوج المساكين الذي كانت تزوره فرجيني في أيام الآحاد بعد أداء الصلاة في الكنيسة ، فتعول فقراءه وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه وتعطف على أيتامه وأرامله ، فخرج رجاله ونساؤه ، وفتيانه ، باكين صارخين ، فبكينا جميعاً لبكائهم ، وكانت مناحة عامة جاد فيها من لم يجد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء ، ولقد رأيت بعيني أولئك الأبطال الأنجاد الذين يأنفون أن يذرفوا دمعة واحدة من مدامعهم والرماح تنوشهم والسيوف تأخذهم من كل جانب يتهافتون على الجذوع والأحجار باكين منتحبين انتحاب الأطفال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزمبيق آتيات يحملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول القبر وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقاً بيضاء ناصعة ، كعادتهن التي اعتدنها في موتاهن الأعزاء ، ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير على عواتقهن ليرسلنها فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجل الفضيلة ، وما أعظم شأنها ، إنها الشريعة العامة التي يدين بها الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ، والمعبد المشترك الذي يقف فيه الجميع صفاً واحداً ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنغمة واحدة .

وكانوا قد حفروا للميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة في

لجانب الغربي من كنيسة « بامبلموس » كانت تجلس تحتها دائماً
ي وبول حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات
على الفقراء والمساكين ، فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب
هرعت الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن ، ويشرن إليه بمناديلهن
وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههم تبركاً كما يفعلن أمام تمثال
لعذراء ، وجأرت الأمهات بالدعاء إلى الله تعالى أن يمنح بناتهن
لفضيلة التي منحها هذه القديسة المباركة ليحيين حياتها ، ويمتن
موتتها ، وما هي إلا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب
لفخم الذي خفق في سماء العالم لحظة ، ثم اختفى .

(٢٦)

أحزان بول

نقلنا بول في محفة إلى كوخه بعد ما أبل قليلا ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التي يتلاقون فيها ، ولكن الله تعالى جعل خيراً ما كنت أحسبه شراً ، فلم يقع نظرهما عليه حتى نهضتا إليه وضمتاه إلى صدرهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفس الدمع عن تلك الحرقة الكامنة التي ظلت تعتلج في صدورهما يومين كاملين ، وكأن شعاعاً لامعاً قد انبعث من عينيه اللامعتين إلى قلبيهما فأضاءهما بنور العزاء والسلوى ، فطفقتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التي كانت تعصف بقلوبهم ليلها ونهارها إلى سكون يشبه سكون الموت . فلا نواح ، ولا عويل ، ولا تذمر ، ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التي تنحدر من آماقهم في صمت وسكون .

وبعد هنيهة حضر الحاكم ليعزي هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلاً عن عمتها ، وعن ذلك المسلك الوحشي الذي سلكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش بول وتناول يده وقال له : يجب أن تسافر يا بني إلى فرنسا وسأعطيك كتاب وصاة تستعين بـه علي عمل ينفعك وينفع أهلك ، وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهما في غيبتك ، فألقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا يريد

منها ، ثم جذب يده منه وأدار وجهه للحائط ، فاكتأب الرجل قليلاً ، ثم نهض وقال له : سأعود مرة أخرى يا بني ، وانصرف .

ولم يكن لي بد في هذه الأيام من أن ألزمهم لأقوم بخدمتهم وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسي تمريض هذا الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلي ونهاري ما أكاد أفارقه ، حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من علته ، إلا أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما انطفأ في قلبه ذلك المصباح المنير الذي كان يمد حواسه ومشاعره بالنور والإشراق فأصبح ذاهلا مذهوبا به ، تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه ، وكانت تدنو منه هيلين أحياناً فتقول له : إنني كلما رأيتك يـا ولدي يخيل إلي أن ابنتي لا تزال حية باقية أراها وأحادثها ، تريد بذلك تسرية همه وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم فرجيني حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ويخرج من الكوخ هائماً على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه ، وكثيراً ما كان يذهب وحده إلى « مخدع فرجيني » فيجلس هناك تحت النخلتين المسماتين باسمه وباسمها شاخصاً ببصره إلى البركة التي كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ، ويظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به الى الكوخ ،

وخرج ذات يوم فتبعته أنا ودومينج ، وكنت أتبعه دائماً حيث سار ، فصعد جبل « المورن » ، ثم انحدر إلى سفحه الآخر ومشى في الطريق الموصل إلى كنيسة بامبلموس ، فاستطير قلبي خوفاً وهلعاً وخفت أن ينتهي به المسير إلى قبر فرجيني ؛ وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف في وجهه ، لأن الطبيب أمرني ألا أحاوله في أمر يريده ، وأن أترك له الحرية في جميع ما يأخذ ، ومـا

يدع ، وقال لي : إن هذا هو علاجه الوحيد الذي لا علاج له سواه من وحشة نفسه وكآبتها فظل سائراً لا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى بلغ مكان القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران يصلي ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب لأنني كنت على ثقة من أنه لا يعلم حتى الساعة هل أخرجت جثة فرجيني من البحر أم ذهبت طعاماً للسمك؟ فلم أجد بداً أنا ودومينج من أن نجثو جثيه وندعو دعاءه فالتفت فرآنا ، فسألته لم يصلي في هذا المكان؟ فقال إنه المكان الذي كنا نجلس فيه معاً حينما نأتي إلى هنا أيام الآحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل لي أن هذه البقعة أحب بقعة إلي على وجه الأرض وأدناها إلى نفسي ، فعلمت أنه قد ألهم ، وأن طيب تراب القبر دل على القبر .

ثم نهض قائماً على قدميه وذهب ببصره في السماء وظل على ذلك ساعة ، فخيل إلي أنه قد طار بنفسه إلى ذلك العالم الآخر ليفتش عن تلك النفس الحبيبة إليه التي فارقته فراق الأبد ؛ فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم ما لبث أن انتفض انتفاضة شديدة وانحدر إلى شاطىء البحر ، فذعرت وارتعت ، ولم أجد بداً من أن أقف في وجهه ، وقلت له : عد بنا إلى الكوخ يا بول وكن عند ظني بك ، فلم يعبأ بما أقول ، واستمر سائراً في طريقه حتى أشرف على البحر وشخص ببصره إلى النقطة التي غرقت فيها السفينة ، فخفت أن يكون قد حدث نفسه بذلك الأمر العظيم ، فدنوت منه وقلت له : إن المنتحر يا بول لا يصعد إلى ملكوت السماء ؛ فلم يزد على أن صاح : آه يا فرجيني ! آه يا فرجيني ، وسقط مغشياً عليه فحملناه إلى الغابة ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول أن يتقدم نحو الشاطىء مرة أخرى ، فضرعت إليه ألا

يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأي ما استطعنا أن نعود به الى الكوخ .

وأصبح بعد ذلك لا شأن له إلا طروق الأماكن التي عاش فيها مع فرجيني أو اتفق لهما فيها شأن من الشؤون ، فزار الملعب الذي كانا يلعبان فيه معاً وهما طفلان صغيران ويحفران في رمله الحفر العميقة الواسعة ويملآنها بالماء وصغار السمك ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق التي مشيا فيها تحت وابل المطر وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تقي منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدمية في المحراب ، ومشى في الطريق التي مشيا فيها يوم ذهبا إلى ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجية الآبقة عند سيدها ، ومر بالمكان الذي قطعا فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعها الأبيض حين أزمت بها أزمة الجوع ، ودخل الغابة التي أضلا فيها الطريق حتى أظلهما الليل وهما تائهان مشردان ، وجثا عند الشجرة التي جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث إليهما من يهديهما السبيل ، وجلس بجانب الهضبة التي كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعباً مكدوداً فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التي تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطىء الرملي الذي كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويــلاً على الصخرة التي جلسا عليهــا ليلة الوداع يتعاتبان ويتشاكيان ، وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها .

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا ظلة ولا كرمة كانا يجلسان إليها ، أو يفيئان إلى ظلها ، إلا زارهــا

وبكى عندها طويلاً . كأنما كان يشعر في نفسه أنه مفارقها ، ولا بد له من وداعها فهو يودعها وداع الآسف الحزين .

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيداً شريداً هائماً مستوحشاً ، يأكل حيث يجد طعاماً ، ويشرب حيث يجد شراباً ، ويأوي إلى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخونه السقم ، وأضواه الهم ، فغارت عيناه ؛ وانكفأ لونه ، وذوت نضرته ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولا ، فأزعجني أمره ، ورثيت له ولأميه البائستين المسكينتين اللتين تبكيانه ليلهما ونهارهما على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما ، ولم أكن فاتحته حتى اليوم بكلمة واحدة في شأن نكبته التي نكب بها رحمة به وإبقاء على حشاشته القريحة أن يؤلمها المس ويهيجها البعث ، فلما استحالت حاله إلى ما أرى رأيت أن أذهب في معالجته مذهباً غير المذهب الأول فجلست إليه ذات يوم وقلت له : أتعلم يا بول أن فرجيني قد أخلصت إليك إلى آخر رمق في حياتها إخلاصاً لم ير مثله راء ، ولا يتحدث بمثله متحدث ؟ فانتفض قليلاً ورفع رأسه إلي ورثق ينتظر ما أقول .

فأخرجت له صورة الرسول بول وأريته إياها فاختطفها من يدي بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال : وأين وجدتها ؟ قلت : على صدر فرجيني حينما وجدنا جثتها على شاطىء البحر ، وقد وضعت يدها عليها كأنما تضمك فيها إلى نفسها وتودعك الوداع الأخير . قال : وهل وجدتم جثتها ؟ قلت : نعم وجدناها على ضفة الخليج عشية اليوم الذي غرقت فيه تحت طبقة من الرمل قد سترت منها الجزء الذي تحب أن تستره من جسمها . قال : وأين دفنتموها ؟ قلت : في الجانب الغربي من كنيسة « بامبلموس »

تحت شجرة الخيزران الكبرى حيث ذهبت وجثوت وصليت من حيث لا تدري . فتنفس تنفسة طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه ، وأكب على الصورة يغمرها بدموعه وقبلاته فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له :

(٢٧)

الموت

ما هذه الدموع التي تذرفها يا بني ليلك ونهارك ما تهدأ ولا تفتر ، وما هذا الحزن الذي تحمله بين أحناء ضلوعك لا يتفرج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيل؟ ومتى كان الموت نكبة من النكبات العظام التي يهلك المرء في سبيلها جزعاً ، وتتساقط نفسه من دونها حسرات؟ وهل هو إلا الانتقال من منزل إلى منزل ؛ والتحول من موطن إلى موطن؟ وربما كان الذي تنتقل اليه خيراً من الذي تنتقل منه ، ومن أين لك أن الله تعالى لم يرد بصاحبتك خيراً حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه ما نقلها من هذه الدار إلى تلك الدار إلا لينقذها من شقاء علم أنها ستكابده فيها وستلاقي منه آلاماً جساماً؟ وهل يمكن أن يكون لها مصير إن قدر لها البقاء في هذه الحياة غير هذا المصير بعد ما تجهم لها الدهر ، وحارت بها السبل وانتهى أمرها مع عمتها بما انتهى إليه من سوء الحال وخيبة الأمل ؛ وبعد ما قضي عليها أن تقضي بقية أيام حياتها في هذه القفزة المجدبة المحرقة التي لا ماء فيها ولا ثمر ؛ وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك تفلح الأرض ، وتكسر الصخر ، وتخوض الوحل ، وتتسلق الأشجار ، وتعبر الأنهار ، لتعينك وتعين أطفالها المستقبلين على العيش بعد ما ألفت النعمة والرغد والعيش الهنيء في قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخراً ولا حجراً؟ ولا زملاً ، ولا مدراً ،

ولم لا يهنؤك ويفرحك ، ويملأ قلبك غبطة وسروراً ، أن تعلم أنها الآن سعيدة في عيشها ، هانئة بمصيرها مغتبطة بما وفقت إليه من قدومها على ربها طاهرة نقية لم تلوث صحيفتها برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الكثير الذي تلوث به صحائف الفتيات ؛ مجزية أحسن الجزاء على موقفها الشريف العظيم ، موقف العزة والأنفة ، والصبر والاحتمال الذي وقفته في ساعتها الأخيرة ؟ ومن هو أولى منك وأنت صديقها وحبيبها وألصق الناس بها بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذي صارت إليه ؟ وأنا أجلك كل الإجلال عن أن يكون حبك إياها حباً مادياً يزعجه افتراق الأجسام ويكدر صفوه اختلاف الموطن والمقام ؟ ولو أنك عدت إلى نفسك قليلاً لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأ عنك ، وأنها جالسة إليك تحدثك وتسمع حديثك ؛ ولا شك عندي في أنها عاتبة عليك أشد العتب في هذه العجاجة السوداء من الحزن التي تثيرها على أثرها كأنها ذاهبة إلى الجحيم تستقبل أنواع العذاب وألوان الآلام ، أو كأن كل الذي كان يعنيك منها شهواتك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتها كما يبكي الطفل لعبته النافقة ، وكأنني أسمعها تهتف بك قائلة « لا تبك يا بول فإنني سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربي ورضوانه ، متقلبة في أعطاف نعمته التي أسبغها علي مكافأة لي على صبري واحتمالي ، وما أستقبلت به هموم حياتي وآلامها من سكينة وجلد ، فاصبر كما صبرت واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ويرفعك إلى المنزلة التي رفعني إليها ، فنعيش معاً في سعادة دائمة ليست سعادة الدنيا بالإضافة إليها إلا وهماً من الأوهام ، أو حلماً من الأحلام » .

فلم يزد أن رفع رأسه إلي وقال لي ما دامت الحياة شقاء وعذاباً

وما دام الموت سعادة وهناءة ، وما دامت فرجيني تنتظرني في علياء سمائها لأعيش بجانبها العيش الذي أرجوه وآمله ، ولا أوثر عليه عيشاً سواه ، فلا خير في الحياة من بعدها وما أشوقني إلى الذي يدنيني منها !

وهنا علمت ألا حيلة لي فيما قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفض يده من هذه الحياة إلى الأبد ، ولا يد في العالم تستطيع أن تديره إلى وجهة غير الوجهة التي يسير فيها غير يد الله ، فقمت وقام ، ولا أسف في الدنيا أعظم من أسفي عليه ، ولا فجيعة أكبر من فجيعتي فيه .

(٢٨)

الإيمـــان

جزى الله الإيمان عنا خيراً ، فلولاه لثقلت على عواتقنا هذه الهموم التي نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذي يعيننا على المسير في صحراء هذه الحياة القاحلة ، فهو النجم الخافق الذي يلمع من حين إلى حين في سماء الليلة المظلمة المدلهمة فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفينانة التي يلجأ إليها المسافر من حرور الصحراء وسمومها فيجد في ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التي يظفر بها الظامىء الهيمان فينقع بها غلته ، ويفثأ لوعته ، وهو المطرة الشاملة التي تنزل بالأرض القاحلة فتهتز تربتها وتحيي مواتها وتبعث في صميمها القوة والحياة ، وهل كنا نستطيع أن نبقى لحظة واحدة في هذه الدار التي لا نفلت فيها من هم إلا إلى هم ، ولا نفزع من رزء إلا الى رزء، ولولا يقيننا أن هذه الطريق الشائكة التي نسير فيها إنما هي سبيلنا الوحيد الذي يفضي بنا إلى النعيم الذي أعده الله في جواره للصابرين من عباده ؟ وهل كان في استطاعة مريضنا الذي يئس من الشفاء ، وفقيرنا الذي عجز عن القوت ، وثاكلتنا التي فقدت واحدها من حيث لا ترجو سواه ، أن يحتفظوا بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضي بانقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى في عالم غير هذا العالم، لا سقم فيها ولا مرض، ولا بؤس ولا شقاء ؟

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت في أواخر أيامها ان تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التي تقض أصلاد الصفا وتذيب لفائف القلوب ، فكنت إذا دخلت عليهما رأيتهما في فراش مرضهما صابرتين محتملين كأنهما لا تعالجان في أعماق قلوبهما أشد الآلام النفسية وأهولها ، فإذا نظرتا نظرتا إلى السماء ، وإذا نطقتا نطقتا باسم الله وسألتاه العفو عنهما ، والرحمة بهما ، ثم لا تلبث أعينهما أن تتلألأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع في نفسهما أن الله قد استجاب دعاءهما وتقبل قربانهما ، ووعدهما المثوبة العظمى في دار نعمته وجزائه .

ولقد دخلت صباح يوم على مرغريت في اللحظة التي استيقظت فيها من نومها فقصت علي أنها رأت فرجيني في منامها تسبح في غمرة من النور وقد لبست قميصاً أبيض فضفاضاً كأنما قد نسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رويداً رويداً حتى أصبحت في حرم الأرض . فمدت يدها إلى بول فأخذت به من ضبعيه وطارت في جو السماء فتشبثت بردائه فطرت وراءه ، ولا أعلم كيف طرت ؟ ثم نظرت تحتي فإذا هيلين طائرة ورائي ، وإذا ماري ودومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين في كوخها في الساعة نفسها فقصت علي هذه الرؤيا بعينها ، فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وإن كانوا لا يزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين الملائكة المقربين .

ولقد صدقت هذه الرؤيا كما هي ، أما بول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج في بعض خرجاته التي اعتادها

دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده فانحدرت إلى حي بامبلموس فوجدته جاثياً على قبر فرجيني وقد ضم إلى صدره صورة بول الرسول التي خلفتها له ، فحركته فإذا هو ميت ، فحزنا له ودفناه معها في قبرها ، وأما مرغريت ، فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة متجلدة لا تذرف لها دمعة ، ولا تصعد لها أنة ، وكان وداعها لصديقتها وداعاً هادئاً ساكناً لم تزد فيه على أن قالت لها « سنلتقي هناك » كأنما تفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها ، وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقير ، في ذلك الكوخ البسيط ، لا يحيط بها غيري وغير ماري ودومنيج ، بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير والنعمة السابغة ، والمتعة الواسعة ، أما أنا ... وهنا سكت سكتة طويلة كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعاداً شديداً ثم قال بصوت خافت متهدج « فقد بقيت وحدي » وانفجر باكياً بكاء ثاكل فجعها الدهر في أفلاذ كبدها جميعاً في ساعة واحدة ؛ فلا صبر لها ولا عزاء ، وبعد لأي ما استطاع أن يعود إلى حديثه فقال :

وهنا لم أجد بداً من أن أنقل ماري ودومينج إلى كوخي ، فلم يعيشا بعد مواليهم بضعة شهور ثم لحقا بهم ، فخلت الأرض منهم جميعاً ، حتى من كلبهم ، وماشيتهم ، وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجساداً هامدة وعظاماً نخرة ، تسفى عليهم السوافي ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والأمم الخالية ، ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التي تراها ، وقد خلد أهل الجزيرة ذكرهم في كثير من الأماكن التي عاشوا فيها. فسموا الرأس الذي عجزت السفينة عن اجتيازه فكان في ذلك

هلاكها « الرأس البائس » والخليج الذي وجدت جثة فرجيني على شاطئه دفينة في الرمل « خليج القبر » والمضيق الذي غرقت فيه السفينة « مضيق سان جيران » وسموا مخدع فرجيني التي كانت تخلو فيه بنفسها « كهف الفتاة » وشجرة الخيزران التي ظللت قبرهم جميعاً « الشجرة المقدسة » و الوادي الذي عاشوا فيه « الوادي السعيد » ، ثم لم تلبث الأيام أن تذهب بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ، لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ، ولا يفهمون معناها ، فوارحمتاه لهم ، لقد ضن الدهر عليهم بكل شيء حتى بالذكرى ! .

وقد علمت بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التي ضنت بمالها على ابنة أخيها وتركتها تموت بؤساً وجوعاً في هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حرمت منه حفيدتها وتركتها تهلك يأساً وهماً في أعماق المحيط ، لقيت جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرجيني وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون وملأت رأسها الوساوس والهواجس ، فكانت تندبهما تارة وتبكي مصيرها حتى تشرف على التلف ، وتهون على نفسها أمرهما تارة أخرى قائلة إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتها ، فكان ما قدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما رأتهم في طريقها فتصيح : أما كان خيراً لهؤلاء الأشقياء أن يذهبوا إلى المستعمرات الإفريقية فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ؟ ثم لا تلبث أن تشعر بالعطف عليهم والرثاء لهم فتذهب إلى الكنيسة بمال كثير تضعه في صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التي تقدمها إليه ، وكانت لا تزال ترى في يقظتها ومنامها وقومتها وقعدتها وذهوبها وجيئتها ، أشباحاً مخيفة تلوح لها في

وجهها ، وتهددها أفظع تهديد وأهوله فترفض هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع إلى الكاهن تسأله أن يشفيها من داءها ، وما داؤها إلا ذنوبها وآثامها التي أسلفتها ! فما حيلة الكاهن فيها ؟ وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين الذين لا تحبهم ولا يحبونها سيرثونها من بعدها ، اشتد ذلك عليها كثيراً ، فتخرج إلى الطريق حاملة بدرة من الذهب في يدها فتنثرها نثراً ، فرفع هؤلاء القوم أمرها إلى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزالوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان وسكنوا قصرها من بعدها ووضعوا أيديهم على مالها وكأن الله قد أراد أن يسقيها الكأس حتى ثمالتها فأبقى لها من الفهم والإدراك ما تستطيع به أن تعلم أن مالها الذي تعبت كثيراً في جمعه وتدبيره ، واقترفت كثيراً من الذنوب والآثام في سبيل الاحتفاظ به والحرص عليه يتمتع به في حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالاً عظيماً ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها إلى قبرها .

وكذلك ينتقم الله من الأشحاء الذين يضنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله إلى الأيدي التي لا تستحقه : سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ، وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على ما يدور حوله وأنشأ يقول :

سلام عليكم أيها القوم الأبرار ، والملائكة الأطهار ، لقد عشتم ما عشتم في هذه الدار وأنتم غرباء عنها ، لا تعرفكم ولا تعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسون بها ، لأنكم من عنصر غير عنصرها وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم إليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم حافل ، فكنتم كحلم لذيذ ألم بالعيون الهاجعة ، ثم مضى لسبيله .

هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ومساكنكم لا يأوي اليها غير الضب واليربوع ، ولا يسمع فيها غير الزئير والعواء ، فلا نور . ولا نار ، ولا روض ولا ماء ، ولا مرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عين ولا أثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكأن ذهابكم القيامة التي تزلزل كل شيء وتأتي على كل شيء .

سلام عليكم يا بني ؛ لقد كنتم أنسي وحياتي وسلوتي وعزائي ومتعة نفسي وراحة ضميري ، والروضة الأنف التي أقطف ما أشاء من أزهارها ورياحينها وألجأ إلى ما أحب من ظلالها وأفيائها ، أما اليوم فقد سمج وجه الدنيا في نظري وأصبح عبء الحياة ثقيلاً عن عاتقي ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به .

سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجاً بسيطاً ، لا ينال الناس بشر ولا يعتقد في الناس شراً ، ولا يضمر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ! والظل الذي يفيء عليه .

سلام عليك أيتها الفتاة الشريفة الطاهرة التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عائل له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقاً لا تسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضناً بجسمها أن تلمسه يد منقذها .

سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان اللتان علمتا ولديهما الفضيلة وغذتاها بلبانها ، فكانتا خير الأمهات لخير الأبناء ، واللتان

لم تسخطا في حياتهما يوماً واحداً ، ولم تنقما ، ولم تشكوا لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألم بهما من المصائب ونالهما من الأرزاء ، ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكوناً لقضائه وقدره حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البودقة طهارة وصفاء .

سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان اللذان حفظا الصنيعة من حيث لا يحفظها أحد ، وشكراها من حيث لا يشكرها شاكر ، ولم يحل سواد جلدهما وخشونة منبتهما ووحشة نفسهما . من ان يحملا بين جوانحهما عواطف الود والإخاء التي لا يزال البيض في أوروبا ينشدونها في كل مكان على ألسنة كتابهم وشعرائهم وخطبائهم ووعاظهم رجاء الوصول إليها ، فلا يجدون إليها سبيلا .

سلام عليكم يا بني من والدكم الحزين الباكي الذي بليت عظامكم في قبرها ، ولم يبل ذكركم في قلبه ، والذي ظل يختلف إلى واديكم عشرين عاماً يندبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن يلحقه بكم ، فلا يستتب له ما يريد .

* * *

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائماً كأنه يقتلع نفسه من الأرض اقتلاعاً وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة في تلك الساعات القليلة التي قضاها معي ، فأصبح حمامه اليوم أو غد ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، ولم يبق منها في دائرة الأفق إلا كما يبقى في جنبات الكأس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى في طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة ، فلبثت في مكاني أنظر إليه وقلبي يذوب رحمة به وإشفاقاً عليه ، حتى انحدر في بعض البطون وغاب عن نظري .

(٢٩)

النهـــايـــة

عدت إلى منزلي الذي أنزله وحاولت أن آوي إلى مضجعي فنبا بي ، وأن أستزير الغمض فامتنع علي ، وأن أهدأ في مكاني ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر ما يشغلني وينفر النوم عن عيني حالة ذلك المسكين فقد هاجت تلك القصة التي قصها عليّ ألماً دفيناً في نفسه وشجناً كامناً ، فاستحال في بضع ساعات إلى هيكل من العظم تتردد أنفاسه في صدره تردد الريح في جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عني يمشي مشية الطائر المذبوح يجر شلوه جراً ؛ وتمثل لي أنه الآن طريح فراشه ، في زاوية من زوايا كوخه ، يكابد آلام المرض أو آلام النزاع من حيث لا يعينه معين ، ولا يرحمه راحم ، فاشد ذلك علي كثيراً وشعرت بشعبة من شعب قلبي قد سقطت .

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته في واديه على بعد الشقة بيني وبينه لأتفقد شأنه ، وأقضي حق صحبته . فسلكت الطريق التي وصفها لي مراراً في حديثه ، ولم أزل أصعد النجاد ، وأهبط الوهاد ، وأضل مرة وأهتدي أخرى ، حتى أشرفت منزلق الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد في ذلك الوادي الموحش ، فانحدرت إليه وكنت أرجو أن أراه واقفاً على بابه ، أو جالساً على مقربة منه ، فلم يقع نظري على شيء ، وكان السكون سائداً عميقاً لا يسمع فيه السامع نأمة ولا حركة ،

كأنه سكون المقابر ، اللهم إلا عصفوراً صغيراً يغرد من حين إلى آخر تغريدة شجية مؤثرة ، كأنما هو يوقع لحناً من الألحان المحزنة على نغم واحد ، وميزان مطرد ، فرفعت نظري إليه فإذا هو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ذكرت عند رؤيتها أنها الشجرة الوحيدة التي حدثني عنها أن فرجيني غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد ، وأنه يحبها كثيراً ويأنس بها من أجلها ، فدنوت منها فراعني أن رأيت تحتها شبحاً معفراً بالتراب ، فتبينته فإذا هو الشيخ ، فحركته فإذا هو ميت ، فهالني الأمر وتعاظمني ، وشعرت بقلبي يتمزق لوعة وأسى ، وبنفسي تسيل رحمة وإشفاقاً ، وقلت : يا له من رجل مسكين ! لقد مات ، ولا صديق يوسد رأسه أو يسبل أجفانه ، ولا عين تبكي عليه غير ذلك العصفور الصغير الذي ينوح فوق رأسه .

* * *

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التي مات تحتها ، والتي كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا .

ولا عين إلا وهي عين من البكا   ولا خد إلا للدموع به خد

انتهت

بول وفرجيني

يا بني القفر سلام عاطر — من بني الدنيا عليكم وثناء
وسقى ،عارض من أكواخكم — معهد الصدق ومهد الأتقياء
كنتم خير بني الدنيا ومن — سعدوا فيها وماتوا سعداء
عشتم من فقركم في غبطة — ومن القلة في عيش رخاء
لا خصام ، لا مراء بينكم — لا خداع ، لا نفاق ، لا رياء
خلق بر وقلب طاهر — مثل كأس الحر معنى وصفاء
ووفاء ثبت الحب به — وثبات الحب في الناس الوفاء
أصبحت قصتكم معتبر — في البرايا وعزاء البؤساء
يجتلي الناظر فيها حكمة — لم يسطرها يراع الحكماء
حكم لم تقرءوا في كتبها — غير أن طالعتم صحف القضاء
وكتاب الكون فيه صحف — يقرأ الحكمة فيها العقلاء

* * *

إن عيش المرء في وحدته — خير عيش كافل خير هناء
فالورى شر وهم دائم — وشقاء ليس يحكيه شقاء
وفقير لغني حاسد — وغني يستذل الفقراء
وقوي لضعيف ظالم — وضعيف من قوي في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم — ونجاء منهم أي نجاء
إن عيش المرء فيهم ذلة — وحياة الذل والموت سواء

* * *

ليت (فرجيني) أطاعت (بولساً) — وأنالته مناه في البقاء
ورثت للأدمع اللاتي جرت — من عيون ما درت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقته — ساعة لكنه رأي القضاء
فارقته لم تكن عالمة — أن يوم الملتقى يوم اللقاء

ما (لفرجيني) و (باريس) أما | كان في القفر عن الدنيا غناء ؟
إن هذا المال كأس مزجت | قطرة الصهباء فيـــه بدماء
لا ينال المـــرء منه جرعة | لم يكن في طيها داء عيـــاء
عرضوا المجـــد عليها باهرا | يدهش الألباب حسناً ورواء
وأروها زخرف الدنيا وما | راق فيها من نعـــيم وثراء
فأبته وأبى الحب لهـــا | نقض ما أبرمه عهد الإخاء
ودعاها الشوق للقفر وما | ضم من خير إليه وهنـــاء
فغدت أهواؤها طائرة | بجناح الشوق يزجيها الرجاء
يأمل الإنسان مـــا يأمله | وقضاء الله في الكون وراء

• • •

ما لهذا الجو أمسى قاتماً | ينذر الناس بويل وبلاء
ما لهذا البحر أضحى مائجا | كبناء شامخ فوق بنـــاء
وكأن الفلك في أمواجـــه | ريشة تحملها كف الهواء
و (لفرجيني) يد مبسوطة | بدعاء ، حين لا يجدي دعاء

• • •

لهفي والمـــاء يطفو فوقه | هيكل الحسن وتمثال الضياء
زهرة في الروض كانت غضة | تملأ الدنيـــا جمالاً وبهـــاء
من يراها لا يراها خلقت | مثل خلق الناس من طين وماء
ظنت البحـــر سماء فهوت | لتباري فيه أمـــلاك السماء
هكذا الدنيـــا وهذا منتهى | كل حي ما لحي ، من بقاء

مصطفى لطفي المنفلوطي

القسم الرّابع

في سبيل التاج

رواية

في سبيل التاج

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرانسوا كوبيه

مع بعض تصرف

الإهداء

إلى البطل المصري العظيم

سعد زغلول

« تشرح هذه الرواية سيرة بطل من أبطال الوطنية العالية » قد جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة » والإخلاص والتضحية ما جمع لك منها ، فأذن لي أن أهدي » روايته إليك ، وأن أقدم البطل البلقاني ، إلى البطل المصري » لتأنس روح كل منكما بروح صاحبه ، وإن باعد بينكما » الزمن ، واختلفت بكما الدار ، فإن تفضلت بقبول هديتي » وما أحسبك ضاناً بذلك عليّ ، فلتكن جائزتي عندك عليها أن » تشهد لي بينك وبين نفسك أني قد وضعت لبنة صغيرة في ذلك » البناء الضخم الذي شدته لأمتك ووطنك وحسبي ذلك وكفى » .

مصطفى لطفي المنفلوطي

أول يونيه سنة ١٩٢٠ .

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير : حسن الشريف

انصرفت عقول الكتّاب والمفكرين في هذه الأيام ، وفي جميع بلاد إلى الاشتغال بالمسائل السياسية والمشاكل الاجتماعية التي وجدتها الحرب الأخيرة وانصرفت الأقلام وراء العقول تحاول نارة السبيل لقادة الشعوب علهم يستطيعون إقالة هذا العالم ن عثرته .

ولقد كان من جراء ذلك أن أهمل الأدب إهمالاً نزل به لى مرتبة دون التي كان يشغلها في نفوس القرّاء والمؤلفين . انحطّ التأليف الأدبي انحطاطاً قد يستمر ما استمرت حالة العالم على ما هي عليه .

ولم يكن تأثير هذه الأزمة الأدبية في مصر بأقل منه في غيرها ، إذ انصرف معظم الأدباء عن فنهم ؛ وعلى الأخص في السنة الأخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا السياسية الكبرى ، فانقطع ظهور الكتب الأدبية ، أو كاد . وأوشكت مسارح التمثيل أن تغلق أبوابها لقلة ما يقدّم إليها من الروايات . ورأت صحف

الأدب أن لا بقاء لها إلا إذا ولّتْ وجهها شطر السياسة فوقفت جلّ أعمدتها على شرح وتأويل ما يحمله إلينا البرق من الأخبار . وبذلك وقفت نهضتنا الأدبية . منتظرة أن تمر العاصفة وتصفو السماء فتستأنف سيرها ويعود إليها عزها ونشاطها ، بيد أن العناية الساهرة على الفنون قد أبت أن تذبل شجرة الأدب في مصر ولما تينع أزهارها ، فلم تدع السياسة تستأثر بأقلام جميع الكتّاب ، بل أبقت للأدب أئمته وأنصاره ، فلم يؤيسهم شغف الجمهور بسياسة العالم وانصرافه عن كل ما عداها ، وظلوا رافعين لواء فنهم في وسط الزوابع والأعاصير عالمين أن الأدب أفيد[1] غذاء لروح الأمة وعقلها . وأكبر مهذب لأحساسها وشعورها .

وفي طليعة هذا النفر من أئمة الفن وخدامه ، لا أتردد في ذكر اسم السيد « مصطفى لطفي المنفلوطي » الذي لم يبخل على قرائه العديدين[2] بأويقيات فراغه فوقفهـا على الكتابة والتأليف ، ولم تحل أعمال وظيفته الحكومية بينه وبين أن يخرج للناس بضعة مؤلفات قيمة آخرها هذه الرواية الشيقة الممتعة « في سبيل التاج » التي نقدم اليوم طبعتها الرابعة[3] إلى جمهور القارئين .

فرانسوا كوبيه مؤلف « في سبيل التاج » شاعر عرك صروف

---

(١) يريد : أكثر فائدة ، فإن الفعل الرباعي لا يصاغ منه « أفعل التفضيل »

(٢) يعني الكثيرين ، واستعمال « عديد » بمعنى « كثير » خطأ شائع .

(٣) هذه الطبعة الأخيرة هي السابعة عشرة .

الزمان وجس بأصبعه مصائب الإنسان ، فلم تزد قلبه مناظر البؤس والفاقة إلا ليناً وحناناً ، حتّى إن القارىء لا يرى في شعره إلا عبرة حارة أرسلتها عيناه إشفاقاً وحنــواً على الذين تخطتهم السعادة وغضبت عليهم الحياة ، حتّى لقبه عارفوه بحق « معزي المنكودين والبائسين وشاعر الضعفاء والمحزونين » .

ولد كوبيه سنة ١٨٤٢ ، ولم تمكنه بنيته السقيمة من تتميم دراسته فانقطع عن تلقيّ الدروس في معاهد العلم ، وانصرف إلى قراءة الكتب والاطلاع على أوضاع الأقدمين ، وكان يشعر بميل شديد غريزي إلى الشعر ، فنظم منه بضع قصائد لم تصادف إعجاباً من الذين أسمعهم إياها ، فرأى أن النار أحق بها من المطبعة . فأحرقها ، وطلق الشعر وهجر الأدب ، وسعى حتّى حصل على وظيفة في الحكومة استولى عليها ظناً منه أنه لم يخلق لصناعة القلم وأن رغبته في الشعر ماهي إلا نزعة مفتون تصبو نفسه إلى ما لا قبل له به ولا طاقة له عليه .

بيد أن الفطرة ما لبثت حتّى غلبت اليأس في نفس الشاب ، فعاد إلى القصائد ينظم منها اليوم ما يمزقه الغد ، حتّى وفق لكتابة « صندوق البغايا المقدسة » (Le Reli Puaire) ونشره بين الناس فصادف رواجاً وإقبالاً شجعاه على الاستمرار والمثابرة ، وزاده تشجيعاً أن صارت بعض منظوماته تتلى على المسارح وفي الحفلات . وما زالت شهرته تنمو حتّى اهتمت بشأنه إحــدى الممثلات الشهيرات « مدام أجار » ورأت فيه قابلية للتأليف التمثيلي ، فنصحت إليه بكتابة شيء للمسرح ، فعمل بنصيحتها

وكتب « عابر السبيل » (Le Passant) وهي رواية ذات فصل واحد . ما كادت تظهر حتى تخاطفتها المسارح. ومثلتها « سارا برنار » فطار صيت المؤلف الشاب وذاعت شهرته وأقبل عليه مديرو المسارح يلتمسون منه المزيد .

ومن سنة ١٨٦٨ نشر كتباً شعرية متتابعة أهمها « المودات » (Intimités) و « اعتصاب الحدادين » و « المتواضعون » وبعض قصص نثرية منها « المجرم » (Jeunesse) و « شيونيه » (Toneune) وكثير من الروايات التمثيلية ، ونخص بالذكر منها « عواد كريمون » (Le Luthier de Grémone) و « مدام ده مانتنون » و « سيفير ونوريلي » و « في سبيل التاج » .

وفي عام ١٨٨٤ انتخب عضواً بمجمع علماء فرنسا ، ثم انكب على السياسة وسار فيها شوطاً بعيداً كاد ينسيه الشعر والأدب . وتوفي سنة ١٩٠٨ وهو رئيس فخري لجمعية الوطن الفرنسوية [١] .

هذا ملخص حياة ذلك الشاعر النابغة الذي امتاز على أقرانه بأنه لم يقلد أحداً من الأوائل ولا المعاصرين « والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعر من الشعراء » وبأن معظم المواضيع التي طرقها كانت إلى عهده جديدة لم يتقدم إليها قبله أحد من المؤلفين . ولقد قال عنه أناتول فرانس ما معناه :

« إن نفثات قلم هذا الشاعر قد أثرت في جميع القلوب

---

(١) النسب إلى فرنسا : فرنسي .

وتمكنت منها ، لأن أساسها الطبيعة ، وأحسن ما يبرع في الكتابة عنه ويصل فيه إلى أعلى طبقات البلاغة ما كان له مساس بالمشاعر والأخلاق الاعتيادية والحقائق الواقعة . وهذا النوع من الكتابة لا يتيسر إلا لأصحاب الأذواق السليمة والذكاء المتوقد الخارق ، وهو يحتاج إلى مهارة فائقة وبراعة زائدة ، فإن أقل خطأ فيه لا يلبث أن يبدو للعيان مجسماً ، وإنه وإن كان في استطاعة كل إنسان مهما كانت منزلته من العلم أن يفهم هذا الشاعر ويتأثر بأغراضه ومراميه . ولكن لا يستطيع[1] أن يسبر كنهه ويتذوق طعم أدبه إلا من رزق حظاً وافراً من العلم والذوق السليم ، وبالجملة فقرّاء هذا الشاعر العظيم كثيرون جداً ومن جميع الطبقات ، ولكن قراءه الحقيقيون قليلون » .

* * *

أما رواية « في سبيل التاج » التي نحن بصددهـا فمأساة شعرية تمثيلية وصفها المؤلف في سنة ١٨٩٥ وأراد أن يجاري بها عميدي الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر « كورني وراسين » وهي رواية أخلاقية بطلها فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان حب الأسرة وحب الوطن : فضحّى الأولى فداء للثانية ، ثم ضحّى حياته فداء لشرف الأسرة ، ولقد تجلت في هذه المأساة عبقرية الشاعر ومواهبه الكبيرة ، فالأسلوب سهل ممتع ، والأفكار

---

(١) هذا التعبير غير معروف في العربية ، وهو من الأخطاء الشائعة على ألسنة الكتاب .

متسلسلة متماسكة : والوقائع جلية واضحة . وأخلاق أشخاص الرواية تفسرها أقوالهم وحركاتهم فلا غموض فيها ولا إبهام .

ولقد ذهب النقاد في تقدير هذه المأساة مذاهب شتى حتى قال بعضهم انها خير ما أخرج للناس من عهد راسين إلى يوم ظهورها .

قال الأستاذ « إميل فاجيه » العضو بالمجمع العلمي الفرنساوي عن هذه الرواية في الجزء الثالث من كتابه « آراء في التمثيل » ما معناه :

إذا نظرنا إلى ما في الفصول الثلاثة الأولى من القوة والمتانة والوضوح مع البيان والبلاغة وحسن التصوير ، أمكننا أن نحكم بأن هذه الرواية ستمثّل إلى ما شاء الله بدون أن يملها الجمهور أو يشعر بسأم من سماعها وأن « فرانسوا كوبيه » بكتابته للفصل الثالث منها على الأخص قد ضمن لذكراه الخلود في ذاكرة الأجيال المقبلة وهو الفصل المعنْون في التعريب بعنوان « الجريمة » .

وقال الأستاذ « جول لومتر » العضو بالمجمع العلمي الفرنساوي في الجزء التاسع من كتابه « خواطر في التمثيل » بعد أن أطنب في وصف شاعرية كوبيه وفي تقدير مواهبه : إن رواية « في سبيل التاج » لهي من صنع فتى قدير وشاعر عظيم ورجل ذي ضمير حي وقلب كبير . وإذا كان فيها بعض النقص فهذا النقص لم يخل منه كورني ولا فيكتور هوجو ولا غيرهما من كبار الفنيين .

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب : إن المشاهد لتمثيل

رواية « في سبيل التاج » ليشعر منذ الهنيهة الأولى براحة واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهد عملاً متقناً وفناً نظيفاً ، ولقد يكون أحسن ما في القطعة تنسيق الأفكار وتحليل العواطف وترتيب الحوادث وتصوير النفوس والأشخاص.

هذا رأي كبيرين من زعماء الحركة الأدبية في فرنسا نورده هنا ليعلم القراء منزلة هذه الرواية من نفوس الأدباء في الغرب ومبلغ تقديرهم لمؤلفها.

ولقد تناول السيد مصطفى لطفي المنفلوطي هذه المأساة ونقل موضوعها إلى اللغة العربية في قالب روائي جميل بعد أن أضاف إليها أشياء وحذف منها أخرى وأخرجها لقرائه قصة يستهوى أسلوبها القلوب وتسترعي وقائعها الألباب بقلم عذب وعبارة رقيقة وديباجة بديعة لا نطيل الكلام في وصفها لأن قراء العربية يعرفونها لهذا الكاتب العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفته أن ينقل إلى العربية قطعاً كاملة من الرواية يستطيع القارىء أن يتبين منها قوة المؤلف ، ومع أن الرواية ملخصة تلخيصاً فقـد استطاع الكاتب بمهارة فائقة أن يصور الروح الأصلية للمؤلف تصويراً مؤثراً وأن يملك من نفوس قراء العربية ما ملكه فرانسوا كوبيه من نفوس قرا الفرنسية.

ولا يفوتنا هنا أن نقول ان الكاتب قد اشتغل بتلخيص هذه الرواية في إبان الحركة الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحت إليه الحوادث السياسية التي لا تزال ماثلة في الأذهان صفحات تفيض وطنية غيرة حتى لكأنه قد أفضى إلى أمته في هذا الكتاب بكثير مما

لا يستطيع كتابته في الصحف السياسية ، والحق أقول إننا كثيراً ما كنا نعتب عليه في سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين في هذه الحركة حتى قرأنا هذه الرواية فإذا روحه الوطنية الشريفة تسيل فوق صفحاتها سيلاً وإذا الرواية الحركة الحاضرة بجميع ظروفها ومتعلقاتها .

وبالجملة فرواية « في سبيل التاج » كتاب الوطنية الخالدة في ثوب قصة خيالية تملك لب القارىء بجمالها وتتولى تهذيب نفسه بآدابها وفضائلها ، وما أحوجنا أن تجري الأقلام الأدبية في هذا العصر بمثل ما جرى به قلم السيد المنفلوطي في هذه المأساة المؤثرة ليتلقى النشء الحديث دروس وطنيته من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصل الوطنية إلى أعماق القلوب وتتغلغل في شغافها إلا من هذا الطريق .

أول يونيه سنة ١٩٢٠ — **حسن الشريف**

مقدمة

لا يزال التاريخ يحفظ في صفحاته حتّى اليوم تلك الوقائع الحربية الهائلة التي وقعت في القرن الرابع عشر بين الدولة العثمانية والشعوب البلقانية أيام أغارت الأولى على الثانية تريد افتتاحها والاستيلاء عليها . فدافعت الثانية عن نفسها دفاعاً مجيداً استمر زمناً طويلاً حتّى غلبت على أمرها فسقطت في يد القوة القاهرة ودخل الترك البلقان وحولوا كنائسها إلى مساجد وفرضوا على أهلها الإتاوات الثقيلة [1] وعزلوا ملكهـا الذي كان يحاربهم ويناوئهم وملّكوا عليها ملكاً من أهلها اسمه «ميلوش» فلبثت في حكم الأتراك عهداً طويلاً عانت فيه من ضروب الذل والهوان ما يعانيه كل شعب مغلوب على أمره . حتّى قيض الله لها رجلاً من رجال الدين المخلصين اسمه الأسقف «أتين» عزّ عليه ضياع بلاده وسقوطها في يد أعدائها وأن تتحول فيها الكنائس إلى مساجد وتجار في أرجائها أصوات المؤذنين بدلاً من أصوات النواقيس وألا يجد المسيحيون في عقر ديارهم مكانا يؤدون فيه فروض صلواتهم

---

(١) الإتاوة : الخراج والجزية ؛ وتقابل في الوقت الحاضر ما يعرضه الغالب على المغلوب من غرامات حربية .

غير الصحاري والفلوات فأخذ يتنقل في أرجاء البلاد ويمشي بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرة والوطنيــة أخرى ، ويستنهض همم الرجال للدفاع عن وطنهم وتحرير بلادهم من يد ذلك القاهر المغتصب حتى جمع كلمة الأمة كلها من حوله على اختلاف عناصرها ومذاهبها وكذلك تتفق كلمة الأمة أمام الخطر الداهم والقضاء الشامل .

ثم أشار على ملكه أن يخلع طاعة الترك ويطرد رعاياهم من بلاده ويمتنع عن دفع الجزية والإتاوة وينادي بحرية البلقان واستقلاله ، فجبن الملك عن ذلك في أول الأمر . ثم أسلس له وأذعن لرأيه ، ففعل ما أشار به عليه ؛ فأحقد ذلك الترك وآسفهم واستثار حقدهم وضغينتهم ؛ فوجهوا إلى البلاد البلقانية جيشاً عظيماً وافر العدة والعدد بقيادة أحد أبطالهم العظام أرطغول باشا ؛ فثار البلقانيون جميعاً رجالاً ونساء للدفاع عن أنفسهم والذود عن وطنهم ، واختاروا لقيادة جيشهم القائد البلغاري العظيم الأمــير ميشيل برانكومير ، فظل يحارب الأتراك عدة أعوام يدال له عليهم فيها ويدال عليه[1] ولكنهم لا يستطيعون اجتياز حدود بلاده واقتحام جبالها ، حتى عيّ القائد التركي بأمره ورأى أن لا حيلة له فيه إلا من طريق الدسيسة والكيد ، وكذلك فعل ...

---

(١) يتداولون النصر والهزيمة .

الجاسوس

اجتمع جنود الفرقة البلقانية ذات ليلة في معسكرهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغم قيثار الموسيقار البوهيمي المسكين «بانكو» الذي كان يفد إلى معسكرهم كل ليلة يغنّيهم قطعاً حماسية مؤثرة يذكرهم فيها بمجد وطنهم وتاريخه العظيم فيرقصون على غنائه ويطربون ويحسنون إليه بما فضل من زادهم وشرابهم، ثم جلسوا بعد فراغهم يتحدثون في شأن ذلك الحادث العظيم الذي حدث في بلادهم منذ أيام، وهو موت الملك ميلوش وعزم الجمعية الوطنية على الاجتماع للنظر فيمن يخلفه على العرش من بعده، فانقسموا في رأيهم قسمين: فريق يرى اختيار الأسقف أتين، وفريق يرى اختيار القائد برانكومير، فقال الجندي الروماني «أورش»، وهو من أشياع الأسقف وأنصاره: «نعم إن النصر قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكومير، ولكن من الذي مهّد له النصر وأعد له عدته قبل أن يعقد له اللواء على الجيش؟ أليس الأسقف أتين؟

من الذي ينكر أن ذلك الرجل التقي الصالح هو الذي طاف البلاد من أقصاها إلى أقصاها عشرة أعوام كاملة يستنهض الهمم

ويستثير حفائظ [1] النفوس ، ويستحيي ميت العزائم ، ويهيج عاطفة الثأر والانتقام في نفوس الرجال والنساء والفتيان والفتيات . ويلقي على تلاميذ المدارس في مدارسهم، أناشيد الحرية والوطنية فيستظهرونها مع دروسهم ويتغنون بها في مسارحهم وملاعبهم ومَغداهم ومراحهم [2] ؟

من الذي ينكر أنه هو الذي علم الشعب البلقاني دروس الوطنية الشريفة العالية ، وغرس في قلوبهم أن الحياة الذليلة خير منها الموت الزؤام ، وأن الحرية حياة الأمم وروحها ، والرق موتها وفناؤها ، وأن الأمة التي ترضى بضياع حريتها واستقلالها وتقبل أن تضع يدها في يد غاصبها إنما هي أحط الأمم وأدناها وأحقها بالزوال والفناء ؟.

ولم يزل يفيض على نفوسهم من نفسه تلك الروح الوطنية العالية ، ويملي عليهم أمثال هذه الآيات الذهبية الشريفة ، حتى صفت ضمائرهم من أدران الذل والمهانة ، وأدركوا من معنى الحياة ما لم يكن يدركه آباؤهم من قبل ، فأصبحوا كما تراهم اليوم حماة الوطن وذادته [3] ، يبذلون في سبيله من ذات أيديهم وذات نفوسهم ما لا يبذل مثله إلا الأمم الراقية الشريفة في سبيل الذود عن مجدها والدفاع عن حريتها واستقلالها ، ويقدمون إلى

---

(١) الحفائظ : الأحقاد . واحدها حفيظة .

(٢) مغداهم ومراحهم : غدوهم ورواحهم صباحاً ومساء .

(٣) الذادة : جمع ذائد . ذاد يذود : دافع يدافع .

الموت زرافات ووحدانا[1] فرحين متهللين كأنهم ذاهبون إلى مراقص «فيدين» وملاعبها ، لأنهم يعلمون أن قطرات الدماء التي يبذلونها في سبيل حريتهم واستقلالهم إنما هي المداد الأحمر الذي تسجل لهم به في صفحات تاريخهم آيات المجد والفخار . وأن الأشلاء[2] التي ينثرونها في تربة وطنهم ثم يسقونها من دمائهم إنما هي البذور الطيبة التي تنبت لبلادهم المستقبل الحر الشريف .

من منا يجهل أنه هو الذي استطاع وحده من بين أبناء البلقان جميعاً أن يقف أمام ملكه وقفة الأسد الهصور ويصيح في وجهه قائلاً له : حتى متى أيها الملك الضعيف ، المهين ، تبيع وطنك وأبنائه لأعدائك وأعدائه بيع السلع المعروضة في حوانيت التجار بأبخس الأثمان وأدناها ، وإلام تضع هذه السلاسل والأغلال في أعناق أبناء أمتك لتقودهم بها إلى حيث يمرغون جباههم الشريفة تحت مواطىء أقدام ذلك العدو المغتصب صاغرين ضارعين ، ثم تزعم بعد ذلك أنك ملك عظيم جالس على عرش شريف ، ولو حققت أمرك لعلمت أنك نخاس دنيء يبيع الرقيق في سوق النخاسة[3] ، بل أدنى من نخاس ، لأن النخاس لا يتجر في أبناء أمته ولا أفراد أسرته ! فاهتز الملك لكلمته هذه اهتزاز القصبة الجوفاء بين مهاب الرياح ، وطأطأ لها رأسه إجلالاً وإعظاماً ، ولم يلبث أن عزم عزمته الشريفة التي ترونها اليوم ، والتي أنقذت الوطن من العار

---

(١) زرافات ووحدانا : جماعات وآحاداً .

(٢) الأشلاء : الأعضاء ، مفردها : شلو .

(٣) النخاس : تاجر الرقيق ، والنخاسة حرفته .

ورفعته إلى ذروة المجد والفخار .

وهنا ضج القوم جميعاً ضجة السرور والاستحسان وصاحو : أحسنت يا أورش . أحسنت إحساناً عظيماً . إلا نفراً قليلاً من أشياع القائد وصنائعه . فإنهم امتعضوا لهذه الكلمة وغصوا بها [1] ، وقام احدهم واسمه لازار . وكان الحارس الخاص لقصر القائد وأمينه وموضع ثقته وثقة زوجته الأميرة بازيليد وطلب الإذن في الكلام فأذنوا له . فقال «إني أريد أن أعترض على صديقي أورش في كلمته التي قالها في فضل أسقفنا العظيم وأثره الجليل في خدمة الدين والوطن . ولكن الذي أراه وأستصوبه أن لرجال الدين شئوناً خاصة بهم لا يجمل بكرامتهم أن يتعدوها إلى غيرها من أعمال الحياة ، وإني أضن بأسقفنا العظيم أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عن شئون الدين التي تصبو لها نفسه طول حياته ، والرأي الذي أراه أن يعقد الملك إلى القائد ميشيل برانكومير ليقود الأمة جميعها بتلك السياسة الحكيمة الرشيدة التي قاد بها الجيش ورفعه إلى مناط السماك الأعلى ، فاعترضه جندي كان جالساً على مقربة منه وقال له «لِمَ لا تضن بالقائد ميشيل أن تشغله مشاغل الملك وملاهيه عما هو بسبيله من قيادة الجيش وتدبير شئونه ؟ » فأجاب : إن قيادة الجيش وزعامة الملك أمران متشابهان ، لأنهما يتعلقان بشئون الحياة وأعمالها ، وأما الشئون الدينية فلا علاقة لها بالشئون الدنيوية بحال من الأحوال ، فدعوا الكاهن مستريحاً في معبده ،

---

(١) غصوا بها : أخذتهم الغصة ، كما يشرق الشارب بالماء أو الآكل ببعض الطعـام .

مستغرقاً في صلواته وعبادته . واختاروا للككم رجل الأمة وبطلها وحامي ذمارها وحماها الأمير « برانكومير » ، فعلت أصوات الصاخبين والصائحين . والمستحسنين والمستهجنين ، وذهب كل في صيحته المذهب الذي يراه ويتشيع له .

وإنهم لكذلك اذا بصوت صارخ في وسط هذه الضوضاء يقول : « استمعوا مني أيها القوم كلمة واحدة وهي فصل الخطاب في قضيتكم هذه ولا أطلب إليكم أن تستمعوا مني سواها . فالتفت الجمع فإذا الضابط « ألبير » وهو جندي شيخ عرف القائد برانكومير صغيراً وخدمه كبيراً وعاش معه في منزله في عهد زوجته الأولى كأنه أحد أفراد أسرته . ولم يفارقه إلا منذ عامين اثنين ، أي بعد وفاة زوجته بأيام قلائل ؛ فأنصتوا إليه فإذا هو يقول : « أنتم تعلمون جميعاً صلتي بالقائد برانكومير ومكانتي عنده . وإني أعرف من شئونه الخاصة والعامة ما لا يعرفه أحد غيري . ولقد عرفت فيما عرفت من خلائقه وسجاياه في خدمته : أنه أبعد الناس جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرها وأرغبهم عن سفاسف الأمور ودناياها ؛ وأنه جندي صميم معتز بجنديته وشظفها وخشونة العيش فيها لا يؤثر عليها أي مظهر من مظاهر الحياة مهما علا شأنه وعلت قيمته ؛ فمن ظن منكم أنه يرضيه ويجامله بترشيحه لمنصب الملك فقد أخطأ في ظنه خطأ عظيماً ، وإن كان للأسقف « أتين » مزاحم على الملك بين أشراف البلقان وسادته فهو غير القائد « برانكومير » ؛ فهدأت الأصوات وسكنت الضوضاء عند سماع هذه الكلمة الهادئة

الرزينة التي ينطق بها جندي شريف صادق ، وكادت تكون فصل الخطاب في القضية لولا أن « أورش » – وهو ذلك الجندي المتشيع للأسقف والداعي له – قد نهض من مكانه مرة أخرى ونظر إلى الجندي « ألبير » مبتسماً ابتسامة الهزء والسخرية ، وقال له : « نعم يا سيدي إنك صادق فيما تقول ، لم تزد حرفاً على ما تعرف ولم تنقص ، ولكن ائذن لي أن أقول لك إنك إنما تحدّثت في كلامك عن الماضي القديم الذي حضرته وشاهدته ، أما الحاضر فلا تعرف منه شيئاً ، فإن أذنت لي حدثتك عنه وقلت لك : إن الأمير برانكومير اليوم غيره بالأمس ، وإن تلك النفس العالية المترفعة التي كنت تعرف بالأمس مكانها من بين جنبيه قد استحالت اليوم إلى نفس تواقة متطلعة تصبو إلى المعالي وتفتتن بالعروش ، وأنه هو الذي يدعو بنفسه إلى نفسه ويرسل الدعاة في كل مكان لتأييده ومساعدته على نيل الملك » . فاستطير ألبير غضباً وقال : أتريد أن تقول إن أخلاق قائدنا قد تغيرت وإنه قد أصبح رجلاً صغير النفس مبتذلاً ؟ » قال : لا . ما إلى هذا ذهبت ، ولكني أريد أن أقول : إنه قد أصبح منقاداً في شئون حياته لرأي غيره لا لرأي نفسه . وربما لو ترك وشأنه لكانت له في حياته خطة غير هذه الخطة التي ينتهجها اليوم ؛ فانتفض القوم واضطربوا ونظر بعضهم في وجوه بعض ومشت الهمسات بين الأفواه والآذان ، وسمع الخطيب اسم قسطنطين يتردد مراراً في أفواه الهامسين ؛ فصاح في القوم : « أنتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون إليه ؛ فإن ابن قائدنا وزهرة شبيبتنا وضابط فرقتنا أعلى همة مما تظنون » فصرخ لازار : قل

من هو الشخص الذي تريد؟ فجلس أورش ولم يقل شيئاً . إلا أنه همس في أذن جندي كان بجانبه : « الزوجة الجديدة ». فسرت هذه الكلمة بين الجموع سريان الكهرباء في أسلاكها حتى بلغت مسمع الموسيقار بانكو . فبرقت لها عيناه بريق الفرح والسرور ، لأنه لم يكن موسيقاراً بوهيمياً كما زعم . ولم يكن اسمه بانكو كما يسمّونه ، بل هو الضابط المشهور إبراهيم بك أحد أركان حرب القائد التركي العظيم أرطغول باشا وقد وجد في هذه الكلمة التي سمعها ما كان يريد أن يكون ، وعثر بالثلمة [1] التي ينحدر منها إلى أغراضه ومآربه .

وما أوى القوم إلى مضاجعهم . وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم . حتى دبّ ذلك الجاسوس المتنكر على يديه وبلغ مضجع الجندي لازار حارس قصر القائد وموضع ثقته وأكبر أشياع زوجته وأنصارها فاضطجع بجانبه وظل يهمس في أذنه ساعة طويلة كان يتردد فيها اسم الأميرة بازيليد زوجة القائد الجديدة ؛ حتى تم لهما الاتفاق على ما يريدان . ثم أسلدا عيونهما إلى الكرى فناما .

(١) الثلمة : الثقب . والمدخل في جدار الحصن .

قسطنطين

توفيت زوجة الأمير برانكومير منذ عامين ، وكانت امرأة من النساء الصالحات القانتات ذوات النفوس العالية والهمم الكبرى . فورث ابنها قسطنطين عنها هذه الأخلاق الكريمة ؛ كما ورث عن أبيـــه صفات الشجاعة والعزيمـــة والصبر واحتمال المكاره في سبيل خدمة الوطن والأمة ، فكان خير ابن لخير أب وأم ، وكان يد أبيه اليمنى ودرعه الواقية الأمينة في جميع وقائعه ومشاهده . حتى ذاع صيته في جميع أنحاء المملكة وأحبه الشعب والجند حباً كاد يرفعه إلى ما فوق منزلة أبيه . لولا حرمة الأبوّة وجلال الشيخوخة ومكان التاريخ . فلما ماتت أمه تزوج أبوه من بعدها فتاة يونانية اسمها « بازيليد » يقال إنها من سلالة قياصر بيزنطة « القسطنطينية » وهي فتاة جميلة ساحرة تستهوي القلوب وتجتلب الألباب . ذات نظرات غريبة لامعة يقضي المتفرّس فيها حين يراها أنها نظرات مريبة ألفت الاختلاب والافتتان من عهد بعيد ؛ فنزلت من قلب القائد الشيخ منزلة لم ينزلها منه أُحد من قبلها ولا من بعدها ، حتى زوجته الصالحة وولده النجيب ، فأصبح مستهاماً بها . مستسلماً إليها ؛ لا يصدع إلا بأمرها ولا يصدر

إلا عن رأيها ؛ ولا يرى حلو العيش وجماله إلا بجانبهـا ولا يستروح رائحة السعادة والهناء إلا إذا هبت عليه من ناحيتها .
وكانت امرأة طموحاً متطلعة لا يعنيها من شئون حياتها إلا مظاهر السؤدد والعظمة ، ولا غلب على مشاعرها وعواطفها إلا ذكرى تاريخ آبائها وأجدادها ومصارع قومها في « بيزنطية » بيد الأتراك الفاتحين ؛ وكانت لا تزال تتحدث في مجالسها العامة والخاصة بنبوءة قديمة تنبأ لها بعض المتنبئين ، ومجملها أن كاهناً عرّافاً دخل منزل أبيها وهي طفلة لعوب لا تزال تحوم حول مهدها ، فنظر إليها طويلاً ثم قال لأمها : إن ابنتك هذه ستكون ملكة عظيمة الشأن في مستقبل أيامها . وربما كان اهتمامها بهذه النبوّة واحتفالها بها وتصديقها إياها هو السبب في قبولها الزواج من شيخ هرم مدبر قلّما يعنى بمثله مثلها . على أمل أن تحقق لها الأيام على يديه آمالها وأمانيها .

فظلت تغرس في نفسه هذه الأمنية الجميلة المحبوبة مدة من من الزمان وتسقيها بماء حسنها وجمالها ، حتى ملأت بها فضاء قلبه ، وشغلته بها عن كل شاغل سواها .

ولم يزل هـذا شأنها معه حتى مات الملك ميلوش ، وجاءت الساعة التي تنتظرها ، فهتفت به : ها قد حانت الفرصة التي كنا نرقبها ، وها قد بدأت تتحقق نبوءة ذلك العراف الخبير التي تنبأ لي بها وما هو بالكاذب ولا المتخرص ؛ ثم زجّت به في طريق مزاحمة الأسقف أتين على الملك ، فانقاد لها ومشى في الطريق التي رسمتها له ، وأخذ يدعو الناس لنفسه ، ويستكثر

من سواد أشياعه وأنصاره ، ويداخل أعضاء الجمعية الوطنية ويداهنهم ويتوسل إليهم أن يساعدوه على نيل أمنيته التي يرجوها : مدلاً بمكانته من خدمة الأمة والوطن ، وأياديه في الذود عنهما ، وبما بذل من صحته وشبابه في مقاتلة الأعداء ومدافعتهم تلك السنين الطوال حتى اشتعل رأسه شيباً ولمست قدماه رأس المنحدر المؤدي إلى القبر .

هذا ما كان يشغل القائد وزوجته في ذلك التاريخ ، أما ابنه قسطنطين فكان بمعزل عن هذا كله ، فإن وفاة أمه التي كان يحبها حباً شديداً تركت في نفسه أثراً من الحزن لا يبلى ، وملأت فضاء حياته هماً ونكداً ، وكان يجد بعض العزاء عن ذلك الهم الذي نزل به في حنان أبيه عليه وعنايته به ، حتى تزوج من تلك المرأة اليونانية وأسلم إليها نفسه وقلبه . ففقد بفقد عطف أبيه عليه وحنان أمه كل أمل له في الحياة ، وأصبح يشعر في نفسه بذلة اليتم التي يشعر بها أولئك المساكين المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قلوباً راحمة ولا أفئدة عاطفة !

فكان يخاطر بنفسه في المعارك التي يحضرها مخاطرة اليائس المستقتل راجياً أن يريحه الموت من هموم نفسه وآلامها . فزج بنفسه ذات يوم في معركة كبرى استبسل فيها استبسالاً عظيماً . واستقتل معه جنده يطلبون الموت حيث يطلبه . فلم يبلغ أمنيته التي يتمناها ولكنه انتصر في تلك المعركة انتصاراً باهراً ، وأنقذ من يد الترك شعب [1] « تراجان » وكان الملجأ العظيم لهم والمركز

---

(١) الشعب بكسر الشين : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين الجبلين .

الأكبر لحركاتهم وأعمالهم .

وإنه ليتأثر الجيش المنهزم ويشتد في أعقابه[1] إذ لمح على البعد فارساً تركياً قابضاً بيده علـى شعر فتاة مسكينة . يريـد اقتسارها وإكراهها على الركوب معـه وهي تمتنع وتتأبى[2] وتحاول الإفلات من يده ، فيضربها بسوطه ضرباً مؤلماً وجيعاً ؛ فأزعجه هذا المنظر وآلمه فركض جواده حتى أدرك ذلك الفارس فضربه على هامته بسيفه ضربة قضت عليه ، فركعت الفتاة بين يديه ضارعة تسأله أن ينقذها من شقائها ويقودها معه إلى حيث يشاء . فرثى لحالها وأحزنه منظرها دون أن يعلم من أمرها شيئاً . فأردفها خلفه[3] وركض بها حتى بلغ موضع الخيام ، فتركها بين الأسرى وعاد من تلك الموقعة ظافراً منصوراً . يهنئه الشعب ويهتف له في كل مكان يمر به . حتى وصل إلى القلعة الكبرى . فدخل على أبيه وألقى بين يديه الأعلام التي غنمها في المعركة . فأمر برانكومير بقتل الأسرى . وكان ذلك شأنه فيهم كلما قدموا إليه ، حتى جاء دور الفتاة . فجثت بين يديه ومدت إليه يدها مستغيثة تطلب العفو وتقول له : إنها فتاة نورية[4] مسكينة لا شأن لها في الحرب ولا علاقة لها بأهله . وان أمها باعتها منذ عامين

---

(١) يتأثر : يتبع الأثر . والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم والمعنى أنه يتعقب الفارين والمنهزمين .

(٢) تتأبى : تتشدد في الإباء .

(٣) أردفها : أركبها وراءه على ردف فرسه .

(٤) النوَر : جنس من الناس كثير التنقل يعيش عيش البدو ويمتهن المهن الدنيا ويعيش كثير منه في وسط أوربا . ومنه الطائفة التي تسمى في مصر « الغجر » .

من جندي تركي أساء عشرتها وعذبها عذاباً أليماً حتى قيض الله لها هذا الفتى الكريم فاستنقذها من يده . وأشارت إلى قسطنطين .

فركع قسطنطين بجانبها وسأل أباه العفو عنها وقال له : إنني قد أنقذت حياتها بالأمس فانقذ أنت حياتها اليوم واجعلها حصتي الوحيدة من الغنيمة . وأعدك أني لا أطلب غنيمة سواها . فأحفظ ذلك قلب الأميرة بازيليد زوج أبيه[1] ، وكانت حاضرة تسمع حديثه فنظرت إليه نظرة الازدراء والاحتقار — وكان هذا شأنها معه كلما التقت به — وأنشأت تنعي عليه اهتمامه بشأن فتاة نورية راقصة طريدة غابات وفلوات وزبيبة حانات ومعسكرات ، وقالت له : لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجندي الشريف سليل ذلك القائد العظيم والأمير الجليل أن تلقي بمثلها إلى حارس من حراس بابك أو جندي من جنودك يتلهى بها كما يتلهى الكلب بالعظمة المطروحة تحت أرجله ، بدلاً من أن تصل حياتك الشريفة الطاهرة بحياتها الدنيئة الساقطة .

فثارت ثورة الغضب في نفسه وأضغنه[2] عليها هذا الرياء الكاذب والشرف المتكلف ، وكان يعلم من شئون نفسها وخبايا قلبها ما لا تظن أنه يعرف شيئاً منه . فنظر إليها نظرة شزراء ملتهبة ، وقال لها وهو يعلم أن ما سيقوله سيغضبها ، ويؤلمها ويملأ صدرها غصة وحنقاً : « إن الله لم يخلق الضعفاء والمساكين

---

(١) أحفظ قلبها : ملأه حفيظة .

(٢) الضغن : الحقد .

ليكونوا تراباً لنا تدوسه أقدامنا وتطوه نعالنا كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منها أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم . ونستنزف بها دماءهم . وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعزة مثل ما نملك ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما نذود .

وأحسب أنهم لو كانوا أقوياء أو أعزاء مثلنا . أو أغر وأقوى منا لحفناهم واتقينا جانبهم ونظرنا إليهم بعين غير العين التي ننظر بها إليهم اليوم ، لأن القوي الذي يتنمر [1] على الضعفاء لا بد أن يكون جباناً ذليلاً أمام الأقوياء .

إننا الآن في حرب مع عدو قاهر جبار ننقم منه جوره [2] وظلمه واستضعافه إيانا واستطالته علينا بقوته وكثرته . فجدير بنا ألا نفعل ما ننقمه منه ونأخذه به . عسى أن يرحمنا الله وينظر إلينا بعين عدله وإحسانه . وينتصف لضعفنا من قوته . وقلتنا من كثرته !

إننا لا نحمل هذه السيوف على عواتقنا [3] لنقتل بها النساء والأطفال والضعفاء والعزل الذين لا سلاح لهم ولا قوة في أيديهم ، بل لنقارع بها الأبطال والأكفاء في ميادين الحروب ومواقف النزال .

---

(١) يتنمر : يصطنع طباع النمر .

(٢) ننقم : نكره .

(٣) العاتق : الكتف .

إني لا أعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة وإن هذه البائسة المسكينة التي تحتقرونها وتزدرونها لم تصنع ذنبها بيدها ، ولا سعت إليه بقدمها ، بل هكذا قدر لها أن تنبت في هذا المنبت القذر الوبيء ، فوبئت وقذرت ، وليس في استطاعتها أن تعود إلى العدم مرة أخرى لتخلق نفسها خلقاً جديداً في جو غير هذا الجو وتربة غير هذه التربة ، فما هو ذنبها وما هي جريمتها . وأي حيلة لها في هذا المصير الذي ساقها القدر إليــه ؟

إنما الاثم على الذين يقترفون الذنوب وهم يعلمون مكانها من الرذيلة ومكان أنفسهم من اقترافها ، ويحوّلون زمام حياتهم بأيديهم من طريق الخير إلى طريق الشر ، إيثاراً لها وافتتاناً بها ؛ أولئك هم الآثمون المذنبون الذين يجدر بنا أن نقسو عليهم ونشتد في مؤاخذتهم . أما الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم في شأن أنفسهم ولا حيلة ، فهم برحمتنا وعطفنا أحق منهم بعتبنا ولومنا ، فإن وجدنا السبيل إلى معاونتهم ومساعدتهم واستنقاذهم من وهدة الشقاء التي هووا فيها فذاك ، أو لا . فلندعهم وشأنهم تذهب بهم المقادير حيث شاءت من مذاهبها ، ولا نزدهم بكبريائنا واستطالتنا بؤساً على بؤسهم ، وشقاء على شقائهم .

إننا ما أصبنا بما أصبنا به من هذه النكبة الشعواء والداهية الدهياء التي نزلت بنا منذ عشرة أعوام ما تفارقنا ولا تهدأ عنا . إلا من ناحية كبريائنا وخيلائنا واعتدادنا بأنفسنا في جميع شؤوننا وأعمالنا . واحتقار غنينا لفقيرنا . وقوينا لضعيفنا . وسيدنا لمسودنا ، فسلط

الله علينا ذلك العدو القاهر الـذي لا يعتمد في جميع شؤونه ومواقعه إلا على قوته وأيده [1] ، لأننا لم نعتمد في يوم من أيام حياتنا في جميع صلاتنا وعلاقتنا إلا على قوتنا وأيدنا ، والجزاء من جنس العمل ، «وما ظلمهم الله ولكن كانـوا أنفسهم يظلمون » .

فاصفر وجه بازيليد واربدت شفتاها ، وكأنما خيل إليها أنه يلمزها ويريبها [2] ويشير في حديثه إلى ماضيها القديم وحوادث صباها السالفة ، فصمتت ولم تقل شيئاً . إلا أنها انتحت ناحية وأخذت تبكي وتنتحب –والدموع هي السلاح الوحيد الذي تعتمد عليه المرأة في جميع شؤونها وعلائقها– فعظم الأمر على برانكومير ، وأكبر [3] أن يخاطب ولده زوجته المحبوبة هذا الخطاب الجافي الغليظ ؛ فأنحى عليه باللائمة الشديدة وقال له : إنك لم تسيء إلى نفسك في تنزلك إلى حماية هذه النورية الساقطة واهتمامك بشأنها ، بقدر ما أسأت إلى أبيك في مجابهة زوجته ومغايظتها وسوء الرد عليها بهذه اللهجة الشديدة القاسية ولولا هذه الرايات الحمر التي ألقيتها اليوم تحت قدميّ بأهلتها البيضاء لما اغتفرت لك هذه الجريمة التي اجترمتها ؛ فاذهب لشأنك ولا تعد إلى مثلها .

كذلك تم لقسطنطين ما كان يريده من إنقاذ تلك الفتـاة

---

(١) الأيد : القوة .
(٢) يلمزها : يشير إلى عيوبها ، ويريبها : يضعها موضع الريبة .
(٣) أكبر الأمر : اعتبره كبيراً .

المسكينة من يد الموت بعدما أنقذها من يد الشقاء ، فذهب بها إلى الجناح الذي يسكنه من القلعة ، وجلس إليها يحادثها في شأنها وشأن ماضيها ، ويسائلها عن دينها ومذهبها ووطنها وقومها ، فلم يرَ بين يديه إلا فتاة ساذجة جاهلة لا تعرف لها وطناً ولا بيئة ولا تدين بدين من الأديان ولا مذهب من المذاهب ، ولا تفهم من شؤون حياتها إلا أنها فرد مبهم من أفراد هذا المجتمع المائج المضطرب ، تمتد بامتداده وتنحسر بانحساره لا تعرف الآمال ، ولا تفكر في المستقبل ، ولا تحفل بالماضي ، ولا يتسع عقلها لأكثر من الساعة التي تعيش فيها ، ولا تتألم إلا كما يتألم الأطفال ، ولا تفرح إلا كما يفرح المجانين ، قد صفت نفسها من كل شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقد ولا تغضب ولا تكره ولا تحسد ولا تطمع ولا تتطلع ، ولا تشغل ذهنها بترتيب الصور والأفكار واستنتاج النتائج من المقدمات ، فأصبح ينظر إليها نظر الأب الرحيم إلى طفله اللاعب بين يديه ، وأصبحت تجلس تحت قدميه جلسة الكلب المخلص تحت قدمي سيده ، ولا تحدثه حتى يحدثها ولا ترفع نظرها إليه حتى يناديها ، وكان يقول في نفسه كلما نظر إليها وإلى سذاجتها وطهارتها وبلاهة عقلها وغفلته : أهكذا قضى على الإنسان في هذه الحياة ألا تخلص نفسه من شوائب الرذيلة والشر حتى يسلب عقله وإدراكه قبل ذلك ، وألا يمنح مقداراً من الصدق والشرف حتى يحرم في مقابله مقداراً من الفطنة والذكاء ، فليت شعري هل عجزت الطبيعة عن أن تجمع للمرء بين هاتين المزيتين : مزية العقل الذي يعيش به والخلق الذي يتحلى بحليته ، أو أن لله في ذلك حكمة لا نعلمها ولا ندرك كنهها ؟

وكأنما كان يشعر في نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاة المسكينة بين هاتين الفضيلتين ، وأن يصوغ من نفسها ذلك المثال الغريب الذي عجزت يد الطبيعة عن صياغته . فبدأ يهتم بشأنها اهتماماً عظيماً ، ويتبسط معها في الحديث تبسط النظير مع نظيره ذاهباً معها في كل واد من أوديته ، معنياً كل العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارة ما أظلم من بصيرتها ، ولكن بأسلوب غير الأسلوب الذي كان يعلمه به معلمه في المدرسة ، فأرشدها إلى وجود الله لا من طريق البراهين الجدلية والقضايا الكلامية ، بل من طريق الآثار ، والمصنوعات الناطقة بجمالها ولطف تكوينها عن قدرة صانعها وإبداع خالقها ؛ وأرشدها إلى الفضيلة من طريق الفضيلة نفسها لا من طريق الترغيب في الثواب والتخويف من العقاب ليكون أدبها أدب نفس لا أدب درس ؛ ولتمتزج الفضيلة بنفسها امتزاجاً لا تزعزعه عواطف اليأس ولا عوامل الرجاء ، فكانت تعجب لحديثه ومراميه عجباً شديداً ، وتجد فيه من اللذة والغبطة ما لا تذكر أنها شعرت بمثله في حياتها في حديث أي متحدث يتحدث إليها ، وتعجب أكثر من كل شيء لتنزل مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مجالستها ومثافنتها[1] والنزول عن حكمها فيما يغضبها ويرضيها ، فقالت له مرة وهي تحاوره : إنك تحدثني يا مولاي كأنك لا تعرف من أنا ، قال : إني أعرفك كما تعرفين نفسك ، وأعرف

---

(١) الثفنة (بكسر الفاء) الركبة . وثافنه : جالسة ركبة لركبة : أي مواجهة .

أنك أختي في الإنسانية وهي الأم الرؤوم[1] التي لا يستطيع أحد من بنيها أن يمت إليها[2] بأكثر مما يمت به إخوته، وما للأخت ملجأ تلجأ إليه في شدتها غير عطف أخيها وحنانه عليها. قالت: ولكنك تعلم أني فتاة مذنبة ساقطة. قال: كل الناس مذنبون آثمون، وإنما تختلف صور الذنوب وأشكالها وأساليب اقترافها. قالت: لم أرَ في حياتي منذ نشأت حتى اليوم عفيفاً قط ابتسم في وجهي! قال: ذلك لأن الناس مراؤون مخادعون يزعمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم. فهم يحتقرون المذنب ويزدرونه، لا لأنهم أطهار أبرياء كما يزعمون، بل ليوهموا الناس أنهم غير مذنبين. ولو أنهم تكاشفوا وتصارحوا وصدق كل منهم صاحبه الحديث عن نفسه لتتاركوا[3] وتهادنوا ولما أخذ أحد منهم أحداً بذنب ولا جريرة!.

وكذلك أصبحت «ميلتزا» العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه فقد وجد بين جنبيها تلك النفس الطاهرة البرية التي طالما نشدها قبل اليوم فأضلها[4] وتطلبها فأعياه طلابها، ووجد في صدرها ذلك القلب المحب المخلص الذي بكاه وندبه ندباً شديداً يوم ماتت أمه، ويوم تولى عنه حنان أبيه؛ وكان يتحدث معها في كل شيء من شئون الحياة دقيقها وجليلها،

---

(١) الرؤوم: العطوف.

(٢) يمت: يتوسل وينتسب.

(٣) لترك كل منهم صاحبه.

(٤) لم يهتد إليها.

ويفضي إليها بكل خبيئة من خبايا نفسه ، إلا ذلك الهم العظيم الذي كان يعالجه في أطواء نفسه وأعماقها ، ويكابد منه ما يقلق مضجعه ويصل ليـله بنهاره . وهو استحالة حال أبيـه [1] وانتقاض قلبه عليه . وانقياده ذلك الانقياد الأعمى إلى تلك الفتاة اليونانية الدخيلة التي لا يعنيها من شأنه سوى أن تتخذ من عاتقه سلماً تصعد عليه إلى سماء المجد . ثم لا تبالي بعد ذلك أن تدفعه بقدمها بعد بلوغ غايتها فيسقط في الهوة التي قدر له أن يهوي فيها ؛ إلا أن ميلتزا الذكية بفطرتها . المتفانية في حبها وإخلاصها . لم يكن يفوتها أن ترى بعين فطنتها وذكائها في تلك الزاوية المظلمة من زوايا قلبه . ذلك الهم الخفي المكتن [2] . وكان يساعدها على فهمه واستكناهه [3] تلك الأحاديث التي كانت تسمعها تدور من حين إلى حين بين القائد وزوجته عندما كانا يمران بها أو يقفان على مقربة منها وهي جالسة تحت بعض الجدران أو في ظلال بعض الأشجار لا يحفلان بها ولا يلقيان لها بالا ، فقد سمعته مرة يقول لها : إنني أحبك يا بازيليد حب المرء نفسه التي بين جنبيه ، ولقد عشت حياتي كلها قانعاً من العيش بتلـك اللذة الوحشية الدموية . القتل والأسر وسفك الدماء وتقطيع الأوصال حتى رأيتك تتطلعين إلى تاج الملك وتشتهين أن تضعيه فوق رأسك فأحببته من أجلك ، وأصبحت لا أقترح على الدهر أمراً سوى

---

(١) استحال : تغير .

(٢) المستور .

(٣) معرفة كنهه وحقيقته .

أن أرى تلك الجبهة اللامعة المضيئة يتلألأ فوقها ذلك التاج المرصع البديع فلا تيأسي منه ولا تقنطي ، واعلمي أني سآتيك به وإن كان كوكباً نائياً في آفاق السماء ، أو درة راسبة في أعماق البحار ، وسمعتها مرة تقول له : ما أجمل وجهك يا برانكومير ، وما أبدع ضياءه ولألاءه ، وما أنصع هذه الشعور البيضاء التي تدور به دورة الهالة بالقمر ! وما أجمل تاج الملك يوم وضع على رأسك فتتحد الأضواء الثلاثة جميعها ويموج بعضها في بعض فتتراءى في أجمل شكل وأبدع منظر ؟ ! إنك ستكون ملكاً يا مولاي ! وستكون أعظم ملوك العالم شأناً وأرفعهم مقامـاً ، وستجتمع فوق عرشك الرفيع الأمجاد الثلاثة : مجد النسب ، ومجد الحروب ، ومجد الملك ، وقد ألقى الكاهن في نفسي كلمته التي تنبأ لي بها ، وما هو بالكاذب ولا المجنون ، فكن على ثقة من صدقه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاج إلا خطوة واحدة ، فأخصها بهمة وعزيمة تبلغ الغاية التي تريد . وسمعتها مرة تقول له : إنني لا أخاف على أملنا أحداً من الناس سوى ولدك قسطنطين ، فقد علمت أمس من بعض أصدقائه أنه ينكر عليك كل الإنكار هذا المسعى الذي تسعاه اليوم ، كما سمعت أنه يثبط الناس عنك ويزحزحهم من حولك ويلقي في قلوبهم اليأس من نجاحك ، ولقد حدثني عنه بعض الناس أن ذاكراً ذكر له مرة ولاية العهد مهنئاً إياه بها ، فغضب واحتد وتغيظ عليه تغيظاً شديداً وقال له : إنني جندي ولدت في ساحة القتال وسأموت فيها ، وإن كلمة كهذه الكلمة المؤثرة يقولها أمير مطاع في الجيش وللشعب كولدك ، لا بد أن تترك أثراً سيئاً في نفوس

الناس جميعاً وتفت في عضد أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سبباً في القضاء على آمالك وأمانيك . ولا أعلم لخطته هذه سبباً سوى ذلك البغض الشديد الذي لا يزال يضمره لي في أعماق قلبه مذ دخلت بيتكم حتى اليوم ، وما أذنبت إليه ذنباً ولا أسلفت عنده جريرة ، فهو يؤثر أن يحرم نفسه وبيته ذلك الشرف العظيم الخالد على أن يراني جالسة على العرش بجانبك أستظل بظل نعمتك وأشاركك في التمتع بمجدك وسلطانك . فقاطعها الأمير وقال لها : لا تصدقي يا بازيليد شيئاً مما يقولون . فقسطنطين أبر بي وأعظم حباً وإخلاصاً من أن يعترض سبيل رغبة يعلم أني أرغبها وأصبو إليها ، ولا أعلم أنه يبغضك أو يضمر لك في نفسه شيئاً من الشر الذي تذكرين ، بل هو يحترمك ويجلك إجلاله إياي ، ويحب لك من الخير ما يحب لي ولنفسه ولا يؤثر على مرضاتنا شيئاً ..

وكذلك ظلت ميلتزا تسمع أمثال هذه الأحاديث فتعلم منها ما يدور بنفسي هذين الشخصين الطامعين . وتعلم أن هذا الذي يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذي يعالجه قسطنطين في أعماق قلبه ويكابده ؛ ولكن لم يخطر ببالها مرة أن تنقل إليه شيئاً مما سمعته ، إعظاماً له وإجلالاً ، وضناً بنفسها وبأدبها أن تفاتحه في أمر لم يشأ هو ان يفاتحها فيه .

التاج

جاء اليوم المعين لاجتماع الجمعية الوطنية للنظر في انتخاب الملك الجديد فنظرت في المسألة نظراً خالصاً مجرداً عن الميل والهوى فرأت أن العدو لا يزال على الأبواب ، وأنه لا يزال قوي الشكيمة صعب المراس ، وأن الوطن يحتاج إلى الأمير برانكومير قائداً أكثر مما يحتاج إليه ملكاً ! وأن الأسقف « أتين أعظم رجال المملكة عقلاً » وأسماهم إدراكاً وأقواهم سلطاناً على نفوس الجيش والشعب ؛ فقررت تقليده ملك البلقان ، وأعلنت قرارها في جميع أنحاء المملكة فقابله الشعب بالرضا والتسليم ، ولم يختلف عليه إلا العدد القليل من أشياع القائد وأنصاره .

ثم أقيمت حفلة التتويج بعد أيام ، فحضرها جميع وجوه المملكة وعيونها ، ورجال السياسة والجيش ، ما عدا القائد برانكومير ، فلم يأخذه الملك بهذه الهنة ، بل أعتبه [1] وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يقنع في أمره بذلك حتى أعلن عزمه على

---

(١) الهنة : الذنب الصغير . وأعتبه : لم يغضب لفعلته واقتصر الأمر بينهما على العتاب يتبعه الرضا .

السفر إلى الحدود لزيارته في قلعته ؛ وما لبث أن سافر في جمع من حاشيته وجنده ، وكانت رسله قد تقدمته لإنباء القائد بمقدمه ، فامتعض لذلك وتمرمر [1] ، وكانت تحدثه نفسه أن يسافر إلى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قدومه ، لولا أن أشارت عليه بازيليد بغير هذا الرأي ، فأذعن لها راغماً ، ونزل لانتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحيّاه الملك حين رآه تحية الإجلال والإعظام وعانقه عناقاً طويلاً ، وقال له : أما الملك الجالس على عرش البلقان وصاحب الأمر والنهي فيه فهو أنت يا برانكومير : أما أنا فإني خادمك الأمين المخلص القائم بتنفيذ أوامرك وتجييش الجيوش لك وإمدادك بما تحتاج إليه من العدة والمؤنة . واعلم أن الأمة لم تضن عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحداً أجدر بهما منك ، ولكنها ضنت بك أنت — وأنت حصنها المنيع ودرعها الواقية — وبطلها الذي لا يغني غناءه في موقعة أحد — أن يشغلك شاغل الملك عن شأنك الذي أنت فيه والذي نصبت له نفسك طوال حياتك ، فآثرت بقاءك في هذه القلعة تحميها وتحمي المملكة بحمايتها ، فإن لم تكن الملك الجالس على عرش « فيدين » فأنت الملك المتبوىء عرش الأفئدة والقلوب ، واعلم أنني ما قدمت إليك مقدمي هذا لأعتذر عندك من ذنب أذنبته إليك ، أو لأتوجع لك من كارثة نزلت بك ؛ لأني أعلم أنك أجل وأرفع من أن تعتبر عبء الملك وهمه نعمة تأسف على فقدها ، بل جئت لأباركك وأمسحك وأدعو لك الله أن يمدك بروح من عنده حتى يتم لنا

---

(١) تمرمر : اهتز هزة الغضب .

على يدك النصر الذي نرجوه لأنفسنا فيأمن البلقان أبد الدهر أن تخفق على ربوعه بعد اليوم راية غير راية المسيح ، أو يرن في أجوائه صوت غير صوت الله .

ثم تقــدم نحوه ووضع يده على رأسه يباركه ويصلي له ، وبرانكومير يتميز غيظاً وحنقاً ، ولكنه يتجلد ويستمسك ، حتّى فرغ الأسقف من شأنه فلم ير بدأ من أن يستقبل حفاوته بمثلها . فمد إليه يده وهنأه بالملك واعتذر إليه من تقصيره في حضور حفلة التتويج . فقبل عذره وقضى بقية يومه عنده هانئاً مغتبطاً لا يرى إلا أنه قد أرضاه ومحا أثر ذلك العتب من نفسه .

ثم عاد بموكبه راضياً مسروراً ، فشيعه القائد إلى ضاحية المدينة ولبث واقفاً مكانه ساعة ينظر إلى ذلك الموكب الفخم العظيم ، ويسمع موسيقاه الشجية الجميلة ، حتّى غاب عن بصره ، فانقلب إلى قصره ثائراً مهتاجاً يصيح ويجأر ويهذي هذيان المحموم ، حتّى بلغ غرفته الخاصة فوقف بجانب نافذة عالية مشرفة على الجماهير الغادية والرائحة في طرقها ومذاهبها ؛ وأنشأ يحدث نفسه ويقول :

تباً لك أيها الشعب الخائن الغادر ، لقد جازيتني شر الجزاء على عملي ، وكفرت بنعمتي التي أسديتها اليك، ويدي التي اتخذتها عندك ، وأيام كنت أسهر لتنام ، وأشقى لتسعد ، وأقضي ليالي الطوال سجيناً في قلعتي لا أبرحها ولا أنتقل منها لأدبر لك أمر الحماية التي تحميك وتصون أرضك وديارك ، وأنت لاه ولاعب ،

هانيء مغتبط ، يمرح عامتك في منازعهم ومسارحهم ليلهم ونهارهم ، ويقيم خاصتك حفلات الرقص والغناء في قصورهم وأنديتهم ، فكان جزائي عندك أن ضننت عليّ بالعرش الذي أنا عماده وملاكه وحامل قوائمه وعمده ، وآثرت به كاهناً مأفوناً [1] لا شأن له في حياته سوى أن يمسح رؤوس الأطفال ويهمهم حول أسرة الموتى ، فبئس ما جررت على نفسك من الويل في فعلتك التي فعلت ، وبئست الساعة التي رأيت فيها هذا الرأي الفائل الخطل [2] ، لقد فللت [3] بيدك سيفك الذي كان يحميك ويصونك وأطفأت جذوة الحماسة في صدر قائدك الذي كان يذود عنك وعن عرضك ، ويحمي أرضك وديارك ؛ فابتغ لك بعد اليوم قائداً يتولى حمايتك وصيانتك ، أو فاطلب إلى أسقفك التقي الصالح الذي توجته بيدك واخترته بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدعواته النصر من آفاق السماء !

وإنه ليردد في موقفه أمثال هذه الكلمات وينفث سموم الحقد والشر على العالم بأجمعه ، اذ دخلت عليه الأميرة باسمة متطلقة تختال في حللها وحلاها ، فأخذت بيده وقالت له : ارفق بنفسك يا برانكومير ، واعلم ان نبوءة الكاهن لا تكذب ولا تخيب ، أبشرك أنك ستكون بعد شهر واحد ملكاً على البلقان ولا تسألني كيف يكون ذلك ! فدهش لأمرها وحاول أن يسألها

(١) المأفون : الضعيف الرأي والأحمق .
(٢) الفائل : الذي يخطىء في فراسته ، والرأي الخطل : الفاسد المضطرب .
(٣) فلت السيف : ثلمت حده .

عن معنى كلمتها ومأتاها فلم تمكنه من ذلك ، لأنها تهافتت عليه [1] واعتنقته ووصعت على فمه قبلة شهية أطفأت بها جذوة حدته وغضبه ثم أفلتت من يده. وعادت أدراجها.

(١) التهافت : السقوط .

المؤامرة

اضطجعت بازيليد في سريرها وجلست خادمتها صوفيا تحت قدميها تروح لها بمروحتها وتحدثها حديث تلك الآمال الحسان التي لا تزال تتراءى لها في يقظتها وتحلم بها في منامها ، وإنهما لكذلك إذ قرع الباب قرعاً خفيفاً ؛ فعرفت صوفيا من القارع وفتحت له ، فإذا « بانكو » الجاسوس التركي متنكراً في زي الموسيقار المسكين ، فدخل وحيّا الأميرة تحية الإجلال والإعظام ، ثم أخذ مقعده الذي كان يقتعده في الغرفة كل ليلة ، وأنشأ يضرب على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القطع التي كان أعدها منذ عهد طويل ليخلب بها لب تلك المرأة ويستهويها حتى أتمها ، فطربت لها طرباً شديداً ، ثم دعت خادمتها فأرسلتها في بعض الشؤون . فلما خلا بها المكان ألقى الموسيقي قيثارته جانباً وخلع عنه رداء التنكر . ثم مشى الى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تم في المسألة يا بازيليد ؟ فقد طال مقامي في هذا البلد وأخشى أن يرتاب بي أحد . وليس في استطاعتي أن أبقى هنا أكثر من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأني .

فاعتدلت في جلستها وقالت له : لقد فاتحت الأمير ليلة أمس

في المسألة وعرضت عليه مقترحك الذي اقترحته ، فأصغى إلى حديثي في مبدأ الأمر ثم لم يلبث أن اكفهر وجهه واكتأب وأبى أن يقبل مني كلمة واحدة في هذا الشأن وظل يقاطعني ويعارضني معارضة شديدة ؛ فلم أشأ أن ألح عليه مخافة أن يرتاد بي وبمقصدي ، وسأستأنف معه الحديث الليلة بعد رجوعه من المعسكر ، وأرجو أن ينتهي بإذعانه وتسليمه ، ولا يفُتك يا سيدي أن من أصعب الأمور على رجل شريف عظيم مثل برانكومير أن يتحول في ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته ، وأن ينقلب فجأة من رجل وطني مخلص يبذل دمه وحياته في سبيل الدفاع عن وطنه والذود عنه ؛ إلى خائن سافل يبيع ذلك الوطن العزيز عليه من أعدائه بعرض تافه من أعراض الحياة ، فلا بد من مهادنته ومؤاتاته[1] وأخذه بالروية والتؤدة .

قال : ليس في الأمر خيانة ولا دناءة ، ولا بيع وطن ولا أمة فإنا لا نريد أن ندخل بلادكم مستعبدين أو مسترقين ، بل أصدقاء مخلصين ، وما خطر ببالنا قط حينما فكرا في افتتاح بلادكم والنزول بها أن نصادركم في حريتكم الدينية والاجتماعية ، أو نسلب أموالكم وننتهك أعراضكم ، أو نغلق أبواب كنائسكم ومعابدكم ، أو نخرس أصوات نواقيسكم وأجراسكم ؛ بل لنكون أعوانكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية ، والسير بكم في طريق المدنية الأدبية والسياسية ؛ حتى تبلغوا الذروة

---

(١) الصبر عليه .

العليا منهما ، ولنحميكم فوق ذلك من أعدائكم المجريين الذين يطمعون في امتلاك بلادكم واغتيالها ، وندفع عنكم شرورهم ومطامعهم ، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الأوفياء من حيث تظنون أننا أعداؤكم وخصومكم .

فابتسمت بازيليد ابتسامة الهزء والسخرية ، ونظرت إليه نظرة عتب وتأنيب وقالت له : إن برانكومير يا صديقي ليس. موجوداً معنا لنخدعه بأمثال هذه الأساليب الكاذبة ، أما أنا فاني لا أنخدع بها ولا أغتر ، لأني أعلم كما تعلم أنت وكما يعلم الساسة الكاذبون جميعاً أن الفاتحين من عهد آدم إلى اليوم وإلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، لا يفتحون البلاد للبلاد بل لأنفسهم ولا يمتلكونها لرفع شأنها وإصلاح حالها والأخذ بيدها في طريق الرقي والكمال كما تقول ، بل لامتصاص دمها وأكل لحمها وعرق عظمها[1] وقتل جميع موارد الحياة فيها ، والأمة إن لم تتول إصلاح شأنها بنفسها لا تصلحها أمة أخرى ، مهما حسنت نيتها ونبل مقصدها ؛ والصلاح إن لم ينبت في تربة الأمة نفسها ويزهر في جوها ويأتلف مع مزاج أفرادها وطبيعتهم لا ينفعها ولا يجدي عليها ، ويكون مثله مثل الزهرة التي تنقل من مغرسها إلى مغرس آخر ، فهي تزهر فيه أياماً قلائل ثم لا تلبث أن تذبل وتذوى .

فإن وجد بين أولئك الطامعين من يذهب في سياسته

---

(١) عرق العظم : أكل ما عليه من اللحم .

الاستعمارية مذهب الإصلاح والتشييد . فكما يسمن صاحب الشاة شاته ليذبحها ويأكلها، وكما يتعهد صاحب المزرعة مزرعته بالري والتسميد ليستكثر غلتها وثمراتها .

أما الحرية الدينية التي تريدون أن تمنوا بها علينا فما أهونها عليكم ما دامت لا تعطل لكم غرضاً ، ولا تقف لكم في سبيل مطمع ، وقديماً كان الفاتحون يخدعون الشعوب الجاهلة بإرضائها في شؤون دينها ليسلبوا شؤون دنياها ويوجهون نظرها إلى الشؤون الروحية الخالصة ، ليقطعوا عليها طريق النظر في الشؤون المادية الحيوية ، فكان مثلهم في ذلك مثل اللص الذي يدس لمن يريد سرقته مادة مخدرة في طعامه لا تكلفه إلا ثمناً يسيراً ليستولي على الجم الكثير من دنانيره ودراهمه ، على أن القوة الدينية في الأمة أثر من آثار القوة السياسية فإذا ضعف أمر الأمة في سياستها ضعف أمرها مع الأيام في دينها ، ولا بقاء لدين من الأديان يعيش تحت سلطان دين آخر ويستظل برايته ، إلا كما يبقى الثلج تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومن ظن غير ذلك فعلى عقله العفاء !

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدو سواكم فاحمونا من أنفسكم قبل أن تحمونا من غيركم ، وهب أن المجريين أعداؤنا كما تقولون ، فهل يطمعون في شيء أكثر مما تطمعون فيه أنتم ؟ وهل يحاولون منا غير هذا الفتح الذي تحاولونه اليوم؟ وهل من الرأي أن يهب الإنسان متاعه رجلاً مخافة أن يغلبه عليه رجل آخر ؟ أو أن يذبح نفسه بيده فراراً من ذابح يريد أن يذبحه ؟

إنكم ما جئتم هنا لتحمونا من أعدائنا ، بل لتحتموا بنا من أعدائكم لأنكم إنما أردتم بامتلاك هذه البلاد واستعمارها أن تتخذوا من حصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحهم وقاية لكم تتقون بها زحف المجريين عليكم وعدوانهم على أرضكم .

هذه هي الحقيقة التي لا ريب فيها ، فإن كنت تريد بما قلته أن تعلمني ما ألقنه لذلك الرجل الذي اتفقنا على خداعه وختله ؛ فإنني أحفظ كثيراً من أمثال هذه الرقى والتعاويذ ، فلا حاجة بي إلى سماعها منك ، فلنعمل في المسألة معاً متكاشفين متصارحين : ولتعلم أن الذي أسعى لإعطائك إياه وتسليمك زمانه إنما هو الوطن بأجمعه : أرضه وسماؤه ، وبره وبحره وخيراته وثمراته ، وحرية أهله وسعادتهم ، وأن الثمن الذي أتقاضاه في سبيل ذلك ثمن بخس ضئيل لا يزيد عن كرسي من الخشب مموه بالذهب يسميه الجهلاء عرشاً وهو في البلد المغلوب على أمره المسلوب حريته واستقلاله سجن ضيق ، لولا خدع الحياة وأكاذيبها لما استطاع الجالس عليه أن يهدأ ساعة واحدة ، فأنا أبيعك هذا الوطن الثمين وآخذ منك ذلك الكرسي الحقير ، وأنا عالمة قيمة ما أعطي وقيمة ما آخذ ، فلا تحسب أنك تخدعني أو تداهنني[1] في هذه الصفقة ، وأقسم لك بشرفي وشرف « بيزنطة » لو كان هذا الوطن وطني وكانت تربته مدفن آبائي وأجدادي لما بعتك ذرة واحدة من ترابه بجميع عروش الأرض وتيجانها .

---

(١) تنشى .

فاصفر الجاسوس واربد وجهه وقال : إننا ما اجتمعنا هنا لتفسير معنى الفتوح والاستعمار . بل لأعرض على روجلك هذا العهد السلطاني بتقليده ملك البلقان وإلباسه تاجه إن هو تمكن من إخلاء التخوم[1] من حراسها وسهل لجيشنا اجتيازها ، فإن قبل فذاك أو لا عدت بعد ثلاثة أيام إلى مركز الجيش ورفعت الأمر إلى سلطاني وقائدي وعادت الحرب إلى شأنها الأول أو أشد ، ولا يعلم إلا الله متى تنتهي وماذا تكون عاقبتها ؟

فتناولت منه العهد وقالت له : سنلتقي بعد ليلتين أو ثلاث وسأخبرك بما تم عليه الاتفاق .

فقام إلى مكانه الأول وأخذ يضرب على قيثارته بعض الأناشيد الدينية ، وما هي إلا لحظة حتى عادت الوصيفة ، وكان الليل قد انتصف فاستأذن للانصراف وانصرف .

---

(١) التخوم : الحدود .

الأمل

الحب شقاء كله . وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون بلا أمل ولا رجاء ! .

إنهم يذرفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها في أرض قاحلة جدباء لا تنبت لهم راحة ولا سعادة . ويسهرون لياليهم وهم يعتقدون أن ظلمتها لا تنحسر عن فجر منير أو صبح سعيد . ويطرقون برءوسهم في خلواتهم لا ليفكروا متى تنتهي أيام شقائهم أو تبتدىء أيام سعادتهم فحياتهم كلها شقاء لا فرق بين أمسها وغدها وحاضرها ومستقبلها ، بل ليفكروا متى يرحلون عن هذه الدار ليستريحوا من آلامها وهمومها فإن كان لا بد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقي في هذه الأرض ، فلنذرفها على والد ثكل ولده في ريعان شبابه أحب ما كان إليه ، وألصق ما كان بقلبه ، من حيث لا أمل له في رجعته ولا رجاء في لقائه ، أو عاشق علم في ساعة ما كان يتوقعها أن حبيبته قد تزوجت من غيره وأنها ستسافر اليوم أو غداً إلى وطن ناء لا رجعة لها منه أبد الدهر فوقف أمامها يودعها وداعاً لا يقول لها فيه : إلى الغد أو إلى الملتقى ، ولا يأخذ عليها فيه عهداً أو ميثاقاً ؛ بل يصمت

صمتاً تذوب في كبده القريحة ذوباً ، حتى إذا غابت عن بصره وانقطع آخر آثارها رجع أدراجه وهو يعلم أن لا نصيب له في العيش بعد اليوم ، وأن هذا آخر عهده بالحياة — أو فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يعلق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدللين بأنفسهم ومكانتهم . فلا تستطيع الصعود إليه في سمائه : وليس من شأن مثله أن يهبط إليها في أرضها . فهي تبكيه ولا يشعر ببكائها وتهتف باسمه ليلها ونهارها ولا يسمع نداءها ، ولا يزال هذا شأنها حتى يوافيها أجلها فيريحها .

كذلك كان شأن ميلتزا . فإنها أحبت سيدها حب العابد إلهه المعبود . وافتتنت به افتتاناً كانت تحسبه في مبدإ أمرها عاطفة ولاء وإخلاص . فإذا هو لوعة الحب وحرقة الغرام ، ولكن أنى لها وهي الفتاة النورية الساقطة المسكينة أن يمتد بها مطمعها إلى ذلك الكوكب النائي في سمائه أو أن تمت إليه بسبب من تلك الأسباب التي يمت بها الناس بعضهم إلى بعض ، فكانت وهي أقرب الناس إليه أبعد الناس عنه وأنآهم من مكانه ، لا تستطيع أن تتجاوز في موقفها معه منزلة الخادم من المخدوم والسيد من المسود والصنيعة من صاحب النعمة .

وكان يقلقها أشد القلق ويكاد يذيبها حياء وخجلاً خوفها أن يطلع منها على سريرة نفسها ، أو أن يعثر يوماً من الأيام بتلك اللوعة المتأججة في صدرها . فيتهمها في عقلها ويسخر بينه وبين نفسه بتصوراتها وآمالها[1] ، فكانت تفر من نظراته كلما وقعت

(١) الفصيح أن يقال : سخر منه ، واستهزأ به .

عليها حتى لا يرى في عينيها أثر الدمع ولا حمرة السهر . وتهرب من الخلوة به جهدها حتى لا يرتاب في اصفرار وجهها واضطراب أوصالها وذهول عقلها ولجلجة لسانها أي أنها كانت محرومة كل شيء حتى اللذة الضئيلة التي يتمتعَ بها أقل المحبين حظاً وأخيبهم في الحب سهماً وهي الإفضاء بمكنون صدرها إلى ذلك الذي تحبه وتعبده ، وكان كل ما يعرف قسطنطين من شأنها أنها فتاة مخلصة وفية تحبه حب العبد الشكور لسيده المنعم ؛ وكان يجد من بلاهتها وسذاجتها وطهارة قلبها ونقائه وصدق لسانها وإخلاص قلبها ملهاة يتلهى بها عن همومه وأحزانه . ومتكأ يتكيء عليه في ساعات إعيائه ونصبه ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، فكانت إذا جن الليل وأخذت الجنوب مضاجعها جلست في فراشها تساهر الكوكب وتطالعه وتزفر زفرات حرى موجعة ، وهي لا تعلم ماذا تشكو ، ولِمَ تبكي ! لأنها لا تعرف لها غرضاً ولا غاية .

ولو استطاعت أن تفهم من شئون نفسها ما يفهم الناس من شئون نفوسهم لعرفت أنها إنما تبكي على أن ليس لها في الحياة . كما للناس ، أمل ولا رجاء .

هذا هو الحب الطاهر البريء الذي لا تشوبه الأغراض والغايات ؛ ولا تحيط به الريب والشكوك . والذي طالما نشده الناس في كل مكان فأضلوه ، وذابت قلوبهم حسرة عليه فلم يجدوه ، وأي سعادة في الدنيا أعظم من سعادة نفس تجد بين يديها نفساً طاهرة مخلصة تحبها وتعبدها ، وتمتزج بها امتزاج الماء بالخمر . والأريج بالزهر ؟ ولقد ظفر قسطنطين من تلك

الفتاة بهذه النفس المخلصة المتبعدة التي تحزن لحزنه وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه . وترضى لرضاه . ولا تعرف لها وجوداً منفصلاً عن وجوده . ولا حياة مستقلة عن حياته . فكانت منه بمنزلة المرآة من الوجه : تقطب إذا قطب ، وتبتسم إذا ابتسم . وتطير فرحاً وسروراً بانتصاراته . وتذهب كمداً وحزناً لآلامه وأحزانه . وتحب أباه حبه إياه . وتنفر من زوج أبيه نفوره منها وهو إن لم يكن يفاتحها في شأن من شئونه الخاصة ، ولا يفضي إليها بسر من أسرار بيته وعلائق بعض أفراده ببعض . إلا أنها كانت تشعر أن تلك المرأة اليونانية الدخيلة خطر عظيم على الوالد والولد . بل على الأمة بأسرها . وكان شعورها هذا يقودها إلى مراقبتها وملاحقتها في كل مكان وترصد حركاتها وسكناتها علها تهجم منها على ذلك السر الهائل تتوهمه توهماً ، ولا تعرفه ، فتكشفه وتمزق عنه الستار . حتى واتاها القدر يوماً من الأيام فعثرت به ...

السر

رجع قسطنطين من بعض غزواته . فدخل على ميلتزا فرآها مطرقة واجمة ، فلم يلق لها بالاً وخلع رداءه ، ثم جلس على كرسيه جلسة الراحة والسكون ، وإنه لكذلك إذ طرق مسمعه صوت تلك القيثارة البديعة التي كان يسمعها من حين إلى حين تصدح في قصر أبيه . فطرب لها طرباً شديداً ، وافتر ثغره بعد عبوسه ، ثم نظر إلى ميلتزا ، وهي جالسة تحت قدميه ، فرآها مصفرة مغبرة الوجه ذاهلة ، كأنه نكبة من النكبات العظام قد نزلت بها . فعجب لأمرها ، وقال لها : ألا تطربين معي يا ميلتزا لهذه النغمات الشجية البديعة ؟! فرفعت رأسها إليه ، وكأن دمعة لامعة تترقرق في عينيها ، وقالت له : لا يا مولاي ! فدهش لقولها وقال : ولِمَ ؟ قالت : لأني لا أحبهـا ! قال : ولمَ لا تحبينها ؟ قالت : لأني لا أحب صاحبها . قال : وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجل البائس المسكين الذي يختلف إلى الأميرة من حين إلى حين ليسمعها أناشيد قومها وأغانيهم فتعود عليه ببعض نوالها ؟ قالت : إنه ليس بسائل يا سيدي ولا مسكين ، بل هو الضابط العظيم إبراهيم بك أحد قواد الجيش التركي ؛

فانتفض قسطنطين مذعوراً واستوى في مكانه جالساً وقال : ماذا تقولين ؟ قالت : إني كنت مخدوعة به قبل اليوم ؛ حتى رأيته ليلة أمس واقفاً تحت شجرة وارفة من أشجار الحديقة يصلي صلاة المسلمين مطرقاً خاشعاً مستقبلاً قبلتهم . فارتبت في أمره . ثم دنوت منه وأنعمت النظر في وجهه من حيث لا يشعر بمكاني . فعرفته وذكرت أنه ذلك البطل العظيم الذي كنت أراه في معسكر الجيش التركي لا يزال مرافقاً للقائد الكبير يسير في ركابه حيث سار ويتنقل معه في غدواته وروحاته ؛ وإن غابت عني معرفته فلن تغيب عني معرفة تلك الشجة الهلالية الواضحة في جبينه ، وذلك الخال الأسود المرتسم تحت عينه اليسرى ، بل أعرفه من تلك النغمات الشجية التي يغنيها الآن ...

وهنا توقفت عن الكلام . واضطربت . وكأن كلمة حائرة تختلج بين شفتيها . فعجب قسطنطين لأمرها وسألها ما بالها ؟ فأطرقت هنيهة . ثم رفعت رأسها فإذا دمعة تنحدر على خدها ؛ واستمرت في حديثها تقول : نعم . إنني أعرفه من تلك النغمات التي كان يدعوني إلى الرقص عليها في خيمته في المعسكر ؛ وهو جالس بين صحبه وخلانه من قواد الجيش ورؤسائه . يغنيهم ويطربهم ، فأرقص أمامهم رقص الطائر المذبوح وفؤادي يتمزق لوعة وأسى . لا أهن ولا أفتر ولا أستعفي ولا أعتذر ، مخافة أن يرى سيدي الجندي ذلك مني فيعاقبني ، فقد كان يحاسبني على الضعف والعجز والحياء والخجل والتلوم[1] والاحتشام ؛

(١) التلوم : البطء .

محاسبة القاضي المجرمين على الذنوب والآثام . فاعذرني يا سيدي إن بكيت لحظة بين يديك . فإنـــي وإن كنت ولدت في مهد الشقاء ، ونشأت فيّ حجر البؤس والآلام . فقد كانت تلك الأيام التي قضيتها في ذلك المعسكر أو في بؤرة السقوط والعار . أشقى أيامي وأعظمها شدّة وبؤساً . لا أذكرها إلا بكيت لذكراها وأسبلت ردائي على وجهي حياء منها وخجلاً

على أنني أحمد الله إليك ، فقد بسطت إليّ يـــد رحمتك وإحسانك . واستنقذتني من مخالب ذلك الشقاء أيأس ما كنت من الخلاص منه . أحسن الله إليك وهون عليك همومك وآلامك .

وكانت تتكلم وقسطنطين لاه عنها بقصة ذلك الجاسوس ، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله . ثم التفت وقال لها : إذن هو جاسوس متنكر ! قالت : ذلك ما أعتقده يا مولاي ولا أرتاب فيه . فظل يدور في الغرفة دورة الهائم المختبل[1] لا يهدأ ولا يتريث ، وظل على ذلك ساعة ثم انقض بغتة على ردائه فاختطفه وخرج من الغرفة مسرعاً ، فأدركته ميلتزا وتعلقت بأطراف ثوبه وقالت له : أين تريد يا مولاي ؟ قال : أريد أن أقبض على ذلك الجاسوس المجرم وأرفع أمره إلى الأمير ليرى رأيه فيه ، قالت : إن القيثارة قد انقطع صوتها . ولا بد أن يكون قد ذهب لسبيله . فدعه وشأنه ، قال : لا بد لي من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، قالت أضرع إليك يا سيدي أن تملك

---

(١) المختبل : الذي ذهب عقله .

نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أتمم لك بقية حديثي . فجمد في مكانه وقال لها : ماذا عندك بعد ذلك ؟ قالت : إن كنت تريد أن ترفع أمر الرجل الى أبيك ليعرف حقيقته فاعلم أنه يعرفه حق المعرفة . بل هو أعلم به مني ومنك ! فثار ثائره وصرخ في وجهها قائلاً : ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ وجرد سيفه من غمده وأهوى به عليها ، فاستخذت له[1] ومدت إليه عنقها وقالت : اضرب يا مولاي . فدمي حلال لك ، وإن شئت فاستمع مني كلمة واحدة قبل أن تفعل . فإن شرفك وشرف بيتك رهن بما أقول ! فجمد السيف في يده وظل شاخصاً إليها ينتظر كلمتها . فقالت : نعم . قد تم الاتفاق بين أبيك وزوجته وذلك الجاسوس التركي على أن يخلي أبوك تخوم المملكة من حراسها هذه الليلة ، لتتمكن الجيوش التركية من اجتيازها ، فإن فعل أصبح في الغد سيد البلقان ومليكها ، قال : ومن أين لك علم ذلك ؟ قالت : قد سمعت الحديث الذي دار بينهم في هذا الشأن ، ورأيت ورقة منشورة بين أيديهم يقرأونها ويتداولونها وما أحسبها إلا وثيقة العهد الذي تعاهدوا عليه ؛ فإن كنت لا تزال في ريب من ذلك فدونك الغرفة المجاورة لغرفة الأميرة فادخلها برفق وهدوء ودع أذنك على خصاص[2] الباب المغلق بينهما ، كما صنعت أنا منذ ساعة . تسمع ما يتحدثون به ولك حكمك بعد ذلك .

فشعر قسطنطين أن الأرض والفضاء تدور به ، وأن الشمس

---

(١) استخذى : خضع

(١) ثقب الباب .

قد لبست قناعها الأسود فما يرى شعاعاً من أشعتها . وأن فرائصه ترتعد وتصطك فما تكاد تحمله فتراجع الى جدار قائم وراءه فأسند ظهره إليه حتى هدأ قليلاً ، ثم مشى يتحامل على نفسه حتى دخل الغرفة التي وصفتها ميلتزا . ومشى إلى الباب الموصد بين الغرفتين ووقف بجانبه يتسمع فلم يسمع شيئاً ، حتى ظن أن الغرفة خالية ، ثم سمع صوت أبيه فانتبه وتجمع للاصغاء . فإذا هو يقول لزوجته بصوت خافت متهدج[1] : هل سافر الرجل؟ قالت : نعم يا سيدي ! وما أحسب إلا أنه تجاوز أطراف التخوم الساعة . فإن جواده أفره الجياد[2] وأسرعها . فصمت ولم يقل شيئاً . فدنت منه وقالت له بنغمة حلوة ساحرة : ما هذا الاصفرار الذي يكسو وجهك يا ميشيل؟ وما هذه الكآبة السوداء التي تتدجى في عينيك[3] ؟ فهل أنت نادم على ما كان؟ قال : لا . ولكنني أخشى الفشل[4] قالت : لا أعرف للفشل باباً يمكنه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فإن كان كل ما يعنيك من الأمر ألا تظهر يدك في هذا العمل فقم الساعة والبس ثياب أحد الحراس واذهب إلى مكان الحارس الأول القائم على حراسة الرابية الأولى وارقبه حتى تأتي ساعة انصرافه واستبداله فأظهر له كأنك الحارس الذي يخلفه في مكانه واهتف له بكلمة السر التي بثثتها بين جنودك وحراس المداولة

---

(١) صوت متهدج : متقطع مرتعش .

(٢) أكرم الجياد .

(٣) الدجى : الظلام . ويتدجى : يظلم .

(٤) يريد من معنى الفشل هنا : الإخفاق والخيبة .

كثيرون لا يكاد يعرف بعضهم بعضاً ـ فإذا انصرف لشأنه أخذت مكانه من حيث لا يعلم من أمرك شيئاً ، حتى إذا رأيت الجيش التركي مقبلاً في منتصف الليل ، وعلمت أنه قد أشرف على التخوم وملك رأس الطريق إلى «فيدين» عدت أدراجك إلى القصر متنكراً كما ذهبت لم يشعر بك أحد في ذهابك أو إيابك ، وكأننا قد فوجئنا بهذه النازلة مفاجأة لا نملك معها للأمر دفعاً ولا رداً .

فطارت نفس قسطنطين شعاعاً [1] عند سماع هذه الكلمات ، وكاد يصرخ صرخة عظمى يرتج بها القصر وأرجاؤه ، لولا أنه طمع في أن يسمع من أبيه كلمة شرف وإباء تهدم صرح تلك الخيانة الذي تبنيه يد زوجته . فأرهف أذنيه ليسمع جوابه . فسمعه يقول بنغمة الفارح المغتبط ، بعد كلام كثير لم يفهمه : نعم . هذا هو الرأي السديد ، ولقد أمنت الآن كل شيء . ائتيني بلباس الحارس ، فقد عزمت ولا مرد عزمي ؛ فتهافتت على عنقه وقبلته قبلة طويلة رن صوتها في أرجاء الغرفة ، ثم ذهبت لشأنها .

فما سمع قسطنطين هذه الكلمة حتى أظلمت عيناه ، واكفهر وجهه ، وتداركت ضربات قلبه ، وحاول أن يصيح فخانه صوته ، فسقط مغشياً عليه . ولكن بين ذراعي ميلتزا . لأنها كانت واقفة وراءه ترصده من حيث لا يشعر بمكانها ، حتى إذا هوى تلقته بين ذراعيها وقادته إلى غرفتها .

---

(١) يقال : طارت نفسه شعاعاً أي تفرقت قطعاً ، كأنما تبعثرت خواطره طائرة فلا يكاد يجتمع رأيه في أمر .

الجريمة

جثم الليل في مجثمه ونشر أجنحته السوداء على الكون بأجمعه ، فهجع تحت ظلالها الأحياء جميعاً من بشر وحيوان ، ولم يبق ساهراً وسط هذا السكون المخيم إلا عينا القائد برانكومير في شعب تراجان يديرهما ها هنا وها هنا ، فينظر بهما تارة أمامه وأخرى وراءه ، ليرى هل يرصده أحد أو يتأثر حركاته وأعماله ؟ ويقلبهما أحياناً في صفحة السماء فيرى عيون النجوم محدقة فيه ، فيخيل إليه أنها عيون الله ناظرة إليه نظرات الوعيد والتهديد ، وكأن صائحاً يصيح به من جوانب الملأ الأعلى : اصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن ، واكتم عملك عن عيون الناس جميعاً ، فإني ناظر إليك ومسجل عليك هذه الجناية العظمى التي تجنيها على وطنك وقومك ، فيتضاءل ويتصاغر ويمر بخاطره قول أمه له في عهد طفولته فيما كانت تمليه عليه من آداب الحكماء وأقوالهم : « إن كواكب السماء ونجومها تشهد بين يدي الله على جميع جرائم البشر التي ليس لها شهود ! » ثم لا يلبث أن يسري عن نفسه ويذهب به خياله إلى الملك وعرشه وتاجه وصولجانه ، وعزه ومجده . ثم يلقي نظرة عامة على الجبال المحيطة به والسهول المنبسطة

من حوله ، والأنهار المائجة بأشعة النجوم ولألأئها . فيقول : غداً تصبح هذه الجزيرة كلها جزيرتي ، وأهلها خدمي وحشمي يأتمرون بأمري ، ويذعنون لقوتي وسلطاني وغداً يتلألأ التاج على جبين بازيليد ، فتصبح أسعد نساء العالم أجمع . وأصبح بسعادتها أسعد رجاله . ثم يخيل إليه كأنه يرى بازيليد ماثلة بين يديه تنظر إليه نظراتها الساحرة الفاتنة . فيمد ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلاً :

إنني لا أزال على العهد الذي عاهدتك عليك مذ فارقتك حتى الساعة ، لم أندم ، ولم أتردد ، ولا مرّ بخاطري أن أحفل بشيء في العالم سوى أن أنيلك البغية التي تبتغينها .

إن القبلة التي وضعتها على شفتي منذ ساعة قد اثلجت صدري واسكنت جميع مخاوفي ووساوسي ، فأنا أقدم على الجريمة إقدام الهادىء المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أفكر في نتائجها ، بل لا أشعر أنها جريمة يخفق لها قلبي خفقة الأسف والندم .

لقد أقسمت لك على الوفاء بالعهد ، ولا بد لي من أن أبرر بقسمي ، ولو كنت أقسمت لك على حرمان نفسي منك — وأنت الحياة التي لا حياة لي بدونها — لاستحييتك أن أحنث في قسمي أو أن أخيس بعهدي [1] .

أقسمت لك أن أخون وطني وها أنذا أخونه كما أردت راضياً

---

(١) خاس بعهده يخيس : غدر ونكث .

مستسلماً لا أندبه ، ولا أرثى له فرضاك هو الوطن كله ، بل هو الدنيا بأجمعها ، فليذهب الوطن كله وليفن العالم بأسره ، فأنت لي كل شيء فيهما .

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث ، وهو جالس على رابية مرتفعة في شعب « تراجان » تحت القوس الروماني بجانب هضبة عالية من الحطب أعدت للاحراق إنذاراً للجيش بالعدو عند زحفه ، وكانت الهضبات المحيطة بتلك الرابية المبعثرة من حولها سوداء قاتمة تتراءى في ظلمة الليل ووحشته في صور وحوش مخيفة هائلة فاغرة أفواهها أو مقعية على أذنابها [1] أو متوثبة للهجوم فلا يقع نظره عليها حتى يطير قلبه شعاعاً ، فيسرع إلى الاغتماض فلا يفارقه خيالها إلا بعد حين .

وما كان الرجل جباناً ولا رعديداً ، فهو بطل البلقان وحاميه وسيد من أنجبت به ميادين قتاله وساحات نزاله ... ولكنها الجريمة تنتزع قلب المجرم من جنبيه ، وتغشى على عينيه البصيرتين فيصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى ما لا يرى الناس ويخشى ما لا يخشونه ، فهو لا يخاف الوحوش والهوام [2] والجن والشياطين والصخور والأحجار ، بل يخاف جرائمه وآثامه ! .

وإنه لكذلك إذ خيل إليه أن إحداها تتحرك من مكانها وتتحلحل

---

(٢) مقعية على أذنابها : جالسة مثل جلوس الكلاب .

(١) الهوام : دواب الأرض كالحيات ونحوها .

تخلحل اللبث المتوثب[1] فاستطير قلبه فرقاً ورعباً . وحاول أن يتهم نظره ويسمريب به ، فلم يستطع لأنه ما لبث أن رأى في ذروة تلك الهضبة رأساً يتحرك وينظر إليه بعينين متقدتين ؛ فصرخ صرخة الكلب الجبان الذي ينبح للشبح المقبل نحوه ؛ لا جرأة وإقداماً ، بل جبناً وفرقاً ، وقال : من هناك ؟ فانحدر الشبح إليه من أعلى الهضبة ، وقال له بصوت خشن اجش : لا ترتع يا أبت ،[2] فأنا ولدك قسطنطين ؛ فوثب من مكانه وثبة الملسوع . وقال له بصوت متهدج مختنق : ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ومن أنبأك أني في هذا المكان ؟ قال له : وأنت ما الذي جاءبك إلى هنا يا أبت وماذا تريد أن تفعل ؟ إنني أسألك عن مثل ما تسألني عنه ! فأسقط في يده[3] وطار طائر عقله ، وأحس بالخطر المقبل ، إلا أنه تجلد واستمسك وقال بلهجة الآمر المسيطر : وما سؤالك عن مثل هذا أيها الفتى الجريء ؟ وما شأنك بي ، وبما أفعل ؟ وكيف فارقت حصنك في هـــذه الساعة من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟[4] قال : لم أستأذن في ذلك أحداً غير واجبي إنني أعلم كل شيء يا أبت ، وأعلم أنك ما جئت إلى هذا المكان إلا لترتكب أفظع جريمة يرتكبها إنسان في العالم ! فصاح برانكومير ، وهو يتميز غيظاً وحنقاً[5] : كذبت أيها الغلام الوقح واجترأت على

---

(١) تخلحل : تحرك للانتقال من موضعه .
(٢) ارتاع يرتاع : خاف . لا ترتع : لا تخف .
(٣) أسقط في يده : تحير فلم يدر ماذا يفعل .
(٤) الفصيح : ومن أذن لك في ذلك .
(٥) يتميز غيظاً : ينقطع من الغيظ .

ما لم يجترىء عليه أحد من قبلك؟ عد الآن إلى حصنك ، ولا تبقَ بعد صدوري أمري إليك لحظة واحدة ، فإن حاولتني في ذلك فأنت أعلم بمـا يكون ، إنك لا تفهم شيئاً من أسراري وحويصات نفسي[1]

وليس لك أن تسألني عنها لأنك جندي والجندي لا يسأل قائده ، بل يأتمر بأمره ولو كان الموت الزؤام ، عد إلى مخفرك وتولى حراسته بنفسك ، ولا تأذن لجفنك بالغمض لحظة واحدة . وسأحدثك غداً في هذا الشأن حديثاً طويلاً تعلم منه كل شيء .

فتضعضع قسطنطين أمام هذه اللهجة الرزينة الهادئة ، وجثا على ركبتيه بين يديه[2] وقال له : عفواً يا أبت ، لقد أخطأت في سوء ظني بك ، فأنت أشرف من أن تضع نفسك حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التي قلتها للأميرة منذ حين في تلك الخلوة الرهيبة ، إلا كلمة مزح ودعابة أردت بها مداراتها وملاينتها ، أو الهزء والسخرية بها ، حتى إذا فصلت عنك وخلا بك مكانك محوت بظهر يدك عن فمك تلك القبلة الأثيمة التي ختمت بها ذلك العهد الأثيم ، ثم قلت لها في نفسك : إنني قد عاهدت الله أيتها المرأة البلهاء قبل أن أعاهدك أن أكون أميناً لوطني وفياً له ، فلا أحفل بعهد غير هذا العهد ، ولا بيمين غير تلك اليمين .

---

(١) الحويصة : تصغير الخاصة ؛ يعني خصائصه الدقيقة .

(٢) جثا يجثو : جلس بين يدي من هو أعلى منه جلسة التضرع والاسترحام .

ثم خفت أن تكون قد استرابت بك[1] أو مرت بخاطرها خلجة شك في أمرك فأخذت للأمر حيطتها من طريقك ، فجئت بنفسك لتتولى حراسة التخوم وحمايتها ، حتى إذا شعرت بسواد الجيش التركي مقبلاً أشعلت النيران إنذاراً لجيشك بالخطر الداهم وخيبت آمال أعدائك فيما يكيدون لك ولقومك .

أليس كذلك يا أبت ؟ نعم . إنه كذلك بلا شك ولا ريب ، فأشعل النار الآن ودعها تسطع في هذا الفضاء الواسع ، وتبدد بلألائها هذه الظلمات المتكاثفة ، فإني أشعر بسواد مقبل من بعيد يتقدم شيئاً فشيئاً . وما أحسبه إلا فيالق العدو وجيوشه . انظر يا أبت واخترق بنظرك هذا الفضاء الشاسع ، ألا ترى تحت خط الأفق أشباحاً تتحرك وتتقدم ؟ إنه ليخيل إلي أنها أعلام الجيوش التركية تخفق في أجوائها ، وربما لا تمضي ساعة أو بعض ساعة حتى تكون قد وصلت إلى هنا !.

أسرع بإشعال النار أو عد أنت إلى قصرك وخذ لنفسك راحتها فيه ودعني أتولى عنك إشعالها ، فالخطر موشك أن يقع ! ما من ذلك بد ! !

مالي أراك جامداً يا أبت ؟ وما هذا الذهول الذي يتولاك ؟ أشعل النار أو تنح عن طريقي لأشعلها .. أشعلها فالوقت ضيق من التأمل والتفكير !.

---

(١) داخلتها الريبة

فرفع برانكومير رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له : إذن أنت تتهمني يا قسطنطين وترتاب بي ! ما أشقاني وأسوأ حظي ! ولدي وفلذة كبدي ووارث اسمي ولقبي يتهمني ويتجسّس عليّ ويقف وراء الأبواب ينظر من خصائصها [1] ليسمع ما يدور بيني وبين زوجي في خلوتي ! فياللعار ويا للشقاء ! أيها الولد العاق المسكين ! اذهب لشأنك فإني أريد أن أبقى هنا الليلة وحدي ! ولا تجازف بمخالفة أمر قائد تعود أن يأمر فيطاع . وليس من شأن مثله أن يصبر لحظة واحدة على مخالفة أمره . إنني سأبقى هنا وحدي وسأشعل النار بنفسي عندما أريد إشعالها ؛ فلا حاجة بي إلى مشورتك ومعونتك ، عد أدراجك إلى حصنك ولا تضف إلى جريمة التجسس على أبيك جريمة معاندته ومخالفة أمره ؛ واعلم أنك الآن جندي أمام قائده . لا ولد بين يدي أبيه .

فأن قسطنطين وتأوه آهة طويلة وقال : وارحمتاه لي ولك يا أبت ! الأمر صحيح لا ريب فيه ، والجريمـة على وشك الوقوع [2] .

ثم صمت صمتاً طويلاً لا تطرف له فيه عين ؛ ولا تنبعث له جارحة ثم انتفض فجأة وصاح بلهجة شديدة صارمة : أبي ، إنني سأبقى هنا .

فدهش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أراني الآن إلا

---

(١) ثقوبها .
(٢) الأفصح أن يقال : والجريمة توشك أن تقع .

أمام عدو لدود لا ولد بار مطيع . قال : لا يا أبت ؛ بل أمام ولد بار مطيع ولولا ذلك ما جشمت نفسي مشقة المجيء إليك في هذه الساعة من الليل ، ولا وقفت أمامك هذا الموقف الخطر المميت ، إنني لم أفعل ذلك من أجل نفسي ، بل من أجلك ومن أجل شرفك . إنني أحبك كما أحب وطني وما على وجه الأرض شيء أحب إليّ منكما . وكما أتمنى له أن يعيش حراً مستقلاً ، أتمنى لك أن تعيش شريفاً عظيماً ، فإذا ضاع وطني وكان ضياعه على يدك أنت فقدت في ساعة واحدة جميع ما أحب في هذه الحياة ، فارحم ولدك المسكين الذي لا يزال يضمر لك في قلبه حتى الساعة ذلك الحب القديم الذي تعرفه ، واستبق له تلك السعادة التي لم يبق له في الحياة سعادة غيرها ، تنح قليلاً عن طريقي وأذن لي أن أصل إلى هذه الرابية لأشعل نارها فيراها حراس الروابي جميعاً فيشعلوا نيرانهم فينهض الجيش للدفاع عن الوطن ، فقد أزفت الساعة ولم يبق سبيلٌ للأناة والتفكير .

ثم اندفع إلى مكان الرابية مسرعاً ؛ فاعترضه أبوه ووقف في وجهه وقفة الصخرة العاتية في وجه الريح العاصف ، وقال له : لا آذن لك بالتقدم خطوة واحدة ، ودون ما تريد الموت الزؤام !.

فطاش عقل قسطنطين وجن جنونه وقال له : احذر يا أبت ! فإن في هذه السماء المشرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من الظالمين ، ويجازي الخائنين بخيانتهم شر الجزاء ، وما أنت بناج من عقابه ، ولا مفلت من جزائه . لقد حدثتني نفسي في تلك

الساعة الهائلة التي سمعتك فيها تؤامر على وطنك وأمتك ، بأفظع ما تحدث به نفس صاحبها ، وكنت على وشك أن أرفع أمرك إلى الملك أنت وزوجك ، وأكشف له دخيلة أمركما . فلم أفعل ، لأني ضننت بك على الموت الدنيء الذي يموته الخائنون المجرمون أمثالك . وأشفقت على ذلك الشرف العظيم الذي بلغ في علوه مناط السماك الأعلى أن يصبح مهاناً مذالا[1] تدوسه الأقـدام وتطؤه النعال ، وكرهت أن يمر السابلة من رعاع الناس وغوغائهم على قبرك بعد موتك فيبصقوا عليه كأنما يبصقون على قبر الشيطان وربما نبشوا عن جثتك ، تشفياً منك وانتقاماً ، فأخرجوها من قبرها ، وأسلموها إلى جوارح الطير وكواسر الوحش تمزق أشلاءها وتبعثر عظامها .

أشفقت عليك من كل هذا ، وأشفقت على نفسي أن يراني الناس في طريقي فيشيروا إليّ بأصابعهم ويقولوا : هذا هو الولد السافل الذي وشى بأبيه وأورده مورد التهلكة . فبئس الولد ولبئس الوالد . ولا يلد الخونة المجرمون غير الأدنياء الساقطين ! فنهنهت نفسي وملكت عليها زمامها وقلبي يذوب حزناً ولوعة ، وقلت : لعلني أستطيع أن أتدارك الأمر من طريق غير تلك الطريق وأن أتمكن في آن واحد من إنقاذ أبي وإنقاذ وطني من حيث لا أخسر أحداً منهما في سبيل الآخر ، فجئت وقلبي ممتلىء أملاً ورجاء .

---

(١) مذالا : متضعاً .

أما الآن وقد يئست من كل شيء فإني أكاد أشعر بالندم على ضياع تلك الفرصة التي ملكتها ساعة من الزمان فسرحتها ولم أنتفع بها ، وكأن صوتاً خفياً يهتف بي من أعماق قلبي : إنك قد أشفقت على نفسك مرة وعلى أبيك أخرى ولم يخطر ببالك لحظة واحدة أن تشفق على وطنك وقومك .

فأسألك مرة أخرى يا سيدي ، وربما كانت هي المرة الأخيرة : أن تتنحى عن طريقي ، فإني قد عزمت عزماً لا مرد له أن أقتحم هذه الرابية لأضرم نارها رضيت أم أبيت ، سقطت السماء على الأرض أم بقيت في مكانها !.

فأطرق برانكومير لحظة ذهبت به فيها الهموم والأفكار كل مذهب ، ثم رفع رأسه فإذا دمعة كبيرة تترقرق في عينيه ، ونظر إلى ولده نظرة عتب وتأنيب ، وقال له : نعم يا بني ! إنك أخطأت خطأ عظيماً إذ أضعت الفرصة العظيمة التي لاحت لك ، وقد كان جديراً بك أن تفترصها ولا تسرحها وأن تلقي في عنق أبيك في تلك الساعة التي رابك فيه من أماه ما رابك ، غلا ثقيلاً تقوده به إلى حضرة الملك متهماً إياه بجريمة الخيانة الكبرى ليأمر بقتله فتمتع نظرك برؤيته مصلوباً على باب المدينة والجماهير من حوله يصفقون على وجهه ويصفعون قذاله [1] ويرجمونه بالحجارة على مرأى من ضباطه وجنوده وأسرته وأصدقائه وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم في عملهم .

---

(١) قفاه .

نعم إنها فرصة ثمينة جداً قد أضعتها بترددك وتحيرك ، وقد كان جديراً بك أن تقدم إقدام العازم المصمم كما كان يفعل أبوك لو كان في مكانك ، فقد عودت نفسي أنني إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أتريث ؛ وقد عزمت الآن على ألا أشغل هذه النار فلا أشعلها ولا آذن لك بإشعالها ، بل لا آذن لك بالتحرك من مكانك خطوة واحدة !.

فوقف قسطنطين حائراً ملتاعاً يترجح بين اللهف على وطنه الضائع والإشفاق على أبيه المسكين ، لا يستطيع أن يخون وطنه الذي نبت في تربته وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يعق أباه الذي أبرزه إلى الوجود ووهبه نعمة الحياة التي ينعم بها فأسند رأسه إلى صخرة كانت بجانبه حائراً مضعضعاً تتوارد في رأسه الخواطر والأفكار يصارع بعضها بعضاً ويشتد بعضها في أثـــر البعض ، حتى بلغ منه الإعياء مبلغه فنظر إلى أبيه نظرة منكسرة حائرة تفيض حزناً ويأساً ، وقال :

أيرضيك يا ميشيل برانكومير يا بطل البلقان وحاميها وأشرف من أنجبت به أصلاب رجالها وأرحام نسائها ، أن يملك العدو علينا هذه البلاد العزيزة الكريمة فيقتل أبناءها ويستحل حرماتها ، وينكس صلبانها ، ويهدم صوامعها ومعابدها ، ويخرس فيها كل صوت غير صوت الأذان على ذرى المنائر ؟ قال : : نعم يرضيني ذلك لأنني أحسنت إليها فكفرت بنعمتي وجازتني شر الجزاء عـــلى صنيعي ! قال : إن لم تفعل ذلك من أجلها فافعله من أجل ربك ، قال : أي رب تريد ؟ إنني لا أفعل شيئاً من أجله ، فهو ممالىء

مداج لا يحب إلا قساوسته وكهانه ، ولا يرى رؤوساً تصلح للتيجان غير رءوسهم الصغيرة الصلعاء ولكنني سأنتزع بالرغم من ذلك التاج من ذلك الرأس الذي توجه به وأضعه على رأسي ، قال : ولكنك تعلم يا أبت أن التاج الذي يتناوله متناوله من يدعوه عدوه ليس بتاج شريف . قال : ولكنه تاج على كل حال ! قال : ألا تخاف أن يثقل يوماً على رأسك فيهبط إلى عنقك ويستحيل إلى طوق حديدي يخنقك ويفضي عليك ؟ قال : إنك تهينني يا قسطنطين وتهددني ؛ ولقد بلغت بوقاحتك الغاية التي لا غاية وراءها ، فتجمل قليلاً ولا تنس أنك إنما تخاطب أباك ! قال : عفواً يا أبت وغفراناً فلقد بلغ بي اليأس مبلغه حتى أصبحت لا أفقه ما أقول ! .

ثم دنا منه وأمسك بيده وأنشأ يخاطبه بصوت ضعيف متهافت ويقول :

عد إلى نفسك لحظة واحدة يا أبت ، وراجع فهرس تاريخك الشريف واذكر تلك الأيام المجيدة التي أبليت فيها في الدفاع عن وطنك وقومك بلاء سجله لك التاريخ في صفحاته البيضاء بأقلامه الذهبية وتلك الوقائع الحربية الهائلة التي كنت تستقبل فيها الموت استقبال العروس ابتسامات عروسه الحسناء ليلة زفافها ، وتضحك للهول فيها ضحك الزهر لقطرات الندى ، والنبت لأشعة الشمس . ثم تعود منها منصوراً مظفراً يستقبلك نساء القرى وفتياتها في كل طريق مررت به بدفوفهن وعيدانهن يغنينك ويرقصن بين يديك ؛ ويرتشفن قطرات الدماء من كؤوس جراحاتك وينثرن

الأزهار تحت قدميك ، ويناديك باسم المخلص العظيم ، وخليفة المسيح في الأرض .

اذكر تلك الأعلام الوطنية التي تخفق على أبواب المدينـة وأسوارها وترنحها طرباً وسروراً عند رؤيتك ، وتراميها على قدميك كلما مررت بها كأنها تحاول تقبيلهما ولثمهما ؛ واخش إن مررت بها بعد اليوم أن تشيخ بوجهها عنك احتقاراً وازدراء وتضم أطرافها إلى نفسها ترفعاً وإباء حتى لا تلمس جسمك ولا تخفق فوق رأسك .

لا تبع أمتك يا أبت بعرض تافه من أعراض الحياة ، فالتاج الذي يتناوله صاحبه من يد عدوه ليس بتاج الملك ؛ إنما هو قلنسوة الإعدام .

كيف يهنؤك ذلك الملك وأنت ترى أمتك المسكينة راسفة في قيود الذل والاستعباد تبكي وتستصرخ ولا منجد لها ولا معين ، وتئن في يد عدوها القاهر أنين المحتضر المشرف ولا من يسمع أنينها ، أو يصغي إلى شكاتها .

كيف يهنؤك ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنك أسارى أذلاء في قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سوق الجزار ماشيته إلى الذبح فإن خفق قلبك خفقة الرحمة بهم أو العطف عليهم لا تستطيع أن تمد يدك لمعونتهم وإنقاذهم ، لأنك قد بعتهم ونفضت يدك منهم فلا سبيل لك إليهم بعد ذلك .

اذكر يا أبت تلك الأيام التي لقي فيها هذا الشعب المسكين

على يد هؤلاء القوم الظالمين ما لم يلق شعب في الأرض على يد فاتح أو مغتصب ، أيام كنا غرباء في أوطاننا ، أذلاء في ديارنا ، نمشي فيها مشية الخائف المذعور ، وننتفض انتفاضة الهارب المتنكر لا نعلم أيسقط الشقاء علينا من علياء السماء ، أم ينبعث إلينا من أعماق الأرض ؟ وهل يخرج الخارج منا من منزله ليعود إليه . أو ليرد المورد الذي لا رجعة له منه أبد الدهر ؟

اذكر أيام كانوا يملكون علينا كل شأن من شئون حياتنا حتّى زروعنا وضروعنا[1] ومياه أنهارنا . وأشعة شموسنا . فأصبحنا ولا شأن لنا في وطننا إلا كما يكون لعمال المزرعة ونواطيرها[2] من الشأن فيها ويحصون علينا كل حركة من حركاتنا وكل سكنة من سكناتنا ، حتّى نبضات قلوبنا وخواطر أفكارنا ، وفلتات ألسنتنا ، وأحاديث آمالنـا ، ويحاسبوننا على النظرة واللفتة ، والأنة والزفرة والقومة والقعدة ثم يقضون فينا بما يشاءوا مـن أقضيتهم فلا ينحسر ظلام ليلة من الليالي إلا عن مصلوب تهفو به الرياح السافيات ، أو طريح مرتهن في أعماق السجون !.

اذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمة يعاقب عليها قائلهـا بحرمانه من ذلك الذي يهتف باسمه[3] ، وكلمة الدين إثماً عظيماً يذهب بصاحبه إلى أحد القبرين ، إما المنشور : وإما المحفور[4] .

---

(١) الضروع : جمع ضرع ، ويقصد به الماشية الحلوب .

(٢) النواطير : جمع ناطور ، وهو عيدان من قصب أو خشب تصنع على هيئة لإنسان وتكسى من ثيابه ثم تنصب في الحقل أو في الكرم لتذود عنه الطير .

(٣) يعني النفي .

(٤) يعني الصلب على أعواد من خشب ، أو الدفن في التراب !.

اذكر الدموع التي كانت تذرفها الأمهـــات على أطفالهن المذبوحين فوق حجورهن ، والصيحات التي كانت تصيحهـــا الزوجات والأخوات الواقفات بأبواب السجون على أزواجهن وإخوتهن ، والزفرات التي كان يصعدها اليتامى الثاكلون على حافات القبور حنيناً إلى آبائهم وأمهاتهم الهالكين !.

اذكر ذلك كله ولا تنسه ، لا بل أنت تذكره وتعرفه كما تعرف نفسك ، لأنك أنت الذي خصصته علينا ومثلته لأعيننـــا وقلوبنا ، وأريتنا من ويلاته ومصائبه ما لم نره ، ولطالما كنت تبكي عند ذكراه بكاء الطفل الثاكل أمه ، فنبكي لبكائك وننشج لنشيجك[1].

ألا تسمع هذه الأصوات المخيفة التي تحملها إلينا الرياح من ذلك الجانب الغربي ؟ إنها أصوات الموتى من جنودك وأبطالك يضجون في قبورهم صائحين : واويلتاه ، ها هي السماء توشك أن تنقض على الأرض ! وها هي أقدام العدو تدنو من تخوم البلقان وبطاحه ، وتوشك أن تطأ بنعالها قبورنا وتزعجنا من مراقدنا ، وها هو قائدنا المحبوب برانكومير العظيم الذي سفكنا دماءنا وبذلنا أرواحنا في سبيل ظفره وانتصاره ، يساوم عدونـــا في وطننا ، ويحاول أن يبيعه نساءنا وأولادنا الذين تركناهم أمانة في يده ؛ ففي سبيل الله ما سفكنا وفي ذمة القدر ما بذلنا !.

ألا تسمع هذه الهمهمة الهابطة علينا من آفاق السماء ؟ إنها أصوات الملائكة الأبرار يصيحون ويصخبون وهم وقوف بين

---

(١) النشيج : غصة الحلق بالبكاء.

يدي ربهم يقولون له : حتى متى يسع حلمك وأناتك هذا الخائن الغادر الذي يبيع أمة من أمم المسيح إلى أعدائها وأعداء دينها ، ويسلم إليهم أرواحها وأعراضها ، فاقض اللهم فيه قضاءك العادل ، واضربه الضربة التي تجعله عبرة للخائنين ، ومثلاً في الغادرين .

إليّ أيتها الذكريات القديمة والانتصارات العظيمة والأيام الغر المحجلة[1] المكتوبة بمداد الذهب في صفحات التاريخ ، مدى إليّ يد مساعدتك ؛ وأعينيني على ذلك الرجل البائس المسكين ؛ وتمثلي أمام عينيه لتذكريه بنفسه وتاريخك عله يحمر خجلاً عند رؤيتك ، ويقشعر بدنه رهبة من خيال الجريمة التي يريد ارتكابها .

إليّ أيتها الفضائل الإنسانية والكلمات العالية ، من شرف وعزة وترفع وإباء ، وأمانة وإخلاص ؛ تعالين إليّ جميعاً واجثين معي بين يديه . واضرعن إليه أن ينصفكن ، ويعدل في أمركن ؛ ولا يقضي للرذيلة عليكن وقلن له : إنك إن خذلتنا ، ونفضت يدك منا ، فلن نجد لنا من بعدك ناصراً ولا معيناً .

يا أطفال البلقان وصغارها الناشئين من فتية وفتيات أقبلوا إليه جميعاً واجتمعوا من حوله وتعلقوا بأهداب ثوبه ، واسكبوا ما تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشئونكم[2] تحت قدميه ، وقولوا له : رحمة بنا أيها الأب الرحيم والسيد الكريم وحناناً

---

(١) الفرس الأغر : الذي في وجهه بياض . والمحجل : الذي في قوائمه بياض ؛ ويقال : يوم أغر . محجل : يعني يوم أبيض ، من أيام المفاخر ، ومن أيام النصر والسعادة .

(٢) الشئون : مجاري الدمع في العين .

علينا ، لا تكلنا إلى أعدائنا وأعداء وطننا ، ولا تجعل مستقبلنا ومستقبل بلادنا في أيديهم يسوموننا الخسف ويذيقوننا ألوان العذاب فإن أبيت إلا أن تفعل فجرد سيفك من غمده واقطع به أعناقنا ، فذلك خير لنا من هذا العيش المؤلم المرير .

وكان يتكلم ودموعه تنهمر على خديه دائبة ما تهدأ ولا ترقأ [1] وأبوه يضطرب بين يديه اضطراب الدوحة [2] المائلة في مهاب الرياح الأربع ويزفر زفرات محرقة ملتهبة ، وقد قامت في نفسه تلك المعركة الهائلة التي تقوم في كل نفس شريفة بـين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأول في وجه قسطنطين العبوس المكتئب فيرتعد ويضطرب ، وتتراءى له الثانية في وجه بازيليد الضاحك المشرق فيخوز ويتضعضع ، لا يستطيع أن يعرض عن نداء وطنه ، لأنه نداء يصل إلى أعماق قلبه ويبلغ صميمه ؛ ولا أن يفلت من سلطان شهوته ، لأنه سلطان قاهر جبار لا يفلت منه قوي ولا ضعيف ، فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومد الأخرى أمامه كأنما يطارد أشباحاً مخيفة هائلة تتقدم نحوه ، وظل يصيح بأعلى صوته : اصمت يا قسطنطين ! اصمت يا ولدي ، لا أستطيع أن أحتمل أكثر مما احتملت ، آه من القدر وأحكامه والدهـر وتصرفاته ، وويلي من الشقاء المكتوب والبلاء الحتم ، من لي بيد قوية تنقذني من هذا الشقاء المحيط بي ، فقد أصبحت وما على وجه الأرض أحد أجدر بالرحمة والشفقة مني ، العنوني جميعاً يـا

---

(١) ولا تجف .

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة .

أولادي وأبناء وطني ، وانتقموا مني بأفظع أنواع الانتقام ، فإنني خائن لئيم لا أستحق رحمتكم ولا مغفرتكم ؛ ثم صمت صمتاً عميقاً لا ينبس فيه ولا يتحرك ؛ وظل على ذلك هنيهة ثم نظر أمامه نظرة الدهشة والذهول ، فخيل إليه أنه يرى شبحاً يتقدم نحوه فمد يده إليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ألا تستطيعين أن تحليني من ذلك القسم الذي أقسمته لك ، فقد ضعف كاهلي عن احتماله واحتمال أثقاله . ولا أريد ملكاً ولا تاجاً ولا صولجاناً بل لا أريد أن أبقى على ظهر الأرض يوماً واحداً ؛ الموت ! من لي به في هذه الساعة فأنجو من همومي وآلامي .

فتهلل وجه قسطنطين غبطة وسروراً ، ووقع في نفسه أن الرجل قد تلوم واستخذى وبدأ يستفظع ذنبه ويستهوله ؛ فترامى على عنقه واحتضنه إليه وظل يقول بنغمة الفارح المغتبط : أحمدك اللهم قد أنقذت لي أبي ! فحنا أبوه عليه وظلا متعانقين ساعة لا يسمع فيها إلا تردد أنفاسهما ونشيج بكائهما ثم افترقا بغتة واشرأبا بأعناقهما [1] حينما سمعا في لحظة واحدة حسيس[2] جيش العدو وهو مقبل من ناحية الشمال ، وكان ما سمعاه في هذه المرة حقيقة لا وهماً فارتجلا في وقت واحد حركتين مختلفتين ؛ إذ وثب قسطنطين إلى الرابية وثبة عظمى ليضرم نارها ، ووثب أبوه وثبةأعظم منها فاعترض سبيله وصرخ في وجهه : قف مكانك لا تتقدم خطوة واحدة ! فأصاب قسطنطين مثل الجنون وقال له : تنح عن طريقي

---

(١) اشرأب (على وزن اطمأن) رفع رأسه ينظر .
(٢) الحسيس : صوت خفي .

أيها المجرم الاثيم ، فقد فرغ صبري . قال : انك لا تستطيع أن تمر لا على جثتي . فارتعد قسطنطين وبرقت عيناه وذهبت به الافكار مذاهبها وقال له : أي كلمة هائلة نطقت بها أيها الرجل الشقي ، أي قضاء قضيت به على نفسك ! تنح عن طريقي فإن نفسي تحدثني بأفظع ما تحدث به نفس صاحبها في هذا العالم ، قال : إنك لا تستطيع أن تقتل أباك ، قال : أستطيع أن أفعل كل شيء في سبيل وطني ، إنني وقفت سيفي طول حياتي على خدمتك وحمايتك والذود عنك أيام كنت لوطنك وقومك ، أما الآن فإني أغمد ذلك السيف نفسه في صدرك طيب النفس مثلوج الفؤاد لأني أعتقد أني لا أغمده في صدر أبي بل في صدر خائن وطني ، قال : لا تنس أن لي يداً أقوى من يدك وسيفاً أمضى من سيفك . قال : إني لا أجهل ذلك ولكنك تقاتل في سبيل الدناءة والخيانة وأقاتل في سبيل الواجب والشرف ، والله مطلع علينا من عليـاء سمائه ، وهو الحكم العدل بيننا . فجرد برانكومير سيفه وهجم على ولده هجمة قوية ، فجرد الآخر سيفه وتلقى ضرباته بأشد وأنكى منها ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى حكم القاضي العادل حكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم !

فنظر قسطنطين إلى جثة أبيه الساقطة تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لا يعلم ما وراءها ، ثم أغمد سيفه وصاح بأعلى صوته : حمتك اللهم فإني لا أستطيع أن أفعل غير ما فعلت ، ثم هجم على الرابية فأشعل نازها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها .

وفي اليوم الثاني نشر الملك أتين على الأمة هذا البلاغ :

« حاول العدو ليلة أمس تبييت جيوشنا وأخذها على غرة[1] وكاد يظفر بذلك لولا أن انتبهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيم قسطنطين برانكومير فأبلت في المعركة بلاء عظيماً ووقفت العدو في مكانه ساعة كاملة ، حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركة هائلة بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهزام العدو إلى مواقعه الأولى ولكن المصاب العظيم الذي عم الجيش وشمل الأمة بأسرها هو موت قائـدنا العظيم « ميشيل برانكومير » فقد وجد في أثناء المعركة قتيلاً بضربة سيف في خاصرته[2] بين صخور تراجان تحت القوس الروماني ، وسيحتفل بتشييع جنازته غداً إحتفالاً عسكرياً جليلاً يليق بمقام شهيد الوطن وبطله العظيم !

أما الذي خلفه في قيادة الجيش فهو ولده الضابط الشجاع منقذ الأمة والوطن « قسطنطين برانكومير » .

---

(١) التبييت : المفاجأة ليلا . والغرة (بكسر الغين) الغفلة .
(٢) جنبه .

الضمير

مضى الليل إلا قليلاً وقسطنطين ساهر في فراشه لا يغمض له جفن ولا يطمئن له جنب ، لأن مصرع أبيه في شعب تراجان لا يزال ماثلاً أمام عينيه ما يفارقه لحظة واحدة وكان كأنه يرى الجثة بين يديه تتلوى وتتمرمر وتنظر إليه نظرات حادة ملتهمة ، وكأن جرحها الدامي بين أضلاعها لا يزال يتدفق منه الدم فثار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرد هذا الخيال عن نظره فلم يستطع ، فمد يده إلى ذلك الجرح الموهوم الماثل أمامه يريد أن يعترض سبيل الدم المتدفق منه فغلبه على أمره وازداد في تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرض الغرفة جميعها ، وصبغ بلونه الأحمر القاني جميع ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتد فزعه وارتياعه ولم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فوقع مغشياً عليه .

وظل على ذلك ساعة حتى انفثأت حرارة دمه[1] فاستفاق من غشيته وجلس إلى نفسه يناجيها ويقول :

---

(١) انفثأت : هدأت .

إنني على ثقة من نفسي ، لم أفعل إلا ما يجب على كل رجل شريف أن يفعله ، فما هذا الخوف الذي يساورني ! وما هذه الصور المخيفة التي تتراءى لي في يقظتي وأحلامي ؟ كان يجب عليّ أن أضرب — لأنه ما من ذلك بد — ففعلت ، فلم أرتاب في عملي ، ولم أرتعد ارتعاد المجرمين الآثمين إن الرجل لا يخاف إلا ذنبه ، وأنا لم أذنب إلى أحد ، لأن الرجل الذي قتلته كان يريد أن يقتل أمة بأسرها فأنقذتها بقتله ، بل أنقذت عشرين أمة من أمم المسيح في أوروبا ، الا يجوز للانسان أن يقتل الأفعى دفعاً لأذاها ، والوحش كسراً لشرته[1] واللص اتقاء لضرره ؟! إنني لم أفعل غير ذلك فمالي أرى وجه السماء أحمر قانئاً ليله ونهاره ، ومالي أجد مذاق الدم في كل كأس أشربها من ماء أو خمر ؛ ومالي لا أستطيع النظر إلى يدي خوفاً ورعباً ، إنني لم أقتل أبي ، ولكنني أحييته لأنه إن كان يحيا اليوم في قلوب الناس حياة العظمة والمجد ، وكان تمثاله إلهاً معبوداً يطيف به الشعب[2] ويقبل أركانه ويتبرك بلمسه واستلامه ، وكان اسمه طغراء الأسماء الشريفة المسجلة في التاريخ — فإنما ذلك بفضل الضربة التي ضربته إياها ، ولولا ذلك لعاش بقية أيام حياته وعيش الأدنياء الساقطين أو مات موت الخونة المجرمين .

وهنا انتفض واصفر وارفض جبينه عرقاً[3] ، وقال بصوت

---

(١) حدته ونشاطه .

(٢) أطاف يطيف : أحاط ، أما طاف (بغير الهمزة) فمعناها : دار .

(٣) ارفض تفرق ، ويقال : ارفض جبينه عرقاً ، يعني تناثر العرق على جبينه .

ضعيف مختنق : نعم ! إن ذلك كله صحيح لا ريب فيه ، ولكنني قتلت أبي !

ثم لم يلبث أن عادت إليه مخاوفه ووساوسه ، فرأى الجثة والمصرع ، والطعنة النجلاء ، والدم المتدفق ، وسمع تلك الأصوات التي تهتف به في كل مكان : « يا قاتل أبيه ! يا أكبر المجرمين ! يا عار البشرية وشنارها [1] » فجن جنونه ، وثار ثائره ، وعادت له سيرته الأولى .

ولم يزل هكذا ليله كله : يهدأ حيناً ويثور أحياناً ، حتى نشر الفجر رايته البيضاء في آفاق السماء ، فاستروح رائحة الأنس وشعر ببرد الراحة فأوى إلى مضجعه .

كذلك كان شأن قسطنطين دائماً ، وكذلك كانت أكثر لياليه مذ حدث ذلك الحادث العظيم .

---

(١) الشنار : أقبح العيب .

الأزهار

دخلت ميلتزا غرفة قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالي الطويلة الليلاء وبيدها باقة من الزهر تريد أن تقدمها إليه ، فرأته مضطجعاً على كرسيه مستغرقاً في نومه ، وآثار الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه ، وفي صفحتي خديه ، فرثت لحاله وجلست تحت قدميه ترقب يقظته رقبي المجوسي طلعة الشمس من مشرقها ، فحمل النسيم إلى رأسه نفحات تلك الأزهار ، فانتعش وتحرك في مكانه وفتح عينيه فرآها تبتسم وتهلل ، وقال : ميلتزا ! قالت : نعم يا سيدي ، نعمت صباحاً ونعمت جميع أيامك بكورها وأصائلها[1] ؛ ثم مدت يدها إليه بالباقة وقالت له : فقد اقتطفت لك صباح اليوم هذه الأزهار الجميلة التي تحبها أكثر من سواها لتستروحها فتروح عن نفسك برياها[2] همومها وأحزانها ، فتناول الباقة منها واستنشقها وتنفس تنفسة طويلة ، ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة ، وقال لها :

أتعلمين يا ميلتزا أنني أستنشق في هذه الأزهار التي تهدينها

---

(١) البكور : جمع بكرة . وهي أول النهار ، والأصائل ، جمع أصيل وهو آخر النهار .

(٢) الريا (بفتح الراء وتشديد الياء) : العطر .

إليّ أنفاسك الأريجة العطرة ، وأن الذي ينعشني ويحييني ويرفه عني همومي وآلامي في هذه الباقة إنما هو أريجك لا أريج الأزهار ؟ فارتعدت ميلتزا لأول كلمة حب سمعتها من فمه ، وظل قلبها يخفق خفقاناً شديداً ، وملك الدهش عليها عقلهـا ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد ، وظلت شاخصة إليه ببصرها ، فاستمر في حديثه يقول : لقد كنت أطلب الموت قبل دخولك وأتمناه تمنياً شديداً حتى رأيتك ورأيت هذا الجمال المتلألىء في عينيك وشممت أنفاسك العطرة المنبعثة من أوراق أزهارك ؛ فأحببت الحياة من أجلك ، وأصبحت أتمـنى أن أعيش لأراك وأقضي بقية أيام حياتي بجانبك ، فشكراً لك يا صديقتي ، فأنت النجمة الوحيدة الباقية في سماء حياتي بعد ما غربت جميع نجومها وكواكبها ، والشعاع المضيء الذي ينبعث إلى أعماق سجني المظلم الحالك فيبدد ظلمته وينير حوانبها ويملأ قلبي أملاً ورجاء ، والواحة المخصبة الخضراء التي ألجأ إليها كلما قطعت مرحلة في صحراء هذه الحياة المحروقة فأنام تحت نخيلها وأتبرد ببرد مياهها ، قالت : ليتني أستطيع أن أكون عند ظنك يا سيدي ، بل ليتني أستطيع أن أقاسمه هذه الهموم والأحزان التي تعالجها ، أو أحتملها عنك جميعها حتى لا أراك بين يدي إلا باسماً متطلقاً في جميع آناتك وساعاتك ، إنني أمتك الوضيعة المسكينة يا سيدي ، وليس لفتاة مثلي أن تسألك عن سبب همومك وأحزانك ، ولكنني أستطيع أن أضرع إليك أن تسريها عن نفسك وتهونها عليك ، فأنت رجل فاضل شريف ، وقد قلت لي قبل اليوم : إن الرجل الفاضـل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته في سعادة لا يهنأ بمثلها الملوك

في قصورهم . قال : ومن أين لك أنني رجل فاضل شريف ؟ قالت : لو لم تكن كذلك لما أحببتك ؟ فابتسم قليلاً وقال : إذن أنت تحبينني يا ميلتزا !. قالت نعم يا سيدي ، أكثر من كل شيء في العالم ، ولولا كرامة أمك عليك وجلال ذكراها في قلبك لقلت لك إنها ما كانت تحبك في حياتها أكثر مما أحبك اليوم ! فأطرق قسطنطين لتلك الذكرى المؤلمة . ومرت بجبينه سحابة سوداء قاتمة ، فرفع رأسه وقال لها : حسبك يا ميلتزا لا تذكريني بأمي ، فما أحسبها الآن إلا ناقمة عليّ في قبرها ، تلعنني وتستعدي ربها عليّ[1] وتسأل الله صباحها ومساءها أن يعاقبني وينتصف لها مني : واخجلتاه من نفسي يوم ألقاها في تلك الدار ويجمع الموقف العظيم بيني وبينها ! فارتاعت ميلتزا عند سماع هذه الكلمة ، وذهبت بها الظنون كل مذهب . وظلت تنظر إليه نظراً غريباً حائراً ، وقد بدأت تفهم ذلك السر الهائل الذي أعياها أمره زمناً طويلاً وتدرك السبب في حزن قسطنطين هذا الحزن الشديد الذي يقيمه ويقعده ويساور نفسه ويقلقها منذ قتل أبوه حتى اليوم . وكأنه قد ألم بما دار في نفسها[2] وتردد في خاطرها ، فظل ناظراً إليها بلهف وشوق ينتظر أول كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظار المتهم أول كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه حتى رآها تبتسم وتتهلل وتقول له : هوّن عليك الأمر يا سيدي ، ولا ترتب في نفسك ولا في ضميرك فما أنت بمجرم ولا قاتل ، ولكنك رجل

---

(١) تستعدي : تستغيث .

(٢) عرف ما يدور في نفسها .

شريف ولولا أنك كذلك لما أحببتك ، فمد يده إليها فتناول يدها وقال لها : أتعدينني يا ميلتزا أن تكتمي في صدرك كل شيء ؟ قالت : نعم أعدك وعداً لا أخيس به . قال : وشيء آخر يا ميلتزا . قالت : وما هو يا سيدي ؟ فأدناها منه وضمها ضمة خفيفة إلى نفسه . وقال لها : أتقسمين لي على الحب حتى الموت ؟ قالت : نعم يا سيدي أقسم لك . قال : بم تقسمين ؟ قالت : بكل ما تسكن به نفسك ، قال : ضعي يدك على الخنجر وأقسمي به ، قالت : أفعل على شرط واحد . قال : وما هو ؟ قالت : أن تهديني إياه بعد ذلك ، قال : وماذا تصنعين به ؟ قالت : أقتل به نفسي يوم يحل بك مكروه ! فناولها إياه ، وهو يقول في نفسه ربما حل بي عما قريب ذلك المكروه الذي تتوقعين ! فوضعت يدها على الخنجر وأقسمت به أن تحافظ على حبه والإخلاص له حتى الموت ؛ فتهلل قسطنطين فرحاً وسروراً ، ونزعه عن خاصرته وعلقه في منطقتها ، ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها في ثغرها قبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل ما مر بها في حياتها .

حديث

جرح الجندي « أورش » في إحدى المعارك فلزم بيته وتولت ابنته « أنا » معالجته ، وكان يزوره بعض أصدقائه من الجنود في الفينة بعد الفينة[1] فزاره في أحد الأيام الجندي « لازار » ، وكان لا يزال حارساً لقصر القائد « برانكومير » والخادم الأمين لأرملته بازيليد وثقتها المؤتمن على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له « أورش » حين رآه ؛ هل من جديد اليوم يا لازار ؟ قال نعم قد فشل جيشنا في الواقعة الأخيرة كما فشل في الواقعة الماضية والوقائع التي تقدمتها ، ولا أعلم متى تنتهي هذه الانكسارات ، فقد تمت عدتها حتى الأمس عشراً ، ولا أعلم ما يأتي به الغد ؛ أما القتلى والجرحى فهم كثيرون لا يحصى لهم عدد ، وما بيتك بالبيت الوحيد الذي تترقرق فيه الدماء والدموع ، ففي كل بيت من بيوت المدينة شاكون ومتألمون .

فقال أورش : لا ريب أن قسطنطين غير أبيه ، ولقد فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائداً كان خير القواد وأبرعهم وأوسعهم

---

(١) الحين بعد الحين .

علماً وتجربة وأعلمهم بموارد الأمور ومصادرها ، لم يفلت النصر من يده في جميع معاركه أكثر من مرة أو اثنتين ، حتى مات في الواقعة الأخيرة وسيفه مصلت في يده ميتة البطل الشريف فمات بموته الظفر والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا الله متى يقبل بعد إدباره .

فقالت له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تضمد له جراحه : لقد قلت لي يا أبت قبل اليوم : ان قسطنطين قائد عظيم لا يشق له غبار ، فما الرأي الذي تراه فيه الآن ؟ قال نعم ، كان قائداً عظيماً في حياة أبيه وتحت لوائه ، أما اليوم وقد استقل بالرأي وحده وانقطع عن ذلك الوحي الذي كان يرشده ويهديه فقد انتقض عليه أمره ، وأصبح حائراً مضطرباً لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يصرف وقائعه ومواقفه ؟ فقالت : إن جيشنا لم ينكسر قط في واقعة من تلك الوقائع التي تذكرونها كما تتوهمون لأنه لم يتخل عن مركزه ولم يسلم شعباً واحداً من تلك الشعاب التي يحرسها ؛ أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم في جيوش أعدائنا أكثر منهم في جيوشنا أضعافاً مضاعفة وحسبنا ذلك فوزاً وانتصاراً .

فقال لازار : لقد كانت خطة القائد ميشيل خطة دفاع محض لا يحول عنها ولا يتزحزح ، والجبال بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطين فقد أخذ نفسه بالهجوم على العدو في حصونه ومواقعه ، وترك الجبال التي تحميه من ورائه فكثر القتلى والجرحى في جيشنا ، وهي خطة مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائد اليائس أو المجنون ، ولا أعلم أي الرجلين هو ؟

قال أورش : أحسبه يائساً قانطاً ، فإني أشعر كما يشعر كثير من الناس أن سحنته قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيماً ، وأصبح حزيناً منقبضاً لا تفارق الكـآبة عينيه وجبينه ، ولم أرَ في حياتي ثاكلاً حزن غلى فقيده حزن هذا المسكين على أبيه . قال لازار : ولقد حدثني بعض خدم القصر وحراسه أنه يستيقظ من نومه في بعض لياليه صارخاً متفزعاً يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحاً هائلاً مقبلاً عليه .

فقالت « أنا » : « إنكم تظلمون قائدنا ظلماً عظيماً ؛ فقسطنطين أفضل القواد وأشرفهم ، وما هو بجان ولا مجنون ، فنظر إليها لازار شزراً وقال : بل هو جان أو على وشك ارتكاب جريمة هائلة ، فقد رابني منه مذ ولي قيادة الجيش عفوه عن الأسرى الذين يقدمون إليه ، وإنزاله إياهم منزلة الإكرام والإعزاز واهتمامه بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون لا أعداء محاربون ؛ كما رابني منه أكثر من ذلك إعتزاله الناس وانقطاعه عنهم جميعاً ، حتّى عن زوج أبيه التي تحبه حب الأم لولدها وفلذة كبدها ، فإنه منذ هجر قصرها وعاش في بيته الجديد الذي يسكنه اليوم لم يزرها مرة واحدة ولا دعاها إلى زيارته حتّى الساعة .

فقالت « أنا » أكل أفعـال قسطنطين قد أصبحت مريبة عندكم لا تحمل على محمل حسن ، إكرامه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذلهم وضعفهم ؟ قال : ليس هذا رأيي وحدي بل رأي أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزؤام عمداً لسر خفي يضمره في نفسه ، وما أحسبهم قادرين .

على احتمال هذه الحالة زمناً طويلاً ، فاحتدمت « أنا » غيظاً وقالت : إن قسطنطين أشرف مما تظنون ، وهل ترون محالاً أو غريباً أن يحزن المرء على أبيه بعد فقده ؟ ثم إلتفتت إلى أبيها وقالت له بسذاجة ورقة : أقسم لك يا أبت لو أن مكروها أصابك من هذا الجرح الذي في فخذك – لا أذن الله بذلك وقدر – لحزنت عليك حزناً يصغر بجانبه حزن قسطنطين على أبيه ! فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها : إننا لا نذهب في أمره يا بنية حيث ظننت ، ولا نتهمه بخيانة ولا ممالأة ، ولكنا نخاف عليه أن يكون قد نفذ اليأس إلى قلبه فضعضعه ، وأن تكون نفسه قد حدثته بمسالمة أعدائه وموآتاتهم ، فأعد لذلك العدة التي رآها واليأس هو الخديعة الكبرى التي يدسها الشيطان دائماً في نفوس الأمم الضعيفة التي يريد قتلها والقضاء عليها .

وهنا دخل بعض الجنود لعيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعاً في الحديث ، وأنشأ لازار ينفث سموم سعايته ووشايته في صدورهم حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطين يخون أمته ويمالىء أعداءها عليها ، وأن الرأي الصواب أن يرفعوا أمره إلى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويعهد بها إلى غيره ثم انصرفوا .

الدسيسة

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم في غرفته ، إذ دخل عليه حارس بابه يستأذنه لبازيليد أرملة أبيه ، فانقبض صدره واشمأزت نفسه ، لأنه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته مذ مات أبوه حتى اليوم ، فأذن لها بعد لأي[1] فدخلت عليه وحيتـه وجلست بجانبه ، وأنشأت تعاتبه في انقباضه عنها ووحشة منها وسوء رأيه فيها ، وتقسم له بحرمة ذلك الدفين الكريم الذي كان يحبه ويحبها أنها لا تضمر له في نفسها موجدة ولا حقداً ، ولا تحمل له بين جنبيها غير الحب الخالص والود المتين ؛ ثم قالت له : إنني برغم آلامي وأحزاني التي أعالجها مذ نزلت بي تلك النازلة العظمى حتى اليوم ، لم أر بداً من أن آتي إليك في هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأهـون عليك أمرها ، وربما وجدت السبيل إلى خلاصك منها ، فالتفت إليها مندهشاً[2] وقال : أي ساعة تريدين ؟ وما هي الشدة التي أنا

---

(١) بعد بطء وشدة .

(٢) الفصيح : دهشاً ، أو مدهوشاً .

فيها ؟ قالت : كأنك لا تعلم أن الخطر الذي يحيط بك عظيم جداً لا قبل لك باحتماله وأن جنودك قد أصبحوا ينقمون عليك نقمة عظمى ويبغضونك بغضاً لا حد له ولا تحدثهم نفوسهم بشيء سوى نفس الطريق إلى الوصول إليك ليقتلوك ، فاصفر وجهه وقال : وماذا ينقمون مني ؟ قالت : ينقمون منك مخاطرتك بهم في تلك المعارك الهائلة التي تكاد تفنيهم وتقضي عليهم ، وفشلك في جميع الوقائع التي قمت بها مذ وليت قيادة الجيش حتى اليوم ، وقد امتد بهم الحقد عليك إلى الظن بك فأصبحوا يعتقدون أنك خائن ممالىء للعدو ، وأنك ما سلكت هذه الخطة المعوجة في حروبك إلا لتمكن الأعــداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد فانتفض انتفاضة شديدة ؛ وأربد وجهه ، ونزت في رأسه سورة الغضب[1] وقال : من الذي يتهمني بالخيانة ؟ قالت : جنودك ورجالك ، قال : إنهم كاذبون فيما يقولــون ما في ذلك ريب إن كنت صادقة فيما تقولين ، قالت : ما كذبت عليك قبل اليوم ولا غششتك في النصيحة ، ولقد زادهم حقداً عليك وموجدة أن العدو قد اجتاز الجبال ليلة أمس ، وربما لا يمر يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل إلى أبواب العاصمة ، وسيصل بريدك الساعة فينقل إليك هذا الخبر المحزن الأليم . فصرخ صرخة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة ، ووثب من مكانه وهو يقول : آه يا وطني العزيز ! وابتدر الباب يريد الخروج منه ؛ فأمسكت بيده واجتذبته إليها وقالت له : مهلاً ، أين

---

(١) تحرك في نفسه الغضب الشديد .

تريد؟ قال : أدعو جنودي وأجمع من تفرق منهم في الثكنات والقلاع وأذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى : فالوطن في خطر عظيم ؛ قالت : لا تفعل فقد خرج الأمر من يدك ، واعلم أن جميع جنودك المقيمين في ثكنات المدينة وأرباضها[1] قد أصبحوا متمردين عليك لا يطيعونك ولا يأتمرون بأمرك ! فلم يحفل بكلامها وأسرع إلى النافذة وأشرف منها على الساحة العامة وظل يصيح : أيها الجنود ! النفير النفير ! الأهبة الأهبة ![2] ، فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتّى هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجه ؛ ليسقط الخائن ليسقط المجرم ! فظل يشير إليهم بيده يحاول إسكاتهم واسترعاء أسماعهم وهم مستمرون في ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يفترون ، فعاد إلى مكانه يائساً متضعضعاً ليس وراء ما به من الهم غاية .

فدنت بازيليد منه وقالت له :- قد علمت الآن أنني لم أكذبك القول ولم أخدعك وأنني لم أقدم إليك مقدمي هذا في هذه الساعة العصيبة إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذ الوطن وأبنائه ، فرفع نظره إليها مندهشاً وقال : أنت؟ قالت : نعم أنا ، في الوقت الذي لا أجد فيه بجانبك من يأخذ بيدك أو يعينك على أمرك ، فأصغ لما أقول : إن الملك سيزور قصرك الساعة ليستنجد بك على دفع هذا الخطر الداهم وإن شئت فقل ليستعين بك

---

(١) الأرباض : الضواحي .
(٢) انفروا انفروا : تأهبوا تأهبوا .

على الاحتفاظ بتاجه الذي يضن به ضنه بحياته ولا يحفل بشيء سواه ، وقد علم الجند ساعة حضوره فهم ينتظرونه في هذه الساحة ، حتى إذا طلع عليهم في موكبه هرعوا اليه[1] ضاجين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزمناهم[2] ورموك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التي يرددونها الآن ويصيحون بها في كل مكان ، فإما أن يصدقهم فقد هلكت هلاكاً لا نجاة لك من بعده ، أو يرتاب بهم فلا يرى بداً من أن يسلك سبيل الحكمة في مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمر بعزلك عن القيادة والعهد بها إلى غيرك إرضاء لهم ، وتسكيناً لثائرهم ، فإن فعل فقد انتشرت لك في الأمة قالة سوء لا تستطيع أن تمحو عارها عنك أبد الدهر .

فظل يرتعد ويضطرب ويردد بينه وبين نفسه : رب ماذا أصنع ، فالخطب أعظم مما أحتمل ! فاقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وحنت عليه حنو الأم على رضيعها ، وقالت له بتلك النغمة العذبة الجميلة التي قتلت بها أباه من قبل : نعم يا بني إن الخطب أعظم مما تحتمل ، ولم يبق بين يديك إلا أن تسلك تلك الطريق التي شرع أبوك في سلوكها قبل موته وعجز عن الاستمرار فيها إلى نهايتها فخسرها وخسر حياته على أثرها ، فنظر إليها مندهشاً وقال : ماذا تريدين ؟ فصمتت لحظــة ثم استنجدت قوتها وشجاعتها وقالت له : أتدري ياقسطنطين لِمَ ذهب أبوك إلى شعب تراجان وجلس تحت القوس الروماني

---

(١) هرعوا (بالبناء للمجهول) أسرعوا .
(٢) الزمني (كجرجي) جمع زمن (ككتف) : وهو المصاب بعلة مزمنة .

في الليلة التي مات فيها؟ فرجعت إلى ذهنه تلك الذكرى المؤلمة وقد بدأ يفهم ما ترمي إليه في حديثها، فراعه الأمر وهاله، أنه تماسك وتجلد وظل ناظراً إليها نظرات جامدة ساكنة أشبه بنظرات الموتى في النزع الأخير؛ فاستمرت في حديثها تقول: إنه ذهب إلى ذلك المكان ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ويأذن له باجتياز الحدود والوصول إلى فيدين، ولو فعل لنجى الوطن من خطر عظيم، ولأطفأ نار هذه الحرب التي تلتهم البلاد التهاماً يكاد يقضي عليها، ولكان اليوم ملكاً جالساً على عرش البلقان لا تمثالاً أجوف منتصباً في الميدان، ولكنه عجز في الساعة الأخيرة عن الاحتفاظ بقوته وعزيمته، فما رأى سواد الجيش التركي مقبلاً نحوه حتى نسي عهوده ومواثيقه، وابتدر الرابية الأولى[1] فأشعل نارها وأيقظ الجيش من رقدته واستثاره للأهبة والدفاع، وما كفاه ذلك حتى جرد سيفه للقتال، وخاض المعركة بنفسه، وظل يقاتل حتى هلك.

فعجب قسطنطين لتلك الجرأة الغريبة التي لا يشتمل على مثلها صدر امرأة في العالم ولا رجل؛ ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءهما: وبعد فماذا تريدين؟ فأطمعها فيه سكونه وهدوءه وخيل إليها أنه قد استخذى للأمر واستسلم، فقالت: إن العهد السلطاني لأبيك بملك البلقان لا يزال باقياً بيدي حتى الساعة، وهو مذيل بتوقيع السلطان ومختوم بختم آل «برانكومير» فلسنا في حاجة إلى تغيير حرف

---

(١) ابتدرها: سبق إليها.

منه أو كتابة عهد جديد ، وقد قابلت رسول القائد التركي ليلة أمس ؛ واتفقت معه على كل شيء ، فكن أعقل من أبيك وأبعد منه نظراً ، واعلم أن الترك لا بد مقتحموا هذه البلاد وآخذوها ، أبطئوا أم أسرعوا ، فقد اجتازوا عقبة الجبال اليوم ، وسيجتازون بقية العقبات غداً أو بعد غد ؛ ما من ذلك بد . فخير لك أن تهادنهم وتسالمهم وتتخذ عندهم يداً تنفعك لديهم غداً ، وأن تفتح لهم بيدك ما استغلق عليهم من أبواب البلاد بدلاً من أن يغلبوك عليها ، لتحتفظ لنفسك بذلك العرش الذي هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمع ذلك المختلس وفضوله !

إن الجنود يضجرن ويصخبون ويوشك الملك أن يحضر فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتك ، فيأمر بالقبض عليك وسجنك ، فاغضب لنفسك وافعل ما أشرت به عليك لتستطيع أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجنه بعد بضع ساعات . ويدين لك البلقان ، من البوسفور إلى الأدرياتيك .

أما أنا فإني لا أطلب جزاء عندك عن نصحي لك وإخلاصي إليك سوى أن تمنحني لديك منزلة الأم الحنون ، وتأذن لي أن أجلس على أدنى درجة من درجات عرشك ، أخدمك وأمدك برأيي ومشورتي وأستظل بظلال مجدك وشرفك حتى الموت ، ثم أخرجت من حقيبتها العهد السلطاني وأرته إياه ، فأخذ يقرؤه في يدها حتى أتمه ، فقالت له : قم الساعة وسافر إلى الحدود وقد جيشك بنفسك وتقهقر به كأنك تفعل ذلك مضطراً ، وانقذ نفسك ووطنك من هذا الخطر العظيم

ها هي طبول الملك تقترب منا شيئاً فشيئاً ، واعلم أن قلم القدرة معلق الآن بين أصبعي الله ليكتب به في صفحات الغيب أحد الحكمين : إما لك بالصعود إلى العرش ، أو عليك بالهبوط إلى أعماق السجون ، فأحسن الأختيار لنفسك ولا تكن عدوها الأحمق المأفون .

فرفع رأسه ونظر إليها نظرة نارية ملتهبة ، لو رسمتها ريشة المصور الماهر لاحرقت القرطاس الذي رسمت فيه ! ثم قال لها بهدوء وسكون : قد قلت لي يا سيدتي منذ هنيهة إن أبي قد ذهب إلى شعب تراجان ووقف تحت القوس الروماني ليستقبل الجيش التركي عند قدومه ويأذن له بالمرور ، فخانه عزمه ونسي ميثاقه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة في سوء ظنك به ، فإنه لم يزل متمسكاً برأيه في تلك الليلة محافظاً على عهده ، حتى حالت الحوائل بينه وبين الوفاء .

قالت : وما الذي طرأ عليه ؟ قال : طرأ عليه الموت ، فحال بينه وبين ما يريد قالت : وهــل تعلم كيف مات ؟ قال : نعم أنا أعلم الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه في تلك الساعة وفي ذلك الموقف سواي ، فارتعدت ونظرت إليه مندهشة وقالت له : ألم يمت قتيلاً بيد أعدائه ؟ قال : لا ، بل بيد أصدق أصدقائه بل بيد أقرب الأقرباء إليه وأمسهم بهم رحما [1] ؛ فطاش عقلها وجن جنونها وصاحت : ماذا تريد

---

(١) أمسهم به رحما : ألصقهم قرابة .

أن تتول ؟ قال : أريد أن أقول : إنني أنا الذي قتلته بيدي جزاء له على خيانته لوطنه ! قالت : أنت يا ولده وفلذة كبده ؟ قال نعم ، وأنت التي وضعت في يمني ذلك السيف الذي قتلته به لأنك أفسدت نفسه وقتلت شعوره وأغريته بخيانة وطنه ، وسلبته جوهرة الشرف الثمينة التي كانت تضيء ما بين جنبيه ، وكانت أكرم الجواهر وأغــلاها ، فلم أر بدأ من أن أقتله لأستنقذ الوطن من يده ، فتألمي ما شئت أيتها المرأة الشريرة وتعذبي ، وتجرعي كؤوس الحسرة والندم على ما أفلت من يدك من أمانيك وآمالك . وحسبي انتقاماً منك على جريمتك التي أجرمتها إليّ وإلى أبي وإلى الطبيعة أن تعلمي أنني أنا الذي خيبت آمالك وهدمت بيدي ذلك الصرح العظيم الذي أنفقت في تشييـــده أيام حياتك ؟

نعم أنا الذي قتلته بيدي واقترفت أعظم جريمة يقترفها إنسان في العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ، ولا خطر ببالي أن إنساناً في الوجــود يقدم عليه ، ولو كان في استطاعتي أن أكشف أمرك وأهتك الستر عن جريمتك لفعلت ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ، إشفاقاً على سمعة ذلك الرجل المسكين الذي قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكاً لك في حياتك ، وفي جرائمك ؛ فعيشي معذبة مثلي فريسة لآلامك وأحزانك ، واستنفدي ماء شئونك[1] حزناً على الذي فاتك والزوج الذي رحل عنك ؛

---

(١) ماء جفونك .

واسهري لياليك الطوال خائفة مرتعبة من شبح الجريمة التي اجترمتها ، وخيال الدماء التي سفكتها ، وليعلو قلبك خوفاً وهلعاً كلما ذكرت أنك قد وضعت في يد الولد سيفاً ليقتل به الوالد ، فمات الوالد قتيلاً وعاش الولد معذباً ، ولتطل حياتك على ظهر الأرض لتطول آلامك وأحزانك ، حتى إذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابس من العظم . قد أحرقته اللوعات ، وأضوته الحسرات[1] ، وافترسته الهموم والأحزان .

وهنا سمعت ضجة عظيمة في الساحة ، وهاتفون يهتفون : الملك ! الملك ! فاكتأب قسطنطين وتقبض وجهه ، وتهللت بازيليد وتطلقت وطوت وثيقة العهد برفق ووضعتها في جيبها ، ثم قالت له : نعم ، إنني سأعيش يا قسطنطين حزينة باكية كما قلت ما من ذلك بد ؛ ولكني لا آذن لك أن تعيش يوماً واحداً بعد اليوم على ظهر الأرض حتى لا ترى بعينيك مصائبي وآلامي ، وتشمت بهمومي وأحزاني ، فقد دسست لك الدسيسة في الجيش حتى ثار عليك ووضع في عنقك ذلك الغل الثقيل ، غل الخيانة الذي لا خلاص لك منه ، وسترى الآن بقية ثأري وانتقـــامي !

وهنا دخل الملك والجنود من حوله يتقدمهم لازار ، وهو يصيح وهم يصيحون من خلفه : إنه خائن يا مولاي ، قد مالأ الأعداء علينا ، إنه أفنى رجالنا ، ورمل نساءنا ، ويتم أطفالنا ،

---

(١) الضاوي : الهزيل الضعيف ويقال أضواه المرض ، هزله وضعفه .

فأعدنا عليه،[1] وانتقم لنا منه وللوطن! والملك يقول: دعوني وشأني. لا أصدق شيئاً مما تقولون، ثم التفت إلى قسطنطين، وقال له: أيها البطل العظيم؛ إن الوطن في خطر، وقد جئت أستنجد بك على دفع هذه النازلة التي نزلت بنا، وسأكون في المعركة المقبلة جندياً من جنـــودك، أقاتل بجانبك، وأبارك خطواتك، ولا تبتئس بما يقول هؤلاء القوم، فإنهم لا يعلمون من أمرك شيئاً؛ إنا لا نعرف اليوم تحت سماء البلقان بطلاً غيرك، وما كنا نعرف قبل اليوم بطلاً غير أبيك، ولا نضمر لكما في قلوبنا غير الإجلال والإعظام لمكانكما من خدمـــة الوطن وحمايته والذود عنه، أما الحظ الذي فارقك في تلك الوقائع الماضية فأبشرك أن عهد فراقه لا يطول، وأنه سيعود إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطلق الجميل، وستمحو بانتصاراتك المقبلة جميع آثار تلك الهزائم السالفة، ثم التفت إلى الجنود، وقال لهم: يا أبطال البلقان وحماته، لا تخذلوا قائدكم، ولا تخفروا ذمته[2] فهو سيدكم اليوم، وابن سيدكم بالأمس، واعلموا أنني لا أصغي إلى تهمة لا أعرف لها برهاناً، ولا دليلاً

فصمت القوم صمتاً عميقاً، وساد بينهم السكوت هنيهة، وقد بدأت مراجل غيظهم وموجدتهم تفتر وتتقاصر، وهنا انفرج الجمع، وإذا ببازيليد تتقدم رويداً كما ينساب من مكمنه

---

(١) أعدنا عليه: انصرنا، أعدى يعدي كألقى يلقي.
(٢) لا تخونوا عهده.

الأرقم[1] نحو موقف الملك حتى مثلت بين يديه ، وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود : أنا التي أقدم لك على تهمته الدليل والبرهان ! فدهش الملك عند رؤيتها ، وقال : الأميرة ؟ قالت : نعم يا مولاي ، أرملة القائد ميشيل برانكومير ، إنني أتهم هذا الرجل بخيانة قومه وممالأة أعدائهم عليهم ، وأقول لك إنه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبواب البلاد في الساعة التي يريدونها ، فيمنحوه في مقابل ذلك عرش البلقان وتاجه ، وقد دعاني الساعة ليشركني معه في هذه الجريمة التي يريد اقترافها ، ويسألني أن أساعده عليها ، فلم أر بداً من أن أرفع أمره إليك ؛ أما البرهان الذي تريده فها هو ذا ؛ ومدت يدها إليه بتلك الوثيقة فتناولها الملك ذاهلاً وأخذ يقرؤها ، وهو يرتعد ويرتجف ، ويقول في نفسه : ماذا أرى ؟ إخلاء الحدود ! اجتياز الجبال ! العرش ! التاج ! ختم برانكومير يا للهول ويا للفظاعة ! ثم نظر إلى قسطنطين ، فإذا هو تمثال جامد لا يتحرك ، ولا يطرف[2] ، فتقدم نحوه خطوة ، وقال : ما هي كلمتك يا قسطنطين ؟ فصمت ، ولم يقل شيئاً فالتفتت بازيليد ، وقالت له : أتستطيع أن تنكر شيئاً مما أقول ؟ فأوثقته وثاقاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، إلا أنه رفع رأسه ونظر إليها نظرة غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يريد بها ، ثم عاد إلى صمته وإطراقه ، فهاج الجند وأخذوا يصيحون : القتل القتل !

---

(١) الأرقم : أخبث أنواع الأفاعي .

(٢) يطرف : يحرك جفنه .

الانتقام الانتقام ! وظل الملك يشير إليهم بيده يدعوهم إلى السكون والهدوء حتّى هدأوا . فتقدم نحو قسطنطين خطوة ثانية ووضع يده على كتفه وسأله مرة أخرى : ماذا تقول يا قسطنطين ؟ دافع عن نفسك . فإن سكوتك حجة عليك ، لا تصمت ، ولا تطرق ، وقل كلمة واحدة فإني أصدقك في كل ما تقول ، فاستمر في صمته وإطراقه . وهـــو يقول في نفسه : كيف أدافع عن نفسي وأي سبيل أسلكه إلى ذلك . والسبل جميعها وعرة شائكة . لا تقوى قدمي على اجتيازها ، إنني لا أستطيع أن أبرىء نفسي إلا إذا اتهمت أبي ، وقد قتلته مرة فلا أقتله مرة أخرى ! ثم ابتسم ابتسامة المتعض . وقال في نفسه : قد كنت أطلب الموت بكل سبيل حتّى جاءني يسعى إليّ بقدميه . فلم أخشاه وأرتاع منه ؟ فليكن ما أراد الله أن يكون . ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له : ليس عندي ما أقوله لك يا سيدي فاصنع بي ما تشاء .

فصاح الجمهور : ليسقط الخائن ! ليقتل المجرم ! وهجموا عليه ليفتكوا به ، فاعترض الملك طريقهم وقال لهم : دعـــوه وشأنه ، فإن أمره موكول إلى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكر الآن في الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمايته ، ودفع هذه النازلة الملمة بنا . فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب ، وأنا قائدكم .

ثم التفت إلى الحرس وأمرهم بالقبض على قسطنطين والذهاب به إلى السجن حتّى يفصل القضاء في أمره .

فهتف به قسطنطين وقال : لي كلمة واحدة أحب أن أقولها لك يا مولاي ، فذهب بازيليد ، وارتعد لازار ، واشرأب القوم بأعناقهم ، والتفت إليه الملك وقال : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أنت تعلم يا مولاي أنني جندي قديم ولدت في ساحة العرب ، وقضيت حياتي في ميادينها ، ولا أمنية لي في الحياة غير أن أموت فيها ؛ وأنت الآن قائد الجيش وصاحب الأمر والنهي فيه ، فأذن لي أن أسير في ركابك جندياً صغيراً ، لا قائداً ولا أميراً ، لأقاتل معكم حيث تقاتلون ، ولك عليّ عهد الله وميثاقه ألا أعود من تلك المعركة إلا منتصراً أو محمولاً على الأعواد[1] إلى حيث آوي إلى منزلي الأخير الذي لا رجعة لي منه ، علني أكفر بذلك عن زلتي التي زللتها ، وأنتقم من نفسي بنفسي ؛ فعجب الملك لأمره وظل يردد نظره في وجهه هنيهة وكأن نفسه كانت تحدثه ببراءته وطهازته ، إلا أنه لم يلبث إلا قليلاً حتى زوى وجهه عنه[2] وقال له : لا أستطيع أن آذن لك بشيء ؛ فالموت في ساحة الحرب منزلة لا ينالها إلا الأمناء المخلصون !.

فتنفس الجميع الصعداء[3] وخرج الملك تحيط به جنوده وحراسه وهو يردد بينه وبين نفسه : وارحمتاه لك أيها الفتى المسكين ! المسكين !

فتقدم الحراس إلى قسطنطين فقيدوه ، وجاءت بازيليد فوقفت

---

(١) النعش .
(٢) زوي وجهه : قبضه .
(٣) نفساً طويلا .

بجانبه وقال بصوت خافت لا يسمعه سواه : نعم ، إنني سأقضي ما بقي من أيام حياتي حزينة باكية متألمة كما قلت ، ولكني قد انتقمت لنفسي بنفسي وحسبي ذلك وكفى ، فلم يرفع نظره إليها احتقاراً وازدراء ، بل رفع رأسه إلى السماء وقال : قد كنت أسألك الموت يا رب في كل حين ، وأضرع إليك فيه ليلي ونهاري ، فبعثت به إليّ ولكن في أفظع صورة وأهولها ، فامدد إليّ يد معونتك ورحمتك ، لأستطيع أن أشرب الكأس حتى ثمالتها (١) وخذ بيدي في شدتي فقد تخلى الناس جميعاً عني ، وأصبحت أحتمل ما أحتمل من الآلام وحدي ، وليس بجانبي من يخفف لوعتي ، أو يمسح بيده دمعة من دموعي .

فخرجت ميلتزا من وراء ستار كانت مختبئة في طياته ، وتقدمت نحوه وجثت تحت قدميه الموثقتين وقالت له : لست وحدك يا مولاي فهأنذا ! فتهلل وجهه بعد عبوسه وقال : أحمدك اللهم حمداً كثيراً . ثم خرج مع الجنود يرسف في قيوده حتى وصلوا به إلى السجن فأودعوه وأوصدوا الباب من دونه ، فربضت ميلتزا على عتبة الباب ربوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تندبه وتبكيه بكاء تهتز له جـوانب الأرض وتتداعى له أركان السماء !.

---

(١) الثمالة البقية الأخيرة في الكأس .

التمثال

انتصر الملك في الواقعة التي حضرها وقاد فيها الجيوش بنفسه انتصاراً عظيماً كان الفضل الأكبر فيه لتلك الروح الدينية التي كان يبثها في نفوس جنده أثناء المعركة. فقد كان يمشي بين الصفوف بطيلسانه الأسود، والصليب في يده، يهتف باسم المسيح والمسيحية، وينادي: دافعوا يا أبناء يسوع عن دينكم وكنيستكم، واعلموا أنكم إن غلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة الدهر، وهم يستبسلون ويستقتلون ويصبرون للموت صبر الكرام، حتى برقت لهم بارقة النصر، فأطبقوا على جيوش العدو من كل جانب. وتقهقرت أمامهم إلى ما وراء الحدود وتخلت عن جميع المعابر والجبال التي اجتازتها بالأمس، فاحتفل الشعب بهذا النصر احتفالاً عظيماً دام عدة أيام. ولم يكن للناس حديث فيه سوى حديث قسطنطين وجريمته التي اجترمها والجزاء الذي سيلقاه في سبيلها وكلهم يتمنى بجدع أنفه[1] أن يشاهد مصرعه، ويرى دماءه تتدفق

(١) جدع الأنف: قطعه.

من بين لحييه [1]

ولم يزل هذا شأنهم حتى دنا اليوم الذي يجتمع فيه مجلس القضاء للنظر في تلك القضية ، فذهب الملك ليلة المحاكمة إلى السجين في سجنه ، وخلا به ساعة يسأله عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها ، وحاول في ذلك محاولة كثيرة ، فلم ينطق بشيء ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عي الملك بأمره [2] فأمر بإخراجه من السجن إلى الساحة العامة المقام فيها تمثال أبيه ، وأمر أن يشد بأغلال إلى قاعدة التمثال نكاية به وتمثيلاً ، ثم قال له : أنظر أيها الخائن ماذا بنى أبوك لنفسه من المجد ؛ وماذا صنعت يدك بذلك البناء الذي ابتناه ! وتركه وانصرف .

فلما انفرد بنفسه أطرق ساعة يفكر في شأنه وفي مصيره الذي صار إليه ، ثم رفع رأسه إلى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كل عين فيه حتى عيون العسس والحراس ، فأنشأ يناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجل مجدك وعظمتك وتمثالك الشامخ الرفيع الذاهب يعلوه في آفاق السماء !

هنيئاً لك الصيت البعيد والشهرة الذائعة والشرف الخالد المسجل لك في صفحات التاريخ ؛ وأن الناس لا يمرون بتمثالك حتى يجثوا تحت قاعدته جثيهم تحت قدمي الإله المعبود !.

---

(١) اللحيان : منبتا شعر اللحية على الجانبين ؛ يريد عنقه .
(٢) تحير الملك في أمره .

أترى بعد ذلك أنك مظلوم أو مغبـون ، أو أن الضربة التي أصابتك من يدي قد حرمتك شيئاً في هـذه الحياة تندبه وتأسف عليه ؟.

لقد كنت في الساعة الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن بينك وبين الانحدار إلى قبرك إلا بضع خطوات قصار ، فكل ما كان مني لك أنني أنقذتك من تلك الميتة الدنيئة السافلة التي كنت تريدها لنفسك ، وقدمت لك بدلاً منها ميتة شريفه مقدسة ترمقها العيون وتنقطع من دونها الأعناق ، وألبستك تاجاً أشرف من ذلك التاج الذي كنت تطلبه وتسعى إليـه وأجلستك على عرش أرفع من جميع عروش الأرض ، وهو عرش التاريخ !.

لا تستبق في نفسك شيئاً من الضغن عليّ ، ولا تضمر لي في قلبك وأنت في عالم الحقيقة المجردة الذي لا يخالطه كذب ولا رياء ، غير ما يجب على المريض المبل[1] أن يضمره لطبيبه الذي شفاه من دائه ، وأنقذه من شقائه ، فإن كان لابد لك أن ترى أنني أجرمت إليك ووترتك[2] فهأنـذا أكفر عن جريمتي بأعظم ما كفر به مجرم عن جريمته !.

انظر يا أبت مـاذا صنعت فعلتك التي فعلت بولدك. ها هو الغل يحيط بعنقه حتى كاد يخنقه ، وها هي القيود تعض قدميه وتدميهما وها هو السيف مجرد فوق هامته لا تطلع الشمس

---

(١) أبل المريض : نجا من مرضه .
(٢) وتره : أصابه مكروه .

من مشرقها حتى يسقط عليها فيفصلها عن جثتها ؛ وها هم الناس جميعاً رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً. يلعنونه بألسنتهم وقلوبهم في كل مكان، ويضمرون له من الحقد والبغضاء ما لو امتد إلى جسمه لأحرقه وأحاله رماداً بارداً !.

أنت المجرم وأنا المعاقب، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك، أنت الممتع بنعمه الشرف العظيم الذي لا تستحقه، وأنا المتسربل بسربال الخيانة الدائمـة التي لا أستحقها ؟ لقد أخطأ القدر في أمرنا مرتين فرفعك من حيث تستحق الوضع، ووضعني من حيث أستحق الرفع ولو أنه أنصف في حكمه بيننا لأخذ كل منا مكان صاحبه، فأصبح التمثال لي، وأصبح السجن لك !

هنيئاً لك مجـدك وشرفك وصيتك وسمعتك، أهنئك لا تهنئة الهازىء الساخر، بل تهنئة الفارح المغتبط لأنك أبي ورئيس أسرتي، وسيد قومي وحبيب إلي جداً أن يعيش أبي عظيماً في حياته وبعد مماته !. »

إن آلامي يا أبت عظيمة جداً لا تستطيع أن تحتملها نفس بشرية في العالم ولكن يهونها علي أنني أموت من أجلك وفي سبيل مجدك وشرفك وأنني لم أخرج من الدنيـا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفاً من علياء سمائه على جبال البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ماتحتها.

ما أنا بنادم على ما كان ولا خائف ممـا يكون، فليأت

الموت إليّ في الساعة التي يريدها ، فقــد قمت بواجبي لك ولبلادي ؛ وحسبي ذلك وكفى .

كان لابد لي أن أقتلك ففعلت ؛ ولكنني قتلتك فيجب أن أقتل بك ، كلانا أجرم وكلانا لقى جزاء إجرامه .

أجرمت إلى الوطن فانتقمت له منك وأجرمت إلى الطبيعة فمن العدل أن تنتقم لنفسها مني ؛ فما ظلم أحد منا صاحبه ولا اعتدى عليه .

ارفع رأسك أيها الرجل تيهاً وعجباً ، وزاحم بمنكبيك أجرام السماء وكواكبها ؛ فقد غسل ابنك بدمــه جرمك وعارك ، فإن لم تكن شريفاً بنفسك فحسبك شرفاً انك والد الولد الشريف .

ولم يزل في مناجاته هذه حتى مضت هدأة من الليــل ، فالتف بردائه ووضع رأسه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه إلى نوم طويل .

النهاية

ازدحم الناس يوم المحاكمة في الساحة الكبرى ازدحاماً عظيماً ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلن حكمه أمام المتهم ، والمتهم هادىء ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظر شيئاً ، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحتم ، وقد وطن نفسه عليه فلم يعد يحفل به .

وإنهم لكذلك إذ أقبل الملك تحيط به حاشيته ، فاشرأبت إليه الأعناق لسماع كلمته . ولم يزل سائراً بين الصفوف حتى وقف أمام المتهم فنظر إليه نظرة طويلة ، ثم صاح بأعلى صوته : يا قسطنطين برانكومير إن الجريمة التي اقترفتها عظيمة جداً لا يفي بهـا قتلك وسفك دمك لذلك رأي مجلس القضاء أن يحكم عليك بالحياة بدلاً من الموت ... فقاطعته الجماهير : الموت الموت ! لابد من قتله ! لا يمكن أن يعيش ! فأشار إليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقية كلامه ، فهدأوا ، فاستمر يقول : وان تظل طول أيام حياتك مقروناً بأغلالك هذه إلى قاعدة تمثال أبيك ، ليتردد وجهه في وجهك ليلك ونهارك ، فتموت في مكانك حياء منه وخجلاً ، وأن يؤذن لكل مار

بك من علية الناس وغوغائهم أن يبصق على وجهك ويصفعك على قذالك ، وينال منك ما يشاء إلا أن يسلبك حياتك .

فصاحت الجماهير : يعيش الملك يحيا العدل ! يسقط الخائن ، وظلوا يرددون هذه الكلمات وأمثالها وقتاً طويلاً .

هنا ذرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذي لم يبك في يوم من أيام حياته لضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رشقة سهم ، وعلا صوت نحيبه ونشيجه كما تفعل النساء الضعيفات في مواقف حزنهن وثكلهن ، وما كان مثله من يبكي أو يذرف دمعة واحدة من دموعه لو أن الذي كتب له في صحيفة الغيب من الشقاء كان الوقوف بين السيف والنطع [1] ، أو السقوط بين آلات العذاب تنال من جسمه وأطرافه ما تشاء ؛ ولكنه الشرف ، شديداً جداً على صاحبه أن تنزل به نازلة مذلة ، أو يتصل به ظفر جارح من أظفار الهوان فإذا شعر بشيء من ذلك هاله الأمر وراعه ، وخارت عزيمته ؛ ووهنت قوته ، فبكى بكاء الضعفاء ، وأعول إعوال النساء . ولقد رضي قسطنطين من حظه من الحياة بالموت فراراً من العار الذي لحقه ؛ وهرباً من نظرات الناظرين إليه ، وموجدة الواجدين عليه ، أما وقد علم أنه سيعيش والعار معاً رفيقين متلازمين لا يفترقان ولا ينفصلان ، فلم يبق بين يديه سبيل غير البكاء .

---

(١) النطع : فرش من جلد كان يبسط للمحكوم عليه بالموت ليذبح فوقه فهو بين السيف من فوقه والنطع من تحته .

فبكى ما شاء الله أن يفعل . وأخذ يردد بينه وبين نفسه : يا للبؤس ! ويا للشقاء ! لقد استحال عليّ كل شيء حتى الموت !

ثم رفع طرفه إلى السماء ، وقال بصوت خافت متقطع : رحمتك اللهم وإحسانك ، فقد أصبحت عاجزاً ضعيفاً لا أملك من شئون نفسي شيئاً فامدد إليّ يد عنايتك ولطفك لأستطيع أن أتمم واجبي إلى النهاية !

وهنا وقف لازار فوق هضبة مرتفعة — وكان لا يزال رأس الفتنة وشعلتها — وأخذ يصرخ بصوت عال قائلاً : إن رأى مولانا الملك أن يأذن لنا بتنفيذ أمره الساعة .. فقد أوشكت صدورنا أن تنفجر ؛ فصاح الجمهور من ورائه صيحته ، ودعوا بمثل دعوته ! فاصفر وجه الملك وارتجفت أطرافه ارتجافاً خفيفاً ، ثم قال بصوت خافت متهافت : لكم ما تشاءون ! وتحول من مكانه يريد الإنصراف .

وهنا برزت ميلتزا من بين الجماهير ، واندفعت نحو قسطنطين تسبق المندفعين إليه ، وهي تقول : فليبق لك أيها المسكين على الأقل قلب واحد يرحمك ويعطف عليك ! وضمته إلى صدرها كأنما تريد أن تقيه بنفسها ، فسمع الملك صوتها فالتفت فرآها ، ولم يكن يعرف من شأنها شيئاً ، فعجب لأمرها وأشار إلى الجماهير بالسكوت حتى يعلم ما خطبها ، ثم مشى نحوها وقال لها : أتعلمين أيتها الفتاة من هذا الذي تحمين ، وما جريمته التي اقترفها ! فرفعت رأسها إليه وألقت

عليه نظرة الليث في عرينـــه ، وقالت له : لا أعلم من أمره شيئاً سوى أنني أحبه ، ولا آذن لأحد أن ينـــاله بمكروه وفيّ بقية رمق من الحياة ! قال : إنه ارتكب جريمة الخيانة الكبرى للأمة والوطن ، وقد حكم عليه مجلس القضاء بالتعذيب ، ولا بد من إنفاذ حكمه ، قالت : إن الحب فوق العـــدل وفوق القانون وفوق كل شيء في العالم فمزقوني إرباً إرباً لتستطيعوا أن تصلوا إليه .

فلمعت في ثغر قسطنطين ابتسامة في وسط هذه الدجنة الحالكة[1] من الهموم والأحزان . وضمها إلى نفسه وقال لها : شكراً لك يا ميلتزا .

فقد أحييت نفسي الميتة ، وسريت عني همومي وآلامي ، ذودي عني يا صديقتي وصوني وجهي من العار الذي يريدون أن يلصقوه به فلم يبق لي في العالم من يرحمني ويعطف عليّ سواك ! .

وأخذت الجماهير تصيح : اقتلوهما معاً : مزقوا جسميهما بالسيوف وانثروا أشلاءهما في الفضاء .

ثم تدافعوا نحوهما تدافع الصخور الهائلة من أعالي الجبال ، فصاحت ميلتزا : أيتها الوحوش الضارية . والخلائق الساقطة ، مهما كثر عددكم ، وعظمت قوتكم ، فإنكم لن تستطيعوا

---

(١) الظلمة الحالكة .

أن تصلوا إليه أو تلحقوا به إهانة من الإهانات التي تضمرونها في نفوسكم ، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فاعلموا أنني أنا الفتاة الضعيفة المسكينة قادرة على أن أخلصه من أيديكم ! فلم يحفلوا بكلامها ، ولم يفهموا غرضها ، واستمروا في اندفاعهم وتدفقهم .

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذي شخصت له الأبصار وذهلت له العقول وجمدت لمنظره الدماء في العروق ، فقد علمت ميلتزا أن القضاء واقع لا مفر منه ، وأن القوم لا بد بالغون من قسطنطين ما يريدون ، وأن لا طاقة لها بحمايته والذود عنه ، وهالها هولا عظيماً وكبر في نفسها أن ذلك الوجه الشريف المتلألىء بنور الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يصبح هدفاً دنيئاً لهؤلاء الغوغاء الثائرين ، يلطمه من يلطم ويبصق عليه من يبصق ، فلما أصبحوا على مقربة منها ، ولم يبق بينهم وبينهما إلا بضع وثبات ، حنت عليه وهمست في أذنه قائلة : في استطاعتك يا سيدي أن تنجي نفسك بكلمة واحدة تعترف فيها بكل شيء ! فرفع طرفه إلى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر إليها نظرة دامعة حزينة وقال : « لا أستطيع » !

فجردت من منطقتها خنجرها الذي كانت قد استهدته إياه فيما مضى ، ورفعته في الهواء ثم طعنته به في صدره طعنة نجلاء ، وهي تقول : مت شريفاً أيها الرجل العظيم كما عشت شريفاً ، وسأتبعك إلى سمائك التي تصعد إليها ؛ فسقط مدرجاً

بدمائه ، وهـــو يقول بصوت ضعيف متقطع : شكراً لك يا ميلتزا .

وكان القوم قد بلغـــوا موقفهما ، فرفعت الخنجر مرة أخرى وطعنت نفسها فترنحت قليلاً ثم سقطت على مقربة منه ، وكان لا يزال يعالج السكرة الأخيرة ، ففتح عينيه فرآها ، فأخذ يسحب نفسه سحباً حتى بلغ مصرعها ، فألقى يده عليها وظل يجذبها نحوه كأنما يحاول أن يضمها إلى نفسه فلم يستطع ، فسقط رأسه على صدرها فشعرت به فضاءت ما بين شفتيها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن أنطفأت وتغلغت في ظلمات الموت . وظلا على هذه الحالة حتى فاضت نفساهما .

فأثر هذا المنظر الرهيب في نفوس الجماهير ، وسكنوا في مواقفهم سكوناً عميقاً لا تتخلله نأمة ولا حركة ، وظلوا على ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوت خشن أجش تخالطه رنة الحزن والأسف قائلاً : أيهـــا المسيحيون صلوا جميعاً لهذين البائسين الشقيين ، واسألوا الله لهما الرحمة والغفران .

ثم رفع قلنسوته وجثا على ركبتيه ، فرفع القوم قبعاتهم وجثوا حول الجثتين وأخذوا يتلون صلواتهم بنغمة حزينـــة مؤثرة ، كأنما هم يبكون عزيزاً عليهم ، أو شهيداً من شهدائهم ، وما فعلوا غير ذلك لو كانوا يعلمون ...

* * *

ظلت هذه الحقيقة مجهولة لا يعلمها أحد من الناس خمسة وثلاثين عاماً ، حتى حضر « بازيليد » الموت ، فظلت تهذي بها في مرضها وترددها في يقظتها وأحلامها ، وتتألم لذكراها ألماً شديداً على مسمع من كاهنها وعوادها ، حتى فاضت روحها ؛ فعلم الناس ولكن بعد عهد طويل ، وبعد أن تبدلت شئون البلقان غير شئونه — أن « قسطنطين برانكومير » أشرف الناس وأفضلهم ، وأعظمهم وطنية وإخلاصاً ، لأنه ضحى أباه في سبيل إنقاذ وطنه ، ثم ضحى نفسه في سبيل إنقاذ شرف أبيه ، فبلغ في وطنيته وشرف نفسه الغاية التي لا غاية وراءها .

« تمت »

القسم الخامس

الشاعر



سيرانو دي برجراك

للشاعر الفرنسي العظيم

إدمون روستان

إهداء

إلى الشعراء

مؤلف هذه الرواية شاعر وبطلها شاعر . وأكثر أشخاصها شعراء ، وموضوعها الشعر والأدب ، وعبرتها أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات ، وأنها هي التي يهيم بها الهائمون ، ويتوله المتولهون ، حين يظنون أنهم يعشقون الصور ويستهيمون بمحاسن الوجوه .

لذلك أقدمها هدية إلى الشعراء فهم رجالها وأبطالها وأصحاب الشأن فيها ، ولا أطلب منهم جزاء عليها أكثر من أن أراهم جميعاً في حياتهم الأدبية والاجتماعية : سيرانو دي برجراك .

أول مايو سنة ١٩٢١

مصطفى لطفي المنفلوطي

مقدمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندي على هذه الرواية التي عربها عن اللغة الفرنسية تعريباً حرفياً حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة ، وطلب إليّ أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلت ، واستطعت في أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة ، وأن أستشف أغراضها ومغازيها التي أراد المؤلف أن يضمنها إياها فأعجبني منها الشيء الكثير ، وأفضل ما أعجبني منها أنها صوّرت التضحية تصويراً بديعاً وهي الفضيلة التي أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الإنسانية ونقطة دائرتها ، فرأيت أن أحوّلها من القالب التمثيلي إلى القالب القصصي ، ليستطيع القارىء أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل . وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيدت نفسي به تقييداً شديداً، فلم أتجاوز إلا في حذف جمل لا أهمية لها وزيادة بعض عبارات اضطرتني إليها ضرورة النقل والتحويل واتساق الأغراض والمقاصد ، بدون إخلال بالأصل و الخروج عن دائرته ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي أبعينه ، إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين ومقدرة الكاتبين وما لا بد من عروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى وخاصة إذا قيّد المعرب نفسه وحبس قلمه عن التصرف والافتنان .

مصطفى لطفي المنفلوطي

أشخاص الرواية

سيرانو دي برجراك

شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر نشأ غريباً في أطواره وأخلاقه متفرداً بصفات قلّ أن تجتمع لأحد من معاصريه ، فكان جامعاً بين الشجاعة إلى درجة التهور ، والخجل إلى درجة الضعف ، وبين القسوة إلى معاقبة أعدائه على أصغر الهفوات ، والرقة إلى البكاء على بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حرفته ، وكان كريماً متلافاً لا يبقي على شيء مما في يده ، وعفيفاً لا يمدّ يده إلى مخلوق كائناً من كان ، وصريحاً لا يتردد لحظة واحدة في مجابهة صاحب العيب بعيبه كيفما كانت النتيجة المترتبة على ذلك . فكان عدو الكاذبين والمرائين والمغرورين والسفلة والمتملقين ، أي أنه كان عدواً للهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها تقريباً ، كما كانت عدوة له كذلك، لا تهدأ عن مشاكسته ومناوأته وابتغاء الغوائل به .

ولم يكن له من الأصدقاء إلا أفراد قلائل جداً هم الذين يفهمون حقيقة نفسه وجوهرها ويقدّرونه قدره وقدر صفاته الكريمة التي كان يتصف بها .

وكان الخلق الغالب عليه من بين جميع أخلاقه خلق العزة والأنفة فكان شديد الاحتفاظ بكرامته والضن بعرضه أن ينال منهما نائل أو يعبث بهما عابث ، وكان لا يرى في أكثر أوقاته لا مبارزاً أو مناضلاً أو ثائراً أو مهتاجاً واضعاً يده على مقبض

سيفه أو ملقياً قفازه على وجه خصمه ، شأن الفوارس الأبطال في ذلك العصر .

وكانت بليته العظمى في حياته ومنبع شقائه وبلائه أنه كان دميم الوجه كبير الأنف جداً إلى درجة تلفت النظر وتستثير الدهشة ، وكان يعلم ذلك من نفسه حق العلم ويتألم بسببه تألماً كثيراً لأنه كان عاشقاً لابنة عمه « روكسان » الشهيرة بجمالها النادر وذكائها الخارق ، وكان يعتقد أن المرأة مهما سمت أخلاقها وجلت صفاتها لا يمكن أن تقع في أحبولة غرامية غير أحبولة الجمال ولا تعني بحسن إلا بحسن الوجوه والصور ، فكان وهو أشجع الناس وأجرؤهم وأعظمهم مخاطرة وإقداماً لا يجسر أن يفاتح حبيبته هذه في شأن حبه حياء من نفسه وخجلاً .

فكان أنفه سبب شقائه من جهتين : أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه إلى السخرية به والتهكم عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله ، فكان النزاع بينه وبينهم دائباً لا ينقطع ، وكان لا ينتهي غالباً إلا بمبارزة يخرج منها في الغالب فائزاً منتصراً ولكن كثير الخصوم والأعداء .

وكان جندياً في فصيلة شبان الحرس من الجيش الفرنسي وكان أفراد تلك الفصيلة جميعهم من الجاسكونيين مثله ، وهم قوم معروفون بخشونة الأخلاق ووعورتها وبكثرة التبجح والادعاء والغرور والكذب ، ولهم مع ذلك فضيلة الشجاعة والصبر والقناعة والشرف وعزة النفس ، وكان سيرانو متصفاً بحسناتهم مترفعاً عن سيئاتهم فكان له في نفوسهم أسمى منزلة من الإجلال والإعظام ،

وكانوا يحبّونه حباً شديداً ويذعنون لرأيه ويستطرفون أحاديثه ودعاباته ويفاخرون به وبنبوغه وشجاعته وجرأته وصراحته ، كما كان يفخر بهم وبعصبيتهم ، وكان من أسوإ الشعراء حظاً في حياته فقد قضى عمره كله خاملاً مغموراً ، يجهل الدهماء قدره لأنهم لا يفهمونه ، وينكر الأدباء فضله لأنهم يبغضونه ويجدون عليه وينقمون منه خشونته وشدّته في مؤاخذتهم ونقدهم ، فلم يكن يحفل بذلك كثيراً لأنه كان مخلصاً لا يهمه إلا أن يكون عظيماً في عين نفسه ثم لا يبالي بعد ذلك بما يكون .

وكثيراً ما كان ينظم الرواية الجليلة ذات المغزى العظيم والأسلوب الرائق فلا يفكر في إهدائها إلى أحد من العظماء ليتوسل بذلك إلى نشرها وترويجها وحمل الفرق التمثيلية على تمثيلها كما كان يفعل الشعراء في عصره ؛ أنفة وإباء وضناً بنفسه أن يقف موقف الذل والضراعة على أي باب من الأبواب كيفما كان شأنه ، وربما سرق بعض الروائيين قطعاً من رواياته فضمنوها رواياتهم وانتفعوا بها فلا يغضبه ذلك ولا يزعجه ، وكل ما كان يفكر فيه أو يسأل عنه في هذا الموقف : ماذا كان وقع تلك القطعة في نفوس الجماهير حينما سمعوها ؟

ولقد أخلص في حبه لابنة عمه « روكسان » إخلاصاً لم يسمع بمثله في تاريخ الحب ؛ فأحبها وهي لا تعلم بحبه ، وتألم في سبيل ذلك الحب ألماً شديداً وهي لا تشعر بألمه وأحبت غيره فلم يحقد ولم ينتقم بل كان أكبر عون لها في غرامها الذي اختارته لنفسها ، ولم يلبث أن اتخذ حبيبها الذي آثرته صديقاً له وأخلص في مودته إخلاصاً عظيماً وأعانه على استمرار صلته بها وبقاء حبه في قلبها ؛ لأنه ما كان يهمه شيء في العالم سوى أن يراها سعيدة في حياتها

مغتبطة بعيشها ، وهذا كل حظه في الحياة .

ولم يزل هذا شأنه طول حياته حتّى خرج من دنياه ولم تعلم روكسان بسريرة نفسه إلا في الساعة الأخيرة التي لا يغني عندها العلم شيئاً .

روكسان

ابنة عم سيرانو دي برجراك ، وهي فتاة شريفة متعلمة وافرة الفضل والذكاء عالية الهمة عفيفة الذيل مولعة بالشعر والأدب ، إلا أنها كانت تذهب في ذوقها الأدبي مذهب النساء المتحذلقات في ذلك العصر ، أي أنها كانت كثيرة التكلف في أحاديثها وإشاراتها ، وكان لا يعجبها من الكلام إلا ذلك النوع الذي يسمّونه بالصناعة اللفظية ، ولا من المعاني إلا تلك الخيالات الطائرة الهائمة على وجهها التي لا أساس لها في الحياة ولا وجود لها في فطرة النفس وطبيعتها .

وقد نشأت يتيمة منقطعة لا أهل لها ولا أقرباء إلا ابن عمها سيرانو ، إلا أنها كانت تعيش عيشاً رغداً هنيئاً بفضل الثروة الواسعة التي ورثتها عن أبويها .

فأحبها كثير من النبلاء والأشراف وعرضوا عليها الزواج فلم تحفل بهم وأحبها « الكونت دي جيش » وهو أحد قواد الجيش الفرنسي وكان متزوجاً بابنة أخت الكردينال دي ريشلييه ؛ فأراد أن يستخدم نفوذه وجاهه في حملها على الزواج من فتى من أشياعه اسمه الفيكونت فالفير على الطريقة المعروفة في ذلك العهد عند الملوك والنبلاء ، فدفعته عنها برفق وحكمة خوفاً على نفسها منه ، وظلّت تماطله زمناً طويلاً حتّى أحبها البارون كرستيان

دي نوفييت فأحبته وأخلصت له إخلاصاً عظيماً ، ولم يكن في الحقيقة متصفاً بصفات الفطنة والذكاء والنبوغ التي كانت تظنها مجتمعة فيه ، لولا الحيلة الغريبة التي احتالها عليها سيرانو حتى أوهمها ذلك ، وهنا نكتة الرواية وبيت قصيدها ، ثم تزوجت منه بعد ذلك زواجاً سرياً ، ولكنها لم تكد تضع شفتها على الكأس حتى انتزعت منها ، وكان هذا آخر عهدها بسعادة الحياة وهنائها .

كرستيان دي نوفييت

نبيلاً من نبلاء الريف وفد إلى باريس ليلتحق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي كما كانت عادة الأشراف في ذلك العهد وهي الفرقة التي كان يعمل فيها سيرانو ، وكان فتى جميل الصورة شريف النفس طيب القلب إلا أنه كان أقرب إلى البلادة منه إلى الذكاء ، فوقع نظره على روكسان في حانة بورجونيا فأحبها وأحبته على البعد ، وكان قد علم من أمرها أنها فتاة قديرة متفوقة ذكية الفؤاد غزيرة العلم قوية الإرادة ، لا يعجبها من الرجال إلا الأذكياء المتفوقون ، فهاب الدنو منها ومفاتحتها في شأن حبه ، وخشي أن يسقط من عينها سقطة لا قيام له من بعدها ولم يزل هذا شأنه حتى أدركه سيرانو واحتال له تلك الحيلة الغريبة المدهشة التي جعلت روكسان تعتقد أنها قد أحبت أذكى الناس وأسماهم عقلاً وأبعدهم غوراً وأطلقهم لساناً وأبلغهم قلماً ، لا يريد بذلك إلا سعادتها وهناءها وهو يتهالك بينه وبين نفسه غماً وكمداً ، لأنه وهو ظامئ هيمان يقدم الكأس بيده للشاربين ولا يذوق منها قطرة واحدة .

الكونت دي جيش

أحد قوّاد الجيش الفرنسي وهو من أصل جاسكوني كسيرانو وروكسان ، إلا أنه كان يذهب في حياته مذهباً غير مذهب أبناء جلدته الجاسكونيين في قناعتهم وخشونتهم وبساطة عيشهم ، بل كان رجلاً واسع المطامع شغوفاً بالمعالي متطلعاً إلى المناصب العليا والمراتب الكبرى ، وقد تم له ما أراد من ذلك بجهده واجتهاده فأصبح قائداً من قواد الجيش الفرنسي وصهراً للكردينال دي ريشلييه .

وقد رأى روكسان في طريقه مرة فشغف بها شغفاً عظيماً ، وأراد أن يضمها إليه من طريق تزويجها من أحد صنائعه فاحتالت للخروج من ذلك المأزق بحيلة لطيفة جداً ، وتزوجت من الرجل الذي أحبته بمعونة ابن عمها سيرانو ، فعاداها الكونت من أجل ذلك وانتقم منها ومن زوجها ومن سيرانو انتقاماً هائلاً .

لينيير

شاعر مسكين من أصدقاء سيرانو نظم قصيدة طويلة هجا بها الكونت دي جيش وعرض فيها بقصته مع روكسان وفضح جريمته التي أراد أن يقترفها معها ، فحقد عليه الكونت حقداً شديداً ، ودس له كميناً مؤلفاً من مائة رجل ليقتلوه عند رجوعه إلى منزله ليلاً ، لولا أن أدركه سيرانو وأعانه على أعدائه فنجا .

لبريه

أحد أصدقاء سيرانو المخلصين ، ينصحه دائماً بالهدوء والسكينة

وينعى عليه شدته وصرامته في أخلاقه وطباعه ، وينصح له باتخاذ خطة في الحياة تناسب البيئة التي يعيش فيها رحمة بنفسه وإبقاء على راحته وسكونه ، فلا يحفل بنصحه لأن له رأياً في الحياة غير رأيه ومذهباً غير مذهبه ، ولم يكن اختلافهما هذا في المشرب والخطة مانعاً لهما من الصداقة والإخلاص ووفاء كل منهما لصاحبه حتى ما كانا يستطيعان الافتراق ساعة واحدة .

مونفلوري

أحد الممثلين في حانة بورجونيا ، وكان مشهوراً بحسن إلقائه لرواية « كلوريز » تأليف الروائي الشهير « بارو » .

وكان سيرانو يبغضه ويستثقل حركاته التمثيلية وينقم عليه إعجابه بنفسه على قبحه ودمامته ، ويأخذ عليه كثرة ترديد نظره أثناء التمثيل في مخادع السيدات يحاول افتتانهن واجتذاب قلوبهن وقد رآه مرة ينظر إلى روكسان نظرة مريبة فتعلل عليه بعض العلل وأمره أن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملاً ، فحاول الامتناع عليه وعصيان أمره فأنزله من المسرح بالقوة وطرده رغم دفاع الكثيرين من الأشراف والنبلاء عنه وخاصة الكونت دي جيش .

راجنو

طباخ مشهور يبيع في حانوته الكبير أفخر أنواع المطاعم من شواء وفطائر ، وحلوى ، وكان محباً للشعر والأدب والتمثيل عطوفاً على البؤساء من الشعراء والممثلين ، وكان يستقبلهم في حانوته استقبالاً حافلاً ، ويقدم لهم على حسابه ما يقترحون من طعام وشراب ، وكان كل حظه منهم أن يجلس إليهم ويسمع

محاوراتهم الأدبية ويلتقط ما يتناثر حولهم من مسودات أشعارهم وفصولهم ويسمعهم ما ينظمه من الشعر الضعيف التافه فيتظاهرون باستحسانه والإعجاب إبقاء على مودته ، حتى أدركته حرفة الأدب فأفلس ، وأغلق حانوته ، فأعانه سيرانو على شؤون حياته وكان من أكبر أنصاره والمتشيعين له ، ولكن الحظ كان قد فارقه فلم ينجح في عمل من الأعمال التي اشتغل بها وظل البؤس ملازماً له طول حياته .

ليز

زوجة راجنو وهي امرأة فاسدة الأخلاق خبيثة النفس ، كانت تهزأ بزوجها وتسخر منه وتنعى عليه اشتغاله بالشعر والأدب واهتمامه بالشعراء والأدباء وعنايته بهم ، وكانت تفضل أن تقدم هي بنفسها الحانوت كله لضابط من ضباط الجيش تعجب به ، على أن يقدم زوجها راجنو لقمة واحدة منه لأديب من الأدباء ، ولما رأت تضعضع حاله وانتكاس أمره فرت مع أحد ضباط الجيش بعد ذلك .

كاربون دي كاستل

قائد فصيلة شبان الحرس وكان كل أفرادها من الجاسكونيين وهو جاسكوني مثلهم فكان يحبهم حباً شديداً ويعطف عليهم ، وكان يعتمد في أعماله على سيرانو ويعده خير جنوده ، والتاريخ يذكر له دفاعه العظيم بفصيلته في ميدان أراس عن الموقع الذي اختار جيش العدو مهاجمته حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية الأسبانية .

الفصل الأول

حانة بوروجونيا

في ليلة من ليالي سنة ١٦٤٠ بدأ الناس يفدون إلى حانة بوروجونيا في باريس لمشاهدة رواية «كلوريز»، وهي إحدى روايات الشاعر المشهور «بلتازار بارو»، ولم يكن للتمثيل في ذلك العصر دور خاصة به، وإنما كانوا يمثلون في الحانات أو المطاعم الكبيرة على مسارح خاصة يعدونها لذلك.

وكان جمهور المشاهدين في تلك الليلة كما هو شأنهم في جميع الليالي خليطاً من العمال والجنود واللصوص والخدم والأشراف والعلماء والكتاب وأعضاء المجمع الفرنسي. وقد اختلط بعضهم ببعض وجلس أخيارهم بجانب أشرارهم، فبينما العلماء يتناقشون في مباحثهم العلمية والأدباء يتحدثون في شؤونهم الأدبية، إذا فريق من الخدم قد ألصقوا شمعة بالأرض واستداروا من حولها حلقة واسعة وأخذوا يقامرون بالمال الذي سرقوه من أسيادهم في ساعات لهوهم واستهتارهم، وآخرون من أبناء الأشراف قد تماسكوا بأيديهم وظلوا يدورون حول أنفسهم راقصين مترنحين، وآخرون من الغوغاء يأكلون ويقصفون[1] ويتسابون ويتلاكمون ويجأرون بأصوات عالية متنوعة كأنهم في سوق من أسواق المزايدة وجماعة من الجند يتلهون بالمبارزة والملاكمة لا يبالون من يطأون

---

(١) القصف: الإقامة في الشرب واللهو.

بأقدامهم ، أو يصيبون بشفرات سيوفهم . وفئة من الصعاليك قد اصطفوا صفاً واحداً بين يدي لص من دهاة اللصوص ومناكيرهم يعلمهم كيف يسرقون الساعات من الصدور ، ويمزقون الجيوب عن الأكياس ، وكيف يتغفلون صاحب المعطف عن معطفه ، والقبعة عن قبعته والعصا عن عصاه ، كأنه قائد يدرب جنوده على الحركات العسكرية . وفتى من المتأنقين المتطرفين يطارد فتاة المقصف [1] من ركن إلى ركن يحاول إمساكها والعبث بها وهي تمتنع عليه وتتأبى تأبياً أشبه بالإغراء منه بالامتناع . وجندي من جنود الحرس قد تغفل البواب عند دخوله وأملس من يده دون أن يدفع إليــه شيئــاً والبواب يطارده ويلاحقه ويأخذ بتلابيبه فيجادل عن نفسه بأنه حارس الملك وحراس الملك أحرار يدخلون من الأمكنة ما يشاؤون . وزمرة من المتأدبين قد انتبذوا ناحية من القاعة وأخذوا يندبون الأدب وحظه وشقاء أهليه وبلاءهم ويقول بعضهم لبعض : أليس من مصائب الدهر ورزاياه أن يقف موقف الممثل بين هذا الجمهور الساقط أمثال « منفلوري » و « بلروز » و « بويريه » و « جودليه » ، وأن تمثل على مثل هذا المسرح الحقير المتبذل روايات أكابر الشعراء الروائيين أمثال « روترو » و « كورني » و « بارو » ؟ .

ولم يكن يضيء تلك القاعة على كبرها واتساعها إلا بضعة مصابيح ضئيلة تتراءى تلك الجماهير على نورها كأنها الأشباح المتحركة ، أو الأرواح الهائمة . وقد يسمع السامع فيها من حين إلى حين في وسط هذه الضوضاء صوت فتاة المقصف ، وهي تصيح خلف مقصفها بصوتها الدقيق الرنّان « اللبن » « الحلوى »

---

(١) مكان القصف .

«عصير البرتقال» ، «عصير الرمان» ، «الشواء» «الفطير» ، «النبيذ» ، أو صوت شيخ هرم يسب ويحتدم ويضرب الأرض بقدميه ، وهو عاري الرأس منقلب السحنة لأن أحد الجالسين في الطبقة العليا من الملعب قد أرسل على رأسه المستعار شصاً[1] فاجتذبه به وظل معلقاً في الفضاء على مرأى من الجماهير الضاحكين ، أو صارخاً متألماً قد وضع يده على عينه وظل يصيح واغوثاه واويلتاه لأن بعض المتفرجين صوّب إليها حصاةٍ صغيرة أو نواة فأصابها بها ، إلى أمثال ذلك من صراخ الصارخين وهتاف الهاتفين من جميع جوانب القاعة : أشعلوا الأنوار وارفعوا الستار .

ولم يزل هذا شأنهم حتّى دقت الساعة العاشرة من الليل وقرب ميعاد التمثيل فدخل جماعة من الاشراف المتأنقين يجررون أذيالهم ويشمخون بأنوفهم ، ويتأففون لضعف الأنوار وضوضاء الجماهير ، ويصيحون : الطريق الطريق ، أيها الصعاليك ، فتنفرج الصفوف لهم انفراجاً ، حتّى بلغوا مكان المسرح فصعدوا عليه وجلسوا فيه على مقاعد متفرقة في أنحائه جلسة باردة وقحة لا أدب فيها ولا احتشام ، وكانت المقاصير في ذلك التاريخ خاصة بالنساء لا يجلس فيها غيرهن إلا مقصورة واحدة بجانب المسرح كان يجلس فيها الكردينال إذا حضر أو من ينزل منزلته من عظماء المملكة ووجوهها .

طاهي الشعراء

جلس في ركن من أركان القاعة في تلك الساعة شخصان منفردان

---

(١) الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك تشبه السنارة .

أحدهما الشاعر « لينيير » ، وهو رجل بائس مسكين مغرم بالشراب ومعاقرته لا تكاد تفارق يده الكأس ليله ونهاره ، وثانيهما البارون «كرستيان دي نوفييت » وهو فتى من اشراف الريف ، جميل الطلعة حسن الزي والثياب . إلا أن هندامه على الطراز القديم ، حضر من « تورين » إلى باريس منذ عشرين يوماً ليلتحق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي فلم يدخلها إلا صباح اليوم ، فقال الشاعر للبارون : إن صاحبتك لم تحضر حتّى الساعة ، وها هي مقصورتها التي أشرت لي إليها لا تزال خالية ، وقد اشتد ظمئي فأذن لي بالذهاب إلى إحدى الحانات القريبة لأتناول قليلاً من الشراب ، ثم أعود إليك ، فاضطرب كرستيان وتشبث بثوبه ، وقال له : إنك إن ذهبت لن تعود يا لينيير ، وأنا في أشد الحاجة إليك ، فإني أريد أن أعرف من هي ؟ وما منبت دوحتها ، وربما بدا لي أن أزورها الليلة في مقصورتها وأتعرف إليها ، وليس في استطاعتي أن أقدم على ذلك وحدي ، فأنت تعلم أنني رجل جندي ساذج حديث عهد بهذا البلد وأهليه وآدابه ومصطلحاته ، ويخيل إليّ ، وإن لم أكن قد حادثتها أو جلست إليها ، أنها فتاة ذكية متوقدة بارعة في أساليب الحديث ومناهجه وأخاف إن أنا لقيتها وحدي أن أضعف أمامها وأضطرب أو أرتبك في حركة من الحركات بين يديها فأسقط من عينها سقطة لا مقيل لي منها أبد الدهر ، فابقى معي وكن عوناً لي عليها لتتم بذلك يدك عندي .

وهنا مرت فتاة المقصف حاملة على يديها صينية بيضاء ، وهي تتغنى بصوتها الرقيق الشجي ، فناداها لينيير فدنت منه فسألها عما عندها فظلت تسرد عليه أسماء فطائرها وقدائدها وأشربتها وحلواها ، وهو لا يأبه لشيء من ذلك حتّى ذكرت له نبيذ

« بوردو » فتهلل وجهه وتحلب فوه ، وطلب إليها أن تأتيه بالجيد منه ، فأتت له بما أراد ، فملأ كأسه وبدأ يشرب ويتغنى ، وما هي إلا لحظة حتى قال لكرستيان : الآن استطيع أن أبقى معك قليلاً أيها الصديق الكريم .

وفي تلك اللحظة دخل القاعة رجل قصير ضخم الجثة غريب الهيئة في ملابس الطهاة وشمائلهم فصرخ الجماهير حين رأوه : راجنو ! راجنو ! فلم يأبه لهم ، ولم يلتفت إليهم ، واندفع مسرعاً إلى لينيير ، وقال له بصوت متهدج مضطرب دون أن يحييه أو يحيي جليسه : ألم تر صديقنا سيرانو يا لينيير ؟ قال : لا ، ومالي أراك مضطرباً هكذا كأنك هارب من معركة أو مأخوذ بجريمة ، قال : ما أحسب إلا أنه سيحدث الليلة في هذه القاعة حادث عظيم لا يعلم إلا الله كيف تكون عاقبته ، فانزعج لينيير ، وقال : أي حادث تريد ؟ قال : قد علمت الساعة أن سيرانو كان وجد على الممثل مونفلوري منذ أيام في شأن من الشؤون لا أعلمه فحكم عليه بأن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملاً وهدده بالموت إن خالف أمره ، وكنت أظن أن الرجل قد أذعن لهذا الحكم ضناً بنفسه وبحياته ، ولكني رأيته الساعة في حجرة الممثلين يترنم بقطعة تمثيلية وأظن أنه سيقوم بتمثيل دوره الذي اعتاد ان يمثله في رواية «كلوريز » ، وهو دور « فيدين » فإن فعل فقد وقعت الكارثة العظمى التي لا حيلة لنا ولا لأحد من الناس في دفعها ، وسيرانو كما نعلم رجل مخاطر جريء لا يبالي بعواقب الأمور ، ولا يفكر في نتائجها ؛ فقهقه لينيير ضاحكاً وقال : يا له من قاض غريب ويا له من حكم عجيب ، هدىء روعك يا صديقي ، فالأمر أهون مما تظن فربما لا يحضر سيرانو أو لا يمثل منفلوري فلا يقع شيء من المكروه الذي تتوقعه .

ثم التفت إلى كرستيان وقال له : أقدم إليك المسيو راجنو طاهي الشعراء والممثلين ، وهو اللقب الذي اختاره لنفسه وعرف به بين الناس جميعاً ، لأنه صديقهم المخلص الذي يحبهم ويكرمهم ويذود عنهم ويفتح لهم باب مطعمه على مصراعيه يأكلون منه ما يشتهون ، ويشربون ما يقترحون لا يتقاضاهم على ذلك أجراً سوى قصيدة من الشعر يملونها عليه ، أو قطعة تمثيلية يمثلونها بين يديه ، أي أنه يملأ لهم أفواههم طعاماً ، فيملأون له أذنيه كلاماً ، والأذن كما تعلم ليس طريقاً إلى المعدة كالفم ، وهو فوق ذلك شاعر متفنن مطبوع ينظم أكثر شعره في وصف فطائره وحلواه ؛ فانحنى راجنو بين يدي كرستيان وقال : نعم يا سيدي إنني صديق الشعراء والممثلين بل عبدهم ومولاهم ، وصنيعة فضلهم وإحسانهم وإن ساعة أقضيها في حضرتهم أسمع طرائف أشعارهم ، وبدائع فصولهم ، لهي عندي ساعة الحياة التي لا أعدل بها ساعة غيرها ، فشكر له كرستيان فضله وأدبه وأثنى خيراً على شرف عواطفه واكتمال مروءته ، وما هي إلا كرة الطرف حتى عاد إلى راجنو قلقه واضطرابه وأخذ يدور بعينيه في الجماهير يفتش عن سيرانو ، فقال له لينيير : إنه لم يحضر حتى الآن ، وها هو الوقاد قد بدأ في إشعال المصابيح ، وها هو الستار قد أوشك أن يرتفع ، وما أظنه حاضراً بعد ذلك .

سيرانو

وكان رجل من الأشراف اسمه المركيز دي جيجي جالساً على مقربة منهم يسمع حديثهم وينصت لحوارهم فوضع يده على كتف راجنو فالتفت راجنو إليه فقال له : أتستطيع أن تخبرني من هو

سيرانو هذا الذي تتحدثون عنه ؟ فهز راجنو رأسه كالمستغرب وقال له : إني لأعجب لأمرك يا سيدي فهي أول مرة سمعت فيها إنساناً في العالم لا يعرف السيد سيرانو ! قال إني أعرف عنه شيئاً قليلاً ، وأريد أن أعلم أنبيل هو أم صعلوك ؟ قال إن كنت تريد من النبل شيئاً غير الشرائط والأوسمة والذهب والفضة والحرير والديباج فهو أنبل النبلاء وأشرفهم ؛ لأنه جندي شجاع ، جريء في موقفه ومشاهده صادق في قوله وفعله ، لا يحابي ولا يجامل ، ولا يتذلل ولا يتزلف ، ولا يخضع في شأن من شؤون حياته إلا للحق الذي يعبده ويدين له ، ولو عرفته يا سيدي لعرفت أفضل الناس خلقاً وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً وأشدهم عطفاً على البؤساء والمنكوبين . وهو فوق ذلك شاعر مجيد ، وعالم فاضل ، وناقد بارع ، وأما شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها ؛ حتى لو أراد مصورنا العظيم « فيليب دي شامبيني » أن يرسمه كما هو لعجز عن ذلك أو كاد ، فإن الناظر إليه ليعجب كل العجب لمنظر قبعته المحلاة بالريشات الثلاث ، وردائه الملون الجميل ، وقبائه الواسع المسدس الأطراف الذي يرفع مؤخره بطرف سيفه ، ثم يمشي به مختالاً كأنه طاووس يجر ذنبه وراءه. وله أنف هائل جداً لا يراه الرائي حتى يذعر ويرتاع ويقف أمامه مدهوشاً منذهلاً يعجب لصاحبه كيف استطاع أن يحمله في رقعة وجهه وكيف لا يلتمس السبيل إلى الخلاص منه ، أما هو فراض عنه كل الرضا ، لا يشعر بثقله ، ولا يفكر في الخلاص منه بحال من الأحوال ، والويل كل الويل لمن يرفع نظره إليه أو تختلج شفتاه بابتسامة العجب منه أو السخرية به ، فإن رأسه يطير بضربة واحدة من حد سيفه ، فقال له المركيز : كيفما كان الأمر فإنني أستطيع أن أقول لك ، وأنا على ثقة مما أقوم ، إنه أعجز من أن يمنع مونفلوري

عن التمثيل بل هو لا يحضر الحفلة الليلة فراراً من وعيده الكاذب ، فقال راجنو : وأنا أراهن على حضوره بدجاجة مشوية من مطعم « راجنو » الشهير ، ولا أرزؤك دانقاً واحداً إن أنا ربحت الرهان! ثم أدار ظهره إليه وجلس يتحدث إلى لينيير وكرستيان .

وإنه لكذلك إذ لمح رجلاً مقبلاً على البعد فقال لصاحبه : ها هو المسيو « لبريه » صديق المسيو سيرانو الحليم ، فأذنا لي بالذهاب إليه علني أستطيع أن أعلم من شأنه شيئاً ، ثم تركهما وذهب إليه فرآه يقلب نظره في الجماهير ويلتفت يمنة ويسرة فقال له : لعلك تفتش عن سيرانو أيها الصديق ؟ قال : نعم وإني قلق من أجله جداً ؛ قال قد فتشت عنه قبلك فلم أجده ، ثم انتحى به ناحية من القاعة وجلسا معاً يتحدثان .

روكسان

وهنا ظهرت روكسان في مقصورتها فضج الجمهور حين رآها ضجيج السرور والابتهاج وصاح أحد الأشراف الجالسين على المسرح : آه يا إلهي ، إن جمالها فوق ما يتصور العقل البشري ، وقال آخر : إنها زهرة تبتسم في أشعة الشمس ؛ وقال آخر : إنها روضة يانعة يحمل النسيم رياها العطر إلى القلوب فينعشها ، وكان كرستيان مشغولاً بأداء ثمن الشراب الذي شربه لينيير فلم ينتبه إليها ، ثم التفت فرآها فارتعد واصفر وجهه وأخذ بيد لينيير وقال له : ها هي ذي فقل لي من هي ! إنني خائف جداً يا صديقي فضع يدك على قلبي فما أحسب إلا أنه يحاول الفرار من مكانه رهبة وجزعاً ، حدثني عنها واذكر لي كل ما تعلم من أمرها وارفق

بي في حديثك ، حتى لا تقضي علي الأمل الوحيد الباقي لي من حياتي ، فقهقه ليغيير ضاحكاً وقال له : بخ بخ لك يا كرستيان ، لقد أحسنت الاختيار لنفسك كل الإحسان وما أحببت إلا أجمل فتاة في فرنسا ، فإن كان صحيحاً ما تقول من أنها تمنحك من ودها مثل ما تمنحها ، وأنها تنظر إليك بمثل العين التي تنظر بها إليها فأنت أحسن الناس حظاً وأسعدهم طالعاً ، إنها السيدة مادلين دي رويان الشهيرة بروكسان ، وهي فتاة عذراء يتيمة لا أهل لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيرانو دي برجراك الذي كانوا يتحدثون عنه الآن ، وهي على فرط جمالها وكثرة محاسنها عفيفة طاهرة الذيل عاقلة رزينة تجلس إلى أذكياء الرجال وتحادثهم وتفتتن بتصوراتهم وأفكارهم ، وتخوض معهم في كل شأن من شؤون الحياة حتى شأن الحب ولكنها لا تأذن لأحد أن يحبها أو يعبث بقلبها ، فإن حاول ذلك منهم محاولة دفعته عنها برقة ورفق وحكمة فسلم لها شرفها وكرمها ، ولا عيب فيها إلا أنها من فريق الأديبات المتحذلقات اللواتي أفسد الأدباء المتحذلقون أذواقهن الأدبية فذهب التكلف والتعمل في أحاديثهن وحوارهن فلا ينطقن بكلمة صريحة خالية من التشابيه والمجازات والإشارات والكنايات ، ولا يواجهن المعاني التي يردن الافضاء بها إلى السامعين مواجهة بل يدرن حولها دورات كثيرة حتى يصلن إليها ، فإذا أردن أن يقلن في أحاديثهن العادية : أشرقت الشمس قلن « ذر قرن الغزالة » أو : أقبل الليل قلن « هجم جيش الظلام » أو طلعت النجوم قلن « تجلت عروس الزنج في قلائدها الدرية » أو : ها هو ذا الكرسي فاجلس عليه قلن « ها هو الكرسي يفتح ذراعيه لاستقبالك فتفضل بإلقاء نفسك بين أحضانه » أي أنهن لا يعجبهن من الألفاظ إلا المتكلف المصنوع ولا من المعاني إلا المجلوب المختصر ولا من الشعراء والكتاب

إلا المتكلفون المتشدقون في أساليبهم وتصوراتهم ، وهي سعيدة في عيشها مغتبطة بحياتها لا ينغص عليها صفوها غير هذا الرجل الهمجي المتوحش الذي تراه واقفاً بجانبها الآن ، فالتفت كرستيان فرأى رجلاً رشيقاً متأنقاً حسن الزي والهندام متشحاً بوشاح حريري أزرق متقلداً سيفاً عسكرياً مرصعاً قد أسند ذراعه إلى ظهر كرسيها كأنه يحتضنها وظل يحادثها بصوت منخفض كأنه يسارها ويناجيها فقال له وهو يرتجف غيظاً وحنقاً : من هذا الرجل ؟ وكان لينيير قد ثقل وبدأ يتمتم ويتلعثم بنغمةِ الفأفأة[1] : إنه الكونت دي جيش أحد قواد الجيش الفرنسي وصهر الكردينال دي ريشيليه وزير فرنسا العظيم وقد أحب روكسان وأغرم بها غراماً شديداً ولما رأى أن لا سبيل له إليها من طريق المخالة[2] لأنها شريفة مترفعة ، ولا من طريق الزواج لأنه متزوج بابنة أخت الكردينال أراد أن يزوجها من رجلٍ ساقط من أشياعه لا تحبه ولا تأبه[3] له اسمه الفيكونت « فالفير » طمعاً في أن ينال منها من طريقه ما لم ينل من طريق آخر فهالها الأمر وتعاظمها وأبت أن تذعن لرأيه أو تنزل على حكمه ، ولكنه لا يزال يلح عليها ويضايقها وهي تدافعه عنها بلطف وأدب وحذر واحتياط ، وأخاف إن استمرت هذه الحال أن ينتهي بها الأمر إلى الخضوع والإذعان ؛ لأن الرجل قوي جريء مدل بمكانه من قيادة الجيش وبحظوته عند الكردينال وليس في أنحاء المملكة كلها جميعها من يجرؤ على التفكير في مشادته أو الخلاف عليه ، ولقد أثرت هذه الحادثة في نفسي تأثيراً شديداً وأشفقت على تلك الفتاة المسكينة

---

(١) فأفأ : أكثر الفاء في كلامه وظل يرددها فهو فأفاء .

(٢) المخالة : المصاحبة ، من الخلة بالكسر أي الصداقة .

(٣) أبه بالشيء : احتفل به .

أن يستبد بها وبمستقبلها رجل جائر متوحش كهذا الرجل فنظمت قصيدة رنانة شرحت فيها قصته معها وهجوته فيها هجاء مراً لا أحسب أنه يغتفره لي مدى الدهر ، وإن شئت أن تسمع هذه القصيدة فهاكها ، وكان الشراب قد نال منه أقصى مناله فنهض قائماً على قدميه وأخذ يصوب إلى الكونت نظرة هائلة مخيفة ورفع الكأس بيده وحاول أن يتغنى بقصيدته فأسكته كرستيان وقال له لا تفعل فإني ذاهب ، قال : إلى أين؟ قال : أفتش عن فالفير ، قال : ماذا تريد منه؟ قال أقتله ، قال : إني أخاف عليك منه لأنه أقوى منك وربما قتلك ، قال : لا أبالي الموت في سبيلها ، قال : انظر ها هي ذي تنظر إليك وتحدق فيك تحديقاً شديداً فلا يشغلك شاغل عنها ، أما أنا فإني ذاهب لشأني فإن أصدقائي ينتظرونني في الحال ولا خير لي في الكأس من دونهم فأذن لي بالذهاب ، فأذن له وانصرف وظل هو شاخصاً إلى مقصورة روكسان يبادلها نظرات الحب والشغف ، ويفضي إليها من طريق الصمت والسكون بما عجز عن الإفضاء به من طريق الكلام ، وكان الكونت دي جيش قد نزل من مقصورتها ومشى في القاعة يحف به جمع عظيم من حاشيته وأصدقائه يتملقونه ويدهنونه ؛ وحساده ومنافسوه من نبلاء القوم وأشرافهم يتغامزون عليه فيما بينهم ويرمونه بنظرات الحقد والحرد ويسمونه القائد المغرور مرة والجاسكوني الكذاب أخرى ، حتى إذا مر بين أيديهم نهضوا له إعظاماً وإجلالاً وانحنوا بين يديه وداروا به يصانعونه ويماسحونه حتى بلغ مكان المسرح فصعد إليه هو وأتباعه وجلس على كرسيه المعد له ثم التفت حوله وقال : أين الفيكونت فالفير . فأجابه : هاأنذا يا سيدي . قال : تعال بجانبي لأحدثك قليلاً ، وكان كرستيان واقفاً مكانه ينظر إليه على البعد نظرات الحقد والموجدة ، فما

سمع اسم فالفير حتى ثار ثائره وغلى دمه في رأسه، وعلم أنه قد وجد خصمه ، فوثب من مكانه وثبة عظمى وصاح ها قد عرفته وسألطمه بقفازي على وجهه لطمة هائلة ، وضع يده في جيبه ليخرج قفازه منه فدهش حين عثرت يده فيه بيد أخرى غريبة فقبض عليها بشدة والتفت وراءه فإذا لص قبيح المنظر زري الهيئة يحاول سرقته . فصاح فيه : من أنت وماذا تريد؟ فتضعضع الرجل واستخذى واستطير عقله خوفاً ورعباً ، ثم ما لبث أن عاد إلى نفسه واستجمع قواه وقال : له عفواً يا سيدي فإني ما أردت سرقتك ، وإنما هو تمرين بسيط فقد تلقيت الساعة أول درس من دروس اللصوصية على أستاذي « بوار » وقد بعثني إليك كما بعث غيري إلى غيرك لا لنسرقكم أو نحول بينكم وبين أموالكم بل لنستوثق من أنفسنا أننا قد حذقنا دروسنا واستظهرناها فاعف عني واغتفر لي هذه الزلة واعلم أن في صدري سراً هائلاً جداً ينفعك نفعاً عظيماً أن أفضي به إليك ، وهو خير لك مني ألف مرة ، فضحك كرستيان طويلاً وقال : أي سر تريد؟ قال : إن صديقك الذي كان جالساً معك منذ هنيهة وقد نسيت اسمه الآن هو في الساعة الأخيرة من ساعات حياته إن لم تسرع إلى نجدته ، قال : أتريد لينيير ؟ قال : نعم ، فدهش كرستيان وقال : لم أفهم ما تريد ، قال إنه كان قد هجا منذ أيام عظيماً من عظماء هذا البلد بقصيدة مقذعة [1] فحقدها عليه حقداً شديداً ورأى أن ينتقم لنفسه منه فأعد له مائة رجل يكمنون له الليلة في جنح الظلام عند باب « نيل » في طريقه إلى منزله ليقتلوه وأنا أحد أولئك الرجال ، فاخرج الآن واطلبه في الحانات التي يجلس فيها وهي المضغط الذهبي والتفاحة الخشبية والحزام

---

(١) الإقذاع : الشتم .

الممزق والمشاعل والأقماع الثلاثة ، واترك له بطاقة في كل واحدة منها لتنذره بهذا الخطر الداهم ، قال : ومن هو ذلك العظيم الذي دبر له هذه المكيدة ؟ قال : ذلك سر المهنة لا أستطيع أن أبوح به ، فضحك كرستيان وقال : لا حاجة بي إليك فقد عرفته ، ثم خلى سبيله فذهب لشأنه ، والتفت هو إلى مقصورة روكسان فرآها ملتفتة إليه لا تكاد ترفع نظرها عنه ، فألقى عليها نظرة حزينة وقال في نفسه : واأسفاه لا بد لي أن أتركها الآن ، ثم ألقى على الفيكونت نظرة ملتهبة وقال : وأن أتركه أيضاً ، لأني أريد إنقاذ لينيير ، ثم ترك الملعب وانصرف ليفتش عن صديقه في تلك الحانات الخمس .

البطـــل

بدأ الموسيقيون يوقعون على آلاتهم نغماتهم الرقيقة الشجية وسكنت الجماهير تنتظر رفع الستار ، فهمس لبريه في أذن راجنو : ترى هل يظهر منفلوري على المسرح الآن ؟ قال : نعم ما من ذلك بد ، لأنه صاحب الدور الأول في الرواية ، ولأنه قد علم أن سيرانو لا يحضر بعد الآن ، وأظن أني قد خسرت الرهان ، قال : فليكن فقد كنت أتوقع من حضوره شراً عظيماً .

وهنا دق الجرس ثلاث دقات ثم ارتفع الستار فظهر منفلوري على المسرح لابساً ملابس راع وعلى رأسه قبعة محلاة بالورود مائلة إلى أذنه وفي يده أرغول طويل ينفخ فيه ، فصفق له الجمهور تصفيقاً كثيراً فشكرهم بإيماءة رأسه ، ثم أنشأ يمثل دور فيدين ويتغنى بهذه القطعة « هنيئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهدهم ،

بل يعتزلوا العالم بأسره ويفرون منه إلى مكان ناء في منقطع العمران لا يرون فيه غير وجه الطبيعة الجميل » وهنا رن صوت عظيم في جوانب القاعة يقول : « ألم أحرم عليك التمثيل شهراً كاملاً يا منفلوري » ؟ فدهش الجمهور وجمد منفلوري في مكانه والتفت الناس يمنة ويسرة يفتشون عن صاحب الصوت أين مكانه ، ووقفت النساء في المقاصير ينظرن ماذا جرى ، وهمس راجنو في أذن لبريه . قد ربحت الرهان يا صديقي فها هو سيرانو قد حضر ، فقال لبرّيه : ليته لم يحضر وليتك خسرت كل شيء ، وما هي إلا لحظة حتّى ظهر سيرانو يتخطى الرقاب ويدفع المقاعد بين يديه دفعاً ويزمجر زمجرة الرعد حتّى وصل إلى كرسي أمام المسرح فاعتلاه وهز عصاه الطويلة في وجه الممثل وقال له : اترك المسرحَ حالاً يا أحمق الممثلين ، وإلا فأنت أعلم بما يكون ، فسخط جمهور من الناس سخطاً شديداً وضجوا من كل ناحية : مثل يا منفلوري مثل ولا تخف . فتشجع منفلوري وعاد إلى التغني بقطعته : « هنيئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك ، جهدهم بل يعتزلون العالم بأسره ... » فقاطعه سيرانو وصاح وهو يزأر زئير الليث : كأنك تأبى أيها الغبي الأحمق إلا أن أجعل ظهرك مزرعة لعصاي هذه فاترك المسرح حالاً فقد أوشكت أن أغضب . فاحتدم الجمهور غيظاً وأخذوا يصيحون : صه أيها المجنون مثل يا منفلوري إنه فضول غريب ، إنها سماجة نادرة ؛ فعاد إلى الممثل هدوءه وسكونه ، وعاد إلى التغني بقطعته « هنيئاً للذين ... » فما نطق بأول حرف منها حتّى وثب سيرانو من كرسيه الذي كان واقفاً عليه إلى أقرب كرسي إلى المسرح وهز عصاه في وجهه وصاح : لا تمثل أيها الدب الحائل ولا تنطق بحرف واحد ، فإن فعلت ضربتك بعصاي هذه على وجهك ضربة لا تعرف من بعدها أي مكان

أنفك منك ! قد أمرتك وليس في العالم قوة تستطيع أن تعترض أمري ، فطاش عقل منفلوري وتلجلج لسانه والتفت إلى الأشراف الجالسين على المسرح من حوله وقال : النجدة يا سادتي ، فنظر أحدهم إلى سيرانو نظرة عظمة وكبرياء وقال له : كفى هذيان أيها الفضولي الثرثار فقد أزعجتنا بضوضائك وكدرت صفونا ، والتفت آخر إلى الممثل وقال له : مثل يا رجل ولا تحفل بشيء فأنا أحميك ، وقال آخر : لقد تجاوز الحد هذا الوقح حتى كاد يفرغ صبرنا ، فاتجه إليهم سيرانو وأنشأ يخاطبهم ويقول : يجب على حضرات السادة الأشراف أن يلزموا أماكنهم ويحافظوا على حيدتهم ، فإني أشعر أن عصاي تتلهف شوقاً إلى التهام شرائطهم وأوسمتهم ! فانتفض الأشراف غيظاً وتناهضوا للقيام وهاج الجمهور هياجاً شديداً وأحاط جمع عظيم منهم بكرسي سيرانو وأخذوا يصيحون في وجهه ويولولون ويقلدون أصوات الحيوان كالديك والهر والكلب والحمار ، فاستدار نحوهم سيرانو وألقى عليهم نظرة هائلة مخيفة فتراجعوا قليلاً إلا أنهم ظلوا مستمرين في هياجهم وضوضائهم وأخذوا يغنون بصوت واحد أنشودة هزلية يقولون فيها : « برغمك يا سيرانو ستمثل رواية كلوريز ، برغمك يا سيرانو سيمثل منفلوري » يكررونها مراراً ، فاستدار إليهم ثانية وزمجر في وجوههم وصرخ فيهم صرخة هائلة وقال : ألا تستطيعون أيها السفلة الأوغاد أن تتركوا سيفي هادئاً في غمده ساعة واحدة ؟ لا أحب أن أسمع منكم هذه الأنشودة مرة أخرى وإلا حطمتكم جميعاً ، فقال له أحدهم : إنك لست بشمشون الجبار الذي ضرب جمعاً عظيماً من الناس بفك كلب فقتلهم ، فالتفت إليهم وقال : أستطيع أن أكون مثله لو أنك أعرتني فكك يا هذا ! ثم التفت إلى منفلوري فرآه لا يزال واقفاً مكانه فقال :

يا للعجب ، إنه لم ينفذ أمري حتى الآن إنه يأبى إلا أن أجعل هذا المسرح مائدة أشرح عليها لحمه تشريحاً ، فعاد منفلوري إلى استنجاده واستصراخه وظل يقول : النجدة النجدة ، الغوث الغوث ؛ فازداد غضب الجمهور وهياجهم وأحاطوا بكرسي سيرانو من كل ناحية وأخذوا يهددونه وينذرونه بالويل والثبور ، وعادوا إلى الترنم بأنشودتهم الأولى وتقليد أصوات الحيوان ، فاستدار اليهم فجأة ثم وثب من كرسيه إلى الأرض وتقدم نحوهم بعصاه فتقهقروا بين يديه حتى اتسعت الدائرة من حوله اتساعاً عظيماً فصاح فيهم إني آمركم جميعاً أن تسكتوا ، لا ينطق أحد منكم بحرف واحد بعد الآن ، إني أعرف صور وجوهكم جميعاً فليس في استطاعة واحد منكم أن يفلت من يدي ، من ذا الذي يريد أن يكون أول ناطق ليكون أول قتيل ؟ ثم مر بهم يتصفح وجوههم واحداً فواحداً ويقول من ذا الذي يريد ؟ أنت أيها الفتى ؟ أم أنت أيها الكهل ؟ أم أنت أيها الشيخ الهرم ؟ من منكم يحب أن يكون اسمه أول اسم في جريدة الأموات ! لم يجبني أحد بحرف واحد ؟ ما سكوتكم ؟ أجبنم ؟ مالكم تفرون من وجهي ؟ قلدوا أصوات الحيوان ، غنوا الأنشودة الباردة ! أرى صمتاً عميقاً وسكوناً سائداً لا حركة ولا إشارة ؛ أظنهم قد ماتوا من شدة الخوف الآن استطيع أن أستمر في عملي ، ثم اتجه إلى المسرح وأنشأ يقول بصوت خشن أجش : أيها الأشراف ، أيها الغوغاء ، أيها الرجال ، أيتها النساء ، لا أريد أن أرى على جسم هذا المسرح هذا الدمل القذر الخبيث فإن لم ينفجر من نفسه فجرته بهذا المبضع القاتل ولا أحب أن يعترض أحد منكم إرادتي أو أخذت البريء بذنب المجرم والجار بذنب الجار ، ثم وضع يده على مُقبض سيفه وقد استحالت صورته إلى صورة وحش هائل كشر عن أنيابه

للفتك بكل ما يدنو منه ؛ فسكن الجمهور سكوناً عميقاً لا نأمة فيه ولا حركة . فقال منفلوري بصوت خافت متقطع : إنك بإهانتك إياي يا سيدي قد أهنت الإلهة «نالي» فقال لا شأن لك بتلك الإلهة أيها الأحمق المأفون ؛ لأنها إلهة التمثيل لا إلهة السخافات ولو إنها شاهدت موقفك هذا وانت تمثل بهذا الجسم الضخم الغليظ وهذه الحركات الباردة الثقيلة لتناولت مني عصاي هذه وضربتك بها على أحقر عضو في جسمك وها أنا ذا أصفق ثلاث مرات ، وعند التصفيقة الثالثة لا بد أن تتلاشى من المسرح يا رأس الثور ، أسمعت ؟ فحاول منفلوري أن يتكلم فصفق سيرانو التصفيقة الأولى فطار قلب الممثل فرقاً ورعباً ، وظل يقلب نظره في الجماهير فلم يجد بينهم معيناً ولا ناصراً ، فأنشأ يقول بصوت مرتعد : سادتي سادتي ... أيرضيكم أن أهان في حضرتكم وأن يهان الفن على مرأى منكم ومسمع ؟ فصفّق سيرانو التصفيقة الثانية ، فاشتد اهتمام الجماهير وتطاولت أعناقهم وتحولوا من الهياج والغضب إلى الاهتمام بمعرفة النتيجة وأخذ بعضهم يهمس في أذن بعض بأمثال هذه الكلمات : سيبقى ، سيخرج ، سيجبن ، سيقاوم ، لا يستطيع البقاء ، لا يليق به الفرار ؛ فحاول منفلوري أن يقول شيئاً آخر ولكنه سمع التصفيقة الثالثة فاختفى من المسرح كأنما قد غاص في مهوى عميق .

فهتف الجمهور لسيرانو هتافاً عظيماً إلا بضعة أفراد قلائل ، لا بل أخذ الكثير منهم يسب الممثل ويشتمه ويسخر منه ، وجلس سيرانو على كرسيه جلسة الفائز المنتصر ، فتقدم نحوه فتى من المتفرجين وقال له : أتأذن لي يا سيدي أن أسألك ما هو السبب في بغضك منفلوري ؟ فصمت سيرانو لحظة ثم ألقى عليه نظرة باسمة هادئة وقال له : عندي لذلك سببان أولهما قبح تمثيله ورداءة

حركاته وأنه يغني الشعر العذب الرقيق بصوت مأخوذ مختنق فيفسده على صاحبه وينغصه على الناس ، وأما السبب الثاني فهو سري الخاص الذي لا يمكنني أن أبوح به لأحد ، فتقدم نحوه فتى آخر وقال له : ولكنك حرمتنا على كل حال مشاهدة رواية «كلوريز» وما كنا نؤثر ذلك ولا نرضاه ، قال : أظن أني لم أحرمك شيئاً نفيساً أيها الفتى . فإن نظم «بارو» كنثره كلاهما بارد غث لا يساوي شيئاً ولذلك قد كفيتكم وكفيت نفسي مؤونة سماع روايته السخيفة غير آسف عليها ، فصاحت فتاة في المقاصير : من ذا الذي يعيب شاعرنا بارو؟ أيستطيع أحد أن يجرؤ على ذلك؟ وتكلمت فتيات أخريات بمثل كلامها فرفع سيرانو نظره إلى المقاصير وأنشأ يخاطبهن ويقول : لكنّ يا سيداتي أن تكنّ جميلات رائعات كما تشأن ، ولكنّ أن تختلبن الألباب وتستلبن العقول بحسنكن ودلكن ، ولكنّ أن تبتسمن الابتسامات اللامعة البديعة التي تضيء بنورها ظلمات هذه الحياة ، ولكنّ أن تبعثن السعادة والغبطة والسرور والبهجة في نفوس الناس جميعاً فيحيوا بفضلكن في هذا العالم حياة المسرة والهناء ، ولكنّ أن توحين روح الشعر إلى الشعراء ، وتمليها عليهم بسحركن وفتنتكن فيستطيعوا أن يطيروا بأجنحتهم في أجواء السموات العلا ويشرقوا منها على الدنيا ومن فيها شموساً وأقماراً . لكنّ كل هذا ، ولكن ليس لكنّ أن تجلسن في محكمة الشعر لتحكمن في قضية الشعراء .

وكان «بلروز» صاحب الخان واقفاً على مقربة منه فقال له : وما رأيك يا سيدي في المال الذي خسرته الليلة بسببك؟ قال : هذه هي الكلمة الوحيدة المعقولة التي سمعتها الليلة في هذا المكان ، ثم ضرب يده في جيبه وأخرج منه كيساً مملوءاً فضة ورمى به إليه ، فتهلل بلروز فرحاً وابتهاجاً وقال له : بمثل هذا الثمن آذن لك

يا سيدي بالحضور كل ليلة وبتعطيل ما تشاء من الروايات ، ثم التفت إلى المتفرجين ، وقال لهم : قد انتهى التمثيل يا سادتي فهيّا جميعاً إلى الباب لتستردوا نقودكم .

الأنفيات

وهنا تقدم رجل زري الهيئة قذر المنظر تلوح على وجهه سمات المهانة والضعة ممزوجة بالوقاحة والسماجة وقال له بصوت خشن أجش : لا يقف موقفك هذا يا سيدي ، ولا يجروء على مثل ما جروءت عليه إلا أحد رجلين : إما عظيم أو صنيعة رجل عظيم ، فهل لك أن تخبرني من هو مولاك الذي أنت صنيعته ؟ فعجب سيرانو لأمره وظل يردد نظره فيه ساعة ، ثم قال له : ما أنا بصنيعة أحد أيها الرجل ، قال : أليس لك سيد يحميك ويرعاك ؟ قال : لا ، قال : ألا تلجأ في ساعات شدّتك وحرصك إلى نبيل من نبلاء هذا البلد أو أمير من أمرائه يسبل عليك ستر حمايته ؟ قال : قلت لك « لا » مرتين فهل ترى حتماً لازماً أن أقولها لك مائة مرة لتفهمها ؟ ثم وضع يده على مقبض سيفه وقال : ليس لي حام ولا سيد غير هذا ، فقال : إذن لا تطلع عليك شمس الغد حتى تكون قد شددت رحلك وتزودت زادك وغادرت باريس إلى بلد ناء لا رجعة لك منه أبد الدهر ، قال : لماذا ؟ قال : لأن مونفلوري الذي أهنته الليلة صنيعة رجل عظيم هو « الدوق دي كندال » وذراع هذا الرجل طويلة جداً تتناول أبعد الأشياء ولو كانت في قرن الشمس ، قال : ولكنها ليست أطول من ذراعي حين أصلها بسيفي . قال : إنك لا تستطيع أن تزعم في نفسك أنك .. فقاطعه سيرانو وصاح : أستطيع أن أزعم كل شيء أيها الفضولي الثرثار فاغرب من وجهي واطلب لنفسك طريق الخلاص مني ، فظل

الرجل جامداً مكانه يحدق فيه تحديقاً شديداً لا يطرف ولا يتحرك ، فانفجر سيرانو غيظاً وانقض عليه وأخذ بتلابيبه وقال له : اخرج من هنا حالاً أو حدثني مالي أراك تنظر إلى أنفي هذه النظرة المريبة ؟ فصعق الرجل في مكانه وظل يرتعد بين يديه ، وكان يعلم كما يعلم الناس جميعاً أن سيرانو لا يغضب لشيء من الأشياء غضبه لأنفه ولا ينتقم لشيء انتقامه له وقال : أنا يا سيدي ؟ قال : نعم أنت فما الذي تراه غريباً فيه ؟ قال إنك واهم يا سيدي فإنني أقسم لك ما فكرت قط في شيء مما تقول ، قال : أتراه رخواً متهدلاً كخرطوم الفيل ؟ قال لا يا سيدي ، قال أو محدودباً كمنقار البومة ؟ قال لا يا سيدي . قال : أو يخيل إليك أن أرنبته دمل كبير يزعجك منظره ؟ قال أبداً يا سيدي ، ما فكرت في ذلك قط ، قال أو يتراءى لك أن الذباب يمشي منزلقاً فوق تضاريسه ؟ قال لا يا سيدي لم يخطر ببالي شيء من ذلك وأقسم لك ، قال : أتراه أعجوبة من أعاجيب الدهر أو فلتة من فلتات الطبيعة ؟ قال : لا يا سيدي لا هذا ولا ذاك ، قال : أترى لونه مضراً بالنظر أو وضعه خارجاً عن الحد أو شكله مخالفاً للآداب العامة ؟ قال : آه يا إلهي ، إنني لم أسمح لنفسي بالنظر إليه مطلقاً ، قال : ولم لا تسمح لنفسك بالنظر إليه ؟... أتشمئز منه ؟ قال : أبداً يا سيدي سيدي وأقسم لك .. ! ! قال : أهو في نظرك كبير جداً إلى هذا الحد ؟ قال : لا بل صغير جداً لا أكاد أشعر به ، قال : أتهزأ بي أيها الرجل ! قال : عفواً يا سيدي فإني لا أدري ما أقول ، قال : وهل تظن أيها الغبي الأحمق أن الأنف الصغير مفخرة من المفاخر التي يعتز بها صاحبها ؟ نعم إن أنفي كبير جداً لا يكبره أنف في هذا البلد ، وذلك ما أفخر به كل الفخر ، لأن الأنف الكبير عنوان الكرم والشرف والشجاعة والشمم ، وأنا

ذلك الذي اجتمعت له هذه الصفات جميعها ، وأما الوجه الكروي الأملس المجرد من هذا العنوان الشريف كوجهك هذا فلا يستحق غير اللطم ، ولطمه على وجهه لطمة هائلة ، ثم وكزه برجله ففر الرجل هارباً من يديه ، وهو يصيح : النجدة النجدة ! فعاد سيرانو إلى مكانه وجلس على كرسيه مفتخراً وظل يقول : هذا إنذار مني لجميع الفضوليين الثرثارين الذين يحاولون أن يهزأوا بهذا الموضع الناتيء في وجهي أن لا يفعلوا ، فإن حدثتهم نفوسهم بشيء من ذلك سواء أكانوا من الغوغاء أم من النبلاء فليعلموا أنني لا أسمح لهم بالفرار من يدي كما سمحت لهذا الجبان الرعديد قبل أن أغرس ذباب سيفي في سويداء قلوبهم .

فانتفض الأشراف غيظاً وثاروا من أماكنهم ، وقال الكونت دي جيش : يخيل إليّ أن الرجل قد بدأ يضايقنا ، ثم انحدر من المسرح تتبعه حاشيته حتى دنا من سيرانو والتفت إلى أصحابه وقال لهم : ألا يوجد بينكم من يصلح لمقارعة هذا الرجل ؟ فقال الكونت فالفير : أنا صاحبه يا سيدي فانتظر قليلاً فإني سأفوق إليه سهماً لا قبل له بالنجاة منه ، ثم تقدم نحو سيرانو ، وهو جالس على كرسيه جلسة العظمة والكبرياء وظل يرد النظر في وجهه طويلاً ، ثم قال له : ان أنفك أيها الرجل قبيح جداً . فرفع سيرانو نظره إليه بهدوء وسكون ، ثم قهقه قهقهة طويلة وقال : ثم ماذا ؟ قال لا شيء سوى أن أقول لك مرة أخرى : إن أنفك أعجوبة من أعاجيب الزمان ؛ فنهض سيرانو عن كرسيه متثاقلاً وتقدم نحوه خطوة وألقى عليه نظرة من تلكم النظرات الهائلة التي اعتاد أن يصرع بها خصومه حين يلقيها عليهم وقال له : ثم ماذا ؟ فاضطرب الفيكونت وشعر بدبيب الخوف في قلبه وقال : لا شيء ، قال : أهذا هو السهم القاتل الذي أردت أن ترميني به ؟

لقد كنت أظن أنك أذكى من ذلك ، فازداد اضطراب الفيكونت وقال : وماذا تريد ؟ قال : أريد أن أقول لك إن مجال القول في الآناف ذو سعة ، ولو كان عندك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء أو أن لك بعض العلم بأساليب الخطاب ومناهجه لاستطعت أن تقول لي في هذا الموضوع شيئاً كثيراً ، كأن تقول لي مثلاً بلهجة « المتنطعين » : لو كان لي أيها الرجل أنف مثل أنفك هذا لأرحت نفسي والعالم منه بضربة واحدة من حد سيفي ، وبلهجة « المتلطفين » حبذا لو صنعت يا سيدي لأنفك كأساً خاصة به فإني أراه يشرب معك من كأسك التي تشرب منها ، وبأسلوب « الواصفين » : ما أرى أنفك إلا صخرة عاتية ، أو هضبة مشرفة ، أو روشنا مطلاً أو رأساً ناتئاً ، أو لساناً ممتداً . وبنغمة « الفضوليين » : ما هذا الشيء الناتيء في وجهك يا سيدي ؟ أمحارة مستطيلة أم دواة للكتابة ، أم صندوق للأمواس ، أم علبة للمقاريض ؟ وبلهجة « الماجنين » أبلغ بك غرامك بالطيور يا سيدي أن تبني لها في وجهك برجاً خاصاً بها لتقع عليه كلما قطعت شوطاً من أشواطها ؟ وبأسلوب « المداهنين » هنيئاً لك يا سيدي هذا القصر الفخم الذي بنيته لنفسك على هذه الربوة البديعة ! . وباللهجة الشعرية : أأنفك القيثارة التي توقع عليها إلهة الشعر أنغامها الشجية ؟ وبروح السذاجة : في أي ساعة تفتح أبواب هذا الهيكل يا سيدي الحارس ؟ وبالبساطة الريفية : ما هذا يا سيدي أأنف ضخم ، أم لفتة كبيرة أم شمامة صغيرة ؟ وباللهجة العسكرية : صوب هذا المدفع نحو فرقة الفرسان أيها الجندي . وباللغة المالية : أتريد أن تضع أنفك هذا في « اليانصيب » إنه يكون بلا شك النمرة الكبرى ، وباللغة التمثيلية : أهذا هو الأنف الذي أفسد تخطيط وجه صاحبه فساداً عظيماً يا له من مجرم أثيم ، ومعتد زنيم .

ويمكنك أن تقو ل لي «متعجرفاً» : ألا تخاف أيها الرجل وأنت تنفث دخان لفافتك من هذه المدخنة الضخمة أن يصيح الناس حين يرونك : الحريق الحريق ؟ و «متأدباً» : لقد أخل هذا النتوء البارز في وجهك يا سيدي بتوازن جسمك فاحترس من السقوط ، و «متأنقاً» : ألا يجمل بك يا سيدي أن تضع لأنفك هذا مظلة خاصة به حتى لا يتغير لونه من تأثير حرارة الشمس ؟ و «متحذلقاً» : إن الحيوان الضخم الذي سماه الفيلسوف أرستوقان «تيتلخر تيفيلو جملوس»[1] هو الحيوان الوحيد الذي يمكنه أن يحمل كمية من اللحم توازن الكمية التي تحملها في وجهك ، و «مازحاً» : ما أجمله مشجباً لتعليق القلانس والطيالس . و «مغالياً» : ليس في استطاعة أي ريح مهما اشتد هبوبها أن تجلب لأنفك الزكام غير ريح السموم . و «متهكماً» ما أجمله إعلاناً لو وضع على واجهة حانوت من حوانيت الروائح العطرية ! و «متفجعاً» ما البحر الأحمر إلا الدم الذي فصد من أنفك . ذلك ما كان يجب أن تقوله لي لو كان في رأسك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء ، على أنك لو استطعت لحال بينك وبين ذلك الخوف والرعب ؛ لأنك تعلم أنني إن سمحت لنفسي بالسخرية من نفسي أحياناً فإنني لا أسمح لأحد بالسخرية مني مطلقاً ، فلقد جمعت في نفسك بين الغباوة والجهل ، والجبن والخور ، حتى لا أحسب أنك لا تحسن هجاء كلمة في اللغة غير كلمة الحماقة ، ولا تحمل في رأسك معنى غير معناها ؛ فجن الكونت دي جيش غيظاً وقال للفيكونت : من رأيي أن نترك هذا المجنون وشأنه فإننا ممتحنون الليلة برجل لا بد أن يكون قد

---

(١) حيوان خيالي ضخم ، والكلمة منحوتة من تيتل ، خرتيت ، فيل ، جمل، تكبر حجم هذه الأنواع من الحيوان .

أفلت الساعة من يد حارس المارستان ، فقال الفيكونت : إن الذي يغيظني ويؤلمني أن تصدر أمثال هذه الكلمات المملوءة كبراً وعظمة من حقـير مفلوك لا يملك من متـاع الدنيا شيئاً حتى قفازاً في يده ولا يحمل على ثوبه أي علامة من علامات الشرف ؛ فارتعش سيرانو غيظاً ولكنه تجلد واستمسك وأنشأ يقول بصوت هادىء رزين :

نعم أعترف لك يا سيدي بأنني رجل فقير مفلوك لا أملك من متاع الدنيا شيئاً وأنني لا أحمل على صدري أي هنة من تلك الهنات التي تسمونها شارات الشرف ، ولكن ائذن لي أن أقول لك كلمة واحدة ثم أنت وشأنك بعد ذلك .

إنني لا أحفل يا سيدي بالصور والرسوم والأزياء والألوان ، ولا يعنيني جمال الصورة وحسنها ولا برقشة الثياب ونمنمتها ، وحسبي من الجمال أنني رجل شريف مستقيم ، ولا أكذب ولا أتلون ، ولا أداهن ، ولا أتملق وأن نفسي نقية بيضاء غير ملوثة بأدران الرذائل والمفاسد ، فلئن فاتني الوجه الجميل والثوب الملفوف والوسام اللامع والجوهر الساطع ، فلم يفتني شرف المبدأ ولا عزة النفس ولا إباء الضيم ولا نقاء الضمير .

إن الجبهة العالية يا سيدي لا تحتاج إلى تاج يزينها ، وإن الصدر المملوء بالشرف والفضيلة لا يحتاج إلى وسام يتلألأ فوقه ، فليفخر الفاخرون بما شاءوا من فضتهم وذهبهم وألقابهم ومناصبهم . أما أنا فحسبي من الفخر أنني أستطيع أن أمشي بين الناس برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة من غبار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب السفالة والدناءة ، لا أهاب شيئاً ، ولا أغضى لشيء ، ولا أخجل من شيء .

نعم إنني لا أملك قفازاً في يدي كما تقول ، ولكن أتدري ما السبب في ذلك ؟ السبب فيه أنني قطعت جميع قفازاتي على وجوه السفهاء والفضوليين الذين يعترضون طريقي مثلك عقاباً على وقاحتهم وفضولهم ، ولم يكن باقياً لي منها حتى ليلة أمس إلا زوج عتيق جداً احتجت إليه في موقف كموقفي هذا معك فرميت به في وجه أحد السفهاء فلصق بخده فتركته مكانه وانصرفت .

فجن الفيكونت غيظاً وأخذ يهذي ويقول : صعلوك ، بائس ، وقح ، حقير ، سافل ؛ فانحنى سيرانو بين يديه رافعاً قبعته عن رأسه وقال له : تشرفت بمعرفة اسمك يا سيدي ، أما أنا فأسمى سيرانو سافينيان هركيل دي برجراك الجاسكوني ، فصاح الفيكونت : صه أيها النذل الساقط ، فجمد سيرانو لحظة ثم انحنى على نفسه وأخذ يتلوى ويصيح كأنما أصيب بألم شديد في بعض أعضائه ، فظن الفيكونت أنه قد عرض له عارض مميت ، فحنا عليه وقال له : ماذا أصابك ؟ فلم يجب ، وظل يصيح ويتأوه ، فقال له : ما شكاتك أيها المسكين ؟ قال : خدر شديد يؤلمني جداً ، قال : في قدمك ؟ قال : لا ، قال : في فخذك ؟ قال : لا ، قال : إذن في ذراعك ؟ قال : ليته كان كذلك ، قال : قل لي في أي مكان هو ؟ قال : في سيفي ، فدهش الفيكونت وقال : وماذا تريد ؟ قال : لقد طال لبثه في غمده زمناً طويلاً فأصابه هذا التنميل الشديد ولا علاج له غير الامتشاق .

المبارزة الشعرية

ففطن الفيكونت لما أراد وعلم أنها المبارزة ما من ذلك بد فتشجع وقال فليكن ما تريد ، قال : أتعلم أنني سأضربك ضربة

غريبة لم ير الراؤون مثلها ؟ قال : خيال شاعر كذاب ، قال : ان الشاعر لا يكذب ولكنه يقول ما لا يفهمه الأغبياء فيظنونه كاذباً ، وفي استطاعتي أن أرتجل في أثناء القتال الذي يدور بيني وبينك موشحاً لا أقول فيه شيئاً إلا فعلته ، وسيكون مركباً من خمس قطع يبتدىء أولها بابتداء المبارزة وينتهي آخرها بانتهاء حياتك يا فيكونت ، فصاح الفيكونت كذبت وإنك لأعجز من ذلك ، قال : لم أكذب في حياتي قط ، وها هو ذا عنوان موشحي الجديد وأخذ يلقي العنوان ماداً به صوته كأنما يمثل على مسرح ويقول : « موشح القتال الذي دار بين السيد سيرانو دي برجراك وبين صعلوك من الصعاليك المتنبلين اسمه الفيكونت فالفير في حانة بورجونيا » ثم جرد سيفه وبدأ يقاتل ويلقي موشحه ويوقع ضرباته على نغماته ويقول :

* * *

إنني أرمي بهدوء قبعتي ، وأخلع عن منكبي ردائي ، ثم أجرد من غمده سيفي ، ثم أتقدّم نحوك رشيقاً كسيلادون وشجاعاً كاسكاريوس ، ولا بد أني في المقطع الأخير أصيب .

* * *

وكان جديراً بك أن تضن بنفسك على الموت ، إن الموت لا بد آت إليك ، لا أدري أين أضع ذباب سيفي من جسمك أفي جنبك تحت ثدييك ؟ أم في قلبك تحت وسامك ؟ وعلى كل حال ففي المقطع الأخير أصيب .

ترسك يرن تحت ضربات سيفي ، ذباب سيفي يلتهب التهاباً ، قلبك يخفق من الرعب والخوف ، فرائصك ترتعد وتضطرب

فلا بد آني في المقطع الأخير أصيب .

• • •

ها أنت ذا قد بدأت تتقهقر لأنني أفسدت عليك الضربة الوحيدة التي تعرفها ، أوسعت لك المجال فاغتررت وهجمت فلم تلبث أن فشلت وخذلت ، ويل لك من المستقبل المظلم ، فإني في المقطع الأخير أصيب .

• • •

اسأل الله رحمته وإحسانه ، فها هو ذا الموت يرفرف فوق رأسك قد سددت عليك جميع الأبواب ولم تبق لك حيلة في دفع القضاء ، قد وعدت ولا بد أن أفي بوعدي أنني في الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير أصيب .

وهنا ضربه ضربة هائلة اخترقت صدره فسقط يترنح من وقع الضربة وضجت القاعة بالتصفيق والتهليل وأحاط القوم بسيرانو يباركونه ويمسحونه ، وأخذت النساء تنثر عليه الورود والأزهار ، وكانت روكسان أكثرهن اهتماماً بالمبارزة وأشدهن سروراً بنتيجتها ، وظل الجماهير يصيحون بأصوات مختلفة : ما أشجعه ! ما أشعره ! إنه بطل عظيم ، حادث بديع ، منظر جميل ، شاعر وبطل معاً ، لا يقول إلا ما يفعل قد أصابه في الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير كما قال ؛ وتقدم نحوه السيد دارتنيان رئيس حراس الملك ومد إليه يده وقال له : ائذن لي يا سيدي أن أشكرك وأصافحك وأقول لك إنك أفضل مبارز رأيته في حياتي ؛ فلم يزد سيرانو على أن ألقى عليه نظرة هادئة ساكنة ومد يده إليه فصافحه بسكون . ثم أخذ الناس ينصرفون

من القاعة تباعاً وكان الممثل منفلوري لا يزال واقفاً في الطريق العام فظلوا يسبونه ويشتمونه كلما مروا به ويعيرونه بالجبن والفرار ، حتى إذا لم يبق في الحانة أحد قال لبريه لسيرانو : هل لك أن تتخلف هنا قليلاً أيها الصديق لأني أريد أن أتحدث إليك في بعض الشؤون ؟ فقال سيرانو لصاحب الحانة : أتأذن لنا أن نبقى هنا هنيهة أنا وصديقي لبريه ؟ قال : نعم كما تشاء يا سيدي وسأخرج أنا وجماعة الممثلين لنتناول طعام العشاء ونتنزه قليلاً ثم نعود بعد ساعة لتهيئة الرواية المقبلة وصاح بالخدم : أغلقوا الأبواب وأبقوا الأنوار كما هي حتى نعود ، ثم انصرف هو وسائر الممثلين .

سريرة سيرانو

قال لبريه لسيرانو : وأنت ألا تريد أن تتعشى أيضاً قال : لا ، قال : لماذا ؟ قال : لأني لا أملك نقوداً ، فقهقه لبريه ضاحكاً ، فدهش سيرانو والتفت إليه وقال له : مم تضحك ؟ قال : تذكرت ذلك الموقف الجميل وأنت تخرج كيسك من جيبك وترمي به بكل قواك الى بلروز وتقول له : خذ هذا أيها الرجل فهو لك ، قال : ألا ترى أنها كانت حركة بديعة ، قال : نعم ، ولكنها لا تغني عن العشاء شيئاً ولا أدري ماذا تصنع بعد اليوم وأنت لا تزال في الأسبوع الأول من الشهر ، ولا أحسب أن أباك يرسل إليك النفقة الشهرية مرة أخرى ، وكانت فتاة المقصف واقفة على مقربة منهما تسمع حديثهما دون أن ينتبها لها فتحركت حركة مسموعة فالتفت إليها سيرانو فمشت نحوه ووضعت يدها على كتفه وألقت عليه نظرة عطف وحنو لو أنها ألقتها على وجه غير وجهه لظنها الناس بجمالها ورقتها نظرة حب وغرام وقالت له : أنت ضيفي الليلة يا سيدي ، وها هو ذا الطعام بين يديك فادن

من المائدة وتناول منها ما تشاء ، فقال : شكراً لك يا صديقتي ، وبالرغم من أن عظمتي الجاسكونية لا تسمح لي أن أمد يدي لتناول أي شيء من أي إنسان فإني ألبي دعوتك إبقاء على صداقتك وودك ، ثم تقدم نحو المائدة وتناول ثلاث حبات من العنب وقرصاً صغيراً وكأساً من الماء وقال . هذا يكفيني ، قالت له : خذ شيئاً آخر ، قال : لا حاجة بي إلى شيء بعد ذلك إلا إلى قبلة من يدك الجميلة فاسمحي لي بها ، وتناول يدها فقبلها ووجهها يلتهب حياء وخجلا ، ثم وضع الطعام بين يديه وهو يتمتم بصوت ضعيف ويقول : « لقمة صغيرة لا تملأ معدة طفل وثلاث حبات من العنب لا تملأ الفم . آه ما أشد جوعي » ثم التفت إلى لبريه وقال له : ماذا كنت تريد أن تقول لي يا لبريه ؟ تكلم فإني مصغ إليك ، قال كنت أريد أن أقول لك : إن هؤلاء الطائشين المغرورين الذين لا حديث لهم ليلهم ونهارهم إلا حديث الطعن والضرب والمغالبة والمصارعة سيفسدون عليك عقلك ، ويهدمون نظام حياتك، ولو أنك جريت معهم في هذا المضمار طويلاً ، لكانت عاقبتك أوخم العواقب وأردأها ، سل العقلاء أصحاب العقول الراجحة والآراء المستحصدة، ماذا كان وقع حادث الليلة في نفوسهم وخاصة في نفس رجل عاقل كيس كنيافة الكردينال ؟ فقال له وكان قد انتهى من طعامه : أكان الكردينال هنا ؟ قال : نعم ، ولا بد أن يكون رأيه فيك سيئاً جداً ، قال لا بل بالعكس ، لأنه شاعر ، والشاعر يعجبه دائماً أن يرى بعينيه منظر سقوط رواية ينظمها شاعر آخر . قال : ولكنك قد اتخذت لك الليلة أعداء كثيرين لا ادري ماذا يكون شأنك معهم غداً ، قال : كم تظنهم على وجه التقريب ! قال : أربعين غير النساء ، قال : أذكر لي بعضهم مثلاً ، قال : منفلوري ، دي جيش ، دي جيجي ، فالفير ، بارو مؤلف

الرواية ، الممثلون ، أعضاء المجمع العلمي ... قال : كفى كفى ، فقد فهمت ، إنها نتيجة جميلة جداً ، كنت أظن أن أعدائي أصغر شأناً من ذلك ، فعجب لبريه لأمره وقال له : أعترف لك يا سيرانو أنني قد عييت بأمرك إعياء شديداً وأصبحت لا أدري إلى أين تصل بك هذه الحالة الغريبة وتلك الأساليب الشاذة ولا أفهم ما هي حقيقة رأيك في الحياة ولا ما هي خطتك التي انتهجتها لنفسك فيها ! فأطرق سيرانو لحظة ثم رفع رأسه وقال له : اسمع يا لبريه :

إن الخطط في الحياة كثيرة جداً ومتشعبة تشعباً يحار فيه العقل ، ولقد ضللت في مسالكها برهة من الزمن لا أعرف ماذا آخذ منها وماذا أدع ، حتى اهتديت أخيراً إلى أبسطها وأسهلها ، قال : وما هو ؟ قال : هو أن أكون موضع الإعجاب في كل شيء ومن كل إنسان ، قال : فليكن ما تريد ، ولكن على شرط أن تكون أفعالك أشبه بأفعال العقلاء منها بأفعال المجانين ، قال : لا أستطيع أن أعرف الحد الفاصل بين العقل والجنون ، قال : هل لك أن تخبرني لِمَ تضمر في نفسك هذا البغض الشديد لمنفلوري ، وما أذكر أن الرجل اساء إليك في حياته قط ؟ قال : أبغضه لأنه وهو ذلك العتل البطين الذي لا تستطيع يده أن تصل إلى سرته يظن نفسه رشيقاً جميلاً يستطيع أن يخلب قلوب النساء ويستهوي ألبابهن بخفته ورشاقته ، فإذا وقف على المسرح للتمثيل ألقى عليهن في مقاصير هن نظرات كنظرات الضفادع بصورة تعافها الأنفس وتندى لها الوجوه ولقد أضمرت له في نفسي تلك الموجدة منذ الليلة التي رأيته يجترىء على أن يوجه إليها نظراته الخنفسائية البشعة ، فلقد خيل إليّ في تلك الساعة أن دودة سوداء قد دبت من مكانها إلى وردة نضرة ناعمة فلصقت بها

فأزعجني هذا المنظر المؤلم ازعاجاً شديداً ولم أر بداً من معاقبته على جهله وغباوته فحكمت عليه بالانقطاع عن التمثيل شهراً كاملاً ، فقال : لبريه ، ومن هي تلك التي تريد؟ يخيل إليّ أنك عاشق يا سيرانو ، فابتسم ابتسامة الممتعض المتألم ثم تنفس تنفسة طويلة كادت تتساقط لها جوانب نفسه وقال : نعم يا لبريه ، إنني أحب حباً قاتلاً لا بد أن يسوقني إلى القبر ، قال : وهل يمكنني أن أعرف من هي تلك التي تحبها ؟ فإنك لم تحدثني عنها قبل اليوم . قال : أي فائدة لي من ذكرها وهي لا تحبني ؟ قال وكيف عرفت ذلك ، هل فاتحتها في شيء؟ قال : وكيف يمكنني أن أفاتحها وأنا أعلم أن هذا الأنف البشع القبيح الذي أحمله يتقدمني حيثما ذهبت وأنى سلكت ، فلا يسمح لي بالطمع في قلب امرأة قبيحة شوهاء فضلاً عن جميلة حسناء؟ قال : ألا يمكنني أن أعرف من هي؟ قال : إذا عرفت أن سيرانو لا يمكن أن يحب إلا أجمل امرأة في العالم أمكنك أن تعرف من هي؟ فصمت لبريه هنيهة وهو يفكر حتى عجز فقال : لم أستطع أن أفهم شيئاً ، فهل لك أن تصفها لي؟ قال أما هذه فنعم ، هي الخطر العظيم الذي يحيط بالمرء من جميع نواحيه فلا يعرف له سبيلا إلى الخلاص منه ، هي المغناطيس الجذاب الذي يستهوي قلب الناظر إليه وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، هي الوردة النضرة الناعمة التي تكمن حية الحب السامة بين أوراقها ، من رأى ابتساماتها رأى الكمال الإنساني كله ، ومن رأى نظراتها رأى البدعة واللطف والرقة والعذوبة وجميع معاني الحياة اللذيذة ، وفي كل حركة من حركاتها ، وإشارة من إشاراتها ، ولفتة من لفتاتها شمس تضيء الكون وتنير ظلماته ، ليس في استطاعة «الزهرة» ربة الجمال وهي جالسة فوق علياء عرشها العظيم

أن تضارعها في بهائها وجلالها . ولا في استطاعة « ديانا » إلهة الحب حين تسير بخفة ورشاقة وسط الرياض الناضرة أن تحاكيها في مشيتها وهي سائرة على قدميها الصغيرتين في مماشي بستانها ، فقال لبريه : حسبك يا سيرانو فإنك تحب ابنة عمك روكسان ، ولكن لا ادري لم لا تفضي إليها بذات نفسك ما دمت تمت إليها بصلة القربى التي بينك وبينها ؟ قال : ذلك ما أعجز عنه يا صديقي ، فإنني رجل بائس مسكين قضى الله عليّ أن أعيش في هذا العالم بلا أمل ولا رجاء ، تأمل في وجهي قليلاً وانظر هل يستطيع صاحب مثل هذا الوجه البشع الدميم أن يحيا في العالم حياة الحب والغرام ؟ أو أن يكون له أمل في اختلاف الأفئدة واجتذاب القلوب ؟ لقد تمر بي في بعض أيامي ساعات أشعر فيها بحاجة قلبي إلى تلك الحياة الحلوة اللذيذة التي يحياها الناس جميعاً حياة الحب والغرام فأدخل إحدى الحدائق العامة وأمشي بين رياضها وأزهارها ، وأتنسم روائحها وأنفاسها ، فأنسى نفسي ويخيل إليّ أني أسبح في جو رائق صاف من العواطف والوجدانات فإذا رأيت في ضوء أشعة القمر الفضية امرأة جميلة تمشي وحدها خيل إليّ أني أستطيع أن أكون رفيقها الآخذ بذراعها ، وإذا رأيت فتى وفتاة سائرين على مهل يتهامسان ويتناجيان وتتموج أنوار الحب بينهما خيل إليّ أن بجانبي رفيقة حسناء ترفرف عليّ وعليها هذه الأجنحة البيضاء التي ترفرف عليهما ، ثم أستسلم لهذه التصورات والأفكار وأستغرق فيها ساعة طويلة حتى إذا وقع نظري فجأة على خيال وجهي في حائط الحديقة في ضوء القمر عدت إلى صوابي وأفقت من غيبوبتي ورجعت أدراجي إلى منزلي وبي من الحزن ما الله به عليم ، ثم نكس رأسه ملياً وصمت صمتاً عميقاً كأنما يعالج في نفسه ألماً ممضاً فحنا عليه لبريه ، وقال

له : رحمة بنفسك يا صديقي ، فرفع رأسه وقال : نعم إن آلامي عظيمة جداً لا يحتملها بشر ، فليت الله إذ خلقني على هذه الصورة الدميمة البشعة لم يخلق لي قلباً خفاقاً ، أو ليته إذ خلق لي هذا القلب الخفاق خلق له أجنحة يستطيع أن يطير بها في جو الحب كما تطير القلوب الخوافق ؛ أما الآن فإنني أشعر أني وحيد في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، ولا أنيس ولا عشير ، ولا زوجة ولا ولد ، ثم عاد إلى إطراقه مرة أخرى وأخذ يبكي فقال له : أتبكي يا سيرانو ؟ فانتفض ورفع رأسه وقال : لا يا لبريه ، وإن البكاء قبيح بمثلي ، ولا يوجد في العالم منظر أقبح ولا أسمج من منظر الدمعة الجميلة ، وهي سائلة على مثل هذا الأنف الضخم الطويل ، لا شيء في العالم أبدع ولا أرق ولا أجمل من الدموع ، وإني أضن بها أن أذيلها وأهينها وأكدر صفوها وأشوه جمالها ؛ فتأثر لبريه لمنظره تأثراً شديداً وكاد يبكي لبكائه ، ولكنه تجلد واستمسك وقال له : لا تحزن يا صديقي ولا تستسلم لهذه الأوهام فما الحب في الدنيا إلا حظوظ وجدود ، وقد يأتيك عفواً ما تظن أنه أبعد الأشياء منالاً منك ، قال : لا أنت مخطىء يا لبريه فإنه لا يجوز لي أن أطمع في حب «كليوباتره» إلا إذا كنت «قيصر» ولا في حب «برنيس» إلا إذا كنت «تيتوس»[1] قال : إن الله قد وهبك من العقل والذكاء والصفات الكريمة النادرة ما يقوم لك مقام الجمال ، ألم تر تلك الفتاة بائعة الحلوى ، وهي تنظر إليك نظرات الحب والشغف على أثر تلك المبارزة الغريبة التي انتصرت فيها على الفيكونت

---

(١) بيرنيس أميرة إسرائيلية من أسرة هيرود حكام جوديه بفلسطين رآها تيتوس الامبراطور الروماني أثناء فتوحاته هناك فأحبها وأحبته فأتى بها الى روما وأراد أن يتزوجها فأبى شعبه عليه ذلك إباء شديداً فاضطر أن يعيدها بالرغم منه ومنها .

الليلة ؟ كذلك كان شأن روكسان ، فقد شاهدتها وهي تتبع حركاتك أثناء المبارزة باهتمام عظيم وقلقها عليك ظاهر في اضطراب اعضائها واكفهرار وجهها حتى إذا انتصرت على خصمك كانت هي أعظم الناس سروراً بانتصارك ؛ فانتعش سيرانو وهدأت نفسه قليلاً ، وقال : أصحيح ما تقوله يا لبريه ؟ قال : نعم ولا بد أن تكون تلك الحادثة قد تركت في قلبها أثراً عظيماً ، فإنتهز هذه الفرصة وفاتحها في شأن حبك ، قال : أخاف أن تسخر مني ، وهو الأمر الذي أخشاه أكثر من كل شيء في العالم .

وهنا ظهرت وصيفة روكسان داخلة من الباب الكبير ، ولم تزل سائرة حتى وقفت أمام سيرانو ، فدهش لرؤيتها دهشة عظمى وخفق قلبه خفقاً متداركاً وقال : آه يا إلهي إنها وصيفتها ، وظل يرتعد ويضطرب ؛ فانحنت الوصيفة بين يديه محيية وقالت له : إن سيدتي روكسان تسأل ابن عمها البطل الشجاع سيرانو دي برجراك : متى يمكنها أن تراه غداً على انفراد لتحادثه في بعض الشؤون ؟ وأين يكون مكان الاجتماع ! فازداد اضطرابه وارتعاده وقال : تراني أنا ؟ قالت : نعم في المكان الذي تريده ، وفي الساعة التي تراها . قال : آه يا إلهي ، كيف يمكنني أن أصدق ذلك ؟ قالت : إنها ستذهب غداً عند تفتح زهرات الصباح لسماع خطبة الوعظ في كنيسة « سان روك » ففي أي مكان تحب أن تقابلها بعد خروجها من الكنيسة ؟ فارتج عليه وظل يهمهم ويتمتم وانتشر عليه رأيه فلم يعرف ماذا يقول ، فقالت له : مالي أراك مضطرباً هكذا ؟ أسرع بالجواب فإنها تنتظرني ، فقال بصوت خافت منقطع : إني أنتظرها في الساعة السابعة من صباح الغد في مطعم راجنو ، قالت : وأين مكان هذا المطعم ؟ قال : في رأس شاعر سان اتريه ، قالت : سأبلغها ذلك ، وانحنت ثانية بين يديه وانصرفت ، فظل

شاخصاً ببصره إلى السماء كالذاهل المشدوه ، وهو يردد بينه وبين نفسه : آه يا إلهي : كيف يمكنني أن أصدق ذلك ، إنها أرسلت إليّ . وصيفتها تسألني أن أقابلها على انفراد فليت شعري ماذا تريد أن تقول لي ؟ فقال له لبريه : تريد أن تقول لك إنها تحبك ما في ذلك ريب ، ولقد تنبأت لك بذلك من قبل فلم تصدقني ، قال كيفما كان الأمر كذلك فحسبي منها أني خطرت ببالها وأنها تعلم أن في العالم إنساناً اسمه سيرانو ، قال : ما أحسبك إلا راضياً عن نفسك الآن ولا بد أن تكون قد هدأت تلك الثورة التي كانت قائمة في نفسك ، قال : لا ما هدأت ولا فترت ، بل أصبحت ثائراً جداً ، وأشعر أن قوتي قد ازدادت أضعافاً مضاعفة ، فلو لقيت الآن جيشاً كامل العدة والعدد لقهرته وحدي ، ويخيل إليّ أن بين جنبي عشرة قلوب ، وأن في منطقتي عشرة سيوف أستطيع أن أقاتل بها جميعاً في آن واحد ، ولا يكفيني أن أحارب الأقزام والضاوين والجبناء كذلك المسخ الذي حاربته الليلة بل لا بد لي من جبابرة وعمالقة أفخر بقتالهم والفلج عليهم .

باب نيـــل

وكان يتكلم بصوت عال رنان ويصرخ صرخات هائلة مزعجة تدوي بها أرجاء القاعة كأنما خيل إليه أنه في ميدان حرب ، وأنه يقاتل في أولئك العمالقة والجبابرة الذين ذكرهم .

وكان الممثلون قد عادوا من نزهتهم وأخذوا يهيئون عـــلى المسرح الرواية المقبلة فأزعجهم صوت سيرانو ، وهو يصرخ فصاح به أحدهم : ألا تزال باقياً هنا حتى الآن يا سيرانو ؟ لقد أزعجتنا بضوضائك وصخبك فاهدأ قليلاً لنستطيع أن نأخذ في

عملنا ، فابتسم سيرانو وقال عفواً يا سادتي فسأترك لكم المكان مسروراً مغتبطاً ، وهمّ بالخروج ، فما راعه إلا جماعة من الجنود والضباط قد دخلوا الحانة يحيطون برجل يترنح سكراً فتأمله فإذا هو لينيير ، فهرع إليه مذعوراً وقال : ما بك يا صديقي ؟ قال بلهجة متثاقلة : خذ هذه الورقة واقرأها إنها تنذرني بأن مائة رجل يكمنون لي الليلة في طريقي إلى منزلي عند « باب نيل » ليقتلوني بسبب تلك القصيدة التي تعلمها ، فأذن لي بالذهاب إلى منزلك لأنام فيه الليلة ؛ فأطرق سيرانو هنيهة ، وهو يهمهم قائلاً : مائة رجل على رجل واحد ؟ ما أجبنهم وأسفل نفوسهم ، ثم رفع رأسه وألقى على لينيير نظرة عالية مترفعة وقال له بهدوء وسكون : لينيير ! إنك ستنام الليلة في بيتك ، فلم يفهم غرضه وقال له وهو يترنح ويتملق : ولكنك تعلم يا سيدي أني رجل ضعيف مسكين لا أقوى على مقاتلة هر فمن لي بلقاء مائة رجل وحدي ؟ قال : إنني أنا الذي ألقاهم ، وأنا الذي سأقاتلهم ، فخذ المصباح من يد البواب وسر أمامي ، وأقسم لك أنك ستنام الليلة في بيتك ، وأنني سأمهد لك فراشك بيدي ، لقد كنت أتمنى منذ هنيهة أن أقاتل جيشاً كامل العدة والعدد ، وها هو ذا الجيش الذي كنت أتمناه قد وافاني وحده ، إنني في هذه الليلة بل في هذه الساعة على الأخص لا يجمل بي أن أقاتل أقل من هذا العدد ، فتقدم نحوه لبريه ووضع يده على كتفه وأسر في أذنه : ألا يستطيع هذا الرجل أن ينام الليلة في غير بيته ؟ وهل ترى من اللازم الحتم أن تخاطر بنفسك دفاعاً عن مثل هذا الأبله المأفون ، وكان الممثلون قد نزلوا من المسرح وأقبلوا يشاهدون الحادثة فوضع سيرانو يده على كتف لبريه ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة هادئة لطيفة : إن هذا السكير الذي لا يفيق بل الـــزق الذي لا ينفد هو أرق

الناس قلباً وأجملهم حساً وأشرفهم شعوراً ، رأيته مرة وقد خرج من الكنيسة يوم الأحد فرأى المرأة التي يحبها تتناول بيدها اللطيفة قليلاً من الماء المقدس فظل يرقبها حتى انصرفت فهجم على الحوض الذي وضعت يدها فيه ، وما على وجه الأرض شيء أبغض إليه من الماء القراح ؛ فما زال يكرع منه حتى أتى عليه ؛ فصاحت إحدى الممثلات : ما أجمل هذه الحادثة ، وما أرق هذا الشعور ! فالتفت إليها سيرانو وقال لها : أليس كذلك أيتها الفتاة ؟ قالت وارحمتاه لهذا الرجل المسكين كيف يسمح مائة رجل لأنفسهم أن يتفقوا عليه ؟ ألا تعلم ما هو السبب في ذلك يا سيدي ؟ فلم يجبها سيرانو والتفت إلى جماعة من الجند الذين دخلوا مع لينيير وقال لهم : ها أنذا ذاهب إلى المعركة الليلة ؛ فإن شئتم أن تكونوا معي فأنتم وشأنكم ، غير أن لي عليكم شرطاً واحداً فقط ، هو أنكم مهما رأيتم من الخطر المحدق بي فلا يتقدم أحد منكم لمساعدتي ، وليكن مكانكم مني مكان مراسلي الصحف ومندوبيها في المعارك ، يشاهدونها ولا يقربونها ؛ فقالت الممثلة ؛ هل تأذن لي يا سيدي أن أذهب معكم حيث تذهبون ! قال نعم آذن لك ولكل من أراد الذهاب منكم ، فصاح الممثلون والموسيقيون جميعاً : كلنا نذهب معك ؛ فابتهج سيرانو وتهلل وجهه وقال : يا له من موكب شائق بديع ، ثم جرد سيفه من غمده وضرب به الهواء وصاح صيحة القائد في جنده ليتقدم الضباط ثم الجند ثم الممثلون ثم الممثلات ثم الموسيقيون ، وهم يعزفون بألحانهم الحماسية ، وليأخذ كل منكم في يده شمعة أو مصباحاً ، أما أنا فإني قائدكم العام وها هي الريشة التي ناولتني إياها يد المجد والفخار ترفرف فوق قبعتي ؛ فأخذوا يصطفون كما أمرهم ، وهم يمجنون ويضحكون كأنهم ذاهبون إلى مرقص ، وهنا التفت سيرانو إلى

الممثلة التي أعجبتها قصة لينيير وقال لها : قد كنت سألتني أيتها الفتاة منذ هنيهة : لم يتفق مائة رجل على رجل واحد مسكين ؟ فأقول لك جواباً على ذلك : إنهم ما فعلوا ذلك من أجله بل من أجلي ؛ لأنهم يعلمون أني صديقه الذي لا يخذله ، ثم أمر البواب أن يفتح الباب الكبير على مصراعيه ففعل فتجلى أمامه منظر باريس العام في ضوء القمر الساطع فوقف هنيهة يتأمل هذا المنظر البديع ويقول : آه لقد طلع البدر وتلألأت أشعته فاختفت باريس المظلمة وحلت باريس المنيرة ، ها هي النجوم اللامعة تسطع في سمائها ، وها هي أشعة القمر تسيل على منحدرات سطوحها ، وها هو نهر السين يرتجف تحت أبخرته البيضاء ارتجاف المرآة السحرية .

إن الطبيعة تهيء لنا ميداناً جميلاً للقتال الرهيب فهيا بنا جميعاً إلى « باب نيل » .

ثم مشى فمشى الجميع وراءه ينقلون خطواتهم على نغم الموسيقى .

الفصل الثاني

المتشاعرون

فتح راجنو طاهي الشعراء والممثلين مطعمه مبكراً كعادته والطيور لا تزال جاثمة في أوكارها فجلس بين يدي منضدته ينظم على ضوء المصباح قطعة شعرية في وصف « اللوزينج »[1] فكان يكب على أوراقه مرة ليقيد ما حضره من الأبيات ويرفع عينيه إلى السماء أخرى ليستمد من إلهة الشعر روحها ويستلهمها وحيها ، ولم يزل على ذلك ساعة حتى بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى من خلال النوافذ والكوى ودوت في المطبخ جلبة العمال وضوضاؤهم وصلصلة الآنية والقدور فألقى قلمه واعتدل في جلسته وتأوه آهة طويلة ثم قال مخاطباً إلهة الشعر : وداعاً أيتها الإلهة القوية القادرة ، قد انقضى الليل وانقضى سكونه وهدوؤه ، وجاء النهار بجلبته وضوضائه فدعيني واذهبي لشأنك غير مقلية ولا مجتواة وموعدنا الليلة القابلة ، ثم مشى الى المطبخ فرأى في مدخله إناء من النحاس الأصفر قد ألقت الشمس عليه أشعتها الصفراء فاشتد وميضه ولألؤه فوقف أمامه لحظة يتأمله ويقول : هذه هي الشمس قد استطاعت أن تصنع ما لا يصنعه الكيمائي الماهر ؛ فقد حولت النحاس الأصفر بشعاع واحد من اشعتها إلى عسجد وهاج ، ثم قال : ما أجمل هذا المعنى وأبدعه ، لا بد لي من

---

(١) نوع من الحلوى يؤدم بدهن اللوز .

تقييده حتى لا يفلت من يدي إذا احتجت إليه ، وأخرج دفتره من جيبه فقيده ، ثم وقف بأحد الغلمان وهو يشق بمدية في يده رغيفاً إلى شقين فقال له : لقد أخطأت القسمة أيها الغلام فالمصراعان غير متوازنين ، ورأى آخر يشوي في نصل واحد ديكاً كبيراً وعصفوراً صغيراً فقال : إنها طريقة الشاعر « مالرب » وهي لا تعجبني ، فإما أن يكون البيت تاماً كله أو مجزوءاً كله ومر بطباخ يطبخ مرقاً في قدر فتناول الملعقة وأدار ما فيه ثم قال له : ما أرق هذا الحساء ! إنه كالشعر المهلهل وأنا لا يعجبني إلا الجزل المتين ، ووقف أحد العمال بين يديه وسأله كم قيراطاً تحب أن يكون ارتفاع قبة الفالوذج اليوم ؟ قال : ثلاثة تفاعيل ، وتقدم بين يديه آخر حاملاً على يديه صينية مغطاة بنسيج رقيق وقال له : لقد اخترعت اليوم هذا الشكل يا سيدي فلعله يعجبك ثم رفع النسيج فإذا قيثارة مصنوعة من الحلوى مغشاة بدقيق السكر الأبيض فتهلل وجهه فرحاً وصاح : فكرة شعرية جميلة لم يسبقك إليها أحد ، وقد أعفيتك اليوم من العمل مكافأة لك على حسن تصورك وسمو خيالك ؛ فاذهب لشأنك وخذهذه القطعة الفضية واشرب بها نخب الفنون الجميلة .

دواوين الشعراء

لم يزل يطوف بالعمال ويخاطبهم بهذا الأسلوب المضحك الغريب . وهم يتغامزون عليه ويتضاحكون من ورائه حتى خرج فمشى إلى قاعة الطعام فرأى زوجته « ليز » تصفف على المائدة أنواع الحلوى والفطائر والقدائد والرشارش والرقائق وقد اتخذت أوعيتها وأكياسها من صحائف الكتب الأدبية ودواوين الشعراء

التي كانت تبتاعها من الوراقين لهذا الغرض ؛ فألقى على الأكياس نظرة حزينة مكتئبة وقال : أهكذا تصنعين بدواوين أصدقائي الشعراء المجيدين ! لقد كنت أتمنى أن أرى وجه الموت قبل أن أرى تلك الأعلاق النفيسة والجواهر المنتقاة أوعية للفطائر والحلوى في حوانيت الطهاة والحلويين فوارحمتاه للأدب ووا أسفاً عليه وعلى عهده الزاهر النضير ، فألقت عليه نظرة ازدراء واحتقار وقالت له : إننا ما أردنا إهانة دواوين أصدقائك ولا الزراية بها ولكننا علمنا أنها لم تخلق إلا للعثة والأرضة وإن شعاع الشمس لن يصل إلى مكانها أبد الدهر ، فأردنا أن نحتال على الناس في أمرها فنشرناها من قبورها وقدمناها إليهم لفائف للفطائر والحلوى علهم يلمحونها عرضاً فيقرءونها ، فليشكر لنا أصدقاؤك منتنا عليهم ويدنا عندهم ، فاحتد راجنو غيظاً وقال لها : أيتها النملة الضعيفة لا تهيني الثور العظيم فيصرعك بحافره صرعة لا قيامة لك من بعدها . فقالت : لعنة الله عليك وعلى جميع ثيرانك من عهد هومير [1] إلى عهدك ، وتركته وانصرفت .

وما هي إلا هنيهة حتى دخل المطعم غلام صغير يطلب قرصاً من الحلوى فتناول راجنو أحد الأكياس وتأمله قبل أن يعطيه إياه فوقع نظره على هذه الكلمة « ولما فارق عولس بينيلوب » فأعاده إلى مكانه ، وقال : شعر بديع لا أستطيع أن أسمح به . وتناول كيساً آخر فقرأ عليه هذا العنوان « إلى أبولون » فقال : وأ هذا ، ووضعه مكانه وتناول كيساً ثالثاً فقرأ عليه « إلى فيلبس » فقال : ولا هذا أيضاً ، وأراد أن يعيده إلى مكانه فالتفتت إليه زوجته فخافها وأعطاها الغلام فأخذه وانصرف .

---

(١) هومير – صاحب الإلياذة – شاعر يوناني قديم .

ولم يلبث أن تغفل زوجته وعدا وراء الغلام حتى أدركه في الطريق فضرع إليه أن يرد له الكيس فارغاً فأبى الغلام إلا إذا أخذ في مقابله قرصاً آخر أو أخذ القرص بلا ثمن ! فرد إليه راجنو الثمن وعاد بالصحيفة فرحاً مغتبطاً يمسح عنها الدهن الذي غمرها ويضمها إلى صدره ويترنم بأبياتها .

الموعـــد

وإنه لكذلك إذ فتح الباب فجأة ودخل سيرانو وهو مصفر الوجه ، شاحب اللون على أثر تلك المعركة الليلية التي دارت بينه وبين أعداء لينيير . فسأل راجنو كم الساعة الآن ؟ قال السادسة يا سيدي ، وقدم له كرسياً فجلس عليه ثم وقف بين يديه متأدباً متخشعاً وقال له : أهنئك يا سيدي بانتصارك العظيم الذي انتصرته ليلة أمس ، فلقد كانت تلك المعركة أجمل معركة حضرتها في حياتي ، وسيمر بي زمن طويل قبل أن أنساها وأنسى حسنها وجمالها ، فالتفت إليه سيرانو ، وقال : أي معركة تريد ؟ قال : معركة « بورجونيا » قال : لعلك تريد المبارزة ؟ قال : نعم أريد تلك المبارزة الغريبة التي ألفت فيها بين نغمات سيفك ونغمات شعرك تأليفاً بديعاً كأحسن ما يصنع الموسيقار الماهر وارتجلت فيها ذلك الموشح الجميل الذي لم يسبقك إليه شاعر من قبلك ، كأن إلهة الشعر كانت مرفرفة فوق رأسك تمدك بروحها وقوتها ، فقالت ليز وهي تشير إلى زوجها : نعم يا سيدي إنه ما زال يلهج بتلك الحادثة مذ رآها حتى الساعة لا يفارق خيالها يقظته ولا منامه ، حتى ليخيل إلي أنه قد أصابه مس من الشيطان ، فقال راجنو : نعم إنها لم تفارق خيالي قط ، وما حسدت أحداً في حياتي على

موقف من المواقف حسدي إياك على موقفك هذا ، ثم مد يده إلى المائدة وتناول مدية طويلة وأخذ يلوح بها في الهواء مقبلاً مدبراً متقاصراً متطاولاً كأنما يمثل تلك المبارزة ويترنم في أثناء تمثيله بهذا الشطر «وفي المقطع الأخير أصيب ، وفي المقطع الأخير أصيب» ثم يقول : ما أجمل هذه النغمة ! وما أبلغ هذا الشعر وما أمتن تلك القافية ، وسيرانو ينظر إليه مدهوشاً مستغرباً حتى فرغ من تمثيله ، فقال له : كم الساعة الآن يا راجنو : ست وعشرون دقيقة يا سيدي ، فقال في نفسه : لم يبق على السابعة إلا القليل ؛ ثم وقف وأخذ يتمشى في أرجاء القاعة ذهاباً وجيئة فمر بليز وهي واقفة بجانب المائدة فلمحت في يده جرحاً دامياً فقالت له : ماذا أصابك يا سيدي ، وما هذا الجرح الذي في يدك؟ قال خدش بسيط لا أهمية له ، فقالت : يخيل إلي أنك كنت في معركة ، قال : لا ، فقالت : أخاف أن تكون كاذباً ، قال : هل رأيت أنفي يضطرب؟ تلك هي العلامة الوحيدة للكذب في مذهبي ، ثم التفت إليها وإلى راجنو وقال لهما : إنني أنتظر بعض الناس هنا وأحب أن أكون معهم على انفراد فاتركا القاعة الآن ، فلم يبق على حضوره إلا القليل ؛ قال راجنو : ولكن ماذا أصنع بشعرائي يا سيدي ، وهم على وشك الحضور الآن ، قال : لا بأس أن يحضروا على شرط أن تأذنهم بالانصراف أو بالتحول إلى غرفة أخرى عندما أشير إليك ثم سأله كم الساعة الآن؟ قال : ست وثلاثون دقيقة . قال أعطني قلماً وقرطاساً فإني أريد أن أكتب شيئاً ؛ فجاءه بما أراد ، فجلس على منضدة راجنو وأمسك بالقلم وأنشأيقول بينه وبين نفسه : ليس في استطاعتي أن أفاتحها في شيء مما أحب أن أفاتحها فيه ، فخير لي أن أكتب لها كتاباً أقدمه إليها بنفسي عند حضورها ثم أتركها وأنصرف

لشأني لتقرأه وحدها ، وأطرق برأسه ثم تنفس نفساً طويلاً وقال . آه ، لقد كنت أظن أنني شجاع جريء لا أهاب الإقدام على أي خطر من الأخطار مهما كان شأنه ، فإذا أنا جبان عاجز لا حول لي فيما يعرض لي من الخطوب ولا حيلة ويخيل إليّ أن الموت هو أهون عليّ من أن أقف أمامها وجهاً لوجه وأفضي إليها بشيء مما يجيش في صدري ، ثم أكب على المنضدة وحاول أن يكتب شيئاً فاردحمت الأفكار في رأسه وانتشرت عليه خيالاته وتصوراته فلم يستطع أن يكتب حرفاً واحداً ، فألقى القلم من يده وقال : قبح الله التكلف والتعمل لو لا أنها تلميذة « المدرسة القديمة » وأنها من فريق المتأنقين المتشدقين المفتتنين بالصور والأساليب لما وجد قلمي في طريقه ما يعترضه دون الوصول إلى الغاية التي يريدها ، فالكتاب مسطور في صدري بأكمله وليس بيي وبينه إن أردته إلا أن أضع قلبي بجانبي وأستمليه ما يشعر به فيمليه عليّ ببساطة ووضوح ، ثم تناول القلم مرة أخرى وشرع في الكتابة فإذا هو صوت غليظ أجش يقعقع ناحية الباب « صباح الخير يا ليز » فرفع سيرانو رأسه فإذا ضابط ضخم الجثة هائل الخلقة ذو شاربين كثيفين مستطيلين ، فسأل راجنو من الرجل؟ فقال إنه ضابط من ضباط الجيش الفرنسي يسمي نفسه « الرجل الهائل » وهو كما يزعم بطل من الأبطال المغاوير الذين لم يسمح الدهر بمثلهم في جيش من جيوش العالم ، وهو صديق زوجتي ليز ولا يأتي هنا إلا لزيارتها ، فألقى سيرانو على الضابط نظرة شديدة ثم عاد إلى شأنه واستمر يكتب كتابه ويهمهم بينه وبين نفسه من حين إلى حين بأمثال هذه الكلمات : « أحبك حباً يعجز القلم عن بيانه لأن القلم مادة من مواد العالم الأرضي والحب روح من أرواح الملأ الأعلى » ، « لا يرى الناس من عينيك الجميلتين

سوى صفائهما ورونقهما ، أما أنا فإني أستشف من ورائهما نفسك الجميلة العذبة المملوءة رقة وشعوراً ؛ فإذا قال الناس ما أجمل عينيها وأحلاهما ! قلت : ما أجمل نفسها المترقرقة في عينيها ، وما أصفى أديمها ! » « إنني أعيش في هذا العالم عيش اليائس القانط ، واليأس يقتل الفضائل في النفوس ويميتها ، فأحييني أبالأمل واخلقي مني إنساناً جديداً تتخذي عندي بل عند العالم جمع يداً لا أنساها لك أبد الدهر ، وفي اعتقادي أن ليس بيني وبين أن أكون إنساناً نافعاً في المجتمع ، بل نعمة على الدنيا بأجمعها إلا أن تسبلي عليّ ستر حمايتك ورعايتك » .

بؤس الأدباء

وظل مستغرقاً في تصوراته وأفكاره التي كان يرسمها على قرطاسه كما يرسم المصور منظراً بديعاً من مناظر الطبيعة على لوحته كما يراه لا يزخرف ولا يوشي ولا يبتدع ولا يبتكر فلم ينتبه إلى جماعة الشعراء حين دخلوا الحانوت هاتفين مهللين وهم في ملابسهم الزرية الغبراء ونعالهم البالية وقبعاتهم الممزقة فقالت « ليز » لزوجها وأشارت إليهم : ها هم صعاليكك وقاذوراتك يا راجنو ، فلم يعبأ بها فقام لاستقبالهم والترحيب بهم فعانقوه فحيوه ودعوه بالزميل والرصيف والصديق وبكل ما يحب من الألقاب والنعوت وهو فرح مغتبط فوقف زعيمهم وسط القاعة وأخذ يتشمم بأنفه ويقول : ما أذكى رائحة بلاطك يا ملك الطهاة والشوائين ، فانحنى راجنو بين يديه شاكراً وقال : ما أسعد الساعة التي أراكم فيها أيها الأصدقاء الأوفياء ! ثم أشار لهم إلى المائدة فوقفوا حولها وضربوا بأعينهم في أنحائها وظلوا

يأكلون ويقصفون ويمزحون ويمجنون فيقول أحدهم وهو يشير إلى قطعة من الحلوى ذات رأس مسنم : إن هذه القطعة لم تحسن وضع قلنسوتها على رأسها فلا بد من معاقبتها ! فيقول له الآخر : وبم تعاقبها ؟ فيقول : بهشم رأسها ، ثم يتناولها فيهشمها كلها رأساً وجسداً ؛ وينظر آخر إلى قطعة أخرى محشوة بالقشدة ويضغطها فتبرز قشدتها البيضاء فيقول : ما أجملها ! كأنها ثغر ضاحك فلا بد لي من تقبيله ، ثم يدنيها من فمه ليقبلها ، ويقول آخر وهو ينظر إلى قيثارة الحلوى التي صنعها ذلك العامل في الصباح وأجازه راجنو عليها : كانت القيثارة قبل اليوم غذاء الأرواح ، أما اليوم فهي اليوم غذاء الأجسام ؛ ثم ينقض عليها فيأكلها وراجنو واقف أمامهم يبتسم ويتهلل ويقول في نفسه : ما أجمل هذه المعاني وأبدعها ، يأبى الشاعر إلا أن يكون شاعراً في كل موقف وفي كل مقام .

ثم قال : هل تأذنون لي أيها السادة أن أنشد بين أيديكم قصيدتي الجديدة التي نظمتها في وصف « اللوزينج » وسميتها باسمه ؟ فصاحوا جميعاً : نعم نعم ! ولا بد أن تكون قصيدة جميلة لأن عنوانها جميل جداً فاغتره مدحهم وثناؤهم فرفع عقيرته وأخذ ينشد قصيدته ويرجع في إنشادها ترجيعاً مضحكاً وهم لاهون عنه بشأنهم لا يعبأون به ولا يلتفتون إليه إلا في الفينة بعد الفينة ، فقال له الرجل الهائل : ألا تراهم يا راجنو وهم يلتهمون حلواك وأنت لاه عنهم بألحانك وأغانيك فمشى نحوه وانحنى عليه وألقى في أذنه هذه الكلمات : إنني أراهم أيها الغبي الأبله ولكنني أغض الطرف عنهم رحمة بهم وإشفاقاً عليهم ، فهم قوم بؤساء معدمون قلما يرون وجه الطعام الشهي إلا في حانوتي وأظنك لا تجهل أن ضيوفي أولى بالتجلة والإكرام من ضيوف زوجتي : وكانا على مقربة من مكان سيرانو فانتبه لكلماته الأخيرة فرفع رأسه وقال

له ادن مني يا راجنو . فدنا منه فقال له إنك تعجبني أيها الرجل ، فالشعراء في هذا العالم كالشجرة الوارفة في المهمة القفر ، يفيء إلى ظلها الغادون والرائحون وهي وحدها التي تحتمل حر الهاجرة ولظاها فرحمة الله ورضوانه على من يحسن إليهم ويتصدق عليهم ، ثم عاد إلى شأنه الذي هو فيه وظل الشعراء يأكلون ويقصفون ويبتاعون ما شاءوا من فطائر راجنو وحلواه بطرفهم الأدبية وملحهم النادرة حتى فتح الباب ودخل عليهم أحد زملائهم وكان قد تخلف عنهم قليلاً فهللوا حين رأوه وصاحوا بصوت واحد : لقد تأخرت أيها الصديق ! قال : قد حال بيني وبين اللحاق بكم ازدحام الناس ازدحاماً شديداً عند « باب نيل » ؛ قال : وهل حدث شيء هناك ؟ قال : نعم ، كان ازدحامهم على ثمانية قتلى وجدوهم هناك مضرجين بدمائهم ، ولا يعلم أحد كيف قتلوا ولا من جنى عليهم هذه الجناية الفظيعة ، فانتبه سيرانو للحديث واعتدل في جلسته وقال في نفسه : يا للعجب ، كنت أظنهم سبعة فقط ، إذاً قد ربحنا واحداً آخر ، فقال راجنو للمتكلم : وما ظن الناس بهذه الحادثة ؟ قال : يقول بعضهم : إن رجلاً واحداً هو الذي قام بمفرده بمقاتلة هؤلاء اللصوص وكانوا مائة أو يزيدون فانتصر عليهم جميعاً وفرق شملهم وقتل منهم هذا العدد الكثير ولقد رأينا العصي والخناجر والمدى التي كانت مع أفراد تلك العصابة مبعثرة ههنا وههنا وظل الناس يلتقطون القبعات التي طارت عن رؤوس المنهزمين من باب نيل إلى النهر ، فمشى راجنو إلى سيرانو وقال له : أسامع أنت هذا الحديث يا سيدي ! قال : نعم ، فما ظنك ببطل هذه الواقعة ! فرفع رأسه إليه وقال : لا أعرفه ، فهرعت ليز إلى صديقها « الرجل الهائل » تسأله : وأنت يا سيدي ! فابتسم وفتل شاربيه وغمز بعينيه وقال : أظنني أعرفه .

وكان سيرانو قد أتم كتابه وأراد أن يوقع عليه ثم توقف وقال : لا لزوم للتوقيع لأنني سأقدمه إليها بنفسي ، ثم طواه ووضعه في صدره ونهض قائماً على قدميه وهتف براجنو فأسرع إليه فسأله : كم الساعة الآن ! قال ست وخمسون دقيقه ، فقال في نفسه : لم يبق إلا عشر دقائق ، وأخذ يتمشى في القاعة ذهاباً وجيئة ، وكانت ليز وصديقها الضابط جالسين على انفراد في أحد أركان القاعة فخيل لسيرانو أنه رأى بينهما شيئاً مريباً ، فدنا منهما ووضع يده على كتف المرأة وقال لها : يخيل إليّ أيتها السيدة أن هذا البطل الجالس بجانبك يدبر خطة للهجوم على حصنك ، فانتفضت وتظاهرت بالغضب ، وقالت له : ماذا تقول يا سيدي إن نظرة واحدة مني تكفي لهزيمة من يحاول ذلك ، قال : ولكني أرى عينيك ذابلتين متضضعتين تلوح عليهما علائم الانكسار ، فاضطربت وحاولت أن تقول شيئاً فخانها صوتها فصمتت ، فقال لها : أيتها الفتاة إن راجنو يعجبني جداً لذلك لا أسمح لأحد أن يعبث بشرفه أمامي ، ثم التفت إلى الضابط فنظر إليه نظرة شزراء ، وقال ، ولقد سمع من كانت له أذنان : أليس كذلك أيها « الرجل الهائل » ، ثم تركهما واستمر في سبيله فهمست « ليز » في أذن صديقها تقول له : إنك تدهشني جداً يا صديقي ، ولا أعلم سبباً لسكوتك وصمتك حتى ليخيل إنك تخافه وتخشاه ! قل له كلمة تؤلمه وتكسر من شرته أو اسخر من أنفه على الأقل فإنه موضع الضعف منه ، فنظر إليها ذاهلاً مشدوهاً ، وقد سرت في جسمه رعدة شديدة ، وقال : أنفه ! لا ، لا ، مالنا وللسخرية بمصائب الناس وأرزائهم ، ثم تسلل من مكانه وخرج من القاعة قد جاء الميعاد يا راجنو ؛ فهتف راجنو بشعرائه : هيا بنا أيها الأصدقاء إلى الحجرة الثانية ، وأغلق بابها عليهم ، ووقف سيرانو

على مقربة من باب المطعم ينتظر قدوم روكسان ويقول في نفسه : لا أعطيها الكتاب إلا إذا رأيت في وجهها بارقة أمل .

اللقــاء

وهنا سمع حفيف ثوب مقبل فخفق قلبه خفقاناً شديداً ، ثم فتح الباب ودخلت روكسان وراء وصيفتها ، وهي تخطر في مشيتها تلك الخطوة البديعة التي عرفت بها وافتتن بها الناس من أجلها ، وقد أسبلت قناعها على وجهها فحيته فحياها تحية تترجح بين الأدب والكبرياء وأشار لها إلى كرسي قد أعد لها فجلست عليه ، ثم تركها وذهب إلى الوصيفة ، وكانت واقفة على عتبة الباب تقلب نظرها في صنوف الأطعمة المنتشرة على المائدة فقال لها بلهجة المازح المداعب : أشرهة أنت أيتها الفتاة ! قالت : نعم يا سيدي إلى الموت ، فمشى إلى المائدة وتناول كيسين من أكياس الحلوى وقال لها : هاك قصيدتين بديعتين للشاعر العظيم « بنسراد » فخذيهما ؛ فلم تفهم ما يريد ، وقالت : وما أصنع بهما ! قال : قد اتخذتهما « ليز » كما اتخذت غيرهما من قصائد الشعراء المجيدين أكياساً للحلوى وأوعية للفطائر فخذيهما واجلسي خارج الباب فإنك ستجدين فيهما من ألوان الحلوى ما تشتهين ولا تعودي إلا بعد أن تشبعي ، فتلألأ وجهها فرحاً وسروراً وتناولت الكيسين وعادت أدراجها ، ورجع سيرانو إلى روكسان فوقف بين يديها حاسر الرأس وقال لها : لقد أسديت إلي يا سيدتي بزيارتك هذه نعمة لا أنساها لك مدى الدهر وإني أفتخر بهذه الثقة التي أوليتنيها وأنتظر بكل شوق سماع ما تريدين أن تفضي به إلي ، فحسرت قناعها عن وجهها فأضاء ضوء القمر الساطع في الدجنة الحالكة وقالت له : شكراً لك يا ابن عمي ،

إنك قد أحسنت إليّ ليلة أمس إحساناً عظيماً بقتلك ذلك الفتى الوقح الجريء الذي حاول أن يعبث بك ويستهين بكرامتك فغضبت لنفسك غضبة الأبي الأنوف ، ولم ترم مكانك حتى غسلت بدمه أثر الإهانة التي لحقت بك ، أتعرف هذا الفتى يا سيرانو ؟ قال لا يا سيدتي قالت : أبارزته دون أن تعرف اسمه ! قال : نعم ، قالت إنه الفيكونت « فالفير » الذي أراد أحد المغرمين بي من عظماء هذا البلد ، وهو الكونت دي جيش أن يزوجني منه على الرغم مني زواجاً لا أعرف كيف أسميه ! قال : زواجاً اسمياً ! فأطرقت برأسها حياء وخجلاً وقالت نعم ، فقال ما أفظع ما تقولين ! لقد اصبحت الآن راضياً عن نفسي كل الرضا في تلك الخطة التي انتهجتها معه والتي انتهت بانتهاء حياته بعد ما علمت أنني إنما كنت أقاتل في سبيلك لا في سبيل نفسي وأذود عن عينيك الجميلتين لا عن أنفي ، فاستضحكت وأشارت إلى كرسي بجانبها فجلس عليه صامتاً ساكناً ينتظر ما تقول ، وساد السكون بينهما هنيهة ، ثم أقبلت عليه وقالت له : كنت أريد أن أقول لك كلمة أخرى يا سيرانو فهل تسمح لي بها ؟ قال : نعم أسمح لك بكل شيء فقولي ما تشائين ، قالت : أتذكر تلك الأيام الماضية التي قضيناها معاً ونحن صغيران في « برجراك » في تلك المروج الخضراء على ضفاف البحيرة ؟ فانتعشت نفسه وخفق قلبه خفقاناً شديداً وقال نعم يا ابنة عمي أيام كنت تأتين هناك مع أبويك لقضاء فصل الصيف في كل عام قالت : إني أذكر تلك الأوقات الجميلة كأنها حاضرة بين يدي وأذكر تلك الأعواد الشائكة التي كنت تقطعها بيديك من أشجار الغاب وتتخذ منها أسيافاً صغيرة تلعب بها في الهواء كأنك تبارز أشباحاً خفية تتراءى لك ؛ قال : نعم أذكر ذلك ولا أنساه ، وأذكر أنك كنت

يجمعين أعواد الذرة من الحقل ثم تجلسين على ضفة البحيرة لتتخذي من خيوطها شعوراً ذهبية لعرائسك الجميلة ، قالت نعم ما كان أجمل تلك الأيام ، وما كان أسعد ساعاتها ! وما كان أحلى مذاق العيش فيها ! كان يخيل إليّ في ذلك الوقت أنني صاحبة السلطان المطلق عليك وأنك تحبني حباً شديداً وتهتم بشأني اهتماماً عظيماً بل تأتمر بأمري في كل ما أشير به عليك وتنزل عند جميع رغباتي وآمالي وأظن أني كنت جميلة في ذلك الحين أليس كذلك ؟ فازداد خفقان قلبه وخيل إليه أنه يرى بين شفتيها ظل تلك الكلمة العذبة التي يتلهف شوقاً إلى سماعها من فمها ، فرفع رأسه ونظر إليها نظرة باسمة عذبة وقال نعم يا سيدتي كما أنت الآن ؛ قالت وكنت كثير الشغف بتسلق الأشجار الشائكة والمخاطرة بنفسك في ذلك مخاطرة عظمى فكنت إذا أصابك جرح في يدك هرعت إليك وعطفت عليك عطف الأم الرؤوم على ولدها وأخذت يدك بين يدي هكذا ، ومدت يدها إلى يده فجذبتها إليها فوقع نظرها على ذلك الجرح الدامي الذي أصابه في معركة الليل فدهشت وقالت : ما هذا يا سيرانو ؟ ثم ابتسمت وقالت ألا تزال تتسلق الأشجار حتى الآن ! فضحك وقال نعم لا أزال أحب اللعب حتى الآن ، ولقد لعبت ليلة أمس لعبة شيطانية عند « باب نيل » سفكت فيها من دم أعدائي فوق ما سفكوا من دمي أضعافاً مضاعفة ، ثم حاول أن يسترد يده فأمسكت بها ، وقالت له : لا بد أن تدعها لي الآن حتى أرى الجرح وأسبره كما كنت أفعل في عهد طفولتي وأعالجه بالطريقة التي كنت أعالج بها جروحك من قبل ، ثم أخرجت منديلها من صدرها وغمست طرفه في قدح الماء وظلت تمسح به الجرح برفق وتؤدة وتقول له : هكذا كنت أعالج جروحك التي كانت تصيبك من تسلق الأشجار

الشائكة في عهد طفولتك الأولى ، وهو يرتعد بين يديها ويضطرب من تأثير ملامسة جسمها لجسمه ويقول : نعم يا روكسان ، إنها رحمة لا تكون إلا في قلوب الأمهات ، قالت : قل لي كم كان عدد أعدائك الذين قاتلتهم في تلك المعركة ؟ قال مائة أو يزيدون ، قالت مائة ! يا للشجاعة النادرة ، قال وربما كنت لا تعلمين أنها المرة الثانية التي قاتلت فيها من أجلك في ليلة واحدة ، قالت من أجلي ؟ لم أفهم ما تريد ، قال نعم لأنني كنت أدافع عن ذلك الشاعر المسكين الذي انتصر لك وزاد عنك ومثل بخصمك أقبح تمثيل في قصيدته التي هجاه بها فحقدها عليه ودس له هؤلاء الرعاع ليقتلوه في جنح الظلام ، قالت : ما أعظم شكري لك يا ابن عمي ، وما أكبر شأن تلك النعمة التي أسديتها إليّ ، حدثني حديث الواقعة من مبدئها إلى منتهاها فلا بد أن تكون واقعة غريبة جداً لم يسطر التاريخ مثلها ، قال سأحدثك عنها فيما بعد . أما الآن فحدثني أنت عن ذلك الأمر الذي جئتني من أجله والذي لم تجرئي على أن تفاتحيني فيه حتى الآن ، وقالت وهي لا تزال آخذة بيده تمسحها وتستغثها[١] : أما وقد ألقينا نظرة على ماضينا الجميل وجددنا عهد تلك الذكرى القديمة وعلمنا أن الصلة التي بيننا صلة وثيقة محكمة لا تنال منها يد الدهر ولا تأخذ منها عاديات الأيام ، فاسمح لي أن أفضي إليك بسري وأن أقول لك بصراحة إنني عاشقة يا سيرانو ، فتلألأ وجهه وانتعشت نفسه ومشت رعدة خفيفة في أجزاء جسمه وكاد منظره ينم عما في نفسه لولا تجلده واستمساكه وقال لها ومن هو هذا الإنسان السعيد الذي يتمتع بنعمة حبك ؟ قالت : إنه لا يعلم شيئاً مما أضمره له في قلبي حتى الآن ولم أفض إليه بسريرة نفسي حتى

---

(١) استغث الطبيب الجرح : نقى غثيثه وصديده بمنديل ونحوه .

الساعة ، وسيكون سروره عظيماً جداً حينما يعلم أن الفتاة التي يحبها ويموت وجداً بها تلك تضمرنا لها ، فازداد سروره وانتعاشه وقال : ألا تستطيعين أن تقولي لي من هو يا روكسان ؟ قالت : سأصفه لك لتكون أول ناطق باسمه ، هو شاب خجول شديد الحياء ، يحبني حباً يملك عليه حواسه ومشاعره ولكنه يكتم سره في صدره ؛ قال : وكيف وقفت على سريرة نفسه ؟ : قالت عرفتها من ارتجاف شفتيه واكفهرار وجهه وتدله نظراته كلما رآني ، قال : ثم ماذا ؟ قالت : وهو ذكي نبيه تلوح على وجهه علائم التفوق والنبوغ .

فأطرق برأسه حياء وحاول أن يجتذب يده من يدها وكانت قد انتهت من تضميدها ، فقالت له : دعها لي الآن فهي لا تزال ملتهبة بالحمى ، فتركها لها وهو يقول في نفسه : ما أسعدني وأعظم هنائي ، واستمرت في حديثها تقول : وهو فوق ذلك شجاع مقدام شريف النفس عالي الهمة ، يأبى الضيم ويأنف الذل ؛ ولا يبيت على ضيم يراد به ، قال : هيه ! قالت : وهو جندي في فصيلة شبان الحرس أي فصيلتك يا سيرانو ، فهمهم بين شفتيه : لم يبق في الأمر ريب ، قالت : أما صورته فهي أجمل صورة خلقها الله في العالم ؛ فصعق عند سماع هذه الكلمة التي ذهبت بجميع آماله وأحلامه وتأوه آهة شديدة كادت تخرج فيها نفسه ، فعجبت لأمره وقالت له : ماذا أصابك يا سيرانو ؟ فتراجع إلى نفسه سريعاً واستجمع من قواه في تلك اللحظة ما يعجز أشجع الرجال وأصبرهم عن استجماعه فيها وقال : لا شيء لقد أحسست بوخز في يدي من تأثير الحمى وقد ذهب الآن كل شيء ، وصمت لحظة ثم قال : نعم قد ذهب كل شيء فتحدثي فإني مصغ إليك ، قالت : لقد أحببت هذا الفتى حباً

ملك عليّ عواطفي واستغرق مشاعري ولا عهد لي به إلا منذ أيام قلائل كنت أراه فيها يختلف إلى قاعة التمثيل ، فيجلس منفرداً وحده فأنظر اليه من بعيد ، وقد جئتك الآن لأتحدث إليك في شأنه ، فأطرق هنيهة . ثم رفع رأسه إليها ، وقال لها بصوت ساكن هادىء : ألم تتحدثي إليه قبل اليوم ؟ قالت : لم نتخاطب إلا بالعيون ؛ قال : وكيف عرفت جميع هذه الصفات التي ذكرتها فيه وما حادثته ولا جلست إليه ؟ قالت : سمعتها منذ أيام تحت أشجار الزيزفون في الميدان الملكي في مجتمع العجائز الفضوليات لا حرمنا الله ثرثرتهن وفضولهن ، قال : وهل هو من فرقة الشبان ؟ قالت : نعم شبان الحرس ، قال : أعترف لك يا سيدتي أنني قد عجزت عن معرفة اسمه فقولي لي من هو ؟ قالت : هو « البارون كرستيان دي نوفييت » قال : لا أذكر أني سمعت بهذا الاسم قبل اليوم ، قالت : إنه لم يدخل الفرقة إلا في هذا الصباح تحت قيادة « كاربون دي كاستل جالو » فصمت هنيهة ثم نظر إليها نظرة عطف وحنو وقال لها : ولكن يخيل إليّ يا روكسان أنك تخاطرين بقلبك في هذا الحب مخاطرة عظمى لا تدرين ما عاقبتها ، وأنك تلقين بنفسك في هوة لا تعرفين السبيل إلى الخلاص منها ، وكانت الوصيفة قد فرغت من طعامها في هذه اللحظة فدفعت الباب وأطلت برأسها وقالت : قد أكلت كل شيء يا سيدي فماذا أصنع ؟ فالتفت إليها وقال : حسبك ذلك فاقرئي ما على الأكياس من الأشعار ، ولا تعودي إلا إذا دعوتك ، فانصرفت وعاد هو إلى إتمام حديثه فقال : أنت يا ابنة عمي فتاة رقيقة الشعور ذكية الفؤاد لا يعجبك إلا التفوق والنبوغ ولا تأنس نفسك إلا بالذكاء الخارق والفطنة النادرة فماذا يكون شأنك غداً لو أن ذلك الفتى الذي أحببته

واصطفيته كان بليداً أو غبياً أو ضعيف الذهن أو خامل الفكر ، قالت : لا يمكن أن يكون كذلك ، قال : لماذا ؟ قالت : لأن منظر شعره الذي يشبه في صفرته ولمعانه منظر شعر أبطال « أورفيه » يدل على نبوغه وذكائه ، قال : ربما كان جميل الشعر بديع الصورة ولكنه بليد الذهن ضيق العطن ، قالت : لا أظن ذلك بل يخيل إليّ وإن لم أجلس إليه ولم أسمع حديثه أنه أرق الناس حديثاً ، وأعذبهم سمراً ، وأفصحهم لساناً ، وأغزرهم بياناً ، فقال في نفسه : نعم كل الألفاظ جميلة ما دام الفم الذي ينطق بها جميلاً ؛ ثم قال لها : ولكن ماذا تصنعين لو تبين لك أنه جاهل أحمق ؟ قالت : إذن أموت هماً وكمداً . قال : هذا الذي أخاف عليك منه ، وصمت هنيهة وهو يردد بينه وبين نفسه : وازحمتاه لها إنها على شفا الهاوية ؟ ثم قال لها : وفي أي شأن من شؤونه تريدين أن تتحدثي إليّ ؟ قالت : قد علمت بالأمس أمراً أحزنني جداً وأقلق مضجعي فلم أطعم الغمض ساعة واحدة ، قال : وما هو ؟ قالت : علمت أن جنود فصيلتكم جميعهم من الجاسكونيين الجفاة وأنهم لا يحبون أن يدخل فصيلتهم غريب عنهم ، فإذا دخل ناوأوه وشاكسوه حتى يخرجوه ، وربما تعللوا عليه العلل فبارزوه وقتلوه ؛ ففطن لغرضها وقال : نعم إنهم قد يفعلون ذلك ولهم الحق فيما يفعلون ، وخاصة إذا كان هذا الواغل عليهم أحد أولئك الأغبياء الجهلاء الذين ينتظمون في سلك الفرقة من طريق الشفاعات والوصايات لا من طريق الكفاءة والاستحقاق ، قالت : ذلك ما جئتك من أجله ، فقد أعجبني موقفك الشريف الذي وقفته ليلة أمس أمام ذلك الفتى الوقح البذيء الذي حاول أن يهزأ بك وينال من كرامتك ، وامتلأ قلبي ثقة بما كنت لا أزال أعرفه لك طول حياتك من

الشجاعة والحمية وعلو الهمة وإباء الضيم فأتيت إليك أسألك أن تتولى كرستيان بحمايتك .

فصمت سيرانو لحظة ذهبت نفسه فيها كل مذهب وتمثلت له روكسان في صورتين مختلفتين قد وقفت إحداهما بجانب الأخرى : صورة امرأة عاشقة مستهترة تريد أن تسخره في غرض من أغراضها الغرامية وتطلب إليه أن يضع يده في تلك اليد التي قتلته وأتلفت عليه نفسه وأن يكون صديقاً لذلك الفتى الذي حرمه سعادته وهناءه وقطع عليه سبيل حياته ووقف عقبة بينه وبين آماله وأمانيه ، وصورة امرأة مسكينة ضعيفة من أقربائه وذوي رحمه قد نزلت بها نكبة من النكبات العظام ففزعت إليه فيها تسأله أن يعينها عليها ثقة منها بفضله وكرمه ، وهمته ومروءته ، وهي لا تعلم من شؤون قلبه شيئاً ، ولا تدري أن هذا الذي تفزع إليه فيه إنما هي نفسه التي بين جنبيه وحياته التي لا يملك في يده حياة غيرها .

ثم ما لبث أن رأى الصورة الأولى تتضاءل في نظره وتتصاغر حتى تلاشت واضمحلت ، وظلت الثانية ثابتة في مكانها بارزة واضحة إليه نظرة الضراعة والاسترحام وتبسط إليه يد الرجاء والأمل ، فالتفت إليها وقد هبت من بين أردانه رائحة الكرم وقال لها بصوت قوي رنان لا تتخلله رنة الحزن ولا تمازجه نغمة اليأس « كوني مطمئنة يا روكسان فإني سأتولى حمايته » وما علم أنه قد نطق في نطقه بهذه الكلمة بحكم الموت على نفسه .

فقالت له : شكراً لك يا ابن عمي فسأعتمد على وعدك ما حييت ، قال : اعتمدي ما شئت ؛ قالت : وكن صديقه الوفي الذي يأخذ بيده في جميع شدائده ومخاطره ، قال : بل أصدق

أصدقائه ، قالت : وحل بينه وبين التعرض لأخطار المبارزات والمشاجرات ، قال : إنه لن يبارز قط ، قالت : أتقسم لي؟ قال : لا ؛ لأني ما تعودت الكذب ، فتلألأ وجهها فرحاً وسروراً وقالت : الآن يمكنني أن أنصرف آمنة مطمئنة شاكرة لك فضلك الذي لا أنساه قط ، ثم تناولت برقعها فألقته على وجهها وهي تقول : إنك لم تتمم لي حديث الواقعة التي جرحت فيها فحدثني عنها قليلاً ، يا للعجب ! مائة رجل كانوا ضدك؟ إنك كفء لكل عظيمة يا ابن العم ، لا تنس أن تقول له أن يكتب إليّ اليوم كتاباً ! حدثني حديث الواقعة يا صديقي ، مائة رجل؟ يا للشجاعة النادرة ! إن كرستيان لا يعلم أني أحبه حتى الساعة ، فكن أول من يحمل إليه هذه البشرى ، قل لي كيف استطعت أن تلقى وحدك هذا العدد الكثير أو قل لي ذلك فيما بعد ؛ لأني تأخرت كثيراً ، ولا بد لي من الذهاب الآن .

ثم نهضت ومدت إليه يدها فقبلها ، فقالت : إلى اللقاء يا ابن العم إني أنتظر من كرستيان كتاباً اليوم ، ثم انصرفت . فوقف على عتبة الباب ، يشيعها بنظراته حتى غابت عن عينيه ؛ ثم عاد يترنح هماً وحزناً ، حتى وصل إلى كرسيه فتهافت عليه وهو يقول : إنها تعجب لشجاعتي في تلك المعركة ، وأنا في هذه الساعة أشجع مني في كل موقف وقفته في حياتي .

وكان راجنو قد أحس بخروج روكسان فأطل من باب الحجرة فرأى سيرانو جالساً جلسته تلك فصاح به : أيمكننا الرجوع الآن يا سيدي؟ قال : نعم ؛ فأشار إلى أصدقائه الشعراء فدخلوا جميعاً ودخل في تلك الساعة نفسها من باب المطعم « كاربون دي كاستل جالو » قائد فرقة الحرس وهو يهدر بصوت كالرعد :

قد عرفنا كل شيء يا سيرانو ، وإني أهنئك من صميم قلبي بذلك النجاح العظيم الذي أحرزته ليلة أمس على أعدائك المائة ، فنهض سيرانو متضعضعاً وانحنى بين يدي قائده وقال : شكراً لك يا سيدي ، فقال : مالي أراك شاحباً مصفراً ؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك ؟ يخيل إليّ أنك قد لقيت في تلك المعركة عناء عظيماً ، قال : نعم يا سيدي ، قال : إن ورائي ثلاثين جندياً من أبناء فرقتك قد اجتمعوا في تلك الحانة المقابلة لهذا المطعم ، وهم يريدون تهنئتك والاحتفال بانتصارك ، فاذهب إليهم وقابلهم ، ثم قال : لا ، لابد أن يأتوا هم إليك بأنفسهم ليهنئوك تكرمة لك وإعظاماً لشأنك ، ثم وقف على عتبة باب المطعم وصاح بأعلى صوته :

أيها الأصدقاء ، إن البطل لا يستطيع الحضور إليكم لأنه تعب قليلاً ، فاحضروا أنتم إليه ، وما هي إلا هنيهة حتى أقبل الجنود الثلاثون يزلزلون الأرض بخفق نعالهم وصلصلة أسلحتهم ويطمطمون بلغتهم الجاسكونية سانديوس — ميل ديوس — كاب ديوس — مورديوس — بوكاب ديوس ، ثم دخلوا ؛ ففزع راجنو عند رؤيتهم لما هاله من طول قاماتهم وضخامة أجسامهم وقال لهم : أكلكم أيها السادة جاسكونيون ؟ فأجابوا جميعاً بصوت واحد : نعم كلنا ، ثم اندفعوا نحو سيرانو يقبلونه ويعانقونه ويهزون يده ويهتفون : ليحيا البطل ، لتحيا جاسكونيا ، ليحيا الجيش . وهو يتململ في نفسه ويتبرم ، ولكنه كان يبتسم في وجوههم ويستقبل تهانئهم له بالشكر والارتياح .

وكان خبر تلك المعركة قد انتشر في أنحاء باريس جميعها ، فوفد جمهور عظيم من الناس إلى المطعم يتقدمهم « لبريه »

صديق سيرانو وهم يصيحون : ليحيا البطل لتحيا فرنسا ، ثم دخلوا جميعاً يركضون ويتدافعون ويحطمون كل شيء بين أيديهم وراجنو واقف مكانه يتأمل هذا المنظر الغريب بسرور وارتياح ويقول : واطرباه ها هو ذا الفن يتوج اليوم في مطعمي ، حتى بلغوا مكان سيرانو فداروا به يهنئونه ويقبلونه وكلهم يناديه : أيها الأخ ، أيها الصديق ، أيها الزميل ؛ فيقول في نفسه : واعجباً لكم أيها الناس ! لم يكن لي بالأمس بينكم صديق واليوم كلكم أصدقائي ، ووقفت في تلك الساعة مركبة فخمة أمام باب المطعم ونزل منها ثلاثة من الأشراف فدخلوا الحانوت وظلوا يدفعون الناس أمامهم دفعاً حتى دنوا من سيرانو ، فوضع أحدهم يده في يده وشد عليها بقوة وقال له : آه لو كنت تدري يا صديقي مقدار سروري بك وبنجاحك ، فالتفت إليه سيرانو غاضباً وقال له : ما أنا بصديقك يا سيدي ؛ لأنني ما عرفتك قبل اليوم ؛ وقال له الآخر : إن بعض السيدات ينتظرنك في مركبتهن أمام الباب ليهنئنك بانتصارك فلو تفضلت بمرافقتي إليهن لأقدمك لهن ! فقال له : وكيف تسمح لنفسك يا سيدي أن تقدمني إلى غيرك قبل أن تقدم نفسك إليّ ؟ وقدم إليه الثالث كأساً من الخمر وقال له : اشرب معي يا سيدي نخب بأسك وشجاعتك ، فالتفت إليه وقال له : يخيل إليّ يا سيدي أنك أشجع مني ، لأنك قدمت إليّ شيئاً قبل أن تعلم ما رأيي فيه ، ثم دفع الكأس عنه بقوة فهراقها ، وجاءه أحد مراسلي الصحف ، وقد أمسك بيمينه قلماً وبيسراه قرطاساً وقال له : قص عليّ حديث واقعتك أيها الفارس البطل لأنشره في جريدتي ، فنظر إليه شزراً وقال له : إنني لم أقاتل من أجلك يا سيدي ، ولا من أجل جريدتك بل من أجل صديقي لينيير ؛ فتململ لبريه من خشونته وجفائه ، وكان

جالساً على مقربة منه فجذبه من ثوبه ، وقال له همساً : ما الذي أصابك يا سيرانو ! وما هذه الخشونة التي تستقبل بها أصدقاءك الذين يهنئونك ويمجدونك ؟ فقال له : لا تصدق كل ما تراه يا لبريه ! فليس لي في العالم صديق سواك .

وإنهم لكذلك إذ ساد السكون وانقطعت الضوضاء وانفرج الجمهور صفين متقابلين خاشعين مستكينين ، وإذا الكونت دي جيش القائد الفرنسي العظيم قد أقبل يجرر أذياله ويسدد أنفه إلى كبد السماء عظمة وخيلاء ووراءه كثير من الأشراف ورجال الجيش حتى توسط القاعة فوقف ونادى : ابن سيرانو فالتفت سيرانو فرآه فدهش وقال في نفسه : لعله جاء أيضاً لتهنئتي ، ولئن فعل لتكونن أعجوبة الأعاجيب ، ثم أجابه وهو واقف مكانه لا يتحرك ، ولا يحتفل ؛ ها أنا ذا يا سيدي ، قال : أقدم إليك تهنئتي الخاصة وأبلغك أن جناب القائد العام المرشال « دي جاسيون » قد أمرني أن أبلغك تهنئته لك وثناءه عليك وإعجابه بك واغتباطه بعملك العظيم الذي قمت به ليلة أمس وأضفت به إلى سجل الشجاعة الفرنسية صفحة من أشرف الصفحات وأمجدها ، ولقد كان في شك من صحة الخبر ، لولا أن أقسم له بعض الضباط الذين صحبوك ليلة أمس إلى « باب نيل » أنهم شاهدوا الحادثة بأعينهم ، فرفع سيرانو نظره إلى الكونت بهدوء وسكون ، وقال له : لا شك أن للمرشال قدماً راسخة في الفنون الحربية وأساليبها ومثله من يقدر أقدار الرجال فبلغه شكري ، فدهش الناس لجوابه الخشن الجافي ، وطار عقل لبريه حتى كاد ينفجر غيظاً وحنقاً ، إلا أنه تماسك وتجلد وهمس في أذنه : إن هذا لا يليق بك مطلقاً ، قل له كلمة أجمل من هذه رداً على تحيته واستقبل الصنيعة بمثلها ، فصمت سيرانو هنيهة ثم قال : بصوت خافت : دعني يا لبريه فإنني لا أطيق أن أشكر رجلاً جاء

لتهنئني بانتصاري عليه ، فقال له : يخيل إليّ أنك متألم يا صديقي ، فانتفض سيرانو ، وقال : أنا ! لا ، أتظن أنني أتألم أمام أحد مهما برح بي الهم وأمضني ، أو أسمح لعدو من أعدائي أن يشمت بي ويرى بعينيه منظر بؤسي وشقائي ؟ انتظر قليلاً فسوف ترى ، وكان الكونت قد جلس على كرسيه المعد له جلسة العظمة والكبرياء ؛ فالتفت إلى سيرانو ، وقال له بنغمة الساخر الهازىء : إن تاريخك يا مسيو سيرانو حافل بالحوادث والوقائع ويخيل إليّ أنني رأيتك في فرقة هؤلاء الجاسكونيين الشياطين أليس كذلك ؟ فصاح الجاسكونيون جميعاً : نعم هو في فرقتنا ولنا بذلك الفخر العظيم ، فالتفت الكونت إليهم وقلب نظره في وجوههم ، وهم وقوف بجانب قائدهم « كاربون دي كاستل جالو » ، وقال : أكل هؤلاء الذين تلوح عليهم مخائل العظمة الكاذبة جاسكونيون ؟ فهتف كاربون بسيرانو ، وقال له : تفضل أيها البطل الباسل بتقديم فرقتي بالنيابة عني إلى حضرة القائد العظيم ؛ فمشى سيرانو نحو الكونت خطوتين وأخذ يقدّم إليه الفرقة بموشح بديع ارتجله في الحال وضمنه الثناء عليهم والتنويه بفضلهم والإشادة بذكرهم حتى أتمه ، فأعجب الكونت ببداهته وحضور ذهنه ، وقال في نفسه : إن اصطناع شاعر مجيد كهذا الشاعر مفخرة عظمى لمن يصطنعه ، وليس من الرأي أن يفلت مثله من أيدينا ، ثم استدناه منه وقال له : أتحب أن تكون لي يا سيرانو ؟ فانتفض وقال : لا يا سيدي ولا لأي إنسان ، قال : إن خالي الكردينال « ريشليه » كثير الإعجاب بك وبأدبك ويحب أن يراك ، فإن شئت قدمتك إليه ، ولقد قيل لي إنك نظمت منذ عامين رواية تمثيلية جميلة لم توفق إلى تمثيلها حتى اليوم ؛ فلو أنك ذهبت بها إليه ورفعتها له لعرف لك فضلك فيها وأحسن جزاءك عليها كما أحسن من

قبل إلى غيرك من الكتاب والشعراء[1] . فهمس لبريه في أذن سيرانو : لقد آن لروايتك « أجريبين » أن تمثل فليهنك ذلك ، فلم يلتفت إليه سيرانو ، وقال للكونت بنغمة الساخر المتهكم : أحق ما تقول يا سيدي ؟ قال : نعم والرجل كما تعلمون أديب بارع رسخ القدم في النقد الأدبي ؛ وسينظر في روايتك هذه نظر الناقد البصير وربما أجرى فيها قلم تهذيبه وتنقيحه فجاءت آية الآيات في حسنها وجمالها ، فاكفهر وجه سيرانو وتفصد جبينه عرقاً ، وقال للكونت : ذلك مستحيل يا سيدي ، وإن دمي ليجمد في عروقي عندما أتخيل أن إنساناً في العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد من قصيدة من قصائدي ، وما أنا في حاجة إلى الاستعانة على أدبي بأحد من الناس كائناً من كان ، قال : ولكنك تعلم أنه إذا أعجبه بيت من الشعر دفع ثمنه غالياً ، قال : نعم أعلم ذلك ، ولكنه لا يستطيع أن يبذل فيه ثمناً مثل الذي بذلته ، لأنني إنما أسكب فيه دم قلبي حاراً ودم القلب أغلى قيمة من الفضة والذهب ، قال : إنك أبي النفس يا سيرانو ، قال : نعم ، وقد كان جديراً بك أن تفهم ذلك من قبل .

وهنا دخل رجل يحمل على يديه قبعات كثيرة قذرة كان قد وجدها في ميدان المعركة عند « باب نيل » من آثار الفارين والمنهزمين . فألقاها بين يدي سيرانو ، وقال له : ها هي أسلاب المعركة التي تركتها احتقاراً لها وازدراء بها قد حملتها إليك ، لا لأنها تستحق عنايتك والتفاتك ، بل لأنها دليل قاطع على جبن أعدائك ونذالتهم ، فضحك الجمهور طويلاً وظلوا يهتفون : قبعات الهاربين ! وقال

(١) مما يذكر من مآثر الكردينال ريشلييه أنه منشىء المجمع العلمي الفرنسي « الأكاديمية » ، وأنه أكبر عون في عصره للأدب والأدباء.

سيرانو ، وهو ينظر خلسة إلى وجه الكونت : ليت شعري من هو ذلك الجبان النذل الذي جرد مثل هذا الجيش السافل ليحارب به شاعراً مسكيناً ؟ ما أحسبه الآن إلا خزيان نادماً يتمنى أن لو انفرجت الأرض تحت قدميه فهوى في أعماقها أبد الآبدين ، فصاح الجمهور من كل ناحية : لاشك في ذلك ؛ فارتعد الكونت غيظاً واربدّ وجهه وصاح بصوت أجش كهزيم الرعد : ماذا تقولون ؟ أنا الذي جرد هذا الجيش السافل كما تقولون لأني أردت تأديب ذلك الرجل الوقح البذيء . ولا يتولى تأديب سافل دنيء مثله إلا سفلة أدنياء ، فقهقه سيرانو ضاحكاً وأخذ يجمع القبعات بحد سيفه ، ثم دفعها تحت قدمي الكونت ، وقال له : إذن يمكنني يا سيدي أن أكلفك برد هذه القبعات إلى أصدقائك .

فثار الكونت من مكانه غاضباً ونظر إلى سيرانو نظرة ملتهبة ينبعث الشرر من جوانبها ، وقال له : هل قرأت أيها الرجل « دون كيشوت [1] » ؟ قال : نعم قرأته وأنا حاسر الرأس إعجاباً بذلك البطل الشريف ، قال : أتذكر من قصصه قصة الطواحين الهوائية ؟ فانحنى سيرانو وقال : نعم « في الباب الثالث عشر » قال : ما رأيك فيمن يحاول مهاجمة تلك الطواحين أو اعتراض سبيلها ؟ ففطن سيرانو لما أراد وقال : ما كنت أظن أن أعدائي طواحين هوائية تذهب مع كل ريح ، قال : إنها تمد أذرعها الطويلة لتتناول من يجسر على مقاومتها وتقذف به في الهوة العميقة ، قال : أو الكوكب العالي ؛ فصاح الكونت : مركبتي وخدمي ، فابتدر الأشراف تنفيذ أمره وظلوا يتراكضون

---

(١) رجل خيالي جعله الكاتب الإسباني الشهير « مجول سرفانتس » بطلا لقصته الخيالية المضحكة المسماة بهذا الاسم التي ألفها سنة ١٦٠٥ ، وكان معــاصراً للشاعر الإنكليزي « شكسبير » وباب الطواحين الهوائية أحد أبواب تلك القصة .

ويتدافعون كأنهم بعض الخدم ، وما هي إلا لحظات حتى حضرت المركبة فخرج الكونت وخرج بخروجه جميع الأشراف والنبلاء ، من حضر منهم معه ومن حضر قبل ذلك ! لا يحيون سيرانو ولا يدنون منه ولا يرفعون أنظارهم إليه مصانعة للكونت ومداهنة ، فمشى وراءهم سيرانو يشيعهم إلى الباب وهو يقول لهم : ماذا دهاكم يا أصدقائي ؟ مالكم تعرضون عني وتفرون مني ؟ مالكم لا تودعون البطل الذي جئتم الساعة لتهنئته وتكريمه ؟ وما زال يشيعهم بأمثال هذه الكلمات حتى ركبوا جميعاً مركباتهم وانصرفوا .

فعاد إلى مكانه الأول وهتف : « لبريه » فلباه فاستدناه منه واحتضنه إلى صدره وقال له : ألم اقل لك أيها الصديق إنه ليس لي في العالم صديق سواك ! ؟

نفس الشاعر

نكس لبريه رأسه ملياً ثم نظر إلى سيرانو نظرة حزينة مكتئبة وقال له : قل لي أيها الصديق ماذا أعددت لنفسك من الوسائل غداً للخلاص من هذه الهوة العميقة التي قذفت بنفسك فيها ؟ واسمح لي أن أقول لك إنني قد جننت جنوناً لا أدري كيف يتركونك بعده خارج المارستان ، أليس كل ما تستطيع الذود عن نفسك في سلوك هذه الخطة العسراء أن تقول كل يوم : إنك تحب أن تعيش حراً مستقلاً في حياتك لا يسيطر عليك أي مسيطر من القيود والتقاليد ؟ فليكن لك ما تريد ، ولكن هل تستطيع أن تنكر أنك مغال متطرف ؟ إنني لا أطلب إليك شيئاً سوى أن تعترف لي بذلك ؛ فابتسم سيرانو وقال له : إن كان هذا هو كل ما يرضيك فإني أعترف لك به ، فتهلل لبريه فرحاً وقال له : آه لقد اعترفت أيها الصديق

فلزمتك الحجة التي لا قبل لك بدفعها ، قال : إنني لا أنكر يا لبريه أنني مغال متطرّف كما تقول ولكن في سبيل المبدأ والفكرة ، والتطرف قبيح في كل شيء إلا في هذا السبيل ، قال : ولكنك في حاجة إلى شيء من حسن السياسة وسعة الصدر ولين الجانب لتستطيع أن تصل إلى المجد الذي تحبه وتتعشقه ، فاستوى سيرانو في مكانه جالساً وقد ظللت جبينه سحابة سوداء من الهم واستحالت صورته إلى صورة مريعة مخيفة وقال : ماذا تريد مني يا لبريه وما هي الخطة التي تحب أن ترسمها لي لأنفذ من طريقها إلى المجد الذي تتحدث عنه وتزعم انني أتعشقه وأصبو إليه ؟ .

أتريد أن أعتمد في حياتي على غيري وأن أضع زمام نفسي في يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطنعني ويجنبني مؤونة عيشي ويحمل عني هموم الحياة وأثقالها فيكون مثلي مثل شجرة « اللبلاب » لا عمل لها في حياتها سوى أن تلتف بأحد الجذوع تلعق قشرته وتمتص مادة حياته بدلاً من أن تعتمد في حياتها على نفسها ؟ ذلك ما لا يكون .

أتريد أن أحمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدلال سلعته وأدور بها في الأسواق منادياً عليها : من منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الجاه والسلطان يبتاع نفساً بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء ؟

أتريد أن أنصب نفسي سخرية في الأندية الخاصة والمجتمعات العامة ، ألعب كما يلعب القرد ، وأنطق كما تنطق الببغاء ، وأتلون كما تتلون الحرباء ، رجاء أن أجد التفاتة من عيني أمير ، أو أرى ابتسامة على شفتي وزير ؟

أتريد أن تستحيل قامتي إلى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تتهدل أجفاني من كثرة الإطراق والإغضاء وأن تجتمع فوق ركبتي طبقة سميكة من كثرة السجود والجثي بين يدي العظماء؟

أتريد أن يكون لي لسانان : لسان كاذب أمدح به ذلك الذي اصطنعني واجتباني ، ولسان أعدد به عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لي وجهان : وجه راض عنه لأنه يذود عني ويحميني ، ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدني ويسترقني ؟

أتريد أن أقضي حياتي كلها واقفاً وسط دائرة واحدة أثب فيها وأطفر وأتطاول بعنقي ليتوهم الناس أني طويل وما أنا بطويل ، أو أتخذ لي بوقاً ضخماً أنفخ فيه ليتوهم السامعون أني جهوري الصوت وما أنا إلا نافخ في بوق ؟

أتريد أن أسيّر سفينة شعري في العالم بأذرع العظماء والكبراء. بدلاً من المجاذيف التي أنحتها بفأسي ، وبشعور «الدوقات» الغانيات بدلاً من الأشرعة التي أنسجها بيدي ، وبتنهدات الأميرات العاشقات بدلاً من الرياح الجارية التي يسخرها الله لي ؟

أتريد أن أجعل حياتي الأدبية تحت رحمة المقرظين والناقدين ، والراضين والساخطين ، فإن شاءوا رفعوني إلى علياء السماء ، وإن شاءوا هووا بي إلى أعماق الجحيم ؟

ذلك ما لا يكون ، الموت أهون عليّ من ذلك .

أريد أن أعيش حراً مستقلاً لا أخشى أحداً ولا أهاب شيئاً ، لا يعنيني تهديد الجرائد التجارية الساقطة ، ولا يفرحني أن تنشر الصحف الكبيرة اسمي بالأحرف الضخمة في أكبر أنهارها ،

ولا أبالي أتداول الناس قصائدي وتدارسوها ورنت نغماتها في أرجاء المسارح ، أم بقيت في كسر خزانتي أقرأها بنفسي لنفسي وأتغنى بها في ساعات وحشتي وخلوتي ؟ .

أريد أن أعيش حراً ، أضحك كما أشاء وأبكي كما أريد ، وأحتفظ بنظري سليماً وصوتي رناناً ، وخطواتي منتظمة ، ورأسي مرتفعاً ، وقولي صريحاً ، أنظم الشعر في الساعة التي أختارها ، وفي الشأن الذي أريده فإن أعجبني ما ورد عليّ منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلاً من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه .

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطري ، وأن لا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها أنا ، لا التي يريدها الناس لي ، وأن لا أمتع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في حديقتي . فإن قدر الله لي منزلة في الحياة فلن أكون مديناً بها لأحد غيري ، ولن يكون فخرها عائداً إلا عليّ وحدي ولا أسمح لأحد من الناس كائناً من كان أن يرفعني بل لابد لي أن أرفع نفسي بنفسي .

أريد أن أعيش حراً طليقاً أناضل من أشاء ، وأجادل من أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتي الخير والشر للاخيار والأشرار في وجوههم ، لا متملقاً أولئك ، ولا خاشياً هؤلاء . إن العبد المقيد بقيود الإحسان والنعم لا يمكن أن يكون حراً طليقاً . فليعفني الناس من أياديهم وصنائعهم لأني لا أحب أن أكون عبداً لهم ، ولا أسيراً في أيديهم .

وآخر ما أقول لك أني أفضل أن أعيش ممقوتاً مرذولاً عند الناس على أن أعيش ذليلاً مستعبداً لهم ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الزيزفون والسرو إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي، وحسبي من الرفعة والشرف أن أنال منها نصيبي الذي قسم لي قدر ما تسمح به قوتي ومواهبي لا أزيد على ذلك شيئاً، فقال له لبريه: عش بنفسك وحيداً كما شئت، ولكن لا تكن عدواً للجميع.

قال ربما أكون مغالياً في ذلك، ولكن ما دعاني إلى المغالاة في المعاداة إلا مغالاتكم معشر المتكلفين والمتعلمين في المصادقة والموالاة، وتصنعكم في اجتذاب الخلان والأصدقاء. وما بغض إليّ التواد والتحاب إلا بغضي لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التي تنفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقاً أو عدواً، شريفاً أو وضيعاً، كريماً أو لئيماً؛ حتى أصبحت لا أحب شيئاً في العالم حبي لبغض الناس أياي، ولا أكره شيئاً كرهي لحبهم لي وتوددهم إليّ.

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيباً سواه ولكنه عيب يعجبني جداً ويلذ لي كثيراً، وإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجد من اللذة والغبطة في نفسي عندما أسير في طريقي فأراه مملوءاً بنظرات البغض ملتهباً بنيران الحقد وأرى نفسي محاطاً بنطاق محكم من قلوب الساخطين والناقمين.

أما الشتائم التي أسمعها واللعنات التي تصوب إليّ فهي أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يتناثر من الجو على ردائي ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمي.

إن الصداقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها الناس أشبه شيء بالياقة الإيطالية اللينة التي تتهدل حول العنق فيتهدل العنق معها ، فهي وإن كانت لينة مريحة إلا أنها رخوة مهلهلة ليست لها مسكة ولا قوام.

أما العداوة فهي الدرع الفولاذية الصلبة التي تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن أن يضعف أو أن يخور ، وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع القوية المتينة.

فقال لبريه : إنني لم أرك في حياتي راضياً عن البغض مثل اليوم ، وإن نفسي تحدثني بأن كارثة من الكوارث العظمى قد نزلت بك فأثارت هذه الخواطر في نفسك.

فاضطرب سيرانو وخفت صوته وهدأت تلك الزوبعة التي كانت ثائرة في نفسه وقال : ماذا تقول يا لبريه؟ قال : أظن أنك قد عرفت منها عندما قابلتها أنها لا تحبك ، فأنت ناقم على الحب راض عن البغض ، فنكس رأسه وصمت صمتاً طويلاً لا يقول فيه شيئاً ، ففهم لبريه كل شيء.

المعركة النفسية

وفي هذه اللحظة دخل المطعم البارون كرستيان يختال في حلته الجميلة ورونقه الشائق البديع ورأى أبناء فرقته مجتمعين فتقدم لتحيتهم فلم يعبأوا به وحاول أن يداخلهم ويتحبب إليهم كما هو شأن أبناء الفرقة الواحدة عندما يجتمعون في مكان واحد فانقبضوا عنه وتسللوا من جواره فلم ير بداً من أن ينتبذ مكاناً قصياً ويجلس فيه وحده ؛ فلم يقنعهم ذلك منه حتى أرادوا

إزعاجه وإقلاقه وكان من شأنهم – كما حدثت روكسان عنهم – أنهم لا يحبون أن يدخل فرقتهم غريب عنهم عصبية لأنفسهم واحتفاظاً بجامعتهم ، والجنوبيون في فرنسا ينظرون دائماً إلى الشماليين بعين البغض والازدراء ويسمون ترفهم ونعومتهم ضعفاً وجبناً ، فمشى أحدهم إلى سيرانو وقال له وهو يغمز كرستيان بعينه : قد كنت وعدتنا يا سيدي منذ هنيهة أن تقص علينا حديث الواقعة التي انتصرت فيها ليلة أمس على أعدائك الشماليين الجبناء فحدثنا ذلك الحديث الآن ليكون درساً تهذيبياً لهذا الفتى الشمالي المتأنث ، وأشار إلى كرستيان فانتفض كرستيان غضباً والتفت إلى المتكلم وقال له : ماذا تقول ! وكان سيرانو مشتغلاً بمحادثة صديقه لبريه ، وكان يفضي إليه بشأنه مع روكسان فلم يشعر بشيء مما حوله فتركه الفتى ومشى إلى كرستيان فوقف أمامه وقال له : عندي نصيحة لك أيها السيد أحب أن أقدمها إليك لتنتفع بها في مستقبل حياتك معنا ؛ فألقى عليه كرستيان نظرة ازدراء واحتقار وأشاح بوجهه عنه فقال له الفتى : أترى هذا الرجل ذا الأنف الكبير والسحنة المخيفة الجالس هناك ؛ إن ههنا كلمة لا يجوز لأحد النطق بها أمامه مطلقاً كما لا يجوز النطق بكلمة الحبل في بيت المشنوق وأحب أن لا يفوتك العلم بها ضناً بحياتك ؛ فعجب كرستيان لأمره ورفع رأسه إليه وقال : أي كلمة تريد ! قال انظر إلى وجهي تفهم معناها فإنني لا أستطيع النطق بها ! ثم وضع أصبعه على أنفه ، وهو يلتفت ويتحذر ، فقال له : أتريد كلمة الأن... فقاطعه الفتى ، وقال : صه إياك أن تتمها فيسمعها فيكون فيها هلاكك . فلم يرفع كرستيان طرفه إليه أنفة وكبرياء فتقدم نحوه فتى آخر وقال له : ولا بد لك أن تعلم أيضاً أن أحداً من الناس لا يحدث نفسه بمناوأة هذ

الرجل أو مخاشنته إلا اذا كان من رأيه أن يلاقي حتفه قبل نهاية أجله ، ثم وقف به آخر وقال له : احذر الحذر كله من أن تنطق على مسمع منه بهذه الكلمة أو ما يشبهها لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا كناية ، ولا تعريضاً ، فقد قتل في الأسبوع الماضي رجلاً أخنف لأنه ظنه يتخانف هزءاً به وسخرية ، وقتل آخر منذ يومين لأنه أخرج منديله من جيبه وأدناه من أنفه .

وهكذا ظلوا يتقدمون نحوه واحداً بعد آخر ينذرونه ويهمسون في أذنه بكلمات مختلفة ويشيرون بين يديه بإشارات غريبة تهويلاً عليه وإرهاباً له ، وهو صامت ساكن لا يرفع طرفه إليهم حتى برم بهم ، فنهض من مكانه بهدوء وسكون ومشى إلى «كاربون دي كاستل» قائد الفرقة ، وهو جالس على كرسيه فوقف بين يديه وقال له : ماذا يصنع الإنسان يا سيدي القائد إذا رمت به يد المقادير بين جماعة من الجنوبيين الوقحاء ، وهم لا يزالون يشاكسونه ويناوئونه ويستثيرون غيظه وحفيظته بسفاهتهم ووقاحتهم ! فأجابه القائد ببساطة غير محتفل به ، ولا مكترث : يبرهن لهم على أنه ، وإن كان شمالياً فهو شجاع مثلهم ، فانحنى كرستيان بين يديه ، وقال : سأفعل ما أشرت به يا سيدي ، وعاد إلى مكانه الأول .

وكان سيرانو قد فرغ من حديثه مع لبريه واعتدل في جلسته فهرع إليه الجنود من كل ناحية وأحاطوا به وقالوا : الحديث يا سيرانو ، فاتجه إليهم وأنشأ يقص عليهم قصته ويقول :

تقدمت نحوهم وحدي منفرداً ، وكان القمر يلمع في قبة السماء لمعان القطعة الفضية في رمال الصحراء ، ثم لم يلبث أن

غشيته سحابة دكناء فصار الظلام حالكاً مدلهماً لا يستطيع المرء أن يرى فيه أبعد من ... فقاطعه كرستيان وقال « أنفه » فدهش القوم واصفر وجه سيرانو وتهالك في نفسه ، ثم صرخ بصوت كهزيم الرعد قائلاً : من هذا الرجل ! وهمّ بالهجوم عليه ليفتك به . فقال له أحد الجنود : هو رجل شمالي دخل فرقتنا صباح هذا اليوم ، فجمد سيرانو في مكانه ذاهلاً ومر بخاطره كلمح البصر حديث روكسان فقال : صباح هذا اليوم ! وما اسمه ! قال : يزعم أن اسمه البارون كرستيان دي نوفييت ، فتضعضع سيرانو وتخاذل وشعر أن نفسه تتسرب من بين جنبيه ، وقال : آه ... إنه هو ، ثم استحالت صورته إلى صورة مرعبة مخيفة وظلت أطرافه ترتجف ارتجافاً شديداً فتهافت على كرسي بجانبه وصمت صمتاً عميقاً لا حس فيه ولا حركة ، ثم أخذ يعود إلى نفسه شيئاً فشيئاً حتى هدأ فألقى نظرة على الجنود المحيطين به وقال لهم ماذا كنت أقول لكم ! آه لقد تذكرت ، كنت أقول إن الظلام في تلك الساعة كان حالكاً جداً حتى إن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى أبعد مما تحت قدميه .. وتوقف عن إتمام كلامه لأنه تذكر مقاطعة كرستيان إياه عند وصوله إلى هذه الكلمة فوثب من مكانه وثبة النمر الجائع وهجم عليه هجمة ما كان عند الحاضرين ريب في أنها تحمل في طياتها الموت الأحمر ، وهو يطمطم بلهجته الجاسكونية مورديوس . ميل ديوس ، ولكنه لم يبلغ مكانه حتى جمد أمامه جمود التمثال فوق قاعدته وظل يزفر زفيراً متتابعاً ، ثم تراجع بهدوء وسكون إلى مكانه الأول والقوم يتتبعونه بأنظارهم ويعجبون لأمره ويقولون في أنفسهم : ماله يقدم ، ثم يحجم ! وما الذي يبدو له فيتراجع بعد اندفاعه ! وما هي إلا هنيهة حتى هدأ وسكن وعاد إلى حديثه يقول : كنت أعلم أنني مقدم على

خطر من أعظم الأخطار وأنني إنما أحارب في الحقيقة رجلاً عظيم الجاه والسلطان لو شاء أن يسحقني بقدمه كما يسحق السائر النملة الدارجة في طريقه لفعل ، بل لو شاء أن يضعني بين ... فقاطعه كرستيان ، وقال « منخريه » فاهتز سيرانو في كرسيه يمنة ويسرة وغلا دمه في رأسه غليان الماء في مرجله ، ولكنه لم يتوقف بل استمر في حديثه يقول : بين شدقيه لما حال بينه وبين ذلك حائل . لأنه صهر الكادرينال ، والكاردينال هو كل شيء في فرنسا . ومرت بي ساعة ضعف كنت أقول فيها لنفسي – وهنا نظر إلى كرستيان كأنه يخاطبه – إنك قد عرضت نفسك أيها الرجل المسكين بتهورك وجنونك للهلاك الذي لا بد لك منه ، ووضعت أصبعك بين الشجرة ولحائها ، وليس بكثير على رجل قاس مستبد كهذا الرجل أن يزعم ... فقاطعه كرستيان وقال « أنفك » فتصامم سيرانو ، وكأنه لم يسمع شيئاً وقال : إرادتك على ما يريد ، ولكنني تجلدت واستمسكت ، ولم أعبأ بهذه الاعتبارات جميعها ، وقلت في نفسي : سر أيها الجاسكوني الحر وامض في سبيلك قدماً لا تحتفل بشيء مما يعترض طريقك وقم بواجبك الذي حملت عليه كما يفعل الحر الشريف ، وبينا أنا أفكر في ذلك أذ لمحت شقياً من أولئك الأشقياء يهيء لي في هذا الظلام الحالك المدلهم ضربة قوية ، فما هو إلا أن لمحتها حتى رغت منها بأسرع من ضربة السيف فأفسدتها عليه ، ولكنني لم ألبث أن وجدت نفسي في الحال وجهاً لوجه ... فقاطعه كرستيان وقال « أو أنفاً لأنف » فزأر سيرانو زئيراً مخيفاً ووضع يده على مقبض سيفه وصــاح : « يا لصواعق السماء ورجومها » فذعر القوم وأيقنوا بالشر وأتلعوا إليه أعناقهم ماذا يفعل فلم يفعل شيئاً ، بل استمر في حديثه يقول :

وجدت نفسي أمام مائة من الغوغاء الساقطين تنم ثيابهم البالية وأزياؤهم القبيحة عن حقارتهم وسفالتهم وتتصاعد من أردانهم القذرة روائح كريهة تملأ ... فقاطعه كرستيان وقال « الأنف » فانفجرت شفتاه عن مثل ما تنفرج عنه شفتا الليث ، ولكنه لم يلتفت إليه واستمر يقول : تملأ الجو وتزهق النفس ، فلم أتردد لحظة واحدة في الهجوم عليهم ففتكت باثنين منهم ، ثم اتبعتهما بثالث ، وإذا بأحدهم يصوب إلي سهماً ... فقاطعه كرستيان ، وقال « أنفياً » فلم يستطع على ذلك صبراً وهب من مكانه هبوب العاصفة وصرخ صرخة عظمى : اخرجوا من هنا جميعكم ودعوني مع هذا الرجل وحدي .

ففروا من وجهه جميعاً يستبقون الباب ويتراكضون ويهمس كل منهم في أذن صاحبه : إنها وثبة الأسد ما في ذلك ريب ، وراجنو يقلب كفيه حزناً وأسفاً ويقول : وا أسفا عليك أيها الفتى المسكين ، ما أحسبها إلا لمحة الطرف حتى أراك قطعاً متناثرة على مائدتي .

فلما خلا المكان بسيرانو وصاحبه ظلا يتناظران ساعة في صمت وسكون لا يفوهان بحرف واحد وكرستيان ينتظر وقوع الكارثة ويتأهب لها تأهب الجريء المقدم ، ثم ما لبث أن رأى سيرانو يتقدم نحوه رويداً رويداً حتى وقف أمامه ووضع يده على عاتقه فارتعد كرستيان ارتعاداً خفيفاً ، وبينا هو ينتظر عاصفة من الشر تهب عليه إذ سمعه يناديه بنغمة لطيفة هادئة ويقول له : سيدي كرستيان ! فرفع طرفه إليه فرآه باسماً متلطفاً فعجب لأمره وقال له : ماذا تريد يا سيدي ؟ قال : أريد أن أعانقك وأقبلك أيها الصديق فتعال إلي ، فظل كرستيان ينظر إليه نظراً

حائراً متضعضعاً لا يفهم من امره شيئاً ، فقال سيرانو : تعال إليّ وقبلني فإني أخوها ، وقد بعثتني برسالة إليك فاستمعها ، فازدادت حيرة كرستيان ولم يفهم ما يريد وقال له : أخو من يا سيدي ؟ قال : أخو الفتاة التي تحبها ، قال : أي فتاة تريد ؟ قال : روكسان ، قال : أنت أخوها ؟ وظل يقلب نظره في وجهه كأنه يفتش عن وجه الشبه بين الأخوين فلا يجده ، ففطن سيرانو لغرضه وقال : أخوها تقريباً ، أي ابن عمها ، فتلألأ وجه كرستيان سروراً وقال : هل حدثتك عني ؟ قال : نعم ، قال : وهل أخبرتك أنها تحبني ؟ قال : ربما ، فازداد سروره واغتباطه وقال له : ما أجمل هذه البشرى التي جئتني بها يا سيدي وما أعظم شكري لك ، فابتسم سيرانو وقال : ما أغرب عواطف النفوس وما أسرع تقلباتها ، فقال : اعف عني يا سيدي فقد اسأت إليك ، قال : وما رأيك في تلك الأنفيات التي رميتني بها منذ هنيهة ! قال : إنني أستردها جميعها وأجثو تحت قدميك معتذراً عنها معتمداً على كرمك وإحسانك ، قال : الآن أستطيع أن أقول لك إنها اعترفت لي بأنها تحبك حباً شديداً وشريفاً ، وتضمر لك في قلبها من الوجد مثل ما تضمر لها ، وقد كلفتني أن أقول لك إنها تنتظر منك اليوم كتاباً ، قال : واأسفاه ، ذلك ما لا أستطيعه ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأنني رجل عاطل من جميع المواهب والمزايا لا أملك حلية من حلى الدنيا غير حلية الصمت ، فإن عطلت منها هلكت وافتضحت ، قال : عجباً لك ، ألا تستطيع أن تكتب كتاباً ؟ قال : لا ، لأنني غبي بليد. قال : إنك مغال جداً وحسبك من الذكاء أنك تعرف مقدار نفسك ، على أن أسلوبك في مقاطعتي ومغايظتي يدل على أنك لم تحرم فضيلة الشجاعة والذكاء ، قال : أستطيع أحياناً أن أكون شجاعاً

إذا كان الحديث بيني وبين رجل ، أما المرأة فإني أضعف الناس منة بين يديها . قال : ولكنك جميل ، والجمال قوة يستمد منها اللسان فصاحته وبيانه ، قال : لا أنكر أن لنظراتي تأثيراً خاصاً على النساء ، وأنني ما مررت بهن إلا استثرت بجمالي إعجابهن ودهشتهن ولكني أذوب حياء وخجلاً إذا جلست إليهن أو جمع الحديث بيني وبينهن ، وربما استطعت في بعض الأحيان أن أتحدث إليهن في بعض الشؤون العامة التي لا يتحامى فيها أحد أحداً حتى إذا وصلنا إلى حديث الحب كان الموت أهون عليّ من أن أنطق بحرف واحد فيه ، قال : إني لأعجب لأمرك جداً يا كرستيان ، ويخيل إليّ أنني لو كان لي مثل حظك في الجمال لأحسنت الكلام في الحب ، قال : ويخيل إليّ أنا أيضاً أنني لو كان لي مثل حظك في الفصاحة لاستطعت الكلام فيه ، قال : ليتني أستطيع إذا جلست إلى النساء أن أستثير بجمالي إعجابهن ودهشتهن ، قال وليتني أستطيع إذا جلست إليهن أن أسترعي ببياني أسماعهن .

وصمت كرستيان لحظة ثم قال : لقد حدثوني عنها أنها فتاة ذكية متفوقة تتعشق في الرجال الذكاء والفطنة قبل أن تتعشق فيهم الحسن والجمال ، فماذا يكون شأني معها إذا كتبت إليها كتاباً فقرأته فلم تر بين سطوره إلا عياً وركاكة وضعفاً واضطراباً ؟ فقال وهو يصعد نظره في وجهه ويصوبه ويعجب بجماله ووضاءته : يخيل إليّ يا كرستيان أنك لو أعرتني جمالك أو لو أنني أعرتك لساني لتألف منا إنسان تام المواهب والمزايا ، قال : نعم ما في ذلك ريب ، قال : ألا تتمنى أن تكون ذلك الإنسان ؟ قال : نعم أتمنى أن أكونه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : إن في استطاعتي أن أنفخ فيك روح الفصاحة وأنفث في صدرك

سحرها فاذا أنت أجمل الناس وأذكاهم معاً ، قال : لا أستطيع أن أتصور ذلك إلا إذا زعمت أنك من الساحرين ، قال : هل تعجز عن حفظ ما يلقى إليك من الجمل والكلمات وإن لم تفهم معناه ؟ قال : لا ، فإن ذاكرتي قوية جداً ، ولكنها كذاكرة الببغاء تنقل ولا تعقل شيئاً ، وأظن أني قد فهمت غرضك الآن ، وإني لأعجب أشد العجب من اهتمامك بهذا الأمر الاهتمام الشديد ومن إلحاحك في تلمس الوسائل للوصول إليه هذا الإلحاح كله كأنه شأن من شؤونك الخاصة التي تعنيك. قال : سأفضي إليك بسر المسألة فاستمع لما أقول :

إن روكسان ابنة عمي وصديقتي ورفيقة صباي وطفولتي ليس لها في العالم من صديق ولا معين سواي ويهمني جداً أن أراها سعيدة في حياتها هانئة في عيشها لا يكدر عليها مكدر من عوادي الدهر ونكبات الأيام ، ولا أكتمك أني أخاف عليها الخوف كله أن تحل بها في هذا الحب الذي اختارته لنفسها نكبة من النكبات العظام ، أو فاجعة من الفواجع الجسام تقضي عليها وعلى آمالها ، وما أحسبك تتمنى لها إلا ما أتمناه أو تضمر لها في نفسك إلا العطف الذي أضمره لها ، خصوصاً وأن الصلة التي بينكما ستتحول طبعاً إلى عشرة زوجية طويلة لا يقطع حبلها إلا الموت ؛ لذلك أردت أن نتعاقد يداً واحدة على إسعادها وترفيه عيشها وحماية ذلك الحب في قلبها وحراسته من أن تغشاه غاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت بحسنك وجمالك وأنا بفصاحتي وبياني ، تسمع صوتي ولكن من فمك ، وتحس بروحي ولكن في جسمك وتشرب عواطفي ولكن من كأسك ، وتطرب لنغماتي ولكن من قيثارتك ، أي أنني أتقمص في جسمك وأتسرب بين حنايا خدعك وأكمن في قرارة نفسك فنستحيل

نحن الاثنين إلى شخص واحد ، أو تصبح أنت كل شيء وأصبح أنا لا شيء ، وما دامت سعادتها في الحياة تتوقف على أن ترى بجانبها إنساناً يجمع في نفسه بين موهبتي الفصاحة والجمال فليتألف مني ومنك ذلك الإنسان الذي تريده وتتمناه ، ولا تقل إننا نخدعها بذلك أو نغترها ؛ فإنا لا نريد بما نفعل إلا سعادتها وهناءها .

هذا هو الغرض الذي أرمي إليه ولا أرمي لغرض سواه ؛ فارتجف كرستيان وقال : إنك تخيفني جداً يا سيرانو ، ويخيل إليّ أن عقلي يحاول الفرار مني دهشة وعجباً فإنك تقترح عليّ أمراً ما سمعت بمثله في حياتي ، قال : إنك مغال يا كرستيان والمسألة بسيطة جداً ، ألم تقل لي منذ هنيهة إنك تخاف إن جالستها أو تحدثت إليها أن تملكك وتحتويك فتموت عواطف الحب في قلبها ؟... فما الذي يريبك مني وأنا لا أريد إلا ما تريد ، ولا أرمي إلا إلى بقاء عاطفة الحب حية في قلبها نامية ، فتتمتع أنت بقلب الفتاة التي تحبها وأتمتع أنا بسعادة الصديقة التي أجلها واحترمها وأحرص على راحتها وهدوئها ، قال : وهل تشعر في نفسك أنك سعيد بذلك ؟ فانتفض سيرانو انتفاضة خفيفة لم يشعر بها كرستيان وقال بصوت خافت : سعيد . وصمت لحظة ثم قال بصوت متهدج مرتعش : نعم سأكون سعيداً يا كرستيان لأنني شاعر ، والشاعر ممثل بفطرته ، يلذ له دائماً أن يلبس ثوباً غير ثوبه ويتراءى في صورة غير صورته ، فيمثل دور المجنون وهو عاقل ، ودور الشجاع وهو جبان ، ودور السعيد وهو شقي ، ودور العاشق الولهان وما في قلبه ذرة واحدة من الحب والغرام ؛ فاسمح لي أن أمثل دور العاشق الولهان فهو الدور الذي يلذ لي تمثيله أكثر من غيره ، وكن أنت المسرح الذي أمثله عليه وأخطر في أرجائه جيئة وذهوباً .

كن اللسان وأنا الفكر ، كن الجسم وأنا الروح ، كن الجمال وأنا العقل ، كن الزهرة وأنا العطر ، كن العين وأنا النور المنبعث منها ، كن القلب وأنا حبته الكامنة فيه ، فلا تكتب إليها إلا ما أمليه عليك ، ولا تحدثها إلا بما ألقتك إياه وليكن ذلك سراً بيني وبينك لا تعرفه روكسان ولا يعرفه أحد من الناس .

فهدأ كرستيان وسرى عنه واستقر في نفسه أن الرجل صادق فيما يقول ، ولكنه لو استطاع أن يفهم الحقيقة كما يفهمها بقية الناس لأدرك أن سيرانو عاشق مثله لتلك الفتاة التي يحبها وأنه لما أخفق في حبه وساء حظه فيه وعجز عن أن يفضي إلى حبيبته بذات نفسه وسريرة قلبه وجهاً لوجه أراد أن يتخذ منه بوقاً يهتف في جوفه بأناته وزفراته لتصل إلى آذانها فتسمعه من حيث لا تراه ولا تشعر بمكانه لا يرجو من وراء ذلك غرضاً ولا غاية سوى أن يرفه عن نفسه بعض همومها وآلامها بالمناجاة والشكوى كما يرفه المريض عن نفسه آلامه وأوجاعه بترديد الأنات ، وتصعيد الزفرات .

فقال له كرستيان : ولكن ما العمل في الكتاب الذي قلت لي إنها تريد أن أرسله إليها اليوم ؟ فمد سيرانو يده إلى صدره وأخرج تلك الرسالة التي كان يريد أن يقدمها إليها في الصباح فلم يفعل وأعطاه إياها وقال له : ابعث إليها بهذه الرسالة فهي تامة لا ينقصها غير التوقيع ، فدهش كرستيان وعاودته وساوسه وهواجسه وقال له : وهل كتبتها من اجلي ؟ وما الذي دعاك إلى ذلك ؟ قال : لم اكتبها من أجلك ولا من أجل أحد من الناس ، ولكننا معشر الشعراء لا تخلو جيوبنا غالباً من أمثال هذه الرسائل الغرامية الخيالية ، فإننا وإن كنا محرومين سعادة الحب وهناءه

ولكنا نتخيل احياناً صوراً وهمية لا وجود لها في الخارج نخاطبها ونناجيها كما يناجي المحب محبوبه لنستطيع إمداد الفن الذي نشتغل به بحقائق الحياة وصورها ، ولقد أودعت هذه الرسالة جميع ما يمكن لمحب مفتن أن يضمره في نفسه من لواعج الحب وخوالج الغرام ، ولقد كانت أناتي وزفراتي قبل اليوم طائرة هائمة في أجواز الفضاء لا تجد لها مستقراً ولا مهبطاً أما الآن فقد وجدت على يدك المستقر الذي تتطلبه وتسعى إليه ، وستقرأ روكسان هذه الرسالة بعد ساعة وسترى أنها الصورة الحقيقية لعواطفك وشعورك لا ينقصها شيء حتى روح الإخلاص وجوهره ، قال : ألا تحتاج لتغيير شيء فيها ؟ قال : لا ، قال أخاف أن ترتاب بها ، قال : كن على ثقة من أنها ستعتقد حين تقرأها أنها ما كتبت إلا لها ، وأنها هي التي أوحت بها إلى نفس كاتبها .

فتناول كرستيان الرسالة طائراً بها فرحاً وترامى على عنق سيرانو يقبله ويلثمه ويضمه إل صدره ويقول : آه يا صديقي الكريم ، ما أعظم شكري لك واغتباطي بصحبتك ، وظل على ذلك هنيهة وكان القوم وقوفاً أمام باب المطعم ينتظرون إذن سيرانو لهم بالرجوع وهم يسمعون ضوضاء الحديث بينه وبين صاحبه فيتوهمون أنه الجدال العنيف والخصام الشديد حتى شعروا بذلك السكون الذي ساد بينهما فريعوا وخيل إليهم أنه سكون الموت فدفع راجنو الباب قليلاً وأطل من فجوته فرأى هذا المنظر فذعر وخيل إليه الرعب الذي لحقه أنه يرى منظر الموت وأن كرستيان صريع بين يدي سيرانو ، فظل يرتجف ارتجافاً شديداً ، فهمس القوم في أذنه : ماذا ترى ؟ قال : دعوني فإني لا أجرؤ على النظر وأكاد أموت خوفاً ورعباً ، فدفعوا الباب جميعاً ودخلوا ، ففهموا الحقيقة التي ما كانوا يتصورونها

ولا يقدرونها في أنفسهم ورأوا أن ذلك الصراع الذي كانوا يتوهمونه بين خصمين متباغضين إنما هو عناق طويل بين صديقين مخلصين ، فدهشوا دهشة عظمى ، وظل بعضهم يهمس في أذن بعض : إنه يعانقه ويلتزمه كأنه أصدق أصدقائه ، وقال « كاربون دي كاستل » أحمد الله تعالى فإن شيطاننا قد اهتدى ، وصاح آخر : عجباً لك يا سيرانو ! لقد أصبحت مسيحياً تقياً إذا ضربك أحد على أحد منخريك أدرت له الآخر ، فلم يغضب سيرانو هذه المرة ولم يكترث بل ابتسم له وتطلق . وكان بين الداخلين « الرجل الهائل » صديق « ليز » فأطمعه هذا الموقف في حلم سيرانو ، وقال في نفسه : لقد فقد الرجل حميته وانطفأت شعلة حماسته وأظن أني أستطيع أن أتكلم عن أنفه الآن باطمئنان ، ثم أشار إلى ليز فاقتربت منه ، فقال لها : سأريك الآن منظراً من أبدع المناظر وأبهجها وأخذ يدور في أنحاء القاعة ويستنشق الهواء بصوت عال كأنما يشعر برائحة غريبة حتى دنا من سيرانو فلمس كتفه وقال له : ما هذه الرائحة الغريبة يا سيدي ؟ فصمت سيرانو ولم يقل شيئاً ، فأدنى وجهه من وجهه واطال النظر إلى أنفه وقال له : قل لي ما هذه الرائحة الغريبة المنتشرة في هذا الجو ، فإنك تستطيع أن تفهمها أكثر مني ؟ فما أتم كلمته حتى لطمه سيرانو على وجهه لطمة هائلة رنت في أرجاء القاعة وقال : رائحة الذعر أيها الجبان ، فصفق القوم تصفيقاً شديداً ، وأغربوا في الضحك جميعاً حتى « ليز » .

الفصل الثالث

حرفة الأدب

منزل روكسان منزل جميل ، أنيق ، تمتد أمام بابه شرفة عالية بديعة ، قائمة على ساريتين ضخمتين تتسلق فوقهما أغصان شجرة ياسمين مغروسة أمام الباب حتى تصل إلى الشرفة فتنتشر في أنحائها ، ويقابل هذا المنزل منزل آخر يشبهه في شكله ورونقه ، ولا يختلف عنه بشيء سوى أن حلقة بابه ملففة بقطعة من نسيج كأنها أصبع مجروحة [1] مضمدة ، وبين المنزلين ميدان واسع يتوسطه مقعد مستطيل من الرخام جلست عليه وصيفة روكسان وراجنو الشواء يتحدثان ، فمسح راجنو دمعة كانت تترقرق في عينيه وقال لها : ولقد حزنت كثيراً لفرارها مع ذلك الضابط الخبيث وبكيت ما شاء الله أن أفعل لأنها كانت سلوة حياتي ، ومعينتي على أمري ، وما هي إلا أيام قلائل حتى تكشف الغطاء عن ذلك الإفلاس العظيم الذي كان كامناً في حسابي ، والذي كنت أستره بجدي وجدها وتراكمت عليّ الديون وعجزت عن الوفاء فلم أر بدأً من الانتحار فخلوت في حانوتي ليلة أمس وألقيت آخية في عنقي ، وما هو إلا أن صعدت على الكرسي

---

(١) هو منزل كلومير ، وهي سيدة من الأشراف كانت تقام في بيتها الحفلات التي تجمع المتأدبين والمتأدبات وتلقى فيها المحاضرات الأدبية والخطب العلميـة شأن كثير من الشريفات في ذلك العصر ، وقد لفت حلقة الباب بذلك النسيج حتى لا يزعج صوتها المجتمعين أثناء سماع المحاضرات .

ووضعت قدمي على حافته لأدفعه من تحتي حتى دخل سيرانو فهاله الأمر وتعاظمه وفهم للنظرة الأولى كل شيء ، فابتدر الحبل فقطعه بسيفه وقال : ماذا أصابك أيها المسكين ؟ فنفضت له جملة حالي وبثثته همي ؛ فأشفق عليّ وجذبني من يدي حتى جاء بي إلى هنا وقصّ على روكسان قصتي وقال لها : إن راجنو صديقنا وصاحب اليد البيضاء علينا ، وعلى الأدباء جميعاً شعرائهم وكتابهم ، وهو وإن لم يكن من نوابغ الشعراء المجيدين فهو أديب متفنن محسن إلى رجال الشعر والأدب ضنينٌ بهم وبكرامتهم ، فلم أحفل كثيراً بتلك الغمزة التي غمزنيها في حديثه ، وما زال بها حتى استثار عطفها وشفقتها فبكت رحمة بي واستدنتني إليها وواستني ببعض الكلمات الطيبة ثم عهدت إليّ بهذا الشأن الذي أقوم به في منزلها كما تعلمين ؛ فاستعبرت الوصيفة باكية ، وقالت : لقد كان يخيل إليّ يا راجنو أنك سعيد الطالع في اعمالك ، وأنك تربح كثيراً فما الذي دهاك وجر عليك هذا البلاء ؟ قال : حرفة الأدب يا سيدتي ، فقد كنت أحب رجال الشعر ، وكانت « ليز » تحب رجال السيف فلم يزل « مارس » يأكل ما يشاء ، ثم يلقي ما يتبقى منه إلى « أبولون[1] » حتى نزل بي ما ترين !

فرثت الوصيفة لحاله وظلت تلاطفه وتواسيه حتى هدأ وسكن ، ثم نهضت من مكانها واتجهت جهة الشرفة وظلت تنادي : سيدتي روكسان أسرعي فقد دنا ميعاد المحاضرة ، فأجابتها سيدتها من داخل البيت : ها أنا ذي آتية فانتظري قليلاً ؛ فقال لها راجنو : أية محاضرة تريدين ؟ قالت : سيحضر الساعة إلى منزل «كلومير » — وأشارت إلى ذلك المنزل المقابل لمنزل سيدتها — رجل من

---

(١) مارس : إله الحرب . وأبولون : إله الشعر وغيره من الفنون .

العلماء الباحثين اسمه «الكاندر» ليلقي محاضرة عن الحب، وقد دعيت سيدتي لاستماعها وسأذهب معها بالطبع، فضحك راجنو، وقال: ما سمعت قبل اليوم أن الحب فن من الفنون التي تلقى فيها المحاضرات، قالت، وهي تبتسم: ليس في الفنون ما هو أحق بالمحاضرات من الحب.

وهنا سمعا صوت قيثارة آتية من بعيد فالتفتا وراءهما فإذا سيرانو مقبل ووراءه غلامان صغيران يحمل كل منهما في يده قيثارة يوقع عليها، وهو ينهرهما ويتغيظ عليهما كأنهما طالبان بين يدي مؤدبهما، ويقول لهما: قد أمرتكما أيها البليدان أن تثلثا النغمات وأنتما تأبيان إلا تثنيتها فقال له راجنو: بخ بخ يا سيرانو. متى كان عهدك بمعرفة المثالث والمثاني! قال: عهدي بها منذ ذلك اليوم الذي جثوت فيه بين يدي جاصندي الموسيقي العظيم؛ وما أنا إلا تلميذه وخريج مدرسته، ثم التفت إلى أحد الغلامين وانتزع منه قيثارته واستقبل شرفة روكسان وأخذ يغني هذه القطعة: «قد جئت أسلم على ياسمينك، وأقدم تحياتي لورودك، وألثم بخضوع وخشوع أوراق زنابقك البيضاء» فسمعت روكسان صوته فخرجت إلى الشرفة فرأته، فقالت: ها أنا ذي قادمة يا سيرانو، وكانت قد فرغت من زينتها ولباسها، فنزلت فحيته وقالت له: ما هذا المنظر الغريب! ومن هذان الغلامان الصغيران! قال: هما ولدان موسيقيان قد ربحتهما اليوم في رهان، فضحكت وقالت: أي رهان؟ قال: قد جادلت اليوم «داسوسي» في مسألة نحوية موضوعها الفرق بين «لا وبلى» واشتد بيننا اللجاج ساعة فاستحمق وأشار إلى هذين الغلامين، وكانا واقفين بين يديه، وقال لي: سأراجع المسألة الآن في مظانها من الكتب وليكونن هذان الغلامان طوع أمرك ليلة كاملة تذهب بهما حيث

تشاء ويغنيانك ما تريد إن كان الفوز لك فيها ، ثم قام إلى خزانة كتبه فراجع المسألة فكان الحق في جانبي فأخذت الغلامين وسرت بهما يغنياني ويأتمران بأمري في كل ما أقترحه عليهما من الضروب والألحان حتى وصلنا إلى هنا ، قالت : وهل أنت راض عنهما ؟ قال : إنهما يجيدان بعض الإجادة ، وقد طربت لنغماتهما ساعة ، ثم سئمتهما ، ولا أدري ماذا أصنع بهما الآن ! وأحسب أني لا أستطيع احتمالهما حتى مطلع الفجر ، وصمت هنيهة ثم ابتسم والتفت إليهما ، وقال لهما : أتعرفان منزل مونفلوري الممثل البطين ؟ قالا : نعم ، قال : اذهبا إليه وقفا تحت نافذة مخدعه الذي ينام فيه واضربا لحناً طويلاً مزعجاً مضطرب النغمات يذهب براحته وسكونه ويملأ صدره غيظاً وحنقاً ، ثم عودا إلي بعد ذلك .

فانحنى الغلامان بين يديه وانصرفا ، فالتفت سيرانو إلى روكسان وقال لها : قد جئت أسأل سيدتي كما اسألها كل ليلة ما رأيها في حبيبها كرستيان ؟ ألا تزال تراه إنساناً كاملاً خالياً من العيوب والهنات حتى الآن ! قالت : نعم ما في ذلك ريب فلقد جمع الله له بين فضيلتي الجمال الباهر ، والذكاء النادر ، وقلما اجتمعا لإنسان سواه ، قال : أترين أنه ذكي إلى هذا الحد ؟ قالت : نعم ، بل أذكى من كل من عرفت في حياتي حتى أنت يا سيرانو ؛ فاغتبط سيرانو في نفسه اغتباطاً عظيماً ، ولكنه تظاهر بالتبرم والاستياء وهز رأسه كالمرتاب وقال : ربما . قالت : ولقد بلغ من الذكاء والفطنة تلك المنزلة التي يتكلم فيها المرء بأشياء غريبة مدهشة يظنها السامع لأول وهلة أنها لا شيء والحقيقة أنها كل شيء ، ولقد يضعف نور ذكائه أحياناً ويشرد ذهنه حتى يخيل إلي أنه عيي أو غبي ، ولكنه

متى عاد إلى نفسه صاغ بلباقة ومهارة تلك الجواهر البديعة التي لم أر مثلها في حياتي ، قال : وهل يحسن الكلام عن القلب ؟ قالت : إنه لا يقنع بالكلام عنه حتى يحلله تحليلاً دقيقاً ، قال : وما رأيك في كتابته ؟ قالت : إنه يكتب أحسن مما يتكلم ، وكأن أسلوبه الماء النمير المترقرق على بياض الحصباء وما أجمل كلمته التي يقول : فيها « خذي من قلبي ما شئت فسيبقى لي منه ما يكفيني » ألا ترى أنه معنى بديع ؟ قال : لا بأس به ، قالت : واسمع هذه الجملة أيضاً وقل لي ما رأيك فيها ؟ : « إن كان لا بد لك من أن تحتفظي بقلبي لديك فأعيريني قلبك بدلاً منه فإنني في حاجة إليه لاحتمال ما ألاقيه في سبيلك من الآلام والأوجاع » فقال وهو يكاد يطير في نفسه فرحاً : إنه يناقض نفسه بنفسه ، أحياناً يغالي وأحياناً يكون غير وفي ولا أدري ماذا يريد بقلبه ! فتململت روكسان وقالت : إنك تضايقني كثيراً يا سيرانو وما أحسبك إلا غيوراً ، فانتفض سيرانو وخيل إليه أنها قد ألمت بسريرة نفسه فظل ناظراً إليها ذاهلاً لا يدري ماذا يقول حتى قالت له : وكذلك أنتم معشر الشعراء لا يطيق أحدكم أن يسمع كلمة ثناء على رفيقه ، فهدأ روعه وعلم أين ذهبت في حديثها ، ثم قالت له : واسمع هذه الجملة أيضاً فهي غاية الغايات في قوتها ومتانتها : « لو كان في استطاعتي أن أرسم قبلاتي على صفحات قرطاسي لقرأت كتابي بشفتيك بدلاً من عينيك » ما رأيك في هذه أيضاً ؟ هل تستطيع أن تجد فيها مأخذاً ؟ قال : لا أنكر أنها جملة بديعة لولا ركة في بعض أجزائها ، فاربد وجهها غيظاً وقالت له : إنك عنيد يا سيرانو ، فاسمع هذه القطعة أيضاً فهي خير من جميع ما مضى ، فقاطعها وقال لها : هل بلغ بك الاهتمام بأمره أن تستظهري كلماته وتعيها في صدرك ؟

قالت : نعم ، قال ما يطمع كاتب من الكتاب في منزلة أعظم من هذه يا سيدتي ، قالت : إنه نابغة عظيم ما في ذلك ريب . فاحمر وجهه خجلاً كأنما خيل إليه أنها قد ألمت بسريرة قلبه وإنها إنما تعنيه بكلامها ، وقال : إنك تغالين يا روكسان .

وإنهما لكذلك إذ أقبلت الوصيفة مسرعة وقالت : قد جاء الكونت دي جيش ، فاضطربت روكسان وقالت لسيرانو : لا أحب أن يراك هذا الرجل عندي فأنت صديق كرستيان وأخاف إن رآك هنا أن يدرك سر غرامي فيفجعني فيه ، فادخل المنزل ولا تظهر له حتى ينصرف لشأنه ، قال : سأفعل كل ما يرضيك يا روكسان ؛ ودخل المنزل ودخلت الوصيفة وبقية الخدم وراءه .

دهاء المرأة

أقبل الكونت دي جيش فرأى روكسان واقفة وحدها في مكانها فانحنى بين يديها وحياها وقال لها : قد جئتك اليوم يا سيدتي مودعاً وربما كان الوداع الأخير ؛ قالت : أمسافر أنت ؟ قال : نعم قد صدر الأمر إلى الجيش بالسفر إلى « أراس » بعد بضع ساعات لتخليصها من يد العدو ويظهر لي أن نبأ سفري لم يؤثر عليك أقل تأثير ؛ قالت لا تظن ذلك يا سيدي الكونت ، قال أما أنا فإني حزين لفراقك حزناً شديداً ولا أدري ما الله صانع بي بعد اليوم ؟ هل كتب لي في لوح مقاديره أن أراك مرة أخرى ، أم هو الفراق الدائم الذي لا لقاء من بعده ؟ وأطرق برأسه حزيناً مكتئباً ثم قال لها : وهل علمت أن الملك قد عهد إلي أمس برياسة أركان حرب الجيش ؟ قالت : ما كنت أعلم ذلك من قبل ، وإنه لنجاح باهر يا سيدي الكونت ؛ لله درك ،

قال : أي أنني أصبحت صاحب السلطان المطلق على الجيش بأجمعه بعد القائد العام ، وفي استطاعتي أن أنتقم لنفسي في ميدان المعركة من جميع أعدائي وخصومي خصوصاً ذلك الرجل الوقح الجريء ابن عمك سيرانو وأن أحاسبه حساباً غير يسير على جرائمه وآثامه . فذعرت روكسان وخفق قلبها خفقاً شديداً لا خوفاً على سيرانو بل على كرستيان ؛ لأنها فهمت من كلامه أن فرقة شبان الحرس ستسافر مع بقية فرق الجيش . فقالت له : أتذهب فرقة شبان الحرس إلى الحرب ؟ قال : نعم كما تسافر جميع الفرق ، فاصفر وجهها وتخاذلت أعضاؤها ومدّت يدها إلى المقعد فاعتمدت عليه وهي تقول بصوت خافت متهافت : آه يا كرستيان ! فعجب الكونت لأمرها وسألها ما بالها ؟ قالت إن هذا السفر يحزنني جداً خصوصاً عندما أتصور أن الشخص الذي يهمني أمره أكثر من كل إنسان في العالم يخوض تلك المعامع المهلكة التي يرفرف عليها طائر الموت ، ولا أعلم هل أراه بعد اليوم أم هذا آخر العهد به فافتر ثغره وتهلل وجهه بشراً وحبوراً وخيل إليه أنها إنما بكلامها وأنه هو الشخص الذي يشغلها ويعنيها والذي تخشى عليه أن تلم به تلك الكارثة العظمى فقال لها : ما كنت أعلم يا روكسان قبل اليوم أنك تضمرين لي في نفسك هذا الحب كله ، فصمتت لحظة ثم التفتت إليه وقالت : وهل أنت مصمم على الانتقام من سيرانو ؟ قال : نعم إلا إذا كنت تكرهين ذلك ، قالت : لا بل لا أريد غير ذلك . قال : هذا ما أعتقده ، ثم قال : ألا يزال هذا الرجل يختلف إلى منزلك حتى اليوم ؟ قالت : لا ، إنه لا يزورني إلا نادراً جداً ، وليته لا يفعل ، ولولا صلة القربى التي بيني وبينه ما أذنته بزيارتي ؛ قال : قد حدثوني عنه أنه منصرف في هذه الأيام إلى مرافقة

جندي نبيل من جنود الحرس الطارئين ويقولون إنه لا يكاد يفارقه ليله ولا نهاره ؛ قالت : ومن هو هذا الجندي النبيل ؟ قال : قد نسيت اسمه الآن ، وهو كما وصفوه لي فتى طويل القامة مشرق الوجه أصفر الشعر تلوح على محياه مخائل العز والنعمة وتلمع في صفحة وجهه بارقة خفيفة من الجمال ، ولكنه غبي بليد ، ولا أفهم حتى الآن ما هي الصلة التي بينهما !

فصمتت روكسان صمتاً طويلاً ذهبت نفسها فيه كل مذهب ، ثم التفتت إليه بغتة ، وقالت له ، وهي تبتسم ابتسامة غريبة لا يفهم معناها إلا من فهم سريرة المرأة واضطلع بغرائزها وسجاياها : أتظن يا سيدي الكونت أنك تكون قد انتقمت لنفسك منه إذا عرضته لنار الحرب التي يحبها ويعبدها ، ولا يقترح شيئاً سوى أن يصطلي بها ويخوض غمارها ؟ هذه هي المرة الأولى التي رأيتك فيها تنظر في أمر من الأمور نظر الغرارة والسذاجة ! قال : آه لقد فاتني أن أتنبه إلى ذلك فما العمل ؟ قالت : عاقبه بحرمانه من أمنيته التي يتمناها ، فذلك أقتل له من القتل وأنكى له من الموت ، فليسافر الجيش بأجمعه وليتخلف هو وحده بل تتخلف معه فرقته جميعها ، فإنها كما علمت مؤلفة من أشرار متمردين يذهبون مذهبه في أخلاقه وطباعه ويساعدونه في كل جرائمه وآثامه ، ولتكن حجتك في ذلك إن شئت : إن باريس في حاجة إلى فرقة من الجيش تتخلف فيها للدفاع عنها وقت الحاجة ، وأنك قد اخترت لها هذه الفرقة للدفاع عنها ، وهكذا يموت الرجل هماً وكمداً وتتمزق أحشاؤه غيظاً وحنقاً ويغرب نجم شهرته غروباً لا طلوع له بعده ، فيصبح بطل الطرق والشوارع ، لا بطل الحروب والمعامع .

فابتهج الكونت ولمعت أسارير وجهه ووضع يده على كتفها وقال لها : لله درك يا سيدي ، لقد صدق من قال : « لا يحسن الانتقام من الرجل مثل المرأة » .

ثم حنا عليها وقال لها : إذن أنت تحبينني يا روكسان ؟. فنظرت إليه نظرة باسمة متلألئة وأطرقت برأسها ، ولم تقل شيئاً ، ففسر ابتسامتها التفسير الذي أراده ، وابتسامة المرأة لفظ مشترك يحتمل جميع المعاني وضروبها من الحب القاتل إلى البغض العميق ، ثم قال لها : ذلك ما كنت أقدره يا روكسان مذ عرفتك حتى اليوم فلم يخطىء ظني ، ثم أخرج من جيبه كتباً مغلقة معنونة بعناوين .فرق الجيش فأمرّ نظره عليها إمراراً حتى عثر بكتاب فرقة شبان الحرس ففصله عن بقية الكتب ووضعه في صدره ، وهو يقول : ما أشد دهاءك يا روكسان ، وما أوسع حيلتك ! نعم إن مزاج الرجل حربي متوقد فلا يقتله ولا يفت في عضده ، ولا يلصق أنفه بالرغام غير حرمانه ميدان الحرب وتركه في شوارع باريس يتسكع فيها تسكع العاطلين المتبلدين ، ثم نظر إليها باسماً ، وقال لها : أهذا شأنك دائماً يا روكسان أن تكيدي للناس أمثال هذه المكائد ؟ فابتسمت وقالت : لا ، بل لا أفعل ذلك إلا عند الضرورة .

فأطرق برأسه وصمت صمتاً طويلاً ، وقد أخذت شفتاه تختلجان وترتجفان كأنما تحدثه نفسه بشيء يحاول أن يقوله لها فلا يستطيعه ، ثم تشجع ، وقال : بقيت لي كلمة أحب أن أقولها لك يا سيدتي فهل تسمحين لي بها ؟ قالت : قل ما تشاء فأنا مصغية إليك ، قال : إنني أحببتك يا روكسان من عهد بعيد كما تعلمين ، وكان كل أملي في حياتي أن أعيش بجانبك عيش القانع بك عن جميع متع الحياة ولذائذها فحالت بيني وبينك

الحوائل التي تعلمينها ، وقد كنت أظن أنني سلوتك وغنيت عنك بغيرك ونفضت يدي أبد الدهر منك ، ثم ما لبثت أن علمت أنني واهم فيما ظننت ، وأن ذلك الداء القديم لا يزال كامناً بين أحناء ضلوعي فسمج في نظري وجه الحياة ومر في فمي مذاقها وأصبحت حائراً قلقاً لا يهدأ لي روع ولا يستقر بي مضجع . ولا أدري حين أراك وأرى ابتساماتك اللامعة المضيئة ونظراتك العذبة الجميلة هل تضمرين لي في قلبك من الحب مثل ما أضمر ؟ أو أنها المصانعة والمجاملة ومجازاة الود بالود والرجاء بالتأميل ؟ وما زال هذا الشك يساورني ليلي ونهاري حتى رأيت الآن بعيني تلك الرجفة الشديدة التي سرت في أعضائك عندما انبأتك نبأ سفري ، فعلمت أنك تحبينني وما كشف أسرار الحب ، ولا هتك الستر عن مخابئه ومكامنه مواقف الوداع .

وها أنذا الآن على وشك السفر ولا أعلم هل هو فراق وشيك أم هو السفر الدائم الذي لا رجعة من بعده ؟ فأسألك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على مشقة السفر ووحشة الطريق ، حتى إذا دنت الساعة الأخيرة تمثلت صورته في ذهني فهانت علي آلام الموت ؛ فإن سمحت به فائذني لي أن أتخلف الليلة عن السفر مع الجيش على أن لا تطلع شمس الغد حتى أكون قد امتطيت جوادي ولحقت به في المكان الذي وصل إليه .

فارتجفت روكسان ، وقالت : ولكن ماذا يقول الناس إذا رأوا رئيس أركان حرب الجيش قد تخلف عن جيشه وبقي في باريس لغرض من أغراضه الغرامية ؟

قال : ذلك ما لم يفتني النظر فيه والحيطة له ، يوجد بالقرب من هذا المكان دير في شارع أورليان أسسه رئيس الكابوشان

« الأب أتاناس » وله قانون غريب يقضي بأن لا يطأ أرضه أحد من الناس سوى رهبانه وقساوسته ، وأنا وإن لم أكن راهباً ولا قسيساً ، ولكنني صهر الكردينال ريشيليه رئيس الكهنوت الأعظم ، ولا شك أن الذين يخافونه ويخشون صولته لا يستطيعون أن يرفضوا نزولي بديرهم بضع ساعات بل ليس في استطاعتهم إن أردت أن يمتنعوا عن أن يخبئوني تحت قلانسهم أو في ثنايا السهم أو فروج أكمامهم لأنها واسعة جداً لا تضيق بمثلي ! وها أنذا ذاهب الآن إلى ذلك الدير المقدس لأكمن فيه بضع ساعات حتى إذا انتصف الليل لبست قناعي وجئتك متنكراً في جنح الظلام فلا يشعر أحد بمقدمي ، ولا منصرفي .

فاستطير عقل روكسان وجن جنونها ودهمها من الأمر مالا تعرف وجه الحيلة فيه ، ولا طريق المخرج منه ، ثم ما لبثت أن رجعت إلى نفسها وملكت زمام عواطفها ، وقالت له بهدوء وسكون : إن مجدك وعظمتك يا مولاي يأبيان عليك ذلك الإباء كله ، ولئن استطعت أن تكاتم الناس أمرك فإنك لا تستطيع أن تكاتمه نفسك أو تخادع فيه ضميرك .

إن فرنسا تطالبك بطرد العدو عن أرضها واستنفاذها من يده القاهرة المسيطرة ، فليكن هذا هو كل ما تفكر فيه ، ولا يشغلك عنه شاغل من شهوات نفسك ولذائذها ، ولا تسمح لأحد من الناس أن يتحدث عنك ، لا بل لا تسمح لنفسك أن تحاسبك على ليلة قضيتها لاهياً ناعماً في بيت امرأة تحبها و « آراس » باكية حزينة تضطرب بين يدي قاهرها اضطراب الحمامة الوديعة في مخالب الصقر الجارح وتصرخ صرخات مؤلمات أنت أول يا مولاي من يسمعها ويضطرب شعوره لها .

سر يا سيدي على رأس جيشك ، وكن نجمه الذي يهتدي به في ظلماته وملجأه الذي يأوى إليه في شدته ، واعلم أنك لن تستطيع أن تنزل منزلة الحب والكرامة في نفوس الذين يحبونك إلا إذا كانت فرنسا أحب إليك منهم ، بل من نفسك التي بين جنبيك .

فاستخزى لكلماتها وتضعضع وقال لها : إذن أنت تحبينني يا روكسان ؟ قالت : كيف لا أحب من صميم فؤادي من خفق قلبي خفقة الحزن والألم جزعاً لفراقه وإشفاقاً على حياته ؟ فصاح : واطرباه وافرحتاه سأنزل على حكمك في كل ما تريدين وسأسافر الساعة طوعاً لأمرك فاذكريني دائماً ولا تنسيني ، قالت : لا أستطيع أن أنساك قط ، فتناول يدها وقبلها وانحنى بين يديها وانصرف .

وكانت روجينا وصيفة روكسان مختبئة وراء سارية الشرفة تسمع حديثهما وتفهم مغزاه ، فما أبعد الكونت إلا قليلاً حتى برزت من مخبئها وهي تغرب في الضحك وتقول : ما أشد حزني لحزنك يا سيدتي ! فضحكت روكسان وقالت لها : اكتمي كل شيء عن سيرانو فإنه لا يغتفر لي أبد الدهر حرماني إياه من الحرب فوارحمتاه له ؛ ثم هتفت به فخرج من المنزل وهو يقول : ما أكثر الذين يحبونك يا روكسان ! قالت : نعم ولكنني لا أحب إلا واحداً منهم ، ثم قالت له : قد دعيت الليلة إلى هذا المنزل (وأشارت إلى منزل « كلومير » المقابل لمنزلها) لسماع المحاضرة التي يلقيها « الكاندر » عن الحب [1] فأذن لي بالذهاب

---

(١) كان من شأن الكثير من النساء المتعلمات الشريفات في فرنسا في أوائل القرن السابع عشر أن يعقدن في منازلهن مجالس عامة أدبية تجري فيها المذاكرات العلمية =

وابق أنت هنا ؛ فإذا جاء كرستيان فقل له ينتظرني حتّى أعود ، قال : سأفعل إن شاء الله ، ولكنك لم تخبريني كعاتك في أيّ موضوع من مواضيع الحب تحبين أن يتحدث كرستيان الليلة إليك ؟ قالت : لقد كان حديثنا بالأمس عن « موقف الوداع » فليكن حديثنا الليلة عن « النظرة الأولى » لا بل عن « الغيرة » لا بل عن « الأمل الضائع » لا ، بل اتركه على سجيته لا تحدد له موضوعاً خاصاً حتى لا يستعد . فإنني أريد أن أختبر بديهته كما اختبرت رويته من قبل ، فقل له يحدثني عن « الحب » وكفى ، ثم حيته وانصرفت وتبعتها وصيفتها .

وكان كرستيان مقبلاً في تلك اللحظة فسمع آخر كلماتها فقال : ما الرأي يا سيرانو ؟ قال : عد بنا إلى المنزل لمذاكرة

= والفنية ونلقى فيها المحاضرات . وكانت تلك المجالس أو « الصالونات » كما كانوا يسمونها تضم بين حواشيها رجال الفضل والأدب ومشاهير الشعراء والكتاب من عظماء فرنسا . وكانت المحادثات التي تدور فيها تغلب عليها صفة التحذلق والتأنق والتظرف وهو أمر طبيعي في كل مجتمع يجمع بين الرجال والنساء فنشأت مع الأيام بين هؤلاء النساء لغة خاصة في الأحاديث والمكاتبات منشؤها رغبة المتكلمات أو المكاتبات في إيجاد عبارات لبقة طريفة تلفت النظر الى المعاني التي يردن التعبير عنها أو بعبارة أخرى تلفت الرجل إلى جمالهن ورقتهن ، ثم ما زلن يغرقن في ذلك حتى أصبحت تلك اللغة موضع سخرية الأدباء والناقدين خصوصاً عندما جاء دور الانحطاط الأخلاقي وانتشار الفوضى في الهيئات الاجتماعية وتقليد نساء الطبقات الدنيا نساء الطبقات العليا في شمائلهن وأساليبهن وزعمهن أن لهن الحق في الإشراف على الأدبيات في فرنسا ونقدها وتمحيصها . تلك الطائفة من النساء هي التي يصورها وينتقدها « إدمون روستان » في هذه الرواية كما انتقدها من قبله كثيرون من الكتاب والروائيين كموليير وبوالو . ومع أن تلك اللغة قد زالت وانقرضت ومرت عليها القرون فلا يزال باقياً منها حتى اليوم بعض آثارها مثل « سميك الذكاء » و « ظلمة النفس » و « قسوة الكلمات » و « الدستور المتواضع » وأمثال ذلك من الكلمات الطائرة في جو الخيال والسابحة في بحر اللانهاية .

الدرس الجديد وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نكون قد فرغنا وعدنا قبل عودتها ، فصمت كرستيان هنيهة ثم رفع رأسه وقال : لا ، لا أريد الليلة دروساً ولا مذاكرة فإني أذوب شوقاً لرؤيتها ، قال : ولكنك لا تعرف كيف تحادثها ! قال : دعني وشأني فقد شببت عن الطوق وتجاوزت تلك السن التي يعجز فيها المرء عن أن ينطق إلا بما يلقنه إياه أبواه وأظآره[1] فقال : إنك تخاطر بنفسك مخاطرة عظمى ، قال : فليكن ما أراد الله فقد استحييت من نفسي لكثرة ما مثلت من هذا الدور الشائن المعيب دور الآلة الموسيقية التي يوقع عليها ضاربها فتنبعث منها نغماتها المطربة دون أن تشعر بنفسها وبما ينبعث منها ؛ على أنني قد استفدت من دروسك الماضية ما يسمح لي بمحادثتها ومذاكرتها والإفاضة معها في كل شأن من الشؤون التي أريدها ؛ وما أنا بغبي إلى الدرجة التي تتصورها فسأكلمها بنفسي وسأشرح لها جميع عواطفي التي تختلج في صدري ، وما أحسبها تطالبني بأكثر من ذلك ؛ قال : هل أنت على ثقة من نفسك ؟ قال : كيفما كان الأمر فقد تجاوزت الصلة التي بيني وبينها حد الذرائع والوسائل إلى الحب الخالص المتين الذي تغتفر معه الهفوات ، وتستحيل فيه السيئات إلى حسنات ، ولئن عجزت عن أن أحدثها بلساني فسأحدثها بلسان القبلات واللثمات .

وهنا سمع صوت روكسان ، وهي خارجة من منزل « كلومير » في جمع عظيم من النساء ، فقال سيرانو لكرستيان : قد فات الأوان فأذن لي بالذهاب ؛ فذعر كرستيان واستطير عقله ، وقال : بل ابق معي يا صديقي ؛ قال : لا ، فقد أصبحت

---

(١) جمع ، ظئر وهي المرضع .

هنيئاً بنفسك عني . وتركه وانصرف .

ولكنه لم يبعد إلا قليلاً حتى عاد متسللاً من حيث لا يشعر به أحد واختبأ وراء حائط الحديقة يتسمع حديثهما .

الشرفة

قالت روكسان لكرستيان ، وقد جلسا معاً على المقعد الرخامي في وسط الساحة : لم أدرك من المحاضرة الغرامية التي ألقيت في منزل « كلومير » إلا اختتامها ، فلم أستفد منها شيئاً فحدثني أنت عن الحب وأطلق لنفسك العنان فيه ما شئت ، وها هو الليل قد أظلنا بسكونه وهدوئه ، وها هي باريس قد أوت جميعاً إلى مضجعها فتحدث فاني مصغية إليك ، فارتجف كرستيان ارتجاف الطالب الضعيف في موقف الامتحان ، ولكنه لم ير له بداً من أن يتكلم ، فانثنى إليها ، وقال لها : أحبك يا روكسان ، وصمت فقالت له : وأنا أحبك أيضاً يا كرستيان ثم ماذا ؟ فلم يفتح الله عليه بكلمة أخرى فعاد إلى نغمته الأولى ، وقال لها : أحبك يا روكسان حباً جماً . وسكت ، فقالت له : هذا هو النسيج فوشه وطرزه . فازداد ارتباكه واضطرابه ، وقال : آه ما أشد حبي لك يا روكسان ، قالت : ما شككت في ذلك قط ! ولكني أريد أن تقول لي كيف تحبني ؟ قال : أحبك حباً ما أحبه أحد من قبلي أحداً ، قالت : صوّر لي عواطفك وشعورك ، قال : ليتك تضمرين لي في قلبك من الحب مثل ما أضمر لك ، قالت : إنك تقدم لي من اللبن مخيضه ، وأنا لا أريد إلا زبدته ، قل قل كيف تحبني ؟ قال : أحبك حباً يعجز لساني عن التعبير عنه لأنه فوق طاقتي ؛ قالت : ولكني أريد أن تعبر لي عنه وأن تلمس

بيدك أوتار قلبي وتملك عليّ عواطفي وشعوري ، قال : آه لو استطعت أن ألثم جيدك الفضي الجميل . فجزعت وانحرفت عنه قليلا وقالت : كرستيان ، إنك قد جننت ، قال : ما أشوقني إلى لثمة من فيك أبرّد بها غليلي ، فنهضت قائمة وقالت : إنك تضايقني الليلة كثيراً يا سيدي ! وأرادت الذهاب فأمسك بثوبها ، وقال عفواً يا روكسان ، فان ذنبي عظيم ، وما زال يضرع إليها بنظراته المنكسرة حتى هدأت وجلست ، فقال لها : آه لو تعلمين كم أحبك ، قالت : أهذا كل ما عندك ؟ وأرادت النهوض مرة أخرى ، فأمسك بيدها ، وقد طار صوابه والتاث عليه أمره وظل يقول لها : لا ، لا تغضبي يا روكسان فانني لا أحبك ، فضحكت وقالت له : ذلك خير لي ، فانتبه إلى هفوته وقال : لا تصدقي ما قلت لك فاني أردت أن أقول لك : إنني لا أحبك فقط بل أعبدك وأدين بك ؛ فتململت وقالت : لقد ضاق صدري ، قال : أعترف لك بأني قد أصبحت بليداً لا أفهم شيئاً . قالت : ذلك ما يحزنني كثيراً فالبلادة عندي والدمامة سواء ، فاذهب الآن واجمع شتات ذهنك ثم عد إليّ الليلة الآتية ، ونهضت قائمة فتشبث بها وقال : انتظري قليلا فانني سأقول لك شيئاً جميلا ، انتظري يا روكسان فانني أريد أن أقول لك ... فقاطعته وقالت : تريد أن تقول لي : إنك تحبني وتعبدني وتموت وجداً بي ، فلقد عرفت ذلك كله ولا أريد أن أسمع منه شيئاً ، فاذهب لشأنك فقد ضقت بك ذرعاً .

ثم تركته ودخلت المنزل فجن جنونه وظل واقفاً مكانه يتحرق ويتغيظ ، ويقول : آه ذلك ما كنت أخافه ، أين أنت يا سيرانو ؟ فما أتم كلمته حتى رأى سيرانو مقبلا عليه يبتسم ابتسامة المتهكم ويقول له : أهنئك بالنجاح العظيم الذي أحرزته يا كرستيان ،

فانتفض وقال : أنت هنا ؟ ثم ترامى بين ذراعيه ، وقال الرحمة يا صديقي فاني أكاد أموت غماً ، قال : وما الحيلة بعد الذي كان ؟ لقد انقضى كل شيء فلا سبيل إلى الرجوع ، قال إن لم تر لي الساعة رأياً قتلت نفسي ، إنني لا أستطيع أن أنصرف من هنا وهي واجدة عليّ ، فارحمني واتخذها عندي يداً لا أنساها لك مدى الدهر ، فصمت سيرانو وهو يعالج في نفسه ألماً ممضاً لا تستشف مكانه من أعماق قلبه غير عين واحدة هي عين الله تعالى ، ثم قال له : ها هو الظلام حالك لا يلمع فيه نجم ، وها هي الطريق مقفرة لا يطرقها طارق ، فاستمع لما ألقي عليك ، فاستطير كرستيان فرحاً وتناول يده فقبلها وقال : آه يا سيدي يخيل إليّ أنك قد رأيت لي رأياً ، قال نعم : إن أئتمرت بما آمرك به ، قال : ما عصيت لك أمراً قبل اليوم ، قف هنا أمام الشرفة وسأقف أنا من تحتها على قيد خطوة منك من حيث تراك روكسان ولا تراني ، ثم نادها ، فاذا أشرفت عليك فسألقنك همساً ما يجب أن تقوله لها .

وإنهما لكذلك إذ أقبل الغلامان الموسيقيان اللذان كان أرسلهما سيرانو لإزعاج مونفلوري في مرقده فقال لهما : أفعلتما ما أمرتكما به ؟ قالا : نعم مازلنا نضرب اللحن المضطرب المشوش زمناً طويلا حتى طاش عقله وجن جنونه فأطل من النافذة وظل يشتمنا ويسبنا ويستعدي رجال الشرطة علينا حتى انصرفنا ، قال : أحسنتما فارجعا الآن وقفا على رأس هذا الشارع ، وليكن كل منكما وراء سارية من سواريه وراقبا الطريق فاذا رأيتما سواداً مقبلا فاضربا لحناً قصيراً ، فقالا له : أي نوع من الألحان تريد أن نضرب ؟ قال : اضربا لحناً محزناً إن كان القادم رجلا ، ومفرحاً إن كان امرأة ، فعاد الغلامان أدراجهما ووقفا حيث

أمرهما ، ودفع سيرانو كرستيان وأقامه أمام الشرفة ووقف هو من تحتها على مقربة منه وقال له : نادها وأخفض صوتك ، ما استطعت ، فاتجه كرستيان إلى النافـذة ونادى : روكسان ! روكسان ! فما لبثت أن فتحت الباب الموصل إلى الشرفة وخرجت إليها وقالت : من يناديني ؟ قال : أنا ، قالت : ومن « أنا » قال كرستيان ، قالت : ماذا تريد ؟ قال : أريد أن أكلمك . قالت : ذلك مستحيل لأنك لا تحسن الكلام ، قال : أضرع إليك ، قالت : إنك لا تحبني ، ولو كان في قلبك ذرة واحدة من الحب لأحسنت الكلام فيه . قال — وسيرانو يلقنه — يا لله ! إنها تتهمني بأنني قد سلوتها في الساعة التي أتجرع فيها كأس الموت وجداً بها ، وكانت قد همت بالدخول فاستوقفتها هذه الكلمة وقالت : كيف تحبني ؟ قال : قد اتخذ طفل الحب من نفسي الجائشة المضطربة أرجوحة لينة يلهو فيها ويلعب وينمو ويترعرع حتى إذا شب وأيفع وبلغ أشده عقها وغدر بها وجازاها شر الجزاء على صنيعها وقسا عليها القسوة التي يقسوها الطفل على عصفوره الضعيف المسكين ، فأصغت إليه وشعرت أن في حديثه روحاً جديدة لم تكن فيه من قبل ، فقالت له : ولِمَ لم تخنقه في مهده قبل أن يشب ويترعرع ؟ قال : ما كنت أستطيع ذلك لأنه ولد جباراً قوياً متنمراً حتى أنه استطاع وهو لا يزال يلعب في أرجوحته أن يصارع شيطان الكبرياء فيّ حتى صرعه وألقاه جثة هامدة بين يديه ، فاتكأت روكسان على حافة شرفتها ، وقد أطربتها هذه النغمة الجديدة وقالت : ما أشد سواد هذا الظلام إنني لا أتبين موقفك جيداً يا كرستيان ولكنني أشعر أن كلامك يتيه لي مكانك فتكلم فانك تطربني كثيراً ، ولكن مالي أرى نغمة حديثك تصدر عنك متقطعة كأنما قد أصبت بالنقرس في

مخيلتك ، وكان عهدي بك قبل الآن طلق اللسان متدفقاً كالسيل المنهمر ، فذعر سيرانو وخاف أن ينكشف الأمر فجذب كرستيان إلى ما تحت الشرفة ووقف هو في مكانه وانثنى إليه وأسر في أذنه قد أصبح الموقف حرجاً جداً فأصمت أنت وسأتكلم أنا عنك بصوت يشبه صوتك ، ثم أنشأ يجيب روكسان على سؤالها مقلداً صوت كرستيان ويقول : ذلك لأن كلماتي تتخبط في هذا الظلام الحالك أثناء صعودها باحثة عن أذنك الصغيرة جداً فلا يستقيم مسيرها ، قالت : ولِمَ لا تضطرب كلماتي في هبوطها اضطراب كلماتك في عروجها ؟ قال : لأنها تنحدر إلى قلبي مباشرة وقلبي رحب واسع فلا تضل طريقها ، على أن كلماتي صاعدة وكلماتك منحدرة والنزول أسهل من الصعود ، قالت : ما أبدع هذا المعنى ! ويخيل اليّ الآن أن كلماتك قد انتظم مسيرها فانها تصل إلى أذني بأسرع من ذي قبل ، قال : ذلك لأنها ألفت هـــذه الحركـــة وحذقتها [1] ؛ فصمتت لحظة ثم دارت بعينيها في الفضاء وقالت : حقيقة إنني أتكلم من علو شاهق . قال : إذن فاحترسي فان كلمة واحدة قاسية تلقينها عليّ من موقفك هذا كافية لقتلي ؛ فاستضحكت وقالت : لا تخف يا كرستيان فاني آتية إليك لأحدثك وجهاً لوجه ، لا تفعلي ؛ بل ابقي في مكانك ، قالت : لماذا ؟ قال : لأن هذا الموقف جميلَ جداً يعجبني ويطربني ، فلنتحدث كما نحن كأننا روحان هائمتان في أجواز الفضاء تفتش كل منهما عن صاحبتها فلا تكاد تعثر بها ، دعينا نتحدث كما نحن وبيننا هذا الموج المتلاطم من الدجنة الحالكة ، لا ترين مني الا سواد معطفي المسبل عليّ

---

(١) يصور المؤلف في هذه المحاورة لتشدق نساء ذلك العصر وتحذلقهن في أحاديثهن وحوارهن وتمسكهن بهذا النوع من الكلام المتكلف المتعامل الذي قضت عليه الأساليب الحديثة فيما بعد .

ولا أرى منك إلا بياض ثوبك الصيفي فأنت تمثلين الكوكب الساطع في سمائه ، وأنا أمثل الظلام المخيم على سطح الغبراء .

إن لهذا الموقف الشعري الجميل في هذه الساعة الساكنة من الليل أعظم الفضل في صفاء ذهني وانتعاش نفسي ويقظة قلبي وانطلاق لساني من حبسته وجموده ، فكوني كما أنت ، ولأكن كما أنا ، لا تشعرين مني بغير خفقان قلبي ، ولا أشعر منك بغير أشعة جمالك ، أناجيك كأنني أناجي الله في علياء سمائه وتصغين إلى مناجاتي إصغاء الملائكة الأبرار إلى أنات البائسين وزفراتهم على ظهر الأرض .

وكان قد غلبه الموقف على أمره واستلهاه حسنها وجمالها واستغرق في شعوره ووجدانه فنسي أنه يتكلم بلسان غيره فأطلق لنفسه عنانها ؛ وأصبح يحدثها بنغمة غريبة لا هي نغمته ولا هي نغمة كرستيان بل نغمة النفس الوالهة المعذبة المتألمة ، فنالت من نفسها منالا عظيماً وقالت : إنك تحدثني الآن يا كرستيان بلهجة غير لهجتك الأولى ؛ حتى ليخيل إليّ أنك قد تبدلت من نفسك نفساً أخرى غيرها ، قال : نعم لأن كلامي قبل الآن لم يكن صادراً من أعماق قلبي لأنني أنما كنت أحدثك بلسان ... وكان يريد أن يقول : « كرستيان » فاستدرك هفوته وقال : بلسان الدهشة والحيرة والاضطراب الذي يلم بكل من يجرؤ على أن يقف موقفي هذا بين يديك ، أما الآن فنفسي هادئة وجأشي ساكن وروحي مطمئنة حتى ليخيل إليّ أنني أناجيك للمرة الأولى في حياتي ، قالت : صدقت ويخيل إليّ أنا أيضاً أنك تتكلم بصوت غير صوتك الأول . قال : نعم ؛ لأنني استطعت في هذا السكون السائد والظلام الحالك ، الذي يحجبني عن العيون أن أكون أنا

نفسي وأن أناجيك من طريقي لا من طريق ... وأراد أن يقول « غيري » فشعر بهفوته وحاول أن يصلحها فلم يستطع فتلعثم وتلجلج فقالت له : طريق من ؟ قال : عفواً يا روكسان إن شرد لبي واضطرب جناني بين يديك ، فقد سحرني وملك على عقلي هذا الموقف الجديد ، الذي لم أقفه مرة في حياتي ، فعجبت لأمره وقالت : : جديد ؟ قال : نعم جديد ؛ لانه أول موقف استطعت فيه أن أكون صريحاً في كلامي ، حراً في أفكاري ، جريئاً في حديثي ، أطلق العنان لنفسي فتهيم وتتبعث حيث تشاء ، لا يحول بينها وبين الغاية التي تريدها حائل ، قالت : وهل لم يكن ذلك شأنك من قبل ؟ قال : لا ، لأن خوفي من هزئك بي وسخريتك مني كان يزعجني جداً ويملأ قلبي رعباً وخوفاً ، فدهشت وقالت : سخريتي ! ولماذا ؟ قال : تسخرين من تطرفي واندفاعي وتبسطي في الإفضاء بمكنونات نفسي فقد كان قلبي دائماً متسربلاً بسربال عقلي والعقل سربال ضاغط لا يطيقه القلب ، وكنت كلما هممت أن أترك السبيل لعواطفي أن تفيض وتنساب حيث تشاء أدركني الحياء والخجل فتلومت واحتشمت ووقفت دون الغاية التي أريدها ، ولا ألبث أن أتطلع إلى الكوكب النائي في سمائه وأخطو الخطوات الأولى إليه لتناوله واستنزاله من فلكه حتى أشعر بالخجل من نفسي فأعود أدراجي قانعاً من حظي بزهرة صغيرة أجدها في طريقي من زهرات حديقة السماء فأقتطفها ، قالت : إن الزهرة جميلة أحياناً ، قال : ولكنني لا أريدها الليلة ولا أقنع بها ، قالت : إنك ما كلمتني قط يا كرستيان بمثل هذه اللهجة البسيطة التي تكلمني بها الآن ، قال : نعم ، وليتنا نستطيع دائماً أن نحتقر في مواقف الحب توافه الأشياء وحثالاتها وأن نترك التأنق والتجمل في صلاتنا وعلائقنا ونطلق العنان لأنفسنا لتعبر عن مشاعرها وعواطفها ،

بالصورة التي تريدها بدلاً من أن تقيدها بتلك القيود الثقيلة التي تحبسها في محبس ضيق لا سبيل لها إلى التفلت منه .

فلنطرح بعيداً عنّا هذه الكأس الذهبية الصغيرة ، التي نتعاطى بها شرابنا قطرة قطرة فلا نكاد نشعر بلذة ما نتعاطاه ولنندفع معاً إلى ذلك الغدير المترع المتدفق فنجثو على ضفته ونكرع من مائه العذب حتى نرتوي .

البلاغـــة

قالت : ولكنني أحب البلاغة يا كرستيان ؛ قال : إني أجل هذا الليل الساكن الهادىء وهذا الموقف الجليل المهيب وهذه النفحات العطرية المترقرقة ، وهذه القبة الجوفاء المرصعة بمصابيحها اللامعة ، أن أهينها بهذا الشيء الذي يسمونه البلاغة أو أن يكون حديثي معك بتلك اللغة التي يتفكه بها العشاق الكاذبون في رسائلهم الغرامية ، فلنتحدث بما توحيه إلينا ضمائرنا ، لا بما توحيه إلينا دواوين الشعراء ورسائل الكتاب ، ولنهدم تلك الحواجز المادية القائمة بين نفسينا ، حتى تتلامسا وتتماسا وتستحيلا إلى نفس واحدة ، فإنني أخشى إن نحن ظللنا نشتغل زمناً طويلاً بهذه التجارب الكيمائية أن تتبخر عواطفنا وتتلاشى في أجواز الفضاء ، وأن يكون فيما نظنه كل شيء القضاء على كل شيء .

قالت : ولكن البلاغة جميلة جداً ، قال : وأنا أكرهها في الحب ، وأرى أن من أكبر الجرائم وأفظعها أن نشتغل عن أنفسنا ومطارح آمالنا ، ومسارح عواطفنا ، بإدارة هذه المعركة اللفظية التي لا طائل تحتها ، وأن تكون تلك المحاولات التي لا فائدة

منها هي غاية مقصدنا من الحب ومنتهى أملنا منه والثمرة الأخيرة التي نجنيها من حياتنا.

إننا ما اجتمعنا هنا لنرى كيف نتحدث، بل لنتحدث ونتناجى، وما وقفنا هذا الموقف الجليل المهيب، بين أحضان هذه الطبيعة الحلوة العذبة، لنشتغل بتهذيب اللغة وابتكار الاساليب واختراع المعاني، ولا ليقول كل منا لصاحبه ما أبلغك، وما أسمى خيالك، وما أبدع تصوراتك وأفكارك، ولا لنتدارس البلاغة وأصولها وقوانينها، ولا لنتحدى الشعراء والكتب في أساليبهم ومناهجهم، بل ليسكب كل منا نفسه في نفس صاحبه فإذا هما في نفس واحدة تشعران بشعور واحد وتحسان إحساساً واحداً، حتى لو استطعنا أن نصل إلى هذه الغاية ونحن سكوت لا نتكلم ولا ننبس بحرف واحد، فعلنا.

هذه هي البلاغة وهذه هي حقيقتها، أما الإغراق في التخيل والمبالغة في الوصف وخلق الصور والأساليب التي لا وجود لها في الخارج، ولا أساس لها في الذهن، وابتكار المعاني الغريبة التي تنبعث شرارتها من شعلة الذكاء ولا تنفجر من ينبوع القلب فهي وإن كانت جميلة محبوبة تستلهي الخاطر وتستوقف الناظر، ولكنها ليست من البلاغة في شيء.

نريد أن نترك السبيل لنفسينا أن تتحادثا وتتناجيا كما شاءتا وأن لا تنغص عليهما نجواهما وسمرهما بهذه الضوضاء اللفظية التي نثيرها من حولهما.

نريد أن نفارق هذا العالم المملوء بالأكاذيب والأباطيل، والصور والتهاويل إلى أفق طاهر نقي، صاف مترقرق، تتكاشف

فيه وتتراءى ويتحدث كل منا إلى صاحبه بلغة تشبه في جمالها وحسنها ، وبساطتها وطهارتها ، ورقتها وعذوبتها ذلك الأفق الجميل الذي نسبح فيه ونطير في أجوائه ، فيكون مثلنا مثل الكوكبين الهائمين في أجواز الفضاء يتحادثان بلسان الضوء ويتناجيان بلغة الأثير .

قالت : وماذا تقول لي لو أردت أن تحدثني بتلك اللغة ؟
قال : ألقي إليك بكل ما يخطر ببالي من الكلمات مبعثراً غير منتظم ولا مرتب ، كما تتناثر أوراق الزهر عن أغصانها فأقول لك مثلاً :

أحبك يا روكسان حب العابد معبوده ، لا أستطيع أن أصبر عنك لحظة واحدة ، أصبحت على وشك الجنون بك وربما أكون قد جننت من حيث لا أدري ، كأن قلبي معبد وكأن اسمك ناقوسه ، فإذا وقع نظري عليك ارتعدت وارتجفت ، فرن اسمك في قلبي رنين الناقوس في المعبد ، قد احتملت فيك فوق ما يستطيع أن يتحمله البشر ، فما شكوت ولا تألمت ، أحببت فيك كل شيء ، أحببت فيك حتى كبرياءك ، وأحببت من أجلك حتى شقائي ، يخيل إلي أن الشمس على جدار قصرك أجمل منها على جدران القصور الأخرى ؛ وأن الروض الذي تخطرين فيه أبدع رياض الدنيا والآخرة ، لا أستطيع أن أنساك أو أنسى حالة من حالاتك أو حركة من حركاتك مهما طال عليهما الزمن ، رأيتك صباح الأحد الماضي ، وأنت خارجة من بيتك وقد غيرت نظام شعرك الذي أعرفه لك ، فأصبح لامعاً متألقاً يدور بوجهك دورة الهالة بالقمر ، فبهرني هذا المنظر وارتسم في شبكة عيني ، فأصبحت أراه في كل ما يقع عليه نظري من المنظورات كما يرى الناظر

إلى ضوء الشمس هالة بيضاء في كل ما يتناوله بصره من الأشياء ، وسمعتك منذ أيام تضحكين ، فما غرّد طائر على فنن ، ولا رنّت قطرات الغيث على صفحات الماء ، ولا مرت النسائم بين خمائل الأشجار إلا خيل إليّ أنني أسمع رنين تلك الضحكة في كل ما أسمع من هذه الألحان .

وهنا اضطربت روكسان ، واشتد خفوق قلبها ، وقالت بصوت خافت متهدج : « نعم هذا هو الحب » .

قال : نعم هو الحب الذي غالب قلبي حتّى غلبه واتخذه اسيراً عنده وهو حب شرس غيور يتوقد حدّة وحرارة ، وأنه على ذلك متواضع بسيط خال من الأثرة وحب النفس . إنني لا أستطيع أن أخلص لنفسي يا روكسان كما أخلص لك ، إنني في سبيل هنائك أجود بهنائي كله ، وإن لم تشعري بذلك ، حسبي من الدنيا أن أسمع من بعيد رنين ضحكاتك ، فأعلم أنك سعيدة مغتبطة ، وأن ما ضحيت به لك من سعادتي وهنائي كان هو السبب في هناء عيشك وراحة نفسك ، كل نظرة من نظراتك تثير فيّ فضيلة جديدة ، كانت كامنة بين أطواء قلبي لا أهتدي إلى مكانها ، وتبث في نفسي خلق الشجاعة والإقدام ، مم أخاف إن كنت راضية عني ؟ وبم أغتبط إن كنت ساخطة عليّ ؟ وهل الدنيـــا شيء سواك في إقبالها وإدبارها ؟ .

قالت : ما أعذب كلامك يا كرستيان ! إن قلبي يخفق له خفقاناً شديداً .

قال : أرأيت الآن كيف أن الكلمات الصادرة من القلب بلا تكلف ولا تصنع لا يستطيع حائل أن يحول بينها وبين قلب

سامعها! ألا تلمسين بيدك نفسي الحزينة وهي صاعدة إليك في هذا الظلام الحالك؟ ألا تسمعين خفقان قلبي وهو يرن في جوف هذا الليل البهيم؟ آه ما أحلى هذه الساعة وما أجملها، إنها الساعة الوحيدة التي ذقت فيها حلاوة السمر والمناجاة، ما كنت أصدق أن أقف يوماً من الأيام هذا الموقف العظيم بين يديك: أتكلم وتسمعين، وأبثك ما في نفسي وتنصتين، ولم يبق لي من أرب في الحياة بعد اليوم، فليأت الموت إليّ فقد بلغت جميع أماني وآمالي، ها هي يدك ترتجف الآن من تأثير كلماتي كما ترتجف الورقة الخضراء بين النسمات المتناوحة؛ ولقد نمّ غصن الياسمين الذي تمسكين فقد مشت فيه تلك الرجفة حتى وصلت إلى يدي؛ ثم انحنى على طرف الغصن الذي في يده فلثمه في صمت وسكون.

فقالت روكسان: نعم إنني أرتجف وأبكي، وما بلغ امرؤ مني في حياته ما بلغت مني، ولقد سحرني حديثك وملك عليّ لبي حتى أصبحت أشعر أنني قد أصبحت ملك يدك وأن لا شأن لي في أمر نفسي.

قال: فليأت الموت إليّ إذن فقد بلغت من حياتي ما كنت أرجو وأتمنى ولينهني، إنني أنا الذي قدمت إليك بيدي تلك الكأس التي أسكرتك وأخذت بلبك فلم يبق لي مما أتمناه غير شيء واحد، قالت: ما هو؟.

وهنا نطق كرستيان، وهو في مكانه تحت الشرفة بعد هذا الصمت الطويل وقال: «قبلة»؛ فذعر سيرانو وقال له بصوت خافت: لقد تسرعت في الطلب؛ قال: لا، إنها الآن ذاهلة مسحورة، فلأنتهز هذه الفرصة التي لا تؤاتيني في كل حين، فقالت روكسان: ماذا قلت! فقال كرستيان: «أريد قبلة»،

فوكزه سيرانو برجله وقال : اسكت يا كرستيان . فسمعت روكسان كلمته فقالت له : مع من تتحدث ! وهل كرستيان شخص سواك ؟ قال : أتحدث مع نفسي : اسكت يا كرستيان ، فحسبك منها أنها أصغت إليك ، وسمعت صوت قلبك وأذرفت من أجلك دمعة من دموعها الغالية ، فلا تطمع فيما وراء ذلك .

وهنا رن صوت قيثارتي الغلامين من بعيد فقال سيرانو : ادخلي الآن يا روكسان فإني أسمع صوت قادم ، ثم عودي إليّ بعد قليل ، فدخلت روكسان غرفتها وأقفلت باب نافذتها وأصغى سيرانو إلى الصوت فسمع في آن واحد لحنين مختلفين لحناً مفرحاً وآخر محزناً ، فقال : يا للعجب ! إن القادم ليس برجل ولا امرأة ، فلا بد أن يكون قسيساً ، وما أتم كلمته حتى أقبل قسيس شيخ وبيده مصباح ضئيل وجعل يمر بأبواب المنازل باباً باباً ويدني مصباحه ليتبينها ، كأنه يفتش عن منزل يقصده ، فتقدم نحوه سيرانو وقال له : إنك تعيد لنا أيها الشيخ عهد ديوجين[1] فهل تفتش عن الرجل ؟ قال : لا بل عن المرأة ، إني أفتش عن منزل السيدة مادلين روبان الشهيرة بروكسان ، فانبرى له كرستيان وهو يقول في نفسه : إن الرجل يضايقنا في مثل هذه الساعة ، ولما نتته من أمر « القبلة » ، وأمسك بيده وأشار له إلى جهة بعيدة ، وقال له : هناك أيها الشيخ هناك ، فسر أمامك ، لا تعطف يمنة ولا يسرة حتى تجد المنزل الذي تريده ، فشكر له الشيخ فضله وعاد أدراجه ، فقال كرستيان لسيرانو : لا أستطيع أن أبرح هذا المكان ، حتى أنال القبلة التي أريدها ، قال : لا تعجل يا

---

(١) هو الفيلسوف اليوناني المشهور وكان يحمل في يده مصباحاً ليله ونهاره فسأله بعض الناس مرة عن يفتش ! فقال : أفتش عن الرجل .

صديقي فستوافيكما سريعاً تلك اللحظة السحرية العجيبة لحظة الذهول والاستغراق التي تثملان فيها بخمرة الحب وتذهلان فيها عن نفسيكما ، فإذا شفتاكما ذاهبتان وحدهما كل منهما إلى صاحبتها حتى تتلامسا ، وصمت لحظة ثم قال في نفسه : ما دامت تلك اللحظة آتية لا ريب فيها ، فخير لي أن أكون صاحب الفضل فيها ، ثم قال له : نادها يا كرستيان فستنال منها القبلة التي تريدها ، فناداها ففتحت النافذة وخرجت إلى الشرفة وهي تقول : أباق أنت يا كرستيان حتى الآن ! فقال سيرانو : لقد جاء هنا الساعة كاهن شيخ يسأل عن منزلك فلم تعجبني زيارته في مثل هذا الوقت ، فأضللته عن الطريق وأظن أن في يده كتاباً ؛ فذعرت روكسان واضطربت مخافة أن يكون الكونت دي جيش قد أخلف وعده وتخلف عن السفر واختبأ في الدير وأن يكون هذا الكائن رسوله ، ولكنها ما لبثت أن سرت في نفسها وأنساها موقف الغرام كل شيء عداه وقالت : أظن أننا كنا نتكلم عن ... وتلعثم لسانها فقال سيرانو : عن «القبلة» ، ومالك لا تجسرين على النطق بها كأنها تحرق شفتيك ، فإذا كان هذا شأنك مع لفظها فكيف يكون شأنك مع معناها ، تجلدي يا روكسان ، ولا تجزعي فلقد تحولت منذ هنيهة من الدعابة إلى الاضطراب ، ومنه إلى الخفقان ، ومنه إلى التنهد ، ومنه إلى البكاء ، وليس بين الدموع والقبلة إلا رجفة .

القبلة

فارتعدت روكسان وقالت : لا أمنحك إياها حتى تصفها لي ، قال : هي الميثاق الذي يعطى عن قرب ، والوعد الصادق الذي لا ريبة فيه ، والاعتراف بالحقيقة الواقعة ، والنقطة المرقومة

تحت باء الحب ، والسر العميق الذي يصل إلى القلب من طريق الفم ، واللحظة الأبدية التي يقصر زمنها وتدوم حلاوتها ، واتفاق الخاطرين على معنى واحد ، والطريق المختصر لاستنشاق رائحة القلب وتذوق طعم النفس على الشفاه ؟ لها دوي النحل في صوتها ، ومذاق العسل في حلاوتها ، وعبير الأزهار في رائحتها .

فاضطربت روكسان وقالت : حسبك يا كرستيان ؛ فقال : إن القبلة شريفة يا سيدتي ، حتى إن ملكة فرنسا لم تبخل بها على نبيل من نبلاء الإنكليز وكلاهما شريف عظيم ، قالت : اسكت ولا تزد : قال : أنت الملكة التي أعبدها ، وأدين لها أكثر مما دانت فرنسا لملكتها ، وأنا اللورد بوكانجهام في صدقه وإخلاصه وألمه وحزنه ، قالت : وفي جماله أيضاً ، فانتفض سيرانو وشعر بوخزة الألم في قلبه وقال : نعم في جماله ، ولقد كنت لذلك ناسياً ، فقالت له : اصعد أيها السعيد المجدود لاقتطاف تلك الزهرة التي لا نظير لها ، فأخذ شيرانو بيد كرستيان وقال له بصوت خافت : اصعد وتناول القبلة التي تريدها ، فجبن وتلكأ وقال : ما أشد خجلي وحيائي ، قال : اصعد أيها الحيوان وتناول القبلة التي لا يستحقها منها غير شفتيك الورديتين ، ثم دفعه بيده فتسلق أغصان الياسمين ، حتى بلغ مكان روكسان على الشرفة فألقت رأسها الجميل على عاتقه ، فاحتضنها إليه ورسم على شفتيها تلك القبلة التي لها دوي النحل في صوتها ومذاق العسل في حلاوتها وعبير الأزهار في رائحتها ، وسيرانو واضع يده على قلبه يتلوى في مكانه تلوي الملسوع ويتأوه آهات خفيات مضمرات ، ولكنه ما لبث أن ارعوى وتجمل ولجأ الى سلوته التي اعتاد أن يلجأ إليها كلما عظمت آلامه وهمومه ، وأخذ يعزي نفسه ويقول :

يا مأدبة الحب العظيمة التي أنا صاحبها ومحييها ، هنيئاً للذين يلموقون طعامك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كئوسك ؛ أما أنا فحسبي منك هذا الفتات الذي يتناثر عليّ من مائدتك فإن روكسان لا تقبل شفتي شفتي كرستيان ، بل تقبل عليها كلماتي التي ألقيتها في أذنها وسحرتها بها .

وهنا رن صوت قيثارتي الغلامين بلحنين مختلفين : لحن مفرح وآخر محزن ؛ فسألت روكسان : ما هذا ؟ فقال لها كرستيان : لعله سيرانو يتمشى في الطريق مع غلاميه الموسيقيين ، فانفتل سيرانو من تحت الشرفة إلى موقف الغلامين فحدثهما قليلاً ثم أشار إليهما بالانصراف ومشى يترنح في مشيته كأنه شرب ثمل ويتغنى ببعض الألحان كأنه قادم الساعة ، فما وقع نظره على كرستيان حتى تظاهر بالدهشة وقال له : أباق أنت هنا يا كرستيان حتى الآن ؟ فقال له بصوت عال تسمعه روكسان : نعم أحدث روكسان وتحدثني وإلى أين أنت ذاهب ؟ قال : لقد مللت هذين الغلامين وسئمت ألحانهما وتعبت من طول المسير فعزمت على الرواح إلى المنزل ، فأشرفت عليه روكسان عندما سمعت صوته وقالت له : انتظرني يا سيرانو فإني قادمة إليك ، وأقفلت باب الشرفة ، وفي هذه اللحظة أقبل الكاهن بمصباحه وهو يحدث نفسه ويقول : ما زلت على رأيي الأول فإن المنزل هنا في هذا الميدان .

وهنا ظهرت روكسان على عتبة بابها يتبعها كرستيان وراجنو ، فلما رأت الكاهن ذعرت واضطربت فتقدم نحوها وحياها ومد يده إليها بكتاب .فقالت له : ما هذا ؟ قال : كتاب بعثني بـه إليك السيد الصالح التقي الكونت دي جيش صهر سيدنا ومولانا صاحب القداسة الكردينال دي ريشلييه من دير القديس « أتاناس »

ولا بد أن يكون مشتملاً على غرض من الأغراض الشريفة المقدمة أو مكرمة من المكارم العليا فاقرئيه ؛ فتناولته وقرأت فيه على مصباح راجنو وهي صامتة هذه الكلمات :

سيدتي :

الطبول تدق وقد أعد الجيش عدته للرحيل ، والجميع يظنون أني في مقدمته ولكنني تخلفت وعصيت أمرك لأنني لم أستطع السفر دون أن أتزود منك بذلك الزاد القليل الذي سألتك إياه . فاغتفري لي ذنبي فإنني ما أذنبت إلا في سبيلك وها أنا ذا قادم إليك بعد قليل ، فمهدي لي سبيل زيارتك ، إن ثغرك قد ابتسم لي اليوم ابتساماً جميلاً ، ولا أحب أن أفارقك قبل أن أراه مرة أخرى يبتسم لي تلك الابتسامة البديعة المؤثرة .

وقد بعثت إليك بكتابي هذا مع قسيس أبله لا يفهم من شؤون الحياة شيئاً سوى إقامة الصلوات ، وتعزية المحتضرين ومباركة المتزوجين ؛ فلا يعنيك من أمره شيء .

دي جيش

وهنا برقت عيناها ببارق غريب والتفتت إلى الكاهن وقالت له : اسمع يا أبت نص الكتاب فهو بمثابة أمر صادر إليك ، وأخذت تقرأ بصوت عال ما لا وجود له إلا في مخيلتها وتقول :

سيدتي :

يجب عليك إطاعة أمر قداسة الكردينال ، وهو يأمرك أن تتزوجي الليلة سراً من البارون كرستيان دي نوفييت ، وأنا وإن كنت أعلم أنك غير راضية عن هذا الزواج ، وأنك لا تحبين

هذا الفتى ، ولا تجدين في نفسك ارتياحاً لمعاشرته ، فإنني أرى لك أن تخضعي لأمر الكاهن الأعظم وتذعني لرغبته ، فالخير كل الخير فيما يراه ويشير به ؛ فاصبري على قضاء الله وقدره ، وانتظري حسن المثوبة منه والجزاء الأوفى .

وقد بعثت إليك بكاهن من أفضل الكهان وأتقاهم وأحفظهم للأسرار ليقوم بعقد هذا الزواج السري بينكما في منزلك ، فاقرئي عليه كتابي هذا وبلغيه أمري وكوني على ثقة من إخلاصي لك واحترامي الدائم لمقامك الكريم .

دي جيش

ثم طوت الكتاب ، وهي تتظاهر بالأسف والحزن وتقول : آه ما أسوأ حظي وأعظم شقائي ، ثم همست في أذن كرستيان قائلة له : ألا ترى أنني أحسن قراءة الرسائل ؟ قال : اسكتي فانني أكاد أموت فرحاً ، أما الكاهن فقد تهلل وجهه وانبسطت أساريره وظل يقول له : الله من سيد نبيل كريم ما خاب ظني فيه ، وفي حسن مقاصده وشرف أغراضه ، ثم رفع المصباح إلى وجه سيرانو وقال له : لعلك الزوج يا سيدي ؟ فامتقع لون سيرانو وأشاح بوجهه عنه فتقدم نحوه كرستيان وقال : لا .. بل أنا يا سيدي ، فأدنـــى المصباح من وجهه فرأى وجهاً جميلا مشرقاً فظل يهز رأسه كالمرتاب ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : يخيل إليّ يا سيدتي أن مصيبتك في هذا الزواج ليست عظيمة كما تتوهمين ؛ فارتعدت وخفق قلبها خفقاً شديداً مخافة أن يكون قد فهم شيئاً ، ثم ما لبثت أن عرفت وجه الحيلة في ذلك ففتحت الكتاب بلهفة وقالت : لقد فاتني يا أبت أن أقرأ عليك الحاشية التي كتبها الكونت في كتابه ، وهي تتعلق بديركم المقدس فاستمعها ، وقرأت ما يأتي

« ويأمرك صاحب القداسة أيضاً أن تتبرعي للدير من مالك الخاص بعشرة آلاف فرنك ، فائتمري بأمره وادخريها يدا عند الله صالحة » فتلألأ وجه الكاهن واستطير فرحاً وسروراً ، ولم يبق لتلك الريبة التي خالجته أثر في نفسه ، وقال لها : لا مناص لك يا بنيّ من الإذعان لأمر صاحب القداسة والله يتولاك برعايته ، فقالت : سأذهب لأمرك يا أبت ، ثم هتفت براجنو وأمرته أن يمشي أمامهم بمصباحه . ففعل فدخلوا المنزل جميعاً وتراجعت روكسان قليلا قبل دخولها ، فجذبت سيرانو من يده وأسرت في أذنه قائلة : أما أنت فابق هنا حتى يأتي الكونت فامنعه من الدخول ودافعه بكل حيلة وترفق في الأمر ما استطعت حتى يتم عقد الزواج ، فقال : سأفعل ما يرضيك يا روكسان فكوني مطمئنة ، فتركته ولحقت بالقوم وبقي هو وحده يفكر في الطريقة التي يمنع بها الكونت من الدخول إذا جاء .

سياحة في القمر

وما هي إلا هنيهة حتى رأى شبح الكونت مقبلا من بعيد فخلع سيفه والتف بمعطفه وأنزل قبعته على عينيه وتسلق شجرة الياسمين وكمن بين أغصانها ، وأقبل الكونت واضعاً على وجهه نقاباً أسود ، وهو يتلمس الطريق في هذا الظلام الحالك ويقول : ليت شعري أين ذهب ذلك الكاهن المنحوس وماذا صنع بالرسالة التي بعثته بها ؟ لا بد أن يكون قد بلغها إلى روكسان وانصرف لشأنه ، ولا بد أنها تنتظرني الساعة داخل المنزل .

واتجه جهة الباب ، فما دنا منه حتى سقط جسم عظيم بين يديه سقطة هائلة دوت بها جوانب الميدان كأنما هو هابط من علياء

السماء فتأمله، فاذا هو رجل متلفع ملثم فذعر وتراجع وقال من هذا ؟ فتقدم نحوه سيرانو بخطوات بطيئة متثاقلة ، وقال له بنغمة أشبه بنغمة الحالم المستغرق : كم الساعة الآن ، أيها الإنسان ؟ فقال له: من أنت ؟قال: أنا رجل من سكان كوكب القمر سقطت منه من زمن لا أعلم مقداره ، هل هو يوم أو ساعة أو دقيقة أو عام أو أعوام ، لأن صدمة السقوط أذهلتني عن نفسي فلم أفق إلا هذه اللحظة ، ولا أعلم هل سِقطت في كوكب الأرض أم في كوكب آخر غيره ، فقل لي أين أنا ، وفي أي عام ، وفي أي يوم ، وفي أي ساعة ؟ فعلم الكونت أنه مجنون أو ثمل ، فأراد ملاينته ومداورته ، فقال له : اسمح لي بالمرور أو لا وسأخبرك فيما بعد عما تريد ، قال : يخيل إليّ أنك تظنني معتوها أو مخبولا ، فاعلم أنني لا أحدثك عن خيال بل عن حقيقة لا ريب فيها ، وأنني قد سقطت من كوكب القمر سقوطاً اضطرارياً لم أملك فيه الخيار لنفسي ، فظللت أتخبط بين الكواكب والنجوم والمذنبات والشهب حتى وقعت في هذا المكان الذي أجهله، ولا أعلم أين موقعه من العالم ، ثم رفع نظره الى وجه الكونت وصرخ صرخة هائلة فزع لها الرجل وتراجع بضع خطوات وظل يسأله : ما بالك ، ما بالك ! فقال دلني سواد وجهك وظلمته على أنني قد سقطت في خط الاستواء بين قبائل الزنوج ، فوا أسفاه وواسوء حظاه ، فلمس الكونت وجهه بيده ، وكان قد ذهل عن نقابه فحسره عنه ، وقال له : لا تخف إنما هو نقاب أسود كنت أسدلته على وجهي لبعض الأسباب الخاصة . فهدأ سيرانو قليلا ، وقال له : عفواً يا سيدي ، إذا أنا في فينيسيا أو فينا [1] فقل لي في أي المدينتين أنا ؟ فضجر الكونت ، وقال له : سواء

---

(1) يشير إلى أن عادة النقاب كانت معروفة في هذين البلدين أكثر من غيرها .

أكنت في هذه أم في تلك فدعني أمر فان إحدى السيدات تنتظرني ، فقال : آه ! لقد فهمت الآن ، لا بد أن أكون في باريس بلد الوعود والمقابلات والأسياد والسيدات فالحمد لله على ذلك ، ومد يده إلى ردائه وظل يمسحه كأنما ينفض الغبار عنه ، ثم وقف متأدباً وأحنى رأسه بين يده، وقال له : « اغفر لي يا سيدي مقابلتي إياك بهذه الملابس الرثة المغبرة فقد كان سقوطي مع الزوبعة الأخيرة فانتشر غبار الأثير على ملابسي وإمتلات عيناي بذرات الضوء ، وعلقت بنعلي بضع ريشات من ريش النسر الطائر » ثم مد يده إلى نعله كأنما يتناول ريشة عالقة بها وظل ينفخها في الهواء ، فازداد غيظ الكونت وعظم ضجره ، وقال له : تنح عن طريقي يا سيدي ، فاني أريد الدخول ، وظل يدفعه أمامه حتى بلغا الباب فترامى سيرانو على الأرض ومد ساقه في مدخل الباب وكشف عنها وقال له : انظر يا سيدي إلى ساقي لقد عضني فيها « الدب الأكبر » عضة مؤلمة لا يزال أثرها باقياً حتى الآن ولقد وقع لي ذلك في الساعة التي كان يطاردني فيها « السماك الرامح » برمحه المثلث الأسنة ، وما أفلت من مخالب الدب حتى سقطت فوق حمة العقرب فلدغتني في ساقي الثانية ، وانظر ها هو أثرها ، ومد ساقه الثانية أيضاً فاستحال على الكونت المرور ، ثم قال له : وأؤكد لك يا سيدي أنني لو عصرت أنفي الآن لجرى منه سيل دافق يغمر هذا الميدان جميعه ، أتدري لماذا ؟ قال : لا ، قال : لأني سقطت بعد ذلك في نهر « المجرة » فظللت أسبح فيه حتى أعياني الجهد ، ولولا أن « الدب الأصغر » مد يده إليّ فأنقذني لما نجوت ، واعلم أنه لم يفعل ذلك تكرمة منه وتفضلا بل كان يريد أن يعضني أيضاً كما عضني أخوه من قبله فعجز عن ذلك لأن أسنانه صغيرة جداً كأنها حبب الكأس فاستطعت

الإفلات منه وانحدرت إلى « القيثارة » فاخترمتها وعلقت بيدي بوتر من أوتارها فانقطع وظل معي حتى الآن وسأريكه إذا أردت ، ومد يده إلى جيبه كأنما يريد أن يخرجه ، ثم قال : لا لزوم لذلك الآن ، فقد عزمت على أن أؤلف كتاباً أسميه « سياحة في القمر [1] » أدوّن فيه هذه الرحلة جميعها وسأرصع دفتيه بالشهب الصغيرة التي جمعتها في معطفي من غابات السماء .

فاشتد جزع الكونت ونفد صبرهُ وقال له : ثم ماذا ؟ قال : أظن أنك تريد أن تعرف الآن شيئاً من أخبار سكان ذلك الكوكب الذي عشت فيه حقبة من الزمان ... فقاطعه الكونت وقال : لا ، لا أريد أن أعرف شيئاً فدعني أمر ، فان بيني وبين أصحاب هذا المنزل ميعاداً لا بد لي من الوفاء به ؛ قال : ولكنك وقد عرفت كيف نزلت من السماء لا بد لك أن تعرف كيف صعدت اليها ، إنني صعدت إليها بطريقة عجيبة جداً أنا الذي اخترعتها وابتكرتها فلم ألجأ إلى النسر البليدي كما فعل « رجيومونتانوس » ولا إلى الحمامة البلهاء كما فعل « أركيتاس » وكان دي جيش مولعاً بعض الولع بعلم الفلك ، ولوع الكثير من الأشراف والنبلاء الذين يزاولون بعض الفنون تجملا وتلهياً دون أن يدركوا من أسرارها شيئاً . فقال في نفسه : إن الرجل وإن كان مجنوناً فهو واسع الاطلاع غزير المادة . واستهواه حديثه فبدأ ينصب له واستمر سيرانو يقول :

ولم أقلد أحداً من الطيارين الذين سبقوني بل خطرت على بالي ست طرق لاختراق أطباق السموات ، لم تخطر على بال أحد من فحول علم الفلك ونوابغه ، فدهش الكونت وقال : ست طرق ؟ !

---

(١) اسم كتاب لسيرانو دي برجراك كما ورد في ترجمة حياته .

قال نعم ، هل تعدني أن تصغي إليّ حتى أسردها عليك جميعها ؟ قال : نعم أعدك بذلك فتكلم وأوجز ، قال : تعال إذن معي إلى هذا المقعد لنجلس عليه قليلا فقد انتقض عليّ جرحي الذي في ساقي ؛ ثم جذبه من ردائه فأجلسه بجانبه وظل يقول له :

أولها : أن أتجرد من ثيابي وأدير حول جسمي بضع قارورات بلورية ملأى بقطر الندى ، ثم أقف تحت الشمس فتمد إليّ خيوط أشعتها فتجذبني إليها ، كما هو شأنها في امتصاص الأبخرة والأنداء حين تشرق عليها .

وثانيها : أن أعمد إلى صندوق كبير ، فأفرغه من الهواء بواسطة حرارة المرايا المضلعة ، ثم أملؤه بالأهوية المتصاعدة وأجلس فيه فيصعد إلى العلا .

وثالثها : أن أصنع جرادة من الصلب ذات أذرع كبيرة وأضع في جوفها باروداً ملتهباً ثم أمتطيها ؛ فكلما فرقع البارود اندفعت صاعدة في جو السماء .

ورابعها : أن أملأ « بالونا » بالدخان ، والدخان كما تعلم يطلب العلا دائما فأركبه فيصعد بي حيث أشاء .

وخامسها : أن أدهن نفسي بنخاع الثور ، فاذا دنا كوكب « فيبيه » أي القمر من الأرض ، وهو كما تعلم مولع بامتصاص هذا الذهن امتصني معه .

وسادسها : أن أركب لوحاً من الحديد ، وأمسك بيدي قطعة من المغناطيس وأقذفها في الهواء ، والمغناطيس كما تعلم يجذب الحديد ، فاذا سقطت تلقفتها ، وقذفتها مرة أخرى وهكذا حتى

أصل إلى غايتي .

فأعجب الكونت بذكائه وفطنته وقال له : حسبك ذلك وائذن لي بالذهاب ، وتأهب للقيام ، فانزعج سيرانو وتشبث بردائه وقال له : ولكن فاتك يا سيدي أن تسألني عن الطريقة التي اخترتها من بين تلك الطرق واعتمدت عليها في هذه الرحلة القمرية ؟ قال : قل لي وأسرع . قال : لم أختر واحدة منها ، بل إخترت طريقة سابعة هي أغرب الجميع وأعجبها ، قال : قل ما هي وعجل ، قال : أراهن أنك لا تعرفها ولو فكرت فيها ثلاثة أيام ، فضاق صدر الكونت وقال : أعترف لك أني عاجز عن معرفتها ، فقل لي ما هي فقد ضقت بك ذرعاً ؟ وثار من مكانه غاضباً ، فوثب سيرانو واعترض سبيله وقال له : ها هي فاستمعها ، ثم مد ذراعيه إلى الأمام وظل يلوح بهما في الهواء كما يفعل السابح على سطح الماء ويقول : هو ، هو ، هو ، فدهش الكونت وقال : ما هذا ؟ قال : الموج المتلاطم ، قال : لا أفهم ما تريد ، قال : المد والجزر ، قال : لا أفهم شيئاً فقل ماذا تريد ؟ قال : بما أني أعلم أن القمر هو السبب في حركة المد والجزر فقد نمت على ضفة النهر ساعة المد حتى غمرني الماء ، منتظراً ساعة الجزر ، وما هي إلا لحظة حتى دنا القمر من اللجة فجذبها وجذبني معها ولم أزل صاعداً أخترق حجب السماء حجاباً حتى .. ومد صوته بها طويلاً فقال له الكونت بضجر شديد : حتى ماذا ؟ وكان سيرانو قد سمع جلبة القوم وهم مقبلون من داخل المنزل فعلم أن الأمر قد انتهى ، فقال له : حتى تمت حفلة القران ، وألقى عنه رداءه ورفع قبعته عن رأسه فظهر وجهه وفي مقدمته ذلك الأنف الضخم العظيم ، فانتفض الكونت وقال : سيرانو ! ثم التفت وراءه فرأى العروسين مقبلين في ملابس

عرسهما ، وأمامهما الشموع ووراءهما القسيس والخدم ، ففهم كل شيء وصاح : ماذا أرى ؟ يخيل إليّ أني قد جننت ، وأخذ يدور بعينيه ههنا وههنا كالذاهل المخبول ثم مشى نحو روكسان فانحنى بين يديها وقال : لله درك يا سيدتي ! إنك من أمهر الماكرات ، ثم التفت إلى سيرانو وقال له :

أقدم إليك تهنئتي أيها المخترع العظيم على تفوّقك ونبوغك ، وسيكون مؤلفك الجليل أعظم مؤلف نافع للمجتمع ، ولا تنس أن ترصّع دفتيه بتلك الشهب الذهبية التي صدتها في معطفك من غابات السماء ، قال : سأفعل إن شاء الله يا سيدي وسأقدم الكتاب إليك تذكاراً لهذه المهزلة البديعة ؛ فأعرض عنه والتفت إلى القسيس وقال متهكماً : لقد أديت الرسالة أيها الشيخ أحسن تأدية فلك الشكر على ذلك ، فلم يفهم القسيس غرضه وقال له : لعلك راض عني يا مولاي ؟ قال : نعم كل الرضا ، ثم أخذ يخطو في تلك الساعة خطوات واسعة سريعة ثم وقف ورفع رأسه بعظمة وخيلاء ، وقد لبس وجهه تلك السحنة العسكرية القاسية ، ونظر إلى روكسان نظرة جامدة مخيفة وقال لها بصوت قاس شديد : ودّعي زوجك يا سيدتي ، فذعرت واصفر لونها وقالت : لماذا ؟ قال : لأن فرقة الحرس ستسافر الآن مع بقية فرق الجيش ، وأخرج من ثنايا قميصه ذلك الكتاب الذي كان قد فصله عن بقية الكتب منذ ساعة ونادى كرستيان بصوت هائل رنان ، فلباه ووقف بين يديه فقال له : خذ هذا الكتاب وسلمه بنفسك إلى قائد فرقتك ، فقالت روكسان : ولكنك كنت وعدتني أن تتخلف هذه الفرقة ... فقاطعها وقال لها : قد غيرت رأيي عندما علمت أنك إنما كنت تكيدين لي لا لابن عمك سيرانو ؛ فصمتت وقد نال من نفسها منالاً شديداً وملأ قلبها حزناً وشجناً ، إنها لم تكد

تلمس بفمها شفة الكأس حتى انتزعت من يدها ، ثم ترامت بين ذراعي زوجها ، وظلت تقبله وتبكي بكاء مراً ، فضمها إلى صدره وظل يبكي لبكائها فصاح الكونت : حسبكما ليلة الزفاف ولعلها قريبة جداً ، ثم تركهما وانصرف ليصدر بعض أوامره إلى الجيش وهو يرمي سيرانو بنظرات هائلة لو رمى بها أحداً غيره لصعق لها ، على أن سيرانو كان في شاغل عنه بما كان يعالجه في أعماق نفسه من الألم الممض عند رؤية تلك القبلات الجميلات المتبادلة بين هذين العاشقين الجميلين ، وظل يقول بينه وبين نفسه : يا له من سعيد ! ويا لي من شقي ! كلانا يحبها ، وكلانا يموت وجداً بها ، ولكنه استطاع لأنه جميل أن يلثمها ويقبلها ، ولم أستطع لأني دميم أن أنال منها شيئاً في حياتي ، أكثر من أن أقبل طرف الغصن الذي كانت واضعة يدها على طرفه الآخر من حيث لا تدري ، وها هو ذا الآن يضمها إلى صدره ضمة الوداع ويتزود منها الزاد الذي يعينه على سفره الطويل وشقته البعيدة ، أما أنا فكل زادي منها هذه الدمعة التي تترقرق في عيني ولا أستطيع إرسالها مخافة أن تراها .

وهنا دقت طبول الجيش مؤذنة بالرحيل فدنا منهما سيرانو ، وقال لكرستيان : حسبك ذلك الآن فهيا بنا ، فلم ينتبه كرستيان إليه واستمر في شأنه فظل يجذبه من يده ويقول : هيا بنا فقد دقت طبول الرحيل ، فقال : أمهلني قليلاً يا سيرانو فإنك لا تعلم ما يصنع الفراق بقلوب العاشقين ، قال : أعلم ذلك حق العلم فهيا بنا ، فالتفتت إليه روكسان وقالت له : إني أكل إليك أمره يا سيرانو فعدني ألا يهدد حياته شيء ، قال : سأجتهد إن شاء الله تعالى ، قالت : وعدني أن يكون حذراً متيقظاً ؛ قال : سأحاول ذلك ، قالت : وأن لا يتألم من البرد والصقيع في تلك الأجواء

الثلجية الباردة ، قال : سأفعل ما في وسعي ، قالت : وأن يكون لي وفياً مخلصاً ، قال : أظنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك ، قالت : وأن يكتب لي دائماً ، قال : أما هذه فأعدك بها .

الفصل الرابع

الميـــدان

بدأ الفجر يرسل أشعته الأولى إلى جوانب الميدان ، وكانت فرقة الحرس نائمة في سفح تل مرتفع يحميها ويحمي بموقعها ، وكانت قد مرت على الجنود ثلاثة أيام لم يذوقوا طعاماً ، ولم يتبلغوا بشيء حتى ساءت حالهم وشحبت ألوانهم ، وخارت قواهم ، فاستيقظ أحدهم وهو يتضور جوعاً ويقول : آه ما أشد ألمي ؛ فاستيقظ بعض رفاقه على صوت أنينه وظلوا يتضورون مثله ، فشعر قائدهم بحركتهم ، وكان واقفاً على قمة التل ليله كله يتولى حراسة الموقع بنفسه ؛ فانحدر إليهم وقلب نظره في وجوههم ، ثم قال لهم : ناموا يا أولادي فالنهار لا يزال بعيداً ، فقال له أحدهم : وكيف لنا بالنوم وقد أقلق الجوع مضاجعنا وحال بيننا وبين الغمض ، فنكس رأسه وصمت ، وقد أضمر بين جنبيه لوعة لا يعلم إلا الله مكانها من أعماق نفسه .

وإنهم لكذلك اذ سمعوا من ناحية العدو بضع طلقات نارية فثاروا جميعاً وابتدروا سيوفهم فجردوها من غمادها فصاح فيهم « لبريه » : هدئوا روعكم يا إخواني والبثوا في أماكنكم فإن سيرانو قد عاد من رحلته التي اعتاد أن يرحلها سحر كل ليلة وأظن أن الأعداء قد لمحوا شبحه من بعيد فأطلقوا عليه بعض المقذوفات وأرجو أن لا يكون قد أصابه منها شيء ، فسكن جأشهم وعادوا إلى مضاجعهم ، وما هي إلا هنيهة حتى ظهر سيرانو

على قمة التل فهرع إليه صديقه لبريه متلهفاً ، وقال له ؛ هل جرحت ، قال : لا ، لأنهم يخطئونني دائماً ، قال : ولكني أخاف عليك إن أخطأوك اليوم أن يصيبوك غداً ، قال : وماذا أصنع ، وقد وعدتها عنه أن يكتب إليها كثيراً ، ولا بد لي من الوفاء بعهدي . قال : إنك لم تخبرني حتى الآن عن الطريقة التي اتخذتها للتنكر والتواري عن عيون الأعداء وأرصادهم ؛ قال : لقد اهتديت من زمن إلى مسلك خفي وراء هذا الجبل لا تناله أنظارهم ولا تمتد إليه خواطرهم ، فأنا أسلكه برفق وحذر حتى أصل إلى الموضع الذي أجد فيه من يتولى توصيل الكتاب إلى روكسان ، قال : إذن يمكنك أن تأتينا كل ليلة بشيء من القوت نسد به جوعتنا ؟ قال : ليتني أستطيع ذلك ، بل ليتني أستطيع أن أقوت نفسي ، إننا جئنا هنا لنحاصر الأعداء في أراس فأصبحنا محصورين خارجها ، وقد أحاط بنا جيش العدو من كل جانب وأخذ علينا شعاب الأرض فلا سبيل لنا إلى أي شيء حتى إلى القوت ، وأطرق برأسه هنيهة ، ثم قال : ولقد وقفت الليلة أثناء عودتي على حركة في جيش العدو هائلة جداً ، ويخيل إليّ أن الغد يحمل في طياته أعظم حادثة مرت بنا في هذا الميدان فإما نجا الجيش الفرنسي من مخالب الجوع أو هلك من أوله إلى آخره .

فاصفر وجه لبريه وقال له : قل لي ماذا رأيت ؟ قال : لا أستطيع لأني لست على يقين ، فدعني وشأني وأستودعك الله ، قال : إلى أين ؟ قال : إلى خيمتي لأكتب إلى روكسان رسالة الغد ، وربما كانت الرسالة الأخيرة ، ثم مشى إلى خيمته ولبريه يتبعه بنظراته الحزينة الدامعة ، ويقول : وارحمتاه لك أيها الصديق المسكين .

الوطن

نشرت الشمس رايتها البيضاء في آفاق السماء ، فاستيقظ الجنود من نومهم يتألمون من الجوع ويترنحون ضعفاً وإعياء فتقدم نحوهم قائدهم. وحاول أن يعزيهم ويهون عليهم آلامهم ، وهو إلى التعزية والتهوين أحوج منهم ، فلم يأبهوا له وأخذوا يرمونه بنظرات السخط والغضب ، فأمرهم أن يتقلدوا أسلحتهم ويأخذوا أهبتهم فأعرضوا عنه . ولم يحفلوا به ومشى بعضهم إلى بعض يتهامسون ويتغامزون ومرت بخاطرهم وجرت على أفواههم كلمة « الثورة » ، وهي الكلمة الماثلة التي تأتي دائماً في ترتيب قاموس الحياة بعد كلمة الجوع ، فانتفض القائد واستطير رعباً وفزعاً ، وهرع إلى خيمة سيرانو فهتف به ، فلباه ، فقال له : أدرك الجنود يا سيرانو ، فقد نال منهم اليأس أو كاد ، حتى نطقوا بكلمة الثورة المخيفة ، فخرج إليهم سيرانو وأخذ يخطو بينهم خطوات هادئة مطمئنة ويسارقهم من حين إلى حين نظرات العتب والتأنيب ، حتى سكنوا وهدأوا وغضوا أبصارهم حياء منه وخجلاً ، ثم أخذ يمازحهم ويداعبهم ويتفنن في مفاكهتهم ومطايبتهم حتى سرى عنهم بعض ما بهم . فقال له أحدهم : أما في هموم الحياة وآلامها ما يشغلك عن الفكاهة يا سيرانو ؟ قال : لا ؛ ولو أن لامرىء أن يختار لنفسه الميتة التي يريدها لاخترت لنفسي أن أموت في ليلة صافية الأديم متلألئة النجوم تحت قبة السماء بأجمل سلاح ، وهو السيف ، وفي أجمل بقعة ، وهي الميدان . وأن يكون آخر ما أنطق به ملحة لطيفة يتحرك بها فمي في الساعة التي يلمس فيها ذباب السيف قلبي .

ثم هتف « يابراتراندو » فلباه جندي شيخ قد أوفى على الستين

من عمره فقال له : أخرج نايك من كيسك وغن لهؤلاء الأطفال الشرهين تلك الأغنية الجاسكونية التي تذكرهم ببلادهم ومعاهد طفولتهم ومغاني صباهم فأخذ الرجل يغنيها ويجيد في توقيعها وسيرانو يغني معه ، فأطرق الجنود برؤوسهم ، وقد تمثلت لهم بلادهم كأنها حاضرة بين أيديهم يرون جبالها ووديانها وغاباتها وأحراشها ويرون الرعاة السمر بقلانسهم الحمراء يسوقون أمامهم قطعان البقر والأغنام والفتيات في أثوابهن القصيرة حاملات جرارهن على رؤوسهن وهن ذاهبات إلى الغدران أو صادرات عنها فأخذت مدامعهم تنحدر على خدودهم فيمسحونها بأطراف أرديتهم في صمت وسكون .

فقال القائد لسيرانو : إنك تهيج أشجانهم وتستثير آلامهم بهذه الذكرى ، قال : فليبكوا وليتألموا علهم يتلهون قليلاً عن آلام الجوع التي يكابدونها ، وليت جميع آلامهم تنتقل من أمعائهم إلى قلوبهم فيستريحوا ، قال : إني أخاف على حميتهم أن تفتر وتتضعضع ، قال : لا يخيفك ذلك يا سيدي فإن بكاءهم على وطنهم الصغير لا ينسيهم واجبهم لوطنهم الكبير ؛ وإن أردت أن تكون على بينة من ذلك فانظر ماذا أصنع ، ثم أشار إشارة خفية إلى حامل الطبل أن يدق طبله دقة الهجوم ففعل ، فانتفض الجنود من أماكنهم وثاروا إلى أسلحتهم يتقلدونها فقال للقائد : انظر يا سيدي إلى هؤلاء الأطفال الباكين كيف استحالوا في لحظة واحدة إلى ليوث كواسر عندما سمعوا نداء وطنهم ، ثم التفت إليهم فهدأ روعهم وقال : لا عدمتكم فرنسا يا أبناء جاسكونيا .

وإنهم لكذلك إذ هتف الحارس القائم على رأس التل باسم الكونت دي جيش رئيس أركان الحرب ، فما سمع الجنود اسمه

حتى وجموا وامتعضوا وانتشر على وجوههم الألم والانقباض وأخذ بعضهم يقول لبعض : ما أثقل ظله ! ما أسمج وجهه ! إنه فاسد الذوق ، يلبس الشفوف الرقيقة فوق الدرع ويلبس الحذاء اللامع في ميدان الحرب ، ما أكثر تملقه ! إنه لم ينجح في حياته إلا من طريق المداهنة ، حسبه أنه صهر ذلك الرجل الذي يأكل في اليوم أربع أكلات في الوقت الذي لا نكاد نظفر فيه بأكلة واحدة ، في الأربعة الأيام ، فانتهرهم قائدهم « كاربون دي كاستل » وقد سمع حديثهم وقال لهم :

ولكن لا تنسوا أنه جاسكوني مثلكم ، فقال له أحدهم : نعم ، ولكنه جاسكوني عاقل ، وما خلق الجاسكوني إلا ليكون مجنوناً ، فقال سيرانو : نصيحتي إليكم يا إخواني أن تتجلدوا أمامه وتكتموا في أعماق نفوسكم همومكم وآلامكم ولا تسمحوا له بالشماتة بكم ، أما أنا فسأجلس هناك قليلاً على هذه الصخرة لاقرأ في كتاب « دي كارت » حتى ينصرف ذلك الرجل لشأنه . فأسرعوا بمسح آثار الدموع من خدودهم واستداروا حلقات صغيرة وأخذوا يلعبون الورق ويتضاحكون كأنهم لا يشكون هماً ولا ألماً ، فدخل الكونت دي جيش متجهم الوجه مكفهر الجبين ، وكان قد سمع آخر حديثهم وقرأ على وجوههم مـا يضمرون له من البغضاء بين جوانحهم فصاح فيهم : لقد سمعت بأذني بعض ما تقولون أيها الأشقياء ، فعلمت أنكم لا تتركون فرصة تمر بكم دون أن تتناولوني بألسنتكم وتنالون مني ، فتسمونني تارة متملقاً وأخرى منافقاً ، وتعيبون على حسن هندامي ونظافة ملبسي ؛ كأنما ترون أن الجاسكوني لا يكون صحيح النسب إلا إذا تصعلك وتشعث وأصبح من البائسين المفلوكين .

وكان يتكلم والجنود مقبلون على ألعابهم يتشاغلون بها كأنهم لا يسمعون ما يقول، فقال لهم وهو يشير إلى قائدهم : ولقد كنت أريد أن آمر قائدكم بمعاقبتكم ولكنني ... فقاطعه القائد وقال له : لو أنك فعلت ذلك يا سيدي لما أذعنت لأمرك ؛ فاصفر وجه الكونت وقال : ولماذا ؟ قال : لأنني دفعت للقيادة العامة ضريبة الرياسة وهي تجعلني صاحب السلطان المطلق على فرقتي لا ينازعني فيها منازع ولا أخضع في أمرها لإرادة غير إرادتي ، وبعد فليس من الرأي أن يحاسب القائد جنوده على الحب والبغض والرضا والسخط ، أو أن يطلب إليهم شيئاً سوى الطاعة والإذعان لأوامره ونواهيه ، فوجم الكونت ولم يستطع أن يقول شيئاً ، ولكنه التفت إلى الجنود وقال لهم : إني أحتقركم جميعاً أيها السفهاء الثرثارون وأحتقر مطاعنكم ومغامزكم لأنني أعرف مكانة نفسي ، كما أن الناس جميعاً يعرفونها وأعلم أني جندي شريف مقدام لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقي ، وقد رأيتم جميعاً موقفي العظيم في « بابوم » الليلة الماضية وهجومي بنفسي ثلاث مرات على رجال الكونت « دي بكوا » حتى ألجأتهم إلى الهزيمة التي تعرفونها .

وكان سيرانو لا يزال مكباً على كتابه يقرأ فيه فقال له وهو مطرق برأسه لا يرفعه : وما رأيك في وشاحك الأبيض يا سيدي ؟ فدهش الكونت واصفر وجهه وقال له : ومن أين لك علم بذلك ؟ نعم وقع لي ليلة أمس أنني بينما كنت أجول في أنحاء الميدان لأجمع رجالي استعداداً للهجوم الثالث إذ لمحت فصيلة صغيرة من فصائل جيش العدو تتقهقر على مقربة مني فطمعت فيها واندفعت وراءها اندفاع اليائس المستقتل لا ألوي على شيء مما ورائي ، فما هو إلا أن أدركتها وأعملت سيفي في ساقتها حتى رأيتني بعد قليل

وسط خطوط جيش العدو الأكبر وإذا الخطر محدق بي من كل جانب ، فخفت الأسر لا من أجل نفسي بل من أجل الجيش الذي أقوده وأدير حركاته وكان الظلام حالكاً جداً فلا ينم على شيء سوى ردائي الأبيض فأسرعت بإلقائه إلى الأرض لأستطيع آن أتوارى عن عيون الأعداء فيخفى عليهم مكاني ، ثم انسللت من بينهم وغادرت صفوفهم آمناً مطمئناً ، وما هو إلا أن بلغت مأمني حتى جمعت رجالي وكررت عليهم كرة هائلة فكانت الواقعة الثالثة التي أحرزنا فيها ذلك النصر العظيم ، فماذا تقولون في هذه الحيلة الغريبة ؟ وكان الجنود لا يزالون مكبين على ألعابهم لا يرفعون إليه أنظارهم ، يستمعون القصة وكأنهم لا يسمعونها حتى انتهى منها ؛ فأمسكوا عن اللعب وشخصوا بأبصارهم إلى سيرانو وليروا ماذا يقول ، فقال له : إن هنري الرابع يا سيدي ، ما كان يرضى لنفسه ، مهما كان الخطر المحدق به عظيماً ، أن يتنازل عن ريشته البيضاء لأعدائه ..! فتهلل الجنود فرحاً وانبسطت أساريرهم ، وعادوا إلى جلبتهم وضوضائهم ، فقال له الكونت : ذلك لا يعنيني ، وإنما الذي يعنيني أنني قد حقنت دمي ، واستبقيت حياتي لوطني ، وسلبت من العدو يوماً كان يريد أن يعده من أيام مجده وفخاره ، قال: أما الفكرة فبديعة جداً لا أرتاب فيها ، ولكن الذي أعلمه أن الجندي ما خلق إلا ليموت ، فمن العار أن يخسر هذا الشرف بأي ثمن كان ، وأقسم لك يا سيدي أنني لو كنت حاضراً معك في تلك الساعة ما هان علي أن أرى وشاحك العظيم في يد أعدائك دون أن أقاتل عنه ، حتى أفتديه ولو بحياتي ، قال : قسم ضائع لا قيمة له لأنك لم تكن معي ، قال : بل كنت معك يا سيدي ، وقاتلت عن وشاحك حتى استنقذته من يد أعدائك وها هو ذا ، ومد يده إلى جيبه فاستخرج

منه الوشاح وألقى به بين يديه ، فاربد وجه الكونت وانتفض غيظاً وألقى على سيرانو وعلى الجنود نظرة شزراء ملتهبة وقال لهم : أتدرون ماذا أصنع الآن بهذا الوشاح ؟ قالوا : لا ، قال : سألوح به في الجو تلويحاً لا يسركم ولا يهنؤكم ؛ وصعد إلى التل ولوّح به ثلاث مرات في الهواء والجنود يعجبون لأمره ولا يدرون ماذا يريد ثم نزل وهو يقول : أما وقد انقضى كل شيء فسأفضي إليكم بسر من أسرار الحرب ما زلت أكتمه في صدري حتّى حان وقته فاستمعوه :

قد اتفقت منذ أيام مع جاسوس من جواسيس العدو على أن يكون عوناً لي على قومه فيما أريد ، وأن يكون مخلصاً لي مؤتمراً بأمري ... فقاطعه سيرانو وقال له : ولكنك تصطنع رجلاً خائناً يا مولاي ، قال : ومن أصطنع إن لم أصطنع الخائنين ؟ فهو يدلني على مقاتل قومه وعوراتهم ومكامن أسرارهم من حيث لا يدلهم على شيء إلا على ما أريد أن يدلهم عليه ، أي أنه يخدعهم ويضللهم من حيث يظنون أنه ينصحهم ويصدقهم وقد جمع قائدنا العام مجلسه الحربي صباح أمس ونظر في كارثة الجوع التي نزلت بنا ، فاستقر الرأي على أن يسافر هو بنفسه خلسة على رأس فرقتين من فرق الجيش إلى « أورلنس » ليجلب منهـــا المؤونة والذخيرة فسافر من حيث لا يشعر العدو بمكانه وترك بقية الجيش هدفاً للهجوم العام ، فقال له كاربون : أخاف أن يعلم العدو بذلك ، فيكون الخطب عظيماً ، قال : قد علم فعلاً وهو يتأهب منذ الأمس لمهاجمتنا ، فهمس سيرانو في أذن لبريه : ذلك ما حدثتك عنه صباح اليوم ، واستمر الكونت يقول : وقد بعثوا جاسوسهم هذا ليتفقد لهم خطوط جيشنا ويدلهم على أضعف نقطة فيه ليهاجموها ، فاتفقت معه على أن يدلهم على

النقطة التي أريدها وأعطيه الإشارة منها ، مضمراً في نفسي أن أغريهم بالهجوم على أقوى فرقة في الجيش لتستطيع مشاغلتهم ومطاولتهم زمناً طويلاً حتى يتمكن قائدنا من العودة بجيشه إلى مركزه آمناً سالماً ، ولما كانت فرقتكم هي أقوى فرق الجيش وأمضاها عزماً ، وأصلبها عوداً ، فقد رأيت أن أجعلها هدف ذلك الهجوم ، وإن كنت أعلم أنها ستموت عن آخرها ، وقد كنت أمرت ذلك الجاسوس أن يقف وراء هذا التل لينتظر إشارتي فيذهب بها ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أعطيته إياها بخفقة ذلك الوشاح فاستعدوا للموت فقد انقضى كل شيء .

فقال له سيرانو : أهذا كل انتقامك يا سيدي ؟ إنك قد أحسنت إلينا من حيث أردت إساءتنا ، فالجاسكوني لا يخاف الموت بل يخاف الحياة مع الذل والعار ؛ قال ؛ ما شككت في شجاعتك قط يا سيرانو فإن من يقاتل مائة رجل وحده فيغلبهم لا يبالي بخطر من الأخطار مهما عظم شأنه ! ثم التفت إلى الجنود وقال لهم : لا أكتمكم أنني كنت أستطيع أن أختار لاستقبال هذه النازلة فرقة أقل شجاعة من فرقتكم لو أنني أحببتكم ورضيت عنكم وحمدت عشرتكم وسيرتكم ، أما الآن فقد استطعت بعمل واحد أن أؤدي واجبي وأشفي غليلي ، فقال له سيرانو : وشيء آخر يا سيدي ، قال : وما هو ؟ فمشى نحوه خطوة وأسر في أذنه : أن تترمل روكسان ، فارتعد الكونت . ونكس رأسه وتسلل من مكانه دون أن يقول شيئاً .

فالتفت سيرانو إلى الجنود وقال لهم : لقد آن أيها الأصدقاء أن نضع على شعار جاسكونيا ذي الألوان الستة لوناً دموياً أحمر كان ينقصه ليكون أجمل شعار في العالم ، فكونوا عند ظني وظن

فرنسا بكم ، واعلموا أنه ما من ميتة في العالم أفخر ولا أمجد من هذه الميتة التي ستموتونها اليوم ؛ فهتفوا جميعاً بحياة جاسكونيا وحياة فرنسا وابتدروا أسلحتهم يشحذونها ويصقلونها .

الدمعــة

والتفت سيرانو فرأى كرستيان واقفاً وراءه مطرقاً جامداً ، وقد انتشرت على وجهه غبرة سوداء من الحزن فتقدم نحوه وقال له : أخائف أنت يا كرستيان ؟ قال : بل حزين لأني سأفارقها . فانتفض سيرانو عند سماع كلمة الفراق ووضع يده على قلبه ورفع عينيه إلى السماء ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، وصمت هنيهة ثم قال له : هون عليك الأمر يا صديقي فرحمة الله أوسع من أن تضيق بنا ، فقال : كنت أُريد على الأقل أن أكتب لها كتاب وداع أبثها فيه خواطر نفسي ولواعجها في ساعتي الأخيرة ، قال : : لقد حدثتني نفسي ليلة الأمس — ولا أعلم كيف كان ذلك — بهذا المصير الذي سنصير إليه الآن وأن هذا اليوم هو آخر أيامنا على وجه الأرض فكتبت إليها عن لسانك الكتاب الذي تريده وسأبعث به إليها الآن ، قال : أرنيه ، قال : هاهو ذا ، وأخرج الكتاب من جيبه فأعطاه إياه ، فأخذ يقرؤه حتى وصل إلى سطر من سطوره الأخيرة فتوقف ذاهلاً مدهوشاً وقال : غريب جداً ! ما هذا الذي أرى ! قال : ماذا ؟ قال : نقطة بيضاء على الورق كأنها دمعة . فاختطف سيرانو الكتاب من يده وقال : أرني ، وظل يتأمل فيها مصعداً منحدراً ، كأنه يفتش عن النقطة فلا يراها ، فقال له كرستيان : إنها دمعة يا سيرانو ما في ذلك ريب ولا شك . فهل كنت تبكي ؟ فانتفض

إلا أنه تجلد وتماسك وقال : نعم ؛ قال : وما الذي أبكاك ؟ قال : ذلك شأن الشعراء دائماً ، لا يتناولون موضوعاً من الموضوعات المحزنة للكتابة فيه عن لسان غيرهم ، حتى يتأثروا به كأنهم أبطاله واصحاب الشأن فيه ، ولقد بدأت في كتابة هذا الكتاب وأنت ماثل في ذهني لا تفارقه ، فما زال يمتد بي الخيال ويطير بي في أجوائه حتى تمثل لي أنني أنا الحزين المتألم والمفارق المفجوع ؛ وأن الذي أصفه إنما هي هموم نفسي وآلامها ؛ فانحدرت من عيني بالرغم مني هذه الدمعة التي تراها ، فنظر إليه كرستيان نظرة غريبة واختطف الكتاب من يده وقال له : دعه معي الآن ؛ ثم طواه ووضعه في ثنايا قميصه وانصرف .

جواز المرور

وقامت في هذه اللحظة ضجة في المعسكر ، وسمعت أجراس مركبة قادمة من بعيد وصائح يصيح من رجال الحرس بصوت غليظ أجش من القادم ؟ فصعد سيرانو وكرستيان إلى التل لينظروا ماذا جرى فرأوا مركبة مقفلة جميلة تحمل شارة من شارات الشرف ويجلس بجانب حوذيها غلامان حسنا الزي والهندام فما شك الجميع في أنها قادمة من باريس وأن راكبها رسول من قبل الملك يحمل أمراً من أوامره ، فاصطفوا صفين متقابلين وسكنوا سكوناً عميقاً لا حس فيه ولا حركة ، حتى وقفت المركبة على مقربة منهم فأتلعوا إليها أعناقهم وشخصوا بأبصارهم لينظروا من القادم ، ثم فتح بابها فإذا سيدة باهرة الجمال مشرقة الطلعة قد وثبت منها وثبة الجوذر من خميلته فصاح سيرانو وكرستيان معاً بصوت واحد : روكسان ! وكانت كما يقولون ، فصعدت

إلى التل بخفة ورشاقة حتى بلغت قمته وقالت : صباح الخير أيها الأصدقاء ، لعلكم جميعاً بخير ؛ فرفع الجنود قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم وعقدوا حولها نطاقاً منهم ومن أنظارهم وظلوا باهتين لمرآها ذاهلين ، وكأنما أدركهم الخجل منها لرثاثة ملابسهم وتشعث هيئاتهم فظلوا يمسحون لحاهم ويفتلون شواربهم ويقلبون النظر في أعطافهم ليروا هل لصق بها او خالطها ما تقذى به عيون السيدات الجميلات ، ومرت بهم روكسان في مواقفهم واحداً فواحداً بابتسامتها اللامعة المتلألئة وكلماتها العذبة الجميلة ، حتى بلغت موقف كرستيان فألقت نفسها بين ذراعيه ، فقال لها وهو ذاهل مدهوش : ما الذي جاء بك يا روكسان ؟ قالت : أنت الذي جئت بي يا زوجي العزيز .

وكان سيرانو واقفاً منذ رآها وراء إحدى الربوات موقف الذاهل المشدوه ، يرعد ويضطرب ويغالب في نفسه ثورة هائلة تتوثب نارها بين أضالعه ، ثم ما لبث أن سمع صوتها يناديه فانتبه من غشيته وتقدم نحوها وانحنى بين يديها فابتسمت له وصافحته مصافحة طويلة وقالت له : لعلك بخير يا ابن عمي ؛ قال : نعم وأشكر لك تفضلك بزيارتنا وإن كنت أرجو أن تكون زيارة قصيرة . قالت : لماذا ! قال : لأننا في ميدان حرب وأخشى أن يصيبك من شرها شيء ، قالت : بل سأبقى معكم أطول مما تظنون فأعدّوا لي مقعداً أجلس عليه ، فابتدر الجنود تلبية أمرها ولم يبق بينهم حامل طبل أو صاحب صندوق إلا قدمه إليها ، فجلست وهي تقول : ما أطول المسافة بين باريس وأراس ، لقد كنت أظنها أقصر من ذلك ، ولقد مررت في طريقي ببلاد شملها الخراب والدمار ، ورأيت بعيني منظر الجائعين والعارين والمتألمين والصارخين وما كنت أحسب أن الحرب تنال من الإنسانية

هذا المنال العظيم ، والحق أقول يا أصدقائي إن العاطفة التي جاءت بي إلى هنا أجمل وأرق من العاطفة التي جاءت بكم ، فكم بين من يأتي ليقبل حبيبته ، ومن يأتي ليقتل عدوه ، والتفتت إلى كرستيان وقالت له : أليس كذلك يا زوجي العزيز ؟ قال : له . فقال لها سيرانو : ولكن كيف استطعت اختراق خطوط العدو ، وتجشم هذه المخاطر كلها ؟

قالت : لقد كان ذلك سهلاً جداً يا ابن عمي ، واسمحوا لي أيها الأصدقاء أن أقول لكم ، إن أعداءكم الأسبانيين قوم ظرفاء أرقاء لم تسمح لهم شهامتهم وشرف نفوسهم ، أن يطلقوا النار على امرأة عزلاء ، فلقد كنت كلما مررت بحارس من حراسهم فتحت نافذة مركبتي وأشرفت عليه وابتسمت في وجهه ابتسامة لطيفة فلا يلبث أن يستقبلني بمثلها ويتنحى لي عن طريقي فأمضي في سبيلي ، فكانت الابتسامة هي « جواز المرور » الذي فتح لي جميع الأبواب الموصدة أمامي حتى وصلت إلى هنا ، قال : ألم يسألك أحد عن وجهتك التي تقصدينها ؟ قالت : كان إذا سألني أحدهم قلت له : إنني ذاهبة لرؤية عشيقي ؛ فتقع هذه الكلمة العذبة الجميلة من نفسه موقع الماء من مهجة الظامىء الهيمان فيبش في وجهي ويحييني بإحناء رأسه ويتركني وشأني ، فقاطعها كرستيان وقال لها : ولكنني لست بعشيقك يا سيدتي بل زوجك ، قالت : ما ارتبت في ذلك قط يا زوجي العزيز ، ولكن كلمة العشيق تنال من نفس العاشق المفارق — وكلكم ذلك الرجل — ما لا تنال منها كلمة الزوج فسامحني واغفر لي ذنبي .

وهنا دخل الكونت دي جيش رئيس أركان حرب الجيش فرأى روكسان واقفة موقفها هذا بين الجنود فدهش دهشة عظمى

إذ رآها ، ودنا منها فحياها وقال لها : ما الذي جاء بك إلى هنا يا سيدتي ؟ قالت : جئت لأرى زوجي ، لأنني لم أتمتع برؤيته بعد زواجي منه إلا تلك اللحظة القصيرة التي تعلمها ؛ فاربد وجهه غيظاً وقال لها : لقد أخطأت بعملك هذا خطأ عظيماً وليس من الرأي أن تلبثي هنا بعد الآن لحظة واحدة ، فاعدي عدتك للرجوع من حيث أتيت ، قالت : لماذا ؟ قال : لأن المعركة ستدور بعد ساعة أو ساعتين ، ولا مكان للنساء في ميادين الحروب ؛ فقال كرستيان : وسنموت في تلك المعركة يا سيدتي عن آخرنا لأن الكونت أراد ذلك . فذعرت روكسان واصفر وجهها ، والتفتت إلى الكونت وقالت له : أصحيح ما يقول يا سيدي ؟ إنك إذن تريد أن أصبح أرملة ؟ قال : لا ، وأقسم لك ، قالت : ألا تعلم أنه إذا قدر لي هذا المصير كان ذلك آخر عهدي بالدنيا ونعيمها واستحال علي عين الشمس أن تراني بعد اليوم إلا إذا استطاعت أن تخترق بأشعتها صفائح القبور ؟ قال : أقسم لك يا سيدتي أنني . . فقاطعته وقالت : كيفما كان الأمر فمحال أن أغادر هذا المكان لأنني أريد أن أموت مع أبناء وطني ، فهتف سيرانو بصوت عال : لقد نطقت بكلمة الأبطال يا سيدتي فأهنئك ، فابتسمت وقالت : ذلك لأنني ابنة عمك يا سيرانو ، فصاح الجنود جميعاً بصوت واحد : سندافع عنك يا سيدتي إلى الموت ، قالت : شكراً لكم يا أصدقائي ذلك أملي فيكم وفي الدم الجاسكوني الذي يجري في عروقكم ؛ فتقدم نحوها «كاربون» قائد الفرقة وانحنى بين يديها وقال لها : أما وقد أصبحت شريكتنا في حظنا ومصيرنا فائذني لي أن ألجأ إليك في طلبة واحدة ؛ قالت : وما هي ؟ قال : أن تفتحي يدك القابضة على هذا المنديل الحريري الجميل ، فلم تفهم ما يريد ولكنها فتحت يدها فسقط المنديل

على الأرض ، فالتقطه وقال لها : إن فرقتي يا سيدتي ليست لها راية وسيكون منديلك هذا رايتها التي تقاتل في ظلها ، واعلمي أن جنودي سيموتون جميعاً دفاعاً عن الراية التي قدمتها لهم أجمل فتاة في فرنسا ، ثم عقد المنديل بسنان رمحه الطويل وركزه على قمة التل فظلت الريح تعبث به وظل الجنود ينظرون إليه نظر السائر إلى نجمة القطب الخافقة في كبد السماء .

الوليمـــة

فالتفتت روكسان إلى الجنود باسمة وقالت : ألا تقدمون لي شيئاً من طعامكم وشرابكم أيها الأخوان ، فإني أكاد أموت جوعاً ، فنظر القوم بعضهم إلى بعض ، وقد مشت في وجوههم صفرة الموت ودهمهم من الأمر ما لم يكن يخطر لهم ببال ، فشعرت روكسان بحيرتهم واضطرابهم ؛ فابتسمت وقالت أو قوموا بنا جميعاً إلى مطعم « راجنو » لنتناول عنده من الطعام ما نريد ، فقال لها أحدهم : إنك تهزئين بنا يا سيدتي ، فأين نحن من راجنو ومطعمه ، قالت : إذن لا أستطيع أن أتصور كيف يكون سروركم واغتباطكم ، إذا علمتم أنني قد نقلت لكم هذا المطعم وصاحبه من باريس إلى هنا .

وتركتهم ذاهلين مدهوشين لكلامها وصعدت إلى التل وصاحت : راجنو ! راجنو ! هات لنا غذاءنا ، فما أتمت كلمتها حتى أقبل راجنو والغلامان الخادمان يحملون على أيديهم سلال الخبز وصناديق الخمر وأفخاذ اللحم الناضجة ، وأنواع الفطائر والحلوى ، فهتف الجنود : راجنو ! راجنو ! وداروا به يحيونه ويعتنقونه ويجاذبونه أثوابه ، فصاح فيهم ؛ دعوني أيها الكسالى واذهبوا إلى المركبة

واحملوا الطعام الذي جئناكم به بأنفسكم فحسبنا ما حملنا لكم ، فهرعوا إلى المركبة وعادوا بما بقي من لحم وخمر وحلوى وفاكهة فرحين مغتبطين ، وهم يقولون : كيف غفلت عيون الأعداء يا راجنو عن هذا الطعام الشهي ؟ قال : لأن عيون روكسان الجميلة كانت أشهى إليهم منه .

وما هي إلا هنيهة حتى استداروا حلقات واسعة وأنشأوا يأكلون ويصفقون وروكسان قائمة في خدمتهم تقدم لهذا كأساً ولهذا رغيفاً ولهذا سكيناً ، ومدامعها تتلألأ في عينيها رحمة بهم وإشفاقاً عليهم وسيرانو واقف ناحية ينظر إليهم نظرة السرور والغبطة ويردد بينه وبين نفسه : يا ملاك الرحمة والإحسان ، يا أجمل نسمة طاهرة على وجه الأرض ، يا نفساً نقية صافية لم يخلق الله لها مثالاً بين نفوس البشر ، حسبي منك أن أراك ، وأن ينفذ شعاع من أشعة جمالك إلى قلبي المظلم الحالك ، فيضيء ظلمته ويشرق في جوانبه .

وإنهم لكذلك إذ سمعوا صوت الكونت دي جيش مقبلاً من بعيد فقال بعضهم لبعض : محال أن ينال هذا الرجل البغيض لقمة واحدة من طعامنا ، فلنطو عنه كل شيء حتى ينصرف لشأنه ، وما هي إلا كرة الطرف أن اختفى كل شيء في ثنايا معاطفهم وفروج أكمامهم ووراء صناديقهم ، ثم دخل الكونت وهو يقول : ما هذه الرائحة الجديدة ؟ فصمت الجنود ولم يقولوا شيئاً ، فظل يقلب النظر في وجوههم فيرى الحمرة التي سرت فيها من حرارة الغذاء ونشوة الشراب فيعجب لها عجباً شديداً ، ثم قال : مالي أراكم منتعشين متهللين وعهدي بكم قبل هذه اللحظة تتهافتون جوعاً وتتساقطون ضعفاً وإعياء ! فقال له سيرانو :

إنها صحوة الموت يا سيدي ، فأشاح بوجهه عنه والتفت إلى روكسان وقال لها : أباقية أنت هنا حتى الآن يا سيدتي ؟ قالت نعم ، وما أنا ببارحة هذا المكان حتى أعود بكم أو أموت معكم ، فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه وهتف بكاربون فلباه ووقف بين يديه فقال له : إنك ستدير المعركة المقبلة بالنيابة عني يا حضرة القائد ، قال وأنت يا سيدي ؟ قال أما أنا فباق هنا لأدافع عن روكسان بنفسي لأني لا أستطيع أن أترك امرأة في خطر ، ، فأكبر القوم جميعاً هذه الشهامة الكبرى والعظمة النفسية وهمس بعضهم في أذن بعض : إن الرجل لا يزال يجري في عروقه الدم الجاسكوني ، فقال لهم سيرانو : إذن يمكننا أن نقدم إليه شيئاً من طعامنا وشرابنا ، فاندفعوا جميعاً نحوه ومدوا إليه أيديهم بما معهم من الطعام والشراب ، فألقى عليهم نظرة عالية مترفعة وقال لهم : نعم إنني أموت جوعاً وسغباً ولكن الجاسكوني الشريف لا يأكل فضلات طعام غيره ، فصاح سيرانو : شهامة أخرى أيها الأصدقاء لا تنسوها له ، وهتف ليحيي الكونت دي جيش ، فهتف الجنود بهتافه ، فشكرهم الكونت بإيماءة من رأسه ، ثم أنشأ يخطب فيهم خطبة الحرب ويلقي عليهم الأوامر العسكرية حتى قال لهم ، وهو يشير إلى مدفع جاثم بين يديه : إنكم ما تعودتم إطلاق المدافع قبل اليوم ، فاعلموا أن المدفع يتراجع بشدة عند خروج القذيفة منه فكونوا على بينة من ذلك واحذروه ، فصاح أحدهم بصوت عال : إن مدفع الجاسكونيين مثلهم يا سيدي لا يتراجع قط ، فابتسم له وشكره وقال : لا يخيبن أملي فيكم يا أبناء وطني ؛ ثم التفت إلى روكسان وقال لها : تعالي معي يا سيدتي لتشاهدي منظر استعراض الجيش فأعطته يدها فصعدا معاً إلى قمة التل .

وما أبعدا إلا قليلاً حتى مشى سيرانو إلى كرستيان وقال له

همساً : كلمة واحدة أريد أن أقولها لك ، فامش معي قليلاً ،
فمشى معه فقال له : ربما فاتحتك روكسان في شأن الرسائل التي
كانت ترد عليها منك وستقول لك إنها كانت تتلقى منك كل
يوم رسالة ، فلا يدهشك ذلك ولا ترتبك لئلا يفتضح الأمر ،
قال : وهل كنت تكتب إليها كل يوم ؟ قال : نعم ؛ لأنني تعهدت
لها عنك قبل سفرنا –كما تعلم– أن تكتب إليها كثيراً فلم أر
بداً من الوفاء ، وما كان يكلفني ذلك أكثر من التعبير عن شعورك
وخوالج نفسك ، وذلك مالا ينقصني العلم به ، فإذا فاتحتك
في هذا الشأن فلا يكن لك فيه قول غير الذي قلت لك ، قال :
وكيف كنت تستطيع توصيل هذه الرسائل إليها ، وقد حصرنا
العدو من كل جانب وذادنا عن كل شيء حتى عن طعامنا وشرابنا ؟
قال : الأمر بسيط جداً ، كنت أخرج في سحر كل ليلة متنكر
تحت جنح الظلام ، فأكمن تارة وأظهر أخرى .. فقاطعه كرستيان
وقال له : وهل هذا بسيط جداً ؟ الحق أقول لك يا صديقي ،
إنني أصبحت أعجب لأمرك كثيراً ، ولئن استطعت أن أفهم
كل شيء فإنني لا أستطيع أن أفهم اهتمامك بهذا الأمر هذا
الاهتمام كله إلى درجة المخاطرة بحياتك في سبيله ، قال : ما في
الأمر مخاطرة ولا مجازفة ، فقد كان يلذ لي كثيراً أن أقوم لك
بهذه الخدمة ، وأن ألاقي ما ألاقي من الأخطار في سبيلها ، قال :
وما الذي كان يعجبك من ذلك ؟ قال : التمثيل قال : أي تمثيل ؟
قال : تمثيل عواطفك وشعورك ؛ فإنني منذ أخذت نفسي بتمثيل
دورك في هذه المأساة المحزنة لم يزل يستهويني التمثيل ويهيمن
على نفسي ، حتى أصبحت أتخيل أنني صاحب الدور الذي أمثله ،
وأنني أنا المعنى دونك بكتابة هذه الرسائل والعناية بها والتذرع
بكل وسيلة إلى توصيلها إليها ؟ قال : وهل تبلغ لذة التمثيل بامرىء

هذه المبالغ كلها ؟ قال : نعم ؛ وكثيراً ما ذرف الممثلون دموعاً لم يذرفها العاشقون أنفسهم ، ثم التفت فرأى روكسان مقبلة فقال له : لقد فهمت الآن كل شيء ، فكن حكيماً حازماً ، ثم تسلل إلى خيمته وتركه واقفاً مكانه .

حقيقة الجمال

قال كرستيان لروكسان ، وقد جلسا معاً على بعض المقاعد : هل لك أن تحدثيني يا روكسان : ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ فإنني لا أزال أعجب لأمرك كل العجب ولا أكاد أصدق أن الحب يجشم صاحبه هذه الأخطار التي جشمتها نفسك في سبيله ، قالت : لقد سحرتني وملكت على قلبي رسائلك العذبة الجميلة التي كنت ترسلها إلي صبيحة كل يوم وتودعها شعور قلبك وهواجس نفسك وتكتبها بتلك اللغة الغريبة المؤثرة التي لو لامست الصخر الأصم لانفجر وتناثرت شظاياه في أجواز الفضاء ؛ وقد حاولت كثيراً أن أثبت لها وأقاوم تأثيرها على نفسي بكل سبيل فغلبتني على أمري وقادتني إليك كما تراني ، قال : أمن أجل بضع رسائل بسيطة .. ؟ فقاطعته وقالت : لا تقل بسيطة ، بل هي الوحي الإلهي الذي ينزل على نفوس الملهمين من البشر ، بل هي القوة الغيبية التي تهيمن على العالم وتحيط به من جميع أقطاره دون أن يدرك أحد مكانها أو يعرف مأتاها ، ولقد كان يخيل إلي وأنا أقرؤها ، أنني أرى صورتك فيها كما يرى الناظر صورة البدر من وراء السحب الرقيقة فأهوى إليها بفمي لأقبلها فإذا أنا أقبل السطور والكلمات ، فأطرق كرستيان برأسه ، وقد ألم بنفسه من الهمم والكمد ما الله عالم به ، واستمرت روكسان في حديثها

تقول : إنني ما أحببتك يا كرستيان حباً صادقاً متغلغلاً في أعماق نفسي إلا منذ تلك الليلة التي رأيتك فيها واقفاً تحت شرفتي تناجيني نجاء عذباً رقيقاً بتلك النغمة الرقيقة المؤثرة ، وتفضي إليّ بذات نفسك كأنك قد ألمستني فؤادك ووضعت يدي على قلبك ، ثم توالت عليّ رسائلك بعد ذلك ، فكنت أسمع فيها دائماً تلك النغمة الموسيقية الخلابة ، وكأنك لا تزال واقفاً أمام شرفتي تناجيني فلا أستطيع أن أملك نفسي دون البكاء والحنين ، وأقسم لك لو أن « بينيلوب » وردت عليها من زوجها « عولس » تلك الرسائل التي وردت عليّ منك لما أطاقت صبراً على فراقه ولألفت بنسيجها الذي عرفت به في التاريخ وذهبت تفتش عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تلقاه ؛ فقال ونفسه تذوب حسرة وكمداً : ما كنت أقدر يا روكسان أن تلك الرسائل الصغيرة تبلغ من نفسك هذه المبالغ كلها ، قالت : لقد كان سلطانها على نفسي عظيماً جداً ، وكنت أعيد قراءتها مرات كثيرة حتى تتشربها نفسي وتتمثلها روحي ، وحتى كان يخيّل إليّ أن كل كلمة من كلماتها ورقة تطير إليّ من أوراق روحك ؟ فما لبثت أن شعرت أنني قد أصبحت ملكاً لك وأسيرة في يدك ، وأن أمر نفسي قد خرج من يدي فلا حول لي فيه ولا حيلة .

فاكتأب كرستيان وتقبض وجهه وقال لها : أهذا كل ما جاء بك إلى هنا ؟ قالت : نعم ، لأستغفرك من ذلك الذنب الذي أذنبته إليك ، فقد أحببتك لأول عهدي به بجمالك ورونقك وقسامة وجهك كأن الجمال هو كل فضائلك ومزاياك فأهنتك بذلك إهانة عظمى ، أما الآن فإني أجثو بين يديك – لا بجسمي – فإنك لا تلبث أن ترفعني بيديك – بل بروحي التي لا يمكنك أن تغير مكانها منك أبداً . طالبة صفحك وعفوك عن تلك الجريمة

الّتي اقترفتها ، وما أحسبك تضن عليّ بذلك في هذه الساعة الّتي نقف فيها جميعاً على أبواب الأبدية ونودع فيها الحياة الوداع الأخير .

فانتفض كرستيان وشخص في وجهها ساعة ، ثم قال لها : هذا شأنك في الماضي ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قالت : كنت بعد ذلك أكثر تعقلاً ورويّة وأبعد فكراً ونظراً فامتزج في نظري جمال صورتك بجمال جسمك فاستحالتا إلى صورة واحدة فأحببتها ؛ قال : والآن ؟ قالت : اما الآن فقد انتصرت نفسك عليك انتصاراً عظيماً فأصبحت لا أحب منك سواها ، ولا أشعر بسلطان لغيرها على قلبي ، فاصفر وجهه اصفراراً شديداً وأطرق برأسه وظل يقول بينه وبين نفسه : إنها ما أحبتني في حياتها لحظة واحدة ، واستمرت هي في حديثها تقول : فليهنك ذلك الحب الثمين يا زوجي العزيز فإن أسعد الناس حالاً في هذه الحياة وأحظاهم بنعمة العيش فيها أولئك الذين منحهم الله نفساً جميلة شعرية تتعشقها القلوب وتتشربها النفوس وتهفو لها الأحلام ، وتقوم لهم في كل موقف ومقام مقام الجمال الجثماني إن فاتهم أو نزلت به كارثة من كوارث الدهر ، وما الجمال الجثماني إلا سحابة رقيقة تطير بها برودة الهواء أو هضبة ثلجية تذيبها حرارة الشمس ، وما أحب المحبون قط في الصورة الجميلة جمالها ورونقها بل جمال النفوس الكامنة في طياتها ، ولا أبغض المبغضون في الصور الدميمة قبحها ودمامتها بل قبح النفس المستكنة فيها ، فإذا اختلف العنوان عن الكتاب في إحدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسي على صاحبه . وإني أعترف لك يا كرستيان بأني ما أحببتك عند النظرة الأولى إلا لجمالك لأني ما كنت أرى في سماء حياتك كوكباً مشرقاً سواه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أخذ ذلك الكوكب

يتضاءل أمام عيـني شيئاً فشيئـاً بجانب تلك الأشعة الباهرة التي كانت تتدفق من ينبوع نفسك الجاشية الفياضة حتى أصبحت لا أراه ولا أشعر به ، فازداد اضطرابه واصفراره وظل ينظر إليها نظراً غريباً حائراً .

فقالت له : مالي أراك حزيناً مكتئباً كأنك في شك من هذا الانتصار العظيم الذي تم لنفسك عليك ؟ فنظر إليها نظرة ساكنة جامدة ، ثم قال : اسمعي يا روكسان ، إنني لا أحفل بهذا الحب ولا أغتبط به ولا أريد إلا أن تنظري إليّ دائماً بتلك العين التي نظرت بها إليّ لأول عهدك بي ، قالت : إني أعجب لأمرك كثيراً يا كرستيان ، فإن الحب الذي تؤثره وتغتبط به حب تافه لا قيمة له ولا ثبات لظله ، أما الآن فإني أحبك لصفاتك الكريمة النادرة التي قلما اجتمعت لمخلوق سواك ، أحبك لذكائك الخارق وفطنتك النادرة وشرف عواطفك ، ورقة شعورك ، ولطف حسك وسعة خيالك ، وذلك البيان الرائق الصافي الذي يشف عن جوهر نفسك شفوف الغدير الساكن عن لألئـه وجوهره ، أحبك من أجل ذلك كله حباً ثابتاً راسخاً لا تعبث به صروف الدهر ، ولا تنال منه عاديات الأيام ، حتى لو استحالت صورتك إلى صورة أخرى غيرها لما نقص حبي إياك ذرة واحدة ، فارتعد كرستيان وشعر أن نفسه قد بدأت تتسرب من بين جنبيه فمد يده إليها ضارعاً وقال : الرحمة يا روكسان ؛ قالت : بل لو ذهب جمالك بحادثة من حوادث القضاء فأصبحت بشع الصورة دميم الخلقة .. فقاطعها وصاح : دميم الخلقة ؟ قالت : نعم وأقسم لك على ذلك يا زوجي العزيز ويا أحب الناس إليّ ، فظل يرتعد ويضطرب اضطراباً ، خيل إليها أنه نشوة الحب وسكرة السرور فقالت له : أسعيد أنت الآن يا كرستيان ؟ فنظر إليها نظرة غريبة

لا يعلم إلا الله ما يكمن وراءها وقال : نعم سعيد جداً ومن هو أولى بالسعادة مني ، ونهض قائماً يريد الانصراف فقالت له : إلى أين ؟ قال : لم يبق بيننا وبين المعركة إلا لحظات قليلة ولا بد أن يكون هذا آخر اجتماع لنا ، فالوداع ، قالت : ألم يغلب يأسك على رجائك ورحمة الله أوسع من أن تضيق بك ؟ قال : إن السعادة أضن بنفسها من أن تثبت زمناً طويلاً في مكان واحد ، فالوداع يا روكسان وداعاً لا لقاء من بعده ؛ وأخذ يبتعد عنها شيئاً فشيئاً دون أن يضع يده في يدها أو يقبلها قبلة الوداع ، فمشت وراءه وهي تعجب لأمره وتقول : ما بك يا كرستيان ؟ قف قليلاً لأقول لك كلمة واحدة ثم اصنع ما شئت ، إنك لم تفهم غرضي ، وأقسم لك أنك لو فهمته لعلمت أنني أحببتك حباً ما أحبه أحد من قبلي أحداً ، قال : حسبك يا روكسان وعودي إلى هؤلاء والجنود المساكين البائسين فإنهم يفكرون في مثل ما أفكر فيه ويودعون الحياة كما أودعها ، فاذهبي إليهم واجلسي بينهم قليلاً وعزيهم بابتسامتك العذبة الجميلة عن همومهم وآلامها ، أما أنا فذاهب لقضاء بعض الشؤون وربما عدت إليك بعد قليل ، ثم اختفى عن نظرها .

المكاشفة

دخل كرستيان على سيرانو في خيمته شاحب اللون مكفهر الجبين . فقال له سيرانو : ما بك يا صديقي ؟ قال : إنها حدثتني الآن حديثاً طويلاً علمت منها أنها لا تحبني بل ما أحبتني قط في يوم من أيام حياتها ، قال : ماذا تقول ؟ قال : وأقول أيضاً إنها تحبك أنت ولا تحب في الدنيا أحد سواك ، فانتفض سيرانو انتفاضة

شديدة كادت تتطاير لها أجزاء نفسه وقال : أنا ؟ قال : نعم لأنها اعترفت لي بأنها لا تحب مني إلا نفسي وأنت الذي تكمن بين أضالعي ، فهي تحبك حب العابد معبوده ، وما جاءت هنا إلا من أجلك ، وما أشك في أنك تضمر لها في قلبك من الحب مثل ما تضمر لك ، فصرخ سيرانو ، وقال : لا . أقسم .. فقاطعه كرستيان وقال : لا تفعل فلقد نمت عليك الدمعة التي رأيتها بعيني في كتـاب الوداع الذي كتبته إليهـا ، وما هي بدمعة الشعر كما تقول بل دمعة الحب وما كنت تكتب إليها عن لساني كما تزعم ، بل عن لسانك أنت ، فاعترف بأنك تحبها .

فصمت سيرانو هنيهة ذهبت نفسه فيها كل مذهب ثم رفع رأسه وقال : نعم يا كرستيان أعترف لك بأني أحبها ، وأقسم لك أنني ما طمعت فيها قط ، قال : نعم أعلم ذلك فوارحمتاه لك ولتلك الآلام الطوال التي قاسيتها في ماضي حياتك ، أما الآن ففي استطاعتك أن تطمع فيها كما تشاء ، ولا يوجد في العالم شيء يحول بينك وبينها ، قال : لا أستطيع ، فإن من يحمل وجهاً مثل وجهي لا يطمع في حياة الحب والغرام ، قال : إنها أقسمت لي أنني لو كنت بشع الخلقة دميم الوجه لما نقص حبها إياي ذرة واحدة ، فانتعش سيرانو وقال : أوقالت لك ذلك ؟ قال : نعم ما زالت تقوله حتى أملتني وأضجرتني ، قال : لا تحفل بقولها فهي فتاة شعرية الأفكار والتصورات ، تقول بلسانها غير الذي تضمر في أعماق نفسها ، فابق محبوبها الجميل كما كنت ولأبق أنا لسانك الناطق بين يديها حتى يقضي الله فينا جميعـاً بقضائه ، قال : ذلك مستحيل بعد الآن ، فإني أشعر في أعماق نفسي بخجل ما أحسب إلا أنه سيقضي على حياتي قبل أن تقضي عليها القذيفة التي تنتظرني في ساحة القتال ، فاذهب إليها واعترف

لها بكل شيء ، وقل لها إن الرجل الذي أحببته من أجل ذكائه وفطنته وذلاقة لسانه وقوة بيانه كاذب غاش ، ينتحل مواهب الناس وفضائلهم لنفسه ، وليس له فيها من الحظ شيء ، قال : ذلك فوق الاحتمال يا كرستيان ، قال : لا بد من ذلك فليس من العدل أن أقتل هناءك من أجل الطبيعة أن الطبيعة جملتني بهذه الحلية البسيطة من الجمال ، قال : وليس من العدل أن أفجعك في سعادتك ، لأن الطبيعة منحتني شيئاً من القدرة على التعبير عن عواطفي ، قال : لا بد أن تفاتحها في موضوع حبك ، فأنت محبوبها الحقيقي أما أنا فخلعتك الجميلة التي تلبسها وتتجمل بها ، فانزعها عنك وتقدم إليها بأي ثوب تريده فهي لا تبالي بجمال الأثواب وزخرفها ، إنني ضقت ذرعاً بهذه النفس الغريبة التي أحملها بين جوانحي ، حتى أعييت بأمرها إعياء شديداً ولا راحة لي إلا في الخلاص منها ، قال : إنك تريد شقائي يا صديقي ، قال : لا بل سعادتك ؛ فاذهب إليها وقص عليها القصة من مبدئها إلى منتهاها واترك لها الخيار في أمرها ، فإن اختارتك ، فقد أنصفتك ، ولقد كان عقد الزواج الذي جرى بيننا عقداً سرياً لا تحفل به الكنيسة ولا يعبأ به الناس فما أسهل التخلص منه ، وإن اختارتني لا أكون غاشاً لها ولا خادعاً، قال :ستختارك أنت بلا شك ؛ قال : أرجو أن يكون ذلك ، وها هي ذي مقبلة فاشرح لها كل شيء ، أما أنا فذاهب إلى نهاية الخط لشأن من الشؤون لا بد لي من قضائه وربما عدت إليك بعد قليل ؛ فارتاب سيرانو في أمره وأمسك بيده وقال له : إنني أقرأ على جبينك آية اليأس يا كرستيان فهل تقسم لي أنك لا تقتل نفسك ، قال : نعم ، أقسم لك ألا أقتل نفسي ، ثم التفت فرأى روكسان على مقربة منه فقال لها : سيحدثك سيرانو حديثاً خطيراً فاذهبي إليه ،

ثم وضع يده على مقبض سيفه فجرده من غمده وهرع إلى ساحة القتال وهو يقول : الوداع يا نور السماء .

الفاجعـــة

فدنت روكسان من سيرانو وقالت : ما باله ؟ إني أعجب لأمره كثيراً ولا أدري ما الذي دهاه ، فما هو الحديث الخطير الذي تريد أن تحدثنيه ؟ قال : لا شيء إنه يهتم بأصغر الأمور وأبسطها ، فلقد كان يروي لي تلك المحادثة التي دارت بينك وبينه منذ هنيهة ، قالت : نعم نعم ويخيل إلي أنه لم يفهم غرضي أو أنه في شك مما أفضيت به إليه ، وأؤكد لك يا صديقي أنني ما قلت له إلا الحقيقة التي أعتقدها فإنني أصبحت بعد اطلاعي على تلك الرسائل البليغة التي كان يرسلها إلي كل يوم من ميدان الحرب مفتتنة بعقله وذكائه أكثر من افتتاني بحسنه وجماله حتى لو استحالت صورته إلى صورة أخرى غيرها أو ذهب بجماله حادث من حوادث الدهر فأصبح ... ثم سكتت حياء وخجلاً ، فقال دميماً ؟ قالت : نعم ولو أصبح كذلك ، قال : وبشع الصورة ؟ قالت : نعم ، قال : ومشوه الوجه ؟ قالت : نعم ، قال : وضحكة الناس وسخريتهم ؟ قالت : إن من كان له مثل عقله ولسانه لا يكون ضحكة الناس وسخريتهم ؛ وهنا سمعا أول طلقة من طلقات المعركة فلم يحفلا بها واستمر سيرانو في حديثه يقول : أتحبينه رغم كل شيء ؟ قالت : نعم رغم كل شيء ، فقد غمر جمال نفسه جمال صورته حتى أصبحت لا أراها ولا أشعر بها . فاغتبط سيرانو في نفسه اغتباطاً عظيماً وعلم أنه قد أشرف على السعادة التي ظل ينتظرها أعواماً طوالاً ولم يبق بينه وبينها إلا كلمة أخرى ينطق بها فإذا هي بين يديه .

في هذه اللحظة أقبل « لبريه » من ناحية الميدان مسرعاً وأسر في أذن سيرانو هذه الكلمة « قد قتل كرستيان » ؛ فانتفض وقال : وكيف قتل؟ قال : بأول قذيفة من قذائف المعركة ، فاصفر وجهه وارتعدت فرائصه وغشت على عينيه غمامة سوداء ، فعجبت روكسان لأمره وقالت له : ما بك يا سيرانو؟ قال : لا شيء ؛ قالت : أتمم حديثك ، ماذا كنت تريد أن تقول لي؟ فصمت وأطرق هنيهة وظل يقول بينه وبين نفسه : قد انقضى كل شيء ، فلا أستطيع أن أقول شيئاً ، ولقد كان كرستيان صديقي وعشيري فليس في استطاعتي أن أبني سعادتي على أنقاض شقائه ، فظلت روكسان تنظر إليه ذاهلة حائرة وتقول : ليت شعري ماذا جرى؟ وسيرانو مطرق لا يرفع رأسه حتى أقبل جماعة من الجنود يحملون على أيديهم شيئاً مسجى يشبه الجثة فوضعوه ناحية فارتعدت روكسان وكأن نفسها حدثتها بما كان فظلت تنظر إلى ذلك الشيء باهتة مدهوشة وتقول : انظر يا سيرانو ما هذا الذي أرى ! أتدري ماذا يحمل هؤلاء الرجال؟ فانتبه إليها وقال : دعيهم وشأنهم يا سيدتي واسمعي بقية حديثي ، وحاول أن يجمع شتات ذهنه المبعثر فلم يستطع ، فأخذ يتكلم كلاماً مضطرباً متقطعاً ويقول : كنت أريد أن أقول لك ... آه ماذا كنت أريد أن أقول لك ! لا أستطيع أن أقول شيئاً فقد انقضى كل شيء ، كنت أريد أن أقول ... آه قد تذكرت . أقسم لك يا روكسان أنك صادقة فيما قلت ؛ نعم كان كرستيان كما قلت فتى ... فقاطعته وصرخت صرخة عظمى وقالت : «كان » يخيل لي أنك ترثيه ، ودفعته دفعة شديدة وهرعت إلى الجثة وكشفت الغطاء عنها فإذا كرستيان في سكرة الموت .

فألقت بنفسها عليه وقد أصابها مثل الجنون وظلت تبكي وتنتحب انتحاباً محزناً وتصرخ صرخات مؤلمة ، ثم لمحت في صدره

الجرح الذي ينبعث منه الدم فمزقت قميصها واقتطعت منه قطعة وهرعت إلى موضع الماء لتبللها ففتح كرستيان عينيه في تلك اللحظة وتأوه آهة طويلة فدنا منه سيرانو وأكب عليه وهمس في أذنه : أبشر يا كرستيان فقد بحت لها بكل شيء وخيرتها بيني وبينك ، فاختارتك من دوني وهي لا تحب أحداً سواك ؛ وعـادت روكسان وفي يدها القطعة المبللة فظلت تمسح بها الجرح وتقول : إنه لا يزال حياً ، وسيلتئم جرحه بعد قليل ، وسيعيش بجانبي دهراً ، أليس كذلك يا سيرانو ؟ ثم وضعت خدها على خده فشعرت ببرودة الموت تسري في جسمه فاصفرت وتخاذلت أعضاؤها وظلت تناجيه نجاء محزناً موثراً وتضرع إليه أن يعيش من أجلها لأنها في حاجة إليه ولا تستطيع أن تهنأ بالحياة من بعده ثم وضعت يدها على صدره فعثرت بذلك الكتاب الذي كان قد أخذه من سيرانو فأمرت نظرها عليه فوجدته معنوناً باسمها ورأت عليه نقطة من الدم وتلك القطرة من الدمع فقالت : وارحمتاه له ! إنه كان يحدّث نفسه بهذا المصير الذي صار إليه ، واحتضنته إلى صدرها وظلت تقبله وتلثمه ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرآها ، فحاول أن يتحرك فلم يستطع ، فشهق شهقة كانت فيها نفسه .

المعركة

وكانت المعركة قد اشتدت ودوى الميدان بصرخات الجنود وصيحاتهم وقعقعة السلاح وأزيز الرصاص وهتاف القواد بالجند أن تقدموا ولا تتقهقروا أيها الأبطال البواسل وانتزعوا النصر من بين مخالب أعدائكم انتزاعاً . فهاج الموقف نفس سيرانو فجذب يده من روكسان وكانت آخذة بها ليهجم مع الهاجمين

فاستوقفته وقالت له : ابق معي قليلاً يا سيرانو ، فلقد مات كرستيان وليس لي في العالم من يعينني على نكبتي فيه سواك . لقد كنت الرجل الوحيد الذي عرفه حق المعرفة وأدرك ما اشتملت عليه نفسه من الفضائل والمزايا فقل لي ألم يكن في حياته عظيماً قال : بلى ، قالت : وذا همة عالية لا تسمو إليها همم الرجال ؟ قال : بلى . قالت : وذا نفس عذبة صافية كأنها قطرة الندى الصافية المترقرقة في الزهرة الناضرة ؟ قال بلى قالت : وشاعراً عبقرياً لم تطلع الشمس على مثله في عهد من عهودها الخالية ؟ قال بلى ؟ قالت : لقد هوى ذلك الكوكب المنير من سمائه وانحدرت تلك الشمس المشرقة إلى مغربها من حيث لا رجعة لها ، فوا أسفاه عليه ! ثم صرخت صرخة تتقطع لها نياط القلوب وألقت بنفسها عليه وظلت ترثيه وتندبه وتذرف فوق جثته جميع ما أودع الله عيونها من دموع . فوقف سيرانو وجرد سيفه من غمده وقال : إنها الآن تبكيني في بكائها على كرستيان فيجب أن أموت . وكان رصاص الأعداء يحصد الجاسكونيين حصداً فيتساقطون تساقط أوراق الشجر الجافة أمام الزوبعة الهائلة وهم لا ينثنون ولا يتحلحلون والكونت دي جيش في مقدمتهم يصيح بصوت عال : ها هو ذا جيش قائدنا قد اقترب فاصبروا ساعة أخرى يتم النصر لفرنسا ؛ فصرخ سيرانو : الوداع يا روكسان ، واندفع إلى قمة التل فاستقبله الكونت واعترض طريقه وقال له : قف مكانك لا تلق بيدك إلى التهلكة فقد آن أوان الهزيمة أو هلك الجنود جميعاً ؛ قال : إن الجاسكونيين لا يتراجعون ولو أمرتهم بذلك ، فكل أمرهم إلي ودعني وشأني فإنني ناقم موتوراً أريد أن أنتقم لصديقي الذي ثكلته ، وهنائي الذي فقدته ، فاذهب أنت إلى روكسان ودافع عنها كما وعدتها حتى تبلغ مأمنها .

ثم صاح في الجنود : تشجعوا أيها الأصدقاء ولا تتقهقروا فالحياة أمامكم وليست وراءكم فتقدموا أيها الأبطال وموتوا جميعاً ، فما في الموت شيء سوى أن تنقلوا مكان أجتماعكم من الأرض إلى السماء ، موتوا فالموت أهون عليكم من أن تروا وطنكم ذليلاً في يد أعدائكم ، وقد مات أصدقاؤكم ورفقاؤكم فما بقاؤكم في الحياة من بعدهم ؟ رفرف علينا أيها العلم الصغير المطرز باسمها وابعث في قلوبنا جميعاً روح القوة والشجاعة لنموت عن آخرنا تحت ظلك الخافق .

فظل الجنود ثابتين في أماكنهم ومنجل القضاء يحصدهم حصداً حتى وصل جيش العدو إلى قمة التل وصاح قائدهم : ألقوا بأسلحتكم أيها القوم فستموتون جميعاً إن لم تسلموا ولا يجدى عليكم الموت شيئاً ، فأجابه سيرانو : لا يسلم إلا الأذلاء الجبناء ، وما فينا جبان ولا ذليل ! الهجمة الأخيرة أيها الأبطال فها هي طبول القائد الأعظم تدنو منا وتقترب ، وليس بينكم وبين النصر إلا كرة واحدة .

وكان الأمر كما يقول ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أشرف جيش القائد العام وهاجم الأعداء من خلفهم فالتحم الجيشان ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية الإسبانية ، ولكن بعد أن تلاشى الجنود الجاسكونيين في المعمعة جميعاً .

الفصل الخامس

بعد خمسة عشر يوماً

لدير الراهبات بباريس فناء واسع قد غرست في أنحائه بضع أشجار ضخمة باسقة قد تناثرت من تحتها أوراقها الساقطة الصفراء ووضع في وسطه مقعد حجري هلالي الشكل فخرجت الراهبات بعد أداء صلواتهن في محاريبهن ، يتمشين في ذلك الفناء ويتحدثن بأحاديث مختلفة لا يخلو بعضها من ذكر العالم الدنيوي وشؤونه والحياة ووقائعها ، كأن ذلك الحجاب الحجري الذي أسدل دونهم الأسوار والجدران لم يستطع أن يقطع الصلة بينهن وبين الحياة التي هجرنها واطرحنها وأقسمن بين يدي الله أن ينسينها أبد الدهر فلم يزل بين جوانحهن بصيص ضعيف من تلك الذكرى يلمع من حين إلى حين ، لأنهن لا يستطعن — مهما بلغن من قوة اليقين ورسوخ الإيمان وثبات العزيمة — أن ينتزعن الطبيعة من بين جنوبهن كما يرفعن قبعاتهن عن رؤوسهن ، وأرديتهن عن أكتافهن ، ويرمين بها وراء تلك الأسوار والجدران ، كما أرادت منهن ذلك الشرائع النظرية التي لا صلة بينها وبين حقائق الحياة وطبائعها .

فقالت الأخت « مارت » للأخت « كلير » : لقد رأيتك اليوم واقفة أمام المرآة مرتين ، ورأيت في يدك مشطاً تحاولين أن تمشطي به شعرك ، وسأرفع أمرك إلى الرئيسة ! قالت : إنك لا تستطيعين أن تفعلي إلا إذا استطعت أن تحدثيني عن تلك الأغنية الغرامية

التي كنت تتغنين بها ليلة أمس في غرفتك بصوت خافت شجي كأنك تتذكرين بها عهداً قديماً ، فابتسمت الأخت « مارت » وقالت : إنني إن أعفيتك من الشكوى إلى الرئيسة فلن أعفيك من الشكوى إلى المسيو برجراك عند حضوره ، قالت : كأنك تأبين إلا أن نصبح ضحكة الناس وسخريتهم ، فسيرانو رجل شديد قاس يكره الحركات النسائية المتطرفة ، وينعى عليها نعياً شديداً ، قالت : ولكنه يذهب في نقده مذهب التهكم البديع المستطرف فهو إلى الفكاهة أقرب منه إلى الجد ، فقالت الأخت مارجريت : الحق أقول يا أخواتي إنني لم أر في حياتي أظرف ظرف من هذا الرجل ، ولا أعذب منه لساناً ولا أحلى مجوناً ولا أطيب قلباً ، ولا أنقى سريرة . فقالت لها « كلير » : أصحيح يا أختاه أنه يختلف إلى هذا الدير منذ اثني عشر عاماً ؟ قالت : بل أكثر من ذلك مذ هجرت ابنة عمه الأخت روكسان العالم الدنيوي ، ونزلت بنا كما ينزل الطير الحزين وسط الطيور البيضاء ، ومزجت سواد رهبانيتها بسواد حدادها ، وسيرانو هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يعزي نفسها ويمسح دموعها ويخفف أحزانها الكامنة في أعماق قلبها ، فقالت « مارت » : ولكنه ويا للأسف غير متمسك بواجباته الدينية ، وهو الى الإلحاد أقرب منه إلى الإيمان ، فقالت « كلير » : أظن أننا نستطيع أن نهديه إذا نحن حاولنا منه ذلك .

وهنا أقبلت الرئيسة ، وقد سمعت هذه الكلمة الأخيرة فعلمت أنهن يتكلمن عن سيرانو ، فقالت : إني أمنعكن جميعاً عن مفاتحته في هذا الأمر فدعنه وشأنه والله يتولى أمره ، فقالت « مارت » : ولكنه مكابر عنيد لا يزال يولع بمحادثي ومغايظتي كلما رآني ، فقد قال لي يوم السبت الماضي عند حضوره : إنه أكل بالأمس

لحماً ودسماً فلم أطق استماع ذلك منه وكدت أختصمه . قالت : لا تصدقيه يـا بنيتي فإنه حينما جاءنـا في المرة الماضية كان قد مر به يومان لم يذق فيهما طعم الخبز ، فدهشت الراهبات جميعاً ونظرن إلى الرئيسة باهتات مذهولات ! فقالت لهن : لا يدهشكن ذلك يا بنياتي ، فسيرانو رجل فقير معدم لا يملك من متاع الدنيا شيئاً ، فقالت لها « مرجريت » : عجيب جداً ، من أخبرك بذلك ؟ قالت : صديقه « لبريه » ، قالت : ألا يساعده أحد ؟ قالت : لا ، لأنه لا يريد ذلك .

وإنهن لكذلك إذا أقبلت روكسان من ناحية الدير في لباسها الأسود وبجانبها الكونت دي جيش ، وكان قد وصل في مجده الدنيوي إلى الغاية القصوى التي لا غاية وراءها فأصبح القائد العام للجيش الفرنسي وأصبح يدعى « الدوق ماريشال دي جرامونت » ، وكان قد أشرف في ذلك الوقت على سن الشيخوخة ، فهدأت في نفسه تلك العواطف القديمة الثائرة ، عواطف الشرور والشهوات ، فأخذ نفسه بزيارة روكسان في ديرها من حين إلى حين للتعزية والوفاء والتكفير عن سيئاته الماضية إليها .

فلم يزل سائراً معها حتى بلغا ذلك المقعد فجلسا عليه ، ثم نظر إليها نظرة حزينة مكتئبة وقال لها : أهكذا تعيشين دائماً يا روكسان في عزلتك هذه لا تفكرين في شأن من شؤون الحياة ولا تأسفين على عهد من عهودك الماضية ؟ قالت : نعم دائماً لا أذكر غيره ولا يمر بخاطري شيء سواه ، قال : وهل غفرت لي ذلك الذنب الذي أذنبته إليـك أم لا تزال في قلبك بقيـة من العتب والموجدة علي ؟ فاغرورقت عيناها بالدموع وصمتت هنيهة ثم رفعت نظرها إلى صليب الدير العظيم الماثل أمامها وقالت :

ما دمت في هذا المكان وما دام هذا ماثلاً أمام عيني فأنا أغتفر جميع الذنوب حاضرها وماضيها . قال : وارحمتاه لذلك الفتى المسكين ! مـــا كنت أظن أن نفس إنسان في العـــالم تشتمل على مثل الصفات التي كانت تشتمل عليها نفسه لولا أنك أقسمت على ذلك ، قالت : إنك لو عرفته معرفتي إياه لامتلأت نفسك إعجاباً به وإعظاماً له ، ولكان حزنك عليه عظيماً كحزني ، قال : وهل لا تزالين محتفظة بكتابه الأخير حتى اليوم ؟ قالت : إنه لا يفارق صدري قط كأنه الكتاب المقدس ، قال : أتحبينه حتى بعد الموت ؟ قالت : يخيل إلي أحياناً أنه لم يمت ؟ لأن مكانه في قلبي لا يزال باقياً كما هو ، وكأن روحه ترفرف علي وتتبعني حيثما سرت ، وأنى حللت ، ولا تزال ترن في أذني حتى تلك الساعة تلك النغمة الجميلة التي كان يحدثني بها ليلة الشرفة كأن لم يمر بها إلا يوم واحد ، قال : وهل يأتي سيرانو لزيارتك أحياناً ؟ قالت : نعم ، يفد إلي دائماً يوم السبت من كل أسبوع في ساعة معينة لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، فإذا حضر رآني جالسة أمـــام منسجي فيجلس عـــلى مقربة مني فوق مقعـــد يعدونه لـــه ويبدأ حديثه معي بالهزل والمجون والسخرية بي وبمنسجي ويسميه الحركة الدائمة التي لا نهاية لها ، فإذا فرغ من ذلك أخذ يقص علي حوادث الأسبوع يوماً فيوماً كأنه جريدة أسبوعية ، واعلم يا سيدي أن ذلك الصديق القديم والأخ الوفي هو الشخص الوحيد الذي يسري عني بعض همومي وآلامي ويحمل عني الشيء الكثير من أثقال هذه الحياة وأعبائها ولولاه لمت في عزلتي هذه هماً وكمداً .

وهنا فتح باب الدير ودخل « لبريه » فتقدم نحو روكسان فحياها فقالت له : كيف حال صديقك يا لبريه ؟ قال : في أسوأ حال يا سيدتي ، فإن غرابة أخلاقه وشذوذ طباعه وتهوره في

ميوله وآرائه وصلابة عوده في خصوماته ومناظراته قد بلغت به المبلغ الذي كنت أتوقعه له من عهد بعيد : الفقر والعدم ، والشقاء والبؤس ، والخصوم الألداء والأعداء الثائرين المتنمرين الذين يكيدون له ليلهم ونهارهم لا يهدأون ولا يفترون ، وهو في غفلة عن هذا كله ، لا يعجبه ولا يطربه ولا يلذ له غير الانتقاد المر ، والتهكم المؤلم بالأشراف والنبلاء ورجال الدين والأدباء والصحفيين والشعراء والممثلين لا يهادنهم ولا يواتيهم ولا يهدأ عنهم لحظة واحدة ، فينعى على القسيس نظرة واحدة يلقيها عرضاً على وجه جميل ، وعلى الشاعر معنى بسيط يسرقه من شاعر متقدم ، وعلى النبيل مشية الخيلاء يمشيها في طريقه ، وعلى الصحفي نشر إعلان خمر في جريدته أو خبر مكذوب ، كأنه موكل بهداية البشر وتقويم اعوجاجهم وتهذيب أخلاقهم ، وكل ما يعتذر به عن نفسه إن لامه في ذلك لائم : أنه يقول ما يعتقده ، وينطق بما يعلم ، كأنما لا يوجد في العالم كله من يعلم ما يعلمه سواه .

وما أظن الهيئة الاجتماعية التي يشاكسها ويثاورها ، ويزعم أنه قادر على تقويم معوجها وإصلاح فاسدها تستطيع الصبر عليه طويلاً ، ويخيل إلي أن انتقامها منه سيكون هائلاً جداً وأنه سيموت عما قليل شهيد ذلك الشيء الذي يسميه « الحرية الفكرية والنقد الصحيح » .

فقالت روكسان : ولكن سيفه القاطع يحميه من هؤلاء جميعاً ؛ قال : ربما يحميه ولكنني أخشى عليه عدواً واحداً هو أشد عليه من جميع أعدائه ، قالت : ومن هو ؟ قال : الجوع ، فإنه يقاسي من آلامه ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، وكثيراً ما قضى الليالي ذوات العدد شاداً منطقته على بطنه من السغب لا يشكو ولا يتبرم ،

ولا يسمح لنفسه أن يمد يده إلى غير خالقه إلى أن تتيسر له اللقمة التي يعتقد أنها معجونة بعرق جبينه فلا يمّن بها عليه أحد حتى ذبل جسمه وشحب لونه وعرقت عظامه وأصبح أشبه بالهيكل منه بالإنسان .

أما اللباس فقد أصبح عارياً منه إلا قليلاً ، ولقد باع في الأسابيع الأخيرة جميع ثيابه ، فلم يبق له منها إلا رداء واحداً من الصوف الأسود يتعهده بالترقيع من حين إلى حين ، ولا أدري ماذا يكون شأنه غداً إذا نزل به ضيف الشتاء القادم فلا يجد في غرفته المظلمة الباردة بصيصاً ولا قبساً .

فقال الدوق : إنك تبالغ كثيراً يا لبريه في الحزن عليه والرثاء له ، فسيرانو رجل عظيم لا يكترث بآلام الحياة ومصائبها ولا ينظر إليها بمثل العين التي تنظر بها إليها ، ولقد عاش طول حياته حراً مستقلاً في آرائه ومذاهبه غير مبال بما يلاقية في هذه السبيل من المكاره والآلام ولا يزال شأنه في حاضره مثله في ماضيه فاعجبوا به كل الإعجاب ولا تهينوه بالتألم له والبكاء عليه .

فدهش لبريه وظل ينظر إلى الدوق نظراً حائراً مضطرباً لأنه ما كان يتوقع منه بعد الذي كان بينه وبين سيرانو أن يجري لسانه بكلمة ثناء عليه أو إعجاب به ، فقال له الدوق : لا تعجب يالبريه ، فإنني وإن كنت أعلم أنني قد نلت من حياتي كل شيء وأنه قد حرم كل شيء ، فأنا أعتقد أنه خير مني وأن نفسه تشتمل على أفضل مما تشتمل عليه نفسي ، وليتني أستطيع أن أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه وأن أضع يده في يدي فأصافحه الصديق للصديق .

ثم نهض قائماً وقال : أستودعك الله يا روكسان ، فنهضت روكسان لتوديعه ومشت معه تشيعه إلى الباب فقالت له وهي تسايره — وكان ذيل ردائها يجر معه كثيراً من أوراق الشجر الجافة المتساقطة فيحدث صوتاً أشبه بالحفيف : أتقول الحقيقة عن سيرانو يا سيدي أم أنت تتهكم به؟ قال : لا ، بل أقول الحقيقة التي أعتقدها ، وأقسم لك يا روكسان أنني كثيراً ما غبطته بيني وبين نفسي وتمنيت أن أكون مثله ، فدهشت وقالت : ولكنك عظيم يا مولاي؛ قال : إن المرء حينما يصل إلى ذروة العظمة في الحياة لا بد أن تمر به ساعات مهما كان طاهراً وبريئاً يشعر فيها ببعض آلام خفية تلذع نفسه وتؤلمها ، وربما لا تبلغ في قوتها وتأثيرها مبلغ تبكيت الضمير ، ولكنها على كل حال تزعجه وتقلقه وتستولي على شيء من راحته وسكونه ، وهل استطاع العظماء أن يكونوا عظماء إلا لأنهم ارتقوا سلماً بنيت درجاتها من جماجم الموتى وأشلائهم ، أو أن يناموا ملء جفونهم إلا لأنهم أسهروا كثيراً من عيون البائسين والمعدمين في سبيل راحتهم وهنائهم ، أو أن يمشوا في طريقهم رافعي الرؤوس شامخي الأنوف إلا لأن وراءهم كثيراً من المطرقين الصامتين الذين لا تفارق أنظارهم الأرض هماً وكمداً ... وربما لا يشعرون بشيء من تلك الجرائم التي يقترفونها وهم في نشوة عزهم وضوضاء عظمتهم ولكنهم متى خلوا إلى أنفسهم وأووا إلى مضاجعهم ساورتهم تلك الآلام الخفية اللاذعة التي لا يشعر بمثلها الجائعون والظامئون ، والمرضى والمعوزون ، لا تصدقي يا سيدتي أن في الدنيا سعيداً واحداً قد خلت كأسه التي يشربها من قذى ينغصها عليه ، ولا بد للعظيم وهو صاعد إلى قمة عظمته أن يشعر أن ذيل معطفه المسبل وراءه يجر معه كثيراً من أنات الباكين وصرخات المتألمين

الذين بنى عظمته على أنقاض شقائهم فيسمع لها خشخشة كخشخشة الأوراق الجافة التي يجرها وراءه ذيل معطفك الآن .

ثم وقف في مكانه وأطرق برأسه طويلاً فنظرت إليه روكسان ذاهلة ووضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتتألم يا مولاي ؟ قال : نعم فما نحن سعداء إلا في أنظار الناس واعتباراتهم ، ولو كشف لهم من خبايا نفوسنا ما كشف لنا منها ، ولمسوا بأيديهم مواقع الألم من أفئدتنا لرثوا لنا أكثر مما نرثي لهم ، ولرأوا أننا أولى الناس بالرحمة والإشفاق منهم ، وليتهم يقفون على هذه الحقيقة فيعلموا أن السلامة والنجاة وراحة النفس وهدوءها في القناعة والإقلال ، فيستريحوا من هموم الأحقاد وآلامها ، فإنهم ما حسدونا ولا اشتعلت بين جوانحهم نيران الحقد والموجدة علينا إلا لأنهم ظنوا أننا سعداء ، ولو نظروا إلينا بالعين التي ننظر بها إلى أنفسنا لتضرعوا إلى الله تعالى أن ينجيهم مما ابتلانا به ويريحهم من همومنا وشقائنا ؛ ثم مد يده إليها فصافحها وقال : أستودعك الله يا سيدتي ، والتفت وهو منصرف إلى لبريه وكان لا يزال واقفاً في مكانه فهتف به قلباه ، فقال له : لي كلمة أريد أن أقولها لك فتعال معي ، فمشى وراءه فالتفت إليه وقال له : نعم إن صديقك سيرانو بطل شجاع كما تقول روكسان ، ولكنني علمت من طريق خاص لا أستطيع أن أبوح لك به أن بعض أعدائه قد عزم على قتله غيلة فاذهب إليه وحذره ؛ وليقلل من الخروج من منزله ما استطاع ، قال : ذلك مستحيل يا سيدي ، لأنه لا يهاب شيئاً ولا يخاف أحداً ، قال : لا تفارقه لحظة واحدة فحياته في خطر عظيم ، قال : سأفعل ما أستطيع يا مولاي ، وسأشكر لك فضلك ما حييت ، ثم تناول يده فقبلها وانصرف .

فما سار إلا قليلاً حتى رأى « راجنو » مقبلاً عليه ، يولول

ويستغيث فسأله ما باله؟ فقال : خطب عظيم يا لبريه ، قال : أي خطب؟ قال : قد أصيب صديقنا قال : سيرانو؟ قال : نعم ، قال : قل كل شيء وأوجز ، قال خرجت اليوم من منزلي ذاهباً إليه لزيارته في منزله ، فلما وصلت إلى رأس الشارع الذي يسكنه رأيته خارجاً من المنزل فهرعت إليه لأدركه ، حتى إذا لم يبق بيني وبينه بضع خطوات ، إذ سقط على رأسه من أحد المنازل المهجورة جذع عظيم ، يخيل إليّ أنه لم يسقط عفواً بل تعمده به متعمد ، فصرخ لبريه : يا للنذالة والجبن ! ثم ماذا؟ قال : فدنوت منه فرأيت ويا هول ما رأيت ذلك الصديق الكريم ، والرجل العظيم والشاعر النابغة الجليل ملقى على الأرض ، مضرجاً بدمائه ، وقد فتح في رأسه جرح كبير ... قال : وهل مات؟ قال : لا ، ولكن حالته سيئة جداً ، فحملته إلى منزله أو إلى ذلك الجحر الضيق الذي يسمونه منزلا ... قال : وهل يتألم؟ قال : لا ، لأنه فقد رشده فلم يعد يشعر بشيء ، قال : ألم يزره طبيب؟ قال : أشفق عليه طبيب من جيرانه فزاره ، قال : وارحمتاه لك أيها الصديق المسكين ! لا تخبر روكسان الآن بهذا الخبر ، وماذا قال الطبيب؟ قال : لم أفهم من كلامه شيئاً ؛ فإنه أخذ يردد كلمات كثيرة : حمى التهاب ، أغشية ... الخ آه يا سيدي لو رأيته وقد دارت برأسه الأربطة والضمائد وأصبحت صورته أشبه شيء بصور الموتى في قبورهم ، هيا بنا نذهب إليه فهو وحيد في غرفته وأخاف أن يحاول القيام من فراشه فيسقط ميتاً ؛ ثم ذهبا يعدوان ويتلهفان .

النغمة

جلست روكسان أمام منسجها في فناء الدير تنتظر حضور

سيرانو وكان قد جاء ميعاده الذي يحضر فيه من يوم السبت من كل أسبوع وأخذت تقول : ما أجمل هذا اليوم ! إن الخريف يخفف عني كثيراً من آلامي التي يهيجها الربيع ويستثيرها ، فحمداً لك يا إلهي على ما منحت وصبراً على ما ابتليت ، ولك المنة العظمى في حالي رضاك وسخطك ونعمائك وبأسائك ، ما أعظم شكري لك يا سيرانو ! إنك رسول العناية الإلهية إليّ والعزاء الباقي لي في هذه الحياة بعدما فقدت كل عزاء وسلوى ! فليت الله يتولى جزاءك عني فإني لا أستطيع أن أقوم بشكرك .

وهنا حضرت راهبتان تحملان بين أيديهما المقعد الذي اعتاد سيرانو أن يجلس عليه عند حضوره ، فوضعتاه وراء مجلس روكسان فشكرتهما وانصرفتا ، ثم دقت الساعة الرابعة فأصغت إليها روكسان حتى انتهت دقاتها ثم قالت : إنه سيأتي الآن ، وأخذت تردد نظرها جهة الباب هنيهة فلم يحضر ، فمدت يدها إلى علبة ابرها وخيوطها ، وظلت تقول بينها وبين نفسها : قد دقت الساعة الرابعة منذ دقائق ولم يحضر ، أين خيوطي ؟ ها قد وجدتها ، هذا يدهشني جداً ! إنها المرة الأولى التي تأخر فيها عن ميعاده منذ خمسة عشر عاماً ، لا بد أن تكون الأخت « مارت » قد أزعجته بنصائحها وعظاتها ، أين كستباني ؟ ليت شعري ماذا حدث له ؟ قد أوشك الظلام أن يخيم ألوان الخيوط قاتمة فلا أستطيع التمييز بين متشابهاتها ، إنه ما تأخر عن زيارتي قبل اليوم ، ولكن لا بد أن يحضر الآن ، وهنا سقطت ورقة جافة من الشجر على منسجها فاصفرت وقالت : ورقة ميتة قد انقضى أجلها فهوت إلى مستقرها . يالله لا يمكن لشيء من الأشياء .. إن الأوراق الجافة المتساقطة تزعجني جداً لا يمكن لأي شيء مهما كان أن يحول بينه وبين الحضور .

وما أتمت كلمتها حتى وقفت راهبة على رأس السلم وصاحت : السيد برجراك فانتعشت روكسان وقالت : ليدخل ، فدخل وهو مصفر الوجـــه يتوكأ عـــلى عصاه ويمشي ببطء شديد ، وقد أسدل قبعته على جبينه فسترت الضمائد المحيطة برأسه ، وكانت روكسان مشتغلة بترتيب منسجها ، فلم تلتفت إليه حتى جلس على مقعده وحياها ، فقالت له بنغمة العاتب دون أن تلتفت إليه : هذه أول مرة تأخرت فيها عن ميعادك منذ خمسة عشر عاماً يا سيرانو ، فأجابها بصوت قاتم مظلم يحاول أن يجعله ضاحكاً رناناً : نعم يا سيدتي ، يا لغرائب الدهر ، ما كنت أظن أن شيئاً في العالم حتى الموت ، يستطيع أن يحول بيني وبين الحضور إليك في ميعادي . آه إني أكاد أموت .. غيظاً وحنقاً .. ما أخرني عنك إلا ضيف ثقيل « يريد الموت » جاء لزيارتي في وقت غير مناسب ، وما كنت أتوقع أن يفد إليّ في مثل هذه الساعة ، قالت : وكيف تخلصت منه ! قال : لم أتخلص منه حتى الآن ، وكل ما في الأمر أني اعتذرت إليه وقلت له : إن اليوم يوم السبت وهو الميعاد الذي يجب عـــليّ فيه أن أقوم بزيـــارة صديق كريم لا يمكن أن يحول بيني وبين زيارته في هذا الميعاد حائل ، فاذهب الآن وعد إلي بعد ساعة واحدة ، قالت : إذن سيطول انتظاره لك إذا عاد إليك لأني لن أسمح لك بالخروج من هنا قبل المساء ، قال : ربما اضطررت للذهاب قبل ذلك ، وأغمض عينيه وأطرق برأسه وكانت الأخت « مارت » مارة في تلك اللحظة فأومأت روكسان إليها برأسها فحضرت فقالت لسيرانو وهي لا تزال مشتغلة بترتيب خيوطها : إنك لم تمزح مع الأخت « مارت » كعادتك يا سيرانو ، فانتفض ورفع رأسه فدهشت « مارت » عند رؤيته وفغرت فاها وحاولت أن تتكلم فأشار إليها بالصمت فلم تفهم شيئاً ولكنها

صمتت فقال لها بصوت ضخم مضحك : اقتربي مني أيتهـا الأخت ، مالك تعرضين عني يا ذات العينين الجميلتين ، هاتي يدك البيضاء لأقبلها باسم البركة والعبادة لا باسم الحب والغرام ، واقتربي مني لأخبرك خبراً غريباً جداً ، قالت وهي ترثي له ولحاله : وما هو ؟ قال : قد أكلت بالأمس لحماً ودسماً فما رأيك ؟ فهزت رأسها وظلت تقول بينها وبين نفسها : وارحمتاه له ، إنه يكذب عليّ وربما مر به يومان لم يذق فيهما طعم الخبز كما فعل في المرة السابقة ثم قالت له : أحب أن تزورني في غرفتي قبل خروجك من هنا فسأقدم إليك هدية من الحلوى جميلة جداً ، فقالت له روكسان احذر أن تذهب إليها يا سيرانو فإنها تريد أن تعظك . فقال سيرانو : أظن أن عظاتك الماضية يا مارت قد أخذت مأخذها من نفسي ، فقد أصبحت أقرب إلى الإيمان مني إلى الكفر ، ولذلك أسمح لك أن تصلي الليلة في معبدك من أجلي ؛ فدهشت «مارت» وقالت : ماذا تقول ؟ أتهزل أم تجد ؟ قال : قد فات وقت الهزل ولم يبق أمامي إلا الجد ، فانصرفت لشأنها وهي تعجب لأمره كل العجب وأقبل هو على روكسان وقال لها وهي لا تزال مكبة على منسجها : ليت شعري هل أعيش ، وهل يعيش العالم ، حتى يرى ختام هذا النسيج ؟ قالت : كنت في انتظار سماع هذه الكلمة منك يا سيرانو ، إن نسيجي لا ينتهي حتى تنتهي ملحك وأحماضك .

وفي هذه اللحظة هبت ريح شديدة فتساقطت على الأرض أوراق كثيرة من الأشجار فانقبضت روكسان وقالت : إن تساقط هذه الأوراق يحزنني جداً ؛ قال : أما أنا فعلى عكس ذلك لأنه يعجبني منها كثيراً أنها رغم حزنها على فراق أغصانها التي تركتها ورغم فزعها من الفناء الذي يستقبلها على وجه الأرض فهي تتساقط

برقة ورشاقة وتقضي هذه السياحة القصيرة بين الحياة والموت ماثسة مختالة كأنها في حفلة رقص .أو مجمع شراب ، فقالت : إني أسمع منك نغمة حزن يا سيرانو فهل أنت حزين ؟ قال : لا ، وليس من عادتي أن ألجأ إلى الحزن في أي موقف من المواقف حتى في الموقف الذي يحزن فيه الناس جميعاً ، قالت : فلندع الأوراق تتساقط كيفما تشاء وأسمعني جريدتك الأسبوعية فإني في شوق عظيم إليها ، قال : اسمعي يا سيدتي . وكان الألم قد نال منه منالاً عظيماً وبدأ الذهول يخيّم على عقله فأنشأ يقول :

يوم السبت : أصيب الملك بمرض الحمى على أثر ثماني أكلات أكلها من عنب « سيت » فحكم الطبيب على مرضه بطعنة مبضع في قلبه لاقترافه جريمة الاعتداء على صاحب الجلالة .

يوم الأحد : أشعلوا ليلة الحفلة الكبرى في قصر الملك ثلاثاً وستين وسبعمائة شمعة بيضاء . يقولون إن جيوشنا قد انتصرت على جيوش جان النمسوي . شنق أربعة من السحرة . حقنوا كلب السيدة « دانيس الصغير .

فاعترضته روكسان وقالت : ما هذه الأخبار يا سيرانو ؟ فاستمر في كلامه يقول :

يوم الإثنين : لا شيء سوى أن « ليجدامير » استبدلت بعشيقها ، فتململت روكسان وقالت : ما هذا الذي تقول ؟ إنك تمزح يا صديقي ، فلم يلتفت إليها وظل يقول :

يوم الثلاثاء : انتقل البلاط كله إلى « فونتنبلو » .

يوم الاربعاء : قالت السيدة « دي منتجلا » للكونت دي

فيسك « لا » !

يوم الخميس : توجت « فانسيني » ملكة على فرنسا أو ما هو في معنى ذلك .

يوم الجمعة : قالت السيدة « دي منتجلا » للكونت دي فيسك « نعم » .

وهنا ثقلت عيناه ، واحتبس صوته ، واهتز هزة شديدة ، ثم سقط رأسه على صدره ، وساد من حوله سكون عميـــق ، فاستغربت روكسان سكوته والتفتت وراءها فرأته على هذه الحالة ولم تكن قد نظرت إليه قبل هذه اللحظة فارتاعت وهرعت إليه ووضعت يدها على عاتقه ونادته : سيرانو ! فانتفض ورفع رأسه وظل يدير يديه حول قبعته ويضغطها ضغطاً شديداً ويقول : لا شيء ، أؤكد لك يا سيدتي أن الأمر بسيط جداً ، قالت : قل لي ما بالك يا سيرانو ؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك ؟ قال : لا شيء ، إنه الجرح القديم الذي أصبت به في معركة « أراس » لا يزال يعاودني من حين إلى حين ، حتى الآن ، فتنهدت ، وأرسلت بصرها إلى السماء ، ثم قالت : كل منا له جرح قديم يا سيرانو ، غير أن جرحك في جسمك ، وجرحي هنا دائماً لا يندمل أبداً ، وأشارت إلى قلبها ، ثم قالت : هنا كتاب الوداع الأخير الذي كتبه إليّ قبل موته قد تشعث وتقبض واصفر ورقه ، ولا تزال آثار القطرتين : قطرة الدمع ، وقطرة الدم ظاهرة فيه . فارتعد سيرانو وقال : كتابه الأخير ؟ وشخص ببصره إلى السماء كأنما يتذكر شيئاً بعيداً ثم قال : ألا تذكرين يا روكسان أنك كنت وعدتني مرة بإطلاعي على هذا الكتاب ؟ قالت : نعم أذكر ذلك ، قال : هل لك أن تفي بوعدك الآن ؟

قالت : هاهو ذا ، ومدت يدها إلى صدرها فأخرجت الكتاب من كيس صغير حريري معلق في عنقها ، وأعطته إياه ؛ ثم عادت إلى مقعدها .

وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله على أكناف الدير ، فأخذت روكسان ترتب خيوطها وإبرها لتضع في علبتها وأخذ سيرانو يقرأ الكتاب بصوت عال رنان كأنما هو يخطب أو يهتف ويناجي ويقول : .

الوداع يا رَوكسان ، فإني سأموت عما قليل ، وربما كانت هذه الليلة آخر ليالي في الحياة .

كنت أرجو أن أعيش بجانبك ، لأتولى حراسة سعادتك التي عاهدت نفسي على أن أكفلها لك ما حييت ، فحالت المقادير بيني وبين ذلك ، فليت شعري ماذا يكون حالك من بعدي ؟ إنني لا أخاف الموت من أجلي بل من أجلك . ويخيل إليّ أنك ستقضين من بعد موتي أياماً شديدة عليك وعلى نفسك الرقيقة الحساسة ، وهذا كل جزعي من الموت . فوارحمتاه لك أيتها الصديقة المسكينة !

وكانت روكسان تصغي إلى قراءته ، ذاهلة مدهوشة ، وتقول بينها وبين نفسها : ما أغرب صوته ، وما أعظم تأثيره ! إنه يقرأ وكأنه يحدثني ويناجيني ، ويخيل إليّ أن وراء هذه النغمة الغريبة التي ينطق بها سراً كامناً في أعماق نفسه ، واستمر هو في قراءته يقول :

ستغتمض عيناي بعد قليل ، وستنطفيء تلك النظرات التي

كانت مرآتك الصقيلة التي تتراءى فيها صورتك البديعة الساحرة وترتسم فيها دقائق حسنك ، وأسرار جمالك . فمن لك بمرآة ترين فيها نفسك بعد أن تمتلىء عيناي بتراب القبر ؟

إن بين جنبي كنزاً ثميناً من حبك لم أستطع أن أكشف لك إلا عن مقدار قليل من جواهره ولآلئه ، وكنت أود أن أفرغه جميعه بين يديك قبل موتي ولكن ماذا أصنع وقد أعجلني الموت عنه ولا حيلة لي في قضاء الله وقدره .

الوداع يا روكسان ، الوداع يا حبيبتي ، الوداع يا حبيبتي ، الوداع يا أعز الناس عليّ وآثرهم في نفسي ، إن قلبي لم يفارقك لحظة واحدة في حياتي وسيبقى ملازماً لك بعد مماتي ، فليكن عزائي عنك أن روحي سترفرف عليك وتحوم حولك في كل مكان تكونين فيه ، فكأننا لم نفترق وكأن حجاب الموت المسبل دوننا وهم من الأوهام وباطل من الأباطيل .

وكان قد ذهل عن الكتاب الذي في يده وعن كل ما يحيط به من الأشياء ولم يبق في خياله سوى أن يناجي المرأة التي يحبها ويفضي إليها بأسرار نفسه ويودعها الوداع الأخير ، فأغمض عينيه واستغرق في شعوره ووجدانه واستحال صوته إلى صوت غريب ، لا يشبه الأصوات في رنته ونغمته لأنه صوت الروح وهتافها ونفثاتها المتصاعدة إلى آفاق السماء ، فظلت روكسان تضطرب وترتعد وتقول بينها وبين نفسها : إنها نغمة غريبة جداً تذكرني بنغمة مثلها سمعتها في ساعة من ساعات حياتي الماضية فليت شعري متى كان ذلك ؟

وكان الظلام قد نشر ملاءته السوداء على أكناف الدير فالتفتت

إليه وحدقت النظر فيه فلمحت بياض الكتاب في يده فعجبت له كيف يستطيع القراءة في هذا الظلام الحالك ، فنهضت من مكانها ومشت نحوه تختلس خطواتها اختلاساً حتى بلغته فوقفت بجانبه فرأت عينيه مغمضتين ورأته لا يزال مستمراً في قراءته فاشتد ذعرها وخوفها ووضعت يدها على كتفه وقالت له : كيف تستطيع القراءة والظلام حالك وعيناك مغمضتان ؟ فانتفض انتفاضة شديدة فسقط الكتاب من يده وسقط رأسه على صدره .

وساد بينهما سكون عميق ذهل كل منهما فيه عن نفسه ثم أخذت روكسان تستفيق شيئاً فشيئاً وتقول بينها وبين نفسها : آه ماذا أرى ! إن الأمر هائل جداً ! إن النغمة التي أسمعها منه الآن هي بعينها النغمة التي كانت ترن في أذني ليلة الشرفة منذ خمسة عشر عاماً ! لا بد أن يكون هو صاحبها . آه ما أعظم شقائي ! لقد فهمت الآن كل شيء وليتني ما فهمت شيئاً ، ثم وقفت أمام سيرانو صامتة مطرقة وحتى استفاق من غشيته فتقدمت نحوه وأخذت بيده وقالت له : لا تخف عني شيئاً يا صديقي فقد علمت الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها ، لقد كنت أنت الذي ناجاني ليلة الشرفة وحدثني عن الحب وكشف لي عن خبايا القلب الإنساني ؛ فقاطعها وهو يرتجف ويرتعد وقال : لا ... لا لم أكن أنا ، قالت : وكان الظلام في تلك الليلة حالكاً جداً فلم أستطع أن أتبينك لأعلم أنك أنت الذي يحدثني ويناجيني ، فصاح : لا ، أقسم لك ، قالت : وكانت تلك الكلمات العذبة الجميلة التي سحرتني وملكت علي شعوري ووجداني كلماتك . فصرخ : لا بل كلماته ، قالت : وذلك الصوت الموسيقي الذي كان يرن في أذني رنين القيثارة الإلهية في آذان سكان السماء كان صوتك . قال : لا . قالت : وتلك الرسائل البليغة المؤثرة التي جشمتني

مشقة السفر من باريس إلى أراس كانت رسائلك؟ قال : لا ، قالت : وذلك الكتاب الذي قرأته الآن بتلك النغمة العذبة الجميلة كان كتابك . قال : لا تصدقي ذلك يا سيدتي فما أذكر أنني أحببتك في حياتي قط ، قالت : أحببتني ولا تزال تحبني حتى الساعة . قال : ذلك مستحيل لأن مثلي لا يجرؤ على أن يحب مثلك . قالت : ذلك ما حملك على كتمان أمرك وتمثيل هذا الدور المحزن الأليم . قال وقد بدأ صوته يضعف ويتهدج : إنك واهمة يا روكسان ، قالت : ما أنا بواهمة ولا مخدوعة ، ولم كتمت أمرك عني هذه السنين الطوال ما دمت تحبني وما دام هذا الكتاب كتابك وهذه الدمعة دمعتك ؟ قال : ولكن الدم دمه ، قالت : قد اعترفت من حيث لا تدري ، فوارحمتاه لك أيها البائس المسكين وأطرقت برأسها إطراقاً طويلاً لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيه ، وإنهما لكذلك إذ دخل لبريه وراجنو وهما يصيحان ويولولان حتى دنوا من سيرانو فقال لبريه : ماذا صنعت بنفسك أيها المسكين ؟ ولماذا جئت إلى هنا وقد أوصاك الطبيب بملازمة فراشك لا تبرحه لحظة واحدة ؟ فصاحت روكسان : الطبيب ! ولماذا ؟ قال لبريه : ألا تعلمين ما حل به يا سيدتي حتى الآن ؟ قالت : لا أعلم شيئاً ؛ فأراد أن يقص عليها القصة فقاطعه سيرانو وقال له : أتدري يا لبريه لِمَ جئت إلى هنا رغم أوامر الطبيب ؟ قال لا ، قال لأتلو على روكسان الجريدة الاسبوعية التي اعتدت أن أتلوها عليها يوم السبت من كل أسبوع ولا أستطيع أن أخلف وعدي لها ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : إنني لم أتمم لك جريدتي الأسبوعية فاسمحي لي بإتمامها ، ثم أنشأ يقول : وفي يوم السبت الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٥٥ « قتل المسيو سيرانو دي برجراك » .

وهنا حسر قبعته عن رأسه فظهرت الأربطة والضمائد المحيطة به مضرجة بالدم ، فذعرت روكسان وحنت عليه وقالت : ما صنعوا بك يا صديقي ؟ قال :كنت أتمنى طول حياتي أن أموت في ميدان حرب بضربة سيف من يد بطل ؛ فقضى الله أن أموت في زقاق ضيق بجذع شجرة من يد خادم لأكون قد حرمت كل شيء في حياتي حتى الميتة التي أحبها ، وأطرق برأسه ثانية وظل على ذلك ساعة ، وقد ساد من حوله سكون عميق لا تسمع فيه إلا معمعة الأحشاء المتقدة في قلوب الجاثين حوله .

ثم استفاق قليلاً فرفع رأسه وفتح عينيه فرأى راجنو جاثياً تحت قدميه يبكي وينتحب فقال له : لا تبك يا راجنو وقل لي : ما مهنتك اليوم ، فإن لك في كل يوم مهنة جديدة . قال : أنا الآن خادم عند « مو لبير » ، ولكني سأترك خدمته منذ الغد ، قال : لماذا ؟ قال : لأنه لص من لصوص الأدب ، وهم عندي أقبح اللصوص وأسفلهم ، قال وهو يبتسم : هل سرق من شعرك شيئاً ؟ قال : لا ، بل من شعرك أنت ، فقد سطا على روايتك أجريبين » فأخــذ منها موقفــاً كاملاً وضمنه روايتــه الجديدة « إسكابين » التي مثلت ليلة أمس ، قال : لقد أحسن فيما فعل ، وماذا كان وقع ذلك الموقف في نفوس الجماهير ؟ قال : ما زالوا يضحكون حتى رحموا أنفسهم . قال : ذلك كل ما يهمني ، فلقد قدر لي طول عمري أن يكون دوري في رواية الحياة دور الملقن الذي لا يعده الجمهور شيئاً ، وهو كل شيء ، ثم التفت إلى روكسان وقال لهــا : أتذكرين تلك الليلة التي كنت أحــدثك فيها بلسان كرستيان ؛ قالت : نعم أذكرها ولا أذكر شيئاً سواها ، قال : إنها رمز حياتي من أولها إلى آخرها ؛ صعد كرستيان منذ خمسة عشر عاماً إلى شرفتك ليتناول القبلة التي سمحت له بها

مكافأة له على تلك الكلمات البليغة المؤثرة التي أنا صاحبها ومبتكرها ، واليوم يتمتع «موليير» بهتاف الجماهير وتهليلهم إعجاباً بتلك القطعة الهزلية البديعة التي خطها قلمي ، وما أنا بآسف على ذلك ولا واجد فكرستيان فتى جميل فيجب أن ينال هو القبلة وموليير شاعر شهير فيجب أن يكون هو صاحب القطعة . والتفتت حوله فرأى الراهبات داخلات إلى الكنيسة في ملابسهن البيضاء وهن يرتلن صلواتهن على نغمات «الأرغن» فأصغى إلى أصواتهن ساعة ، ثم تأوه طويلاً وقال : آه ما كنت أعبأ بالحياة ولا آسف على شيء فيها لولا الموسيقى وروكسان ، ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن في السماء موسيقى كما في الأرض ، وأن الصديقين اللذين يفترقان في هذه الدار يلتقيان في الدار الآخرة غداً فليس ورائي ما آسف على فراقه . فصاحت روكسان : ابق في الحياة يا سيرانو فإنني أحبك . قال : ذلك مستحيل إلا إذا استطاعت كلمتك هذه أن تمحو قبحي ودمامتي ، كما روا في بعض الأساطير أن أميراً دميم الخلقة سمع مرة من يقول له : إني أحبك ، فتلاشى قبحه بتأثير تلك الكلمة وأصبح جميلاً وضيئاً ، ولو أنني عشت بعد اليوم ألف سنة ما نقص ثقل أنفي قيراطاً واحداً ، فبكت واشتد نشيجها وقالت : اغفر لي ذنبي يا سيرانو ، فقد كنت السبب في جميع ما حل بك في حياتك من المصائب . قال : لا ، بل بالعكس فلقد قضيت حياتي كلها محروماً لذة عطف المرأة وحنانها حتى إن أمي كما حدثوني لم تكن تستطيع أن تراني جميلاً كما يرى الأمهات أولادهن المشوهين ، ولو كانت لي أخت أو عمة أو خالة لكان شأنهن معي ذلك الشأن ، ولم أر يوماً من الأيام في عيون النساء جميعاً جميلات كن أو دميمات غير نظرات الهزء والسخرية والنفور والاشمئزاز ، وأنت المرأة الوحيدة التي

استطاعت أن تتخذني صديقاً واستطعت أن ألجأ من عطفها ورحمتها إلى ظل ظليل فما أعظم شكري لك ، فقالت : عش يا سيرانو فإني أحبك ، بل ما أحببت في حياتي أحداً سواك ، وما لبست ثوب الحداد خمسة عشر عاماً إلا من أجلك . قال : لا تحاولي الغدر بكرستيان يا سيدتي واحذري أن يجف حزنك عليه وبكاؤك على مصرعه فإنه صديقي ، وكل ما أطلبه إليك : أن تضمي إلى شارات حدادك شارة صغيرة من أجلي ليكون حزنك عليّ جزءاً من حزنك عليه ، فصاحت : آه ما أشقاني لقد أحببت في حياتي حبيباً واحداً ففقدته مرتين .

وكان كوكب الليل قد أشرق من مطلعه ، فانبسطت أشعته في فناء الدير فانتعش سيرانو حين رآه وقال : ها هو ذا صديقي « فيبيه » قد أرسل إليّ أشعته لتحملني إليه فشكراً له على ذلك ، سأصعد الليلة إلى السماء على نعش جميل من تلك الأشعة الفضية اللامعة دون أن أحتاج إلى تلك الآلات الرافعة التي سردتها على الكونت دي جيش ، وسيكون مقامي هناك في ذلك الكوكب الجميل مع تلك النفوس العظيمة ، التي أحبها وأجلها : سقراط وأفلاطون وغاليلي وجميع الذين ماتوا ضحايا صدقهم وإخلاصهم .

وهنا انتحب لبريه وقال : وا أسفاً عليك أيها الصديق الكريم ! وما أشد ظلمة الحياة من بعدك ! فانتبه إليه سيرانو وقال له : لا تحزن عليّ كثيراً يا لبريه فإني ذاهب لملاقاة صديقي كاربون دي كاستل وسائر أبناء وطني الذين ماتوا ميتة الشرف والفخار في ميدان أراس وسيكون مجتمعنا هناك جميلاً جداً لا يكدره علينا ممثل ثقيل ولا نبيل جاهل ولا شاب مغرور .

وصمت صمتاً طويلاً كان يعاني فيه من الآلام مالا يحتمله

بشر ، ثم ثار من مكانه هائجاً مضطرباً وجرد سيفه من غمده وأخذ يصيح : لا لا ، لا أريد أن أموت على هذا المقعد ميتة العاجز الجبان ، فذعر أصدقاؤه ، ونهضوا بنهوضه ، وحاول راجنو أن يمسكه فدفعه عنه وأسند ظهره إلى شجرة ضخمة وقال : دعوني فإني أريد أن أموت واقفاً . وأخذ ينظر أمامه ويحدق النظر كأنما يرى شبحاً مقبلاً عليه ، ثم قال : تعال أيها الموت تقدم ولا تخف ، فقد أصبحت رجلاً ضعيفاً خائراً لا قبل لي بمواثبتك ومغالبتك ، تقدم فما أنا بسيرانو دي برجراك إنما أنا خياله الماضي وصورته الضئيلة ، فهل بلغ بك الجبن أن تخاف الصور والخيالات ؟ لقد ضعف في يدي ذلك السيف الذي كنت أقاتلك به وأصبح رأسي ثقيلاً ويداي مغلولتين ، وكأن قدمي مصبوبتان في قالب من الرصاص، أقبل ولا تخف، مالي أراك تنظر إلى أنفي نظر الساخر الهازىء : أشماتة هي أيها الساقط الجبان ، ماذا تقول إنك أقوى مني ، نعم ما أنكرت عليك ذلك ، ولكني على هذا سأقاتلك وأثبت ، لا لأني أطمع في أن أنتصر عليك ، بل لأني أريد أن أموت ميتة الأبطال من قبلي . ثم أخذ يدير عينيه يمنة ويسرة ويقول : من هؤلاء ! مرحباً بكن أيتها الرذائل ، لقد عرفتكن يا أعدائي القدماء ، ما أكثر عددكن وأقبح وجوهكن ، نعم سأموت ، ولكن بعد أن شفيت منكن غليلي ومثلت بكن أقبح تمثيل .. اغربن من وجهي قبحكن الله وقبح صوركن وأزياءكن .

وظل يطعن بسيفه يميناً وشمالاً ، وأمام ووراء ويقول : خذ أيها الكذب ، خذ أيها الطمع ، مت أيها الغدر ، تباً لك أيتها السافلة ، سحقاً لك أيتها الخيانة .

وظل يدور حول نفسه ساعة حتى بلغ منه الجهد فسقط بين

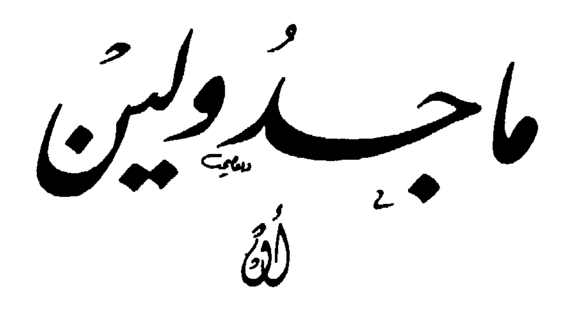
أذرع لبريه وراجنو ، وظل على ذلك هنيهة ، ثم فتح عينيه وحدق النظر أمامه طويلاً وقال : تقدم أيها الموت وخذ ما تريد مني ، أتدري ماذا تستطيع أن تسلبني ! إنك تستطيع أن تسلبني حياتي وجسمي ، وهذا السيف العزيز علي ، وهذه الريشة التي وضعتها يد الفخار في قبعتي بل جميع ما تملك يدي ، ولكن شيئاً واحداً لا تستطيع أن تسلبنيه ، وسيرافقني في سفرتي التي انتويتها إلى السماء حتى أقف بين يدي الله تعالى رافع الرأس عزة وفخاراً ، وهو ... وهنا عجز عن النطق فحاول أن ينطق الكلمة التي أرادها فلم يستطع ، فانحنت عليه روكسان وقبلته في جبينه وأرسلت دمعة حارة على وجهه وقالت : وما هو يا سيرانو ؟ ففتح عينيه للمرة الأخـــيرة فرآها فابتسم وقال : حريتي واستقلالي ! ثم خفق قلبه الخفقة التي لم يخفق بعدها .

وكذلك انقضت حياة هذا الرجل العظيم كما تنقضي حياة أمثاله من العظماء لم يتمتع يوماً واحداً برؤية مجده وعظمته حتى إذا قضى سمح له التاريخ بعد مماته بما ضن به عليه في حياته . أما روكسان فلم يعلم الناس من أمرها بعد ذلك شيئاً سوى أن مقعدها الذي كانت تقعد عليه أمام منسجها قد أصبح خالياً مقفراً ، فلم يعرفوا : ألزمت جوف محرابها تدعو الله تعالى ليلها ونهارها أن يلحقها بصديقها ، أم رقدت بجانبه في مقبرة الدير الرقدة الدائمة ؟

تمت

القسم السادس

ماجدولين



تأليف الكاتب الفرنسي الشهير

الفونس كار

(١)

من ماجدولين الى سوزان

سواء لديّ أقرأت كتابي هذا أم مزقته فهو خلو من كل شيء يهمك العلم به أو النظر إليه .

كل ما يمكنني أن أطرفك به من الأخبار أن أقول لك إن أشجار الربيع قد بدأت تبتسم عن أزهارها ، وأن النسيم العليل يحمل إليّ في غرفتي هذه الساعة التي أكتب إليك فيها شذى أول زهرة من زهرات البنفسج وأول عود من أعواد الزنبق .

ويمكنني أن أخبرك أيضاً وإن كنت لا أعرف لمثل هذه الأخبار معنى — أن الغرفة التي كانت خالية في الدور الأعلى من منزلنا قد سكنها اليوم فتى اسمه « استيفن » غريب الأطوار في وحشته ونفوره وانقباضه عن الناس حتى يكاد يظن الناظر إليه أنه بائس أو منكوب ، فهو ينزل في صبيحة كل يوم إلى الحديقة وبيده كتاب واحد لا يغيره ، فإذا جلس للقراءة فيه علق نظره بأول سطر يمر به ثم لا ينتقل عنه بعد ذلك ، فهو في الحديقة مطرق إلى الأرض من حيث يظن الرائي أنه يقرأ في كتاب ؛ فإذا رآني مارة أمامه رفع رأسه إليّ وحياني تحية وجيزة ، ثم انتقل من مكانه وانساب بين الأشجار ، أو صعد إلى غرفته ، لذلك لم تتصل بيني وبينه معرفة حتى اليوم ، وربما لا يقع شيء من ذلك فيما بعد ،

لأني لا ألتمس السبيل إلى التعرف به ولا أحسب أنه يلتمسه ، فإن كنت لا بد سائلة عما يتساءل عنه النساء في مثل هذا الموقف فأقول لك إن الفتى ليس بجميل ولا جذاب ، بل إن في منظره من الخشونة والجمود ما ينفر نظر الناظر إليه ، وأحسن ما فيه أني سمعته ليلة وكانت نافذة غرفتي مفتوحة يغني غناء شجياً مؤثراً وإن كان لا يجري فيه على قاعدة من قواعد النغم فهو يطرب البؤساء والمحزونين ولا يعجب الموسيقيين المتفننين ؛ ولقد تمكن أبي من مجالسته هنيهة فحدثني عنه أنه من المتعلمين الأذكياء ، وبعد : فأحسب أني أمللتك يا سوزان بحديث يتعلق أكثره بإنسان لا شأن لي ولا لك معه ، فلا تعتبي عليّ ، فهذا كل ما تستطيع أن تملأ به صفحات كتابها فتاة تعيش في قريتها الصغيرة عيشاً متشابه الصور والألوان ، لا فرق بين ليله ونهاره ، وصبحه ومسائه ، لا تطلع الشمس فيه على مرأى جديد ، ولا تغرب عن منظر غريب .

(٢)

من ماجدولين الى سوزان

الجو رائق ، والسماء مصحية ، وقرص الشمس يلتهب التهاباً ، والأرض تهتز فتنبت نباتاً حسناً ، والأرض تنتفض عن أوراقها اللامعة الخضراء ، والهواء الفاتر يترقرق فينبعث إلى الأجسام فيترك فيها أثراً هادئاً لذيذاً ، وكل ذلك لا قيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، فإني أشعر أن الحياة مظلمة قاتمة ، وأن هـذا الفضاء على سعته وانفراج ما بين أطرافه ضيق في أعيني من كفة الحابل ، وأن منظر العالم قد استحال إلى شيء غريب لا أعرفه

ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأنني أفتش عن شيء ، وما أفتش عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدها ، فإذا نال مني التعب أويت إلى أشجار الزيزفون في الحديقة لأستريح في ظلالها قليلاً ، فلا يكاد يعلق نظري بأول زهرة يروقني منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأني أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، فأتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استفقت وجدتني لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالقاً بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراماً فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقترب القلوب من القلوب وتمتلىء الحدائق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك الساعة التي أخلو فيها بنفسي فأناجيها بهمومي وأحزاني وأذرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صدري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الهموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مأتاه ؛ حتى يخيل إلي أحياناً أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشتد خوفي واضطرابي .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحيون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأني لا أعرف لي

داء فأعالجه ، ولا يوم شفاء فأرجوه .

كل أسباب العيش حاضرة لديّ ، وأبي لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتي ، ولا هناء غير هنائي ، ولا يعجبه منظر من مناظر الجمال في العالم سوى أن يراني باسمة ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تذبل أوراقها وتموت زهراتها في سبيل قضاء مرافقي وحاجاتي ، فأنا إن شكوت فإنما أشكو بطراً وأشراً وكفراناً بأنعم الله التي يسبغها عليّ ويسديها إليّ ، فغفرانك اللهم ورحمتك ، فإني ما اعترفت بجميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أياديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيناها معاً ، وتلك السعادة التي كنا نهصر أغصانها ، ونجني ثمارها . ونطير في سمائها بأجنحة من الآمال والأحلام ، فأندبها وأبكي عليها ، وأحن إليها حنين الليل إلى مطلع الفجر والجدب إلى ديمة القطر .

(٣)

من إدوار إلى استيفن

الآن عرفت أنك لا تثق بي ولا تعتمد عليّ وأنك لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين آثرت مغاضبتهم والتبرم بهم من أفراد أسرتك ، فقد كتمت عني ما كنت أرجو أن تفضي به إليّ من تبرم ذات نفسك فيما اعتزمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكني لم أوثر أن أنزل بك في الود إلى المنزلة التي نزلت بي إليها ، فلم أر بداً من أن أكتب إليك .

إنا نبتنا معاً يا استيفن في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة يغذونا ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شببنا فاختلفنا كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبتهما ثمرة وشكلا ، ولذلك أنت تفر مني الفرار كله وتتقبض عني ، ولا تراني أسلك فجاً من فجاج الأرض إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد بحياة غير التي أسعد بها ، وتهنأ بعيش غير الذي أهنأ به ، ونطرب لنغمة غير التي تسمعها مني ، ولا تستطيع أن ترى في وجهي تلك المرآة التي تحب أن ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إبهـــام .

إنك لا تبغضني يا استيفن ، ولكنك لا تحب أن تراني ، لأنك تعلم أن لي في الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ، فأنت تخاف أن تسمع مني ما يفجعك في تصوراتك وأحلامك ، ويكدر عليك لذائذك التي تجدها في العيش في ذلك العالم الخيالي المظلم ، وتقنع بها فيه قناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح خيالاتهم السوداء .

كن كما تشاء وعش كما تريد ، فستنقضي أيام شبابك وستنقضي بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهنالك تنزل من سمائك التي تطير فيها ألى أرضي التي أسكنها ، فنتعارف بعد التناكر ونتواصل بعد التقاطع ونلتقي كما كنا .

لا بد أن نفترق اليوم لأننا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع بعد اليوم لأننا سنتفق ، فلا بأس أن تكتب إلي وأكتب إليك ، وأن نتواصل على البعد إبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً بها ، ورعاية لها حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلو فيه عن نفسها وتبرز من مكمنها .

إن أهلك يعجبون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك مكرت بهم ، وأضللتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بنيتك التي انتويتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك الفتاة التي أعدوها لك ، وعندي أنهم أصابوا فيما يقولون ، وأنك مخطيء فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يتسع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وهنائه لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً .

أخوك يحبك كثيراً ، ولا يزال يحدثني عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

(٤)

خواطر استيفن

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الفجر ولا أزال ساهراً قلق المضجع ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأهتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأ بي ، وينذرني بيوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة ، ما كنت أحسبه أماني وآمالا ، ويرى أن جميع ما أقدره لنفسي من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يسعدون

بوجودها . فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا يعجز عن أن يتعهدها بلطفه وعنايته حتى تخرج ثمارها وتتلألأ أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناحي هذه القوادم والخوافي لا يرضى أن يهيضني ويتركني في مكاني كسيراً لا أنهض ولا أطير . وإن الذي سلبني كل ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور وغبطة ، ولم يبق لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن يقسو عليّ القسوة كلها فيسلبني تلك الثمالة الباقية التي هي ملاك عيشي ، وقوام حياتي ...

على أنني ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستحيلاً . فكل ما أطمع فيه من جمال هذا العالم وزخرفه ؛ رفيق آنس بقربه وجواره ؛ وأجد لذة العيش في التحدث معه ؛ والسكون إليه ؛ وما الرجال كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين مخادع النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يعثر بالمرأة التي خلقت له فيقر قراره ، ويلقي عصاه .

وبعد : فأي مقدور من المقدورات تضيق به قوة الله وحكمته ، وأي عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يبدع في تصوراته وتخيلاته الذهنية فوق ما تبدع يد القدرة في مصنوعاتها وآثارها ، وهل الصور والخيالات التي تمتلىء بما اذهاننا وتموج بها عقولنا إلا رسوم ضئيلة لحقائق هذا الكون وبدائعه ، ولو أن سامعاً سمع وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزوله ، أو جمال غابة من الغابات ، أو شموخ جبل من الأجبال ، ثم

رأى بعد ذلك عياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيالاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال التصورات وحقائق الموجودات فوق هواتف الخيالات ، لذلك أعتقد أني ما تخيلت هذه السعادة التي أقدّرها لنفسي إلا لأنها كائن من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا ريب فيها .

إن اليوم الذي أشعر فيه بخيبة آمالي ، وانقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يحياها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يخفق بغير حب .

(٥)
الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى « مولر » والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه فلم ير بد من أن يحييه فحياه بتحية حيي بأحسن منها ؛ ثم أراد أن يستمر أدراجه فرآه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير في شدقيه فاستحيا أن يمضي لسبيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرابه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً ، أو أمراً مريباً ؛ ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدّره عليّ إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تتمشى في أعضائي ، فما أمر مذاق الشيخوخة ، وما

أثقل مؤونتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بنكباء ولا رمضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل يوم تبكير الغراب إلى قمم الجبال وشواطىء الأنهار عاري الرأس حافي القدم ، أمرح وألعب وأتأثر طرائد الصيد في مسارحها وملاعبها ؛ فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات إلا وقوفي في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها البيضاء كساء أتقي به هذه الرعدة ، وأمتع نظري برؤية الفتيات الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة الثلجية . وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين لم تنزل اليوم كعادتها فلعلها بخير ، قال : نعم ، هي بخير ، ولكن ضيفاً من أقربائنا نزل بنا أمس فلم أر بداً من أن أكل إليها أمره والعناية به فتركتهما وذهبت لشأني ، وإن كنت أعلم أن ماجدولين ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها من الشمس تلك الخيوط البيضاء التي تنحدر إليها من نافذة غرفتها . ثم ذهبنا في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما لكذلك إذ فتح باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشميد مقبلان يحدثها فتتهلل ، وتحدثه فيبتسم ، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان ، لا قريبين يتسامران ، فخيل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده غير مستحسن ولا مستعذب.

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهى بالنظر إلى بعض الزهرات وود لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضا طريقه فسلما عليه فرد رداً فاتراً .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خميلة من الخمائل ، فما خطا فيها بعض خطوات حتى سمع الفتى يغرب في الضحك ؛ فما

شك أنهما في شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع هزئهما وسخريتهما ، وأنهما ماضحكا إلا للعبث به والزراية عليه ، فأحس في قلبه بدبيب البغض لذلك الفتى ، وود بجدع الأنف لو وجد السبيل إلى منازلته في ميدان خصام يضربه فيه ضربة تهشم أنفه وتخضب الذي فيه عيناه ليقنعه أنه ليس سخرية الساخر ، ولا أضحوكة الضاحك .

ثم عاد إلى نفسه يسائلها عن السبب في انقباضه ووحشته ، وعن تلك الحال الغريبة التي ألمت بفؤاده منذ الساعة ويقول : مالي ولهذا الفتى ؟ وبأي حق أحمل له بين جنبي ما أحمل من الضغينة والموجدة ؟ فما أنا بعاشق للفتاة فأغار منه عليها ! ولا هو بمزاحم لي على هوى فأبغضه فيه ! ولم يزل يسائل نفسه أمثال هذه الأسئلة فلا تجيبه ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى عرف أنه لا يسمع خارج الخميلة صوتاً فبرز من مكمنه فلم ير أمامه أحداً فخرج من الحديقة هائماً على وجهه بين الغابات والأحراش حتى أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ، وإنه ليمر أمام باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد نسيه ، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشميد ، وأنه لا بد أن يكون سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ، ولا ينفس الإنسان على صاحبه شيئاً يكون في نظره حقيراً ، فتريث في مشيته قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران بموقفه ، فدنا منهما وأنشأ يتسمع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ، ثم انقطعا عن الحديث وأنشأت ماجدولين تغني غناء شجياً قد يكون عذباً لذيذاً في نفس استيفن لولا أن أذناً أخرى غير أذنه تزاحمه على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع خفق نعال تتقدم نحو الباب . فابتعد عن مكانه حتى خرج الفتى وخرجت ماجدولين وراءه تشيعه في غلالة رقيقة بيضاء لا تلبسها الفتاة إلا بين يدي

عشيقها أو من لا تحتشمه من ذوي قرباها ، فرأى في وجهها صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل ، وأحس في نفسه بشيء غير الذي كان يحس به عند رؤيتها ، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها فعاد إلى موقفه الأول ، وما زال راكعاً أمام بابها حتى مشت جذوة النهار في فحمة الليل ، فصعد إلى غرفته ، وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الهذيان ، ولا الجنون ولا الوسواس ، ولا حرارة الحمى كما كان يظن ، وإنما هو الحب !.

(٦)

الدعـــوة

دخل مولر على ابنته ذات يوم فقال : يا بنية إني دعوت اليوم جارنا الذي يسكن في الغرفة العليا من منزلنا إلى العشاء عندنا في الساعة السابعة فأعدي له الطعام ، واعلمي أنك ستغنينا في هذه الليلة فقد وعدته بذلك ، وقد لقيت من كرم هذا الفتى وعلو همته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالنبات وطبائعه ما حبّبه إليّ ، وأنزله من نفسي المنزلة العليا ، ولا بد أن أتخذه صديقاً ، وأن تكون تلك الدعوة فاتحة تلك الصداقة ، ثم تركها وخرج إلى الحديقة وظل مشتغلاً بشأنه فيها حتى مالت الشمس إلى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس إلى نافذة غرفته المطلة على الحديقة ينتظر ضيفه ، وإنه لكذلك إذ رآه خارجاً من باب الحديقة يعدو عدواً شديداً ، وفي يده رسالة مفضوضة فهتف بابنته يقول : يا مجدولين ، ما أحسب إلا أن جارنا قد حيل بينه وبين الوفاء بوعده فقد رأيته الساعة خارجاً يعدو من باب الحديقة ، ثم رأيته

قد سلك تلك الطريق التي لا ينتهي فيها السائر إلى غرض إلا بعد سفر عشرة أميال ؛ فقالت : لا بد أن يكون قد عرض له شأن ما كان يقدره في نفسه . فلا بد أن ننتظره حتى يعود . ثم جلسا صامتين ، هذا يدخن لفافته وتلك تخيط ثوبها ، حتى علما أنه لن يعود ، فقاما إلى العشاء ، ثم إلى المنام .

(٧)

الزيـــارة

جلس مولر إلى ابنته ، فنظر نظرة في النجوم ، وقال : ما أحسب إلا أن السماء ستمطرنا في هذه الليلة مطراً غزيراً يبلل هذه التربة الظامئة ، ويملأ هذه البقاع الجرداء ، فما أجمل الربيع ، وما أجمل غيوثه المنهلة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام من نسج يده تلك الغلائل الخضراء ، فقالت ماجدولين : لا تنس يا أبت أن كثيراً من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون في مثل هذه الليلة الماطرة من تدفق الغيوث فوق رؤوسهم واعتراض الوحول في طريقهم ، وبعد الشقة عليهم ما لا طاقة لهم باحتماله ، فوارحمتاه لهم إن الشقاء كامن لهم في كل شيء حتى في الشؤون التي يسعد بها غيرهم ، فاكتأب مولر وقال : نعم يا مجدولين إنهم أشقياء بؤساء ولا بد أن يكون استيفن واحداً منهم ، فقد مر الهزيع الأول من الليل ، ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعد ما قضى ليلة أمس خارجه ، فأخذت هذه الكلمة مكانها من نفس ماجدولين فأطرقت برأسها تقلب صحائف كتابها ولا تقرأ منه شيئاً ، وإنهما لكذلك إذا طارق يخفق الباب خفقاً ضعيفـــاً ،

فاضطربت ماجدولين ودهش مولر وقامت جنفياف إلى الباب ففتحته فإذا استيفن ماثل بعتبته فاستأذن ودخل ، وهو يقول : عفواً يا سيدي إن كنت ترى أنني لم أف لك بوعدي فقد أرسل إليّ أخي كتاباً يدعوني فيه إلى مقابلته على الحدود لتوديعه قبل سفره إلى الحرب ، فأعجلني كتابه عن كل شيء حتّى عن اعتذاري إليك فمشيت إليه عشرة أميال لا أتريث ولا أتئد حتّى بلغته فودعته وداعاً جمع بين السرور له والحــزن عليه . أما السرور فلأني رأيته فرحاً مغتبطاً برحلته يغني أنشودة الحرب مرة ، ويلاعب جواده أخرى ، ويمشي مشية الخيــلاء بين ريش قبعته وخمائل سيفه ، وأما الحزن فلأني أخاف أن يسبقني القدر إليه فيحول بيني وبينه ، فأصبح في هذه الحياة غريباً منفرداً ، لا أجد بين هذه القلوب الخافقة حولي قلبــاً يحزن لحزني ، ولا بــين هــذه العيون الناظرة إليّ عينا تبكي لبكائي ، وهنا ذرفت من عينه دمعة كادت تبكي لها ماجدولين ، ولكنها لم تفعل ذلك حياء وخجلا ، وألقت عليه نظرة عطف ورحمة من حيث لا يشعر ، حتّى إذا التفت إليها استردت نظرتها وألقتها على صفحة كتابها ، فقال مولر : لا تجزع يا بني فالله أرحم بك من أخيك وأرحم بأخيك من نفسه ، ثم أخذ بيده إلى مائدة الشاي وجلسا يشربان معاً وأنشأ مولر يحدث صاحبه عن الشاي ومغرسه ، ومنبته وأعواده وأوراقه ، وأنواعه وألوانه ، وطريقة طبخه وأصل كلمته ومصدر اشتقاقها وآراء علماء النبات في ذلك وردود بعضهم على بعض وردوده هو عليهم جميعاً ، وما زال يثرثر في ذلك ويسهب ظاناً أن استيفن حاضر معه واستيفن عنه في شغل بما يختلس من نظرات ماجدولين وما تختلس من نظراته حتّى فرغا من شأنهما ، فاقترح مولر على ابنته أن تغني لهما صوتاً فأنشأت تغنيه بنغمة تخالطها رعدة الخائف

أو رنة المحزون ، فما أتت عليه حتى طرب له استيفن طرباً ملك عليه قلبه وأحاط بعواطفه ومشاعره ، وشعر كأن الفضاء يدور به ، وكأن قد بدلت الأرض غير الأرض والسموات ثم خاف أن يمتد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتنهاهض للقيام فمشى معه مومر إلى الباب يشيعه ويقول : زرنا يا استيفن كلما بدا لك أن تفعل ، فما دون مزارك باب موصد ، فانصرف بقلب غير قلبه ، وعقل غير عقله ، وحال بين جنبيه غريبة لا عهد له بمثلهـــا من قبل .

(٨)

المـــرأة

قضت ماجدولين ليلتها راكعة في معبدها مستغرقة في صلاتها تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، وينير لها ظلمة هذه الحياة الجديدة التي بدأت تسير فيها ؛ وقد ألمت بنفسها في تلك الساعة عاطفة غريبة متنوعة الألوان مختلفة الأشكال ، كأنما هي مزيج من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء الخائب ، فكانت تبتسم مرة حتى تلمع ثناياها وتبكي أخرى حتى يبتل رداؤها ، ولا تعلم ما الذي أضحكها ، ولا ما الذي أبكاها ولم تزل على حالها تلك حتى حلق طائر الكرى فوق أجفانها ، فاضطجعت في مصلاها ، وأسلمت روحها إلى خالقها .

أما استيفن فقضى ليله جالساً إلى نافذة غرفته يقلب وجهه في السماء كأنما هو يساهر كواكبها ونجومها ، ويفضي إليها بما ألم

بنفسه في تلك الساعة من سروره إلا أنه أصبح يشعر في نفسه ببرد الراحة من البحث على ضالة غرام ظل ينشدها ويتعلق بآثارهـــا عهداً طويلاً حتى وجدها . وأن نفسه التي كانت حبيسة بين جنبيه قد أشرقت عليها شمس الحب فانتعشت ورفرفت بجناحيها في الفضاء . فأنشأ يحدث نفسه ويقول : أحمدك اللهم فقد ظفرت بالحياة التي كنت أقدرها لنفسي ، ووجدت المرأة التي كنت أصورها في مخيلتي ، وما المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون فتنير ظلمته ، والبريد الذي يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق ، والهواء المتردد الذي يهب الإنسان حياته وقوته ، والمعراج الذي تعرج فيه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى ، والرسول الإلهي الذي يطالع المؤمن في وجهه جمال الله وجلاله ، ففي وجه هذه الفتاة التي عثرت بها اليوم قد عثرت بحياتي وسعادتي ، ويقيني وإيماني .

وكان يخيل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب الذي ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التي يراها بين يديه ، فكان يرى في صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع في حفيف الأشجار صوت الحب ، ويستروح في النسيم المترقرق رائحة الحب ، ويرى في كل ذرة ثغراً باسماً ، وفي كل نأمة عوداً ناغماً .

ولم يزل يهتف بهذه التصورات حتى انحدر برقع الليل عن وجه الصباح فهجع في مرقده قليلاً . ثم قام فنزل إلى الحديقة يترقب نزول ماجدولين إلى منتزهاتها فلم تنزل حتى أخذت الشمس مكانها من كبد السماء ، فرابه من أمرها ما رابه فلم ير بداً من زيارة مولر فمشى إلى المنزل بقدم مضطربة وقلب خفاق حتى بلغ الباب فقرعه ، ثم شعر أن شعبة من شعب قلبه قد سقطت

بين أضلاعه ، وأن لسانه قد التوى عليه فأصبح لا ينطق ولا يبين فندم على أن لم يكن قد سلك سبيلاً غير تلك السبيل ، وتمنى لو فترت الخادم قليلاً في خطواتها إليه حتى يستجمع رويته وأناته ، ويسترد إليه ما تفرّق من شمله ، فكان له ما تمناه ولم تفتح جنفياف الباب إلا بعد فراغها من شأن كان لها ، فسألها أين مولر فمشت أمامه إلى قاعة الأضياف ثم تركته وذهبت لتخبر سيدها بمكانه ، وكان يقرأ في قاعة الكتب ؛ فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يدور بعينيه في جوانب الغرفة فرأى على مقربة منه باباً مفتوحاً يلوح من ورائه سرير قائم ، فعلم أنه مخدع ماجدولين ؛ فتسمع فلم ير أحداً فهاجه الشوق إلى اقتحامه فاقتحمه ، وهو يعلم أنها المخاطرة بعينها ولكنه كان على حال لا ينتفع فيها بما يعلم ، فدخل واقترب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعثاً ، ولكان رأس ماجدولين من الوسادة لا يزال منخفضاً ، ورأى بين يدي السرير حوضاً مملوءاً ماء وإلى جانبه كرسي قد انتشر فوقه رداء مبتل ، ثم نظر إلى الأرض فرأى بللاً يمثل أقداماً صغيرة ، فعلم أن في هذا السرير كانت ماجدولين نائمة ، وفي هذا الماء كانت تبترد وبهذا الرداء كانت تتمسح ، وعلى هذه الأرض كانت تنتقل ، فجمد في مكانه جمود الصنم في هيكله ، وأخذ يقول في نفسه لقد سعد السرير الذي لامسها ، والرداء الذي ضمها ، والأرض التي لثمت أقدامها ، والماء الذي انحدر على جسمها ، ثم مشى إلى الرداء المنتشر فأخذ يلثمه كما يلثم العابد المتشدد ستائر معبده .

وتهافت على الأرض يقبل آثار تلك الأقدام . ثم خيل إليه أنه يسمع من ورائه صوتاً فرجع إلى نفسه وعاد منفتلاً إلى مكانه الأول ؛ فما لبث إلا قليلاً حتى دخل عليه مولر فحياه وقال له : عفواً يا استيفن فقد شغلني عنك أني كنت أفتش في قواميس اللغة

عن أصول أعلام نباتية ما زلت معنياً بأمرها منذ اليوم ، فهل لك أن تكون عوناً لي عليها على شرط أن لا تفارق منزلي قبل الغداء ، فابتسم استيفن ابتسامة الرضا والقبول ، لأنه علم أنه سيقضي وقتاً طويلاً في منزل ماجدولين . ثم ذهبا معاً إلى قاعة الكتب فلما أخذا مكانهما منها أنشأ مولر يشرد على صاحبه تلك الأعلام التي يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها وما رآه علماء النبات في مصادر اشتقاقها وما بدا له في المآخذ عليهم ؛ فإذا ورد في كلامه اسم كتاب قام إلى خزانة الكتب واستخرجه وتصفح أوراقه حتى يجد الكلمة التي يريدها فيتلوها بنغمة الهازىء الساخر ويقول : هكذا يرى الأستاذ فلان ! أما أنا فأرى غير ما يراه ؛ وماذا عليّ إن بدا لي غير ما بدا له فالعلم ليس وقفاً على المؤلفين والمدونين ! وإنما هو قرع الحجة بالحجة ودفع الرأي بالرأي .

وما زال يهدر في حديثه هدير الجمل المخشوش واستيفن لاه يردد النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين عله يرى ماجدولين داخله ؛ فقال له مولر : أراك تنظر إلى الباب كثيراً كأنك تخاف أن يلج علينا الغرفة والج فيكدر علينا خلوتنا ، فاعلم أنه ما من أحد في هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمري ويقتحم عليّ باب قاعتي من غير إذن ، وهنا صاحت الخادم تدعوه إلى الغداء فلم يقطع حديثه ، فصاحت به مرة أخرى فنهض متثاقلاً ومشى متباطئاً لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام ، فراع استيفن أنه لم ير حول المائدة غير مقعدين ، فعلم أن أحدهما له ، وأن الآخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر ؛ فوجم وجوم الحزين المكتئب واستمر يأكل صامتاً لا يتحدث ولا يصغي إلى حديث حتى فرغا ، فقال له مولر : لقد أراد الله بي خيراً إذ أرسلك إليّ في هذا اليوم فقد كدت لا أجد لي في هذه الوحدة مؤنساً ،

ولا على هذه المائدة رفيقاً ، فإن ابنتي سافرت منذ الصباح لزيارة إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء فهل لك أن تنزل الحديقة لنرتاض فيها قليلاً ؟ فنزلا ، فما أمعنا فيها إلا قليلاً حتى سمع مولر صوت الخادم تصيح به من النافذة أن قد عادت سيدتها ، فمد يده إلى استيفن مودعاً وتركه مكانه خائراً مشدوهاً وليس وراء ما به من الهم غاية .

(٩)

الحـــيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين في الحديقة فر من وجهها ، وسلك طريقاً غير طريقه ، ليخلو بنفسه لحظة يصور فيها الموقف الذي يقفه بين يديها ، والتحية التي يجمل به أن يحييها بها ، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة أدراجها إلى المنزل ، فكان يحمل في سبيل ذلك من الهم ما يقلق مضجعه ويطيل سهده ، ويحول بينه وبين قراره ، فلا يرى بداً من الفرار بنفسه إلى الغابات والأجمات والهيام على وجهه في قمم الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ليروّح عن نفسه بعض ما ألم بها ، واستمر على ذلك أياماً طوالاً لا يمشي في الحديقة ولا يرى ماجدولين ولا يزور مولر ، حتى تلفت نفسه ، وذهب به اليأس كل مذهب ، فعاد يوماً من بعض مذاهبه محموماً لا يكاد يتماسك ضعفاً واضطراباً فلزم غرفته أياماً يعالج داء قلبه وداء جسمه ما لا طاقة له باحتماله .

وكانت جنفياف قد ألمت بجملة حاله فكاشفت بها سيدها فصعد

إلى غرفته ليعوده فرآه مستفيقاً بعض الاستفاقة فسأله عما به فانتحل له عذراً فجلس إليه يحادثه ساعة ، فلما أراد القيام مد استيفن يده إلى طاقة بنفسج كانت في آنية إلى جانب وسادته وقال له : إني جمعت هذه الطاقة لماجدولين لأني أعلم ولعها بالغريب المستطرف من الزهر ، فلعلك تنوب عني في تقديمها إليها ، فأخذها مولر شاكراً وانصرف .

ومرت بعد ذلك أيام كان فيها استيفن بين يأس الحياة ورجائها حتى أدركته رحمة الله فأبل من مرضه فنزل إلى الحديقة وقد استقر في نفسه العزم على أن لا يفر من وجه ماجدولين إذا رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، وينفض لها جملة حاله ، ولم يلبث أن رآها مقبلة عليه وجهاً لوجه فلم ير سبيلاً للفرار من بين يديها ، فحياها فحيته ثم أغضى فأغضت ، فلم ير بداً من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المعيب ، فاستنصر قوته وتجمع تجمع من يريد الوثوب فوق هوة عميقة ، وأراد أن يقول شيئاً فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحمد الله على أن كفاه تلك المؤونة ، قالت : أراك يا سيدي شاحب اللون ، خائر النفس فلعلك عالجت من مرضك هذا عناء كبيراً ، قال : نعم، قالت : أشكر لك يا سيدي هديتك الثمينة التي بعثت بها إلي ، ولقد أعجبني منها أن تلك الزهرة هي أحب الزهور إلي ، فكأنما ألهمت ما في نفسي ، وإني أعجب لشعرائنا في إغفالهم ذكر هذه الزهرة في أشعارهم كما ذكروا غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها في حسنها ورونقها ، ولا أذكر أني قرأت لأحد منهم شعراً فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا جيتي ، وهنا وجد استيفن متسعاً في الحديث عن الشعر والشعراء ، والنبات والزهر ، فاستمر يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها فودعته وانصرفت ، فصعد إلى غرفته وقد

عزم أن يراسلها فيما عجز عن مفاتحتها فيه .

(١٠)

من سوزان الى ماجدولين

كنا قد عزمنا على أن نزورك في قريتك يا مجدولين أنا ووالدي فحدث حادث حال بيننا وبين ذلك : دعانا أحد الاصدقاء لزيارته في بلدته ، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من قريتنا ، ولا تبعد عن قريتك إلا قليلا فذهبنا إليه صبيحة يوم وقضينا في منزله عدة ساعات حتّى إذا زلفت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الخلاء للتنزه في غاباته وأجماته ، وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمري أنني لا أجد في نفسي تلك اللذة التّي يجدها الشعراء المتخيلون في جمال الطبيعة وحسنها ، وبهجتها ورواثها ، ولا أغتبط بما يغتبطون به من منظر الغابات والأحراش والجبال والآكام ، ولا أطرب لخرير الماء ، ودوي الريح ، وهزيم الرعد ، وحرارة الشمس ، ووعث الطريق ، وخشونة الأرض ، واقتحام الصخور ، والتعثر بين أغوار الفلاة وأنجادها ، كما يطربون ، ولكنّي لم أر بدأ من مصانعتهم ومجاملتهم ، فمشيت صامتة ومشوا يتحدثون بجمال الحياة القروية ، ويتمدحون بعيش العزلة بين سكون الطبيعة وهدوئها ، وجمال الكائنات وجلالها ، والله يعلم أنه ما من أحد منهم يعلم من نفسه أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتمنى لنفسه ذلك الشقاء الذي يحسد الأشقياء عليه ، فكان مثلهم في ذلك كمثل أولئك الكتاب المرايين الذين يكتبون الفصول الطوال في مدح الفلاح ، والتنويه بذكره ، والثناء على يده البيضاء في خدمة المجتمع الإنساني ، حتّى إذا مر ذلك المسكين بأحدهم وأراد أن يمد يده

لمصافحته تراجع وكفكف يده ضناً بها أن تلوثها بأقذارها تلك اليد السوداء .

وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطىء النهر فراعنا أن رأينا هنالك جمعاً عظيماً من الناس يتدفع فوق الشاطىء الآخر تدفع الموج المتراكم ، ويشير إلى الماء بأصبعه وينادي : الغريق الغريق ؛ النجدة النجدة ! فالتفتنا حيث أشاروا ؛ فإذا رجل بين معترك الأمواج يصارع الموت والموت يصرعه ويغالب القضاء والقضاء يغلبه ، يطفو تارة فيمد يده الى الناس فلا يجد يداً تمتد إليه ، ويرسب أخرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فتحسبه من الها لكين ؛ وما زال يتخبط ويتشبث ، ويظهر ، ثم يختفي ، ويتحرك ثم يسكن ، حتى كلّ ساعده ، ووهت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمه ، ولم يبق أمام أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تختلج ، فبكى الباكون وأعول المعولون ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض كأنما يتساءلون عن رجل رحيم ، أو شهم كريم ، وإنهم لكذلك إذا رجل عار يدفع الجمع بمنكبيه ، وينزلق بين الناس انزلاق السهم إلى الرمية ، حتى ألقى بنفسه في النهر وسبح حيث هبط الغريق فهبط وراءه ، وما هي إلا نظرة والتفاتة أن انفرج الماء عنهما فإذا هما صاعدان ، وقد امسك الرجل بذراع الغريق . فكبر الناس إعجاباً بهمة المخلص ، وفرحاً بنجاة المسكين .

ولكننا ما كدنا نستفيق من هذا المنظر المحزن حتى راعنا منظر آخر أجل منه وقعاً وأعظم هولاً ، فقد رأينا الغريق كأنما جن جنونه فظن أن مخاصه يريد به شراً ، وأنه ما أمسك بذراعه إلا وهو يريد أن يهوي به إلى قاع الماء فيعيده سيرته الأولى ، فأفلت منه وضربه بجميع يده في صدره ضربة شديدة ، ثم أنشب أظافره

في عنقه ولفه بساقيه لفة خلنا أن عظامه تئن لها أنيناً ، فاستيأس الرجل وعلم أنه هالك ما من ذلك بد ، فرفع يديه إلى السماء وهتف بإسم أظنه اسمك يا ماجدولين ، فلم أفهم ماذا يريد ، ولا من هي تلك التي يريد ، ثم ما لبثا أن هوى الماء بهما ، وجرى مجراه فوقهما ، فخفقت القلوب ، ووجفت الصدور وخفتت الأصوات وامتدت الأعناق ، وتواثبت الأحشاء وتزايلت الأعضاء ، ومشى اليأس في الرجاء مشي الظلام في الأضواء ، ومرت على ذلك دقائق لا تضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ، ففزعت إلى أبي ذاهلة حائرة وقلت : أيتعذب الغرقى كثيراً في مصارعة الموت ؟ فبكى لبكائي ، وقال : نعم يا بنية ، ولقد يبلغ الأمر ببعضهم أن يدور بيده في قاع الماء يفتش عن حجر يضرب به رأسه ضربة قاضية يستريح بها من الآلام والأوجاع . فركعت على كثيب من الرمل ورفعت إلى السماء يدي وقلت اللهم إنك أعدل من أن تجازي بالإحسان سوءاً وبالخير شراً ، فلقد أبلى هذا الرجل في إنقاذ هذا الغريق بلاء حسناً ، وبذل في سبيل ذلك من ذات نفسه ما ضن به الناس جميعاً ، فامدد يدك البيضاء التي طالما مددتها لإنقاذ البائسين واكشف عنه كربته التي يعالجها إنك أرحم الراحمين .

ثم استغرقت في دعائي ، فلم أعد أشعر بشيء مما حولي ، حتى سمعت ضجة على الشاطىء فاستفقت ، فإذا النهر يتثاءب عن الرجل ، وإذا الرجل صاعد وحده حتى بلغ سطح الماء فهتف به الناس : أن انج بنفسك فقد أبليت ! فأبى عليه كرمه ووفاؤه أن يكون قاسياً أو منتقماً ، فألقى بنفسه في الماء مرة أخرى ، وعاد بالغريق يحمله على كتفه ، وما زال يسبح به حتى بلغ الشاطىء فسقطا جميعاً . فتولى القوم أمرهما ، وما زالوا بهما حتى أفاقا ؛

فمشى الغريق إلى مخلصه بعد ما ألم بقصته معه يتوجع له ويمسحه ، ويشكر له يده عنده ، ويعتذر له عن ذنبه إليه ، ثم انفض الجمع ، وبقي الرجل وحده فلبس ثيابه ، ثم مشى يتحامل على نفسه إلى شجرات بنفسج كن على الشاطىء فأخذ يقتطف من زهراتهـا ويضعها في منطقته ، كأنما يريد أن يتخذ منها طاقة يجعلها لتلك الحادثة تذكاراً ، فتركناه عـلى حالة وعدنا إلى المنزل صامتين محزونين ؛ وقد فاتنا ما كنا نؤمل من زيارتك في ذلك اليوم .

لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا ، فقـد أصبحت لا أذكر تلك الحادثة إلا وأجد لذكراهـا من الألم في نفسي ما يخيل إلي أنها حاضرة بين يدي ، وربما كتبت إليك فيما بعد ، والسلام .

(١١)

المكاشفة

مال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، ودب الظلام في الأضواء دبيب البغضاء في الأحشاء وسكن كل صوت إلا صوت العصافير المزدحمة على أبواب أعشاشها . وجلس استيفن في الحديقة تحت ظلال أشجار الزيزفون يترقب نزول ماجدولين . وقد كتب لها كتاباً نطق فيه قلمه بما عجز عنه لسانه ، فنشره بين يديه وأنشأ يقلب نظره فيه فخيل إليه أنه غير مستعذب ولا سائغ ، وأن في كل جملة من جمله موضع ضعف ، فاستقر رأيه على أن يطويه حتى يكتب لها خيراً منه ، ثم رآها مقبلة نحوه تحمل في يدها كتاباً ، فلما دنت منه ابتسمت له وقالت له : أتذكر

يا سيدي مكان الشجرات التي اقتطفت منها زهرات البنفسج التي أهديتها إلي؟ فاضطرب لسؤالها ، وقال : نعم ، إنها على ضفة نهر صغير يبعد عنا فرسخاً أو فرسخين ، قالت : اقرأ هذا الكتاب فإن لك فيه ذكراً ؛ فأخذ منها كتاب سوزان في حادثة الغريق وأمرّ نظره عليه مراراً فعرف كل شيء فرده إليها صامتاً وهو لا يدري ماذا يقول ، فقالت : إنك تكتم عني نفسك يا استيفن فقد عرفتك وعرفت يدك البيضاء في حادثة الغرق وبلاءك فيها وما عالجت من آلام الحمى على أثرها ، ثم مدت يدها إليه فصافحته ، فلم يكن بين تلامس كفيهما ، وخفوق قلبيهما ، إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ، ولبثا بعد ذلك ساعة صامتين لا ينطقان ، إلا أن في الجبين لغة لا تقرأها إلا العيون ، فقرأ استيفن في وجه ماجدولين لوعة الحب وألم الحزن ، واضطراب الجأش وحيرة النفس ، وقرأت في وجهه الحب والسعادة والدهشة والسرور المتلألىء والدمع المترقرق فهاجها هذا المنظر فأرسلت من محاجرها أول دمعة من دموع الحب ، فبكى لبكائها وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم ، وشعر في نفسه وقد ضمها إليه بتلك العاطفة اللذيذة التي يجدها الغريب النائي عن أهله وجيرانه إذا لاقى في مطارح غربته غريباً مثله يأوي إليه ، ويحنو عليه ، ثم أخذ بيدها فألصقها بكبده كما يفعل المريض بيد عائده ليدله على موضع ألمه ، وكأنما هو يقول لها : إن لغة اللسان لا تكشف لك عما اشتملت عليه أضالعي من الوجد بك ، والحنين إليك ، فالمسي قلبي بيدك لتعرفي مكنونه ، وتكشفي غامض سريرته ، ثم خر راكعاً بين يديها وقال : أتحبينني يا ماجدولين؟ فلم تجب ، فأعاد كلمته فاستمرت في صمتها ، فمد يده إليها ضارعاً وقال : رحماك يا ماجدولين ، إنني أخاف أن أكون في حلم ، وأن تكون

هذه السعادة التي أراها بين يدي خيالاً من الخيالات الكاذبة التي كانت تتراءى في أحلامي الماضية فأغتبط بها وأسكن إليها حتى إذا ما استيقظت وجدت يدي صفراً منها ، فأسمعيني كلمة الحب لأعلم أنك حاضرة لدي ، وأنني لست واهماً ولا حالماً .

ومرت بهما على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسهما إلا من مرت به في يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا يشعران أنهما في معزل عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة في انفرادهما وسكونهما وهنائهما وغبطتهما مكان آدم وحواء من جنتهما ، قبل أن يأكلا الشجرة ويهبطا إلى الأرض ، وأن روحهما قد تجردت عن جسمهما فطارت ترفرف بأجنحتها في فضاء الملأ الأعلى ، فرأت مدارات الشموس في أفلاكها وحركات الكواكب في منازلها ، ومرت بين صفوف الملائكة ، وسمعت زجلها وتسبيحها تحت قوائم العرش ، ودخلت جنة الخلد فرأت حورها وولدانها ، ولؤلؤها ، ومرجانها ، وروحها وريحانها ، فلم يستفيقا من غمرتهما حتى سمعت ماجدولين صوت جنفياف تناديها ، فمدت إليه يدها مودعة وهي تقول : غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ، فمد يده إليها ذاهلاً لا يعلم ماذا يراد به ثم مضت ومضى بنظراته على آثارها حتى اختفت آخر طية من طيات ردائها الأبيض ، فجمد في مكانه ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما يتخيل أنها لا تزال جالسة بين يديه ، فلما سمع خفق بابها دار بعينيه حول نفسه يمنة ويسرة فعلم أنه جالس وحده .

(١٢)

النشوة

خرج استيفن بعد ذهاب ماجدولين هائماً على وجهه يعدو في عرض الفضاء ينحدر إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى ، وكأنما يريد أن يشهد الأرض والسماء ، والبحار والأنهار ، والجبال الشماء ، والسهول الفيحاء ، والحيوان الناطق ، والجماد الصامت ، على سروره وغبطته ، وكان يشعر في نفسه أن السعادة التي نالها هي فوق ما يحتمل طوقه . فكان كلما مر بأحد من الناس حدثته نفسه أن يفضي إليه بقصته ليحمل عنه جزءاً من سعادته ومر بأطفال يلعبون فجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحداً بعد واحد ، ثم نثر عليهم كل ما معه من المال ، وبوده لو ملك مفاتيح الأرزاق فأسبغ على الناس جميعاً أنعمه وآلاءه فمحا بؤسهم وشقاءهم ؛ وما زال يتغلغل في أحشاء الظلام متيامناً متياسراً صاعداً منحدراً ، حتى رأى باب الحديقة مفتوحاً بين يديه فاقتحمه ومشى إلى مكانه الأول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المنبعث من بين ستائر غرفة ماجدولين فخيل إليه أنه يرى قيامها وقعودها ، وجيئتها وذهابها ، ويسمع حفيف ثوبها ، وخشخشة أوراق كتابها ، حتى انطفأ المصباح ، فصعد إلى غرفته وجلس إلى مكتبه يكتب إليها كتاباً طويلاً ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره ونام نوماً هادئاً لذيذاً حلم فيه أحلاماً ما رأى مثلها بعد ليالي طفولته الجميلة .

(١٣)

من استيفن الى ماجدولين

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذي قمته بين يديك أمس ولا أزال ألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التي هي كل ما يتمنى المحب أن يكون ؛ والتي لا أعتقد أن أبناء الخلود يقدرون لأنفسهم في دار نعيمهم خيراً منها ، ولو أن لأمرىء أن يعبد من يسدي إليه أفضل النعم وأسبغها ، وأجمعها لكل خير وبر ، لوجدتني يا ماجدولين ساجداً بين يديك في كل مطلع شمس سجود العبد الشاكر للإله المنعم .

إن الله لم يهبني نعمة الجمال التي وهبك ، ولم يجملني بمثل ما جملك به من رقة الحس وعذوبة النفس ، فإن أنتِ أحببتني فقد أحببت فتى مجرداً من مزايا الفتيان ؛ لا يستطيع أن يمت إليك بمثل ما تمتين به إليه ؛ ولا أن ينيلك من السعادة ما أنلته منها ، فإن كنت ترين أن الإخلاص في الحب والوفاء بالعهد ، وهبة النفس هبة خالصة بلا ندم ولا أسف ، مزية أستحق لها محبتك ؛ فها أنذا أقدمها بين يديك ؛ فتقبليها مني وقولي إنك سعيدة كما أنا سعيد بك .

(١٤)

العهـــد

قدم استيفن كتابه إلى ماجدولين يداً بيد فدهشت حينما رأته

وألقت عليه نظرة الحائر المتردد ؛ فنظر إليها استيفن نظرة المتوسل المستعطف ، فتناولته منه وخبأته في ثنايا صدرها ، وقالت : أصحيح يا استيفن ما حدثتني به سوزان في كتابها أن اسمي كان آخر كلمة هتفت بها في الساعة التي كنت تحسب أنها آخر ساعاتك في الحياة ؟ قال : نعم ، ولقد نلت ببركة هذا الاسم ما كنت أقدر لنفسي من النجاة عندما هتفت به ؛ فقد علمت أن الله ما منحك هذه المنحة من الجمال ولا جملك بما جملك به من محاسن الخلال ، إلا وأنت آخر بنات حواء عنده ، وأكرمهن عليه ، فهو أضن بك من أن يجرح قلباً يخفق بحبك ، أو يخرس لساناً يهتف بذكرك ، فعذت باسمك في شدتي كما يعوذ المؤمن في شدته باسم الله ، فكان لي خير معاذ وملاذ ، قالت : إنك قد لقيت في شدتك هذه عناء كثيراً ، ولقد كنت فيما فعلت من القوم المحسنين ؛ قال : فلما كنت محسناً قبل اليوم ، ولكنه الحب ملأ القلب رحمة وحناناً ويصغر في عينيه عظائم الأمور وجلائها ويوحي إليه أفضل الأعمال وأشرفها . أما ما لقيت في ذلك اليوم فقد كان فوق ما يحتمل المحتمل ، فقد خيل إلي أنني أهوى في منحدر لا أعرف له قراراً ، وأن جسمي يتفتح عن روحي تفتحاً فتملس منه إملاس الفرخ من بيضته ، فلما ذكرتك استروحت من ذكراك ما استروح يعقوب من قميص يوسف ، فلما نجوت علمت أنك سبب نجاتي ، فما بلغت الشاطىء حتى جمعت تلك الزهرات فأرسلتها إليك تذكاراً لتلك النعمة السابغة التي أسديتها إلي ، فمدت يدها إلى صدرها ، وأخرجت منه طاقة زنبق وقالت : إن أبي قد جمع لي بها هذه الأزهار صباح هذا اليوم فأنا أقدمها إليك رداً لتحيتك التي حييتني بها ، فتناولها منها ونثرها بين يديه وأخذ يؤلف بين أشتاتها وينظمها في سلك مستدير حتى صارت إكليلاً جميلاً

فوضعه على رأسها وقال : إن من يرى هذا الإكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه إكليل عرس على رأس عروس فأخذت كلمته هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلاً ، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة زقراقة تترجح في محجريها . فقال : لا تبكي يا ماجدولين ، فما في قوى في هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بيني وبينك ، قالت : إنما أبكي خوفاً من الحب ، وما أنا إلا فتاة مسكينة منقطعة أشعر بالحيرة التي تشعر بها كل فتاة لا أم لها ترشدها ولا ناصر لها يعينها ، قال : ألا تعتقدين أن قلبك نقي طاهر ؟ قالت : ذلك ما أعتقده وأشهد الله عليه ، قال: إذن فالله هو الذي ينصرك ويعينك ، وهو الذي يأخذ بيدك في حيرتك وينير لك السبيل في ظلمات هذه الحياة ، لا تخافي من الحب يا ماجدولين ، ولا تخافي من غضب الله فيه ، واعلمي أن الذي خلق الشمس وأودعها النور ، والزهور وأودعها العطر ، والجسم وأودعه الروح ، والعين وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعه الحب ، وما يبارك الله شيئاً كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين لأنهما ما تحابا إلا إذعاناً لإرادته ، ولا تعاقدا إلا أخذاً بسنته في عباده ، فامددي إلي يدك وأقسمي بما أقسم به أن نعيش معاً : فإن قدر لنا أن نفترق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ، فمدت إليه يدها فتقاسما وتعاهدا ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها فافترقا .

(١٥)

من إستيفن إلى ماجدولين

كتبت إليك كثيراً فلم تكتبي إلي كثيراً ولا قليلا ، لأنك

تعتقدين ما يعتقده كثير من النساء من أن المرأة التي تكتب إلى حبيبها كتاب حب آثمة أو غير شريفة ؛ أما أنا فأعتقد أنها إن لم تفعل فهي مرائية مصانعة لأن المرأة التي وهبت قلبها هبة خالصة لا يخالطها شك ، ولا ريبة ، لا ترى مانعاً يمنعها من أن تكتب لحبيبها في غيبته ، بمثل ما تحدثه به في حضرته .

إن الحيطة في الحب رأي تراه لنفسها المرأة البغي التي تتخذ لها كل يوم حبيباً تقسم بين يديه بكل محرجة من الأيمان أنها ما فتحت باب قلبها لزائر قبله ، فهي تخاف أن تسجل بيدها على نفسها في يومها ما يفسد عليها أمرها في غدها ، أما المرأة الشريفة فما أغناها من ذلك كله ، لأنها تحب فتخلص فتقول ، فتكتب ما تقول .

أكتبي إليّ يا ماجدولين ؛ فإن الذي يستطيع أن يكتم سر حديثك لا يعجز عن أن يكتم سر كتابك ، واعلمي أن رجلاً غيري ذلك الذي يتخذ من رسائلك سيفاً يجرده فوق عنقك ، إن بدا لك في الفرار منه رأي ، وإن فتاة غيرك تلك التي ترضى لنفسها أن تهب قلبهـا إلى رجل يتجر بأسرار النساء .

(١٦)

البحـيرة

مضت على استيفن وماجدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها في المنزل أو في الحديقة أو في الغابة أو على ضفة النهر ، وكثيراً ما كانا يجلسان بجانب شجرات البنفسج ، ويذكران حادثة النهر ،

وطاقة الزهر ، وأحياناً كانا ينزلان في زورق صغير يسيران به في البحيرة ساعة أو ساعتين ، ثم يعودان .

فنزلا في الزورق يوماً ، وكانت الشمس قد لبست ثوبها الثالث ، ثم ما لبثت أن هوت إلى مستقرها على أن ترسل من خلفها سليلها القمر . إلى هذا الوجود ليقوم عنها بحراسته حتى تعود إليه ، فأمعنا في البحيرة ، وكانت هادئة ساكنة كصفحة المرآة ، وكان النسيم بارداً رطباً يترقرق فيلامس الوجوه بخفة كما تلامس يد الحسناء وجه حبيبها ، وقد سكن كل شيء إلا صوت قطرات الماء المنحدرة من المجاذيف إلى البحيرة ونقيق الضفادع من حين إلى حين ، ثم هتك القمر ستر الظلام وأرسل أشعته الزرقاء إلى الزورق والبحيرة والشاطىء ، وما وراء ذلك ، فكانا يريان على ضوئه بعض الأشجار كأنها أشباح متحركة ، ويتخيلان أن عيون الحشرات السارية بين لفائف الأعشاب شرر يتقدح ، فلذ لهما هذا المنظر البديع ، وذلك السكون العميق ، وتلك الوحدة التي لا يكدرهما عليهما مكدر ، وتركا الزورق يمشي بهما حيث يشاء . وينحدر كما يريد ، وأنشآ يتحدثان ؛ فقال استيفن : إني أؤثر يا ماجدولين أن يكون البيت الذي نسكنه في المستقبل على شاطىء بحيرة كهذه البحيرة ، وأن يكون لنا زورق أوسع من هذا الزورق وأجمل منه شكلاً نقضي فيه الليالي المقمرة بين الرياضة والصيد والاستحمام ، ولا بد أن يكون للمنزل حديقة صغيرة نغرس بها ما نشاء من الكروم والأعناب والأزهار والأنوار ، وسأتولى بنفسي غرس شجرات البنفسج لك ، وسأنشر على جدران الحديقة والمنزل غلائل رقيقة من الخضرة اليانعة ، أما المنزل فأرى أن يكون مشتملاً على طبقتين ، طبقة عليا يكون فيها أربع غرف : غرفة للأضياف ، وأخرى للمكتبة ، وأخرى للملابس ، وصمت لحظة ، ثم قال : أما الرابعة فهي

التي تكون لي ولك ، فاحمرت ماجدولين خجلاً ، ثم قالت : لقد فاتك أن تذكر غرفتين أخريين . إحداهما لأخيك والثانية لأبي ؛ قال : نعم ، لقد فاتني ذلك فلا بد إذن أن تكون الطبقة العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطبقة السفلى فتشتمل على قاعة الطعام ومخزن المؤونة وبيت الخدم والحمام ، إلى ما يلحق ذلك من مرافق البيت وحاجاته . قالت ؛ لقد فاتك أيضاً أن الحديقة لا يجمل منظرها إلا إذا كان في وسطها حوض صغير يتدفق ماء نميراً ، قال : نعم وسنتخذه لتربية الأسماك الملونة ، ولا يفوتنا أن نحوطه بسياج عال من الأغصان المشتبكة وقاية لأطفالنا الصغار .

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر لها وجهها ، ثم أطرقت برأسها طويلاً ، فحنا عليها استيفن وسألها عما بها ، فرفعت رأسها فإذا هي تبكي ، فقال : ما بك يا ماجدولين ؟ قالت : إن الدهر يا استيفن أضن بالسعادة من أن يهبها كلها لشخص واحد ، وأخاف أن نكون كاذبين في آمالنا ، أو مخطئين في تصور مستقبلنا ، فليت الدهر — إن كان يعلم أنه سيحول بيننا وبين سعادتنا في المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بفاجعة من فواجعه أو نازلة من نوازله — أن يمد إلينا يده في هذه الساعة فيستل حياتنا من بين يدي أجلنا لتخف في أفواهنا مرارة الموت ؟ قال : لا تخافي يا ماجدولين ، فإن سلطان الدهر لا تمتد يده إلى مواقف الحب إلا إذا اراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ، فكوني معي أتخذ من حبك عدة أنازلَ بها حوادث الدهر وأرزائه ؛ وأفسد عليه حوله وقوته ؛ فصمتت واجمة ، ثم ألقت نظرها على البحيرة ومجرى الزورق منها وقالت : لو أن لأمرىء أن يتمنى لنفسه ما يشاء لتمنيت أن يكون هذا الطريق الذي نسير فيه طريق الأبدية وأن يظل هذا الزورق مطرد بنا في مسيره لا يقف في طريقه

شيء حتى يلج بنا أبواب السماء.

ثم تنفست الصعداء وقالت: حسبنا يا استيفن، فقد أوشك القمر أن يغيب، وأنا لا أحب أن أرى مغيبه، لأني أخاف أن تغرب سعادتنا بغروبه، فنظر إليها واجماً مكتئباً كأنما دار بنفسه ما دار بنفسها من المخاوف والأوهام، ثم قام الى المجاديف يحركها واضطجعت تحت قدميه، وما زالا حتى بلغا الشاطىء ثم مشيا حتى بلغا المنزل، فلما أرادا أن يفترقا أدنى يدها من فمه يحاول أن يقبلها، فأبت فقبلها في جبينها فارتعدت، وألقت عليه نظرة عتب أخذت من نفسه مأخذها وانصرفت.

(١٧)

من ماجدولين إلى استيفن

ماذا صنعت يا استيفن؟ إنك سلبتني الليلة الماضية راحتي وسكوني، فإني كلما تذكرت تلك القبلة التي وصمت بها جبيني شعرت كأن ناراً مشتعلة تتأجج بين أضالعي، وأن صحيفتي التي لم تزل بيضاء حتى ليلة أمس قد أصبحت تضطرب في بياضها الناصع نقطة سوداء، فأحاول أن أطردها من أمامي فأكون كالأرمد الذي يحاول أن يطرد الغشاوة السوداء عن عينيه فلا يستطيع، لقد سكبت عيناي كثيراً من العبرات، وتوسلت كثيراً إلى الله تعالى أن يغفر لي ذنبي، ولا أدري ما هو صانع بي، ولا كيف أستطيع أن أقف بين يديه يوم الحساب بهذا الجبين المسود من الإثم، وهذا الوجه المحمر من الخجل؟ لا أكتمك يا سيدي أني لولا أن عزيت نفسي عن هذه النكبة بأنك أخذت مني تلك القبلة أخذاً، ولم أمنحها لك

منحة ، لقتلت نفسي بيدي . لا تعد إلى مثلها يا استيفن إلا إذا أردت أن تراني يوماً من الأيام بين يديك جثة هامدة .

(١٨)
من استيفن إلى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفتاة التي تحب ، وتعاهد من تحب ، وتقسم بين يدي حبيبها يمين الإخلاص والوفاء على أن تكون له كما يكون لها ، وألا تجعل ليد غير يد الموت سبيلاً إلى التفريق بينهما — تستكثر عليه قبلة شريفة يأخذها من جبينها كما يأخذها الأخ من جبين أخته ، والمتعبد من يد كاهنه .

ما أحسب إلا أنك قد خدعت نفسك بنفسك يا ماجدولين حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب في شيء لأن الفتاة التي تحب لا ترى بأساً في أن تمنح قبلة لحبيبها منحة ، ولا تنتظر أن يأخذها منها أخذاً .

الآن عرفت أن بكاءك بين يدي ، واضطراب يدك في يدي ، وخفوق قلبك عند رؤيتي ، إنما كان أثراً من آثار الخوف لا مظهراً من مظاهر الحب ، وأن عطفك علي وتحببك إلي ولصوقك بي ، لم يكن لأنك كنت تحبينني ، بل لأن فتاة مسكينة ضعيفة مثلك لا بد لها أن تشعر بالميل إلى كل رجل قوي بجانبها .

تقولين لي أنك قضيت ليلك أمس معذبة ، لا يهنأ لك مضجع ، ولا يغتمض لك جفن ، أما أنا فأقول لك : إني لم أقض في حياتي ليلة أهنأ من تلك الليلة ، لأني بت أتخيل تلك القبلة التي تناولتها

من جبينك كأنها ثغر منضد يبتسم إليّ أرق ابتسام وأعذبه ، فاشعر بروح الحب تدب في أعضائي دبيب الحميا في وجه شاربها ، أما اليوم فإني أصبحت أتخيلها تمثالاً جامداً من الحجر الصلد ماثلاً بين يدي لا يتحرك ولا ينطق .

عفواً يا ماجدولين . فإني ما تناولت تلك القبلة من جبينك إلا وأنا أعتقد أني أقبل زوجتي لأني لا أرى فرقاً بين عهد الإخلاص الذي يؤخذ بين يدي الحب وعقد الزواج الذي يعقد بين يدي الكاهن . وأشكر تلك الساعات القليلة التي سعدت فيها على يدك ، وإن كانت سعادة موهومة . ويمكنني أن أقول لك إني ما نقضت — حتى الساعة — ذلك العهد الذي عاهدتك عليه ، وإني لا أزال أحبك كما كنت ، لأني ما كنت أحببتك لأجازيك على حب بمثله ؛ ولا لأنك جميلة أو عاقلة أو ذكية ، ولا لشيء مما يحب الرجال له النساء ، بل أحببتك للحب نفسه والسلام .

(١٩)

من ماجدولين إلى استيفن

عفواً يا استيفن فما كنت أحسب أن كلمتي بالغة منك ما بلغت ، أو أنها ذاهبة بك هذه المذاهب كلها ، فاغفر لي ذنبي ، فوالله ما احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا منعتك نفسي اليوم إلا لأبذلها لك غداً ؛ أنت اليوم حبيبي ، وغداً تكون زوجي ، وكل ما صنعته أني توسلت إلى حبيبي أن يزفني طاهرة نقية إلى زوجي ، أما الخداع الذي تذكره في كتابك فأنا أعتقد أنك تعلم من أمري غير ما تقول ، ولكنك غضبت فقلت غير ما علمت .

(٢٠)

من مولر إلى استيفن

أكتب إليك كتابي هذا ويدي ترتعد خجلاً ، ونفسي تسيل حزناً ، لأني ما كنت أقدّر في نفسي أن ستمر بي ساعة من ساعات حياتي أرى نفسي فيها مضطراً أن أقول لصديقي الذي أجله وأعظمه وأنزله من نفسي خير منزلة : إني لا أستطيع أن أستقبلك في منزلي بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحتمل بقاءك في المنزل الذي أسكنه وتسكنه ابنتي لأن لي شرفاً أبقى عليه أكثر مما أبقى على صداقة الأصدقاء ، على أنني أرجو ألا تزال تعدني صديقك المخلص إليك ، كما إني لا أزال أعدك كذلك ، وإن فرقت بيننا الأيـــام .

(٢١)

حـــديث

جلست ماجدولين في غرفتها تخيط ثوباً لها ، ربما كانت تعده لليلة عرسها فندت إبرتها من يدها فرفعت رأسها فإذا أبوها ماثل بباب الغرفة فدهشت لمرآه وراعها منظر سكوته وجموده . ثم مشى إليها بقدم مطمئنة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين يا ماجدولين أني أرسلت جنفياف الساعة بكتاب إلى استيفن أمنعه فيه من دخول بيتي ، بل أمنعه من البقاء في منزلي ؟ قالت : لا أعلم من ذلك شيئاً ، ولا أعرف لصنيعك هذا سبباً ، قال : لا سبب له إلا أنه يحبك ، قالت : إنه لا يحبني ، ولكنه يحب أن

يتزوج بي ، قال : ذلك ما لا أريد أنِ يكون ، قالت : ولماذا ؟ قال : لأنه لا يصلح أن يكون زوجاً لك ، قالت : أنا أعلم أنك اتخذته لنفسك صديقاً ، وأنك تعرف له مكانه من الفضل والنبل ، فكيف ترضى أن تتخذ لنفسك صديقاً من لا ترى أنه لا يصلح أن يكون لابنتك زوجاً ؟ قال : إني أصادقه لأنه شخص كريم ، ولا أحب أن أصاهره لأنه بائس فقير ، فقد عثرت بكتاب سقط منه فقرأته فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه فأحرى ألا يملك ما يقوت به أهله ، قالت : إنك حدثتني عنه أنه فتى ذكي متعلم ، ومن كان هذا شأنه لا يكون بينه وبين الغنى إلا بضع جولات يجولها في ميدان هذا العالم ، فيعود من بعدها رجلاً غنياً وزوجاً صالحاً ، قال : إن في أخلاقه من الأنفة والترفع ما يحول بينه وبين النجاح ، قالت : إن الحب يقوم ما اعوج من الأخلاق ويحيي ميت الأمل في نفس المحب ، فلا تطفىء جمرة الحب التي تشتعل في قلبه ، فإنك إن فعلت قتلته وقتلت أمله وأتلفت عليه حياته ؛ قال : يا بنية إني أعلم من أخلاق الناس وشؤونهم مالا تعلمين ، وقد رأيت أني أكون مخاطراً بك وبمستقبلك وبكل ما أرجو لك من سعادة في العيش وهناءه ، إن أنا رضيت لك الزواج الذي أعلم أن شره أكثر من خيره بل أعلم أنه شر كله لا خير فيه ، فانظري يا بنية في أمر نفسك بعين غير عين الحب ، فإنها دائماً حولاء ، واذكري أن أباك الذي يحبك وينزلك من نفسه منزلة لا يغلبك عليها غالب لا يمكن أن يكون غاشاً لك أو خادعاً ؛ فركعت بين يديه ومدت يدها إليه ضارعة وأنشأت تسترحمه بالبكاء مرة والدعاء أخرى ، فكانت كأنها تستنبط الماء من الصخر ، أو تستنبت الربيع في القفر حتى وهت قوتها ، فسقطت تحت قدميه فتركها مكانها ومضى لسبيله وهو يقول : إنك اليوم تجهلين ، وغداً تعلمين .

(٢٢)

الخبر

دخلت جنفياف على استيفن في غرفته وقد جلس إلى مصباح ضعيف يقرأ في كتاب فأعطته كتاب سيدها ورجعت أدراجها ، وكان أول كتاب جاءه من مولر ، فمر بخاطره وهو يفض غلافه كل شأن إلا الشأن الذي كتب فيه ، فما أمر نظره عليه حتى فهم كل شيء .

فلو أن رامياً سدد إلى قلبه سهماً جديداً فنفذ إليه ما بلغ منه ما بلغ هذا الكتاب ، ولو أن نازلة من نوازل القدر هوت عليه فاختطفت نفسه من بين جنبيه لكان في مصابها رأي غير رأيه في هذا المصاب ، فقد سكن على أثر ذلك سكوناً لا تطرف فيه عين ولا ينبض فيه عرق ، ولا يخفق قلب ، ولا يتحرك خاطر ، حتى ليكاد يعتقد الناظر إليه في تلك الساعة أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت . تنبعث فيها الحواس في سبلها ولكنها لا تعود إلى الدماغ بشيء مما تحس به .

واستمر على ذلك ساعة ، ثم انتفض انتفاض الطائر المذبوح ، ودار بعينيه يمنة ويسرة كأنما يفتش عن شيء أضاعه ، فرفع نظره على الكتاب وهو ملقى بجانبه فقرأه مرة أخرى ، ثم ضرب جبهته بيده وأنشأ يقول بصوت خافت : لا أمل لي بعد اليوم ، هأنذا ، وها هو ذا الكتاب بين يدي ، وما أنا بحالم ولا الكتاب بكاذب ، نعم إن مولر طردني من بيته وقتل نفسي قتلاً ، وفجعني في جميع آمالي ، وحال بيني وبين ماجدولين . أي إنه فرق بين روحي وجسدي

إنه فعل ذلك وهو لا يدري ماذا يفعل ، إنه احترم هذه الجرائم كلها ساكناً هادئاً كأنما هو يعبث بفأسه في أرضه أو يحول جدوله من طريق إلى طريق ، لقد قسا عليّ قسوة لم يقسها أحد من قبله على أحد ، إنه علم أني فقير لا أملك شيئاً ، ورأى أن الفقر جريمة لا عقاب لها إلا القتل ، فقتلني .

ثم كأنما جن جنوناً فثار من مكانه ثورة الأسد الهائج ، وتمثل له كأن مولر ماثل بين يديه فمشى إليه مهدداً ، وصار يهذي ويقول :

مهلاً رويداً أيها الشيخ الأبله ، أظننت أني بين يديك شاة خرقاء أو دجاجة بلهاء تقدم نفسها لسكين الذابح حينما يريد ؟ لا ... لا ! أنا إنسان عاقل ورجل شجاع ، لا بد أن يكون لي أمل أحيا به ، وسعادة أنعم بها ؛ ولا بد أن أقاتل عن أملي وسعادتي حتى أبلغهما أو أقتل دونهما .

كذبت أيها الرجل ، إنك أضعف من أن تمد يدك إلى هـذا الرباط المقدس فتقطعه ، إنك أعجز من أن تنتزع شعرة من شعور رأسك البيضاء فأحرى أن تعجز عن أن تنتزع روحاً عن جسدها .

إن الذي بيني وبين ماجدولين شيء لا تصل إليه يدك ، ولا يمتد إليه سلطانك ، ولا يتعلق به أمرك ونهيك وعطاؤك ومنعك .

إنك تستطيع أن تطردني من بيتك لأنك تملكه ، وأن تحبس ابنتك في غرفتها لأنك أبوها ، ولكنك لا تستطيع أن تمنع قلبينا أن يتحابا ونفسينا أن تتصلا .

إن الذي خلق الإنسان وأسدى إليه نعمة الحياة والرزق لم يسترقه بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه ثمناً لها ، بل تركه حـراً

يحب من يشاء ، ويبغض من يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف المسكين أن يكون لك على قلوب الناس سلطان فوق سلطان الله ، وإرادة فوق إرادته .

أي شأن لك عندنا ، وأي صلة لك بنا ؟ وقد ذهب عصرك وذهبت بذهابه ، وأصبحنا لا نعد وجودك وجوداً ، ولا حياتك حياة ، فإن نظرنا إليك فكما ننظر في ساعة من ساعات فراغنا إلى صفحة من صفحات التاريخ الغابر .

إن عقلك الذي بلى ورث وانتشرت فوقه طبقة سوداء من القدم لا يصلح أن يكون مرآة صادقة نرى فيها وجوهنا ، ونتحاكم إليها في سعادتنا وشقائنا .

إنك شره طماع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن أغربة الفناء السود تحلّق فوق رأسك المشتعل شيباً ، فعز عليك أن تموت فجئت إلينا تحاول أن تقاسمنا حياتنا الجديدة الغضة ، فكان مثلك كمثل ذلك الملك الظالم الذي كان يمتص دماء الأطفال ظناً منه أن ما ينقص حياتهم يزيد في حياته .

إني لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابنتك شراً ولا ضيراً ، بل كنت أعد لها عيشاً هنيئاً رغداً في مستقبل حياتها ، فأنا خير لها منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا عذاباً دائماً وشقاء طويلا .

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر في كتابك الصداقة والإخاء والإخلاص كأنك تظن أن البله قد بلغ مني مبلغه منك ، وأني أجهل أنك شيخ مداج مصانع ، تكتب الحكم بالإعدام ، وكأنك تكتب بطاقة دعوة إلى وليمة ، وتقدم قطعة الحلوى ، وقد دسست في

باطنها ناقع السم ، وترفع قبعتك احتراماً لمن يقطر خنجرك من قلبه دماً .. وهنا بلغ منه التعب مبلغه فسقط مكباً على وجهه ، يبكي بكاء الطفل الصغير ، وينشج نشيجاً محزناً ، ثم جثا على ركبتيه ورفع وجهه إلى السماء وأنشأ يقول :

رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت تعلم أني رجل ضعيف لا ناصر لي ، ولا معين ، فكن أنت ناصري ومعيني . اللهم إني أعترف بأني أذنبت إليك في اعتزازي بنفسي ، واعتدادي بحولي وقوتي ، وأني أغفلت قضاءك وقدرك ، وما تجريه على عبادك من أحكام السعادة والشقاء ، والسلب والعطاء ، فقدرت لنفسي من سعادة المستقبل وهنائه ما لا أملكه ، ولا سبيل لي إليه إلا بمعونتك وقوتك ، فاغفر لي ذنبي ، وخذ بيدي في نكبتي ، فقد أصبحت أعجز الناس عن الصبر والاحتمال .

ثم سكن بعد ذلك سكوناً عميقاً ، ولم يزل باسطاً يديه رافعاً رأسه إلى السماء ، كأنما كان ينتظر أو يسمع هاتفاً يهتف به من الملأ الأعلى ؛ فلم يلبث أن رأى من خلال دموعه الحائرة في عينيه شبحاً من نور يتلألأ أمامه ، وكان المصباح قد انطفأ ، وأضاءت الغرفة بأشعة القمر فمسح دموعه بيمينه ونظر ، فإذا هي ماجدولين .

(٢٣)

الوداع

لبثت ماجدولين في غرفتها بعد أن فارقها أبوها ساعة تقلب

النظر في أمرها ، فلا ترى في ذلك الظلام الحالك نجماً يتلألأ ، ولا ذبالة تضيء ؛ فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى مضى الليل إلا أقله ، فحدثتها نفسها بأمر ما كانت تحدثها به لولا لوعة الحب ، وفجعة البين ، وقامت تختلس خطواتها اختلاساً ، وما على وجه الأرض قلب أضعف من قلبها ، ولا لوعة أشد من لوعتها ، حتى وصلت إلى السلم فصعدت تسترق درجاته حتى انتهت إلى أعلاه فوقفت قليلاً تستغفر الله من ذنبها وتسأله إحسانه ورحمته ، ثم مشت إلى غرفة استيفن ودفعت الباب قليلاً فرأته جاثياً على ركبتيه يهتف بدعائه فأثر منظره في نفسها ، وأخذت تبكي لبكائه ، وتدعو بدعائه حتى التفت فرآها ، فخفق قلبه خفقاً متداركاً ، وتعلقت أنفاسه وجمد نظره ، وتزايلت أوصاله ، حتى ما يكاد يتحرك من مكانه ، فمد إليها يده كالمستغيث المتلهف فدنت منه وقالت : إني جئتك لأودعك يا استيفن ، ولا أستطيع أن أبقى عندك طويلاً ، فهل تستطيع أن تعدني وعداً صادقاً ألا تترك نفسك في يد الهموم تعبث بها كيف تشاء ، وألا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك ؟ قال : ذلك أمره إليك ، فأنت التي تستطيعين أن تجعليني شجاعاً صبوراً متحملاً ، وأنت التي تملكين أن أحيا بالأمل ، أو أموت باليأس ، قالت : إني أقول لك اليوم يا استيفن كلمة كان يمنعني الحياء أن أقولها لك قبل اليوم ، وهي أني أحببتك حباً ملأ فراغ قلبي ، فما يسع غيره ، ونزل منه منزلة الروح من الجسد ، فما ينتقل عنه ، وقد عاهدتك على الزواج بين يدي الله ويدي ضميري ، وما أنا بخائنة ضميري ، ولا بكاذبة ربي ، فسافر يا استيفن ، وفتش عن سعادتنا في كل مكان ، وبكل سبيل ، حتى تجدها ، وعد إلي بعد ذلك فإني سأكون لك ما حييت ؛ سافر حيث شئت . وتقلب في البلاد كما

أردت ، وعد إليّ بعد عام أو عامين أو عشرة أعوام أو أكثر من ذلك ، فإنك ستجدني كما تركتني نقية طاهرة ، ووفية . واعلم أن الله ما ألهمني الصبر عنك ، وألهمك مثل ذلك في مثل هذا الموقف الذي تطيش فيه العقول وتطير رواجع الأحلام ، إلا وقد أراد بنا خيراً في جميع شؤوننا ، وقدر لنا السعادة والهناء في مستقبل أيامنا ؛ سافر يا استيفن غداً ، واكتب إليّ بكل ما تلاقي من خير أو شر لأقاسمك سراءك وضراءك وسأكتب إليك كما تكتب إليّ .

فسكن ثائره قليلاً ، وقال : إن سفري سيكون طويلاً يا ماجدولين ، فهل لك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على بعد الشقة وعناء المسير ؛ فمدت يدها إلى شعرها وقصت منه خصلة فأعطاها من شعره مثلها ، ثم تراجعت قليلاً قليلاً ، وهي تنظر إليه بعين ملؤها الحب والجزع ، والصبابة والدموع ، فقام إليها ليدركها فاختفت .

(٢٤)
السفر

استيقظ استيفن صباح يوم الرحيل وأطل من نافذة غرفته المشرفة على الحديقة فرأى الأفق يتفتح عن نفسه شيئاً فشيئاً ، ورأى الشمس قد هبت من مرقدها ، ولا تزال في جفنها سنة الغمض ، ثم رآها وقد لبست ثوبها الأول وخطت بعض الخطوات إلى مطلعها ، فمشت أمامها حاشية من الأضواء تتقدمها كما تتقدم الملك حاشيته في مطلعه من باب قصره ، ثم نظر إلى السماء من ناحية المشرق ، وقد انتشرت في أنحائها تفاريق السحب ومشت في جذوتها حمرة

النور ، فخيل إليه أنه يرى هنالك برجاً عظيماً تضطرم فيه النار اضطراماً ، وأن دخان تلك النار يتراكم فوقها مرة وينفرج عنها أخرى ، ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تخالط حبات الطل في أوراق الزهر والطل لم يجر ذائبه ، فكان كأنه يرى أحجار من الماس تضيء فتنعكس عنها ألوان مختلفة بديعة تملك القلوب والأبصار ، ولم يكن يسمع في تلك الساعة من الأصوات غير طنين النحل وهو مكب على أزهاره يرشف كؤوسها ، ويتطاير من حولها كما تتطاير الأحلام اللذيذة حول الأطفال الصغار .

فألقى على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع حينما ذكر أنه سيفارق عما قليل هذه الدار ، ويفارق بفراقها سعادته وهناءه ، ويفارق ظلال الزيزفون التي كان يجلس إليها مع ماجدولين ، والجدول الذي كانا يمشيان بجانبه ، والزورق الذي كانا يتنزهان فيه ، والمقعد الذي كان يقتعده من الحديقة لينتظر مجيئها ، أو ليرى خيالها من نافذة غرفتها ، والغرفة التي كان يشرف من نافذتها ليسمع نغمات صوتها العذب ، وطاقات الزهر التي كانت تهديها إليه فيستروح منها نسيمها ، فلم يزل يبكي بكاء الشيخ على عهود صباه ، حتى كادت تتلف نفسه ؛ ولولا أنه ذكر حديثها معه ليلة أمس فعزى نفسه عن فراقها بإخلاصها ووفائها ، وما عقدت بينها وبينه من العهود لقضى في مكانه أسفاً ، ثم قام إلى حقيبته فوضع فيها ملابسه ومرافقه ،ونزل إلى الحديقة فودع أزهارها وأشجارها ومجالسها ومقاعدها ، ولم يترك جذعاً لم يقبله ، ولا غصناً لم يلثمه ، ولا مقعداً لم يمرغ خده فوقه ، ويبلله بدموعه ، ونقش اسمه واسم ماجدولين على كثير من المقاعد والجذوع ، واقتطف من كل شجرة زهرة ، وجمع تلك الأزهار في طاقة واحدة ، وتركها على بعض المقاعد لماجدولين ،

ثم ذهب إلى البستاني واتفق معه على أن يحمله على فرسه إلى (كوبلانس ثم فارق (ولفاخ) بين وجد يقتله ، وأمل يحييه .

(٢٥)
من ماجدولين إلى استيفن

سافرت يا استيفن وأصبحت بعيداً عني ، وما أحسب أني أراك في عهد قريب ، فما أعظم بؤسي وشقائي ، وما أشد ظلمة الوحشة المحيطة بي .

لقد خدعت نفسي يوم أشرت عليك بالسفر ، فقد ظننت أن بين جنبي ذخيرة من الصبر والاحتمال ، أقوى بها على تجرع كأس فراقك المريرة ، فلما فقدت وجهك علمت أني فتاة ضعيفة بائسة ، لا تقوى على احتمال أكثر مما تطيق من الآلام والأحزان ، وانني فيما أدليت به إليك من تلك النصيحة ، إنما كنت أحدث عن خواطر عقلي ، لا عن شعور نفسي .

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدي بك يوم رحيلك وقفة أقفها في نافذة غرفتي أحييك فيها تحية الوداع ، و ألقي عليك فيها آخر نظرة من نظرات الحب ، لولا أنني خفت عليك الجزع أن تراني باكية ، وعلى نفسي التلف أن أراك جازعاً ، فافتديتك وافتديت نفسي بهذه اللوعة التي تتأجج اليوم في صدري ، فما أصعب الوداع ، وما أصعب الفراق بلا وداع !

ونزلت بعد سفرك إلى الحديقة فلم أجدك ، ووجدت على بعض مقاعدها طاقة الزهر التي تركتها لي قبل سفرك ، فلثمتها

ولثمت شخصك فيها ، ثم مشيت إلى ذلك المقعد الذي كنا نجلس عليه معاً تحت شجرة الزيزفون فجلست فيه وحدي ، ونشرت بين يدي رسائلك الماضية ، وأنشأت أقرؤها وأصغي إلى حديثك فيها ، فخيل إليّ أنك جالس بجانبي تحدثني فماً لفم ، وأن ما يقع عليه نظري في صفحات رسائلك إنما هي نبرات تسمعها أذني ، لا خطوط تبصرها عيني ، فسكنت لذلك الخيال ساعة سكون الطفل الباكي لنشيد المهد ، حتى سمعتك تدعوني في بعض أحاديثك « يا خطيبتي » وهي تلك الكلمة الحلوة العذبة التي تهبط حلاوتها إلى أعماق قلبي كلما سمعتها ، فانتفضت وألقيت نظري على مكانك الذي تخيلته بجانبي فوجدته خالياً ، فعلمت أن تلك الساعة الجميلة التي مرت بنا تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك المقاعد الجميلة ، وبين مشتبك هذه الغصون والأوراق ، قد ذهبت ، ولم يبق لي منها غير ذكراها ، فبكيت ساعة طويلة لا علم لي بمداها ، ثم استفقت فصعدت الى غرفتي ، وجلست الى منضدتي أكتب اليك هذا الكتاب .

فمتى تعود يا استيفن ؟ ومتى تعود بعودتك الأيام الحسان ؟ !

(٢٦)

من ماجدولين إلى استيفن

لقد كابدت بالأمس ليلة ليلاء ، فلم ينحدر كوكب الشمس الى مغربها حتى سمعت صوت العاصفة يهدر في كل مكان ، رأيت آفاق السماء قد اربدت واقشعرت ثم ارفضت عن غيوثها المنهلة ، فذكرت أنك لا تزال على الطريق ، وأنك تقاسي في تلك الساعة

من عثرات الطريق وعقباته وقفقفة البرد ورعشته عناء عظيماً ، فالتحفت ردائي وأويت الى بعض زوايا غرفتي ، وظللت أبكي على فراقك مرة وعلى شقائك أخرى ، وأذود النوم عن عيني ذياداً لأنني لا أستطيع أن أكون راضية عن نفسي ، ولا هانئة في مضجعي إن نمت في ساعة لا تجد فيها أنت إلى الراحة سبيلا ؛ حتى مضى الليل إلا أقله ، فشعرت أن النعاس الذي كان يغالب جفني قد غلبني عليهما فنمت في مكان ، نوماً مشرداً مذعوراً ، حتى استيقظت مع الصباح ، فإذا الريح ساكنة ، والشمس ساطعة والجو باسم طلق ، فحمدت الله على ذلك .

إني أعد الساعات واللحظات يا استيفن ، وأنتظر بشوق عظيم وصول أول كتاب منك يبشرني ببلوغك مستقرك سالماً ، فمتى يأتي كتابك إليّ ؟

(٢٧)

من ماجدولين الى استيفن

لم تكف الأربعون ساعة التي مرت بي لتخفيف شيء من همومي وأحزاني ، فلقد قضيتها حائرة الذهن مشردة اللب أقلب عيني في كل مكان فلا أجد في بارقة من بوارق الحقيقة ولا سانحة من سوانح الخيال عزاء ولا سلوى ، فصعدت إلى غرفتك المهجورة علني أجد في مقامي بها ساعة علاج ما أكابده من هموم وأحزان ، فلما بلغتها ووضعت يدي على مفتاحها شعرت برعشة شديدة ملأت ما بين قمة رأسي إلى أخمص قدمي ؛ فلقد خيل إليّ أنني لو فتحت هذا الباب وجدتك وراءه واقفاً تبتسم إليّ وتفتح ذراعيك لاستقبالي ،

فلما فعلت لم أجد غير الوحشة السائدة ، والسكون المخيم ، وغير سريرك المشعث ، وأوراقك المبعثرة في كل مكان ، والغبار المنتشر في أرضها وسمائها ، فمهدت ما تشعث وجمعت ما تبعثر ومسحت الغبار عن المقاعد والنوافذ ، وأعدت الغرفة إلى عهدها الأول أيام كنت تسكنها وتزينها ، كأنما أبيت إلا أن تكون غرفتك المعدة لك ، المسماة باسمك ، حاضراً كنت أو غائباً .

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم في كيس صغير ، فعلمت أنها أجرة الغرفة التي يتقاضاها أبي قد تركتها له ليأخذها من حيث لا تراه فأخذتها لأحملها إليه ثم استوهبه إياها لأبتاع بها حلية أو ذخيرة أتقلدها ، كأنها هدية مرسلة منك إليّ .

سأحمل نفسي يا استيفن على الصبر عنك ، حتى يطوى القدر مسافة البعد بيني وبينك ، وستكون تعلتي التي أتعلل بها منذ الساعة كلما هاج بي هائج الشوق إليك ، إنك ما بعدت عني إلا لتقترب مني ، ولا فارقتني إلا لأنك آثرت اجتماعاً آمناً طويلاً على اجتماع مصرد غير مأمون ، فامض في سبيلك أيها الصديق المحبوب ، وذلل بهمتك جميع العقبات التي تعترض سبيل سعادتنا وهنائنا ، حتى نلتقي بعد ذلك لقاء تنسينا حلاوته مرارة ذلك الماضي المحزن الوبيل .

(٢٨)

من استيفن إلى ماجدولين

بالأمس كنا ، وكان يجمعنا بيت واحد ، لا يكدر صفاءنا

فيه مكدر ، واليوم نحن وبيني وبينك خمسون فرسخاً لا تمس يدي يدك ، ولا تعبث أناملي بشعرك ، ولا أستنشق عبير أنفاسك ، ولا يرن صوتك العذب في جوانب قلبي ، ولا تضيء ابتساماتك الجميلة ظلمات نفسي . ولا تلتقي أنظارنا في مكان واحد ، ولا تمتزج أنفاسنا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها ، ولا الجو باسم طلق كما أعرفه ، ولا الماء صاف عذب ، ولا الهواء رقراق عليل ، ولا الروض متفتح عن أزهاره ، ولا الزهر متنفس عن عبيره كأنما كنت سر الجمال الكامن في الأشياء ، فلما خلت منك اقفرت واقشعرت ونبت عنها العيون والأنظار .

ولقد لقيت في « كوبلانس » أبي وأهلي وكثيراً من أبناء وطني فلم يغني لقاؤهم عن لقائك ، ولم أجد في وجوههم ذلك الأنس الذي كنت أجده فيها قبل أن أعرفك ، فأصبحت أشعر في مقامي بينهم بما يشعر به الغريب المنبت الذي يعيش في وطن غير وطنه ، ودار وأهل غير داره وأهله ، فمتى تنقضي أيام غربتي ومتى أعود إلى أهلي ووطني ؟

قد أحزنني كثيراً ما تكابدينه من الآلام والأحزان من أجلي ، ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لي منها ، لعرفت أنك أسعد مني حظاً ، وأروح بالاً ، لأنك تعيشين في المواطن التي شهدت سعادتنا وهناءنا ، والتي نبتت في تربتها آمالنا وأحلامنا ، فكل ما حولك يذكرك بحبك ، وأيام سعادتك ؛ أما أنا فكل ما حولي غريب عني ، أنكره ولا أكاد أعرفه . كأنما هو مؤتمر بي أن ينتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي قضيتها بجانبك ، وهي كل ما أصبحت أملكه من بعدك .

سأكون شجاعاً كما أمرت يا ماجدولين ، وسأبذل جهدي

في تذليل كل عقبة تقف في طريق سعادتي بك ، فاكتبي إليّ كثيراً ؛ وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، وما يعرض لك من الشؤون ، صغيرها وكبيرها ، لأجد على البعد عنك لذة القرب منك ، واجعلي حبك عوناً لي في مقاصدي وآمالي ، فحبك هو الذي يحييني ، وهو الذي من أجله أعيش وأبقى .

(٣٩)

حفلة رقص

أقام والد استيفن في بيته حفلة راقصة ، وأمر ولده أن يشهدها ، ولم يكن قد شهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذعن على كره منه ، فلما اجتمع الجمع وماجت قاعة الرقص بالراقصين والراقصات ، وقف استيفن موقف الحيرة والخجل أمام هذه المناظر المدهشة الغريبة ، لا يدري ماذا يفعل ، وأي سبيل يأخذ؟ وخيل إليه أن هناك قانوناً موضوعاً للحركات والسكنات والجيئات والروحات ، وأن من أغفل حرفاً واحداً من حروف ذلك القانون أخذته العيون ، ودارت به الأنظار ، ورنت حوله ضحكات الهزء والسخرية ، وكان لا بد له من أن يخرج من موقفه هذا إلى حالة من الحالات ، كيفما كان شأنها ، فلمح على البعد شمعة يتضاءل نورها بين الشموع المحيطة بها ، فخطر له أن يتلهى بإصلاح ذبالتها ، فمشى إليها يتخبل في ثيابه تخبلاً ، لأنها لم تكن ثيابه ، بل ثياب بعض أقربائه أعاره إياها هذه الساعات من الليل وصاحبها أطول منه قامة ، وأضخم جسماً ، فلما دناها رأى أن ذبالتها قد التوت على نفسها فطالت واسودت وغرقت في الدهن المحيط بها ،

فبدا له أن يقرض أعلاها ليصفو أسفلها ثم يمسح الدهن السائل حولها ، فما هو إلا أن مد يده بالمقراض إليها حتى انطفأت وتطاير دهنها إلى ثوبه فانتشر في أنحائه فجمد في مكانه جمود المقراض في يده ، واستحال إلى تمثال مضحك ماثل بين أعمدة الشموع ، لا يستطيع أن ينقل قدميه حياء وخجلاً . فوقع ما كان يخافه ، وعقدت حوله الأنظار نطاقاً ، ومشت البسمات والغمزات في الأفواه والعيون ، ومر به في موقفه هذا أحد الظرفاء المتأنقين وكان لا يعرفه فأسر في اذنه « أما تعلم يا سيدي أن إصلاح الشموع في الحفلات عمل غير لائق؟ » وسمع فتاة تقول لصاحبتها وقد وقفتا به : « ما أجمل زركشة هذا الثوب » فأجابتها الأخرى « إنه آخر طراز في الكرنفال » فلم يجد بداً من النجاة بنفسه . ففر من مكانه هارباً لا يلوي على شيء حتى دخل بعض القاعات الخالية وجلس على مقعد فيها يمسح بشفرة المقراض ما تناثر على ثوبه من الشمع ، فلحق به أبوه بعد قليل ، وقال له : ما بقاءك هنا وحدك يا استيفن ، إن أسرة البارون قد حضرت ، ولا بد لك من مقابلتها والبقاء معها حتى تنصرف ؛ فامتعض استيفن في نفسه وتثاقل في مكانه لأنه عرف ما يراد منه ، فألح عليه أبوه فأذعن . ومشى إلى مكان هؤلاء القوم فحياهم وحيا تلك الفتاة التي يريدون خطبتها له تحية جامدة لا تشبه تحية الخطباء ولا المحبين ، بل لا تنقص عن تحية المتنافرين المتناكرين إلا قليلاً ، ثم لم يلبث أن وجد السبيل إلى الخلاص منها فانفتل من مكانه وخرج إلى فضاء الحديقة ، وجلس على بعض مقاعدها ينقم على المحافل والمراقص ، وما ضمت بين أطرافها من رذائل وشرور ويقول :

ويل لهؤلاء القوم المرائين الكاذبين ، يفسقون ويزعمون أنهم

يرقصون ، ويقترفون صنوف السيئات والآثام ، ويقولون إنهم يغنون أو يطربون ، ووالله ما اجتمعوا إلا ليخطف العاشق معشوقته من يد زوجها أو أخيها أو أبيها ، حين أعيته الوسائل إليها ، أو لتفتش الزوجة التي ملت زوجها وسئمته عن عشير جديد غير مملول ، أو ليلقي الأب بابنته العانس الشوهاء بين ذراعي فتى من الفتيان الأغرار يرجو أن يعميه الشغف الحاضر بها عن النظر إلى عيوبها فيقع في حبالتها ، ويصبح على الرغم منه زوجاً لها .

إن كانوا يريدون الغناء فلمَ لا يغنون إلا راقصين ، أو الرقص فلمَ لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ؟ ولا ترقص المرأة إلا مع رجل ؟ ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماسكين ، كأنهم بين جدران مخادعهم ، أو وراء أستار نوافذهم وأبوابهم .

من لهذا الزوج الغبي الذي يلقي بزوجته عارية الصدر والظهر والذراعين والكتفين بين ذراعي فتى جميل ساحر يلاصقها ويخاصرها ويقلبها بين يدي شهواته ما شاء — أن تعود إليه ساعة تعود بالعقل الذي ذهبت به ، وبالقلب الذي كانت تحمله بين أضالعها ؟ ومن لهذا الأب الأبله المأفون الذي تبرم بابنته ويستثقل مكانها منه فيقذف بها بين مخالب هذه الوحوش المفترسة — ألا تعود إليه بعد قليل حاملة مع همها الأول همين آخرين ، عاراً على رأسها ، وجنيناً في أحشائها .

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون أعراضهم بأيديهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولم يزل يهتف في نفسه بأمثال هذه التصورات الغريبة حتى انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ،

وكان أبوه قد أشار إلى جماعة من أهل بيته وخاصة أصدقائه أن يتخلفوا ، ففعلوا ، فلما خلا بهم المكان دعا استيفن أمامهم ، وقال له على مشهد منهم : قد كنت دعوتك إلى مصاهرة هذه الأسرة منذ عام ودللتك على مكان الخير لك في هذه الصفقة الرابحة ، فأبيت واستعصيت وفررت مني راكباً رأسك إلى حيث لا أعلم لك مذهباً ، فلما عدت في هذه المرة ظننت أنك قد أذعنت وأصحبت [1] وفهمت معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعاً فجئت تطلبها من الطريق التي يطلبونها منه فأقمت هذه الحفلة الراقصة وأنفقت في سبيلها ما لا طاقة لي باحتماله لا أريد بها إلا أن تكون موضع الصلة بينك وبين تلك الفتاة التي اخترتها لك والخطوة الأولى إلى خطبتها فأبيت إلا تمرداً وعناداً كأنما ظننت أنني باق لك الدهر ، أكفلك وأقوتك ، أو خيل إليك أن هذا العلم الذي تدل به وتعتز بمكانك منه منجم من مناجم الذهب يخرج لك ما يقوتك اليوم ويقوت من وراءك من بنيك وأهل بيتك غداً ، فإن كان هذا ما ذهبت إليه فاعلم أن ثروتي لا تتسع لأكثر من أيام حياتي ، ولا تتسع في حياتي لأكثر من الإنفاق عليك طفلاً وغلاماً وفتى ، ثم أنت وشأنك بعد ذلك ، وأن هذه الفنون الأدبية التي هي كل ما تملك يدك في هذه الحياة ما صلحت أن تكون في زمن من الأزمان وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبباً من أسباب العيش ، ولن تكون كذلك أبد الدهر ، لأن السعادة حقيقة من الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال ، فإن أردت لنفسك الخير فدونك الرأي الذي رأيته لك ، وأنت أعلم به ، أو لا ؛ فدونك الأرض الفضاء فامش في مناكبها ما شئت ، واطلب لنفسك الرزق من الوجه الذي تعرفه ؛ فقد أصبح وجودك في منزلي على

---

(١) أصحب البعير : ذل وانقاد .

حالتك هذه من البطالة والفراغ عاراً عليّ وعلى أهلك جميعاً ، بل عاراً على نفسك إن كنت من الشاعرين !

ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هأنذا قد أشهدتكم عليه وبرئت إليه وإليكم وإلى الله من ذنبه ، فلا معتبة عليّ بعد اليوم .

فقال أحد أقربائه : « إني لم أر في حياتي جنوناً مثل هذا الجنون » !

وقال آخر : « لعله سقط في هوة من هوى الغرام ، فلا مناص له من الارتباط في قعرها حتى الموت » !

وقالت زوج أبيه : « لعله أحب عروس الشعر فغنى بها عن كل عروس سواها » !

وقال عمه وهو يزمجر غضباً : « قبيح بالفتى أن يكون في سن كهذه السن حاملاً فوق كاهله قوة كهذه القوة ، ثم يرضى لنفسه أن يكون عالة على قومه وذويه » .

فطار طائر الحلم من رأس استيفن واختفى من وجهه ذلك الفتى الحي الخجول الذي كان يذوب منذ ساعة خجلاً أمام النظرات واللفتات ، وحل محله رجل هائل جبار لا يخشى أحداً ولا يبالي شيئاً ، فرفع رأسه ونظر إلى الجمع نظرة شزراء ذهلت لها أنظارهم ، وخفقت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أبيه ، وقال له : إني لا أعتب على واحد من هؤلاء ، لأنهم سمعوك تغني فضربوا على نغمتك ، أما أنت فإني أقول لك : نعم إنك قد أحسنت إليّ فيما مضى كما تقول ، ولكن لا يجمل بك أن تمن عليّ إحسانك هذا ، ولا يجمل بي أن أشكره لك ، أو أثني عليك به ، لأنك أب ، وللأبوة ثمن لا بد لك من أدائه ، واحتمال المؤونة فيه ، على أنك

لم تمنحني في يوم من أيامك الماضية عطفك ، ولا رحمتك ، ولو فعلت لكان ذلك خيراً لي من كل ما أسديت إليّ من صنوف البر والمعروف ، بل كان شأنك معي في كل آناء حياتك شأن رجل عابر في سبيل ، وجد في طريقه طفلاً ملففاً في قماطه مطرحاً تحت جدران بعض المنازل أو على باب إحدى الكنائس فالتقطه وكفله منة وإحساناً لا رحمة وحناناً ، فقد أبعدتني عنك أنا وأخي منذ ماتت أمي ، وبنيت بزوجتك الحاضرة قبل أن أبلغ السابعة من عمري ، ووضعتني في جحور قوم لا تجمعني بهم جامعة محبة ، ولا تعطفهم على آصرة رحم ، ولم أجد فيهم من يذكرني بك ، أو يحببك إليّ ، أو يحدثني عنك حديثاً واحداً ، وكنت كلما عدت إليك في أيام إجازتي من العام استقبلتني بالوجه الذي تستقبل به أبعد الناس عنك ، وأصغرهم شأناً عندك ، فلا تختصني بكلمة طيبة ، ولا تؤثرني بنظرة رحمة ، ولا تسهر عليّ في مرض ، ولا تتفقدني في شدة ، ولا تبتسم للقائي ، ولا تحزن لفراقي ، وكثيراً ما سهرت الليالي ذوات العدد أندب حظي عندك ، وأضرع إلى الله تعالى أن يدني قلبك من قلبي ، ويرزقني حبك وحنانك ، فلم يستجب دعائي ؛ فاستوحشت نفسي من نفسي وغلبت على طبعي هذه النفرة التي لا تزال ملازمة لي حتى اليوم ، ولولاك لما سنت نفوراً ولا متوحشاً ، وقسا قلبي القسوة كلها ، فأصبحت لا أعطف على أحد ولا أحب أحداً ، لأني لم أتعلم العطف ولا الحب من أحد ، ولما لم أجد في الناس من أحبه وأصطفيه أحببت نفسي وحريتي واصطفيتهما وآثرتهما على كل شيء في العالم ، فلا أحتمل أن أرى من ينازعني فيهما أو يغالبني عليهما .

إن حياتي لي ، وأنا صاحبها الذي أتولى شأنها ، فلا سلطان لأحد غيري عليها ولا شأن لكائن من كان فيها سواي ، فلا أسير

في طريق غير الطريق التي ترسمها يدي ، ولا أبني مستقبل حياتي على أساس غير الأساس الذي أضعه بنفسي ، ولا أحب إلا الفتاة التي أحبها أنا ، لا التي يحبها الناس لي ، ولا أعاشر إلا المرأة التي أقيس سعادتي معها بمقياس عقلي ، لا بمقياس عقول الآباء والأعمام .

فهاج القوم عليه هياجاً عظيماً ، وصرخ أبوه في وجهه ، وثاوره عمه يريد الفتك به ، وتناولته الألسن بالشتم والسب ، فلم يأبه بخذلك كله ، ولم يتزلزل من موقفه ، واستمر في حديثه يقول :

بأي حق تريدون أن تسلبوني حريتي وتملكوها عليّ ، أبحق العطف الذي بذلتموه لي ، فيما مضى ، وما عرفت بينكم محباً لي ، ولا راحماً ؟ أم بحق الكرامة والبقيا ، وقد كنتم جميعاً تضربونني صغيراً ، وها أنتم أولاء اليوم تشتمونني كبيراً ؟

إني قائل لكم جميعاً كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم : إني لا أحب إلا من يحبني ، ولا أكرم إلا من يكرمني ، ولا أذعن إلا لرأيي وإرادتي ، ولا أبيع حياتي وحريتي حتى لخالقهما الذي منحني إياهما بثمن من الأثمان مهما غلا .

إني لا أطلب منكم مالاً ، ولا معونة ، ولا أشكو إليكم فقراً ، ولا عدماً ، وسأرسم لنفسي بنفسي خطة حياتي ، فإن قدّر لي النجاح فيها فذاك ، أو لا ، فحسبي من السعادة أنني قضيت أيام حياتي حراً طليقاً ، لا سبيل لأحد عليّ ، ولا شأن لكائن من الكائنات عندي ، حتى يوافيني أجلي ، وهذا فراق ما بيني وبينكم .

ثم انفتل من بين أيديهم وهرع إلى غرفته فبدل ثيابه وتناول حقيبة ملابسه وخرج هائماً على وجهه يخترق أحشاء الظلمات ،

حتى خرج إلى ضاحية المدينة فتبعه فتى من أبناء أخواله كان قد ألم ببعض قصته ، فقال له : أين تريد يا استيفن ؟ قال : إلى حيث أرسلني أهلي ؛ فبكى قريبه مرثاة له مما هو فيه وقال له : وارحمتاه لك أيها البائس المسكين ، ثم دس له في جيبه بضع قطع من الذهب ، لم ينتبه لها استيفن إلا بعد ذهابه ، فشكرها له في نفسه ، ثم مضى لسبيله .

(٣٠)

النفس العالية

لا تخضع النفس العالية للحوادث ولا تذل لها ، مهما كان شأنها ، ولا تلين صعدتها[١] أمام النكبات والأرزاء مهما عظم خطبها ، وجل أمرها ، بل يزيدها مر الحوادث وعض النوائب قوة ومراساً ، وربما لذ لها هـــذا النضال الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر وأرزائه ، كأنما يأبى لها كبرياؤها وترفعها أن يوافيها حظها من العيش سهلاً سائغاً لا مشقة فيه ولا عناء ، فهي تحارب وتجالد في سبيله وتغالب الأيام عليه مغالبة حتى تناله من يدها قوة واغتصاباً ، فمثلها بين النفوس كمثل الليث بين السباع لا تمتد عينه إلى فريسة غيره ، ولا يهنأ له طعام غير الذي تجمعه أنيابه ومخالبه .

كذلك كانت نفس استيفن بعد نزول تلك النكبات به ، فإنه لم يجزع ولم يتألم ، ولم يعبث اليأس بقلبه ، بل فارق (كوبلانس) كما دخلها ساكن النفس ، مطمئن الضمير ، مملوء القلب ثقة

---

(١) الصعداء : القناة المستوية .

وأملا ، فلم يزل سائراً بقية ليلته يطوي الأرض على قدميه طياً حتى مشت في جلدة الظلام أشعة الفجر ، فالتفت فإذا بقية من شبح (كوبلانس) لا تزال ماثلة ، فألقى عليها نظرة واجمة مكتئبة ثم قال :

الوداع أيها القوم الذين طردوني من بينهم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا دابة أحمل عليها حقيبتي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ؛ لقد نبذت حبكم من قلبي نبذ الفم النواة ونفضت يدي منكم نفض المودع يده من تراب الميت ؛ فأصبح قلبي وضميري وحبي وحناني ونفسي وحياتي وكل ما تملك يدي ملكاً خالصاً لذلك الإنسان الذي أحبني وأحببته ، ووفى لي من دون الناس جميعاً ووفيت له ، لا ينازعه في منازع ، ولا ينزل معه في سويداء قلبي نازل ، وسيكون حبه مناري الذي أهتدي به في ظلمات حياتي ، حتى أبلغ ذروة السعادة التي أطلبها لنفسي ، وهناك ترون أيها القوم الجفاة القساة أن ذلك الفتى الخامل المسكين الذي وقف بينكم بالأمس مهيناً ذليلاً لا يكاد يرفع طرفه إليكم حياء وخجلا ، قد أصبح رجلاً نابهاً عظيماً غنياً بماله وجاهه عن مالكم وجاهكم ، وسعيداً بين أهله وأولاده سعادة لا يحفل من بعدها بنسبكم ولا برحمكم .

ثم مشى في طريقه يعلل نفسه بالآمال الحسان ، ويرسم لمستقبل حياته ما شاء من الخطط والنظم ، وكان كلما أتعبه المسير دفع إلى أصحاب العجلات المارة في طريقه تحمل الأثقال درهماً أو درهمين ، ليحملوه على عجلاتهم أو يأذنوا له بالجلوس في مؤخرتها ساعة أو ساعتين ، ثم يعود إلى شأنه الأول ، حتى وصل عند مجتنح الأصيل إلى «جوتنج» وهي البلدة التي تعلم في مدرستها ، وقضى فيها أكثر أيام صباه .

(٣١)

النفس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط « جوتنج » إلى أستاذه القديم في الموسيقى « هومل » ليفضي إليه بشأنه ، ويستعين به على قضاء حاجته ، وكان له بمثابة الأب الرحيم ، يحبه ويكرمه ويؤثره على تلاميذه جميعاً ، فلما وقف بين يديه عقل الحياء لسانه ، فلم يستطع أن يقول له شيئاً وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية يملأ الشعر نفوسهم عزة وخيلاء ، فتملأ العزة وجوههم حياء وخجلا ، فلا يذلون ولا يضرعون ، ولا يجرءون على شيء مما يجرؤ عليه الناس جميعاً كأن تحليقهم الدائم في سماء الخيال وطيرانهم في تلك الأجواء العالية غادين رائحين ، قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون في ملأ أرفع من الملأ الذي يعيش فيه الناس ، فإن عرضت لهم حاجة من الحاج أبوا أن يسألوها أحداً من سكان الأرض ، وربما أنفوا أن يسألوها ساكن السماء ذهاباً بأنفسهم من مواطن الضعة والمهانة ، وضناً بأديم وجوههم أن يخلقه السؤال ، وكذلك يعيشون فقراء ويموتون بؤساء .

لذلك لم يستطع استيفن أن يفضي بحاجته إلى أستاذه في المقابلة الأولى فزعم أنه إنما جاء ليتلقى عنه دروساً في الموسيقى ، وظل يختلف إليه أياماً يسمع غناءه ويحفظه عنه حتى جرى بينهما يوماً من الأيام ذكر الحياة والمستقبل ، فسأله استاذه عما رسم من الخطط في مستقبل حياته ، فقال : لا أدري حتى الساعة ، فقال : لا أعرف لك سبيلاً غير هذا الفن الذي تحبه وتستهيم به ، وأرى أن غرامك به سيجعلك غداً من أصحاب الشأن العظيم فيه ، فنفض

له استيفن إذ ذاك جملة حاله ، وصارحه برغبته التي يريدها ، فوعده بمساعدته والأخذ بيده ، فانصرف مغتبطاً مسروراً .

(٣٢)

من ماجدولين إلى استيفن

لم أستطع أن أكتب إليك منذ شهرين لأني كنت مريضة وسأقص عليك قصة مرضي .

خرجت ذات ليلة لألقي برسالة كنت كتبتها لك في صندوق البريد في قرية « هال » فلما بعدت عن « ولفاخ » وغاب عني شبحها وأصبحت في منتصف الطريق بينها وبين « هال » هبت عليّ ريح عاصفة شديدة دوت بها جوانب الأفق ، وقعقعت لها قبة السماء حتى حسبتها توشك أن تنقض ، وأخذت تجاذبني ثوبي مجاذبة شديدة كأنما تأبى إلا أن تنتزعه مني أو تنتزعني معه ، فحدثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت ، ثم ذكرتك وذكرت أنك تنتظر رسالتي ، فاستمررت أدراجي ومشيت في طريقي أتيامن مع الريح مرة ، وأتياسر أخرى . وأندفع متقدمة ، وأكر راجعة ، فمن رآني في تلك الساعة خيل إليه أنه يرى فتاة بائسة مرزأة ، قد لعبت النار بأثوابها ، وعلقت بأطرافها وأوصالها ، فهي تهيم على وجهها في كل مكان تطلب الخلاص مما هي فيه فلا تجد إليه سبيلا ؛ فلم أصل إلى تلك القرية إلا بعد ساعتين ، فألقيت الكتاب في الصندوق ثم رجعت ؛ وكانت العاصفة قد هدأت قليلاً ؛ ولكنها ما هدأت إلا لتفتح الطريق إلى الغيث الماطل ، فلم تهدد ثورتها حتى ثار ثائره وأخذ يتساقط سقوطاً شديداً ، فابتل ردائي ،

ومشت الرعدة في جميع أعضائي ، واشتدت ظلمة الايل فما أهتدى إلى طريقي .

ولقد حدّثتني نفسي لشدة ما نالني من التعب والإعياء ، وما ملأ قلبي من الخوف والوحشة . أن أسلّم نفسي إلى كنف من أكناف الهضاب أو سفح من سفوح الجبال ، أنتظر فيه منيّتي حتّى توافيني ، فحال بيني وبين ذلك أني أريد أن أحيا لك ، وأتولى شأن سعادتك التي عاهدتك على أن أتولاها لك ، وأني إن قتلت نفسي قتلتك معي ، فبعث ذكرك في نفسي قوة غالبت بها الطبيعة وعواصفها وثلوجها ، وبروقها ورعودها ، حتّى بلغت المنزل بعد لأي ، فسقطت مريضة محمومة .

ولقد كابدت في مرضي شدة عظمى لم أر مثلها فيما مرّ بي من أيام حياتي ، دب اليأس في نفسي دبيب المنية في الأجل ، وظننت أني لا بد هالكة ، وأني لا أراك بعد اليوم ، فلم يكن يحزنني في تلك الساعة شيء سوى أنك ستسمع بخبر موتي ، ولا تسمع معه أنك كنت الإنسان الوحيد الذي كنت أفكر فيه في ساعتي الأخيرة فحاولت أن أكتب إليك كتاب وداع أبثك فيه بعض شأني فلم أستطع ، ثم شعرت في فترة من فترات السكون التي تتخلل سكرات الحمى أني أستطيع النهوض من فراشي ، فكتبت إليك كتاباً أوصيت لك فيه بجميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي إلا كتبي ومحفظة رسائلك والخاتم الذي نسجته من شعرك وذخيرة من الذهب ورثتها عن أمي وهي أعز الأشياء عندي ، وكيساً صغيراً يشتمل على بعض قطع فضية وذهبية مما كنت أستفضله من نفقاتي ، ثم طويت الكتاب وأعطيته لجنفياف لتوصله إليك بعد موتي ؛ ولكن الله كان أرحم بي وبك من أن يحرمني منك ويفجعك بي ؛

فمد إليّ يد معونته وإحسانه واستنقذني من مخالب الموت ؛ فحمدت له منته ونعمته ؛ ولقد بكيت كثيراً عندما أعدت النظر في تلك الوصية المكتوبة لأني تمثلت حزنك وتفجعك وخيبة آمالك لــو قدّر لك أن تقرأها ، فرثيت لك مما بك وبكيت لبكائك .

رجائي عندك يا استيفن أن تكتب إليّ عنوان أخيك في الجيش لأني أريد أن أبعث إليه بهدية أخطب بها وده إكراماً لك ، فقد أصبحت أحبه من أجلك حباً كثيراً ؛ وأترقب بفرح وسرور ذلك اليوم الذي يضمنا وإياه بيت واحد ، تحت سماء واحدة .

لا يحزنك يا استيفن ما قصصت عليك ؛ فتلك حادثة ماضية قد ذهبت وانقضت ، ولم يبق منها في نفسي حتى آثارها ؛ فليذهب الماضي بخيره وشره ، وليأت لنا المستقبل بما نريد .

(٣٣)

من استيفن إلى ماجدولين

عفا الله عنك يا ماجدولين . أكنت تظنين أني أستطيع أن أحيا من بعدك ساعة واحدة أتمتع فيها بالحياة وطيبها ، والدنيا ونسيمها ، فأوصيت بما أوصيت به إليّ ؟

إنك لا تعلمين أنك روحي التي أحيا بها في هذا العالم ، ودنياي التي أتنسم فيها رائحة السعادة والهناء ، وأن اليوم الذي يخلو فيه مكانك من الدنيا هو آخر عهدي بالعالم وما فيه .

متى أهدى الميت إلى الميت وأوصى القبر إلى القبر ! ومتى عاش

المحب بعد فقد حبيبه ساعة واحدة ، أو هنئت له لحظة من لحظات عيشه إن قدّر له أن يعيش من بعده ؟

إن لي في الحياة كما للناس أماني كثيرة ، وبودّي لو استطعت أن أبيعها جميعها بأمنية واحدة ، وهي أن أموت يوم أموت بين ذراعيك ، ملقياً رأسي على صدرك ، شاخصاً بعيني إلى وجهك المشرق الجميل ، وأن يكون صوتك آخر ما أسمع من الأصوات ، وصورتك آخر ما أرى من الصور عالماً أن من يموت ميتة كهذه تفتحت له أبواب السماء ، واتصلت سعادة دنياه بسعادة أخراه فلا يشعر بشقاء الموت ، ولا ما بعد الموت .

هنيئاً لك إبلالك من مرضك ، وشكراً لله على صنيعته عندك في شفائك ؛ وصنيعته عندي في حفظ حياتك لي ، وما أحسب أن الله أراد بي أو بك سوءاً فيما كان ، ولكنه يبتلينا اليوم لنعرف مقدار ما يستقبلنا به من السعادة غداً .

سأكتب لأخي « أوجين » بشأن الهدية التي أزمعت أن ترسليها إليه ، وإني شاكراً لك شكراً جزيلاً ، عطفك عليه وحبك إياه .

أما عنوانه ، فهو : « الفصيلة الثالثة ، من قسم الجياد الخفيفة في جيش الحدود » .

(٣٤)

الحـــظ

مر الشتاء واستيفن يختلف إلى أستاذه « هومل » وأستاذه يسعى

له سعي المجد الملح فلا ينجح ، حتى أوشك أن ينفد ما كان معه من المال ، ولم يبق في يده منه إلا بقية غير صالحة لا يعلم ما هو صانع بعدها ، فلم يجد له بداً من أن يأخذ نفسه بالتقتير ، ويحمل عليها العيش حملاً شديداً ، فأكل التافه من الطعام ولبس الخلقان من الثياب ، وغنى بالأكلة عن الأكلتين ، وبالخبز عن الأدم. يقول في نفسه كلما برحت به الفاقه ، واشتدت به ضائقة العيش : لقد قال لي عمي : إن من كان فتى قوياً مثلك لا يجمل به أن يعيش عالة على أهله وذويه ، وهاأنذا على فتوتي وقوتي أكاد أموت جوعاً. فما أقسى قلوب قومي ، وما أبعد الرحمة عن أفئدتهم !! لقد كان في استطاعتهم أن يقبلوني عندهم ضيفاً عاماً أو عامين ، حتى يفتح الله لي باباً من أبواب الرزق فأرحل عنهم ، أو أن يهيئوا لي قبل أن يطردوني من بيتهم ملجأ أعتصم به في المكان الذي طردوني إليه حتى لا أموت ميتة الغرباء المشردين.

وكان أكبر ما يحزنه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين بالسعي إلى الثروة والنجاح فيها ، وملأ قلبها ثقة وأملاً في المستقبل ، وأن فشله إن قدر له الفشل سيقتلها ، ويلقي بها في مهواة اليأس والشقاء ، فرثى لها وأشفق عليها إشفاقاً عظيماً ، وود لو صلحت حياته لأن تكون ثمناً لسعادتها فبذلها في سبيلها ، ثم رحل عن الدنيا طيب النفس عنها وعن جميع آماله وأمانيه فيها.

ولقد مر به يوماً – في بعض مواقفه بجانب بعض الجدران – فتى زري الهيئة سيء الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعونة فزوى وجهه عنه حياء وخجلاً ، فقال له الفتى : أقسم لك بالله يا سيدي أني تركت زوجتي ورائي ما تطيق الوقوف من الطوى ، ولقد مر بي وبها يومان ما نجد ما نتبلغ به إلا البكاء والدموع ، فانتفض

استيفن انتفاضة شديدة والتفتت إليه وقال له : أتحب زوجتك كثيراً أيها الفتى ؟ قال : نعم يا سيدي كما أحب حياتي . فأطرق برأسه هنيهة وظل يقول في نفسه : إنه يستعدي[1] عطف الناس ورحمتهم على جوع زوجته وطواها ، والناس لا يعطفون ولو عقل لعلم أنه يسألهم حقاً من حقوقه المقدسة لا يعترضه من دونه معترض إلا استحل دمه ومشى على جثته إليه ، فلا جريمة في الدنيا أكبر من أن يرى الإنسان المرأة التي يحبها تموت بين يديه جوعا فلا يفعل شيئاً أكثر من أن يغمض عينيها ويسجيها بثوبها ، ثم يجلس بجانب سريرها يبكيها ويندبها ، ومد يده إلى جيبه فأخرج كل ما كان معه من المال فأعطاه للفتى صامتاً ، ومشى في طريقه وهو يقول : لقد أنقذتها من مخالب الجوع بضعة أيام ، وأسأل الله أن يقيض لهما من يتولى شأنهما بعد ذلك .

وكذلك عاد استيفن إلى مأواه ، وهو لا يملك من متاع الدنيا حتى قوت يومه .

(٣٥)

من ماجدولين إلى استيفن

مرت بي اليوم صديقتي سوزان وهي عائدة من مصيفها إلى كوبلانس فاغتبطت بزيارتها اغتباطاً عظيماً وتمنيت أن لو كنت حاضراً بيننا لتراها فترى أجمل الفتيات وجهاً ، وأرقهن شمائل ، وأعذبهن حديثاً ، وأجمعهن لأفضل الصفات وأكرمها فهي تنطق

(١) استعدى فلان فلاناً على فلان ؛ طلب إليه أن يعديه عليه ، أن ينصفه منه .

بلغات كثيرة ، وتحسن الرسم والتصوير ، وتوقع على جميع أنواع الأوتار ، وتغني غناء ساحراً فتاناً ، ولها ثغر وضاء لا يفارقه الابتسام لحظة واحدة ، ولا يطربها في الحياة شيء مثل مناظر اللهو واللعب ولا يعجبها حديث مثل حديث المحافل والمراقص ، وقد أصبحت مفتتنة بها لا أكاد أصبر عنها لحظة واحدة ، ورجائي إليك يا استيفن أن تحبها كما أحبها ، وأن تتودد إليها كثيراً يوم تـــراها .

(٣٦)

من استيفن إلى ماجدولين

سأحب صديقتك يا ماجدولين كما أمرت ، ولكن ليس لأنها جميلة فاتنة كما تقولين ، فقد ملأ جمالك فضاء قلبي فلم تبق فيه بقية لسواك ، ولا لأنها ترقص أو تغني فإن نفسي الحزينة لا يشفيها من دائها إلا أحد الأمرين : إما لقاؤك ، أو الموت ، . بل لأنها تؤنس وحشتك ، وتخفف آلامك ، وتعينك على احتمال أعباء الحياة وأثقالها ، فاشكريها عني شكراً جزيلاً ، وبلغيها تحيتي وسلامي .

لا يزال الدهر عابساً في وجهي ، ولكنني صابر محتمل ، لا أيأس ولا أستسلم ولا تفتر لي همة حتى أنال بغيتي ؛ والسلام .

(٣٧)

من أوجين إلى استيفن

وصلت إليّ هدية السيدة ماجدولين ، فشكرت صنيعها شكراً

جزيلاً ، ولقد أصبحت بفضل هديتها صاحب رداء جديد كنت في أشد الحاجة إليه وكانت يدي تقصر عنه ، فاتبعته وأصبحت فخوراً مختالاً به بين أترابي وعشرائي ، فبلغ صاحبة الهدية شكري ، وأرجو أن أراها في عهد قريب فأجزيها خيراً بما فعلت ، فإن عجزت عن ذلك فلا أعجز عن أن أحدثها عن الوقائع الغريبة التي شاهدتها أحاديث جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسروراً .

شاهدت بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعت عند الصدمة الأولى ، ولكنني ما لبثت أن سمعت صهيل الخيل وقرع الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انتشيت واندفعت بجوادي اندفاع السيل المنهمر لا أشعر بشيء مما حولي ولا أرى إلا بريق سيفي في يدي ، ولقد امتلأت نفسي غبطة وسروراً عندما رأيت جيش العدو يتقهقر أمام جيشنا ، حتى خيل إلي أنني أنا الذي زحزحته وحدي عن مكانه وألجأته إلى الفرار . وقد عرف قائدي فضل ما أبليت في هذه المعركة فرقاني إلى درجة « صف ضابط » ولي أمل أن أعود إليكم في عهد قريب باسم « الضابط أوجين » .

(٣٨)
من استيفن إلى ماجدولين

قد ابتسم لي الدهر قليلاً يا ماجدولين ؟ فقد زارني أستاذي بالأمس في الخان الذي أنزله بعد ما انقطعت عن زيارته بضعة أسابيع لأمر ما ، وبشرني أنه وجد لي عملاً في بعض المدارس الصغيرة بوظيفة شهرية قليلة ... وقال لي إن مدير المدرسة وعده

أن يضاعفها لي ضعفين بعد ثمانية شهور ، فحمدت الله على ذلك .

لا صعب في الحياة يا ماجدولين غير الخطوة الأولى ، فإذا خطاها المرء هان عليه ما بعدها ، فلنهنأ منذ اليوم باللقاء ، ولنغتبط بالسعادة التي طالما تمنيناها حتى بلغناها .

(٣٩)

من إدوار إلى استيفن

لا يزال النزاع قائماً بيني وبين عمي ، يأبى إلا أن أعيش عيش المقلين وآبى إلا أن أتمتع بمالي الذي ورثتـــه عن أبي كما أحب وأشتهي ، ولا أدري ما الذي يعنيه من الحرص على مال يعلم أنه ليس له ، وأن مصيره مهما طالت الأيام لصاحبه ؟ ولكنها خلة البخلاء والأشحاء ، لا يقع في أيديهم شيء من مالهم أو من مال غيرهم حتى تتلوى أصابعهم عليه التواء الحية على العصا ، ثم لا يفلت منها بعد ذلك ، فمثلهم كمثل الحبالة التي تنطبق حافتاها على كل ما يدنو منها ، وإن لم تجن لنفسها من وراء ذلك شيئاً .

على أنها أيام قلائل ستنقضي ، وسأبلغ سن الرشد بعد بضعة شهور ، فلا يبقى له ولا لغيره عليّ من سبيل .

ألممت ببعض شأنك الحاضر وعلمت أن أهلك قد نقموا منك مخالفتك أباهم ، فوكلوك إلى نفسك ، ونفضوا أيديهم منك ، فتركت لهم « كوبلانس » وسافرت إلى « جوتنج » تطلب لنفسك فيها الرزقَ من طريق العمل ، فلم يوافقك حتى اليوم ما تريد ،

فليت الذي كان يا صديقي لم يكن ، وليتك أخذت بذلك الرأي الذي رأيته لك من قبل ، وسلكت إلى الحياة طريقاً غير هذا الطريق الخيالي الذي تسلكه اليوم فتزوجت من الفتاة التي اختاروها لك ، وظفرت بنعمة العيش في ظلالها ، فلا سعادة في الدنيا يا صديقي غير سعادة المال ، وكل ما في أدمغة البشر من علم وعقل وما في أجسامهم من قوة وأيد ؛ وما في نفوسهم من فضائل ومزايا ، إنما هي سبل المال وذرائع إليه .

أهديك تحيتي وسلامي ، وربما زرتك في « جوتنج » في عهد قريب ، فقد ضقت ذرعاً بذلك الرجل ، وأصبحت لا أطيق البقاء معه لحظة واحدة في بلد واحد .

(٤٠)
من استيفن إلى إدوار

لا تعتب عليّ يا صديقي ، إن قلت لك إن لي في الحياة رأياً غير رأيك وغير ما يراه الناس جميعاً .

إنني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس ، ولا أفهم من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة ، فإن تمت بدونه فلا حاجة إليه ، وإن جاءت بقليله فلا حاجة إلى كثيره .

ماذا ينفعني من المال وماذا يغني عني يوم أقلب طرفي حولي فلا أرى بجانبي ذلك الإنسان الذي أحبه وأوثره ، وأرى في مكانه إنساناً آخر لا شأن لي معه ، ولا صلة لقلبي بقلبه ، فكأنني وأنا خال به خال بنفسي منقطع عن العالم وما فيه .

إن الرجل الذي يتزوج المرأة لمالها إنما هو لص خائن ، لأنه إنما يأخذ من مالها باسم الحب ، وهو لا يحبها ، وعاجز أخرق ، لأنه قعد عن السعي لنفسه ، فوكل أمره إلى امرأة ضعيفة تقوته وتمونه وساقط المروءة مبتذل ، لأنه يأجر جسمه للنساء ، كما تأجر البغي نفسها للرجال ، ليستفيد من وراء ذلك قوته .

نعم إنني بائس فقير ، كما تقول ، ولكنني أسعى لنفسي سعي المجد الدؤوب وقد بدأت أنجح في مسعاي منذ الأمس ، فقد حصلت على وظيفة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد ، واستأجرت لي غرفة بسيطة فأصبحت ذا مسكن خاص وسينتهي بؤسي وشقائي ، وأنال السعادة التي أرجوها ، وسيكون أعظم ما أغتبط به في مستقبل حياتي أنني أنا الذي صغت إكليل سعادتي بيدي .

أحييك يا إدوار ، وأرجو ألا تعتب عليّ فيما قلت لك ، ولعلك تفي بوعدك لي ؛ فأراك في جوتنج في عهد قريب .

(٤١)

غرفة استيفن

سكن استيفن بعد حصوله على وظيفته الجديدة في غرفة صغيرة طولها عشرة أقدام وعرضها سبع ؛ ووضع فيها سريراً من خشب ومنضدة عارية يكتب عليها ليلاً ويأكل عليها نهاراً ؛ وكرسيين مختلفي الحجم والشكل ، يجلس على أكبرهما وأصلحهما شأناً ، ويضع حقيبة ملابسه على الآخر : ومنصباً للطبخ ، وجرة للماء وبعض آنية أخرى ؛ وكان بغرفته كوة تشرف على سطوح منازل

قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما أشرف منها ورأى ذلك المنظر الموحش اشمأزت نفسه قليلاً ، ثم قال : لا بأس ، فذلك خير لي من أن يطلع على خلتي أحد ، ثم لمح على البعد دوحة عظيمة مورقة في بعض المنازل القاصية فقال : تلك هي الروضة التي أفتح عليها نظري كل صباح ، وهل يتمتع صاحبها الذي يملكها ويتعهدها منها بأكثر من ذلك؟ ثم رأى على مقربة منه كنيسة صغيرة فقال في نفسه : أرجو أن تساعدني دقات ساعتها على معرفة المواقيت ، ثم ما لبث أن سمع رنينها فأخذ يعدها فرحاً مبتهجاً وهو يقول : لن أشتري ساعة بعد اليوم .

وكذلك اغتبط استيفن بمسكنه الجديد على صغره وحقارة شأنه اغتباطاً عظيماً لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ، وابتاع أثاثه وأدواته من ماله وظل يقول في نفسه : في المسكن الخاص يستطيع المرء أن يكون حراً في قيامه وقعوده وجلوسه واضطجاعه ، ونومه على الهيئة التي يريدها لا يتكلف ولا يتعمل ، يجامل الناس ولا يرائيهم ، ولا يضع نفسه في القالب الذي يصنعونه له ، فيرفع يده في الهواء بغتة دون أن يخاف وقوعها على وجه أحد ، ويستعين بتقليب يده وتحريك رأسه على النظر والتفكير دون أن يسميه أحد ، مجنوناً أو مختبلاً ، ويمد قدميه في الناحية التي يريدها لا يخشى محاسباً يحاسبه على الأدب أو يلاحيه في قواعده وأصوله ، أي أنه يكون على الصورة التي خلقه الله عليها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً .

وكان لا بد له من أن يعيش عيش الإقلال والتقتير فلا يلاق في ذلك عناء عظيماً لأنه كان قنوعاً مجتزئاً . فقسم دخله بين نفقات طعامه وشرابه وملبسه وأجرة مسكنه ووفاء ما عليه من دين الأثاث

الذي ابتاعه ، وعاش عيشة ساكنة لا يكدرها عليه مكدر ، لأنها كانت مملوءة أملاً ورجاء .

(٤٢)

الطارق الجديـــد

جلس استيفن في غرفته غداة يوم من أيام الآحاد ، وهي الأيام التي يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصبه ، فسمع خفق نعل ثقيلة على السلم يختلف صوتها عن صوت نعل جارته العجوز التي كانت تختلف إليه من حين إلى حين لتملأ له جرة الماء من البئر ؛ فدهش وتسمع فإذا القادم يصيح باسمه صياحاً عالياً فخيل إليه أنه يعرف صاحب هذا الصوت ؛ فابتدر الباب ففتحه فإذا صديقه « إدوار » فابتهج بمرآه وعانقه عناقاً طويلاً وقال له : لقد وفيت بوعدك أيها الصديق فلك الشكر على ذلك ولقد كنت أترقب حضورك ترقب المقرور أشعة الشمس ، والظامىء ديمة القطر ، فقال له : سأنزل عندك في غرفتك هذه الصغيرة ضيفاً شهرين أو ثلاثة ، وهي المدة الباقية لي على بلوغ سن الرشد ؛ ولقد اشتد النزاع بيني وبين عمي حتى أصبحت لا أطيقه ولا يطيقني ؛ ففارقت منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهي قضية الوصاية التي بيني وبينه ؛ ثم دخل ، وهو يقول : ما أجمل هذه الغرفة وأبدع شكلها ! إنها أوسع مما كنت أظن ، وأجمل مما كنت أقدر ، وعمد إلى حقيبته ففتحها وأخرج منها زجاجة عطر ، ومشطاً وبضعة مناديل من الحرير وقدمها هدية إلى استيفن ، فقبلها منه شاكراً ، ثم قام استيفن إلى شريحة لحم كان يعدها لطعام الغد فاشتواها ووضعها

على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من الجبن ، ثم أخذا يأكلان ويتحدثان ويتذاكران أيام طفولتهما الماضية ؛ وكذلك قضيا بقية يومهما مسرورين مغتبطين حتّى أتت ساعة النوم ، ففرش استيفن لنفسه حشية في بعض جوانب الغرفة وترك السرير لضيفه وناما .

ولما أصبحا أعطى استيفن « لإدوار » قبل ذهابه إلى المدرسة جميع ما كان معه من المال وقال له : إن وظيفتي في الشهر مائتا فرنك أنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقي لأجرة الغرفة وسداد دين الأثاث الذي ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين فرنكاً في الأيام العشرة الماضية ؛ وها هو ذا الباقي فتول أنت إنفاقه ؛ فأنت رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ، ثم تركه ومضى ، فلم يلبث « إدوار » أن نزل إلى السوق فاشترى لحماً وخبزاً وتوابل وفاكهة وخمراً ، وأنفق في سبيل ذلك اثني عشرة فرنكاً وجلس يطبخ ويشتوي حتّى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له : ما هذا يا إدوار ؟ أوليمة هي ؟ قال : نعم وليمة الاحتفال بقدومي ؛ فابتسم استيفن وقال له : لقد أحسنت فيما قلت ، وذكرتني بما كنت عنه لاهياً ، وجلس يؤاكله حتّى فرغا من الطعام ، فقال له إدوار : أرى أن الغرفة تنقصها بضعة أشياء لا بد لنا منها ، فأذن لي بمشتراها ؛ وأعدك ألا أبتاع إلا ما لا بد لنا منه ، ولا أنفق في سبيل ذلك إلا ثمناً قليلاً ، فقال له : لك ما تريد ، فخرج ثم عاد بعد ساعة يقتاد كلباً أسود ضخماً ووراءه حمال يحمل له مرآة كبيرة ومشجباً للثياب وهو يقول : ما أقبح الغرفة التي لا مرآة فيها ، وما أشد وحشة البيت الذي لا ينبح فيه كلب ، على أنني لم أنفق في جميع ما ابتعته أكثر من عشرين فرنكاً ، وأظنك ترى يا استيفن كما أرى أنها صفقة رابحة نادرة قلما يتفق مثلها

لأحد ، فضحك استيفن وقال له : ما أعذب جنونك يا إدوار ؟ قال : وهل تطيب الحياة بغير جنون ؟.

وكذلك لم يأت اليوم العشرون من الشهر حتّى صفرت أيديهما من النقود ، ولم يجد عليهما الكلب ولا المشجب ولا المرآة شيئاً . فقال استيفن : ما العمل يا إدوار ؟ قال : الأمر أهون مما تظن ، وسأرى لك الرأي الذي ينفعنا ، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل يصحبه أحد الحمالين ورجل آخر من تجار الأثاث ، فوقف على عتبة الغرفة وقال للرجل : خذ وهذا السرير فإنه يضايق الغرفة كثيراً ، ولا ظهر أثبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض وخذ هاتين الوسادتين الزائدتين ، فالوسادة الواحدة إذا ثنيت تكفي صاحبها ، ثم نظر إلى استيفن وقال له : أليس كذلك يا صديقي ؟ فانتبه استيفن وكان مكباً على منضدته يكتب كتاباً إلى ماجدولين ففهم كل شيء ، وقال : بلى يا إدوار ، قال : أتظن أن زجاجاً رقيقاً كزجاج هذه النافذة يبقى طويلاً على هذه الرياح العاصفة في هذا الشتاء الشديد ؟ قال : لا ، قال : أليس من الحزم أن ننتفع بثمنه بدلاً من أن نتركه لعبة في أيدي الرياح تعبث به ما تشاء ؟ قال : ذلك هو الرأي ، فمشى إلى النافذة فانتزع ألواحها واحداً بعد آخر وأعطاها الحمال ، ثم قال له : وهل ترى أننا في حاجة إلى مثل هذا الغطاء الثقيل في مثل هذه الغرفة الضيقة ؟ قال : لا ، فأمر الحمال بحمله ، ثم قال له : وهل تضع في هذه الخزانة شيئاً تخاف عليه أن يسرق ؟

فضحك استيفن وقال له : لو كان عندي ما أخاف عليه لم نصر إلى ما صرنا إليه ، قال : إذن ما بقاء هذا القفل فيها ؟ ثم مدّ يده إليه فانتزعه من مكانه ، وظل يقلب نظره في الغرفة حتّى

وقع على المنضدة ، فذعر استيفن وقال له : انتظر يا إدوار لا تمسسها حتى أتمم رسالتي ، فضحك وقال : إني أتركها لك إكراماً لماجدولين ، وأخذ يساوم الرجل في ذلك الأثاث حتى باعه منه بثلاثين فرنكاً ، ثم عاد إلى استيفن يقال له : ماذا ترى فيما تم ؟ قال : أرى أن تعطيني هذا المال الذي معك لأتولى إنفاقه بدلاً منك ، فإنك لا تستطيع أن تكون حازماً ، قال : أظن أننا قد بدأنا نختلف يا صديقي ، لأنك تحب التقتير وهو لا يعجبني ، وأنا أحب السعة وهي لا ترضيك ، فخير لي ولك أن نقتسم راتبك بيننـــا قسمين ، وأن يعيش كل منا وحده بالقسم الذي يصيبه ، وصمت هنيهة ثم قال : على أن افتراقنا في المعيشة لا يتم إلا إذا افترقنا في السكن ، فليختص كل منا بجهة من الغرفة مستقلة عن جهة صاحبه ، وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد إلى قطعة من الجص وخط بها وسط الغرفة خطاً مستطيلاً ، وقال : هذا قسمي أنا وكلبي ومرآتي ومشجبي وهذا قسمك وحدك وهو خير من قسمي وأكثر منه مرافق ومنافع ، لأن فيه المنصب الذي تطبخ عليه طعامك ، والمنضدة التي تكتب عليها رسائلك والنافذة التي تمد في فضائها ذراعك كلما أردت أن تلبس قميصك أو معطفك ، فأغرب استيفن في الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرفة يفعل فيها ما يشاء .

وكذلك استمر إدوار ينغص على استيفن عيشه ، واستيفن لا يغضب ولا يشكو ، بل لا يشعر بألم ولا ضيق لأنه كان صديقه وكفى .

(٤٣)

التضحيـــة

خرج إدوار ذات يوم يرتاض في بعض أطراف القرية ، وبقي

استيفن وحده يدون في دفتره بعض نغمات موسيقية لدروس الغد ، وإنه لكذلك إذ سمع على السلم خفق نعال كثيرة وأصواتاً مختلفة وصياحاً عالياً فدهش وقام إلى الباب ففتحه فإذا رجل طويل القامة عريض الكتفين يلبس لباس عمال المناجم تشتعل عيناه ناراً ويتدفق الزبد من شفتيه وقد أمسك بيده سيفين عريضين ، فلما وقع نظره على استيفن قال له : أأنت المسمى إدوار ؟ فعلم استيفن أن الرجل يريد بصديقه شراً وأنه لا يعرف شخصه فأشفق منه وأراد أن يعرف ما ترته عنده فقال له : نعم أنا هو فماذا تريد مني ؟ فابتدره الرجل بلطمة على وجهه أظلمت لها عيناه وقال له : لعل شجاعتك التي دفعتك إلى مغازلة زوجتي وانتهاك حرمة بيتي والعبث بشرفي لا تفارقك في هذه الساعة حين أدعوك إلى مبارزتي على ضفاف النهر ، وها هم أولاء شهود المبارزة فليختر كل منا من يشاء منهم ، فأخذ استيفن منه السيف صامتاً وقد فهم كل شيء وكان ملماً بعض الإلمام بقصة إدوار مع زوج هذا الرجل . وأشفق عليه أن يصيبه من تلك المبارزة شر ، ولأنه كان يعلم أنه لم يجرد في حياته سيفاً قط ، فمشى مع خصمه صامتاً لا يقول له شيئاً حتى بلغا ضفة النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا ذكر استيفن ماجدولين وود لو استطاع أن يكتب إليها كلمة وداع فنظر إلى الشهود وقال : هل أجد مع أحد منكم بطاقة صغيرة ؟ فأعطاه أحدهم ما أراد فكتب هذه الكلمة الموجزة « إني أموت في مبارزة شريفة وأنت آخر من أفكر فيه فالوداع يا ماجدولين » وكان أحد الملاحين واقفاً على مقدمة سفينته بجانب الضفة فرأى استيفن وهو يكتب كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره حوله يفتش عن رسول يبعث بها معه ، فأثر منظره في نفسه وتقدم نحوه وقال له : ائذن لي يا سيدي أن أحمل رسالتك إلى من تريد ، فشكر له استيفن صنيعه وأعطاه

الرسالة بعد ما كتب عنوانها على ظهرها ، ثم شرع في المبارزة فكانت يده فيها أعجز من يد خصمه ، فجرح بعد ضربات في ذراعه جرحاً بليغاً ، فأوقف الشهود المبارزة وتصافح الخصمان والملاح لا يزال واقفاً مكانه ، فقال له استيفن وهو ساقط على الأرض بصوت ضعيف : مزّق الرسالة التي معك فلا حاجة إليها الآن ، فمزّقها الرجل ودنا منه فأخرج من جيبه منديلاً فعصب ذراعه ، ثم أنهضه من مكانه وأخذ بيده وظل سائراً معه حتى صعد إلى غرفته ، فأضجعه على فراشه وجلس بجانبه يضمد جراحه ويواسيه.

(٤٤)

الصداقة

جلس إدوار إلى صديقه في الليلة التي عزم على السفر في غدها وكان جرحه قد أشرف على البرء ، وقال له : سجّلت لنفسك بدمك يا استيفن في صفحة قلبي نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، كما لا أنسى لك أنك وأنت في أشد حالات بؤسك وضيقك قد آويتني وواسيتني أياماً طوالا ، واحتملت لي ما لا يحتمله أخ لأخيه ولا حميم لحميمه ، فلو أنني جمعت لك في يوم واحد جميع ما كافأ به الناس بعضهم بعضاً على الخير والمعروف مذ خلقت الدنيا حتى اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذي صنعت ، فقال له استيفن : إنني لم أسد إليك يداً تستحق مكافأة ، ولكنك صديقي وللصداقة آثار طبيعية تتبعها وتنبعث وراءها جريان الماء في منحدره ، فإن كنت لا بد شاكراً فاشكر الصداقة التي ظللتنا بجناحيها مذ كنا طفلين صغيرين ، والبؤس الذي لف شملي بشملك ، وخلط

نفسي بنفسك ، وحول قلبينا القريحين الكسيرين إلى قلب واحد ، وإن قدر لك يوماً من الأيام أن تمد يدك لمعونتي فليكن ذلك منك إذعاناً لرحمة قلبك وحنانه لا مكافأة على خير ، ولا مجازاة على معروف .

إنني شقي مذ ولدت يا إدوار ، فأنا أحب الأشقياء وأعطف عليهم لأنني واحد منهم ، ولا صداقة في الدنيا أمتن ولا أوثق من صداقة الفقر والفاقة ، ولا رابطة تجمع القلبين المختلفين مثل رابطة البؤس والشقاء ، فلو أنني خيرت بين صحبة رجلين : أحدهما فقير يضم فاقته إلى فاقتي فيضاعفها ، وثانيهما غني يمد يده لمعونتي فيرفه عني ما أنا فيه من شدة وبلاء لآثرت أولهما على ثانيهما ، لأن الفقير يتخذني صديقاً والغني يتخذني عبداً ، وأنا إلى الحرية أحوج مني إلى المال .

يظن السعيد دائماً أن السعادة التي يمرح في ظلها إنما هي منحة سماوية قد آثره الله بها من دون عباده جميعاً لفضيلة كامنة في نفسه لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص في العالم سواه ، وليس في استطاعته أن يتصور بحال من الأحوال أن السعادة عارية من عواري الدهر ، يأتي بها اليوم ، ويذهب بها غداً ، ولعبة من ألاعيبه ، يختلف بها بين الناس أخذاً ورداً ، ويداولها بينهم عطاء وسلباً ، فتراه واثقاً بها مستنيماً إليها ، ينطق بذلك لسانه ، وتهتف به حركاته وسكناته ، وملامح وجهه ، وابتسامات ثغره ، ومن كان هذا شأنه نظر إلى غيره من البائسين المحدودين[1] الذين لا يتمتعون في حياتهم بمثل متعته ، ولا يهنأون فيها بمثل نعمته ، نظر الشمس إلى ذرات التراب المبعثرة على سطح الأرض ، فهو

(١) المحدود : المحروم .

يمن عليهم باللفتة والنظرة ويحاسبهم على القعدة والقومة ويتقاضاهم إجلاله وإعظامه كأنما يتقاضاهم حقاً من حقوقه المقدسة التي لا ريب فيها ، فإن أذن لأحدهم يوماً من الأيام أن يجلس في حضرته لا يعجبه منه إلا خضوعه له ، واستخذاؤه بين يديه ، وتضاؤله أمام نظراته المترفعة تضاؤل الحمامة الساقطة تحت أجنحة النسر المحلّق ، ثم لا يجازيه على ذلك بأكثر من دعائه إلى مائدته ، أو الإنعام عليه بفضلة ماله أو خلقان ثيابه ، لا يبعثه إلى ذلك باعث رحمة أو حنان ، بل ليريه فرق ما بينه وبينه في مظاهر الحياة وزخارفها ، وحظوظ الأيام وحدودها ، وليضيف إلى عنقه المثقل بأغلال الفقر غلا جديداً من الذلة والاستعباد ، فإذا أراد المسكين أن يفضي إليه بهم من هموم قلبه ترويحاً عن نفسه ، وترفيهاً لآلامه أعرض عنه وبرم به ، وخيل إليه أنه ما ذهب معه هذا المذهب في حديثه إلا وقد أضمر في نفسه أن يقاسمه ماله ، أو يساكنه في قصره ، أو يشاطره نعمته وسعادته ، فلا يعزيه عن بأسائه بأكثر من أن يلومه على تبذيره وإسرافه ، أو على بلادته وغفلته ، ثم يختم حديثه معه بقوله : ان جميع ما يصيب المرء في حياته من بؤس وشقاء ليس الذنب فيه على القدر ، بل على قصور الإنسان وجهله ، وعدم اضطلاعه بشؤون الحياة وتجاريبها ، وإن الله تعالى أعدل من أن يمنح نعمة جاهلها أو يسلبها مستحقها ، أي إنه يجمع عليه بين بليتين : بلية الهم ، وبلية اليأس من انفراجه وانقشاعه .

لا يستطيع الغني أن يكون صديقاً للفقير لأنه يحتقره ويزدريه فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، أو يصطنعه من أجلها ، ولأنه يشعر من نفسه باقتداره على احتمال اعباء الحياة وحده دون أن يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء ، أما صديق الفقير فهو

الفقير الذي يصغي لشكاته إذا بثها إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويعزيه عنها إذا فهمها عنه ، ويجعل له من صدره متكأ ليناً يلقي رأسه عليه ، وهو تعبٌ مكدود فيجد فيه برد الراحة والسكون.

لذلك أحببتك يا إدوار ، واتخذتك صديقاً ، وكان الشقاء هو الوثيقة التي تعاقدنا فيها أن يكون كل منا عوناً لصاحبه على دهره ، وجنة له من دون نكبات الأيام وأرزائها ، مهما تقلبت بهما الأحوال ، أو فرقت بينهما الأيام .

فأخذ إدوار بيد استيفن وأقسم له بكل محرجة من الأيمان ألا يهدأ له في حياته روع ولا يثلج له صدر ، حتى يراه ظافراً من دهره بالسعادة التي يرجوها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه جزءاً من ثروته التي صارت إليه فأبى ، وقال أما هذه فلا ؛ لأني لا أريد أن أشتري سعادتي في دنياي إلا بأشرف أثمانها .

وفي الصباح مشى استيفن مع إدوار ليودعه حتى بلغا مكان الافتراق فتعانقا طويلاً وبكى استيفن على صديقه ، ثم افترقا .

(٤٥)
من إستيفن إلى ماجدولين

خرجت ليلة أمس أرتاض على شاطىء النهر ، فلما استقبلت الفضاء شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطراباً سريعاً في خفوت وهمس ، وأن الهواء يمشي متثاقلاً مترجحاً يتحامل بعضه على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السوداء تتنقل في صحراء السماء تنقل قطعان الفيلة في غاباتها ، وخيل إلي أني أسمع في أعماقها

قعقعة مبهمة تدنو حيناً وتنأى أحياناً ، وكأنما قد راع هذا الصوت الأجش طيور الماء ، وحشرات الأرض ، فرأيت الطيور مرفرفة على سطح النهر تستبق إلى أوكارها ، والحشرات متعادية بين الصخور تتسرب الى أحجارها ورأيت السواد قد صبغ كل شيء حتى لون الماء ؛ فقبة السماء ورقعة الأرض والأفق الذي يصل بينهما منجم أجوف عميق من مناجم الفحم يحاول البرق أن يجد له في جدرانه العاتية الصماء منفذاً ينحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا الومضة بعد الومضة تعتلج بين طبقاته ولا تنفذه .

ثم ما لبثت هذه الطبيعة الصامتة الخرساء أن هدرت وزمجرت فهبت الزوبعة من كل مكان تخبط بيديها أوراق الأشجار فتطير بها كل مطار وتهتز السقوف والجدران هزاً وتضرب بعضها ببعض ، ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويفتح لنفسه والبرق طريقاً في خلالها ، ثم همى فسالت به الاودية والأرجاء ، وامتلأت الأخاديد والأغوار . وكنت على مقربة من كوخ صديقي « فرتز » وهو فلاح فقير أسدى إليّ فيما مضى من الأيام صنيعة لا أزال أحفظها له حتى اليوم . فلجأت إليه فخيل إليّ حين دخلته أنه مقفر موحش ليس به أنيس . ثم أضاء البرق فرأيت في داخله منظراً من أجمل المناظر وأبدعها ، رأيت زوج الرجل وأولاده جاثين على أقدامهم خاشعين باسطي أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بدعوات جميلة يرددونها بصوت شجي محزن . فخيل إليّ ، ولا مصباح هناك ولا ضياء ، أني أرى إشراق وجوههم وتلألوها في هذه الدجنة الحالكة وأحست بي المرأة فالتفتت إليّ وقالت : لم يعد « فرتز » حتى الساعة ، ونحن نخشى أن يكون قد أصابه مكروه من أهوال تلك الليلة ، فنحن ندعو الله تعالى أن يرده إلينا سالماً ، فأثر في نفسي هذا المنظر تأثيراً شديداً وقلت في نفسي : « ويل للذين

يحاولون أن يسلبوا أمثال هؤلاء المساكين إيمانهم ويقينهم ، إنهم يسلبونهم حياتهم التي يحيون بها في هذا العالم ، وكل ما تملك أيديهم من سعادة وهناء » وشعرت بحزن شديد في أعماق قلبي لحرماني من مثل هذه السعادة النفسية التي ينعم بها هؤلاء القوم ، فجثوت بجانبهم أهتف بهتافهم ، وأدعو بدعائهم وأضرع إلى الله أن يمنحني يقيناً مثل يقينهم ، ولم أدر أن ما أنا فيه إنما هو اليقين الذي أنشده ، وأضرع الى الله فيه ثم رفعت رأسي فإذا « فرتز » واقف على عتبة الباب ، فهرعت زوجته إليه تقبله وتنضو عنه رداءه المبتل ، ودار أولاده يلثمونه ويستقبلون لثماته الأبوية الرحيمة ويستطيرون فرحاً به وسروراً ثم احتملوه جميعاً إلى المائدة وجلسوا حوله يحادثونه ويسألونه عما كابد من أهوال هذه الليلة وشدائدها ، وجلست على مقربة منه أسمع حديثهم ، وأستشف سريرة نفوسهم ، فأخذ منظرهم هذا من نفسي مأخذاً شديداً . وكدت — وما حسدت أحداً في حياتي على نعمة قط — أن أحسدهم على نعمتهم هذه ، وقلت في نفسي : زوجة تحب زوجها وتبكي رحمة به وإشفاقاً عليه وأولاده يجثون على أقدامهم ويمدون أيديهم إلى الله تعالى ضارعين أن يحفظ لهم حياة أبيهم ، وأب يبكي فرحاً برؤية أولاده بين يديه سالمين مغتبطين ؛ إنها السعادة النفسية العالية التي لا تستمد بهجتها ورواءها من القصور والرياض ، والأثاث والرياش ، والفضة والذهب ، بل من الحب الخالص والود المتين .

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يا ماجدولين ، كتب لنا أن نعيش عيش الفقراء المقلين ؛ ولكننا سنكون على فقرنا وإقلالنا سعداء مغتبطين .

لم يبق بيني وبين الحصول على تلك الزيادة التي وعدوني بها

إلا ثلاثة أشهر سأسافر من بعدها إليك في «ولفاخ» لأخطبك إلى أبيك، وأضع يدي في يدك، فلا يبقى للشقاء بعد اليوم إلينا من سبيل.

(٤٦)
من ماجدولين إلى استيفن

سافرت سوزان إلى «كوبلانس» وتركتني حزينة آسفة على فراقها، ولكنني سألحق بها عما قليل، فقد وعدها أبي أن نسافر إليها بعد شهر واحد لنقضي عندها بقية أيام الشتاء، وسأكتب إليك عند وصولي لتكون على بينة من ذلك، فلعلك تجد السبيل الى موافاتي هناك، فأراك ولو على البعد — والسلام.

(٤٧)
من ماجدولين إلى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبي إلى «كوبلانس» ونزلنا ضيفين في منزل سوزان وأنا مغتبطة بلقائها وبالسعادة التي أجدها في منزلها اغتباطاً عظيماً وقد أخبرتني اليوم أنها ابتاعت لها مقصورة في ملعب «الأوبرا» نذهب إليها مساء كل أحد؛ فها نحن أولاء قد وجدنا المكان الذي يمكننا أن نتراءى فيه أو نتلاقى إن استطعنا.

فتعال إليّ يا استيفن، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك سترى مرة ثانية وجه ذلك البلد الذي أبعدت عنه واجتويته وخرجت منه ناقماً عليه.. اغتفر كل شيء من أجلي.

(٤٨)

الحياة الجديدة

سافرت ماجدولين مع أبيها إلى «كوبلانس» ونزلت في ضيافة صديقتها سوزان فأدهشها منظر القصر وأبهاؤه وحجراته ، وما يشتمل عليه من أثاث ورياش ، وما يتلألأ في جوانبه من زخرف وآنية ؛ وأعجبها منظر الوصائف في إقبالهن وإدبارهن ؛ وما يتراءين فيه من ألوان الثياب وأنواع الأزياء ، حتّى خيل إليها وهي واقفة أمام المرآة تنظر إلى نفسها وإلى موقفهن بجانبها أنهن فوق أن يخدمنها أو يسعين بين يديها ، بل تمثل لها أنهن يسخرن في أعماق نفوسهن بمنظرها ، ومنظر ثيابها القروية القصيرة المخططة التي خاطتها بيدها ، وكثيراً ما كانت تحدثها نفسها كلما بدت لها حاجة من الحاج أن تقوم إلى قضائها بنفسها خجلا منهن وحياء ، والله يعلم كم نالها في مبدإ أمرها من حيرة وارتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب ، أو شهدت مجمعاً ، أو حضرت ملعباً ؛ وكم كابدت من عناء في صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التي انتقلت إليها حتّى أسلست واستفادت .

وكانت سوزان قد أعدت لها نواع الأقمشة من حرير ومخمل وخز وصوف وفرو ؛ فخاطت لها خياطة ماهرة ثوباً للرقص ، وآخر للملعب وآخر للمائدة وقميصاً للبيت ، وغلائل للنوم . فرقصت وغنت وأنست بمنظر الراقصات والمغنيات ، وتحدثت باحاديث فتيات «كوبلانس» ؛ وذهبت مذاهبهن في آرائهن وتصوراتهن، ولذت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى وملأت ما بين جوانحها حتّى غلبتها على أمرها ، فتضاءل في نظرها كل شيء في ماضيها إلا حبها لاستيفن .

(٤٩)

الفتنـــة

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة في غرفتها الخاصة في القصر وهي غرفة بديعة فاخرة قد كسيت أرضها وجدرانها بالقطيفة الحمراء المطرزة وأسبلت على نوافذها وأبوابها ستائر حريرية بيضاء تتراءى في خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتدور في أطرافها ألوان الفصوص المتلألئة وانتثرت في جوانبها وأركانها المقاعد الثمينة ، والمناضد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ، وأصص الريحان والزهر ، فرأت بين يديها صناديق صغيرة من الفضة فقالت لها سوزان حين رأتها : لقد أرسل إليّ خطيبي اليوم هدية الزواج فهل تحبين أن تريها ؟ قالت : لا أحب إليّ من ذلك ، ففتحت سوزان الصناديق أمامها واحداً بعد آخر فإذا عقود ودمالج وأساور وأقراط مصوغة أجمل صياغة وأبدعها ، مرصعة بأنفس اللآلىء وأثمن الجواهر ، فدهشت ماجدولين لمنظرها وظلت تقلبها بين يديها ساعة ، ثم تناولت قرطاً صغيراً من الماس فوضعته في أذنيها ، فاقترحت عليها سوزان أن تتقلد الحلية بأجمعها لترى منظرها عليها . ففعلت ووقفت بها أمام المرآة وأقبلت بها وأدبرت . فقالت لها سوزان : ما أحوج جمالك يا ماجدولين إلى مثل هذه الحلية وما أحوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجمال وإني لا أتمنى على الله شيئاً سوى أن أراك خطيبة رجل من ذوي النعمة والثراء يحبك ويستهيم بك ، ويملأ فضاء حياتك هناء ورغداً ؛ ثم أنشأت تصف لها قصراً بديعاً ابتناه لها خطيبها في إحدى ضواحي « كوبلانس » وأعد لها فيه من أسباب النعمة

والرفاهية ما لا يعد مثله أصحاب التيجان لنسائهم وحظياتهم[1]
وختمت حديثها بقولها :

وفردريك فوق ذلك فتى جميل ساحر لا تقع العين على أبدع ولا أظرف منه ، وهو يحبني حباً شديداً ، ولا أحسب أن الذي أضمر له من الحب أقل مما يضمر لي ، فأطرقت ماجدولين هنيهة ولم تكن قد أفضت إلى صديقتها حتى الساعة بسر حبهـا لاستيفن ، ثم رفعت رأسها وقالت : هل تكتمين سري يا سوزان إن أفضيت به إليك ؟ قالت : نعم ، ومن يكتمه إن لم أكتمه ؟ فقصت عليها قصتها مع استيفن وذكرت لها ذلك العهد الذي أخذه كل منهما على صاحبه أن يعيش له ، وألا يفرق بينهما إلا الموت ، فقالت سوزان : إني أذكر أنك كتبت لي عنه وكان حديث عهد بالنزول بداركم ، انه غير جميل ولا جذاب ، قالت : نعم هو كذلك ، ولكنني أحببت فيه أخلاقه أكثر من كل شيء ، وإن رجلاً يخاطر بنفسه من دون الناس جميعاً في سبيل إنقاذ غريق لا يعرف من هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك لهو أشرف الرجال وأنبلهم قصداً ، وأعلاهم همة ، ولقد شهدت أنت بنفسك ذلك المنظر وكتبت لي عنه ، وعلمت منه أكثر مما أعلم ، قالت : أهو الرجل ؟ قالت : نعم ؛ قالت : إني أذكر ذلك ، ولقد أعجبت به في ذلك اليوم إعجاباً عظيماً ؛ وهل هو غني ؟ قالت : لا ، ولكنه يسعى إلى الكفاف من العيش وسيناله ، وحسبي منه أنه يحبني حباً لا يحبه أحد أحداً ، قالت : ما أقبح المهر يا ماجدولين إذا كان كله حباً ، إنك إذاً تريدين أن تتبتلي وتستوحشي وتهجري العالم كله بجماله ورونقه إلى غرفة خاملة في أحد المنازل المهجورة

---

(١) الحظية : الحرية المكرمة عند سيدها ، من الاحتظاء : وهـو النزول منزلة الكرامة .

المنفردة تقتلين فيها نفسك هماً وكمداً .

فصمتت ماجدولين ولم تستطع أن تقول شيئاً ، لا اقتناعاً برأي صديقتها ، بل حياء منها وخجلاً ، ثم افترقتا .

(٥٠)

الملعب

جلست ماجدولين وسوزان في مقصورة الأوبرا وجلس بجانبهما ألبرت ابن عمة ماجدولين ، وأشميد ابن عم سوزان ، وهما فتيان جميلان متأنقان في ملبسهما ، وحليتهما ، شأنهما في حياتهما شأن أمثالهما من الفتيان الأثرياء المستهترين الذين تنقسم حياتهم كلها إلى ساعتين اثنتين ، واحدة للضحك والسرور ؛ والأخرى لتصبي النساء واستغوائهن ؛ فينفقون على الأولى عقولهم ، وعلى الثانية أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من هذا ولا ذاك شيء .

جلسا يقلبان النظر في وجوه الجالسين في المقاصير المماثلة لهما فإن وجدا وجهاً جميلاً تغامزا وتهامسا ، أو قبيحاً ضحكا وسخرا ، ثم علا صوتهما بالضحك والسخرية ؛ فلم تلبث سوزان أن اشتركت معهما . ثم تبعتها بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها أو مما يلتئم مع مزاجها ولكنها فعلته مجاملة لهما ، ثم لم تلبث أن طربت لهذا الاسلوب من المجون وأنست به فأخذت فيه أخذهما ، وبينا هي تقلب نظرها في المقاصير المجاورة لمقصورتها إذ رأت امرأة في سن الشيخوخة تلبس زينة الفتيات وحليتهن فلفتت نظر أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفطنتها ضحكاً عالياً رناناً ، لا لأن

هناك فطنة تستحق الاعجاب والإطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يجازوها مجاملة بمجاملة ، ومصانعة بمصانعة ، فخدعها هذا الإطراء فاسترسلت في نكاتها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعاً .

وإنهم لكذلك إذ هتف ألبرت وأشار إلى رجل جالس على كرسي في مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجب من هذا القرد اللابس ثوب الإنسان ؟ فقال أشميد : أذكر أني رأيت هذا الوحش المستأنس مرة قبل اليوم ، ولا أدري أين رأيته ؟ وقالت سوزان : أظنه قدم الملعب الساعة فإني لم أره قبل هذه اللحظة ، وما أحسبه إلا الشيطان الذي كانوا يخيفوننا به صغاراً ولا نراه ، فقال أشميد : إن حلته وإن كانت ثمينة فاخرة فهي من الحلل التاريخية التي لا يلبسها إلا الممثلون ، فأجاب ألبرت : لعله سرقها من قبور الفراعنة أو دور الآثار ، فإن من يملك مثل هذه الحلة الثمينة لا يعجز عن أن يشتري مشطاً يمشط به شعره المشعث ؛ فقالت سوزان : لا عار على الرجل أن يكون قبيحاً ، ولكن القبيح أن يلبس ثيابا جميلة تختلف صورتها عن صورته فتلفت الأنظار إلى قبحه ودمامته ، ثم التفتوا جميعاً فرأوا ماجدولين قد تراجعت الى الوراء وهي ترتعد وتضطرب وقد استحالت حمرة وجهها إلى صفرة كصفرة الموت فسألوها ما بالها ؟ فزعمت أنها مقرورة ، وأنها تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها ، ولم تكن صادقة فيما تقول ، ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول ، لأن الرجل الذي يسخرون منه ويتناولونه منذ حين بألسنتهم ويذهبون كل مذهب في تحميقه وتجهيله والسخرية به ، إنما هو خطيبها الذي تحبه وتستهيم به ، فأمسكوا عن الضحك هنيهة وأقبلوا عليها يعللونها حتى هدأ ما بها ، فانصرفوا إلى الرواية يشاهدون فصولها وعادت هي إلى

بمجلسها الأول ، وظلت تخالس استيفن النظرة بعد الأخرى حتى انتبه لها فحيّاها بابتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ، ثم ما لبثت الرواية أن انتهت فنهضوا للانصراف ، وألقت ماجدولين على استيفن نظرة ضمنتها معنى شكرها إياه على اهتمامه بها ، وحضوره لرؤيتها ثم انصرفوا .

(٥١)

الرجل والمرأة

ينظر الرجل إلى المرأة في حبه إياها بعين غير العين التي تنظر بها إليه في حبها إياه ، فهو يراها أداته الخاصة به التي لا حق لإنسان غيره في التمتّع بها بوجه من الوجوه ؛ ويرى أن حقاً عليها أن تختصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ؛ فيغار عليها من النظر واللفتة ، وكلمة الاستحسان ، وبسمة الإعجاب ، ويخيل إليه أن الناظرين إليها والمحتفلين بها ، والمتحدثين بأحاديث حسنها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم إلى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعاً فاختلسوا من جواهرها جوهرة لا حق لهم فيها ، وفازوا بها من دونه ؛ فيلم بنفسه من الألم والامتعاض ما يلم بنفس الشحيح المختبل إذا رأى السابلة تفر من حر الهاجرة إلى جدران داره لتستذري بظلالها ساعة من الزمان ، وان لم يضره ذلك شيئاً ؛ وقد يكون من أشهى الأشياء إلى نفسه وأعجبها إليه أن يرى الناس قد أجمعوا رأيهم على استقباحها والزراية عليها ووصفها بأقبح الصفات

وأشنعها ، وأنها قد أصبحت في نظرهم ضحكة الضاحكين ، وآية السابلين ، حتى يكون جمالها سراً من الأسرار الخفية ، لا تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه .

أما المرأة فتنظر إلى الرجل الذي تحبه نظرها إلى حليتها التي تلبسها وتعتز بها وتدل بمكانها على أترابها ونظائرها ، فلا أوقع في نفسها ، ولا أشهى إلى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه إنه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه إنه فتى جميل ، فهي تحبه لخيلائها ، أكثر مما تحبه للذاتها وشهواتها ، وترى في إعجاب المعجبين به وافتتان المفتتنات بحسنه وجماله ، اعترافاً منهم بحسن حظها وسطوع نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها ، وهذا كل ما يعنيها من شؤون حياتها .

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن في أعماق قلبها حينما عرفت أن حليتها التي كانت ترجو أن تفاخر بها أترابها غداً ، وتكاثرهن بحسنها وجمالها ، قد بذأتها العيون ، واقتحمتها الأنظار ، وسخر منها الرجال والنساء جميعاً ، وظلت تفكر في ذلك ساعة كابدت فيها من آلام النفس ولواعجها ما تكابد نفس المحتضر في ساعته الأخيرة ، ثم لم تلبث أن عادت إلى نفسها وظلت تقول : إنهم لا يعرفون من أمره ولا أمر نفسه شيئاً ، ولو أنهم علموا من شأنه بعض الذي أعلم ، وعرفوا ما تنطوي عليه جوانحه من الفضائل والمزايا ، لأعظموا منه ما استصغروا وأجلوا ما احتقروا ، ولأنزلوه من نفوسهم المنزلة التي يستحقها فضله وكرمه .

وهنا ذكرت آماله وأحلامه ، وبؤسه وشقاءه ، وما يكابده في حياته من شدة وبلاء ، في سبيل عيشه مرة وحبه أخرى ، فبكت ، رحمة به ، وإشفاقاً عليه .

وهكذا أخذ حبها يستحيل إلى رحمة وشفقة ، والحب إذا استحال الى هذين فقد آذن نجمه بالأفول .

(٥٢)
من استيفن إلى ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد افتراقنا عاماً كاملا ، وكانت ساعة من أسعد الساعات وأهنئها ، فغفرت لدهر من أجلها كل سيئاته عندي ، بل نسيت عندها أنني ذقت طعم الشقاء ساعة واحدة في يوم من أيام حياتي ، وظللت أقول في نفسي : هذا شأني ، ولم أرها إلا لحظة واحدة على البعد ، فكيف بي إذا أصبحت كل ساعات حياتي ساعات لقاء . واجتماع ؟ إني أذكر ذلك يا ماجدولين فيخيل إلي أن قلبي أضعف من أن يحمل هذه السعادة كلها ، وأنها يوم توافيني ستذهب إما بعقلي أو بحياتي .

عفواً يا صديقتي فقد أذنبت إليك بيني وبين نفسي ذنباً لا بد لي من أن أعترف لك به حتى لا أكون قد أذنبت إليك ذنباً آخر بكتمانه وإخفائه .

تركت (جوتنج) وقلبي يخفق رعباً وخوفاً أن تكون الحياة الجديدة التي انتقلت إليها قد نالت من نفسك منالها من نفوس الفتيات الضعيفات اللواتي تتلون قلوبهن وأهواؤهن بلون الهواء الذي يستنشقنه ، والجو الذي يعشن فيه ، فلما رأيتك ورأيت تلك السحابة السوداء من الحزن التي كانت تغشى وجهك وتظلله ومنظر عينيك الساجيتين المنكسرتين المملوءتين كآبة وحزناً ، علمت أني مخطىء في هواجسي وظنوني ، وأن المكان الذي شغلته من قلبك

لا يزال آهلاً بي كعهدي به ، وأن تلك الريبة التي عرضت لنفسي فيك إنما هي وساوس الحب وأوهامه .

غير أن لي عندك أمنية واحدة ، وأحب أن تأذني لي بذكرها وأن تنوليني إياها .

رأيتك في الملعب تلبسين ثياباً رقيقه ناعمة تشف عن ذراعيك وكتفيك ونحرك ، وتكاد تنم عن صدرك وثدييك ، ورأيت الأنظار حائمة حولك تكاد تنتهبك انتهاباً ، فاشتد ذلك عليّ كثيراً وألم بنفسي من الغيظ والألم ما الله عالم به ، وما أحسب أنك كنت راضية عن نفسك في هذا المظهر الذي ظهرت به بين الناس ، ولكنك خضعت فيه لرأي النساء ، ورأيهن في هذا الشأن أخيب الآراء وأطيشها ، فرجائي عندك أن تنزعي عنك هذه الشفوف المهلهلة ، وأن تعودي إلى ثيابك القروية الأولى ، صوناً لجسمك من عبث الأنظار وفضولها ، فليس يكفيني منك أن تهبيني قلبك وتؤثريني بمحبتك ، بل لا بد لك من أن تذودي عنك قلوب الرجال وأفئدتهم فلا تجعلي لها سبيلاً إلى الافتتان بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا بالبشاشة والوداعة ولا بالتزين والتحلي ، ولا بالتجمل والتأنق ، واعلمي أن المرأة لا تخلص للرجل الذي تحبه الإخلاص كله حتى تؤثره بجميع مزاياها وصفاتها ، فلا تحفل برأي أحد فيها غير رأيه ، ولا تنزل منزلة الرضا في قلب غير قلبه ، ولا تأذن لكائن من كان أن يقول لها في وجهها ، أو بينه وبين نفسه ، أو في رؤياه وأحلامه ؛ إنها جميلة أو فاتنة ، أو ما أظرفها وأبدعها ! حتى توافيه يوم توافيه طاهرة نقية كاللؤلؤة المكنونة التي يلتقطها ملتقطها من صدفتها .

تحيتي إليك وإلى السيدة سوزان ؛ وسأذهب مساء كل أحد إلى الملعب لأراك ، وألتمس السبيل إلى لقائك .

(٥٣)

الدسيسة

دخلت سوزان على ماجدولين في غرفتها فرأتها جالسة جلسة الحزين المكتئب ورأت ذلك الكتاب في يدها فاختطفته منها قبل أن تتمكن من إخفائه، فقرأته ثم ابتسمت وقالت لها: لم يبق على خطيبك هذا يا ماجدولين سوى أن يأمرك بأن تشوّهي وجهك، أو تفقئي إحدى عينيك، أو تجدعي أنفك، أو تهشمي مقدم أسنانك، حتى تبذأك العيون وتقتحمك الأنظار، وتقشعر لرؤيتك الأبدان، فلا يجرؤ أحد على أن يقول لك بلسانه، أو بينه وبين نفسه، إنك جميلة أو فاتنة، وأن تحملي بيدك قيثارة رنانة تطوفين بها أنحاء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان في عصورهم الأولى، وتتغنين عليهما بمدحه والإشادة به، وتنشدين أناشيد الثناء على حسنه وجماله، فما أقل عقله وأقصر نظره وأجهله بالحياة وشؤونها، إني لأحسبه قد أعد لك في بيته منذ الساعة قفصاً من حديد يستقبلك به يوم تزفين إليه، ليسجنك فيه، ثم يقف على بابك حارساً يقظاً يصونك من عبث العيون وفضول الأنظار، فلا ترين إلا وجهه، ولا تسمعين إلا صوته، ولا تشعرين بوجود أحد في العالم سواه.

فقالت ماجدولين: إنك تتهمينه يا سيدتي بما ليس فيه؛ فهو من أحسن الناس أدباً، وأشرفهم نفساً، وأطيبهم قلباً، ولكنه محب، وكل محب غيور، قالت: أعاذني الله وإياك من حب يختلس الحياة اختلاساً، ويأتي عليها بأسرع من ضربة السيف، وكرة الطرف، والله لو جاء في خطبتي ملك من ملائكة السماء

يحمل على رأسه تاج الملأ الأعلى ، ويمهرني بالجنة التي أعدها الله للمتقين وما فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، ويعدني بالخلود الدائم ، والنعيم الذي لا يفنى ، على أن يضعني في قفص مثل هذا القفص الذي أعده لك هذا الخطيب المأفون لآثرت موت الفجأة ، والتغلغل في أعماق السجون ، والفرار إلى أديرة الصحارى المنقطعة ، على الرضا به ، والنزول على شرطه .

ثم نهضت قائمة وقالت : محال أن أخاطر بك وبمستقبلك يا ماجدولين وأن أتركك فريسة في يد هذا الوحش المفترس ، ينغص عليك عيشك ويكدر صفو حياتك ، ويقطف زهرة شبابك الغضة قبل اوانها ، ثم حيتها وانصرفت إلى مخدعها .

فقضت ماجدولين بعد انصرافها ليلة ليلاء لا تستريح فيها من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولا من القعدة إلا إلى القومة ، تتلمس بارقة الصواب في هذه الدجينة الحالكة فلا تهتدي إليه ، وتقلب أمرها ظهراً لبطن فلا يزيدها التقليب إلا جهلا ، حتى غلبتها السنة على عينيها فنامت .

(٥٤)

من أوجين إلى استيفن

صدر أمر القيادة العليا للتهيؤ للسفر بعد بضعة أيام إلى جهة لا نعرفها ويقول ضباطنا ان هناك ستكون الواقعة الكبرى التي يفصل فيها في مستقبل الحرب ، ولا أعلم ماذا يعده القضاء لي في ذلك اليوم . فإن قدر لي الله النجاة فسأكتب إليك ، وإن كانت الأخرى فتستقرأ

اسمي بين أسماء القتلى في جريدة الحرب ، ولا يحزنك في ذلك اليوم مصيري ، فهو مصير كل رجل شريف .

لي إليك حاجة يا استيفن أرجو ألا تضن عليّ بها :

قد بلى سرجي ، ووهت علائقه ، ولم يبق معي من المال بعد ما أنفقت عطائي كله في هذا الشهر بين اللعب والشراب ما أبتاع به سرجاً غيره ، فابعث إليّ بعشرين فرنكاً قبل مرور عشرة أيام ، فإن فاتك أن ترسل إليّ في ذلك الوقت فلا ترسل إليّ شيئاً فإنه لا يصلني . وتحيتي إليك وإلى السيدة ماجدولين .

(٥٥)

العرس

استطاع استيفن بعد سفر صديقه إدوارد أن يستفضل جزءاً من مرتبه الشهري فاجتمع له بعد بضعة أشهر خمسون فرنكاً ، استأجر بسبعة منها الحلة التي ذهب بها الى ملعب الأوبرا لروية ماجدولين ، وابتاع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه وشرابه وسفره وبقي معه بعد ذلك اثنان وعشرون فرنكاً ، فلما عاد الى جوتنج لبث بضعة أيام ينتظر كتاباً من ماجدولين رداً على كتابه الأول فلم يأته ، فساء ظنه ووقع في نفسه أنه قد أغضبها وآسفها فيما كتب إليها ، فاشتد حزنه وغمه وكتب لها رسالة أخرى يعتذر إليها فيها عما ورد في رسالته الأولى فكتبت إليه أنها كانت عاتبة عليه في سوء ظنه بها . واشتداده في مؤاخذتها وأنها قد قبلت عذره ، وسألته ألا ينقطع عن زيارة الملعب لتراه ، فعزم على أن

يسافر يوم الأحد ليراها ويلتمس السبيل إلى مقابلتها بكل وغيلة ليجدد لها اعتذاره بنفسه ، ويشكر لها صفحها عنه ورضاها .

فبينما هو جالس في غرفته صباح اليوم الذي عزم فيه على السفر إذ جاءه كتاب أخيه فحزن عند قراءته حزناً شديداً ، وذكر أنه لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة ، وأنه في حاجة إليها لينفقها على زيارة ماجدولين ، فلبث حائراً لا يدري ماذا يصنع ، ثم غلبته عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ؛ فقام ليهيء نفسه للسفر ، وابتاع نعلاً جديداً لأن نعله القديمة كانت قد بليت ، وبلغت آخر درجات الاحتمال ، فعجز عن استئجار الحلة التي استأجرها في المرة الأولى فلم يجد بداً من أن يستصلح حلته التي يلبسها ، فرتق فتوقها وصبغ بالمداد الأسود ما ابيض من خيوطها ثم ركب عجلة وسافر الى «كوبلانس» في الساعة الأولى من الليل ، فأكل في بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب إلى الملعب فلم ير ماجدولين في مقصورتها فلم يقلق لذلك كثيراً وقال : لعل لها شأناً شغلها عن التبكير ، وهي آتية ما من ذلك بد ، وأقبل على المسرح يتلهى بالنظر إلى فصوله فرأى بين القطع الممثلة مشهد رجل من أرباب الثراء والنعمة قد استهام بحب امرأة واستهامت به ، ثم نزلت به نكبة من النكبات المالية فتنكرت له وبرمت به وعزمت على مقاطعته والرحيل عنه فجثى الرجل بين يديها يستعطفها ويسألها ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسبب الذي يدعوها إلى مقاطعته ، وقالت لـــه فيما قالت : « إن المرأة لا تحب الرجـــل قط ؛ بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحبت فيه زينتها ولهوها ، أو من أرباب الجمال أحبت فيه لذتها وشهوتها ، فإن لم يكن أحد الاثنين ، فهي لا تحب إلا هذين » فاشمأز استيفن عند سماع هذه الكلمة ، وقال في نفسه : إنهم يمثلون أخلاق البغايا

الفاسقات ، ويزعمون أنهم يمثلون أخلاق النساء عامة ، ها هي ذي ماجدولين تكاد تعبدني حباً ، وما أنا من أرباب الجمال فتحبّ فيّ شهوتها ، ولا من أرباب المال فتحبّ فيّ زينتها ، ولقد أراد الله بها خيراً إذا كفاها مؤنة سماع هذه الكلمات المنفرة ، ولو سمعتها لآلمتها ونالت من نفسها منالاً عظيماً .

ثم انتظر بعد ذلك ساعة فلم يبق له أمل في مجيئها ، وعلم أن هناك شأناً عظيماً عرض عليها فشغلها عن الحضور ، فاشتد عليه الأمر كثيراً ، ورأى ألا بد له من الوقوف على شأنها قبل العودة إلى قريته ، وخشي أن تكون مريضة ، فخرج من الملعب ومشى في طريق قصر سوزان ، وهو لا يعلم كيف يلتمس السبيل إلى الوصول إليها حتى داناه فرأى أنواراً كثيرة تتلألأ في أبهائه وحجراته ، وتتدفق من نوافذه وكواه ، وسمع ألحاناً مختلفة تتردد في أنحائه ، ورأى الخدم رائحين غادين في صحونه وأفنيته يحملون على أيديهم آنية الشراب وصحف الطعام ، فعلم أنها وليمة عامة ، ولكنه لم يدر ما المراد بها ! فدنا من الباب فرأى عجلات كثيرة مصطفة أمامه ، ورأى حوذياً متكئاً على كرسي عجلته ، فسأله : ما هذه الليلة الحافلة في هذا القصر ؟ فصعد الرجل نظره فيه وصوبه ، ثم قال له ، وهو لا يفارق متكأه : إنه عرس السيدة سوزان ابنة صاحب هذا القصر ، فاطمأن وهدأ وعلم بأن ما بصاحبته من بأس ، وعزم على الانصراف ، ثم حدثته نفسه أن يحتال لرؤيتها ، ولو على البعد لحظة واحدة قبل انصرافه ، فمشى إلى ظلة دانية من ظلل القصر فوقف تحتها يفكر في الوسيلة التي يتذرع بها إلى الدخول ، فما لبث أن رأى عجلة مقبلة تحمل بعض الكبراء ؛ ورأى الخدم يهرعون إليها فانتقل من مكانه واختلط بهم كأنه واحد منهم ، ولا تختلف هيئته عن ذلك إلا قليلا ، ثم نزل الزائر

فمشى بين يديه مع الماشين حتى اجتازوا فناء القصر ووصلوا إلى قاعة الرقص ، فدخل الرجل ودخل معه الخدم وبقي هو وحده على الباب يستشف من ألواح زجاجه ما وراءها من المناظر ، فرأى الراقصين والراقصات يسبحون في بحر من الهناء والسرور ويطيرون في أجواء مختلفة عن اللذائذ والمناعم ، فظل يدير عينيه بينهم يفتش عن ماجدولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتبينه فإذا هو صديقه إدوار ، فلم يأبه لذلك كثيراً ، إلا أن ما راعه وأزعجه وكان يطير بلبه أنه رآها ترقص في ثوب رقيق شفاف لا يكاد يحجب جارحة من جوارحها ، وخيل إليه أن صدرها ملتصق بصدر مخاصرها ، وأن رأسها ملقى على كتفه ، وخدها تحت متناول لثماته ، وأنه يحتضنها أكثر مما يخصرها ، فأن أنيناً مؤلماً ، وقال في نفسه : ماذا فعلت بك الأيام يا ماجدولين؟ وحدثته نفسه أن يقتحم الباب ويتغلغل بين الزائرين حتى يبلغ مكانها ويلقي عليها نعرة عتب وتأنيب ، ثم يعود أدراجه ، ولكنه استحيا لها ولنفسه أن يراه الناس في هذه الأثواب الجافية الغليظة ، فتماسك على مضض ، وأنشأ يسري عن نفسه ويقول : هذا شأن جميع الراقصين والراقصات وهذه أثوابهم التي يلبسونها ، ومواقفهم التي يقفونها ، برهم وفاجرهم ، وتقيهم وعاهرهم ، فلا ألومها ، ولا أعتب عليها ، فتلبس ما تشاء من الثياب ، ولترقص مع من تشاء من الرجال ، فحسبي منها أني أنا الشخص الوحيد الذي يتيمها ويخلبها ، ويملأ فراغ قلبها ، من بين هؤلاء جميعاً ، ثم أعاد النظر مرة أخرى فرآها قد فرغت من الرقص ومشت هي وإدوار إلى مقعد قريب من الباب فجلسا عليه فلم ير في مجلسهما بأسا ، ولا مستّرابا ، فهدأ ثائره ، بل أعجبه ما رأى من عناية صديقه بها ، وعطفه عليها ، وخيل إليه أنه ما رقص معها ، ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنهما

ما اجتمعا على هذا المقعد في هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكرا أيامه وعهوده ، ثم ما لبث أن لمح في أصبعها خاتماً فتبينه فإذا هو الخاتم الذي نسجته من شعره ، والذي لا تزال تحدثه عنه في رسائلها كلما كتبت إليه ، فاغتبط بذلك اغتباطاً عظيماً ، ولم يبق في نفسه من ذلك الخاطر المؤلم الذي مر بذهنه منذ ساعة أثر واحد .

وإنه لكذلك إذ دفع الباب بغتة وخرج منه فتى متأنق من الزائرين يهز في يده سوطاً مستطيلاً فرآه واقفاً فظنه بعض الخدم فصرخ في وجهه بلهجة الآمر ان يدعو له سائق عجلته ، وسماه له ، فارتبك قليلاً ، ثم لم ير بداً من الامتثال مخافة أن ينكشف من أمره ما كان خافياً ، فهرع إلى الباب الخارجي يهتف باسم غير الاسم الذي سمعه وكان قد نسيه ، فأدركه الفتى ، وقد طار الغضب في دماغه فضربه بالسوط على وجهه ضربة أدمته وأخذ يسبه ويشتمه ، فاحتمل استيفن تلك الضربة صامتاً ، ومشى في طريقه لا يلوي على شيء .

وما أبعد إلا قليلاً حتى انحدرت من جفنه دمعة جرت على خده فأصابت موضع الضربة منه فآلمته فهتف صارخاً : ماذا لقيت في سبيلك يا ماجدولين ؟ .

(٥٦)

المريض

عاد استيفن إلى « جوتنبج » فوجد كتاباً من قريبه الذي كان

قد أحسن إليه بتلك القطع الذهبية يوم خروجه من «كوبلانس» شريداً طريداً يقول له فيه إنه مريض مشرف ، وإنه يحب أن يراه بجانبه في ساعته الأخيرة ، فرثى له وحزن عليه حزناً شديداً ورأى ألا بد له من موافاة رغبته في الذهاب إليه ؛ فاستأذن المريضة في بضعة أيام يقضيها بجانبه فلم تأذن له الا بثلاثة ، فسافر إليه ، وكان يسكن بيتاً في ضاحية من ضواحي «كوبلانس» لا يرى فيه إلا وجه خادمه وطبيبه ، وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد قريب ، وليس له من الأقارب الأدنين غير ابن عم له من قساة الأغنياء وجفاتهم لا يحبه ولا يحفل بشأنه ، فدخل عليه استيفن في ساعة من ساعات الليل فرآه ساهراً يئن من الآلام والأوجاع ، وقد نال منه الداء منالاً عظيماً ؛ فأصبح لا يستطيع النطق إلا همهمة وتجمجماً ؛ فجلس بجانبه يتوجع له ويواسيه حتى استطاع الرجل بعد لأي أن يقول له : لقد مرت بي بضعة أشهر ، وأنا طريح هذا الفراش لا أفارقه لحظة واحدة حتى مللت وبرمت ، وأصبحت أخشى غائلة الضجر أكثر مما أخشى غائلة المرض ، فلا تفارقني بعد الموت حتى يحكم الله في أمري بما يشاء .

فلبث معه الثلاثة الأيام التي أجازوه بها ثم عزم على العودة فتوسل إليه المريض بانكسار عينيه وترقرق الدمع فيهما ألا يفارقه حتى يقضي الله في أمره بقضائه ، وكان قد ثقل وأشرف وأصبح على حالة لا ترجى له معها الحياة ، فتلمم استيفن أن يفارقه على حاله تلك وكتب إلى المدرسة يستأذنها في بضعة أيام أخرى يتخلفها وأدلى إليها بعذره في ذلك ؛ ولبث ينتظر جوابها فلم يأته فاشتد به القلق ، ثم جاء منها بعد حين كتاب تقول له فيها إنها لم تر بدأ من الاستغناء عنه والاستبدال منه وأنها قد أرسلت إليه ما بقي له عندها من مرتبه ، فما أتى على آخر الكتاب حتى صاح صيحة كادت تنقطع لها أضالعه

وسقط مغشياً عليه وهو يقول : « رحمتك اللهم فقد عجزت عن الاحتمال » .

(٥٧)

المـــوت

نامت العيون وهدأت الجفون في مضاجعها ، وسكنت كل سارية في الأرض ، وكل سابحة في السماء ؛ وظل استيفن وحده ساهراً بجانب مريضه المحتضر يسمع حشرجة الموت في صدر ترن في هدوء الليل وسكونه فيخيل إليه أنه واقف في وسط فلاة موحشة تعزف جنانها وتزجر غيلانها ، فامتلأت نفسة رهبة ووحشة ، وأن هناك معركة قائمة بين الروح والجسد ، تأبى إلا أن تفارقه ؛ ويأبى إلا أن يتشبث بها ، فيدركه من التعب والنصب ما لا يحتمله محتمل حتى عي بأمرها فتساقط خائراً مستسلماً لا تطرف له عين ولا ينبض له عرق ، فوضع استيفن أذنه على صدره فلم يسمع شيئاً ؛ فعلم أن الأمر قد انقضى ، وأن الراقص قد ألقى قناعه ، والممثل قد خلع ثوب تمثيله ، وأن عنصري الحياة قد افترقا وعاد كل منهما إلى أصله . فطار منهما ما طار ، ورسب ما رسب ، فجثا بجانب الميت يرثيه ويتوجع له ويبكي عليه مرة وعلى نفسه أخرى ، ومرت أمام نظره في تلك الساعة رواية حياته الماضية من مبدئها إلى منتهاها ، فظل يقرؤها صفحة صفحة ، ويقلب نظره في سطورها وكلماتها فرأى بؤساً وشقاء ، وأحزاناً ودموعاً ، وجدوداً عاثرة ، ونحوساً متتابعة ، حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة منها فقرأ فيها كتاب العزل الذي جاءه من المدرسة ، فانتفض عند

قراءته انتفاضاً شديداً ، وصاح صيحة عظمى دوت بها أرجاء الغرفة قائلاً : ما هذا ! هل فقدت ماجدولين ؟ ثم أطرق إطراقاً طويلاً لا يعلم إلا الله أين سبحت نفسه فيه ، ولبث على ذلك ساعة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه جمرتان ملتهبتان وإذا وجهه أسود مربد كأنما قد لبس نسيجاً غير نسيجه فدار بنظره في أنحاء الغرفة دورة الحية الرقطاء بجوهرتيها في جنبات جحرها حتى وقع على خزانة المال التي كان يأمره الميت في حال مرضه بالإنفاق منها ، فعلق بها ساعة لا ينتقل عنها ولا يتحول ، كأن عينيه قد استحالتا إلى مسمارين لامعين من مساميرها ، ثم وثب على قدميه فجأة وقد أصابه مثل الجنون وهتف صارخاً : لا بد لي من النجاح في حياتي ولا أسمح لعقبة من العقبات مهما كان شأنها أن تقف في طريقي ، وإن الدهر لأعجز من أن يعترض سبيلي ، أو يغلبني على أمري ، فهو لا يغلب إلا الضعفاء ، ولا يقهر إلا الأغبياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإن من الجبن والخور أن أضع حياتي بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ، فلأكن أنا دهراً وحدي ، أتولى شأن نفسي بنفسي ، وأتصرف بحياتي على الصورة التي أريدها ، لا أتقيد بقانون ولا نظام ، ولا أسجن نفسي في هذه الدائرة الضيقة التي يسمونها الفضيلة ، فما سقط الساقطون في معترك الحياة ، ولا داستهم أقدام المعتركين فيه ، إلا لأنهم وقفوا من ميدان في نقطة واحدة لا يتحولون عنها ولا يتحلحلون فلم ينتبهوا إلى الضربات المختلسة التي جاءتهم من خلفهم فقضت عليهم ، ولو أنهم داروا مع المعركة حيث دارت ، وتقلبوا في جنباتها كراً وفراً ، لظفروا بالغنيمة مع الظافرين ، ولنجوا من غائلة الموت الزؤام .

لا رذيلة في الدنيا غير رذيلة الفشل ، وكل سبيل يؤدي إلى النجاح فهو سبيل الفضيلة ، وما نجح الناجحون في هذه الحياة

إلا لأنهم طرقوا كل سبيل يؤدي إلى نجاحهم فاقتحموه غير متذممين ولا متلومين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأثموا وتحرجوا وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا : هذا حلال وهذا حرام .

من هم الذين يملكون الدور والقصور والضياع الواسعة ، والرباع الحافلة ، والذين تموج خزائنهم بالذهب ، موج التنور باللهب ؟ أليسوا اللصوص والمجرمين الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس سراة ووجوهاً ؟

من هم الذين يسهرون الليل طاوين لا يطرق النوم أجفانهم ، ويقضون أيامهم هائمين على وجوههم يفتشون عن الرزق في كل مكان لا يظفرون منه باللقمة أو الجرعة إلا إذا أراقوا في سبيلها محجماً من دماء قلوبهم ؟ أليسوا الأشراف والفضلاء الذين يسميهم الناس ويسمون أنفسهم معهم رعاعاً وغوغاء ؟

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة ، لأن المالكين سارقون ، ولأن الوارثين أبناء السارقين ، فلا أسلي نفسي لصاً إلا إذا سرقت فقيراً يكدح لقوته ليله ونهاره فلا يبلغ منه إلا الكفاف ، ولا أسمي نفسي ظالماً إلا إذا ظلمت عادلاً مستقيماً لم يظلم في حياته نملة في حبة شعيرة يسلبها إياها .

إن نشاط الرذيلة وشطاطها أحرص من أن يترك للفضيلة المتئدة المترفقة في سيرها شيئاً وراءه تبلغه فتلتقطه ، فلأغامر في ميدان هذه الحياة مغامرة فإن ظفرت فذلك ما رجوت ، أو لا ، فقد أبليت في حياتي عذراً .

وكان يهذي بأمثال هذه التصورات وهو يضرب في أرجاء

الغرفة ذهاباً وجيئة بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بغتة وألقى نظرة على الجثة المسجاة أمامه وقال : لقد أصبحت ميتاً أيها الرجل ، فلا يغنيك من المال الذي تركته وراءك شيء ، ولا شأن لك بمن يخلفك عليه من بعدك أكان صديقك ام عدوك ، أم أقرب الناس وحميمك الذي واساك وجاملك في ساعاتك الأخيرة ، وقام لك بما لم يقم لك به صديق ولا حميم ، حتى أضاع آماله ومستقبل حياته في سبيلك أن توصي إليه بمالك ، فهو أحوج إليه من ابن عمك السعيد المجدود الذي لا يبالي أزاء مالك على ماله ، أم نقص منه ، فأنا قائم عنك بعد موتك بما فاتك أن تقوم به في حياتك .

ثم أدار ظهره إلى الجثة ومشى إلى الخزانة وكانت على كثب منه فوضع يده على مفتاحها فشعر برعدة شديدة تتمشى في أعضائه ، وخيل إليه أن الغرفة كلها عيون ترقبه وتحدق في وجهه ، وأن روح الميت تلقي عليه من نوافذ جثتها نظرات شزراء ملتهبة يكاد أوارها يصل إليه فيحرقه ، فتريث في مكانه قليلاً ثم تماسك واستجمع لبه وأناته ، وأدار المفتاح فدار الباب على عقبه وصر في دورانه صريراً خشناً ، فارتعد وتمثل له أن صوتاً أجش من من أصوات الحراس الأشداء يهتف به ويخاشنه ، فابتعد عن الباب خطوة ، ثم التفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً ، فهال إنها خيالات الشقاء تلاحقني في كل مكان ، ومد يده إلى الأوراق يقلبها على نور مصباح ضعيف كان في يده حتى عثر بالسفاتج التي يريدها ، فما وضع يده عليها حتى شعر أن دمه الذي كان يغلي في عروقه غليان الماء في مرجله قد هدأ وبرد حتى كاد يقف عن الجريان ، وأن قطرات باردة من العرق تنحدر من جبينه على وجهه متتابعة ، وأحس نفسه بذلك السكون العميق الذي يشعر به الهائج المصروع بعد استفاقته من صرعه ، وخيل إليه أن الخزانة التي أمامه تهتز

وتضطرب ويموج بعضها في بعض ، ثم ما لبثت أن استحالت الى مرآة ثقيلة لامعة فوقع نظره على صورته فيها فامتلأ قلبه خوفاً وذعراً ، وأنكرت نفسه نفسه ، فقد رأى في أسارير وجهه تلك السحنة المنكرة التي يعرفها في وجوه المجرمين ، ورأى في عينيه تلك النظرات الطائرة الشاردة التي ينظر بها المحكوم عليه بالموت الى سيف الجلاد حين يلمع فوق رأسه فظل يرتعد ويضطرب ، وظلت الأوراق تتساقط من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه لكذلك إذ أحس بيد ثقيلة قد وضعت على كتفه فلم يأبه لها في أول الأمر ، وظنها بعض الخيالات التي لا تزال تعاوده منذ الليلة ، إلا أنه لم يلبث أن أحس ببرودتها فوق كاهله فتمالك في نفسه وتجمع تجمع المتوقع ضربة ضربة هائلة تسقط على أم رأسه ثم التفت قليلاً ليرى ماذا دهاه ، فإذا الميت واقف خلفه عاري الجسم ينظر إليه بعينين جامدتين فصرخ صرخة عظمى ودفعه بيده دفعة شديدة فسقط على الأرض بعيداً عن مضجعه الأول فرنت عظام رأسه على أرض الغرفة رنيناً شديداً ، فاختبل وأصابه الجنون وألقى المصباح من يده فانطفأ فازداد رعبه وفزعه ، وهرع يطلب الباب للفرار منه فلم يهتد إليه ، فظل يعدو في أنحاء الغرفة ، ويتلمس جدرانها مقبلاً مدبراً لا يعثر حتى يقوم ، ولا يقوم حتى يعثر ، وقد خيل إليه أن الجثة تعدو وراءه وتتعقبه حيثما ذهب ، حتى أعياه الجهد ، عن الحركة ، فسقط مغشياً عليه .

ولم يكن ما رآه في هذه المرة خيالاً بل حقيقة لا ريب فيها فقد عاودت الميت الحياة لحظة ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرأى باب خزانته مفتوحاً ورأى إنساناً لا يعرف من هو يقلب أوراقه ، فدفعه الحرص الغريزي الذي لا يفارق الإنسان من مبدإ ساعات حياته إلى نهايتها والوثوب على قدميه والإهواء بيده على كتف

السارق ، ثم كان ما كان من سقوطه على أرض الغرفة فكان في سقطته القضاء عليه .

لم يستفق استيفن من غشيته حتى طلع الفجر وأرسل بعض أشعته من نافذة الغرفة ففتح عينيه وظل ينظر حوله يمنة ويسرة ، فرأى المصباح الساقط والخزانة المفتوحة ، والأوراق المبعثرة ، والجثة الملقاة ، فذكر كل شيء وقام يتحامل على نفسه فأعاد كل شيء إلى مكانه ، ونقل الجثة إلى مضجعها وأسبل عليها غطاءها ، ولم يلبث أن جاء الطبيب ؛ فلما رأى الصدع الذي في رأس الميت قال لاستيفن : أحسب أن المريض قد ثار من فراشه في ساعته الأخيرة ولم يكن معه من يتولى شأنه فسقط بعيداً عن مضجعه فأصابه ما أصابه ؛ فارتعد استيفن وقال : نعم يا سيدي ، ولقد كنت نائماً في تلك الساعة فلم أستطع مساعدته ولم أستيقظ إلا على صوت سقطته ، فاحتملته إلى مكانه وكان أسفي لذلك عظيماً ؛ فلم ير الطبيب بأساً فيما قال ، وانصرف لشأنه .

وما انقضى النهار حتى دفن الميت وحضر دفنه وارثه ، وسافر استيفن إلى « جوتنج » وهو يردد في طريقه قوله : « ويل لي من مجرم أثيم » فما وصلها حتى كان قد بلغ آخر درجات الاحتمال فسقط في فراشه مريضاً مدنفاً ، لا يفارقه خيال تلك الماثلة التي كابدها لحظة واحدة .

(٥٨)
إدوار

علق إدوار بماجدولين منذ الليلة التي رآهما فيها استيفن من

وراء ألواح الزجاج يرقصان معاً ، فأنشأ يختلف إلى منزل سوزان وكان يمت إليها بحبل قرابة ليرى حبيبته ويستدني قلبها ، وكان من أقدر الناس على مثل ذلك ، لعذوبة يعرفها له النساء في أخلاقه ، وحلاوة تجتذب قلوبهن في أحاديثه فأنست به وبمحضره وأعجبها منه أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ؛ ويطرفها بغرائبهما ونوادرهما ، ويذكر لها أسماء الراقصين والراقصات وفضل ما بينهم في البراعة والافتتان ، ويشرح لها أنواع الرقص غربية وشرقية ، قديمة وحديثة ، وتاريخ كل نوع منه ومنشأه ومصيره ويقص عليها قصص الغرام التي تنشأ كل يوم في قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حديثة عهد بذلك كله ، فلم يكن شيء من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده ، وكان إذا جرى ذكر استيفن بينهما أثنى عليه وأطراه ، وقص عليها طرفاً من نوادر طفولتهما وصباهما ، وما مر لهما في حياتهما الأولى من بؤس ورغد وشدّة ورخاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين المتفجع حياة البؤس والشقاء التي يحياها اليوم في «جوتنج» وغرفته التي يسكنها ، وأثاثها الذي تشتمل عليه ، وثيابه التي يملكها ، ثم يتبع ذلك بالتوجع له ، والتألم لبؤسه وشقائه ، ومحاربة الدهر إياه في مساعيه وأغراضه ، فتصغى إلى حديثه وتقبل عليه إقبالاً عظيماً .

ولم يزل بها حتى خلبها ، ووقع من نفسها ، وأصبحت لا تكاد تصبر عن مجلسه ساعة ، ولا تزال تفتقده وتسائل نفسها عنه كلما غاب عنها ، وهي تظن أنها إنما تحبه من أجل استيفن ، ولو كشف لها عن دخيلة نفسها لعلمت أنها قد بدأت تنسى استيفن من أجله

ولقد أعجبت سوزان تلك الصلة التي نشأت بين صديقتها وقريبها ورضيت عنها الرضا كله ، ورأت أن الله قد أراد به وبها خيراً ؛ فرزقه أفضل الفتيات جمالاً وأدباً ، ورزقها خير الفتيان ثروة وجاهاً ، وكانت تعرف شيئاً عن عيوب إدوار ، ولكنها كانت ترى أنها عيوب خاصة به لا تتعداه إلى غيره ، وكانت تعتقد أن المرأة لا ترى في زوجها الغني الذي يملأ فضاء بيتها نعمة ورغداً عيباً واحداً مهما كثرت عيوبه ، فأنشأت تسعى سعيها للبلوغ بهما إلى الغاية التي تريدها لهما . فأشارت على إدوار أن يتودد إلى الشيخ مولر ويداخله مداخلة الصديق صديقه ، وقالت له : إنه رجل مفتون بحب النبات والزهر ، فلا يعجبه إلا الحديث عنهما ! ولا ينزل من نفسه المنزلة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه في العلم بهما ، والاهتمام بأمرهما ؛ وكان إدوار قد درس شيئاً من علم النبات في مدرسته فاستعان ببستاني حديقته على معرفته معرفة ما كان يجهله منه ، وغرس في حديقة بيته بعض أنواع الزهر الغريبة ؛ وعرف خصائصها وصفاتها ، ثم خالط الرجل وداخله ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ، ومشى معه في كل مكان وجاراه في كل حديث ، فلم يلبث أن أعجبه ووقع من نفسه ؛ وهكذا أصبح أثيراً عند الأب وابنته .

(٥٩)

سريرة المرأة

ما أبغضت ماجدولين استيفن، ولا أحبت إدوار ، ولكنها ليست حالاً جديدة لم تكن تلبسها من قبل ، فكان لا بد لها من

أن تلبس معها جميع آثارها ومتعلقاتها ؛ فقد ألفت المجامع والمحافل ، وأنست بالمراقص والملاعب ، وصادقت النساء المتحضرات المتأنقات ، وغنت كما يغنين ، ورقصت كما يرقصن ومشت في مثل أزيائهن ، وتحدثت بمثل أحاديثهن ، وفهمت من سعادة الحياة وهنائها المعنى الذي يفهمن ، ورأت في الرجال والنساء والصلة التي بينهما الرأي الذي يرين ، فتناست استيفن لأنه صورة من صور ، الحياة الحياة الماضية التي عافتها واجتوتها وأحبت إدوار لأنـــه مظهر من مظاهر الحياة الجديدة التي أحبتها وافتتنت بها .

على أنها كانت إذا خلت إلى نفسها ، وهدأت عنها ضوضاء الحياة وضجيجها ، واستطاعت أن تمد نظرها إلى أعماق سريرتها حتى ترى ما في قرارتها تراءى لها شبح استيفن في نحوله واصفراره وحزنه واكتئابه وبؤسه وشقائه ، ومنظر عينيه الممتلئتين حزناً ودموعاً ، وقلبه المتقدم حباً وغراماً ، ونفسه الشاعرية الهائمة في اودية الهموم والأحزان، فتحن إليه حنين الغريب إلى داره والشيخ ألى عهود صباه ، وتذكر أيامه الماضية التي قضاها معها فتبكي حسرة عليه وإشفاقاً ؛ بل وجداً به وغراماً ، ثم لا تلبث أن ترى سحابة بيضاء من النور ماثلة أمام عينيها ، فلا تزال تنبسط وتستفيض حتى تشف عن قاعة الرقص التي شهدتها ليلة عرس سوزان ، فترى الوجوه المشرقة ، والثغور الباسمة ، والذهب اللامع ، والجوهر الساطع ، والغلائل المطرزة ، والحلل المدبجة ، والصدور اللاصقة بالصدور والأذرع المحيطة بالخصور ، والجو المائج بالأنوار ، والروض الحافل بالأزهار . وترى العروسين كالفرقدين ، يبسمان للسعادة المقبلة عليهما ، ويتدفق تيار الحب والصبابة بين قلبيهما ، فيتضاءل أمام عينيها ذلك الشبح الأول ، ثم لا يلبث أن يتغلغل في ظلمات الوجود الحالكة حتى يغيب عن نظرها ،

فلا يبقى له عين ، ولا أثر .

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم في غرفتها ، وكان قد مضى على زفافها شهران فقالت لها : أتدرين ما اتفقنا عليه أنا وأبوك ليلة أمس يا ماجدولين ؟ قالت : لا ، قالت : أن نسافر جميعاً إلى ضياع زوجي في «سان مارك» لنقضي فيها أسبوعين أو ثلاثة ، ثم ننتقل إلى ولفباخ وهي على بضعة أميال منها ، فنستضيفكم أسبوعاً واحداً نقضيه في التنزه بين مزارع القرى ودساكرها ، ثم نفترق بعد ذلك . فتهلل وجه ماجدولين فرحاً بتلك السياحة الجميلة التي ستقضيها مع أصدقائها في أجمل البقاع وأبهجها ، ثم ما لبثت أن اكتأبت وتغضن جبينها لأنها ذكرت ساعة الفراق القريبة ، وأنها ستعود بعد أيام قلائل إلى عزلتها في قريتها ، وتعيش فيها عيشة الوحشة والوحدة بعيدة عن «كوبلانس» ومجامعها ومزدحم الحياة ، فاشتد ذلك عليها كثيراً ، وألمت سوزان بما دار في نفسها وعرفت مأتاه ، إلا أنها تباهلت واستمرت في حديثها تقول : وسيصحبنا في سياحتنا هذه إدوار ، وسيكون أنسنا به وبعشرته عظيماً ، ألا ترين رأيي في ذلك يا ماجدولين ؟ ففهمت ماجدولين مقصدها ، وأين تريد أن تذهب في حديثها . فقالت : ليذهب معكم من تشاءون من أصدقائكم وخلطائكم ، فلا شأن لي في ذهاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى ، فابتسمت سوزان واستطردت في حديثها تقول : ولقد اتفقنا كذلك على ألا يسافر إدوار معنا إلا باسم خطيبك ، وقد قطعنا هذا الأمر من دونك ، لأنا نعلم أنك لا ترين لنفسك إلا الرأي الذي نراه لك ؛ فاضطربت ماجدولين وقالت : لقد قلت لك يا سوزان قبل اليوم إنني لا أستطيع أن أتزوجه ، قالت : لماذا ؟ وهل تطمع الفتاة في زوج أفضل منه عقلاً وأدباً ، وشرفاً

وجاهاً ، وهو فوق ذلك يحبك ويستهيم بك ، ولا يؤثر على سعادتك وهنائك غرضاً من أغراض الحياة ؛ ولا مأرباً من مآربها ؟ قالت : ولكنه لا يستطيع أن يحبني محبة استيفن إياي ، قالت : أما هذه فنعم ، لأنه يحبك حب العقلاء والأكياس ، لا حب النوكى والمأفونين.

إن هذا الذي تزعمين أنه يحبك ويستهيم بك ، لا يحبك ، بل يحب فيك المرأة الخالية التي يتخيلها في ذهنه ، والتي لم يخلق الله لها مثالاً في هذا العالم ، ولا يعبدك ، بل يعبد إلهه الموهوم الذي يظن أنه حال في جثمانك كما كان يعبد آباؤنا الأولون آلهتهم في جذوع الأشجار ، وقطع الأحجار .

إنه يتخيلك ملكاً من ملائكة السماء تحيط بوجهه هالة من النور ، ويرفرف في جنبيه جناحان أبيضان متلألئان تلألؤ الأشعة ويحمل بين أضلاعه نفساً غريبة عن النفوس في جوهرها ومعدنها قد جملها الله بجميع صنوف الكمال ، وطهرها من أدناس الحياة وأرجاسها ، فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بلذة من اللذائذ ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء والغنى والفقر والراحة والتعب ، والسرور والحزن . فويل لك منه يوم تنحسر عن عينيه بعد ساعة واحدة من بنائه بك غشاوة الحب الأول ، فيراك كما أنت ، ويرى فرق ما بينك وبين الصورة الخيالية الهائمة في رأسه ، إنه لا بد يبغضك ويحتقرك ، ويهوى بك إلى أدنى دركات الذل والشقاء ، ولا نهاية للاغراق في الحب ، غير الإغراق في البغض ، فإن كان لا بد لك من أن تحتفظي بمكانتك في قلبه فلا تتزوجيه ودعيه ينظر إليك دائماً بهذه العين التي ينظر بها إليك اليوم ، ولا تخشي عليه أن تشقى بفراقك فليست فجيعته فيك يوم يفقدك ، بأعظم من فجيعته في آماله وأحلامه يوم يراك ويرى

في ثوبك امرأة غير المرأة التي كان ينتظرها ، ويطير شوقاً إليها .

أنت لا تعلمين من شئون الحياة ودخائلها مثل ما أعلم يا ماجدولين ، ولقد خبرت فيما خبرت من صروفها وتجاربها أن الغرام أضعف العلائق بين الزوجين والمصلحة أقواها وأوثقها ، وأن الحب كالزهرة ، والمال كالطل الساقط عليها ، فإذا انقطع الطل عن الزهرة بضعة أيام ذوت أوراقها وتساقطت ثم تطايرت في مهاب الرياح الأربع ، وأن هذه الثورة النفسية التي يسمونها الصبابة أو الوجد أو الوله أو الهيام ، والتي لا يزال يهتف بذكراها الشعراء ، وتطير في سماء خيالها ألباب الرجال والنساء ، إنما هي عرض من أعراض الأعصاب المريضة ، يهيجه البعد ويطفئه القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومرافقه ، والسعادة وأسبابها ، فإن أعوذ ذلك فقد مات الحب في القلب ، ودفنت جثته في ضريح الفقر ، والفقر يطوي في أحشائه جميع عواطف القلوب وخوالجها ، بل ربما دارت الوساوس والأوهام في رأس ذينك الزوجين اللذين كانا متحابين بالأمس ، فرأى كل منهما في وجه صاحبه صورة الشؤم له ، وألقى عليه تبعة بؤسه وشقائه ، فاستحال حبهما إلى بغض متغلغل في سويداء القلب ، لا ينتزعه إلا الموت .

أنت فقيرة يا ماجدولين ، واستيفن أفقر منك ، فلا تضمي فقره إلى فقرك وليختر كل منكما لنفسه العشير الذي يعلم أنه يسعده ، ويملأ فضاء حياته غبطة وهناء ، فإن كان لا بد لك من الوفاء له فإن أوفى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ويكفكف من نزعات قلبه وأهوائه في سبيل سعادته وهنائه ، فليكن ذلك شأنك معه ، واحتملي مرارة فراقه

وألم الحرمان منه رحمة به وإبقاء على حياته التي توشك أن تعبث بها نكبات الدهر وأرزاؤه ، فقد أصبحت أخشى عليه ــ وفي رأسه هذا العقل الصغير المختبل ، وبين جنبيه مثل هذا القلب الضعيف المستطار ــ إن بعثر به جده فيما يحاول من الأمل الذي يسعى إليه من أجلك ، فيدفعه جنون الطمع إلى سلوك طريق غير طريق الشرف ، فيقترف جريمة ، أو ينتهك حرمة ، أو تثور برأسه ثائرة اليأس فيقتل نفسه طلباً للراحة من عناء الحياة وشقائها ، فإن فعل فأنت الجانية عليه ، والموردة إياه هذا المورد من التلف ، فانظري كيف يكون موقفك بين يدي ربك وضميرك غداً إن تم ذلك على يدك ؟

فاستعبرت ماجدولين باكية ، وما بكت إلا رحمة بذلك البائس المسكين وإشفاقاً عليه أن يناله بسببها هذا الشقاء العظيم ؛ وأطرقت ملياً ثم رفعت رأسها وقالت : دعيني الساعة وحدي يا سوزان فإنني في حاجة إلى الخلوة بنفسي .

(٦٠)
الجريدة العسكرية

التحم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات لقي فيها جنودنا من بأس العدو وشدته وقوة مراسه هولاً عظيماً ، حتى بلغ منهم اليأس أو كاد ، ثم برز من بين صنوفنا ضابط من ضباط الفرسان اسمه « أوجين ولتز » فهتف بجنوده « ورائي أيها الأبطال ! » وانقض على العدو انقضاض النازلة السماوية فانقض معه جنوده فسرت الحمية في نفس الجيش بأجمعه فهجم

وراءه ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تمت الهزيمة للعدو ففر يطلب النجاة لنفسه في كل مكان فتبعناه وأمعنا فيه قتلاً وأسراً وغنمنا منه غنائم كثيرة .

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع في نهاية المعركة حادث كدر صفو ذلك الانتصار ، فإنه بينما كان يتتبع آثار العدو ويضرب في مؤخرته إذ انقطع حزم سراجه وكان بالياً واهياً فعجز عن التماسك فسقط عن جواده فداسته حوافر الخيل ، ثم انتبه لـه من الحياة فقضى ساعة يتألم ألماً شديداً ويهتف باسم أخ له اسمه « استيفن » حتى فاضت روحه ، فحزن الجيش عليه حزناً شديداً وبكاه القواد ورؤساء الفرق ، ثم دفن باحتفال عظيم لائق بشجاعته وإقدامه وحميته التي ليس لها مثيل .

(٦١)
البيت الجديـد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان البناءون لا لا يزالون يشتغلون باستصلاح بعض أنحائه فهتف بصديقه فرتز فلباه فقال له : هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التي اتفقنا عليها ؟ قال نعم يا سيدي وتم كذلك تجصيصهما وتزجيج نوافذهما ، فجزاه خيراً ، ثم التفت إلى البستاني وقال له : هل غرست أشجار الفاكهة التي أرسلتها إليك بالأمس ؟ قال نعم يا سيدي ، وستكون الكرمة المنبسطة فوق الجدار من أبدع الكرمات وأجملها ، قال : لا تنس أن تكسو السور كله باطنه وزاهره بأزهار البنفسج كما أمرتك . قال : سأفعل يا سيدي إن شاء الله ،

فتركه ودخل المنزل فألقى على الطبقة السفلى نظرة عجلى ، ثم صعد إلى الطبقة العليا ووقف في بهو متسع تدور به الحجرات وقال : ها قد أصبح البيت على الصورة التي اتفقنا عليها منذ عامين أنا وماجدولين ، على الطبقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرف المؤونة والمرافق ، وفي الطبقة العليا غرفة الأضياف ومخدع النوم وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة وألقى عليها نظرة ألمت بجميع ما فيها فاغرورقت عيناه بالدموع وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركني في سعادتي كما شركتني في شقائي ، ولكن هكذا أراد القدر أن يفرق بيني وبينك ، وأن تكون سعادتي منغصة بذكراك أبد الدهر ، فوا أسفاً عليك يا أخي أسفاً لا يفارقني حتى الموت ، وستمر الأيام وتكر الدهور والأعوام ، وسأنسى كل ما مر بي من حوادث الدهر خيرها وشرها وبؤسها ورغدها ، ولا أنسى أنني ضننت عليك بتلك الدراهم القليلة التي سألتنيها أحوج ما كنت إليها ، وأن يدي هي اليد الخفية التي أوردتك هذا المورد من الردى ، فاغفر لي ذنبي واعف عني والقني يوم تلقاني في آخرتك بذلك الوجه البشوش الغض الذي كنت تلقاني به في حياتك ، فأنا من لا يعيش إلا بذكرك ، ولا يموت إلا بغصتك ؛ وأقفل باب الغرفة وقال : لن يفتح هذا الباب بعد اليوم ، ثم كفكف عبرته ، وسرى عن نفسه ، وأشرف على الحديقة يتلهى بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المبني في وسطها فعاد إلى مناجاة نفسه يقول : وها هو الحوض الذي سنربي فيه الأسماك ذات الألوان المختلفة ، وها هو السياج الذي رأينا أن نقيمه من حوله خوفاً على أولادنا المستقبلين من السقوط ، وها هي أزهار البنفسج التي تحبها ماجدولين وتؤثرها على الأزهار جميعها تملأ البيت داخله وخارجه .

إنها لا تعلم الآن شيئاً عن هذه السعادة المهيأة لها ، وربما كانت تكابد اليوم أشد حالات يأسها وحزنها بعد انقطاع رسائلي عنها أياماً طوالاً ، وسأباغتها بها مباغتة لا يزول أثرها من نفسها أبد الدهر ، فقد شقينا ما استطاع الشقاء أن يكون ، وسنسعد بعد اليوم سعادة تنسينا همومنا الماضية وآلامنا ، ولا نذكرها إلا كما نذكر دموع طفولتنا وبكاءها .

ثم نزل ومشى في الحديقة مع صديقه فرتز يناظر القائمين بتنظيم أغراسها ، وتمهيد طرقاتها ، وينتقل بين أشجارها وأزهارها مسروراً مغتبطاً وكأنه لم يذق طعم الشقاء في دهره يوماً واحداً .

(٦٢)

بروتس

ما كان استيفن قبل اليوم آمراً ولا ناهياً ، ولا صاحب بيت ولا حديقة بل ولا صاحب أي شيء من الأشياء إلا إذا كانت أثوابه البالية المرقعة شيئاً تتعلق به الحيازة والملك ، فقد عاد إلى جوتنج بعد تلك الليلة الليلاء التي كابدها في غرفة قريبة صفر اليدين من كل شيء حتى من آماله وأمانيه ، فقضى في فراش مرضه بضعة أيام كابد فيها من آلام جسمه ونفسه ما يعجز عن احتماله ، ثم أبل قليلاً فأنشأ يفكر فيما يصنع بعد الذي كان من فشله وانقطاع رجائه به ، فخطر له الانتحار ثم منعه منه أنه سيكون آخر عهده بماجدولين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر في الرجوع إلى أهله والإذعان لهم في رغبتهم التي يرغبونها إليه ، ثم ذكر المواثيق التي أعطاها لماجدولين ألا يبتغي بها بدلاً حتى الموت ، فعظم عليه أن يخيس

بعهده ومر بخاطره الفرار بنفسه إلى أية بقعة من بقاع الأرض يطلب فيها السلو والراحة والتفرج مما به ، ولكنه أشفق على ماجدولين أن يقتلها الحزن عليه من بعده ، وهو إنما يحيا في هذا العالم من أجلهـا .

ولم يزل يراوح بين هذه الفكر ويستدني بعضها منها ويذود بعضاً حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين ، ولم يكن قد كتب إليها منذ عهد بعيد يقص عليها قصته ، وما آل إليه أمره ويحللها من اليمين التي أقسمتها له ، ثم يضع أمره بين يديها ، فإما أحيته فعاد إلى أمله وسعيه ، أو قتلته فاكتفى مؤونة قتل نفسه بنفسه . فإنه ليكتب ذلك الكتاب إذ دخل عليه رسول البريد يحمل إليه رسالة من مسجل القرية التي مات فيها قريبه يقول له فيها : إن الميت قد أوصى إليه في كتاب وصيته بعشرين ألف فرنك يأخذها في الحال وعشرة آلاف يأخذها في كل عام ، فاستطير فرحاً وسروراً وقال : أحمدك اللهم غللت يدي عن أن آخذ هذا المال حراماً ، حتى بعثت به إليّ حلالاً ، ومزق الكتاب الذي كان يكتبه وعلم أن أيام محنته قد انقضت ، وأنه قد أدى للدهر ما عليه له من ضريبة الشقاء ، فلم يبق بين يديه إلا أن يستقبل السعادة المقبلة عليه خالصة هنيئة لا يكدرها عليه مكدر حتى الموت .

وأنشأ يفتش بمعونة صديقه « فرتز » عن بيت صغير يشرف على نهر « جوتنج » ويكون على الضفة التي تمناها هو وماجدولين ليلة ركبا زورق البحيرة وتحدثا عن آمالهما ومستقبلهما ، فوجد بيتاً يشبهه فابتاعه واستصلحه ، وحوله إلى الصورة التي أرادها ، وأخذ يؤثث غرفه ، ويغرس أشجار حديقته .

وإنه لكذلك إذ قرأ في الجريدة العسكرية خبر وفاة أخيه فبكاه كثيراً ، ثم ما لبث أن تجلد واصطبر ، ودفن حزنه في أعماق قلبه ، وألهاه سروره بحاضره عن التفكير في ماضيه فابتاع خاتماً للخطبة ثميناً وأعد عدته للسفر الى « ولفباخ » وكان قد علم أن ماجدولين قد عادت إليها من « كوبلانس » منذ عهد قريب ، ليباغتها بتلك السعادة التي هيأها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى « جوتنج » ليريها البيت الجديد .

ثم ركب عجلته في صباح أحد الأيام وسافر وقلبه يخفق فرحاً وسروراً حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ، وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود ونزل يمشي على قدميه ويقلب نظره في تلك المعاهد التي قضى فيها أيام سعادته الأولى وأشرق على قلبه من سمائها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغابة التي كان يهيم فيها وحده في الليالي المقمرة مناجياً نفسه بحبه وغرامه ، ومصوراً لها أعذب الآمال وأحلاها ، ومر بالنهر الذي اقتحمه منذ يومين لاستنقاذ ذلك الرجل الذي كان مشرفاً على الغرق حتى كاد يغرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة التي كان يتنزه فيها هو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات الطوال بين سمائها ومائها .

ثم أشرف على بيت الشيخ مولر فلاحت له أعالي أشجار الزيزفون التي كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها في ذلك العهد ، ورأى من خلال أوراقها غرفته العالية التي كان يسكنها ، فعادت إلى ذهنه تلك الايام الماضية التي قضاها في هذه المواطن ، فرأى صبحها ومساءها ، وليلها ونهارها ، وبكورها وأصائلها ، وكل ما مر له فيها من سرور وحزن ، ورجاء ويأس ، وصحة ومرض

ورخاء وشدة ، حتى خيّل إليه أنه لا يزال مقيماً في ذلك المنزل حتّى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من غرفته لقضاء بعض حاجاته ، وها هو ذا عائد إليها .

ولم يزل يهيم في أمثال هذه التصورات حتّى وصل إلى باب الحديقة فوقف على عتبته وقال : ها هو ذا الباب الذي خرجت منه بالأمس طريداً شريداً لا أملك من أمر نفسي ولا أمر مستقبلي شيئاً ، وها أنذا أدخله اليوم آمناً مطمئناً كما أدخل بيتي ، وأزور أهله وقومه كما أزور أهلي وقومي ، لا أخشى عيناً ، ولا رقيباً ، ولا أتقي غائلة من غوائل الدهر ، ولا رزيئة من رزاياه ، فما أعجب تقلبات الأيام وأغرب ما تأتي به الأقدار !

ثم مشى في الحديقة يقلب نظره في أشجارها وأغراسها ، وجداولها وطرقاتها ، ويقول في نفسه : لقد بقي كل شيء على ما هو عليه ، فها هي ثغرة الحائط الغربي لا تزال باقية كما هي ، وها هي الصخرة العاتية السوداء ملقاة في مكانها تحت الجدار كما تركتها ، وها هي أعشاش الطيور فوق قمة شجرة السنديان ، تختلف إليها عصافيرها غادية رائحة كعهدي بها ، ثم التفت إلى يمينه وقال : وها هو الجذع الذي حفرنا عليه اسمينا أنا وماجدولين ، ثم مشى إليه فرأى الكتابة لا تزال على حالها كأنما قد حفرت بالأمس ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، وجثا بين يدي الجذع وأهوى بفمه إليه فلثمه كأنما يشكر له تلك اليد التي أسداها إليه في احتفاظه بتلك الذكرى القديمة التي أودعه إياها ، وهبت على وجهه في تلك الساعة نسمة مرت قبل مرورها عليه بأزهار الحديقة وأعشابها ، فحملت إلى رأسه تلك المجموعة العطرية البديعة التي طالما استروحها في هذا المكان نفسه مع ماجدولين ، ولا يحمل

الذكرى القديمة مثل الأريج العطر ! فهاج وجده وحنينه ، وأخذ يعانق الهواء ويضمه إليه كما يضم حبيباً ملقى بين ذراعيه .

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى مكان المقعد الذي كان يجلس عليه هو وماجدولين تحت أشجار الزيزفون ؛ ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة ، فاشتد تأثره وخفق قلبه خفقاناً شديداً ، وحدثته نفسه أن ماجدولين جالسة هناك الساعة وحدها تبكي وتنتحب ، وتندب آمالها وأحلامها وتفكر في انقطاع كتبه عنها ، فأشفق عليها أن يباغتها بالخبر مباغتة فيقتلها ، فأخذ يهيىء في نفسه طريقة إلقائه ، ثم مال برأسه قليلاً فرأى طرف المقعد ، ورأى ذيل ثوب حريري أبيض منسدلاً عليه فاستطير فرحاً وسروراً وقال : ها هي ذي جالسة كما كنت أتوقع أن أراها فثبت اللهم قدمي وقدمها في ذلك الموقف الجلل العظيم .

ثم انعطف فما وقع نظره على المقعد حتى جمد واصفر ، ووقفت دورة الدم في عروقه ، وتعلقت بين لحييه فما تصعد ولا تهبط ! فقد رأى ماجدولين جالسة بجانب فتى غريب تبسم له ويبسم لها ، وقد أخذ يدها بين يديه وألقى رأسه على صدرها ، وحنا عليها حنو المحب على حبيبه ؛ فظل يقول في نفسه : ما هذا الذي أرى ! إنني لا أفهم من كل ذلك شيئاً .. إنها ماجدولين بعينها ! فمن هو هذا الإنسان الجالس إليها ، أليس هو صديقي إدوار ؟ نعم هو بعينه فما مجيئه هنا في هذه القرية ، وما وجوده في هذا البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الجلسة الغريبة ؟ ثم شد بيده على قلبه كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار ومشى يقتلع قدميه اقتلاعاً كأنما هو شبح من الأشباح الهائمة في ظلال الليل حتى

دنا منها ، ففزعا إذ رأياه ، ووثبا على أقدامهما وثبة واحدة ، ثم ما لبثا أن أختلف شأنهما ، فأخذ إدوار بطرف شاربه يعبث به ويقلب عينيه في السماء كأنه منجم يفتش عن النجم السابع والسبعين بعد المائة والخمسة والعشرين مليوناً كما يصنع المنجمون ، وأطرقت ماجدولين إلى الأرض فسكنت في إطراقها سكوناً عميقاً لا تتخلله حركة ، ولا نأمة ، فظل استيفن يردد نظره بينهما باهتاً مشدوهاً لا يقول لهما شيئاً ، ولا يفهم من موقفهما أمراً ، ثم مشى خطوة إلى ماجدولين ، وقد أخذ الذهول مأخذه من عقله فنسي المنظر الذي رآه منذ لحظة ، وأنشأ يخاطبها باسماً متطلقاً ويقول لها : لقد انقضت أيام شقائنا يا ماجدولين ، ولقد أصبحت والحمدلله صاحب ثروة لا أقول إنها عظيمة ، ولكنها كافية لسعادتنا وهنائنا ، فجئت إليك أتنجز وعدك ، وأخطبك إلى أبيك ، ثم أذهب بك إلى جوتنج لأريك البيت الجديد الذي ابتعته لك منذ عهد قريب ، وستّرين حين ترينه أنه على الهيئة التي تمنينا أن يكون عليها ليلة ركبنا زورق البحيرة وتحدثنا عن آمالنا وأمانينا ؛ فارتعدت ماجدولين وامتقع لونها وقالت بصوت ضعيف خافت كأنها تهمس في نفسها ببعض الأحاديث « إني أهنئك بصلاح حالك يا سيدي » فعجب استيفن لذلك واستطير عقله وقال في نفسه : ما هذا الذي أسمع ، إنها تهنئني بصلاح حالي كأنها ترى أن لي حالاً خاصة بي مستقلة عن حالها ، فليت شعري ما بالها ! وما هذا السكون المخيم عليها ! وما هذا الوجه الغريب الذي تلقاني به ؟! لقد كنت أخشى أن أقتلها فرحاً وسروراً ، فإذا هي تقتلني هماً وكمداً ؛ ثم نسيَ هذا المنظر الأخير كما نسي الأول ؛ فأخرج من جيبه خاتم الخطبة ومشى إليها خطوة أخرى ليقدمه اليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع

خائفاً مذعوراً ؛ فقد رأى فيه خاتماً غير ذلك الخاتم الذي نسجته من شعره ؛ وكانت تحدثه عنه في رسائلها كثيراً وتقول له إنه لا يفارق أصبعها لحظة واحدة فاشتد خفوق قلبه واضطرابه ؛ وظل يدور بعينيه حائراً ملتاعاً لا يعلم أخيالاً يرى أم حقيقة ؟ وازدحمت الدموع في عينيه تتبادر إلى السقوط ، فمد يده إلى ماجدولين ضارعاً وقال لها : ألا تستطيعين يا سيدتي أن تقولي لي كلمة واحدة فإني أشعر أني على وشك الجنون ؟ فرفعت رأسها ونظرت إليه كأنها تريد أن تقول له شيئاً ، ثم عادت إلى إطراقها وسكونها ، وهنا تقدم نحوه إدوار ووضع يده على كتفيه وقال له : حسبك هذا يا استيفن فإنك تقتل السيدة قتلا ، فانتبه استيفن وكأنه لم يكن رآه قبل هذه اللحظة فصعد نظره فيه وصوبه وقال له : إنني لم أكن أتوقع أن أراك هنا في هذا المكان يا إدوار ! فقال له : سواء أتوقعت أم لم تتوقع ، فقد كان يجب عليك أن تستأذن قبل الدخول ، ولم يكن يجمل بك وأنت في هذه السن المتقدمة أن تنسى أول درس يتلقاه التلميذ في مدرسته في أدب الزيارة والاستئذان .

فانتفض استيفن انتفاضة شديدة وعلت جبينه سحابة بيضاء لم تزل تتسع وتستفيض حتى لبست وجهه كله فصار كأنه البرد الناصع ، واسترخت يداه كما يكسر الطائر جناحيه للوقوع ، وشعر بتخاذل أطرافه فتراجع إلى شجرة وراءه فاستند إليها ، ثم نظر إلى إدوار نظرة يقطر منها الدم وقال له تلك الكلمة التي قالها يوليوس قيصر حينما طعن من خلفه ؛ فالتفت فرأى أن الذي طعنه هو صديقه وصفيه «حتى أنت يا بروتس» !؟ وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تتطاير معه أجزاء نفسه : أصحيح

ما يقول هذا الرجل يا ما جدولين ؟ وهل ترين كما يرى أنني أخطأت في دخولي عليك بغير استئذان ؟ وهل تعتقدين أن له شأناً عندك يسمح له بأن يتولى أمر مؤاخذتي بالنيابة عنك ؟ فاعترض إدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيدتي فقد طال جلوسنا في هذا المكان حتى مللنا ، فأعطته يدها وتبعته صامتة مطرقة حتى دخلا البيت وتركاه في مكانه ينظر إليهما وهما يبتعدان عنه شيئاً فشيئاً حتى اختفيا وسمع خفق الباب وراءهما فظل شاخصاً إلى الباب الذي دخلاه لا يتحرك ولا يطرف ، ولا تنبعث له جارحة ، ولا ينبض له عرق ، ومرت به على ذلك ساعة ، ثم أخذ يحدّث نفسه ويقول :

إن إدوار يخاطبني بلهجة الآمر الناهي كأن له شأناً في هـذا البيت فوق شأني ، فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذي يزعمه ، ولا بد أن يكون قد استمده من ماجدولين نفسها ، فقد رأته بعينها وهو يحتقرني ويزدريني ، بل يسبني ويشتمني فلم تقل له شيئاً ، لا ! إنها وافقته على أكثر من ذلك ، فقد مدّ يده إليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل ، وهي تعلم أنه لا يريد بذلك إلا طردي ، وإذلالي ، فتبعته طائعة مذعنة ، ولم تلتفت إليّ ساعة انصرافها التفاتة واحدة تعتذر بها عن عملها هذا ، وها قد مضت ساعة بعد ذهابها ولم تعد إليّ لترى ماذا حل بي من بعدها ، فليت شعري ما دهاني عندها ؟ وما هذا الذي بينها وبين إدوار ؟ إنني أخشى أن يكون خطيبها ، وأن يكون هذا الخاتم الذي في يدها خاتم الخطبة الذي أهداه إليها ، وأن تكون تلك الجلسة التي رأيته يجلسها بجانبه جلسة غرام يتشاكيان فيها الحب ويتباثانه ، فأي كان ما ظننته حقاً ، فهي فتاة مجرمة خائنة ، لأنها وعدتني بالانتظار حتى ييسر الله لي سبيل الرزق فلم تف بوعدها بل أقسمت لي

الأيمان التي لا فسحة فيها على الوفاة حتّى الموت فلم تبر بيمينها .

لا .. لا ، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم حق العلم أنها لي ، وأنني صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعاً ، فقد اشتريتها بدم حياتي وبجميع دموعي وآلامي ، وكابدت في سبيلها من نكبات الدهر وأرزائه ما يخرج احتماله عن طوق البشر ، فجعت حتى أشرفت على الموت ، وعريت حتّى حبست نفسي عن الخروج من غرفتي إلا في ذمام الليل وحمايته ، ونمت في الليالي القرة الباردة في ممر الهواء الجاري بلا غطاء ولا دثار ، وخرجت تحت جنح الظلام أفتش في صناديق القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة مطروحة أسد بها رمقي ، وبعت الخبز الأبيض بالخبز الأسود لأستطيع أن أجد لقمة لغدائي ، وأخرى لعشائي ، وما زلت أرقع قميصي حتّى صار القميص الرقاع وذهب القميص بأجمعه بل ركبت في سبيلها ما هو أعظم من ذلك فقد قتلت أخي ومثلت بالرجل الذي أحسن إليّ في حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسي بسرقة ماله ، بل مددت يدي إليه ، فأصبحت بذلك من المجرمين .

إنها لا تستطيع أن تنتزع يدها من يدي ، ولا أن تفصل حياتها من حياتي ، فقد خلقت لي كما خلقت لها ، وها هو اسمي محفور بجانب اسمها على جذور أشجار حديقتها ، وها هي شعرات رأسها منسوجة في الخاتم الذي ألبسه منذ عامين ، وها هي الأرض والسماء ، والبحيرة والفلك ، والشمس والقمر ، والأشجار والأعشاب ، والطيور والأزهار ، تشهد بحبنا وغرامنا ، ومواقف آمالنا وأحلامنا ، وأيماننا التي أقسمناها ألا يفرق بيننا إلا الموت ، فإذا كانت نفسها قد حدثتها بمقاطعتي ، واتخاذ سبيل في الحياة

غير سبيلي فقد قضت عليّ وعلى نفسها في آن واحد ، لأن الحياة الواحدة لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة عن الأخرى .

ثم تأوه آهة طويلة وقال : من لي بمن أبيعه نصف حياتي على أن يكشف لي الحقيقة التي أجهلها ؟ ولقد كان جديراً بي أن أقف في طريقهما عندما حاولا الفرار مني وآبى عليهما أن ينصرفا إلا بعد أن يعترفا لي بحقيقة أمرهما ، ويمزقا عن وجهيهما هذا الستار الذي أسبلاه عليهما ، فإن أبيا قتلتهما غير ظالم ولا آثم ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يذهبا إلى خلوتهما لينعما فيها بما يشاءان أن ينعما به ، ويتركاني في هذا المكان وحدي أعالج ما أعالج من الهموم والآلام .

ثم قام يتحامل على نفسه حتى خرج من باب الحديقة ومشى يترنح في مشيته ترنح الشارب الثمل ، فما أبتعد إلا قليلا حتى سمع صوتاً شديداً يخفق وراءه ؛ فالتفت فإذا إدوار خارج من الحديقة ممتطياً صهوة جواد أصهب فاختبأ استيفن وراء ربوة على الطريق حتى دنا منه فخرج إليه وأمسك بعناد جواده فذعر إدوار إذ رآه ولكنه تماسك وقال له : ماذا تريد يا استيفن ؟ قال : أريد أن أسألك عن سبب اختلافك إلى هذا البيت ، وعن الشأن الذي لك فيه وما أعرف لك فيه شأناً قبل اليوم ؛ قال : لا أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت آخذ بعنان جوادي لا تتركه ؛ فدعه وسلني ما تريد ، فترك استيفن العنان إلا أنه وقف في وجه الجواد ، فقال له ادوار : لو غيرك سألني هذا السؤال بهذه اللهجة الجافة الخشنة التي تخاطبني بها لما كان لها جواب عندي سوى أن أقول له إني حر مطلق أتصرف في شؤون نفسي كيف أشاء ؛

فأزور ما أزور من المجازل وأترك ما أترك منها دون أن أعرف لإنسان في الوجود حقاً في مراقبتي أو مساءلتي عما أفعل ، ولكن إكراماً للصداقة التي بيني وبينك أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا جواباً موجزاً فأقول لك : إني أختلف إلى بيت الشيخ مولر لأني خطيب ابنته ، وسأبني بها بعد شهر واحد ولو شئت لحضرت حفلة عرسنا ؛ بل أنا أدعوك إلى ذلك ؛ فارتعدت شفتا استيفن وشعر بالموت يتسرب إلى قلبه قليلاً قليلا ، وقالت لـه بصوت خافت ضعيف : أتعني ماجدولين ؟ قال : نعم ، وليس لمولر ابنة غيرها ، فأطرق استيفن هنيهة ثم رفع رأسه وقال له : ولكنك تعلم يا إدوار أني أحبها وأنها كل حظي في هذه الحياة ، وأن انتزاعها من يدي إنما هو بمثابة انتزاع حياتي من بين جنبي ، فهل يهون عليك وأنا صديقك ورفيق صباك وشريكك الدائم في سراء الحياة وضرائها أن تقتلني ؟ قال : أنا أعلم أنك تحب هذه الفتاة ، وأنك استملتها في بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة ، حتى كادت تسقط في أحبولة الشقاء التي نصبتها لها ، لولا أن تداركها أبوها فاستنقذها من يدك ، وطردك من بيته طرداً قبيحاً ، وحماها ذلك المستقبل المظلم الذي كنت تهيئه لها ، فقاطعه استيفن وقال له : ولكنك لم تجبني على سؤالي الذي سألتكه ، قال : وما سؤالك ؟ قال : سألتك هل يهون عليك قتلي وأنت أخي وصديقي ، ورفيق طفولتي وصباي ؟ قال : إني ما أردت قتلك بل أردت حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعملي هذا إلى الرجوع إلى نفسك والتفكير في شأن حاضرك ومستقبلك ، فلعلك إن روأت في أمرك قليلاً علمت أن خيراً من هذه الحياة المضطربة المبعثرة التي تقضيها بين أحلام خائبة ، وآمال كاذبة : الرجوع إلى أهلك والانضواء إليهم والسكون تحت أجنحتهم والإذعان لهم فيما يريدون لك من

الخير في تزويجك من تلك الفتاة الثرية التي اختاروها لك ، ولا يذهب عليك أن زواجك من فتاة موسرة تظلل بوارف نعمتها ضاحي[1] فقرك ، خير لك من القعود مقعد الذل والمتربة بجانب فتاة فقيرة تضم شقاءها إلى شقائك فتعيا بحملهما معاً ، فها أنت ترى أنني أردت لك الخير فيما فعلت ، وأسديت إليك نعمة إن إن جهلتها اليوم فستعرفها غداً ، وستهدأ عما قليل هذه العاصفة الثائرة في رأسك فتعرف لي مكان اليد التي اتخذتها عندك وتشكرها لي شكراً جزيلاً .

فما أتى إدوار على آخر كلماته حتى طار الغضب في رأس استيفن ، وبرزت من مكمنها تلك السورة التي كانت رابضة وراء سكونه فانقض عليه ولببه[2] وهزه هزاً شديداً حتى كاد يقتلعه من سرجه وأنشأ يقول له : الآن عرفت مكان الخديعة التي خدعتم بها تلك الفتاة المسكينة أيها القوم الأشرار ، ومن أي باب دخلتم إلى قلبها فعبثتم به ، وإلى عقلها فطرتم بصوابه ، فقد علمتم ما تضمره لي بين جوانحها من الحب والإخلاص ، وأنها لا تبتغي بسعادتي بدلاً من أغراض الحياة ومآربها ، فألقيتم في روعها أنها علة ما ألاقيه في هذه الحياة من بؤس وشقاء ، وألا سبيل لي إلى أن أنال من حياتي حظاً من سعادة العيش وهنائه إلا إذا أيأستني من نفسها وانتزعت يدها من يدي وقطعت ما كان موصولاً عن الود بيني وبينها ، فصدقت حديثكم وأزعجها هذا المصير الذي خيلتم لها أنني سأصير إليه بسببها ، فأذعنت لرأيكم ، واستقادت لكم ، وفعلت ما اقترحتم عليها ، رحمة بي وإشفاقاً علي ، كذلك استطعتم أن تستثمروا ضعفها وتستغلوه لأنفسكم ، وما بكم من رحمة بي ، ولا بها ،

---

(١) ضحى الشيء : برز للشمس فهو ضاح .
(٢) لببه : أخذ بتلبيبه أي جمع أثيابه .

ولكن هكذا أراد الشيخ الجشع المأفون أن يستمتع بنعمة المال الذي يعبده ويدين به ، فباعك ابنته بيع الإماء في سوق الرقيق ، وهكذا أردت أن تتمتع بشهواتك البهيمية التي لا تفهم من شؤون الحياة شأناً غيرها ، ولا يعنيك من زواجك من مثل هذه الفتاة أمر سواها ، فمثلك من يعجز عن إدراك سريرة نفسها ، وما تضمره بين جوانحها من نبل وشرف ، وكل ما تستطيع أن تفهمه منها أنها فتاة وضيئة حسناء تشبه في بهائها ورونقها رونق أولئك الفتيات الجميأ ت اللواتي طالما خدعتهن عن أنفسهن ، وقضيت لياليك في مقاصيرهن ، ثم ما لبثت أن نفضت يدك منهن ، وتركتهن يندبن حياتهن وآمالهن ، ولو استطعت أن تسلك إلى المتعة بهذه الفتاة تلك السبيل التي سلكتها إلى المتعة بأولئك الفتيات لفعلت ، ولما جشمت نفسك مشقة الزواج منها ، ولأغنتك ليلة واحدة تقضيها في مخدعها عن أن تحبس نفسك عليها الدهر كله .

ومن كان هذا همه من حياته فويل لزوجته منه وويل منها وويل لهما من شقائهما الدائم الطويل .

فقال له إدوار : إن كنت تريد أن تقول إنها أرغمت على زواجها إرغاماً ، أو خدعت فيه خديعة ، فأنت مخطىء في ظنك لأنها قد نسيت كل ماضيها خيره وشره . ولم يبق بين يديها إلا حبها لخطيبها وإخلاصها إليه ، وتعليل نفسها باليوم الذي تسعد فيه بجانبه .

فاستطير استيفن غضباً وقال : كذبت أيها الرجل الساقط . إنها أشرف مما تظن ، وانقض عليه يريد الفتك به ؛ فأمسك إدوار بيديه ، وقال له بنغمة المستعطف المسترحم : أتريد أن تقتلني يا أستيفن ؟ فاستخذى استيفن وتضاءل ، وتراءى له طيف

ذلك الود القديم الذي كان بينه وبينه ، ونظر إليه بعينين مغرورقتين بالدموع ، وقال له : لا يا إدوار لا أستطيع أن أقتلك لأنك صديقي ، ولقد وقفت مرة في حياتي أسفك بضع قطرات من دمي فداء عنك ، فلا أندم على معروفي قط ، ولا أسترد يدي التي اتخذتها عند الله فيك أبداً .

ثم ألقى برأسه على قربوس السرج وأخذ يد إدوار بين يديه يبللها بدموعه وظل يناشده ويقول : إنني لا أدعوك يا إدوار باسم الصداقة التي رضعنا ثديها منذ طفولتنا معاً كما يتقاسم الأخوان ثدي أمهما ، ولا باسم المدرسة التي أظللتنا سماؤها وأقلتنا أرضها خمسة أعوام كاملة آنس بك فيها وتأنس بي ، وأعينك على أمرك وتعينني على أمري ، ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أوجين الذي كان كريماً عليك وعلي ، وكان يرعى لك ودك ويحفظ عهدك ، حتى مات ، وهو يعتقد أنه قد تركني من بعده في كلاءة أخ كريم وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التي أقسمتها لي ليلة سفرك من « جوتنج » ألا يهدأ لك في حياتك روع ، ولا يثلج لك صدر ، حتى أنال أمنيتي من حياتي ؛ بل أدعوك باسم الرحمة والشفقة ، لأنك محسن كريم ، ولأني بائس مسكين ، وليس للبائس المسكين من سبيل في حياته غير رحمة المحسن الكريم .

فلم يعبأ إدوار بذلك كله وتغفله وهمز جواده فطار به ملء فروجه ، فركض استيفن وراءه فلم يدركه ، وكان قد أعياه الجهد فسقط في مكانه ، وهو يقول « لا بد أن يكون ما قاله صحيحاً » .

ولم يزل في سقطته تلك حتى مر به بعض السابلة ، وكان قد رآه عند حضوره فعرفه فأذن به سائق عجلته ، فهرع إليه الحوذي

وأخذ بيده حتى أركبه العجلة ، ثم ذهب به إلى منزله .

فما انفرد بنفسه في غرفته حتى أخذ يصيح صياح المجانين ويضرب رأسه بالجدران ، وهو يقول «آه لقد فقدتك يا ماجدولين».

رسائل استيفن

(٦٣)

من استيفن إلى ماجدولين

أصحيح يا ماجدولين أن ما كان بيننا قد انقضى ؟! وأننا أصبحنا متناكرين غير متعارفين لا يذكر الواحد منا صاحبه إلا كما يذكر حلماً من أحلام صباه قد عفت آثاره الأيام والأعوام ؟

أصحيح أننا إذا التقينا بعد اليوم في طريق واحد مضى كل منا في سبيله دون أن يلوى على صاحبه ، أو في مجتمع لا يكون بيننا من الشأن إلا كما يكون بيننا الشأن إلا كما يكون بين سائر رجال هذا المجتمع ونسائه ، أو في خلوة لا نجد ما نتحدث به أو لا نتحدث إلا بحديث الأجواء والأمطار ؟!

ما أسرع تقلبات الأيام وما أغرب تصاريفها وشؤونها ؟!

أفيما بين يوم وليلة تنهدم جميع الآمال الجسام التي بنيناها وأحكمنا بناءها وبذلنا في سبيلها همومنا وآلامنا وأرقنا من أجلها كل ما نملك من دموع وشؤون ، وتصبح أثراً من الآثار الدارسة التي يتحدث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن التاريخ الغابر !؟

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراجفة ، وهكذا تنتثر الكواكب في الفضاء ، وتطوى السماء طي السجل للكتاب .

لقد كنت أحسب يا ماجدولين ألا يتولى ذلك الأمر منا غير الموت ، أما وقد توليناه من أنفسنا بأنفسنا ونسجنا خيوطه بأيدينا ، ونحن أحياء فتلك أعجوبة الدهر التي لم ير مثلها راء ولا سمع بمثل حديثها سامع ؟

ماذا أنكرت مني يا ماجدولين ؟ وماذا دهاني عندك ؟

لقد أحببتك حباً لم يحبه أحد من قبلي أحد ، وأخلصت لك إخلاصاً لا يضمر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده ، وأجللتك إجلال العابد لمعبوده فما خنتك في سر ولا جهر ؛ ولا كذبتك في قول ولا عمل ، وملأت فراغ حياتي كله بك فلا أنظر إلا إليك ولا أشعر إلا بك ولا أحلم الا بطيفك ، ولا أطرب لرؤية الشمس ساعة شروقها إلا لأني أرى فيها صورتك ولا لسماع أغاريد الطير في أفنانها إلا لأني أسمع فيها نغمة حديثك ، ولا لمنظر الأزهار الضاحكة في أكمامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك ، ولا تمنيت لنفسي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ، ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك ، وأستمتع برؤيتك .

إن كنت ترين أني لا أستحق محبتك ، وأني أصغر شأناً من أن أملأ فراغ قلبك ، فأحبي في حبي اياك وإخلاصي لك ، واجزيني خيراً بما بذلت لك في حياتي من دموع وآلام وشجون وأحزان ، واعلمي أنك إن استطعت أن تجدي بين الرجال من يرضيك بجماله أو ماله ، أو حسبه أو جاهه ، فإنك لا تستطيعين أن تجدي فيهم من يحبك محبتي ، أو يخلص لك اخلاصي .

إنهم قد خدعوك يا ماجدولين ، وزينوا لك حب المـــال والشهوات وخيلوا إليك أن الحياة طعام وشراب ، وثوب فاخر ، وقصر باذخ وعقد ثمين ، وقرط جميل ، وأن الزواج شركة مالية يتعاون فيها الزوجان على جمع المال واكتنازه ، وما علموا أن الزواج المالي نوع من أنواع البغاء ، وأن المرأة التي تتزوج الرجل لماله لا تتزوجه كما تزعم ، بل تبيعه نفسها بيعاً كما تبيع البغي جسمها لعاشقها ، بل هي أحط من البغي شأناً ، وأسفل غرضاً ، لأنها لم تبع نفسها من أجل لقمة تقيم بها أودها ، أو خرقة تستر بها ضاحيّ جلدها ، فينفسح لها صدر العذر في ذلك ، بل من أجل عقد ثمين تطمع في أن تزين به صدرها أو ثوب فاخر تكاثر به أترابها ، أو قصر جميل تستمتع في جوه بأنواع لذائذهـــا .

لا تصدّقي يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب فإن صدقت فويل لك منك ، فإنك قد حكمت على قلبك بالموت .

لقد كنت عندي آخر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة ويأبه لها ، وكان أكبر ما أعظمك في عيني ، وأجلك في نفسي واستعبدني لك أنك المرأة التي وجدت فيها وحدها من بين النساء جميعاً قلباً نقياً طاهراً يفيض بالحب النقي الطاهر الذي لا تشوبه شوائب النوازع والشهوات ، ولا يكدره مكدر من أعراض الحياة ومطامعها ، فهل كنت مخطئاً في ظني ؟

لا .. لا . انك لا تزالين صاحبة ذلك القلب الذي أعرفه حتى الساعة وهذا هو الذي أخافه عليك ، وأرثي لك من أجله .

أنت لا تعلمين شيئاً من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه

كل شيء وأخص ما أعلم منها أنه لا يحمل بين جنبيه قلباً مثل قلبك ، ولا يفهم من معنى الحب وسره المعنى الذي تفهمين ، ولا يستطيع أن يكون شريكاً لك بحال من الأحوال في شعورك ووجدانك ، وكل شأنه معك أنه رآك فاستملحك فاشتهاك ، والملاحة عرض زائل ، والشهوة ظل متنقل ، فأخشى عليك أن ينالك بعد قليل على يده ذلك الشقاء الذي تفرين منه اليوم ، وألا ينفعك ولا يجدي عليك شيئاً في ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا فضة ولا ذهب ، ولئن تم لك ذلك لأكونن أشقى الناس عيشاً وأعظمهم بؤساً ، لأني أحبك ، وأحب لك السعادة في كل موطن تكونين فيه ، من أجلك لا من أجل نفسي .

ليت شعري ! هل يصل صوتي إلى أعماق قلبك يا ماجدولين كما كان يصل إليه قبل اليوم؟ وهل تستطيعين أن تتصوّري كما كنت تتصورين من قبل أنني أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسي ، وأنني فيما أفضيت به إليك من تلك النصيحة إنما أردت سعادتك وهناءك أكثر مما أردت سعادة نفسي وهناءها !

(٦٤)

من استيفن إلى ماجدولين

لقلما أبقى على ما أرى .

الحياة مظلمة في عيني ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها حساً ولا حركة . الليل متواصل لا ينقطع ، وكان الناس رقود في مضاجعهم ليلهم ونهارهم ، لا يستيقظون ولا يستفيقون

ويخيل إليّ أنني أعيش في صحراء نائية منقطعة عن العالم وما فيه ، لا يمر بها طير ، ولا يجري فيها نهر ، ولا يطأ تربتها إنسان ، ولا يجول في أكنافها حيوان ، وأنني أهيم فيها وحدي ليلي ونهاري ، أطلب الخلاص منها فلا أعرف السبيل إليه ، وأحمل نفسي على البقاء فيها فيقتلني الضجر والضيق .

فمتى يحين حيني وتأتي ساعتي فأرتاح من همومي وآلامي ؟

لاشيء يعزيني عنك في العالم يا ماجدولين ، لأنك كنت لي كل شيء فيه فلما فقدتك لم أجد عنك عوضاً ولا بدلاً ، وكنت كمن قامر في ساعة واحدة بجميع ما تملك يده فلما خسر خسر كل شيء .

كانت لي آمال كبار ، وأمان حسان ، وكانت لي نفس مملوءة بعظائم الأمور وجلائلها ، وكنت أشعر بقوة في جسمي لا يقوم لها شيء في هذا العالم ، فأصبحت رجلاً ضعيفاً خامداً متألماً يائساً قانطاً لا أشعر ولا أفكر ولا آخذ ولا أدع ، ولا أتجه إلى مقصد ، ولا أتعلق بغرض ، ولا أجلب لنفسي خيراً ، ولا أدفع عنها ضراً ، ولا شأن لي بين الناس أكثر من شأن جثة ملقاة لا روح فيها ، أو حجر مطرح في قارعة الطريق .

ألا تخافين يا ماجدولين أن يأخذك الله بذنبي يوم يأخذ الناس بذنوبهم ، ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطاهرة التي قتلتها وفجعتها في جميع فضائلها ومواهبها ، وأن يتبعك صوتي في كل مكان تكونين فيه ، في خلواتك ومجتمعاتك ، ومنامك ويقظتك ، وبين ذراعي زوجك ، وبجانب مهود أولادك ، ويصيح بك : إنك قد قتلت رجلاً لو عاش لكان أفضل مثال للأزواج الصالحين ،

والآباء الرحماء والأصدقاء والأوفياء ، ولكان خير الناس للناس جميعاً ؟!

ألم تعديني يا ماجدولين أن تسهري على سعادتي وتحرسيها كما تحرس الملائكة سعادة البشر وهناءهم ؟ فهأنذا أشقى الناس جميعاً ، وأعظمهم بؤساً وبلاء ، فأين ما وعدتني به ؟

تعالي إليّ وقفي أمامي ساعة واحدة لأراك وأرى في وجهك صورة سعادتي الزائلة وآمالي الضائعة ، وأسمعيني صوتك العذب الجميل الذي أسمعتنيه من قبل ، وألقي عليّ نظرة واحدة من نظراتك العذبة الرائقة يحيى بها نفسي الميتة ، وقولي لي صدقاً أو كذباً إنك لا تزالين تحبينني وتعطفين عليّ ثم لا تزيدي على ذلك شيئاً ، فقد أصبحت أقنع منك بكل شيء .

أقسم لك يا ماجدولين أنني لو رأيتك في طريقي لهرعت إليك وجثوت تحت قدميك كما يجثو العابد تحت قدمي معبوده وسألتك البر والإحسان كما يفعل السائل المستجدي ، فإن أعرضت عني زحفت وراءك على ركبتي وتعلقت بأهداب ثوبك حتى تصغي إليّ وتسمعي شكاتي .

ولكن ماذا أقول لك ؟ وماذا عندي من الأحاديث فأحدثك به ؟ لا شيء عندي سوى أن أذرف دموعي تحت قدميك ، وأمد يدي إليك صامتاً ثم أضع حياتي بين يديك فإما أحييتني أو قتلتني .

إنني أتألم كثيراً يا ماجدولين ؛ ولا أحسب أن في العالم نفس تحمل ما تحمله نفسي من الآلام والأوجاع ، فارحميني واعطفي عليّ ، فإن لم أكن كفوءاً لمحبتك : فامنحيني صداقتك ، فإن أبيتها

فاسبلي على ستر حمايتك ، فإن ضننت بها فائذني أن أسير وراءك في كل مكان تسيرين فيه كما يتبعك كلبك الذليل ، لأراك وأسمع صوتك ، وأستنشق الهواء الذي يحيط بك لأني لا أستطيع أن أعيش في العالم دون أن تكون لي صلة بك .

كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك سعادتي وهنائي ، أما الآن فقد حالت الحال ؛ وتراجعت الآمال ، وأصبحت لا أطمع في أن أضع بين يديك شيئاً غير حياتي .

فهل تبقين عليها ؟

(٦٥)
من استيفن إلى ماجدولين

لي الله من بائس مسكين ، فقد ذبلت زهرة حياتي قبل أن تنفتح ، ودبت إليّ الشيخوخة وأنا لا أزال في ريعان الشباب ، وانطفأ ما كان مشتعلاً في قلبي من الهمة وفي رأسي من الذكاء ، وفي وفي جسمي من القوة ، وانقطع ما كان موصولاً بيني وبين الناس جميعاً ، فمات أخي ، وطردني أبي ، وعاداني أهلي ، ولم يكن باقياً لي في العالم سواك ، ثم انقضى ما كان بيني وبينك ، فأي أرب لي في العيش من بعد ذلك .

أتدرين لم أؤثر الحياة على الموت يا ماجدولين وقد كان الموت أروح لي مما أكابده ؟ لأني لست على يقين مما بعده ، وأخشى إن حل بي أن ينتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي تمتعت فيها بحبك وعطفك وبحلاوة الأمل فيك ، والتي هي كل ما بقي في يدي بعد الذي كان ، ولولا ذلك لقتلت نفسي ، ثم استحالت

روحي إلى طائر جميل يطيف بك ويرفرف على رأسك حيثما ذهبت ، ويتناول الحب من يدك مرة ، والقبلات من فمك أخرى ، فأظفر منك ميتاً بما عجزت عنه حياً .

إنك سلبتني سعادتي يا ماجدولين ، ولكنك لم تعطني شيئاً بدلاً منها أعيش به ، بل تركتني وشأني كما يترك المسافر رفيقه الجريح الظامىء في الصحراء المحرقة لا ظل فيها ولا ماء ، وينجو بنفسه غير مبال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أقساك ، وما أبعد الرحمة من قلبك !

ردي عليّ آماني وآمالي، ولياليّ التي قضيتها فيك ساهراً متململاً ؛ وحياتي التي وضعتها بين يديك ؛ ووكلت أمرها إليك ، وأعيدي إليّ عطفي وحناني ، ورحمتي وإشفاقي ، وجميع عواطف قلبي التي ضننت بها على أهلي وقومي جميعاً وآثرتك بها من دونهم ، وعقيدتي في الحب والهناء ، وإيماني بالله وبقاء الخير في الأرض .

ماذا تقترحين عليّ يا ماجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر الأرض أو كنز من كنوز السماء تحبين أن أضعه بين يديك ؟ أتريدين قصراً من المرمر الأبيض ، أم صهريجاً مملوءاً باللؤلؤ الرطب ، أم بساطاً مصوغاً من الجوهر ، أم حلة منسوجة من أشعة الشمس ، أم تاجاً مرصعاً تتضاءل بين يديه تيجان الملوك والأقيال ؟ لقد أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن تعيدي إلى قلبي الأمل التي سلبتنيه فأصبح أقوى الناس جميعاً وأقدرهم على امتلاك ناصية الكون بأجمعه ، أرضه وسمائه .

آه ما كان أشد سروري وفرحي يوم أعددت لك ذلك البيت

الصغير في «جوتنج» ، وبنيت لك فيه تلك الغرفة الزرقاء الجميلة ووضعت فيها ذلك السرير ، كنت أرجو أن يكون الدوحة الفينانة التي أنعم بك في ظلالها ، وأنشأت تلك الحديقة البديعة التي لم أدع زهرة تحبينها أو يحبها أبوك إلا غرستها فيها ، وكنت كلما دخلت ذلك المنزل ووقفت في فنائه لحظة خيل إليّ أنه آهل بك ، وأن صوتك العذب الشجي يرن في أنحائه ، وأن أولادنا يلعبون بين أيدينا في حديقته ، ويقطفون أزهارها وورودها ويقدمونها هدية إلينا ؛ بل كنت أتخيل عندما كنت أدخل غرفة زينتك أني أراك جالسة الى مرآتك فيها تمشطين شعرك الأصفر الجميل ، وأنني واقف وراءك أغمس يدي في ذلك الخليج الذهبي الرجراج وأختلس منه قبلة بعد أخرى .

أما اليوم فقد ذبل كل شيء فيه وضوى ، فانقطع الماء عن حديقته ، وذوت أشجاره وأزهاره وعصفت الريح بنوافذه وأبوابه ، وكست الترب أرضه وسقوفه فأصبح كالعروس الحسناء التي نزلت بها منيتها ليلة زفافها .

أصبحت لا تكتبين إليّ حرفاً واحداً ، ولا تجيبين عن كتاب واحد من كتبي ، وما كان ذلك من شأنه قبل اليوم ؛ فاكتبي إليّ كلمة واحدة قولي فيها ما تشائين من خير أو شر ، فقد وطنت نفسي على احتمال كل شيء .

(٦٦)

من استيفن إلى ماجدولين

لم تكتبي إليّ تلك الكلمة التي ضرعت إليك فيها ، وعهدي

بك أنك مشيت قبل اليوم على قدميك بضع ساعات كابدت فيها ما كابدت من الأهوال العظام حتى وصلت إلى صندوق البريد في قرية بعيدة عن قريتك فبعث إليّ برسالتك ، فهل ذهب ذلك الماضي بأجمعه ولم يبق في نفسك منه أثر واحد ؟

لا أستطيع أن أصدّق ذلك ، فكل ما حولك يذكرك بي وبأيامي التي قضيتها معك ، فهناك الشمس التي كنا نستقبلها معاً طالعة ونودعها غاربة ، والقمر الذي كان يشرف علينا من علياء سمائه ، ويرسل إلينا أشعته الفضية البيضاء فتضمنا غلالتها معاً . والمقعد الذي كنا نجلس عليه بين الظل والماء ويدك في يدي ورأسك على صدري ، وخدك تحت متناول لثماتي ، والبحيرة التي كنا نقضي فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرين على ضفتها صامتين تتحدث قلوبنا بما تمسك عنه ألسنتنا ، ثم نعود وبودنا أن لو استمر بنا المسير أبد الدهر إلى دار الخلود ، والغرفة التي التقينا فيها ليلة وبللنا تربتها بدموعنا وأقسمنا بين سمائها وأرضها يمين الوفاء حتى الموت .

إني أناديك في اليوم مائة مرة يا ماجدولين صارخاً مستغيثاً باكياً منتحباً ، لا أهدأ ولا أستريح ، وأنت لاهية عني بذلك الشأن الجديد الذي استحدثته لنفسك ؛ لا تسمعين ندائي ، ولا ترثين لمصابي ؛ وما أعلم أني أذنبت إليك في حياتي ذنباً واحداً تأخذينني به ، بل أعلم أني اقترفت جميع الذنوب والآثام من أجلك .

إن كنت مررت مرة في حياتك بامرأة جاثية على قبر زوجها تندبه وتبكيه أحر بكاء وأشجاه لأنها كانت تحبه حباً جماً ، ولأنه تركها في ريعان شبابها فقيرة معدمة ؛ وترك لها أطفالاً صغاراً لا حول لهم في الحياة ولا قوة ؛ فحزنت لحزنها ، وبكيت لبكائها .

أو رأيت في طريقك فتاة فقيرة هائمة على وجهها تبكي وتنتحب وتسأل الغادين والرائحين أن يمنحوها درهماً واحداً تبتاع به دواء لأخيها الصغير المريض الذي لا سند له غيرها، ولا عائل لهـا سواها، فأويت لها، وأسعفتها بطلبتها.

أو مررت بضفة نهر فرأيت امرأة واقفة به تعول وتصيح وتستصرخ الناس لوحيدها الذي يغرق في النهر أمامها فلا تجد من يعينها عليه حتى سقط سقطة لم يطف من بعدها فجن جنونها واندفعت وراءه بثيابها فطواهما البحر معاً في لحظة واحدة، فأعظمت نكبتها، وبكيت مصيرها.

أو سمعت بقصة ذلك الشيخ المسكين الذي دخل عليه الجند منزله، وهو جاث بجانب زوجه المحتضرة وابنته المريضة ليأخذوه إلى السجن لأنه كان قد سرق من أجلهما بالأمس رغيفاً يقيم به أودهما فسأل الجند أن يمهلوه ساعة واحدة حتى يرى ما يصنع القضاء بعيلته، فأبوا ذلك عليه فعظمت عليه النازلة فذهبت بعقله، فعدل به الجند عن طريق السجن إلى طريق المارستان.

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذي ضل في مفازة مقفرة فاشتد به العطش وهام على وجهه في كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى أعياه الجهد، وعجز عن المسير، ثم لمح على البعد صفحة ماء تترقرق، فمازال يزحف على ركبتيه إليها ويخضب الحصى بدمه المتدفق، حتى إذا داناها، ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة سقط من دونها ميتاً.

أو قرأت قصة تلك المرأة التي رآها الناس في إحدى المجالات جالسة أمام كوخها، وفي حجرها كتلة لحم حمراء مختلفة وبين

يديها قدر يتصاعد بخارها فلما دنوا منها هالهم أن رأوا في يدها سكيناً مخضبة بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر ، فعلموا أن الجوع قد أفقدها عقلها ، وأن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها إنما هي رضيعها قد ذبحته وأنشأت تقطع أوصاله بمديتها وتطبخها لتأكلها .

إن كنت سمعت بخبر هؤلاء المنكوبين ، وسمعت أنين المعذبين في السجون وصراخ المرضى في المستشفيات ، وضحك المجانين في المارستانات فرثيت لهم ، وأويت لمصابهم ، فاعلمي أنني أشقى من هؤلاء جميعاً ؛ وأنني أولى منهم برحمتك وإشفاقك وعطفك وحنانك .

لم تبق فيّ بقية تحتمل أكثر مما احتملت ، وربما لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ بي الضعف منتهاه ، وأظلم بصري فما أكاد أبصر شيئاً . فالوداع يا ماجدولين وداع الحياة إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت الأخرى .

« انتهت الرسائل »

(٦٧)

من ماجدولين إلى استيفن

لا أكتمك يا سيدي أني بكيت كثيراً عند قراءة رسائل ولكنني عدت إلى نفسي وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستطفئها الأيام كما أطفأت غيرها من زفرات اليائسين ، وربما علمت بعد قليل

من الأيام أن الله قد خار لك فيما كان ، وأنه قد أعد لك من حيث لا تحتسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التي تندبها وتبكيها .

أنت تعلم يا استيفن أنني فتاة فقيرة وأنك فتى لا مال لك ، أو لا تملك من المال ما يقوم بشأنك زوجاً ووالداً ، فخير لي ولك أن نفترق وأن يسلك كل منا في حياته الطرية التي يعلم أنها تنتهي به إلى سعادة عيشه وهنائه أحببنا ذلك أم كرهنا ، فتناس كل شيء يا صديقي ، وسافر إلى كوبلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك مني أن أكون صديقتك الوفية لك ما حييت ، ولا تحمل في نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد في شيء مما كان وإنما هو رأي رأيته لنفسي ، ولم أستشر فيه إلا عقلي وضميري ؛ فأنا صاحبته والمأخوذة به إن كنت لا بد آخذاً به أحداً ، والسلام عليك من صديقتك التي ترجو عفوك وغفرانك .

(٦٨)

من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيت كل شيء يا ماجدولين ، فاختاري لنفسك في حياتك ما شئت ، وها هي ذي رسائلك عائدة إليك فليس من الرأي بقاؤها عندي بعد اليوم ، وإني أتقبل صداقتك بالصدر الرحب الذي تقبلت به حبك من قبل ، أما النقمة فإني لا أنقم عليك ولا على خطيبك شيئاً ، بل أسأله الله لكما السعادة في حاضركما ومستقبلكما .

(٦٩)

الزفاف

إزدحمت الكنيسة بسكان قرية ولفباخ رجالاً ونساء وظلوا جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين ، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت العجلات وهي مقبلة فنهضوا جميعاً على أقدامهم واصطفوا صفوفاً متتالية لاستقبال القادمين ، ثم دخل إدوار آخذاً بيد ماجدولين وهي لابسة ثوباً أبيض ناصعاً كأنما قد قدّ من جرم الزهر وعلى رأسها إكليل من الزهر يتلألأ في شعرها الذهبي الجميل ، ودخل وراءهما الشيخ مولر وسوزان وأبوها وزوجها واشميد ابن عمة ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل فتاة رأوها في حياتهم فدعوا لها ولزوجها بالسعادة والهناء . وملأوا أرجاء المعبد هتافاً بهما وثناء عليهما ، ثم مشيا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القطيفة المزركشة فركع الناس بركوعها ، وركع استيفن معهم ، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواريه فلم يشعر به أحد ، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحسه أحد « اللهم احرسها بعين عنايتك » وأسبل عليها ستر حمايتك ، وامنحها السعادة والهناء في نفسها وفي عيشها ، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي » .

ثم بدأ القسيس يتلو صلاته وجاءت الساعة التي ينطق فيها بكلمته الأخيرة التي لا مردّ لها ولا رجعة فيها ، فشعر استيفن أن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ويضرب ضربا يعلو صوته على أصوات

النواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وأغمّض عينيه وقبع في أعماق نفسه واستلهم الله الصبر على نكبته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكنيسة خالية مقفرة تعتلج الظلمة في أرجائها وتضرب رياح الليل الباردة في نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حرى كادت تتساقط لها أضلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قضي الأمر وخرجت ماجدولين من يدي ، وأصبحت كفي صفراً من جميع آمالي وآمالي ، فما العمل ؟ وكيف أعيش ؟ وأين أقضي بقية أيام حياتي ؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحيا من أجلها ؟ ثم خرج هائماً على وجهه لا يعلم أي فج يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أضيق في عينيه من كفة الحابل ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعوين منصرفين من الحفلة زمراً فاختفى بركن مظلم من اركان السور حتى انقطع خفق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرمى البيت بنظرة شزرة ملتهبة لو اتصلت شرارة من شرارها بسقف من سقوفه أو كوة من كواه لأتت عليه في لحظة واحدة ، ثم ما لبث أن رأى النور قد انطفأ في جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ؛ فعلم أنها غرفة العرس ، فلم يتمالك أن ثار من مكمنه ثورة الأسد المهتاج وأخذ يدور حول السور ذهاباً وجيئة وهو لا يعلم لم يدور ، وأين ينتهي ؟ حتى وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف أمامها لحظة . ثم حدثته نفسه باقتحامها فرأى حجراً ضخماً معترضاً في فجوتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه . ثم انحدر الى الحديقة غير خائف ولا وجل ولا مبال بما أقدم عليه ، وأخذ سمته إلى سلم الدار حتى بلغه فصعده يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل الى باب الغرفة المضيئة فوقف به وأحس أصواتاً من ورائه ، فشعر برعدة تتمشى في جميع أعضائه ؛ وخيل إليه أن قلبه ينحدر في هوة عميقة لا

قرار لها وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونهما حائل ؛ وكأني به وهو يضمها الآن إلى صدره ويلصق فمه بفمها ، ويوسعها لثماً وتقبيلاً فتعطيه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فرنت في مسمعه أصوات الضحكات والقبلات ، وسمعها تقول له فيما تناجيه به « أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » فجن جنونه وحدثته نفسه أن يضرب الباب بقدمه ضربة هائلة تطير بـه ثم يقتحمه عليهما فيقتلهما ويخضب سرير العرس بدمهما ؛ ثم يقتل نفسه على أثرهما ، واستنصر قوته على ذلك فخذلته ، فوقف بين الإقدام والأحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقاً شديداً ، حتى امتلأ قميصه دماً ، وتناثرت أفلاذ جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بألم ، بل لا يعلم أنه يصنع من ذلك شيئاً حتى أعياه الجهد ، فزلت به قدمه فانقلب إلى أسفل السلم ؛وهو بين الحياة والموت .

ولم يزل في سقطته تلك حتى استيقظت الخادم « جنفياف » مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيفانه فرأته صريعاً في مكانه ، فراعها أمره ، وأدهشها وجوده في هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بثوبه وأظافره فظنته قتيلاً فحاولت أن تصيح فخانها صوتها ، فأكبت عليه لتعلم ما شأنه فأحست رجع أنفاسه ، فهدأت قليلاً ، وعلمت أنه في غشية جديدة فأشفقت عليه ، وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تنضح جبينه بالماء وتمسح صدره حتى استفاق فدار بعينيه حول نفسه فذكر ما كان ورأى جنفياف بين يديه فاحمر وجهه خجلاً وسألها هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا . فاعترف لها بمجمل قصته ، وناشدها الله والمودة أن تكتم عليه ما كان ، فوعدته بذلك فقام يتحامل على نفسه حتى

خرج من المنزل ومشى في طريق قريته .

(٧٠)

الهــذيان

قالت جوزفين زوج فرتز للطبيب . وكانت تتولى تمريض استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ، وأخاف ما أخاف عليه أن تنزل بعقله نازلة من نوازل الجنون ، فقد أصبح لا ينطق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يرى في يقظته أو في منامه غيرها ، فيتخيلها تارة مقبلة عليه فيبتسم لها ويتهلل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ؛ وأخرى منصرفة عنه فيضرع إليها ويهتف باسمها هتافاً عالياً ويحاول النهوض من فراشه لإدراكها والتشبث بها فهو إما ضاحك أو باك أو هاتف أو ضارع أو مسترحم . ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيــام أخرى ذهبت النكبة بعقله أو بحياته ، وما أحسب أن شيئاً غير ظفره بتلك المرأة أو اتصاله بها يشفيه من دائه ، فقال الطبيب : لقد خاطرت اليوم بآخر ما في كنانتي من الأسهم ، فسافرت إلى قرية ولفباخ وقابلت ماجدولين على غير سابق معرفة لي بها ووصفت لها حالة المريض في جنونه واستهتاره بها ، وقيامه وقعوده بأمرها ليله ونهاره ، وسألتها أن تزوره زورة واحدة عسى أن تنفعه وترفه عنه بعض ما به ، فأبى زوجها عليها ذلك إباء شديداً ، فلم أزل به أسترحمه وأستعطفه وأنشده الله والمروءة حتى أذعن بعد لأي ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على مضض ، وقد تركتهما الآن يتهيآن للحضور على أثري .

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه وقال : يا للعجب ! لقد قصدته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فما أجدى ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويجرعه بضع قطرات من الدواء.

وإنه لكذلك إذ قرع الباب قرعاً خفيفاً ففتح فدخلت ماجدولين ووراءها إدوار ، فلم يشعر استيفن بهما عند دخولهما ، ثم فتح عينيه بعد قليل ونظر إلى جوزفين وقال لها : أين ثيابي التي أمرتك بإحضارها ؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد ، وهو موعد ذهابي إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي ؟ فأطرقت المرأة واجمة ، وأدارت ماجدولين وجهها حتى لا يرى أحد اصفرارها. فتقدم نحوها الطبيب وسألها أن تدنو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ، فدنت من سريره ووقفت أمام وجهه ، فنظر إليها نظرة ذاهلة ، ثم أدار رأسه وأغمض عينيه ، فعلمت أنه لم يعرفها فنادته باسمه بذلك الصوت الرخيم العذب الذي طالما سمعه من قبل فملك عليه مداركه ومشاعره ؛ فكأن موجة كهربائية اندفعت في جسمه دفعة واحدة ، فانتفض من مكانه وفتح عينيه وتناهض متكئاً على إحدى يديه ، وظل يضرب بيديه على جبهته كأنما يستحيي في ذهنه ذكرى قديمة طال عليها العهد ، ويدير رأسه يمنة ويسرة ويقلب نظره في وجوه الجالسين حتى وقع على ماجدولين ، فأخذ يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ، ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكراً لك يا ماجدولين فقد جشمت نفسك مشقة المجيء إليّ ، وقد كنت على وشك أن أذهب إليك الساعة لولا أن النوم طرقني فغلبني على أمري ، فهلمي بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحسب إلا أن أصدقاءنا ينتظروننا الآن في الكنيسة ، وكأني أراهم ، وقد جلسوا في دهليزها صفوفاً متتالية ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون

حضورنا ، وأرى القسيس يعد لنا وسادتين من القطيفة المزركشة لنركع عليهما أمام المذبح ، وكأنني أشم رائحة البخور متصاعدة من الموقد ، وأسمع أصوات النواقيس تقرع قرعاً متتابعاً ، ثم صعد نظره فيها وصوبه وقال لها : ما أجملك يا ماجدولين ، وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي ترتدينه ، إنك لا ينقصك الآن غير إكليل الزهر . ثم مد يده إلى أزهار كانت بجانبه فأخذ يضفر منها إكليلاً جميلاً ويتأنق في تنسيقه وتنظيمه ، ثم نظر إلى الطبيب ، وقد خيل إليه أنه الشيخ مولر فقال : ائذني يا أبتاه أن أضع هذا الإكليل على رأس ابنتك ، فنظر الطبيب إلى ماجدولين نظرة استعطاف يسألها فيها أن ترحمه ، وألا تنغص عليه هناءه الذي يتخيله ، فوضع استيفن الإكليل على رأسها ، وهي واجمة صفراء كأنما قد انتفضت من كفن وقال لها : أتذكرين يا ماجدولين يوم وضعت على رأسك منذ عامين في ساعة من ساعات أنسنا ولهونا إكليلاً مثل هذا الإكليل فتفاءلنا بذلك خيراً وقلنا : ليس بكثير على الأيام أن يصبح جداً ما لهونا به ؛ وحقيقة ما حسبناه خيالاً ؟ فها قد صدق اليوم فألنا ، وصحت آمالنا وأحلامنا ، فالحمد لله على ذلك وله الشكر على آلائه ونعمائه .

ثم نظر إلى جوزفين وقال لها : إني أشعر بضيق في صدري لا أعلم له سبباً فافتحي هذه النافذة لأستنشق هواء هذا الصباح الجميل ؛ ففعلت ، فأخذ يقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي ذي الطبيعة تهدني إلينا في يوم عرسنا أجمل ذخائرها وأعلاقها ، وهواءها العليل ، وشمسها الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة ، فشكراً لها على يدها عندنا ، وشكراً للدهر الذي أنالني أمنيتي وأظفرني بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ؛ ثم التفت فوقع نظره على إدوار فهش له وابتسم في وجهه وقال له : شكراً لك

يا صديقي ، ما أحسب إلا أنك الذي أشرت على ماجدولين بزيارتي في منزلي ولولاك لحال بينها وبين ذلك الحياء الذي لا يفارقها في جميع آناء حياتها ، فامدد إليّ يدك وكن أول من يهنئني بسعادتي من بين أصدقائي فأنت أكرمهم عليّ جميعاً ، وآثرهم عندي ، أتذكر يا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة الصغيرة التي نحن فيها الآن عيش البؤس والشقاء ، وكنا نتساقى من الورد كئوساً تنسينا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ، وكنت لا أجلس إليك مجلساً إلا قصصت عليك فيه شأني مع ماجدولين ، وأبثك وجدي بها ، ورجائي فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إليّ نظرات الهزء والسخرية : إنها قد أقسمت لي يميناً محرجة ألا يفرق بيني وبينها إلا الموت ، وإنها لن تخيس بعهدها أبداً . وإن هذه السحابة السوداء التي تراها متلبدة في سماء حياتي لا تستطيع أن تثبت طويلاً على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحب إله قادر لا يعجزه شأن في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرتها شيء ؟ فها أنت ترى أنني لم أكن كاذباً في تصوراتي وأحلامي ، وأن أماني وآمالي لم تكن كما كنت تظنها خيالات شاعر ، ولا هواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأهوى بفمه إليها ليقبلها فلمع أمام عينيه شعاع خاطف من أشعة الخاتم الماسي الذي يتألق في أصبعها فاضطرب ومر بخاطره مرور البرق منظر ذلك الخاتم بعينه يوم رآه في يدها للمرة الأولى ، وهي واقفة بجانب إدوار في حديقة منزلها فتراخت يده وامتقع لونه وانطفأ ذلك الشعاع الذي كان يلمع في عينيه وارفض جبينه عرقاً وأخذ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فظل يقول بصوت خافت متهدج : لا ... لا ، لا حق لي في تقبيل يدها ، لأنها ليست لي ولا شأن لي عندها ، ثم تناول غطاءه فأسبله على رأسه وأخذ يبكي بكاء شديداً ، ويقول للطبيب :

ليخرجوا عني جميعاً فلا شأن لهم عندي ، ولا شأن لي عندهم ، فاغرورقت عينا ماجدولين بالدموع ومدت يدها إليه كالضارعة وهمت بالركوع بجانب سريره فجذبها إدوار جذباً شديداً فتبعته متثاقلة ، خطوة والتفاتة ، وهي تقول بينها وبين نفسها « وارحمتاه لك أيها البائس المسكين » .

وما انقضى النهار حتى ترك إدوار قرية « ولفباخ » ، وسافر بزوجته إلى « كوبلانس » .

(٧١)

اليـــأس

لبث استيفن في سرير مرضه شهرين كاملين كابد فيهما من آلام النفس والجسم ما قدر له أن يكابده ، ثم أبل قليلاً فهجر فراشه وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ، ينام حيث يجد مضجعاً ليناً أو خشناً ، ويأكل حيث يجد لقمة ، بيضاء أو سوداء ، لا يستقر بمكان ، ولا يأوي إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما يصلح شأنهما ، واستبد به الحزن فدق جسمه ، وغارت عيناه ، واسترسل شعر رأسه ولحيته ، وآضت نضرة وجهه شحوباً ، وحمرة خديه اصفراراً ، وأصبح آية السابلين ، وعبرة الغادين والرائحين .

وكان لا يمر بكوخ صديقه « فرتز » إلا اتفاقاً ، فإذا مر به خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وناشدوه الله والمودة أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يدركه الملل فيثور ثورة الوحش المهتاج ويفر من بينهم

راكضاً وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيراً ما كان يمر في تطوافه بمنزله الصغير الذي بنـاه في «جوتنج» وبنى فيه صروح آماله الذاهبة وأمانيه الضائعة فيصرف وجهه عنه ولا يطيق النظر إليه ، وربما انكفأ راجعاً حين يلمح أول شرفة من شرفاته حتى لا يمر به ، ولا يقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأس طريق مشى فيه قدماً لا يقف ولا يتريث ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين يديه مجتمعاً من الناس فيستفيق من ذهوله ويعود أدراجه .

ولقد استمر به المسير يوماً في بعض غدواته حتى وصل في منتصف النهار إلى «كوبلانس» فأخذ يهيم في شوارعها وطرقاتها ، والناس ينظرون إليه وإلى منظره الغريب وشعره المشعث الثائر ونظراته الحائرة المتبددة ويعجبون لأمره .

وإنه لكذلك إذ مرت على القرب منه عجلة فسمع فيها ضحكاً عالياً خيل إليه أنه يعرف نغمته فالتفت فإذا ماجدولين وإدوار فصعق في مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند به إليه وهو يقول : «ما أسعدهما وأهنأ عيشهما ، إنهما يبنيان سعادتهما على أنقاض لقائي» ثم ذهل عن نفسه وظل في ذهوله ساعة فلم يستفق حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتضاحكون ويتغامزون ويشيرون إليه إشارات الهزء والسخرية فرماهم بنظرة شزراء رجفت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الأمام فهالهم منظره وتفرجوا له عن طريقه ، فسار في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهراً جارياً على رأس مزرعة خضراء فجلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار ضعف وجبن ، وما الضعف ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فراراً من ساعة شدة مهما كابد المرء من الغصص والأوجاع فهي ذاهبة ولا رجعة لها بعد ذلك .

وهل يوجد في باب الجهالات أقبح من جهالة الرجل الذي يفضل حياة يموت فيها مائة مرة على موتة سريعة عجلى تريحه من هذه الميتات المتقطعة المتداولة ؟

إني لا أدري لم يضق الرجل بثوبه فينزعه ، ويسمج في نظره منزله فيهجره ويتبرم بصاحبه فيفارقه ، ويثقل على ظهره حمله فيلقي به ، فإذا ضاقت به حياته لا يخلعها ، ولا يحدث نفسه بالخلاص منها ، والحياة إذا بؤست كانت آلم للنفس وأثقل مؤونة عليها من ثوب ضيق ، أو حمل ثقيل .

إنا لا نخاف الانتحار إلا لأنا نحب الحياة ، ولا نحبها على ما هي حافلة به من الكوارث والمحن إلا لأننا جهلاء أغبياء ، نطمع في غير مطمع ونرجو ما لا يمكن أن يكون ، فمثلنا في ذلك كمثل لاعب القمار يزداد طمعاً في الربح كلما ازداد خسارة ، فلا يزال يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شيء .

إنا لم نأت إلى هذا العالم باختيارنا ، فلم لا نخرج منه متى شئنا ؟ وإنا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدي أحد أن نبقى فيه بقاء الدهر ، فلا يسمى سعينا في الخلاص منه خيانة وغدراً ، أو كفراناً بنعمة الله وإحسانه ؟

إنها هفوة هفاها شيشرون الروماني في ذلك العهد القديم حينما

قال : « إن كان لصاحب الراية في الحرب حق في إلقائها على عاتقه كان للإنسان حق في قتل نفسه » وجاراه المجتمع الإنساني كله على هفوته هذه حتّى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفراده أن يقول له : إن لصاحب الراية الحق كل الحق في إلقائها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

أعجب من ذلك أنهم لا يذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه وافتنوا في تصوير غضبه ونقمته على المنتحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يبتلي عبداً من عبيده ببلية لا تطيب له معها الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يربط بجانبها مدى الدهر ، ولا يبتغي لنفسه طريقاً إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة التي يفارق فيها الحياة عليها فلم يزل يقلب وجوه الرأي في ذلك حتّى اهتدى إلى صورة أعجبه خيالها الشعري ، وهي أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين يبثها فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهر ثم ينزع من أصبعه خاتمه المنسوج من شعرها ويضعه على فمه ويضع يده عليه ويقبله بلهفة شديدة ثم يلقي بنفسه في الماء على هذه الحالة ، فإذا أتت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المحزنة التي مات عليها أثر في نفسها إخلاصه ووفاؤه ، وأسفت على نفسه أسفاً عظيماً ، وألم بنفسها الدم على فعلتها معه ، فلا تزال تذكره طول حياتها وتدب مصرعه ومصيره حتّى تلحق به .

وهنا رنت في أذنه تلك الضحكة العالية التي سمعها منذ ساعة وهي راكبة عجلتها مع زوجها ، فطارد ذلك الخيال من رأسه

واضمحل في مسراه اضمحلال الأبخرة الذاهبة في آفاق السماء ، وعادت له أناته ورويته وقال في نفسه إن من كان مثلها في خيانتها وغدرها ، وصلابة قلبها وقسوته ، لا يبالي ما أقدم عليه من شئونه ، فربما ورد عليها كتابي فأغفلته ثم سمعت بخبر موتي فتنفست تنفس الرحمة والدعة واغتبطت بينها وبين نفسها بانقشاع تلك الغيمة السوداء التي كانت تغشى سماء حياتها ، وأعجبها أنها قد أصبحت آمنة مدى الدهر من أن يذكرها مذكر بخيانتها ، أو يتراءى لها في مسلك من مسالكها شبح تلك الخيانة التي اقترفتها .

ثم أن أنة مؤلمة وقال : « ويل لي من بائس مسكين ! لقد استحال عليّ كل شيء حتى الموت » .

(٧٢)
السعــادة

قال فرتز لاستيفن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل فسار بهما يشق عباب الماء شقاً : رفه عليك قليلاً يا سيدي فذلك أمر قد فات واستبد به من قدر له ؛ وليس لي في فائت حيلة ولا لما قضى الله مرد ، ولو شئت أن أقول لك لقلت : إنه غير جميل بك في فضلك وأدبك ، ووفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك وأنفتها أن تحبس حياتك كلها على إمرأة قد علمت ألا خير لك فيها ، وأنها قد خانتك وخذلتك ، وبلغت بك في الشقاء المبالغ التي لم يبلغها أحد وطعنت قلبك تلك الطعنة النجلاء التي لا يثل منها جريحاً إلا بمعونة من رحمة الله وإحسانه وإنها — وأنت تشقى الشقاء كله في سبيلها — تقضي ساعات ليلها ونهارها بين ذراعي

زوجها هانئة مغتبطة ، غير حافلة بك ولا آسفة عليك ، ولا ذاكرة لك ذمة ولا عهداً ، فأين شرفك وإباؤك ؟ وأين عزة نفسك وأنفتها ؟ وأين ترفعك الذي أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن المهانة والضعة ؟ الحق أقول إني لا أعرف سهماً أخيب من سهمك ، ولا رأياً أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك .

لقد سلبتك هذه المرأة يا سيدي زهرة عمرك ، فحسبك ذلك واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتمتع فيه بما أعد الله لك في هذه الحياة من لذائذ ومتع لا تنفد ولا تبلى ، واطلب السعادة إن أردتها بين أحضان الطبيعة وأعطافها ، وفي كل ما يحمل بساط الأرض وتظلل قبة السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها البؤساء المحزونين فتمسح همومهم عن صدورها ، ودموعهم عن مآقيهم ، وتملأ قلوبهم غبطة وهناء .

أطلب السعادة في الحقول والغابات والسهول والجبال ،— والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، واطلبها في تعهد حديقتك وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، ونقيق الضفادع ؛ واطلبها في مودة الإخوان وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، ففي كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال شريف طاهر

يستوقف النظر، ويستلهي الفكر ويستغرق الشعور، ويحيي ميت النفس والوجدان، ويملأ فضاء الحياة هناء ورغداً.

إنكم تأبون يا أهل المدن إلا أن تشتروا سعادة الحياة بدمائكم وأرواحكم والسعادة حاضرة بين أيديكم لا ثمن لها ولا قيمة، ولكنكم تجهلونها وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا في أحضان النساء، وبين أستارهن وأرائكهن فتبذلون في سبيلها من دموعكم وآلامكم، ما لا قبل لكم باحتماله، فلا تلبثون أن تذبل حياتكم، وتضوى أجسامكم، وتنطفىء جذوة نفوسكم قبل أوانها، فتموتوا أضيع ميتة وأخسرها، لا أملا أفدتم ولا حياة حفظتم.

إنما يشقى في هذا العالم أحد ثلاثة: حاسد يتألم لمنظر النعم التي يسبغها الله على عباده، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى، وطماع لا يستريح إلى غاية من الغايات حتى تنبعث نفسه وراء غاية غيرها فلا تفنى مطامعه، ولا تنتهي متاعبه، ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف لا يفارقه خيالها حيثما حل وأينما سار، وما أنت يا سيدي بواحد من هؤلاء؛ فمن أي باب من الأبواب يتسرب الشقاء إلى قلبك؟.

أنت شاعر يا مولاي، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، فإن أعوزتك تلك السعادة ففتش عنها في أعماق قلبك، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه.

السماء جميلة، والشعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها، ويخترق بنظراته أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي

يديها قدر يتصاعد بخارها فلما دنوا منها هالهم أن رأوا في يدها سكيناً مخضبة بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر ، فعلموا أن الجوع قد أفقدها عقلها ، وأن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها إنما هي رضيعها قد ذبحته وأنشأت تقطع أوصاله بمديتها وتطبخها لتأكلها .

إن كنت سمعت بخبر هؤلاء المنكوبين ، وسمعت أنين المعذبين في السجون وصراخ المرضى في المستشفيات ، وضحك المجانين في المارستانات فرثيت لهم ، وأويت لمصابهم ، فاعلمي أنني أشقى من هؤلاء جميعاً ؛ وأنني أولى منهم برحمتك وإشفاقك وعطفك وحنانك .

لم تبق فيّ بقية تحتمل أكثر مما احتملت ، وربما لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ بي الضعف منتهاه ، وأظلم بصري فما أكاد أبصر شيئاً . فالوداع يا ماجدولين وداع الحياة إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت الأخرى .

« انتهت الرسائل »

(٦٧)

من ماجدولين إلى استيفن

لا أكتمك يا سيدي أني بكيت كثيراً عند قراءة رسائل ولكنني عدت إلى نفسي وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستطفئها الأيام كما أطفأت غيرها من زفرات اليائسين ، وربما علمت بعد قليل

من الأيام أن الله قد خار لك فيما كان ، وأنه قد أعد لك من حيث لا تحتسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التي تندبها وتبكيها .

أنت تعلم يا استيفن أنني فتاة فقيرة وأنك فتى لا مال لك ، أو لا تملك من المال ما يقوم بشأنك زوجاً ووالداً ، فخير لي ولك أن نفترق وأن يسلك كل منا في حياته الطرية التي يعلم أنها تنتهي به إلى سعادة عيشه وهنائه أحببنا ذلك أم كرهنا ، فتناس كل شيء يا صديقي ، وسافر إلى كوبلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك مني أن أكون صديقتك الوفية لك ما حييت ، ولا تحمل في نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد في شيء مما كان وإنما هو رأي رأيته لنفسي ، ولم أستشر فيه إلا عقلي وضميري ؛ فأنا صاحبته والمأخوذة به إن كنت لا بد آخذاً به أحداً ، والسلام عليك من صديقتك التي ترجو عفوك وغفرانك .

(٦٨)

من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيت كل شيء يا ماجدولين ، فاختاري لنفسك في حياتك ما شئت ، وها هي ذي رسائلك عائدة إليك فليس من الرأي بقاؤها عندي بعد اليوم ، وإني أتقبل صداقتك بالصدر الرحب الذي تقبلت به حبك من قبل ، أما النقمة فإني لا أنقم عليك ولا على خطيبك شيئاً ، بل أسأله الله لكما السعادة في حاضركما ومستقبلكما .

(٦٩)

الزفاف

إزدحمت الكنيسة بسكان قرية ولفباخ رجالاً ونساء وظلوا جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت العجلات وهي مقبلة فنهضوا جميعاً على أقدامهم واصطفوا صفوفاً متتالية لاستقبال القادمين، ثم دخل إدوار آخذاً بيد ماجدولين وهي لابسة ثوباً أبيض ناصعاً كأنما قد قدّ من جرم الزهر وعلى رأسها إكليل من الزهر يتلألأ في شعرها الذهبي الجميل، ودخل وراءهما الشيخ مولر وسوزان وأبوها وزوجها واشميد ابن عمة ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل فتاة رأوها في حياتهم فدعوا لها ولزوجها بالسعادة والهناء. وملأوا أرجاء المعبد هتافاً بهما وثناء عليهما، ثم مشيا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القطيفة المزركشة فركع الناس بركوعها، وركع استيفن معهم، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواريه فلم يشعر به أحد، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحسه أحد «اللهم احرسها بعين عنايتك» وأسبل عليها ستر حمايتك، وامنحها السعادة والهناء في نفسها وفي عيشها، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي».

ثم بدأ القسيس يتلو صلاته وجاءت الساعة التي ينطق فيها بكلمته الأخيرة التي لا مردِ لها ولا رجعة فيها، فشعر استيفن أن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ويضرب ضربا يعلو صوته على أصوات

النواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وأغمض عينيه وقبع في أعماق نفسه واستلهم الله الصبر على نكبته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكنيسة خالية مقفرة تعتلج الظلمة في أرجائها وتضرب رياح الليل الباردة في نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حرى كادت تتساقط لها أضلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قضي الأمر وخرجت ماجدولين من يدي ، وأصبحت كفي صفراً من جميع آماني وآمالي ، فما العمل؟ وكيف أعيش؟ وأين أقضي بقية أيام حياتي؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحيا من أجلها؟ ثم خرج هائماً على وجهه لا يعلم أي فج يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أضيق في عينيه من كفة الحابل ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعوين منصرفين من الحفلة زمراً فاختفى بركن مظلم من اركان السور حتى انقطع خفق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرمى البيت بنظرة شزرة ملتهبة لو اتصلت شرارة من شرارها بسقف من سقوفه أو كوة من كواه لأتت عليه في لحظة واحدة ، ثم ما لبث أن رأى النور قد انطفأ في جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ؛ فعلم أنها غرفة العرس ، فلم يتمالك أن ثار من مكمنه ثورة الأسد المهتاج وأخذ يدور حول السور ذهاباً وجيئة وهو لا يعلم لم يدور ، وأين ينتهي؟ حتى وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف أمامها لحظة ، ثم حدثته نفسه باقتحامها فرأى حجراً ضخماً معترضاً في فجوتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه ، ثم انحدر الى الحديقة غير خائف ولا وجل ولا مبال بما أقدم عليه ، وأخذ سمته إلى سلم الدار حتى بلغه فصعده يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل الى باب الغرفة المضيئة فوقف به وأحس أصواتاً من ورائه ، فشعر برعدة تتمشى في جميع أعضائه ؛ وخيل إليه أن قلبه ينحدر في هوة عميقة لا

قرار لها وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونهما حائل ؛ وكأني به وهو يضمها الآن إلى صدره ويلصق فمه بفمها ، ويوسعها لثماً وتقبيلاً فتعطيه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فرنت في مسمعه أصوات الضحكات والقبلات ، وسمعها تقول له فيما تناجيه به « أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » فجن جنونه وحدثته نفسه أن يضرب الباب بقدمه ضربة هائلة تطير بـه ثم يقتحمه عليهمـا فيقتلهمـا ويخضب سرير العرس بدمهما ؛ ثم يقتل نفسه على أثرهما ، واستنصر قوته على ذلك فخذلته ، فوقف بين الإقدام والأحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقاً شديداً ، حتى امتلأ قميصه دماً ، وتناثرت أفلاذ جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بألم ، بل لا يعلم أنه يصنع من ذلك شيئاً حتى أعياه الجهد ، فزلت به قدمه فانقلب إلى أسفل السلم ؛وهو بين الحياة والموت .

ولم يزل في سقطته تلك حتى استيقظت الخادم « جنفياف » مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيفانه فرأته صريعاً في مكانه ، فراعها أمره ، وأدهشها وجوده في هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بثوبه وأظافره فظنته قتيلاً فحاولت أن تصيح فخانها صوتها ، فأكبت عليه لتعلم ما شأنه فأحست رجع أنفاسه ، فهدأت قليلاً ، وعلمت أنه في غشية جديدة فأشفقت عليه ، وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تنضح جبينه بالماء وتمسح صدره حتى استفاق فدار بعينيه حول نفسه فذكر ما كان ورأى جنفياف بين يديه فاحمر وجهه خجلاً وسألها هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا . فاعترف لها بمجمل قصته ، وناشدها الله والمودة أن تكتم عليه ما كان ، فوعدته بذلك فقام يتحامل على نفسه حتى

خرج من المنزل ومشى في طريق قريته .

(٧٠)

الهـــذيان

قالت جوزفين زوج فرتز للطبيب . وكانت تتولى تمريض استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ، وأخاف ما أخاف عليه أن تنزل بعقله نازلة من نوازل الجنون ، فقد أصبح لا ينطق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يرى في يقظته أو في منامه غيرها ، فيتخيلها تارة مقبلة عليه فيبتسم لها ويتهلل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ؛ وأخرى منصرفة عنه فيضرع إليها ويهتف باسمها هتافاً عالياً ويحاول النهوض من فراشه لإدراكها والتشبث بها فهو إما ضاحك أو باك أو هاتف أو ضارع أو مسترحم . ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيـــام أخرى ذهبت النكبة بعقله أو بحياته ، وما أحسب أن شيئاً غير ظفره بتلك المرأة أو اتصاله بها يشفيه من دائه ، فقال الطبيب : لقد خاطرت اليوم بآخر ما في كنانتي من الأسهم ، فسافرت إلى قرية ولفباخ وقابلت ماجدولين على غير سابق معرفة لي بها ووصفت لها حالة المريض في جنونه واستهتاره بها ، وقيامه وقعوده بأمرها ليله ونهاره ، وسألتها أن تزوره زورة واحدة عسى أن تنفعه وترفه عنه بعض ما به ، فأبى زوجها عليها ذلك إباء شديداً ، فلم أزل به أسترحمه وأستعطفه وأنشده الله والمروءة حتى أذعن بعد لأي ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على مضض ، وقد تركتهما الآن يتهيآن للحضور على أثري .

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه وقال : يا للعجب ! لقد قصدته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فما أجدى ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويجرعه بضع قطرات من الدواء .

وإنه لكذلك إذ قرع الباب قرعاً خفيفاً ففتح فدخلت ماجدولين وو راءها إدوار ، فلم يشعر استيفن بهما عند دخولهما ، ثم فتح عينيه بعد قليل ونظر إلى جوزفين وقال لها : أين ثيابي التي أمرتك بإحضارها ؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد ، وهو موعد ذهابي إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي ؟ فأطرقت المرأة واجمة ، وأدارت ماجدولين وجهها حتى لا يرى أحد اصفرارها . فتقدم نحوها الطبيب وسألها أن تدنو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ، فدنت من سريره ووقفت أمام وجهه ، فنظر إليها نظرة ذاهلة ، ثم أدار رأسه وأغمض عينيه ، فعلمت أنه لم يعرفها فنادته باسمه بذلك الصوت الرخيم العذب الذي طالما سمعه من قبل فملك عليه مداركه ومشاعره ؛ فكأن موجة كهربائية اندفعت في جسمه دفعة واحدة ، فانتفض من مكانه وفتح عينيه وتناهض متكئاً على إحدى يديه ، وظل يضرب بيديه على جبهته كأنما يستحيي في ذهنه ذكرى قديمة طال عليها العهد ، ويدير رأسه يمنة ويسرة ويقلب نظره في وجوه الجالسين حتى وقع على ماجدولين ، فأخذ يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ، ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكراً لك يا ماجدولين فقد جشمت نفسك مشقة المجيء إليّ ، وقد كنت على وشك أن أذهب إليك الساعة لولا أن النوم طرقني فغلبني علـى أمري ، فهلمي بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحسب إلا أن أصدقاءنا ينتظروننا الآن في الكنيسة ، وكأنني أراهم ، وقد جلسوا في دهليزها صفوفاً متتالية ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون

حضورنا ، وأرى القسيس يعد لنا وسادتين من القطيفة المزركشة لنركع عليهما أمام المذبح . وكأنني أشم رائحة البخور متصاعدة من الموقد ، وأسمع أصوات النواقيس تقرع قرعاً متتابعاً ، ثم صعد نظره فيها وصوبه وقال لها : ما أجملك يا ماجدولين ، وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي ترتدينه ؛ إنك لا ينقصك الآن غير إكليل الزهر . ثم مد يده إلى أزهار كانت بجانبه فأخذ يضفر منها إكليلاً جميلاً ويتأنق في تنسيقه وتنظيمه ، ثم نظر إلى الطبيب . وقد خيل إليه أنه الشيخ مولر فقال : ائذني يا أبتاه أن أضع هذا الإكليل على رأس ابنتك ؛ فنظر الطبيب إلى ماجدولين نظرة استعطاف يسألها فيها أن ترحمه . وألا تنغص عليه هناءه الذي يتخيله ، فوضع استيفن الإكليل على رأسها . وهي واجمة صفراء كأنما قد انتفضت من كفن وقال لها : أتذكرين يا ماجدولين يوم وضعت على رأسك منذ عامين في ساعة من ساعات أنسنا ولهونا إكليلاً مثل هذا الإكليل فتفاءلنا بذلك خيراً وقلنا : ليس بكثير على الأيام أن يصبح جداً ما لهونا به ، وحقيقة ما حسبناه خيالاً ؟ فها قد صدق اليوم فألنا ، وصحت آمالنا وأحلامنا : فالحمد لله على ذلك وله الشكر على آلائه ونعمائه .

ثم نظر إلى جوزفين وقال لها : إني أشعر بضيق في صدري لا أعلم له سبباً فافتحي هذه النافذة لأستنشق هواء هذا الصباح الجميل ؛ ففعلت ، فأخذ يقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي ذي الطبيعة تهدي إلينا في يوم عرسنا أجمل ذخائرها وأعلاقها ، وهواءها العليل ، وشمسها الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة . فشكراً لها على يدها عندنا ، وشكراً للدهر الذي أنالني أمنيتي وأظفرني بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ؛ ثم التفت فوقع نظره على إدوار فهش له وابتسم في وجهه وقال له : شكراً لك

يا صديقي ، ما أحسب إلا أنك الذي أشرت على ماجدولين بزيارتي في منزلي ولولاك لحال بينها وبين ذلك الحياء الذي لا يفارقها في جميع آناء حياتها ، فامدد إليّ يدك وكن أول من يهنئني بسعادتي من بين أصدقائي فأنت أكرمهم عليّ جميعاً ، وآثرهم عندي ، أتذكر يا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة الصغيرة التي نحن فيها الآن عيش البؤس والشقاء ، وكنا نتساقى من الورد كئوساً تنسينا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ، وكنت لا أجلس إليك مجلساً إلا قصصت عليك فيه شأني مع ماجدولين ، وأبثك وجدي بها ، ورجائي فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إليّ نظرات الهزء والسخرية : إنها قد أقسمت لي يميناً محرجة ألا يفرق بيني وبينها إلا الموت ، وإنها لن تخيس بعهدها أبداً . وإن هذه السحابة السوداء التي تراها متلبدة في سماء حياتي لا تستطيع أن تثبت طويلاً على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحب إله قادر لا يعجزه شأن في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرتها شيء ؟ فها أنت ترى أنني لم أكن كاذباً في تصوراتي وأحلامي ، وأن أماني وآمالي لم تكن كما كنت تظنها خيالات شاعر ، ولا هواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأهوى بفمه إليها ليقبلها فلمع أمام عينيه شعاع خاطف من أشعة الخاتم الماسي الذي يتألق في أصبعها فاضطرب ومر بخاطره مرور البرق منظر ذلك الخاتم بعينه يوم رآه في يدها للمرة الأولى ، وهي واقفة بجانب إدوار في حديقة منزلها فتراخت يده وامتقع لونه وانطفأ ذلك الشعاع الذي كان يلمع في عينيه وارفض جبينه عرقاً وأخذ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فظل يقول بصوت خافت متهدج : لا ... لا ، لا حق لي في تقبيل يدها ، لأنها ليست لي ولا شأن لي عندها ، ثم تناول غطاءه فأسبله على رأسه وأخذ يبكي بكاء شديداً ، ويقول للطبيب :

ليخرجوا عني جميعاً فلا شأن لهم عندي ، ولا شأن لي عندهم ، فاغرورقت عينا ماجدولين بالدموع ومدت يدها إليه كالضارعة وهمت بالركوع بجانب سريره فجذبها إدوار جذباً شديداً فتبعته متثاقلة ، خطوة والتفاتة ، وهي تقول بينها وبين نفسها « وارحمتاه لك أيها البائس المسكين » .

وما انقضى النهار حتى ترك إدوار قرية « ولفباخ » ، وسافر بزوجته إلى «كوبلانس » .

(٧١)

اليـــأس

لبث استيفن في سرير مرضه شهرين كاملين كابد فيهما من آلام النفس والجسم ما قدر له أن يكابده ، ثم أبل قليلاً فهجر فراشه وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ، ينام حيث يجد مضجعاً ليناً أو خشناً ، ويأكل حيث يجد لقمة ، بيضاء أو سوداء ، لا يستقر بمكان ، ولا يأوي إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما يصلح شأنهما ، واستبد به الحزن فدق جسمه ، وغارت عيناه ، واسترسل شعر رأسه ولحيته ، وآضت نضرة وجهه شحوباً، وحمرة خديه اصفراراً ، وأصبح آية السابلين ، وعبرة الغادين والرائحين

وكان لا يمر بكوخ صديقه « فرتز » إلا اتفاقاً ، فإذا مر به خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وناشدوه الله والمودة أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يدركه الملل فيثور ثورة الوحش المهتاج ويفر من بينهم

راكضاً وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيراً ما كان يمر في تطوافه بمنزله الصغير الذي بناه في « جوتنج » وبنى فيه صروح آماله الذاهبة وأمانيه الضائعة فيصرف وجهه عنه ولا يطيق النظر إليه ، وربما انكفأ راجعاً حين يلمح أول شرفة من شرفاته حتى لا يمر به ، ولا يقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأس طريق مشى فيه قدماً لا يقف ولا يتريث ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين يديه مجتمعاً من الناس فيستفيق من ذهوله ويعود أدراجه .

ولقد استمر به المسير يوماً في بعض غدواته حتى وصل في منتصف النهار إلى «كوبلانس » فأخذ يهيم في شوارعها وطرقاتها ، والناس ينظرون إليه وإلى منظره الغريب وشعره المشعث الثائر ونظراته الحائرة المتبددة ويعجبون لأمره .

وإنه لكذلك إذ مرت على القرب منه عجلة فسمع فيها ضحكاً عالياً خيل إليه أنه يعرف نغمته فالتفت فإذا ماجدولين وإدوار فصعق في مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند به إليه وهو يقول : « ما أسعدهما وأهنأ عيشهما ، إنهما يبنيان سعادتهما على أنقاض لقائي » ثم ذهل عن نفسه وظل في ذهوله ساعة فلم يستفق حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتضاحكون ويتغامزون ويشيرون إليه إشارات الهزء والسخرية فرماهم بنظرة شزراء رجفت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الأمام فهالهم منظره وتفرجوا له عن طريقه ، فسار في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهراً جارياً على رأس مزرعة خضراء فجلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار ضعف وجبن ، وما الضعف ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فراراً من ساعة شدة مهما كابد المرء من الغصص والأوجاع فهي ذاهبة ولا رجعة لها بعد ذلك .

وهل يوجد في باب الجهالات أقبح من جهالة الرجل الذي يفضل حياة يموت فيها مائة مرة على موتة سريعة عجلى تريحه من هذه الميتات المتقطعة المتداولة ؟

إني لا أدري لم يضق الرجل بثوبه فينزعه ، ويسمج في نظره منزله فيهجره ويتبرم بصاحبه فيفارقه ، ويثقل على ظهره حمله فيلقى به ، فإذا ضاقت به حياته لا يخلعها ، ولا يحدث نفسه بالخلاص منها ، والحياة إذا بؤست كانت آلم للنفس وأثقل مؤونة عليها من ثوب ضيق ، أو حمل ثقيل .

إنا لا نخاف الانتحار إلا لأنا نحب الحياة ، ولا نحبها على ما هي حافلة به من الكوارث والمحن إلا لأننا جهلاء أغبياء ، نطمع في غير مطمع ونرجو ما لا يمكن أن يكون ، فمثلنا في ذلك كمثل لاعب القمار يزداد طمعاً في الربح كلما ازداد خسارة ، فلا يزال يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شيء .

إنا لم نأت إلى هذا العالم باختيارنا ، فلم لا نخرج منه متى شئنا ؟ وإنا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدي أحد أن نبقي فيه بقاء الدهر ، فلا يسمى سعينا في الخلاص منه خيانة وغدراً ، أو كفراناً بنعمة الله وإحسانه ؟

إنها هفوة هفاها شيشرون الروماني في ذلك العهد القديم حينما

قال : « إن كان لصاحب الراية في الحرب حق في إلقائها على عاتقه كان للإنسان حق في قتل نفسه » وجاراه المجتمع الإنساني كله على هفوته هذه حتى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفراده أن يقول له : إن لصاحب الراية الحق كل الحق في إلقائها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

أعجب من ذلك أنهم لا يذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه وافتنوا في تصوير غضبه ونقمته على المنتحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يبتلي عبداً من عبيده ببلية لا تطيب له معها الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يربط بجانبها مدى الدهر ، ولا يبتغي لنفسه طريقاً إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة التي يفارق فيها الحياة عليها فلم يزل يقلب وجوه الرأي في ذلك حتى اهتدى إلى صورة أعجبه خيالها الشعري ، وهي أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين يبثها فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهر ثم ينزع من أصبعه خاتمه المنسوج من شعرها ويضعه على فمه ويضع يده عليه ويقبله بلهفة شديدة ثم يلقي بنفسه في الماء على هذه الحالة ، فإذا أتت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المحزنة التي مات عليها أثر في نفسها إخلاصه ووفاؤه ، وأسفت على نفسه أسفاً عظيماً ، وألم بنفسها الندم على فعلتها معه ، فلا تزال تذكره طول حياتها وتندب مصرعه ومصيره حتى تلحق به .

وهنا رنت في أذنه تلك الضحكة العالية التي سمعها منذ ساعة وهي راكبة عجلتها مع زوجها ، فطارد ذلك الخيـــال من رأسه

واضمحل في مسراه اضمحلال الأبخرة الذاهبة في آفاق السماء ، وعادت له أناته ورويته وقال في نفسه إن من كان مثلها في خيانتها وغدرها ، وصلابة قلبها وقسوته ، لا يبالي ما أقدم عليه من شئونه ، فربما ورد عليها كتابي فأغفلته ثم سمعت بخبر موتي فتنفست تنفس الرحمة والدعة واغتبطت بينها وبين نفسها بانقشاع تلك الغيمة السوداء التي كانت تغشى سماء حياتها ، وأعجبها أنها قد أصبحت آمنة مدى الدهر من أن يذكرها مذكر بخيانتها ، أو يتراءى لها في مسلك من مسالكها شبح تلك الخيانة التي اقترفتها .

ثم أن أنة موئلة وقال : « ويل لي من بائس مسكين ! لقد استحال عليّ كل شيء حتى الموت » .

(٧٢)
السعـــادة

قال فرتز لاستيفن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل فسار بهما يشق عباب الماء شقاً : رفه عليك قليلاً يا سيدي فذلك أمر قد فات واستبد به من قدر له ؛ وليس لي في فائت حيلة ولا لما قضى الله مرد ، ولو شئت أن أقول لك لقلت : إنه غير جميل بك في فضلك وأدبك ، ووفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك وأنفتها أن تحبس حياتك كلها على إمرأة قد علمت ألا خير لك فيها ، وأنها قد خانتك وخذلتك ، وبلغت بك في الشقاء المبالغ التي لم يبلغها أحد وطعنت قلبك تلك الطعنة النجلاء التي لا يئل منها جريحاً إلا بمعونة من رحمة الله وإحسانه وإنها — وأنت تشقى الشقاء كله في سبيلها — تقضي ساعات ليلها ونهارها بين ذراعي

زوجها هانئة مغتبطة ، غير حافلة بك ولا آسفة عليك ، ولا ذاكرة لك ذمة ولا عهداً ، فأين شرفك وإباؤك ؟ وأين عزة نفسك وأنفتها ؟ وأين ترفعك الذي أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن المهانة والضعة ؟ الحق أقول إني لا أعرف سهماً أخيب من سهمك ، ولا رأياً أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك .

لقد سلبتك هذه المرأة يا سيدي زهرة عمرك ، فحسبك ذلك واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتمتع فيه بما أعد الله لك في هذه الحياة من لذائذ ومتع لا تنفد ولا تبلى ، واطلب السعادة إن أردتها بين أحضان الطبيعة وأعطافها ، وفي كل ما يحمل بساط الأرض وتظلل قبة السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها البؤساء المحزونين فتمسح همومهم عن صدورها ، ودموعهم عن مآقيهم ، وتملأ قلوبهم غبطة وهناء .

أطلب السعادة في الحقول والغابات والسهول والجبال ، والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، واطلبها في تعهد حديقتك وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خرير المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، ونقيق الضفادع ؛ واطلبها في مودة الإخوان وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، ففي كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال شريف طاهر

يستوقف النظر ، ويستلهي الفكر ويستغرق الشعور ، ويحيي ميت النفس والوجدان ، ويملأ فضاء الحياة هناء ورغداً .

إنكم تأبون يا أهل المدن إلا أن تشتروا سعادة الحياة بدمائكم وأرواحكم والسعادة حاضرة بين أيديكم لا ثمن لها ولا قيمة ، ولكنكم تجهلونها وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا في أحضان النساء ، وبين أستارهن وأرائكهن فتبذلون في سبيلها من دموعكم وآلامكم، ما لا قبل لكم باحتماله ، فلا تلبثون أن تذبل حياتكم ، وتضوى أجسامكم ، وتنطفىء جذوة نفوسكم قبل أوانها ، فتموتوا أضيع ميتة وأخسرها ، لا أملا أفدتم ولا حياة حفظتم .

إنما يشقى في هذا العالم أحد ثلاثة : حاسد يتألم لمنظر النعم التي يسبغها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى ، وطماع لا يستريح إلى غاية من الغايات حتى تنبعث نفسه وراء غاية غيرها فلا تفنى مطامعه ، ولا تنتهي متاعبه ، ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف لا يفارقه خيالها حيثما حل وأينما سار ، وما أنت يا سيدي بواحد من هؤلاء ؛ فمن أي باب من الأبواب يتسرب الشقاء إلى قلبك ؟.

أنت شاعر يا مولاي ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك تلك السعادة ففتش عنها في أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه .

السماء جميلة ، والشعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي

أعلم بذلك ، ولكني أخشى عليك أن يتلاقى في مكان واحد من قلبك ذكرى ماضيك ، وهناء حاضرك ، فيصطرعا ، فينغص عليك أولهما ثانيهما ، فلا الماضي تدركين ، ولا بالحاضر تسعدين .

هذا ما أريد أن أقوله لك ، وهذا ما أطلب إليك أن تتعهديه من نفسك وتتولى حراسته من قلبك أن يأتي يوم لا ينفعك فيه تعهد ، ولا انتقاد .

(٨٢)

من ماجدولين إلى سوزان

لا علاقة لاستيفن بهذا الهم الذي أشعر به ، وليس بيني وبينه أكثر مما يكون بين صديقين احتمل أحدهما في سبيل الآخر في عهد من عهوده الماضية أقصى ما يستطاع احتماله من المشقة والمؤونة ، فعرف له الآخر يده ، وشكرها له وجازاه وداً بود ، ومعروفاً بمعروف .

أما هذا الذي تريدين أن تذهبي إليه في كتابك فأقسم لك أني لا أعرف له أثراً في نفسي ، ولا أحسب أن له أثراً في نفسه ، فقد رأيته في تلك الليلة التي قصصت عليك قصتها ، ثم رأيته بعد ذلك مرتين ، فلم أر في نظرات عينيه ، ولا ملامح وجهه ، ولا نغمة في حديثه أثراً من ذلك الحب القديم الذي تعرفينه ، وكل ما يستطيع الناظر إليه أن يلمحه في وجهه تلك المسحة الرقيقة من الحزن التي تتراءى في عينيه حين ينظر ، وفي ابتسامته حين يبتسم وما هو بحزين ولا مكتئب ، ولكنها صورة الألم القديم

قد رسمها الماضي على وجهه ثم ذهب فبقيت هي من بعده دليلاً عليه كما تبقى صورة الجرح بعد التئامه ، فاطمئني يا سوزان ولكن رأيك في اليوم رأيك بالأمس ، ولا يقم هذا البعد الذي بيني وبينك حجاباً بين نفسي ونفسك .

(٨٣)
قلب استيفن

نبه ذكر استيفن ، وعظم شأنه ، وأصبح نابغة من نوابغ الموسيقى ، وانتشر له صيت بعيد في جوتنج وما يليها من البلدان ، ثم امتد صيته إلى كوبلانس ، فزاره في قريته كثير من المغنين والممثلين . واقترحوا عليه تلحين القطع التمثيلية ، وأجزلوا له الأجر عليها ، فلحنها أفضل تلحين وأبرعه ودرت عليه أخلاف الرزق ، وسال واديه بالذهب سيلاً ، وكان أبوه قد مات وورّثه تلك الصبابة من المال التي كانت في يده ، فكان إذا ذهب إلى كوبلانس ليقضي فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة نزل في بيته وزاره فيه أصدقاؤه وخلانه ، والمعجبون بفضله ، والمعترفون بصنائعه وأياديه .

ولقد وجد في تلك الخطة التي انتهجها لنفسه في حياته بعض العزاء عما لقي في ماضيه ، إلا أنه كثيراً ما كان يخلو بنفسه في هدوء الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميع آلامه وهمومه الماضية فيذكر الليلة التي خرج فيها من كوبلانس شريد طريداً لا يجد مواسياً ولا معيناً ، والليلة التي ذهب فيها الى عرس سوزان لرؤية ماجدولين فضربه أحد الزائرين على وجهه سوطاً

فأدماه ، والليلة التي كابد فيها الأهوال العظام في غرفة قريبة ليلة وفاته حتى أشرف على الجنون ، والليلة التي قضاها طريحاً تحت سلم دار ماجدولين حتى الصباح وهي خالية بزوجها في غرفة عرسها تعانقه وتقبله وتقول له : «أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها» ويتراءى له مرة شبح أخيه «أوجين» وهو ساقط في حومة الوغى تحت سنابك الخيل تدوسه وتخوض في أحشائه ، وأخرى منظر ماجدولين وهي جالسة مع إدوار على مقعد حديقتها تناجيه بالحب ويناجيها ، إلى ما بقي من أيام بؤسه ، ولياليي شقائه ، ثم تتمثل أمام عينيه روضة آماله وهي مورقة خضراء يتسلسل ماؤها ويترقرق هواؤها ، ثم يراها وقد عصفت بها ريح الحوادث فصوح نبتها ، وذبل زهرها ، واستحالت إلى قفرة جرداء لا يترنح فيها غصن ، ولا يهتف بها طير ، فيخيل إليه أنه يعيش وحده منقطعاً عن العالم كله ما فيه ، لأن ماجدولين ليست بجانبه ، وأن ما يتمتع به من مجد ومال لا قيمة له عنده لأنها لا تقاسمه إياه ، وأن هذه الألحان التي يضعها والأصوات التي يغنيها إنما هي مأتم يقيمه بنفسه على نفسه وعلى آماله الذاهبة ، وأمانيه الضائعة ، فتمتلىء نفسه غماً وحسرة فلا يجد له سبيلاً سوى أن يتناول قيثارته فيضمها إلى صدره ويبثها هموم قلبه وآلام فؤاده ويبكي ما شاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة في نفسه فيأوي إلى فراشه وينام نوماً طويلاً ثم يستيقظ بارئاً مستفيقاً .

ولم يزل هذا شأنه حتى التقى بماجدولين في تلك الليلة التي قصت هي قصتها على سوزان فاغتبط بمرآها اغتباطاً ممزوجاً ببعض الألم لذكراها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه تجلد واستمسك وكاتم نفسه غصتها فلم تشعر بشيء مما دار في نفسه حتى انصرفت .

وما هي إلا أيام قلائل حتى زاره إدوار في بيته كما وعده واعتذر إليه عن فعلته التي فعلها معه فقبل عذره قبول من لا يرى من قبوله بدأ بل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضي وشؤونه أن حبه لماجدولين لم يكن إلا خدعة النفس ونزعة طائشة من نزعات الشباب ، وأنه قد بدأ يمل بماجدولين ويأجمها فلم يعد يحفل بأمرها ، ولا يفكر في ماضيها ولا حاضرها ، وأصبح ولا هم له إلا أن يجدد صداقته مع رجل قد أصبح من أصحاب الشأن العظيم والمظهر الفخم ، والثروة الطائلة ، فصدقه في زعمه وسكن إليه وذهب في مجاملته والتودد له كل مذهب ، ثم رد له استيفن الزيارة في بيته في اليوم الثاني ورأى ماجدولين وحادثها وتبسط معها تبسط من لا يحفل بحاضرها ، ولا يعني بماضيها ، ثم لم يزل يراها بعد ذلك في منازل بعض أصدقائه ، أو في المحتفلات العامة ، وحدها ، أو مع إدوار فيحسن ملتقاها ، ويؤثرها بعطفه ورعايته ، إلا أنه كان يتجنب جهده أن يجلس معها مجلساً منفرداً أو يتحدث إليها حديثاً خاصاً لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها ونسيان ماضيها ، فلا يحب أن يستثير ذلك ، ولأنه كان لا يزال يمسك في نفسه بعض العتب عليها في غدرتها به فلا يحب أن ترى ذلك في نغمة حديثه ، أو لحظات عينيه ، أنفة وكبرياء وذهاباً بنفسه مذهب من لا يبالي بمن لم تبال به ، ولم ترع له ذماماً ولا عهداً .

وجملة حاله معها أنه كان يجمع لها في قلبه في آن واحد بين عاطفتين مختلفتين عاطفة الرضا ، وعاطفة السخط ، فهو يحبها لا يستطيع مقاطعتها ويجد عليها فلا يريد أن تشعر بحبه إياها .

(٨٤)

قلب ماجدولين

ما زال الملل يأخذ من نفس إدوار حتّى مل بيته واجتواه ، وأنشأ يطلب لنفسه السعادة خارجه بعدما فقدها داخله ؛ فأخذ يتلهى بتلك الشؤون التي يعالج بها فقراء القلوب أمراض مللهم وسآمتهم ، فقامر ثم ضارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض لياليه خارج منزله ، فاشتد ذلك على ماجدولين ، ونال منها منالاً عظيماً ، وساء ظنها بالحياة وما فيها . فقبح في نظرها كل مظهر من المظاهر المادية التي أحبتها هنيهة من الزمان واستهامت بها فعافت المراقص والمحافل وزهدت المظاهر والمفاخر ، وملت كل شيء حتّى ثيابها وزينتها ، وأصبحت لا تفكر ليلها ونهارها إلا في الكلمة التي قالها استيفن في بعض كتبه الماضية «لا تصدقي يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب ، فإن صدقت فويل لك منك فإنك قد حكمت على قلبك بالموت» .

إلا أنها راضت نفسها مع الأيام على مكروهها ، واصطبرت للحالة التي طرأت عليها صبراً جميلاً لا يتخلله تذمر ولا شكوى فقد علمت أن القدر قد جرى في أمرها بما هو كائن ، وأنها قد أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدي الله يمين المحبة والولاء ، فلا بد لها من الوفاء له ، والإخلاص إليه ، واحتمال كل مكروه في عشرته حتّى يقضي الله في أمرهما بقضائه .

وكان يعزيها عن شقائها بعض العزاء أنها كانت ترى استيفن من حين إلى حين ، وتحضر بعض مجالسه ومجتمعاته فتسمع في

حديثه ذلك الأسلوب الشعري البديع . وتلك التصورات السماوية العالية التي طالما سحرتها وملكت عليها قلبها وأهواءها ، وترى تلك الشهرة العظيمة التي تنتشر له شيئاً فشيئاً في أقطار البلاد فتمتلىء نفسها إكباراً ، وإعظاماً ، ولا يملك قلب المرأة من الرجل مثل الشهرة وامتداد الصيت ، وكان يداخلها شيء من إعجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت في عهد من عهود حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ، فتجد في سعادة الماضي وذكراه بعض العزاء عن شقاء الحاضر .

إلا أن أمراً واحداً لم يخطر ببالها ، ولم يدخل في أحاديث نفسها وهو أن تعود إلى حبه بعد ما نفضت يدها منه ، أو أن تكون الصلة التي بينها وبينه صلة حب وغرام .

(٨٥)

من ماجدولين إلى سوزان

قد اطلعت منذ أيام قلائل على سر هائل ليتني لم أطلع عليه وليتني مت قبل أن أعرف منه حرفاً واحداً .

قد أفلس إدوار وباع جميع ما يمتلك ولا تزال عليه بقية من الدين لا سبيل له إلى أدائها ، وهأنذا أعد عدتي لبيع جواهري وحلاي علني أستطيع أن أستنقذ البيت الذي نسكنه ، ولا أدري ما يكون شأننا بعد ذلك ، ولقد فاتحته ليلة أمس في هذا الشأن فراوغني قليلاً ثم اعترف لي بكل شي وقال : إنه إنما أتي من قبل المقامرة أولاً ، والمضاربة آخراً ، وأن طمعه في الثروة

واستهتاره بها هو الذي أفقده إياها ، فعاتبته في ذلك عتاباً لا أظن أنني أثقلت عليه . ولكن أتدرين يا سوزان ماذا قال لي؟ قال : إنه لم يخطىء في حياته إلا في أمر واحد ، وهو أنه تزوج من زوجة فقيرة لا تستطيع أن تمد له يد المعونة في ساعات شدّته ولقد صدق فيما قال ، فليس للرجل الغني أو يتزوج إلا امرأة غنية تلائم نفسه نفسها ، وليس للمرأة الفقيرة أن تتزوج إلا رجلاً فقيراً يشابه عيشه عيشها .

إنني لا أبكي يا سوزان على نفسي ، فقد قضيت أكثر أيام حياتي فقيرة معدمة لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، بل على ذلك الجنين المسكين الذي يختلج في أحشائي والذي سألده غداً للفقر والمتربة والذل والشقاء .

لقد أصبحت لا أسأل الله إلا موتة عاجلة تذهب بي وبه وتريحني وتريحه من شقاء الحياة وعنائها ، والويل لي وله إن عشت بعد اليوم ساعة واحدة .

(٨٦)

الغرفة الزرقاء

مرض إدوار على أثر تلك النكبة التي نزلت به مرضة شديدة كادت تتلف فيها نفسه ، ثم أبل بعض الإبلال فاقترح عليه استيفن — وكان قد لازمه مدة مرضه ، ومد إليه يد المعونة في نكبته — أن يسافر معه إلى «جوتنج» ليفرج قليلاً مما به ، ففعل وسافرت معهما ماجدولين حتى بلغت بهم العجلة ضاحية القرية ،

فاستقبلهم « فرتز » وزوجه وأولاده على ضفة النهر فرحين مغتبطين ، وكانوا على موعد منهم ، فصافح استيفن فرتز وعانقه معانقة الصديق لصديقه ، وقبل جبين جوزفين ، وضم الأولاد إليه وأنشأ يقبلهم ويدير لهم خديه فيقبلونه ويهتفون له ويقولون : لقد طال غيابك عنا في هذه المرة يا سيدي حتى ظننا أنك قد آثرت الإقامة في « كوبلانس » على الإقامة بيننا ، وقال أكبرهم وكان في الثالثة عشرة من عمره — : هأنذا ألبس الرداء الجديد الذي أرسلته إليّ فشكراً لك يا سيدي ، فسأله : هل أصبح يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعد ولا معين ؟ قال : نعم وأستطيع أيضاً أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال : سأرى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، وقال أوسطهم وكان في التاسعة من عمره : لقد بلي حذائي يا سيدي فهل جئتني بحذاء جديد ؟ قال : نعم لقد جئتكم جميعاً بأحذية جميلة ، وقبعات فـــاخرة .

فرح الأولاد وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأمهم يهمسون في أذنها بهذا النبأ الجديد ، وتشبثت بردائه الطفلة الصغيرة وقالت له : لقد ولدت الشاة التي أهديتها إليّ صغيراً أبيض اللون أسود العينين فتعال معي أريك إياه ، فتبسم وضمها إليه وقال لها : سأذهب معك يا فكتورين عما قليل ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها : إنهم يحبونني كثيراً ، وأنا الآن أعيش بينهم كأنني أعيش في أسرتي بين أهلي وقومي ، فارتعدت ماجدولين واصفر وجهها وظلت تقول في نفسها : « لقد أصبح سعيداً بنفسه ، وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بدوني » ثم ركبوا الزورق جميعاً وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصيح استيفن . ها أنذا يا سيدي أنشر الشراع وحدي بلا مساعدة ولا معين ؛

فيقول له : أحسنت يا بني أحسنت ! حتى عبروا النهر إلى الضفة الأخرى ، فاعتمد إدوار على ذراع استيفن ومشوا جميعاً على أقدامهم إلى المنزل ، وكان على كثب منهم ، فتقدّم فرتز وكان معه مفتاح الباب ففتحه . فدخلوا الحديقة ووقع نظر ماجدولين على حائط السور فرأتها مكسوة بغلالة بديعة من أزهار البنفسج تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذي كتبه إليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها إلى إدوار ، وقال لها فيه : إنه قد كسا سور البيت الذي ابتناه لها في جوتنج بأزهار البنفسج التي تحبها ، ثم التفتت فرأت حوض الماء المقام في وسط الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذي قال لها استيفن في كتابه إنه قد أقامه حوله خوفاً على أولادهما من السقوط ثم لمحت في زاوية من زوايا الحديقة كرسياً طويلاً مؤلفاً من مقعدين متقابلين . وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فعجبت من احتفاظه بهذه الآثار التي تؤلمه وتذكره بشقائه الماضي ، ثم قالت في نفسها : ما أحسب أنه تعمد إبقاءها والمحافظة عليها ولكنه تركها رشأنها فبقيت في مكانها على حالها .

وهنا شعرت بتلك الغضاضة التي يشعر بها الذليل في موقف ذله ومهانته ، وظلت تقول في نفسها : إنه ما عفا عنها ، ولا غفر لها سيئتها عنده ، ولا أمسك عن عتابها وتأنيبها ، ولا أعطاها من نفسه هذا الوجه من الرضا ، إلا لأنه يحتقرها ويزدريها ، ويراها أصغر في عينيه من أن يأخذها بذنب ، أو يعتد عليها بسيئة ، وإن هذه النظرة العذبة التي أصبح ينظر بها إليها إنما هي نظرة العزيز المترفع التي يلقيها على البائس الشقي الذي يستحق عطفه ومرحمته ، فأخذ من نفسها هذا الخاطر مأخذاً شديداً ، وأحزنها وملأ قلبها غصة وألماً أنها قد فقدت كل ما كان

لها في قلبه حتّى منزلة الاحترام .

وكان استيفن قد أنشأ في طرف من أطراف الحديقة غرفا أعدها لمنامه وجلوسه ونزول ضيفانه وترك المنزل جميعه لا يطرقه ولا يأوي إليه طلباً لراحة نفسه من آلام الذكرى وهمومها ، فأعد لإدوار غرفة منها ذهب به إليها ساعة وصوله ، وكان إدوار يشكو بقية من الألم في جسمه فما أخذ مضجعه من فراشه حتّى استغرق في نومه وأقبل الليل فعادت أسرة فرتز إلى بيتها ولجأ بستاني الحديقة إلى مخدعه وبقي استيفن وحده مع ماجدولين وهي المرة الأولى التي جلس إليها منفرداً منذ أن افترقا فعادت إلى ذهنه تلك الصورة القديمة التي كان يتخيلها في ماضيه لسعادته وهنائه ، وظل يقول في نفسه : ها هو البيت وها هي الحديقة ، وها هو النبت والشجر ، والليل والقمر ، والسماء الصافية والأشعة المترقرقة ، والنسيم العليل ، والسكون السائد ، وها هو حوض الماء تسبح فيه الأسماك غادية ورائحة ، وها هي ماجدولين جالسة ليس بيني وبينها حائل ولكنني لا أستطيع أن أمد يدي إليها ، بل لا أستطيع أن أملأ نظري منها لأن بيني وبينها على شدة هذا القرب بعد ما بيني وبين ذلك النجم المتألق في أفق السماء .

وظل مستغرقاً في خياله هذا ، حتّى فاتحته ماجدولين الحديث وقالت له : ما أجمل دارك يا استيفن وما أبدع منظرها ، إنها أجمل مما كنت أتوقع ، فخيل إليه أنها تهزأ به وتستهين بآلامه فلا تبالي أن تذكره بها ، فداخله ما لم يملك نفسه معه وقال لها : إن من يعيش في قصر جميل فخم كقصرك الذي تعيشين فيه في كوبلانس لا يعبأ بمنزل صغير كهذا المنزل ، فشعرت أنه يؤنبها

ويعرض لها بتلك الإساءة التي أسلفتها إليه فيما مضى فتألمت في نفسها ألماً ممزوجاً ببعض الغبطة والارتياح ؛ لأنها علمت أنه لايزال يفكر فيها ، ولا يزال يضمر في نفسه بقية من ذلك الحب القديم ، وأرادت أن تتغلغل إلى أعماق نفسه فقالت له : حيثما يجد المرء سعادته في مكان مهما صغر شأنه فهو أجمل القصور وأفخمها ؛ فنظر إليها نظرة منكسرة كاد يقول لها فيها إنه ليس بسعيد ؛ وإنه أشقى إنسان على وجه الأرض ، ثم استردها سريعاً ، فلم تشعر بها وظل صامتاً .

فذهبت معه في الحديث مذاهب أخرى ، حتى مضت قطعة من الليـــل فنهضت من مكانهـــا ، ونهض بنهوضهـــا ، وتمشيا قليلاً في أنحاء الحديقة حتى مرا بسلم الطبقة العليا فقالت له : هل تأذن لي يا استيفن أن أصعد إلى هذه الطبقة لأراها ، وهل تتفضل بالصعود معي إليها ؟ فاضطرب قليلاً ثم قال لها : لك ما شئت يا سيدتي ، وصعد معها ذلك السلم الذي لم تطأه قدمه منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، فمشى إلى الغرفة الأولى وفتح بابها وقال لها : هاهي الغرفة التي كنت أعددتها لجلوسي ودراستي ، ولا حاجة لي بها الآن ؛ فقد اتخذت من بين غرف الحديقة بدلاً منها ، ثم تركها وفتح باب الغرفة الثانية وقال : وهاهي الغرفة التي كنت أعددتها لمقام أبيك رحمة الله عليه أيام كنت أظن أنه سيساكنني في هذا المنزل ويعيش معي فيه . فرأت فرشاً جميلاً وأثاثاً حسناً وأصص زهر وريحان قد يبست وجف ورقها وتناثر في أنحاء الغرفة ، فشعرت بانقباض في نفسها لذكرى أبيها ، واغرورقت عيناها بالدموع ، ثم انتقل إلى الغرفة الثالثة ومد يده إلى مفتاحها ثم استردها وقال بصوت خافت متهدج : عفواً ياماجدولين فإنني لا أستطيع أن أفتح هذه الغرفة لأنها

الغرفة التي كانت معدة لأخي أوجين ، وقد آليت على نفسي أن لا افتح بابها ما حييت ، فأثر في نفسها منظره ، وأكبرت حزنه وألمه ، وقالت له : أحزين أنت حتى اليوم على أوجين يا استيفن؟ قال : نعم حزناً لا يفارقني حتى الموت ، ثم مشى إلى الغرفة الأخيرة ومد يده إلى مفتاحها بهدوء وسكون ففتحها ثم انحرف عنها قليلاً وأطرق برأسه ولم يقل شيئاً ، فألقت عليها ماجدولين نظرة ألمت بجميع ما فيها ، فرأت غرفة جميلة رحبة قد دهنت جدرانها باللون الأزرق ، وبسط في أرضها بساط أزرق ؛ وأقيم في أحد أركانها سرير من النحاس الأبيض مغطى بملاءة حزيرية زرقاء ، ورأت منضدة جميلة قد صفت عليها أدوات زينة النساء ، وخزانة للملابس ، ومرآة كبيرة وكرسياً طويلاً ذا مقعدين ، وبضعة مقاعد أخرى كلها زرقاء اللون ، وقد علتها جميعها طبقة رقيقة من الغبار ، فعلمت أنها أمام الغرفة الزرقاء التي حدثها عنها في بعض رسائله الماضية وقال لها إنه قد أعدها مخدعاً لنومهما ؛ وأنه إنما اختار لها هذا اللون لأنه لون البنفسج الذي تحبه ، فثارت في نفسها تلك الذكرى القديمة ، ومشت ما بين قمة رأسها وأخمص قدمها رعدة شديدة كادت تتزايل لها أعضاؤها ، واشتد خفوق قلبها واضطرابه ، ثم نظرت إليه فإذا هو مطرق صامت ، وإذا دموعه تنحدر على خديه يتبع بعضها بعضاً ، فهالها منظره ، وازدحمت الدموع في عينيها تتبادر إلى السقوط ، فأخذت يده بين يديها وقالت له : ما بك يا استيفن؟ وكأنما قد راعه أن يفضح الدمع سره الذي كان يكتمه منذ عهد طويل ، فاجتذب يده من يدها برفق وقال لها : لقد هاجني ذكر أخي أوجين ، وأشار إليها بالنزول ، فنزلا حتى وصلا إلى مكانهما الأول من الحديقة ، فقالت له : رفه

عليك قليلاً يا صديقي فليس فيما قضى الله حيلة ، ولا لفائت مرد ، ولقد مات أخوك ميتة كريمة لم يمتها أحد قبله ، فليكن صبرك عليه كريماً كميتته ، فرفع رأسه إليها وقال لها : إنني أستطيع أن أنسى كل عهد من عهود حياته الماضية ، ولا أستطيع أن أنسى تلك الأيام التي أحببته فيها وأحبني ، وأخلصت له فيها وأخلص لي ، ولقد جمعت بيني وبينه المصائب مذ كنا طفلين صغيرين ، وألفت ما بين قلبينا الكسيرين حتى أصبحنا قلباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام عيني حتى الساعة تلك الأيام التي قضيناها معاً في مدرسة جوتنج بعيدين عن أبوينا ورحمتهما وعطفهما لأن أمنا كانت قد ذهبت إلى قبرها ، وأبانا كان يقسو علينا ، ولا يحفل بنا ؛ وقد بؤس عيشنا بؤساً يعي به الصغير ويطير له لب الكبير ، وبلغنا في الشقاء المبالغ التي لا يبلغها إلا اليتامى المنقطعون عن الأهل والرحم ، أو أبناء السبيل المشردون في آفاق البلاد ، وكنا نرتدي أرث الثياب ، ونأكل أتفه الطعام ، ولا نحتذي إلا الأحذية المرقعة ، ولا نلبس إلا القلانس المخرقة ، ولا نجد ما نستعين به على إصلاح شأن ملابسنا وأجسامنا ، فكنا نلاقي بسبب ذلك من معلمينا أشد العقاب وأقساه ، فنحتمل الألم بصبر وجلد . ولا نستطيع أن نعتذر إليهم عذراً شديداً ، نقيم به وجهنا لأننا إن فعلنا قد عققنا أبانا وتركنا للألسنة سبيلاً إليه ، وهذا ما لا نحب أن يكون ، وكان طلبة المدرسة في شأننا قسمين ، هازىء لا يزال يسخر بنا ، وراحم لا يزال يتوجع لنا ، ودمعة الراحم كابتسامة الساخر وكلاهما يؤلم النفس ويملؤها غصة وأسى ، فكنا نضيق بالحالين ، ونتألم في الموقفين ، وكثيراً ما كان يأمرنا معلمونا كلما زارهم زائر كريم بالإنزواء في الركن المظلم من أركان قاعة الدرس حتى

لا يخجلوا بنا أمامه فإذا انصرف عدنا إلى مقاعدنا كما كنا ؛ فكنا نجد في نفوسنا من المضض والألم ما لا يعلم سبيله إلا الله ؛ وكان الطلبة يخرجون جميعاً في أيام الآحاد مع المعلمين للتنزه في الأحراش والغابات أو على ضفة النهر أو على سفح الجبل في أزياء جميلة وشارات حسنة ، ما عدانا فقد كان معلمنا يتطلب علينا العلل في ذلك اليوم حتى يأمر بسجننا في بيت الدجاج تبرماً بنا ، واستثقالاً لزينا وهيئتنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا اختلافاً عظيماً فأظل أبكي وانتحب ، ويظل أوجين يلعب ويمرح لأنه كان على صغر سنه أوسع مني صدراً وأكثر احتمالاً ؛ وكان لا يعرف سبيلاً لتعزيتي وتسرية هموم نفسي غير هذا السبيل ؛ فلا يزال يغني ويصيح ويقلد أصوات الحيوان ، ويطارد الدجاج والأوز ويفتن في مجونه ولهوه ، حتى تهدأ نفسي ، ويجف مدمعي ، ولا أرى لي بداً من المضي معه في شأنه ، وكنت أرحمه وأحنو عليه حنو الأم على رضيعها ، فلا أستطيع أن أراه باكياً أو شاكياً أو مستوحشاً أو متألماً ، وكان يخيل إلي أنني لو رأيت دمعة واحدة تجري على خده لقتلت نفسي حزناً وكمداً ، وكثيراً ما كنت أتمارض ساعة الغداء أو أتظاهر بالشبع إن رأيت الطعام قليلاً في أيدينا حتى يستطيع أن يأخذ حظه منه ، فلا أرى على وجهه صفرة الجوع ، وطالما ضممت في الليالي الباردة غطائي إلى غطائه وأسبلته عليه من حيث لا يشعر رحمة به وحنواً عليه ، حتى إذا أصبح الصباح ورآني نائماً بجانبه بغير غطاء ضمني إلى صدره وقبلني ، وقال إنك تقتل نفسك يا استيفن من أجلي !

ولم يزل هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار ، وكان منكوباً مثل نكبتنا فتقاسمنا نحن الثلاثة هذا الشقاء وتعاونا عليه برهة من الزمان حتى فرقت بيننا الأيام .

وهنا اختنق صوته بالبكاء فلم يستطع المضي في حديثه وأطرق إطراقاً طويلاً ثم رفع رأسه ، فإذا عيناه محمرتان من البكاء فألقى على ماجدولين نظرة طويلة دامعة وقال لها : أتدرين يا ماجدولين ماذا صنعت بهذا الأخ الذي كنت أحبه أكثر من كل إنسان في العالم ، وكان يحبني أكثر مما أحبه ؟ قالت : لا أعلم أنك صنعت به شيئاً ، قال : إنني قد قتلته ، فذعرت ماجدولين واصفر وجهها وقالت : إني لا أفهم ما تقول ! قال : كتب إليّ من ميدان القتال أن سرجه بال ممزق يوشك أن يخذله في الميدان ، وأنه في حاجة إلى عشرين فرنكاً ليبتاع بها سرجاً جديداً ، وكنت قادراً عليها فضننت بها عليه ، فانقطع به سرجه أثناء المعركة فداسته حوافر الخيل فمات ، فاستعبرت ماجدولين باكية ، وقالت : وا أسفاه عليه وعلى شبابه الغض وغصنه الباسق النضير ، فحدق استيفن في وجهها تحديقاً وقال لها : وهل تدرين لِمَ ضننت عليه بهذا المال الذي سألنيه ؟ قالت : لا . قال : لإنني كنت لا أملك سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه ليبتاع به السرج الذي يريده ، أو أنفقه في السفر إلى كوبلانس لأراك ، فآثرت رؤيتك على حياته ، فنكست ماجدولين رأسها ، واحمر وجهها حياء وخجلاً ، وظل جسمها يرتعد ارتعاداً شديداً — ثم عاد إلى حديثه يقول : وهل تعلمين ماذا تم لي بعد أن سافرت إليك هذه السفرة ؟ فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً ، فقال : ذهبت إليك في ملعب الأوبرا فلم أجدك فانتظرتك طويلاً فلم تأت فقلقت عليك قلقاً عظيماً ، وذهبت إلى بيت سوزان لأقف على أمرك فرأيت هناك وليمة حافلة فسألت عنها فعلمت أنها عرس صديقتك ، فأبيت أن أذهب دون أن أراك ولو على البعد لحظة واحدة ، ثم انصرف لشأني وكان لابد لي من أن أحتال لذلك احتيالاً ،

فأختلطت بالخدم كأنني واحد منهم وكانت ثيابي أشبه بثيابهم حتى تمكنت من الدخول إلى فناء القصر ، ووصلت إلى باب قاعة الرقص فنظرت من زجاجها فرأيتك ترقصين مع إدوار تلك الرقصة التي كنت تفتحين بها حياتك الجديدة معه ، وبينا أنا كذلك إذ دفع الباب دفعاً شديداً وخرج منه أحد الزائرين فأمرني أمراً لم أحسن القيام به فضربني على وجهي سوطاً لا يزال أثره باقياً على خدي حتى الساعة .

وهنا وضع يده على خده كأنما قد وقع السوط عليه في هذه اللحظة وانفجر باكياً بصوت عال وتركها مكانها ومشى في الطريق الموصل إلى مخدعه فلحقت به عند باب المخدع وتشبثت بردائه ومدت يدها إليه ضارعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعفو عنه يا استيفن ؟ فجذب رداءه منها ، وألقى عليها نظرة شزراء هائلة ، وقال لها : اذهبي أيتها السيدة إلى مخدع زوجك فإنه مريض ، وربما كان في حاجة إليك ؛ ثم دخل مخدعه وأقفل بابه فلبثت في موقفها ساعة باهتة مذهولة ، ثم انصرفت إلى مخدع زوجهـــا .

في هذه اللحظة علمت أنه لا يزال يحبها . ويستهيم بها ، وأنها تحبه حباً يستعبدها ، ويملك عليها كل عاطفة من عواطف قلبها ، وإن قد حيل بينها وبينه إلى الأبد ، فقضت في مضجعها ليلة ليلاء ما يكاد يغرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان ليله بأقر من ليلها .

(٨٧)

من ماجدولين إلى سوزان

لم يبق لي بدّ من أن أعترف لك بكل شيء.

قد أصبحت أحب استيفن حباً لم أضمر له مثله فيما مضى من أيام حياتي، لأنه حب بلا أمل ولا رجاء.

لا، بل أعتقد أنني ما سلوته يوماً من الأيام ولا نسيته، وانني كنت أخدع نفسي وأكذبها حينما ظننت أنني أستطيع أن أحيا بدونه، أو أسكن إلى عشرة إنسان سواه.

إنه لا يزال يحبني ويستهيم بي، ولا يزال يذكر ذلك الماضي كأنه لا يزال حاضراً بين يديه، وقد كنت أجهل ذلك منه، ولا أرى له أثراً في وجهه، حتّى جلست إليه منذ ليال مجلساً منفرداً فجرى بيني وبينه حديث ثارت فيه عواطف نفسه ثورة شديدة، فبكى وتألم وغضب واحتدم، فعلمت أنه لم ينس شيئاً وأنه إنما كان يكاتمني لواعج نفسه وآلامها، ويطوي أحناء ضلوعه على مهجة تتحرق لوعة وأسى، فرثيت له وبكيت لبكائه، وأكبرت فيه تلك العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والإخلاص لامرأة قد غدرت به أقبح غدر، وخانته أفظع خيانة، وملأت عليه فضاء حياته بؤساً وشقاء.

إنه لم يفكر في الزواج حتّى الساعة، ولم يفتح باب الطبقة العليا من منزله التي كان أعدها لسكنانا إلا مرة واحدة منذ ليال. وكان ذلك من أجلي، ولا تزال غرفة العرس باقية على عهدها

كما هي ، ولقد رأيتها فرأيت الغبار منتشراً فوق سريرها ومقاعدها وأستارها فشعرت عند النظر إليها بما يشعر به الماثل أمام جدث بال قد ضمه إليه ، وطوى به بين تربه وأحجاره .

لقد خسرت يا سوزان كل شيء ؛ ولم يبق في يدي من جميع أماني وآمالي أمل واحد ، فقد ضاعت الثروة التي بعت سعادتي بها ، وتنغص علي الزواج الذي وضعت فيه جميع آمالي ، وخرج من يدي ذلك الرجل الذي أحببته أكثر من كل إنسان في العالم ، والذي لا أستطيع أن أحب إنساناً سواه ، ولا أعلم ماذا بقي لي في ضمير الدهر بعد ذلك من مخاوف وأهوال .

إنني أشعر بخوف شديد ترتعد له مفاصلي ، وأظن أن ساعة العقاب قد دنت ، ولقد أذنبت ذنباً عظيماً ، فلا بد أن يكون عقابي عظيماً .

(٨٨)
من ماجدولين إلى سوزان

قد حلت النكبة الكبرى ، فقد تركني إدوار وسافر إلى جهة لا أعرفها سوى ما يقول بعض الناس من أنه ركب البحر من هامبورج إلى أميركا ، ولا أعلم أصدقاً ما يقولون أم كذباً !

وكان استيفن أحسن الله إليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول تلك النكبة به ، وبذل له من المعونة ما لا يبذله أخ لأخيه ، ولا حميم لحميمه ، ولكنه لم يثل من عثرته هذه حتى عاد إلى سيرته الأولى واندفع في المقامرة اندفاع المجنون فما هي إلا أيام قلائل

حتى استدان نيفاً مائة ألف فرنك ولم يبق له بد من السقوط .
فبعت جميع جواهري وحلاي علني أستنقذه من سقطته فلم أصنع شيئاً ، ثم استيقظت صباح يوم من الأيام فذهبت إلى مخدعه فلم أجده ، فسألت عنه الخدم فأخبرني أحدهم أنه لمحه خارجاً في الغلس من باب القصر وبيده حقيبة سفر . ولا يعلم أين ذهب .
ثم علمت بعد ذلك أنه باع القصر إلى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه وهرب وترك سائر الغرماء وشأنهم دون أن يوفيهم ديونهم ؛ فعرفت أنه — وقد فعل هذه الفعلة التي لا يقدم عليها رجل شريف غير عائد من بعدها أبداً ، ولم أر بداً من أن أقوم عنه بوفاء بقية ديونه ضناً بكرامته وإبقاء على شرفه . فبعت في سبيل ذلك البيت الذي ورثته عن أبي في ولفباخ والمزرعة التي بجانبه ، وقد سألت عنه في كل مكان وسافرت للتفتيش عنه في كل جهة أعلم أن له شأناً فيها أو صلة بها فلم أقف له على أثر ، ولا يعلم إلا الله كم ذرفت من الدموع وكابدت من الآلام منذ حلت تلك النكبة بي حتى اليوم ؛ ولقد أرسل إليّ بالأمس مالك القصر الجديد ينذرني بالخروج بعد شهر واحد ، ويلح في ذلك إلحاحاً شديداً ؛ ولا أدري ماذا أصنع ولا أين أذهب ؟ فليس لي قريب آوي إليه ؛ ولا حبيب أرجو معونته . ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما قدر لي أن أقضيه في هذا العالم من أيام حياتي ، وقد انقطع استيفن عن زيارة كوبلانس فأصبحت لا أراه ، ولا أسمع به ولا أعلم سبب انقطاعه ، ولقد حدثتني نفسي كثيراً بالانتحار فحال بيني وبين ذلك أنني إن قتلت نفسي قتلت معي هذا الجنين المسكين الذي لا ذنب له ، وكثير على الأم أن تمد يدها لقتل ولدها ؛ فتعالي إليّ يا سوزان أو ائذني لي أن آتي إليك . لا ، بل لا بد من مجيئك إليّ ، لأنني لا أستطيع أن أحتمل مشقة هذا السفر

البعيد وأنا في الشهر الأخير من حملي .

إني أنتظر كتاباً منك بعد أيام قلائل . فلم يبق لي في العالم من أعتمد عليه أو أرجو معونته سواك .

(٨٩)

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أنتظر أن يأتيني منك كتاب بالأمس فلم يأتني ، فليت شعري ماذا حدث ؟ أمريضة أنت ؟ أم شغلك عني شأن عظيم لا يسمح لك بمراسلتي ؟ أكتبي إليّ على كل حال . فقد بلغت بي الشدة منتهاها ، وانقطع عني الناس جميعاً فلا أرى أحداً من صواحبي ولا من أصدقاء زوجي .

الحياة مظلمة في عيني ولقد بكيت كثيراً حتى جفت مدامعي وفكرة الانتحار تعاودني اليوم أكثر من ذي قبل ؛ فانظري في أمري يا سوزان واكتبي إليّ يا سوزان . اكتبي إليّ أنك قادمة أو ائذني لي بالسفر إليك فإن لم يأتني منك كتاب غداً ، فلا أعلم ماذا سيكون شأني بعد غد .

(٩٠)

من فردريك إلى ماجدولين

أكتب إليك كتابي هذا وسوزان في أشد حالات مرضها وقد

أمرني الطبيب أن أجنبها كل ما يؤثر في نفسها من سرور أو حزن . وقد جنبتها كل شيء حتى الاطلاع على الرسائل التي ترد عليها من صواحبها ، وقد سهرت بالامس ففضضت كتابك الأخير الذي أرسلته إليها عفواً فألممت بطرف من الشدة التي تكابدينها فأسفت لذلك كثيراً ، وهممت أن أطلعها على الرسالة أو أكتب إليك على غير علم منها بالحضور إلينا . ولكنني أشفقت عليها أن يقتلها الحزن لمصابك ، أو الفرح برؤيتك فرجائي إليك أن تنتظري بحضورك بضعة أسابيع حتى أحتال للأمر أو تهدأ عن سوزان علتها ، والسلام عليك من صديقك الذي يرثى لك ويتألم لألمك .

(٩١)

الجـــزاء

قرأت ماجدولين ذلك الكتاب فرابها أمره ووقع في نفسها أن سوزان ليست بمريضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول زوجها ، وإنها إنما تريد مدافعتها والتخلص منها ، فهالها الأمر وتعاظمها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة من صواحبها وصواحب سوزان كانت تختلف إليهـــا من حين إلى حين فسألتها ماجدولين متى كان آخر عهدهما برسائل سوزان ؟ فقالت : قد جاءني منها كتاب بالأمس تهنئني فيه بعيد ميلادي وتقترح عليّ أن أسافر إليها لأقضي عندها في « برلين » فصل الربيع ، فكتبت إليها شاكراً لها تهنئتها ، وأستعفيها من السفر . فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً حتى انصرفت الفتاة فقالت بينها وبين نفسها : لا عتب عليها فيما فعلت ، إنما هي

لإرادة الإلهية تأبى إلا أن تجازيني غدراً بغدر وكفراناً بكفران.

(٩٢)

الدموع الأخيرة

استيقظ سكان قرية ولفباخ في صباح أحد الأيام فإذا بهم يرون تلك الفتاة التي فارقتهم بالأمس وهي أنضر الفتيات وجهاً وأسعدهن حالاً، قد عادت إليهم صفراء متضعضعة شاحبة اللون بالية الثوب، تمشي مشية الذليل المهين، وتقتلع قدميها في مسيرها اقتلاعاً. فعجبوا لأمرها ورثوا لها. ولم تزل سائرة في طريقها حتى مرت أمام ذلك البيت الذي قضت فيه أيام طفولتها وصباها وسعدت فيه بالحب الشريف الطاهر أياماً طوالاً حتى فارقته ففارقها هناء الحياة ورغدها. فخفق قلبها خفقة الألم والحزن. ووقفت أمامه ساعة تقلب نظرها في جنباته وأنحائه، فرأت السكون مخيماً والوحشة سائدة. فعلمت أنه لا يزال مهجوراً وكان باب الحديقة مفتوحاً فحدثتها نفسها بدخولها. فدخلتها وخطت فيه بضع خطوات. فلمحت البستاني وزوجته جالسين إلى أصل شجرة من الأشجار العظام يطبخان طعامهما، فمشت إليهما حتى صارت على كثب منهما. فأنكراها إذ رأياها، ثم عرفاها، فانتفضا من مكانهما انتفاضاً، ومشيا إليها فحيياها، ونظر الرجل إليها نظرة واجمة مكتئبة وقال لها: ما الذي طرأ عليك يا سيدتي؟ فأفضت إليه بجمل قصتها، ثم قالت له: أريد أن أستأجر الغرفة العليا من المنزل لأقضي فيها شهراً أو شهرين. وربما لا أحتاج إليها أكثر من ذلك فاستأذن لي صاحب البيت في أمرها، فاستعبر

الرجل باكياً وظل يعجب لتقلبات الأيام وتبدل صورها وألوانها، ويندب ذلك الزمن الذي قضاه في خدمتها وخدمة أبيها . وما هي إلا ساعة حتى أعد لها الغرفة التي أرادتها . فصعدت إليها فوجدتها باقية على عهدها أيام كان استيفن يسكنها وذكرت ذلك اليوم الذي صعدت فيه إليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبللت تربتها بدموعها حزناً على فراقه ، وظلت تقول في نفسها : قد كنت أبكي قبل اليوم على فراقه ، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق قطيعة دائمة لا واصل لها ، فمن لي بدموع تعينني عليها ؟ وخلت بنفسها تتذكر أيامها وهمومها وأشجانها ، وتذرف آخر ما أبقى لها الدهر في أجفانها من دموع ومن هو أولى بالبكاء والهم منها وقد ضربها الدهر بجميع ضرباته وتنكر لها كل وجه من وجوه الحياة ، فهجرها زوجها وخانتها صديقتها ، ونقم عليها الرجل الذي تحبه ، وفقدت الثروة التي بذلت في سبيلها سعادتها ، وأصبحت لا تستطيع أن تطلب الراحة من طريق الموت ، لأنها لا تستطيع أن تقتل ولدها ولا أن تجدها في الحياة لأنها لا تملك ما تستعين به على عيشها ، وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فلم يحضر غير زوجة البستاني وعجوز من جاراتها القديمات فولدت طفلة جميلة لم تبتسم عند رؤيتها إلا لحظة واحدة ، ثم أخذت تبكيها بكاء الثاكل وحيدها ساعة موته ، وما كادت تنهض من نفاسها حتى جاءها الخبر بأن إدوار قد انتحر شنقاً في فندق من فنادق « شيكاغو » كان ينزل فيه منذ سافر إلى أمريكا ، على أثر ليلة قضاها في المقامرة وخسر فيها كل ما كان بيده من المال ، فسقطت عند سماع الخبر مغمياً عليها وهي تقول : « وايتم ولداه » !

ثم استفاقت بعد حين فإذا هي تمثال صامت ، جامد ، لا تنطق ولا تبكي ولا تشكو ولا تتألم ، ولا تضم طفلتها إلى صدرها

إلا إذا أزعجها بكاؤها ، ولا تطلب الطعام في غداة ولا عشي ؛ ولا تتناول منه حين يقدم إليها إلا المضغة أو المضغتين ؛ ثم ترفع يدها عنه ، وتمر بها الساعات الطوال وهي ذاهبة ببصرها في السماء لا يعلم إلا الله أين تذهب ، ولا اين تتغلغل نفسها في ظلمات هذا الوجود . فإذا ثابت نفسها إليها سألت البستاني هل أتاها كتاب ، أو سأل عنها أحد ؟ فيجيبها أن : لا ، فتعود إلى صمتها وذهولها .

(٩٣)

قلب استيفن

أصبح استيفن بعد انتقاض جرح قلبه عليه في تلك الليلة التي حادث فيها ماجدولين ثائراً مهتاجاً ، ولا يهدأ ولا يستريح ، ولا يسكن إلى نوم ولا يقظة ، ولا يهنأ باجتماع ولا خلوة فبدا له أن يسافر إلى بعض مقاطعات الشمال ليروح عن نفسه همومها وآلامها ، فسافر سفرة طويلة زار فيها كثيراً من المدن واجتمع بكثير من علماء الموسيقى والمغنين وكتاب الروايات الغنائية الذين سمعوا به ولم يروه ، فاحتفلوا به احتفالاً عظيماً وأجملوا مودته وعشرته ، ونظم في تلك السفرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها ولحن كثيراً من أغاني الروايات التمثيلية التي لا تزال خالدة حتى اليوم ؛ فازداد صيته انتشاراً ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى وأجمع الذين سمعوا غناءه أو توقيعه أن سماء ألمانيا لم تطلع فيها منذ مات « بتهوفن » شمس مثل شمسه ، ولا أشرق فيها نجم أسطع من أنجمه . وظل في حياته هذه بضعة أشهر حتى ورد إليه في أحد الأيام كتاب من أحد أصدقائه في كوبلانس يخبره

فيه خبر إدوار . ويقص عليه قصة سفره وانتحاره . فحزن عليه وعلى مصيره حزناً شديداً وبكاه بكاء الوفي الكريم الذي لا يأبى أن ينسى في موقف الموت كل شأن من شئون الحياة . ولم يذكر له في تلك الساعة من ماضيه إلا شيئاً واحداً فقط . وهو أنه كان صديقه ورفيق طفولته وصباه . وأنيس وحدته في أيام بؤسه وشقائه لا يزيد على ذلك شيئاً . ورأى أن لا بد له من العودة ليرى ما حل بماجدولين بعد نزول تلك النكبة بها . وليمد إليها يد معونته في بأسائها التي صارت إليها . فسافر إلى كوبلانس فقضى فيها ليلة . ثم ذهب الى جوتنج وظل يتسقط أخبارها حتى عرف عنها كل شيء ، وعلم أنها تعيش مع طفلتها عيش البؤس والشقاء في الغرفة العليا التي كان يسكنها من بيتها الأول فنسي في تلك الساعة موجدته عليها . واستحال غضبه ونقمته إلى رحمة وشفقة . فركب عجلته في الصباح وسافر إلى ولفباخ حتى بلغها ضحوة النهار ، فأخذ في طريقه إلى بيت الشيخ مولر حتى بلغه : فسأل البستاني عنها فقص عليه مجمل قصتها ، ووصف له حياتها الغريبة التي تحياها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له صمتها وسكونها ، وذهولها واستغراقها . واستبداد الهم بها استبداداً يكاد يقتلها ، ويأتي على حياتها فقال له استأذن لي عليها فإني أحب أن أراها ، قال : إنها تقضي أكثر أوقاتها جالسة على ذلك المقعد الذي كنتما تجلسان عليه معاً في أيامكما الماضية ، وقد تركتها الساعة هناك ، فاذهب إليها إذا شئت ؛ فمشى إليها حتى رآها جالسة على الهيئة التي وصفها الرجل فلم تشعر به حتى صار أمامها فانتفضت إذ رأته انتفاضة تزايلت لها أعضاؤها ، وتساقطت فيها نفسها ، فلم تستطع النهوض من مكانها ؛ وارتج عليها فلم تنطق بحرف واحد ؛ فجلس بجانبها وقلبه يذوب حسرة وأسى ؛ وأخذ

يعزيها عن نكبتها ؛ ويتوجع لما حل بها ويعظها بالصبر على مصابها ، فثابت إليها نفسها شيئاً فشيئاً ، ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت له : قد كنت أحتمل هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك عفوت عني يا استيفن .

فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه إليها وقال لها : أما العفو فإني لا أستطيعه لأنني لا أستطيع أن أنسى ، فاصفر وجهها اصفراراً شديداً ؛ وشعرت أن روحها تتسرب من بين جنبيها قطرة قطرة ونظرت إليه بعينين تترقرق في إنسانيهما الدمع وقالت له : ألا يذكرك يا استيفن هذا المكان الذي نجلس فيه بشيء من ماضينا ؟ قال لا يذكرني إلا بشيء واحد ، وهو أني شهدت فيه ذلك المشهد الذي فجعني في جميع أماني وآمالي ، وقتل قلبي قتلة لم يحيا من بعدها حتى اليوم ، قالت إنك تقسو علي كثيراً يا استيفن ، ولو شئت لرحمتني وأشفقت علي .

فنظر إليها نظرة شديدة ، وقد تمثلت أمام عينيه جميع آلامه الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان ، وفي كل مكان ، تزعم أنها ضعيفة واهنة ، وأن الرجل قوي مقتدر ، فهي تسأله عن كل شيء ، ولا تسأل نفسها عن شيء ، ألم تكوني قاسية علي يوم تركتني في هذا المكان وحدي منذ خمسة أعوام أقاسي أعظم ما قاسى امرؤ في حياته من الهموم والآلام ، وأخذت بيد خطيبك على مشهد مني ومرأى وذهبت به إلى غرفتك دون أن تلتفتي إلي التفاتة واحدة لترى ما حل بي من بعدك ، وهل أنا باق على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقي من رمقي ؟ ألم تكوني قاسية علي أيام أرسلت إليك تلك الرسائل التي ضرعت إليك فيها ضراعة لا تحتملها نفس من نفوس البشر

فأغفلتها وأهملتها . ولم تعبئي بدموعي الغزار التي سكبتها فيها ، ولم تكتبي إليّ إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط كان في يدي من خيوط الرجاء ؟

إنني لا أزال أذكر حتى الساعة أنك سألتني في تلك الرسالة أن أتناسى ذلك الماضي ، وأن تحل الصداقة بيننا محل الحب . فها أنذا قد جئت إليك باسم الصداقة التي تواثقنا عليها منذ ذلك العهد أتفقدك وأتعهد شأنك وأهيىء لك حياة هنيئة تحيينها مع طفلتك في أي مكان تشائين آمنة غدرات الدهر ونكباته ما مد الله في أجلي ، فاستعبرت باكية ومدت يدها إليه ضارعة وقالت : أهذا كل ما بقي لي في قلبك يا استيفن ؟ فهاجت وجده مدامعها . وانبعثت من مكانها في لحظة واحدة جميع عواطف قلبه المختلفة . وظلت تتداول نفسه واحدة بعد أخرى ، فذكر حبه إياها وحاجته إليها . وأنه لا يستطيع أن يعيش سعيداً في الحياة بدونها ، ثم ذكر خيانتها وغدرها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبآلامه ودموعه ، فمحت عاطفة الغضب من نفسه عاطفة الحب ، ولكنه ما لبث أن رأى دموعها المنهمرة على خديها ، ومنظر بؤسها وشقائها ، ويديها الممدودتين بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى عطفه وإشفاقه ، وحدثته نفسه أن يأخذها بين ذراعيه ، ويضمها إلى صدره . ويقول لها : قد نسيت كل شيء يا ماجدولين فتعالي إليّ فإنني لا أستطيع أن أعيش سعيداً في الحياة بدونك . ثم مرت بخاطره مرور البرق تلك الساعة التي وقف فيها على باب غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقي بنفسها بين ذراعي زوجها وتقبله وتستقبل قبلاته ، فثارت في نفسه عاطفة العزة والأنفة التي لم تفارقه في يوم واحد من أيام حياته وقال في نفسه : إنني لا أمد يدي إلى فضلات الرجال ، ولا ألبس أكفان الموتى .

وكذلك ظل يتقلب ساعة بين أيدي هذه العواطف المختلفة ، وهو صامت مذهول ، وماجدولين ناظرة إلى شفتيه نظرة المتهم الى شفتي قاضيه ، تنتظر تلك الكلمة التي تفصل في أمرها ، فترفعها إلى سماء السعادة التي لا سماء فوقها ، أو تهوى بها في مهواة الشقاء التي لا قرار لها ، ثم مدت يدها إلى يده فأخذتها برفق وضمتها إلى صدرها وانشأت تقبلها ، وتبللها بدموعها ، فتناسى في تلك الساعة كل شيء ، وحنا عليها وأهوى بفمه إلى فمها ؛ حتى إذا لم يبق بين تلامس شفتيهما إلا ممر الهواء بينهما إذ سمعها تقول له وهي ترتعد بين يديه «أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » وهي بعينها الكلمة التي سمعها منها منذ خمسة أعوام وهي تقولها لزوجها ليلة زفافها في غرفة عرسها ، فما رنت في أذنه حتى وثب على قدميه وثبة الخائج المختبل ، وانتزع يده من يدها ، ودفعها عنه دفعاً شديداً ، فسقطت تحت المقعد ، وقال لها بصوت شديد قارع : لم يبق لك في قلبي شيء أيتها السيدة منذ ذلك اليوم الذي وضع الكاهن فيه يده على رأسك ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس الكنيسة مؤذنة بانقضاء كل شيء .

ثم تركها مكانها ومشى خافض الطرف ، مطأطىء الرأس ، حتى وصل إلى باب الحديقة فرأى البستاني واقفاً في مكانه فأخرج من جيبه كتاباً مختوماً وقال له : أعط هذا لماجدولين ، ثم ركب عجلته وذهب في سبيله .

فمشى البستاني إليها فرآها ساقطة تحت المقعد تعالج سكرة كسكرة الموت فما زال حتى رجعت إليها نفسها ، فأعطاها الكتاب فأخذته من يده صامتة ، وصعدت إلى غرفتها وقد لبس

وجهها ذلك اللون الذي يغشى وجوه المنذرين بالموت ، فقضت ليلتها ساهرة بجانب مصباحها ، تكتب مرة ، وتذرف دموعها أخرى ، وتضم طفلتها إلى صدرها فيما بين ذلك ، حتّى انصدع عمود الصباح .

(٩٤)

الكارثـــة

قال فرتز لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء خدرها والكون يمسح عن عينيه سنة الكرى : أما أنا فإني باق هنا لأني أريد أن أصطاد لاستيفن نوعاً من السمك قال لي صباح الأمس إنه يحب أن يكون على مائدته اليوم ، واذهبي أنت اليه ، وانتظريه حتّى يستيقظ ، ولا تأخذي معك من الأولاد غير طفلك الرضيع ، وأغلب ظني أنه لا يستيقظ من نومه إلا متأخراً ، فقد عاد أمس من تلك السفرة التي سافرها إلى ولفباخ حزيناً مكتئباً كثير الهم والشجن ؛ فسألته عن شأنه فلم يخبرني بشيء ، فجلست إليه أحدثه أحاديث مختلفة رجوت أن أسرى بها عن نفسه ، فلم يصغ إليّ ، حتّى انتصف الليل ، فأذنني بالذهاب إلى منزلي ، فتركته وهو يعالج النوم فلا يجد سبيلاً إليه . قالت : مسكين هذا الرجل ، ما أحسب أن أحداً شقي في هذه الحياة شقاءه ، أو لاقى فيها ما لاقاه ، والناس يحسبونه سعيداً مغتبطاً ، ويحسدونه على نعمته وهنائه قال : نعم لقد فتك ذلك الغرام القديم بنفسه فتكة لا أحسب أنه بارىء منها أبد الدهر ، فوارحمتاه له ، ووا أسفاه عليه ، اذهبي إليه يا جوزفين وانتظري يقظته ،

واحذري أن يزعجه بكاء طفلك . وربما لحقت بك بعد قليل ، فذهبت حاملة طفلها على يدها حتّى دنت من باب الحديقة فمرت على مقربة منها مرور البرق امرأة مقنعة في أخلاق رثة مشعثة ، تسرع في مشيتها وتتعثر في ذيلها . فعجبت لأمرها ولكنها لم تحفل بها ودخلت الحديقة فراعها أن رأت بين يديها في دهليز الباب سفطاً صغيراً كأن فيه شيئاً يضطرب ، فدنت منه فرأت طفلاً رضيعاً ملفقاً بثيابه يمتص ثدياً صناعية موضوعة بجانبه . فذكرت تلك المرأة التي رأتها منذ لحظة تسرع في مشيتها كالخائفة المذعورة . وقالت في نفسها إنه طفلها ما من ذلك بد قد أثمت فيه وحاولت التخلص من عاره فألقته هنا . وهتفت بالبستاني وكان يعمل في ناحية أخرى من الحديقة فلباها ، فسألته عن السفط ، فدهش إذ رآه وقال : إنه لم يره إلا الساعة ، فلم تر أن تصنع شيئاً دون أن ترى رأي استيفن . فذهبت إلى مخدعه وأشرفت عليه فرأته مستيقظاً في فراشه . فدعاها حين رآها . فدخلت إليه وقالت له : قد كنت أظن أنك لا تستيقظ اليوم إلا ضحوة النهار ، قال إني لم أنم حتّى الساعة . فقصت عليه قصة السفط وأخبرته خبر المرأة المقنعة التي رأتها ووصفت له حالتها في اضطرابها وتخيلها فداخله ريب عظيم . ونفض غطاءه عنه نفضاً وخرج مسرعاً في مباذله حتّى بلغ مكان السفط فرآه ورأى الطفل في مضجعه منه ، ورأى بجانبه هنة بيضاء فتأملها فإذا كتاب مختوم . فأخذوه وقرأ في عنوانه « من ماجدولين إلى استيفن » ففضه بسرعة وأمرّ نظره عليه إمراراً فلمح بين سطوره كلمة « الموت » فصرخ في وجه جوزفين : أين ذهبت تلك المرأة التي حدثتني عنها ؟ قالت : ذهبت في هذا الطريق . وأشارت إلى طريق النهر ! فصرخ صرخة عظمى وقال : إنها

ماجدولين ، وإنها قد ذهبت إلى الموت ، وألقى الكتاب من يده ، وعدا عدواً شديداً حتى أشرف على النهر فرأى خلقاً كثيراً مجتمعين على ضفته ، وكلهم يشير إلى الماء بأصبعه ، فنظر حيث يشيرون فرأى الغريقة تضطرب في أيدي الأمواج ، وتمد يدها ناحية الضفة كالمستغيثة ، وكانت الزوبعة ثائرة ؛ والريح تعصف من كل جانب ، ورأى صديقه فرتز يحثث زورقه إليها لإنقاذها ، فأخذ يهتف ويقول : أدركها يا فرتز ، أنقذها يا صديقي . إنها ماجدولين ، ثم نضا ثوبه عنه وهم بإلقاء نفسه في الماء . فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه فاعترضوا سبيله ، فدفعهم عنه دفعاً شديداً . واقتحم النهر وظل يسبح وراء الزورق . والموج يدنو منه مرة . وينأى به أخرى حتى بلغه بعد لأي فتشبث به ، وكان الزورق قد دنا من مكان الغريقة والغريقة تطفو وترسب . ويتموج شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى .

في هذه الساعة . والقلوب خافقة . والنفوس ذاهلة . والناس يهتفون بالدعاء مرة ويصرخون صرخات الفزع أخرى . ثارت موجة هائلة حول مكان الغريقة كالطود الشامخ . ولبثت لحظة تعج وتصطخب . فصاح الناس بصوت واحد : رحمتك اللهم وإحسانك ، ثم انحسرت فإذا سطح الماء املس منبسط . وإذا الغريقة لا عين ولا أثر .

وما رأى استيفن هذا المنظر حتى جن جنونه . والقى بنفسه في الماء ، وغاص حيث غاصت فاندفع فرتز وراءه ، وهبط مهبطه . وما زالا يرسبان مرة ، ويطفوان أخرى ، ويصارعان في هبوطهما وصعودهما جبابرة الأمواج صراعاً شديداً ، ثم انفرج الماء عنهما ؛ فإذا هما صاعدان يحملان الغريقة فوق

أيديهما ، ولا يعلمان أحية هي أم ميتة ؟ وما زالا يسبحان حتّى بلغا الضفة فطرحاها ، وأكب الناس عليها يتسمعون ضربات قلبها ، ويتلمسون أنفاسها ، واستيفن واقف ناحية يشخص ببصره إليها وينتظر قضاء الله فيها ، ثم انتبه فإذا القوم جاثون من حولها ، وقد رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وأخذوا يهمهمون بصلواتهم فعلم أن الأمر قد انقضى ، فسكن للحادث سكوناً عميقاً لا تتخلله زفرة ولا أنة ؛ وجثا بجانب الجاثين يصلي بصلاتهم ، ويدعو بدعائهم ، فأبكى منظره الناس جميعاً ، وهالهم من سكونه وجموده فوق ما كان يهولهم من جزعه وبكائه ، ثم أخذوا ينصرفون واحداً بعد آخر ، حتّى إذا لم يبق منهم أحد نهض استيفن من مكانه ومشى إلى الجثة فاحتملها على يديه وسار بها إلى المنزل ، وفرتز يتبعه صامتاً . فصعد إلى الطبقة العليا ودخل إلى تلك الغرفة الزرقاء فأضجعها على ذلك السرير الذي كان بالأمس سرير عرسها ، فأصبح اليوم لحدها الأخير .

وجثا على درجات السرير جثي العابد على درجات الهيكل ، وظل على حاله تلك بضع ساعات لا يطرف ولا يتحرك ، حتّى حلت ساعة الدفن فنهض من مكانه وأكب على الجثة وكشف الغطاء عن وجهها ، وتناول من فمها تلك القبلة التي كانت تحرمها عليه الحياة ، حتّى أحلها له الموت ، ثم سقط مغشياً عليه .

(٩٥)
من ماجدولين إلى استيفن

ماذا أصنع بالمال من بعدك يا استيفن ، بل ماذا أصنع بالحياة

جميعها بعد ما فقدتك ، وانقطعت أسباب دنياي من أسباب دنياك .

كنت أرجو أن أعيش لك ، وأن أقدم إليك في مستقبل حياتك هناء أفضل من الهناء الذي كنت ترجوه في ماضيك ، لأكفر بذلك عن سيئتي التي أسلفتها إليك ، فحلت بيني وبين ذلك ، لأنك كنت واجداً عليّ ، وكنت ترى ألا بد لك من الانتقام لنفسك ، فقضيت بذلك عليّ وعلى نفسك في آن واحد ، لأني أعلم أنك تحبني ، وأنك لا تستطيع أن تهنأ بالحياة من بعدي .

كنت أشعر أن بين جنبي ثروة من الحب تملأ فضاء حياتك هناء ورغداً ، وكنت أرى أن في استطاعتي أن أمنحك في كل ساعة من ساعات حياتك من السعادة مالا تستطيع امرأة في العالم أن تمنحه رجلاً في الكثير من الأعوام ، ولم أكن أرجو على ذلك أجراً سوى أن أراك سعيداً بين يدي ، وأن أعيش بجانبك عيش النبتة الضعيفة بجانب الدوحة العظيمة يفيء عليها ظلها ، ويترقرق عليها نسيمها .

لِمَ لم تعف عني يا استيفن ؟ ووالله ما أحببت أحداً في الحياة غيرك ، ولا سكنت نفسي إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع الرجل الذي نقمت مني زواجي منه ، حاسبني عليه حساباً شديداً أن ينتقص ذرة واحدة من ذلك الحب الذي أضمرته لك في قلبي مذ عرفتك ، فلو أنك أغضيت عن هفوتي ، وأذنت لحلمك أن يسع جهلي ، لوجدت بين يديك فتاة عذراء بقلبها وعواطفها لم تمسسها يد ، ولا عبث بفؤادها عابث ، ولا فرق بينها وبين تلك الفتاة القروية الساذجة التي أحببتها في ولفباخ حباً جماً ، وعاهدتها على المحبة والولاء .

كانت الكأس مترعة بين أيدينا ، وكان منظرها جميلاً رائقاً تأخذه العين ، ويهفو له القلب ، وكان جديراً بنا أن نتساقاها قطرة قطرة حتى نأتي على القطرة الأخيرة منها ثم نموت معاً سعيدين بنشوتها كما عشنا سعيدين بتساقيها ، ولكنك كنت شقياً سيء الحظ فدفعتها عنك بقدمك دفعاً شديداً فكسرتها ، وأرقت ما فيها ، فأصبحنا لا نجد لذة الحياة إذا عشنا ، ولا نهنأ بضجعة الموت إذا متنا .

لِمَ لم تعف عني يا استيفن ؟ وقد عاقبني الدهر بذنبك عقاباً أليماً ، وأخذ لك مني فوق ما تستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ، فسلبني الثروة التي فتنتني عنك ، والزوج الذي مالأته على الغدر بك ، والهناء من الحب التي كانت تلسع في قلبي فتضيء ظلمته إلى نار آكلة تحرقه وتضطرم في أنحائه . وتتغلغل في أعماقه وأطوائه . ولم يترك في موضعاً واحداً يسع عقوبتك وانتقامك .

أتدري يا استيفن من هي تلك المرأة التي جلست إليها بالأمس تقرعها وتؤنبها ، وتعد عليها ذنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر ذلها وضراعتها ؟

إنها لم تكن إلا شبحاً من الأشباح الضئيلة المتهافتة ، قد ذهب الدهر بجميع قواها ، وضعضع جميع حواسها ومشاعرها ، ولم يترك لها من آثار الحياة إلا عيناً تنظر ولا ترى ، وأذناً تسمع ولا تعي . ونفساً ذاهلة عن كل شيء حتى عن نفسها . وروحاً تتسرب من بين جنبيها شيئاً فشيئاً ذاهبة في سبيلها .

تلك هي المرأة التي قسوت عليها ، ولم ترحم بؤسها وضعفها فمددت إليها يدك القوية القادرة وضعنتها ، وهي جريحة مثخنة

تلك الطعنة النجلاء التي نفذت إلى قلبها ، وقضت عليها القضاء الأخير .

قد غفرت لك كل شيء يا استيفن ، لأني أحبك . ولأني أعلم أنك ما قسوت عليّ هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبني ، فامنحني عفوك ومغفرتك وأنزلني من نفسك المنزلة التي كنت أنزلها من قبل ، والتي أبذل اليوم حياتي في سبيلها ، فإن كنت لا بدّ آخذاً الموتى بذنوبهم فلا تأخذ بذنبي تلك الطفلة اليتيمة المسكينة التي لا سند لها ولا عضد ، فهي وإن كانت ابنة المرأة التي خانتك ، فهي ابنة المرأة التي أحبتك ، وإني أعيذها بكرمك وفضلك أن تذوق طعم الشقاء على عهدك ، أو أن تحل بها كارثة من كوارث الدهر بين سمعك وبصرك .

أطعمها وتصدق عليها . فطالما أحسنت إلى أبويها من قبلها ، واجعل لها من صدرك الرحيم ملجأ تجد فيه حنان الأم ، ورعاية الأب ، ولا تكلها إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها وتول بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك العقبة الكبرى من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطة تشقى بها أبد الدهر ، واذكر لها دائماً أن أمها كانت تحبها حباً جماً ، وأنها ما آثرت الموت على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش بجانبها ، ولأنها كانت شقية مرزأة فأشفقت عليها أن يطيش إليها سهم من سهام شقائها .

الوداع يا استيفن ، الوداع يا أحب الناس إليّ . اني أفارق هذه الحياة وأنت آخر من أفكر فيه ، وكل ما آسف عليه ، فاذكرني ولا تنسى ، وتعهد بالزيارة قبري من حين إلى حين ، إن كان مقدراً لي أن يكون لي قبر على ظهر الأرض ، واحتفظ بالوديعة التي أودعتك إياها فهي تذكاري الدائم المقيم عندك ، وليهون عليك

فقدي أن روحي قد امتزجت بروحك امتزاجاً لا يغيره فناء ولا بلى ، فلئن فرقت بيننا الأقدار في هذه الدار فسنلتقي في الدار الأخرى لقاء لا ينغصه علينا موت ولا فراق .

الوداع يا استيفن ، وآخر كلمة أقولها لك في آخر ساعة من ساعات حياتي : « إنني أحبك ، وإنني أموت من أجلك » .

(٩٦)

المقـــبرة

أستطاع استيفن أن يستفيق من غشيته في أصيل اليوم الثاني ؛ ففتح عينيه ودار بهما حوله فرأى فرتز وزوجته وأولاده جلوساً تحت قدميه يبكونه ويتوجعون له ، فظل شاخصاً ببصره هنيهة ، ثم التفت إلى فرتز وألقى عليه نظرة طويلة وقال له : هل دفنتموها ؟ فأطرق فرتز واجماً وقال بصوت خافت : نعم يا سيدي منذ الأمس ، قال : وأين طفلتها ؟ قال : قد كفلتها جوزفين ، وهي تتولى إرضاعها مع طفلتها . قال : وأين ذلك الكتاب ؟ قال : ها هو ذا يا سيدي ، وأعطاه إياه ، فأمره بالانصراف إلى منزله ، فانصرف هو وأسرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب ونفسه تتطاير لوعة وأسى ، حتى فرغ منه ، فبكى ما شاء الله أن يفعل ، ثم أخذته كظمة شديدة فذهل عن نفسه وظل مستغرقاً في ذهوله بضع ساعات حتى انتصف الليل ، فثار من مكانه بغتة ، وكأنه طاف بعقله طائف من الجنون ، وخرج إلى الحديقة فمشى في أنحائها يتسمع فلم يشعر بحركة ورأى البستاني نائماً في غرفته

ورأى فأسه على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهدوء وخرج ، فلما استقبل الفضاء أخذ سمته إلى المقبرة حتى بلغها ، وكان الجو مكفهراً والريح عاصفة والسحب تحجب وجه القمر ولا تنحسر عنه إلا حيناً بعد حين ، ثم لا تلبث أن تعود إلى تراكمها وتكاثفها ، وكان يحيط بالمقبرة من جهاتها الثلاث سور متهدم كثير الثغرات والفجوات ؛ ويمتد مع جهتها الرابعة نهر جوتنج ، وقد قامت على ضفته أشجار عالية غبياء تعصف الريح بفروعها وأوراقها عصفاً شديداً فيتألف من حفيفها وخرير ماء النهر الجاري بجانبها صوت غليظ أجش يملأ القلوب روعة ورهبة ، فلم يزل استيفن سائراً في طريقه حتى لاحت له رؤوس تلك الأشجار ، وسمع حفيف أوراقها ، وخرير المياه المتدفقة من تحتها ؛ فخيل إليه أنها أشباح سوداء من الجن تتقدم نحوه في جوف الليل راقصة مترنحة ، وتدمدم بأصواتها المخيفة المريعة ، فمشت في جسمه رعدة الخوف إلا أنها لم تمنعه من المضي في وجهه فاستمر في سبيله حتى دخل المقبرة ، وكان القمر يظهر حيناً فيرشده إلى الطريق ، ثم لا يلبث أن يتوارى في غمار السحب فيقف عن المسير ، فإذا تراءى له رأى على ضوئه نواويس الموتى ، وقد جفت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التي أغفل غارسوها أمرها بعد أن بلي في قلوبهم حزنهم على موتاهم ، ولم يزل يتصفح أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبراً حديثاً لا تزال تربته مخضلة فأكب عليه يتصفح جوانبه فقرأ على أحدها على شعاع ضعيف بعثه إليه القمر في تلك الساعة اسم ماجدولين ، فجثا على ركبتيه وهمهم بصلاة قصيرة ، ثم نهض قائماً على قدميه وتناول الفأس التي أتى بها معه وضرب بها الأرض ضربة شديدة ؛ فلم يسمع لضربته صوتاً لشدة عصف الرياح وزفيفها في تلك اللحظة ؛

ثم أخذ يحفر حتى ضرب ضربة أخرى رنت رنيناً شديداً ملأ أرجاء المقبرة . فاقشعر بدنه ، وبرد دمه في عروقه ، وسقط على ركبتيه ، وسقطت الفأس من يده ، لأن الضربة كانت قد أصابت التابوت الذي يحوي الجثة ؛ فخيل إليه أنها أصابت جمجمة الميتة ، وكان القمر قد برز من وراء غمامته في تلك الساعة وأضاء المقبرة كلها ، فتمثل له أن القبور قد تفتحت جميعها ، وأن الموتى قد أخرجوا رؤوسهم منها ، وأخذوا ينظرون إليه بعيون ملتهبة متوقدة ؛ فطار من رأسه ما بقي فيه من الصواب وترك الفأس مكانها ، وركض ركضاً شديداً ، وهو يتخيل أن الموتى يتأثرونه ويركضون وراءه حتى وصل إلى المنزل متطر... من الكلال ، وهو يصيح « ما كفاني أن قتلتها حتى مثلت بها » وسمع البستاني صيحته فاستيقظ وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ، فقال له : ما بك يا سيدي ؟ فهدأ قليلاً عندما رآه ، ونهض من مكانه وقال له : اتبعني ، فتبعه الرجل صامتاً لا يعلم أين يريد ، حتى بلغ المقبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقاً في جنباتها فمشى إلى ذلك القبر فانحنى عليه ، فرأى أثر الفأس في التابوت ، ولم ير شيئاً مما كان تخيله ، فسكن وهدأ ، وعلم أنه إنما كان في ثورة من ثورات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد التراب إلى ما كان عليه ، فأعاده ، ثم أمره أن يأخذ فأسه ويعود إلى المنزل ففعل ، وجثا هو بجانب القبر يلثم تربته وأثره ، ويلصق خديه بصفائحه وأحجاره ، ويبكي بكاء شديداً حتى اشتفت نفسه ، ثم انصرف لسبيله . وهو يقول : قد كنت أرجو أن أدفن بجانبك يا ماجدولين فلم أوفق إلى ذلك وأحسب أن ذلك مني غير بعيد .

وأصبح منذ ذلك اليوم خائر النفس ، منقبض الصدر ، كئيباً مستوحشاً ، ينظر إلى الحياة وما فيها نظر الغريب النازل بدار لم

يطرقها من قبل ، ولم يأنس بالمقام فيها ، فهو يعد عدته للرحيل عنها ، ثم ما زال يلج به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس . ويتبرم بمرآهم ، ويستنكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف إلى من كان يختلف إليه من أصدقائه ومعارفه . وأبى أن يقابل أحداً من زائريه . وأمسى لا يفارق خياله في نومه ويقظته وذهابه وجيئته منظر ماجدولين : وهي تغرق في النهر ، وغدائرها الذهبية الصفراء طافية على وجه الماء ، ويدها تتحركان حركات الاستغاثة فلا تجد مغيثاً ولا معيناً ، فكان يجد في نفسه لتلك الذكرى ألماً ممضاً يقيمه ويقعده ويذهب براحته وسكونه ، فيصرخ كلما تراءى له ذلك الخيال : نعم أنا الذي قتلتها ، وانتزعت حياتها من بين جنبيها ، وفرقت بينها وبين فلذة كبدها ، فويل لي ، ما أشقاني ! وما أسوأ حظي ! لقد كتب لي أن أقتل بيدي جميع الذين يحبونني على ظهر الأرض ، وأن أبقى من بعدهم شقياً معذباً أبكيهم وأندبهم . لا أستطيع أن انساهم ، ولا يقيض لي أن ألحق بهم .

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام ضيق الصدر ، كثير الضجر ، فخرج من المنزل هائماً على وجهه ومشى في طريق ممهدة بين المزارع لا يدري أين يذهب ، ولا أي غاية يريد ، واستمر به المسير بضع ساعات فإذا هو أمام قرية ولفباخ فهاجت في نفسه تلك الذكرى الماضية ، ومشى إلى بيت الشيخ « مولر » ، فراعه وأدهشه أنه لم ير أثراً لذلك البيت ، ولا لتلك الحديقة ، فلا غرف ولا قيعان ، ولا سقوف ولا جدران ولا أشجار ولا أغراس ، بل رأى أنقاضاً مبعثرة ، وجذوعاً متناثرة ، وأحجاراً ذاهبة ههنا وههنا ، فعلم أن مالك البيت الجديد قد هدمه ، وانتزع أشجار حديقته وأغراسها ، فأحزنه المنظر وآلمه ، ووقف أمامه مطرقاً خاشعاً وقوف العابد أمام محرابه ، وللبلى والدروس جلال

في النفس فوق جلال الجدة والعمران ، وظل على ذلك ساعة ، ثم أخذ يدور بعينيه في تلك العرصات الخالية ويتلمس أثراً من آثار تلك المعالم التي قضى فيها أيام سعادته الأولى ، كما يتلمس الساري في ظلمة الليل نجمة القطب في أطباق السحب فلم يجد شيئاً ، فهتف صارخاً : ماذا صنع الدهر بي وبها ؟ لقد أثكلنيها وأثكلني كل شيء بعدها حتى آثارها ، وظل يناجي تلك الأطلال الدوارس ، ويستنطق نؤيها وأحجارها ويسائلها عن أهلها وساكنيها فلا يجيبه غير الصدى المتردد ، حتى عي بموقفه ، فانصرف ولقلبه وجبات كأنها شقائق برق في السماء لوامع .

(٩٧)

بيتهوفن

انقطعت أخبار استيفن عن كوبلانس وأنديتها ومجامعها ، وكان غرة جبينها المتلألئة ، وشمس جمالها الساطعة ، فتساءل عنه أصدقاؤه ومعارفه وصنائع أياديه وفواضله ، والمعجبون بذكائه ونبوغه ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئاً منها قبل اليوم ، فهالهم الأمر وتعاظمهم ، وأشفقوا أن تختطف يد الدهر من أيديهم تلك الحياة النضرة الزاهرة التي لم يتمتعوا بها إلا قليلا من الأيام ، فمشى بعضهم بذلك إلى بعض ، واجتمع منهم جمع عظيم ضم بين حاشيتيه كثيراً من كبار الموسيقيين ونوابغ الممثلين ورجال الشعر والأدب ، فأجمعوا رأيهم على زيارته في قريته ، وألا يزاولوا به حتى يهجر عزلته ويعود إلى حياته الأولى بينهم ، فكتبوا إليه أنهم وافدون لزيارته غداً ، ثم ركبوا في أصيل اليوم

الثاني عجلاتهم . واستصحب كثير منهم نساءهم وفتياتهم ، وذهبوا إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسماً متطلقاً كأنه لا يضمر بين جنبيه لوعة ولا أسى ، وكأن قلبه لا يذوب بين أضالعه ذوب السبيكة في بوتقتها ، فطمعوا فيه إذ رأوه .

وخيل إليهم أنه قد برِئ مما به أو كاد وأن هذه الصفرة الرقيقة التي لا تزال تلبس وجهه إنما هي أثر من آثار ذلك الماضي سيذهب مع الأيام وكان قد أعد لهم في الحديقة مائدة عظيمة للعشاء ، فجلسوا إليها وكانوا نيفاً وثلاثين رجلاً وامرأة وجلس هو بينهم يحدثهم ويطرفهم بملحه ونوادره ، وتجنب في أحاديثه معهم كل ما يتعلق بكارثته . فلم يجرؤ أحد منهم أن يفاتحه فيها حتى فرغوا من الطعام فتفرقوا في أنحاء الحديقة زمراً زمراً يرتاضون ويسمرون ، حتى مضت قطعة من الليل فاقترح أحدهم أن يؤتى بالبيانو إلى فضاء الحديقة ليوقع عليه من يشاء منهم . فأتى به ، فجلس إليه الموسيقي « فردريك » ووقع عليه لحناً من ألحان الموسيقار العظيم « بيتهوفن » فطرب له السامعون طرباً عظيماً ، وقال أحدهم : لقد كان بيتهوفن الرسول الإلهي الذي بعثه الله إلى البشر ـــ ليخاطبهم بلغته ، فهو الرجل الذي استطاع وحده من دون الموسيقيين جميعاً أن ينطق بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها وأن يكون في غنائه هادئاً كالماء ، وصافياً كالسماء ، وعميقاً كالبحر ، وصادحاً كالطير ، وخافقاً كالنجم ، فقال الموسيقي « مورات » نعم ، ولكنه كان سيء الحظ عاثر الجد ، فقد قضى حياته فقيراً معدماً يسعى إلى الكفاف من العيش فلا يجده وخاملاً مغموراً ، يطلب الشهرة من طريق الفن فلا يظفر بها ، حتى مات شريداً طريداً في وطن غير وطنه ، وبين قوم وأسرة غير قومه وأسرته ، فقال الشاعر : « سيدروف » من منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة فيقصه علينا؟ فقال استيفن : أنا أقصها عليكم ، لأني أعلم الناس به فقد كان أستاذي « هومل » رحمة الله عليه

صديقه الذي عاشره في آخر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده . وكان كثيراً ما يقص علي ذلك التاريخ وهو يبكي بكاء شديداً فأنا أرويه لكم كما كان يحدثني به ثم أقبل عليهم وأنشأ يقول :

لقد قسا الدهر على بيتهوفن قسوة عظمى لم يقسها على أحد من قبله من رجال الفنون والآداب ، فقد وضع للعالم تلك الموسيقى السماوية العالية التي حاكى بها الطبيعة في نغماتها ودناتها ، وصور فيها أدق عواطف القلوب وخوالجها ، فلم يحفل بها الناس كثيراً ، ولم يأبهوا لها ، وكانوا قد ألفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة التي كان يتأنق الموسيقيون الماضون في تنسيقها وتدبيجها تأنق النحات في صنع الدمية الجميلة التي لا روح فيها ، وافتتنوا بها افتتاناً عظيماً فلم يستطيعوا أن يفهموا غيرها أو يهشوا لشيء سواها ، ولم يكن مصابه بجهل الناس إياه واحتقارهم له بأقل من مصابه بحسد حساده من أبناء حرفته ، واضغانهم عليه ، بل لم يكن له مصاب غير هؤلاء ، فهم الذين وقفوا في وجهه ، واعترضوا سبيله ، واستقبلوه حين وقف عليهم بتلك القيثارة الجميلة الرنانة بابتسامات الهزء والسخرية . وذهبوا كل مذهب في النيل منه ، والولع به ، والغض من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضله ومقداره ، وقيمة ما استحدثه في الفن من بدائع المبتكرات وغرائبها ، ولكنهم عجزوا عن الصعود معه إلى ذروته التي صعد إليها فلم يكن لهم بد من أن يثيروا حول كوكبه الساطع المتلألىء في سماء الموسيقى هذه الغبرة السوداء من المثالب والمطاعن ، فلا يرى الناس أشعته ، ولا بمكانها حتى أن «هايدن نفسه وكان أكثرهم اعتدالاً وأدناهم إلى العدل والإنصاف لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن يقول عنه في تقريظه أكثر من أنه « عازف ماهر » فكان مثله في ذلك مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا « جيتيه » إنه « يحسن الإملاء » ! .

ولم يزل هذا شأنهم معه حتى نغصوا عليه حياته . وذهبوا براحة نفسه وسكونها وملأوا قلبه وساوس وأوهاماً ، فساء ظنه بنفسه وأصبح يرتاب معهم كما يرتابون في اقتداره ونبوغه ، ولولا أن صديقه «هومل كان مرآته الصادقة التي يرى فيها نفسه من حين إلى حين لنفض يده من الموسيقي نفض اليائس القانط . ولحرمت الأمة الألمانية هذه القيثارة البديعة الساحرة التي لم يخلق الله لها شبيهاً في العالم منذ خلقت الدنيا حتى اليوم فويل للاشرار الخبثاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا وماذا كان يكون شأن الموسيقى في العالم لو تم لهم ما أرادوا ؟

ولم يستطع بيتهوفن أن يصبر طويلاً على هذه المظلمة الفادحة التي نالته وضاق ذرعه بتلك النظرات المؤلمة التي أصبح الناس ينظرون بها إليه كلما مشى في طريق أو ظهر في مجتمع ، فلم يطق المقام بينهم . ولا العيش فيهم . فظل يتنقل في أنحاء البرد غدواً ورواحاً ، لا يهبط ببلدة حتى يطير به الضجر إلى غيرها ، ولا تطلع عليه الشمس في مكان حتى تغرب عنه في مكان آخر ، وكان له في مبدإ أمره ثروة صالحة يعود بها على نفسه وذوي قرباه . ولكنه كان من أصحاب الملكات الشعرية والشعر والحزم لا يجتمعان في رأس واحد ، فلم يزل به إسرافه وتخرقه حتى أضاعها ، فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير قيثارته ، وقيثارته سلعة كاسدة في سوق الفنون لا يبتاعها منه أحد ، فزهد المجامع والمحافل وعاف المدائن والقرى . وفر بنفسه إلى الغابات والأحراش وقمم الجبال وضفاف الأنهار ، وهنالك في خلواته ومعتزلاته حيث لا يسمع صوتاً غير الطبيعة ، ولا يرى وجهاً غير وجه الله ، أخذ يبث قيثارته آلامه وأحزانه ويسكب مدامعه الغزيرة بين مثانيها ومثالثها ويضع وهو جائع طاو صفر اليد والأحشاء تلك الموسيقى العظيمة التي يعيش الموسيقيون اليوم ببركتها عيش السعداء ، وينعمون في ظلالها بنعمة العيش الرغيد .

وكثيراً ما كان يستمر به المسير حتى يصل إلى جزر الدانوب فيهيم على ضفاف ذلك النهر أياماً طوالاً لا يفترش إلا العشب ، ولا يلتحف غير الطل ، ولا يطعم إلا ما يقذف به إليه النهر من أحيائه ؛ حتى يعثر به صديقه « هومل » فيعود به إلى العمران .

ولم يقنع الدهر منه بذلك حتى رماه في آخر أيامه بالصمم ، فلم يأسف لهذه النكبة كثيراً ، بل قال في نفسه : إني أحمد الله على ذلك فقد كفاني نصف شرور الناس فلعله يكفيني نصفها الآخر ؛ فلا أرى في وجوههم ولا أسمع أصواتهم . ولقد صدق فيما قال ، فقد أخذ الناس يسمونه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقي المجنون ، فلم يسمع شيئاً مما يقولون .

وأصبح منذ ذلك اليوم هادئاً ساكناً لا يشكو ولا يتضجر بل لا يشعر ولا يتألم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن » فعاش فيها وحيداً منفرداً لا يسمع إلا صوت قلبه ولا يصغي إلا لتلك النغمات الداخلية التي تتردد بدون انقطاع في أعماق نفسه ولا يرى أحداً من الناس غير صديقه «هومل» من حين إلى حين ؛ فإذا جاءه طرح عليه ما وضعه من الألحان فيحمله عنه إلى الناس من حيث لا يشعر وهو باق في مكانه لا يفارقه .

وكان الناس قد أصبحوا يألفون أنغامه بعض الشيء ويصغون إليها لا لأن حساده قد هدأوا عنه ، أو انقطعوا عن مناوأته والغض منه ؛ بل لأن للطبيعة سلطاناً فوق سلطان الضغائن والأحقاد ولأن السحب المتلبدة في آفاق السماء لا تستطيع أن تطفىء نور الشمس ، بل تحجب ضياءها عن العيون لحظة من الزمان ثم لا تلبث أن تنقشع عنها فإذا هي ملء العيون والأنظار .

ولم يقض في عزلته هذه زمناً طويلاً حتى ورد عليه كتاب من ابن أخت له في « فيينا » كان قد تبناه في صغره وأحبه كثيراً يقول له فيه : إنني متهم بتهمة عظيمة لا سبيل لي إلى الخلاص منها إلا بحضورك ، فسافر إليه دون أن يقابل صديقه « هومل » ولم يكن معه من المال ما يقوم بنفقات سفره ، فكان يمشي على قدميه حيناً ويركب عجلات النقل أحياناً ، حتى نال منه الجهد ، وأصبح عاجزاً عن المسير ، وكان الطريق الى « فيينا » لا يزال بعيداً فمر ذات ليلة ببيت منفرد في ظاهر إحدى القرى فوقف ببابه وأخذ يقرعه قرعاً خفيفاً فخرج إليه صاحب البيت وسأله : ما شأنه ؟ فقال له : إنني شيخ أصم غريب عن هذه الديار وقد أظلني الليل وعجزت عن المسير فلا أستطيع المضي في سبيلي ، فائذن لي بمضجع آوي إليه بقية ليلتي ، وإن شئت فأمر لي بكسرة خبز أسد بها رمقي فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحمله من بيته أكرم محل وأسماه وكان للرجل إبنتان في سن الشباب فقامتا بين يديه تخدمانه حتى رجعت إليه نفسه فدعوه إلى المائدة فأكل معهم ، ثم مشى إلى مصطلى في أحد أركان القاعة فجلس إليه يصطلي ويجفف ثيابه وكان صاحب البيت من المولعين بالموسيقى والمغرمين بتوقيعها ليلتهم ونهارهم ، فما فرغ من الطعام حتى جلس أمام " يانو وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذي بين يديه حتى وقع على ما يريد به ، فأشار إلى ابنتيه أن تأخذا قيثارتيهما ففعلتا . وأخذوا يعزفون جميعاً بنغمة واحدة فاغتبط بيتهوفن بمنظرهم وإن لم يسمع من غنائهم شيئاً وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك اللحن الذي يوقعونه سلطاناً عظيماً على نفوسهم فقد رآ متأثرين عند توقيعه أثراً شديد ، ورأى صاحبة البيت وخادمتها قد تركتا ما كانتا تشتغلان به من شئون البيت وأعماله ووقفتا للاستماع وقد سكنت أطرافهما وتهلل وجهاهما ، وذهبنا ببصرهما في السماء كأنما تتبعان أثر تلك النغمات في طريقها إلى الملأ الأعلى ، حتى انتهت القطعة فاغرورقت

عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألقت الكبرى بنفسها بين ذراعي أمها وبكت بكاء شديداً .

فنهض بيتهوفن من مكانه ومشى إليهم وقال لهم : إنني لم أستطع ان أسمع شيئاً من ألحانكم أيها الأصدقاء، ولكني استطعت أن أفهم أنها ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت معكم وطربت لطربكم ، ولقد كنت قبل أن تحل بي هذه النكبة التي ترونها أحب الموسيقى حباً شديداً ، ولا يلذ لي في الحياة شيء مثل استماعها ، فهل تأذنون لي أن أنظر في دفتر الموسيقى لأقرأ القطعة التي كنتم توقعونها ؟فأومأوا اليه بالإيجاب فأكب على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها في رأسها حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده وارفض جبينه عرقاً ، ثم أخذ يبكي بكاء شديداً ، فانتبه القوم إليه ، ونهضوا من مكانهم مذعورين ، وأحاطوا به يسألونه ما خطبه ، فأشار بأصبعه إلى عنوان القطعة فلم يفهموا ما يريد ، فقال لهم : إنها قطعتي أيها الأصدقاء وأنا الموسيقي بيتهوفن ، فدهشوا جميعاً ، وظلوا ينظرون إليه باهتين مذهولين ، ثم رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وجثوا بين يديه خاضعتين متخشعين ، وتناولوا يده وأخذوا يقبلونها واحد بعد الآخر ، فكانت هذه الساعة هي الساعة الوحيدة التي ذاق فيها لذة الاحترام في حياته ، وكانت هي بعينها الساعة التي رفرف على رأسه فيها طائر الموت فقد شعر تلك اللحظة بوخزة مؤلمة في جنبه ، فتساقط في مكانه ، فتلقوه على أيديهم ، واحتملوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله يعللونه ويستشفون له ؛ فيستفيق مرة ، ويستغرق في غشيته أخرى ، حتى الصباح .

وكان صديقه هومل قد عرف أمر سفره فتبعه في الطريق التي سلكها وظل يسائل عنه في كل مكان حتى عرف القرية التي وصل إليها ، والبيت الذي نزله ، فصعد إليه فرآه في سكرته التي يعالجها ، فجلس

بجانبه يبكيه ويتوجع له حتى انبه له يبهوفن بعد حين . فابتسم لـــه إذ رآه وقال له : هل جئتني بقيثارتي يا هومل ؟ قال نعم يا سيدي وها هي ذي ؛ فتناولها منه وتناهض متكئا على إحدى يديه ؟ تمكن من الجلوس وأنشأ يوقع على بسمع من القوم لحنه المحزن المشهور « رب لم أشقيتني وما أشقيت أحداً من عبادك » فما أتمه حتى ارتعدت يداه وجحظت الموت ، ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل فأمسك بيده ونظر إليه نظرة طويلة وقال : ألم أكن في حياتي عظيماً يا هومل ؟ قال : بلى وأكبر من عظيم فتهلل بالبشر ووأكبر من عظيم فتهلل وجهه بالبشر وأسبل عينيه وهو يقول « الآن أموت سعيداً ؟ ثم قضى !

وفي اليوم الثاني حمل ذلك الرجل العظيم إلى مقبرة تلك القرية الحقير فدفن فيها ؛ ولم يشيع جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة التي مات بينها ؛ وكان هذا كل حظه من الحياة .

(٩٨)

لحن الموت

ما وصل استيفن في حديثه إلى هذا الحد حتى اصفر لونه ، وتغضن جبينه وأطرق برأسه إلى الأرض ، فانتبه إليه القوم فإذا هو واضع يده على قلبه ، وإذا دموعه تنحدر على خديه متتابعة ؛ فقال له أحدهم : ما بك يا استيفن ؟ فرفع رأسه بعد هنيهة وقال : إنما أبكي على هـــذا الرجل المسكين الذي عاش في حياته شقياً ومات مسكيناً ، ولم يبتسم له الدهر في يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة يكافئه بها على يده التي أسدا إلى هذا المجتمع ، وكأنما قد كتب للعاملين على وجه الأرض جميعاً أن

يعيشوا فيها عيش الأشجار العظيمة في الصحارى المحرقة ، تظلل الناس بوارف ظلها، وهي تصطلي حر الهاجرة وأوارها ، ولو أن القـدر انصفهم ووفاهم أجورهم لماسعد أحد في الحياة سعادتهم ، ولا هنيء فيها هناءهم

صمت القوم جميعاً ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ويرسل في حديثه بعض الزفرات التي تعتلج في صدره .

وإنهم لذلك إذ نهض من مكانه بغتة ومشى بقدم هادئة مطمئنة حتى وصل إلى كرسي البيانو ، فجلس عليه ثم التفت إلى القوم وقـال لهم : هل تأذنون لي أيها الأصدقاء ، وقد قصصت عليكم تاريخ حياة بيتهوفن أن اسمعكم لحنه الأخير الذي وقعه في آخر ساعات حياته ؟ فتهللت وجوههم فرحاً ، وقد ظنوا أنه إنما يريد أن يسري عن نفوسهم تلك الكآبة التي غشيتها منذ الساعة ؛ فقالوا جميعاً : نعم !

فبدأ يوقع ذلك اللحن « رب لم أشقيتني وما أشقيت أحداً من عبادك ويغنيه بصوت ضعيف خافت ، ثم أخذت عواطفه تشتمل شيئاً فشيئاً ، فعلا صوته وأنشأت نغماته تنتشر في أجواز الفضاء ، فسمع القوم تلك الموسيقى السماوية العالية التي لم يخلق الله لها مثيلاً ، والتي هي غاية ما أنتجه العقل البشري ، فأطرقوا برؤوسهم إجلالاً لهذه العظمة المشرفة عليهم من سمائها ، وخيل إليهم أنهم لا يرون بينهم مغنياً يوقع عـلى أوتاره ، بل ثاكلاً متفجعاً يذرف مدامعه ويصعد زفراته ، حتى الموسيقي « مورات » همس في أذن أحد الجالسين بجانبه قائلاً « إن الرجل لا يغني بل يموت وإني أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحترقة » وكان كلما استمر في غنائه اشتد تأثره والتهبت عواطفه ، وتلون صوته بلون الأنين المحزن ، حتى فني عن نفسه وعما حوله ، واستولت عليه

حالة غريبة من الذهول والاستغراق .

وما أتى على النغمة الأخيرة ؛ وكانت أعلى النغمات وأطولها وأذهبها في أجواز الفضاء ؛ حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم وأخـذوا يصفقون تصفيقاً شديداً ويهتفون « ليحيا استيفن » .

وإنهم ليصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له بالحياة الطويلة ؛ يتدافعون إلى مكانه لتهنئته وتمجيده ؛ إذا بهم ينظرون إليه فيرونـه مائلاً برأسه على ظهر كرسيه ، وقد اقشعر وجهه ، وتغيرت سحنته ، وأمسك بكفه على أحشائه ، فطارت ألبابهم ، وطاشت عقولهم ، ومرت بخواطرهم جميعاً مرور البرق تلك الصورة التي مات عليها بيتهوفن في قصته التي قصها عليهم منذ الساعة ؛ فتشاءموا وانقبضت نفوسهم . وأحاط به جماعة منهم فاحتملوه إلى سريره ، وحضر الطبيب ففحصه ثم نظر إليهم نظرة اليأس ، فأطرقوا واجمين مكتئبين و احتاطوا بسريره ينتظرون قضاء الله فيه ، ففتح عينيه بعد ساعة ودار بهـا حوله ونطق باسم « فرتز » وكان حاضراً فلباه ، فنظر إليه طويلاً ثم نطق بـاسم « ماجدولين الصغيرة » فما لبث أن جاءه بها ، فضمها إلى صدره وقبلها قبلة امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ، وظل ينظر بعينيه إلى السماء مرة وإلى فرتز اخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله على ذلك. ثم التفت إلى القوم وقال بصوت ضعيف متهافت : «أشهدكم أيها الأصدقاء أن جميع ما تملك يدي قسمة بين هذين » وأشار إلى فرتز والطفلة ؛ ثم عاد إلى ذهوله واستغراقه وأخـذ يجود بنفسه وظل عـلى ذلك ساعة ، ثم فتح عينيه مرة أخرى ، فرأى القـوم يبكون من حوله ويتفجعون له ، فمرت بشفتيه إبتسامة خفيفة ، كأنما اغتبط بمنظر تلك

العظمة التي تجلّت له في دموع هؤلاء العظماء وأخذ يقلب عينيه فيهم فتقدم نحوه الموسيقي فردريك وكان أعظم القوم شأناً وأكبرهم سناً . وقال له : هل توصي بشيء يا مولاي ؟ فحاول النطق فلم يستطعه . فظل يعالجه حيناً حتى استقاد له . فأنشأ يقول : أوصيك يا فردريك أن تجمع ألحاني كلها في كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب تاريخ حياتي كما يعلمه فرتز ثم تنشره في الناس ؛ وأوصيك يا فرتز أن تدفنني مع ماجدولين في قبرها وأن تتولى شـأن هذه الطفلة الصغيرة وتحميها مما تحمي منه أهلك وولدك ، حتى إذا يفعت زوجتها من الزوج الذي تختاره لنفسها

وأوصيكم جميعاً ألا تحزنوا على موتي . فإنني وإن قضيت حياتي شقياً فها أنتم ترون الآن أنني أموت بينكم سعيداً . وكان هذا آخر ما نطق به . ثم أسلم روحه .

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده . ولكنه أحيا نفسه وسجلها في سجل النفوس الخالدات .

(٩٩)

النهـــاية

أما أسرة فرتز فقد سعد حالهـا ، وأصبحت في نعمة واسعة من العيش لا ينغصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما ماجدولين الصغيرة فقد تولى فرتز شأنها ورباها مع ولده « برنار » الذي رضعت معه في صغره — تربية قروية ساذجة بعيدة عن مفاسد المدنية وآفاتها حتى

شبا فتحابا حباً شريفاً طاهراً فانتهى بهما الأمر إلى الزواج فعاشا أسعد عيشة وأهنأها . وأما المنزل فقد اشترته جمعية الموسيقى الملوكية في برلين وحفظته تذكاراً لاستيفن ، ولا يزال حتى اليوم مزاراً يزوره الناس ويشاهدون فيه آثار ذلك التاريخ الـذي دونه الشاعر « سيدروف » ويرون حديقته ، وأزهار البنفسج المنتشرة في أنحائها ، والحوض المقام في وسطها ، والسياج الدائر من حوله والمقعد الذي جلس عليه استيفن وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والغرفة الزرقاء التي كانت غرفة عرس ماجدولين أولاً ، ولحدها أخيراً ، ومكتبة استيفن ، وقيثارته ، والبيانو الذي وقع عليه في ساعته الأخيرة « لحن الموت » .

فإذا فرغوا من زيـارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فزاروا ذلك القبر الذي دفن فيه الشقيان البائسان ، فيبلل تربته بالدمع منهم من نكب في حياته بمثل نكبتهما أو عاش فيها شقياً كعيشهما .

تمت

فهرست